

- تطوّر مناهج البحث في العلوم الاجتماعيّة.
- مسيرة الفيزياء.
- بحوث العمليات.
- علم حديث أم منهج جديد.



"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزوبده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير : حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير : دكتور أسامه أمين الخولي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٩
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

مناهج البحث العلمي

•••

شخصيات وآراء

•••

مطالعـــات

•••

صدر حديثاً

في مناهج البحث العلمي : وحدة أم تنوع ؟

الحقائق منغمسة في الشبهات
(الحسن بن الهيثم)

التمهيد

«النهج» في اللغة هو الطريق الواضح ، و «البحث» أصلا طلبك الشيء في التراب ، وهو أيضا أن تسأل عن شيء أو أن تفتش عنه .
والبحث في لغتنا المعاصرة مرادف لكلمتين متميزتين في اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، إحداهما تعني التفتيش عن الشيء والثانية تعني البحث العلمي بمعناه الدارج اليوم بها بادئة (re) التي تعني التكرار واستمرار السعي ، وهذه هي السمة التي يعرفها كل من شُغل بهذا النشاط في مجال أو آخر من مجالات المعرفة . ثم إن أي حديث في مناهج البحث العلمي سرعان ما يصبح ، وبحكم الضرورة ، حديثا في فلسفة العلم ، والتي هي سعي الإنسانية المتواصل منذ أقدم العصور لتحسين فهمنا للطبيعة وزيادة رصيدنا من «المعرفة» .

ولكن ما هي المعرفة ؟ المعرفة وأشباه مرادفاتها (العلم ـ الحكمة ـ الحقيقة) كلها كلمات تصف تراكم الخبرات والتجارب وأساليب تنظيمها . فالمعرفة إذن لا تعبر عن شيء بسيط ، وإنما عن خليط محيّر من المعلومات والخبرات والتجارب والتقانات (التكنولوجيا) والنظريات والأيديولوجيات والأخلاق ، يمتد على طول طيف فسيح ، في إحدى نهايته المعطيات الغُفل ، وفي الطرف الآخر سعي نحو الصدق الذي يتجاوز كل فهم البشر ليمتد إلى الإلهام والوحي . ولقد كانت المعرفة قديما «زينة» ولكنها اليوم ـ وبعد أن تلاحم العلم مع التقانة ـ «قوة» ، الأمر الذي يطرح أسئلة فلسفية واجتماعية في نفس الوقت . فعلى الصعيد الفلسفي يثور التساؤل حول ما يمكننا معرفته ، أو عن الطريقة التي نعرف بها ، بينما يطرح المنظور الاجتماعي

مسألة الطريقة التي ننظم بها ما نعتبره معرفة ونصنّفه ونستخدمه .ولقد كانت هناك على مرّ العصور تصنيفات كثيرة للمعرفة ، ولكننا اليوم نميّز عادة بين الإنسانيات والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والتقانة ، ونتأرجح بشكل عام بين موقفين فلسفيين يرى أحدهما أن لكل صنف منها منهج البحث المتميز والخاص به ، بينما يرى الآخر أنها تنحو نحو وحدة المنهج [1] .

وما زال هناك اليوم كثيرون يرون أن قضية المنهج قد حُسمت في العلوم الطبيعية منذ بداية عصر النهضة . إن الإرهاصات الأولى لأرسطو في التمييز بين من يرون أن العالم تحكمه كائنات خارقة للطبيعة (وهم من سماهم theologi) وفئة الساعين لفهم العالم بدلالة أسباب «طبيعية» (Physici) ، والتي بدأت سعي الإنسان لاختزال فوضى العالم الظاهرية إلى مبادىء بسيطة وموضوعية ، قد حفزت طاليس (Thales) وأناكسيمندر (Anaximander) للبحث عن المادة «الجوهر» ، ثم أكسيمنيز (Aximenes) واقليدس (Euclid) وأرشميدس (Archimedes) للتعبير عن الخلافات في النوع أو الصفة بدلالة الأرقام (أي الرياضيات) ، وحتى نصل إلى جليليو ونيوتن ، عبر الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم . ولقد تبنى أرسطو رؤية للمنهج العلمي ، ظلت سائدة في أوربا لأكثر من ألف عام ، تقوم على أساسين : الأول خاص بالهيكل المنطقي ، بدءاً بالمبادىء الأولية أو المسلمات . وصعودا في طبقات الاستنتاج المنطقي الصارم ، وصولا إلى النتائج . والثاني خاص بالاجرائيات ، بدءاً بالمشاهدة الدقيقة ثم استنباط التعميمات في سلم تتصاعد درجاته حتى نصل إلى المبادىء الأولية . وتعني هذه الرؤية أن العالِم يكتشف بالاستقراء ثم يقيم بناء معرفته في كيان استنتاجي ، هو العلم [2] . ولقد ظل العالم الغربي ، حتى القرن السابع عشر وظهور أفكار فرنسيس بيكون ، أسير هذه الرؤية الساكنة الجامدة التي تكاد تقدّس المبادىء الأولية (والتي تبين فيها بعد خطؤها) ، والتي تؤكد على استخلاص العموميات من المعطيات الإمبريقية ، لا استخدامها لاختبار صحة النظريات . ولكن العلماء العرب كانوا قد تخلصوا من إسار الرؤية الأرسطية قبل هذا بثمانية قرون تقريبا . فقد استنكر البيروني احترام الناس المبالغ فيه لآراء أرسطو ، وأكد أنه لم يكن ـ على أحسن الفروض ـ سوى منظّر . أما ابن الهيثم فقد صاغ الرؤية الجديدة للمنهج العلمي في شئون الطبيعة بوضوح أكبر عندما قال :

«إني لم أزل منذ الصبا مرتابا في اعتقادات الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة بما تعتقده من رأي ، حتى رأيتني أتشكك في جميعه . مؤمنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه هو من جهة السلوك اليه . فلما اكتملْت وتهيأت لإدراك الأمور العقلية ، انقطعت إلى طلب معدن الحق ووجهت رغبتي وهمّي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتون ، فبعثت عزيمتي إلى تحصيل الرأي المقرّب إلى الله جل ثناؤه ، المؤدي إلى رضاه ، الهادي إلى طاعته وتقواه . . . . واستقر عندي أن

---

(١) انظر على سبيل المثال ، لا الحصر :

Paul Sayther,Toward one Science: The Convergence of Traditions (New York, St. Martin's ress, 1978).

Joseph Margolis: Science Without Unity: Reconciling the Human and Natural Sciences (Oxford, Blackwell, 1987)

(٢) لقد كان أحد المبادىء الأولية هو أن الأجسام تتحرك نحو مكانها «الطبيعي» ، بينما استنبط من المشاهدة أنها تسقط الى الأرض . وهكذا ، فان أحد التعميمات هو أن مركز الأرض هو المكان الطبيعي للأجسام .

ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ، ولا أشد قربى الى الله ، من إيثار الحق وطلب العلم ، فخضت إلى ذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وعلوم الديانات ، فلم أحظ منها بطائل ، ولا عرفت فيها للحق منهجا ، ولا إلى الرأي اليقيني مسلكا متجددا ، فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء جوهرها الأمور الحسيّة ، وصورتها الأمور العقلية ، فهي تبنى بالمعقول وتقوم على المحسوس»

إن هذا التأكيد على الموضوعية والتجرد من الهوى الشخصي هو ما تبلور كمنهج علمي مع بداية عصر النهضة في أوربا ، ممثلا في أركان ثلاثة ، وصفها برتراند راسل في إيجاز بليغ بأنها :

(١) استناد تقرير «الحقائق» العلمية إلى المشاهدة ، لا إلى سلطة من يقررها من الأفراد أو المراجع ، أو مكانتهم .

(٢) عالم الجماد منظومة تخضع كل التغيرات فيها لقوانين طبيعية

(٣) الأرض ليست مركز الكون ، والإنسان ليس هو الغرض من وجودها ، إذ أن «الغرض» من وجود الأشياء مفهوم بلا فائدة في العلم .

ولقد ردّد فرنسيس بيكون هذه الأفكار عندما دعا إلى اعتبار الملاحظة وحدها الطريق الصحيح للفهم والتوصل إلى الحقيقة . ونجح جاليليو ، عن طريق قدراته الرياضية ، في التوفيق بين الموقفين عندما أقر باستحالة اختبار المبادىء الأولية اختبارا مباشرا ، بينما أكّد دور التجربة في اختبار التوقعات القائمة على هذه المبادىء . ولعل الانجاز الهام لجاليليو هو إقامته التوازن بين ما تمكن ملاحظته وبين المبادىء الأولية ، التي نسميها اليوم «النظريات» ، فإن اتفق ما نلاحظه مع ما نتوقعه من تطبيق النظرية يمكننا القول باجتياز هذه الأخيرة للاختبار . ومنذ ذلك الحين ونحن نتقبل فكرة أن البحث العلمي يولد النظريات ويختبر صدقها ، وأن ممارسته هي في التفاعل المستمر بين النظرية والتجربة .

ومع انتشار هذا النهج ظهر القانون في العلوم الطبيعية إلى جانب النظرية . والقانون ـ على عكس النظرية ـ لا يساعد على «فهم» العالم ولا يسمح بالتنبؤ بما سيقع ، إذ أنه مجرد وصف مركّز لما نشاهده ، يصاغ عادة في أسلوب رياضي كمّي . وهكذا ، فإن فهم القانون يحتاج إلى نظرية لتفسير ما يسجله القانون من مشاهدات . وعلى مرّ قرنين تقريبا من الزمان تبلور رصيد طيب من قوانين الطبيعة ، مثل حفظ المادة ، وحفظ الطاقة ، القائلين بأن هناك في الكون أشياء لا تخلق ولا تفنى ، وإنما تتغير أشكالها وصفاتها .

ولقد أثار قانون حفظ الطاقة في القرن الماضي ، ومع تطور الآلات المحركة البخارية بالذات ، الاهتمام بظاهرة اللاانعكاسية (irreversibility) في العمليات التي تحدث في الطبيعة . وأدى هذا إلى صياغة واحد من أخطر قوانين الفيزياء في ذلك القرن ، ألا وهو القانون الثاني للديناميكا الحرارية [٣] ، وإلى بلورة مفهوم الإنتروبيا (entropy)

---

(٣) قال الكاتب البريطاني لورد سنو (C. P. Snow) في كتاب شهير له صدر في منتصف الخمسينات عن الانفصام الثقافي ، إن من لا يعرف هذا القانون لا يصح أن يعتبر نفسه مثقفا .

الذي يقيس اتجاه الأحداث في الطبيعة نحو حالة لا مفر منها من السكون والخمول . وهكذا صاغ كلاوسيوس عام ١٨٥٦ واحدا من أخطر المقولات في ذلك القرن هي :

«طاقة الكون ثابتة وإنتروبيا الكون تسير نحو التأويج»

وليس من غريب القول تقرير أن هذه صياغة علمية لأن للعالم تاريخا ، فهذا أمر مسلّم به ، ولكن الصدمة جاءت عندما أشارت هذه المقولة الى أن هذا التاريخ هو تاريخ الانحلال والخلل وتلاشي التميز بين الأحوال المتباينة . وهكذا يصبح مفهوم الزمن انحلالا ، وتاريخنا سلسلة مستمرة من الكوارث !! ولكن هذه الرؤية لم تدم طويلا لأنها أسّست على افتراض أن الكون نظام منعزل عما حوله ، مغلق على نفسه ولا يتفاعل مع أي شيء حوله ، ولأن شكوكا قوية نشأت منذ اللحظة الأولى حول انطباقها على الأنظمة الحية .

● ● ●

وفي قرننا هذا ، وعندما ثار الجدل حول ما إذا كانت أنشطة بحثية أخرى في شئون النفس البشرية والمجتمعات البشرية مما يستأهل أن نطلق عليه اسم «العلم» ، عاد المشتغلون بفلسفة العلوم إلى تأكيد ما قاله فرنسيس بيكون من عدة قرون في شأن اخضاع النظرية الى الاختبار الصارم ، واعتبار هذا الاختبار القول الفصل في شرعية تسمية مثل هذه الأنشطة علوما . وهنا ظهرت مدرستان مختلفتان : «ردولف كارناب Rudolf Carnap» يرى أن مفتاح الموقف هو في الأفكار الخاصة بالتحقق والاستقراء . والنظرية فيما يرى ، هو وأتباعه ، تكون علمية حقا عندما يمكن التحقق منها عن طريق المشاهدة الإمبريقية . وقاده هذا إلى محاولة صياغة منطق للاستقراء (inductive logic)[٤]. إلا أنه تبين أن هذه مهمة بالغة المشقة ، محفوفة بالمزالق المنطقية . وانتهى الأمر إلى تسليم كثيرين بأن هذا المنطق يعجز عن استيعاب ما يدركه الإنسان بالفطرة في شأن ما يعتبر تعزيزا لنظرية ما . أما كارل بوبر (Sir Karl Popper) فقد ركز على نقض النظرية ، بدلا من تأكيدها[٥] .

ودعا إلى أن تكون مهمة المشتغل بالعلم هي السعي لتخطئة النظريات لا لتأكيدها[٦] . وهكذا تكون أفضل النظريات هي تلك التي تجتاز أكثر الاختبارات صرامة . ولكن هذا يعني أننا سننبذ فكرة البحث عن سند لأية فكرة يتجاوز ما تحت أيدينا من شواهد في لحظة ما ، ودون أن نكون في ولع يبرر القول بصدقها أو حتى احتمال ذلك . إن الأمر لا يتجاوز مجرد تقرير أنها قد اجتازت اختبارات دقيقة . ومن الواضح أن السير في هذا الطريق إلى آخر مداه

---

(٤) R. Carnap & R. Jeffrey, Studies in Inductive Logic and Probability (Berkley, University of California Press, 1972.

(٥) Karl Popper: The Logic of Scientific Discovery (Hutchinson, 1959).

(٦) قد نجد صدى لهذا في مقولة ابن الهيثم : «الواجب على الناظر في كتب العلوم ـ اذا كان غرضه معرفة الحقائق ـ أن يجعل نفسه خصما لكل من ينظر فيه ، ويجيل فكره في متنه ، وفي جميع حواشيه ، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه .

سوف ينفي أن للنشاط العلمي قيمة ، بينما نحن نطبق ما يخلص إليه وبنجاح متواصل ومتصاعد ، وبالذات في التطبيقات التقانية للنظريات والقوانين العلمية . والأكثر من هذا ، هو أن صياغة بوبر نفسها ما زالت ترتكز على الاستقراء الذي سعت للابتعاد عنه ، إذ ما فائدة تعريض النظرية للاختبار ما لم نكن نرى أن اجتيازها إياه يدعونا إلى ترجيح احتمالات اجتيازها لاختبارات أخرى في المستقبل ؟ فمن غير المعقول أن نستمر في تكرار التجربة للتأكد من ثبات الظروف التي تجري فيها .

ولكن فلاسفة العلم ، مع اختلافاتهم ، اشتركوا في اعتبار العلم نشاطا عقلانيا تتراكم معه المعرفة ويتحقق التقدم . ولكن توماس كون (Thomas Khun) جاءنا في الستينات بكتابه الذي ألقى بظلال الشك حتى على هذا المفهوم (٧) ، إذ أكد على لحظات الانقطاع ، لا الاستمرار ، في تاريخ العلم عندما تظهر أفكار جديدة لتحل محل أفكار قديمة . وقد نلخّص فكرة «كون» ، دون ما خطأ كبير ، في القول بأن العلم يمر بشكل دوري في عدد من المراحل ، تتلو الواحدة منها الأخرى ، بدءاً بالعلم «العادي» ، مرورا بمرحلة «الأزمة» العلمية عندما تتراكم التناقضات بين تنبؤات النظريات السائدة والمشاهدات ، وحتى نصل إلى مرحلة «الثورة» العلمية التي تحلّ هذه التناقضات عن طريق نظرية جديدة ، نعود على اثرها الى مرحلة علم عادي جديدة . والعلم العادي في تشخيص «كون» محافظ يتمثل نموذجا (Paradigm) يجسّد النظرية السائدة . ويقتصر النشاط في هذه المرحلة على إتقان العمل العلمي في إطار النموذج وإزالة ما بقى من غموض في شأنها حتى تتعزز مكانتها . وعندما تتكاثر الظواهر الشاذة وتعجز المحاولات «التلفيقية» في اطار النموذج السائد عن شرحها ، ندخل مرحلة الأزمة التي لا سبيل لتجاوزها إلا بثورة . ولكن هذه الثورة لا تقتصر على تقديم إجابات أفضل لأسئلة قديمة ، بل إنها تأتي معها بطرق وأسئلة جديدة ، كثيرا ما تختفي معها المسائل القديمة . فالنظرية الجديدة كثيرا ما يعبّر عنها بنبذ مفاهيم النظرية القديمة ، لا استيعابها . ويعني هذا أن المقارنة بين الكيانات المعرفية المتعاقبة لمسائل مختلفة لا توفر معيارا مشتركا لقياس نجاح كل منها ، أي أن العلم ليس «تراكميا» بالمعنى الدقيق للكلمة ، فالإجابات القديمة تفقد أهميتها في المرحلة الجديدة ، إذ أن النموذج الجديد يمثل قفزة إلى نظرة جديدة إلى نفس الأشياء . وقد يبدو لأول وهلة أنه ليس ثمة فارق كبير بين رؤية «توماس كون» للعمل العلمي وبين التصورات السائدة في شأن تراكمية العلم أو دقة مفاهيمه ومصطلحاته ، أو وحدته إذ أنها لا تمثل نقضا كاملا لها بقدر ما تؤكد الارتباط العضوي بين طرق التفكير والبحث ، بل ومضمون العلم نفسه ، وبين تطوره التاريخي . إلا أنه ليس من العسير التعرف على اعتراضات رؤيه «كون» على كل واحدة منها . وعندما استطرد البعض من طرحه الجديد إلى القول بأن النشاط العلمي لاعقلاني (irrational) ، استنكر كون هذا وقال بأن هناك أسبابا مقنعة لتفضيل نظرية علمية على أخرى ، وإن تعذر التوفيق بين هذا وبين نقده الأصلي لموضوعية العلم . ولقد أدى هذا الخضم من محاولات التأكيد والرفض والعقلانية إلى معالجة فلاسفة العلم لمسائل جديدة تأخذ في الاعتبار ما لا سبيل لإنكاره من أن المشتغلين بالعلم قادرون على التنبؤ ببعض الظواهر الطبيعية على الأقل ، وعلى التحكم فيها بدرجات أرقى بكثير مما مضى . وهكذا ظهر مؤخرا مفهوم «الواقعية» العلمية . فبينما يرى

(٧) Thomas S. Khun, The Structure of Scientific Revolution (University of Chicago, 1962)

المشتغلون بالتجريب أن الكيانات النظرية التي لا سبيل لمشاهدتها (مثل الجسيمات الدقيقة) ليست سوى نماذج ملائمة لانتظام خبراتهم ومشاهداتهم في نسق متماسك ، يرى «الواقعيون» أنها موجودة فعلا وأن لها كل الخواص التي تشير إليها النظريات العلمية . والجدل نفسه يثور حول النظريات . فالواقعيون يرون أنها تقرير صادق بالمعنى الحرفي للكلمة عما يجري في العالم ، بينما يرى رافضو الواقعية أن النظريات قد تكون مقبولة وكافية ومعزّزة بالتجربة ، ولكن دون التسليم بأنها صور لواقع الأشياء . وحتى عندما يسلمون بأن بعض النظريات قد تكون صحيحة ، فإن علينا أن نمتنع عن تقرير ذلك أو حتى عن طرح التساؤل في هذا الشأن . وليس من المستغرب إذن أن يسود الفكر الرافض للواقعية بين علماء فيزياء الجسيمات الدقيقة .

وعندما استمرت مسيرة العلم الطبيعي مرّ بانتفاضة أخرى في مطلع القرن العشرين . فمع ظهور نظرية النسبية وميكانيكا الكمّ (quantum) [٨] ومفهوم عدم اليقين ، انفتح مجالان جديدان على طرفي نقيض ، هما العمليات الكونية (cosmic) على مستوى الأجرام السماوية ومنشأ الكون ، وحقيقة ما يجري فيه ، والعالم الصغري (microscopic) على مستوى الأجرام السماوية ومنشأ الذرة ومكوناتها ، والجسيمات المتناهية في الصغر والتي تتكاثر يوما بعد يوم .

وجاءت هذه الانتفاضة بشيء جديد تماما هو مفهوم الثوابت الفيزيائية ، والتي نعرف جميعا واحدا منها على الأقل هو سرعة الضوء في الفراغ . وأدى ظهور هذا المفهوم إلى موقف طريف حقا يناقض الفكر السائد من أن التجربة هي السبيل لاختبار النظرية ، وأنه ـ على حد تعبير آينشتاين ـ لا سبيل يؤدي للوصول من التجربة الى نظرية . ففي فيزياء الجسيمات الدقيقة يدرك المنظّرون الصعوبات الجمّة في إجراء التجارب . والنظريات التي يخرجون بها في شأن هذه اللبنات الأساسية للمادة تظل معلقة في انتظار صدور الحكم في شأنها حتى تجري تجارب بالغة التعقيد ، باهظة الكلفة . وتحتاج النظرية قبل أن تصبح صالحة لتطبيقها في التنبؤ بما سيحدث إلى تحديد قيم رقمية لكتلة كل واحد من الجسيمات التي تسعى النظرية لوصفها . وهناك اليوم في مواجهة هذا المأزق من بين المشتغلين بالفيزياء النظرية من يرى أن التجربة هي الطريق الأمثل ، لا لمجرد وصف سلوك هذا الحشد المتزايد من الجسيمات الدقيقة ، ولكن للتعرف على أسباب هذا السلوك وللكشف عن القاسم المشترك فيما بينها . لقد احتاج آينشتاين وهو يصوغ نظرية النسبية العامة إلى ابتداع ثابت جديد سمّاه «الثابت الكوني» (cosmological constant) ، سرعان ما سفّهه علماء الفلك في العشرينات عندما أخذوا بمفهوم امتلاء الكون بالمجرات المنتشرة بانتظام والقادرة على حل مشكلة آينشتاين دون حاجة إلى مفهوم الثابت الكوني . وهكذا طرحه آينشتاين جانبا ، شأنه في هذا شأن كثير من الأفكار العلمية ، واعتبره واحدا من أسوأ الأخطاء العلمية التي يمكنه تصورها ، من حيث أنه محاولة لتغيير النظرية حتى تتواءم مع فكر مسبّق . ولكن الثابت الكوني عاد إلى الظهور في العقد الماضي على يدي عالم سوفييتي أشار إلى

---

(٨) في هذا العدد عرض شيق لظهور هاتين النظريتين وتطورهما

فائدته في النظريات الخاصة ببدايات الكون ، لأنه ليس في واقع الأمر ثابتا ، بل إنه يتغير مع تغير درجة الحرارة ، بينما أشار عالم أمريكي آخر إلى أنه يعتبر الآن مقياساً لكمية الطاقة في جزء من الفراغ الفضائي ، واعتبر أن الأمر الآن مرهون بالتجربة لاستكمال كل الحقائق اللازمة لقيام نموذج متكامل (٩) على أساس هذا المفهوم .

وهكذا لم يعد من غير المألوف القول بأن العلم لا يعدو كونه الآن منظومة من الافتراضات التي لا يمكن تبريرها إلا من حيث صلاحيتها للتعامل مع الواقع ، خصوصا بعد أن قال «ماكس بلانك» ، أحد الرواد الفطاحل في الفيزياء الحديثة : «إننا لا نملك الحق لافتراض وجود أي قانون طبيعي » ، بل إن «بول فايرآبند» ، أحد المشتغلين المعاصرين بفلسفة العلم ، ينادي بأن المعرفة بكل أشكالها وأنواعها أمر نسبيّ وأن جميع الآراء مشروعة (١٠) !! ولكن لفايرآبند نظرات ثاقبة في المنهج تستحق أن نتوقف عندها . فهو يذكرنا بأن جاليليو ما كان له أن يحقق انجازاته لو أنه اتبع الأسلوب العلمي ولم ينتهك ما يعتبر من القواعد الأساسية للمنهج العلمي .

● ● ●

إننا نشاهد اليوم ما يبدو وكأنه صياغة جديدة للعلم ، يبتعد فيها عن الحتمية (determinism) ويسلم بمفاهيم العشوائية ، وعدم الثبات ، واللاخطّية (non– linearity) . وبأن الطبيعة تتضمن مظاهر جوهرية لعشوائية الأحداث واللانعكاسية ، وبأن القوانين الحتمية التي صيغت على امتداد القرون الأخيرة لا تنطبق الا على حالات قليلة جدا مما يحدث في الطبيعة (١١) . إن عمليات طبيعية مألوفة وشائعة مثل اضطراب سريان الموائع (turbulence) ، والانتشار (diffusion) ، والتفاعلات الكيميائية عمليات يستحيل وصفها بالقوانين الحتمية ولا تكرار حدوثها بنفس الشكل . إن النتيجة المنطقية لهذا هي انعدام إمكانية التنبؤ بما سيحدث ! ويندرج هذا أيضا ، فيما يسلم العلماء اليوم ، على الأحداث الكونية بقدر ما ينطبق على الجسيمات الفيزيائية ، إلا أن هذا لا يعني أن العشوائية تعني الجهل بما يجري في الطبيعة ، وإنما التسليم بوجود عدة «احتمالات» ، كجوهر كامن في العمليات العشوائية وحالات عدم التوازن . إن هذا التحوّل الجذري قد أدى إلى تقارب كبير في المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . وإذا ما كان هذا التقارب قد بدأ أيضا بتحرك العاملين في مجال العلوم الاجتماعية نحو تطبيق كثير من أساليب البحث في العلوم الطبيعية ، مثل التحليل الاحصائي والنمذجة الرياضية ، فان الصياغة الجديدة للعلم الطبيعي والتي تتبلور الآن أمام أعيننا قد أظهرت أن النظم المعقدة التي تدرسها العلوم الاجتماعية ليست أكثر تعقيدا من النظم الطبيعية . لقد كانت المحاولات الأولى لإحداث التقارب بين مجالي المعرفة أسيرة العلم الطبيعي التقليدي ، بموضوعيته وحتميته ، ومن ثم ، كان القول بأن المنهج الحديث في العلوم الاجتماعية يجب أن يكون غير

---

(٩) لمزيد من التوضيح لهذه المعالجة الميسرة ، انظر عدد مجلة Scientific American مايو (أيار) ، ١٩٨٨

(١٠) Paul K. Feyerabend, Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of knowledge, (Humanitrian Press, 1975)

(١١) في هذا العدد عرض لكتاب صدر حديثا عن موضوع «الفوضى» في الظواهر الطبيعية وأساليب معالجتها علميا .

محمّل بالقيم (not value—loaded) . إلا أن الصياغة الجديدة للعلوم الطبيعية تسمح الآن ، مع وجود المعلومات غير الكاملة وأوضاع عدم الاستقرار في القيم ، بالتسليم بإمكانية تصور أشكال متباينة للمستقبل وتدعو إلى اهتمام أكثر تركيزا على منظومة القيم في النظام الاجتماعي ، والبعد عن المحاولة اليائسة لصياغة علوم اجتماعية غير محمّلة بالقيم [١٢] .

والطريف في الأمر أن كثيراً من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية لم يتنبهوا بعد تماما لهذا التحول الثوري في العلوم الطبيعية ، وما زالوا بين منكر يؤكد أنها علوم ، وبين متحمس لإثبات «علميتها» في حدود الصياغة التقليدية للعلوم الطبيعية . ومن الأمثلة على هذا الجدل وقائع الندوة التي عقدت منذ ست سنوات خلت لمناقشة إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي[١٣] بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر . الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، أحد كبار أساتذة الفلسفة العرب يقرر في مداخلته في مطلع أعمال الندوة «أن العلم لا يستقيم بدون حتمية تجعل ظواهره ضرورية محتومة الوقوع ، وليست ممكنة تقع مصادفة واتفاقا» ، مع أنه يعترف في نفس المداخلة ، وقبل هذا التقرير الحاسم بحتمية العلم ، بأن «قوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعادة تتخطى الزمان والمكان ـ وإن اعتبرت في القرن العشرين احتمالية ترجيحية وليست يقينية ـ لأن الحتمية determinism قد اهتزت في قرننا هذا» . أما الدكتور صلاح قنصوة ، رئيس وحدة بحوث مناهج البحث في المركز فيختار لإسهامه عنوانا اتّخاذا هو : «وحدة المنهج وتعدد المنحى في العلوم الاجتماعية» .

ولا مفر من التسليم بأن العلوم الاجتماعية تسعى لتوجيه الأفعال بشكل مباشر ، لا لمجرد التأمل ، عن طريق انعكاساتها على السياسات العامة والخطط من أجل «تغيير العالم» (على حد تعبير أنور عبد الملك) . فلا عجب إذا ما شاهدنا مظاهر تصنيف العلوم الاجتماعية ذاتها على عدة أسس : فهي لدى البعض إما علوم «قاسية» (hard) أكثر صرامة ودقة في منهجها ، تعتمد بدرجات متزايدة على عناصر كميّة ، وتحليلات رياضية (الاقتصاد الرياضي مثلا) ، أو علوم «رخوة» (Soft) ما زالت تتغلب عليها المعالجات الوصفية (علم الاجتماع) . وهي لدى البعض الآخر إما علوم تؤكد على الحياد الأيديولوجي ، أو أخرى تعتبر الالتزام الأيديولوجي منطلقا أساسيا في البحث عن الحقيقة . إن هذه التصنيفات غير الدقيقة ، وغيرها كثير ، تعكس في حقيقة الأمر سمة تميّز العلوم الاجتماعية إلى حد ما عن العلوم الطبيعية ، ألا وهي التناقض بين سعيها للوصول الى مبادىء وقوانين اجتماعية عامة ، وبين رغبتها في أن تكون دليلا هاديا في عمليات صياغة السياسات والخطط التنفيذية ، وانتشار أنشطة البحث فيها على امتداد طيف عريض من الدرجات المختلفة من التركيز على هذا النقيض أو ذاك . وفي تنوع أنشطة «كارل ماركس» البحثية خير مثال على هذا . فإذا ما كان هو صاحب واحدة من أكثر النظريات الاجتماعية تجريدا ، فقد يقام هذا الكيان النظري استنادا الى

---

(١٢) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب جامعة الأمم المتحدة The Science and Praxis of Complexity (Tokyo, — UNU, — 1985)

(١٣) «إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي» ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ .

تمحيصه لمراجع عدة عن واقع حال المجتمعات البشرية في عصره وهو صاحب المانفستو الشيوعي ، أخطر دليل عمل ترددت أصداؤه ، وما زالت ، منذ قرن ونصف من الزمان . وما زال من العسير في يومنا هذا تصنيف العلوم الاجتماعية ما بين «المفكرين» و «الفاعلين» . إن التساؤل حول ما إذا كانت العلوم الاجتماعية «علمية» حقا سؤال ساذج . فإذا ما اتُّهمت ببعدها عن «الموضوعية» فإن مردّ هذا إلى أن ما تطرحه من تساؤلات لا يمكن عزله عن البيئة التي خرجت عنها هذه التساؤلات . وإذا كان ما تصل إليه من إجابات أقل تحديدا عما ألفناه حتى زمن قريب في العلوم الطبيعية ، فإننا نسلم اليوم باستحالة قدرة العلوم الطبيعية نفسها على عزل المسائل التي تعالجها عن بيئتها [١٤] .

• • •

ويجرّنا الحديث عن «المفكرين» و «الفاعلين» مباشرة الى كلمة أخيرة عن البحث العلمي والبحث التقاني . التقانة قديمة قدم «الإنسان الصانع» . وهي بهذا أقدم بمئات ، بل آلاف السنين ، من العلم بمعناه الذي تبلور منذ قرون لا تتجاوز الأربعة ، إنها جُماع الخبرات والمهارات التي تراكمت على مرّ أزمنة طويلة للوفاء بطلب اجتماعي معين من الخدمات والمنتجات . ومن ثم ، فالحديث عن منهج للبحث التقاني أمر جديد تماما ، جاء به التلاحم المتزايد في القرن الأخير بين البحث العلمي بمعناه التقليدي وبين تطبيق نتائجه كتقانات تطبق في إنتاج السلع وتوفير الخدمات . والمشتغلون بالبحث في العلوم٦اهطبيعية (وبما في ذلك الحيوية) يميّزون بين البحث التطبيقي والتطوير وإنتاج السلع وتوفير الخدمات . وقد نتصور الأمر وكأنه «حزام ناقل» تدخل عليه في بدايته نتائج البحث العلمي الأساسي والمجرّد الذي يمكن اعتباره ، بشكل عام وحتى وقت قريب جدا ، سعيا وراء فهم أفضل للعالم من حولنا دون ما هدف نفعي معين . ومع استمرار حركته على هذا الحزام تدخل النتائج «محطة» البحث التطبيقي ، الذي هو بطبيعته بحث هادف يسعى لتحقيق هدف نفعي معين (وإن انتهى الأمر في أحوال كثيرة الى تحقيق أهداف أخرى لم تكن في الحسبان) . وتأتي بعد هذا مرحلة التطوير ، التي هي مزيج فريد من التفكير المنهجي والحدس والاستفادة من تجارب وخبرات سابقة في التغلب على مشاكل استغلال نتائج البحث التطبيقي استغلالا اقتصاديا ، ودون معرفة منهجية كاملة بسبب المشكلة أو سبب نجاح علاجها . وإذا ما كانت منهجية البحث التطبيقي لا تختلف كثيرا عنها في البحث الأساسي ، فان التطوير أمر مختلف تماما ، حتى وان تبلورت له في العقود الأخيرة مبادىء علمية تساعد في انجاز المهمة ، مثل قوانين التشابه الديناميكي (Dynamical Similarity) التي تربط بين المشاهدات التجريبية على النماذج المصغرة وبين ما يتوقع حدوثه في التطبيق على المستوى الكبير . إن جهد التطوير في حقيقته مقياس لعجز المعرفة العلمية في وقت ما عن تقديم «نظرية» تصلح للتطبيق على المستوى الكبير . وكلما كانت النظرية أكثر دقة وشمولا ، قلّ جهد التطوير اللازم لتحقيق استغلال اقتصادي موثوق في أدائه . أما عندما نصل إلى المحطة الأخيرة على الحزام الناقل ، فإننا نكون أمام منتج أو خدمة متاحة في السوق ، عليها طلب يبرر سعي الناس للحصول عليها بالثمن الذي تعرض به .

---

(١٤) لقد تأثرت العلوم الاجتماعية من جانب آخر بالانسانيات . ولعل هذا التأثير أوضح مايكون في التاريخ الذي يعتبره البعض علماً مهّجنا يمكننا ردّ أصوله إلى الأدب والفلسفة .

ولكن الحزام الناقل يحمل في عودته إلى نقطة البداية مسائل جديدة ، نبعت من التجربة الميدانية ، لكل من محطات البحث الأساسي والتطبيقي وأعمال التطوير . وهكذا نرى التفاعل والتعاون اللذين يزدادان ثراء وقوة بين كل هذه الأنشطة في عالمنا الراهن . إن الحدود الفاصلة بين هذه التصنيفات تتضاءل حتى تكاد تتلاشى في مجتمع المعلومات وحتى يكاد الأمر يدعونا الآن ، كما قال «ماركيوز» مؤخرا ، إلى أن نتساءل ـ عندما تحقق إنجازات الرياضة البحتة والفيزياء النظرية احتياجات كبرى شركات الحواسيب وهيئة الطاقة النووية بمثل ما نشاهده من الكمال ـ عما إذا كان هذا يدعونا إلى نظرة أكثر تدقيقا في أفكارنا التقليدية عن العلم نفسه .

د . أسامة الخولي



تطور مناهج البحث في العلوم الاجتماعية

عبد الوهاب بوحديبة

ان كـانت العلوم الاجتماعيـة اخيـرة البـروز عـلى الساحة المعرفية فانها حققت في الحقبات الثلاثة الاخيرة انتصارات باهرة جعلتها تتجدد بعمق وتفرض نفسهـا كطرف يقرأ له الحساب ضمن سـائر العلوم الاخـرى ويوليه اصحاب القرار أهميـة بمكان وسنحـاول في هذا الاستعـراض السريـع الوقوف عند أهم الاتجـاهـات الجديدة التي يتمحور حولها تطور العلوم الاجتمـاعية شـرقا وغـربا وسنـولي اهتمامـا خاصـا بـالمستجـدات العربية . امـا النقاط التي ينبغي إثـارتها فـانها عديـدة متنوعة ولا يمكن ان نسلط بعض الاضواء الا على عدد محدود منها وهي .

١ ـ أهمية الدراسات الميدانية وتضخمها نوعا وعددا خاصة وان الادارة والمؤسسات أصبحت لا تكاد تتخذ قرارا في أي قضية وفي أي بلد ما بدون دراسات تمهد لسن السياسات وصيغ التدابير .

٢ ـ تغير بعض المفاهيم وتحويلها وتجديد النظريات العامة .

٣ ـ تطوير المنهاجيات النـاجم عن تقانـات البحث الجديدة مثل الحاسـوب والاعلاميـة والتفنن في اتقان نظام تخزين المعطيات الاولية في بنوك مختصة .

٤ ـ المساءلات الملحة والمبسوطة على الساحة العلمية عنـد أهل الـذكر نـظرا لانفجار الـدراسـات واقتحام مجتمعات عديدة وميادين جديدة ضمن أسـرة العلوم الاجتماعية .

٥ ـ مكانة البحث الاجتماعي ومعوقاته المنهاجية على السـاحة العـربية إذ دخلت أمتنـا هذا العلم من بـابه العريض وهي تسعى الى ربط الماضي بالحاضر والمستقبل والى إحكام الصلة بين الداخل والخارج وتحقيق الشمول لتغطية مختلف النشاطات المجتمعية .

وقد يحسن بنا أن نوضح منذ البداية بعض القضايا حتى نزيل عنها ما قد تثيره من ملابسات ـ ولعل أولها تلك الاشكالية المتعلقة بتعدد المناهج المتوخاة في كل اختصاص وبتعدد الاختصاصات ذاتها وبتباين العلوم الاجتماعية من حيث القطاع ومن حيث الاهداف ومن حيث التعامل مع الواقع مما قد يثير الشك والحيرة في نفس الملاحظ . ومن المفيد جدّا أن نشير الى أن عديد الاختصاصات تكونت تاريخيا حول المناهج المتبعة فتعدد المناهج هو الذي ادّى الى تعدد الاختصاصات ـ لا العكس ـ فعلم العمران مثلا وعلم النفس الاجتماعي والانثربولوجيا الثقافية وعلم الاعراق انفصلت عن علم الاجتماع لما أصبح.واضحا ان موضوعها يفرض تخصيصا في المنهاج المتبع واسلوبا ينفرد به فظلت قطاعات البحث تتمفصل وتكون وحدات لها ذاتيتها وخصوصياتها ـ والمنهاجية المتوخاة ساهمت في اثبات تلك الوحدة وابراز « الاختصاص » ـ فالدراسات الاحصائية وإستخدام الرياضيات لتحليل المعطيات العديدة وإستنباط الاسقاطات الممكنة كل ذلك أعطى للابحاث السكانية طرافة ووحدة وفتح امامها أبوابا جديدة ـ فجرت هذه الدراسات وراءها أجزاء كبيرة من الميادين التي كانت تدرس تقليديا تحت لواء علم الاجتماع ضمن أبواب « الاشكال الاجتماعية » أو « الاحصاء الاجتماعي » . ونلاحظ في فرنسا مثلا أو في المانيا ان أطباء ومهندسين ورياضيين مثل الفردسوفي ذهبوا الى العلوم الاجتماعية وطوروها لا العكس ـ ولاحظ نفس الشيء بالنسبة للدراسات الانثربولوجية التي تكونت حول الوصف التحليلي الدقيق وما يفرضه على الباحث وجوب الاقامة في ميدان الغربة والاغتراب من توخي طرق تجعل الباحث يضمن لعمله مستوى أدنى من الدقة والموضوعية والعمق والطرافة في جميع أطواره من الملاحظة الى المراقبة الى جمع المعطيات وتحليلها واستنباط قواسمها المشتركة ثم الى ادراج كل ذلك في تصور شامل يعكس بصفة صادقة نزيهة نوعية المجتمع المدروس وخصوصيات بنيته وأصالتها . وبهذه الطريقة ظلت الاختصاصات تتبلور ثم « تتندف » و « تتسبخ » وتفتك شيئا فشيئا استقلالها العلمي .

ولا فائدة في تعديد الامثلة بل يكفينا ان نسجّل أن تشعب العلوم الاجتماعية وليد المنهاجيات المتوخاة وهي بدورها وليدة تنوع الطلب للمعرفة الاجتماعية وان التطور الحاصل في هذا الميدان منذ قرن ـ والمتسارع في العقدين الاخيرين ـ أفرز للمنهاجية دورا معرفيا فريدا في تكوين العلوم الاجتماعية وفي تصنيفها والنهوض بها . ذلك أن التفنن والتعمق في المنهاجيات أعطى للعلوم الاجتماعية قدرة اكبر فأكبر على استيعاب المشاكل مهما تعقدت وعلى إبراز حقيقة الواقع الاجتماعي مهما تشعّب وضعه والتبس ـ فالمنهاجية تظهر الباطن وتجلي ما كان ضمنيا في كنف طّيات الحياة العادية ـ فترتبط بين اجزائها وتثبت الصلات بين مختلف الظواهر الاجتماعية وتبين العلاقات الكامنة وراءها . فعلاقة المناهج بالموضوع ليست كما يتصورها الكثيرون من هذا الى ذاك بل هي من المناهج الى الموضوع لذلك يؤكد كل من حاول أن يمنطق العلوم الاجتماعية وان يستقصي أسرارها « الابستمولوجية » أهمية الدور العملياتي للمناهجية المتوخاة وللفرضيات المضروبة في البداية وللتعريفات المتبعة ولمختلف أوجه التعامل مع الاشكالية . فالباحث قد ينطلق من اشكالية ما أو ميدان ما الا أن هذه الاشكالية وهذا الموضوع لا يصبحان ميدانا للبحث الا بعد ان تتوضح دقائق المنهاجيات ذاتها وتضبط طرق البحث المستخدمة فلا غرابة اذن يكون تطور المنهاجيات أمرا أساسيا في العلوم الاجتماعية إذ يرتبط ارتباطا متينا بنوعية القضايا . ونجاح العلوم الاجتماعية وتقدمها السريع يعود في نهاية الامر الى أن المنهاجيات المتوخاة أصبحت اكثر دقة يوما بعد يوم وأكثر موضوعية بل أصبح الباحثون بدورهم أكثر سيطرة وبراعة في تحليل الامور والغوص فيها .

الملاحظة الثانية تتعلق بما تفرضه ضرورة الربط بين مختلف الاختصاصات نظرا لوحدة الموضوع المدروس ـ وواضح أن مختلف فروع العلوم الاجتماعية والانسانية لا تغطي بصفة كاملة شاملة جميع عناصر الاوضاع الانسانية ولا يمكن أن يختص كل منها بعنصر دون غيره ذلك أن العناصر تتداخل وتتشابك مما يؤدي الى اللجوء الى عدّة فروع من العلوم الاجتماعية لطرح قضية واحدة ما ولتحليلها ولتدارسها . وان كان للمنهاجيات فضل تطوير تصنيف الاختصاصات واكسابها استقلاليتها النسبية فهذا لا يعني ان لكل علم اجتماعي منهاجية وان كل منهاجية لا تتعلق الا بعلم ما ـ فمن الخطأ اذن ان نتصور أن مختلف العلوم الاجتماعية ينفرد كل منها بمنهاجية معينة ـ ذلك أن ترابط المواضيع ووحدة المشاغل جعلت العلوم يتداخل بعضها ببعض الى حد أن بعض الدراسات « المتاخمة » تستغل اضواء متعددة مأخوذة من اختصاصات مختلفة منها الاجتماعي البحت ومنها غير الاجتماعي ، وبالتالي فان المنهاجيات أصبحت ، وبخاصة في السنوات الاخيرة ، تتأثر في صلب العلوم الاجتماعية بما يجري في العلوم الاخرى سواء أكانت متعلقة بالطبيعة أو بالحياة . ولنا في ذلك أمثلة عديدة فالتحليل الاجتماعي يستخدم مفاهيم آتية رأسا من فيزيا المجالات المغنطيسية والميكانيك التموجية وأخرى من علم الوراثة وأخرى من علم الحياة إضافة الى ما ينصب فيه ومأتاه العام من الرياضيات والاحصائيات والاعلامية بسائر اتجاهاتها .

وينتج عن ذلك أمور غيّرت مجرى العلوم الاجتماعية الى مدى بعيد وسيكون لها بلا شك الاثر العميق في السنوات القادمة ـ فبرزت على الساحة اختصاصات جديدة انتصبت في الحدود الفاصلة بين اختصاصين اصليين أو أكثر ، وان كان علم النفس الاجتماعي معروفا منذ زمان بعيد فان علم النفس الصناعي وعلم النفس الاجرامي وعلم النفس اللغوي وعلم النفس الجمالي وغيرها تكونت كفروع قائمة الذات لتجابه مشاكل حيوية كانت في مفترق اختصاصات متباينة . الا انه اتضح ان كل واحد منها لم يبق قادرا بمفرده على تحليل المواضيع المعقدة المبسوطة على ساحة الواقع اليومي ـ فأصبح من المسلّم به أن استخدام مناهج مختلفة في وقت واحد ضرورة لا مناص منها لاستيعاب المعرفة ولطرح عديد الاشكاليات وللتقدم نحو حلول مفيدة لها ـ مما أدى بالباحثين الاجتماعيين الى الخروج من دائرة فلكهم الضيق ـ ولكنه واضح أيضا ان هذا الخروج ليس من العفويات الاعتباطية بل يظل بدوره مضبوطا في قواعده وفي حدوده وفي موضوعه وفي دقته مما يضمن له ايضا حدّا أدنى من العلمنة . وواضح كذلك أن هذا التوسع في المنهاجيات يتغذى من تجارب فنون أخرى فيستفيد منها بمقدار وينهل لينصب الكل في تيار المعرفة الكونية الواسعة في العلوم الاجتماعية . لذلك أصبح تكوين الباحثين وتدريبهم يتطلب منذ البداية العناية بما يجري في العلوم المجاورة حتى يتفتحوا من ناحية الى آفاق أوسع ويتطلعوا الى استخدام طرق تحليل تفرضها نوعية الابحاث التطبيقية الجارية أو التي سيطالبون بالقيام بها . وعلاوة على كل ذلك فانه أصبح من المتأكد أن البحث الفردي لا يكفي لتغطية الحاجيات ولا لمجابهة المشاكل بل أصبح تجاوزه ضرورة يومية فالبحث المصيب يتم في مجموعات دراسية يتحاور ضمنها الرياضي والاجتماعي والطبيب والاعلامي . وخلاصة ذلك أن المنهاجيات أصبحت معقدة لانها أصبحت مبنية على التحليل وعلى التأليف على حدّ سواء .

وبعبارة أوضح فان رقاص الساعة في تراجع فبعد أن سارت العلوم الاجتماعية في التباين الى حدّ أنها اصبحت مجموعة عويصة معقدة ذروية من اختصاصات واختصاصات فرعية واختصاصات داخل الاختصاصات الفرعية فانها

أخذت الآن تتجمع وتتألف من جديد . الا أن ذلك لا يعني بالمرة أنها عادت الى ما كانت عليه بل ازدادت تعقدا وتعمقا ونلاحظ ان التباين الذي عاشته ولا تزال تعيشه أعطاها دفعا قويا أخرجها من العزلة التي كانت فيها ، فالمناهجيات بدورها في حاجة إذن الى تطوير مناهجي جدلي . وكلما ازدادت تعمقا في رقعة ضيقة ازدادت حاجتها الى التوسع الافقي قصد الاستناد الى معارف أخرى والى التعاون مع ما يستعمل في الفنون المجاورة . وهكذا فان التباين يتلوه التجميع ـ ولكن هذا التجميع يعيد الصلة العضوية لدراسة تطورت في الاثناء فيأتي لينسج من جديد بينها وليحيك الربط .

فالبنيوية والهيكلية في الدراسات الاجتماعية أدخلت عديد القواسم المشتركة بين فروع مختلفة . انطلقت المنهاجية من اللسانية ثم تسربت الى الانثربولوجيا فالى علوم النفس والاجتماعي والاقتصاد والتاريخ ثم أقحمت ضمنها فروعا كانت تقليديا مستقلة الى حد بعيد مثل الادب أو الخلق الجمالي ـ وأصبح على أي باحث في علوم الاجتماع اليوم ان يعير اهتماما متزايدا لمنهجية البنيوية التي تعتمد التجريد غير الرياضي ـ الى أقصى حدّ ممكن ـ وعلى الباحث اما ان يتبنى هذه المنهاجية أو أن يتجاوزها بالنقد . ولكننا نلاحظ انها تفرض نفسها بصفة متواصلة في عديد من المدارس الاجتماعية وقد نؤاخذها بأن إفراطها في التجريد جعل البحوث الاجتماعية التي تتوخى أساليبها تبتعد بصفة ملحوظة عن خصوصيات الواقع وعن طرافة جزئياته وعن مواقع اهتمام اصحاب القرار الذين يبحثون عادة عن استنتاجات قابلة للتطبيق تمكنهم من الاستنارة بها لسن سياساتهم الاجتماعية والاقتصادية . لذلك نرى العلوم الاجتماعية صنفين في منهاجياتها إما تجرد مفرط وإما تلاصق مع الواقع ، أو بالاحرى فان الاتجاهين يمثلان قطبين تتمحور حولهما عديد البحوث حسب الاهتمامات والاغراض المتبعة أو المدارس الفكرية . ومما لا شك فيه أن البحوث الاجتماعية تنفلق حسب هذين التوجهين الكبيرين : توجه نحو مزيد من البحوث الميدانية وتوجه نحو تكثيف البحوث البنيوية .

ان الدراسات الميدانية اخذت منذ زمن طويل طريقها ولا تزال تشقه بثبات ونجاح . وطرق البحث المستخدمة تعتبر من مكاسب العلوم الاجتماعية التي نالت إجماع أهل الذكر . والجديد هنا يتصل باقحام بعض تقانات الاعلامية الحديثة دون ان تمسّ بالجوهر فلا فائدة في التعرض المفصّل الى مناهج البحث الميداني ويمكن لمن يريد مزيدا من الاطلاع ان يعود الى المراجع القيمة العديدة[1] ونكتفي هنا بلفت النظر الى بعض المسائل .

١ ـ ان تطوير الاعلامية انعكس بصفة مباشرة على بحوثنا ولا ينحصر دورها في مزيد الدقة ولا في التوسع في قدرات البحث التي حققته اذ أصبح من الممكن أن تحتوي الاستبيانات والاستمارات على أكثر من ثلاثمئة أو أربعمئة مادة دون أن يكلف ذلك الباحثين عناء لا يطاق ـ وإضافة الى ذلك فان الاعلامية والحاسوبات مكنتنا من سيطرة قويّة على الاوضاع ومن اقتصاد في الوقت وفي المجهود .

---

(١) يمكن الرجوع الى : Shrag Zarsen, Catton-Sociologie, London 1968

ـ علاء الدين جاسم البياتي ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ بغداد ١٩٦٥

ـ محمود الجوهري وعلياء شاكر ومحمد علي محمد ومحمد الحسيني دراسة علم الاجتماع القاهرة ١٩٧٣ .

ـ توفيق مرعي وأحمد بلقيس علم النفس الاجتماعي ـ عمان ١٩٨٢ .

ـ يعرب فهمي سعيد طرق البحث ـ بغداد ١٩٧٥ .

لقد شاهدنا في السنوات الاخيرة أحكاما أدق في التعامل الاحصائي والرياضي إذ أصبحنا نستغل النماذج لتحليل شكل الاستمارات ذاتها وللتعمق في ما يمكن استنتاجه منها ولعلّ التجربة التي حصلت في مختلف ميـادين البحوث الاجتماعية منذ قرابة القرن جعلتنا اليوم نسير بثبات ـ ونسجّل أن تجارب « الفرد بني » عن التأثير النفسي الذي يجعل من نجري معهم الحوار أثناء الاستبيان يتأثرون بمواقف من يجري الحوار . وهذه الدراسات تطورت بصفة جـذرية وأخذت عين الاعتبار مما أدى الى وضع مناهج عملية معروفة ناجعة في مسايرة الروائز أو الحوار بل احتل التحليل اللغوي للاستمارات والتحليل البنوي لهيكلة ورقة الاستبيان مكانة كبيرة في أي بحث الى حد أن البحث الميداني ذاته أصبح عادة مسبوقا ببحث أولي تختبر قدراته وتزيد فيها .

بل أصبحنا اليوم نلاحظ تواجد محاولات متعددة لاستخراج نظرية عامة لاستمارة ومحاولات هرّيس ووفلاند أصبحت حاضرة في كل أذهان الذكر .

ومهما يكن من أمر فان التحليل الشكلي لورقات الاستبيان تمكننا من فائدتين أولاهما مزيد من استقصاء المعاني الكامنة في الاسئلة ذاتها حسب الفرضيات العملياتية التي يستخدمها الباحث وثانيهما تشديد المراقبة على صياغة الاسئلة وتمكين الباحث من استخدام الاعلامية قصد تشديدالتحكم والدقة وقصد تخزين المعطيات الخام مما جعل الاحتفاظ بها ممكنا حتى تستغل ثانية وثالثة للمقارنات يوما ما [٢] .

٢ ـ وفي نفس الاتجاه نلاحظ ان طرق البحث الميداني نالت شعبية كبيرة الى أحد أنها خرجت من الساحة الأكاديمية الضيقة ودخلت عالم الجماهير من ذلك أن سبر الآراء والاستطلاع الى مواقف المواطنين لاغراض دعائية أو اشهارية أو سياسية جعلت صحفنا اليومية لا تكاد تخلو يوما من « تحقيق » في ميدان ما . ونلاحظ أن وسائـل الاعلام العـربية اصبحت بدورها تلجأ الى هذا النوع من المنهاجيات بعد تبسيطها الى أقصى حد ممكن .

الا أن ما نجده في هذه الصحف وان كان لا يمثل « حقائق » ثابتة في ذات نفسها فانها تكون وثائق اجتماعية يمكن تسليط الاضواء عليها بدرجة ثانية لانها تعبّر بصفة أو بأخرى عن المجتمع ـ تجدر الاشارة هنا الى طـريقة « تحليـل المحتوى » التي توصلت الى مقدار من الدقة والرفاهة والوضوح مما جعل الكثيرين يلجؤ ون اليها لتفـريغ محتـويات الصحف أو القصص أو الافلام أو الرسائل الخاصة أو المذكرات والكنانيش .

---

(٢) راجع :

— Nuel D. Belnap Jr., Thomas B. Steel — The Logic of Questions and Answers — Yale University Press, 1976.

— Bernadath Bouchon — Sur la realisation des questionnaires. These — Paris 1978.

— Claude Flammens — L'analyse booleenne de questionnaires. Paris — Mouton, 1976.

— Jean Paul Gremy — Les questionnaires d'enquete. L'annee scolologique, 1982.

— R. Boudon — Les mathematiques en sociologie — Paris, 1974.

— J.P. Benzecri — L'analyse des donnees — Paris, 1979.

— Rodolphe Ghigliones, Benjamin Matalon — Les enquetes sociologiques — Paris, 1988.

— C.A. Moser, G. Kalton — Survery methods in Social Investigation — London, 1971.

— J. Berton — Semiologie graphique.

بل أصبحت آلة الفيديو ذاتها توظف للبحث العلمي اختصارا في الآجال وربما في الوقت وتيسيرا لاستخدامها في ما بعد[٣] .

٣ ـ ونفرد بالذكر هنا المنهاجية المقارنة لما نرى فيها من فوائد جلية خاصة ان طبقناها على الوطن العربي كما سيأتي تبيانه فيما بعد .

الحقيقة أن المنهاجية المقارنة وقع استغلالها في مجالات واختصاصات عديدة ولعلّ أهمّها واقدمها الأدب المقارن الذي جمّع عديد المعطيات التي يمكن الاستفادة منها منهاجيا ومن حيث محتويات التّحليل ومستويات الدّراسة ـ الا أن اللّسانيات وعلم الاجتماع والتّاريخ والاقتصاد والقانون استندت كثيرا الى المقارنة بصفة عامّة ولكنّنا نرى أن أسلوب المقارنة بصفة عامّة ـ كما أكّدنا ـ أنجع وأثمر في إطار الحضارة الاسلامية لما لها من وحدة ذاتية من جهة ولقابليتها لعملية التنميط من جهة أخرى .

ولسنا في حاجة لنعيد الى الاذهان أن المقارنة العلمية الموضوعيّة لا بدّ لها من أن تحترم بعض الشروط أهمّها :

(أ) اقتطاع موضوع محدّد لنستطيع البحث فيه عبر جميع المجتمعات المقارن بينها ـ وقد يكون هذا الموضوع في أي قطاع شئنا ـ مثل تصميم المدن معماريًا أو استخدام الوسائل السمعية البصرية أو تنظيم الاسرة أو أساليب الانتاج أو تنشئة الطفل ـ فمن المفروض أن يكون الموضوع ذا بال في المجتمعات المدروسة .

(ب) بسط الاشكالية الاساسيّة للبحث في صورة تجعل المقارنة ممكنة مفيدة لفهم ما يجري في كلّ مجتمع على حدة ثم لربط الصّلة بين جميع الاستنتاجات الجزئية الخاصّة بكلّ قطر قصد تجميعها في منظومة تأليفية عامّة تعطي بصفة واضحة وبأكثر ما يمكن من الدقّة أوجه الشبه والفروق بينها .

(ج) المقارنة تستند الى بحث مسبق يثبت النّقاط والعناصر التي يجب أن تكون محلّ اهتمام ولا بدّ في هذا الصدد من توحيد الوسائل من حيث توجّهاتها العامّة ومن حيث وسائلها العملية كأوراق الاستبيان والاستمارة والتعليمات التي تقود الباحث في عمله وكذلك أيضا من حيث ضبط المفاهيم وتحديد معانيها وتوضيح الفرضيات واستقصاء الصّعوبات المتوقّعة وتصوّر بعض الحلول العملية لها .

(د) وليس من الضّروري أن تكون هذه الوسائل هي نفسها في كل حقل من ميادين البحث لان المقارنة المفيدة ليست بين تفاصيل الاوضاع وجزئياتها بقدر ما تكون بين حزم من الاستنتاجات تكوّن غاية البحث البعيدة لانها تثبت في جملتها الاتجاه الذي سارت فيه تجربة هذا البلد أو ذاك والتي تنعكس فيها طرافتها ونجاعتها وعبقريتها أهلها أو تثير المصاعب التي تصدّت لها أو المآزق التي ترددت فيها .

---

(٣) راجع Jean-Paul Aimetti, Michel Bertaux. Video questionnaire. Nouvel outil d'enquete telematique. Communication au congrès d'Esomar — Amsterdam. Avril 1981.

(هـ) ويستحسن لو تمّت هذه البحوث المقارنة بين عدد وافر في البلاد العربية أو الاسلاميّة وأن يكوّن فريق دولي لاجرائها يمكّن من الاجتماع قبل اجراء البحوث الميدانية قصد وضع تفاصيل منهاجية البحث واستنباط الوسائل الكفيلة بتغطيته وتوحيد أهدافه وتركيز قاعدة للحوار بين من يسهر على اجرائه وان يمكّن الفريق من الاجتماع ثانية بعد انتهاء البحوث الميدانية لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من التجارب التي تمّت دراستها .

٤ ـ أما البنوية فانها أُصبحت من باب الدرجة في الاوساط الثقافية الغربية والعربية ، ونالت رواجا كبيرا وشهرة فائقة ـ وهذه الشهرة التي نالتها قد تكون مست من مكانتها العلمية بل زيفتها احيانا لما أدخل عليها من تشويش آت من استعمال فوضوي وفي غير محله الا ان هذه الخرافات لا تمنع من انها اثبتت جدواها فلا يمكن للباحث ان يهمل الطرق التي فتحتها أمامه .

فالبحث عن الهيكل أصيل وانبنت عليه العلوم الاخرى ذلك أن الافراد في الطبيعة والنبات والحيوان يتشكلون في صور ثابتة تختلف حسب الاجناس والطباع والاوضاع فالهيكل يمثل فيها عنصر العناصر ويبرز الهيكل في شكل ما بعد عملية رياضية منطقية تعتمد المقارنة بين الموجدات لفرز القواسم المشتركة بينما وتجريدها من العناصر الجزئية الخاصة بكل فرد من الافراد المتكوّن منهم النوع . وكان من الطبيعي ان تلجأ العلوم الاجتماعية الى هذا المنحى فتحاول ان تتوصل الى فهم القرابة مثلا انطلاقا من الاسرة الغربية والافريقية والآسيوي والعربية وأن تحاول تحليل الطبقات الاجتماعية انطلاقا من علاقات مختلف الشرائح الموجودة بالفعل في المجتمعات الرأسمالية الاوروبية والاميريكية والاشتراكية والسائرة في طريق النمو .

البحث عن البنية هو بحث عن القواسم المشتركة المحدود عددا ودورا والتي يمكن اعتمادها « لقراءة » ما يجري في أكبر عدد ممكن من المجتمعات فنقول مثلا ان تحجير نكاح المحارم هو العنصر الفعال في تكون القرابة والاسرة أو أن صراع الطبقات هو المحرك الاصلي لجميع التطورات التاريخية لسائر المجتمعات .

وهذا التوجه الذي انطلق من اللسانيات والانثروبولوجيا والنقد الادبي أخذ يغزو شيئا فشيئا سائر العلوم الاجتماعية الا أن عديد الباحثين مثل « لازرسفليد » يشكون في جدوى هذه البحوث وفي نظريات « ليفي ستراوس » ويرون أن لا مبرّر في علم الاجتماع لاستخدام هذا المنهاج[٤] ـ الحقيقة ان الغموض يعتري أكثر من دراسة ولكن مما لا شك فيه أن أي مجتمع ما ـ وأي عنصر من عناصره يتهيكل حسب معايير ذاتية معينة ـ المجتمعات فئات واصناف وطبقات وقطاعات واقتصاد أي مجتمع ما يتهيكل بدوره حسب قوانين الاسعار والعرض والطلب وعلاقة القطاع الزراعي منها والصناعي والخدمي .

فلا مانع اذن من ان يهتم الباحث بالعلاقات العضوية الرابطة بين الاجزاء والقطاعات والاصناف والطبقات والشرائح وان يحاول اثبات ما نجده بصفة متكررة في أوضاع مختلفة متباينة ـ وهذه المحاولة تجرنا الى محاولة القيام

---

(٤) راجع : UNESCO. Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales. Paris — 1978, T.I — P.I — p.138.

بعمليات مختلفة من اسقاط وتجريد وتقليص وهي تستند الى روح التنظير العلمي المبني على المقارنة واجلاء العلاقات الضمنية ، وهذا التوجه البحثي وإن كان أقل ثراء من البحث الميداني وان كانت نتائجه غير ملموسة وغير قابلة للاستخدام المباشر وللتطبيق فان مشروعيته ليست في حاجة الى مزيد من التبرير .

الا أن مفهوم « الهيكل » ذاته كما يستخدمه عديد العلماء ـ بغض النظر عن « الهيكلية » التنظيرية ـ يمكننا من التحليل القيم لانه يحول ربط الاجزاء بعضها ببعض ويخرج الدراسات الميدانية من منظارها الضيق التجريبي البحث المبني على مجرد الملاحظة والاختبار[٥] ـ وعلى كل فانه يتعين على الاجتماعيين ان يجتنبوا الخلط بين « النظريات الاجتماعية » وهي نظريات مشروعة يحكم الواقع لها أو عليها و « النظريات الفلسفيةوالسياسية» للمجتمع الامثل فالماركسية مثلا والبنوية تحاولان الجمع بينهما بل لا تميزان بين العقيدة الفلسفية أو السياسية والدينية الخاصة بأي باحث ما وحقيقة العلاقات الاجتماعية كما تتجلى من خلال الواقع ذاته بما في ذلك العقائد ولكن باعتبارها « شيئا » اجتماعيا .

ان الاحتراز الذي نبديه ازاء المنهاجية البنوية كما يستخدمها بعضهم تنبع من الاشكاليات الضمنية التي تثيرها وتبقيها بلا جواب كما رأينا ـ وهذا الاحتراز يتدعم بتخوفاتنا من أن تنزلق الدراسات الاجتماعية العربية الى البحث عن الكليات المجردة فتهمل بذلك ما نحن في أشد الحاجة اليه وهو مزيد من التعرّف العالمي الدقيقي الموضوعي على الواقع الاجتماعي العربي لذا نريد الوقوف في الصفحات الموالية الى تجديد منهاجية البحث الاجتماعي في الوطن العربي ومدى مساهمته في اثراء التيارات العلمية .

هل نحن في حاجة الى التذكير بأن العلوم الاجتماعية انطلقت ايضا من المجتمعات العربية وانها راسخة القدم عندنا منذ عهد بعيد اذ كان للبيروني مثلا ولابن خلدون ـ وغيرهم ـ فضل لا ينكره احد ؟ فدراسة منهاجية ابن خلدون لا تزال لافتة للانتباه لما سنته من قواعد لا تزال حداثتها محلا للبحث والتعليق . لقد سن اتجاهات للوصف وللتحليل وللتكميم ولربط العناصر بعضها ببعض فهو أول من أشار الى ضرورة التحليل النوعي والكمي الذي لا بد أن ينتهي الى التركيب الهيكلي والى التنظير حتى توضع الظواهر الاجتماعية في محيطها العام وفي سياق الدفع التاريخي العام الجار لها[٦] على المساهمات العربية العصرية في البحوث الاجتماعية وخاصة من الناحية المنهاجية .

وأول سؤال يطرح يتمثل في مكانة البحوث الاجتماعية من المجتمعات العربية ذلك أنها لم تكن دائما « عربية » لا من حيث الباحثين ولا من حيث التوجهات ولا من حيث اللغة فالذين كتبوا « علميا » في بداية هذا القرن عن العرب كانوا ينتمون الى مجتمعات تستخدم المعرفة الاجتماعية للسيطرة على العرب ولدعم نفوذ الغرب عليهم . فالوصمة الكبرى للدراسات التي صدرت في هذا المجال انها كانت تتم في اطار علاقات طبعها الاستعمار بطابعه الخاص فارتبطت

---

(٥) راجع René König. Sociologie — Paris 1972. 823

(٦) راجع : علي الوردي ، منطق ابن خلدون ، تونس 1976

حسن الساعاتي ـ علم الاجتماع الخلدوني القاهرة ١٩٨١

Mondher Kilani. Intes destin al Authologie. Ransam 1989

البحوث الاجتماعية بالنزعة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية خاصة . ومساهمتنا الكبرى أننا أثبتنا أن المنهاجية المتبعة في هذه الدراسات لم تكن بريئة وانها مهما اتخذت من تدابير فان موضوعيتها محدودة للغاية . ولما وقع « تعريب » العلوم الاجتماعية فان ذلك لم يكن مجرد ترجمة بل إعادة بناء العلاقة بين الباحث والموضوع فكانت اليقظة العربية بمثابة يقظه ابستمولوجية معرفية تتجاوز كثيرا حدود المنطقة . وبديهي أنه ليس من المفروض ان يكون الأجنبي أكبر قدرة على البحث لتخلصه من الماقبليات ولتجرده ولبعد نظره نظره عن الموضوع لان ذلك قد يعرضه الى تجاهل امور باهمية بمكان فينقل ما تجمعت لديه من أفكار واحكام يسلطها على الموضوع . وليس أيضا من المفروض ان يكون صاحب البيت ادرى بشؤونها لتعايشه معها من الداخل الا أن هذا التلاصق والتعود والالفة كل ذلك يعرضه بدوره الى خطر الايحاء الذاتي الذي يجعله من حيث لا يشعر يقر علاقات مغلوطة في كيانها لا لشيء سوى انه اعتادها وآمن بحقيقتها .

وهذا جدل لعب دورا كبيرا في تطوير منهاجية العلوم الاجتماعية وساهم العرب في تنقيته وبلورته[٧] ولكن الخروج منه ادى البحوث الاجتماعية الى مراجعة نوعية علاقة اطار البحث بموضوعه فاصبحنا نربط نجاعة البحث بقدرته على الجمع بين المسافة والتباعد والمشاركة الداخلية ـ فالبحث الاخصب هو الذي « يموضع » الاشكالية ويخرج بها من الضمنية الى المجلّى ومن الباطن الى الظاهر ـ وهذه العملية لا تتم الا باستنباط العلاقات التي يتوصل من الداخل الى معرفتها والى ضبطها بشيء من الانجذاب والاتتناس والمشاطرة اليومية لاساليب العيش ـ لذلك اصبح من المسلم به ان الابصار الغربي على العرب ونظرة العرب لانفسهم يتكاملان بل أصبحنا نعمّم ذلك وندرك ان الحقيقة التي يبحث عنها علم الاجتماع متشعبة ، معقدة وان الموضوعية في المنهاج لا تكفي وانه لا يمكن أن يستغني للتوصل اليها ـ أو على الاقل للاقتراب منها لا عن الملاحظة والدراسة الخارجية ولا عن التحليل الذاتي . والنقد هو الذي يفصل في نهاية الامر بين المغلوط والمصيب فالمساهمة العربية كانت أولا وبالذات في اعادة الامور الى مكانها والى حصر ادعاءات الاستشراق في النطاق العلمي الذي كان من المفروض انها لن تخرج منه ابدا ـ ولذلك رأينا من الضروري أن نلفت النظر الى أمرين هامين بمكان أولهما ان البحوث العربية هي بمثابة اعادة الروح للذات لانها جزء من الوعي وعملية كشف من الداخل لان المنهاجية ترمي الى التعرف على الواقع وبذلك ولكونها صادرة من عقر المجتمع فانها تساهم في تغيير الذات نفسها ـ مما يؤدي بنا الى اعادة النظر في مفهوم الموضوعية والى أخذ ذلك بعين الاعتبار في جميع مراحل بحوثنا الميدانية . والامر الثاني الذي نريد التركيز عليه ان البحث العربي مقارن أو لا يكون وانه يتعين ان تعطي للمقارنة المكانة التي تستحق في سياساتنا البحثية وفي تطويرنا للمنهاجيات .

البحث الاجتماعي عنصر من عناصر السيادة السياسية وآلة للسيطرة على الوضع ، فالعلوم الاجتماعية تلتصق كما قلنا اشدّ الالتصاق بالبيئة التي يتكوّن فيها وبالاحرى تلك التي يبرز فيها وبالحضارة التي يستند اليها وبالاهداف التي يرمي اصحاب القرار التوصل اليها ـ فلا يمكن والحالة تلك ان تفرز بين الباحث العربي ومجتمعه ـ فالباحث الواعي عالم يتوخى الموضوعية مهما كانت آراؤه ملتزمة وهو في نفس الوقت ابن قومه مهما حاول أن يتجرّد فهو ناطق باسمه ومعبّر عنه

---

(٧) راجع : ـ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج لزمان ـ الرياض ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥

ـ أدوارد سعيد ـ الاستشراق ـ Orientalisme, L'orient Créé par l'Occident — Paris, 1980.

ووسيلة يقظته وضميره الحي وبعبارة أخرى فان المعرفة الذاتية تمثل في علم الاجتماع كنه المعرفة وهي في نفس الوقت الشرط الاساسي لتجنب الملابسات والخروج من الاحكام المسبقة التي يصدرها الباحثون الاجانب . ومن هذا المنظور فان التعرّف على النفس يمثل العنصر الاصلي في تحليل الاوضاع السائدة وفي تفكيك دواليب المجتمع وتفتيق مؤسساته ورفع القناع عن ملابسات الاقوال والافعال .

ان مختلف الدول العربية على تنوعها وتباين اختياراتها السياسية وأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية تلجأ الى البحوث الاجتماعية ـ ولم تكن لتفعل ذلك لتطوير المعرفة الاجتماعية عامة من الناحية النظرية المجانية ولكن لغايات تطبيقية بحتة فهي أجمعت على ضرورة اقحام البحوث الاجتماعية في صميم التحركات الاجتماعية ـ البحث الاجتماعي العربي موجّه اليوم الى حد اننا اصبحنا لا نكاد نتصور قرارا يؤخذ على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو بالاحرى على الصعيد الاجتماعي دون أن يكون قد استند الى بحوث والى دراسات اجتماعية[٨] .

ومن هذا المنطلق أتت الابحاث العربية في العقدين الاخيرين لتركز على المنهاجية الميدانية ـ أجل ليست هناك طرق بحث ميدانية متميّزة في الادبيات العربية فهي تأتي جميعا في سياق ما قلناه عن التطورات الجارية حاليا على الصعيد العالمي فالمسألة تتعلق اذن بالشروط العلمية الصرفة اللازم احترامها من طرف الباحث بقدر ما هي تتعلق بتأصيل هذه البحوث في كنه المجتمع العربي من حيث اختيار المواضيع وضبط الاولويات ـ الا أن أساليب البحث واختيار الوسائل العلمية في تصور المشاريع وصياغة الفرضيات وتحرير الاستبيانات وسحب العينات ومعالجة الجداول الاحصائية وتأويلها كل ذلك ينصب في المنهاجيات العامة ويمثل القاسم المشترك بين جميع البحوث والدراسات أينما أجريت لان قواعد المنهاجية العامة لا تحتاج الى أقلمة خاصة أو تطويع ما حسب المجتمع المبحوث فيه أو وضعية الباحث فهي من العناصر الشائعة التي يختار بينها حسب الظروف والإمكانات والتي تتمحور في نهاية الامر أهميتها في قدرتها على تسهيل الاجراءات وموضعة المشاكل وإعطاء الاستنتاجات طابع العلمانية ورفع الشك فيها قدر المستطاع .

أما القضية الاساسية فهي تكمن في علاقة البحث أغراضا وأهدافا واستنتاجات بالمجتمع العربي الذي يبحث فيه الى حد أنه اصبح وكأنه هو الذي يبحث عن نفسه عن طريق الباحثين ذاتهم فالعلوم الاجتماعية العربية مفروض عليها أن تكون موضوعية لانها ترمي الى الدقة والضبط والحقيقة وأن تكون ايضا ذاتية لانها تمس جوهر الوجود الجماعي وتعنى بأسرار الحياة وتكشف القناع عما يجري في عقر ديارنا فالبحث يقترن بالوعي ولا ينفصل عن الاختيارات المصيرية الاساسية ولا عن المشاريع الحضارية التي تنبني عليها إرادة الحياة .

إلا أن ما تستند اليه طرق البحث هذه في حاجة الى عملية تطهير وانتقاء لا في صلبها ولكن في ما يحول حولها أو ما تستخدمه من كلمات « عادية » وعبارات مختلفة ومفاهيم تقنية والفرضيات التي تنطلق منها ليست بريئة في ذات نفسها والاشكاليات بدورها قد تتلاءم وقد لا تتلائم مع الاوضاع العربية . أضف الى ذلك أن النظريات التي قد يتحرك البحث في أرجائها ضمنيا أم لا مثل الماركسية أو الدركايمية أو البنوية قد تكون بمثابة المنظار المقرّب أو المبعد وفي بعض

(٨) راجع : سياسات العلوم الاجتماعية في العالم العربي ـ تونس ١٩٨٦

الحالة المشوّه والمحرّف ـ فنلاحظ أن الكثيرين من العرب المختصين في مختلف العلوم الاجتماعية يكرسون أوقاتا ثمينة وجهودا طائلة في بحوث منطلقها غير وارد فنراهم يحصلون الحاصل ويلهثون لاثبات بديهيات ثابتة منذ عهد بعيد أو ينقلون الى العالم العربي استنتاجات قد تكون تحققت فعلا في مجتمعات اخرى ولكن في ظروف مغايرة فنراهم يتفانون في تدقيق بعض المصطلحات ويسلطونها من أعلى على الاوضاع الاجتماعية العربية . والحال ان تلك المفاهيم وان كانت طريفة في ذات نفسها وجديرة بالاهتمام والدروس والعناية فانها أصلا وليدة المجتمع المصنع الاوروبي المسيحي واستخدامها باسم كونية المعرفة العلمية غير وارد وغير مشروع لانها لم تأخذ بعين الاعتبار كل الأوضاع الممكنة إنسانيا ، ولكن البعض منها فقط ، فنقلها بتلك السهولة والبساطة الى المجتمع العربي يكون حجر العثرة في مسيرة البحوث الاجتماعية العربية . ولذا نلاحظ أن عديد الابحاث لا مبرر لها سوى إرادة إثبات صحة النظرية الماركسية أو البنوية فتكون بمثابة تصريف النظريات على حساب المنهاجية .

وهذا لا يعني أن الباحث العربي لا بد له ان يصد عن النظريات الغربية السائدة وانما نعني بذلك أن عليه أن يسعى دوما الا تطغى النظريات على المنهاجية في بحوثه . فالنظريات والمفاهيم وأساليب البحث ليست الا آلات مسح ووسائل تحليل عليه نقدها هي على ضوء الواقع الاجتماعي العربي لا نقد المجتمع العربي على ضوئها هي فالمفاهيم وطرق البحث قيمتها عملياتية ولا تستمدّ أي قيمة الا من جدوى البحوث الجارية ـ فنوعية المنهاجية المتوخاة ذاتها تملي علينا إذن كثيرا من الحذر والتحري وقسطا وافرا من التواضع والنقد الذاتي .

الوطن العربي كسائر البلاد النامية ـ في حاجة الى إبراز خصوصياته عن طريق البحث الميداني وعن طريق التنظير اكثر مما هو في حاجة الى تجاوز تلك الخصوصيات نحو معرفة في نهاية التجرّد كما تدعونا الى ذلك البنوية أو الماركسية وعلينا ألا ننسى أن تأخرنا هو تأخر أيضا في التعرّف بدقّة على تفاصيل أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مما يفرض علينا أن نركز على منهاجيات تساعد على مزيد من التعرّف على الذات . وتأتي بعد ذلك في مرحلة ثانية من الأولويات ـ عملية الارتفاع بحصيلة البحوث الى مستويات من الاستنتاج والتنظير تنصب في نهاية الامر في التيّار العالمي مباشرة وقد يثبت هذا التدفق والسيلان أن ما نصوغه من بحث لا يزال دون المرجو فيدفع ذلك بنا وبدوره الى برمجة بحوث أخرى ودراسات تكميلية واستقصائية وهكذا دواليك لان حركية البحث الاجتماعي في وطننا لم تبلغ ذلك العمق وتلك القوة التي نلاحظها في البلاد المتقدمة من أوروبا وأمريكا وآسيا ـ حيث وفرة الامكانات ـ المهادي منها والعمي والبشري ـ وتقاليد الادارة حكومية كانت أم خاصة . وتنوع الاتجاهات يجعل هذه البحوث تمتد في اتجاهات ومستويات مختلفة ولذلك كان الاقتصاد في الجهد والبحث عن الجدوى يمثلان ضرورتين تتبلور حسبهما الاوليات في تخطيط بحوثنا العربية واختيار المنهاجيات الاكثر تلاؤما مع أوضاعنا وأهدافنا وقدراتنا ولذلك سنظل طيلة العشريتين القادمتين في حاجة الى تكثيف البحوث الميدانية والمنهاجيات التي أشرنا اليها في الحدود التي ذكرناها والتي تمثل بالنسبة الينا الطريقة المثلى .

معناه أن الافراط في التجريد وان كان محمودا في ذات نفسه وان كان ايضا يمكننا من توجيه بحوثنا الى أغراض معرفية كونية غير نفعية بصفة مباشرة قد يحرمنا من الاستفادة منها بالقدر المرجو ومن الخروج بها من مستوى المعرفة الى

مستوى التطبيق والاستنارة في اخذ القرار ـ وتمفصل ـ البحث الميداني بالسياسات العامة يمثل اشكالية أكيدة تتفرع عنها قضايا منهاجية هامة نذكر أهمها :

- اختيار الموضوعات وتحديد الاهداف وتطويع طرق البحث لها .
- علاقة الباحث بموضوع البحث والمجموعة والافراد الذين سيتعامل معهم .
- علاقة الباحث باصحاب القرار
- علاقة البحوث بعضها ببعض وضرورة ادراجها فى منظومة متناسقة .
- توخي منهاجيات ميدانية مختلفة حتى تتكامل البحوث ويستند بعضها لبعض فيزداد نصيبها من الدقة .

ولقد شاهدنا في العشرية الاخيرة من يدعو الى « علم اجتماع عربي[٩] » وتعرضنا إلى هذه الظاهرة في الصفحات السابقة الا أنه يبدو لنا ان المنهاجية المقارنة تمثل في الظرف الراهن افضل الطرق للاستجابة الى حاجيات الوطن العربي من ناحية ولبناء اللحمة بين مختلف أجزائه .

الحقيقة أن البحوث الاجتماعية قلما تخلو من المقارنة ، بل يمكن أن نجزم أن كل ما يكتب عن المجتمعات الاسلامية والعربية منطلقة من المفاهيم الغربية المستخدمة والتي تحمل في طياتها خلفية تعتمد المقارنة بصفة أو بأخرى ضمنية كانت أم واعية . وما الماركسية والدركايمية والفيبرية والوظيفية والهيكلية ، وحتى الميدانية ذاتها ، الا نتاج لتاريخ المجتمعات الغربية فالتمحور حول هذه المجتمعات واضح الى حدّ أن عديد الدراسات الاستشراقية ليست في نهاية الامر الا محاولة لتصدير المعرفة الاجتماعية الغربية بمختلف معاني الكلمة .

فكان لزاما علينا أن نفكك المنهاجيات المتبعة في هذه الدراسات الدخيلة حتى لا تطغي علينا النقدية المفرطة فلا نتقبل ما يكتبونه عن مجتمعاتنا الا بعين تميّز بين الاتجاهات وتغربل بين « الحقائق » وتصفي الحسابات فلا بد من أن نعيد النظر في اسلوب المقارنة ونكسب الامكانيات المنهاجية الهامة التي تضمنها هذه المنهاجية وذلك على شرط ان نحولها من « الخارج » الى « الداخل » فمن « الداخل » الى « الذاتي » وهذا يتطلب نقد المفاهيم وتزكية المواقف وضبط الفرضيات وتدقيق الاستنتاجات . معناه أن المنطلق في كل خطوة من خطوات البحث وفي كل مرحلة منه يبتغي أن يكون واقع المجتمعات العربية باعتبارها تكون وحدة متنوعة « أو ان شئنا تنوعا في الحدة ـ الانفجار السكني وتطور الاسرة وتقلص التقاليد وتفاقم البطالة ومعوقات التربية والفوارق الاجتماعية وتمزق المثقفين وعجز أجهزة الدولة والتزايد في عدم التوازن بين العرض والطلب والدخول في دوامة الاستهلاك وتأثير الوسائل السمعية والبصرية الحديثة وأزمة وسائل النقل . . . كل هذه عوامل وقواسم وظواهر اجتماعية مشتركة ـ الا أن السمات التي تتسم بها والجزئيات التي تتلوّن بها والظروف المحيطة بها تعطي لها طابعا خاصا بهذا البلد أو ذاك ويجب أن نرمي الى مزيد من التعرف على هذه

(٩) راجع : المركز الاقليمي العربي للبحوث والتوثيق في العلوم الاجتماعية ، نحو علم اجتماعي عربي ، القاهرة ١٩٨٣ .
مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية ، سياسة العلوم الاجتماعية في العالم العربي ـ تونس ١٩٨٦ .
مركز دراسات الوحدة العربية ، « نحو علم اجتماعي عربي ، بيروت ١٩٨٦

الخصوصيات وأن نعتبر تجربة كل بلد كجزء من تجربة أوسع ينبغي التعرف عليها ووضعها تحت تصرف أهل الذكر في البلاد وخاصة اصحاب القرار منهم .

ومهما يكن من أمر فان المقارنة ـ والمقارنة وحدها ـ تفتح المجال أمام عملية التنميط ويبدو أن منهاجية التنميط من أهم المنهاجيات وأكثرها خصوبة(١٠) وبديهي أن معظم الدراسات الحالية تنمّط المجتمعات الى شمال وجنوب والى مصنع وغير مصنع ـ والى تقليدي وعصري ـ والى نام وسائر في طريق النمو وسلطوي وديموقراطي الى غير ذلك من التصنيفات الشائعة . الا أن السؤال المطروح هو : هل من الممكن أن نتجاوز هذه التنميطات التي مردها في نهاية الامر مقارنة مع البلاد الغربية التي انطلقت منها حركة البحث الاجتماعي في العهد الحديث ؟ لماذا يبقى البحث مقصورا على ثنائية الغرب وبقية المجتمعات الاخرى ؟ لا بد من تجاوز هذا الحصر مما يعني بالنسبة للبلاد العربية ضرورة نقل محور البحوث ومركز الثقل المنهاجي من معايير دخيلة الى معايير ذاتية تأخذ بعين الاعتار العناصر الموضوعية المكونة للمجتمعات العربية . وتجديد فهم المجتمعات العربية لا يمكن أن يتم الا باعادة النظر في التنميطات التقليدية لينطلق من معايير ذاتية ثابتة أخرى مستقاة من واقع العرب ذاتهم ومما تفرضه عليهم ظروف الحياة ماضيا وحاضرا ومستقبلا . واعادة التمحور هذه عملية ضرورية ومنهاجية جزيئة لا بد منها ان أردنا الخروج من النظرة التحليلية المألوفة والتي تحصرنا بين مسلك التقليد الماضوي السلبي والتمزق الحضاري والاستلاب المنسوب للحداثة ـ بل الموضوعية في البحث تقتضي ان نضع التجمعات العربية في صلب جدلياتها التاريخية وفي إطارها الحقيقي المتجدد المبتكر الذي يجعلها تتعامل بشتى صور التعامل : الحافز منها والمثقل المحنط ، والمبدع الخلاق .

وهذا التنميط المبني على المقارنات الموضوعية الدقيقة لا بد أن يكون خاضعا الى ما هو أساسي وثابت في الحضارة العربية المعاصرة : علاقة الفرد بالمجموعة وبناء الشخصية الجماعية وتنشئة الافراد ومقدار ضغط القيم والتكامل العضوي لقطاعات النشاط ـ وينبغي ايضا أن يأخذ هذا التنميط بعين الاعتبار جملة المستجدات التاريخية وخصوصيات الأطر الطبيعية والاقتصادية والتنظيمية والسياسية محليا وجهويا ودوليا ـ اذ من البديهي ان الوضع الاجتماعي يختلف حسب كثافة السكان وشح الموارد المالية والبعد الجغرافي عن المراكز السياسية وقوة الضغوطات الخارجية والمكانة في الاقتصاد العالمي .

هذه اعتبارات سريعة جدًا ذكّرنا بها فقط لنثير الانتباه الى أهمية طريقة البحث المقارن التي نرى فيها منهجية سليمة جديرة بان تعطي في الظروف الراهنة دفعا جديدا لبحوثنا الاجتماعية العربية حتى نخرج من العقم الذي تردت فيه بعض جامعاتنا وحتى نقلب الوضع فنساهم في فهم الذات ونعين اصحاب القرار على افراز احسن الاختيارات وننحت كذلك صورة جديدة أو على الاقل معدلة وأكثر انصافا وواقعية مما تعطيه عنّا عديد الدراسات الحالية وليست الحياة الاجتماعية في آخر الامر سوى « معادلة » نهائية شاملة ضخمة لكل ما يجري على ساحتها .

---

(١٠) راجع : — Karl W. Deutsche. La theorie des systemes et la Recher che comparative. Revue Internationale de Sciences Sociales n°103-1985

— E.A. Lisles. La comparaison internationale comme methode de validation en Sciences Sociales.

نفس المصدر

واذا أعطينا لكل هذه الاعتبارات ما ينبغي من الاهتمام فلا بد من أن نستنتج ان الامة العربية « عنقودية » الشكل متنوعة السمات متفرعة الاساليب ولكنها متجانسة النفس أحادية الروح لانها تجابه باسلحة متنوعة تحديات هي في نهاية الامر ومهما اختلفت في الشكل وفي الظرف فانها تعيش مشاكل جوهرية مصيرية وبالتالي موحَّدة وموحِّدة تساهم بدورها في نحت تلك « المعادلة » الاجتماعية .

تجديد المنهاجيات في العلوم الاجتماعية أخذناه في مستويين بيّنا بينهما لان التطورات الحالية تجري على الصعيد العالمي وتجري كذلك على الصعيد القومي العربي ـ ولفتنا الانتباه الى الحذلقة واسعة النطاق التي جعلت المنهاجية تغنم المكاسب التي حققها إقحام الرياضيات والاحصائيات والاعلامية في صلبها ورأينا أن التفنن في جمع المعطيات وفي تدقيقها وفي تخزينها في بنوك ترتفع طاقتها المحاسبية يوما بعد يوم . ولفتنا النظر ايضا الى واقع العلوم الاجتماعية في الوطن العربي وما يترتب عنه من مشاكل خاصة تتعلق بمعالجة قضايا التنمية والسيطرة على التغير الاجتماعي مما يفرض تفريع المنهاجيات الى مسالك تتماشى ومتطلبات الاهداف المتبعة .

وبطبيعة الحال ما يجري على ساحة البحث الاجتماعي العربي ينصب في المخزون العالمي فهي تمثل المساهمة العربية لبسط مشاكل العصر كلها واكدنا على ان الذي يعوزنا هو الربط الافقي بين البلاد العربية التي يرتبط كل منها بصفة اسرع وأسهل مع البلاد الغربية فلا تقارن أوضاعها الا بالرجوع الى التجارب الغربية ولذا أكدنا أهمية المنهاجية المقارنة على الا يفهم ذلك كغاية في ذات نفسها ولكن كأداة للفهم المشترك يرمي في نهاية الامر الى فهم الانسان والى خدمته أينما كان .

وان المتأمل في حاضر العلوم الاجتماعية يلاحظ انها تتأثر بخمسة تساؤلات مصيرية كبرى .

١ ـ التشكيك المعمم على نطاق واسع في قيمة الايديولوجيات الكلية التي كان لها دورها الفعّال في دفع العلوم الاجتماعية الى الامام ـ لا الماركسية ولا البنوية ولا الدركايمية ولا الفيبرية تتمتع الآن بسمعة طيبة ـ فضل هذه النظريات على العلوم الاجتماعية لا يحصى ذلك أن آلاف الدراسات مدينة لها بشيء ما ان كبيرا فيسيرا . الا أن الاحلام العريضة التي فتحتها أمامنا لم تتحقق إلا جزئيا وبصفة هشة ، أضف الى ذلك أن المجتمعات تطورت في اتجاهات متباينة عن العقائد السائدة في أوساط الاجتماعيين ان لم تكن مناقضة لها تمام التناقض . وربما كانت كلمة « افلاس » هنا مبالغا فيها أو في غير محلها ، الا أنه لم يبق احد ينتظر من كبريات النظريات ان تساهم بصفة ايجابية في القفز بالبحوث الاجتماعية ـ فظلت هذه تبحث عن مراجع أخرى لتنير السبيل أمامها . وواضح ايضا أن الدراسات الميدانية التجريبية في حاجة الى توجيهات تسير على هديها . . . والسؤال الملح يتعلق بكيفية تعمير الفراغ الحاصل .

٢ ـ والسؤال الثاني ناجم عن تعدد مصادر الدراسات الاجتماعية فحتى الستينات كان الخطاب الاجتماعي يصاغ في بعض العواصم بالبلاد النامية وكان أيضا اختصاصا لعدد قليل من الجامعات ومؤسسات البحث والدراسات أما اليوم فاننا نعيش توسعا أفقيا وتوسعا عموديا لمصادر الدراسات . فمن ناحية اخذت جميع الدول تتحمل مسؤولياتها في مختلف مجالات البحث العلمي بل أصبحت تعتبر البحث الاجتماعي عنصرا من عناصر السيادة القومية . وعمّت

القناعة ان البحث الاجتماعي لا يمكن أن يتم عن طريق الانابة وان كانت الاغلبية الساحقة للدراسات الاجتماعية لا تزال تنتج في امريكا الشمالية وفي اوروبا فان دراسات هامة ـ وهامة جدا ـ صدرت عن الهند والبرازيل واليابان وكوريا ونيجيريا وطبعا من مختلف الدول العربية .

والى جانب هذا التوسع في رقعة مصدر الدراسات نلاحظ ان عديد المجموعات المحلية والاقليمية خرجت من صمتها العلمي ودخلت في المساهمات الفعلية ولئن كانت هذه المساهمات لا تزال متلعثمة محتشمة فانها تمثل بمجرد وجودها إعادة النظر لما كان يصدر من أحكام ضمنية في الدراسات السابقة . ويمكن أن نقول ان البحوث الاجتماعية ستركز في السنوات القادمة اكثر فأكثر على الحوار الضروري بين الملاحظين الخارجيين والدارسين من الداخل ـ وقد لفتنا النظر فيما سبق الى الجديد الجاري في اطار منهاجية المشاركة الذاتية [١٠] تزايد عدد الدراسات الاجتماعية التي تلجأ الى تحليل المحتوى أو الى استقصاء الواقع عن طريق المعايشة من الداخل . ولعل البحوث الانثربولوجية الثقافية في مقدمة هذا الاتجاه .

٣ ـ القضية الثالثة تتعلق بالمنافسة التي تنجر عن دخول أجهزة الاعلام الجماهيرية في محاولة تحليل الاوضاع الاجتماعية وتغطيتها ، ذلك أن هذه الوسائل وان كانت تمثل واقعا اجتماعيا فانها تنقلب من حين لآخر لوسائل يتم عن طريقها الوعي بالمشاكل القائمة وتحسس الجماهير عن طريقها بالآفاق المفتوحة أمامها أضف الى ذلك أنها اخذت أكثر فأكثر تبادر بالقيام بدراسات بحوث اجتماعية وبسبر للآراء ومن أجل ذلك لم يبق الباحث أمام وضع اجتماعي « خام » بكر يفتحه لاول مرة بل يكون الواقع قد مرّت عليه تجارب ليست دائما مثالا للبراءة فتوجه وسائل الاعلام البعض من الواقع وتشوشه أو تضفي عليه صبغة ما : صبغة الرفض أو المطلبية أو صبغة التشبث والتمسك ـ اضافة الى مختلف دواعي التغير الذي تبثه تلك الوسائل ضمنيا أو جهرا في طيات ما تنقله من تصورات ورموز وشعارات .

٤ ـ أضف الى ذلك ايضا الجدل الجاري بين الباحثين أنفسهم حول المنهاجيات التي لم تبق محل تسليم وتصديق الا بصفة نسبية ، ذلك أن التوسع الباهر الذي شهدته العلوم الاجتماعية وأخرجها من حيز الجامعات وأقحمها في مناطق لم تكن تلعب دورا فيها مثل الدواوين الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة والبنوك والشركات والبلديات والنقابات والتنظيمات المهنية التي اصبحت تضطلع بشيء من المسؤولية في البحث وتوجهه وتطرح عديد المشاكل الميدانية المعنية بل في بعض الحالات تقوم مباشرة بها أو تكوّن لها مكاتب دراسات خاصة الا أن هذا النوع من طلب النجدة ينقلب أحيانا الى عمليات تبرير ذاتي وملاعبة مع الواقع . . . والاهداف هنا والمنهاجيات المطوعة لها تجعل البحوث توظف الى سن سياسات مجتمعية محدودة ـ الى حدّ اننا اصبحنا نفرّق اصلا بين البحوث « الاجتماعية » والبحوث « المجتمعية » . والمنهاجيات بدورها تتأثر طبعا بذلك ـ ذلك أن الفرضيات التي تنطلق منها البحوث في تلك الصورة والاشكاليات أصبحت من تزويد الادارة وأصحاب القرار . والاعتبارات النظرية أقل ما تكون عندهم من الاهمية دون ان يعني ذلك غيابها التام ، بل آلت المنهاجيات الى مجرّد البحث عن تناغم ممكن بين الاهداف المتبعة وقدرة الواقع على تقبلها ونوعية القرارات المرجو اتخاذها . . . وقد ينقلب البحث الى المجاملات . . .

ولعل هذا الذي جعل مناهجية اللعب والمشاهد تحتل المكانة الفائقة التي نراها لانها تترك لاصحاب القرار اكثر عدد من فرص الاختيار حسب فرضيات معينة ونلاحظ هكذا انتقال نقاط التشديد من نوعية في طرح المشاكل الى نوعية أخرى . ففي حين كان علم الاجتماع يبحث في التضامن الاجتماعي على الطريقة الدركايمية أو الاسرة أو التربية اصبحت بحوث هامة تشدد على المؤسسات الراعية للضمان الاجتماعي والتعاون والتأمين حسب اصناف المجتمع من اجراء وبطالين وشيوخ وأرامل ومحالين على المعاش ومهاجرين وغيرهم ـ ذلك أن هذه البحوث العلمية من النوع العملي القابل للتطبيق السياسي هي التي تسن على ضوئها السياسات المجتمعية ـ والجدال قائم بين أهل الذكر ويدّعي بعض المتطرفين منهم أن هذه المناهجيات تمثل تنكرا للمنهاجيات الموضوعية العلمية لانها تحمل في طياتها اختيارا جوهريا يتمثل في نقل القرارات الخاصة باجراء البحث من الباحث الى المنتفع به والحارس على اجرائه فتتغلب أهداف السلطة الساهرة على البحث والدافعة اليه وتصبح معيارا لنجاعة البحث وجدواه بكل معاني الكلمة ماديا وأدبيا وثقافيا وسياسيا .

٥ ـ ثم ان تدريس العلوم الاجتماعية ـ والتوسع المبالغ فيه وخاصة في علمي الاجتماع والنفس ـ أحدث مشاكل اخرى اذ واكبه نقل المنهاجيات من طور الوسائل المبتكرة لفهم مشاكل ما الى صناعة وحرفة تكرّس الآلية والتكرار ـ فأصبحت المنهاجيات صنفين : صنف يوكل الى الباحثين الاكاديميين الذين يواكبون تطور البحوث نظريا وميدانيا ويجعلون من تلك المنهاجيات خلقا مستمرا وابتكار متواصلا للتقدم في فهم القضايا المطروحة وذلك بتوظيف ما أمكن من طرق يستقونها من شتى قطاعات المعرفة وعلى هؤلاء يرتكز التقدم العلمي ، وصنف آخر يكتفي بالقيام ببحوث حسب المنهاجيات الناجحة أو المألوفة . وسبر الآراء كما يجري به العمل في الولايات المتحدة أو اوروبا أحسن مثال لذلك ، فالمطلوب هنا من المنهاجية أن تتوصل في أقرب الآجال وبأقل تكلفة الى نتيجة ما ولو كانت تقريبية فتتقلص المنهاجية هنا الى مجرّد وصفة ونلاحظ ان تدريس علوم الاجتماع انتقل في أكثر من حالة الى تلقين آلي لجملة من العمليات وبعض التفسيرات النظرية المواكبة لها فانحدرت بهذه الطريقة من مستوى المنهاجية الى مستوى التقانة المطبقة .

أضف الى هذه العوامل تحديات أخرى تعود أصلا الى تقهقر فكرة الشمول في البحث وأهمية تحديد مناطق المعرفة الراجع كل منها الى اختصاص معين والاهتمام المتزايد بالتأويل الاجتماعي لمستنتجات البحوث وهذه مشاكل أساسية طالما غضضنا عنها النظر ورجعت تطفو على سطح الاهتمامات المباشرة مما جعلنا اليوم نشعر بحاجة أكيدة ماسة لتقييم شامل لجميع المنهاجيات الاجتماعية بعين نقدية تراجع مباديء العلوم الاجتماعية وتعيد النظر في أحوالها المنطقية في اطار تصور شامل لها .

وهذه الاتجاهات الجديدة تعيد الى الاذهان حقيقة كنا تناسيناها وهي أن العلوم ـ والعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص ـ في حالة ذهاب واياب بين النظر والواقع . والمنهاجية ليست في نهاية الامر الا الطريق الرابطة بين مشاكل الواقع وتصور الباحثين والعلماء .

* * *

مسيرة الفيزياء على الحبل المشدود بين النظرية والتجربة (من نيوتن إلى آينشتاين وما بعد)

محمد علي العمر

« الجسم لا يبدأ بالحركة أو يكف عنها من تلقاء نفسه » : العالم الإسلامي ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) م .

« عندما نهتم بالعلماء العظماء وحياتهم نستطيع أن نتحمل العلوم . لكن عندما نتتبع تطور الافكار ، تصبح العلوم ساحرة حقا » : الفيزيائي البريطاني ماكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩) م .

المقدمة :

نقدم في الصفحات التالية عرضا لتطور الافكار الفيزيائية منذ نيوتن (وما قبل قليلا) الى أينشتاين (وما بعد) . وقد كان هدفنا الأول هو متابعة الافكار وتطوراتها عبر الزمن من عالِم لآخر - من بدايتها منذ قرون مضت الى آخر تطوراتها المعروفة حاليا . فالافكار كالاشخاص لا تبدأ كبيرة ، بل تبدأ صغيرة وغامضة وضعيفة . لكن ، مع مرور الزمن والتغذية المناسبة والتطوير بواسطة العقول العظيمة ، تنمو الفكرة وتكبر وتنضج وتقدم عطاءاتها الكثيرة في خدمة العلم والانسان .

ولم نكتف هنا بعرض الافكار وترابطاتها ، وهو أمر هام بالطبع ، ولكننا حاولنا ايضا إعطاء ملاحظات مفيدة عن حياة العلماء ، الذين شاركوا في تطوير هذا العلم الكبير الواسع . فمن المعروف ، أنه لا يمكن فصل عمل العالم عن حياته تماما . إن أحداث حياته تؤثر في إنتاجه العلمي ، كما يظهر مرارا في عرضنا .

نبدأ العرض بالقرن السادس عشر ، عصر النهضة ، حيث نتعرض لنماذج (كوبير نيكوس) و(كيبلر) عن حركة الأرض والكواكب في النظام الشمسي ، بعد ذلك نتطرق لاعمال (غاليليو)[1] في

(١) في عملنا هذا نستخدم حرف (غ) ، أي (غين) لتمثل لفظ الحرف (G) في اللغات الغربية وليس هناك التباس في ذلك ، إذ أن هذه اللغات لا تحتوي عادة على لفظ يماثل حرف (غين) في لغتنا العربية .

الميكانيك وحركة الاجسام الساقطة . استطاع (غاليليو) بابحاثه وعرض هذه الابحاث على الرأي العام بطريقة منطقية وشيقة تحرير الفيزياء الى حد كبير من هيمنة الافكار القديمة الخاطئة التي دعمتها الكنيسة في مجال الفلك والفيزياء .

ثم نتابع العرض في القرن السابع عشر ، عصر الازدهار الفيزيائي الأول ـ عصر نيوتن . نعرض قوانين نيوتن المعروفة في الميكانيك والثقالة . نتيجة لهذه القوانين ، التي لا تزال تخدم في معالجة حركة الاجسام على المستوى العياني (macroscopic) حتى يومنا هذا ، استطاع هذا الفيزيائي العظيم أن يفسر سقوط الاجسام على الأرض وحركة القمر والكواكب في السماء . نقدم ايضا نظرية نيوتن عن الضوء ، وهي النظرية الجسيمية ، كما نقدم نظرية (هايغنز) الضوئية ، وهي النظرية الموجية . في هذه الحالة يتغلب الأخير على الأول .

في القرن التالي ، الثامن عشر ، تشهد الفيزياء ركودا عاما ، يتسم بالابتعاد عن الطبيعة الى حد ما والتركيز على المعالجات الفيزيائية الرياضية . لكن (كولومب) يكتشف هنا قانون التربيع العكسي حول التفاعل بين الشحنات الكهربائية .

وفي القرن التاسع عشر تنتعش الفيزياء من جديد (بعد فترة الهضم والاسترخاء التي سادت في القرن السابق). ففي مجال الحرارة والغازات ، تؤدي التطورات الى مبدأ انحفاظ الطاقة (هيلمهولتز) والنظرية الحركية الاحصائية للغازات (ول وماكسويل) ، كما تنتصر النظرية الموجية للضوء (يونغ وفرينيل) وتتحدد سرعته .

ويبدأ في هذا القرن علم الاطياف الذرية (كيركوف) ، الذي أدى فيما بعد الى اكتشاف بنية الذرة . وفي هذا القرن ايضا ، توحدت الكهرباء والمغنطيسية في مجال واحد هو الكهرطيسية ، وذلك على أيدي (أمبير) و (فاراداي) بصورة خاصة . كما أدخل (ماكسويل) الضوء ضمن هذا المجال (الكهرطيسية) ايضا .

في القرن العشرين (وأواخر التاسع عشر) تؤدي الأبحاث في أطياف إشعاعات السطوح السوداء الى فرضية (بلانك) حول تكميم الاشعاع الضوئي . هذا العمل يترسخ في نموذج (آينشتاين) الفوتوني عن هذا الاشعاع . يقوم (تومسون) ايضا باكتشاف الالكترون ، كما يبدأ رذرفورد وبوهر بتحديد نموذج لبنية الذرة الهيدروجينية والذرات الاخرى . هذا النموذج يتطور تدريجيا الى نظرية ميكانيك الكم والميكانيك الموجي للجسيمات الدقيقة على ايدي دي برويلي ، وشرودينغر ، وهايزنبرغ ، وديراك ، وباولي .

ايضا تكتشف النواة الذرية (قلب الذرة) واشعاعاتها وتفاعلاتها المختلفة ـ على أيدي (بيكيريل) و (آل كيوري) و (رذرفورد) ، بصورة خاصة . وتتوضح البنية النووية للنوى المختلفة ، على انها تشكيل متوازن الى حد ما من البروتونات والنيوترونات . هذه التطورات تؤدي الى بناء المفاعل النووي (لانتاج الطاقة) بجهود (فيرمي) ، وايضا الى تفجير القنبلة النووية الأولى في التاريخ .

بعد ذلك ، نقدم بعض الافكار الرئيسية في نظرية النسبية . هذه النظرية العجيبة الغريبة (آينشتاين ، ١٩٠٥) تؤدي الى تعديلات في مفاهيمنا الاساسية ، كالزمن والطول والكتلة والطاقة ، فليس هناك كميات مطلقة ، بل إن النتائج نسبية تعتمد على سرعة الراصد .

وفي نهاية العرض ، نعطي لمحة عن بعض الانشطة الحديثة في مجالات الجزيئات والجوامد التي تشكل الهيكل الاساسي في فهمنا الحاضر للمادة وسلوكها . كما نقدم عرضا موجزا لموضوع لجسيمات الاساسية في الفيزياء ، التي تشكل « القطع » الاساسية في بنية الجسيمات العديدة التي نشاهدها ، هذا العرض يقودنا الى جسيم (الكوارك) الغريب حقا . وفي النهاية ، نتعرض لموضوع المنهجية الفيزيائية ، وهي الطريقة المتبعة للتوصل الى القوانين الفيزيائية المختلفة .

١ ـ القرن السادس عشر ـ بداية عصر النهضة العلمية :

بدأت النهضة العلمية والفنية في القرن السادس عشر ، إذ حدث في هذا القرن أن بدأ العلماء والمفكرون الأوربيون بالتحرر من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتشددة وبالتقرب من الطبيعة ، ومحاولة فهم أسرارها بدون أفكار وشروط مسبقة . إنها بداية الانفتاح الفكري .

عاش في هذا القرن بعض عمالقة الفكر والفن من أمثال الفنان ـ المخترع (ليوناردو دافينيتشي) والفنان الموهوب (مايكل آنجيلو) . وفي العلوم والفلك كان هناك (كوبر نيكوس) و (كيبلر) وأخيرا الفيزيائي الفلكي (غاليليو) . سنرسم فيما يلي الخطوط العريضة للانشطة الفلكية والفيزيائية ـ التي تحققت خلال هذا القرن .

١ ـ ١ : الفلك ـ نموذج (كوبر نيكوس) وقوانين (كيبلر) :

كان الفلك يختص في ذلك الوقت بصورة رئيسية بدراسة حركة الأرض والشمس والكواكب المعروفة عندئذ ، وهي المجموعة التي نسميها الآن بالنظام الشمسي وكانت النظرية السائدة عندئذ هي (نموذج المركز الأرضي) ، وهي نظرية تعود في أصلها الى العلماء اليونانيين القدامى ـ وحسب هذا النموذج ، فان الأرض ثابتة في مكانها ، في موقع ما في الفضاء ، وتدور حولها الشمس والكواكب المرصودة . وليس هنا المكان المناسبة للتوسع في تفاصيل هذا النموذج ، لكنه استطاع أن يقدم تفسيرا لبعض الظواهر المعروفة ، مثل حركة الشمس اليومية ودوران القبة السماوية في الليل وغيرها .

لكن هذا النموذج بدا غير مقنع من عدة جوانب . فمن الوجهة البدهية الحسية ، كان يصعب التصديق بأن الشمس الضخمة ، العملاقة هي التي تدور حول الأرض الصغيرة مع أن المنطق الحسي يوحي بعكس ذلك ومن ناحية فنية محضة ، فإن النموذج أعطى تفسيرات وشروحات معقدة جدا لحركة الكواكب . ففي هذا النموذج ، لم تظهر أية منهجية واضحة يقبلها العقل الإنساني ، في عصر الانفتاح ، لحركة هذه الكواكب .

قام الفلكي البولندي ـ الألماني نيكولاس كوبر نيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) بتقديم نموذج بديل للنظام الشمسي . النموذج الجديد يدعى « نموذج المركز الشمسي » ، وفيه يفترض أن الشمس ثابتة . في موقع ما في الفضاء ، وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور في مدارات (دائرية) مختلفة حول الشمس وقال (كوبر نيكوس) بأن الأرض كروية الشكل وتدور حول محورها في نفس الوقت الذي تدور فيه الشمس . وبهذا استطاع أن يفسر ، ليس فقط حركة الشمس اليومية ، بل أيضا الحركات الاهتزازية[٢] الظاهرية للكواكب وأسباب الفصول والمواسم السنوية . إن هذه الحركات الاهتزازية ، حسب (كوبر نيكوس) ، هي ظاهرية فقط وليست حقيقية ، وتعود الى أننا نشاهد ونرصد هذه الاجسام من أرض متحركة . إن حركة الأرض المدارية حول الشمس تجعل حركة الكواكب ، البسيطة في الأصل ، تبدو معقدة حقا .

النموذج الذي طرحه (كوبر نيكوس) قدم الإطار الفكري والفلسفي لطريقة جديدة في معالجة النظام الشمسي . لكن النموذج كانت تنقصه الصيغة الرياضية الكمية . هذا النقص قام بتعويضه الفلكي (كيبلر) الذي عاش في الفترة (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) . عمل (كيبلر) لفترة كمساعد للفلكي التجريبي الدانمركي (تايكوبراهي) ، الذي قام برصودات تفصيلية ودقيقة عن حركات الكواكب . ولم يكن (كيبلر) يحب القيام بالتجارب بنفسه ، بل كان يحب الرياضيات بما فيها من أشكال هندسية وأرقام ونظريات .

عكف كيبلر على دراسة نتائج براهي المسجلة عن حركة الكواب ، وخصوصا كوكب (المريخ) ، وعلى محاولة تفسير هذه الحركات على أساس نموذج (كوبر نيكوس) الذي كان (كيبلر) قد درسه بالتفصيل . وبعد سنوات طويلةمن المحاولات استطاع (كيبلر) ، بداية من عام (١٦٠٩) ، أن يعطي الصيغة الرياضية التي تعبر عن حركة الكواكب . هذه هي قوانين (كيبلر) الثلاثة :

الأول ـ كل كوكب يدور حول الشمس في مدار هو قطع ناقص ، وتقع الشمس في إحدى بؤرتي هذا القطع .

الثاني ـ نصف القطر الذي يصل الشمس بالكوكب ويدور مع الكوكب ، يغطي مساحات متساوية في أزمنة متساوية .

الثالث ـ بمقارنة الكواكب مع بعضها البعض ، فإن مربع الدور (الزمن الدوري) لحركة الكوكب يتناسب طردا مع مكعب نصف المحور الرئيسي لمدار هذا الكوكب .

هذه القوانين الثلاثة أقنعت ، مع مرور الزمن ، معظم الفلكيين في تلك الفترة بصحة النموذج الجديد ، وأدت الى قلب النموذج اليوناني القديم . لكن محاولة تعميم هذه النتائج الى أوساط الرأي العام أدت الى صراعات مريرة مع الكنيسة استمرت لقرون عديدة .

---

(٢) ـ الحركة الاهتزازية تعني التغير الدوري في بعد الكواكب عن الأرض ، إذ يبتعد الكوكب عن الأرض أحيانا ثم يعود ليقترب منها ، وهكذا بشكل دوري .

١ ـ ٢ : الميكانيك ـ (غاليليو) وحركة الأجسام الساقطة :

لم يتطور علم الميكانيك كثيرا منذ زمن العالم اليوناني أرخميدس وحتى القرن السادس عشر لكن هذا القرن شهد اهتمامات عديدة في علم (الإستاتيك) أو علم التوازن وفي علم الديناميك (الحركة). لقد جرت هناك دراسات عن الحركة وعن القوى التي تسببها ، وعن الطريقة التي تعالج بها القوى المتعددة .

ويمكن أن نحدد بداية علم الميكانيك الحديث بأعمال الفيزيائي العظيم الرائد غاليليو غاليلي الذي عاش في الفترة (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ـ نفس فترة كيبلر تقريبا . درس غاليليو الطب ، ثم تحول بعد ذلك الى دراسة الرياضيات والفيزياء . بعد تخرجه ، عمل غاليليو أستاذا في عدة جامعات إيطالية ،، منها جامعات (بيزا) و (فلورنس) و (بادوا).

كان غاليليو من الانصار الأقوياء لنموذج كوبر نيكوس عن النظام الشمسي . وبنى تلسكوبا بسيطا (كان الأول من نوعه في إيطاليا) لتضخيم صور الاجسام البعيدة . ووظف هذا الجهاز لمشاهدة سطح القمر ، حيث اكتشف الجبال والحفر الموجودة على السطح ، كما رصد الكوكب الضخم ، المشتري ، واكتشف وجود عدة أقمار تدور حوله . ورصد سطح الشمس ، من خلال الجهاز ، حيث اكتشف وجود البقع الشمسية هناك .

وفي الميكانيك ، قام غاليليو بأعمال هامة ، شكلت حجر الاساس لدراسات وتطورات لاحقة . نذكر منها ما يلي :

الأجسام الساقطة الحرة : برهن غاليليو على أن الأجسام الساقطة (ممن برج عال ، مثلا تكتسب نفس السرعة ، بغض النظر عن أوزانها ، مع تجاهل تأثير الهواء . واستنتج أن الاجسام جميعها تتسارع نحو الأسفل بنفس المقدار . ويبدو أن (غاليليو) قد أعاد هذا التجربة مرارا من برج (بيزا) المائل ، وأمام حشد من أساتذة الجامعة وطلبتها ، وذلك من أجل كسب المعركة ضد معارضيه العديدين .[٣]

الحركة ذات التسارع المنتظم : قام (غاليليو) بتجارب عديدة على حركة الأجسام على السطوح المائلة ، حيث يكون التسارع (العجلة) منتظما . وأثبت أن المسافة التي يقطعها الجسم تتناسب طردا مع مربع الزمن الذي ينقضي منذ بداية التجربة .

حركة القذائف : كان غاليليو أول من أثبت أن المسار الذي تأخذه قذيفة (projéctile) هو على شكل قطع مكافىء (parabola) . لقد توصل الى هذه النتيجة باعتبار أن الحركة هي تراكب (Superposition) بين حركتين بسيطتين : حركة منتظمة في الاتجاه الأفقي ، وحركة سقوط حرّ في الاتجاه الشاقولي (الرأسي).

---

(٣) ـ مرجع (٣) ـ ص : ٣٥ ـ ٣٨

حركة النواس : لقد لفتت هذه الحركة انتباه (غاليليو) في وقت مبكر من حياته ، عندما كان يصلي في الكاتيدرائية في مدينة (بيزا) . لقد لاحظ أن المصباح الكبير المعلق في السقف كان يمضي في حركة اهتزازية ، بعد أن يضاء ويترك حرا . وقام بقياس دور الحركة بواسطة « الساعة » الطبيعية الموجودة معه ، أي نبضات قلبه . وجد (غاليليو) أن الدور لا يتغير حتى عندما تبدأ الحركة بالتلاشي والخمود وتقل سعة الاهتزاز . وبرهن أيضا على أن الدور لا يعتمد على الوزن ، وأن (الدور) يتناسب مع الجذر التربيعي لطول النواس . هذه الأفكار طورت بعد ذلك بسنوات ، من قبل العالم الهولندي (هايغنز) ، في صنع ساعة نواسية لقيت قبولاً واسعا كأول أداة يمكن الاعتماد عليها لقياس الزمن .

إن معظم أفكار ودراسات وأبحاث (غاليليو) في الميكانيك ظهرت في كتابه التاريخي المعروف « عن علمين جديدين On Two New Sciences » . هذا الكتاب نُشر في هولندا ، وليس في ايطاليا ، في عام (١٦٣٨) ، أي قبل وفاته بسنوات قليلة . ويعتبر هذا الكتاب بحق من أعظم وأهم أعماله العلمية . وإلى (غاليليو) يعود الفضل بالإصرار دوما على إجراء التجارب لاختبار النظريات والأفكار . لم يكن يكتفي ، مثل أسلافه ، بالاعتماد على النتائج الفكرية (النظرية) فقط . كما أنه لعب دورا كبيرا في تحرير العلوم الطبيعية من الهيمنة التي فرضها العلماء اليونانيون القدامى ، وخصوصا أرسطو ، والتي أيدتها الكنيسة بقوة في ذلك الوقت . وقد تعرضت آراء غاليليو الجديدة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالأمور الفلكية للكثير من النقد والمحاكمة وحتى الاضطهاد من قبل الكنيسة .

كما كان (غاليليو) من أوائل الباحثين الذين استعملوا الطريقة الرياضية في التعبير عن النتائج الفيزيائية . لقد كان يصر على أن الرياضيات هي اللغة المناسبة للطبيعة ، وأن الفهم الكامل للظواهر الفيزيائية يعتمد على ترجمة التجارب الوصفية إلى تعابير كمية .(٤)

١ ـ ٣ : الكهرطيسية :

يمكن القول بأن علم الكهرطيسية قد بدأ بأعمال العالم الانجليزي « وليام جيلبرت » الذي عاش في الفترة (١٥٤٠ ـ ١٦٠٣) ، وهي الفترة التي عاش فيها غاليليو على وجه التقريب . درس (جيلبرت) في جامعة (كيمبريدج) وعمل في البداية كطبيب ، حيث كان ناجحا جدا لدرجة أنه اصبح الطبيب الخاص للملكة .

تحولت اهتمامات جيلبرت إلى الفيزياء حيث أجرى تجارب عديدة في مجال الكهرطيسية . وفي عام (١٦٠٠) نشر كتابه الشهير « المغنطيس DeMagnete » ، الذي اشتمل على عدد كبير من الحقائق والتجارب والأفكار . قام جيلبرت بتجارب عديدة في الكهرباء وخصوصا على مادة (الكهرمان) المشحونة بطريقة الاحتكاك . وكان أول من استعمل التعابير (القوة الكهربائية) و (التجاذب الكهربائي) كما أجرى جيلبرت تجارب على الإبرة المغنطيسية

(٤) ـ مرجع (٨)ـ ص ٠ ٤٤ ـ ٤٥

وتوجهها الى الشمال . وكان أول من استعمل التعبير (القطب) فيما يخص طرف الإبرة . ثم استنتج ، بطريقة « تفكيرية » ، أن الأرض لابد أن تكون « إبرة مغنطيسية ضخمة ».

كان (جيلبرت) من مؤيدي نموذج كوبر نيكوس ، وحاول في كتابه أن يقدم أدلة جديدة على صحة هذا النموذج . كما لاحظ ، ربما للمرة الأولى في التاريخ ، أن الخواص المغنطيسية للأرض تعني أن هذه تلف حقا حول محورها ، كما افترض كوبر نيكوس .

وجه جيلبرت انتقادات شديدة ولاذعة لمن سبقه من العلماء ومما قاله : (الفلاسفة الحديثون يجب أن يتجنبوا التعليم الذي يأتي من الكتب فقط ، والذي يستند فقط إلى الجدل الغروري والحدس . . . على الرجال الأذكياء أن يستندوا إلى الحقائق وإلى التجربة .[٥]

٢ ـ القرن السابع عشر :

استمر الانتعاش العلمي الذي بدأ في القرن السابق ، وشمل انجلترا وجميع انحاء أوروبا ، ما عدا المانيا التي شهدت صراعات سياسية ودينية مريرة خلال النصف الأول من هذا القرن كما شهدت إيطاليا انتكاسا في أعقاب محاكمات الكنيسة لغاليليو ، مما أدى إلى إضعاف الحركة العلمية في ذلك البلد .

ومن العلماء الذين لعبوا أدوارا رئيسية في الحركة العلمية خلال هذا القرن نذكر : توريشيلي (إيطاليا) ، باسكال وديكارت (فرنسا) ، وبويل ، هوك ، هالي ، ونيوتن (انجلترا) ، وأخيرا هايغنز (هولندا).

٢ ـ ١ الميكانيك والفلك ـ قوانين (نيوتن) في الميكانيك والثقالة (الجاذبية) :

حظى علم الميكانيك باهتمام بالغ بين العلماء في القرن السابع عشر . فبعد أعمال غاليليو العديدة حول حركة القذائف ، كانت هناك حاجة إلى فهم شامل لحركة الأجسام العادية بالقرب من سطح الأرض ، كما كانت هناك حاجة لفهم حركة الأجرام السماوية مثل حركة القمر حول الأرض وحركة الكواكب حول الشمس . ورغم إسهامات العلماء العديدين في هذا الموضوع فإن الفضل الأول في تحقيق الانتصار الكبير يعود إلى العالم الانجليزي (نيوتن).

عاش اسحاق نيوتن في الفترة (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) ، حيث ولد في نفس العام الذي توفي فيه غاليليو . درس نيوتن في جامعة كيمبريدج ، وكان على اطلاع تام على أعمال كيبلر وغاليليو وغيرهما . وتوصل نيوتن إلى نتائج هامة في الرياضيات والميكانيك والفلك في عام ١٦٦٦ (أو حتى قبل ذلك) ولكنه تأخر لسبب ما في نشر هذه النتائج أكثر من عشرين عاما ، حيث نشرت لأول مرة في كتابه الشهير « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية Principia Mathematica » في عام ١٦٨٧ . وفي هذا العمل العظيم ، قدم نيوتن قوانينه الثلاثة عن الميكانيك ، كما قدم قانونه عن التجاذب التثاقلي الكوني (Universal gravitation) .

---

(٥) ـ مرجع (٣) ـ ص : ٤٩

قوانين نيوتن الثلاثة عن الميكانيك هي الآتية :

الأول : كل جسم يحتفظ بحالة السكون أو يسير في حركة منتظمة في خط مستقيم ، إلا إذا أجبر على تغيير تلك الحالة من قبل قوى مؤثرة .

الثاني : معدل التغيير في الاندفاع (كمية الحركة momentum) يتناسب مع القوة المؤثرة ، ويكون في اتجاه هذه القوة . (أو القوة المؤثرة على الجسم تساوي الكتلة × التسارع).

الثالث : رد الفعل يساوي الفعل في المقدار ويعاكسه في الاتجاه ، أي أن تأثيري جسمين على بعضهما البعض متساويان دائما ومتعاكسان في الاتجاه .

القانون الأول يدعى أحيانا بقانون (العطالة inertia) إذ أنه يظهر أن الجسم يفضل أن يحتفظ بحالته الطبيعية ، الا إذا أجبر على التغيير . يبدو أن القانونين الأول والثاني كانا معروفين من قبل لغاليليو وهايغنز وغيرهما .[٦] أما القانون الثالث فيعود الفضل فيه إلى نيوتن وحده إذ أن الذين سبقوه لم تكن لديهم فكرة واضحة عن هذا الموضوع ، وعن قوى التفاعل بين الأجسام .

وعلى كل حال فإن الفضل يجب أن يعطى لنيوتن للوضوح الذي وضع فيه كل هذه القوانين وبالانسجام المنطقي الموجود بين هذه القوانين ، خصوصا وأنه أبرز الدور الواضح الذي تلعبه القوى في تغيير الحركة ، وهو المجال الذي يعرف الآن بعلم « الديناميك Dynamics » . كما أن نيوتن أبرز دور الكتلة في القانون الثاني ، حيث أن الاندفاع يساوي الكتلة × السرعة وكان أول من وضح الفرق بين الوزن والكتلة والعلاقة بينهما (بواسطة القانون الثاني)

إن قوانين (نيوتن) لا تزال تشكل المعادلات الرئيسية التي تصف حركة الأجسام العادية حتى يومنا هذا . إنها حقا الأساس لعلم الميكانيك في فروعه المختلفة .

إضافة إلى قوانين الميكانيك ، قدم نيوتن في كتابه ما سمي بقانون التجاذب الثقالي الكوني (Universal law of Gravitation) . وهذا القانون في صيغته الحالية يقول الآتي : إن أي جسمين يتجاذبان فيما بينهما بقوة تتناسب طردا مع مضروب الكتلتين وعكسا مع مربع المسافة بين الجسمين . أي أن القوة تتناسب مع الكتلة الأولى × الكتلة الثانية / مربع المسافة ، ويكون اتجاه هذه القوة على الخط المستقيم بين الجسمين . وتعرف هذه العلاقة بقانون التربيع العكسي .

وقد تمكن نيوتن ، بعد اكتشافه هذا القانون ، من شرح عدة ظواهر طبيعية هامة كانت مثار اهتمام العلماء في ذلك العصر . ونورد فيما يلي بعض الملاحظات حول هذا الموضوع :

---

(٦) ـ مرجع (٣) ـ ص : (٥٧) .

١ - التسارع الجاذبي (الثقالي) عند سطح الأرض : استطاع نيوتن أن يشرح لماذا يتسارع جسم ما شاقوليا عند سطح الأرض . واستطاع باستخدام القانون الثاني وقانون التجاذب الثقالي أن يحسب قيمة التسارع الثقالي على سطح الأرض بواسطة كتلة الأرض ونصف قطرها . ووجد نفس القيمة التجريبية التي كان قد توصل إليها غاليليو وغيره سابقا (أي حوالي ٩,٨ مترا / ثانية × ثانية).

٢ - دوران القمر حول الأرض : تمكن نيوتن من إعطاء شرح واف لدوران القمر حول الأرض . الأرض تشد القمر نحوها بواسطة القوة الثقالية . وهذه القوة ضرورية لأن القمر في حركته الدائرية يتسارع باستمرار نحو الأرض بتسارع يدعى التسارع المركزي (Centripetal acceleration). وقوة الجاذبية ضرورية لتأمين هذا التسارع كما يتطلب قانون (نيوتن) الثاني هذا التسارع المركز ، في الحركة الدائرية ، اصبح واضحا (لنيوتن) فقط بعد تفكير طويل حول الموضوع .

٣ - دوران الكواكب حول الشمس : قام نيوتن بتطبيق قانون الجاذبية والقانون الثاني على حركة الكواكب حول الشمس التي تشد الكواكب نحوها واستطاع أن يثبت رياضيا صحة جميع قوانين (كيبلر) ، بما فيها القانون الثالث ، الذي يعبر عن العلاقة بين الدور ونصف قطر المدار (انظر الجزء ١ - ١).

قال أحد مؤرخي العلوم عن عمل نيوتن في قانون الجاذبية : في اللحظة التي برهن نيوتن هذه النظرية الرائعة (التي كانت غير متوقعة) أصبحت ميكانيكية الكون واضحة ومجردة أمامه .[٧]

لكن قانون الجاذبية ينطوي على مفهوم التأثير عن بعد (Action at adistance) فالأرض مثلا تطبق قوة على القمر حيث تنتقل القوة في الفراغ الكامل (بدون أي وسيط) وبسرعة لا نهائية . هذا المفهوم أزعج نيوتن كثيرا في وقته ، ولا يزال يزعج الكثير من الفيزيائيين حتى في يومنا هذا .

ويمكن أن نختم حديثنا عن إسهامات (نيوتن) في الميكانيك والثقالة بالآتي[٨] : رغم الإبداعية والعمق والتنوع في أعمال غاليليو وغيره من العلماء ، فإن معظمه كان متعلقا بأنواع خاصة من الحركة . أما عمل نيوتن فيختلف عن ذلك كثيرا . إنه ينطبق على جميع الحركات وجميع الاجسام ، سواء أكانت على الأرض أم في السماء . إن عمله لا يزال جملة وتفصيلا الأساس في علم ديناميك الأجسام . إن نظرية نيوتن الشاملة في الميكانيك والفلك تعرف الآن بالتركيب النيوتوني الكبير (Great Newtonian Synthesis) .

٢ - : الضوء والبصريات (نيوتن وهايغنز) :

شهد علم الضوء والبصريات تطورات هامة خلال القرن السابع عشر . فقد اكتشف العالم الهولندي سنل (Snell) حوالي ١٦٢٢ قانون الانكسار (refraction) ، حيث ينحرف الشعاع الضوئي عند انتقاله من وسط إلى

---

(٧) - مرجع (٤) - ص : ١٥٣

(٨) - مرجع (٨) - ص : (٦١)

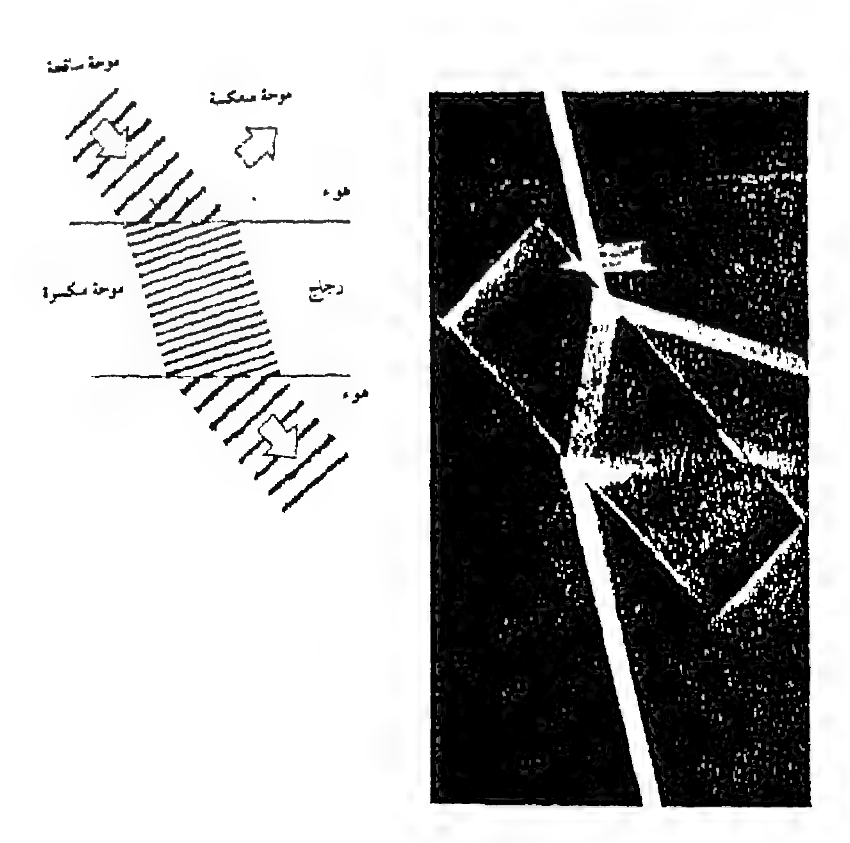
آخر . وبعد حوالي عشر سنوات أعاد العالم الفرنسي المعروف ديكارت صياغة هذا القانون ووضعه بشكل أكثر بساطة . عزا ديكارت سبب الانحراف إلى اختلاف سرعة الضوء بين الوسطين ، وهو تفسير صحيح بصورة عامة ، رغم أن ديكارت أخطأ في التفاصيل .

كما كانت هناك عدة محاولات جادة لقياس سرعة الضوء في الفراغ (أو الأثير كما كان يعتقد) ، بداية من محاولات غاليليو نفسه حول هذا الموضوع . قبل ذلك ، كان الاعتقاد يسود بأن الضوء ينتقل بسرعة لا نهائية . وبعد محاولات متعثرة ، اقترح غاليليو أن سرعة الضوء يمكن قياسها من مشاهدة الأقمار التي تدور حول كوكب المشتري ، وتغير زمن انتقال الضوء منها (الأقمار) إلى الأرض بين مشاهدة وأخرى . وقد أجرى العالم الدانمركي « أولاف رومر » (١٦٤٤ ـ ١٧١٠) هذه التجربة بنجاح ، وتمكن من الوصول إلى قيمة مقبولة للسرعة حتى في هذه الأيام .

لكن التطور الأهم بخصوص الضوء تحقق على يدي العالم الهولندي الفذ (كريستيان هايغنز) (١٦٢٩ ـ ١٦٩٥) . درس هايغنز في نفس الجامعة التي كان سلفه سنل قد عمل فيها (جامعة ليدين ، هولندا) . وبعد أن ذاع صيته وهو لا يزال في العشرينات من عمره دعاه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ليقيم في باريس ، حيث عاش وعمل هناك من ١٦٦٦ إلى ١٦٨١ .

درس هايغنز ، الذي عاصر نيوتن ، وبحث في مواضيع كثيرة منها الميكانيك والفلك وغيرها ، ولكنه ترك أثره الخالد في مجال الضوء : لقد وضع حجر الاساس للنظرية الموجية (Wave theory) للضوء . ومع أن العالم الانجليزي هوك كان قد سبقه إلى بعض التصورات عن هذه النظرية (عام ١٦٦٥) ، إلا أن هايغنز كان الأول في وضع صورة واضحة وجلية لهذه النظرية . وحسب مبدأ هايغنز فان الضوء ينتشر في الفراغ (الأثير) كموجة متنقلة ، مثل الموجات المائية . فالموجات الضوئية يمكن أن تنبع من مصدر الاهتزاز ، ثم تنتقل كأمواج كروية أو سطحية ، حيث أن للموجة مقدمة (Wavefront) واضحة في كل لحظة . ويمكن اعتبار كل نقطة من هذه المقدمة كمصدر جديد ينشر الموجات الثانوية (مويجات) في جميع الاتجاهات (شكل ١) . وإذا قمنا بتركيب شده (المويجات) الصادرة من جميع هذه المصادر الثانوية فإننا نحصل على المقدمة الجديدة للموجة وهكذا تنتقل مقدمة الموجة ويتغير شكلها من مكان إلى آخر . وبالطبع ، حسب اعتقاد هايغنز فإن المصادر الثانوية المهتزة هي الجزيئات في هذا الوسط الغريب ، أي الأثير .

وقد استطاع هايغنز ، عن طريق استخدام مبدئه هذا ، أن يشرح ظاهرة الانكسار الضوئي التي عزاها إلى اختلاف سرعات الموجات الضوئية بين الوسطين . استطاع كذلك أن يشرح ظاهرة الانكسار المزدوج (double refraction) في بعض الأجسام البلورية . لكن هايغنز لم يستطع أن يقدم تفسيرا للظاهرة الواضحة بأن الشعاع يسير في خط مستقيم ، على ما يبدو ، ولا ينحرف عند الزوايا ، كما هو متوقع من الموجات . كما أنه لم يستطع معالجة الألوان الضوئية ، التي كانت معروفة آنئذ ، أو ظاهرة الاستقطاب (Polarization) . بل إنه كان يعتقد أن الضوء موجة طولية (Longitudinal) ، كما هو الحال في الموجات الصوتية .

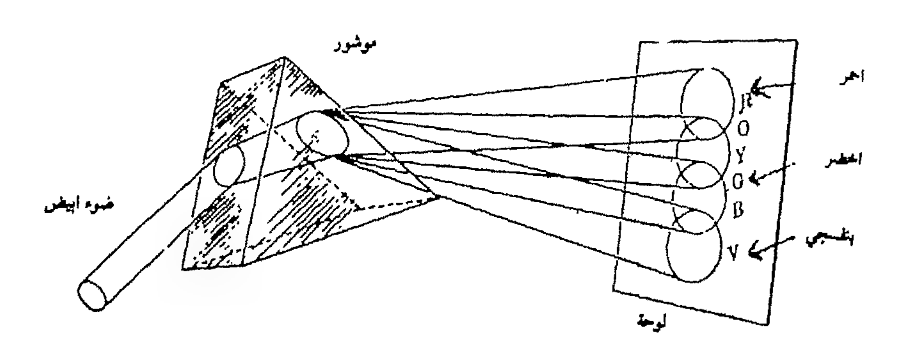


(شكل ١)

اليسار ـ انعكاس وانكسار الضوء ، حسب مبدأ (هايغنز) الموجة الساقطة تأتي من الأعلى في الوسط الهوائي وتنعكس جزئياً عند السطح الزجاجي . الموجة تتكسر جزئياً وتدخل الوسط الزجاجي حيث تسير بسرعة أقل ، ومن ثم تغير اتجاهها . اليمين ـ صورة الانعكاس وانكسار ضوئي

قدم هايغنز نظريته الضوئية للمرة الأولى في محاضرة أمام الجمعية العلمية الفرنسية في عام ١٦٧٨ ، حيث حضر المحاضرة العالم الألماني رومر والايطالي كاسيني وغيرهما . وقد نشرت النظرية بالتفصيل في كتابه « بحث عن الضوء » في عام ١٧٠٤ . ورغم بعض عيوبها الواضحة ، فقد لقيت النظرية استحسانا وقبولا واسعين منذ الوهلة الأولى ، لكنها أهملت لفترة طويلة بعد ذلك بسبب معارضة نيوتن لها .

لقد بحث نيوتن في مجال الضوء في الفترة الأولى من حياته العلمية (حوالي ١٦٦٤). وقام بصقل وإعداد موشورات وعدسات من نوعيات زجاجية جيدة لإجراء التجارب عليها . وبالنسبة للموشور ، فإن الشعاع الضوئي الأبيض (من الشمس ، مثلا) لا ينحرف فحسب في الموشور ، بل إنه يتحلل إلى أشعة جزئية من ألوان مختلفة ومتدرجة من الأحمر إلى البرتقالي إلى البنفسجي (شكل ٢) هذه الظاهرة كانت معروفة قبل ذلك بزمن طويل ، لكن الآراء اختلفت في تفسيرها . أحد هذه الآراء اعتبر ، مثلا ، أن اللون الأحمر يمثل شعاعا « ثقيلا » لا يستطيع الانحراف كثيرا ، في حين أن البنفسجي يمثل شعاعا « خفيفا » ، ومن ثم ، فهو ينحرف بسهولة .



(شكل ٢)
تشتت ، أو تحلل ، اللون الابيض الى الألوان الأساسية ، من الأحمر الى البنفسجي وذلك بواسطة الموشور .

وقد أعطى نيوتن هذه الظاهرة التفسير الصحيح ، وهو أن اللون الأبيض ليس لونا أساسيا وإنما هو تراكب من الألوان المختلفة . وعندما يدخل الشعاع في الموشور ، فإن الألوان المختلفة تنحرف بمقادير مختلفة ، تبعا لتأثيرات الزجاج المختلفة عليها (ظاهرة التشتيت ـ Dispersion) كما أجرى نيوتن التجارب على العدسات وحصل على ما يعرف بـ « حلقات نيوتن ». كما أنه أجرى تجارب أدت إلى اختراع تلسكوب الانعكاس .

أما عن طبيعة الضوء ، فقد قدم نيوتن طرحا مختلفا تماما عن طرح هايغنز . لقد قدم نيوتن ما يعرف باسم النظرية الجسيمية (Corpuscular Theory) للضوء . وتقول هذه بأن الضوء يتألف من جسيمات ضوئية صغيرة تصدر من المصدر وتنتشر في جميع الاتجاهات . وتنتشر الجسيمات بخطوط مستقيمة ، كما هو متوقع من حركة الجسيمات . وشرح نيوتن ظاهرة الانكسار باختلاف التفاعل (التأثير) على الجسيمات من قبل الوسطين . فإذا كان

تأثير الوسط الثاني أقوى ، فإنه يجذب الشعاع نحوه أكثر ويسبب الانحراف . كما أنه فسر بسهولة المسار الضوئي المستقيم وعدم الانحراف عند الزوايا .

لكنه وجد صعوبة كبيرة في شرح ظهور الانعكاس والانكسار ، معا بين وسطين (الهواء والزجاج ، مثلا) في آن واحد . فكيف تنعكس وتنكسر الجسيمات الضوئية عند السطح الفاصل في آن واحد ؟ إن الاقتراح الذي قدمه نيوتن بدا مصطنعا وغير مقنع بتاتا .

كان نيوتن على دراية كاملة بنظرية هايغنز الموجية ، لكنه استبعدها للأسباب التي ذكرت أعلاه (سير الشعاع في خط مستقيم ، وعدم الانحراف عند الزوايا) هذا مع أنه كان لديه شعور قوى بأن ظاهرة الألوان وظاهرة الحلقات الضوئية التي حصل عليها كانت تؤيد بالفعل النظرية الموجية . لكن نيوتن كان يدرك أن النظرية الموجية تتطلب وجود وسط لنقل الأمواج الضوئية في الفراغ (أي وسط الأثير) ، وهي فكرة لم يكن مرتاحا لها .

نشر نيوتن نظريته الضوئية في مجلة علمية حوالى عام ١٦٧٠ وهي مفصلة في كتابه الشهير (البصريات ـ Optics) الذي نشر في عام ١٧٠٤ . لكن النظرية واجهت معارضة شديدة في الحال من قبل هايغنز وهوك وغيرهما . وقد ولدت هذه المعارضة شعورا بالإحباط لدى نيوتن جعله يشتكى إلى هالى وليبنتز وغيرهما من الأصدقاء[٩] .

ولكن رغم المعارضة ، فإن نظرية نيوتن هي التي كان لها أن تسود خلال القرن الذي عاش فيه والقرن التالي ، وجزء من القرن التاسع عشر . وكما سنرى ، فإن النظرية الموجية شهدت بعثا جديدا في القرن التاسع عشر ، ليأتي بعده القرن العشرون ويرد بعض الاعتبار للنظرية الجسيمية .

٢ ـ ٣ : الغازات (قانون بويل)

في عام ١٦٤٣ اقترح العالم الايطالي « توريشيلي » أننا نعيش في أسفل « بحر عميق من الهواء » ، وقال بأن وزن هذا الهواء يطبق ضغطا علينا وعلى الأشياء من حولنا . واخترع جهازا لقياس الضغط سماه الباروميتر ، وهي كلمة يونانية تعني مقياس الضغط .

بعد ذلك قام العالم الانجليزي « روبرت بويل » (١٦٢٧ ـ ١٦٩١) بتجارب عديدة على الغازات حيث استطاع أن يغير الضغط باستخدام مضخة جديدة في ذلك الوقت . وفي عام ١٦٦٢ أعلن القانون المعروف باسمه ، والذي يقول إن مضروب الضغط والحجم (لكمية من الغاز) يبقى ثابتا ، إذا بقيت الحرارة ثابتة ، أو بكلام آخر ،

---

(٩) ـ توصل (نيوتن) الى نتائج هامة في كل من مجالى الميكانيك والبصريات قبل أو خلال العام (١٦٦٦) . لكنه تأخر كثيرا في نشر النتائج (كتاب (المبادىء) نشر فى ١٦٨٦ ، وعلى نفقة صديقه (هالى) وكتاب (البصريات) نشر في عام (١٧٠٤) . ولايزال السبب في هذا التأخير غامضا إلا أنه أدخل نيوتن في مجادلات ساخنة عديدة مع زملائه حول الأحقية في الاكتشاف فعندما قدم نيوتن قانونه عن التجاذب الثقالى ادعى زميله هوك في الحال أنه هو المكتشف الحقيقى لهذا القانون وقد يكون من المستحيل إثبات الحقيقة في هذا الزعم إلا أن المرجح أن نيوتن ناقش هذا القانون مرارا مع هوك قبل الاعلان عنه كان هوك كذلك من المعارضين الأشداء لنظرية نيوتن الضوئية ونتيجة لهذه الخلافات ، فقد نشب عداء طويل بين هذين العالمين الانجليزيين . (انظر مرجع (٣) ـ ص : ٦٨ ـ ٦٩ .

إن الضغط يتناسب عكسا مع الحجم والعكس بالعكس . هكذا ، إذا مددنا كمية من الغاز إلى ضعف حجمها فإن ضغطها ينخفض إلى النصف إذا لم تتغير درجة الحرارة خلال العملية .

وقد قدم كل من « نيوتن » و« هوك » شرحا وصفيا لهذا القانون على أساس النموذج الحركي للغازات .

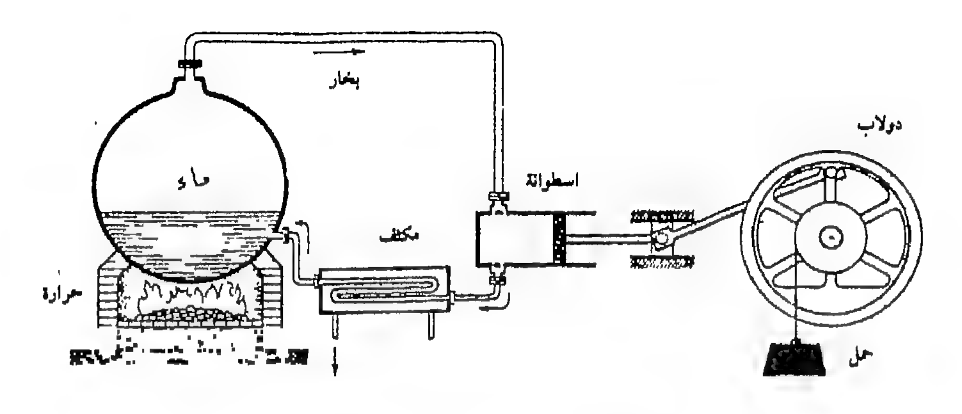
٣ ـ القرن الثامن عشر ـ عصر الركود

لم يحصل تقدم كبير في الفيزياء في القرن الثامن عشر ، على عكس القرن الذي سبقه والذي ضم أعمال عمالقة الفيزياء من أمثال « غاليليو » و« هايغنز » و« نيوتن » . مع ذلك ففي القرن الثامن عشر حافظت الفيزياء على مكاسبها السابقة إلى حد كبير ، مع حدوث شيء من التراجع في بعض المجالات .

وقد تحققت بعض المكاسب في مجال الفيزياء الرياضية في هذا القرن حيث عمل بعض العمالقة من أمثال « لابلاس » و« أويلر » و« لاغرانج » وغيرهم .

ففي مجال الميكانيك تمت معالجة قوانين نيوتن بطريقة رياضية جديدة لتأخذ صيغة عامة ومتجانسة ، تعرف باسم (معادلات لاغرانج) . أيضا قام « آتوود » بإجراء تجارب على نظم فيزيائية تنطوي على أثقال وبكرات ، وبذلك استطاع أن يتحكم بمقدار التسارع في النظام الفيزيائي . هذه الأعمال ، التي لا نزال نعيدها اليوم في محاضراتنا الجامعية ، كان لها أثر كبير في توضيح قوانين « نيوتن » الميكانيكية .

وفي مجال الضوء ، أهملت النظرية الموجية تماما وسادت نظرية نيوتن الجسيمية رغم أبحاث وكتابات الفيزيائي الرياضي الشهير « أويلر » ، الذي كان يؤيد النظرية الموجية .



(شكل ٣)

تمثيل توضيحي لعمل الماكينة البخارية . الحرارة تسخن الماء وتولد بخاراً ينتقل إلى أسطوانة ، حيث يؤدي تغيير ضغط ودرجة الحرارة في البخار الى تحريك مكبس . حركة المكبس تؤدي الى دوران دولاب يؤدي بدوره الى رفع حمل . النتيجة النهائية لهذا النظام هي تحويل الحرارة إلى شغل ميكانيكي .

وفي مجال الحرارة اخترعت موازين الحرارة (Thermometers) بأنواعها المختلفة وسلالمها المتعددة من الفيرنهايت إلى السيلزيس . كما أجرى الفني السكوتلندى جيمس واط (١٧٣٦ - ١٨١٩) تجارب ناجحة وجديدة على الآلة البخارية ، التي لعبت دورا أساسيا في الثورة الصناعية في أوربا . وتعرف العلماء على موضوع الحرارة النوعية والحرارة الكامنة للمواد المختلفة . وقد ساهم في هذه التجارب الحرارية كل من العالمين الفرنسيين المشهورين أنتوان لاڤوازيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) الذي أعدم في أحداث الثورة الفرنسية ، وبيير لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧) .

والمجال الوحيد الذي شهد تطورا هاما في هذا القرن هو مجال الكهرطيسية . لقد كانت هناك تجارب عديدة حول شحن الأجسام بالكهرباء (ما يدعى بالكهرباء الساكنة) من قبل علماء في جميع أنحاء أوروبا . كما أجرى الكاتب والدبلوماسى الأمريكي « بينجامين فرانكلين » (١٧٠٦ - ١٧٩٠) تجارب مماثلة ، إضافة إلى تجارب أخرى عن العواصف الكهربائية البرقية . وقدم بعض من هؤلاء نظريات مختلفة عن هذه « المادة » التي تعطى المواد العازلة والناقلة خواصها الكهربائية لكن اتضح أنها كانت فى غالبها أفكاراً مؤقتة لم يكتب لها البقاء طويلا .

لكن العمل الحاسم والباقي في هذا المجال قام به العالم الفرنسي الفذ « تشارلز كولومب » (١٧٣٦ - ١٨٠٦) . درس كولومب في باريس وعمل في الجهاز الحكومي كخبير علمي ، ولكنه سرعان ما اختلف مع البيروقراطيين ، مما دفعه إلى الاتجاه نحو المجال العلمي البحت . أجرى تجارب على الكهرباء في الشعر وفي الأسلاك ، واخترع ما عرف بميزان الفتل . وأثبت بتجارب دقيقة مبتكرة أن التجاذب والتنافر بين الشحنات الكهربائية يخضع لقانون يمثل قانون الجاذبية بين الكتل الذي اكتشفه نيوتن ، فيما قبل « قانون التربيع العكسي » ، أي أن قوة التنافر التجاذب بين شحنتين تتناسب طردا مع مضروب الشحنتين وعكسا مع مربع المسافة . كما برهن أن الشحنات في الفلزات تستقر في المنطقة السطحية للفلز . كان كولومب يعتقد بأن القوة الكهربائية هي تأثير - عن - بعد وتنتقل في الفراغ بدون الحاجة إلى وسط مادى لنقلها . وكان يعتقد بنظرية السائلينْ الكهربائيين ، أي سائل للشحنات الموجبة وآخر للشحنات السالبة .

ومما يذكر أن عالما إنجليزياً ، وهو « هنرى كاڤينديش » ، عاش وعمل في نفس فترة كولومب تقريبا ، وقام بتجارب مشابهة لتجارب كولومب وحصل على نتائج صحيحة . لكن شخصية كاڤينديش الغريبة وانعزاليته عن زملائه وعن الناس عامة وعدم نشره للنتائج - كل ذلك أدى الى عدم إعطائه حقه اللازم في هذا المجال .

أما في مجال الكهرباء المتحركة (أو ما يسمى الآن التيار الكهربائي في النواقل) فإن العالم الأول في هذا المجال كان الطبيب الايطالي « غالڤاني » (١٧٣٧ - ١٧٩٨) . لقد وجد بالصدفة أن عضلة رجل الضفدع عندما يوصل طرفاها بمشرط تؤدى إلى شرارة خفيفة وانتفاضة في العضلة . وقد تابع الفيزيائي الإيطالي « ڤولطا » (١٧٤٥ - ١٨٢٧) هذه التجارب ، ووسعها مما أدى في عام ١٨٠٠ الى إختراعه للبطارية (الخلية) الأولى في التاريخ . وتتألف هذه من صفيحتين ، أحدهما من النحاس والأخرى من الزنك (التوتياء) ، منغمستين في سائل ناقل . لو وصلت هاتان الصفيحتان بسلك ، فإن البطارية تعطى التأثيرات التي كان (غالڤاني) قد لاحظها ، ولكن بشدة أكبر .

٤ ـ القرن التاسع عشر

في هذا القرن استعادت الفزياء نشاطها الذي فقدته في القرن السابق ، واستعادت الصلة بالروح التي سادت في القرن السابع عشر . وحصلت تطورات هامة جدا ، وخصوصا في نهاية القرن التاسع عشر ، مهدت للثورات الفكرية الفيزيائية التي حصلت في قرننا الحالي ، القرن العشرين .

ففي القرن التاسع عشر عادت النظرية الموجية للضوء إلى المسرح وسادت تماما مع نهاية القرن . كما جرى توحيد تام بين مجالي الضوء والكهرطيسية ، وتوحيد شبه كامل بين مجالي الكهرباء والمغنطيسية ، حتى أصبحا حقلا واحدا يعرف بموضوع الكهرطيسية . هذا الاتجاه التوحيدي ، الذي تابعه (آينشتاين) فيما بعد ، لا يزال من الدوافع الرئيسية في بحوث الفيزياء حتى يومنا هذا .

في هذا القرن أيضا دخل مفهوم هام جدا في عالم الفيزياء ، هو مفهوم الطاقة (energy) . كما جرى توضيح طبيعة الحرارة (heat) كنوع من أنواع الطاقة . ومنه تطور مبدأ حفظ الطاقة (energy conservation) ، الذي أدى إلى علم التيرمودنياميك ، الذي يدرس العلاقات المختلفة بين الحرارة والشغل . وأدى هذا إلى تطوير الماكينة البخارية في خدمة الصناعة والإنسان .

في هذا القرن سارت النظريات والتجارب يدا بيد ، حيث عاد احترام العالِم للطبيعة ، فهي المصدر الذي يجب المقارنة معه دائما ، والذي يجب استلهامه . لذلك فإن الموائع (fluids) الخيالية التي كانت تفترض من أجل تفسير ظواهر الحرارة والكهرباء وغيرها اندثرت ، ولم ينج إلا مفهوم الأثير ، الذي استمر حتى أوائل القرن العشرين .

وقد شاركت الدول الأوربية عموما ، وانجلترا وفرنسا وألمانيا خصوصا ، في هذه النهضة العلمية الشاملة . ففي انجلترا ظهر مثلا يونغ وفارادى . وماكسويل وفي فرنسا استمر لاغرانج ولابلاس وظهر فرنل وكارنو وفورييه ، وفي المانيا برز هيلمهولتز وغاوس وهرتز وغيرهم .

٤ ـ ١ الحرارة وقوانين الغازات

في القرن الثامن عشر كان العلماء يعتقدون بنظرية (المائع الحرارى ـ caloric) وأن هذا المائع الخاص هو نوع من المادة ، وإن كانت مادة غريبة نوعا ما . وهكذا فإن الجسم الحار يحتوى على « كثافة » أكبر من هكا المائع ، والجسم البارد يحتوى على كثافة أقل من هذا المائع . وعندما تنقل الحرارة من جسم حار إلى جسم بارد ، فإن كمية من هذا المائع تنتقل من الحار إلى البارد . هكذا كانت تشرح الحرارة وظواهرها المختلفة .

ويبدو أن أول عالم حاول أن يقلب هذه النظرية هو الأمريكي « بنجامين تومبسون » (١٧٥٣ ـ ١٨١٤) ، الذي عرف فيما بعد ب(كونت رومفورد) . كان (رومفورد) ضابطا مغامرا ، وتنقل كثيرا ، من الولايات المتحدة إلى انجلترا ثم إلى النمسا ، ثم أخيرا إلى فرنسا ، حيث توفى هناك . وخلال إقامته في لندن أسس (المعهد الملكي)

كجمعية علمية لانتشار العلوم التطبيقية ، وهي الجمعية التي لعبت دورا كبيرا في تشجيع الأنشطة العلمية في انجلترا خلال العقود القادمة .

لاحظ (رومفورد) عندما كان يشرف على تثقيب المدافع في ميونيخ في عام (١٧٩٨) أن الاحتكاك يولد كمية كبيرة من الحرارة . واستخدم هذه الظاهرة ، أمام حشد من الناس ، كي يسخن كميات من الماء إلى درجات حرارة مرتفعة ، تصل إلى درجة الغليان . وفكر (رومفورد) : من أين تأتي هذه الحرارة الكبيرة ؟ فليس هناك أي جسم ساخن في البداية يحتوى على المائع الحرارى المطلوب . وتوصل بتفكير منطقي عملي إلى أن الحرارة تأتي في الأصل من الحركة (عن طريق الاحتكاك) ، وأن درجة الحرارة المرتفعة في الماء الحار ليست إلا مظهراً من مظاهر الحركة الداخلية في الماء نفسه . ولقي هذا التفسير تأييدا من العالمين الانجليزيين همفرى ويونغ في أوائل القرن التاسع عشر ، لكن معظم الفيزيائيين في ذلك الوقت كانوا لا يزالون يعتقدون بالنظرية المائعية القديمة .

ومن التطورات الهامة في مجال الحرارة ظهور كتاب العالم الفرنسي « جوزيف فوريبه » (١٧٦٨ - ١٨٣٠) ، وعنوانه « النظرية التحليلية للحرارة » . وقد مثل نشر الكتاب في عام ١٨٢٢ حدثا كبيرا ، حيث أعطى دفعا كبيرا لبحوث الحرارة خاصة ، ولبحوث الفيزياء الرياضية بصورة عامة .

وقام عدد من العلماء الفيزيائيين والكيميائيين بدراسات عن قوانين الغازات ، وسلوك هذه الغازات مع تغير درجة الحرارة . ونذكر من هؤلاء الفرنسيين « جاك تشارلز » (١٧٤٦ - ١٨٢٣) و « جوزيف غي - لوساك » (١٧٧٨ - ١٨٥٠) والانجليزي « جون دالتون » (١٧٦٦ - ١٨٤٤) . أجرى هؤلاء العلماء ، مستقلين ، تجارب عن توسع (تمدد) الغازات (بما فيها الهواء) مع زيادة درجة الحرارة ، حيث وجدوا أن الحجم يزداد بالتناسب مع زيادة درجة الحرارة (قانون تشارلز - غى لوساك) . كما أجرى آخرون في هذه الفترة تجارب حول تخفيض درجة الحرارة في الغازات ، حيث وجدوا أن معظم الغازات تتحول إلى سوائل في درجات منخفضة مناسبة . ومن هؤلاء نذكر الفرنسي « كيليتيت » والانجليزي « ديوار » ، حيث تمكن الأول من تسييل الهيدروجين والنيتروجين والهواء في عام ١٨٧٧ ، للمرة الأولى في التاريخ .

وفي القرن التاسع عشر بدأ علم جديد مثير للاهتمام ، وهو علم (التيرموديناميك Thermodynamics) ، أي الديناميك الحرارى . ويعالج هذا الموضوع العلاقة بين الحرارة والشغل (كمية ميكانيكية) . وقد كانت الغاية العلمية الرئيسية للموضوع هي الاستفادة من الماكينة البخارية لتوليد شغل مفيد لخدمة الانسان . وقد أسس هذا العلم على يدى العالم الفرنسي « نيكولاس كارنو » (١٧٩٦ - ١٨٣٢) . نشر كارنو كتابا في عام ١٨٢٢ عن الموضوع حيث قدم عددا من المفاهيم الجديدة . منها ما عرف لاحقا ب « ماكينة كارنو » ، التي يمكن تمثيلها باسطوانة يوجد في نهايتها مكبس متحرك وتحتوى على غاز ذى خواص مثالية . وتعمل الماكينة بطريقة دورية حيث يضغط الغاز في درجة حرارة مرتفعة ، ثم يسمح بالتمدد والتبرد الى درجة حرارة منخفضة يقوم خلالها بشغل معين .

استطاع « كارنو » أن يحصل على قانون صحيح يعطى كفاءة هذه الماكينة المثالية في تحويل الحرارة إلى شغل ميكانيكي مفيد ويرهن أن هذه الكفاءة تمثل الحد الأقصى لكفاءة أية ماكينة عملية تعمل بين درجتي الحرارة المذكورتين .

وجدير بالذكر أن كارنو ، عندما قدم أبحاثه ، كان يعتقد بنظرية المائع الحرارى . لكنه بدأ تدريجيا بالتحول عنها والتوجه نحو النظرية الحركية للحرارة . وفي كتاباته الأخيرة حول الموضوع ، اقترب كارنو جدا من المفهوم الذي عرف فيما بعد بمفهوم الطاقة .

وقد طورت أفكار كارنو من قبل العالم الألماني « كلوزيوس » والعالمين الانجليزيين « وليام تومسون » (لورد كيلفين ، فيما بعد) ووليام رانكين ، الذين قالوا صراحة بأن الحرارة تمثل طاقة حركية في الجسيمات التي تكوّن الجسم .

وقد توصل ثلاثة من العلماء ، مستقلين ، إلى مبدأ حفظ الطاقة عند حوالى منتصف القرن التاسع عشر . فالعالم الألماني « روبرت ماير » (١٨١٤ ـ ١٨٧٨) بدأ طبيبا ثم تحول تدريجيا نحو الدراسات العلمية ، وخصوصا حول تحويل الطاقة الميكانيكية إلى حرارة . لكن آراءه قوبلت بعدائية شديدة عانى منها كثيرا ، وقضى معظم سنواته الأخيرة في المرض والمعاناة الجسدية والنفسية . وقام العالم الانجليزي « جيمس جول » (١٨١٨ ـ ١٨٨٩) بأعمال مشابهة عن تكافؤ الطاقة الحركية والحرارة ، وأجرى تجارب (حوالى ١٨٥٠) لحساب معامل التكافؤ الميكانيكي للحرارة ، حيث وجد القيمة ٤,٢٤ جول للكالورى (السعر الحرارى) ، وهي قريبة من القيمة الحالية (٤,١٩) . كان حظ جول أفضل من حظ ماير ، حيث حظي الأول بتشجيع العالم المرموق « تومسون » ، مما أعطى مجالا أوسع لانتشار أعمال وآراء جول .

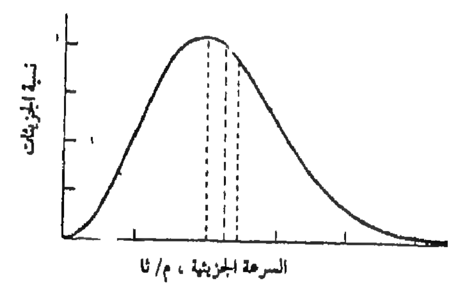
لكن مبدأ حفظ الطاقة لقى دعما مؤثرا من قبل العالم الألماني الفذ « هيرمان فون هيلمهولتز» (١٨٢١ ـ ١٨٩٤) . بدأ هذا عمله كطبيب ، ثم تحول إلى دراسة الطبيعة في مجالات الحرارة والصوت والضوء ، لكي يفهم بصورة أفضل وظائف أعضاء الجسم ، مثل الأذن والعين ثم تحول إلى دراسة الرياضيات لكي يفهم الظواهر الفيزيائية بطريقة كمية ودقيقة . لقد كان هيلمهولتز يمتلك ذكاء خارقا في العمق وفي الاتساع ، مما وضعه في الصف الأول بين معاصريه في الطب والفيزياء والرياضيات . في عام ١٨٤٧ ألقى محاضرة أمام الجمعية الفيزيائية الألمانية وضع فيها آراءه عن تكافؤ الطاقة الحركية والحرارة وأيضا عن الانحفاظ العام للطاقة . وكان العرض واضحا وجريئا وصريحا . ورغم المقابلة العدائية لهذه الآراء ، التي اعتبرها معظم العلماء المعروفين في المانيا على أنها مجرد تأملات وتخمينات ، فإن النظرية انتشرت بعد سنوات وأصبحت النظرية المقبولة والسائدة في جميع أنحاء أوربا وانجلترا .

كان هناك كثير من التشابك بين مفهومي الطاقة والقوة اللذين كانا يستعملان ككلمتين مترادفتين . وكان أول من أطلق كلمة الطاقة بمعناها الحديث لتعنى الشغل الذي تقوم به قوة ميكانيكية هو العالم الانجليزي « يونغ » في حوالى عام ١٨٤٩ .

كما قام « جول » في تلك الفترة (حوالى ١٨٥٠) بوضع الأسس للنظرية الحركية للغازات . أراد جول أن يقوم باشتقاق نظري لقانون الغاز المثالي وذلك باستخدام نموذج للغاز كان قد قدمه العالم السويسرى « بيرنولى » (الفترة ١٧٠٠ ـ ١٧٨٢) . قانون الغاز المثالي هذا ، والذي يمكن استنتاجه من ضم قوانين بويل وتشارلز معا ، يتلخص في المعادلة التالية : ضغط × حجم = ثابت × درجة الحرارة (المطلقة) . من أجل اشتقاق هذا القانون ، افترض جول أن الغاز المثالي يمتلك الخواص التالية : انه يتألف من جزيئات (أو ذرات) صغيرة جدا (حوالى ١٠^-٨ سم ، في نصف القطر) ، وكثيرة العدد (من رتبة ١٠^٢٥ جزئي/ متر مكعب) ، وفي حركة عشوائية مستمرة بسرعات عالية (من رتبة (٥٠٠) متر/ ثانية) . أما قوى التفاعل بين هذه الذرات فهي ضعيفة جدا لدرجة يمكن إهمالها . وهذه الذرات ـ على كثرتها وسرعاتها العالية ـ تتصادم مع بعضها في بعض الأحيان النادرة ، لكن هذه التصادمات مرنة ، مما يعنى أن الطاقة الحركية للذرات تبقى محفوظة خلال التصادم .

تتصادم الذرات أيضا مع جدار الوعاء الذي يحتوى الغاز . هذه التصادمات مرنة وتحدث بكثرة . وقد افترض جول ، بعد سلفه بيرنولى ، أن هذا التصادم مع الجدار هو الذي يولد الضغط الغازى الذي نقيسه . وباستخدام قوانين نيوتن تمكن جول من اشتقاق معادلة رياضية للضغط في الغاز . . وبمقارنة هذه المعادلة مع قانون الغاز المثالي ، تمكن جول من التوصل إلى النتيجة الهامة ، وهي أن درجة الحرارة المطلقة تتناسب مع الطاقة الحركية (المتوسطة) للجزئيات . وهكذا تم التوصل أخيرا إلى تفسير ميكانيكي لدرجة الحرارة .

تطورت النظرية الحركية للغازات بعد ذلك بفضل جهود العالم الانجليزي « ماكسويل » والعالم النمساوى « بولتزمان » . لقد اعتبر هذان أن الجزيئات في الغاز لا تمتلك سرعة معينة ، وإنما تتوزع هذه الجزيئات بشكل إحصائي على سرعات مختلفة ـ أي أن بعض الجزيئات لها سرعات صغيرة وبعضها له سرعات متوسطة والأخرى لها سرعات عالية . وتمكنا من التوصل ، بصورة مستقلة ، إلى تابع التوزيع الذي يبين كيفية توزيع الجزيئات على السرعات المختلفة (شكل ٤) . وهكذا فإن درجة الحرارة للغاز تمثل في الواقع المتوسط الإحصائي للطاقة الحركية للجزيئات في السرعات المختلفة . وقد شكلت أعمال جول وماكسويل وبولتزمان الأساس النظرى لمعالجة الغازات بخواصها الحرارية والتيرموديناميكية المختلفة .



(شكل ٤)

توزيع الجزيئات في غاز النيتروجين على السرعات المختلفة عند درجة حرارة الصفر المئوي . الجزء الاكبر من الجزيئات تكون سرعته حوالي ٤٠٠ م/ ثا .

٤ ـ ٢ : الضوء

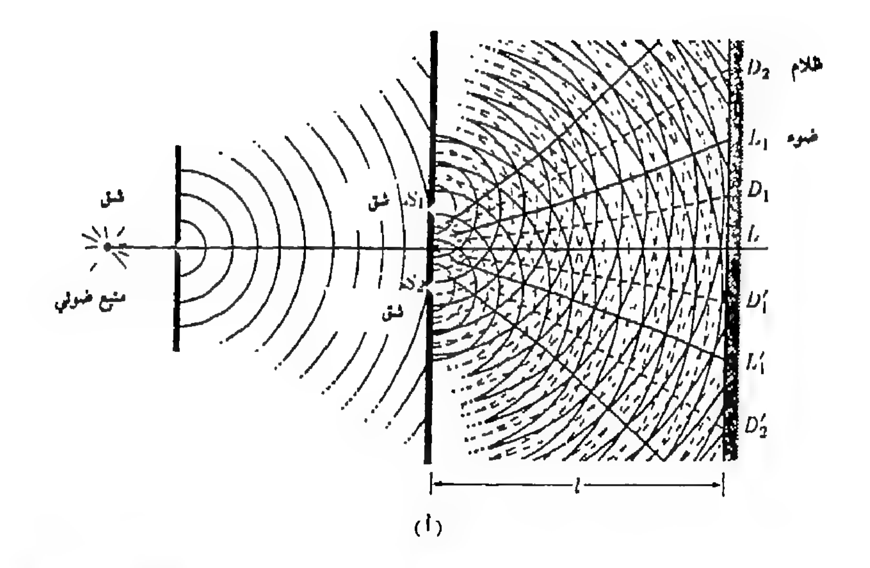
٤ ـ ٢ ـ ١ : طبيعة الضوء ـ النظرية الموجية

يعود الفضل في إحياء النظرية الموجية للضوء ، التي أهملت خلال القرن الماضي ، إلى أعمال العالم الانجليزي « توماس يونغ » (١٧٧٣ ـ ١٨٢٩) . وكان هذا طفلا نابغاً ، حيث تعلم القراءة والكتابة الواعية قبل الرابعة من عمره ، وقرأ كثيرا في العلوم والفلسفة والإنسانيات . بدأ يونغ حياته العلمية كطبيب ثم تحول إلى دراسة الضوء والصوت عندما بدأ بدراسة العين وتركيبها وتفاعلاتها الضوئية . في عام ١٨٠١ ألقى يونغ محاضرة عن الألوان في الصفائح الرقيقة . في هذه المحاضرة أيد يونغ النظرية الموجية وقدّم مفهوم التداخل (interference) الضوئي للمرة الأولى : عندما تلتقي موجتان متوازيتان قادمتان من مصدرين مختلفين ولكن متوافقتين ، فإن تأثيرهما هو جمع لحركتيهما المختلفتين . هكذا حصل يونغ على النمط التداخلي الذي ينتج عن الشق الازدواجي (شكل ٥) والذي يشتمل على الأهداب الساطعة والقاتمة المتوزعة على التوالى . ورغم دقة أعمال يونغ ولأنها كانت مكثفة وغير واضحة . وقوبلت أراؤه بنقد لاذع في انجلترا لتعارضها مع نظرية نيوتن الجسيمية مما سبب له الإحباط طيلة فترة حياته العملية الباقية . ويعود الفضل الكبير في دفع ركب النظرية الموجية للضوء ، وإحياء أعمال يونغ نفسها ، إلى العالم الفرنسي « أوغوستين فرينيل » ١٧٨٨ ـ ١٨٢٧ . عمل فرينيل ، الذي لم يظهر علامات النبوغ في طفولته ، كمهندس في الحكومة ، ثم بدأ بأبحاثه الضوئية في عام ١٨١٥ .

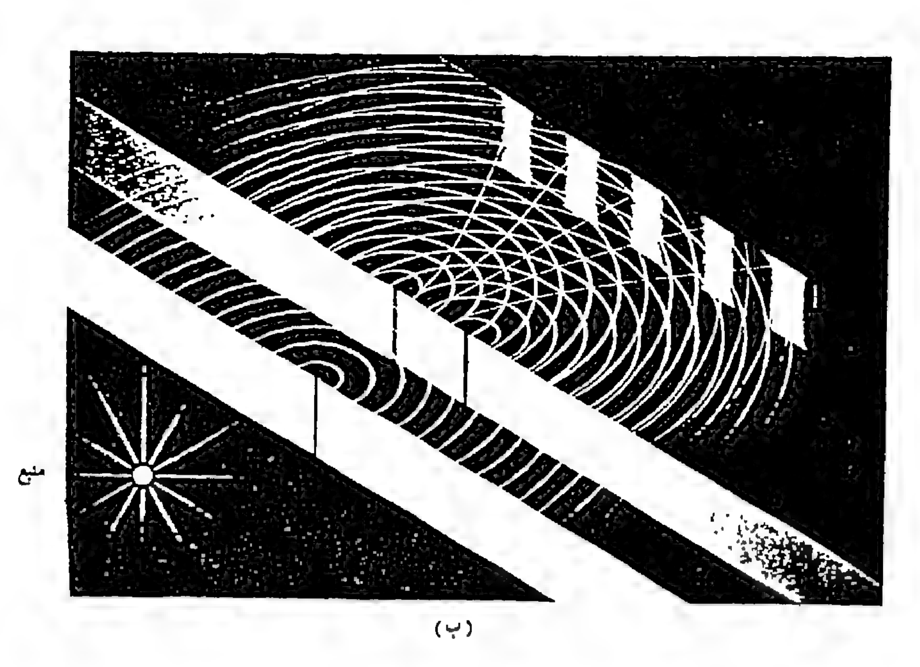
حصل فرينيل على النمط الحيودى لسلك موضوع في طريق شعاع ضوئي . ورغم أن هذا النمط كان معروفا من قبل ، فإن فرينيل قد فسر هذه الظاهرة ، وللمرة الأولى ، على أنها تعود للتداخل بين الموجات الضوئية في الشعاع ، وهو نفس المفهوم الذي استعمله يونغ سابقا في مجال آخر (بدون علم فرينيل) . واستعمل فرينيل في شرحه مبدأ هايغنز في تقدم الموجات ، مع توظيف الطرق الرياضية المعقدة لشرح تقدم الموجات الضوئية . كما أنه قدما شرحاً وافياً ومقنعاً لظاهرة انتشار الضوء في خط مستقيم وعدم انحرافه عند الزوايا (كما يفعل الصوت) . فالسبب ، حسب رأي فرينيل ، هو أن طول الموجة قصير جدا جدا (حوالى ٥ × ١٠^-٥ سم) بالمقارنة مع أبعاد الأجسام التي يمكن أن تسبب له الحيود . فعندما يسير شعاع موجى ، بهذا الطول ، فإنه لا يعانى كثيرا من الانحراف أو الحيود أو التباعد . وهذا هو الجواب على أحد اعتراضات نيوتن على النظرية الموجية للضوء بأن الضوء يسير في خط مستقيم أما إذا كانت الموجة طويلة ، فإن الشعاع يتوزع بسرعة وينحرف عند الزوايا ، كما يفعل الصوت .

ورغم معارضة علماء بارزين ، مثل « لابلاس » ، فإن نظرية فرينيل سرعان ما انتشرت وحصلت على قبول واسع . كما أن فرينيل عرف لاحقا بأعمال يونغ السابقة ، وجرى بين الاثنين حوار أدى إلى علاقة ودية داعمة ، على غير العادة في مثل هذه الظروف .

وكان على النظرية الموجية أن تجتاز عقبة أخرى وأخيرة ، وذلك فيما يتعلق بظاهرة الاستقطاب . لقد كان معروفا ، منذ زمن نيوتن وهايغنز ، أن الشعاع الضوئي عندما ينكسر بين الهواء ومادة بلورية فإنه ينقسم إلى شعاعين



(أ)



(ب)

(شكل ٥)

النمط التداخلي للشق الازدواجي ، حسب نظرية (يونغ)

(أ) في المقطع - الشعاع الضوئي يأتي من المنبع ويمر في الشق الأول حيث ينتشر في موجات نصف دائرية ، ثم تمر أجزاء من هذه الموجات عبر الشقين التاليين . وتتداخل الموجات الصادرة من هذين الشقين على الشاشة الى اليمين ، لتشكل حزمات مضيئة ومظلمة على التوالي . (ب) صورة تمثيلية للجزء (أ) في ثلاثة ابعاد .

يسيران في اتجاهين مختلفين داخل البلورة . هذه الظاهرة عرفت باسم الانكسار الازدواجي . وقد تجددت الدعوة إلى حل هذه المشكلة عندما وجد الفرنسي « مالوس » (١٧٧٥ ـ ١٨١٢) أن الشعاع الضوئي المنعكس من سطح مائي يكتسب خواص ذات علاقة بالانكسار المزدوج . فكيف تفسر هذه الظاهرة على أساس النظرية الموجية ؟ بعد التفكير الطويل حول الموضوع ، على مدار ست سنوات ، أتى يونغ نفسه بالحل الصحيح في عام ١٨١٧ : إن الشعاع الضوئي ، كموجة منتشرة ، له خاصية الاستقطاب وهي التي تصف اتجاه الحركة الاهتزازية للموجة . بالنسبة لاتجاه انتشار الموجة ، فالموجات الضوئية هي موجات مستعرضة (Transverse) ، أي أن حركة الجسيمات الاهتزازية عمودية على مسار الشعاع ، مثل حركة جسيمات الماء العمودية على مسار الموجة على سطح الماء . وبما أن هناك اتجاهين مستقلين وعمودين على المسار ، فإن بالإمكان تشكيل شعاعين ضوئيين باستقطابين مختلفين . وهكذا ، فعندما يسقط شعاع غير مستقطب على سطح بلورة ، فإن التركيب البلورى غير المنتظم (non - isotropic) يؤدى إلى فرز شعاعين ذوي استقطابين مختلفين ومتعامدين داخل البلورة .

هذا الشرح للاستقطاب من قبل يونغ أرضى مالوس ولكنه لم يرض عالما آخرا في مجال الاستقطاب ، وهو العالم الا؟جليزي سير « ديفيد؟بروستر » (١٧٨١ ـ ١٨٦٨) . وكان اعتراضه من النوع الفلسفي : « لا أستطيع أن أتخيل أن الخالق قد خطط وملأ الفراغ بالأثير من أجل توليد الضوء » . كان بروستر يقدر تماما بأن مفهوم الأثير يقع في صلب الشرح الذي قدمه يونغ عن الاستقطاب .

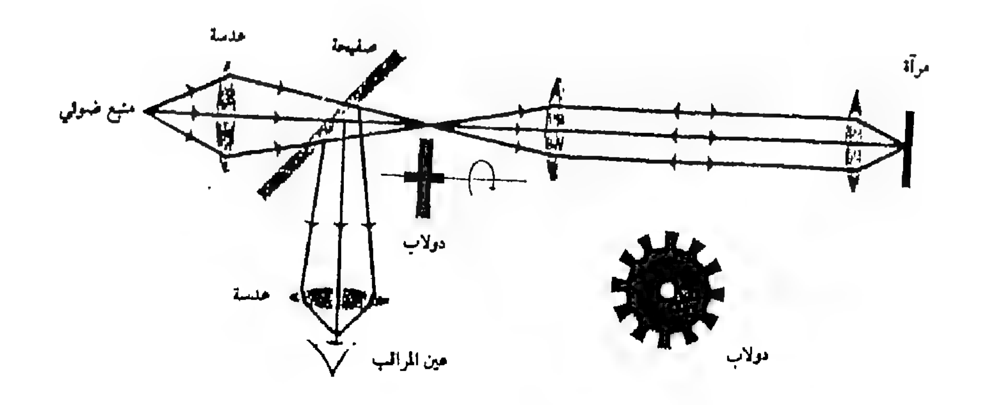
٤ ـ ٢ ـ ٢ : سرعة الضوء

في منتصف القرن التاسع عشر تقريبا قام عالمان فرنسيان بتحديد سرعة الضوء للمرة الأولى ، وفي نفس الوقت تقريبا ، قام الفرنسي « جون فوكو » (١٨١٩ ـ ١٨٦٨) بقياسات حددت نسبة سرعة الضوء في الفراغ (الهواء) إلى سرعته في الماء ، وأثبت أن السرعة في الماء أقل منها في الهواء . كان ذلك في عام ١٨٥٣ . كما اخترع فوكو نواسه (بندوله) الشهير الذي وضح دوران الأرض حول نفسها ، كما اخترع الجهاز العجيب المسمى بالجاير وسكوب . لقد وضع هذا العالم حقا معايير مرتفعة جديدة في دقة الأجهزة المستعملة في القياسات العلمية .

ومما يذكر أن نتيجة (فوكو) عن سرعة الضوء في الماء وكونها أقل من سرعته في الهواء كانت الضربة القاضية للنظرية الابتعاثية (الجسيمية) للضوء . فقد كان (نيوتن) وغيره من مناصري هذه النظرية يتوقعون عكس هذه النتيجة التي تتفق تماما مع النظرية الموجية .

وقام الفرنسي « هيبولايت فيزو » (١٨١٩ ـ ١٨٩٦) كذلك بإجراء تجربته الشهيرة لقياس سرعة الضوء في الهواء . يدخل الشعاع الضوئي الأفقي ثقباً في دولاب (شكل ٦) يمكن تدويره حول محور أفقي بسرعات دورانية مختلفة . الشعاع الضوئي ينطلق أفقيا حيث يرتطم بمرآه عمودية واقعة على بعد ٨٦٣٣ مترا في ضاحية من مدينة باريس . الشعاع المنعكس يعود إلى الدولاب مرة أخرى ، ويمر فيه عبر أحد الثقوب أو يرتطم بجدار الدولاب بين

الثقوب ، حسب سرعة دوران الدولاب وعلاقتها بالمسافة المقطوعة ذهاباً وإياباً من قبل الشعاع . بهذا استطاع فيزو قياس سرعة الضوء ، حيث وجدها ٣,٣٥ × ١٠^٨ متراً/ ثانية . هذه القيمة تختلف بحوالى ٥٪ عن القيمة المعتمدة حاليا لسرعة الضوء في الفراغ . وقد اعتبرت هذه التجربة نجاحاً باهراً لهذا العالم الذي كرس نفسه للحياة العلمية ، وكان ذلك في عام ١٨٤٩ . بعد ذلك انتقلت القياسات الدقيقة لسرعة الضوء إلى أمريكا ، حيث كرس العالم « مايكيلسون » جزءاً كبيراً من حياته العلمية إلى هذا الموضوع . فالقيمة الأخيرة التي حصل عليها ، في ١٩٢٦ كانت ٢,٩٩٧٩٦ × ١٠^٨ متراً/ ثانية .



(شكل ٦)
تجربة (فيزو) لقياس سرعة الضوء . الشعاع الضوئي يصدر عن المنبع ويمر عبر صفيحة زجاجية ثم عبر أحد ثقوب القرص الدائر . الشعاع يسير الى المرآة على اليمين وينعكس منها ويسير في نفس الطريق ، لكن في الاتجاه المعاكس . هذا الشعاع المعكوس إما أن يمر من أحد ثقوب القرص ، وينعكس من الصفيحة الى عين الناظر ، أو يحجب على سطح القرص ولايراه الناظر . هذه الاعتبارات تؤدي مباشرة الى حساب (قياس) سرعة الضوء . (العدسات تخدم في توجيه الشعاع) .

٤ ـ ٢ ـ ٣ : الأطياف الذرية

في الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأ العلماء بمشاهدات وقياسات علمية على نوع جديد من الأطياف ، وهي الأطياف الخطية (Line spectra) . وقد لعبت هذه الأطياف دورا أساسيا في تطوير النظرية الذرية للمادة فيما بعد . كما لعب العالم الألماني « جوزيف فراونهوفر » (١٧٨٧ ـ ١٨٢٦) دورا رئيسيا في وضع حجر الأساس لهذا العلم الجديد . وبسبب مواهبه العلمية والفنية في صقل العدسات الكبيرة والأدوات الزجاجية الدقيقة أصبح فراونهوفر مديرا للمعهد الضوئي في مدينة ميونيخ وبنى هناك أفضل تيليسكوب انكساري في وقته .

خلال تجاربه على معاملات الانكسار للعدسات المختلفة التي صنعها ، لاحظ فراونهوفر وجود خطين من لون برتقالي عندما مرر الشعاع الضوئي الصادر من مصباح يحتوى على مادة كلوريد الصوديوم . عبر شق ، على موشور زجاجي . ولاحظ فراونهوفر خطوطا أخرى مضيئة عندما استعمل مواد أخرى مختلفة في المصباح .

بعد ذلك وجه فراونهوفر تليسكوبه نحو الشمس ، حيث كان يأمل أن يشاهد خطوطا مضيئة في شعاعها أيضا . ولكنه وجد لدهشته خطوطا قاتمة موزعة عبر الطيف . كما درس أشعة النجوم وبعض الكواكب ، ووجد بعضا من نفس هذه الخطوط القاتمة . كما أجرى فراونهوفر تجارب باستخدام محززة الحيود (diffraction grating) وقام بتحديد قيمة دقيقة لطول الموجة في خط الصوديوم . تألفت المحززة من شبكة من الأسلاك الرقيقة المعدنية المتوازية . وقد أعطى طول الموجه القيمة ٥,٨٨٨ × ١٠$^{-٣}$ سنتيمترا التي هي مقاربة للقيمة الحالية . لكن أعمال فراونهوفر ، التي نشرها فيما بين عامي ١٨١٠ و١,٨٢٥ ، لم تلق الاهتمام الكافي .

ولاحظ علماء آخرون فيما بعد ، ومنهم فوكو ، التطابق بين أطوال موجات الصوديوم المضيئة وبعض الخطوط القاتمة الموجودة في الطيف الشمسي . عندئذ بدأ التفكير يتجه نحو الاعتقاد بأن الطيف الخطي القاتم في الشعاع الشمسي يعود إلى امتصاص أجزاء من الشعاع في الغلاف الغازي المحيط بالشمس . هذا التفسير هو التفسير الحقيقي ، كما نعلم الآن .

لكن التقدم الكبير في مجال التحليل الطيفي الخطي يعود إلى العالم الألماني العظيم « غوستاف كيركوف » (١٨٢٤ ـ ١٨٨٧) . وقد كانت الفترة المنتجة في حياته هي حوالي عشرين سنة من التعاون العلمي مع الكيميائي « بونزن » ، خلال عملهما في التدريس معا في جامعة هايدلبرغ . لقد أتقن العالمان تطوير ما سمي « مصباح بونزن » ، حيث يجرى تبخير المواد المختلفة إلى الحالة الغازية وإشعالها لتعطى طيفها الخطي بكل وضوح ، بدون أي تداخل مع عوامل أخرى ، ثم يجرى تحليل الطيف الخطي بواسطة الموشور (شكل ٧) .

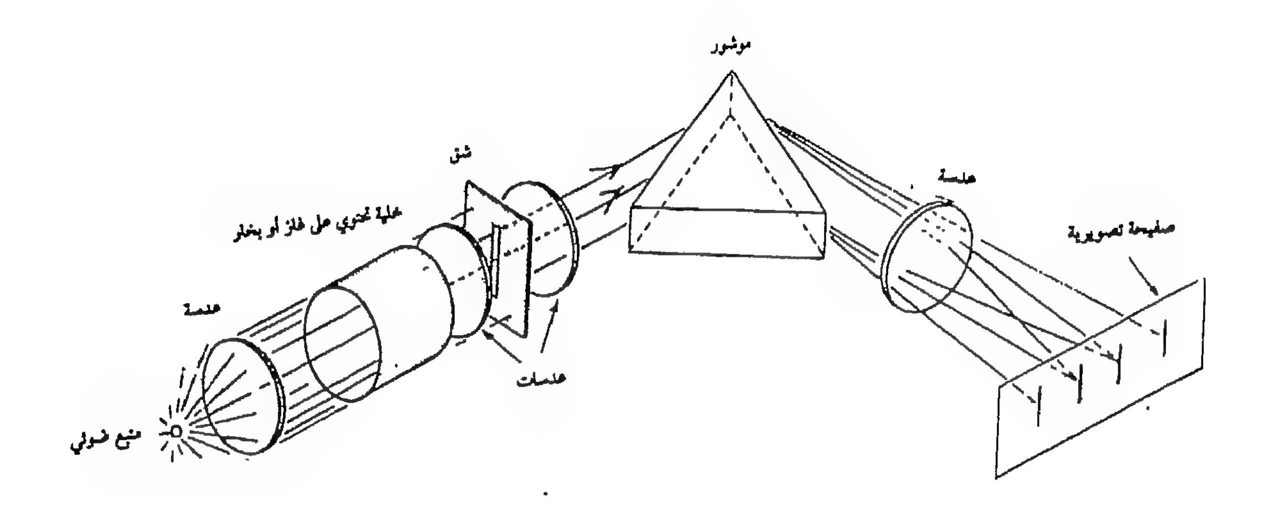
ويمكن تلخيص النتائج العلمية التي حصل عليها (كيركوف) بما يلي :

١ ـ كل مادة ، عندما تتحول إلى الحالة الغازية وترتفع درجة حرارتها ، تعطى نمطا معينا من الخطوط الطيفية المضيئة . ويدعى هذا النمط بالطيف الابتعاثي (emission spectrum) لهذه المادة .

إن مشاهدة هذا الطيف الخاص يدل على وجود المادة بل يخدم كبصمة للمادة . (شكل ٨) . بهذه الطريقة استطاع كيركوف وزملاؤه أن يكتشفوا عناصر جديدة آنذاك مثل السيزيوم والروبيديوم .

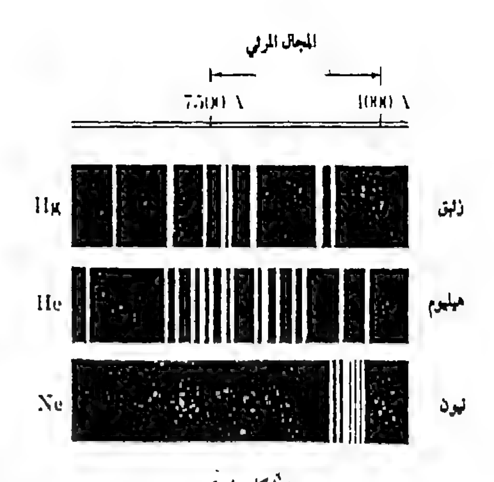
٢ ـ لاحظ كيركوف أن وجود غاز في طريق شعاع ما يؤدى إلى ظهور نمط من الخطوط الطيفية القاتمة عند تحليل طيف هذا الشعاع . هذا النمط القاتم سمى بالطيف الامتصاصى (absorption spectrum) للغاز . لاحظ كيركوف أن الطيف الامتصاصى لغاز ما مطابق تماما للطيف الابتعاثى لهذا الغاز . ويمكن شرح هذا التطابق بسهولة بواسطة نموذج (بوهر) الذري (انظر جزء ٥ ـ ٤ ـ ٢) .

٣ ـ استنتج كيركوف أن الطيف الامتصاصى في الشعاع الشمسي يعبر عن وجود العناصر المناسبة في الغلاف الجوي الشمسي . ونظراً لدرجة حرارة الشمس المرتفعة فإن هذه العناصر تكون موجودة في حالتها الغازية هناك . وبهذه الطريقة استنتج كيركوف وجود الحديد والنحاس والزنك والنيكل والصوديوم وغيرها من العناصر في الغلاف الشمسي .



(شكل ٧)

طريقة (كيركوف) في الحصول على الطيف الامتصاصي للغازات المختلفة . المنبع الضوئي يصدر إشعاعاً متصلا يمر عبر الغاز ، الذي يمتص جزءا من هذا الاشعاع عند أطوال موجية معينة . هذه الأطوال تظهر أخيرا كخطوط قاتمة على الصفيحة التصويرية ، وتحدد هوية الغاز .



(شكل ٨)

أطياف الهمالية لثلاثة عناصر - زئبق ، هيليوم ، ونيون . كل عنصر له طيف خاص يدل عليه .

لقيت أعمال كيركوف قبولا واسعا في المجتمع العلمي في أوروبا وانجلترا . قال هيلمهولتز عنها « إن لها الأهمية العظمى في جميع فروع الطبيعية » .

بعد كيركيوف ، انتشر علم التحليل الطيفي على نطاق واسع وتعددت استخداماته وتطبيقاته . كما بدأت الجهود نحو ملاحظة نوع من النظام أو الانتظام (order) في الأطياف المختلفة . مثلا لوحظ أن الذرات الحرة تؤدي الى سلاسل من الأطياف الخطية ، التي قد تتشابه من عنصر الى آخر . أيضا لوحظ أن الجزيئات (molecules) تؤدي إلى حزم (عصابات) طيفية (band spectra) ، حيث تندمج الخطوط مع بعضها فتشكل طيفا متصلا . ولوحظ أن الطيف الحزمى للنيتروجين يتحول تدريجيا الى الطيف الخطي عندما ترتفع درجة حرارة الغاز ، مما يعبر عن تفكك الجزيئات النيتروجنية الى ذرات نيتروجينية . كما لاحظ لوكير (١٨٣٦ ـ ١٩٢٠) أن الخط الطيفي نفسه يتغير عندما ترتفع درجة حرارة الغاز الذري ، مما يدل على أن الذرة نفسها هي كائن مركب وليس أساسيا .

أيضا لوحظ أن زيادة الضغط (أو الكثافة) في الغاز تؤدي الى اتساع (broadening) الخطوط الطيفية . واكتشف العالم الهولندي « ب . زيمان » أن الخطوط الطيفية تتأثر بوجود مجال مغنطيسي بطريقة ينقسم فيها كل خط الى عدد من الخطوط المتقاربة ، ويعرف هذا التأثير باسم « انشقاق زيمان » ، ويستعمل كثيرا الآن في دراسة التكوين الداخلي الدقيق للذرات والجزيئات . ايضا اكتشف العالم النمساوي « كريستيان دوبلر » (١٨٠٣ ـ ١٨٥٣) ماعرف بتأثير دوبلر الذي يقول بأن طول الموجة الصوتية أو الضوئية يتغير حسب سرعة مصدر الموجات . فإذا كان المصدر يتحرك باتجاه الراصد ، فإن طول الموجه يصبح أقصر (ويرتفع التردد) ، والعكس صحيح في حالة ابتعاد المصدر عن الراصد ، أعلن هذا التأثير في عام ١٨٤٣ وجرى إثباته على الموجات الصوتية الصادرة من قطار في عام ١٨٤٥ . لكن دوبلر نفسه كان مهتما أكثر بتطبيق هذه الظاهرة على الموجات الضوئية وخاصة في المجالات الفلكية . وكان يعتقد أننا نستطيع معرفة حركة النجوم (اقترابا أو ابتعادا من الأرض) من دراسة الأطياف الخطية للأشعة القادمة من هذه النجوم . فكان يعتقد مثلا أن النجوم الزرقاء تكتسب هذا اللون لأن هذه النجوم تقترب منا ، والعكس صحيح بالنسبة للنجوم الحمراء (افترض دوبلر أن النجوم جميعها تشع لونا أبيض) .

إن تفكير دوبلر حول التطبيقات الفلكية صحيح في المبدأ وخاطىء في التفصيل . إن التغيير الموجي الناتج عن تأثير (دوبلر) صغير في العادة ، ولايمكن أن يؤدي إلى تعدد الألوان في النجوم لكن العلماء بعده ، في النصف الثاني من هذا القرن ، تمكنوا ، من خلال قياسات دقيقة ، أن يرصدوا تأثير دوبلر بالفعل في الشمس والنجوم ففي عام (١٨٧١) أمكن ملاحظة التأثير المصاحب لدوران الشمس فعندما تدور الشمس حول نفسها ، فإن إحدى حافتيها تبتعد عنا ، في حين تقترب منا الحافة الأخرى . ووجد العلماء بأن طيف الهيدروجين القادم من الحافة المبتعدة ينزاح فعلا نحو منطقة اللون الأحمر في حين ينزاح الطيف القادم من الحافة المقتربة نحو منطقة اللون البنفسجي [١٠] . (الانزياح هو التغيير في طول الموجه الناتج عن تأثير دوبلر) .

(١٠) ـ تغير الالوان ، بسبب تأثير دوبلر ، يحدث فعلا في نجوم الكويزر (guisers) التي اكتشفت في السنوات الأخيرة . هذه النجوم تبتعد عنا بسرعات كبيرة قريبة من سرعة الضوء .

وقام عدد من الفلكيين في المراصد في أوروبا وانجلترا والولايات المتحدة بقياسات دوبلرية لتحديد حركة العديد من النجوم في السماء . كما وجدوا أيضا أن بعض النجوم تتألف في الحقيقة من نجوم ثنائية (binary stars) ، حيث يدور النجمان أحدهما حول الآخر . إن هذا الدوران يجد تعبيره في الطيف الدوبلري للشعاع القادم من النجم . ومن معرفة دور النجم (period) عبر الطيف يمكن تحديد كتلة هذه النجوم الثنائية .

كل هذا يعطي بعض الدلالة على أهمية التحليل الطيفي في الدراسات الفلكية ، فيما يسمى الآن بمجال الفيزياء الفلكية (Astrophysics) . إنه المجال الأكثر نشاطا في عصرنا الحاضر .

ولابد أن نذكر هنا أيضا جهود العالم السويدي « أندري أنغستروم » (١٨٣٧ - ١٩٠٨) . لقد نشر في ١٨٦٨ قائمة بأطوال موجية اعتبرت لمدة طويلة معايير للطول . هذه القائمة ، التي صححت فيما بعد ، كانت مرتبطة بالميتر ، كمعيار أصلي للطول (والميتر بدوره مرتبط بنصف قطر الأرض) . لكن في عام ١٩٠٧ وفي مؤتمر علمي دولي جرى اعادة ربط الطول المعياري بحيث أصبح الأنغستروم مرتبطا ليس بالميتر (والأرض) وانما بطول موجة أحد الخطوط الطيفية في عنصر الكادميوم ، أي أن طول موجة الخط الأحمر في الكادميوم يساوي ٦٤٣٨,٤٦٩٦٠ أنغستروم [١١] .

٤ - ٢ - ٤ . الاشعة الحرارية (الطيف المتصل) .

في عام (١٨٠٠) أثار العالم الفلكي الانجليزي « وليام هيرشيل » (١٧٣٨ - ١٨٢٢) السؤال حول الطيف الشمسي ، وفيما اذا كان يحتوي على أشعة خارجة عن منطقة الطيف المرئي (visible spectrum) ، وهي المنطقة من الأطوال الموجية التي تتحسس لها العين الانسانية . ويغطي هذا الطيف المنطقة (٤٠٠٠ - ٧٠٠٠) أنغستروم فباستخدام ميزان حرارة يوضع في مناطق الالوان المختلفة الناتجة عن التحليل الموشوري للشعاع الشمسي الأبيض ، وجد هيرشيل أن درجة الحرارة حتى عندما يوضع الميزان في المنطقة تحت الحمراء . إذن لابد من وجود أشعة في تلك المنطقة من الطيف .

ورغم بعض الجدل الذي أثاره هذا الاكتشاف في حينه ، فإنه لقي قبولا سريعا في المجتمع العلمي ولكن السؤال كان يدور حول طبيعة هذه الأشعة الحرارية (heat rays) التي ترافق الاشعة المرئية ولكنها ذات آثار حرارية واضحة . وقد توضح الموضوع كثيرا بفضل جهود العالم الايطالي « ماسيدونيو ميللوني » (١٧٩٨ - ١٨٥٤) ، الذي قام بأبحاث وتجارب مكثفة على هذه الأشعة الحرارية ، وتوصل أخيرا إلى قناعة بأنها من نفس طبيعة الأشعة المرئية . كان ميلوني في تجاربه يقيس قدرة المواد (على شكل صفائح من السوائل والجوامد) على امتصاص هذه الأشعة . هذه الأبحاث تابعها العالم الايرلندي - الانجليزي « جون تيندال » (١٨٢٠ - ١٨٩٣) ، الذي بسط ، حتى على مستوى الرجل العام ، موضوع الأشعة تحت الحمراء وعلاقة الضوء بالحرارة . وأثبت بالتجارب أن للمواد ذات القدرة العالية على امتصاص هذه الاشعة قدرة عالية كذلك على اصدارها عند تسخينها .

(١١) - منذ عام ١٩٦٠ ربط المتر العيارى بطول موجهة الضوء الاحمر - البرتقالى المنبعث من عنصر كريبتون - ٨٦ ، على الشكل التالى : امتر - ٧٣ ٧٦٣ ١٦٥٠ طول موجة مما يذكر تاريخيا ، أن مايكلسون ، في عام ١٨٩٢ نقل جهازه الطيفى من الولايات المتحدة الى باريس لمقارنة الميتر العيارى عندئذ مع الخط المنبعث من الكادميوم .

٤ ـ ٣ الكهرطيسية

شهد القرن التاسع عشر تطورات كثيرة وعلى غاية من الاهمية في مجال الكهرطيسية حتى أنه وصف بعصر الكهرطيسية . خلال النصف الأول من هذا القرن استطاع العلماء ، وخصوصا في انجلترا وألمانيا ، تطوير عملية صناعة الخلايا أو البطاريات الفولطية . وبهذه الطريقة بالامكان الحصول على بطاريات يمكن الاعتماد عليها لإعطاء أية قوة (كهربائية) محركة (electromotive force) مناسبة وبهذه الطريقة يمكن الحصول على تيارات كهربائية مناسبة في أسلاك معدنية ، عندما توصل هذه الأسلاك عبر قطبي البطارية .

٤ ـ ٣ ـ ١ : التيار الكهربائي وتأثيره المغنطيسي

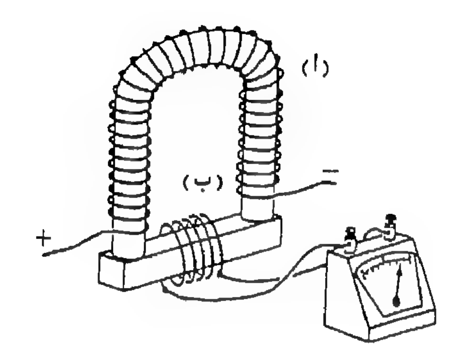
يمكن القول إن عصر الكهرطيسية بدأ بتجربة العالم الدانماركي « كريستيان أورستيد » (١٧٧٧ ـ ١٨٥١) في عام ١٨١٩ . كان أورستيد يشعر مع غيره بأن هناك نوعا من العلاقة بين الكهرباء ، والمغنطيسية . وأثناء تجاربه على تأثير التيار على إبرة مغنطيسية لاحظ أن الإبرة تتحرك ، وبطريقة تدل على أن القوة المغنطيسية (المجال المغنطيسي) عمودية على اتجاه التيار . لاحظ أورستيد أيضا أن القوة المغنطيسية الناتجة عن التيار تستطيع اختراق معظم المواد العادية مثل الزجاج أو الخشب أو النحاس . ولاحظ العالم الفرنسي المعاصر « آراغو » في ١٨٢٢ أن التيار يجذب برادة الحديد ، تماما مثلما يفعل المغنطيس . وظن آراغو أن التيار يجب أن يعتبر مغنطيسا ، وإن كان غير حديدي .

لكن الدراسات الشاملة في هذا المجال أتت على يد العالم الفرنسي الموهوب « أندري أمبير » (١٧٧٥ ـ ١٨٣٦) . ورغم التقلبات الحادة في حياته مثل اعدام والده خلال الثورة الفرنسية ، الا أنه استطاع أن يقدم اسهامات كبيرة في مجال الكهرطيسية . وجد أمبير أن تيارين في سلكين متوازيين يتجاذبان عندما يكون التياران في نفس الاتجاه ، ويتنافران عندما يكون التياران متعاكسين . وعلى عكس آراغو ، فإن أمبير قال بأن المغنطيسية في الحديد الممغنط هي نتيجة لتيارات كهربائية تسري داخل المادة المغنطيسية فعندما يكون الحديد غير ممغنط فإن التيارات الداخلية تكون متجهة في اتجاهات عشوائية ، ولايكون لها تأثير مغنطيسي صاف . وفي حالة الممغنطة ، فإن هذه التيارات تتنسق مع بعضها البعض وبذلك تنتج تأثيرا خارجيا كبيرا . واستنتج أيضا بأن وجود المجال المغنطيسي الأرضي دليل على وجود تيارات كهربائية داخل الكرة الارضية . كل هذه الأفكار التي نادى بها أمبير منذ أكثر من مائة وخمسين عاما لاتزال سارية حتى هذا اليوم .

وفي نفس الفترة كان العالم الألماني « جيورغ أوم » (١٧٨٩ ـ ١٨٥٤) يقوم بتجارب عديدة على المقاومات الكهربائية للفلزات المختلفة ، مثل النحاس ، الفضة ، الحديد ، وغيرها . وبعد عناء كبير ، وعلى الرغم من عمله في جو من الانعزاليه بعيدا عن العلماء الآخرين ، فإنه توصل في عام ١٨٢٦ الى القانون الذي سمى فيما بعد بقانون أوم : فرق الجهد (أو التوتر الكهربائي) بين قطبي البطارية يساوي مقاومة السلك مضروبة بالتيار الذي يسري في هذا السلك . (التيار الكهربائي هو كمية الشحنة الكهربائية التي تمر عبر مقطع من السلك : لكل وحدة من الزمن ، أي ثانية واحدة) . وهكذا فإن كل سلك له مقاومة معينة لاتتغير بتغير فرق الجهد أو التيار ـسمر. ين . ثم قام أوم أيضا باشتقاق صيغة رياضية للتيار عندما تكون البطاريات موصولة بطريقة التسلسل أو بطريقة التوازي .

٤ - ٣ - ٣ : القوة الكهربائية المستحثة

في نفس الفترة كانت تجري في انجلترا تجارب مثيرة للاهتمام حول موضوع العلاقة بين الكهرباء والمغنطيسية . والعالم الأوه في ذلك الموضوع هو العالم الانجليزي الشهير « ميكائيل فارادي » (١٧٩١ - ١٨٦٧) . نشأ (فارادي) في لندن وعمل في صباه في شركة لتجليد الكتب ، حيث أتيحت له الفرصة لقراءة كتب عديدة عن الكيمياء والفيزياء . كما استمع الى محاضرات من الكيميائي المعروف آنذاك « ديفي » بعد ذلك عمل فارادي مساعدا لديفي في المعهد الملكي في لندن وتدرج في المكانة العلمية هناك حتى أصبح مديرا للمعهد في عام ١٨٢٥ . بعد بداية في التجارب الكيميائية ، بدأ فاردي بالتوجه نحو الكهرباء وتأثيراتها المغنطيسية . وكان مهتما كثيرا بتجربة أورستيد حول تأثير التيارات الكهربائية على الابرة المغنطيسية . لكن فارادي ، أراد أن ثبت المعول العكسي ، وهو تأثير المغنطيس ، سواء من أصل حديدي أو كهربائي ، على التيار . ولهذا الغرض أجرى تجارب عديدة ، منها أنه وضع وشيعة (Coil) أو ملفا (أ) مثلا تمر في مركزها حلقة حديدية ، وهي موصولة الى بطارية كهربائية (شكل ٩) . وعلى الجانب الآخر من الحلقة توجد وشيعة أخرى (ب) موصولة الى غالفانوميتر (جهاز القياس الجهد الكهربائي) . وتوقع (فارادي) أن التيار في وشيعة (أ) يولد مجالا مغنطيسيا ينتقل عبر الحلقة الحديدية الى وشيعة (ب) ويسبب تيارا فيها لكنه وجد لدهشته ، أن تيارا في وشيعة (ب) يمر فقط للحظة قصيرة عندما يوصل البطارية الى وشيعة (أ) ، أو عندما يفصل البطارية عنها . ولاحظ أيضا أن اتجاهي التيارين المستحثين (induced) في الوشيعة (ب) متعاكسان عند الوصل والفصل . توصل فارادي الى هذه النتيجة في عام ١٩٣٨ . وبعد بعض التأمل ، توصل الى التفسير الصحيح لهذه الظاهرة الهامة : إن فرق الجهد المستحث في الوشيعة (ب) يتناسب مع معدل تغير التدفق المغنطيسي (magnetic flux) المار عبر هذه الوشيعة . هذه المقولة تعرف الآن بقانون فارادي في الكهرطيسية . ورغم أن النتيجة تحمل في طياتها مبدأ المولد الكهربائي (Dynamo) إلا أن النتائج كانت ضعيفة في المقدار ، مما جعل فارادي يعتقد بعدم وجود تطبيقات عملية لها .



(شكل ٩)
تجربة (فارادي) للحصول على التيار المستحث . عندما يتغير التيار في وشيعة (أ) يظهر جهد في وشيعة (ب) .

وفي مجال ذكر أعمال فارادى الكهرطيسية ، لابد من الاشارة الى العالم الأمريكي « جوزيف هنري » (١٧٩٩ - ١٨٧٨) . كان هنري على اطلاع على أعمال أورستيد أمبير عن تأثيرات التيار المغنطيسية ، وأمضى وقتا طويلا في تصميم وتصنيع المغانط الكهربائية (electromagnets) . وخلال هذه التجارب يبدو أن هنري اكتشف قانون فارادى أو بعض أجزائه بطريقة مستقلة وبدون معرفة بأعمال فارادى ، كان ذلك في عام ١٨٣٠ ، أي قبل نشر فارادي لنتائجه بسنة كاملة . لكن هنري لم يقم بنشر نتائجه حتى عام ١٨٣٢ وبذلك خسر السبق العلمي لقرينة الانجليزي . بعد ذلك سافر هنري الى انجلترا حيث قابل فارادى ، ونشأت بينهما علاقة زمالة ودية .

وأسهم فارادي في تقديم وتثبيت مفهوم المجال الكهربائي (electric field) الذي نستعمله كثيرا في تدريس الفيزياء في أيامنا هذه . فهو لم يكن مرتاحا لمفهوم « التأثير عن بعد ، الذي كان شائع الاستعمال في اوروبا آنذاك . بل كان يعتقد أن التنافر بين شحنتين كهربائيتين مثلا يحصل بالشكل التالي : الشحنة الأولى تؤثر على المادة المحيطة بها (حتى ولو كانت المادة هي الأثير) ، وينتج عن ذلك تشكل مجال كهربائي يمتد في الوسط المحيط . هذا المجال يمتد ويصل أخيرا الى الشحنة الأخرى فيدفعها بعيدا ، وسمّى الخطوط التي يتبعها المجال بخطوط القوة(lines of force) . وهكذا فإن الجو المحيط بالشحنات الكهربائية أصبح ، في نظر فارادي ، معقدا جدا ، ويحتوى على عدد كبير من الخطوط المنحنية ، التي تساعدنا في النهاية على فهم التفاعل بين هذه الشحنات .

قام فارادي أيضا بدراسات عديدة عن الخواص الكهربائية للعوازل الكهربائية ، فوجد أنها تتغير في المجال الكهربائي . أعطى هذه المواد اسما جديدا في اللغة الانجليزية ، هو«dielectrics» . عند تطبيق مجال كهربائي على عازل ما ، فإن الشحنات الذرية الموجبة في العازل تنزع في اتجاه المجال ، والشحنات السالبة تنزاح في عكس اتجاه المجال . وهكذا يولد المجال انفصالا بين الشحنات الموجبة والسالبة داخل العازل . ويعرف هذا الانفصال بالاستقطاب الكهربائي (electric polarization) .

٤ - ٣ - ٤ - معادلات (ماكسويل)

توجت أعمال وأفكار فارادي عن المجال الكهربائي والعوازل ، وهي ذات أسس تجريبية صلبة ، بأعمال ونتائج العالم السكوتلاندي العظيم « جيمس كليرك ماكسويل » (١٨٣١ - ١٨٧٩) وهي ذات صيغة نظرية رياضية رائعة . درس ماكسويل في جامعتي إدنبره وكيمبريدج . وكانت مواهبه النظرية والرياضية والتجريبية واضحة جدا لدى أساتذته وزملائه .

أحب ماكسويل أفكار فارادي عن تأثير المجال الكهربائي على العوازل ، وكيف أن المجال يولد استقطابا كهربائيا في شحنات هذه المادة . ثم أدخل ماكسويل فكرة جديدة حقا : إن تغير قيمة الاستقطاب الكهربائي من نقطة إلى نقطة داخل العازل يمكن أن يعتبر تيارا كهربائيا على قدم المساواة التامة مع التيار الكهربائي في النواقل . هذا التيار الجديد ، الذي سمى باسم « تيار الانزياح » يؤدي الى مجال مغنطيسي ، كما هو الحال مع التيار العادي .

وعندما وضع ماكسويل أفكار فارادي عن العوازل المستحثه في صيغة رياضية مناسبة وأدخل تياره الجديد في الحساب ، وصل الى معادلات رياضية جديدة أصبحت تعرف بمعادلات ماكسويل (Maxwell equations) . هذه المعادلات تتألف من أربع معادلات تفاضلية جزئية تصف سلوك المجال الكهربائي والمجال المغنطيسي الناجمين عن الشحنات والتيارات الموجودة في النظام الفيزيائي في جميع الظروف المقبولة تقريبا . ولاتزال هذه المعادلات حتى يومنا هذا تشكل الأساس في معالجتنا لنظرية الكهرطيسية في كل الظروف العادية (الكلاسيكية) .

والأمر الهام هنا هو أن ماكسويل وجد أن المعادلات تؤدي ، من بين الحلول المتعددة ، الى حل موجي ، أي إلى وضع تنتشر فيه المجالات الكهربائية المغنطيسية على شكل أمواج داخل المادة ، أي أمواج كهرطيسية ، ثم لاحظ ماكسويل أمرا على غاية الاهمية ، وهو أن سرعة هذه الأمواج في الفراغ (الأثير) هي تماما ٣×١٠^{٨} مترا في الثانية ، أي نفس سرعة الضوء في الفراغ . إذن الاستنتاج المذهل : الضوء (في الفراغ) هو في الواقع أمواج كهرطيسية قصيرة الطول (حوالي ٥×١٠^{-٧}متر) وذات تردد عال جدا (حوالي ٥×١٠^{١٤} في الثانية) . إنه استنتاج مذهل حقا ، أثار بسرعة اهتمام المجتمع العلمي في أوروبا وأمريكا .

٤ ـ ٣ ـ ٥ : الأمواج الكهرطيسية

الأمواج الكهرطيسية التي تنبأ بها ماكسويل تم كشفها بعد خمسة عشر عاما تقريبا (١٨٨٨) من قبل العالم الألماني « هاينريخ هيرتز » (١٨٥٧ ـ ١٨٩٤) . عمل هيرتز خلال دراسته لشهادة الدكتوراة في الفيزياء تحت اشراف هيلمهولتز (انظر جزء ٤ ـ ١) . واقترح هذا على هرتز العمل على كشف الأمواج الماكسويلية . لكن هيرتز فضل موضوعا آخر مضمون النتائج إلا انه عاد فيا بعد الى الاقتراح . ولّد هرتز الأمواج بواسطة تفريغ مكثف مشحون فعملية التفريغ تؤدي الى اهتزاز كهربائي في المكثف يؤدي بدوره الى أمواج تنتشر في الفراغ المحيط بالمكثف . واستعمل هيرتز كاشفا بسيطا يتألف من حلقة معدنية كاملة ، ماعدا فجوة صغيرة فيها قرص معدني به فجوةصغيرة فعندما ترتطم الأمواج بالحلقة ، يتولد فرق كهربائي عبر الفجوة ، يؤدي الى شرارة كهربائية عبرها .

كما أجرى هيرتز تجارب تداخلية ليتحقق من الخاصية الموجية لهذه الظاهرة . فعندما عكس الأمواج من سطح معدني ولاحظ تراكبها مع الأمواج الساقطة الأصلية ، وجد أن التراكب يؤدي الى نمط التداخل المألوف . كما قام باجراء تجارب حيوية على هذه الأمواج . وكانت الخلاصة أن هذه الامواج لها نفس مواصفات الضوء ، فيما عدا أن طول موجتها كبير بالمقارنة مع الضوء العادي قال هيرتز : « إن الهدف من هذه التجارب هو اختبار الافتراضات الأساسية في نظرية فارادي ـ ماكسويل والنتائج تؤكد حقا هذه الافتراضات » .

وهكذا فإن ماكسويل وهيرتز نجحا خلال خمسة عشر عاما فقط في ضم علم الضوء ليصبح أحد فروع الكهرطيسية .

توفي الشاب هيرتز (٢٧ عاما) بعد ست سنوات فقط من اكتشافه العظيم ، ولم تتح له الفرصة ليرى التطبيقات الرائعة لأعماله في مجالات الاتصالات اللاسلكية التي حدثت في نهاية القرن ، ثم تطورت كثيرا في القرن العشرين (أمواج الراديو والتلفزيون وغيرهما) .

٥ ـ القرن العشرون (وأواخر القرن التاسع عشر)

تابعت الفزياء تقدمها السريع في هذا القرن على مختلف الجبهات العلمية . ففي مجال الضوء والاشعاع الضوئي ، أدت أبحاث الطيف المتصل الى نتائج جديدة ، وهي أن الضوء نفسه يتكون من «ذرات ضوئية» أو فوتونات ، ذلك بالإضافة الى طبيعة الضوء الموجية . هذه النتائج تم الوصول اليها بفضل جهود بلانك وآينشتاين . وفي مجال البنية الذرية ، أدت أبحاث الأطياف الذرية (وبخاصة مع اكتشاف الإلكترون ، الجسم الدقيق الدائم الحضور) الى الكشف عن بنية الذرة على أنها نواة ثقيلة وموجبة في المركز وإلكترونات خفيفة وسالبة تدور حولها بسرعة . ثم تبين أن الجسيمات الدقيقة تمتلك خواص موجية أيضا (إضافة الى الخواص الجسيمية مما أدى الى اكتشاف ميكانيك الكم أو الميكانيك الموجي) . هذه التطورات تمت بفضل جهود عدد كبير من العلماء على رأسهم رذ رفورد وبوهر وشرودينغر .

كما حصل في هذا القرن التعرف على النواة الذرية للمرة الأولى في التاريخ . كانت مشاهدة بالصدفة من قبل بيكيريل ، لكنها نمت وتطورت على أيدي مدام كيوري ورذرفورد ومن تلاهم لتصبح فيزياء النواة مجالا علميا واسع النطاق . فقد تم الكشف عن طبيعة وتركيب النواة ، التي تبين أنها تتكون من عدد من البروتونات الموجبة والنيوترونات الموجبة والنيوترونات الحيادية ، مترابطة بواسطة قوة نووية مرتفعة الشدة . وباستخدام التفاعلات النووية المختلفة ، تمكن الانسان من صنع تجهيزات وأدوات جديدة لم يكن يحلم بها من قبل مثل المفاعلات النووية والقنابل النووية .

كما تمكن العالم العظيم آينشتاين في وقت مبكر من القرن من اكتشاف النظرية النسبية ، التي أدت الى تغييرات جذرية في مفاهيم أساسية في الفيزياء . فحسب هذه النظرية ، التي تم اختبار صحتها في مجالات مختلفة تم الغاء مفاهيم الزمن المطلق والأطوال المطلقة للأجسام والكتلة المطلقة لجسم ما ، على سبيل المثال . فالزمن (بين حادثين) والطول والكتلة تعتمد على الراصد الذي يقوم بالقياس ، وبالذات على سرعته . كما أدت هذه النظرية ، على بساطتها في البداية ، الى مفاهيم جديدة في منتهي الغرابة والفائدة العلمية في الوقت نفسه مثل تكافؤ الكتلة والطاقة . وبواسطة هذا المفهوم نستطيع أن نفهم الآن كيف تتولد الطاقة الهائلة في الشمس والنجوم .

٥ ـ ١ : الطيف المتصل والفوتون

٥ ـ ١ ـ ١ : الطيف المتصل (إشعاع السطح الاسود)

لقد أصبح معروفا في نهاية القرن التاسع عشر أن الأجسام الحارة (الساخنة) تصدر إشعاعات ضوئية وأن أطياف هذه الاشعاعات تعتمد على حالة طبيعة هذه الاجسام . فالأجسام الجامدةوالسائلة تعطي أطيافا متصلة أو

مستمرة (Continuous) في حين أن الغازات تعطي أطيافا متقطعة أو منفصلة (discrete) . إن دراسة الاطياف المتصلة هي التي أدت الى اكتشاف الفوتون ، كما سنرى الآن .

إن أي جسم كقطعة من الحديدمثلا ، يصدر عند درجة الحرارة العادية ، إشعاعا كهرطيسيا على شكل موجات كهرطيسية ، حسب رأي ماكسويل لكننا لانرى هذا الاشعاع لكونه يقع في المنطقة تحت الحمراء ، حيث أن طول الموجة كبيرة لدرجة لاتراه العين . لكن اذ سخنت قطعة الحديد ، كما في السخانة الكهربائية ، الى حوالي ٥٠٠ د .م (درجة مئوية) فإنها تصبح حمراء اللون ، لأنها تشع الآن قسما من الاشعاع في المنطقة المرئية . واذا استمر تسخينها ، فان القطعة تبدو بيضاء اللون لأن إشعاعها يغطي معظم المنطقة المرئية . ولو مررنا الضوء الصادر عن هذا الجسم الجامد عبر موشور زجاجي لتحليله (أي الضوء) موجيا ، لوجدنا أن الطيف يغطي جميع الموجات (الألوان) وبدون أي انقطاع . هذا هو الطيف المتصل .

وهناك طيف متصل آخر مألوف لدينا تماما ، وهو طيف الاشعاع الشمسي . هذا الطيف مستمر لأنه يصدر من سطح الشمس حيث الكثافة العالية ، التي تقترب من خواص الجوامد والسوائل من هذه الناحية .

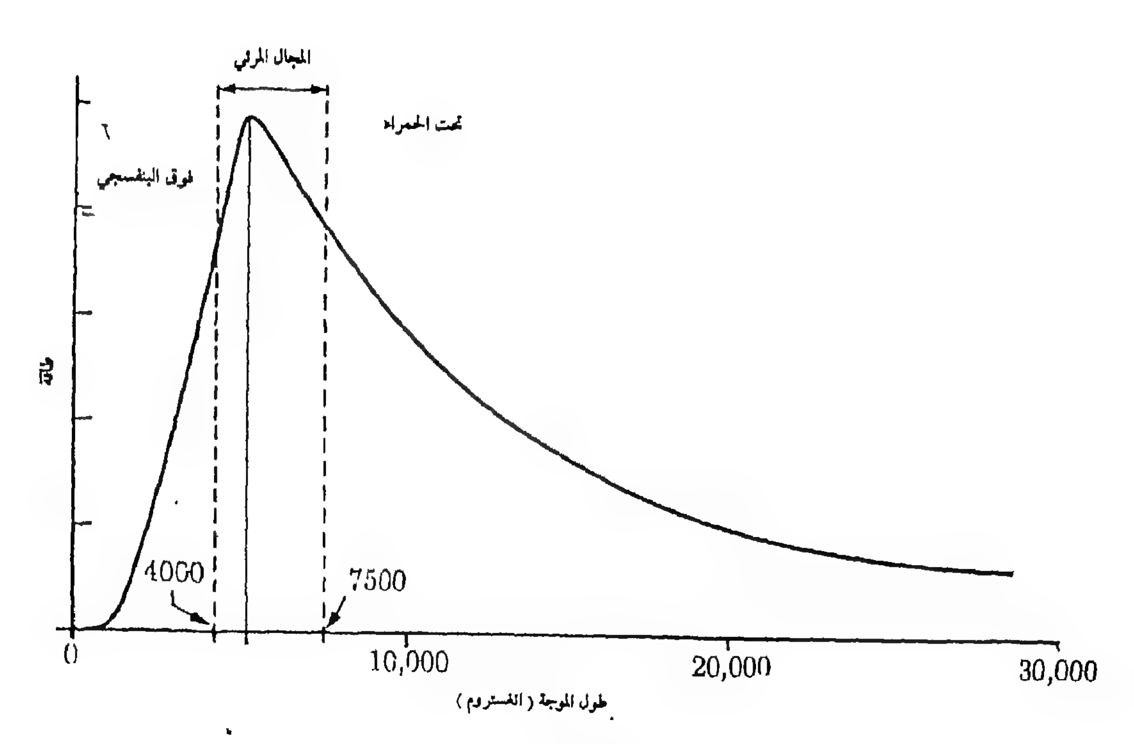
يلاحظ من الشكل (١٠) الذي يبين توزيع القدرة الاشعاعية بين الموجات المختلفة أن القدرة تبلغ ذروتها عند اللون الأخضر (طول موجة ٥٠٠٠ آنغستروم) لكن المنطقة المرئية كلها (من ٤٠٠٠ ـ ٧٠٠٠) آمغستروم ممثلة تماما في هذه الأشعة . كما يلاحظ أن جزءا من الأشعة الشمسية يقع خارج المنطقة المرئية : في الموجات القصيرة (أقل منز٤٠٠٠ آنغستروم) المعروفة بالمنطقة فوق البنفسجية . وفي الموجات الطويلة (اكثر من ٧٠٠٠ آنغستروم) المعروفة بالمنطقة تحت الحمراء .

لقد كان هناك اهتمام كبير بالتوصل الى اشتقاق رياضي للمنحنى الطيفي المبين ، وذلك على أساس النظريات السائدة في ذلك الحين ، أي قوانين الميكانيك والترموديناميك ونظرية ماكسويل الكهرطيسية . ولتسهيل الموضوع من الناحية النظرية ، تركز الاهتمام على ماسمى بالسطح الأسود المثالي (deal black surface) ، لأنه السطح الذي يمتص كل الاشعاع الساقط عليه ، كما له قدرة كبيرة على الاشعاع من ذاته .

وقد استطاع الفيزيائيون أن يشتقوا قانونين هامين في هذا المجال تم التحقق منهما تجريبيا :

١ ـ قانون ستيفان ـ بولتزمان : ويقول هذا بأن الطاقة الاشعاعية التي تصدرمن وحدة مساحة في السطح في الثانية (أي معدل الطاقة الاشعاعية ، أو القدرة الاشعاعية) تتناسب مع درجة الحرارة المطلقة للسطح مرفوعة الى أس (قوة) ٤ . وهكذا فإن القدرة الكلية (التي تغطي جميع الموجات الصادرة من الجسم) تزداد بصورة سريعة جدا مع درجة الحرارة للسطح .

٢ ـ قانون فين الانزياحي : ويقول بأن المنحنى الطيفي يبلغ ذروته عند طول موجة معينة ، وأن طول هذه الموجة يتناسب عكسا مع درجة حرارة السطح . وهكذا فعندما ترتفع درجة الحرارة ينزاح الشكل نحو الموجات القصيرة



(شكل ١٠)
توزيع الطاقة في الاشعاع الشمسي (عند ٦٠٠٠ درجة مئوية) على الاطوال الموجية . التوزيع يبلغ الذروة عند الطول ٥٠٠٠ أنغستروم ، الموافق للون الاخضر .

وقد حاول فيزيائيون كثيرون بمن فيهم رايلي وجين من انجلترا وآخرون من ألمانيا ، أن يتوصلوا الى قانون كامل يعطي المنحنى الطيفي بكامله ، وليس فقط القانونين المذكورين ولكن المحاولات كلها باءت بالفشل ، رغم جهود استمرت ، مايقرب من عشرين عاما .

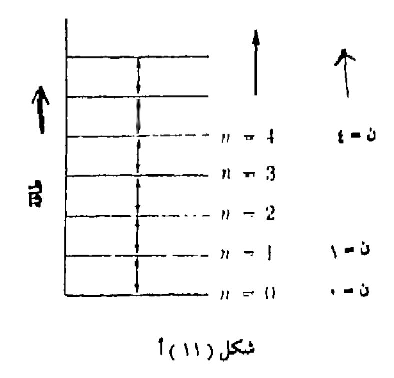
٥ - ١ - ٢ : فرضية (بلانك) الكمية :

عندما وصلت هذه الجهود الى طريق مسدود ، تقدم العالم الألماني « ماكس بلانك » (١٨٥٨ - ١٩٤٧) في عام ١٩٠٠ بنظرية (أو طريقة) جديدة تعطي وصفا كاملا للمنحنى الطيفي لاشعاع السطح الأسود . لكن النظريةانطوت على بعض المفاهيم الغريبة التي تتناقض صراحة مع المفاهيم التقليدية .

يمكن شرح نظرية بلانك بالطريقة التالية . إن الاشعاع الضوئي (الكهرطيسي) ناتج عن اهتزاز جسيمات هزازة (oscillators)مشحونة كهربائيا واقعة قرب السطح وتهتز بتردد معين ، وليكن (تر) إن تردد الاشعاع الصادر هو نفس تردد الهزازات . هذه الأفكار كانت معروفة ومقبولة آنذاك ، وهي التي قدمت لشرح الأمواج الكهرطيسية التي رصدها هيرتز .

لكن لكي يستطيع شرح طيف الاشعاع للسطح الأسود ، وجد بلانك نفسه مضطرا الى افتراض مفهومين جديدين .

الاول : أن طاقة كل من الهزازات مكممة (مكماة) (quantized) بالشكل التالي . الطاقة التي يمكن أن يمتلكها الهزاز هي طا = ن × هـ × تر ، حيث (ن) عدد صحيح (أي ١ ، ٢ ، . . .) وحيث هـ ثابت عالمي يدعى ثابت بلانك (هـ = ٦,٦٢ × ١٠^-٣٤ جول × ثا) و (تر) هو تردد الهزاز ، كما ذكرنا . هكذا لايمكن للهزاز أن يملك طاقة كسرية مثل ٢,٥ هـ × تر . هذه التكميمية في الطاقة لم تكن معروفة أو مقبولة قبلئذ ، اذ كان يعتقد بأن الهزاز ، كأي نظام فيزيائي آخر ، يمكن له أن يمتلك أية طاقة مرغوبة الأمر يحتاج فقط الى زيادة سعة الاهتزاز . لكن بلانك افتراض غير ذلك وهو أن مستويات الطاقة المسموح بها تشكل سلما منتظما (متساوي الدرجات) ـ شكل (١١ ـ أ) وهكذا فإن بلانك قد قام بتكميم الطاقة لنظام ميكانيكي للمرة الأولى في تاريخ الفيزياء .



شكل (١١) أ

(أ) سلم الطاقة المسموح للهزاز الدقيق ، حسب نظرية (بلانك) . (ب) رسم لجهاز التأثير الكهرضوئي . الاشعاع الساقط يحرر الكترونات من فلز الانود ، حيث تتوجه الالكترونات (بسبب مجال البطارية) نحو الألود . هكذا يجري تيار في الدائرة ، ويستدل عليه بواسطة جهاز الأميتر .

الثاني : الهزاز يشع فقط عندما ينتقل من مستوى (طاقي) الى مستوى آخرى واقع تحته مباشرة . والطاقة الصادرة تساوي عندئذ هـ × تر . كما يستطيع الهزاز امتصاص كمية من الطاقة هـ × تر من إشعاع مناسب وينتقل الى المستوى الاعلى مباشرة على سلم الطاقة . وهكذا فإن التفاعل بين الهزاز المادي والاشعاع يتم بواسطة تبادل وحدات مكممة من الطاقة ، تعادل هـ × تر أو عديد صحيح منها ، كما يتبادل الناس وحدات النقود (الدنانير مثلا) .

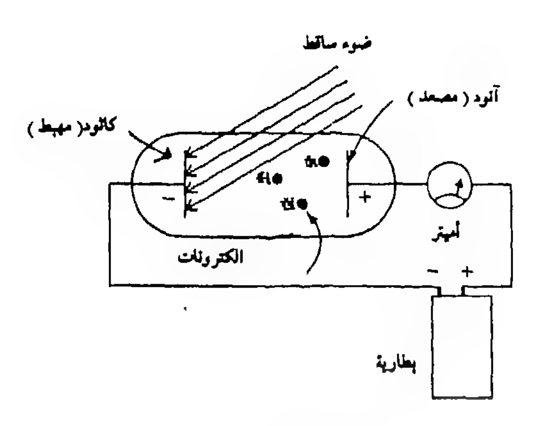
هذه الفرضية كانت أيضا خارجة عن المفاهيم الفيزيائية السائدة عندئذ ، إذ كان يعتقد بأن الاشعاع لابد أن يصدر عن الهزاز باستمرار وبكميات مستمرة خلال حركتة .

لكن يلاحظ أن الفرضيتين اللتين قدمها بلانك منسجمتان مع بعضهما تماما . فالأولى تقود الى الثانية بصورة منطقية .

ورغم نجاحه في معالجة طيف السطح الأسود ، فإن بلانك لم يكن سعيداً بما حدث ، إذ أن مفاهيمه الجديدة تشكل ضربة قاسية للنظرية التقليدية التي بدأ الفيزيائيون يشعرون بالارتياح إليها كطريقة شاملة تعطي وصفا دقيقا وكاملا لجميع الظواهر الفيزيائية . ورغم محاولاته اللاحقة التي امتدت سنوات طويلة ، فإن بلانك لم يستطع أن يجد بديلا « مناسبا لمفاهيمه الجديدة . بل أكثر من فاننا سنرى أن الأعمال القادمة سترسخ هذه المفاهيم وتعممها على نظم فيزيائية أخرى ، غير التي عالجها بلانك . أما عن حياة بلانك ، فانه نشأ في ميونيخ ودرس في جامعتها ، ثم انتقل الى جامعة برلين حيث أتم دراساته العليا تحت اشراف « هيلمولتز وكيركوف » . نال بلانك جائزة نوبل في ١٩١٨ .

٥ ـ ١ ـ ٣ : التأثير الكهرضوئي والفوتون :

لقيت مفاهيم بلانك دعما قويا عندما نشر عالم شاب مغمور آنذاك اسمه « آينشتاين » في عام ١٩٠٥ . نظريته في شرح ظاهرة التأثير الكهرضوئي (photoelectric effect) . يتألف الجهاز التجريبي هنا (شكل ـ ب) ببساطة من أنبوب زجاجي مفرغ ، توجد فيه صفيحتان معدنيتان موصولتان الى قطبي بطارية . وفي الحالة العادية ، لايمر تيار في هذه الدائرة الكهربائية (المعروفة بدائرة الخلية) ، لأنها مفصولة بسبب الانقطاع الكهربائي في الأنبوب المفرغ . لكن وجد أنه اذا عرضت الصفيحة الكاتودية (الكاتود) الى أشعة ضوئية من ألوان (ترددات معينة فان تيارا كهربائيا يسرى في الدائرة .



شكل (١١) ب

من ناحية المبدأ ، ليس هناك صعوبة في تفسير هذه الظاهرة . الأشعة الضوئية تحمل طاقة (كهرطيسية أو كهرضوئية) ، وعندما تصطدم هذه مع الالكترونات الموجودة في الفلز ، فإن الالكترونات تمتص جزءا من طاقة الاشعاع مما يكفي لتحرير هذه الالكترونات من الفلز (الطاقة اللازمة لتحرير الالكترون من فلز ماتدعى ، « تابع الشغل » ، وتعتمد قيمتها على طبيعة الفلز ـ كان جسيم الالكترون معروفا عندئذ ـ (انظر جزء ٥ ـ ٣) . هذه الالكترونات تنطلق هكذا من الكاتود الى الأنود (الصفيحة الموجبة) وتكمل دورتها حول الدائرة ، فهي الجسيمات المشحونة التي تحمل التيار .

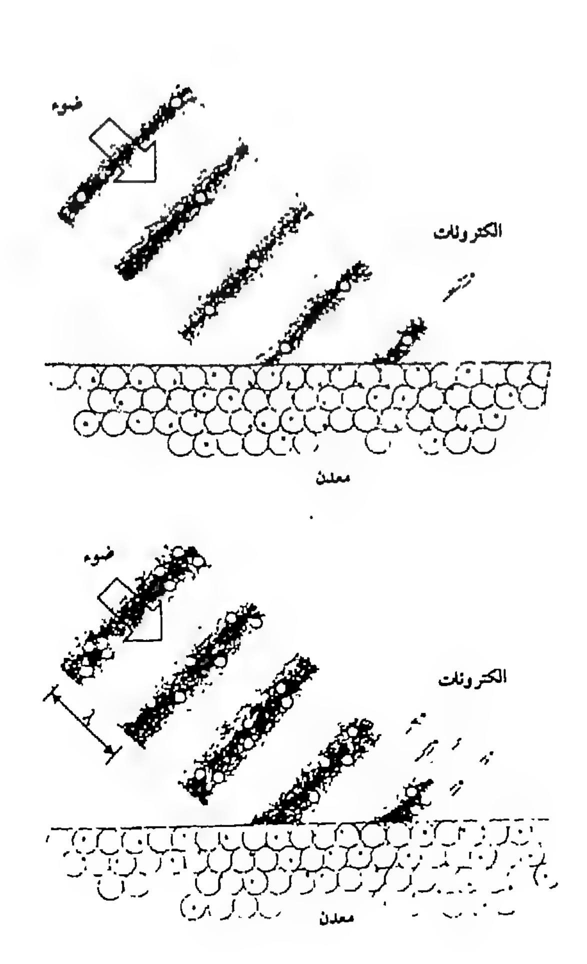
ولكن خلال دراسة الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة والتي أجرى معظمها الفيزيائي « لينارد » لوحظ شيء آخر محير حقا ، وهو أنه اذا أنقصنا تردد الاشعاع تدريجيا (أي غيرنا اللون في اتجاه اللون الأحمر) فإن التيار يتوقف فجأة عند تردد معين (تردد العتبة) . هذا التوقف الفجائي لايمكن شرحه في إطار النظرية التقليدية . فهذه تقول بأن الاشعاع يؤثر على الالكترون (من خلال المجال الكهرطيسي للإشعاع) ويهيجه (يثيره) تدريجيا ، ويعطيه طاقة إضافية بشكل مستمر . وطبقا لهذه النظرية ، فإن الالكترون سيحصل بعد مرور وقت كاف ، على الطاقة الكافية اللازمة لتحريره من سطح الفلز ، دون أن يتأثر ذلك بالتردد . لكن التجربة كانت مخالفة تماما لهذا المنطق الكلاسيكي .

أما تفسير آينشتاين للظاهرة فهو مختلف تماما ، كان هذا على اطلاع تام على نظرية بلانك الكمومية للهزازات الميكانيكية وتأثير ذلك على التفاعل بين المادة والاشعاع الكهرطيسي . وتساءل آينشتاين : ماذا لوكانت الطاقة الاشعاعية مكممة أيضا ؟ وهكذا افترض آينشتاين أن الشعاع الضوئي (الساقط على الكاتود) هو عبارة عن سيل من ذرات ضوئية كل منها يحمل طاقة بمقدار طا = هـ × تر . هذه « الذرة » الضوئية سميت فيما بعد بالفوتون (photon) . واضاف آينشتاين الى هذا التحليل أنه عندما تصطدم الفوتونات بالالكترونات ، داخل الفلز ، فإن الفوتون يختفي ويعطي كامل طاقته الى الكترون واحد . هذا الالكترون يستخدم عندئذ جزءا من هذه الطاقة ، أو كلها ليتحرر من الفلز ويغادر سطحه مكملا الدائرة الكهربائية وليس ضروريا أن تختفي كل الفوتونات بهذه الطريقة ، بل جزء كبير منها على الأقل .

وطبقا لهذا النموذج ، يمكن شرح توقف التيار الفجائي عند تردد معين بالطريقة المنطقية الآتية : عندما يتناقص التردد الى حد معين فإن طاقة الفوتون (هـ × تر) التي تعطي الالكترون ليست كافية لتحرير الالكترون من سطح الفلز . وبالفعل فإن نموذج آينشتاين أعطى شرحا مقنعا ومرضيا لظاهرة التأثير الكهرضوئي ، بدون تعارض مع أي من التجارب المتعلقة بالموضوع (شكل ١٢) .

لكن طرح آينشتاين أثار اعتراضات وانتقادات عديدة من قبل قسم كبير من فيزيائي تلك الفترة ، بمن فيهم بلانك نفسه : وتتركز معظم الانتقادات على أن المفهوم الذري أو الجسيمي للضوء يتعارض منطقيا أو تخيليا مع تصورنا للضوء على أنه أمواج مستمرة وانسيابية كما أثبتت تجارب التداخل والحيود والاستقطاب وغيرها . كيف نستطيع أن نتخيل وجود هذه الخواص اذا كان الضوء عبارة عن جسيمات متقطعة منتثرة في الشعاع الضوئي ؟

الواقع هو أن آينشتاين كان مدركا لهذا الشعور ومتعاطفا مع النظرية الجسيمية ، وجادل منطقيا منذ البداية، بعد تقديم إطراءات مخلصة عن أعمال ماكسويل، بأن النظرية التقليدية الموجية تشكلت نتيجة مشاهدات ورصودات على ظواهر مألوفة وعيانية. هذه الظواهر هي التي كونت حسّنا العام البوهي عن الضوء. أما عندما نبحث في التفاعلات على الجسيمات الدقيقة، كتلك التي بين الالكترونات والفوتونات، فإننا قد نقابل بظواهر جديدة تتعارض مع حسّنا العام المحدود. هذا النوع من التفكير التوفيقي، الذي بدأه آينشتاين، بين الفيزياء التقليدية والفيزياء الحديثة ينطبق كما نعلم الآن على جميع المجالات الفيزيائية وليس مجال الضوء فقط.



(شكل ١٢)

تمثيل لنموذج (آينشتاين) الفوتوني للضوء . هكذا يتألف الضوء من (ذرات) فوتونية سريعة تنقل الطاقة الضوئية . عندما تزداد شدة الضوء (أسفل) تزداد كثافة الفوتونات .

ولإعطاء تصور شامل لهذا الفوتون العجيب، طور الفيزيائيون مفهوما (نموذجا) جديدا للفوتون. هذا المفهوم يدعى بمفهوم «الازدواجية الموجية الجسيمية» (duality Wave-particle) . فالفوتون في الواقع، حسب هذا المفهوم، هو موجة وجسيم في آن واحد، أي يمتلك كلتا الخاصتين. وليس هناك تعارض في ذلك. ففي بعض التجارب، مثل تجارب التداخل، يظهر الفوتون خواصه الموجية فقط. وفي تجارب أخرى، مثل الظاهرة الكهروضوئية، يظهر الفوتون جوانبه الجسيمية. فالإنسان الواحد مثلا، يظهر العواطف (الخصائص) الودية مع أقاربه وأصدقائه وقد يظهر العواطف (الخصائص) العدوانية والتوحشية أحيانا مع خصومه ومع أعدائه. إنه الشخص ذاته.

وقد حصل آينشتاين من هذا العمل على جائزة نوبل في عام ١٩٢١. هذا وقد ترسخ مفهوم الفوتون الى حد أكبر من ذلك عندما قام العالم الأمريكي « كومبتون » في عام ١٩٢٣ بإجراء تجارب عن اصطدام الأشعة السينية مع الإلكترونات الموجودة في ذرات المواد الفلزية. لقد أثبتت قياساته على الإلكترونات والأشعة المنتثرة (المستطيرة) نتيجة للتصادم أن فوتونات الأشعة السينية تسلك بالفعل سلوكا جسيميا تاما.

٥ - ٢ - الأطياف الذرية :

٥ - ٢ - ١ : السلاسل الطيفية :

رأينا سابقا من دراسات كيركوف وغيره ان الغازات عند التسخين تعطي أطيافا خطية متقطعة من الإشعاع (انظر ٤ - ٢ - ٣). إن الدراسة المتعمقة لهذه الأطياف الخطية أدت تدريجيا الى تفهم التركيب (البنية) الحقيقي للذرة، كما سنرى في الصفحات التالية.

عند دراسة أنماط توزيع الخطوط الطيفية (الموزعة على مقياس طول الموجة) للغازات المختلفة لم يجد العلماء في البداية اي نظام او انتظام (order) يربط بين هذه الخطوط فالخطوط بدت موزعة بشكل كيفي ومعقد وغير واضح، بدون علاقة بين نمط طيفي لغاز ما ونمط غاز آخر. هكذا كان الوضع في حوالي عام ١٨٨٠ حين شعر علماء الأطياف بالضياع وسط هذه الغابة من الخطوط وتكهن البعض بأنه لابد من «رسالة» وراء هذه الخطوط، تتعلق ببنية الذرة لكنها رسالة «مكتوبة» برموز غير معروفة أنذاك.

وفي عام ١٨٨٥ نشر مدرس سويسري مغمور يدعى « جون بالمر » نشرة بسيطة تتعلق بالطيف الخطي للهيدروجين. وأعطى علاقة رياضية بين أطوال موجات الخطوط على الشكل التالي :

$$\text{طم} = \text{ب} \left(\frac{\text{ن}^{٢}}{\text{ن}^{٢} - ٢^{٢}} \right)$$

حيث طم هو طول الموجة، ب ثابت يساوي ٣٦٤٥,٦ آنغستروم، ون هو عدد صحيح يجوز له أن يساوي ٣، أو٤، أو٥، أو٦، ... الخ.

وأوضح بالمر أن تبديل القيم المختلفة للعدد (ن) يسمح للمعادلة بإعطاء أمواج الخطوط المختلفة في الطيف. مثلا القيمة ن = ٣ تعطي طم = (٦٥٦٢) آنغستروم وهو خط في المنطقة الحمراء والقيمة ن = ٤ تعطي خطا في المنطقة الخضراء، ون = ٥ يعطي خطا في الزرقاء، وهكذا، كل هذه الخطوط الواقعة في المنطقة المرئية، كانت معروفة تجريبيا قبل نشرة بالمر. لكنه تكهن في نشرته بوجود خطوط اخرى مرتبطة بقيم ن اكبر من (٥)، ومن ثم واقعة في المنطقة فوق البنفسجية. هذه الخطوط جرى اكتشافها سريعا بعد النشرة، وفي نفس الأماكن التي حددتها صيغة بالمر. هذه المجموعة من الخطوط، من أولها الى آخرها، تشكل ما يدعى بسلسلة بالمر (Balmer series) للهيدروجين.

تنبأ بالمر أيضا في نشرته المتواضعة بوجود سلاسل اخرى للهيدروجين، تقع في مناطق اخرى من الطيف، وموصوفة بواسطة صيغ مشابهة لتلك التي قدمها، وقد تم الاكتشاف التجريبي لعدد من هذه السلاسل على مدى عدة عقود من الزمن: سلسلة لايمان (فوق بنفسجية)، ١٩٠٦ ـ ١٩١٤، سلسلة باسكن (تحت الحمراء)، ١٩٠٨، وسلسلة (براكيت) (تحت الحمراء) ١٩٢٢. هكذا، إن سلسلة بالمر هي الوحيدة التي تقع في المنطقة المرئية، الأمر الذي ساعد على اكتشافها قبل غيرها. انها صدفة محظوظة.

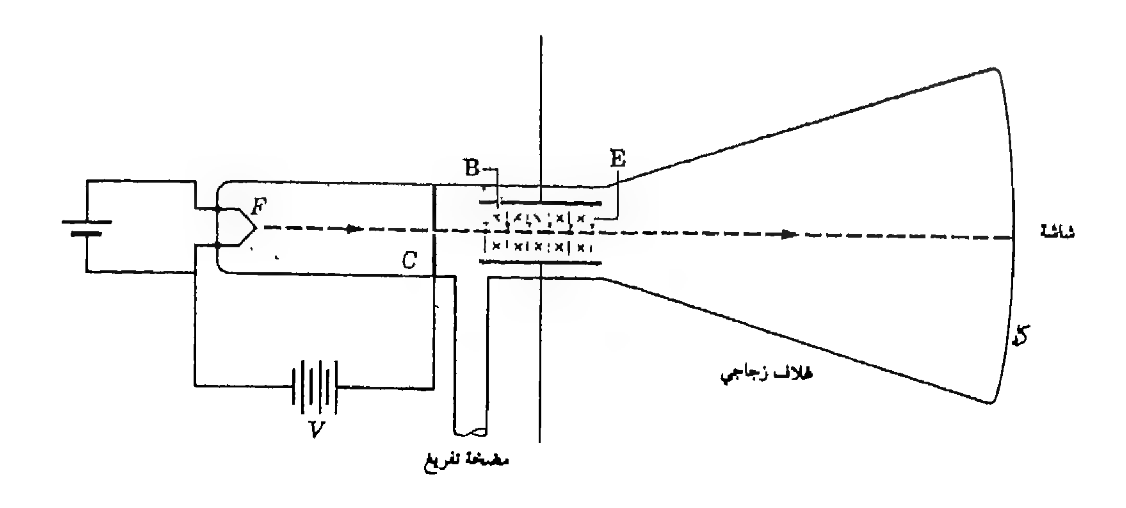
كما أشار بالمر الى احتمال استعمال طريقة مشابهة وموسعة في وصف اطياف الغازات الأخرى، إضافة الى الهيدروجين. وتم تحقيق تقدم كبير في هذا الاتجاه في الثلاثين أو الاربعين عاما التي تلت عمل بالمر. لكن رغم هذا كله، فإن المبدأ (الروح) الاساسي للطريقة بقي تجريبياً بحتا بدون أن يفهم الفيزيائيون الأسس النظرية التي تكمن وراء هذه الصيغ والمعادلات. إنها نفس الطريقة التي كان كيبلر قد استعملها عندما صاغ قوانينه حول حركة الكواكب (انظر جزء ١ = ١).

وللوصول الى تلك النظرية كان لابد من الالتفات اكثر الى البنية الحقيقية للجسيم الذي يصدر هذه الخطوط الإشعاعية في الدرجة الأولى ـ أي الذرة نفسها. ولكن قبل ذلك يجب أن نعود قليلا الى الوراء ونتحدث عن الجسيم الأهم في عالمنا كله، ألا وهو الإلكترون.

٥ ـ ٣ : الأشعة الكاتودية ـ الإلكترون ـ الأشعة السينية :

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت هناك دراسات عديدة عن موضوع تفريغ الغازات (gas discharges). يؤخذ أنبوب زجاجي مليء بالهواء أو بغاز آخر، وتوصل صفيحتا الأنبوب الى عدد من البطاريات لإعطاء فرق جهد عال، قد يبلغ آلاف الفولطات. ثم نبدأ بتخفيض الضغط الغازي في الأنبوب تدريجيا، ونرصد ما يحصل في الأنبوب (شكل ١٣). نلاحظ في البداية أن الغاز يبدأ بالتوهج بأنماط وألوان غريبة، حيث يتوزع التوهج على مناطق مختلفة من الأنبوب. لكن يلاحظ أنه اذا انخفض الضغط الى مقدار قليل جدا (حوالي ١٠ ميليمتر من الزئبق) فان الأنبوب يصبح مظلما تماما، ماعدا بقعة صفراء ـ خضراء تتفلور (تتألق) على سطح الزجاج في الجهة المقابلة للكاتود، أي بالقرب من الأنود. وإذا عكسنا استقطاب الكاتود ـ والأنود، نلاحظ ان البقعة المتفلورة تنتقل

الى المنطقة المقابلة للكاتود الجديد. واذا أدخلت صفائح معدنية حاجبة في الطريق، فإن ظلالاً واضحة تتشكل على البقعة المضيئة من كل هذه الدلائل تم الاستنتاج بأن جسيمات، من نوع ما، تصدر من الكاتود وتسير في خط شبه مستقيم الى أن تصطدم بالزجاج على الطرف الآخر وتسبب توهجا في هذا الزجاج. هذه الاشعة الجديدة سميت، منطقيا، بالاشعة الكاتودية. كثير من هذا النوع من التجارب تم في مختبري العالم الانجليزي كروك والعالم الألماني لينارد حوالي عام ١٨٨٠.



(شكل ١٣)
توضيح لجهاز أنبوب التفريغ الغازي. الالكترونات تنطلق من تعديل الفتيلة الساخنة على اليسار وتتسارع بسبب جهد كهربائي، ثم تمر عبر مجال كهربائي و / أو مجال مغنطيسي.

وقد لاحظ كروك خلال تجاربه أن وجود المجال المغنطيسي يؤدي الى حرف الاشعة الكاتودية، عندما تمر الأشعة خلاله. هذا يعني ان الأشعة لها شحنة كهربائية، وان هذه الشحنة هي في الواقع سالبة، ذلك ان المجال المغنطيسي لا يؤدي الى حرف الاشعة اذا كانت حيادية الشحنة.

وخلال تجارب مماثلة، اكتشف العالم الالماني « فيللهم رونتغن » (١٨٤٥ - ١٩٢٣) أشعة جديدة غريبة، تصدر عن الأنود نفسه عندما تصطدم به الاشعة الكاتودية. هذه الاشعة الجديدة سميت بالاشعة السينية (X rays) ، لعدم معرفة طبيعتها في ذلك الوقت. لكنه كان واضحا أن الاشعة السينية تختلف عن الكاتودية، لأن الأولى تستطيع اختراق معظم المواد العادية مثل الخشب او الزجاج او غيرهما (ماعدا المعادن الثقيلة) - بدون قدر كبير من الامتصاص. وعندما تمر الاشعة السينية في اليد فأنها «ترسم» على الشاشة الفلورية خيالا واضحا للهيكل العظمي لليد. لكل هذه الاسباب، لاقت هذه الاشعة اهتماما عالميا واسعا وخصوصا في المجالات الطبية. ونال رونتغن اول جائزة نوبل في الفيزياء، في عام ١٩٠١، تقديرا على اكتشافه العظيم.

أما من حيث طبيعتها، فإن الاشعة السينية لا تنحرف في المجال المغنطيسي، مما يعني أنها لا تحمل شحنة كهربائية. ولهذه الاشعة ميزة اخرى، وهي أنها تستطيع إحداث تأيين (ionization) في الغازات (في أنبوب تفريغ) بسهولة وجعلها ناقلة للكهرباء.

هذه الأبحاث حول الأشعة الكهربائية تُوّجت أخيرا بأعمال العالم الانجليزي العظيم « جوزيف تومسون »، أو جي. جي. تومسون، كما كان معروفا لدى مساعديه المحبين، (١٨٥٦ ـ ١٩٤٠). نشأ تومسون في مدينة مانشستر، حيث كان والده ناشرا، ودرس الهندسة، مظهرا تفوقا واضحا في الرياضيات والفيزياء. ثم اكمل دراسته العالية في كيمبريدج، حيث عمل في مختبر كافينديش الشهير، الذي انشأه ماكسويل واداره بعده لورد رايلي بدأ تومسون عمله تحت إشراف هذا العالم الأخير. وفي عام ١٨٩٤، أصبح مديرا للمختبر وأنشأ مدرسة فيزيائية متميزة خرجت عددا كبيرا من العلماء المشهورين تحت ادارة واشراف «جي جي» الذي كان عميد الفيزيائيين الانجليزيين في عصره.

بدأ تومسون العمل في مجال التفريغ الغازي في عام ١٨٨٦، وظل يعمل في المجال نفسه لمدة حوالي خمسين عاما. واجرى تجارب لا تحصى في هذا المجال.

كان الهم الأول لتومسون هو معرفة طبيعة الاشعة الكاتودية ذات الشحنة السالبة كما لاحظنا. وهي على الارجح جسيمات وليست موجات لأنها لا تعاني حيودا أثناء سيرها لكن ما هي خواص هذا الجسيم، أي كتلته وشحنته، التي تتكون منه هذه الاشعة؟ لم يكن من السهل الاجابة على هذين السؤالين بشكل دقيق. بعد تفكير طويل، أجرى تومسون تجربة حاسمة في هذا المجال. لقد جعل الاشعة تمر عبر مجال كهربائي يقوم بحرفها الى الأعلى أو الأسفل ثم عبر مجال مغناطيسي يحرفها في الاتجاه المعاكس. ومن قياسات المجالين اللازمين كي يكون الانحرافان متساويين ومتعاكسين تماما بحيث تسير الاشعة في خط مستقيم بدون انحراف، استطاع تومسون أن لاحسب نسبم شحنة الجسيم الى كتلته أو (شح /ك) هذا الجسيم هو ما سمي بالألكترون فيما بعد، أما النسبة فتساوي ١,٧٦ × ١٠٠ كولومب /كيلوغرام .

لوحظ أن النسبة شح /ك للإلكترون مرتفعة جدا، مما يعني ان هذا الجسيم خفيف (قليل الكتلة) بالفعل. لكن كانت هناك ضرورة لمعرفة كل من الشحنة والكتلة على حدة، وليس مجرد النسبة بينهما. هذا العمل قام به العالم الامريكي (ميليكان) في الفترة (١٩٠٧ ـ ١٩١٣) . واستطاع في سلسلة من التجارب (بواسطة قطرات الزيت) التي اصبحت كلاسيكية في التدريس الجامعي هذه الأيام، تحديد قيمة شحنة الالكترون بالقيمة ١,٦×١٠ كولومب. ومن ثم فإن الكتلة تحدد بالقيمة ٩,١×١٠كغ . من هذا تبين ان الإلكترون له نفس شحنة آيون الهيدروجين ولكن كتلته (الإلكترون) أقل بحوالي ٢٠٠٠ مرة. إنه جسيم خفيف حقا.

بعد هذه الصورة عن الإلكترون، نستطيع أن نفهم بسهولة ما يحصل في أنبوب الأشعة الكاتودية، أو في عملية تفريغ الغازات. إن المجال الكهربائي العالي الموجود في الأنبوب الى تحرير الكترونات من سطح الكاتود. وتتسارع

هذه الالكترونات السالبة في عكس اتجاه المجال الكهربائي. أي من الكاتود الى الأنود، وتكتسب سرعات عالية جدا بسبب وجود هذا المجال وتصطدم هذه الالكترونات السريعة بالذرات الغازية وتؤدي الى تهييجها او حتى تأيينها في حالة التفريغ الغازي، وعندما تعود هذه الذرات الى حالاتها النظامية تطلق الاشعاعات ذات الألوان المختلفة التي ذكرناها. وفي حالة غياب هذه الغازات، تصطدم الالكترونات المسرعة بسطح الانود وتؤدي الى اثارة وتهييج ذرات المادة في فلز هذا السطح. وعندما تعود هذه الذرات الى حالاتها المستقرة تطلق الاشعة السينية.

وتقديرا لاعمال تومسون على الالكترون، نال جائزة نوبل في عام ١٩٠٦. كما نال ميليكان نفس الجائزة في عام ١٩٢٣. لتحديده قيمة الشحنة الالكترونية.

٥ ـ ٤ : البنية الذرية وميكانيك الكم :

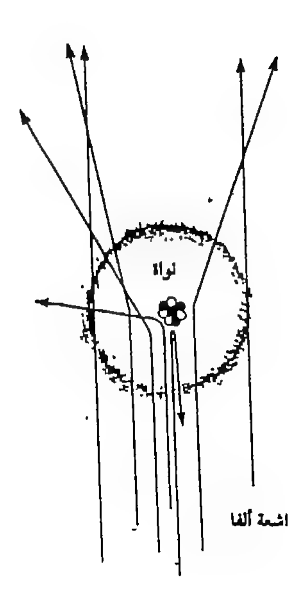
ما هي البنية الحقيقية للذرة؟ كان هذا هو السؤال الملح في بداية القرن العشرين، حين كان معروفا بأن الذرة ككل هي حيادية الشحنة، وانه يمكن فصل الكترونات سالبة عنها، لتترك وراءها ايونات موجبة. ولكن كيف تتداخل وتتعاون هذه الشحنات المختلفة في بناء الذرة الكاملة؟

كان من الطبيعي أن يقدم تومسون على اعطاء نموذج للذرة، لانهماكه التام في الموضوع تخيل تومسون ان الذرة تتألف من «مائع» موجب الشحنة يملأ حجم الذرة الكروية الشكل فيها تتناثر «الحبيبات» الالكترونية الخفيفة سالبة الشحنة داخل هذه الكرة. الذرة في ذلك تشبه البطيخة الحمراء، حيث يمثل القسم الاحمر المائع الموجب وتمثل البذور دور الالكترونات. ومع بعض النجاح في اعطاء نوع من التصور عن الذرة، إلا أن هذا النموذج لم ينجح في إقناع الكثيرين بصحته.

٥ ـ ٤ ـ ١ : نموذج رذرفورد الذري :

القفزة الكبرى في بناء النموذج الذري حصلت بسبب جهود الفيزيائي النيوزيلاندي «أرنست رذرفورد» (١٨٧١ ـ ١٩٣٧). عمل رذرفورد في البداية كمساعد لتومسون ثم انتقل الى كندا، حيث اكتسب شهرة عن اعماله في اشعاعات جديدة، تدعى الاشعاعات النووية. ثم انتقل في عام ١٩٠٧ الى جامعة مانشستر في انجلترا حيث تابع أبحاثه عن هذه الاشعاعات في محاولة منه لاختبار نموذج تومسون الذري. قام باستخدام أحد انواع الاشعاعات النووية. وهو جسيم ألفا (α). هذا الجسيم ثقيل (حوالي أربعة أضعاف ذرة الهيدروجين) وله شحنة موجبة تساوي ضعف شحنة الالكترون في المقدار، كما كان معروفا في ذلك الوقت. كما أن هذا الجسيم يصدر بسرعات عالية تجعله يخترق صفائح رقيقة من الفلزات بكل سهولة. وفكر رذرفورد بعمل التجربة التالية: توجه حزمة من اشعاع ألفا على صفيحة رقيقة من فلز الذهب (شكل ١٤) وحين تصطدم هذه الجسيمات مع ذرات الذهب داخل الصفيحة تنتثر جسيمات الفا في اتجاه وشدة يدلان على طريقة التفاعل بين جسيم ألفا والذرة، وبالتالي على تركيب الذرة نفسها (ترصد الجسيمات المنتثرة على شاشة مطلورة من كبريت الزينك). وقد قام (رذرفورد) مع مساعديه

بتجارب كثيرة من هذا النوع حيث كانوا ينوعون فلزات الصفائح ومصادر الحزمة الاشعاعية ويسجلون النتائج عن نسبة الجسيمات المبعثرة كتابع لزاوية الانتثار.



(شكل ١٤)
توضيح لتجربة (رذرفورد) عن تصادم أشعة (ألفا) مع نواة أحد العناصر .

الامور بدت عادية الى ان لاحظ رذرفورد امرا غريبا على غاية من الاهمية: إن بعض جسيمات الفا تنتثر الى الخلف تماما، وتعود من حيث أتت. لقد قرأ عالمنا في هذا شيئا هاما عن تركيب (بنية) الذرة، لان هذا التصادم الذي يؤدي الى الانتثار الخلفي لا يمكن ان يحصل بسبب اصطدام ألفا الثقيلة مع الالكترونات الخفيفة جدا. ان هذا التصادم، حسب النظرية التقليدية للتصادم، لا يمكن ان يتم الا عن طريق التصادم مع جسيم ثقيل وصغير ومشحون ايجابيا وموجود داخل الذرة هذا الجسيم داخل الذرة هو ما سمي بالنواة (nucleus) ، التي استطاع رذرفورد تحديد شحنتها وحجمها. من كل هذه التجارب استطاع هذا العالم أن يبني خلال سنة واحدة فقط نموذجه المعروف باسم الذرة النووية (والذي يشبهه الى حد ما النظام الشمسي) وهو باختصار مايلي:

١ ـ تتألف الذرة من نواة تقع في مركز الذرة. النواة صغيرة جدا ونصف قطرها من مرتبة $١٠^{-١٥}$ مترا. النواة ثقيلة وتحتوي على كل كتلة الذرة تقريبا وهي مشحونة إيجابيا، هذه الشحنة تساوي (في المقدار) ز× شحنة الالكترون، حيث (ز) هو العدد الذري للعنصر (للذهب ن = ٧٩)، حسب وجوده في القائمة الدورية المعروفة لدى الكيميائيين.

٢ ـ يدور حول النواة عدد من الالكترونات يساوي (ز) في مدارات مختلفة ـ نصف قطر المدار الالكتروني الاعتيادي هو حوالي $١٠^{-١٠}$ مترا.

هذا النموذج الذري يشبه نموذج (كيبلر) للنظام الشمسي، حيث تلعب النواة دور الشمس وتلعب الالكترونات دور الكواكب. يستنتج من ذلك أن الذرة ككل متعادلة كهربائياً حيث تتعادل النواة الموجبة مع الالكترونات السالبة، وأن معظمها يتألف من فراغ إذ أن النواة صغيرة، والالكترونات بعيدة جدا نسبيا عن هذه النواة.

نال رذرفورد جائزة نوبل في الكيمياء في عام ١٩٠٨، أي بعد نشر نتائجه التجريبية مباشرة. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته أصبح القطب العلمي الآخر في المجتمع العلمي الانجليزي (مع تومسون)، الذي كان يقود العالم وقتئذ في اكتشاف عالم الذرة (في عام ١٩١٩، انتقل رذرفورد الذي لقبه مساعدوه المحبون بالتمساح الى كيمبريدج، وخلف تومسون لمختبر كافينديش هناك).

لكن مع كل ذلك، فان نموذج رذرفورد كان يعاني من بعض العيوب الواضحة. العيب الاول يخص الاشعاع الصادر عن الالكترونات التي تدور حول النواة. فحسب النظرية الكلاسيكية فان على الالكترونات، كجسيمات مشحونة تسير في حركة دورانية، أن تصدر اشعاعات كهرومغناطيسية بصورة مستمرة. وعندما يصدر الالكترون إشعاعات فانه يفقد جزءاً من طاقته، وهذا يؤدي بدوره الى جعله يقترب من النواة في المركز ويزيد في سرعته الدورانية. وهكذا فالاشعاع المستمر يؤدي الى دوران يقترب فيه الالكترون باستمرار نحو النواة (دوران حلزوني) الى ان يلتصق بها اذن يجب ان تلتصق كل الالكترونات مع النواة في نهاية الامر، وهذا يعني انهيار الذرة وانهيار الكون كله! هذا يتناقض مع نموذج رذرفورد نفسه المبني على التجربة. والعيب الثاني للنموذج أنه يتنبأ باصدار شعاع كهرومغناطيسي ذي طيف متصل، وهو ما يتناقض مع التجارب الطيفية العديدة المتوافرة آنذاك.

كان رذرفورد على دراية تامة بعيوب النموذج، ولكنه ترك لغيره تصحيح تلك العيوب وهذا ما فعله عالم شاب من أوروبا.

٥ - ٤ - ٢ : نموذج بوهر للهيدروجين :

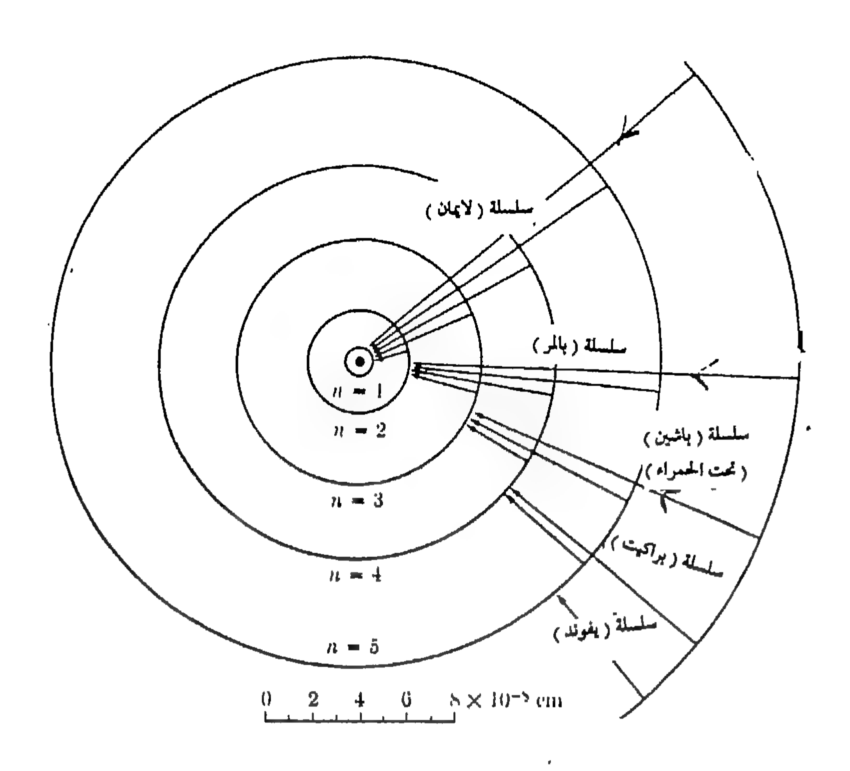
الخطوة التالية الهامة في الموضوع قام بها العالم الدانيماركي الشاب (نيلز بوهر) (١٨٨٥ - ١٩٦٢). ولد بوهر في نفس العام الذي نشر فيه بالمر عمله ونشأ ودرس في الدانيمارك. بعد نيله شهادة الدكتوراه في الفيزياء، ذهب بوهر مباشرة الى كيمبريدج، وعمل مع ج ج . تومسون. ولكنهما لم ينسجما معا، على ما يبدو فانتقل بوهر بعد عدة شهور الى مانشيستر ليعمل مع رذرفورد، وقد كان التعاون هنا مثمرا للغاية، حيث ادى خلال سنة واحدة تقريبا خلال عام ١٩١٣ الى نتائج هزت عالم الفيزياء بأجمعه.

كان بوهر مهتما بالنموذج الذري بشكل خاص، وكان على معرفة تامة بنموذج رذرفورد. وكان مقتنعا بأن هذا النموذج هو الصحيح من ناحية الأساس، لكنه يحتاج الى اكمالات اضافية واصلاحات في عيوبه. وهكذا عمل على التخلص من هذه العيوب. اختار بوهر معالجة ذرة الهيدروجين، وهي الذرة الاكثر بساطة فوجد نفسه مضطرا الى تقديم فرضيتين (hypothesis) غير تقليديتين الى عالم الفيزياء:

١ ـ يدور الالكترون في الهيدروجين حول النواة (البروتون) في احد المدارات المخصصة او المسموح بها (allowed orbits) فقط ، ولا يجوز له أن يدور في غيرها.

هذه المدارات محددة بحيث تكون فيها كمية الحركة الزاوية مكممة ، وعلى وجه الخصوص كجزء = ن×هـ × ۲/π ، حيث ن هو عدد صحيح (ن = ١، ٢، ٣، . . .) و (هـ) هو ثابت بلانك (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٢). كما افترض بان الالكترون، عندما يكون في أحد المدارات المخصصة (المستقرة)، لا يصدر أي إشعاع بتاتا. هذا الافتراض مخالف للنظرية التقليدية بالطبع، ولكنها فرضية قدمها بومر لكي يحافظ على استقرار الذرة، ويمنعها من الانهيار الحلزوني، المشار اليه سابقا.

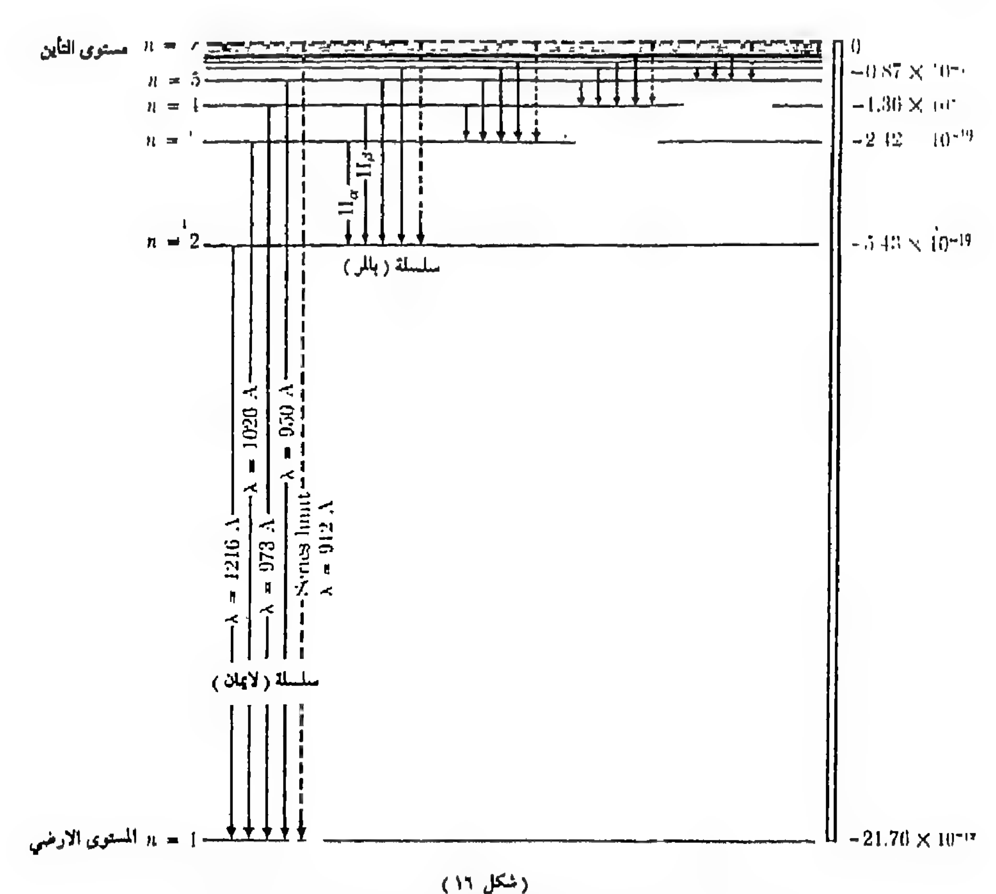
وباستخدام كمومية كمية الحركة الزاوية، وقانون التجاذب الكهربي (كولومب) بين الالكترون والبروتون استطاع بومر ان يحسب انصاف اقطار المدارات المستقرة. المعادلة التي وجدها هي نق = نق . × ن^{2} ، حيث نق = (٠,٥٣) آنغستروم، وهو ثابت، و (ن) هو العدد الصحيح الذي ذكرناه سابقا. المدار الأول نصف قطره هو نق، والمدارات الأخرى تتسع بسرعة عندما تزداد (ن) (شكل ١٥). كما استطاع (بومر) حساب طاقة الالكترون في المدارات المختلفة. والطاقة هي كمية هامةفي أي موضوع. وخصوصا في الموضع الحاضر.



(شكل ١٥)

نموذج (بوهر) للذرة الهيدروجين ـ المستقرة للالكترون والسلاسل الطيفية الناتجة عن انتقال الالكترونات بين هذه المدارات .

وهي تتألف في هذه الحالة من جزأين : الطاقة الحركية المتعلقة بحركة الالكترون الدورانية، والطاقة الكامنة (Potential) المتعلقة بجذب البروتون للالكترون. إن فرضيته تؤدي الى أن طاقة الالكترون مكممة ايضا (شكل ١٦) وعلى وجه الخصوص طا = − ١٣ر٦ / ن^{2} الكترون فولط . (الاشارة السالبة تعود الى ان طاقة الوضع التجاذبية (السالبة) للالكترون في مجال البروتون تزيد عن طاقته الحركية (الموجبة).



(شكل ١٦)

نموذج (بوهر) للذرة الهيدروجين ـ سلم الطاقة الذي يحتوي على المستويات المسموحة للالكترون .
الشكل يظهر ايضا السلاسل الطيفية الناتجة عن الانتقال بين هذه المستويات .

اذا نظرنا الى قيم الطاقة المختلفة فانها تشكل مستويات متوالية من الطاقة، تتباعد عن بعضها البعض، حسب الصيغة المذكورة اعلاه (شكل ١٦) وهي تشكل سلما من الطاقات المخصصة للالكترون، يشبه نوعيا (وليس كميا) سلم بلانك للهزاز (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٢). إن درجات هذا السلم الحالي غير منتظمة في مسافاتها، وعلى الالكترون ان يقع (او يسكن) على احد درجات هذا السلم.

٢ ـ قدم بوهر ايضا فرضية اخرى هامة غير تقليدية : الالكترون يصدر اشعاعا فقط عندما ينتقل من مستوى طاقة الى مستوى طاقة آخر واقع تحته (في سلم الطاقة). ويمكن حساب تردد الفوتون (تر) الصادر كمايلي: اذا رمزنا الى المستوى الاعلى بـ (طا$_{2}$) والأدنى بـ (طا$_{1}$) فان طا$_{2}$ ـ طا$_{1}$ = (هـ) (تر) .

هذه المعادلة بين طاقات الالكترون وذبذبة الفوتون المنبعث معقولة تماما، لأن (هـ × تر) يمثل طاقة الفوتون، حسب فرضية آينشتاين (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٣)، كما رأينا. وهكذا فان المعادلة أعلاه تقول بأن الطاقة التي يفقدها الالكترون في عملية الانتقال نحو الأسفل تنتقل كاملة الى الفوتون الذي ينبعث من هذه العملية. والعكس صحيح اذ يمكن للالكترون ان يمتص فوتونا قادما من الخارج وان ينتقل بذلك من مستوى الى مستوى اعلى منه، شريطة أن تكون طاقة الفوتون تساوي تماما فرق الطاقة بين المستوين، مما يعني رياضيا تحقيق المعادلة السابقة ذاتها. هذه العملية تمثل عملية الامتصاص (absorption) .

هاتان الفرضيتان كانتا كافيتين، كما برهن بوهر، الى اشتقاق الطيف الخطي لذرة الهيدروجين بأكمله. ان الطيف خطي لأنه ناتج عن انتقالات بين مستويات منفصلة (discrete) من الطاقة وهذه هي المرة الثانية، بعد بلانك، التي تكمم فيها كمية ميكانيكية. والدقة التي حسب بها بوهر الخطوط الطيفية بهذا النموذج البسيط كانت مذهلة حقا.

ويمكن الآن شرح السلاسل الطيفية المختلفة بالطريقة التالية : في العادة يكون الالكترون في المستوى السفلي من سلم الطاقة، وهو المستوى الذي يمثل الحالة الأكثر استقرارا. يشار الى هذا المستوى بالحالة الأرضية (ground state) . وعندما نرفع درجة حرارة غاز الهيدروجين فان عددا كبيرا من الذرات ترتفع الكتروناتها الى مستويات الطاقة العليا، وتدعى الحالات المثارة او المتهيجة (excited states) . عندئذ فقط وفيما تعود الذرات (الالكترونات) ثانية الى الحالة الارضية تستطيع الذرات ان تصدر فوتونات ذات موجات مختلفة هكذا تتولد سلسلة (لايمان) الطيفية، التي تمثل جميع الانتقالات الألكترونية الى الحالة الأرضية، أما سلسلة بالمر الطيفية فانها تتولد عن جميع الانتقالات الالكترونية من المستويات العليا الى الحالة المثارة الأولى وهلم جرا.

(هذه النظرية تفسر بسهولة سبب تطابق الطيف الامتصاصي والطيف الانبعاثي لغازم ما. فاذا مر اشعاع متصل عبر غاز بارد فإن الذرات، في الحالة الارضية، تمتص فوتونات محددة توصلها الى المستويات العليا).

ورغم وجود بعض النواقص في نموذج بوهر، والتي سنتعرض لها قريبا، فقد كان بلا شك فتحا هائلا في مجال بنية الذرة. لقد شكل عندئذ، ولا يزال، الاطار الحسي الذي نتخيل فيه ذرة الهيدروجين والذرات الاخرى ايضا. كما نستطيع من تعيممه ان نتفهم بنية الجزيئات والجوامد. وقد نتساءل عن كيفية توصل بوهر الى هذا العمل الابداعي العظيم. الواقع هو ان نموذج بوهر يحتوي على تزاوج غريب بين نموذج رذرفورد الكلاسيكي ومفاهيم بلانك وآينشتاين الكمومية. اننا نرى بلاشك ان تكميم الطاقة في ذرة الهيدروجين هو تعميم للتكميم الذي كان بلانك قد قدمه عندما افترض تكميم الطاقة في الهزاز المادي الذي يصدر الاشعاع في حالة اشعاع السطح الاسود (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٢). أما العلاقة بين تردد الفوتون الصادر عن الانتقال الالكتروني بين المستويات فتحمل في طيها علاقة آينشتاين حول طاقة الفوتون (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٣) . هذه الافكار الكمومية كانت معروفة في المانيا والقارة الاوروبية، ولكنها لم تكن متتشرة في انجلترا، التي كانت مسرحا خصبا للأعمال التجريبية. وهكذا فإن ذهاب بوهر

«النظري الاوروبي» الى «المختبر» الانجليزي ادى، في عقل بوهر العبقري، الى تزاوج سعيد وخلاق بين النظرية والتجربة على أعلى المستويات الفكرية في ذلك العصر.

عاد بوهر بعد فترة وجيزة من اكتشافه الى بلاده، حيث أنشأ في مدينة كوبنهاغن معهده الشهير الذي ظل لفترة طويلة تقرب من عشرين عاما أعظم معهد في الفيزياء النظرية الجديدة. وقد استضاف هذا المعهد في فترات مختلفة أشهر فيزيائيي العصر ، حيث كان بوهر يمثل بالنسبة لهم جميعا نموذج «الوالد الراعي والنور الهادي». حصل (بوهر) على جائزة نوبل في عام ١٩٢٢ .

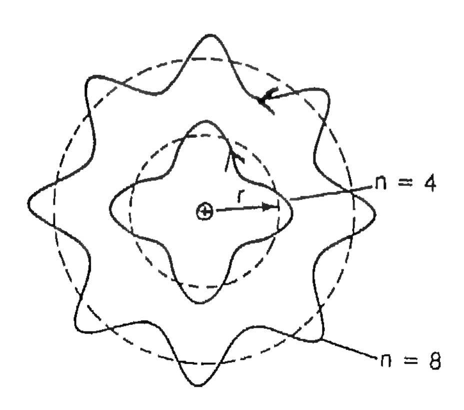
بعد نشر نموذج (بوهر) في عام ١٩١٣، طرأت عليه بعض التحسينات. فقد عممه الفيزيائي الالماني (سومر فلد) وغيره ليضم مدارات الكترونية على شكل قطع ناقص (ellipse) ، وهي أكثر عمومية من المدارات الدائرية التي افترضها (بوهر). كما أخذوا بالاعتبار التأثيرات النسبية (Relativistic effects) حسب نظرية النسبية الخاصة التي كان قد قدمها آينشتاين (انظر جزء ٥ ـ ٦ ـ ٥) ، للظروف التي تكون فيها سرعة الإلكترون عالية جدا لكن هذه التحسينات كانت طفيفة، ولم تشكل تطويرات جذرية في النموذج ، لقد كان هذا يستند الى أساس تكميم الاندفاع الزاوي (فرضية بوهر الأولى)، وهذا الأساس كان وما زال يكتنفه الغموض وعدم الرضا. لابد أن الفرضية صحيحة، على الارجح، لكونها تؤدي الى نتائج متفقة تماما مع التجارب. ولكن علام تستند هذه الفرضية؟ هل يمكن اشتقاقها من قانون آخر أكثر وضوحا؟ هذا هو السؤال الذي حير الفيزيائيين لأكثر من عشر سنوات.

٥ ـ ٤ ـ ٣ : الأمواج المادية :

الجواب أتى أخيرا من قبل العالم الفرنسي الأمير « لويس دي برويلي » (١٨٩٢ ـ ١٩٨٧) في عام ١٩٢٤ . انحدر دي برويلي من عائلة ارستقراطية عريقة درس التاريخ في البداية ثم تحولت اهتماماته الى مجال الفيزياء بعد أن خدم في الحرب العالمية الأولى، حيث كان يعمل في مجال اتصالات الراديو ومن موقع في أعلى برج ايفل في باريس بعد نشر بعض الأبحاث حول الإشعاع الضوئي ، قدم دي برويلي الفكرة الغريبة التالية، وذلك ضمن أطروحته لشهادة الدكتوراة من جامعة السوربون: ان الفوتون يظهر سلوكا ازدواجيا بين الجسيم والموجة، كما بين آينشتاين وغيره بكل وضوح (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٣). فهل يُظهر الألكترون، والجسيمات الأخرى، أيضا ازدواجية بين الجسيم والموجية؟ أو بمعنى آخر، هل يمكن ان تكون هذه الازدواجية خاصية فيزيائية عامة، غير مقتصرة على الفوتون وحده؟ قام دي برويلي بافتراض الازدواجية للإلكترون وحاول أن يحصل على النتائج المنطقية التي تنبع من هذه الفرضية. قال بأن الكترون ذا سرعة (س) له طول موجة طم = هـ / (ك × س)، وهي نفس العلاقة التي تنطبق على الفوتون. وقد سميت هذه العلاقة، التي أصبحت شائعة في الأدب الفيزيائي الحديث، علاقة دي برويلي.

قام دي برويلي بتطبيق علاقته على نموذج بوهر في ذرة الهيدروجين. وبعد المعالجة الرياضية البسيطة، وجد ان فرضية بوهر الأولى مكافئة تماما للشرط التالي: ٢ π نق = ن طم ، أي أن طول محيط المدار يساوي عددا صحيحا

(ن) من طول موجة الإلكترون في هذا المدار (شكل ١٧) هذا الشرط معروف جدا في مجال فيزياء الأمواج المستقرة أو الواقفة (Standing waves) ومن هذا المنظور، فإن فرضية بوهر تصبح منطقية وواضحة : المدارات المستقرة (المسموح بها) هي التي تتفق مع تشكيل أمواج الكترونية مستقرة ، تدور حول النواة .



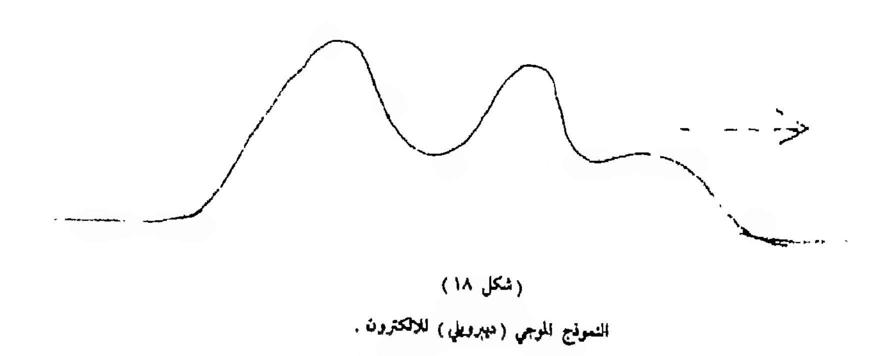
(شكل ١٧)
نموذج (ديبرويلي) الذرة الهيدروجين المستقرة في المدارات المستقرة .

كانت هذه الفكرة قفزة نظرية كبيرة في عالم الذرة . ومع أنها وضحت كثيرا فهمنا لمعالجة بوهر ونموذجه ، الا أنها كانت تفتقر الى الدعم التجريبي . وقد حدث هذا في عام ١٩٢٧ على يد الفيزيائيين الامريكيين دافيسون وجيرمر ، وبصورة مستقلة الانجليزي ج . ب تومسون وهو ابن ج . ج . تومسون فلقد وجدوا أن الالكترونات عندما تنتشر من الأجسام البلورية تظهر نمطا حيوديا موجيا متفقا مع فرضية دي برويلي وأن نمط انتشار الالكترونات مشابه تماما لنمط انعكاس الأشعة السينية (الموجية) من البلورات . هذه التجربة وحدها أثبتت بدون أدنى شك الخاصية الموجية للالكترونات وبالتالي الجسيمات المادية الأخرى ، إذ أن نتائجها غير قابلة للتفسير بتاتا على أساس الخاصية الجسيمة . وكانت هذه هي البداية الحقيقية لما يعرف الآن باسم الأمواج المادية (Matter Waves) أو أمواج برويلي . نال دي برويلي جائزة نوبل لعام ١٩٢٩ وتقاسم دافيسون وتومسون جائزة نوبل لعام ١٩٣٧ لعملهم في اكتشاف الطبيعة الموجية (تجريبيا) للالكترون ، وحيود الالكترون على البلورات ، على التوالي .

٥ - ٤ - ٤ : معادلة (شرودينغر)

سببت فكرة دي برويلي . ضجة كبيرة في الأوساط العلمية الأوروبية ، وخصوصا في ألمانيا وانجلترا . ولاحظ الفيزيائيون النظريون في الحال أهمية اكتشاف المعادلات الرياضية الضرورية لاعطاء التوصيف الكامل للأمواج المادية . فكما أن معادلات ماكسويل التفاضلية مثلا تعطي الوصف الكامل للأمواج الكهرطيسية ، فلا بد من وجود معادلة أو أكثر لوصف الأمواج المادية الجديدة . هذه المعادلة الجديدة اكتشفها العالم النمساوي « إروين شروديلغر » (١٨٨٧ - ١٩٦١) الذي حصل على شهادة الدكتوراة في الفيزياء من جامعة فيينا ، وعمل بعد ذلك في عدة جامعات المانية . كما عمل مساعدا للعالم ماكس فين لفترة من الزمن . درس شرودينغر فكرة دي برويلي عن الأمواج

الالكترونية وحاول تطبيق الفكرة على جسيمات مربوطة (bounded) مثل الالكترون المرتبط مع البروتون في ذرة الهيدروجين ، وهذا يتجاوز تطبيقات دي برويلي الذي عالج فقط الالكترونات الحرة التي ترتطم بالبلورات . ومع أنه أخفق في البداية ، بسبب طموح المعالجة الزائد ، إلا أنه حصل بعد قليل على معالجة مقنعة تماما للالكترون في ذرة الهيدروجين . إن معالجة شرودينغر هي امتداد واسع لمعالجة بوهر القديمة ، ولكن ضمن أفكار جديدة ومتعددة . قدم شرودينغر معادلة جديدة هي المعادلة الموجية ، للالكترون التي عرفت لاحقا باسم « معادلة شرودينغر » . . هذه المعادلة تشبه المعادلات الموجية الكلاسيكية (الأمواج الصوتية ، مثلا) في بعض الأمور ، وتختلف عنها في أمور دقيقة أخرى . وقام شرودينغر بحل المعادلة لحركة الالكترون حول البروتون في ذرة الهيدروجين ، وعندما طبق الشروط الموجبة على حلول المعادلة ، وهي نفس الشروط التي يطبقها الفيزيائيون روتينيا على الأمواج الكلاسيكية ، توصل الى معرفة الحالات المستقرة أو الواقعة (Stationary States) للالكترون ومستويات الطاقة الملازمة لهذه الحالات . ووجد أيضا أن مستويات الطاقة التي حصل عليها بطريقته هي نفسها التي كان بوهر قد حصل عليها بطريقته البسيطة ، فالمدارات الواضحة عند بوهر أصبحت الآن غيوما منتشرة فيها بعض من الغموض (شكل ١٨) . ورغم نجاحه الباهر ، الا أن شرودينغر لم يحصل على جائزة نوبل الا في عام ١٩٣٥ . وباكتشاف معادلة شرودينغر هذه تشكل ما يعرف الآن بالميكانيك الموجي ، وهو اسم آخر للميكانيك الكم .



(شكل ١٨)

النموذج الموجي (دي برويلي) للالكترون .

٥ ـ ٤ ـ ٥ : التفسير الإحصائي :

بعد أن قدم شرودينغر معادلته ، التي هي الآن المعادلة الأكثر شهرة في عالم الجسيمات المجهرية الدقيقة ، حصل جدل كبير حول المعنى الفيزيائي للمعادلة وتفسير محتوياتها (مكوناتها) فإذا كان الالكترون يتألف (يتكون) من أمواج مادية ، فما هي طبيعة هذه المادة أو المائع (في لغة القرن التاسع عشر) التي تشكل الالكترون ؟ واذا كنا نستطيع في العادة أن نجزىء موجة كلاسيكية ، فهل نستطيع أيضا أن نجزىء الالكترون الى عدة أقسام عندما يكون في احدى حالاته في ذرة الهيدروجين مثلا ؟ هذه أسئلة صعبة جدا ، خاصة عندما نخلط المفاهيم الكلاسيكية مع المفاهيم الكمية الجديدة ، وقد واجه الفيزيائيون صعوبة في مواجهة هذه الأسئلة وأخرى مماثلة لفترة طويلة في تلك الفترة (أواخر العشرينات) .

التفسير الذي انتصر أخيرا ، ولا يزال سائدا حتى اليوم ، هو ما يعرف الآن باسم « تفسير مدرسة كوبنهاغن » ، والذي قدمه بصورة رئيسية العالم الالماني القدير « ماكس بورن » (١٨٨٢ ـ ١٩٧٢) وبوهر نفسه الى حد ما . حسب هذا التفسير ، فان المادة الموجية ليست مادة بتاتا ، بل انها أمواج احتمالية (Probability Waves) ، وتابع الموجة (Wave function) الذي يدخل المعادلة يحدد (بعد الترييع) الكثافة الاحتمالية لوجود الالكترون في مكان ما . فحيث يكون التابع كبيرا يكون احتمال وجود الالكترون كبيرا والعكس بالعكس . إذن عندما تنتشر أو تنتقل الأمواج المادية من مكان الى آخر فان الاحتمال (وليس الالكترون نفسه بصورة أكيدة) هو الذي ينتشر .

من الناحية العملية ، هذا التفسير مرض تماما ، إذ أننا في العادة نجري قياسات وسطية (average) ، فعندما نقيس الطيف المنبعث من غاز الهيدروجين ، فإننا في العادة لا نجري التجربة على ذرة واحدة فقط وإنما على عدد كبير من الذرات ونحصل على قيمة تجريبية وسطية لهذه الذرات . فالذي يتجزأ هو احتمال وجوده في أمكنة عديدة ومختلفة وليس جسم الالكترون ، وهذا أمر وارد ومقبول تماما . واذا أجرينا التجربة لنحدد وجوده في مكان محدد ما ، فان النتيجة تكون إما إيجابية أو سلبية . واحتمال النتيجتين محدد تماما بواسطة تابع الموجة الذي ذكرناه سالفا .

لقد تبينت صحة معادلة شرودينغر وتفسيرها الاحتمالي في أنظمة فيزيائية لا حصر لها في مجالات الذرات والجزيئات والجوامد والنوى وغيرها ، ومع ذلك فان التفسير الاحتمالي لم يرق لعدد من عظماء الفيزيائيين ، بمن فيهم آينشتاين نفسه . والذي قال كلمته المأثورة : إن الخالق لا يلعب النرد . ولكن لا يوجد الى الآن معالجة بديلة ترقى حتى إلى مقاربة مستوى المدرسة الحالية . تؤدي نظرية الكم الى نتائج أخرى غريبة جدا على التفكير الفيزيائي التقليدي . تقول النظرية مثلا إننا لا نستطيع أن نحدد كلا من الموضع والاندفاع للالكترون في آن واحد . إن هذا مستحيل حتى من ناحية المبدأ . وتعرف هذه النتيجة في صيغتها الرياضية بمبدأ الارتياب (اللاتعيين) Uncertain Principle .

وفي نفس الفترة التي كان شرودينغر يعمل فيها على تطوير معادلته (حوالي ١٩٢٥) قام عالم شاب الماني هو فيرنس هايزنبرغ (١٩٠١ ـ ١٩٧٦) بتقديم نظرية كمومية أخرى لوصف ديناميكية الجسيمات الدقيقة . وضعت نظرية هايزنبرغ في لغة المصفوفات (Matrices) الرياضية ، حيث تمثل هذه المصفوفات واحدا أو آخر من المتغيرات المختلفة (الطاقة ، الدفاع . . . .) ، وحيث تمثل عناصر هذه المصفوفات نتائج التجارب التي يمكن إجراؤها على هذه الجسيمات . وللوهلة الأولى بدت نظرية هايزنبرغ مختلفة تماما عن نظرية شرودينغر . لكن شرودينغر ، والفيزيائي الانجليزي ديراك سرعان ما أثبتا أن النظريتين متكافئتان تماما من الناحية الرياضية ، أي أنهما صيغتان مختلفتان لنفس النظرية الكمومية . ونال هايزنبرغ جائزة نوبل في عام ١٩٣٢ لاكتشافه المستقل للنظرية الكمومية .

٥ ـ ٤ ـ ٦ : مبدأ الاستبعاد :

بقيت نظرية الكم مع هذا تفتقر الى خاصية هامة جداً ، كي تستطيع وصف خواص الذرات ، وخصوصا الجدول الدوري (periodic table) للعناصر . هذا الجدول الذي كان قد وضعه العالم الروسي « منديليف » في

منتصف القرن التاسع عشر ، والذي تبناه جميع الكيميائيين ، كان يظهر بأن العناصر التي تقع في نفس العمود الرأسي لها خواص كيميائية متشابهة . فمثلا ، الهيدروجين والليثيوم والصوديوم كلها نشيطة التفاعل ولها تكافؤ أحادي . كيف نستطيع تفسير ذلك على أساس نظرية الكم الجديدة ؟ حسب هذه النظرية ، وحتى وقت شرودينغر ، يجب أن تكون الالكترونات جميعها في المدار الأول حول النواة ، لأن هذا المدار له الطاقة الدنيا (بين كل المدارات) والنظام الفيزيائي (الإلكترونات) يرتب أموره دائما حتى يكون في أدنى طاقة ممكنة . هذا الأمر كان محيرا حقا للفيزيائيين والكيميائيين بمن فيهم أولئك الذين كانوا يعتنقون مبدأ البنية القشرية (Shell Structure) للذرة والتي تنبع منطقيا من نموذج بوهر الذي يحدد مواقع الالكترونات في المدارات المتتالية المختلفة . فكل مدار يؤدي الى قشرة تسكنها الالكترونات (في الذرات المحتوية على إلكترونات عديدة) .

الجواب على هذه المشكلة جاء من قبل العالم النمساوي ـ السويسري الشاب « فولفغانغ باولي » (١٩٠٠ - ١٩٥٨) عندما أعلن مبدأ الاستبعاد (Exclusion Principle) في عام ١٩٢٤ . طبقا لهذا المبدأ (الغامض والغريب حقا) لا يمكن لأكثر من الكترونين أن يكونا في نفس الحالة الكمية . وبمعنى آخر ، فإن قدرة الاستيعاب القصوى لأية حالة كمية من حيث تقبلها للالكترونات هي الكترونات فقط . وتبعا لذلك فإن سعة مدار ما تعتمد على عدد الحالات الكمية المختلفة المرتبطة بذلك المدار . فكل مدار يقابله مستوى معين للطاقة ولكنه يتسع لعدد (محدود) من قيم الاندفاع الزاوي ، أي لعدد محدود من القيم الاحتمالية أو الحالات الكمية . وهكذا فان المدار الأول في الذرة يستطيع أن يقبل إلكترونا واحدا أو الكترونين . ففي عنصر الليثيوم ، مثلا ، حيث يوجد ثلاثة إلكترونات ، يقع اثنان في المدار الأول ، ويذهب الثالث الى المدار الثاني . وهكذا فان كل قشرة بوهرية لها عدد الكتروني معين تستطيع استيعابه . إن مبدأ باولي أعطى الأساس النظري لمفهوم البنية القشرية الذرية الدوري للعناصر ، مما يتفق تماما مع المفاهيم الكيميائية المعروفة . فلولا وجود هذا المبدأ ، لسقطت الاشكترونات جميعها الى المدار الأول ، بدون أية بنية قشرية تميز بين ذرة وأخرى ولكانت صفات الكون مختلفة تماما عما نعرف .

ونظّر باولي في ١٩٢٥ بأن الخاصية الثنائية في مبدئه لا بد وأن لها علاقة بخاصية الكترونية مجهولة وأيضا بظاهرة أخرى معروفة سابقا في علم الأطياف ، وهي مفعول (زيمان) الشاذ ، حيث وجد أن بعض الخطوط الطيفية للذرات تنشق ، في وجود مجال مغنطيسي ، إلى عدد من الخطوط المتقاربة بطريقة لا تقبل الشرح الكلاسيكي .

وترسّخ هذا التنظير في نفس العام ، عندما اقترح الفيزيائيان الهولنديان « إوهلينبيك » و « غودسميت » أن الإلكترون يملك خاصية اللف الذاتي (Spin) . أي أن الإلكترون ، سواء أكان متحركا حول الذرة أم لا ، فإنه دائما في حركة دوران ذاتي أولف حول محوره ، تماما كما تلف الأرض حول محورها ، ويصاحب هذا اللف اندفاع زاوي قيمته (هـ/π) . وحسب قوانين الكم المتعلقة بالاندفاعات الزاوية ، فان الاندفاع الزاوي للإلكترون يمكن أن يأخذ واحدا من اتجاهين فقط : إما نحو الأعلى وإما نحو الأسفل . هذه هي الخاصية الثنائية التي كان ينشدها

باولي . وقد أشار أوهلينبيك وغودسيت بأن هذه الخاصية تحقق تنظير باولي ومبدأ الاستبعاد ، وتؤدي أيضا إلى تفسير مفعول زيمان الشاذ ، كما تفسر جوانب البنية الدقيقة (Fine Structure) للطيف الضوئي للذرات .(١٢)

٥ ـ ٥ : فيزياء النواة

٥ ـ ٥ ـ ١ : أشعة (ألفا) و (بيتا) و (غاما)

النواة (الصغيرة) تشكل قلب الذرة وتحمل كتلة الذرة بأكملها تقريبا ، بالاضافة الى الشحنة الموجبة . وكل الإلكترونات « الكواكب » في الذرة تدور في فلك هذا الجسيم البالغ الصغر والأهمية . إنها شمس الذرة . والآن نوجه اهتمامنا الى هذه النواة . ماذا يوجد داخلها ؟

بدأت علوم النواة صدفة في عام (١٨٩٦) عندما كان العالم الفرنسي « هنري بيكيريل » (١٨٥٢ ـ ١٩٠٨) يجري أبحاثا حول الأشعة السينية ، التي كانت جديدة وقتئذ . لاحظ بيكيريل من خلال تجاربه على مركبات اليورانيوم أن هناك أشعة أخرى من نوع جديد تصدر من هذه المواد . هذه الأشعة ، التي لا يمكن رؤيتها ، تستطيع اختراق الورق والمواد العادية الأخرى بسهولة ، كما تستطيع تأيين ذرات الهواء . وتظهر هذه الأشعة تلقائيا ، بدون التحفيز والتنشيط المطلوب في حالة الأشعة السينية . عرف بيكيريل في الحال أنه أمام أشعة من نوع جديد ، وأنها تصدر عن ذرات اليورانيوم . وعرفت هذه الظاهرة بالنشاط الإشعاعي (radio — activity) .

وتابعت العالمة الفرنسية البولندية الأصل « ماري كيوري » (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤) وزوجها العالم الفرنسي « بيير كيوري » (١٨٥٩ ـ ١٩٠٦) عمل بيكيريل حول الأشعة الجديدة ووجدا من خلال دراسة منهجية للمركبات الكيميائية بأن معدن الثوريوم يظهرنشاطا إشعاعيا أيضا . كما اكتشفا ، بعد عناء شديد ، وجود عنصرين مشعين جديدين هما البولونيوم (نسبة إلى بولندا ، وطن ماري كيوري الأصلي) والراديوم . هذان العنصران هما أشد نشاطا من اليورانيوم بقدر كبير ، إذ تبلغ شدة نشاط الراديوم النقي مليون ضعف شدة اليورانيوم . لكن عملية تنقية الراديوم عملية مضنية حقا . فبداية من مادة منجمية كتلتها بضعة أطنان ، يمكن الحصول على ٠,٢ غم فقط من الراديوم بعد التنقية . وقد حصل العلماء الثلاثة بيكيريل وآل كيوري على جائزة نوبل في عام ١٩٠٣ .

وقد سعى كل من بيكيريل وماري كيوري ورذرفورد لمعرفة الطبيعة الفيزيائية لهذه الأشعة الجديدة . وقد تمكن الأخير في عام ١٨٩٩ من تصنيف هذه الأشعة إلى ثلاثة أنواع ، حسب مقدرتها على اختراق المادة . فالأشعة التي لها

---

(١٢) ـ استطاع العالم الانجليزي ديراك في الفترة (١٩٢٨ ـ ١٩٣٠) أن يقدم تفسيرا أساسيا للف الذاتي (السبين) في الالكترون ، وذلك من خلال تطوير معادلة شرودينغر لتكون متفقة مع نظرية النسبية في هذا العمل التزاوجي ، بين ميكانيك الكم والنسبية يظهر اللف كخاصية طبيعية للالكترون .
كما تنبأ ديراك في عمله هذا بوجود جسيم مضاد للالكترون ، أي له نفس خواص الالكترون مع شحنة موجبة تساوي شحنة الالكترون في المقدار . هذا الجسيم سمي البوزيترون وتم اكتشافه تجريبيا في عام ١٩٣٢ (انظر جزء ٥ ـ ٥ ـ ٥) ومنذ ذلك الحين اكتشفت جسيمات مضادة للبروتون والنيوترون وغيرهما من الجسيمات الأساسية ، حيث أصبح موضوع (المادة المضادة) أحد المواضيع الفيزيائية الرئيسية في عالم الفيزياء المعاصرة .

مسافة اختراق قصيرة سميت أشعة ألفا ، والأشعة ذات الاختراق الأطول سماها أشعة بيتا ، والأشعة ذات الاختراق الطويل سماها أشعة غاما .

وقد اتضح بسرعة أن أشعة بيتا هي في الحقيقة حزمات من الالكترونات السريعة . تبين ذلك من حقيقة انحرافها في المجال مغناطيسي وباتجاه يدل على شحنتها السالبة ، ومن قياس النسبة (شح/ك) لهذه الأشعة تبين أنها نفس النسبة التي حصل عليها تومسون للالكترون (أنظر جزء ٥ - ٣)

أما أشعة ألفا ، فقد قيست النسبة (شح/ك) لها بنفس الطريقة التي استعملت في حالة الالكترون (من قبل تومسون) . وفي سلسلة من التجارب التي أجراها رذرفورد ومساعدوه في الفترة (١٩٠٦ - ١٩٠٩) ، استطاع هذا أن يثبت بأن أشعة ألفا تتألف في الواقع من جسيمات هي نوى (جمع نواة) ذرات الهيليوم . أي أن لها شحنة موجبة تعادل ضعف شحنة الإلكترون - لكنها موجبة - وكتلة تعادل أربعة أضعاف كتلة الذرة الهيدروجينية .

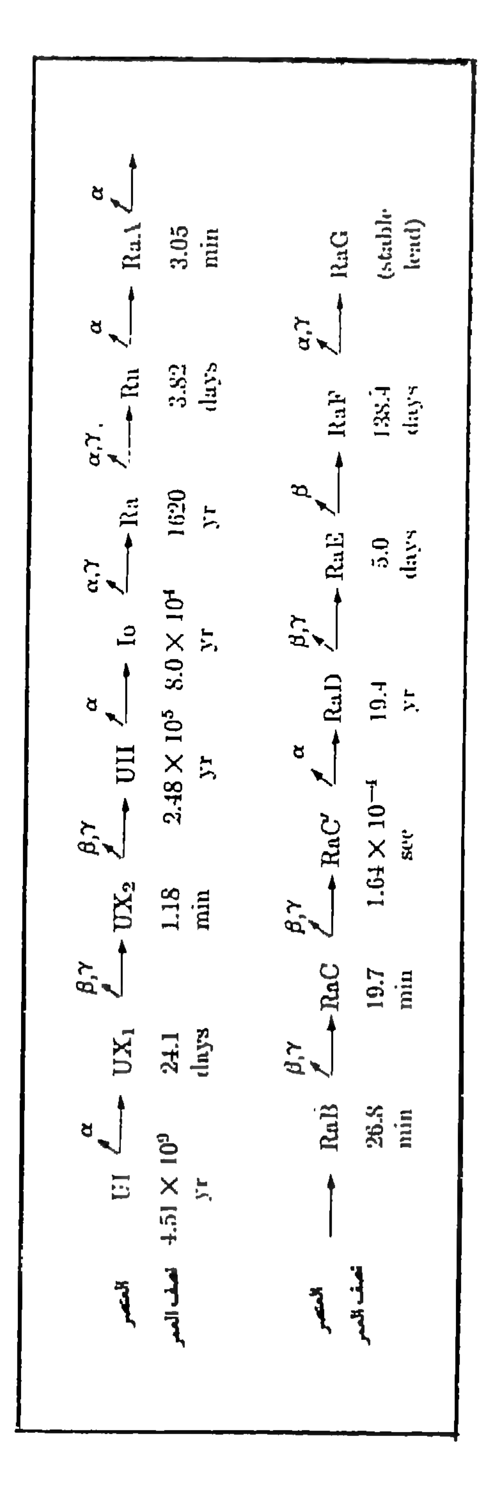
أما أشعة غاما فتبين أنها في الواقع حزمات من الفوتونات قصيرة الموجة (أقصر حتى من الأشعة السينية) . إنها أشعة كهرطيسية ذات طاقات عالية جدا (ملايين الأضعاف من طاقة الفوتونات العادية المرئية) . توضحت هذه النتيجة لأن هذه الأشعة لا تنحرف في المجال المغنطيسي ، ولأنها تخترق المادة لمسافات طويلة ، ولأنها تظهر أنماط التداخل والحيود الموجية .

وتعرف هذه الأشعة الجديدة الثلاثة الآن بجسيمات (Particles) ألفا وجسيمات بيتا وأشعة غاما . مع أنه تبين أخيرا أن هذه الجسيمات (أو الأشعة) ليست في الواقع كائنات جديدة كما كان الظن في البداية ، إلا أنها تظهر في مجالات جديدة من الطاقة ومن مصادر جديدة . لقد كانت الباب الذي أدخلنا إلى عالم جديد ، من المادة (المادة النووية) .

٥ - ٥ - ٢ : التفكك الاشعاعي

شعر رذرفورد منذ البداية بأن ظاهرة النشاط الاشعاعي تحتاج إلى تغييرات فيزيائية جذرية لمعالجتها وتفهمها . وحيث إن أشعة ألفا وبيتا المنطلقة تحملا كتلاً كبيرة (خصوصا في حالة ألفا) وشحنة كهربائية ، فإن انطلاق هذه الأشعة يؤدي إلى تغيير في طبيعة العنصر الباقي أو عنصر الابنة (Daughter) بعد الاشعاع . هكذا فإننا نستطيع أن نعبر عن تحول ذرة الراديوم إلى ذرة الرادون بعد انطلاق جسيم ألفا كما يلي : راديوم رادون + جسيم ألفا . وهي معادلة تشبه في روحها المعادلات الكيميائية المعروفة . لكن المعادلة الجديدة تختلف عن القديمة في أنها (الجديدة) تنطوي على تغيير في طبيعة العناصر الناتجة (خلافا للنظرات القديمة القائلة بأن الذرة لا تتجزأ وأن طبيعتها لا تتغير في أي من التفاعلات) . المعادلة الجديدة تنطوي حقا ، من ناحية المبدأ ، على مفهوم (التحول العنصري - transmutation) ، مثل عملية تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب التي كانت حلم العلماء القدامى .

وتكاثرت الأبحاث والدراسات في هذا المجال . فتبين مثلا أن الرادون ، الناتج في المعادلة أعلاه ، هو غير مستقر ، إذ إنه يطلق جسيمات ألفا أيضا ويتحول الى عنصر جديد عرف براديوم ـ أ . هذا بدوره غير مستقر أيضا ، وهكذا . . . وفي نهاية هذه السلسلة الاشعاعية ينتج عنصر مستقر حقا هو عنصر الرصاص (شكل ١٩) .



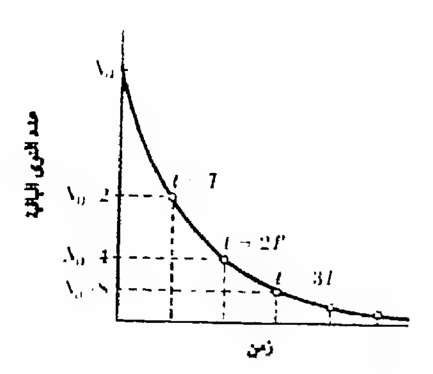
(شكل ١٩)

سلسلة اليورانيوم ـ الراديوم الاشعاعية . اللافتة تعطي أنصاف الأعمار للعناصر الاشعاعية المختلفة في السلسلة .

ثم تبين أيضا أن بداية هذه السلسلة أو العنصر الوالد (Parent) ليس عنصر الراديوم نفسه وإنما عنصر آخر يقع قبله بعدة عناصر وفي حالة هذه السلسلة فإن العنصر الوالد هو اليورانيوم ذاته . وكما يظهر الشكل فإن هناك (١٥) عنصرا مختلفة في هذه السلسلة الاشعاعية الهامة .

وهناك عامل هام يدخل في اعتبار الانحلال أو التفكك (decay) الاشعاعي ، وهو سرعة معدل التفكك . وقد جرت العادة ، تبعا لرذرفورد ، على التعبير عن ذلك بما يسمى بنصف العمر (half — life) للعنصر .

ونصف العمر هو الزمن اللازم لكي يتحلل نصف عدد الذرات النشيطة فيما يبقى النصف الآخر من العدد بدون تحلل . ويختلف نصف العمر من عنصر الى آخر بمقدار كبير (ولكنه لا يتأثر بالعوامل الفيزيائية العادية مثل المجالات الكهرطيسية ، درجة الحرارة . . . . الخ) فاليورانيوم له نصف عمر يعادل ٤,٥١ × ١٠^٩ سنة (أربعة ونصف مليار سنة) ، بينما الرادون له نصف عمر يعادل ٣,٨٢ يوما (شكل ٢٠) . أي أن انحلال اليورانيوم بطيء جدا عندما يقارن بتحلل الرادون . ولهذا السبب (العمر الطويل) استعمل اليورانيوم في تحديد عمر الكرة الأرضية ـ حوالي ٤,٥ مليار سنة .



(شكل ٢٠)

منحنى التفكك الاشعاعي لعنصر ما . تمثل NO عدد النوى في البداية وتمثل T نصف العمر . عدد النوى الباقية يتناقص بطريقة أسّية .

واختلاف أنصاف الأعمار للعناصر المختلفة قد يؤدي إلى تعقيدات كثيرة في الظروف العملية . فلو أخذنا مثلا عينة من اليورانيوم النقي في البداية ، فانها ستحتوي بعد فترة زمنية على مزيج من العناصر الناتجة جميعها ، بنسب مختلفة . لكن العناصر الرئيسية الموجودة ستكون العناصر ذات أنصاف الأعمار الطويلة . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الكرة الأرضية ذاتها . ربما اشتملت في البداية على عناصر نووية عديدة لا نشاهدها الآن لأنها تفككت واندثرت بسبب أعمارها القصيرة .

٥ ـ ٣ ـ ٥ : النظائر النووية

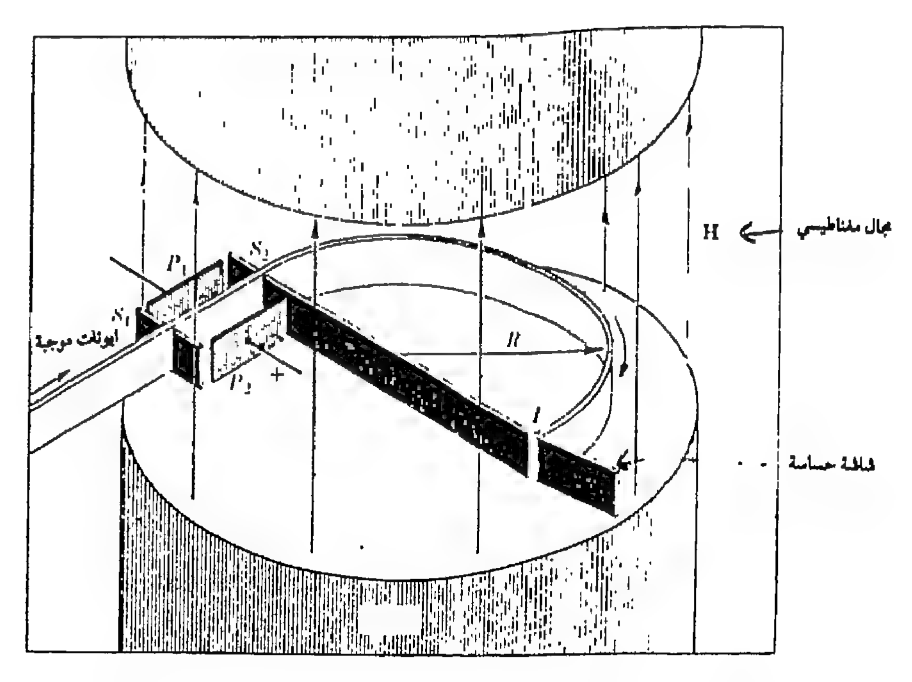
شعر الكثيرون من العاملين في مجال الاشعاعات بشيء من الارتباك بالنسبة لكثرة (العناصر) التي كانوا يكتشفونها بواسطة التحلل الاشعاعي . فسلسلة اليورانيوم التي ذكرناها تحتوي على عدد من العناصر العديدة الجديدة . هناك كذلك سلاسل أخرى ، كسلسلة الثوريوم وسلسلة الأكتينيوم ، تحتوي على عناصر جديدة أخرى . لكن العلماء لاحظوا أيضا أن كثيرا من هذه العناصر الجديدة لها خواص مشابهة من الناحية الكيميائية لعناصر أخرى كانت معروفة . بعد التفكير الطويل حول هذا الموضوع المعقد ، اقترح العالم البريطاني « سودي » ، أحد زملاء رذرفورد ، الحل الآتي : إن كثيرا من العناصر الموجودة في الطبيعة ، مثل الرصاص أو اليورانيوم هي مزيج من عدة « نظائر isotopes » لها نفس العدد الذري ولكنها تختلف عن بعضها بأن كتلها مختلفة قليلا عن بعضها بعضا . الهيليوم مثلا له نظيران مستقران : هيليوم ـ ٤ وهيليوم ـ ٣ . كلا النظيرين له نفس العدد الذري (أي ٢) ، وبالنتيجة لهما نفس الخواص الكيميائية . لكن هيليوم ـ ٤ له كتلة تساوي (٤) وحدات ذرية في حين أن هيليوم ـ ٣ له كتلة تساوي (٣) وحدات ذرية من الكتلة . (الوحدة الذرية تساوي كتلة ذرة الهيدروجين تقريبا ، وتستعمل كثيرا في المجال النووي) .

لكن التحقق من اقتراح (سودى) كان أمرا صعبا بالوسائل التقليدية ، وذلك لصعوبة فصل النظائر عن بعضها كيميائيا .

وهنا يبرز عالمنا المشهور ج . ج تومسون مرة أخرى . قام هذا باختراع جهاز لفرز النظائر بطريقة كهرطيسية (شكل ٢١) بوضع العنصر قيد الدراسة في فرن ساخن ، حيث تخرج أيونات العنصر من نافذة وتدخل في مجال مركب من مجال كهربائي ومجال مغناطيسي معامد « يرشح » الأيونات لتخرج من نافذة ثانية وتدخل في غرفة مفرغة واقعة ضمن مجال مغنطيسي . في هذا المجال تتحرك الأيونات في مدارات دائرية ، حيث يكون نصف القطر متناسبا عكسا مع كتلة الأيون . وبما أن الأيونات لها نفس الشحنة مع اختلاف في الكتلة فانها تنفرز عن بعضها عند الاصطدام بالصفحة الحساسة . هذا الجهاز يسمى مطياف الكتلة (mass spectrometer) . وقد أيدت النتائج اقتراح سودى بالكامل عن وجود النظائر للعناصر المختلفة .

حصل سودى على جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٢٢ ، بالمشاركة مع آستون ، أحد زملاء تومسون الآخرين ، اللذين طورا جهاز المطياف الكتلي .

كما أن اكتشاف النظائر أعطى تفسيرا لحقيقة كيميائية معروفة . وهي أن (الأوزان الذرية atomic weights) للعناصر ، عندما يعبر عنها بالوحدة الذرية هي أرقام كسرية ، مثلا عنصر النيون وزنه ٢ , ٢٠ م وحدة وعند دراسته في المطياف تبين وجود نظيرين الأول وزنه (٢٠) وحدة ، والثاني (٢٢) وحدة . ولكنهما موجودان بسبب غزارة (abundance) مختلفة وبحيث يكون الوزن المتوسط الموجود عادة في الطبيعة هو (٢ , ٢٠) وحدة وتحتوي عينة طبيعية من النيون على ٩٠٪ من نيون و٢٠ و١٠٪ من نيون ـ ٢٢) .



(شكل ٢١)
مطياف كتلي . تدخل الايونات الى المجال المغناطيسي وتنحني في نصف دائرة . وترتطم الأيونات بشاشة حساسة تسجل كتلة الايون .

وهكذا تبيّن أن الهيدروجين له نظيران (العادي أو الخفيف والثقيل) ، والاوكسجين له ثلاثة نظائر ، واليورانيوم له ثلاثة . . الخ .

٥ ـ ٥ ـ ٤ ـ البنية النووية ـ البروتون والنيوترون

من الواضح أن الأشعة الجديدة تأتي من نواة الذرة (قلب الذرة) ، إذ إن الجزء الخارجي للذرة يتألف فقط من الكترونات عادية ، ذات طاقات قليلة (بالمقارنة مع طاقات الجسيمات الاشعاعية الواقعة في مجال ملايين الالكرون فولط) ، وذلك حسب نموذج رذرفورد الذي كان معروفا في تلك الفترة (أنظر جزء ٥ ـ ٤ ـ ١) . هذه النواة تظهر الآن وكأنها جسيم مركب ومعقد ، إذ إنه يستطيع التفكك وإصدار أنواع مختلفة من الجسيمات . والسؤال برز عندئذ حول تركيب أو بنية هذه النواة بشكل عام . مم تتألف أو تتكون هذه النواة ؟

أحد مكونات النواة الأساسية هو البروتون (proton) ، وهو نواة ذرة الهيدروجين العادي (كلمة بروتون تعني الأول في اليونانية) . هذا الأمر كان واضحا ليس من وجود البروتون في الهيدروجين فقط بل أيضا لأن البروتون قد ظهر في نواتج التصادم النووي في تجربة أجراها رذرفورد في عام ١٩١٩ . فعندما تصطدم جسيمات ألفا مع النيتروجين ينتج أوكسجين وبروتونات ، أي : نيتروجين + جسيم ألفا أوكسجين + بروتون . إذن ، استخلص رذرفورد أن البروتون كان موجودا سابقا في النواتين الداخلتين في التفاعل (نيتروجين) ثم تحرر نتيجة للتصادم . البروتون له شحنة موجبة تعادل شحنة الالكترون وكتلة تساوي كتلة ذرية واحدة تقريبا .

كانت تجربة رذرفورد هذه هي الأولى في تاريخ العلوم التي أمكن بها تحويل عنصر الى آخر (نيتروجين الى أوكسجين) ، وهو الحلم الذي راود العلماء لآلاف السنين . الطريقة ليست مجدية من الناحية الاقتصادية ، ولكن الحدث العلمي كان من الدرجة الأولى من الأهمية .

ومع حلول عام ١٩٢١ كان الفيزيائيون قد بنوا نموذجا نوويا على الشكل التالي : تحتوي النواة على عدد من البروتونات يساوي العدد الذري (ز) أي عدد الالكترونات المدارية ، وبذلك تكون الذرة الكاملة (نواة + الكترونات) محايدة كهربائيا . لكن كتلة النواة تزيد كثيرا عن مجموع كتلة البروتونات هذه ، بحوالي الضعف تقريبا . ففي نواة هيليوم ـ ٤ ، يوجد بروتونات في حين أن كتلة النواة تعادل (٤) وحدة تقريبا . فمم تتكون بقية الكتلة ، أي الكتلة غير البروتونية في النواة ، إذن ؟ الجواب المقترح كان أنه توجد بروتونات أخرى كافية في العدد مع عدد مماثل من الالكترونات (داخل النواة ذاتها) ، لتحقيق كل من شرط الكتلة وشرط التعادل الكهربائي . هذا الاقتراح كان له جاذبيته ، إذ أنه يفسر في نفس الوقت اشعاعات بيتا على أنها إصدارات من هذه الالكترونات النووية . (كان يظن أيضا بأن هناك نوعاً من التصاحب بين الالكترونات النووية وبروتوناتها ، حتى إنه أطلق على النظام الصغير المؤلف من بروتون والكترون معا اسم (النيوكليون) .

ظل هذا الاقتراح قائما لفترة عشر سنوات تقريبا رغم وجود صعوبات نظرية تحول دون وجود الالكترون داخل النواة . لكن في الفترة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ أثبتت تجارب أجراها العالم الانجليزي جيمس تشادويك والعالمان الفرنسيان فريدريك جوليو وايرين كيوري (ابنة ماري) أن جسيمات ألفا العالية الطاقة ، عندما تصطدم بذرات البيريليوم ، تنتج نوعا جديدا من الاشعاع الذي يخترق المادة لمسافات طويلة جدا ، وأن هذا الاشعاع له تأثير خاص في تحرير بروتونات الهيدروجين من مادة تحتوي على الهيدروجين مثل شمع البارافين .

وقد فسر « تشادويك » الاشعاع الجديد ، بشكل صائب على أنه حزمة من جسيم محايد كهربائيا (شحنته صفر) ، مما يفسر قدرته على اختراق البعيد . وكتلة هذا الجسم الذي سمي نيوترون (neutron) قريبة من كتلة البروتون (وحدة ذرية) ، مما يفسر أنه عندما يصطدم بالبروتون الساكن ينقل الأول الى الثاني كل طاقته الحركية ، فيخرج البروتون بطاقة حركية عالية ، (نقل الطاقة الحركية بهذه الصورة الكاملة يحدث فقط عندما تتساوى الكتلتان تقريبا ، حسب قوانين الميكانيك تماما كما يحدث بين كرتي البلياردو) وقد استطاع تشادويك قياس كتلة النيوترون بدقة بالطريقة التصادمية ، عن طريق تصادم حزمة من النيوترونات مع غاز من النيتروجين .

وباكتشاف النيوترون اكتملت البنية النووية تماما . لنفرض أن ذرة عنصر ما له عدد ذري (ز) وعدد كتلي (عك) ، إذن فالنواة تحتوي على عدد من البروتونات يساوي (ز) وعدد من النيوترونات يساوي (عك ـ ز) وفرق الكتلة النووية الذي تكلمنا عنه سابقا موجود الآن في النيوترونات . (فاليورانيوم) (عدد ذري ٩٢) العادي يحتوي على نسبة عالية من يورانيوم ـ ٢٣٨ الذي تحتوي نواته على (٩٢) بروتونا و(١٤٦) نيوترونا .

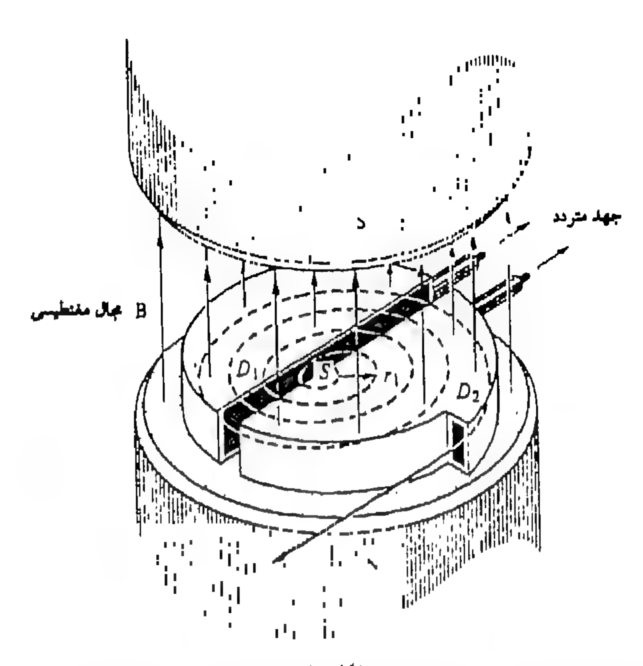
وقد تبين أيضا أن النيوترون الحر (خارج النواة) ليس جسيما مستقرا . إنه يتحلل الى بروتون والكترون (نيوترون ← بروتون + الكترون) ونصف عمر النيوترون الحر هو (١٢) دقيقة تقريبا .

وقد حصل تشادويك على جائزة نوبل عام ١٩٣٥ تقريبا لاكتشافه جسيم النيوترون .

ومع ذلك فإن النيوترون هو جسيم أساسي ، على قدم المساواة مع البروتون ، ولا يمكن اعتبار الأول على أنه جسيم مركب من بروتون والكترون بأي شكل من الأشكال . والذي يحدث خلال عملية تحلل بيتا هو أن بعض النيوترونات داخل النواة تتحلل الى بروتونات والكترونات ، حيث تخرج الالكترونات في الحال على شكل أشعة بيتا . هذه الالكترونات لم تكن موجودة في الأصل داخل النواة .

٥ ـ ٥ ـ ٥ : مسرعات الجسيمات

في بداية الثلاثينيات شهد العالم أيضا للمرة الأولى ظهور مسرعات (accelerators) الجسيمات . والهدف من وراء هذه الأجهزة هو تسريع الجسيمات الأساسية مثل الالكترونات والبروتونات الى طاقات عالية جدا (مئات الملايين من الالكترون فولط) ، ثم تسديدها نحو النوى (جمع نواة) المختلفة لاحداث تفاعلات نووية مختلفة بالكيفية المناسبة . وأحد أنواع الأجيال الأولى من المسرعات هو السايكلوترون (cyclotron) ، الذي بناه العالم الأمريكي (لورنس) في منتصف الثلاثينيات في جامعة كاليفورنيا ـ بيركلي (شكل ٢٢) . وفي عام ١٩٣٢ اكتشف العالم الامريكي آندرسون جسيما جديدا هاما سمي البوزيترون (positron) . والبوزيترون هذا له نفس خواص الالكترون



(شكل ٢٢)
توضيح للجزء الفعال من مسرع السايكلوترون . جسيم مشحون يدخل عند النقطة S ثم يدور مرارا في مجال مغنطيسي . التسريع يحصل مرتين في كل دائرة بسبب وجود فرق الجهد المتردد .

(كالكتلة والاندفاع اللمسي وغيرها) سوى أن البوزيترون له شحنة موجبة تعادل شحنة الالكترون السالبة في المقدار . وقد اكتشف آندرسون هذا الجسيم كأحد نواتج التفاعل النووي عندما عرض بعض النوى للأشعة الكونية . هذه الأشعة تأتي عادة من الفضاء الخارجي (النجوم والمجرات الواقعة خارج نظامنا الشمسي) وتتألف من بروتونات والكترونات (وجسيمات أخرى) ذات طاقات عالية جدا . وقد رصدت هذه البوزتيرونات لاحقا أيضا في بعض التفاعلات المخبرية النووية عندما عرضت بعض النوى لأشعة ألفا عالية الطاقة (الصادرة من البولونيوم المشع) .

ويمكن تفسير انبعاث البوزيترون من نواة ما على أنه تحلل مشابه إلى تحلل أشعة بيتا سالفة الذكر ، مع الاختلاف التالي . في حالة البوزيترون يتحلل بروتون داخل النواة الى نيوترون يبقى داخل النواة وبوزيترون ينبعث الى الخارج في الحال . هذا النوع من الانحلال يحدث فقط داخل النواة ، إذ أن البروتون الحر (خارج النواة) هو جسيم ثابت مستقر .

٥ ـ ٥ ـ ٦ الانشطار النووي

وللنظر الآن الى موضوع الطاقة في التفاعلات النووية ، وهو موضوع على غاية الأهمية من الناحيتين العلمية والعملية . لقد كان واضحا للفيزيائيين منذ البداية (حوالي ١٩٠٦) أن الاشعاعات النووية تحتوي على قدر هائل من الطاقة ، إذ أن جسيم ألفا الصادر عن اليورانيوم مثلا ، يحتوي على طاقة حركية تزيد عن (٤) مليون الكترون فولط ، أي حوالي ٦×١٠$^{-١٣}$ جول . وهي طاقة هائلة بالمقارنة مع طاقة الذرات الناتجة عن احتراق الوقود التقليدي . فحرق الفحم بالطريقة العادية يولد حوالي ٥٨ كيلو حريرة للمول الواحد (mole) أي حوالي ٦×١٠$^{-١٩}$ جول للذرة الواحدة من الفحم . وهكذا فان الطاقة في التفاعلات النووية هي أكبر من تلك التي في التفاعلات الكيمياثية العادية بمليون مرة أو أكثر . من أين تأتي هذه الطاقة النووية الهائلة ؟

لقد لاحظ العلماء مبكرا شيئا غريبا آخر في التفاعلات النووية ، وهو أن الكتلة غير منحفظة (non conserved) في العادة . فقد تكون الكتلة للنواتج أكبر أو أصغر من الكتلة الداخلة في التفاعل . ففي التفاعل الذي أجراه العالمان كروفت ووالتون : ليثيوم + بروتون ⟵ ٢ جسيم ألفا ، وجد أن الكتلة الكلية تنقص بالمقدار ٠,٠١٨٦٢ وحدة ذرية أي ٣٠٨٧٢,٠ × ١٠$^{-٢٧}$ كغ . وكان العلماء متأكدين بأن هذا النقص يمثل ظاهرة حقيقية . وليس خطأ عارضا في الأجهزة القياسية المستخدمة . كانت درجة الدقة عالية جدا في تلك الأجهزة الحديثة .

على كل حال ، هذا الخلل في مبدأ حفظ الكتلة لم يكن مزعجا عند اكتشافه . إذ إنه كان متوقعا بالفعل . ويمكن تفسيره بسهولة حسب النظرية النسبية (الذي كان قد قدمها آينشتاين ، عام ١٩٠٥) والتي تقول ، من جملة أمور عديدة (أنظر جزء ٥ ـ ٦ ـ ٥) ، بتكافؤ الكتلة والطاقة : أي طاقة = كتلة × (سرعة الضوء)^{٢} . هذه المعادلة الهامة تقول بأنه يمكن في بعض الظروف تحويل الكتلة الى طاقة والعكس بالعكس . لكن الشيء المهم في المعادلة ،

من الناحية العملية ، هو أن سرعة الضوء كبيرة جدا (٣×١٠^{٨} متر/ ثا) ، لذلك فإن تحويل حتى مقدار صغير من الكتلة يؤدي الى توليد طاقة كبيرة . ففي تفاعل الليثيوم المذكور أعلاه تتولد طاقة مقدارها $٠,٠١٨٦٢ \times ١,٦٥٩٨ \times ١٠^{-٢٧} \times (٣ \times ١٠^{٨})^{٢} = ٢,٨ \times ١٠^{-١٢}$ جول أو $١٧,٣ \times ١٠^{٦}$ أ.ف (الكترون فولط) . ولكن بأي شكل تظهر هذه الطاقة ؟ إنها تظهر على شكل طاقة حركية عالية للنواتج ، أي جسيمات (الفا) في هذه الحالة .

هذه الطاقة قد تبدو قليلة ، ولكن اذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكتلة العادية من المادة تحتوي على عدد كبير من النوى (حوالي $١٠^{٢٣}$) التي تشترك في العملية ، فإن ذلك يؤدي إلى انتاج كمية هائلة من الطاقة . فإذا استعملنا ار . كغ من الليثيوم أعلاه ، فاننا نستطيع توليد كمية من الطاقة تكفي لتشغيل محطة كهربائية قدرتها (١٠) ميغاواط أو أكثر ، لمدة يوم كامل . . (يمكن تحويل الطاقة الحركية الناتجة لجسيمات الفا الى طاقة حرارة بايقاف هذه الجسيمات بواسطة سائل ما .)

لكن الطريقة سالفة الذكر ليست وسيلة عملية لانتاج الطاقة ، ذلك أن عدد البروتونات التي تؤدي الى هذا التفاعل ضمن حزمة البروتونات الموجهة نحو عينة الليثيوم قليل ، وبذلك فإن الطاقة الناتجة قد تكون أقل من الطاقة المستهلكة في تكوين الحزمة .

لكن الصورة تغيرت كليا في عامي (١٩٣٨ - ١٩٣٩) . في تلك الفترة كان العالمان هاهن وستراسمان في ألمانيا يجريان تجارب على تصادم نوى اليورانيوم . هذه التجارب كانت في جزء منها امتدادا لتجارب مماثلة كان قد أجراها العالم الايطالي فيرمي وزملاؤه في ايطاليا حوالي عام ١٩٣٤ . وكانت تؤدي الى ظهور أشياء غريبة ، على ما يبدو ، حيث تظهر في نواتج التصادم عدة ذرات خفيفة (أقل من اليورانيوم) ، وبعضها كان مشعا ، أي يصدر إشعاعات بيتا . وعلى سبيل المثال كان بعض هذه الذرات الخفيفة باريوم - ١٤١ وكريبتون - ٩٢ وغيرها . وبعد جدل حاد حول الموضوع توضحت الصورة التالية : عندما يصطدم النيوترون بنواة اليورانيوم تتشكل نواة جديدة غير مستقرة . تهتز هذه االنواة بشكل حاد ثم تنقسم (تنشطر) الى زوج من النويات المتقاربة في الكتلة (باريوم وكريبتون ، مثلا) . بالاضافة الى هذه النويات ، تتولد بعض النيوترونات الجديدة نتيجة لهذا الانقسام (ثلاثة نيوترونات في التفاعل سالف الذكر) . عملية الانقسام هذه سميت بالانشطار النووي (nuclear fission) .

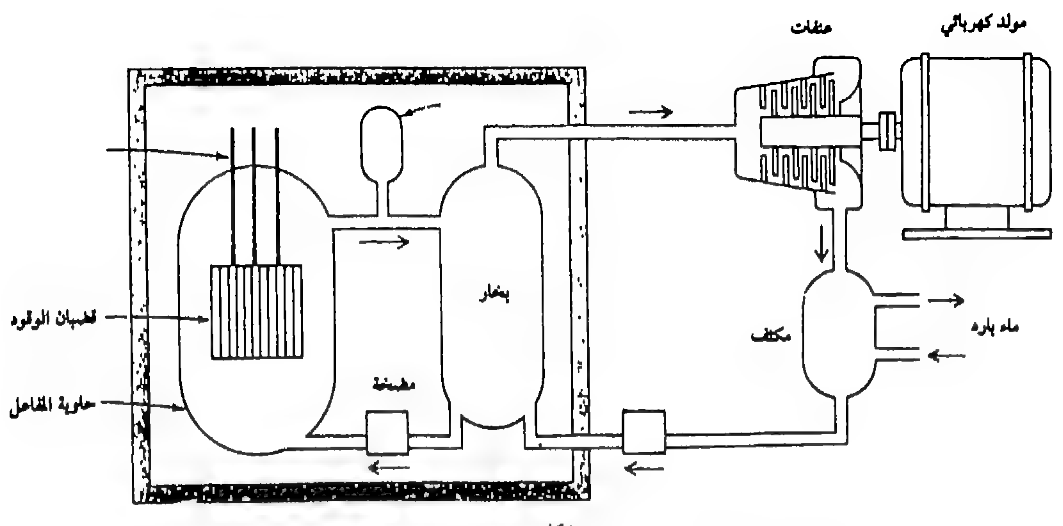
لكن الذي أثار الاهتمام في الموضوع لم يكن العملية نفسها ، إنما حقيقة تولد نيوترونات جديدة في العملية التي نتجت أصلا عن اصطدام نيوترون بذرة اليورانيوم . فكر الفيزيائيون بالطريقة التالية : النيوترونات الجديدة يمكن أن تصطدم بنوى أخرى من اليورانيوم ، مولدة نيترونات جديدة أخرى لتصطدم بنوى جديدة ، وهكذا . وهذا هو مبدأ التفاعل النووي التسلسلي (nuclear chain reaction) الذي يمكن بواسطته توليد كميات هائلة حقا من الطاقة ، إذ إن قدرا كبيرا من الطاقة ينتج في كل تفاعل ، ويمكن للتفاعل أن يستمر بنفسه بعد أن يبدأ .

وقد عمل فريقان علميان في الولايات المتحدة على استثمار هذه الفكرة لتوليد أجهزة نووية لأغراض خاصة . الفريق الأول كان يقوده العالم الايطالي « إنريكو فيرمي » (١٩٠١ - ١٩٥٤) .

نشأ فيرمي في إيطاليا ، وبعد أن حصل على شهادة الدكتوراة في بحوث الأشعة السينية درس في عدة جامعات إيطالية وقام بأبحاث في مجالات فيزيائية مختلفة . لكن في منتصف الثلاثينيات تخصص فيرمي وزملاؤه العديدون (الذين عرفوا باسم مدرسة روما) في تصادمات النيوترون مع النوى المختلفة . ولكونه حياديا ، فإن النيوترون له مقدرة قوية على التفاعل . اذ لا تعيقه قوى التنافر الكهربائي مع الشحنات الموجبة لنوى الذرات كما هو الحال مع جسيمات الفا أو البروتون مثلا وقد اكتشف فيرمي عددا كبيرا من النظائر النووية بواسطة طريقته الخاصة هذه . لقد أصبح « الفارس النيوتروني » في العالم .

وفي عام ١٩٣٨ حصل «فيرمي» على جائزة نوبل ، وهاجر إلى الولايات المتحدة هربا من إيطاليا التي كانت تعصف بها رياح الفاشية في ذلك الوقت . وفي وطنه الجديد صب فيرمي جهوده الكاملة ، خصوصا بعد معرفة نتائج هاهن وستراسيان على استخدام التفاعل التسلسلي لبناء مفاعل نووي . وقد نجح في ذلك فعلا في ٢ ديسمبر ١٩٤٥ ، حيث بنى المفاعل النووي الأول في التاريخ قرب ملعب رياضي بجانب جامعة شيكاغو (شكل ٢٣). لقد وصف آرثر كومبتون ، الفيزيائي الامريكي المعروف (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٣) هذا الحدث في برقية الى الحكومة الأمريكية كما يلي : وصل الملاح الايطالي الى العالم الجديد (هذا الوصف الرمزي كان بسبب دواعي الحرب العالمية التي كانت مستعرة في ذلك الوقت) .

أما الاستخدام الآخر للتفاعل التسلسلي فقد كان بناء القنبلة الذرية (النووية) ، لقد أنشأت الحكومة الأمريكية عندئذ مشروعا خاصا لهذا الغرض (مشروع مانهاتان) ، بعد وصول أخبار عن اعتزام ألمانيا النازية إنتاج هذا النوع من القنبلة ، معتمدة على تجارب هاهن وستراسيان . مشروع مانهاتن هذا أدى عندئذ الى إنشاء مركز علمي ـ



(شكل ٢٣)
توضيح لتصميم المفاعل النووي . الطاقة الناتجة في قلب المفاعل تسخن تياراً مائياً يؤدي الى توليد بخار ساخن يؤدي الى تشغيل عنفات لتوليد الطاقة الكهربائية

عسكري ، وهو (مركز لوس آلاموس) في ولاية نيوميكسيكو الصحراوية في جنوب غرب الولايات المتحدة ، وقد احتشد في هذا المركز أضخم عدد من العلماء النوويين البارزين برئاسة الفيزيائي الامريكي الشهير روبرت اوبنهايمر . وقد تمخضت هذه الجهود عن إنتاج هذه القنبلة وتفجيرها للمرة الأولى في صحراء نيوميكسيكو في ١٦ يوليو ١٩٤٥ . ودخلت الأسلحة النووية التاريخ .

٥ ـ ٥ ـ ٧ : الاندماج النووي ـ الطاقة الشمسية ـ القنبلة الهيدروجينية

الطريقة الأخرى لانتاج الطاقة من التفاعلات النووية هي في استخدام عملية (الاندماج النووي) (nuclear fusion) . في هذه العملية ، تندمج عدة نوى خفيفة (بروتونات ، مثلا) لتكوين نواة كبيرة . والنقص في الكتلة في هذا التفاعل يتحول الى طاقة مفيدة . هذه العملية تحدث بغزارة ، على ما يعتقد ، في المنطقية المركزية من الشمس ، تحت درجة الحرارة والضغط المرتفعين جدا ، ويؤدي إلى إنتاج الطاقة الشمسية الهائلة التي نشاهدها . (حوالي ٣,٨ × ١٠^٢٦ جول/ثا) .

إن عملية إنتاج الطاقة الشمسية هذه كانت لغزا علميا محيرا منذ منتصف القرن التاسع عشر . منذ ذلك الوقت ، تأكد الفيزيائيون بأنه لا يمكن إنتاج هذه الكمية الهائلة من الطاقة لهذه الفترة الطويلة جيولوجيا (حوالي ٥ مليار سنة) بأية طريقة عادية تقليدية . إن الأمر يحتاج إلى عملية من نوع جديد ، لم تكن معروفة آنذاك .

ولكن في جو النشاط النووي في منتصف الثلاثينيات توصل عدد من الفيزيائيين في الولايات المتحدة (بيت ، غامو وغيرهما) الى أن عملية الاندماج النووي هي المسؤولة عن توليد الطاقة في الشمس والنجوم الأخرى . التفاعل النووي الرئيسي هو : بروتونات ← جسيم (الفا) . في هذا التفاعل الذي يحصل على مراحل تنقص الكتلة بمقدار ٠,٠٢٦٦ وحدة ذرية (أي ٠,٠٤٤١٥ × ١٠^-٢٧ كغ عند توليد كل جسيم الفا واحدة .

وهذا يساوي ، حسب معادلة آينشتاين سالفة الذكر ، (٢٥) مليون الكترون فولط . هذه الطاقة تظهر على شكل أشعة غاما تنطلق من التفاعل وأيضا على شكل طاقة حركية لجسيمات ألفا الناتجة في التفاعل . نتيجة لهذا الاندماج النووي ، فإن كتلة الشمس في تناقص مستمر لتوليد الطاقة الشمسية ، فهي تتناقص بمعدل (٤,٢) مليون طن في الثانية أي ما يعادل ١٪ من كتلتها في فترة مليار سنة !

حتى الآن لم يبن أي مفاعل نووي من النوع الاندماجي ، رغم المحاولات والأبحاث العديدة الجارية في هذا الاتجاه في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . المشاكل الرئيسية التي أعاقت نجاح هذه التجارب هي أن الأمر يتطلب درجات عالية من الحرارة وحوالي (٢٠ مليون درجة) والضغط (٢ × ١٠^٩ ضغط جوي) والكثافة (٢٠٠غ /سم^٣) ، اي مائتا ضعف كثافة الماء . وهي الظروف الموجودة في مركز الشمس تقريبا . ومن الواضح أن توفر هذه الظروف ليس بالأمر السهل ولكن عندما تحل هذه المشاكل ، كما يتوقع كثير من الفيزيائيين المتفائلين ، فان

كميات هائلة من الطاقة السليمة والآمنة ستكون متوفرة للانسان باسعار رخيصة ولملايين السنين . البعض يتوقع أن يحدث ذلك قبل منتصف القرن القادم .

وعلى كل حال ففي عام ١٩٥٢ تم بناء أداة تعمل على مبدأ الاندماج النووي وهي القنبلة الهيدروجينية الأمريكية . في هذه القنبلة يتم التفاعل الاندماجي (مثلا) : ٢ ديوتيرون ⟵ هيليوم ـــ ٣ + بروتون ، مولدا كمية (٤,٠) × ١٠ ٦ إ . ف في التفاعل . ويتم الحصول على الحرارة والضغط العاليين في هذه الأداة بواسطة تفجير قنبلة انشطارية ، تضغط المواد الاشعاعية في قلب القنبلة .

٥ ـ ٥ ـ ٨ : القوة النووية :

والآن لابد من الالتفات الى موضوع هام وهو موضوع القوة النووية (nuclear Force) . لقد قلنا إن النواة تتألف فقط من البروتونات ويدعى كل من هذين الجسيمين نيوكليون (nucleon) أي نوية (نواة صغيرة) . وهكذا فالنواة تتألف من عدد ما من النيوكليونات . ولابد أن النيوكليونات تتجاذب مع بعضها لتكوين نواة مترابطة ومستقرة ، كما هو الحال في كثير من النوى . هذه القوة هي نوع جديد من القوى ، غير القوة الكهربائية بين الشحنات أو القوة الثقالية بين الكتل . الى جانب ذلك يجب ان تكون القوة الجديدة قوية وشديدة جدا لدرجة تكفي للتغلب على التنافر الكهربائي الذي يحدث بين البروتونات الموجودة داخل النواة ، في نفس الوقت يجب أن يكون نموذجنا عن القوى النووية قادراً على تفسير ظاهرة الاشعاع النووي التي نشاهدها كثيرا ، خصوصا في النوى الثقيلة ، وهو ما أدى الى اكتشاف النواة في المقام الأول .

يمكن أن نتخيل القوة النووية كما يلي : لنتخيل بروتونا ونيوترونا وبينهما مسافة ما . ليس هناك قوى بينهما لأن النيوترون حيادي (القوة الكهربائية منعدمة) ، ولأن القوة الثقالية صغيرة جدا لدرجة الإهمال . إذا اقترب النيوترون تبقى القوة منعدمة إلى أن يصبح النيوترون على مسافة صغيرة جدا من البروتون (حوالي ١٠سم) عندئذ تظهر فجأة قوة تجاذب شديدة تربط هذين الجسمين في «جزيء» نووي يدعى الديوتيرون (deuteron) . وهو جسيم مستقر ، يمكن أن يبقى مترابطا لفترة طويلة جدا بدون أي تحلل أو انحلال . وببساطة فإن البروتون والنيوترون يدوران حول بعضهما ، كما تفعل ذرات الهيدروجين في جزيء الهيدروجين العادية . وطاقة الربط للديوتيرون ، أي الطاقة اللازمة لفصل البروتون والنيوترون عن بعضهما ، تبلغ (٢,٢) مليون أ . ف . وهي طاقة كبيرة على مستوى الجسيمات الدقيقة . هكذا نستنتج أن القوة النووية قوة شديدة ولكنها قصيرة المدى (short range) حقا ، فهي لا تلعب دوراً إلا عند المسافات القصيرة .

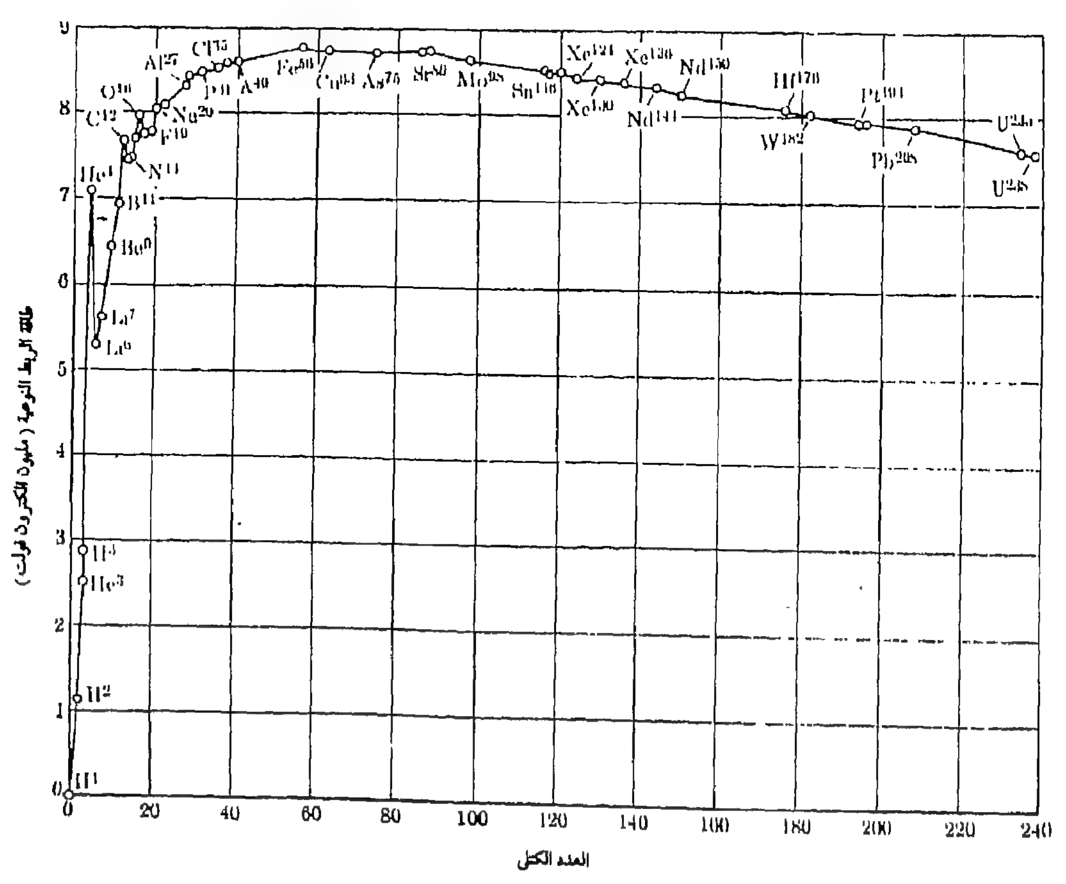
هذه القوة التجاذبية النووية الثنائية نفسها موجودة أيضا بين نيوترون ونيوترون آخر وبين بروتون وبروتون آخر . لكن في الحالة الاخيرة (حالة البروتونين) توجد أيضا قوة إضافية أخرى وهي قوة التنافر الكهربائية بسبب وجود الشحنة الموجبة على الجسيمين . إن فرضية وجود نفس القوة النووية الثنائية بين أي زوج من النيوكليونات تبسّط معالجة القوى النووية في النوى الكبيرة وهي فرضية مبنية على عدد من الحقائق ، لا مجال لذكرها هنا .

٥ ـ ٥ ـ ٩ : طاقة الربط النووية :

والآن نستطيع أن نفهم ترابط النواة بالشكل التالي . في النواة يوجد عدد ما من النيوكليونات التي تتجاذب مع بعضها بعضا عبر القوة النووية الثنائية . في نفس الوقت تتنافر البروتونات مع بعضها ، لكن القوة النووية تتغلب ، وتبقى النواة مستقرة .

وفي مجال استقرار النواة هناك وسيط (parameter) هام جدا يسمى طاقة الربط (binding energy) . هذه الطاقة تعرف بانها الطاقة اللازمة لتفكيك النواة الى نيوكليونات منفصلة . ويمكن حساب هذه الطاقة من الفرق بين كتلة النواة المقيسة وبين مجموع كتلات النيوكليونات الداخلة في تركيب النواة . هذا الفرق في الكتلة ، يدعى نقص الكتلة (mass defect) ، ويعكس فرق الطاقة بين حالة التحرر وحالة الترابط للنواة ، وهي بالضبط طاقة الربط .

وهناك منحنى معروف جدا في الفيزياء النووية ويدعى «منحنى طاقة الربط ـ Binding energy curve» . في هذا المنحنى ترسم متوسط طاقة الربط للنيوكليون الواحد مقابل العدد الكتلي عمك كما في (شكل ٢٤) (متوسط طاقة الربط للنيوكليون هو طاقة الربط الكلية للنواة مقسومة على عدد النيوكليونات في النواة) .



(شكل ٢٤)

منحنى طاقة الترابط النووية . طاقة الترابط النوعية تبلغ ذروتها عند عنصر الحديد .

طاقة الربط (النوعية) هذه هي مؤشر على مدى استقرار هذه النواة ، فكلما كانت هذه كبيرة كانت النواة اكثر استقراراً . نلاحظ من الشكل أن النوى الاكثر استقرارا تقع في المجال الكتلي عك = ٥٠ - ٩٠ ، وهي تضم المعادن المألوفة مثل النحاس (٦٤) والحديد (٥٦) ، إن طاقة الربط النوعية هنا هي حوالي (٨,٧٥ × ١٠) إ . ف للنيوكليون . وبالمقارنة فإن هذا الرقم لنواة اليورانيوم (٩٢) (هو ٧,٦١ × ١٠^٦) إ . ف وللديوتيرون هو (١,١٢ × ١٠^٦) أ . ف

ولهذا المنحنى مغزى هام جدا . فهو يعني بان النوى الثقيلة ، حيث(عك) اكثر من ٩٠ ، تميل نحو الانشطار في الظروف المناسبة ، لتتحول بذلك الى نوى معتدلة مستقرة . وللنوى الخفيفة ، حيث (عك) أقل من (٥٠) ، ميل للاندماج لتتحول هي أيضا الى نوى معتدلة مستقرة . هذا المنحنى يحمل في طياته كلا من مفهومي الانشطار النووي والاندماج النووي اللذين سبق أن عالجناهما .

كما يلاحظ من الشكل أن العدد عك = ٤ له استقرار خاص ، كبير في مجاله . وهذا أمر متوقع لأن هذا العدد يمثل بالفعل جسيم اشعاعات (ألفا) . والدليل على استقرار الجسيم الخاص هو أنه يخرج كجسيم واحد (رغم أنه جسيم مركب) ، بدلا من أربعة نيوكليونات .

٥ - ٦ : النظرية النسبية الخاصة .

٥ - ٦ - ١ تجربة (مايكسون ومورلي) وسرعة الضوء

نأتي الآن في عرضنا إلى النظرية النسبية (— Theory of relativity) . يجب أن نعود اعى الوراء بعض الوقت ، وبالخصوص الى بداية هذا القرن . في ذلك الوقت ، وكانت هناك مشكلة مبدئية كبيرة تتعلق بالنظرية الكهرطيسية عموما ، وبالامواج الكهرطيسية على وجه الخصوص . فالأمواج ، حسب مفهومنا لها تحتاج الى وسط فيزيائي تتحرك فيه (مثل الأمواج الصوتية التي تتحرك في غاز الهواء) . هذا الوسط المفترض ، للأمواج الكهرطيسية ، سمى الاثير (ether) وعرف بانه مادة كونية ، مستقرة (غير متحركة) تملأ كل الكون ، وتستطيع أن تنقل الأمواج الكهرطيسية .

لكن هذا الوسط غريب حقا ، إذ لا يمكن مشاهدته مباشرة بأية طريقة ، بينما تستطيع أن تتحرك الجسيمات فيه بكل سهولة ، حيث لا تعاني من أي احتكاك . وفوق ذلك كله ، فإن معادلات ماكسويل (أساس النظرية الكهرطيسية) لا تظهر أي أثر لهذا الوسط الغريب .

وفي عام ١٨٨٧ قام الفيزيائي الأمريكي «ألبرت مايكلسون» (١٨٥٢ ـ ١٩٣١) باجراء تجربة هامة وحاسمة وذلك للاجابة على السؤال التالي : اذا استقبلنا الضوء باستعمال كاشف متحرك في الأثير ، فما هي سرعة الضوء بالنسبة لهذا الكاشف المتحرك ؟ لقد قام مايكلسون ومساعده مورلي بتصميم جهاز حساس ودقيق ومبتكر لقياس السرعة النسبية للضوء القادم من الشمس بالنسبة للأرض التي تدور حول الشمس . الضوء هنا يأتي من الشمس

الثابتة في الأثير المستقر ، ويستقبله راصد مثبت على جسم متحرك ، هو الأرض (سرعة الأرض يمكن قياسها بواسطة مفعول دوبلر ـ أنظر جزء ٤ ـ ٢ ـ ٣) .

الجهاز يعرف الآن باسم : مقياس مايكلسون التداخلي . لقد كان مايكلسون ومعظم الفيزيائيين الآخرين يتوقعون عندئذ أن تختلف السرعة التي سيسجلها الجهاز عن سرعة الضوء في الأثير (سر = ٣ × ١٠ ^٨ م/ثا) ، بسبب حركة الأرض (ما يعرف باسم السرعة النسبية) . لكن لدهشته (وخيبة أمله) ، وجد أن السرعة المسجلة هي تماما نفس السرعة في الإثير . كان الشعور العام أن النتيجة كانت سلبية ، (فاشلة) الى حد ما ، رغم الجهود الكبيرة التي بذلت في تنفيذها . ولكن هذه النظرة إلى التجربة تغيرت كثيرا ، عندما بيّن آينشتاين بأن نتيجة مايكلسون السلبية صحيحة وتنطوي على مغزى في غاية الأهمية .

ولد مايكلسون في ألمانيا ، ثم هاجر أمريكا خلال طفولته . درس في الأكاديمية البحرية الأمريكية ثم في جامعات برلين ، هايدلبرغ ، وباريس . قام بالتدريس بعد ذلك في بعض الجامعات الأمريكية ، ثم أخيرا في جامعة (شيكاغو) لفترة تقترب من أربعين عاما . وقد قضى مايكلسون معظم حياته العلمية في مجال قياس سرعة الضوء بدقة كبيرة . وحصل على جائزة نوبل ١٩٠٧ من أجل أجهزته البصرية الدقيقة والبحوث الطيفية والقياساتية التي أجراها بواسطتها . لقد وصفه آينشتاين بالفنان في العلوم وقال عنه أيضا : «متعته الكبيرة تأتي من جمال التجربة ذاتها ، ومن أناقة الطريقة المستخدمة فيها» . وقالت عنه لجنة نوبل عند تسليمه الجائزة : «إنه الرجل الذي علّم العالم طريقة القياس» .

٥ ـ ٦ ـ ٢ ـ فرضيات النظرية النسبية

هذا الارتباك العام حول سرعة الضوء والأثير والمفاهيم المتعلقة بهما انتهى فجأة في عام (١٩٠٥) عندما نشر عالم العصر العظيم الألماني المولد «ألبرت آينشتاين» (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) نظريته الشهيرة المعروفة باسم . «نظرية النسبية» كان عنوان النشرة العلمية «عن الديناميك الكهربائي للأجسام المتحركة» ، درس آينشتاين في سويسرا وحصل على الدكتوراة في المعهد التكنولوجي السويسري في زوريخ في عام ١٩٠٦ . وفي (١٩٠٢ ـ ١٩٠٩) عمل كفاحص في مجال براءات الإختراع في دائرة البريد السويسرية . وفي عام ١٩١٣ ، بعد بروزه في علم الفيزياء عُيّن أستاذاً للفيزياء النظرية في معهد القيصر ولنيهيلم في برلين ، حيث حصل في عام ١٩٢١ على جائزة نوبل (عن عمله في التأثير الكهروضوئي (انظر جزء ٥ ـ ١ ـ ٣) . وفي عام ١٩٣٢ هاجر الى معهد الدراسات العالية في برنستون في الولايات المتحدة ، حيث عمل بقية حياته في ظروف هادئة وشبه انعزالية .

النظرية التي قدمها آينشتاين في نشرته تعتمد على الفرضيتين التاليتين :

١ ـ إن القوانين الفيزيائية تحتفظ بصيغة ثابتة (invariant) في جميع الإطارات المرجعية (frames of references) القصورية (inertial) أي التي تختلف عن بعضها بسرعات ثابتة .

٢ ـ إن سرعة الضوء في الفراغ لها قيمة ثابتة (ومطلقة) بالنسبة لجميع الراصدين (observers) كما أن سرعة الضوء لا تعتمد على حركة أو سرعة المصدر الذي يبعث هذا الضوء .

هاتان الفرضيتان قد تبدوان مقبولتين لأول وهلة ، بدون إثارة جوانب جدلية كثيرة ، لكنهما تحملان في طياتها معاني عميقة ومفاهيم جدلية كثيرة عند التحليل والتعمق في التفاصيل . فالفرضية الأولى قضت بشكل نهائي على مفهوم الإطار الاساسي (الأثير) . إن كل الإطارات القصورية متساوية في وضعها الفيزيائي . فالإطار الذي يستعمله راصد في المختبر مثلاً (الأطار الثابت بالنسبة لنا) يتساوى تماما مع الإطار الذي يستعمله راصد آخر موجود على قطار متحرك بسرعة ثابتة نسبة إلى المختبر . إن قوانين الفيزياء لا تميز بين الإطارين بتاتا . وبمعنى آخر ، لو كان القطار بدون نوافذ يستطيع أن ينظر منها الراصد ، وأجرى هذا تجارب فيزيائية داخل قطاره ، لما استطاع أن يعرف أن القطار (إطاره) يتحرك أم لا . إذن يستلخص آينشتاين ، ان الحركة المطلقة ليس لها معنى في الفيزياء ، كما أن الإطار المطلق الثابت ليس له معنى بتاتا . ليس هناك أثير (الوسط المطلق) . ثم إن الأمواج الكهرطيسية تنطلق في الفراغ وليس هناك حاجة لوجود أثير ينقلها . هذا التفسير كان متفقا تماما مع روح معادلات ماكسويل وأمواجها الكهرطيسية .

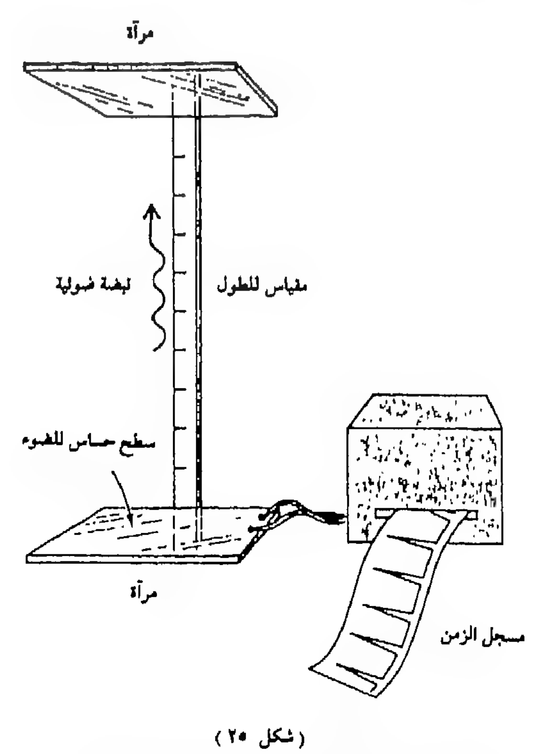
أما الفرضية الثانية وهي ثبات سرعة الضوء فهي غريبة حقا ، لانها تتعارض مع مفاهيم الميكانيك حول انتشار الأمواج في الأواسط الميكانيكية ، مثل الصوت في الهواء ، ففي هذه الأواسط ، تعتمد سرعة الموجة على حركة المصدر وعلى حركة الراصد ايضا بشكل معروف يمكن اشتقاقه من قوانين (نيوتن) الميكانيكية . فرضية آينشتاين الثانية تقول بأن هذا لا ينطبق على الأمواج الكهرطيسية (الضوئية) وانتشارها في الفراغ . والسبب وراء الفرضية هو تجربة مايكلسون ـ مورلي التي أظهرت ثبات سرعة الضوء . والسبب الأهم من ذلك ، بالنسبة لآينشتاين ، وهو أن معادلات ماكسويل توحي بشدة على ثبات سرعة الضوء والأمواج الكهرطيسية في جميع الإطارات .

الخلاصة ، فإن فرضيتي آينشتاين قد حققتا الأمور التالية : إزالة مفهوم الأثير المحيِّر ، تفسير نتيجة تجربة (مايكلسون ـ مورلي) السلبية عن سرعة الضوء ، تدعيم مركز معادلات ماكسويل الكهرطيسية على أنها معادلات أساسية . هذه أمور كانت تشغل بال الفيزيائيين في تلك الفترة .

٥ ـ ٦ ـ ٣ ـ تمدد الزمن

لكن الثمن الذي دفع مقابل ذلك كان تغييرا جذريا في بعض المفاهيم الفيزيائية الأساسية جدا مثل مفهوم الزمن المطلق ، والطول المطلق ، وحفظ الكتلة وغيرها . لنلتفت الآن الى بعض من هذه التطورات . لنأخذ أولا قضية الزمن والقياس الزمني . إن قياس الزمن بطريقة مقنعة بواسطة فيزيائية يمكن أن يتم بالطريقة المبينة في شكل (٢٥) : الراصد (ب) لديه مرآتان متوازيتان على بعد (ط ل) من بعضهما ، ولديه مصدر للضوء . يرسل الراصد إشارة ضوئية عمودية على المرآتين ، تنعكس الإشارة على المرآة العليا ، تتجه نحو المرآة الدنيا وتنعكس منها نحو

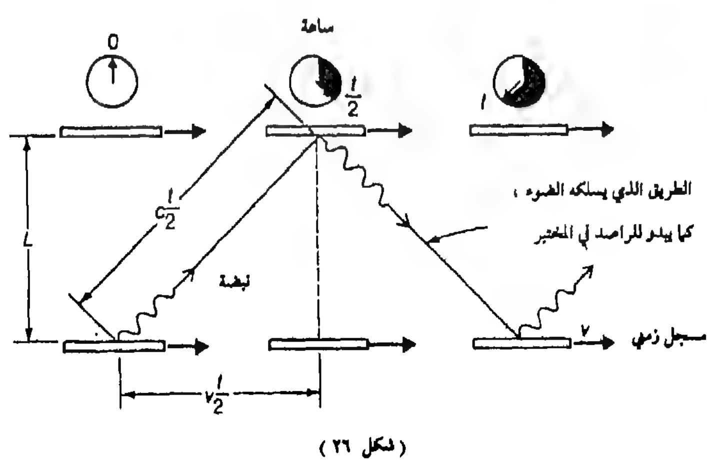
العليا ، وهكذا . . . . الراصد (ب) تسجل ساعته وحدة زمنية في كل مرة تنعكس الإشارة من المرآة الدنيا . أما الزمن الذي تستغرقه الإشارة بين الإرتطامين فهو المسافة الكلية المقطوعة (٢ طل) مقسوما على سرعة الإشارة (سض) ، أي ز. = ٢ طل/ سض . هذه هي الفترة الزمنية التي تسجلها ساعة الراصد بين الحادثين (events) أي انعكاسين متوالين للاشارة الضوئية عن المرآة الدنيا .



(شكل ٢٥)
جهاز مبسط لقياس الزمن من قبل راصد ثابت بالنسبة للجهاز .

لننظر الآن الى هذه التجربة البسيطة من إطار مرجعي آخر . لنفرض أن الراصد (ر) كان في الواقع يجري تجربته في قطار متحرك سرعته (س) وهو يحتوي على كل الأجهزة التي يحتاج اليها : المرايا ، الساعات ، مقاييس الأطوال ، وغيرها . في إطاره ، سيجد هذا الراصد نفس النتائج التي ذكرناها سالفا . ولو افترضنا الآن أن راصدا آخر (راصد ر) موجود في مختبر يقع بجانب سكة القطار ، وأن هذا الراصد يستطيع مشاهدة التجربة التي يجريها راصد القطار . لنفرض الآن أن الراصد (ر) أثاره الفضول وأراد أن يقيس الفترة الزمنية بين الارتطامين ، وهي الفترة التي كان يقيسها (ر.) . فماذا سيجد (ر) ؟ بداية ، يجب أن يكون واضحا بأن التجربة بالنسبة الى (ر) ستظهر كما هو مبين في (شكل ٢٦) . خلال الفترة التي يذهب فيها الضوء من المرآة (م١) ، تكون المرآة (م٢) قد تحركت (المرايا موجودة في القطار) ، هكذا يقطع الضوء خطا مستقيما كما هو مبين في يسار شكل (ب) . وحين العودة من (م٢) إلى (م١) تكون (م١) قد تحركت مرة أخرى ، فيأخذ الضوء خطا مستقيما مائلا ، كما هو مبين الى يمين الشكل ب . يحسب الراصد (ر) الفترة الزمنية المنقضية كالتالي : ز= مسافة / سض . فالمسافة هي مجموع الضلعين

(الرحلة الكاملة) ، أما سض فهي نفس السرعة التي استعملها الراصد ر في إطاره حسب آينشتاين . عندما يتم الحساب بواسطة استعمال بعض العلاقات الهندسية البسيطة ، يحصل المرء على النتيجة التالية : ز = ز. $/\sqrt{1 - (\text{س}/\text{ض})^2}$. هكذا نحصل على النتيجة المدهشة جدا ، أي أن (ز) لا تساوي (ز.) وأن الزمن هو نسبي يعتمد على الراصد الذي يقيسه وبالذات (ز) هي أكبر من (ز.) . تسمى هذه الظاهرة ب (تمدد الزمن = Time dilation) أي أن الراصد (ر) يجد الفترة الزمنية بين الحادثين (الارتطامين المتتالين) أكثر طولا . ويقال أيضا بأن الساعة للراصد (ر.) تجري بصورة أسرع من ساعة الراصد (ر.) .



(شكل ٢٦)
التجربة السابقة (تجري في قطار متحرك) ، كما تبدو لراصد ثابت .

قبل آينشتاين ، ومنذ زمن نيوتن ، كان الفيزيائيون يعتقدون بوجود زمن كوني مطلق (absolute time) يمر بمعدل ثابت ويغطي جميع أنحاء الكون . وعلى وجه الخصوص ، فإن الفترة الزمنية بين أي حادثين هي مقدار ثابت ، مثلا ٤ ثانية بغض النظر عن الراصد الذي يجري القياس . أما آينشتاين فقد قال بانه ليس هناك زمن مطلق بتاتا ، وأن الفترة الزمنية بين حادثين تعتمد على الراصد الذي يجري القياس . هذه النتيجة الغريبة هي نتيجة نابعة منطقيا من ثبات سرعة الضوء .

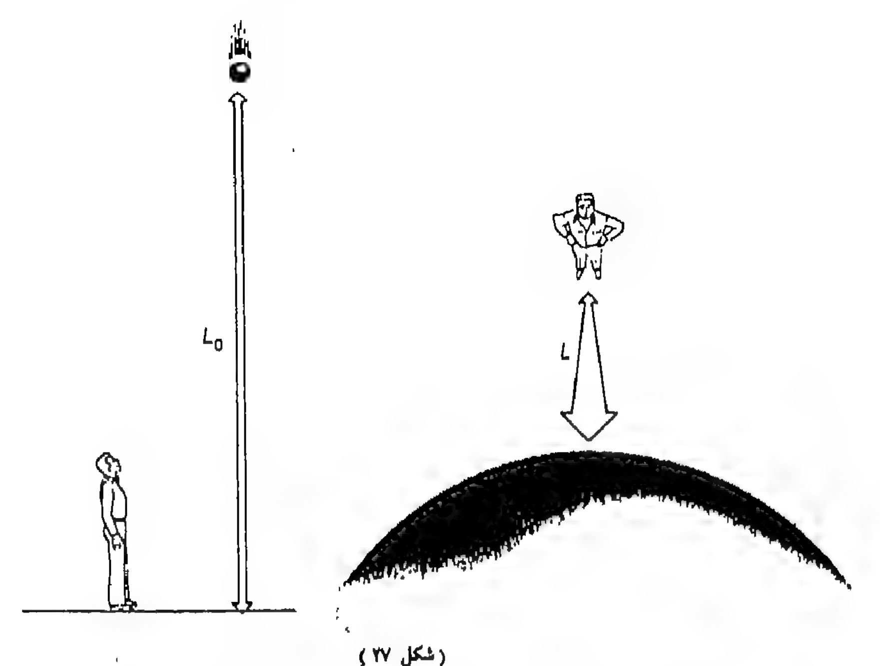
وإذا تساءلنا أي الرقمين صحيح ، (ز) أو (ز.) فالجواب هو أن كليهما صحيح ، بالنسبة لإطاره . لكن الزمن (ز) أصلح نوعا ما لأنه ، في إطار هذا الراصد (القطار) ، تبقى المرآة م المستعملة في القياس ثابتة في مكانها خلال القياس . وبقول آخر ، فإن الساعة الواقعة بجانب (م٢) هي ذاتها التي استعملت لقراءة بداية الفترة الزمنية ونهايتها . هذا الراصد يدعى بالراصد المناسب (proper observer) والفترة الزمنية (ز) التي يقيسها تدعى (الزمن المناسب ـ proper time) . بالمقارنة ، فإن (الراصد ر) ليس (مناسبا) لأن المرآة الحرجة (م٢) تتحرك بالنسبة له ، وعليه في الواقع أن يقرأ بداية الفترة ونهايتها على ساعتين مختلفتين .

إن إختيار ظاهرة التمدد الزمني بشكل مباشر هو أمر صعب ، لأن (ز) و (ز.) متقاربان جدا ، إلا عندما تكون السرعة (س) قريبة جدا من سرعة الضوء نفسها (3×10^8م/ثا) ، وهو أمر صعب التحقيق . ففي معظم الظروف

الواقعية تكون (سر) أصغر من ذلك بكثير . لكن الاختبار قد تم فعلا بالطريقة التالية : نتيجة لتصادم الاشعة الكونية مع نوى الغازات في طبقات الجو العليا ، يتولد جسيم موجب الشحنة يدعى (الميزون ميو ـ u + meson) تبلغ كتلته (٢٠٧) ضعفا من كتلة الالكترون ، وليس مستقرا ، بل يتفكك أو يتحلل الى بوزيترون خلال فترة زمنية متوسطها هو ٢×١٠^-٦ ثا تقريبا . هذا هو العمر الوسطي ، من الولادة الى الانحلال لهذا الميزون . لكن هذا هو العمر الوسطي (ز.) المناسب (في الاطار المناسب) ، أي الإطار الذي يسير مع الميزون . هذا الميزون يسقط على الأرض بسرعة عالية جدا . تقارب (٢,٩٩٤ × ١٠^٨ م/ ثانية) ، أي حوالي ٠,٩٩٨ × سض ، إن عمر هذا الميزون بالنسبة للراصد المخبري على الأرض هو ز = ز. /√١ - (٠,٩٩٨)٢ = ٣٢ × ١٠^-٦ ثا = ١٦ز . في هذا الإطار الارضي يكون عمر الميزون (١٦) ضعفا من عمره الذاتي (المناسب) . هذه النتيجة كانت متفقة تماما مع التجارب العديدة التي أجريت حول هذا الموضوع (وتتعلق بالمسافة التي يقطعها الميزون بين ولادته واندثاره) .

٥ - ٦ - ٤ : تقلص الطول

نأتي الآن الى مفهوم آخر أثار كثيرا من الجدل في حينه ، ألا وهو نسبية الطول . لو اعتبرنا قضيبا ما ذو طول معين (طل) فإن الاعتقاد السائد قبل آينشتاين كان يقول بأن هذا الطول هو مقدار ثابت ، لا يعتمد على الراصد الذي يقيسه . لكننا سنرى الآن أن هذا غير صحيح في نسبية آينشتاين . الطول هو نسبي أيضا . نستطيع أن نرى ذلك من قصة الميزون (ميو) سالف الذكر . لنتابع رحلة الميزون منذ ولادته الى نهايته (شكل ٢٧) . بالنسبة للراصد (ر) على الأرض ، فان الميزون يسير بسرعة (سر) نحو الاسفل ويقطع مسافة محددة وهي : طل = طل = سر × ز ،



(شكل ٢٧)

توضيح تقلص الطول النسبي . الطول الثابت (على اليسار) ويبدو متقلصاً ، بالنسبة للراصد المتحرك (اليمين) .

حيث (ز) هو الزمث الارضي بين الولادة والنهاية . أما بالنسبة للراصد الميزوني ، فإن الميزون نفسه ثابت لا يتحرك والأرض هي التي تسير بسرعة (سر) نحو الأعلى . الطول طل الذي قطعه الراصد (ر) كما يراه الراصد (ر١) هو طل = سر × ز.) من العلاقتين حول (طل١) و (طل) والعلاقة بين (ر) و (ر.) المذكورة سابقا نستنتج العلاقة التالية : طل = طل$\sqrt{١ - (\text{سر} / \text{سض})^{٢}}$. هكذا فإن الطول ليس ثابتا ، وانما يعتمد على الراصد وسرعته . في هذه الحالة ، الطول المناسب proper length) . هو طل ، لان الطول المشار إليه لا يتحرك بالنسبة للاطار الأرضي . أما الطول (طل١) ، فهو غير مناسب ، لأن الطول أو القضيب متحرك بالنسبة لهذا الراصد . نرى من المعادلة أن (طل١) أصغر من (طل) مما يسمى بظاهرة (تقلص الطول Length Cantraction . وهكذا فإن قضيبا متحركا بسرعة عالية ، يبدو متقلصا جدا بالنسبة لراصد ثابت . إن ظاهرة التقليص الطولي لم تختبر مباشرة بعد ، وذلك لصعوبة إجراء التجربة تحت ظروف السرعة العالية .

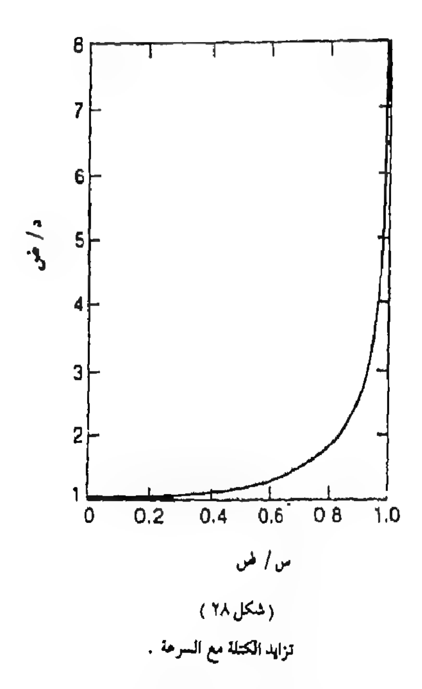
٥ ـ ٦ ـ ٥ ـ تكافؤ الكتلة والطاقة

هنالك نتائج واستخلاصات نسبية عديدة أخرى يمكن التوصل اليها إذا تابعنا هذا الخط التحليلي . مثلا ، فرضية آينشتاين الأولى تقول بأن قوانين الفيزياء يجب أن تبقى صحيحة في جميع الإطارات القصورية (ذات السرعة المنتظمة) ومن أهم هذه القوانين قانون حفظ الإندفاع وقانون حفظ الطاقة . إذا اعتبرنا الآن تجربة تصادم بين كتلتين ، فإننا نجد أن هذين القانونين لا يتحققان إلا إذا افترضنا أن الكتلة والطاقة (لجسيم ما) يعتمدان على السرعة بالشكل التالي :

الكتلة : ك = ك. / $\sqrt{١ \; (\frac{\text{سر}}{\text{س ض}})^{٢}}$

الطاقة : طا = ك. سر^{٢} = ك. سر^{٢} ص / $\sqrt{١ - (\frac{\text{سر}}{\text{س ض}})^{٢}}$

بالنسبة للكتلة فإن ك. تمثل كتلة السكون (rest mass) للجسيم وك تمثل كتلة الجسيم المتحرك بالسرعة (سر) . نرى من العلاقة أن الكتلة تتزايد مع تزايد (سر) هذه نتيجة غريبة حقا ، إذ أن الاعتقاد السائد منذ نيوتن حتى آينشتاين كان يقول بأن الكتلة لجسم أو جسيم هي كمية ثابتة مختصة بالجسيم ، وتمثل كمية المادة الموجودة في الجسيم . الآن نرى أن هذا غير صحيح ، وأنها تعتمد على حركة هذا الجسيم أيضاً . الكتلة هي نسبية أيضا هذه العلاقة بين الكتلة والسرعة ثم اختبارها بشكل دقيق ، كما هو مبين في الشكل (٢٨) . أما علاقة الطاقة فهي اكثر غرابة . قبل آينشتاين ، كان معروفا أن الجزء من الطاقة الذي يعتمد على حركة الجسيم هو الطاقة الحركية ، حيث طاحر = $\frac{١}{٢}$ ك. × سر٢ . أما العلاقة بين الطاقة والسرعة في النظرية النسبية فقد اصبحت أكثر تعقيدا . وبصورة خاصة نرى أن الجسم الساكن (سر = ٠) يحتوى على طاقة مقدارها طا. = ك. (سض)٢ . وتدعى هذه بالطاقة الساكنة (rest energy) ، وتعني أن هناك تكافؤاً بين الكتلة والطاقة ، حيث يمكن تحويل الواحد الى الآخر . هذه الطاقة كبيرة جدا جدا ، وذلك بسبب سرعة الضوء العالية . فالطاقة الساكنة الموجودة في كيلوغرام واحد تساوي = ١ × (١٠^{٨}) = ١٠^{١٦} جول ، وهي طاقة كافية لتشغيل محطة بقدرة (١٠) ميغاواوت لفترة ثلاثين سنة تقريبا .



(شكل ٢٨)

تزايد الكتلة مع السرعة .

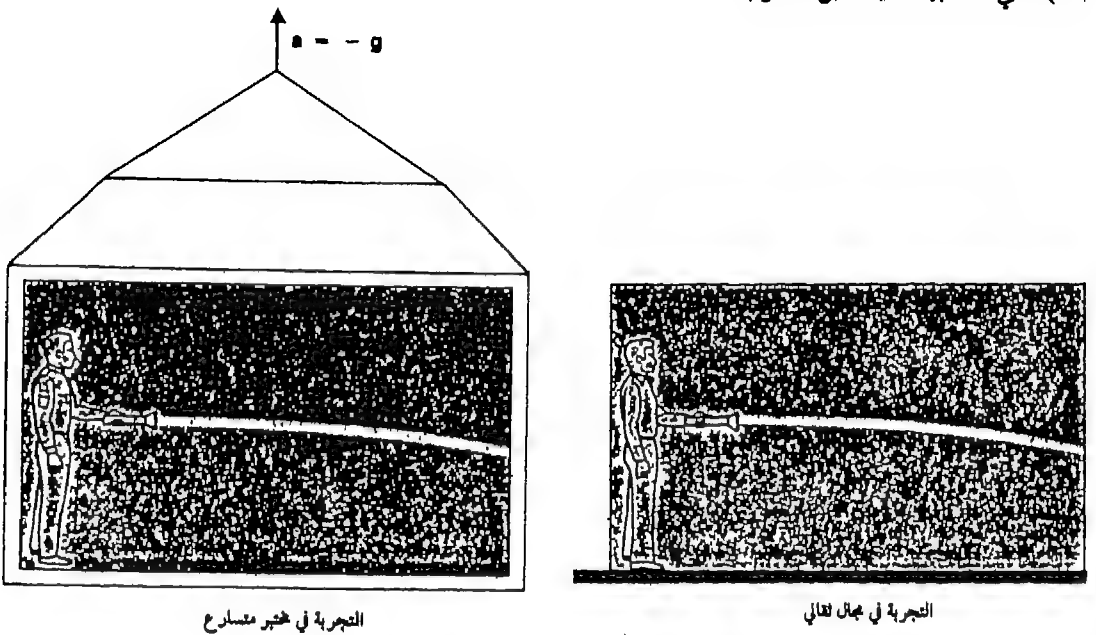
وقد ثبتت صحة هذه العلاقة عن التكافؤ بين الكتلة والطاقة في مجال التفاعلات النووية بما فيها عمليات الانشطار النووية والاندماج النووي ، كما رأينا سابقا (أنظر جزء ٥ ـ ٥ ـ ٦ وجزء ٥ ـ ٥ ـ ٧) .

كما نرى من العلاقات المتعددة التي وردت فيما سبق فإن سرعة الضوء تلعب دورا أساسيا في جميع المفاهيم الأساسية عن الزمن ، والطول ، والطاقة ...... الخ . كما أنه من الواضح ، أن هذه السرعة سض تشكل حدا أعلى لسرعة الجسيمات . فلا يمكن أن تصل سرعة الى (سض) ، لأن ذلك سيعني أن كتلة الجسيم ك وطاقته طا تصبح لا نهائية . إن السرعة يمكن أن تقترب من (سض) لأي درجة مطلوبة ، ولكنها لا يمكن أن تساويها تماما ناهيك عن تجاوزها . لماذا هذا الدور الخاص لسرعة الضوء ؟ الجواب على ذلك غير معروف الآن ، ولكن من المؤكد أن الأمواج الكهرطيسية (الضوء) التي يمكنها أن تنتشر في الفراغ لها مكانتها الخاصة في هذه الطبيعة .

مما سبق نرى أن نظرية النسبية أدخلت تعديلات جذرية في المفاهيم الأساسية للميكانيك ، لكنها لم تغير كثيرا في الكهرطيسية ومعادلات (ماكسويل) ، والسبب في ذلك أن معادلات ماكسويل هذه تتعلق أساساً بالمجالات الكهرطيسية أو الفوتونات التي تنتشر نفسها بسرعة الضوء . اذن هذا الجسيم (الفوتون) هو جسيم نسبي في الاساس ، ولا يمكن وصفه الا باستخدام معادلات تحتوي في داخلها على مفهوم النسبية ، أما في حالة الاجسام التي تسير بسرعات منخفضة (نسبة الى سرعة الضوء) فانه يمكن إهمال المفعول النسبي تماما . لذلك فان قوانين نيوتن بقيت صالحة ومستعملة ، لفترة طويلة ، ولم يظهر أي قصور فيها يشكك في مصداقية هذه القوانين . إنها صالحة ومستعملة كتقريب ممتاز في مجالات السرعات العادية ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، أما عندما ندخل عالم السرعات العالية ـ الاشعة الكونية ، الجسيمات الصادرة من المسرعات العالية ، ...... الخ ، فان قوانين نيوتن تكون قاصرة ، وليس هناك بديل عن استعمال النظرية النسبية .

٥ ـ ٦ ـ ٦ ـ : النظرية النسبية العامة ـ الثقوب السوداء

في عام ١٩١٥ قدم آينشتاين ما سمي بالنظرية النسبية العامة (General theory of relativity) وقد ضمن في هذه النظرية الإطارات المرجعية المتسارعة ، مما يعني تعميم نظريته السابقة (الخاصة) التي اقتصرت على الاطارات ذات السرعات الثابتة . لا نود أن نخوض هنا في هذه النظرية المعقدة المثيرة للاهتمام لكننا نورد بعض نتائجها (الواضحة) من منطق الحس العادي ، النظرية العامة تعتمد على عدد من الفرضيات الجديدة ، ومنها ما يدعى (مبدأ التكافؤ equivalence principle) ، وهو يعني هنا التكافؤ بين الثقالة والحركة التسارعية . إذا تخيلنا راصداً موجودا ضمن مصعد في الفضاء الخارجي وبعيدا عن أي نوع من الثقالة ، حيث يتسارع هذا المصعد نحو الاعلى مبتعدا عن الأرض بتسارع مقداره (تعج) اي تسارع الجاذبية الأرضية (٩,٨ متر / ثا × ثا) . والآن يجري هذا الراصد التجارب الفيزيائية المختلفة ضمن المصعد المتسارع (شكل ٢٩) ماذا سيستخلص هذا الراصد ؟ ان هذا الراصد ، الذي لا يعرف بانه متسارع ويفترض انه في إطار ساكن سيستخلص من التجارب الفيزيائية المختلفة التي يمكن ان يجريها ، مثلا حركة النواس ، ان هناك جاذبية أرضية بمقدار (تعج) لان التجارب تعطي نتائج مطابقة لتلك في مجال الجاذبية . هذه هي الفرضية بصورة عامة . هذه نتيجة هامة جدا ولها نتائج محددة جدا . وقد طبقها آينشتاين . بالشكل التالي . اذا افترضنا شعاعا ضوئيا (يسير أفقيا في البداية في الاطار المتسارع ، فان هذا الشعاع سينحرف او ينحني تدريجيا نحو الاسفل بسبب حركة الاطار . اذن ، قال آينشتاين ، فان الشعاع المار بقرب كتلة كبيرة يجب ان ينحرف ايضا نحو الكتلة (بسبب الجاذبية المكافئة للتسارع) . ولقد ثبتت صحة هذا التنبؤ في عام ١٩١٩ عندما وجد أن الشعاع الضوئي القادم من نجوم بعيدة مارا قريبا من الشمس ينحرف فعلا نحو الشمس بالزاوية (زاوية صغيرة جدا) التي حسبها «آينشتاين» تقريبا .



(شكل ٢٩)

توضيح لمبدأ التكافؤ . انحراف الضوء في المجال الثقالي (اليسار) متكافىء تماماً مع انحرافه في إطار متسارع (اليمين)

ومن التطبيقات المعاصرة للنظرية النسبية العامة في مجال التجاذب بين الأجسام ، يقع موضوع مثير حقاً وهو موضوع الثقوب السوداء (black holes) . عندما تكون كتلة ما كبيرة جداً (أكبر من عشرة كتلات شمسية مثلاً ، فإن الكتلة تتقلص تدريجياً وتستمر في التقلص بفعل التجاذب الكتلي الذاتي ، إلى أن يصبح حجمها صغيراً في النهاية لو تصورنا شعاعاً ضوئياً منطلقاً من هذه الكتلة نتيجة الإشعاع الناتج عن إحدى العمليات الذرية مثلاً ، فإن الشعاع ينحرف ويعود ثانية إلى الكتلة نفسها ومن ثم فإن هذه الكتلة لا يمكن رؤيتها بالطريقة الضوئية المباشرة وبالتالي تظهر سوداء اللون ـ أي أنها ثقب أسود يبتلع كل الأجسام والإشعاعات الساقطة عليه

ومن الجدير بالذكر أن الثقوب السوداء كان قد تنبأ بها (لابلاس) منذ حوالي (٢٠٠) سنة (١٣) ، عندما قال وأن نجماً مضيئاً ، بكثافة الأرض وقطر يعادل (٢٥٠) مرة قطر الشمس ، سوف لا يسمح في النتيجة لأشعته أن تصل إلينا . وهكذا من الممكن أن تكون الأجسام المضيئة الضخمة في الكون غير مرئية ، لهذا السبب» . وهنا ينتهي العرض ، حيث كان يمكن أن يبدأ

٦ـ واقع الفيزياء اليوم

هذا الجزء من عرضنا يتناول عدداً من المواضيع الحديثة في الفيزياء . وبسبب ضيق المجال هنا ، فإن هذا العرض تقديم مختصر لهذه المواضيع الهامة ، والتي نأمل أن نعالج بعضها بشيء من التفصيل في مناسبات الأخرى .

نتحدث أولاً عن الجزيئات ، وهي الكائنات المكونة من ذرتين أو أكثر ، وعن الروابط المختلفة الموجودة والفاعلة في هذه الجزيئات ، والتي تضمن وجود واستقرار هذه الكائنات . بعد ذلك ننتقل إلى الجوامد ، المؤلفة من أعداد هائلة من الذرات . وبدراسة الترابط في هذه الأجسام ، نجد نفس الروابط الجزيئية هنا أيضاً ، إضافة إلى رابطة جديدة تلعب دوراً هاماً في ترابط الذرات ثم ننتقل إلى نظرية (حُزم الطاقة) في الجوامد ، وهو الموضوع الذي يعالج الجامد على أنه «جزيء» واحد وضخم ، ويدرس حركة الالكترونات ضمن هذا الجامد . وتستطيع هذه النظرية تقديم شرح مفصل ودقيق لجميع الخواص الناقلية للجامد ، مثل الناقلية الكهربائية . ثم نتطرق أخيراً إلى موضوع الجسيمات الأساسية ، وهو الموضوع الذي يحاول الوصول إلى حقيقة الجسيمات الدقيقة والأولية في الكون . ويمثل هذا الموضوع أكبر حدود وأطراف المعرفة الفيزيائية والعلمية في الوقت الحاضر ، وستكون نتائجه ذات فوائد كبيرة ليس في مجال الفيزياء فحسب بل أيضاً في مجال الفيزياء الفلكية . هذا وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه المواضيع ، التي تعطينا فكراً عميقاً للمادة على المستوى الدقيق ، تعتمد بشكل مباشر على ميكانيك الكم .

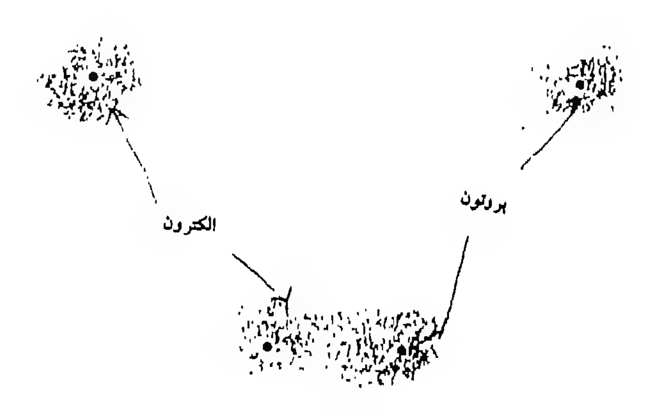
٦ ـ ١ فيزياء الجزيئات

لا توجد الذرات في المادة في حالة انفرادية ، وانما على شكل مجموعات من الذرات تدعى الجزيئات . والجزيء هو مجموعة من الذرات التي تترابط مع بعضها بعضاً لتكون جسماً واحداً له هوية مستقلة إلى حد بعيد . قد تكون الذرات متشابهة أو مختلفة ، ولكن الأمر المهم للمجموعة ، مما يوفر لها الاستقرار المطلوب .

---

(١٣) Ohanian H . C . Physics (Norton and co .. 1985) P . E — 19 ..

وقبل أن نبدأ باستعراض الروابط الجزيئية المختلفة ، سنتعرض باختصار لجزيء الهيدروجين والرابطة الموجودة فيه . هذه الرابطة ، كما سنرى قريبا ، تشكل نموذجا لاحدى الروابط الرئيسية في الجزيئات . يتألف جزيء الهيدروجين من ذرتين من الهيدروجين ، ويشار له بالرمز اللاتيني المعروف Hولكن كيف يحصل الترابط بين الذرتين الهيدروجينيتين ؟ في الجزيء المستقر ، يكون متوسط المسافة بين البروتينين اللذين يشكلان مركزي الذرتين ٧,٤٢ × ١٠$^{-٩}$سم ، وهي مسافة قصيرة جداً بالطبع . وعند هذه المسافة ، يتنافر البروتونان بقوة كبيرة ، وذلك بسبب الشحنة الموجبة الموجودة على كل منهما . هذه القوة التنافرية تعمل على تباعد البروتونين عن بعضهما ومن ثم على تفكيك الجزيء . لكن الالكترونين الموجودين يعملان على تعديل هذا التباعد ، وفي النتيجة على ترابط الجزيء . ويتم ذلك بان ينتشر (يتوزع) كل من الالكترونين في المنطقة على الخط الواصل بين البروتونين (شكل ٣٠) . وبما أن الالكترون يحمل شحنة سالبة ، فان هذه الشحنة تعمل على تعديل الشحنة الموجبة الموجودة على كل من البروتونين ، ومن ثم على حجب (Screening) كل بروتون عن الآخر . ويمكن تمثيل كل من الالكترونين الكترون ثالث مثلاً ، الى المنطقة سيجعل اثنين من الالكترونات الثلاثة يملكان نفس اللف ، مما يعني خرق مبدأ الاستبعاد . هكذا فإن رابطة الهيدروجين هذه تتمتع بخاصية التشبع (saturation) ، أي أنها تقبل الكتروناً واحدا أو اثنين كحد أقصى ، حيث يحصل فيها تشبع تام .



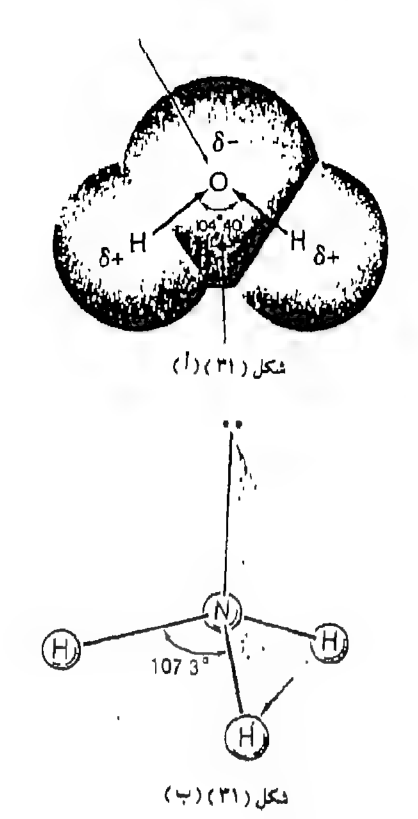
(شكل ٣٠)

الرابطة الهيدروجينية (للجزيء الهيدروجيني) . النقاط الدقيقة تمثل توزيع السحابة الالكترونية في حالة الذرتين المتباعدتين (أعلى) وفي حالة الجزيء الهيدروجيني (اسفل) .

ويمكن القول بان ميكانيك الكم هي التي تعطينا الطريقة المناسبة لمعالجة جزيء الهيدروجين بشكل كامل . إذ نستطيع أن نكتب معادلة شرودينغر (جزء ٥ ـ ٤ ـ ٤)لهذا النظام الجزيئي المؤلف من بروتونين والكترونين ، وأن نقوم بحل هذه المعادلة بالطرق الرياضية المختلفة التي تم تطويرها في ميكانيك الكم . كما يمكن القول بان هذه الطريقة النظرية تؤدي إلى نتائج متفقة تماما مع النتائج التجريبية .

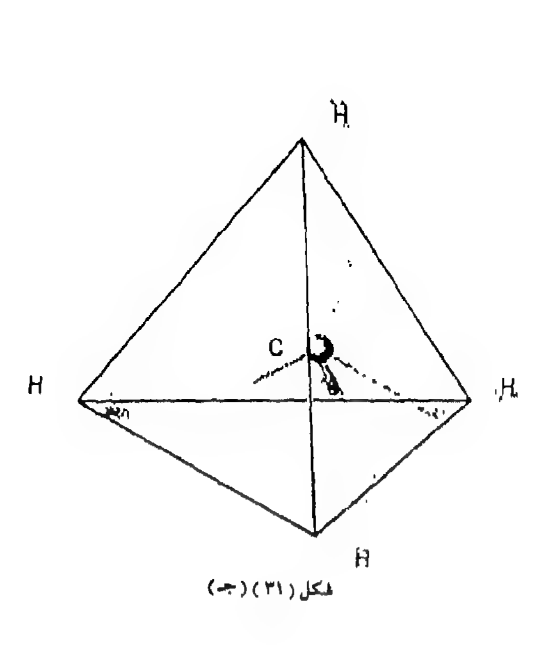
هذه الرابطة المؤلفة من الكترونين اثنين والتي تلعب دورا هاما في ترابط الجزيئات المختلفة ، تعرف ب (الرابطة التساهمية) أو التكافؤية (covalent bond) . ولا تقتصر هذه الرابطة على جزيء الهيدروجين ، بل توجد أيضا في

جزيئات مكونة من ذرات أخرى . فإذا اعتبرنا جزيء الأوكسجين O_2 ، مثلا ، فانه يمكننا ان نفهم الترابط الجزئي هنا على انه مؤلف من رابطتين تساهميتين . والسبب في ذلك هو ان كلا من الذرتين تحتاج إلى الكترونين لاكمال عدد الالكترونات في قشرتها الخارجية وهي بالتالي تساهم بالكترونين خارجيين يدخل كل منهما في رابطة تساهمية ازدواجية مع الكترون مشابه من الذرة الأخرى . وهكذا يمكن أن نرمز إلى الزوج من الروابط التساهمية في الجزيء الاوكسيجيني بالشكل التالي O=O ، حيث يمثل كل خط افقي رابطة تساهمية واحدة ، كما ذكرنا (رابطة الهيدروجين تظهر في هذا التمثيل على الشكل التالي H-H) . ونفس الطريقة ، فإن جزيء النيتروجين له ثلاث روابط تساهمية من الالكترونات بل ويمكن تعميم هذه الرابطة إلى الحالة التي تكون فيها الذرتان مختلفتين . ففي جزيء الماء H_2O ، تترابط ذرة الاوكسيجين مع ذرتي الهيدروجين عبر رابطتين تساهميتين (شكل ٣١ أ) ، بينهما زاوية مقدارها (١٠٥) درجة تقريبا . وكل من هاتين الرابطتين تتكون من الكترون من ذرة الهيدروجين والكترون آخر من الالكترونات الخارجية للذرة الاوكسجين . المهم هنا هو أن هذه الرابطة تتشابه كثيرا من وجهة المبدأ مع رابطة الهيدروجين الأساسية المذكورة سابقا . أما جزيء الأمونيا NH_3 ، فيتم الترابط فيه بواسطة ثلاثة روابط تساهمية بين ذرة النيتروجين وكل من ذرات الهيدروجين الثلاث (شكل ٣١ ب) . والشكل الهندسي لهذا الجزيء هو عبارة عن شكل هرمي ذي قاعدة مثلثية متساوية الاضلاع . وتنسجم هذه التركيبات الالكترونية الهندسية مع الملاحظة الكيميائية المعروفة بأن ذرات الهيدروجين والاوكسجين والنيتروجين لها رابطة واحدة أو رابطتان أو ثلاث روابط ، على التوالي ، في الجزيئات التي تدخل فيها هذه الذرات .



شكل (٣١) (أ)

شكل (٣١) (ب)



شكل (٣١) (جـ)


(أ) هيكل جزيء الماء (ب) هيكل جزيء الأمونيا . (ج) هيكل جزيء الميثان .

ويشكل عنصر الكربون (الفحم) واحدا من أهم العناصر الكيميائية في حياتنا على الأرض . ويدخل هذا العنصر في تركيباته الجزيئية في أربع روابط تساهمية مع جيرانه من الذرات الكربونية أن الذرات الأخرى ، والسبب وراء هذه الروابط الأربع هو أن ذرة القشرة الخارجية لذرة الكربون تحتوي على أربعة الكترونات وينقصها أربعة الكترونات ولذا فإن لديها أربعة الكترونات خارجية مستعدة لأن تدخل في أربعة روابط تساهمية مع الذرات المجاورة . وعلى هذا الأساس ، يمكن تمثيل بعض الجزيئات الكربونية على الشكل التالي : جزيء ثاني أوكسيد الكربون CO_2 كالآتي O=C=O ، وجزيء الأسيتيلين C_2H_4 كالآتي : H-C=C-H ، حيث أن كلا من هذين الجزيئين له شكل هندسي خطي . أما جزيء الميثان CH_4 ، فان الروابط الكربونية الاربع تؤدي الى الشكل ذي الوجوه الأربعة (تيتراهيدرون tetrohedron) شكل (٣١ج) ـ ، حيث توجد ذرات الهيدروجين على حافات التيتراهيدرون ، وترقد ذرة الكربون في مركز هذا الشكل . هذه الرابطة التيتراهيدرونية المركبة تضفي استقرارا خاصا على الجزيء ، وتلعب دورا هاما في بعض الجوامد أيضا ، كما سنجد قريبا .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن عنصر الكربون له قابليه خاصة للدخول في رابط تساهمية متنوعة مما يؤدي إلى ملايين من المركبات الكيميائية المختلفة . بعض هذه المركبات يحتوي على عدد يسير من الذرات ، بينما يحتوي بعضها الآخر على عشرات الآلاف من الذرات .

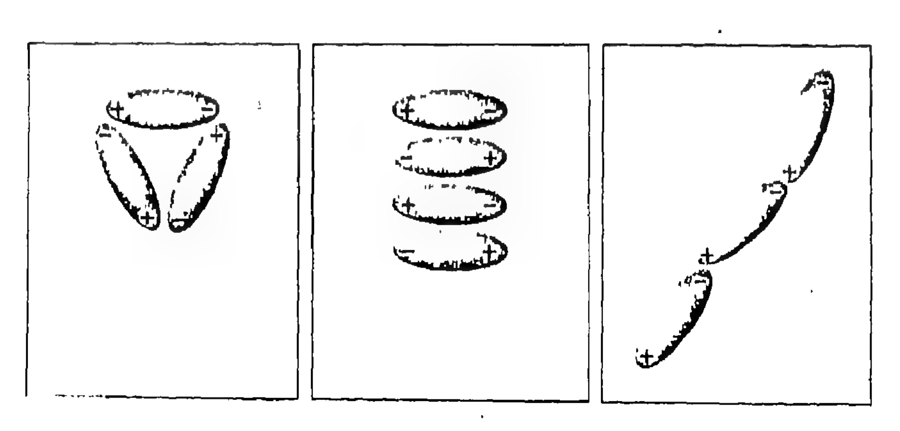
بالاضافة إلى الرابطة التساهمية ، توجد رابطة أخرى هامة وهي (الرابطة الأيونية) . فلو اعتبرنا الجزيء كلوريد الهيدروجين ، مثلار Hcl ، فان الربط بين ذرة الهيدروجين وذرة الكلورين هنا يتم بأن ينتقل الالكترون الموجود على الهيدروجين كليا إلى ذرة الكلورين ، وبذلك يتشكل الثنائي الأيوني H^+ و Cl^- ، هذان الأيونان يتجاذبان الآن بواسطة قوة (كولومب) الكهربائية ، مما يعطي هذا الجزيء استقراره . والسبب وراء هذا انتقال هذا الالكترون من الهيدروجين إلى الكلورين ، هو أن الأخير يحتاج إلى الكترون إضافي ثان لاشباع التكوين الالكتروني الكامل لمداره الالكتروني الخارجي . ويحصل على هذا الالكترون من جاره اى ذرة الهيدروجين .

وتشكل هاتان الرابطتان ، التساهمية والأيونية ، الرابطتين الأساسيتين القويتين في معظم الجزيئات وفي أكثر الجوامد المعروفة .

ويمكن الاشارة هنا إلى أنه في الواقع لاتوجد رابطة أيونية بحتة أو صرفة ، كما قد يظهر من عرضنا السابق . ففي المثال المذكور عن الجزيء Hcl ، لا ينتقل الالكترون كليا من الهيدروجين إلى الكلورين بل أن الالكترون ينتقل جزئيا فقط ـ وبذلك فهو الكترون مشترك بين الذرتين ، وهذا الاشتراك الالكتروني ، كما نتذكر ، هو الخاصة الرئيسية في الرابطة التساهمية . وهكذا ، فمن الممكن النظر إلى الرابطة في هذا الجزيء على أنها رابطة تساهمية أيضا ، ولكن بشكل غير تناظري ، أي أن الالكترونين في الرابطة منجذبان أكثر نحو ذرة الكلورين . إنها رابطة مختلفة من الرابطة التساهمية الصرفة والرابطة الأيونية الصرفة .

هذا التمييز بين الرابطة التساهمية والأيونية يقودنا إلى الاشارة إلى إحدى الخواص المهمة في الجزيئات ، وهي الخاصية (القطبية Polar) . فالحالة القطبيه ، أو الاستقطابية ، تعبر عن أن الشحنة الكهربائية (في الجزيء) ليست

موزعة بالتساوي أو التناظر بين ذرات الجزيء . فجزيء كلوريد الهيدروجين Hcl هو جزيء قطبي ، لأن هناك تجمعا في الشحنة الكهربائية السالبة حول الكلورين وفي الموجبة حول الهيدروجين (شكل ٣٢أ) ، كما أشرنا سابقا . بينما جزيء الهيدروجين H_2هو غير قطبي لان الالكترونين متوزعان بالتساوي بين البروتونين . وهناك جزيء قطبي ذو أهمية بالغة في حياتنا ، وهو جزيء الماء H_2O . ففي هذا الجزيء ، تنجذب الالكترونات في الرابطتين التساهميتين أكثر نحو ذرة الاوكسجين (منها نحو ذرتي الهيدروجين) . مما يعني أن هذه الذرة تصبح مركزا للتجمع الكهربائي السالب (شكل ٣٢ب) .



(شكل ٣٢)
توضيح لمفهوم الرابطة القطبية ، حيث تنتظم الجزيئات بشكل يقرّب الشحنات المتعاكسة الى بعضها .

هذه الخاصية القطبية تلعب دورا هاما في تكثف المادة إلى الطور (الحالة) السائل ففي هذا الطور تنتظم الجزيئات بشكل تتجاوز فيه الأقطاب الموجبة للجزيئات مع الأقطاب السالبة للجزيئات الأخرى (شكل ٣٢جـ) لتكوّن مجموعات من الجزيئات التي تكون السائل . وبخاصة تطبيقة في إيجاد تفسير أيضا لقدرته الكبيرة على تذويب الجزيئات ذات الرابطة الأيونية كالأملاح مثلا ، فكلوريد الصوديوم (NaCl) يتأين إلى أيون Na^+ وأيون Cl^- بالنهايات الموجبة من جزيئات الماء .

هذه الرابطة القطبية الاضافية في السائل القطبي تعطي لهذا السائل استقرارا . فالسائل القطبي ، مثل كلوريد الهيدروجين أو الماء ، أكثر استقرارا من السائل غير القطبي ، مثل الهيدروجين السائل . والدليل على ذلك هو درجات الذوبان ودرجات الغليان المرتفعة للنوع الأول من السوائل .

هذا وقد أمكن دارسة كثير من الخواص الجزيئية بالطريقة الطيفية ، فالذرتان في جزيء ثنائي مثلا تهتزان بالنسبة لبعضهما بعض حول وضع التوازن كهزاز ، ويمكن تحديد تردد الهزاز بالطريقة الطيفية العادية . ومن هذا التردد ، يمكن تحديد قوة التفاعل بين الذرتين .

٦ ـ ٢ الجوامد

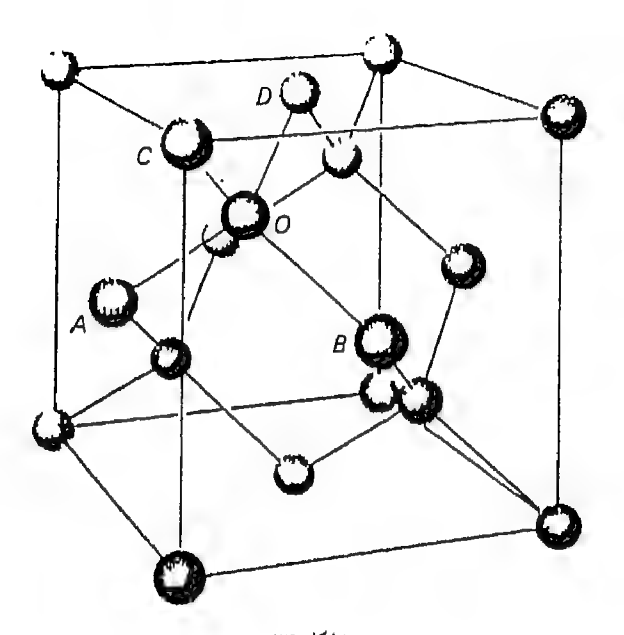
يعرّف الجامد بانه مجموعة كبيرة جدا (حوالي ١٠^{٢٣}) من الذرات المتماسكة مع بعضها ، حيث تستقر كل ذرة في مكان محدود ثابت تقريبا داخل الجامد . ومعظم الجوامد الموجودة على الأرض لها بنية بلّورية ، أي أن مواقع الذرات تشكل نظاما هندسيا منتظما بالنسبة لبعضها بعضا ـ حيث يدعى هذا الانتظام الكامل ، عبر الجامد باكمله ، بالانتظام طويل المدى . ولكن توجد أيضا جوامد (أمورفية) ، حيث ينعدم الانتظام طويل المدى . لكن يتحقق فيها انتظام على المدى القصير ـ أي أن الجوار المباشر لكل ذرة متشابه بغض النظر عن موقع الذرة داخل الجامد . وبذلك فان البنية في هذا النوع من الجوامد تشبه كثيرا البنية الموجودة في السوائل ، حيث لايوجد انتظام طويل المدى بين مواقع الذرات داخل المادة . والمثال الأفضل والمألوف للجوامد الأمورفية هو الزجاج العادي (SiO_2) ، حيث أن مواقع الذرات (الاوكسجين والسيليكون) لا تحافظ على انتظام محدد على مستوى الجامد كله .

في عرضنا الحالي سنركز اهتمامنا على الجوامد البلورية ، وذلك لأهميتها البالغة في التطبيقات التكنولوجية . إذ أن الجوامد ، رغم ندرتها على مستوى الكون الشامل ، تشكل القسم الاكبر من خبرتنا الحياتية المباشرة كما تشكل الأساس في عصرنا التكنولوجي المتطور .

وإذا نظرنا إلى الروابط التي تؤدي إلى الترابط في الجوامد ، نجد أن بعضها متشابه تماما مع الروابط الموجودة في الجزيئات ، كما درسناها سابقا ، ففي بعض الجوامد ، يتم الترابط عبر الرابطة التساهمية ، وفي البعض الآخر عبر الرابطة الأيونية . هناك بالاضافة لذلك نوع ثالث من الجوامد ـ الفلزات ـ التي يتم فيها الترابط عبر رابطة جديدة تدعى الرابطة الفلزية .

والمثال البارز على الجوامد التساهمية هو السليكون ، الذي يشكل العنصر الرئيسي في التكنولوجيا الألكترونية الحديثة . فالشكل (٣٣) يظهر البنية البلورية لهذا الجامد ، حيث أن الوحدة أو الخلية الرئيسية للجامد هي على شكل مكعب ، حيث أن كل ذرة من السيليكون تترابط مع الذرات السيليكونية الأربع المجاورة عبر أربع روابط تساهمية . ونذكر هنا أن كل ذرة سيليكونية تحتوي على أربعة الكترونات خارجية ، يشترك كل منها مع الكترونات الذرات المجاورة بشكل ثنائي ليشكل الروابط المذكورة . إذن الرابطة التيتراهيدرونية (الرباعية) الموجودة في السيليكون هي في الواقع انعاكس للتركيب الالكتروني الموجود في السيليكون . وبسبب هذه الرابطة الرباعية المركبة فان السيليكون هو مادة مستقرة وقاسية وتحتاج إلى درجة حرارة مرتفعة لصهرها . وتوجد بلورات أخرى لها نفس البنية البلورية للسيليكون ، نذكر منها الماس والجيرمانيوم .

أما البلورات الأيونية ، فان أفضل مثال عنها هو كلوريد الصوديوم ($NaCl$) ـ وهو مادة ملح الطعام العادي . في هذه المادة ، يحصل إلى حد كبير انتقال للالكترون الخارجي في ذرة الصوديوم إلى المدار الخارجي في ذرة الكلورين ـ وبذا فان البلورة تتألف من تشكيل منتظم من الأيونات Na^+ و Cl^- . فكل أيون Na^+ محاط بستة أيونات Cl^- واقعة على



(شكل ٣٣)
البنية البلورية للسيليكون . كل كرة تمثل ذرة ، وكل ذرة محاطة بأربع ذرات مجاورة تشكل معا رابطة تيتراهيدرية (رباعية) .

اتجاهات متعامدة ، وينطبق القول نفسه علي كل من الأيونات Cl^- أيضا . ويترابط الجامد ويتماسك بسبب التجاذب الكهربائي من هذه الأيونات ، حيث أن المسافات بين الأيونات قصيرة جدا (٤,٢ × ١٠$^{-8}$ سم) .

أما الرابطة الفلزية (الثالثة) فهي التي لها الفضل في ترابط الفلزات . فمن المعروف أن ذرات الفلزات (المعادن) تحتوي على واحد أو قلة من الالكترونات الخارجية ، التي تنفصل بسهولة نسبية عن باقي الذرة في الظروف المناسبة . وعندما تتواجد هذه الذرات في الجامد (مثل فلز الصوديوم أو النحاس) ، فان الالكترونات الخارجية (للذرات) تنفصل تماما عن ذراتها ، وتصبح الكترونات «حرة» تستطيع التحرك والانتقال داخل الجامد . هكذا يتشكل «غاز» من الالكترونات في الجامد . لكن هذا الغاز الالكتروني يتألف من جسيمات مشحونة وهو بذلك عبارة عن (بلازما) ، ومن ثم يختلف كثيرا عن الغازات العادية المشكلة من جزيئات محايدة .

الالكترونات (المشحونة) تتنافر كهربائيا ، لكن العامل الهام الذي يحفظها من التنافر والتطاير ويؤدي إلى الترابط في حالة الفلز ككل هو وجود الأيونات الموجبة . فعندما تأينت ذرة النحاس وأعطت الكترونا حرا بقى الأيون Cu^+ . هكذا فان الجامد يحتوي على بنية بلورية من الايونات Cu^+ ، مثلا ، يجرى داخل شبكتها الغاز الالكتروني المذكور ، والروابط بين الغاز الالكتروني والشبكة الأيونية قوية ، وذلك بسبب القوة الكهربائية التجاذبية .

هذا النموذج للفلزات تعود بدايته إلى أوائل القرن الحالي ، حيث بدأه (درود) و (لورنتز) ، ثم طوره سمر فلد في منتصف العشرينات ليتناسب مع التطورات الجديدة في ميكانيك الكم . الفائدة الكبيرة للنموذج هي مقدرته على شرح الناقلية الكهربائية والحرارية للفلزات . هذه الناقلية تنبع بشكل واضح من النموذج ، إذ أن هناك جسيمات

حرة كثيرة ـ الالكترونات ـ تستطيع القيام بالنقل الكهربائي (أو الحراري) في حالة تطبيق مجال كهربائي (أو حراري) داخل الجامد . ثم ان هذا النموذج يستطيع تفسير خواص أخرى للفلزات ـ مثل الخواص البصرية (الانعكاسية المرتفعة) وكثير من خواص المخلوطات (alloys) الفلزية الكثيرة .

وقد تطور النموذج كثيرا في السنين الاخيرة ، حيث جرى تطبيق الافكار الجديدة لميكانيك الكم على شكل واسع ـ بداية بأعمال الفيزيائي (ف بلوخ) الذي وضع حجر الأساس لميكانيك الكم للجوامد حوالي عام ١٩٣٠ .

ومن الأمثلة البارزة على التطبيقات في هذا المجال الملاحظة التالية : يلاحظ تجريبيا أن الناقلية الكهربائية في الفلزات ترتفع تدريجيا عند تناقص درجة الحرارة ، وتكاد تبلغ (الناقلية) حدا لانهائيا عند الصفر المطلق . إن النظرية الحركية الكلاسيكية للغازات عاجزة تماما عن تفسير هذه الظاهرة ، إذ تفترض هذه النظرية أن النواقل للتيار ـ الالكترونات ـ تصطدم بشكل أو آخر مع الأيونات ، الأمر الذي يؤدي إلى عرقلة حركة الالكترونات . هذا التصادم أو التبعثر يؤدي إلى تخفيض الناقلية (أو زيادة المقاومة) الكهربائية . وبسبب وجود العدد الكبير من الأيونات فان الناقلية الكهربائية يجب ألا ترتفع كثيرا حتى عنصر الصفر المطلق حسب النظرية الكلاسيكية ـ ، وهو استنتاج مخالف للتجربة . أما ميكانيك الكم ، فله نظرة مختلة تماما للموضوع . الالكترونات الناقلة هي عبارة عن موجات (موجات دي بروغلي) . وعندما تتحرك هذه داخل الجامد فانها لاتصطدم مع شبكة الأيونات المنتظمة ، مثلها مثل موجة ضوئية لاتصطدم مع شبكة منتظمة من البلورات . هكذا فان الناقلية الالكترونية كبيرة جدا عن الصفر المطلق ، لأن الأيونات متمركزة (موجودة) تماما على الشبكة البلورية . أما عندما ترتفع درجة الحرارة ، فان الناقلية تنخفض تدريجيا لأن الأيونات تبدأ بالاهتزاز ، مما يؤدي إلى تصادم الالكترونات معها ، ومن ثم إلى انخفاض في الناقلية الكهربائية .

٦ ـ ٣ حزم الطاقة

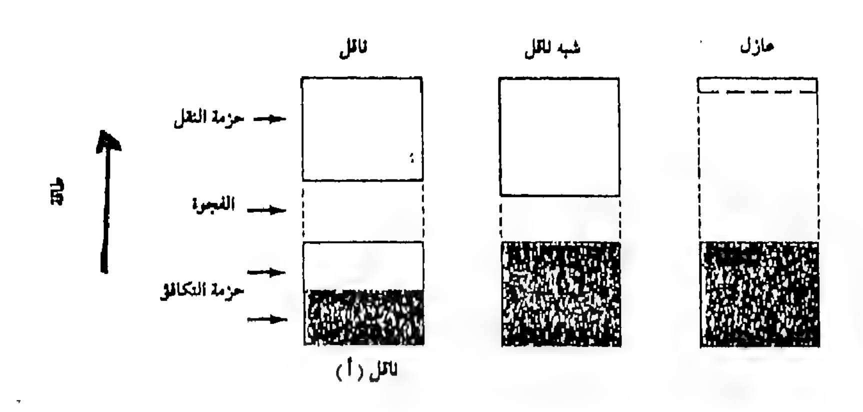
أن موضوع (حزم الطاقة Energy bands) هو واحد من المواضيع المثيرة حقا في مجال الجوامد ، حيث أدى إلى نظرة جديدة تماما عن الجوامد تختلف تماما عن النظرة التي كانت سائدة في العشرينات وما قبل ذلك . هذا الموضوع نبع واستمر بشكل منطقي تماما من أعمال (بلوخ) المشار اليها سابقا . ويعطينا هذا النموذج إطارا نظريا لفهم شامل وكامل للجوامد بأنواعها المختلفة من النواقل (المواصلات) إلى أشباه النواقل أي العوازل الكهربائية .

نستطيع الدخول في هذا الموضوع باشكل النظري التالي . لقد وجدنا سابقا أن الطاقة الالكترون في الذرة مكممة عند مستويات خطية معينة ومحددة (جزء ٥ ـ ٤ ـ ٢) . ويستطيع الالكترون أن «يسكن» في أي من هذه المستويات ، لكن لايمكنه السكون في مجالات الطاقة الموجودة بين هذه المستويات . هذه النتائج تأتي من كتابة معادلة شرودينغر المناسبة لهذه الذرة ، ثم حل هذه المعادلة ضمن الشروط المقبولة فيزيائيا ورياضيا PTO . نحاول الأن أن نقوم بالعملية نفسها بالنسبة للالكترون الموجود داخل جامد ما . الأمر الآن اكثر تعقيدا من ذي قبل ، لان الالكترون

لايتفاعل مع أيون واحد . فحسب ، وإنما مع كل الأيونات الموجودة في الجامد . والسبب في ذلك هو أن الالكترون ليس مقيدا ضمن منطقة محددة ، بل هو حر ومنتشر داخل الجامد كله ـ الالكترون هو موجة منتشره وكاملة .

عندما نكتب ونحل معادلة شرودينغر لهذه الحالة ، ماذا نجد ؟ إننا نجد المفاجأة التالية وهي أن مجالات الطاقة المسموحة (للالكترون) تتألف من حزم (bands) متتالية هي «الحزم المسموحة» . أما مناطق الطاقة الموجودة بين هذه الحزم ، فهي مناطق ممنوعة ومحرمة (Forbidden) ولا يستطيع الالكترون أن يسكن فيها . وتسمى فجوات (gaps) الطاقة . وبالتشابه مع حالة الذرة الواحدة المذكورة سابقا ، فاننا نرى أن المستوى الخطي الواحد للذرة قد تمدد وتوسع وأصبح عريضا ، ليكون حزمة كاملة تشغل حيزا معينا من الطاقة . كما اننا نستطيع فعلا أن نجري ترابطا بين كل مستوى لطاقة للذرة والحزمة التي نشأت من هذا المستوى عندما تتركب الذرات مع بعضها لتشكل الجامد من هذه الذرات .

وهكذا إلى أن يتم استيعاب جميع الالكترونات الحرة. الالكترونات الحرة تسكن الآن الحزم المختلفة ، بداية بالحزم الدنيا ، ثم الحزم الأعلى . ونستطيع الآن التمييز بين النواقل والعوازل بشكل واضح على أساس مفهوم الحزم . ننظر إلى الحزمة العليا المسكونة (حيث الحزم الأدنى منها مسكونة كليا) للجامد فاذا كانت الحزمة مسكونة جزئيا ـ نصفها الاسفل مثلا ـ شكل (٣٤) فإن هذا الجامد يسلك كناقل كهربائي ، والسبب في ذلك هو أن وجود أي مجال كهربائي (من مصدر خارجي) في الجامد يعطى بعض الطاقة للالكترونات ، التي تستطيع أن ترتفع في طاقتها داخل الحزمة وتنقل التيار الكهربائي . هذا هو الوضع في الموصلات مثل النحاس والفضة وغيرها من الفلزات .



(شكل ٣٤)
التمييز بين الناقل ، شبه الناقل ، والعازل ، على أساس مفهوم حزمة الطاقة .

أما إذا كانت الحزمة المسكونة العليا ممتلئة تماما (شكل ٣٤ ب) ، فان الجامد يسلك كعازل حتى في وجود مجال كهربائي . والسبب هو أن الالكترون ، حتى في المنطقة العليا من الحزمة ، لايستطيع اكتساب طاقة قليلة من المجال ونقل التيار . وذلك أن الالكترون لايستطيع أن يدخل إلى الفجوة المحرمة . أما الالكترونات في الطبقات الدنيا من

هذه الحزمة فانها لاتستطيع امتصاص طاقة كهربائية من المجال والارتفاع إلى مستوى أعلى في الحزمة ، لان المستوى مسكون مسبقا من قبل إلكترونات أخرى - ومبدأ الاستبعاد يمنع إدخال الكترونات جديدة إلى هذا المستوى المسكون . هذا هو الوضع ، من ناحية التشكيل الحزمي لمعظم العوازل مثل الماس .

أما أشباه النواقل (semiconductors) ، فان البنية الحزمية لها تشبه تلك الموجودة في العوازل - الحزمة المسكونة العليا ممتلئة تماما . لكن الفجوة الموجودة فوقها ضيقة إلى حد ما (حوالى (١) إ . ف) مما يسمح لعدد من الالكترونات ان تتهيج حراريا (بسبب الحرارة الموجودة في الجامد) وتنتقل من هذه الحزمة عبر الفجوة إلى الحزمة الأخرى الموجودة فوق الفجوة (شكل ٣٤ ج) . الحزمة العالية التي اكتسبت بعض الالكترونات تستطيع الآن نقل بعض التيار ، ومن ثم تسمى (حزمة النقل) . أما الحزمة التي تحت الفجوة ، والتي فقدت بعض الالكترونات ، فانها تستطيع ايضا نقل بعض التيار ، لانها لم تعد ممتلئة ، كما كانت سابقا حيث تدعى الآن حزمة التكافؤ أو التساهم . وهكذا يستطيع شبه الناقل القيام بنقل بعض التيار الكهربائي عند اللزوم . ومن الأمثلة المعروفة على أشباه النواقل نذكر السيليكون والجيرمانيوم حيث تعادل فجوة الطاقة لكل منهما ١,٢ و٠,٧٥ إ . ف ، على التوالي .

في الاستخدامات التكنولوجية ، يضاف إلى شبه الناقل في العادة بعض الشوائب - ذرات غريبة - لتعطيه بعض الخواص الكهربائية المناسبة ، فاذا اضيف إلى بلورة السيليكون بعض ذرات الزرنيخ مثلا ، والذي هو خماسي التكافؤ (يحتوي على خمسة الكترونات خارجية) ، فان أربعة من الكترونات الشائبة تدخل في روابط التساهم الأربع ، ويبقى الكترون خامس حرا لينتقل بسرعة إلى حزمة النقل . وهكذا فان إدخال نسبة قليلة من شوائب الزرنيخ (حوالي جزء من مائة مليوم) يؤدي إلى رفع ناقلية المادة أضعافا مضاعفة . وتدعى المادة المشكّلة بهذه الطريقة مادة من النوع السالب (أو نوع - س) . أيضا يمكن تصنيع مادة من النوع الموجب (أو نوع - م) بادخال شوائب ذات تكافؤ ثلاثي ، مثل الغاليوم ، إلى ذرات السيليكون . في هذه الحالة تتشكل (ثقوب) في المادة ، حيث تسكن في حزمة التكافؤ وتستطيع أن تنقل التيار وكأنها جسيمات موجبة .

وتعتمد معظم التطبيقات الالكترونية على عمل وصلة (Junction) مؤلفة من مادة سيليكون نوع - س متجاورة مع مادة سيليكون نوع - م . في هذه الوصلة يتشكل مجال كهربائي داخلي ، يضفي على الوصلة خواص كهربائية غريبة وغير متوقعة ومفيده جدا ، في نفس الوقت . فبالتصميم المناسب يمكن أن تلعب الوصلة دور المقوم الكهربائي أو الخلية الشمسية أو المكثف الكهربائي ، من ضمن عدد كبير من التجهيزات الكهربائية الممكنة . أن التركيب (أو البنية) المناسب لوصلتين معا يؤدي كذلك إلى (الترانزيستور) ، المضخم الكهربائي الذي يعتبر حجر الزاوية في عصر التكنولوجيا الالكترونية الحديثة . هذا وقد حصلت ثورة حقيقية في هذا المجال بتصنيع عدد كبير من الترانزيستورات والدارات الدقيقة على قطع (chips) من مساحات ضيقة جدا - حوالي سم^{2} واحد . وبهذه الطريقة فقط أمكن اليوم تصنيع الحاسبات الالكترونية ذات السعة العالية بأحجام محدودة وبتكاليف متواضعة .

٦ - ٤ الجسيمات الأساسية

يشكل موضوع الجسيمات الأساسية (elementary particles) المجال الأكثر إثارة في عالم الفيزياء اليوم . هذه الجسيمات ، حسب تعريفها ، هي الجسيمات الدقيقة الصغيرة التي تتكون منها جميع الجسيمات الفيزيائية التي نشاهدها ، وهي جسيمات أساسية لايمكن تفكيكها إلى جسيمات أخرى اصغر منها . فلو تمكنا حقا من معرفة هذه الجسيمات ، لعرفنا الجسيمات النهائية والاخيرة للمادة في هذا الكون ، وهو نصر فيزيائي هائل بكل تأكيد . في نفس الوقت ، يتنامى الشعور الآن بأن هناك علاقة دقيقة بين هذه الجسيمات وعلم الكونيات (Cosmology) وهو العلم الذي يبحث في نشوء الكون منذ الدويّ الاعظم (بيغ بانغ ـ Big Bang) وحتى يومنا هذا . وينتج عن ذلك أن التقدم في مجال الجسيمات الأساسية سيكون له أهمية خاصة ليس في الفيزياء فحسب وانما في مجال الفيزياء الفلكية أيضا .

ونتذكر من جزء سابق من هذه الدراسة أن الجسيمات الاساسية للمادة ، كما كانت معروفة في أوائل الثلاثينات ، تتألف من ثلاثة جسيمات فقط ـ الالكترون والبروتون والنيوترون . فالذرة تتألف من الكترونات تدور حول نواة مشكلة من عدد معين من البروتونات والنيوترونات . الالكترونات جميعا متماثلة ، فلا يمكن التمييز بين الالكترونات من ذرة إلى أخرى ، كما لايمكن التمييز بين البروتونات أو النيوترونات من ذرة إلى أخرى . وكان هناك أيضا جسيم أساسي آخر (رابع) وهو الفوتون ـ الوحدة الاساسية للاشعاع الكهرطيسي .

لكن تبين بعد عدة سنوات فقط أن هناك ضرورة لوجود جسيم أساسي آخر يدعى بالنيوترينو . حيث وجد انه في حالة شُعاع (بيتا) النووي من مادة ما لاتكون الالكترونات الصادرة بالتوالي ذات طاقة واحدة . وقد سببت هذه الملاحظة ارتباكا وجدلا كبيرا في تفسير الظاهرة ـ خاصة بين (بوهر) من جهة و(باولي) من جهة أخرى ـ حيث إن قانون حفظ الطاقة يستوجب أن تكون الطاقة هي نفسها لجميع الالكترونات الصادرة . وأخيرا تغلب افتراض (باولي) بان هناك جسيما آخر (النيوترينو) يصدر في نفس العملية وفي نفس الوقت ويحمل جزءا من الطاقة . وهكذا فان مجموع طاقتي الالكترون والنيوترينو هو مقدار ثابت ، مما ينسجم مع قانون حفظ الطاقة .

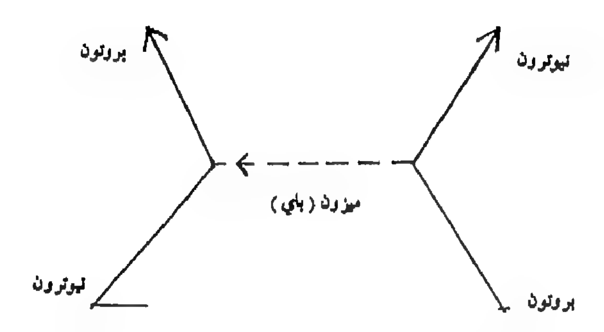
النيوترونيو جسيم غريب حقا ـ فهو محايد (في الشحنة) وليست له أية كتلة ، أي أن كتلته تساوي الصفر ، وهو بذلك يسير دائما بسرعة الضوء . هكذا فان النيوترينو يبدو مشابها للفوتون . لكن النيوترينو يختلف كثيرا عن الفوتون من جهة التفاعل مع المادة . فالفوتون يتفاعل بشدة مع أى جسيم مشحون كالالكترون أو البروتون . في حين أن النيوترينو يتفاعل فقط مع المادة النووية (بروتونات ونيوترونات) وبقوة ضعيفة جدا جدا . وقد قدر بان النيوترينو يجب أن يقطع مسافة اكثر من ${}^{18}10$ مترا في مادة من الحديد الصلب حتى يتم التأكد بانه قد تم امتصاصه . هذا التفاعل الضعيف بين النيوترونيو والمادة كان السبب وراء الصعوبة في المشاهدة التجريبية لهذا الجسيم ، إذ أن عملية المشاهدة نفسها تتطلب تفاعلا بين الجسيم والمادة الموجودة في الجهاز . وقد أمكن اخيرا استكشافه مباشرة في عام ١٩٥٦ . ومن أبسط التفاعلات التي تؤدي إلى توليد النيوترينو عملية تفلك النيوترون نفسه . هذا التفاعل يجب أن يكتب الآن على الشكل التالي : نيوترون ⟵ بروتون + الكترون + نيوترينو .

في الفترة ذاتها ، كانت تحدث تطورات هامة على جبهة أخرى من موضوع الجسيمات الاساسية . ففي أوائل الثلاثينات ، ومن خلال معالجة جسيم الالكترون بطريقة كمومية ونسبية في آن واحد ، توصل الفيزيائي النظرى (ديراك) الى قناعة بضرورة وجود جسيم جديد يشابه الالكترون في الكتلة والشحنة ، ولكنه يحمل شحنة معاكسة لشحنة الالكترون ـ أي شحنة موجبة . وسمى (ديراك) هذا الجسيم المفترض ب (الالكترون المصادر) ، وهي تسمية تعكس العلاقة الوثيقة بين هذا الجسيم والالكترون . فهذا الجسيم ، حسب هذا التحليل ، هو عبارة عن (صورة) انعكاسية للالكترون ، حيث إن عملية الانعكاس هذه تعكس الشحنة الكهربائية للجسيم . وبعد وقت قصير أي في عام ١٩٣٢ ، تمكن الفيزيائي (أندرسون) في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في كاليفورنيا من اكتشاف الجسيم المفترض وسماه (البوزيترون) .

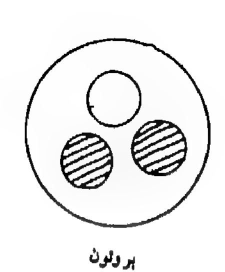
هكذا ارتفع عدد الجسيمات الأساسية بظهور جسيم جديد . ولكن الاكتشاف الجديد يحمل في طياته مغزى أكبر من ذلك ، إذ أنه كان البداية لظهور مفهوم (المادة المضادة) وأوحى بوجود جسيمات مضادة للجسيمات الأخرى ايضا ، مثل جسيمات (البروتون المضاد) و(النيوترون المضاد) وغيرهما . وكما سنرى لاحقا ، فان هذا الايحاء ستثبت صحته تماما . وهكذا فقد كان متوقعا عندئذ أن يأخذ عدد الجسيمات الاساسية بالارتفاع في المستقبل المنظور .

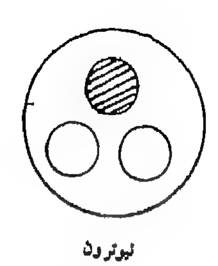
عندما يتولد بوزيترون فانه لايبقى طويلا في الظروف العادية ، إذ انه سرعان مايتحد مع أحد الالكترونات المتوفرة بغزارة في المادة ، وبذلك ينعدم الجسيمان معا . وينطلق من هذا التفاعل فوتونات من فئة أشعة (غاما) ، وهي الفوتونات عالية الطاقة . في هذا التفاعل ، تتحول المادة (كتلة الجسيمين) كليا إلى طاقة ، وذلك انسجاما مع نظرية آينشتاين النسبية . كما يمكن أيضا توليد زوج من الالكترون والبوزيترون وذلك بواسطة تصادم فوتونين من فئة غاما ، وهو التفاعل المعاكس ، حيث تتحول الآن الطاقة إلى مادة .

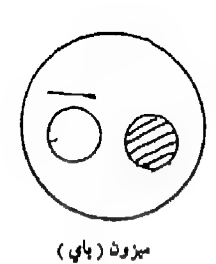
الخطوة التالية أتت من مكان مختلف تماما ، حيث قام الفيزيائي الياباني «يوكاوا» في عام ١٩٣٥ بافتراض جسيم جديد من نوع مختلف كليا . كان يوكاوا يحاول الوصول إلى فهم أعمق للتفاعل بين النيوكليونات (البروتونات والنيوترونات) ، وهو مايعرف بالتفاعل القوى . كان معروفا عندئذ أن هذا التفاعل قوي جدا (بالمقارنة مع التفاعلات الأخرى) وانه أيضا قصير المدى . ولما كان الفيزيائيون في تلك الفترة يفضلون تجسيد التفاعل بين الجسيمات على انه يتم بواسطة تبادل جسيمات وسيطة ، لكي يتجنبوا مفهوم التفاعل عن بعد ، فقد افترض يوكاوا أن نيوكليونين ـ بروتون ونيوترون ، مثلا ـ يتجاذبان بواسطة تبادل جسيم جديد ينبعث من أحد الجسيمين ويمتص الآخر (شكل ٣٥) ، وهي عملية مشابهة للتجاذب بين شحنتين كهربائيتين ، حيث يتم التفاعل بتبادل عدد من الفوتونات بينهما . وتمكن يوكاوا من تقدير كتلة الجسيم الجديد على أنها تقع في المجال ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ضعف من كتلة الالكترون وقد سمى هذا الجسيم المفترض «الميزون» ، وتشير التسمية إلى أن كتلته تقع في الوسط بين كتلة الالكترون (الخفيف) وكتلة البروتون (الثقيل) .



(شكل ٣٥)
نموذج (يوكاوا) للتفاعل بين البروتون والنيوترون عبر تبادل جسيم (الميزون) الوسيط .









(شكل ٣٦)
النموذج الكواركي للبروتون والنيوترون والميزون .

وبعد عام واحد فقط ، اكتشف آندرسون نفسه وزملاؤه جسيما جديدا له كتلة في نفس المجال الذي حدده يوكاوا . وسمي هذا الجسيم بميزون ميو أو «الميوون» ، كما يشار اليه هذه الايام . وكتلة الميوون هي (٢٠٧) ضعفا من كتلة الالكترون . ثم تبين ان هناك ميوون موجب وميون سالب ، حيث ان مقدار الشحنة هي نفس الشحنة الموجودة على الالكترون .

لكن الفرحة لاكتشاف الجسيم الجديد لم تستمر طويلا ، إذ سرعان ماتبين أن الميوون يتفاعل مع النيوكليونات بقوة ضعيفة جدا ، وليس بالقوة الشديدة التي كانت متوقعة . بل على العكس من ذلك ، فقد بدا ان الميوون يشبه الالكترون في كل شيء تقريبا . ماعدا الكتلة إنه «الالكترون الثقيل» بل ان الميوون ليس مستقرا ، اذا يتفكك إلى الكترون ونيوترينو ونيوترينو مضاد . هذه الازدواجية حيرت الفيزيائيين لفترة طويلة . لقد حصلوا على جسيم جديد ، لكنه غير مرغوب .

البحث عن الجسيم المرغوب تباطأ خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لكنه عاد بعد انتهائها وبشكل مكثف . وفي عام ١٩٤٧ تم بالفعل اكتشاف الميزون المرغوب ، حيث سمي ب «ميزون باي» أو «البالون» ، من قبل الفيزيائي «باول» في انجلترا وعدد من الفيزيائيين الآخرين . ومنح يوكاوا جائزة نوبل في نفس العام ، تقديرا لاهمية المساهمة التي قدمها للفكر الفيزيائي . ووجد أن الميزون باي يأتي في ثلاث شحنات مختلفة ، موجبة وسالبة ومحايدة مقدار كل منها نفس شحنة الالكترون . وكتلة هذا الميزون هي (٢٧٣) كتلة الكترونية للموجب والسالب ، و(٢٦٤) كتلة الكترونية للمحايد .

ووجد ايضا أن البايون ليس جسيما مستقرا . فالبايونان المشحونان يتفككان ، كل بطريقته المناسبة ، إلى ميوون ونيوترينو ، ضمن عمر متوسط يساوي ($٢,٦ \times ١٠^{-٨}$) ثا . ويتفكك البايون الحيادي إلى زوج من فوتونات غاما ، ضمن عمر متوسط يساوي ($١٠^{-١٦}$) ثا تقريبا .

إضافة إلى كل ذلك ، تبين من تجارب عديدة أجريت في أوائل الستينات أن النيوترينو الناتج عن تفكك البايون يختلف عن ذلك الناتج عن تفكك النيوترون ، والذي كان معروفا سابقا . فهذا الأخير يعرف الآن بالنيوترينو الالكتروني في حين يعرف الأول وهو الجديد بالنيوترينو الميووني ، نسبة إلى الجسيمات التي تنتج مرافقة لعملية انتاج النيوترينة .

وهكذا وجد الفيزيائيون العاملون في هذا المجال أنفسهم أمام عدد متزايد من الجسيمات الاساسية ، التي تلعب أدوارا مختلفة في التفاعلات المتنوعة . فخلال عقدين من الزمن بلغ عدد الجسيمات العشرات ، بل المئات حيث يعيش معظمها لفترات زمنية قصيرة جدا ـ من رتبة ال $١٠^{-٢٠}$ ثا ، أو أقصر ، ثم يتفكك الى جسيمات أخرى مألوفة ، هذا الازدياد أدى إلى إثراء وإثارة في هذا المجال ، لكنه خلق في نفس الوقت ارتباكا وحيرة بين الفيزيائيين . فمنذ أعمال آينشتاين في بداية القرن ، كان الفيزيائيون يبحثون عن البساطة والتوحيد في الفيزياء الاساسية ، في حين أن هذا السيل الغزير من الجسيمات الجديدة كان يقودهم في الاتجاه المعاكس نحو التعددية والتشعيب .

لكن تطورات هامة جدا حصلت فعلا في السنوات الاخيرة تبشر بالخير وتوحي بأننا ربما أصبحنا على مقربة من حل جذري ونهائي لموضوع هذه الجسيمات . تقسم الآن الجسيمات الاساسية إلى أربعة اصناف : الفوتونات ، والليبتونات والفيزونات حيث يضم كل نوع واحد أو أكثر من الجسيمات .

فصنف الفوتونات يضم الفوتون فقط ، وهو الجسيم الأساسي المعروف الذي يشكل الوحدة الأساسية في الضوء والتفاعلات الكهرطيسية .

أما صنف الليبتونات فيضم الالكترون والميوون والنيوترينو (بأنواعه المختلفة) ومضادات هذه الجسيمات . هذه الجسيمات تتفاعل مع بعضها بعض ومع غيرها أيضا عبر تفاعلين ؛ التفاعل الكهرطيسي والتفاعل الضعيف . التفاعل الكهرطيسي يكون موجودا عندما يكون الجسيمان المتفاعلان مشحونين كهربائيا ، مثلما هو الحال في التجاذب بين البروتون والالكترون (أو بين الالكترون والميوون) . وفي حال انعدام الشحنة يبقى فقط التفاعل الضعيف ، كما يحدث عندما يتفاعل نيوترون مع بوزيترون لتشكيل البروتون . وبما أن التفاعل الكهرطيسي هو الأقوى ، فهو الذي يطغى على التفاعل الآخر عند وجوده .

وقد تساءل الفيزيائيون وبحثوا كثيرا عن الجسيم الذي يحمل التفاعل الضعيف ، كما يحمل الفوتون التفاعل الكهرطيسي . وقد تم أخيرا (عام ١٩٨٤) اكتشاف هذا الجسيم الوسيط . بل وجد في الحقيقة ثلاثة جسيمات تلعب أدوار الوسطاء في هذا التفاعل ، وهي الجسيمات (دبليو - W^{-}) و (زي صفر Z^{0}) . هذه الجسيمات لها كتلات كبيرة جدا (حوالي ٨٥ الف مليون إ . ف) . وهذه الكتلة الكبيرة ناتجة عن كون التفاعل ذا مدى قصير للغاية . ومن الناحية العملية ، فان الكتلة الكبيرة تتطلب مقدارا كبيرا من الطاقة لتوليدها ، مما يفسر الصعوبة الكبيرة في الحصول على هذه الجسيمات الوسيطة ، هذا وقد تم اكتشافها ، من قبل الفيزيائيين كارلوروبيا وسيمون فان ديرمير في مختبرات (CERN) الشهيرة في أوربا . وقد نال هذان العالمان جائزة نوبل في عام ١٩٨٤ ، تقديرا لهذه الاكتشاف الهام في مجال الفيزياء التجريبية للطاقات العالية .

وقد اعتبر هذا الاكتشاف دعما وتعزيزا قويا للنظرية الكهروضعيفة ، وهي النظرية الحديثة التي توحد بين التفاعلين ـ الكهرطيسي والضعيف وقد قدم هذه النظرية في عام ١٩٦٨ ، وبطرق مستقلة ، ثلاثة من أشهر الفيزيائيين النظريين في العالم اليوم ، وهم الباكستاني عبدالسلام والامريكيان واينبرغ وغلاشاو . ولا يتسع المجال هنا للخوض في تفاصيل هذه النظرية ، ولكنها تقول بانه في مجال الطاقات العالية جدا (كما كان الوضع بعد حادث الدوي الاعظم الكوني) يكون التفاعلان الكهرطيسي والضعيف متشابهين تماما ، ولايمكن التمييز بينهما . لكن في مجال الطاقات المنخفضة نسبيا ، ينكسر هذا التناظر التام بين التفاعلين ، ويظهران كتفاعلين مختلفين تماما . وقد نال هؤلاء الفيزيائيون جائزة نوبل لعام ١٩٧٩ ، تقديرا لأهمية هذا العمل التوحيدي في مجال الفيزياء النظرية الأساسية .

والمجموعة الثالثة من الجسيمات الأساسية ، أي مجموعة الميزونات ، تتألف من عدد من الميزونات ، وهي الميزون باي والميزون كي والميزون ايتا ـ والتي تسمي ب (البايون) وال (كيون) وال (ايتون) على التوالي . وتخدم هذه

الجسيمات من الناحية الأساسية في نقل التفاعل القوي بين الجسيمات النووية . فقد رأينا سابقا أن البايون يحمل التفاعل القوي(القوى النووية) بين البروتون والنيوترون ، مما يؤدي إلى ترابط واستقرار النواة .

والمجموعة الرابعة الأساسية ، مجموعة الباريونات ، تضم البروتون والنيوترون وماشابهها من الجسيمات الثقيلة التي تشارك في التفاعل القوي . والتطور الهام الذي حصل في هذا المجال هو نظرية الكوارك التي قدمها كل من الفيزيائيين غيلمان وزوايغ ، مستقلين عن بعضهما البعض ، في عام ١٩٦٣ . هذه النظرية ، التي اعتمدت في الاصل على دراسات بعض التناظرات الرياضية بين الباريونات ، تقول بان البروتون والنيوترون وغيرهما من الباريونات ليست جسيمات أساسية وإنما هي في الحقيقة جسيمات مركبة من جسيمات أخرى اصغر منها في الحجم .

هذه الجسيمات المتناهية الصغر هي الكواركات (مجموع كوارك) . ويعتقد بان هناك ستة أنواع من الكواركات ، أهمها الكواركان «أعلى» و«أسفل» . الكوارك أعلى له شحنة تعادل $\frac{٢}{٣}$ مقدار شحنة الالكترون والاسفل له شحنة تعادل $\frac{١}{٣}$ مقدار شحنة الالكترون فالبروتون يتألف من الكواركات الثلاث التالية : (اعلى) و(اعلى) و(اسفل) ، وبذلك فان شحنة البروتون تساوي مقدار شحنة الالكترون (وهي موجبة) . أما النيوترون فيتألف من الكواركات الثلاث التالية : (أعلى) و(أسفل) ، و(أسفل) ، وبذلك تكون شحنة النيوترون الكلية صفرا ، كما هو معروف . كما أن الميزونات نفسها ، مثل البيونات ، يتألف كل منها من زوج من الكواركات أعلى وأسفل ومضاداتها . وهناك أمور غريبة حول الكواركات فشحناتها الكهربائية تساوي أعدادا كسرية (غير صحيحة) من مقدار شحنة الالكترون ، وهي المرة الأولى التي نقابل فيها هذا الوضع . والأمر الآخر هو أنه لم يتمكن أحد من مشاهدة الكواركات الآن ، بل يبدو أن هذه الكواركات توجد فقط مختبئة داخل الباريونات والميزونات (وهي مجموعة كبرى تدعى بالهادرونات) ولايمكن فصلها عن بعضها البعض إذ يبدو أن قوة التجاذب بين هذه الكواركات لاتتناقص مع تزايد المسافة ، كما هو الوضع في التفاعلات الأخرى وبذلك لايمكن كسر الرابطة بين هذه الجسيمات . ومع ذلك ، فان نظرية الكوارك ، إذا ثبتت صحتها كماهو متوقع ، ستخفّض عدد الجسيمات الأساسية إلى حد كبير . إذ يمكن عندئذ تركيب مئات الهادرونات من عدد محدود جدا ـ ستة على وجه التحديد ـ من الكوارزكات ، مما يشكل قفزة هائلة في هذا المجال .

وتجري الآن محاولات عديدة أخرى لتبسيط وتوحيد موضوع الجسيمات الاساسية فهناك الاتجاه إلى تطوير «نظرية موحدة كبرى» ، وهي نظرية للتوحيد بين القوتين ، الكهروضعيفة والقوية . كما أن هناك اتجاها لتطوير نظرية «الأوتار الفائقة» Superstrings التي تنطوي على مفهوم أن الجسيمات هي عبارة عن حالات مختلفة لوتر ما ، حيث تمثل الحالات المختلفة أنماطا مختلفة من الحركة في فضاء ما . ولاتزال هذه المحاولات في بدايتها ، لكنها تلقي اضواء على جوانب مختلفة من هذا الموضوع المثير .

وهناك أخيرا التفاعل الثقالي بين الجسيمات ، وهو الموضوع الذي وضع أسسه نيوتن في القرن السابع عشر ، هذا التفاعل هو أضعف من التفاعلات الأخرى بكثير (فهو أضعف من التفاعل الكهرطيسي مثلا بحوالي $١٠^{٣٨}$

مرة) ، لكنه يلعب دورا رئيسيا في ترابط الأجسام العادية والكبيرة مثل ترابطنا مع الأرض وترابط الكواكب مع الشمس ، على سبيل المثال ـ لكنه لايلعب أي دور مثلا في ترابط الذرات أو ترابط النوى ، وذلك بسبب ضعف هذا التفاعل «الثقالي» مقارنة مع التفاعلات الأخرى . لكن تجري الآن محاولات لمعالجة هذا التفاعل بطريقة كمومية مشابهة لمعالجات التفاعلات الاخرى . وحسب هذه النظرية فان التفاعل الثقالي (بين كتلتين) يتم بتبادل جسيمات تدعى غرافيتونات (جمع غرافيتون) بينهما ، حيث تلعب دور الجسيم الوسيط الذي يحمل التفاعل ـ كما يحمل الفوتون التفاعل الكهرطيسي . لكن لم تتم مشاهدة لغرافيتون حتى الآن ، مما يضعف هذه النظرية إلى حد ما . إلا أن صعوبة هذه المشاهدة أمر متوقع تماما وذلك لضعف التفاعل الثقالي .

ومهما يكن الأمر ، فان التقدم السريع الذي يحصل الآن في هذا المجال يوحي ان المستقبل القريب سيحمل لنا تطورات هامة تكون ذات تأثير كبير في عالم الفيزياء والفيزياء الفلكية .

لمحة عن المنهجية الفيزيائية

بعد هذه الجولة الطويلة في عالم الفيزياء ، من قديمه إلى حديثه ، قد يكون مفيدا أن نأخذ استراحة قصيرة للتأمل في طبيعة هذا العلم وفي فلسفته وفي الطرق المستخدمة لنموه وتطويره . وقد نبدأ هذا الموضوع بالسؤال الطبيعي ـ ماهي الفيزياء ؟ ليس هناك في الحقيقة جواب واحد متفق عليه لهذا السؤال ، لكن جوابا ممكنا ومقبولا هو التالي : الفيزياء هو العلم الطبيعي المعني بدراسة القوانين العامة للمادة والطاقة بأشكالها المختلفة ، وبدراسة جميع التفاعلات الموجودة في الطبيعة . وبهذا فإن الفيزياء تعالج الحركة والزمن وتركيب وبنية الاجسام ، وتعالج الصوت والضوء وتعالج الذرات والنجوم والكواكب ، وتعالج أيضا فناء المادة وتوليدها وغير ذلك من الظواهر والأشياء الفيزيائية . وكلمة (فيزياء) تأتي من الكلمة اليونانية القديمة (فيزيس) ، التي تعني جوهر الحقيقة أو الصيغة النهائية للحقيقة . لذلك فإن الفيزياء تسمى أحينا ب (الفلسفة الطبيعية) أو فلسفة الطبيعة .

وتهدف الفيزياء ، والعلوم الطبيعية الأخرى ، الى أن تعطينا فهما شاملا وكاملا للكون الذي تعيش فيه . و «الفهم» هنا يعني تحويل الأحداث والظواهر المختلفة التي نرصدها إلى أفكار ومبادىء عامة لها انتظامات معينة ومميزة .

وتبدأ العملية في العادة ب (البيانات) الناتجة عن عمليات قياس ورصد على ظاهرة ما أو حادث ما ، من هذه البيانات ، يحاول الفيزيائي أن يحدد نمطا واضحا يربط هذه البيانات ببعضها بعضا . وعندما يعبر العالم عن هذا النمط بمعادلة رياضية أو (أكثر) فانه يحصل على (قانون) ـ أو (مبدأ) ، كما يسمى احيانا . لكن هذا القانون يبقى تجريبيا بحتا ، بسبب ارتباطه الوثيق بالبيانات التجريبية ، هذا القانون لايمكن اعتباره بعد على انه شرح كامل للظاهرة التي نرصدها ، أو لظواهر أخرى مرتبطة معها بشكل أو آخر . لكن يبذل الفيزيائيون جهودا للحصول على هذا الشرح الشامل ، وعندما ينجحون في ذلك فانهم يحصلون على (نظرية) . هذه النظرية تستطيع أن تشرح

القانون وتفسر البيانات للظاهرة المرصودة والظواهر العديدة الأخرى المرتبطة بها . فالتطور الطبيعي إذن يتم بالشكل الآتي : بيانات ـ قانون ـ نظرية .

وخير مثال على هذه العملية التطورية الفيزيائية هو دارسة حركة الكواكب في النظام الشمسي . لقد بدأت العملية جديا باعمال الفلكي (براهي) في القرن السادس عشر ، حيث أجرى وجمع عددا هائلا من البيانات الدقيقة عن حركة الكواكب ، أي عن مواقع هذه الكواكب وعن تغير هذه المواقع من يوم لآخر على مدى سنوات طويلة . هذه البيانات أتت من ملاحظة الطبيعة نفسها وكانت دقيقة ومفصلة وموثوقة . لكن براهي نفسه لم يستطع ان يستخلص أن نمط (علاقة) تربط بين هذه البيانات ، رغم جهوده ومحاولاته في هذا الاتجاه . وقد تم اكتشاف القانون المنشود من قبل مساعده كيبلس الذي درس هذه البيانات بالتفصيل ، ونجح في الربط بينها ، وخصوصا بالنسبة لحركة كوكب المريخ . هذه هي قوانين كيبلر الثلاثة التي تكلمنا عنها سابقا (جزء ١ ـ ١) ـ حيث يحدد القانون الأول شكل المدار الكوكبي حول الشمس (قطع ناقص) ، ويحدد القانون الثاني اعتهاد سرعة الكواكب على مكانه في المدار ، ويربط القانون الثالث بين الزمن الدوري ونصف قطر المدار .

ورغم أهمية هذه القوانين ، فإنها ظلت تجريبية بحتة ، بدون استناد إلى نظرية شاملة تستطيع تفسيرها . وقد أتت هذه النظرية أخيراً على يدي (نيوتن) ـ الذي قدم قوانين جديدة عن الحركة القوة والكتلة (قوانين نيوتن الثلاثة ـ جزء ٢ ـ١) وقانوناً رابعاً جديداً تماماً بخصوص التجاذب الثقالي بين الكتلات . (ويلاحظ هنا أن قوانين نيوتن الحركية نفسها كانت مستخلصة من بيانات عديدة على حركة الاجسام على الأرض) .

وباستخدام هذه القوانين جميعها بطرق رياضية واضحة ، تمكن نيوتن من « اشتقاق » قوانين كيبلر جميعها . وهكذا نستطيع أن نعتبر أن أعمال نيوتن تشكل نظرية كاملة . ومن خواص النظرية ، كما رأينا ، مقدرتها على معالجة ظواهر أخرى أو التنبؤ بظواهر جديدة . وهذا ينطبق على نظرية نيوتن ، التي لم تقتصر على شرح حركة الكواكب ، بل استطاعت أيضاً أن تفسر السقوط الحر للاجسام عند سطح الأرض ، ودوران القمر حول الأرض ، وهي النظرية نفسها التي نستخدمها الآن في دراسة حركة الاقمار الصناعية المتعددة حول الأرض .

ومن الصفات الرئيسية لعلم الفيزياء تطوره وتقدمه المستمر . فالأجهزة الحديثة والمتطورة باستمرار تمكننا من إجراء قياسات في مجالات جديدة وبدقة أكثر مما مضى . وقد أدى ذلك إلى تطور مستمر في النظريات الفيزيائية . فقياسات مايكلسون الدقيقة لسرعة الضوء ، على سبيل المثال ، أدت في النهاية إلى نظرية آينشتاين النسبية في عام ١٩٠٥ ، مما أدى الى تغيير شامل في نظرية نيوتن الحركية . وقد أمكن التأكد من صحة كثير من نتائج النظرية النسبية من خلال تجارب جديدة أجريت على جسيمات في مسرِّعات عالية الطاقة لم تكن متوفرة منذ وقت طويل . هكذا فان « نظرية » نيوتن ليست مطلقة الصالحية ، وانما هي « نظرية » أو « برنامج » عملي ومفيد صالح ضمن حدود معينة من السرعة وعوامل أخرى . وحتى نظرية آينشتاين نفسها قد لا تمثل الحقيقة النهائية عن الموضوع ، وإنما هي أيضاً

نموذج صالح ومؤقت ومفيد ، تخلفها نظرية جديدة أكثر دقة منها ، وهكذا ، وفي هذه الحالات ، يشير الفيزيائيون إلى النظرية المحددة على أنها نموذج ـ اي برنامج مبسط لدراسة ظاهرة ما . فلو شئنا دراسة موضوع ما ، وأردنا تجنب التعقيدات النسبية الكثيرة ـ وغير الضرورية في كثير من الأحيان ـ فاننا نستطيع استخدام (النموذج النيوتنى) ، على أنه كاف لدراستنا ضمن الظروف المحددة .

وقد لعبت الرياضيات دوراً هاماً في تطور العلم الفيزيائى . فالفيزياء علم كمي ، والمفاهيم الفيزيائية ـ كالكتلة والطول والتابع الموجي ـ يعبّر عنها برموز رياضية جبرية تدخل معادلات رياضية مختلفة فالتعبير عن القياسات والبيانات والعلاقات بمعادلات رياضية له فائدة كبيرة في تلخيص كميات هائلة من البيانات والأفكار بمعادلات قليلة جداً وإبراز الافكار الرئيسية في الموضوع . أضف الى ذلك ، أن المعالجة الرياضية تؤدي في كثير من الأحيان إلى نتائج جديدة غير متوقعة . ففي أعمال ماكسويل الكهرطيسية (جزء ٤ ـ ٣ ـ ٤) ، تلخيص واحتواء لجميع أعمال من سبقوه عن الموضوع ـ كولومب وامبير وفارادي ـ والتي تشكل مجلدات عديدة . وتمكن ماكسويل من التعبير عنها جميعها بواسطة بضع معادلات رياضية بسيطة وأنيقة المظهر . ولكي يجعل التناظر الرياضى ـ الفيزيائي بين المجالين الكهربائي والمغنطيسي كاملاً ، أضاف ماكسويل طرفا للمعادلة عرف باسم « تيار الانزياح » . ومن خلال معالجة بسيطة لمعادلاته هذه ، اكتشف شيئين جديدين غير متوقعين وعلى غاية الاهمية : الأول هو إمكانية وجود أمواج كهرطيسية ، والثاني هو أن الأمواج الضوئية هي في الحقيقة نوع من الأمواج الكهرطيسية . وقد تم فعلاً اكتشاف هذه الأمواج من قبل هيرتز بعد سنوات قليلة من تنبؤات ماكسويل . وهناك أمثلة كثيرة أخرى يمكن ان نسوقها للتدليل على أهمية الرياضيات في الفيزياء ، ومن أبرزها حديثاً تنبؤ ديراك بوجود البوزيترون ـ أو الالكترون المضاد . هذا الجسيم هو الأول بين الجسيمات المضادة التي اكتشفت نتيجة لما افترضه ديراك في أواخر العشرينات نتيجة لمعالجته لحركة الالكترون ضمن مقتضيات ميكانيك الكم والنظرية النسبية وبعض التناظرات الرياضية .

ونذكر أخيراً أن البحث في توحيد القوى الفيزيائية والربط بينها لعب دوار حيويا وحفازاً في تقدم الفيزياء وتطويرها عبر فترة طويلة من الزمن . ففي القرن التاسع عشر ، مثلاً أدت اعمال أمبير وفاراداي وأخيراً ماكسويل إلى توحيد تام وشامل بين مجالي الكهرباء والمغنطيسية ، اللذين كانا منفصلين تماما في القرن الثامن عشر ثم أعقبهم آينشتاين في قرننا العشرين ليثبت أن المجالين الكهربائي والمغنطيسي هما في الواقع من طبيعة واحدة ، وأن وجود أحدهما أو عدم وجوده يعود الى حركة إطار الراصد الذي يجري التجربة ، وفي السنوات الأخيرة قام عبدالسلام ـ واينبرغ ـ غلاشاو بتوحيد التفاعلين الكهرطيسي والضعيف ، وهو عمل يشبه إلى حدما التوحيد بين الكهرباء والمغنطيسية الذي أشرنا إليه سابقاً . هذا ومن المعروف ان آينشتاين قضى جزءاً كبيرا من حياته في محاولات لتوحيد التفاعل الثقالي مع التفاعلات الأخرى .

إن الحلم الأكبر للفيزيائيين يكمن في التوصل في النهاية الى معادلة أو نظرية واحدة تضم محتويات جميع التفاعلات والقوى المعروفة في الطبيعة . ومع أن هذا الهدف قد يبدو غير واقعي الآن إلا أن « النظرية » الجديدة المعروفة ب (نظرية الوتر الفائق) تجسد فعلاً هذا الهدف ويأمل أنصارها أن تكون النظرية التى « تشرح كل شيء » .

لكن يجب الاشارة إلى أن هذه ليست الآن نظرية بالمعنى المعروف ، وانما هي فرضية تتعرض لاختبارات عديدة نظرية وتجريبية ـ قبل قبولها كنظرية أو رفضها أو تعديلها .

ونختتم هذا العمل بقول من الفيزيائي ـ الرياضي الفرنسى العظيم « لوانكازى » (١٨٥٤ ـ ١٩١٢) عن أهمية علاقة الفيزياء بالطبيعة : « نحن اليوم لانقوم باستجداء الطبيعة . اننا نأمرها ، لاننا اكتشفنا بعضا من أسرارها وسنكتشف أسرارا أخرى كل يوم . نحن نأمرها باسم قوانين لاتستطيع أن تخالفها ، لان القوانين هي قوانينها . ونحن لانطالبها بمخالفة هذه القوانين ، بل نرضخ لها بكل رضا . وهكذا يمكن أن نحكم الطبيعة بالرضوخ الى قوانينها » . هذا القول يجب أن يذكرنا بان الفيزياء هي ، قبل وبعد كل شيء ، علم يستمد قوته من التجربة ويحتكم اليها ، ولغته هي الرياضيات ، أما هدفه فهو ليس أقل من الوصول الى (جوهر الحقيقة) .

السجل الزمني لتطور نظريات الفكر الفيزيائى :

عام ١٦٠٠ (جيلبرت) يقوم بالتجارب الاولى في مجالي المغنطيسية والكهربائية .

١٦٣٨ (غاليليو) ينشر كتابه « علمان جديدان » وفيه وضع أسس الديناميك ، وكذلك أسس الطريقة التجريبية (بدلا من المنطقية الفكرية) في دراسة الطبيعة .

١٦٦٢ (بويل) يكتشف قانونه في الغازات .

١٦٧٥ نيوتن يعلن نظرية الضوئية الجسيمية .

١٦٧٨ هايغنز يعلن النظرية الموجية للضوء (تطور النظرية وتوضع في صيغة رياضية في عام ١٧٥٠ من قبل الفيزيائي الرياضي الشهير اويلر) .

١٦٨٧ نيوتن ينشر كتاب « المبادىء الرياضية » الذي يشتمل على القوانين الاساسية للميكانيك والثقالة . من أعظم التطورات في تاريخ الفيزياء .

١٧٣٨ بيرنوني يقترح النموذج الاول للنظرية الحركية للغازات .

١٧٦٦ كافينديسن يكتشف خلال السنوات القادمة قانون التربيع العكسي للتفاعل بين الشحنات الكهربائية ، وقوانين أخرى في الكهرباء لم ينشر النتائج بسبب خجله وانعزاليته المفرطتين لكنها ظهرت فيما بعد عندما نشر ماكسويل هذه الأعمال .

١٧٨٥ كولومب يكتشف قانون التربيع العكس بين الشحنات الكهربائية .

١٨٠٠ فولطا يصنع البطارية الأولى ، بعد تجارب غالفاني في ١٧٨٠ عن الكهرباء الحيوانية .

١٨٠١ يونغ يبرهن أن تجربته في التداخل الضوئي متفقة مع النظرية الموجية .

١٨١٠ ـ ١٨٧٥ فرينيل ومالوس وفيزو فوكولت في فرنسا يثبتون من خلال تجارب عديدة أن الضوء يتألف من أمواج معترضة ، ويقومون كذلك بقياس سرعة الضوء في الفراغ والأوساط المختلفة .

١٨١٥ ـ ١٨٢٠ فراونهوفر يلاحظ الخطوط للعناصر ، وايضا الخطوط الامتصاصية في الطيف الشمسي .

١٨٢٠ اور ستيد يكتشف أن التيار الكهربائي يولد مجالا مغنطيسيا إنها بداية الكهرطيسية .

١٨٢٣ امبير ينشر النظرية الرياضية للكهرطيسية بما فيها المجال المغنطيسي للتيار الكهربائي .

١٨٢٦ اوم يكشف قانونه عن الدائرة الكهربائية .

١٨٣١ فاراداي وايضا هنرى يكتشفان قانون الحث الكهرطيسي .

١٨٤٢ دوبلر يكتشف ظاهرة اعتماد طول الموجة أوالتردد على حركة المصدر او الراصد .

١٨٤٢ ماير يحسب المكافىء الميكانيكي للحرارة ، عن طريق الحرارة النوعية للغازات .

١٨٤٣ جول يقوم بتجارب تثبت التكافوء بين الطاقة الميكانيكية والحرارة ـ خطوة أساسية نحو قانون حفظ الطاقة .

١٨٤٧ هيلمهرلتز يقترح قانون حفظ الطاقة (استعمل كلمة القوة بدلا من الطاقة) .

١٨٨٤ جول يطور النظرية الحركية للغازات ويحصل على التفسير الميكانيكى لدرجة الحرارة

١٨٥٠ ـ ١٩٠٠ ماكسويل وبولتزمان (وايضا جيبز في امريكا) يطورون النظرية الحركية الاحصائية للغازات .

١٨٥٩ كير كوف يقوم بدراسات طيفية عديدة على الغازات والسطوح المشعة .

١٨٦٤ ماكسويل ينشر النظرية التي توحد الكهرباء والمغنطيسية والضوء . من أعظم الاعمال منذ كتاب نيوتن .

١٨٧٩ كروك يجرى تجارب عديدة رائعة عن التفريغ الكهربائى في الغازات

١٨٧٩ ستيفان ينشر القانون الذي يحدد علاقة القدرة الاشعاعية مع درجة الحرارة للسطح الاسود .

١٨٨٤ بالمر ينشر علاقة عددية لطول الموجات في طيف الهيدروجين .

١٨٨٧ مايكلسون ومورلي يجريان التجربة الدقيقة الأولى لقياس حركة الارض في (الاثير) . النتيجة كانت سلبية ، لكنها أدت الى تطورات هامة .

١٨٨٧ هيرتز يثبت وجود الأمواج الكهرطيسية التى تنبأ بها ماكسويل

١٨٩٣ ڤين يشتق قانون الانزياح في إشعاع السطح الأسود .

١٨٩٥ رونتغن يكشف الاشعة السينية .

١٨٩٦ بيكيريل يكتشف الاشعاع النووى في اليورانيوم .

١٨٩٧ تومسون يقيس النسبة بين شحنة الالكترون وكتلته .

١٨٩٧ رذرفورد يبدأ تجاربه عن الإشعاعات رلنووية .

١٨٩٨ بيير وماري كيوري يفصلان عنصرى الراديوم والبولونيوم .

١٩٠٠ بلانك يقدم النظرية الكمية للاشعاع .

١٩٠٣ رذرفورد وسودى يثبتان ان الاشعاع النووى يؤدى الى تحويل عناصر المواد المعينة .

١٩٠٥ آينشتاين يقدم النظرية النسبية الخاصة الفوتونية للتأثير الكهرضوئى (ومعالجة إحصائية للحركة البراونية) .

١٩٠٧ رذرفورد يقدم نموذجه النووي للذرة

١٩٠٧ ـ ١٩١٢ تومسون مرة أخرى ، يبدأ بتطوير جهاز مطياف الكتلة .

١٩٠٩ ـ ١٩١١ ميليكان يقيس شحنة الالكترون

١٩١١ كاميرلينغ ـ أونز يكتشف الناقلية الفائقة ، بعد ان استطاع إسالة* الهيليوم .

١٩١٣ بوهر يقدم نموذجه عن بنية ذرة الهيدروجين .

١٩١٥ آينشتاين يقدم النظرية النسبية العامة . التحقيق التجريبى الأول للنظرية أتي في عام ١٩١٩ خلال قياسات عن انحراف الضوء خلال الكسوف الشمسى .

١٩١٩ رذرفورد ينتج هيدروجين واوكسجين من تصادم الفا مع النيتروجين . إنه التحويل العنصرى الاصطناعى الأول في التاريخ .

١٩٢٤ دى برويل يقدم مفهوم الأمواج المادية .

١٩٢٥ اولينبيك و وغود سميت يقترحان وجود خاصية اللف للالكترون .

١٩٢٥ باولي ينشر مبدأ الاستبعاد .

١٩٢٥ هايزنبرغ وبورن وايضا جوردان يطورون ميكانيك الكم .

١٩٢٦ شروديغر يقدم النظرية الكمية ـ الموجية للهيدروجين .

١٩٢٧ هايزنبرغ يعلن مبدأ الارتياب في ميكانيك الكم .

١٩٢٧ دافيسون وجيرمر وايضا تومسون الابن يحصلون على الانماط الحيوديه للالكترون . ويتنبأ بوجود البوزيترون .

١٩٣٢ لورانس يبنى مسرع السايكلوترون الأول .

١٩٣٢ تشادويك يكتشف النيوترون

١٩٣٢ آندرسون يكتشف البوزيترون

١٩٣٨ هان وستراسهان يكتشفان الانشطار النووى في اليورانيوم بسبب ارتطام النيوترون به وتولد نيوترونات أخرى من الانشطار . بداية التفكير بالتفاعل التسلسلي .

١٩٣٩ بيت وفايساكير يقترحان الاندماج النووى كمصدر للطاقة في الشمس والنجوم .

١٩٣٩ أوبينهايمر يقترح وجود الثقوب السوداء فى الكون .

١٩٤٢ فيرمى . يبنى المفاعل النووى الأول في التاريخ .

١٩٤٥ تطوير وتفجير القنبلة النووية الأولى في التاريخ وانتهاء الحرب العالمية الثانية أصبح كل شيء مهيأ لولادة عصر جديد من التكنولوجيا وبداية الثورة الصناعية الثانية .

***

المراجع

١ - Abro A. The Rise of the New Physics (Dover, 1951) Vols. I and II.

٢ - Arons, A., Development of Concepts in Physics)Addison - Wesley. 1965).

٣ - Cajori, F. A History of Physics (Dover, 1962),

٤ - Dampier, W.C., A History of Science (Cambridge, 4th ed. 1966).

٥ - Einstein, A., and Infeld, L., The Evolution of Physics (Simon the Schuster, 1961).

٦ - Gribbin, J., Schrodinger's Cot (Wild-Wood House, London, 1984).

٧ - Hey, T., and Writers, P., The Quantum Universe (Cambridge, 1987)

٨ - Holton, G., Roller, D.H.D. and D., Modern Physical Science (Addison-Westley, 1958).

٩ - Maggie, W.F., A Source Book in Physics (McGraw-Hill, 1935).

١٠ - Mason, S.F., A History of the Sciences (Collier, 1962).

١١ - Phillips, M.N., Physics History from AAPT Journals (American Associtíon of Physics Teachers, 1985).

21 ' Sears, F.W., et. al,m University Physics. (Aoldison-Wesley, 6th ed., 1982).

١٣ - Weori, S.R. and Phillips, M., History of Physics (American Institute of Physics-1985).

١٤ - Webber, R.L., Pioneers of Science (The Institute of Physics, London, 1980).

١٥ - Hecht, E., Physics in Perspective (Addition-Weseley, 1980).

❊ ❊ ❊

بحوث العمليات علم حديث أم منهج جديد؟

عبدالغني الإمام

ملخص :

تسرد هذه الورقة تسلسل الأحداث التي أدت الى نشأة بحوث العمليات وتطور تطبيقاتها العملية بدءا باستخداماتها في المجال العسكري ، خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وانتشارها فيما بعد لتغطي العديد من المجالات الصناعية والزراعية والصحية والتعليمية والاجتماعية . ويتطرق المقال الى المنهج العلمي وطرق توظيفه في تطبيقات بحوث العمليات بما في ذلك خطوات تطوير وحل النماذج الرياضية .

وملحق بالبحث أمثلة لاستخدام نماذج البرمجة الخطية والنقل والبرمجة الديناميكية وخطوط الانتظار في مجال الصناعة ، وتوزيع المنتجات وتخصيص الأعمال والصيانة ، وبعض تطبيقات بحوث العمليات في المجالين التعليمي والصحي ، بهدف تقريب مفهوم بحوث العمليات الى ذهن القارىء .

ويتناول البحث التطور والنمو المتوقعين في بحوث العمليات خاصة من حيث تنوع مجالات التطبيقات ونوعية الأبحاث المستقبلية . كما يعرض للتطور في الجمعيات المهنية والدوريات العلمية وبرامج التعليم في مجال بحوث العمليات . وفيه نبذة مختصرة عن تطور بحوث العمليات في الوطن العربي ومحاولة استشفاف الدروس المستفادة من الأحداث التي أدت الى تطور ونمو بحوث العمليات .

وتنتهي الورقة بمحاولة للاجابة عن السؤال المطروح بعنوان المقال «بحوث العمليات : علم حديث أم منهج جديد»؟

البدايات :

ليس من العسير ، وعلى خلاف غالبية المجالات العلمية والتقنية الحديثة الأخرى ، التعرف بدقة على مجريات الأحداث التي أدت الى ظهور بحوث العمليات ، نظرا لقرب العهد ببداياتها ولان تطورها موثق توثيقا جيدا لارتباطها بالمجال العسكري في نشأتها . ففي عام ١٩٣٥ ، وكجزء من مجهودات بريطانيا لتجهيز الوسائل الكافية للتصدي للتهديد المنافس لسلاح الجو الألماني ، قام العديد من العلماء باجراء سلسلة من التجارب العاجلة بهدف تحديد موقع طائرة عن طريق ارسال موجات راديو من محطات أرضية والتعرف على انعكاساتها عن الطائرة فيما عرف بعد ذلك باسم الرادار . ولقد تبلور علم بحوث العمليات لنفس السبب الذي استحدث من أجله الرادار ، ألا وهو استيفاء الاحتياجات العسكرية للدفاع عن بريطانيا ضد الهجمات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية . ويصعب فهم مصدر بحوث العمليات بدون النظر الى أصل الرادار ، خاصة وأن أول مجموعة لدراسات بحوث العمليات تكونت بالكامل من الرواد والعلماء ذوي الخبرة في الأبحاث التقنية لتطوير الرادار . لقد بدأت هذه التجارب في أورفوردنيس Orfordness على الساحل الشرقي لبريطانيا على بعد حوالي مئة كيلومتر شمال مصب نهر التيمز واستمر العمل بعد هذا في بودزي Bawdsey، على بعد ١٦ كيلومترا الى الجنوب ، حيث استقر فريق البحث وتم تركيب المعدات المصممة حديثا . ومن الواضح أن معظم الرواد الأوائل لبحوث العمليات اعتبروا عملهم علميا بالدرجة الأولى . اذ يقول بلاكيت (Blackett, 1962) في عام ١٩٤١ ان دراساتنا ما هي الا « تحليل علمي للعمليات » ، مؤكدا توفير الظروف المناسبة لمثل هذا العمل بقوله : « المطلوب هو بحث علمي من الدرجة الأولى يقوم به باحثون ذوو قدرات علمية عالية ».

ومن الخصائص الواضحة لبحوث العمليات كما تمارس اليوم أنها ذات صبغة عملية ، اذ أن غرضها هو المساعدة في ايجاد وسائل تحسين كفاءة العمليات الجارية أو المستقبلية . ولانجاز ذلك فلابد من دراسة العمليات السابقة بهدف التعرف على الحقائق ولتوضيح النظريات التي تشرح هذه الحقائق ، واستخدام هذه النظريات والحقائق لاستشراف العمليات المستقبلية في تحقيق غاية مقصودة . وبطبيعة الحال ، فان الاستشراف غالبا ما يتعرض لتغير كبير الا أن هناك كثيرا من الوسائل الكمية للاستشراف أعطت نتائج مرضية تشير الى الاستقرار النسبي والملموس كثيرا في العوامل التي تؤثر في العمليات المتكررة . ويلاحظ كل من مورس وكمبال (Morse and Kimball (1946) أن الكثير من القوى البشرية والآلات التي تقوم بعمليات معقدة تتبع خطوات منتظمة بطريقة تبعث الى الدهشة ، الأمر الذي يمكن باحثي العمليات من استشراف نتائج هذه العمليات بدقة وعلى غير ما يعتقده كثير من علماء العلوم الطبيعية .

ويعزو الرواد الأوائل في مجال بحوث العمليات حداثة ما يقومون به الى سببين رئيسيين : الأول يتعلق بظاهرة خضوع نظم التشغيل (Operating Systems) الى الدراسة العلمية والثاني يتناول الترتيبات الادارية التي طورت بهدف التنفيذ العملي لما تم استخلاصه من الدراسة العلمية ، وما زالت هذه الرؤية صالحة الى يومنا هذا .

* أحداث ما قبل الحرب العالمية الثانية وعلاقتها ببحوث العمليات :

نتناول هنا الأحداث ذات الأهمية في نشأة بحوث العمليات خلال السنوات (١٩٣٣ - ١٩٣٩) ، ابتداء من تولي أدولف هتلر مقاليد السلطة وحتى انفجار الموقف عام ١٩٣٩ . ونسرد هذه الأحداث كما يرويها أحد العلماء الذين شاركوا فيها ، هارولد لارندر Harold Larnder (1984) اذ قدم باختصار أنشطة بحوث العمليات قبل وأثناء الشهور الأولى للحرب عندما ساهمت دراسات بحوث العمليات في الانتصار في معركة بريطانيا عام ١٩٤٠ . وتقف الأحداث في هذه السنوات كعلامة مميزة وسباق هام مع الوقت بين هتلر الذي أعلن عن عزمه بناء قوة جوية ضاربة تتعدى قدرات كل من سلاحي الجو البريطاني والفرنسي مجتمعين وبين بريطانيا في تطوير قدرات الدفاع الجوي حتى تصبح فعالة في مقاومة الهجمات الألمانية على الجزر البريطانية .

عام ١٩٣٣ لم تكن ألمانيا تمتلك حينئذ القوة الجوية التي تهاجم بها بريطانيا ولم يكن لدى بريطانيا ، دفاع ضد الهجمات الجوية . وهناك فارق واضح بين موقف الدولتين . فلم تكن هناك معوقات سياسية أو عملية تعرقل بناء القوة الجوية الألمانية كما تصورها هتلر في ذلك الوقت . وعلى العكس من ذلك ، كانت بريطانيا تواجه مشكلة تقنية ليس لها حل . وتتعاظم المشكلة لأن الجزر البريطانية تقع على بعد حوالي ٧٠ ميلا من الساحل الألماني ، أي مجرد ١٧ دقيقة طيران للقاذفات الألمانية . ولم تتوافر في ذلك الوقت الوسائل الكفيلة بتحذير دفاعات الجو البريطانية ضد هجمات العدو عن طريق متابعة تحركات القاذفات المعادية بما يتيح للمقاتلات الجوية الدفاعية الوقت الكافي للاقلاع والاشتباك معها قبل وصولها الى معظم التجمعات المعرضة للهجمات بالجزر البريطانية .

عام ١٩٣٤ انصرف الألمان الى بناء قوتهم الجوية بينما عجز البريطانيون عن ايجاد حل لمشكلتهم الأساسية للانذار المبكر . وعلى هذا كان من الطبيعي أن يركز سلاح الجو الملكي البريطاني على بناء القاذفات بدلا من المقاتلات . وفي الوقت نفسه ، ونظرا للحاجة لاتخاذ إجراء ما للتغلب على غياب وسائل الانذار المبكر ، كوّن سلاح الجو في شهر ديسمبر من ذلك العام لجنة برئاسة سير هنري تيزارد «Sir Henry Tizard» لمراجعة الوسائل العلمية للدفاع الجوي وكانت المهمة الرئيسية لهذه اللجنة هي الاجابة عن السؤال الآتي : « الى أي مدى يمكن الاستفادة من أحدث ما توصلت اليه المعرفة العلمية والتقنية لتقوية وتعزيز الوسائل الحالية للدفاع ضد الطائرات المعادية ؟».

وفي غياب حل واضح للمشكلة وجهت اللجنة اهتمامها نحو دراسة امكانية بناء سلاح دفاعي لا يتطلب وقتا طويلا لانذار الطائرات المقاتلة . وعلى الرغم من أن وقت الانذار الذي تتطلبه المدفعية المضادة للطائرات مقبول ، الا أن استعمالها الفعال استبعد لعدة أسباب . لذا اتجهت اللجنة نحو البحث في امكانية تطوير « شعاع للموت Death Ray » يستخدم في قتل أو شل قدرة الطيار أو تعطيل الطائرة المهاجمة . ومن أجل انجاز هذا السلاح استشارت اللجنة العديد من العلماء والمهندسين البارزين .

عام ١٩٣٥ قام أحد أعضاء اللجنة بدعوة « روبرت واتسون وات Robert Watson Watt » الى النظر في امكانية تطوير سلاح « شعاع الموت ». على الرغم من شكوكه المبدئية باستحالة الفكرة الا انه قام مع معاونيه بالنظر

والبحث في هذه المشكلة . ولقد أكدت الدراسة استحالة الفكرة الا أنها كشفت عن الحاجة الى تحديد موقع الطائرة المعادية (حتى لو أمكن تطوير شعاع الموت) بحيث يمكن توجيهه نحو الطائرة . وقام واتسون وات بابلاغ اللجنة انه على الرغم من عجزه عن اختراع شعاع الموت المطلوب الا أنه يعتقد أن الدراسة التي يقوم بها يمكن أن تؤدي الى تطوير وسيلة بالراديو لتحديد موقع الطائرة المعادية . وعزز واتسون وات ما قدمه للجنة بتجربة بسيطة أقنعت أعضاء اللجنة بتوفير الدعم المالي والعلمي المطلوب لتطوير ما يعرف الآن بالرادار . وبدأت التجارب في أورفوردنيس في مايو ، وخلال شهر واحد تم التوصل الى مدى يصل حتى ٣٩ ميلا لطائرات معلومة الموقع .

وعلى الرغم من القصور في قدرات الأجهزة (التي تم تجميعها على عجل) سواء في درجة الاعتماد على أدائها أو مدى انتقال الموجات الا أن نتائج هذه التجارب اعتبرت انفراجا علميا حقيقيا .

عام ١٩٣٦ قامت وزارة الطيران البريطانية بانشاء محطة بودزي للأبحاث على الساحل الشرقي بالقرب من مدينة فيلكستو Felixstowe في مقاطعة سافوك Suffolk كمركز لجميع تجارب الرادار لكل من الطيران والجيش . وتم تحسين قدرات أجهزة الرادار التجريبية حتى أمكن الاعتماد عليها لكشف طائرات على بعد مئة ميل . وفي هذه المرحلة وجهت الدعوة الى لارندر Larnder للالتحاق بفريق واتسون وات لابحاث الرادار

عام ١٩٣٧ تم القيام بأول تدريبات تمثل الحرب على الدفاع الجوي في صيف هذا العام وشغلت المحطة التجريبية للرادار في بودزي للحصول على المعلومات التي تم تغذيتها في نظام الانذار والمراقبة للدفاع الجوي . ولقد حصل فريق البحث على نتايج مرضية فيما يتعلق بالانذار المبكر ، ولكن لوحظ قصور في معلومات المتابعة الناتجة من الرادار .

عام ١٩٣٨ في يوليو من ذلك العام جرت المناورة الرئيسة الثانية في الدفاع الجوي . وانشئت أربع محطات رادار إضافية على الساحل ، الا أن المناورات كشفت عن صعوبات جديدة ومشاكل خطيرة هي الحاجة الى التنسيق والربط بين المعلومات الاضافية المتناقضة في كثير من الاحيان والتي تم استقبالها من محطات الرادار الاضافية . وهكذا أعلن رو A.P. Rowe رئيس محطة بودزي للابحاث أنه على الرغم من أن المناورات أظهرت الجدوى التقنية لاستخدام نظم الرادار في الكشف عن الطائرات المعادية الا أن قدراته التشغيلية عجزت عن الايفاء بمتطلبات الدفاع الجوي ، واقترح أن توجه الأبحاث فورا نحو الاعتبارات التشغيلية (Operational) بدلا من العوامل التقنية للنظام . وخرج الاصطلاح « بحوث العمليات Operational Research » الى حيز الوجود ليصف هذا الفرع الجديد للعلوم التطبيقية . وفي اليوم نفسه تم تكوين أول فريق لدراسة بحوث العمليات من بين علماء الرادار تحت قيادة « ويليامز E.G. Williams» وخلال أسابيع معدودات تم تكوين فريق آخر بقيادة روبرتس G.A. Roberts والتحق هذا الفريق بفرقة العمليات لمجموعة المقاتلات لملاحظة ودراسة المراقبين الذين يتعاملون مع المعلومات التي يتم تزويدها من مجموعة الرادار وسلاح الاشارة الملكي وقام أحد أعضاء الفريق الثاني ، وهو كول I.H. Cole، بدراسة الوسائل التقنية للتحكم في تشكيلات المقاتلات ضد تشكيلات القاذفات المعادية خلال العمليات النهارية ثم التحكم في

مقاتلة واحدة ضد قاذفة أثناء ساعات الظلام ، بالاضافة الى المقاتلات من طراز هاريكن Hurricane التي التحقت بالخدمة في عام ١٩٣٧ ، تم تشغيل المقاتلة سبتفاير Spitfire في عام ١٩٣٨ وتغيرت الأولويات لسلاح الجو من القاذفات الى المقاتلات .

ونشير هنا الى أن مستشاري رئيس الوزراء العسكريين آنئذ طلبوا منه قبل أن يذهب لمقابلة هتلر في ميونخ أن يبذل أقصى ما في وسعه لتفادي الحرب مع ألمانيا في ذلك العام .

عام ١٩٣٩ في صيف ذلك العام قام البريطانيون باجراء آخر مناورات الدفاع الجوي قبل اندلاع الحرب . وشارك فيها ما يقرب من ٣٣,٠٠٠ رجل و ١٣٠٠ طائرة و ١١٠ مدفع مضاد للطائرات و ٧٠٠ أضواء استكشاف ومائة بالونة تمويه . وقد أثبتت هذه المناورات نجاح طرق تشغيل نظام المراقبة والانذار للدفاع الجوي . وعزى هذا النجاح الى المساهمات القيمة التي قدمها الفريقان برئاسة كل من روبرتس ووليامز . ونظرا لأداء هذين الفريقين المتميز ، فقد طلب ماريشال الجو سير هيو دودنج Sir Hugh Dowding قائد قيادة المقاتلات التحاق أعضاء الفريقين بمقر قيادته في ستانمور Stanmore تحت مظلة ادارة جديدة سميت « بحوث ستانمور » (Stanmore Research)، رأسها لارندر ابتداء من الثالث من سبتمبر ١٩٣٩ . ولقد تم تغيير اسم هذه الادارة الى « قسم بحوث العمليات Operational Research Section» عام ١٩٤١ ، عندما تم الاعتراف رسميا بالاصطلاح « بحوث العمليات » . وأنشئت عدة أقسام مماثلة له في باقي قيادات سلاح الجو الملكي .

* بحوث العمليات في بريطانيا (١٩٣٩ - ١٩٤٠)

تركزت هجمات الألمان الجوية ضد بريطانيا أثناء خريف عام ١٩٣٩ وشتاء وربيع ١٩٤٠ في اختراقات قصيرة فوق الساحل بواسطة تشكيلات صغيرة لضرب السفن الخفيفة والفرقاطات وزرع الألغام بحرية من الجو على الساحل الشرقي خاصة بالقرب من مصب نهر التيمز . ويشير تقرير لوزارة الجو البريطانية صدر عام ١٩٦٣ (صفحة ١٢) الى « أن الكفاءة العالية لمحطات الرادار التي تم التوصل اليها في وقت معركة بريطانيا ترجع الى حد كبير الى قيام ادارة بحوث العمليات بتحليل كل حالة من حالات الفشل في اعتراض الغارات النهارية تقريبا منذ غارة «Firth of Forth» في شمال الجزر البريطانية في أكتوبر ١٩٣٩ ». واتسعت دراسات الادارة لتشمل تغذية نظام المراقبة والانذار بالمعلومات لاستنفار وتجهيز الطائرات المقاتلة الدفاعية . بالاضافة الى ذلك فقد مد قسم بحوث العمليات يد المساعدة الى البحرية البريطانية في تحديد المواقع المحتملة للألغام بناء على مسارات الطائرات المعادية أثناء القائها هذه الألغام وأدى هذا الى تلقي القسم لطلبات منتظمة للمساعدة في مثل هذه المسائل .

وكان مايو ١٩٤٠ بمثابة نقطة تحول هامة في تطبيق بحوث العمليات في الحرب ، اذ طلب الى قسم بحوث العمليات القيام باستشراف نتائج عمليات مستقبلية بناء على السياسات المختارة . ففي هذا الوقت صعّد الألمان من هجماتهم ضد فرنسا مما استدعى الاستعانة بحوالي ١٠ أسراب جوية دفاعية من قيادة المقاتلات البريطانية ، الأمر الذي يتطلب

الصيانة والتشغيل من مطارات في القارة الأوروبية . وأبدى الماريشال دودنج Dowding تخوفه من زيادة خسائر هذه الأسراب المقاتلة عند اشتباكها مع المقاتلات الألمانية تحت هذه الظروف . ولقد تحققت هذه التخوفات عندما بلغ معدل الخسائر البريطانية حوالي ٣ أسراب كل يوم ، الأمر الذي سيؤدي ، لو استمر مثل هذا المعدل ، الى إضعاف قدرات المقاتلات في الدفاع عن الجزر البريطانية .

وفي ١٤ مايو ١٩٤٠ علم دودنج أن رئيس الوزراء « تشرشل Churchill» يميل الى الاستجابة لطلب من رئيس الوزراء الفرنسي بارسال عشرة أسراب مقاتلة اضافية ، فطلب إذنا خاصا لحضور اجتماع بمجلس وزراء الحرب لابداء معارضته لمثل هذا الاجراء . وفي الوقت نفسه وبناء على اقتراح ويليامز طلب من لارندر مساعدته في إعداد الدراسات التي تدعم موقفه . وتم القيام بدراسة سريعة لمقارنة معدل الخسائر اليومية العالية بمعدلات الاستبدال الممكنة للمقاتلات المفقودة . وتبين أن هذا التدخل سيؤدي الى إضعاف قدرات القيادة الجوية للمقاتلات الى مستويات غير مقبولة . ونظرا لصعوبة فهم وتتبع جدول يربط بين أرقام الخسائر والوقت ومستويات القوات فقد مثلت هذه الأرقام في رسم بياني تم ارفاقها بالتقرير . ولقد أشار المارشال Dowding بعد الاجتماع الى أن هذه الدراسة قد ساعدته في إقناع مجلس وزراء الحرب في توصيته بعدم الاستجابة الى طلب رئيس الوزراء الفرنسي . وهكذا تم استرجاع ج[illegible]أسراب ، ما عدا ثلاثة ، الى بريطانيا خلال أيام .

وتتبلور القيمة الحقيقية لدراسة بحوث العمليات هذه في تقديم المعلومات بشكل بياني مما ساعد الماريشال دودنج في اقناع المجلس بتفادي تبني قرارات قد تقضي على القوة الجوية البريطانية .

* مساهمة بحوث العمليات في معركة بريطانيا Battle of Britain

من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، عند تقييم فوائد النشاط المبكر لبحوث العمليات أن نغفل ذكر معركة بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ . وبالطبع ، فان معركة مثل هذه تعتمد في نجاحها أو فشلها على كثير من العوامل الهامة . وبالتأكيد لا يمكن ادعاء أن بحوث العمليات هي التي ادت الى كسب المعركة . الا أن بحوث العمليات قد ساهمت بانجازين رئيسيين هامين نحو النصر في هذه المعركة :

الأول يتعلق بمد يد المساعدة للطيارين البريطانيين في التصدي للطائرات الألمانية المهاجمة عن طريق نظام الانذار والمراقبة مما مكنهم من الاقتصاد في مجهودهم واكتساب ميزة تكتيكية في استخدام الشمس والارتفاع لاختيار مواقعهم المثلى بالنسبة للقوات المهاجمة . لقد كانت مساهمة بحوث العمليات في فعالية نظام الانذار والمراقبة هامة وملحوظة .

أما الشق الآخر فيتعلق بالقرار الخاص بايقاف ارسال أسراب المقاتلات البريطانية الى فرنسا . لقد كسبت بريطانيا المعركة بامتلاكها قوات جوية تتعادل تقريبا مع سلاح الجو الألماني . فلو تم زيادة العشرة أسراب في فرنسا الى عشرين بناء على طلب بعض المسئولين العسكريين بدلا من سحبها لوصل معدل الخسارة الى حوالي ٣٦ طائرة يوميا

أي ٢٥٠ ـ ٢٦٠ طائرة في الاسبوع ، بالاضافة الى النزيف المستمر في خبرة الطيارين ذوي المهارات العالية . فلو تغلب رأى تشرشل وتم ارسال الأسراب الاضافية الى فرنسا لخسرت بريطانيا المعركة في سبتمبر .

ولقد نوه الماريشال دودنج بأهمية عمل بحوث العمليات في مذكرة مختصرة وجهها عند تقاعده الى لارندر في عام ١٩٤١ نصها كالآتي : «إن هذه الحرب سيتم كسبها بالتطبيق المنطقي للعلم على احتياجات العمليات» .

*** بداية بحوث العمليات بالولايات المتحدة الأمريكية :**

ننتقل الآن الى عرض [illegible] بحوث العمليات بالولايات المتحدة الأمريكية من خلال السيرة الذاتية لأحد العلماء البارزين في هذا [illegible] فيليب مورس Philip M. Morse » وبالذات فيما يتعلق بمجهودات أول مجموعة لبحوث العمليات في الولايات المتحدة (Morse, 1986) في عام ١٩٤١ كان مورس يعمل في مشروع للبحرية الأمريكية يهدف الى التعرف على الضوضاء الناتجة عن السفن تحت المياه . واستخدامات هذه المعرفة في تصميم جهاز لانتاج ضوضاء تشبه ضوضاء السفن يمكن سحبه خلف السفن ليؤدي الى انفجار الألغام الصوتية دون حدوث اضرار للسفينة . وبنهاية ١٩٤١ تم انجاز المشروع بنجاح ، ولكنه لم يشبع رغبات مورس في الاقتراب من الدراسات المتعلقة بالقرارات التشغيلية Operational Decisions للبحرية الأمريكية . وبناء على عدة اتصالات ، تم استدعاء مورس لمقابلة الكابتن « بيكر Baker» بقيادة المنطقة البحرية الأولى في بوسطن في أواخر مارس ١٩٤٢ . وكان الكابتن بيكر يرأس وحدة تشغيلية جديدة تدعى « وحدة الحرب المضادة للغواصات » ، تكون جزءا من أسطول الأطلنطي . ولقد أنشأ هذه الوحدة الأدميرال كنج King لدراسة وتنسيق دفاعات البحرية ضد الغواصات الألمانية والتي كانت تعمل بنجاح على امتداد الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية . وقضى بيكر عدة شهور بانجلترا للتعرف على الوسائل التي تبنتها البحرية البريطانية وقيادة السواحل لحماية السفن ضد هجمات الغواصات . وأعجب الكابتن بيكر بالمساندة التي قدمها العلماء المدنيون في استكشاف تكتيكات العدو وتقويم مدى كفاءة الدفاعات ضد الهجمات . وأثناء مقابلة مع بلاكيت الذي شارك في تطوير الرادار لقيادة المقاتلات ، قبل التحاقه كمستشار علمي للبحرية ، علم بيكر أن رادار الانذار المبكر لم يصبح فعالا بالكامل حتى قام العديد من العلميين المدنيين بمراقبة وتسجيل أداء الرادار في ظروف الميدان ، وبالتالي ، اكتشاف القصور في التصميمات الأولى للأجهزة خاصة عند استعمالها بواسطة مشغلين غير فنيين مما أقنع بلاكيت وباقي العلماء البريطانيين بأهمية تناسب تصميم الأجهزة مع قدرات مستعمليها ، بالاضافة الى ضرورة تزويد المشغلين العسكريين بالتعليمات عن هذه الأجهزة . واستنادا الى ما رآه في بريطانيا طلب بيكر من مورس تكوين فريق عمل علمي لمساعدة وحدته في تحليل الدفاعات المضادة للغواصات .

وعلى الفور جمع مورس عددا من العلماء في الرياضيات والفيزياء من جامعة برنستون ومعهد ماستشوستس للتكنولوجيا ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا وجامعة كاليفورنيا في بيركلي وصل عددهم الى ١٧ ، أكثرهم من علماء الرياضيات . وبدأ الفريق بالاطلاع على العديد من التقارير والوثائق المتاحة عن هجمات الغواصات الألمانية وردود

فعل البحرية الأمريكية تجاه هذه الهجمات ، بالاضافة الى مقابلة بعض الضباط الذين شاركوا في تحديد أماكن الغواصات وتعرضوا لهجماتها . واتجه الفريق الى التفكير في تطوير نظرية للحرب المضادة للغواصات باستخدام تحليل كمي مبسط . واعتمد هذا التفكير على أن خطورة الغواصات تنبع من صعوبة اكتشافها مما يجعل تحديد موقع الغواصة المهاجمة من أهم خطوات الدفاع ضدها . وطبقا لتكتيك الألمان ، فان هذه الغواصات تشن هجماتها من تحت سطح الماء بينها تطفو أكثر من نصف الوقت فوق سطح الماء لشحن بطارياتها ولسرعة التحرك بالاضافة الى الاتصال على موجات الراديو القصيرة مع قواعدها بألمانيا ، الأمر الذي يتيح الفرصة لمهاجمتها والقضاء عليها باستخدام الطائرات لتحديد مواقعها وهي تبحر فوق سطح المياه ولكن يبقى بعد هذا العديد من الأسئلة التي تتطلب الاجابة عليها :

ـ ما هي أقصى مسافة تسمح برؤية غواصة تطفو فوق سطح البحر ؟

ـ هل رؤية الغواصات ممكنة دائما ؟ وما هي نسبة الوقت التي لا يمكن خلاله رؤية الغواصة ؟

واقتنع الباحثون بأن الاجابة على هذه الاسئلة ستمكنهم من تحديد مساحة المحيط التي يمكن تغطيتها بطائرة استكشاف في غضون ساعة . وبالتالي ، يمكن حساب عدد الطائرات المطلوبة لتغطية منطقة معينة في المحيط مع تقدير احتمال رؤية غواصة فيها ، ومن ثم ، تحديد أكفأ المسارات للاستكشاف الجوي عن الغواصات بأسرع ما يمكن ، بالاضافة الى تعريف هذه المسارات للمدمرات المزودة بأجهزة السونار والتي تقوم بالكشف عن الغواصات المعادية لحماية السفن .

وكان لابد ، قبل تطبيق نظريتهم للاستكشاف أن ينظر الباحثون في كيفية الحصول على المعلومات اللازمة . وتتعلق هذه المعلومات بمدى فعالية رادارات الاستكشاف كما حددها مصممو هذه الأجهزة . ولكن هل تم تحديد هذه المعلومات مع الأخذ بالاعتبار أن هذه الأجهزة يقوم بتشغيلها أفراد طاقم مرهق موجودون على متن طائرة عسكرية أصواتها مزعجة ، تطير فوق محيط مكفهر لمدة ثماني ساعات ، وبدون الكثير من الأجهزة الملاحية الدقيقة المتاحة في العصر الحاضر ؟ أي أن فريق البحث كان عليه أن يحدد بدقة المدى التشغيلي والفعال للرادارات في مناخ الحرب ، لا تحت ظروف المختبر . وهكذا ، اتجه فريق البحث الى تقارير العمليات السابقة للحصول على هذه المعلومات .

وواجه الفريق عقبة رئيسية عند الاستعانة بتقارير العمليات نظرا لعجز هذه التقارير عن الاجابة على العديد من استفساراتهم . وكان الاستبيان المستخدم في هذه التقارير حافلا بالكثير من المعلومات المتفرقة التي تدل على أن الاستبيان وضع بدون تمحيص في التركيب الأساسي لعمليات الاستكشاف ، وبقليل من التركيز على النواحي الكمية مما أدى الى قصور كبير في البيانات المطلوبة . وبالمقابل ، فلقد لوحظ وجود تعبيرات كبيرة في البيانات المتاحة يصعب شرحها .

وكان رد فعل فريق البحث نحو القصور الواضح للبيانات المتاحة هو الاقتراب من العمليات الموضوعة تحت الدراسة لتسجيل البيانات مباشرة بدلا من الحصول عليها من خلال عدة حلقات من الاتصال ، أي أن الباحثين قرروا أن البيانات التقنية لابد أن يقوم بجمعها المختصون بدلا من العسكريين .

ويذكر فيليب مورس انه عندما طلب من الكابتن بيكر أن يسمح للعلماء من فريق الدراسة بالالتحاق بالقواعد المضاده للغواصات اقترح أن يرتب لقاءات بين العسكريين الذين شاركوا في الاشتباكات مع غواصات العدو وأعضاء فريق الدراسة . وبعد عدة لقاءات وضح للدارسين عدم كفاءة هذه المقابلات ، نظرا لاختلاف اهتمامات طرفي اللقاء . وعليه شرع بيكر في ترتيب التحاق أعضاء فريق الدراسة المدنيين بالقواعد المضادة للغواصات . ونظرا لان هذه الخطوة هي الأولى من نوعها فلقد تم اختيار هؤلاء الأفراد من ذوي الكياسة واللباقة بعناية فائقة وبحذر .

خلال يونيو من ذلك العام التحق آرثر كيب وب مكارثي P. McCarthy و Arthur Kip بقيادة الجبهة البحرية الشرقية بنيويورك والعديد من القواعد البحرية بالمحيط الأطلنطي . وكانت الخبرات ءلأوليض لهؤلاء الرجال متشابهة لدرجة تدعو الى الدهشة . لقد تمكنوا من اقناع القائمين بالاستكشاف بأهمية التسجيل الدقيق للمعلومات بعد أن كان اعتقاد الطيارين أن هذه التقارير لا تقرأ . وبعد مهلة قصيرة شارك أعضاء فريق الدراسة في رحلات استطلاعية ولمسوا بأنفسهم العديد من التفاصيل والمعلومات التي لم تجد طريقها الى التقارير . وسرعان ما توفرت المعلومات اللازمة لتطبيق نظريات الاستكشاف في معادلتها الرياضية التي قام باستنباطها فريق الدراسة . وبدأ العلماء في إحلال الأرقام مكان الرموز في المعادلات مع تحسين المعادلات لتقترب أكثر وأكثر من الواقع . وفي وقت قصير ، قام فريق الدراسة بتقديم العديد من خطط الاستكشاف أدى تطبيقها الى زيادة ملحوظة في عدد الغواصات المكتشفة أسبوعيا . وأصبحت المعلومات القادمة من القواعد أكثر دقة ، الأمر الذي سمح بالتعرف على أية تغييرات في تكتيكات الغواصات .

وبالطبع ، فان الاكتشاف ما هو الا نصف المشكلة فلابد من مهاجمة الغواصة بعد العثور عليها . ولم تتوافر انئذ سوى شحنات من متفجرات الأعماق تلقى من الطائرات أو المدمرات تنفجر على عمق معين يفترض أن يكون قريبا من الغواصة . الا أن هذه الشحنات كانت ذات فعالية محدودة وخاصة عند القائها من الطائرات . فقد كانت تنفجر أحيانا على السطح لو تم إلقاؤها من ارتفاع عال وحتى عندما تنفجر بالقرب من الغواصة ، فان الطيار لا يتوفر لديه الدليل على أن الغواصة قد أصيبت . وعند النظر في تفاصيل الهجمات ضد الغواصات ، علم أعضاء الدراسة أن الشحنة معدة للانفجار على عمق ٧٥ قدما تحت سطح الماء وهو العمق الأمثل للشحنات الملقاة من المدمرات . أما في حاله استخدام الطائرات فان الطائرة عادة ما تجد الغواصة على السطح . وهكذا فان حدوث انفجار على عمق ٧٥ قدما ربما يهز الغواصة الطافية ولكنه لن يصيبها بأذى . لذا اقترح ويليام شوكلي William Shockley، الذي التحق بالفريق في مايو ، تفجير الشحنة على عمق ٣٠ قدما بدلا من ٧٥ قدما ، كما هو الحال للشحنات الملقاة من المدمرات . وخلال شهرين كان من الواضح أن هذا التغيير أدى الى زيادة عدد الغواصات المصابة وارتفاع عدد الغواصات الغارقة بحوالي خمسة أضعاف .

وأدت هذه النجاحات السريعة الى انتشار سمعة طيبة عن انجازات وقدرات الفريق مما دعا الكابتن بيكر الى اصطحاب المجموعة معه عند انتقال وحدته الى مقر القيادة الرئيسية للبحرية بمدينة واشنطن . وينطوي هذا العمل على خطوة جريئة من ضابط بحري قديم ، اذ انه اعتبر مجموعة من العلماء جزءا هاما من الجهاز البشري ومجموعة مستشاري الأميرال كنج ، القائد العام لاساطيل الولايات المتحدة . وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء كانوا مدنيين ولم يعينوا كضباط ي البحرية أو حتى كموظفين حكوميين ، بل وحتى أجورهم كانت تدفع من خارج البحرية بواسطة لجنة أبحاث الدفاع القومي ، بناء على عقد مع جامعة كولومبيا . وشكل هؤلاء العلماء مجموعة بحوث العمليات للحرب المضادة للغواصات ASW Operations Research Group (ASWORG)، كوحدة من وحدات الكابتن بيكر وسرعان ما تقدمت المجموعة في السلم الاداري للبحرية بعد ترقية بيكر الى أميرال ليقود بنهاية ١٩٤٢ وحدة جديدة سميت الاسطول العاشر ، مسئولة عن جميع الوحدات المضادة للغواصات .

وكلفت المجموعة بعد ذلك بجميع مسئوليات تسجيل وصيانة المعلومات من جميع وحدات الحرب المضادة للغواصات . وتم إنشاء نظام لمعالجة المعلومات يوميا باستخدام حاسب آلي من IBM، وتقديم ملخص لاجتماعات قيادات الاميرال كنج الصباحية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها معالجة بيانات في غاية السرية بواسطة آلات حديثة ما زالت غامضة للعديد من الناس في ذلك الوقت . لذا ، فلقد وضع هذا النظام تحت حراسة مشددة وتم السماح لعدد قليل فقط من الرجال بدخول غرفة الحاسب . وقامت البحرية بتدريب رجالها على صيانة الحاسب بدلا من طاقم شركة IBM ومرة أخرى توضح هذه الخطوات التعارض بين تأكيد العسكريين على السرية وبين حاجة العلم للمعلومات والمعرفة .

وتطورت مجموعة بحوث العمليات في وحدة الحرب المضادة للغواصات لتصبح وحدة بحوث العمليات بالبحرية الأمريكية بكاملها . واضطلعت المجموعة بالعديد من الدراسات في المحيط الهادي فيما يتعلق بعمليات الغواصات ونشاط البحرية الجوي ، وأخيرا ، على جميع الأمور المتعلقة بعمليات القوات البحرية . وبنهاية الحرب ، كرم العديد من أعضاء المجموعة مثل فيليب مورس وبوب رينشرت ، فتلقوا أوسمة بالاضافة الى منح شهادات تقدير من رئيس الجمهورية لستة آخرين من أعضاء الفريق .

تطور بحث العمليات بعد الحرب :

مع نهاية الحرب كان العلماء في عجلة للرجوع الى أعمالهم المدنية السابقة بالجامعات والصناعة . وأصر مورس على أن تتم مرحلة الانتقال بصورة منظمة مسجلة لجميع الأنشطة السابقة ، وقام بتوجيه المجموعة الى اعداد تقارير وافية عن الأعمال التي أنجزت أثناء الحرب بالاضافة الى اختيار نواة من ذوي الخبرة من العاملين ببحوث العمليات للبقاء بالبحرية ، أصبحت فيما بعد الأساس لمجموعة تقويم عمليات البحرية الأمريكية . وبعودة مورس الى معهد ماساشوتش للتكنولوجيا MIT لاحظ زيادة الاهتمام بدراسات بحوث العمليات ، وتلقى العديد من الطلبات للاستشارات من الحكومة والصناعة . وقام بانشاء لجنة لبحوث العمليات ، كما نظم وشارك في تقديم العديد من

الدورات الصيفية القصيرة في بحوث العمليات . وتطورت لجنة بحوث العمليات لتصبح مركز بحوث العمليات في ذلك المعهد وظلت تحت رئاسته حتى ١٩٦٩ .

وعمل مورس مع زملائه لانشاء جمعية مهنية لبحوث العمليات هي الجمعية الأمريكية لبحوث العمليات Operations Research Society of America (ORSA) التي خرجت الى حيز الوجود برئاسته عام ١٩٥٢ ، وامتد اهتمامه ببحوث العمليات الى الحقل الدولي ليساعد في التحضير لأول مؤتمر دولي في بحوث العمليات ، تم خلاله تكوين اتحاد الجمعيات الدولية لبحوث العمليات .

وللاسف فان السجلات التاريخية المتاحة لا تحتوي على أية معلومات دقيقة عن عدد العلماء العاملين في بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية . الا أن هناك تقديرات متحفظة تشير الى أن هذا العدد تجاوز ٧٠٠ باحث في بريطانيا وأمريكا وكندا . واشتمل نشاطهم على العديد من الدراسات لتقييم النتائج التكتيكية والتخطيط الاستراتيجي واختيار البدائل في العمليات . بالاضافة الى ذلك ، رأى العديد من هؤلاء الباحثين في هذه التطورات العلمية أثناء وقت الحرب جرثومة لعلم جديد لنظم التشغيل وتطبيقاته لكثير من الأنشطة في وقت السلم . ولقد انطوى الكثير من دراسات بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية على تبني وتطويع طرق ومنهجيات من العلوم الأخرى خاصة النماذج الرياضية ، تم تطويرها مباشرة باستخدام وسائل التحليل ونظرية الاحتمالات والاحصاء . ولكن نظرية الاستكشاف Search Theory التي تم استنباطها بواسطة مجموعة بحوث العمليات بالبحرية الأمريكية تمثل استثناء ملحوظا من هذه القاعدة .

وبعد الحرب العالمية الثانية تم اكتشاف عدة ظواهر طبيعية وتطوير الكثير من النظريات لشرح هذه الظواهر لتشمل العديد من فروع بحوث العمليات ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، البرمجة الرياضية ومراقبة المخزون ونظرية الانتظار والجدولة .

ممارسة بحوث العمليات

ولد علم بحوث العمليات ، كما رأينا ، لحاجة ملحة لحل مشاكل تشغيلية . وهكذا فقد قام العاملون في بحوث العمليات بأكثر من تطوير علم . انهم طبقوا أيضا ما اكتشفوه وما تعلموه في حل المشاكل . وخلال العقدين الثاني والثالث من تاريخها نمت أوساط العاملين في بحوث العمليات لتكبر وتتنوع ، مما استدعى ظهور بعض التخصصات النظرية للتصدي لتوفير الأسس اللازمة لتطور العلم بالاضافة الى الانشطة الهندسية المصاحبة لتطبيق نتائج أبحاث النظريين .

ولكن هذا الشق الهندسي لبحوث العمليات ينطوي على أكثر من تطبيق المعرفة المطورة بالطريقة العلمية المألوفة ، لأنه يستخدم فنون الاختراع (لايجاد الترتيبات التي تعمل بالطرق المرغوبة) والتصميم لتجميع الاختراعات مع بعضها لتأدية المهمات المطلوبة أو لحل مشكلة هامة) بالاضافة الى فنون الاتصال والتفسير والتطبيق .

وفي بداية الأمر ، حجبت متطلبات السرية العسكرية الكثير من تفاصيل الدراسات التي تمت في زمن الحرب عن النشر العام لمدة طويلة . لكن العديد من هذه الأعمال نشرت في وقت لاحق . وبالمقابل ، فإن الكثير من ممارسات بحوث العمليات في الصناعة قد تغيبت عن الدوريات والمجلات العلمية نظرا لقيود مشابهة على النشر بواسطة المؤسسات المستفيدة من هذه الممارسات .

ولكن النشرات العلمية في بحوث العمليات ، وعلى الرغم من تحيزها نحو الاتجاه النظري لعدم وجود أية قيود على نشره ، تحتوي على عدة أمثلة جيدة لأعمال تطبيقية . ففي النشرات العلمية العديد من الأمثلة المبكرة لتطبيقات بحوث العمليات والتي تعتبر الآن من البحوث التقليدية ، نذكر منها دراسة ايدي Edie (1954) لمعدلات التباطؤ والتأخر أثناء دفع رسوم المرور على بعض الطرق وتطبيقات بحوث العمليات في الزراعة لثورنثويت (1953) Thorntwaite والعمل الذي قدمه أوبريان وكرين O·Brien and Grane 1959 لجدولة خطوط الصنادل (Barges) ولكن ممارسة فنون الاختراع والتصميم لبحوث العمليات مازالت في مهدها خاصة في القطاع المدني ، في رأي كواد وبوشر Quade and Boucher (1968) أما في الأمور المهنية التي تتعلق بممارسة بحوث العمليات ، فقد أبدى الرواد اهتماما خاصا بهذا المجال ، ومنهم مورس وكيمبال Morse and Kimball (1946) وبلاكيت Blackett (1962) ، الذين ناقشوا اعتماد خبراتهم أثناء الحرب على الوسائل المفصلة للشروع في القيام بدراسة بحوث عمليات ، مثل البيئة والظروف المحيطة والعلاقات التي تقوم مع مستخدمي النتائج التي يستخلصها . وهناك بعد هذا الكثير من النقاط الهامة التي لابد وأن تأخذ في الاعتبار عند القيام بممارسة بحوث العمليات ، على رأسها :

ـ أخلاقيات وحدود المهنة في التعامل مع المشاكل والمواقف المعروضة أمام باحث العمليات . فهناك العديد من المعايير المهنية المفترض اتباعها عند تناول دراسات بحوث العمليات . ومن أمثلة الخلاف الحاد المشهورة ذلك الذي احتدم بين علماء بحوث العمليات المشتركين في تقييم انظمة القذائف المضادة للصواريخ مما دعا لتكوين لجنة خاصة في جمعية بحوث العمليات الأمريكية (ORSA) عام ١٩٦٩ للتحقيق في الأمر . وجاء في تقرير اللجنة نقلا عن اسامة الخولي (1986) : عندما يشترك المحلل في عملية خصومة (أو خلاف) فيجب أن يتصرف كداعية وأن يتوقع معاملته بهذه الصفة . وقواعد التصرف في عمليات الخصومة تختلف عنها في بحوث العمليات . فالأولى تسمح بالشهادة المتحيزة أو المنحرفة ، بينما توجه الثانية نحو التقويم الموضوعي . ونتيجة لهذا الموقف كونت جمعية بحوث العمليات الأمريكية (ORSA) لجنة لوضع الأسس لممارسة بحوث العمليات وأصدرت تقريرها Caywood et al الذي اعتمد على الخبرات المتراكمة أثناء الحرب والعقدين التاليين . ولقد قوبل هذا التقرير ببعض النقد عند اصداره الا أن مجتمع باحثي العمليات توصل الى أن الزمن فقط كفيل بتحديد فائدة التقرير في ممارسات بحوث العمليات .

ـ إن دراسات بحوث العمليات ، عند النظر الى شقيقها العلمي والهندسي ، تأخذ مجراها في أوضاع يرتبها المجتمع أو البيئة المحيطة . لذا فمن المهم لباحث العمليات أن يفهم سلوك المجتمع قبل اقتراح تغييرات فيه . حقيقة الأمر أن ممارسة بحوث العمليات جزء من سلوك النظام الذي نطلق عليه المجتمع .

ـ أهمية العلاقات بين مجموعات بحوث العمليات والهيئات المستفيدة من عملها ولقد درست هذه العلاقة باسهاب في (Randor and Neal 1973) لقد تركت بحوث العمليات بصمات واضحة على كفاءة ادارة العديد من الهيئات . وتستمر تطبيقات بحوث العمليات في النمو سواء في تنوعها أو في عددها . وباستثناء التقدم في الحاسبات الآلية ، فإن هذا النمو والتطور في بحوث العمليات وتطبيقاتها لايضاهيه أية تطورات أخرى حديثة ! فبعد نجاح بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية ، استمر العسكريون البريطانيون والأمريكيون في الاعتماد على عدة مجموعات لبحوث العمليات على مستويات مختلفة من القيادات . ويوجد الآن عدد كبير من العاملين يطلق عليهم باحثو عمليات عسكرية ، يقومون بتطبيق بحوث العمليات على مشاكل الدفاع القومي ، مثل تخصيص الموارد «Resource Allocation» والتخطيط التكتيكي «Tactical Plannig» وتقييم نظم الأسلحة «Weapon System Evaluation» مستخدمين في ذلك بعض التقنيات التي تحتوي على أفكار متعمقة في الرياضيات والاقتصاد ونظرية الاحتمالات والاحصاء .

كما ينتشر استخدام بحوث العمليات حاليا في كثير من مؤسسات الصناعة والأعمال خاصة الكبرى منها والتي تحتوي على مجموعات كبيرة من العاملين . ومن بين هذه المؤسسات شركات صناعة الطائرات والصواريخ والسيارات والاتصالات والحاسبات الآلية والقوى الكهربائية والالكترونيات والأغذية والفلزات والمناجم والورق والنفط والنقل ، كما أن كثيرا من المؤسسات المالية والهيئات الحكومية والمستشفيات يزداد استخدامها لبحوث العمليات بمعدل سريع .

وعلى سبيل التحديد ، نقدم بعض المشاكل التي تم حلها باستخدام أحد فروع بحوث العمليات . فلقد استخدمت طرق البرمجة الخطة Linear Programming مثلا ـ بنجاح في حل المشاكل التي تتناول خلط المواد وتخصيص الأعمال أو الأفراد والنقل والتوزيع وتخطيط الاستثمارات . كما طبقت البرمجة الديناميكية Dynamic Programming بنجاح لتخطيط برامج التسويق والاعلان وجدولة الانتاج وتحديد مستويات المخزون الأمثل . واستخدمت نظريات الانتظار Queueing Theory لتقدم حلولا للمشاكل المتعلقة بازدحام المرور ، صيانة الماكينات ، تحديد العدد المناسب من قنوات الخدمة ، جدولة المرور الجوي ، تصميم السدود ، جدولة الانتاج وعمليات المستشفيات . كما طبق أيضا العديد من طرق بحوث العمليات الأخرى مثل نظرية المخزون ونظرية المباراة والمحاكاة بنجاح في مجالات متنوعة . وفي مسح لمائة وسبعة من أكبر ٥٠٠ شركة من الشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية يوضح تيربان Turban (1972) أن البرمجة الخطية والمحاكاة والتحليل الاحصائي تمثل أكثر وسائل بحوث العمليات شيوعا (جدول رقم ١) ، كما أظهر المسح أن أقسام بحوث العمليات تقع في المقار الرئيسية للشركات ، كما أن معظمها يتبع رئيس أو نائب رئيس أو مراقب Controller الشركة .

وفي مسح آخر عام ١٩٧٥ نشره ليدبيتر وكوكس Ledbetter and Cox (1977) عن استخدام طرق بحوث العمليات في ١٦٧ شركة من أكبر ٥٠٠ شركة ومقارنة لمعدل استخدام الشركات لسبع من طرق بحوث العمليات ، يؤكد المؤلفان مرة أخرى على أن البرمجة الخطية والتحليل الاحصائي والمحاكاة هي أكثر طرق بحوث العمليات استخداما .

وفي مسح آخر متخصص عن استخدام البرمجة الرياضية قام به فابوتزي وفالينتي Fabozzi and Valente (1976) لأكثر من ألف شركة بالولايات المتحدة (في نوفمبر ١٩٧٤) أشارت ١٨٤ شركة الى أن البرمجة الخطية تحتل المركز الأول في التطبيق خاصة في ادارة عمليات الانتاج (مثل تحديد نوعيات المنتج ، تخصيص الموارد ، وجدولة الآلات والأعمال) ويليها تخطيط الاستثمار والمال (تحديد ميزانيات رأس المال ، تحليل السيولة النقدية ، ادارة معاشات الموظفين ، إدارة النقد ، تحليل حالات الاندماج)

جدول رقم (١) : استخدام بحوث العمليات في الأنشطة الجارية
في الشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية (Turban ١٩٧٢)

فرع بحوث العمليات	عدد الدراسات	عدد مرات الاستخدام
التحليل الاحصائي Statistical Analysis	٦٣	٢٩
المحاكاة Simulation	٥٤	٢٥
البرمجة الخطية Linear Programming	٤١	١٩
نظرية المخزون Inventory Theory	١٣	٦
طريقة المسار الحرج CPM/PERT	١٣	٦
البرمجة الديناميكية Dynamic Programming	٩	٤
البرمجة البيزنطية Nonlinear Programming	٧	٣
علم الانتظار Queueing	٢	١
البرمجة الموجهة Heuristic Programming	٢	١
طرق متنوعة	١٣	٦
المجموع	٢١٧	١٠٠

بحوث العمليات كعلم :

لنبدأ بالتعرف على الاصطلاح الغامض « بحوث العمليات «Operations Research » والذي خرج الى حيز الوجود أثناء الحرب العالمية الثانية وربما قدم هذا الاصطلاح وصفا مناسبا لما كان يتم عمله في هذا المجال كجزء من المجهود الحربي للحلفاء . وعلى الرغم من اتساع نطاق دراسات بحوث العمليات وتنوعها لتشمل كثيرا من التطبيقات غير العسكرية الا أن الاصطلاح بقي ليستخدم في جميع التطبيقات . وهناك الكثير من المرادفات لاسم بحوث العمليات ، فيفضل البريطانيون الاشارة الى Operational Research وكثيرا مّا يستخدم الأمريكيون اصطلاح علم الادارة Management Science ولكن السؤال مازال في حاجة الى اجابة: ما هو تعريف بحوث العمليات ؟ هناك تعريفان أحدهما تبنته جمعية بحوث العمليات البريطانية وينص على أن :

« بحوث العمليات هي تطبيق الوسائل العلمية على المشاكل المعقدة المتعلقة بتوجيه وإدارة النظم الكبرى التي تضم القوى البشرية والآلات والمواد والأموال في هيئات الصناعة والأعمال بالإضافة الى المؤسسات الحكومية والعسكرية » . وتنطوي منهجية بحوث العمليات المميزة على تطوير نموذج علمي للنظام يحتوي على قياسات لكثير من العوامل مثل درجة التقريب في استشراف ومقارنة الاستراتيجيات والقرارات المتعددة والغرض هو تقديم المساندة الى الادارة في تحديد سياستها وأفعالها .

أما التعريف الآخر الذي قدمته جمعية بحوث العمليات الأمريكية فهو : « تهتم بحوث العمليات بالاختيار العلمي لأفضل تصميم وتشغيل لأنظمة الانسان ـ الآلة Man Machine System وفي ظروف تتطلب تخصيصا للموارد المحدودة » وعلى الرغم من أن كلا التعريفين يغيب عنه الشرح الدقيق لعلم بحوث العمليات ، إلا أن هذين التعريفين يميلان الى التأكيد على أن الحافز للقيام بدراسات بحوث العمليات هو مساندة صانعي القرار في التعامل مع المشاكل العلمية المعقدة . ويؤكد التعريفان على المنهجية بأنها « علمية » ولربما أمكن تقديم تعريف أوفق لبحوث العمليات يشير الى اعتمادها على النماذج Models حيث أن تطوير واستخدام النماذج يمثل اساس بحوث العمليات وجوهرها . والمقصود بالنموذج هنا هو تمثيل مبسط وتقريبي للواقع . وعادة ما يلجأ باحثو العمليات الى تطوير النماذج لتمثيل واقع النظام الخاضع للدراسة بدلا من التعامل مع الواقع مباشرة لعدة أسباب منها :

- توفير الكلفة أو الوقت .
- تفادي المخاطرة والتلاعب بواقع النظام .
- التخلص من التفاصيل والتعقيدات غير الضرورية للدراسة والتي غالبا ما توجد في البيئة العلمية .

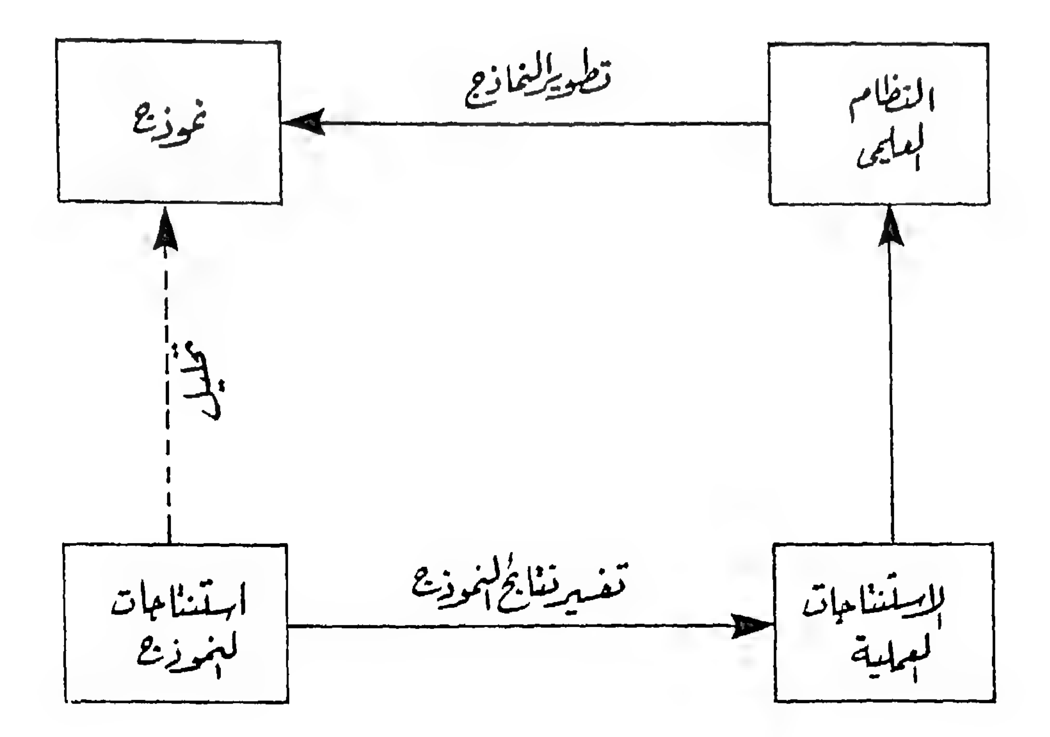
ويمكن تمثيل عملية النمذجة كما هو مبين في الايضاح المبسط بشكل (رقم ١) ويتناول الشكل الانتقال من الواقع العملي الى النموذج الذي يتم تحليله بهدف التوصل الى الاستنتاجات وتفسير هذه الاستنتاجات في ضوء خصائص النظام العملي ليتم تطبيقها في الواقع . ويتميز العديد من تطبيقات بحوث العمليات بعدة صفات منها :

★ تركيز اولي على مساندة عملية اتخاذ القرار .

★ تقويم يعتمد بالأساس على معايير اقتصادية فعالة حيث تقارن العديد من الخطوات الممكنة بناء على عدة قياسات اقتصادية مثل تكاليف التشغيل ، العائد ومعدل العائد على الاستثمار .

★ الاعتماد على نماذج الرياضيات لتحليل البيانات بطريقة سلسة وواضحة ، وبالتالي التأكيد على الحصول على نفس النتائج حتى مع اختلاف الوقت والشخص القائم بالدراسة .

★ الاعتماد على الحاسبات الآلية . وتمثل هذه الخاصية حاجة ضرورية عند تناول تطبيقات بحوث العمليات نظرا لصعوبة التعامل مع نماذج رياضيات معقدة ومتشابكة تستخدم كما هائلا من البيانات وتتطلب الكثير من العمليات الحسابية المضنية دون حاسبة مناسبة .



شكل رقم ١ : خطوات النمذجة في بحوث العمليات

★ المنهج العلمي

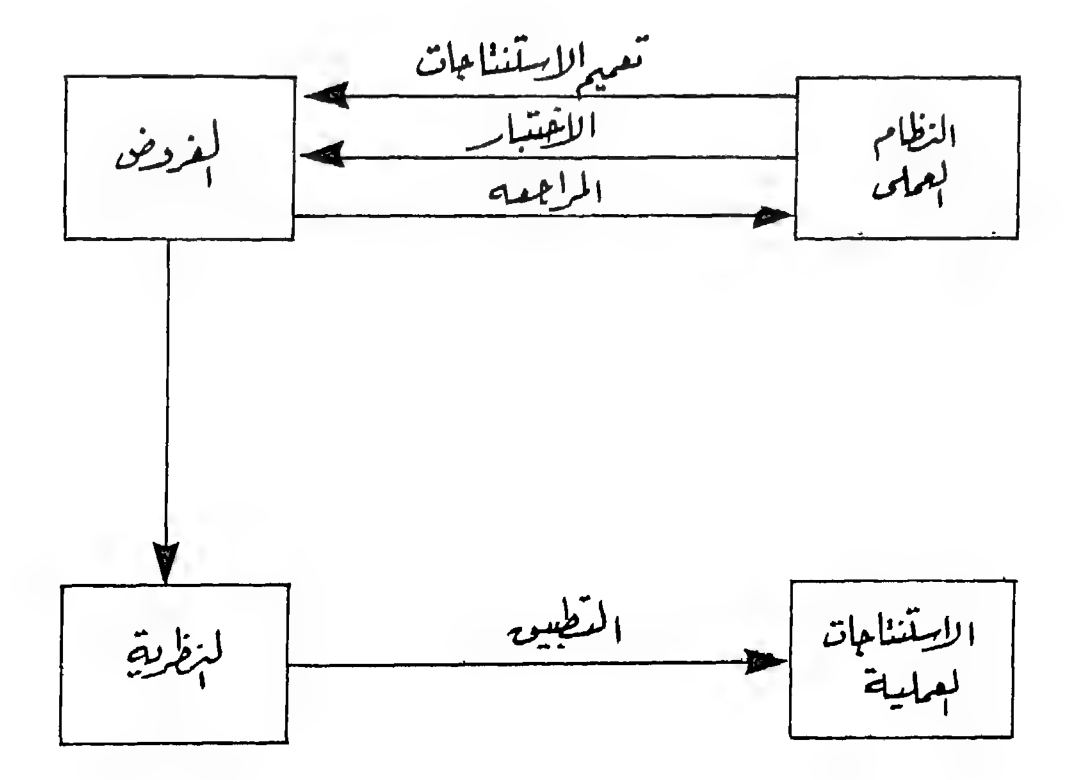
يهدف العلم الى فهم وشرح ما يجري على الطبيعية ، أي الظواهر الواقعية بما في ذلك ما يحدث بايعاز من العناصر البشرية والآلية ، Man Machine Element ويبدأ العلم بتسجيل دقيق ومنظم للظاهرة الموضوعة تحت الدراسة . وتوجه هذه الحقائق الدارس الى تطوير النظريات التي تناسب هذه الحقائق وتقدم وصفا وشرحا منطقيا لها . وبالتالي يمكن تطويع وتوسيع نطاق هذه النظريات في حدود الواقع ، بما في ذلك استخدامها لحساب تقديرات مستقبلية وتحت ظروف جديدة ، ثم يتم التحقق من صحة هذه النظريات بمقارنة الملاحظات الجديدة بالظاهرة الواقعية . وفي حالة تطابق النظرية مع الواقع يتأكد الباحث من صلاحية نظريته فيمكنه بذلك استخدامها لدراسة ومعرفة خصائص النظام الواقعي . ومن ناحية أخرى ، فعند وجود اختلاف بين النظرية والواقع لابد أن يقوم الباحث بتعديل نظريته وتحسينها ، أو تطوير نظرية أخري جديدة تتناسب مع هذا الواقع . ويلخص كيميني هذه العملية كالآتي :

كما أكد اينشتين عدة مرات ، لابد وأن يبدأ العلم بالحقائق وينتهي الى الحقائق ، بغض النظر عن الهيكل النظري الذي يتم بناؤه من البداية الى النهاية . فالباحث هو مراقب يحاول تقديم وصف كامل وعام لما يراه ولما يتوقع أن يراه في المستقبل . وبالتالي يقوم بالاستشراف على أساس نظرياته التي يتحقق من دقتها بمقارنتها بالحقائق مرة أخرى .

ومن أهم خصائص المنهج العلمي أنه ذو طبيعة تكرارية يتم من خلالها التوصل الى نظريات تمثل الواقع . وتتطابق جميع فروع العلوم في استخدامها لنفس المنهج ، بينما يتميز فرع عن الآخر بانفراده بحدود وطبيعة المجال الخاضع للدراسة . فمثلا ، يتطرق عالم الفلك الى البحث في مجال حركة الكواكب والنجوم بينما الجيولوجي ظواهر التغير في الطبقات الأرضية .

أما بحوث العمليات فهي تستخدم المنهج العلمي لفهم وشرح ظواهر التغير في مجال نظم التشغيل Operating Systems . ويسجل علم بحوث العمليات ظواهر هذه النظم ويطور نظريات أو نماذج هذه الظواهر ثم يستخدم هذه النظريات لشرح وتقدير ما يحدث تحت ظروف متغيرة ، ثم يتحقق من دقة هذه التقديرات بمقارنتها بملاحظات ميدانية جديدة ، وهلم جرا . وبالتالي فان بحوث العمليات هي فرع من فروع العلم لأنها توظف المنهج العلمي لتوفير أسس المعرفة المطلوبة لها ، كما أنها تتميز عن باقي فروع العلم بدراسة ظواهر نظم التشغيل وهو ما لم تتناوله فروع العلوم الأخرى .

ولتوضيح الفارق بين استخدام بحوث العمليات وفروع العلوم الطبيعية الأخرى للمنهج العلمي . يلاحظ في الشكل رقم (٢) أن الخطوة الأولى في الاسلوب العلمي تنطوي على تطوير الفروض ، والتي عادة ما يتم الوصول اليها بالاستنباط بعد فترة من المراقبة . وفي هذه المرحلة يتم تصميم تجربة لاختبار صحة هذه الفروض ، ثم يجري تعديل الفروض اذا تعارضت مع نتائج التجربة . وتتكرر التجربة لاختبار الفروض المعدلة ، وهكذا حتى يتم التحقق من صحة الفروض وبالتالي تصبح لدينا نظرية . وبالمقارنة بعملية النمذجة نجد أن النماذج « تخترع » بينما



شكل رقم ٢ : الاسلوب العلمي

النظريات تكتشف . النظريات لا بد من اثباتها وهو ما يستحيل عمله في النماذج . فالنمذجة في تطبيقات بحوث العمليات تركز على تطوير العديد من الطرق الرياضية التي تناسب الواقع العملي ،دون الاعتماد على نظريات مثبتة . لذا فإن الاثبات الاساسي لقدرة نموذج بحوث العمليات يعتمد على خصائص ومدى تطابق وصفه مع الواقع ودرجة تقبل الحلول الناتجة منه في المجال العلمي .

إن الاستعانة ببحوث العمليات توضح مدى الاعتقاد بفوائد المنهجية العلمية المنطقية والمنظمة في مساندة عملية اتخاذ القرار . وبالطبع فليس هناك شك في مدى الاستفادة من تطبيق المنهج العلمي في دراسة العديد من الموضوعات الاخرى ، مثل دراسة الظواهر الطبيعية أو التفاعلات الكيميائية . لذا فمن المدهش في عصرنا الحديث أن تظهر الحاجة الى توضيح جدوى العلم ، وبحوث العمليات هي علم . ونظرا لصعوبة القيام بتجربة علمية معملية لاختبار ميزة وجدوى حلول بحوث العمليات ، فإن هناك عدة أسباب تحث الادارة على ادراك ميزة وجدوى المنهجية العلمية في مساندة عملية اتخاذ القرارات ، منها :

★ الاقتناع التام بجدوى المنهج العلمي في مساندة عملية اتخاذ القرار لايعني بالضرورة تقبل نتائج جميع دراسات بحوث العمليات .

★ الثقة الكاملة في العلم لاتعني الابتعاد عن التفكير المنطقي والأحاسيس الداخلية لمتخذ القرار . والواقع أن التاريخ يبين أن الكثير من النظريات والظواهر العلمية تم اكتشافها بالصدفة المحضة أو الأحاسيس ، بل وحتى الأحلام . والسؤال ليس متى نطبق العلم ومتى نلجأ الى متخذي القرار ، بل كيف يمكن دمج الاثنين لتحقيق اقصى فعالية ممكنة .

★ ان عدم امكانية تكرار المواقف (فالتاريخ لايعيد نفسه) والتي تزيد من صعوبة تحديد مدى التحسن الناتج من تطبيق حل مقترح ليست مقصورة على بحوث العمليات فقط ولكنها موجودة في كثير من العلوم الأخرى .

ولتقريب مفهوم علم بحوث العمليات الى ذهن القارىء نقدم عدة أمثلة لأهم أساليبه وتطبيقاتها في مشاكل واقعية في مجالات النقل والصناعة والزراعة والصيانة. وتتركز هذه الأساليب في نماذج البرمجة الرياضية، وبخاصة طرق البرمجة الخطية، البرمجة الديناميكية، ونظرية خطوط الانتظار، ونقدم فيما يلي وصفا مختصرا لبعض هذه الأمثلة:

★ **البرمجة الخطية ومشاكل تلوث الهواء**

يواجه أحد منتجي الصلب مشكلة تتعلق بمستوى الملوثات الناتجة من عملية التصنيع. وتفرض مواصفات قياسية جديدة على الشركة تخفيض كمية الملوثات المنبعثة من المصنع من أكسيد الكبريت والكربوهيدرات وبعض مواد أخرى تنتج من مصانعها. وهناك مصدران رئيسان للملوثات في تصنيع الصلب، هما: أفران الصهر لتصنيع كتل الحديد Blast Furnances وأفران التحويل Open Health Furnaces لانتاج الصلب من الحديد. وأكثر طرق تقليل الملوثات فعالية في كلا المصدرين هي :

(١) زيادة ارتفاع أماكن خروج الدخان.

(٢) استخدام مرشحات لتنقية الدخان.

(٣) الاستعانة بنوعيات أعلى وأنظف كوقود للأفران. ولكل من هذه الطرق مدى فعالية في تقليل الملوثات. ولكن يمكن استخدام اي منها بنسبة ما في حدود هذه الفعالية في تقليل الملوثات. وبناء على نتائج تحليل الكلفة يمكن الحصول على الكلفة السنوية لاستخدام كل طريقة في أفران الصهر وأفران التحويل بالاضافة الى مدى فعالية استخدام كل طريقة (مع اعتبار ان الكلفة عند مستويات اقل من سعة كل طريقة تتناسب مع نسبة استعمال السعة). ولقد تم استخدام البرمجة الخطية في حل مشكلة الملوثات باستخدام دالة الهدف Objective Function ، القيود Constraints ، المتغيرات Variables . ونظرا لان البرمجة الخطية تعتبر من اكثر طرق بحوث العمليات تطورا واستخداما نقدم للقارىء شرحا مبسطا ومختصرا لمكونات نموذج البرمجة الخطية (بالملحق رقم ١) وبالرجوع الى عناصر نموذج البرمجة الخطية لحل مشكلة تلوث الهواء نجد أنها تتكون من الآتي :

★ دالة الهدف : هي تقليل الكلفة السنوية الكلية لتقليل كمية الملوثات باستخدام الطرق الثلاثة لمعالجة الملوثات.

★ القيود : هي

- مستوى الملوثات المطلوب بالمواصفات القياسية الجديدة.
- سعة كل طريقة من طرق تقليل الملوثات لافران الصهر والتحويل.
- علاقة مستوى الملوثات بالانتاج لافران الصهر والتحويل.
- المتغيرات : هي
- نسبة استخدام كل طريقة من طرق معالجة وتقليل الملوثات بكل فرن.
- مستوى الملوثات المناظرة لاستخدام كل طريقة من طرق المعالجة.

ويحل هذا النموذج باستخدام طرق البرمجة الخطية المعروفة بـ (Simplex Method)[1] تم الوصول الى الخطة المثلى الأقل كلفة للوفاء بمتطلبات المواصفات القياسية لمستويات الملوثات . وتتكون هذه الخطة من تحديد نوع ونسبة استخدام كل طريقة من طرق معالجة وتقليل مستوى الملوثات في كل من أفران الصهر والتحويل .

وتتميز طرق البرمجة الخطية بأنها قابلة للحل دائما حتى للنماذج الكبيرة التي تحتوي على آلاف من المتغيرات والقيود وهي واحدة من أكثر طرق بحوث العمليات شيوعا في العديد من المجالات .

★ نماذج نقل المنتجات : Transportation of Products تقوم احدى الشركات بتنظيف وتعليب البازلاء . وتتم عملية التحضير والتعليب في وحدات صناعية متعددة في مواقع متباينة وبعيدة كل البعد عن مستودعات التخزين كما هو مبين بالشكل رقم ٣ وتستخدم الشاحنات في نقل هذه المعلبات الى مستودعات التخزين . الا أن ادارة الشركة

(١) يمكن للقارىء الرجوع الى (Taha, (1982 للاطلاع على تفاصيل البرمجة الخطية وطرق حلها .

لاحظت ان كلفة النقل تمثل مصدر صرف رئيسي ، ولذا قررت القيام بدراسة لتحديد المسارات والكميات المثلى (أي التي تحقق أقل كلفة) التي تنقل من كل وحدة تعبئة وكل مستودع . ولقد تم تقدير كمية الانتاج لكل وحدة تعبئة والكميات المطلوبة لكل مستودع لموسم الانتاج القادم ، كما قدرت أيضا كلفة النقل لشحنة من البازلاء لكل مسار من وحدة تعبئة الى مستودع تخزين أو توزيع . وباستخدام هذه البيانات تم تحديد التعيين الأمثل للشحنات لكل مسار مع مراعاة سعة الانتاج لكل وحدة تعبئة والطلب على المعلبات بكل مستودع . وأود أن أنوه هنا الى أن نماذج نقل المنتجات تعتبر نوعا خاصا من نماذج البرمجة الخطية .

★ نماذج البرمجة الديناميكية وتخصيص الأعمال بالورش : «Dynamic Programming Job-shop Assignments»

تتناول نماذج البرمجة الديناميكية اتخاذ قرارات متتابعة ومترابطة . ونوضحها هنا بشرح مبسط لتطبيقها في توزيع الأعمال على ماكينات التشغيل وعمالها بالورش مع الأخذ بالاعتبار التباين الموسمي لمستوى الطلب على انجاز الأعمال . ونظرا لصعوبة تعيين مشغلي ماكينات جدد وارتفاع كلفة تدريبهم ، فان مدير الورشة متردد في فصل العمالة الزائدة أثناء موسم تدني الطلب على الأعمال كما يصعب عليه الاستمرار في تحمل أقصى مستوى لمرتبات العمالة في الوقت الذي تنتفي فيه الحاجة الى بعضهم . بالاضافة الى ذلك ، فهو ضد العمل في أوقات اضافية بصفة منتظمة . وحيث ان جميع الأعمال ونوعيتها يتم انجازها بالطلب فليس في الامكان استخدام المخزون لسد الاحتياجات الموسمية . وعليه فقد واجه مدير الورشة مشكلة فيما يتعلق بسياسة العمالة ومستوياتها ، مع العلم بأن تقديرات احتياجات العمالة أثناء فصول السنة الأربعة متوفرة للسنوات القادمة . وتمثل هذه التقديرات أدنى مستويات مقبولة للعمالة أثناء هذه الفصول . كما أن أي زيادة فوق هذه المستويات تمثل هدرا للموارد . وبالطبع فان المرتبات وكلفة كل من التعيين والفصل معروفة ، وبافتراض أن مستويات العمالة الجزئية مقبولة خاصة عند الأخذ في الاعتبار تعيين بعض العمالة لجزء من الوقت فيمكن تحديد المستويات المثلى للعمالة بما في ذلك التعيين والفصل أثناء كل موسم بأقل كلفة كلية للعمالة . ويتكون نموذج البرمجة الديناميكية من المعادلة الوظيفية « لدالة الهدف » Functional Equation و « مراحل القرار » Stages و « متغير الحالة » State Varaible و « متغيرات القرار » Decision Variables ومعادلة الربط بين كل مرحلة Transformation equation وفيما يلي وصف مبسط لمكونات النموذج المستخدم في حل مشكلة العمالة موضح في الشكل رقم ٤ :

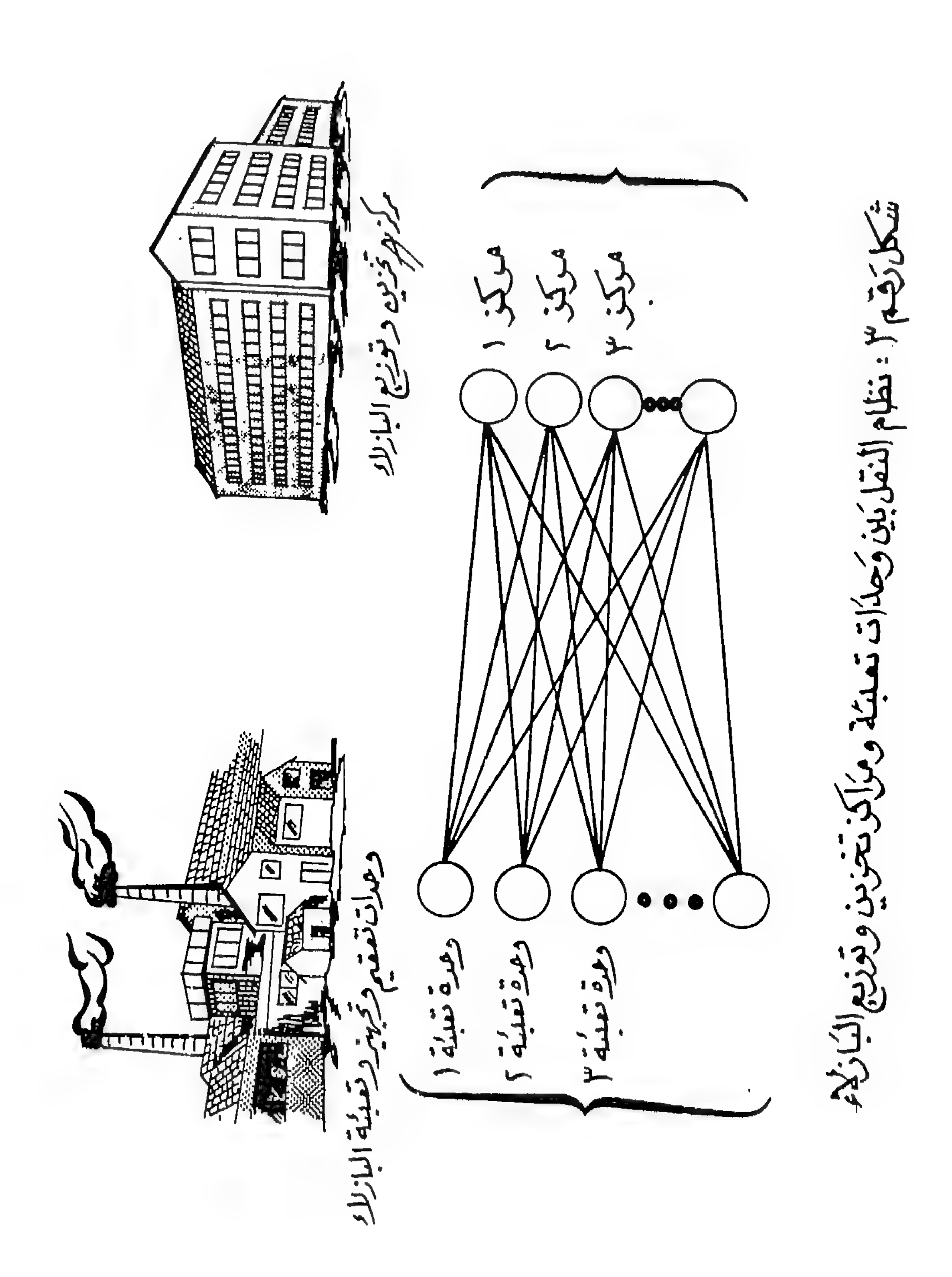
- مراحل القرار : فصول السنة لعدة سنوات .

- متغير الحالة : مستويات العمالة في كل فصل من فصول السنة .

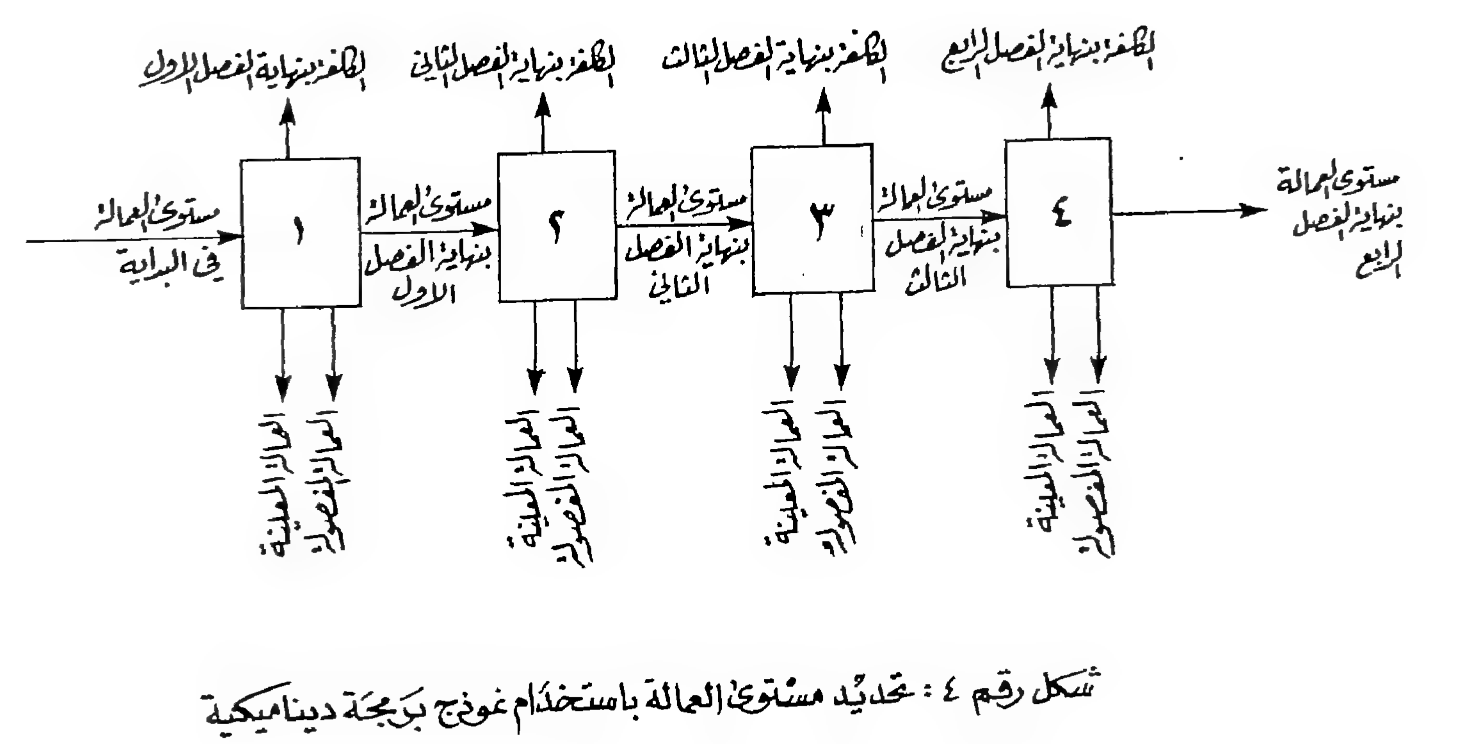
- متغيرات القرار : العمالة المعينة ، العمالة المفصولة في كل فصل .

- المعادلة الوظيفية لدالة الهدف : الكلفة بناء على قيمة متغير الحالة في كل مرحلة وتمثل المعادلة الوظيفية للمرحلة الأخيرة الكلفة الكلية للعمالة .

- معادلة الربط : التغير في مستوى العمالة بفعل ما بناء على هذا المستوى في الفصل السابق .



شكل رقم ٣ : نظام النقل بين وحدات تعبئة ومراكز تخزين وتوزيع البازلاء



شكل رقم ٤ : تحديد مستوى العمالة باستخدام نموذج برمجة ديناميكية

وتتميز نماذج البرمجة الديناميكية بتطابقها مع طرق عمل الادارة نظرا لتعاملها مع اتخاذ القرار على مراحل الوقت وهو ما يواجهنا في تناول العديد من المشاكل العملية . الا أن هذه النماذج تتطلب عددا هائلا من العمليات الحسابية وبالتالي تأخذ الكثير من الوقت وتحتاج لسعات تخزين عالية على الحاسبات الآلية . وهكذا ، فان حجم نماذج البرمجة الديناميكية التي يمكن التعامل معها وحلها على الحاسبات الآلية يعتبر محدودا خاصة عندما يحتوي النموذج على عدد كبير من متغيرات الحالة(٢)

★ نماذج خطوط الانتظار وحجم فرق الاصلاح : Queueing Theory and Repair Men. تستخدم شركة عشر آلات متماثلة في مصنعها . ولكن نظرا لأن هذه الآلات غالبا ما تتعطل وتتطلب الاصلاح ، فان الشركة لديها عمال لتشغيل ثماني آلات فقط بينما تحتفظ بالآلتين الأخريين كاحتياطي للاستخدام عند توقف احدى الماكينات الثمانية . وبناء عليه فان الآلات الثمانية تعمل دائما طالما لا يزيد عدد الماكينات التي تنتظر الاصلاح عن ماكينتين . وبالمقابل فان عدد الماكينات على « دالة توزيع الاحتمالات » Probability Distribution Function لوقت حدوث الأعطال بالاضافة الى دالة توزيع الاحتمالات للوقت اللازم لاصلاح الماكينات المتوقفة من بيانات التشغيل السابقة . وبما أن الشركة لديها رجل صيانة واصلاح واحد فلقد لوحظ انخفاض الانتاجية نظرا لأن عدد الماكينات المشتغلة يقل عن ثمانية . وبناء عليه قررت الشركة النظر في تعيين رجل صيانة اضافي حتى يمكن اصلاح ماكينتين في الوقت نفسه . وتم عمل دراسة لنظام خط الانتظار حيث اعتبر عمال الصيانة كمحطات الخدمة والماكينات تمثل الوحدات المنتظرة للخدمة بهدف اختيار الحجم الأمثل لفريق الصيانة . ويقدم الشكل رقم ٥ وصفا مبسطا لنظام خط الانتظار لتحديد حجم فريق الصيانة . ولقد اعتمدت هذه الدراسة على كلفة كل عامل إصلاح بالاضافة الى كلفة تعطل الآلات .

أما نماذج خطوط الانتظار (Taha 1980) فتتكون من توقيت عملية الوصول الى محطات الخدمة وعدد محطات الخدمة (متوالية أو متوازية) بالاضافة الى وقت الخدمة . وعادة ما تكون توقيتات الوصول والخدمة عشوائية وتخضع في تغيرها لدالة توزيع الاحتمالات . وتنطوي نماذج خطوط الانتظار على تطوير معادلات تفارقية Difference equations لحساب التغير في وضع النظام بين فترة وأخرى . ويتم تطوير هذه المعادلات على أسس عملية التوالد والفناء Birth & Death Process وأود أن أنوه هنا الى أن هذه المعادلات عادة ما تزداد تعقيدا وبسرعة خاصة عند نمذجة مواقف عملية مما يزيد من صعوبة حلها . لذا ، فكثيرا ما يلجأ بعض باحثي العمليات الى استخدام طرق المحاكاة(٣) لتحليل هذه المعادلات بدلا من الاعتماد التام على حلها التحليلي .

★ بحوث العمليات في الخدمات الاجتماعية

بالاضافة الى تطبيقات بحوث العمليات في المجالات العسكرية والصناعية والزراعية تعددت استخدامات بحوث العمليات في كثير من الخدمات الاجتماعية مثل الخدمات الصحية والتعليمية وجمع ومعالجة النفايات ومياه

---

(٢) Moder & Elmaghraby, 1975

(٣) Hillier and Lieberman, 1980

الصرف الصحي وفي تخطيط وتشغيل المنشآت السياحية والترفيهية والرياضية بالاضافة الى بعض الاستخدامات في مجال تقسيم المناطق الى دوائر انتخابية وتخصيص عدد النواب والناخبين بكل دائرة .

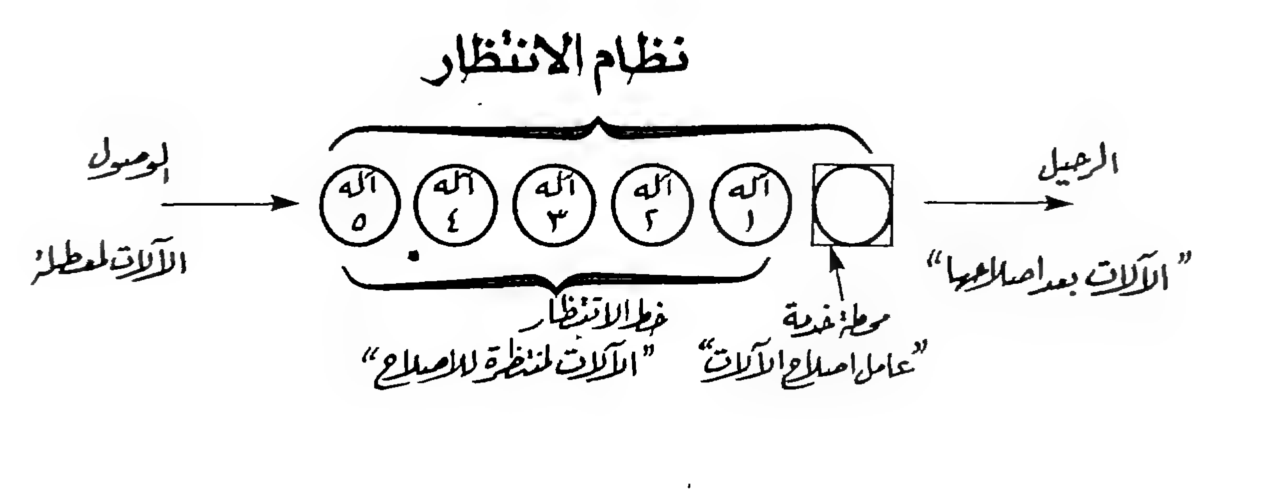
وهناك العديد من دراسات بحوث العمليات لتخطيط القوى العاملة سواء على المستوى القومي أو على مستوى احدى المنشآت .

ونقدم أدناه بعض الأمثلة التي توضح جزءا من تطبيقات بحوث العمليات في مجال التعليم والصحة .

★ **بحوث العمليات في التعليم** : قدمت بحوث العمليات مساهمات عديدة في تحليل طرق عمل المنشآت التعليمية بما في ذلك التخطيط وتخصيص الموارد والتقييم والجدولة واستخدمت نماذج برمجة الرياضيات والمحاكاة والشبكات Networks والتحليل الاحصائي (1987) White وعلى سبيل المثال يقدم (1986) Gosselin Turchon نموذج برمجة خطية لتخصيص قاعات الدراسة بين المواد الدراسية والطلبات الخاصة . ويشير المؤلفان الى أن النموذج قد أثبت كفاءته وسرعة وسهولة تطبيقه وتعتمد الدراسة على تجميع القاعات حسب نوعها وكذلك تصنيف الطلبات بناء على الحجم المطلوب . ثم يحدد نموذج البرمجة الخطية عدد الطلبات التي يمكن تخصيص قاعات لها . كما استخدمت بحوث العمليات في مجال التعليم على المستوى القومي سواء في تخطيط المنشآت التعليمية وتخصيص الموارد بناء على احتياجات سوق العمالة كما يقدم (1972) Balinsky & Reisman في مقالهما الذي يتعلق بتطوير نماذج انسياب القوى البشرية والتي تتبع القوى البشرية خلال قطاعات التعليم بمراحله والتوظيف بهدف تقليل الكلفة الناتجة من النقص أو الزيادة في العرض من القوى البشرية المدربة في كل المجالات .

★ **بحوث العمليات والرعاية الصحية** : يمكن وصف الرعاية الصحية بأنها عملية تنطوي على متابعة الحالة الصحية لفرد ما لتشخيص أية انحرافات أو عدم توازن في هذه الحالة ثم اتخاذ القرار باستخدام موارد الرعاية الصحية المتاحة لاعادة المريض الى أقرب ما يمكن الى حالته الصحية الأصلية التي يسمح بها نوع المرض والموارد الصحية المتاحة (Fetter 1975) يتضح من هذا الوصف أن الفرد والموارد يمثلان أساس نظم الرعاية الصحية . ويمكن النظر الى تطبيقات بحوث العمليات في الرعاية الصحية على مستويين . لقد تركزت معظم التطبيقات الأولية على الدراسات التحليلية داخل المنشأة الصحية ، والتي هي عادة المستشفى (Bailey 1957) وهناك العديد من الأمثلة التي تتعلق بجدولة علاج المرضى بالعيادات الخارجية . ، تحديد الطرق المناسبة لمراقبة المخزون من المفروشات والأدوية والمستهلكات الأخرى وتطوير سياسات تشغيل بنوك الدم ، تحليل معدل استخدام منشأة العلاج الداخلي للمرضى ، ودراسات الفعاليات النسبية للطرق المختلفة لتوصيل خدمات صحية معينة .

وحديثا ، تم القيام بعدة دراسات على المستوى التحليلي القومي للنظام الصحي باستخدام طرق الرعاية الصحية ، ودراسات تخطيط القوى البشرية وضبط النوعية في مجال الرعاية الصحية . ومن أمثلة تطبيق بحوث العمليات على مستوى القطاع الصحي هي الدراسة التي قام بها (1973) Fetter & Mills حيث قاما بتطوير نموذج لتخطيط توصيل الرعاية الصحية ودراسة لتحديد العدد الأمثل لغرفة العمليات Golden and Knappenberger (1968)



شكل رقم ٥ : تمثيل نظام الانتظار لاصلاح الآلات

تنوعت أساليب بحوث العمليات التي استخدمت في هذه الدراسات وغيرها في مجال الرعاية الصحية منها المحاكاة والبرمجة الخطية ونماذج خطوط الانتظار ويمكن للقارىء الرجوع الى (Fetter 1975) للاطلاع على تفاصيل أكثر فيما يتعلق بتطبيقات بحوث العمليات في الرعاية الصحية .

ولعل هذه الأمثلة قد أوضحت مضمون « علم بحوث العمليات » ألا وهو تطبيق المنهج العلمي (في مجال تحليل نظم التشغيل) الذي يمثل ما تستخدمه فروع العلوم الأخرى في مجالات مثل دراسة خصائص التربة الزراعية وأثر العوامل الجوية على معدلات النمو في مجال علم النبات .

★ النمو في بحوث العمليات

على الرغم من أن بحوث العمليات بدأت ، كما أسلفنا ، في المجال العسكري الا أن مركز الثقل لاهتمامات العاملين في بحوث العمليات انتقل بوضوح بعيدا عن التطبيقات العسكرية بحلول عام ١٩٥٥ . واتضح بعد عام ١٩٥٤ النمو المطرد في مجموعة من العاملين المهتمين بعلوم الادارة Management Science ، وهو تخصص يختلف هامشيا عن بحوث العمليات . وبنهاية عام ١٩٥٥ قام فيليب مورس بمسح شامل لأوضاع بحوث العمليات ووجه الانظار الى ضرورة زيادة الاهتمام بالنظريات الأساسية والتجارب التشغيلية بالاضافة الى تدريب عاملين جدد في حقل بحوث العمليات .

وهكذا ازدادت الدراسات النظرية بصورة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الماضية . ولكن ما زال هناك نقص وتشتت واضحان في الأعمال الخاصة بالتجارب التشغيلية . ولقد استمر التوسع في بحوث العمليات في السنوات الأخيرة ليغطي مجالات جديدة في كثير من فروع الخدمات المدنية الحكومية ، مثل محاكم الجنايات والنقل والاسكان ومشاكل التخطيط الحضري والعناية الصحية والتعليم والخدمات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال تم استحداث معهدين للتخطيط الحضري أحدهما في Rand Institute أصبح له باع طويل في بحوث العمليات للتخطيط الحضري ومشاكل تطوير المدن .

إن نظرة عميقة في أوضاع بحوث العمليات حاليا تكشف عن أن هناك العديد من الاتجاهات ، بعضها متوافق والآخر متعارض ، فمن جهة ، هناك انجازات ضخمة في مجال التطورات النظرية وتطبيقاتها في العقود الثلاث الماضية بما يدعو للفخر والانتماء المهني خاصة في البرامج الأكاديمية ، وعلى الجانب الآخر ، هناك نقد واضح لتقصير بعض العاملين ببحوث العمليات في الاهتمام بالتطبيقات وبالآثار الناتجة من هذه التطبيقات ومحاولة بعضهم وضع المشاكل العملية في قالب نماذج بحوث عمليات معينة لا تتناسب بالضرورة مع احتياجات معالجة هذه المشاكل . الا أن تطور قدرات الحاسبات الآلية خاصة الـ Supercomputer قد شجع العاملين في بحوث العمليات على التمثيل الدقيق والواقعي للمشاكل العملية حتى لو نتجت عن هذا نماذج كبيرة ومعقدة . بالاضافة الى ذلك ، فان التطور الملحوظ في مجال « النظم القائمة على المعرفة » Knowledge—based system وطرق « الذكاء الصناعي » Artificial Intelligence قد ساهم ، وما زال ، مساهمة فعالة في حل العديد من نماذج بحوث العمليات الكبيرة والمعقدة لتقترب كثيرا من الواقع .

ويتوقع أن تستمر الدفعة القوية نحو تطوير النظريات والنماذج ، ولكن مع تعزيز أكثر لواقعية هذه النظريات والنماذج وقابليتها للتطبيق العملي . وينطوي هذا على الاهتمام بطرق جمع المعلومات من البيئة واختبار النظم العاملة . ثم ان التطورات الكبيرة في مجال علوم الحاسب خاصة في مجالات المعالجات المتوازية Parallel Processing أو الذكاء الاصطناعي ستؤدي الى تغيير شامل وايجابي في طريقة التعامل مع نماذج بحوث العمليات ، سواء من ناحية هيكلها ومحتوياتها الرياضية أو من ناحية طرق الحل . فمن المتوقع أن تؤدي القدرات الحسابية الهائلة من حيث السعة أو السرعة الى السماح بزيادة درجة تعقيد النماذج وحجمها ، مما يفتح آفاقا جديدة في تطبيقات بحوث العمليات . بالاضافة الى ذلك ، فان التطور الملحوظ في نظم الذكاء الاصطناعي سيمكن باحثي العمليات من معالجة المواقف والمشاكل العملية ذات التركيب غير المنتظم Ill—Structured لذا ، فمن المتوقع أن يتزايد التلاحم بين هذين المجالين بهدف التكامل لفائدة كل منهما . لقد ركزت بحوث العمليات على تمثيل الواقع على شكل نماذج افتراض وجود سلوك معين ومنتظم للواقع ، وهنا تكمن مساهمة نظم أسس المعلومات في تطوير وحل نماذج بحوث العمليات . وعلى الرغم من التطور الهائل في تحليل النظم في المجال العسكري ، الا أن هناك قصورا في استخدام طرق تحليل النظم في المجال المدني . لذا ، فان الأعوام القادمة ستشهد توسعا ونموا في تحليل النظم المدنية بهدف الاقتراب من الواقع . وسيتجه باحثو العمليات الى الاستعانة بالنظريات العامة للنظم لتحليل المواقف العملية قبل وضعها في نماذج بحوث العمليات . وأخيرا ، فستستمر بحوث العمليات في مجهوداتها المكثفة الحالية لفتح مجالات جديدة للاستكشاف والتطبيقات بناء على التطورات المتوقعة المذكورة أعلاه .

★ الجمعيات المهنية لبحوث العمليات

قام عدة علماء من الذين شاركوا في التطور الناجح لبحوث العمليات ببريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بالاتفاق على تكوين نادي بحوث علمية بهدف تقديم اطار مستمر لتبادل الخبرات ومناقشة استخدامات بحوث العمليات في كثير من الصناعات والخدمات ، بما في ذلك الزراعة والقطن والصلب والأحذية والفحم والكهرباء وتربية الماشية والبناء والنقل . وأسس أعضاء ذلك النادي دورية بحوث العمليات الربع سنوية ، وظهر أول أعدادها في مارس ١٩٥٠ م وفي نوفمبر ١٩٥٣ م تحول النادي الى جمعية بحوث العمليات ينضم اليها العاملين في بحوث العمليات .

وفي نفس الوقت أنشأ مجلس البحوث القومي لجنة لبحوث العمليات عام ١٩٤٩ ، بغرض تعزيز الاهتمام ببحوث العمليات غير العسكرية . أصدرت اللجنة منشورا صغيرا واسع الانتشار بعنوان « بحوث العمليات مع اشارة خاصة الى التطبيقات غير العسكرية » . وبحلول مايو ١٩٥٢ ، عقد اجتماع تكونت فيه ـ كما أسلفنا ـ جمعية بحوث العمليات الامريكية برئاسة فيليب مورس ، وعقد المؤتمر الأول لبحوث العمليات في نوفمبر من نفس العام كما صدر العدد الاول من دورية بحوث العمليات . وأنشئت مجموعة أخرى بالولايات المتحدة تدعى معهد العلوم الادارية The Institute of management Science (TIMS) في عام ١٩٥٣ . وعلى الرغم من أن غالبية أعضائها من الولايات المتحدة الأمريكية الا أنها نشأت كجمعية دولية . وخرج العدد الأول من دوريتها العلمية في سبتمبر

١٩٥٤ . وتكون الاتحاد الدولي لجمعيات بحوث العمليات
International Federation of Operational Research Societies (IFORS)
في يناير ١٩٥٩ ، من الجمعيات الثلاث الامريكية والبريطانية والفرنسية ومنذ عام ١٩٥٩ حتى اليوم ، أنشئت أكثر من ٢٠ جمعية قطرية لبحوث العمليات . وعلى الرغم من أن جمعية بحوث العلماء الامريكية جمعية قطرية الا أنها تحتوي على أعضاء من أكثر من ٧٠ دولة . ويصعب تحديد عدد الباحثين العاملين ببحوث العمليات بدقة الا أن سجلات عضوية الـ IFORS تشير الى أن هناك ما يزيد عن ٣٥٠٠٠ عضو .

★ الدوريات العلمية

تعتبر الدورية العلمية البريطانية Operational Research Quarterly أولى النشرات العلمية في مجال بحوث العمليات ، تبعتها دوريتان أمريكيتان عام ١٩٥٤ . وظهرت دوريتان ، احداهما فرنسية والأخرى المانية ، عام ١٩٥٦ ، وظهر معظم هذه الدوريات في الفترة ما بين ١٩٥٥ - ١٩٦٥ . كما تم أيضا تأسيس دورية دولية تلخص مقالات بحوث العمليات من جميع أنحاء العالم ، تدعى الملخصات الدولية لبحوث العمليات (International Abstracts in Operations Research) (IAOR)) .

★ بحوث العمليات في التعليم

لقد كان من المألوف في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية للعاملين ذوي الخبرة في بحوث العمليات أن ينظروا الى مجال تخصصهم على أنه غير قابل للاستفادة من برنامج موسع للتعليم والتدريب بل المطلوب هو الخبرة في عمل البحوث في أحد العلوم الأخرى المعروفة . ولكن بداية عام ١٩٥٥ شهدت تنظيم دورات تدريبية قصيرة في العديد من الدول ، تبعتها برامج تعليمية أكاديمية في عدة جامعات . ويشير تقرير لجمعية بحوث العمليات بأمريكا صدر عام ١٩٧٣ الى أن هناك أكثر من ٥٣ برنامج دراسي في بحوث العمليات بأمريكا ، بالاضافة الى الدول الأخرى التي أظهرت نموا مشابها في برامج دراسة بحوث العمليات .

★ بحوث العمليات في العالم العربي

يصعب علينا تناول تطور بحوث العمليات في العالم العربي بالتفصيل نظرا لعدم توثيق مثل هذا التطور . ونعتمد في هذا العرض السريع على المعلومات المتوفرة لدى بعض المتصلين ببحوث العمليات في العالم العربي في شأن التطورات الرئيسية لبحوث العمليات ببعض الدول العربية .

على الرغم من تطور بحوث العمليات دوليا بشكل ملحوظ الا أن العالم العربي لم يلحق بالركب الا متأخرا ، وذلك باستثناء بعض الدراسات الأولية بمعهد التخطيط القومي ومعهد الادارة العليا بالقاهرة في نهاية الخمسينات باستخدام نماذج برمجة رياضية في التخطيط الاقتصادي والصناعي . وفي صيف عام ١٩٧٢ وجهت الدعوة لمجموعة من العلماء الأمريكيين من أصل عربي منهم صلاح الدين المغربي وحمدي طه وسعيد عاشور وتوماس ساعاتي لالقاء سلسلة من المحاضرات بمعهد الدراسات الاحصائية التابع لجامعة القاهرة كما قاموا بالعديد من الاستشارات لعدة

صناعات مصرية في بحوث العمليات . وأعطى نشاط هذه المجموعة دفعة قوية وأثار اهتماما كبيرا لبحوث العمليات بمصر نتج عنها انشاء أول جمعية مصرية لبحوث العمليات . وفي بداية السبعينات أدخلت مبادىء بحوث العمليات في بعض البرامج الدراسية بكليات الهندسة والتجارة بالجامعات المصرية .

وانتشرت دراسات بحوث العمليات في العديد من الصناعات والهيئات المصرية كما أن هناك العديد من الدراسات لبحوث العمليات بالقوات المسلحة المصرية ولكننا لا نملك الا القليل من المعلومات عن نوعية وجدوى هذه الدراسات نظرا لعوامل السرية (Machol'1981) . وبافتتاح العديد من أقسام الهندسة الصناعية بكليات الهندسة بالدول العربية ، بما في ذلك مصر والسعودية وليبيا ، وحديثا الأردن (عام ١٩٨٨) والكويت (بحلول عام ١٩٩٠) انتشرت برامج بحوث العمليات الدراسية بالجامعات العربية . وفي مجال التطبيقات فلقد تم الاستعانة ببحوث العمليات وخاصة نماذج البرمجة الخطية في شركات النفط بالدول العربية في بداية الستينات . وتجدر الاشارة هنا الى دراسات بحوث العمليات التطبيقية التي تجري منذ أوائل الثمانينات في معهد الكويت للأبحاث العلمية لتشمل تطبيق نماذج البرمجة الرياضية على العديد من المشاكل الصناعية ونظم الخدمات والانتاج الزراعي بالاضافة الى نماذج المحاكاة في كثير من المجالات الزراعية والصناعية والاقتصادية .

الدروس المستفادة من تطور بحوث العمليات :

عند استشفاف الدروس المستفادة من تطور بحوث العمليات يجدر بنا التمعن في احداث الحرب العالمية الثانية بدول الحلفاء وما تبعها من تطورات بالحقل المدني . ونستنتج فيما يلي بعض هذه الدروس ، نوجزها فيما يلي :

★ تؤدى أوقات الشدة الى تضافر جهود المخلصين على الرغم من تباين خلفياتهم العلمية ومجالات عملهم سواء في الحقل العسكري أو المدني . فلقد لجأ العسكريون الى الاستعانة بالقدرات العلمية الوطنية للمساعدة في التصدي لتهديدات الأعداء .

★ تمثل الهيئات العسكرية أحد عوامل الدفع الهامة نحو التطور والتقدم العلمي نظرا لتعاملها مع متطلبات الأمن القومي وما يتبعه من جدية ونظام وتمويل توفر المناخ المناسب للبحث العلمي .

★ لا بد وأن تكون هناك فئة من العلماء المخلصين الذين يأخذون على عاتقهم تطوير علم ما وحمل الشعلة حتى يخرج هذا العلم الى حيز الوجود ويتطور على أسس متينة . فعلى الرغم من انتهاء الحرب الا أن أوائل العاملين ببحوث العمليات بالجيوش الامريكية والبريطانية رأوا فيها نواة علم جديد ذي أهمية وفائدة لكثير من المجالات المدنية . وبدون اصرار هؤلاء الرواد على المضي في تطوير علم بحوث العمليات وتوثيقه وعرض خبراتهم على الآخرين لما تم وصول هذا العلم الى مرحلة البلوغ .

★ ضرورة وجود الانتماء الوطني والعلمي للعاملين ببحوث العمليات لخدمة وطنهم فبدون هذا الانتماء لما تمكن العلماء من التطوير والبحث . ونود أن نشير هنا الى أهمية فهم باحثي العمليات للبيئة التي يمارسون فيها أعمالهم .

★ تعتمد دراسات بحوث العمليات على التفاعل والتفاهم التام بين الدارسين القائمين على الدراسة والمستفيدين الأمر الذي يستدعي مراعاة احتياجات وقيود الواقع وأثرها على طرق تحليل وحل المشاكل الخاضعة للدراسة .

★ لعبت الحاسبات الآلية دورا رئيسيا وهاما في تطور وانتشار دراسات بحوث العمليات . فلا مفر اذن من التفاعل الايجابي بين علم الحاسبات وعلم بحوث العمليات لزيادة القدرات لمعالجة المشاكل العلمية من ناحية ودرجة التعقيد أو الحجم .

★ يزداد مدى الاستفادة من نتائج دراسات بحوث العمليات كلما اقترب فريق الدراسة من أعلى مستويات صانعي القرار . فلو لم يكن هناك اتصال مباشر بين المارشال دودنج وبين رئيس فريق بحوث العمليات لما أمكنه الحصول على احتياجاته بدقة ووضوح .

★ أهمية التعاون بين المختصين في العلوم المتعددة ذات الأهمية لمجال دراسة بحوث العمليات فعلى سبيل المثال اعتمد تطوير نظام المراقبة لدعم الدفاع البريطاني ضد الهجمات الجوية على التفاعل بين المختصين العسكريين ومهندسي الرادار (مصنعين ومشغلين) وباحثي العمليات .

خاتمـــة

وختاما نتطرق مرة أخرى للسؤال الذي يطرحه عنوان الورقة : هل بحوث العمليات علم حديث أم منهج جديد ؟ هناك بعض الأراء التي تشير الى أن بحوث العمليات يمكن تطبيقها في العديد من مجالات العلوم الأخرى مثل الزراعة والطب والتعليم مثلا . لذا فهي تمثل منهجا جديدا يمكن استخدامه في مجال العلوم الأخرى بهدف تحسين أداء هذه النظم . وبالمقابل يجيب الممارسون والمهنيون في مجال بحوث العمليات على هذا السؤال بالتأكيد على أن بحوث العمليات علم مستقل يتناول تطبيق المنهج العلمي وشرح ظواهر التغير في مجال نظم التشغيل ، بما في ذلك تطوير النماذج الرياضية لفهم هذه الظواهر ولاستشراف ما يحدث تحت الظروف المختلفة لنظم التشغيل . فبحوث العمليات تتطابق مع العلوم الأخرى في استخدامها للمنهج العلمي في دراساتها بينما تتميز عن باقي العلوم في تناولها لمجال نظم التشغيل .

لقد تطور علم بحوث العمليات ونما ، كما رأينا ، بحيث استدعى هذا انشاء برامج تعليمية خاصة تصل الى مستوى الدراسات العليا بغالبية الجامعات في معظم بلدان العالم كما تكونت العديد من الجمعيات المهنية والعلمية يشترك في عضويتها آلاف العاملين في البحوث وأنشئت وازدهرت الدوريات والنشرات العلمية ذات المستوى المتقدم . بالاضافة الى ذلك نجد الكثير من الهيئات الحكومية والعسكرية والشركات الصناعية وغيرها قد أنشأت أقساما ادارية متخصصة للقيام بدراسات بحوث العمليات .

ان بحوث العمليات تمتلك المقومات التي تؤهلها كعلم حديث باستخدام المنهج العلمي في مجال نظم التشغيل الأمر الذي يبرر ظهور ووجود برامجها ومناهجها ودرجاتها التعليمية وجمعياتها المهنية والعلمية ودورياتها العلمية الخاصة بالاضافة الى وجود أقسام متخصصة بدراسات بحوث العمليات في كبرى المؤسسات الحكومية والشركات .

ملحق رقم ١

البرمجة الخطية Linear Programming

نبذة مختصرة

تعتبر نماذج البرمجة الخطية أكثر فروع بحوث العمليات تطورا وخاصة بعد أن قام جورج دانتزيج George Dantzig بتطوير طريقة الحل المعروفة باسم سمبلكس Simplex عام 1947. ويرجع النجاح الحالي في تطبيق البرمجة الخطية الى تقدم قدرات الحاسبات الآلية من حيث السرعة والسعة التخزينية . وتتمتع نماذج البرمجة الخطية بتنوع هائل في تطبيقاتها بالمجالات العسكرية والزراعية والصناعية وبنظم الانتاج والتخزين والنقل والاقتصاد . ونقدم هنا شرحا مبسطا لنماذج البرمجة الخطية .

تستخدم نماذج البرمجة الخطية في ايجاد القيم المثلى للأنشطة (Activities) أو الأعمال التي تتطلب العديد من الموارد Resources المحدودة بمعدل معروف ومعطى لكل علاقة بين نوع النشاط والموارد .

يتكون نموذج البرمجة الخطية من دالة هدف (Objective Function) تمثل ، مثلا ، كلفة الموارد المستخدمة . وفي هذه الحالة يهدف نموذج البرمجة الخطية الى تقليل الكلفة (Cost Minimization) . أو قد تكون دالة الهدف هي ربحية الأنشطة المنتجة والتي يقوم النموذج بتعظيمها (Profit Maximization) وهناك بعد هذا القيود (Constraints) التي تمثل حدود الاختيار من بين الحلول الممكنة .

وتمثل دالة الهدف معايير تقويم الحلول المطروحة كالكلفة أو (الربح) . ويهدف نموذج البرمجة الخطية الى اختيار الحل الأمثل الذي يؤدى الى تقليل أو تعظيم التكاليف الكلية (الربح الكلى) . وعادة ما تتكون دالة الهدف من ناتج ضرب الكلفة (الربح) لوحدة من وحدات المتغير في عدد الوحدات من هذا المتغير والتي يحددها الحل الأمثل للنموذج . وبالطبع فان اختيار الحل الأمثل لابد وأن يخضع للعديد من القيود التي تحد من الخيارات الممكنة حتى نحصل على الحل الممكن تطبيقه عمليا . فعلى سبيل المثال ، هناك قيود على الطاقة الانتاجية لشركة ما لا يمكن تجاوزها . ولكل قيد علاقة خطية تخضع لقيمة ما (مثل الطاقة الانتاجية) سواء كانت أقل من ، أو تساوي ، أكثر من أو تساوي هذه القيمة .

التعريف العام لنماذج البرمجة الخطية :

يمكن تعريف نماذج البرمجة الخطية رياضيا بصفة عامة كالآتي :

* دالة الهدف .

Maximize (or Minimize)

$$\sum_{j=1}^{n} C_j \; X_j$$

Subject to :

* القيود Constraints

$$\sum_{j=1}^{n} a_{ij} \cdot X_j \; (\leq \; , \; = \; , \; \geq \;) b_i$$

وحيث أن :

X_j = مستوى المتغيرات التي تمثل كل عمل من الأعمال j .

C_j = ربحية (أو كلفة) كل وحدة من المتغيرات X_j.

a_{ij} = كمية استهلاك العمل j من المورد i .

b_i = الكمية المتاحة من المورد i .

وتعريف المتغيرات والعوامل يختلف بتغير الموقف العملي المطلوب تمثيله بالنموذج الرياضي . وتعتمد نماذج البرمجة على ثلاثة افتراضات ، الأول : التناسب (Proportionality) مما يعني أن استهلاك الموارد بواسطة عمل من الأعمال وأثره على دالة الهدف يتناسب مع مستوى العمل . الثاني : القابلية للجمع (Additivity) مما يبين أن الاستهلاك الجماعي للموارد عبارة عن مجموع الاستهلاكات لكل عمل من الأعمال . وهذان الفرضان يؤديان الى تمثيل خطى لجميع عناصر النموذج . والافتراض الثالث : أن المتغيرات التي تحدد مستوى الأعمال لا يمكن أن تكون سالبة (Nonnegativity) .

وبالرغم من عيوب افتراض أن جميع العلاقات بالنموذج خطية خاصة في المشاكل العملية الا أن أهمية هذا الافتراض تتمثل في قابلية النموذج للحل بطرق مبسطة وأكثر كفاءة مما لو كانت هناك علاقات غير خطية . لذا يلجأ كثير من مطوري النماذج الرياضية الى تقريب العلاقات غير الخطية بعلاقات خطية . ولقد أثبتت النتائج أن الدقة التي تفقد نتيجة لهذا التقريب تعتبر مقبولة عمليا .

مثال ١ : مزج الزيت الخام Crude Oil Blending

في احدى مصافي الزيت خطان لخلط نوعين من وقود السيارات باستخدام نوعين من الزيت الخام . وتتغير ربحية المصفاة حسب نوع الوقود مع التقيد بكميات محدودة من نوعي الزيت الخام الممكن الحصول عليه ، بالاضافة الى ارتباط المصفاة بعقود لتزويد السوق بكميات معينة . ويبين الجدول رقم ١ البيانات الخاصة بالبدائل

واستخدامات الموارد لكل خط للانتاج . "1" يتطلب وحدة واحدة وثلاث وحدات من نوعي الزيت الخام الأول والثاني على التوالى لانتاج 9 وحدات من النوع الأول لوقود السيارات ، بينما تعطى وحدتين من النوع الثاني من الوقود خلال ساعة من الزمن . كما يوضح الجدول أن الربحية الناتجة من تشغيل الخط « أ » للانتاج تساوى 5 دنانير كويتيه . ويعطى الجدول أيضا نفس البيانات لخط الانتاج « ب » . ويوضح الجدول أن كمية الزيت الخام المتاحة للمصفاة لا تتعدى 80 و 120طنا للنوعين الأول والثاني على التوالى ، بالاضافة الى ارتباط المصفاة بتزويد 80و 90طنا من النوعين "1" و "2"على التوالى لوقود السيارات ويمكن تمثيل نموذج البرمجة الخطية لمزج الزيت الخام في رسم بياني (شكل ١) .

ويتكون الشكل من خمسة خطوط مستقيمة كل منها يمثل صفا من صفوف الجدول رقم «١» . الأربعة الأولى 4,3,2,1 تحدد القيود على الحل بينما الخط رقم 5الربحية (Profit line)ويلاحظ أن الخطوط الأربعة الأولى تحدد المنطقة المخططة والمعروفة « بمنطقة الحلول الممكنة » (Feasible Region) والمعروف في نظريات البرمجة الخطية أن الحل لا بد وأن يتكون من احدى النقاط الحدية الأربع الناتجة من تقاطع الخطوط التي تحدد منطقة الحلول الممكنة ، فمثلا الخط رقم «2» يبين أن الحل لا بد أن يعطى ما لا يقل عن 180طنا من وقود السيارات نوع "1". ويمكن رسم هذا الخط بافتراض أن عدد ساعات العمل على خط الانتاج « ب » يساوى صفرا ، وبقسمة الطلب ، وهو 180 طنا على كمية الوقود "1" الممكن انتاجه واحد ، لا بد وأن يعمل الخط لمدة 20ساعة كما هو مبين على الرسم على المحور الأفقي والذي يمثل عدد ساعات خط الانتاج الأول . وبالطريقة نفسها نصل الى النقطة 45 على المحور الرأسي . وبوصل هاتين النقطتين ينتج الخط البياني "1".

ونود أن نوضح هنا أن الأسهم الصغيرة على طرفي الخط «2» تشير الى أن الحلول الممكنة تقع على يمين هذا الخط فقط . أما عن خط الربحية ، فيتم بافتراض أية قيمة للربحية الكلية (ولتكن 100 في هذه الحالة) . وتستخدم هذه القيمة المفترضة لحساب انحدار خط الربحية والذي يمكن استخدامه في رسم الخط . وتنطوى الطريقة البيانية (شكل « ١ ») على تحريك خط الربحية في حالة تعظيم الربحية الى أبعد نقطة ممكنة من نقطة الأصل وهي النقطة (32, 12) الموضحة على الرسم . ويمكن تلخيص الحل الأمثل كالآتي :

الحل الأمثل لمثال مزج النفط الخام

* عدد ساعات العمل

خط الانتاج «أ» 32 ساعة

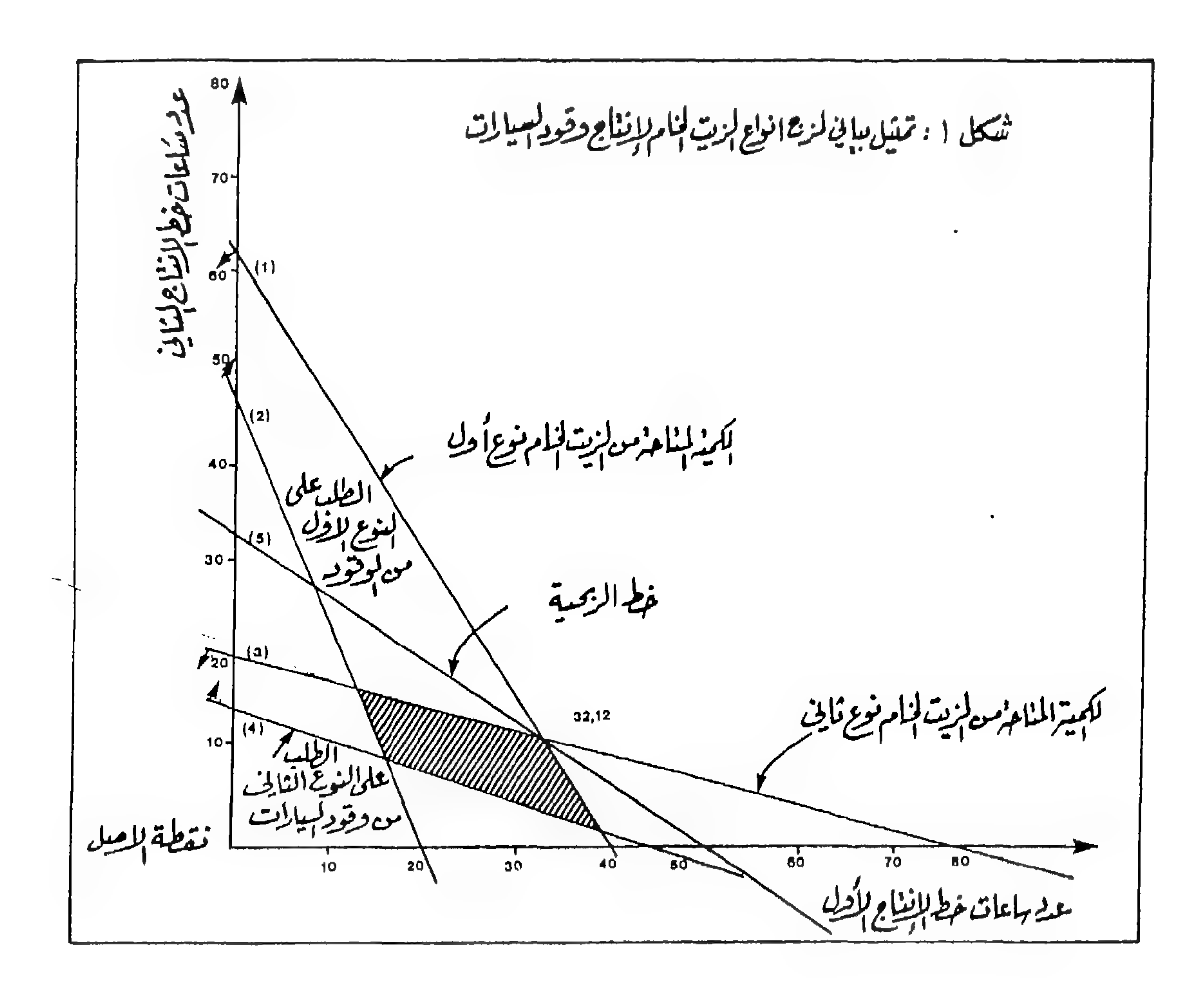
خط الانتاج «ب» 21 ساعة

* الربحية

= 32 x 5.0 + 3.25 x12   ١٩٩ ديناراً

جدول 1 بيانات مزج الزيت الخام لانتاج وقود السيارات

	خط الانتاج «أ»	خط الانتاج «ب»	الكمية	
* زيت خام				
- نوع أول	1	4	80	المتاح
- نوع ثاني	3	2	120	المتاح
* وقود السيارات				
- نوع «1»	9	4	180	الطلب
- نوع «2»	2	6	90	الطلب
الربحية	5	3.25	-	


شكل ١ : تمثيل بياني لمزج انواع الزيت الخام لإنتاج وقود السيارات
عدد ساعات خط الإنتاج الثاني
80
70
60
50
40
30
20
10
(1)
(2)
(5)
(3)
(4)
الكمية المتاحة من الزيت الخام نوع أول
الطلب على النوع الأول من الوقود
خط الربحية
32,12
الكمية المتاحة من الزيت الخام نوع ثاني
الطلب على النوع الثاني من وقود السيارات
نقطة الاصل
10
20
30
40
50
60
70
80
عدد ساعات خط الإنتاج الأول

* الكمية المستخدمة من النفط الخام

النوع الأول : 80

النوع الثاني : 120

وهو ما يساوى الكمية المتاحة

* الكمية المنتجة من وقود السيارات

نوع "1" : 336 وهو ما يتعدى الطلب

نوع "2" : 632 وهو ما يتعدى الطلب

والملاحظ أن المثال يفترض أن المصفاة يمكنها أن تربح من بيع أية كمية منتجة من نوعي وقود السيارات تتعدى الطلب .

وبافتراض أن :

X_1 = عدد ساعات الانتاج على خط (ا)

X_2 = عدد ساعات الانتاج على خط (ب)

يمكن وضع نموذج رياضي لهذا المثال كالآتي : يهدف النموذج الى ايجاد عدد ساعات العمل على كل خط من خطوط الانتاج مع تعظيم الربحية الممثلة بالخط .

$$5X_1 + 3.25X_2$$

بحيث يخضع هذا الحل للقيود التالية : ـ

* قيود كمية الزيت المتاحة :

$X_1 + 4X_2 \leq 80$ أي أن الكمية المستخدمة من النفط

$3X_1 + 2X_2 \leq 120$ الخام لا تتعدى الكمية المتاحة من كل نوع .

* قيود الطلب على الوقود :

$9X_1 + 4X_2 \geq 180$ أي أن الكمية المنتجة من الوقود لا بد وأن

$2X_1 + 2X_2 \geq 90$ تتعدى الكمية المطلوبة .

ويمكن تعديل القيود المعطاة أعلاه أو اضافة قيود جديدة ، مثل تعديل قيود الطلب على الوقود ، بجعلها تساوى (=) بدلا من أكبر أو تساوى (≥) أو اضافة قيد جديد على عدد ساعات العمل بأحد الخطوط بحيث لا يتعدى عدد ساعات معينة .

وجميع هذه التعديلات تخضع بالطبع للاعتبارات العملية للمشكلة التي نحن بصدد حلها .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن الآن هو : لنفترض أن عدد خطوط الانتاج أكثر من خطين بحيث لا يمكن تمثيل المسألة بيانيا كيفَ يمكننا ايجاد الحل الأمثل ؟ وهنا ننتقل الى ما هو معروف بالطرق الجبرية . والطريقة الأكثر شيوعا والمتبعة في جميع برامج الحاسب الآلى للبرمجة الخطية وهي طريقة "Simplex" والتي لن نخوض في تفاصيلها هنا ويمكن للقارىء المهتم أن يطلع على Dantzig (1963), Hadley (1962), Taha (1982)

* * *

المراجع

الطوس، أسامة أمين ١٩٨٦، العد والاثير خطوة مستقبلية في تشكيلة مشورة العلمية وتعد القرار في المجتمعات معاصرة، محاضرة في البرنامج الثقافي لجمعية ...، الكويت، مارس ١٩٨٦

Air Ministry, 1963 **The Origin and Development of Operational Research in Royal Air Force**, Air Publication 3368 Her Majesty's Stationery Office London.

Bailey, N.J.J., 1957 **Operational Research in Hospital Planning and Design**, Operational Res. Quart 8, pp. 149-157, Sept.

Balinsky, W. and A. Reisman, 1972 **Some Manpower Planning Models Based on Levels of Educational Attainment**, Management Science, 18, pp 691-705

Blackett, P.M.S. 1962. **Studies of War: Nuclear and Conventional**, Hill and Wang, New York

Caywood, Thomas E., Howard M. Berger, Joseph H. Engel, John F. Magee, ... J., Maier and Robert M. Thrall, 1971. **Guidelines for the Practice of Operations Research**, Operations Research 19 pp1123-1148

Clark, Ronald W., 1965. **Tizard**, Chapter 7, MIT Press, Cambridge, Massachusetts.

Churchman, C. West, Russell L. Ackoff, and E. Leonard Arnoff, 1957 **Introduction to Operations Research**, Wiley, New York.

Churchill, W.S. 1949 **Their Finest Hour**, Vol. II of the series **The Second World War** Cassel, London

Dantzig, G. 1963 **Linear Programming and Extensions**, Princeton University Press, Princeton, New Jersey.

Edie, Leslie, 1954. **Traffic Delays at Toll Booths**, Operations Research 2. pp 107-138

Fabozzi, F.J. and J. Valente, 1976. **Mathematical Programming in American Companies: A Sample Survey**, Interfaces, 7 (1): pp. 93-98. November

Fetter, Robert B., 1975 **The Health Services**, Handbook of Operations Research. Models and Applications - Volume 2, in Moder, J. and S.E. Elmaghraby (eds.), Van Nostrand Reinhold, New York.

Fetter, R.B. and J.D. Thompson, 1973 **A Planning Model for the Delivery of Health Services**, in A. Reisman and M Kiley (Eds.), Health Care Delivery Planning, Gordon 9 New York.

Flagle, C.D. 1967 **A Decade of Operations Research in Health**, in F. Swicky and A.G. Wilson (Eds.), New Methods of Thought and Procedure, Springer-Verlag, New York, pp. 33-41.

Goldman, J. and H.A. Knappenberger, 1968 **How to Determine the Optimum Number of Operating Rooms**, Modern Hospital III, pp. 1147, Sept

Grosselin, Karl, and Michel Truchon, 1986 **Allocation of Classrooms by Linear Programming**, J. Operational Research Society, Vol 37, No. 6, pp 561-569.

Hadley, G. 1964. **Linear Programming**, Addison-Wesley, Reading, Massachusetts

Haley, K.B. (editor) 1979 **Operational Research 78: Proceedings of the Eighth International Conference On Operational Research**, North-Holland, Amsterdam.

Hillier, F.S. and G.J. Lieberman, 1980. **Introduction to Operations Research**, Holden-Day, Inc., Oakland California, 3rd Edition.

Horvath, W.J. and M.L. Ernst, 1986. **Philip McCord Morse: A remembrance (1903-1985)**, Operations Research, Vol. 34, No. 1, Jan-Feb.

Kemeny, John G. 1959 **A Philosopher Looks at Science**, Van Nostrand Reinhold, New York

Larnder, H., 1984 **The Origin of Operational Research**, Operations Research, Vol 32, No. 2, March-April.

Ledbetter, W.N. and J.F. Cox, 1977. **Are OR Techniques Being Used**, Industrial Engineering, pp. 19-21, February.

Machol, R.E., 1981, **OR/MS in Europe - An American's Impressions**, pp. 209-218, J.P. Brans (Editor) : Operational Reseach 81, Proceeding of the Ninth IFORS International Conference in Operational Research, Hamburg, Germany, July 20-24.

Miser, Hugh J. and W. Edward Cushen, 1975. **The Demand for Management-Science Services in the Future in Civil Government,** in Micheal J. White, Micheal Radnor, and David A. Tansik (eds.), Management and Policy Science in American Government : Problems and Prospects, Lexington Books, D.C. Heath, Lexington, Massachusetts.

Miser, Hugh J., 1975. **The History, Nature and Use of Operations Research,** in J.J. Moder and S.E. ElMaghraby (editors), Handbook of Operations Research : Foundations and Fundamentals, Volume 1, Van Nostrand, Reinhold, New York.

Moder, J.J. and S.E. Elmaghraby, (editors), 1975. **Handbook of Operations Research, Volume 1 and 2, Van Nostrand, Reinhold, New York.**

Morse, P.M., 1986. The Beginning of Operations Research in the United States, Operations Research, Vol 34 No. 1, Jan-Feb.

Morse, Philip M. and George E. Kimball, 1946. **Methods of Operations Research,** National Defense Research Committee, Washington D.C., (Also published by Wiley, New York, 1951).

———, 1955. Queues, Inventories and Maintenance : **The Analysis of Operational Systems with Variable Demand and Supply,** Wiley, New York.

Neal, Rodney D. and Micheal Radnor, 1973. **The Relation between Formal Procedures for Pursuing OR/MS Activities and OR/MS Group Success,** Operations Res. 21: pp. 451-474.

O'Brien, G.G. and R.R. Crane, 1959. **The Scheduling of a Barge Line,** Operations Research. 7 : pp. 561-570.

Quade, Edward S., 1975. **Analysis for Public Decisions,** American Elsevier, New York. ——— and W.I. Boucher, 1968. **System Analysis and Policy Planning : Applications in Defense,** American Elsevier, New York.

Radnor, Michael and Rodney D. Neal, 1973. **The Progress of Management-Science Activities in Large US Industrial Corporations,** Operations Research 21 : pp. 427-450.

Ravindran, A., Phillips, D.T. and Solberg, J.J., 1987. **Operations Research : Principles and Practice,** Second Edition, John Wiley and Sons, New York.

Taha, H, 1982. **Operations Research : An Introduction,** third edition, Macmillan Publishing Co., New York.

Thornthwaite, C.W., 1953. **Operations Research in Agriculture,** Operations Research, 1 : pp. 33-38.

Trefethen, Florence N., 1954 **A History of Operations Research,** pp. 3-35 in McCloskey and Trefethen.

Turban, E, 1972. **A Sample Survey of Operations Research Activities at the Corporate,** Operations Research, 20 : pp. 708-721.

Waddington, C.H., 1973. **OR in World War 2 - Operational Research against the U-Boat,** Paul Elek Ltd., London.

Wason-Watt, Sir R. 1957. **Three Steps to Victory,** Adams, London.

White, Gregory, P., 1987. **A Survey of Recent Management Science Applications in Higher Education Administration,** Interface 17 : 2 March-April, pp. 97-108.

Wright, R. 1969. **Dowding and the Battle of Britain.** Macdonald, London.

* * *

تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية

قاسم عبده قاسم

قبل البداية : تقوم هذه الدراسة على أساس مفهوم محدد للمنهج نلتزم به ، ومؤداه أن المنهج هو مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم في حل مشكلات العلم ، وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه . وهو مايعني بالنسبة لهذا البحث أن مناهج البحث التاريخي تتطور في كل مرحلة من مراحل تطور علم التاريخ نفسه ، ومن ثم فإن هناك علاقةجدلية بين بنية العلم المعرفية ومناهج البحث في هذا العلم بحيث تناسب مناهج البحث المرحلة (التاريخية) في تطور العلم من جهة ، كما أنها تساعد العلم على الانتقال لمرحلة أخرى بمناهج جديدة من ناحية ثانية .

وتقوم هذه الدراسة ، أيضا ، على أساس من الجمع بين تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية وتطور علم التاريخ نفسه . ونحن مع الرأى القائل إن أى حديث عن المنهج بمعزل عن الحديث في العلم ومشكلاته عبث لاطائل من ورائه . ومن ثم ، فإن الدراسة تحاول أن توضح أن كل مرحلة من مراحل تطور الدراسات التاريخية قد اعتمدت على وسائل منهجية أساسية كانت تناسب البحث في مشكلات المعرفة التاريخية في حينها ، فضلا عن أن المراحل الجديدة في تاريخ تطور الدراسات التاريخية ومناهج البحث المرتبطة بها لم تكن تقضى على مناهج القديمة ، وإنما كانت تأخذ منها مكان الصدارة لتفسح بدورها المجال لمناهج جديدة في أى تطور لاحق للعلم ومناهجة *

●●●

* اعتمدنا على الصياغة النظرية لهذه المشكلة في الدراسة القيمة التي أعدها الصديق الدكتور حسن عبدالحميد عن (أوهام المنهجية) وقد ناقش مشكلة الفصل بين البحث في المنهج والبحث في العلم نفسه ، وما ينتج عن ذلك من أخطاء . وقد عرض لأبعاد المشكلة التي تنجم عن توهم أن المنهج يمكن أن يكون منفصلا عن العلم نفسه . أنظر حسن عبدالحميد ، (أوهام المنهجية) بحث في الكتاب التذكاري بمناسبة بلوغ الدكتور زكي نجيب محمود الثمانين من عمره بعنوان : الدكتور زكي نجيب محمود فيلسوفا وأديبا ومعلما ، (الكويت ١٩٨٧م) ، ص ٣٩٥ - ٤٢٣

منذ بدأ الإنسان يسعى على سطح الأرض راوده سؤال مايزال يلح في طلب الإجابة حتى الآن : من أين ، ولماذا ، وإلى أين ؟

وعلى الرغم من أن الأسطورة ، والفكر الديني ، والفلسفة ، والعلم ، قد حاولوا جميعا تقديم الإجابة على هذا السؤال اللغز المرتبط بوجود الإنسان في الكون ، فإن هذا السؤال مايزال ، بالنسبة للإنسان ، لغزا محيرا مضنيا . ومايزال السؤال مطروحا على نحو أو آخر .

وفي طيات المحاولات الدائبة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر (علم التاريخ) باعتباره أحد الأدوات التى يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنسانى ، في ماضيه وحاضره ومستقبله . وهكذا تحددت ، منذ البداية ، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت المعرفة التاريخية ، سواء في شكلها الأولى المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية ، أو في تطورها الحالى الذي جعل من علم التاريخ علماً متعدد الفروع ، يطور مناهجه وتطوره مناهجه باستمرار لكى يقوم بوظيفته الثقافية / الاجتماعية في خدمة الإنسان نقول إن المعرفة التاريخية كانت ملازمة لوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضارى . وفي غمار تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها المعرفة التاريخية كانت تحاول الإجابة على الأسئلة التى يطرحها الإنسان في محاولته الدائبة لمعرفة ذاته ، وفي كل مرحلة من مراحل هذه المرحلة الطويلة كانت مناهج البحث تتطور بحيث تلبى غايات وحاجات الدراسات التاريخية في تلك المرحلة .

وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافة / الاجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية الباكرة بدرجة وضوحها الحالية ، بيد أن إحساس الجماعة الإنسانية بالحاجة الى المعرفة التاريخية كان قائما وموجودا على الدوام . لقد كانت الجماعات البشرية في بداية رحلتها ، التى لم تتم بعد ، عبر الزمان تشعر بالحاجة الى هذه المعرفة التاريخية ، ولكن وعي الإنسان بحقيقة هذا النمط من أنماط المعرفة ، ومناهج البحث التى تصلح لكل مرحلة من مراحل تطوره والأركان التى يقوم عليها ، لم يتحقق سوى بعد رحلة طويلة لعلم التاريخ في رحاب الزمان سارت في خط مواز لرحلة الإنسان نفسه . وفي أثناء هذه الرحلة تطورت مناهج البحث في التاريخ وتطورت بنيته المعرفيه ، وتخطت طور التراكم والوصف ، وصولا إلى طور يحاول صياغة قوانين ونظريات تفسر حركة التاريخ ، وتنوعت مدارس فلسفة التاريخ التى تصوغ موضوعاتها على أساس المعرفة التاريخية والتفسير الوضعى لهذه المعرفة من ناحية ، ومحاولة الفهم التقويمى الأخلاقى لحياة البشر الاجتماعية من ناحية أخرى [١] كما تنوعت أنماط الدراسات التاريخية على نحو جعل من علم التاريخ ، الذي ينتمى الى ماضى الإنسان الحضارى ، علما يتصل بحاضر الإنسان ومستقبله من حيث الهدف .

هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها المعرفة التاريخية ، منذ نشأت في رحم الأسطورة حتى تطورها العلمى المثير في العقود الأخيرة ، كان هدفها معرفة الإنسان في حياته الاجتماعية ، وفي إطار ثقافته . ولم يكن ممكنا أن تتطور المعرفة

---

(١) ب . ب . جريجوريان ، الفلسفة وفلسفة التاريخ ، ترجمة هيثم طه ، ومراجعة رضوان القضماني ، (دار الفارابي ، بيروت ١٩٨٦م) ، ص٥ .

التاريخية في جانب بعينه بعيدا عن بقية جوانبها . ومن ثم ، فإن فلسفة التاريخ التى تبحث في اتجاه حركة التاريخ ، والقوى الفاعلة في هذه الحركة ، ومضمون التاريخ ومغزاه ، كانت تتطور بشكل يوازى تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية بهدف تطوير كيفية الحصول على المعلومات ، وتحليلها ، وعرضها ، ثم محاولة كشف العلاقة السببية داخلها وصولا إلى استنتاجات قد تفيد في تحقيق الهدف النهائى من الدراسة التاريخية .

وفي الوقت نفسه كانت النقلة النوعية في مناهج البحث تواكبها نقلة كمية في التراكم المعرفى داخل علم التاريخ نفسه . وقد أدى هذا الوضع إلى فرض نمط من التخصص في الدراسات التاريخية بحيث انقسمت إلى فروع يهتم كل منها ببحث أنماط التطور الإنسانى عبر التاريخ على مستوى بعينه ، فظهر التاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ العسكرى ، والتاريخ الفنى ، والتاريخ الثقافى . . . وما إلى ذلك .

ومع هذه التطورات كان على المشتغلين بالدراسات التاريخية أن يطوروا مناهجهم وأدواتهم البحثية ، وكان كل تطور على هذا المستوى يدفع بالدراسة التاريخية إلى تطور جديد . وهكذا كانت مناهج البحث في الدراسات التاريخية في علاقة جدلية بعلم التاريخ نفسه ، ودخلت هذه الخطوات العقلية والاستدلالية التى اصطلح على تسميتها بالمنهج فى بنية العلم الأساسية ، ولم تكن مجرد ممارسة عقلية منفصلة عن علم التاريخ الذى حمل تجربة الإنسان الحضارية وقصته في الكون . والحاصل أن أركان المعرفة التاريخية جميعها قد خضعت لنوع من التفاعل الداخلى يحتم علينا محاولة تتبع الخطوط العامة لهذا التطور .

بيد أن هذه الدراسة سوف تركز اهتمامها على التراث الإسلامي من جهة ، والتراث الغربى من جهة أخرى . وفي تقديرنا أن الشرعية العلمية لهذه المحاولة تقوم على أساس توضيح إسهام الفكر العربى في تطور الدراسات التاريخية فضلا عن بيان دور الفكر التاريخى الأوربى الذي مايزال يتولى ريادة الفكر التاريخى بعد أن وصل به إلى آفاقه الراهنه .[٢]

●●●

منذ البداية حاول الإنسان التعرف على ماضيه لكى يفهم حاضره من ناحية ، ولكى يجد في هذا الماضى سنداً ودعماً لوجوده الآنى في إطار الجماعة من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده فى الكون ، ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإن محاولته هذه كانت هي الخطوة الأولى لبناء المعرفة العلمية سواء في مجال التاريخ أو غيره . فقد كانت الأسطورة ملاذ الإنسان حين كان العقل البشرى مايزال في طور طفولته الأولى . وبغض النظر عن التفسيرات المختلفة للأسطورة [٣] ، فإن الأسطورة حاولت ترقيع النقص في ذاكرة الإنسان ، وفي

---

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر :
Barnes, H. E, History of Historical Writing, 2 nd ed, (dover, New york 1963).
أيضا : ألبان ج . ويدجري ، التاريخ وكيف يفسرونه ـ من كونفوشيوس إلى توينبي ، ترجمة عبدالعزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٢م .

(٣) أنظر المناقشة الموجزة والمفيدة في هذا الموضوع عند :
فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ـ دراسة في الأسطورة : سورية وبلاد الرافدين : ، (دار سومر ، نيقوسيا ـ قبرص ، ط . سادسة ١٩٨٦م) ، ص ١١ ـ ص ٢٣ .

معرفته عن الكون والأشياء . وقد ظهرت أساطير الخلق لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالخلق والتكوين وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكون . وكانت هذه الأساطير هي المحاولة الأولى للحصول على اجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته في العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها (العلم البدائى) ، فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى أن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة ، وتربت وترعرعت في حجرها . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء ونهاياتها . وهنا نجد المجتمع الإنسانى يلجأ إلى أساطيره للحصول على التفسيرات المطلوبة لمختلف الظواهر الغامضة ، سواء في الطبيعة ، أو في ماضى التطور الإنسانى . ومن ثم فإن بذرة (التاريخ) التى زرعت في تربة الأسطورة أخذت تنمو بالتدريج وبشكل مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذي ميز « الكتابات التاريخية » الأولى . وإذا كان تصور التاريخ على أنه عِلْم تصورٍ حديثٍ نسبياً ، فإن التاريخ ، من حيث كونه سجلاً لنشاط البشر وسعيهم لبناء الحضارة ، قد بدأ مع بداية المجتمع الإنسانى نفسه . ولا يقلل من أهمية هذه الحقيقة حقيقة أخرى مؤداها أن العناصر « الأسطورة » كانت أكثر من العناصر « التاريخية » في هذه الكتابات المبكرة .

لقد حاولت الأساطير الأولى أن تفسر ماصعب على الإنسان إدراكه في بداية رحلته الكونية . بيد أن الأسطورة ، من ناحية أخرى ، عجزت عن توضيح البعد الزمنى والبعد المكانى في القصة التاريخية . فالزمن في الأسطورة متداخل دونما تحديد ، لأن بناءها يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل ما يزال مستمرا . ولذلك فإن الفكرة الأسطورية عن الزمان كيفية ومجسمة ، لا كمية مجردة . فالفكر الأسطورى لايعرف الزمن بوصفه تعاقبا للحظات زمنية متشابهة ، كما أن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التى تشكل لنا إطار التاريخ [٤] كذلك فإن علاقة الأسطورة بالمكان هى بعينها علاقة البناء الفنى برموزه ، فالمكان رمز للأسطورة ولكنه ليس مسرحا حقيقيا لأحداثها التى تدور خارج حدود الزمان والمكان ولأن العملية التاريخية ثلاثية الأبعاد ، إذ أنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته . . . في إطار المكان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل هذه المنظومة الثلاثية بحيث تحتم انفصال (التاريخ) عن (الأسطورة) في مرحلة لاحقة .

لقد أدخلت الأساطير مظاهر البيئة الطبيعية في نسيج القصة التى ترويها لمحاولة تفسير لغز الوجود الإنساني في الكون . ويرى بعض الباحثين أن أساطير العالم القديم ، التى تمثل « واحدا من أعمق منجزات الروح الإنسانية » كانت نتاجا لتأملات كونية عميقة من جانب الإنسان . فهناك الكثير من الأساطير القديمة تتناول موضوعات مثل الحق ، ونظام الكون ،وشكل الإنسان ، وبناء الحضارة . [٥] ومن ناحية أخرى ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين

(٤) حسام الألوسي ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م) ، ص ٣٩ ـ ص ٤٠ .

(٥) صموئيل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبدالحميد يوسف ـ مراجعة عبدالمنعم أبوبكر ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م) ، ص ٧ ـ ص ٨ .

يتفقون على أن الأسطورة تعبير عن وعى الجماعة الإنسانية بذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الاجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الغيبية [٦]

لقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلا بين ظروف البيئة من خصوبة أوجدب وبين صراع الإله بعل (رب الخصوبة والحياة) ، والإله موت (رب العقم والموت) . [٧] أما أساطير الخلق الهندية فتكشف عن رغبة الإنسان الطبيعية في الوصول إلى تفسير للغز الوجود الإنسانى كيف وجد الكون ؟ وكيف يعمل ؟ ومن أين أتى الإنسان ؟ وما وظائف عناصر الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف ، والفيضان والجفاف ؟[٨] .

لقد اختلطت محاولات الإنسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، ولم يكن له أى دور واضح في الفعل التاريخى في هذه الصياغات الأسطورية . إذ اتسم التراث الإنسانى الباكر في مجال الكتابة التاريخية بهذا الخلط المثير بين فعل الإنسان ومشيئة القوى الغيبية . وكانت الكتابات « التاريخية » الأولى تسجيلاً لأفعال ليست من قبيل الفعل الإنسانى ،وإنما هى من أفعال الآلهة . ولم يكن البشر في هذه (التواريخ) الباكرة يمثلون عنصرا من عناصر القوة والنشاط والفعل ، ولكنهم كانوا وسيلة هذا النشاط وأدواته المسخرة بأيدى الآلهة [٩] . وهكذا كانت التسجيلات « التاريخية » الباكرة عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة ، أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الإنسان في الكون وسعيه لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ، فالأسطورة حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة .

وبطبيعة الحال ، فقد نزلت الأسطورة من سماء الآلهة إلى عالم الإنسان ، وبدأت ترصد تاريخه وتسجله وفق شروطها وفي إطار رموزها وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر ، إذ يذهب البعض إلى أن الأساطير « تسجيل تاريخى » للأحداث الجارية عبر ماضى الجماعات الإنسانية والشعوب ، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول إن الأسطورة تمثل تاريخاً قبلياً متوارثاً بين الأجيال المتعاقبة التى تناقلته بالتلقين الشفاهى ، ونادراً ما تأخذ الأسطورة أشكالاً أو نماذج محددة ، بل إنها غالباً ماتنطوى على عناصر يمتزج فيها الخيال بالخرافة . . [١٠]

وفي رأينا أن الأسطورة لاتحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل « نواة تاريخية » ، وغالباً ما تكون الصياغات الأسطورية لهذه « النواة التاريخية » محملة بتراكمات تعبر عن وجدان الجماعة التى أنتجها ، كما أنها ـ في الوقت نفسه ـ تعبير عن الذات والهوية وتحمل تصورا نفسيا تعويضيا لصالح الجماعة من كونها تجسيدا للواقع « التاريخى » .

---

(٦) قيس النوري ، الأساطير وعلم الأجناس ، (بغداد ١٩٨١م) ص ١٠ ـ ص ١١ .

(٧) صمويل نوح كريمر ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ وما بعدها .

(٨) نفسه ، ص ٣٨٤ ـ ص ٣٨٥ .

(٩) روبين جورج كولينجوود ، فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، مراجعة محمد عبدالواحد خلاف (لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص ٥١ ـ ص ٥٢ .

(١٠) قيس النوري ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

ولايعنى هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هي ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية ولكن في إطار فني يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التى يحتاج المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . وعن طريق الأساطير ، ومن خلالها ، عرفنا ما عرفناه عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التى تعود إلى أزمان سحيقة تسبق « التاريخ المكتوب » . ومن هنا يمكن القول بأن الأساطير « نظام فكرى متكامل ، استوعب قلق الإنسان الوجودى ، وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه » [١١]

ومن يبحث في الأسطورة سوف يجد مادة تاريخية ثرية تشكل بناءها ؛ ففى رأى فريق من الباحثين أن أساطير الطوفان ، أو الدمار بالنار السماوية ، أو الأعاصير ، التى تتسم بالشمولية وتتكرر لدى معظم الشعوب ، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشرى في مطلع حياته . [١٢] ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الأساطير التى تتعلق بالتكوين وفصل السماء عن الأرض قد سربت بعض تفاصيلها في الكتابات التاريخية اللاحقة على نحو يكشف عن تأثير الأسطورة المتوارث في منطقة الشرق العربى ، ولاسيما أساطير التكوين السومرية .[١٣]

وإذا ما أخذنا ماكتبه العبرانيون أنفسهم باعتباره تاريخاً ، فإننا سنجد أن العناصر الأسطورية والغيبية تمثل لحمة الكتابات العبرية «التاريخية» وسداها . بيد أن التراث العبرانى ، من ناحية أخرى ، يمثل مرحلة أبعد سارها الفكر التاريخى حين اختلط بالفكر الدينى .

ومن الممكن أن نتتبع ظهور العبرانيين في المنطقة من خلال نصوص سفر التكوين التى تدلنا على ثلاث موجات من هجرات العبرانيين ، الأولى هجرة ابراهيم (عليه السلام) ، وهو الجد الأعلى ، من مدينة « أور » الكلدانية في بلاد النهرين إلى أرض كنعان في فلسطين حيث استقر به المقام . [١٤] أما الهجرة الثانية فيقودها يعقوب بن اسحق ، حفيد ابراهيم (وهو نفسه إسرائيل) . ويتحدث سفر التكوين عن عهد يجدده الرب مع يعقوب [١٥]. والهجرة الثالثة تقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى (عليه السلام) ، وربما تكون قد حدثت في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد [١٦] .

هذه النصوص التوراتية التى تتحدث عن موضوعات تاريخية تعتبر من أقدم الكتابات (التاريخية) . وإذا كانت الأسطورة قد سبقت (الكتابات التاريخية الدينية) ، فإن تأثير الأسطورة لم يختف وإن خفت حدته . ويحتل سفر الملوك في التوراة اليهودية مكانة خاصة في تاريخ الفكر التاريخى بفضل مايتضمنه من مادة تاريخية غزيرة .

---

(١١) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص ٢١ .

(١٢) نفسه ، ص ١٦ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٣ ـ ص ٥٠

(١٤) جاء في سفر التكوين (١٣ : ١ ـ ٢) ما نصه : (وقال الرب لابرام ، اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى بيت أبيك ، إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك) .

(١٥) يقول نص سفر التكوين (٣٥ : ١٣) (والأرض التي أعطيت ابراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض) .

(١٦) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص ١١٩ ـ ص ١٢٠ .

ومن ناحية أخرى ، فإن التسجيلات العبرانية الأولى قد سارت شوطا بالتاريخ نحو توضيح الدور الإنسانى فيه ، وتقليل تدخل الآلهة والقوى الغيبية في شئون البشر . بيد أن اعتقاد اليهود بأنهم (شعب الله المختار) جعلهم يسجلون في أسفارهم أخبارا عن فعال الله من أجلهم وتدخله في توجيه حركة التاريخ لصالحهم .

ولأن فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة غائية هدفها طمأنة اليهود بوعدهم بالأمل في المستقبل ، ولأن فكرة التاريخ العبرانية تدور حول بنى إسرائيل أولا ، ثم البشرية كلها بعد ذلك ، فان كتابة التاريخ في التراث العبرانى طورت منهجا يسعى إلى رسم الصورة المثالية لمسيرة التاريخ العالمى بحيث يتوافق مع فلسفة التاريخ العبرانية الغائية . وقد أدى هذا إلى صارت كتابة التاريخ في التراث العبرانى لاتستهدف الحقيقة التاريخية ، وإنما تستهدف صياغة الرواية التاريخية وفق النموذج اليهودى وفي إطار فلسفة التاريخ اليهودية التي تؤكد أن الرب سوف يتدخل في النهاية لصالح شعبه المختار .

وهناك من الباحثين من يرى أن اليهودية ديانة تطورت بفضل الميراث الثقافى للمنطقة . وربما تكون ديانة آتون التوحيدية في مصر القديمة قد أعطت اليهودية دفعتها ا لأولى [١٧] ، ثم أخذت بعد ذلك تتطور بفعل المؤثرات الثقافية السائدة في المنطقة السامية . ويبدو ذلك واضحا من خلال الحقيقة القائلة بأن أسفار التوراة ، وهي الكتب الخمسة المنسوبة الى موسى ، عليه السلام ، قد كتبت على مدى ثلاثة قرون . أما آخر أسفار العهد القديم ، وهو سفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثانى ، فقدتم تدوينه خلال القرن الأول قبل الميلاد .

ومن الواضح أن محتوى الكتب التاريخية اليهودية في التوراة ، والمنهج الذى تعرض به أحداث التاريخ في طيات هذه الأسفار ، يهدف إلى شيء آخر غير مجرد رواية الحوادث التاريخية ، أو تحليلها ، أو البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة وراءها . وإنما يهدف إلى محاولة تفسيرها في إطار منظور مستقبلى غائى يحدد الهدف الدينى .

فتاريخ بنى إسرائيل ، كما تصوره صفحات التوراة ، وكما هو في الواقع التاريخى ، ملء بالحروب والدماء والمصائب . وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير ذلك في ضوء أخطاء اليهود أنفسهم فإن كتّاب الأسفار اليهودية وضعوا التاريخ في إطار يفسِّر تفسيراً يخدم الغايات الدينية اليهودية [١٨] . لقد حاول كتاب سفر الرؤيا اليهود أن يبثوا الطمأنينة في نفوس أبناء دينهم ، وأن يلوحوا لهم بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس . وكان طبيعيا أن يقدموا لليهود الوعد بالنجاح في المستقبل حين يتدخل الرب لإنقاذ شعبه المختار . ولما كان ماضى اليهود وحاضرهم ومستقبلهم يمثل قصة وجودهم في العالم ، فقد حاول مفسرو سفر الرؤيا [١٩] وضع تقسيم زمنى لتاريخ العالم يخدم الهدف الذى يسعون إليه ، وهو ربط أنظار اليهود بما سوف يحدث مستقبلا . [٢٠]

---

(١٧) كان اليهود يعيشون في مصر عيشة العبيد الأذلاء ، ثم فروا منها بقيادة موسى عليه السلام ـ وقد فر موسى بقومه من مصر بعد أن كانوا تحت نير العبودية . أنظر : فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص ١٢١ ـ ص ١٢٩ .

(١٨) ويدجري ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ص ١٢٠

(١٩) أنظر تفسير حلم (نبوخذ نصر) في سفر دانيال (٢ : ٣١ ـ ٤٥) ، وأنظر أيضا تفاصيل حلم دانيال : سفر الرؤيا ، الإ صحاح السابع

(٢٠) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ ـ قراءة في التراث التاريخي العربي ، (ط . ثانية دار المعارف ١٩٨٥م) ص ٣٢ ـ ص ٣٣ .

هكذا كانت فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة تاريخ غائية تفسح مجالاً واسعاً لدور الرب في توجيه أحداث التاريخ . وقد أدى هذا ، بالضرورة ، إلى تخلّف منهج البحث التاريخي ؛ لأن « الحقيقة التاريخية » لم تكن هدف هذا النمط من الكتابة . والمادة التاريخية في أسفار العهد القديم لاتقدم الحدث التاريخي في إطاره الوضعي ، وإنما تصوغه في القالب الذى ينبغى أن يتقولب فيه لكى يتسق مع الغايات الدينية التى حكمت كتابة تاريخ اليهود وقصتهم في العالم .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات التاريخية في التوراة تحدد بداية ظهور القصص التاريخي الحقيقي في تاريخ كتابة التاريخ ، وأن « سفر الملوك » يمثل فكرة التاريخ لدى العبرانيين خير تمثيل ، فكاتب هذا السفر يهدف إلى إقناع اليهود بأن الإخلاص الديني له قيمته ، وذلك عن طريق وضع أمثلة تاريخية على المصائب التى حلت بهم عندما تخلّوا عن دينهم [٢١] . وفي رأينا إن الكتابة التاريخية بدأت في شكلها الجنيني داخل الأسطورة ، وقد سربت أساطير الخلق والتكوين والأصول التى انتشرت في المنطقة السامية قديما كثيرا من عناصرها إلى التوراة التى ينسبها اليهود إلى موسى (عليه السلام) [٢٢] وقد أضاف إليها الأحبار اليهود مايخدم فكرة أن اليهود « شعب الله المختار » ، وفكرة الوعد بالأرض المقدسة والخلاص في المستقبل .

ويهمنا في الدراسة أن نؤكد على أن « العهد القديم » قد استوعب فكرة التاريخ بمضامينها السائدة في المنطقة السامية منذ القدم ؛ وهو مايعنى أن التراث الأسطورى الذى حكم فكرة التاريخ عند السومريين والبابليين والكنعانيين والمصريين القدماء قد اتخذ شكلا دينيا غائيا في فكرة التاريخ العبرانية . فالنظرة اليهودية إلى التاريخ ترى فيه تاريخ بنى إسرائيل أولا ، ثم تاريخ البشرية بعد ذلك . ويعتقد عامة اليهود أن هدف التاريخ هو تشييد مملكة المخلِّص الذى سيأتى في آخر الزمان ليقيم مملكة الرب في أرض الميعاد . وقد فسر أحبارهم كل الأحداث التاريخية التى مرت عليهم ، أو مروا بها ، تفسيراً تعويضياً يناسب هذه الفكرة . وهكذا لم يكن هدف « التاريخ » البحث عن الحقيقة ؛ وإنما صياغة الحدث في إطار يناسب الهدف من كتابة التاريخ . وقد كان لهذا الموقف من التاريخ أثره بطبيعة الحال على مناهج البحث التى حاولت حل المشكلات التى تقف في سبيل تحقيق هذا الهدف . وفى تلك المرحلة كانت مناهج البحث موازية في تطورها للعلم الذى كرست لخدمته وبقدر مابعدت الكتابة التاريخية العبرانية عن التاريخ بالمفهوم العلمى الحديث ، بقدر ما كانت مناهج البحث بعيدة عن أن تكون وسائل عقلية استدلالية لبناء العلم التاريخي وحل مشكلاته .

هكذا ، إذن ، نصل إلى أن فكرة التاريخ في المنطقة السامية القديمة (المنطقةالعربية الآن) قبل ظهور الإسلام كانت مزيجا من الفكر الأسطورى والفكر الدينى الذى وضع التاريخ ، بأحداثه ووقائعه ، داخل نطاق فلسفة غائية تهدف إلى صياغة أحداث التاريخ لخدمة أهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة ، أو رصد العلاقة السببية فى الظاهرة

---

(٢١) H. E. Barnes, A history of historical Writing, (2nd ed., New york, 1963), PP. 19 — 20

(٢٢) أنظر المقارنة المتمعة بين أساطير التكوين في المنطقة السامية وسفر التكوين في التوراة ـ فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص٣٣ ـ ص ١٤٠ .

التاريخية وفى ظل هذه الظروف اختلفت الحقائق التاريخية بالتصورات الأسطورية والغيبية ، وبقى التاريخ عملية يشارك البشر في صنعها وتتولى الآلهة توجيه مجراها . ولم يكن ممكنا في ظل هذه الظروف الفكرية أن تتطور مناهج البحث التاريخى إلى آفاق جديدة تخطوبها نحو تحويل التاريخ إلى « علم » بالمعنى البسيط الذى يهدف إلى كشف « غير المعلوم » وكان هذا ، بشكل عام ، هو إطار فكرة التاريخ في المنطقة بعد ظهور الإسلام الذى بدأت معه مرحلة جديدة من التطور كان للدراسات التاريخية ومناهج البحث نصيبها منه .

●●●

قبل الخوض في الحديث عن تطور مناهج البحث والفكر التاريخى في إطار الحضارة العربية الإسلامية ينبغى أن نطرح عدداً من الأسئلة حول المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام يدخل في نسيج تراث المعرفة التاريخية للمنطقة كلها ؛ فإن هذه التساؤلات تكتسب شرعيتها من التراث العربي قبل الإسلام كانت من روافد الفكر التاريخى العربي بعد الإسلام .

الثابت أنه كانت للعرب قبل الإسلام أساطيرهم التى كان بعضها بمثابة الشكل الجنينى للمعرفة التاريخية في فترة لاحقة من تاريخهم . وقد راودت العرب البدائيين الأسئلة نفسها التى راودت غيرهم من الشعوب في طور بدائى من رحلتهم عبر الزمان عن حقيقة لغز الوجود الإنسانى في الكون . ويرى أحد الباحثين أن دراسة الأساطير العربية قبل الإسلام « هى دراسة كل ما سُطِّر عند الجاهليين ، تاريخا كان أو ديناً ، لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائى حيثما كانت مسطورة أو مطبوعة في ألواح الأذهان » [٢٣] ولقد كانت البيئة الطبيعية التى أثرت في التراث الأسطورى العربى هى التى أثرت على نمط المعرفة التاريخية لدى العرب بعد ذلك [٢٤] .

لقد كان التراث الأسطوري العربى جزءاً من التراث الأسطورى العام في المنطقة بطبيعة الحال . ومن ناحية أخرى ، كان لابد للمعرفة التاريخية لدى العرب قبل الإسلام أن تتخذ شكلا يوافق الحقائق والظروف البيئية ، ويتسق مع درجة التطور الثقافى في ذلك الحين ، كما كان من الضرورى أن تصاغ فكرة التاريخ في أنماط تلبى الحاجات الثقافية / الاجتماعية . لقد كان الفكر التاريخى العربى قبل ظهور الإسلام يسير في مسارين أساسيين : الأنساب ، وأيام العرب ، فضلا عن القصص التاريخى أو شبه التاريخى الذى تناقله عرب الجنوب . ومن ثم ، فإن نمط المعرفة التاريخية ، وهدف هذه المعرفة قد حددا المنهج الذى استخدمته هذه الأنماط الباكرة من تراث الفكر التاريخى العربى .

ومن المهم أن نشير إلى أن التاريخ في التراث العربى قبل الإسلام قد كان شأنا بشرياً لادخل للآلهة فيه ، ولكن الخيال لعب دوراً أساسياً في الرواية التاريخية ، كما أن « الصورة المثلى » للقبيلة حلت محل « الحقيقة التاريخية » في كثير من الأحيان .

---

(٢٣) محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، (ط . ثالثة ، دار الحداثة ، بيروت ١٩٨١م) ، ص٢٠ - ص٢٢ .

(٢٤) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٦٣ - ص٦٥ .

وإذا كان نوع المعرفة التاريخية وموضوعها وهدفها يحدد منهج البحث التاريخى ؛ فإن الحياة القبلية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام قد فرضت أنماطا بعينها من أنماط المعرفة التاريخية كان منهجها يسعى إلى صياغة صورة مثالية تخدم الذات القبيلة وتحقق أمانيها بغض النظر عن الحقيقة التاريخية .

وقد استخدم العرب قبل الإسلام (الأنساب) باعتبارها نمطا من المعرفة التاريخية تناسب ظروف التنظيم القبلى . فقد حرصت كل قبيلة ـ باعتبارها الوحدة الأساسية على المستوى السياسى والاقتصادى والاجتماعى والأمنى ـ على حفظ أنسابها حتى لاتختلط بأنساب غيرها من القبائل ، ولكى تكون وسيلتها في التناصر على أعدائها ، والتفاخر بآبائها وأجدادها . وقد أشار كل من النويرى والقلقشندى إلى اهتمام العرب بالأنساب وتفاخرهم بها [٢٥] ، وكان لكل قبيلة نسَّابتها المشهورون الذين حفظوا شجرات النسب عن ظهر قلب نظراً لأهمية النّسب في حياة القبيلة [٢٦] . والتقسيم على أساس النسب في المجتمع القبلى هو التقسيم الوحيد الممكن فقد أفرز المجتمع القبلى هذا التقسيم النسبى على مستوى التنظيم الاجتماعى ، كما أفرز نمطا من أنماط المعرفة التاريخية يناسب هذا التقسيم الاجتماعى تمثّل في « أنساب العرب ». وعلى الرغم من أن الأنساب كانت نمطا من أنماط المعرفة التاريخية يخدم الحاجات الاجتماعية / الثقافية للمجتمع القبلى ، فإن هذا النمط نفسه كان يخلو عادة من الإشارة إلى الأحداث التاريخية التى لم تكن هدفا للأنساب أو موضوعا لها .

أما النمط الثانى من أنماط المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام ، فقد تمثل في « أيام العرب » التى كانت تتضمن أخبار الحروب والمعارك التى خاضتها كل قبيلة . ولأن التنظيم القبلى كان يمثل الشكل السائد للتنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ؛ فإن « أيام العرب » كانت بمثابة السجل الذى يحوى مفاخر القبيلة ، ويسجل أيامها وانتصاراتها المجيدة ، كما يحفظ بطولات أبنائها[٢٧] . وكان رواة العرب يتداولون هذه « الأيام » في قالب شعرى خالص أحيانا ، وفي قالب نثرى تتخلله الأشعار أحيانا أخرى . وقد كان منهج رواة « أيام العرب » متوافقاً مع الموضوع ومع الهدف الثقافى الاجتماعى لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية . فقد حرص أولئك الرواة على رسم صورة مثالية للذات القبلية .

ولم يكن رواة « أيام العرب » يبحثون عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كانوا يتحدثون عن مآثر أسلافهم ، وبطولات قبيلتهم ، وفقا لتصورهم أو أمانيهم . ولم يكن هناك مايقيدهم سوى الرغبة في إمتاع السامعين ، ودغدغة

---

(٢٥) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج٢ ، ص ٢٦١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج٢ ، ص ٣٠٨ ـ ص ٣٠٩ .

(٢٦) تبدو صلة النسّابين بالشعر الجاهلي واضحة جلية ، إذ أننا نجد دائما أن ذكر علماء النسب يجيء مقرونا بالشعر ورواياته ، ويرتبط أيضا بأيام العرب وأخبارهم ـ أنظر : ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (ط . خامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م) ، ص ٢١٥ ـ ص ٢١٦ .

(٢٧) عن أيام العرب ، موضوعاتها ، وأعدادها ، ومحاولات جمعها ، أنظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١ ، ص ٣٩٠ ـ ص ٣٩٥ ، السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣٧٤ ـ ص ٣٧٦ ، محمود شكري الألوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (القاهرة ١٩٢٤م) ، ج٣ ، ص ٦٨ ، قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٦٨ ـ ص ٧١ .
وقد جمع اثنان من الباحثين أربعة وثمانين (يوما) من أيام العرب انظر :
محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٤٢م) .

مشاعر الزهو والفخر في نفوسهم . وعلى الرغم من المسحة الخيالية التي تغلف « أيام العرب » فلاشك أن هذه الروايات « التاريخية الملحمية » قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية حقا ؛ فهى تكشف عن صلات العرب بغيرهم من الأمم قبل الأسلام ، كما تكشف عن المشاكل والخلافات التى ميزت حياة قبائل العرب في تلك الفترة من تاريخهم .

وإذا كانت « الأنساب » وسيلة القبيلة في البحث عن هويتها ، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب ، فإن « أيام العرب » كانت بمثابة الأداة لتأكيد هذه الذات والهوية وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالمآثر والبطولات .

وفكرة التاريخ عند أية جماعة إنسانية ليست في حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذه الجماعة لهويتها الذاتية . ومن خلال إدراك الجماعة الإنسانية لذاتها تتحدّد أبعاد فكرة التاريخ . وإذا رجعنا إلى تراث العرب قبل الإسلام فى مجال الفكر التاريخى لاكتشفنا على الفور أنهم لم يتصوروا أنفسهم أمة واحدة يجمعها تراث تاريخى واحد ، وقد انعكس ذلك على شجرات النسب التى اهتمت بالنسب الجزئى لكل قبيلة على حدة . وإذا كان العرب قد رجعوا في أصولهم العليا إلى جد أعلى ينتسبون له جميعا ، فإن الأسطورة قد تركت بصماتها على هذه المحاولات من ناحية ، كما أن تراثهم قد خلا من أية مادة تاريخية تكشف عن تصورهم لذات كلية تجمعهم سويا من ناحية أخرى .

لقد افتقرت « أيام العرب » إلى معظم مقومات العلم التاريخى بمفهومنا المعاصر ، بيد أنها كانت نتاجا حقيقيا وإفرازاً للظروف التاريخية آنذاك ، كما كانت متوافقة مع النظرة القبلية الجزئية التى جعلت من القبيلة عالماً قائماً بذاته في مواجهة القبائل الأخرى [٢٨] . لقد ارتبطت قصص الأيام بفكرة « البطولة » أكثر من ارتباطها بفكرة التاريخ ؛ ولذلك لم يكن منهج الرواية يسعى للبحث عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كان يسعى إلى صياغة الصورة المثالية لبطل القبيلة ، أو أبطالها ، وبالشكل الذى يحقق إشباع مشاعر الفخر ونوازع الكبرياء في أبناء القبيلة الذين كانت عيونهم وآذانهم تتعلق بالراوى في سمر الليل بين مضارب خيام القبائل . لقد كانت كل قبيلة تحاول تثبيت ذاتها في مواجهة القبائل الأخرى .

من ناحية أخرى ، كان الوعى التاريخى لدى عرب الجنوب متوافقا مع ظروفهم التاريخية الموضوعية ودرجة نموهم الحضارى من جهة ، ومختلفا عن الوعى التاريخى لدى عرب الشمال من جهة ثانية .

فقد كانت بلاد اليمن مركز حضارة قديمة استقرت دعائمها أمداً طويلاً ، وحفظت النقوش المعينيّة والسبئية والحمْيريّة آثارها [٢٩] ، وقد انعكست هذه الحقيقة في تراث تاريخى اختلفت عن تراث عرب الشمال من حيث الشكل والمضمون والهدف أيضا . وكل ما وصلنا في هذا الصدد تراث تاريخى شفوى تداوله الرواة جيلا بعد جيل . وفى

---

(٢٨) عفت الشرقاوي ، أدب التاريخ عند العرب ، (القاهرة ١٩٧٦ م) ، ج ١ ، ص١٤٩ - ص١٥٠ .

(٢٩) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص٨٥- ص١٦٥ .

طيات هذا التراث ترد أسماء بعض ملوك اليمن القدماء ، وتظهر أحداث قصص تاريخية غامضة طابعها التهويل والمبالغة تتصاعد منها أصداء أحداث تاريخية توارت خلف ضبابية الغموض [٣٠] . وإذا كانت الأحداث التاريخية قد توارت خلف الملامح الغامضة للمبالغة والتهويل في التراث التاريخي الشفوى لدى عرب الجنوب ، فإن هذه خاصية من خصائص المأثورات الشفاهية تأتيها من خلال تراكم الروايات الشفاهية التى تشبه تراكم الطبقات الجيولوجية فوق الحدث الأصلى ، بيد أن هذا لايحول دون الانتفاع بهذه المادة التاريخية ، ورصدها مرحلة من مراحل تطور الفكر التاريخى ومناهج البحث في الدراسات التاريخية كذلك [٣١] .

وإلى جانب هذا التراث التاريخى الشفوى لدى عرب الجنوب وجد علماء الآثار بعض النقوش التاريخية التى دوّن فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وقد دوّنت على النحاس والحجر . وربما أهلك الزمان تدوينات « تاريخية » أخرى على مواد أقل صلابة وصمودا فتحللت وضاعت عبر القرون . وقد أشار الهمدانى مؤلف كتاب « صفة جزيرة العرب » إلى هذه النصوص التاريخية ، كما أشار إليها نشوان الحميرى الذى ألف معجما لغويا [٣٢] ، وكانت هذه النقوش تتضمن بعض المادة التاريخية المتعلقة بأسماء الآلهة ، أو أنواع القرابين أو أسماء القبائل والأفراد ، كما تضمنت بعض المعلومات عن القوانين التى كانت تحكم علاقات الناس آنذاك [٣٣] . وفي تصورنا أن هذه النقوش تحمل دلالة لايخطئها الباحث على وجود وعي تاريخى يناسب درجة التطور الحضارى لعرب الجنوب ، اذ أن الشعور بالأهمية التاريخية للإنجازات السياسية والإدارية يدل على وجود نمط مناسب من أنماط الوعى التاريخى بمقاييس تلك العصور .

وفي تقديرنا أن القصص ذات الطابع التاريخى ، التى كان القصاصون الجوالون يروونها عن ملوك العرب الجنوبيين ، وبطولاتهم وأعمالهم ، وهى القصص التى تناقلها الإخباريون في صدر الإسلام ، تعبّر عن مدى وعى عرب الجنوب بفكرة التاريخ هذه القصص التى كان الخيال يغلفها كانت الأشعار تدخل في نسيجها بدرجة كبيرة . وكان الرواة يستمدون قصصهم من الأساطير والخرافات التى دخلت ضمن تراث المنطقة تارة ، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمّن جاوروهم تارة أخرى [٣٤] .

لم تكن هذه القصص تعتمد على توقيت زمنى يربط بينها ، مما يدل على أن الوعى بالزمن باعتباره قاعدة للحدث التاريخى ، كان بعيدا عن هذا النمط من الكتابة « التاريخية » في تلك العصور [٣٥] ، إذ أن هذه القصص

---

(٣٠) هاملتون جب ، علم التاريخ ، (كتب دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ١٩٨١) ص٤٧ .

(٣١) يان فانسينا ، المأثورات الشفاهية ، ترجمة وتقديم د . أحمد موسى ، (القاهرة ١٩٨١ م) ص٨٦ـ ص٨٨ .

(٣٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة د . عبدالحليم النجار (طبعة دار المعارف) ج ١ ، ص٦٣ .

(٣٣) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص١٣ .

(٣٤) أصطلح العرب على تسمية مثل هذه الخرافات باسم (أوابد العرب) . وقد ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١ ، ص٣٩٨) ما نصه : « وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجرى مجرى الديانات ، وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات والعادات وبعضها يجرى مجرى الخرافات . وقد جاء الاسلام بإبطالها » .

(٣٥) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٧٦ـ ص٧٨ .

ذات الطابع الملحمى لم تكن تهدف إلى البحث في المجرى التاريخى العام عن الحقائق التاريخية ، وإنما كانت نوعا من قصص البطولة الملحمية التى تختلط فيها حقائق التاريخ بالخيال المعبر عن رؤية عرب الجنوب ووعيهم بالتاريخ .

ولم يكن هذا النمط من القصص التاريخى يتعلق بالقبيلة ، وإنما بالملكية . وإذا حاولنا استقراء تواريخ الكيانات السياسية التى شهدتها بلاد العرب الجنوبية (أي معين وسبأ وحمير ، ١٣٠٠ـ ٥٢٧ ق . م) ، لأدركنا مدى هامشية الدور الذى لعبته القبيلة في نشأة هذه الكيانات . فقد كانت الملكية الوراثية هى نظام الحكم السائد ، وشكل النظام السياسى ، ونمط التنظيم الاجتماعى . ومن ناحية أخرى ، فإن تراكم الثروة التى جلبتها تجارة العبور أدت إلى القيام بمشروعات زراعية كبرى مثل سد مأرب . وظلت بلاد العرب الجنوبية تقوم بدورها الهام في نقل التجارة العالمية طوال عهود معين وقتبان وسبأ وحمير [٣٦] . وقد أدى هذا الوضع السياسى والاقتصادى في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وجود وعى تاريخى أكثر شمولا ورحابة من الوعي الجزئي الذى نجم عن الظروف التى فرضتها التقسيمات القبلية الحادة في نجد والحجاز .

لقد عرف الجنوب نظما سياسية وأجتماعية متقدمة نسبيا عن تلك التى عرفها عرب الشمال ، كما أنهم خضعوا لنمط من الحكم الملكى فترة طويلة من تاريخهم ، ومن ثم اتخذت الكتابة التاريخية أشكالا تناسب الظروف الموضوعية ، فاهتمت الروايات التاريخية بقصص الملوك وبطولاتهم وحروبهم . وهو أمر طبيعى في زمن كان فيه التاريخ ربيب القصور الحاكمة . كما نجد في صفحات الكتب التاريخية اليمنية تداخلا بين الدين والسياسة . ومن ناحية أخرى ، فإن وعى الجنوب بفكرة التاريخ لم ينحصر في إطار البيئة اليمنية فحسب ،وإنما تعداها إلى آفاق العالم الخارجى وهو مايعنى أن دور عرب الجنوب في التجارة العالمية آنذاك كانت له انعكاساته على الفكر التاريخى . وتتأكد هذه الحقيقة من خلال مابقى لنا من تراث عرب الجنوب في مجال الكتابة التاريخية مثل كتاب « التيجان في ملوك حمير»[٣٧] .

ويبدو منهج البحث التاريخى متعثرا في خطواته الأولى في هذا الكتاب إذ تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالخرافة والأسطورة على نحو مربك ومحير . ويبدأ هذا الكتاب بالحديث عن الخلق ويتناول بداية الصراع الإنسانى حين قتل قابيل أخاه هابيل [٣٨] . ثم يشرع بعد ذلك في الحديث عن نسب حام بن نوح ونسله ، إلى أن ينتقل إلى الحديث عن ملك حمير [٣٩] ، فيخلط التاريخ بالأسطورة حين يقول : « وولى حمير بن سبأ ، فجمع الجيوش ، وسار يطأ الأمم ويدوس الأرضين ، وأمعن في المشرق حتى أبعد يأجوج إلى مطلع الشمس » ثم يمضى في حكاياته التى تجمع بين التاريخ والخيال حتى يصل إلى سيف بن ذى يزن [٤٠] . ويتأكد هذا الإتجاه من خلال الأخبار التاريخية التى تحوى

---

(٣٦) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ـ محاولة تنظير (الدار البيضاء ، ١٩٨٠ م) ، ج ١ ، ص ٣٧ ـ ص ٤٠ .

(٣٧) قام مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في صنعاء بنشر هذا الكتاب سنة ١٣٤٧ هـ .

(٣٨) التيجان ، ص ٩ ـ ص ٢٢ .

(٣٩) نفسه ، ص ٦٠ ـ ص ٦٤ .

(٤٠) نفسه ، ص ٣١٧ ـ ص ٣٢١ .

قصص عرب الجنوب ، وقد نشرت هذه الأخبار تحت عنوان « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال » (٤١)

وقد ظل هذا التراث « التاريخى » لعرب الجنوب على ألسنة الرواة الذين تناقلوه عن طريق الرواية الشفوية على مدى عدة أجيال وبحكم طبيعة المأثورات الشفاهية تألفت الأخبار التاريخية التى اختلطت بالخيال ، والتى زعم رواتها أنها تاريخ واف لبلاد العرب في العصور القديمة ، واقترنت بهذه الأخبار التى جمعت بين الخيال والتاريخ أسماء رجال من طراز « وهب بن منبه » ، « وعبيد بن شرية » ويرى أحد المستشرقين أن هذا التراث دليل دافع « على أن العرب الأقدمين كانت تنقصهم الملكة التاريخية والنفوذ إلى الحقائق ، حتى فى أخص ما يتعلق بحوادث عصرهم » (٤٢) .

وفي رأينا أن (السير هاملتون جب) يقسو في تقويم هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية بمقاييس البحث التاريخي الحديث ومناهجه . ففي هذه المرحلة من التطور الحضاري لعرب الجنوب كان هدف «التاريخ» إبراز البطولة على حساب التاريخ كما سبق القول . وقد أثر هذا الاتجاه ، بطبيعة الحال ، على منهج الرواة الذين كانوا يسعون لتجسيد بطولة ملوك اليمن القدماء ومآثرهم بالشكل الذي يلقى استجابة عاطفية قوية ممن يستمعون إلى رواياتهم . والكلام عن «منهج بحث» أو «دراسة تاريخية» في هذه الظروف يعتبر نوعا من الأخطاء المنهجية التي تتجاهل الحقيقة القائلة بأن «العلم» و «مناهج البحث» في هذا العلم تربطها علاقة جدلية تجعل من العبث الحديث عن مناهج بحث في وقت كان موضوع التاريخ ما يزال غير قادر عن الفكاك من أسر الخرافة والأسطورة والخيال . وإذا ما تذكرنا ، مرة أخرى ، أن المنهج هو العمليات العقلية والاستدلالية التي تساهم في حل مشكلات العلم ، وتدخل في بنية العلم أيضا ، لوجدنا أن رواة هذا النمط من «التاريخ» كانت تحكمهم أغراض أخرى غير «البحث» عن الحقيقة التاريخية ، وهي ذات الأغراض التي تحكم رواة فنون الأدب الشعبي .

وعلى أية حال ، فإن التراث التاريخي يكشف عن توظيف المعرفة التاريخية في خدمة أهداف ثقافية / اجتماعية . كذلك لم يكن التاريخ بالنسبة للعرب قبل الإسلام بحثا عن الحقيقة ، كما أنهم لم يروا في العملية التاريخية نتاجاً لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار زمني محدد ، وكان هذا في الواقع تعبيرا عن مرحلة من مراحل التطور الحضاري . وقد افتقر التراث التاريخي العربي إلى الوعي المزدوج بالزمن والحقيقة . وكانت تسجيلاتهم التاريخية الباكرة سنداً وعوناً للعرب في مواجهة ضرورات الظروف التي حكمت الحياة العربية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . ومن هنا كان منهج الكتابة التاريخية محكوماً بهذه المعوقات التي دخلت في بنية «العلم التاريخي» في ذلك الدور الباكر من تاريخه ، كما كان محكوما «بموضوع التاريخ» ، والهدف من الكتابة ، أو الرواية التاريخية .

●●●

(٤١) لم تنشر هذا الكتاب ضمن كتاب التيجان (ص٣٢٥ ـ ص٤٠٥) ، وهو على شكل حوار بين الخليفة الأموى (معاوية بن أبي سفيان) ، (وعبيد بن شرية) .
(٤٢) جب ، علم التاريخ ، ص٤٧ ـ ص٤٨ .

بعد ظهور الإسلام حدثت تغييرات جوهرية في حياة العرب ، وانعكست هذه التغيرات على شتى نواحي الحياة . وكان لابد لفكرة التاريخ أن تخضع لهذه التطورات ، فقد كانت الأفكار القرآنية عن التاريخ بؤرة التطور الذي شهده علم التاريخ من ناحية ، كما كانت الظروف الموضوعية والتطورات السياسية والاجتماعية والسياسية والثقافية حافزا لهذا التطور وموجهاً له من ناحية أخرى . وقد أدى هذا ، بطبيعة الحال ، إلى نقلة نوعية هامة وحاسمة في مناهج الدراسات التاريخية ، وبنية علم التاريخ نفسه . ويمكن رصد هذه المعطيات الجديدة ، التي أثرت على الفكر التاريخي ومناهج البحث في موضوعاته ، على مستويين :

أولهما : المستوى الفكري المتصل بالعقيدة نفسها .

ثانيهما : المستوى الواقعي المتمثل في الظروف التاريخية الجديدة التي فرضت نفسها في ظل تطور الحضارة العربية الإسلامية بمراحلها المختلفة .

وفكرة التاريخ في القرآن الكريم ، على نحو ما توضحه آيات القرآن الكريم ذات المضمون التاريخي ، تجسيد للتصور الإسلامي لرسالة الإنسان في الحياة . فالإنسان ، حسب المفهوم الإسلامي ، خليفة الله في الأرض ، وقد تحمل أمانة إعمار هذه الأرض وبناء الحضارة ونشر الحق والعدل في ربوعها وفق سنة الله (٤٣) . ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا ينبغي أن يتعرف على ذاته حتى ينجح في أداء رسالته . وقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى التعرف على ذاتهم الحضارية في قوله تعالى : «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . » (٤٤) هذه الدعوة إلى معرفة الذات يمكن للإنسان أن يحققها من خلال رصد الماضي الحضاري للبشر .

وهنا نلاحظ أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أساس أن التاريخ فعل إنساني في التحليل الأخير ، فالفعل التاريخي نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار الزمان ، وهو أيضا خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان . ولذلك نجد المادة التاريخية في القرآن الكريم تحكي قصة الأقوام والحضارات التي شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم . (٤٥)

بيد أن هذه القصص التاريخية الواردة في ثنايا آيات القرآن الكريم ليست هدفا في حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى «إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمرار» على حد تعبير أحد الباحثين . (٤٦) وقد أدى هذا

---

(٤٣) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٥٥ ـ ص٥٧ . حيث ترد مناقشة تفصيلية لفكرة مسئولية الإنسان في الأرض كما حددها القرآن الكريم .

(٤٤) سورة الحج : آية ٤٦ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الأنبياء ، وسورة المؤمنون وسورة الشعراء ، وسورة القصص .

(٤٦) عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت ١٩٧٥ م) ، ص١٠٦ .

إلى تطور هام في مناهج البحث التاريخي ، إذ نزل التاريخ إلى عالم الواقع ، وراح المؤرخون يبحثون في قصة الإنسان على الأرض . أي أن البحث التاريخي اهتم بالأحداث «التاريخية» التي صنعها البشر في بيئتهم ، وداخل إطار زمانهم . وبدأ البحث التاريخي ينشد الحقيقة وبدأ خطواته العلمية الأولى في تراث الثقافة العربية الإسلامية باستعارة مناهج علم الحديث باعتبارها وسيلة لضبط الرواية التاريخية وفق مقياس أخلاقي يستند إلى «الجرح والتعديل» الذي كان منهجاً يستند إلى الجدارة الأخلاقية للرواة . وعلى الرغم من ذلك فإن مناهج البحث كان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تأخذ شكلها العلمي الذي بلوره ابن خلدون في مقدمته الشهيرة .

ويطرح القرآن الكريم من خلال المادة التاريخية التي تتضمنها الآيات الكريمة ، النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الإنساني وإمعان النظر في وقائعه والتأمل في أحداثه . والهدف هنا عملي علمي وتربوي أيضا . فالقرآن الكريم يصور في وضوح شديد أن ثمة قوة في الحق ، وأن الفشل يحيق بالباطل في النهاية . فما يناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعة للدور التاريخي الذي مارسه . ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخي لا يحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغير تاريخي كبير بعد فترة زمانية طويلة . (٤٧)

وهنا نلاحظ أن التاريخ لا يجري اعتباطا ، كما أن حركة تطوره ليست حركة عشوائية ، وإنما هي محكومة بسنن وقوانين منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة . (٤٨)

فالمادة التاريخية الواردة في القرآن الكريم تقوم على أساس أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً محوره دور الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض ، وبوصفه مسئولا عن تعمير العالم وإقامة الحق في ربوعه . وفي هذا الصدد نجد آيات كثيرة تبرز اتجاها يؤكد أن التاريخ مستودع للعظات والعبر التي يجب على الإنسان أن يتلمسها في أخبار الأمم الماضية . ومن أمثلة السور القرآنية التي تضمنت مادة تتعلق بتواريخ الأمم الماضية : هود والأعراف والأنبياء والمؤمنون والشعراء والقصص . وثمة حقيقية يؤكدها القرآن الكريم مؤداها أن الفعل الإنساني في التاريخ سبب له نتائجه التي يتحدد بها مصير البشرية . وبعبارة أخرى ، فإن الإنسان هو صانع التاريخ . (٤٩)

هكذا إذن ، تحددت أبعاد فكرة التاريخ في القرآن الكريم على أساس من المفاهيم القرآنية . وكان لهذا انعكاسه الإيجابي على تطور مناهج البحث التاريخي وتقدمها نحو البحث في السببية على أسس وضعية وإنسانية . فقد

---

(٤٧) Mozheruddin siddigi, the Quranic Concept of History, (Karachi, 1965), p. 10.

أنظر أيضا : عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي ، ص١٠٨ ـ ص١٠٩ ، قاسم عبده قاسم الرؤية الحضارية ، ص٨١ ـ ص٨٣ .

(٤٨) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص٢٣٩ ـ ص٢٤٠ .

(٤٩) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٥٥ ـ ص٥٧ ، عفت الشرقاوي ، أدب التاريخ ، ج ١ ، ص٢١٠ ـ ص٢١٢ .

استخدم القرآن الكريم المادة التاريخية لتأكيد مسئولية الإنسان عن مصيره في الحياة الدنيا ، وحرصت الآيات على تأكيد هذه المسئولية من خلال العبرة والعظة ، ولا غرو أن نظرة المسلمين إلى التاريخ لم تخل من الجانب الأخلاقي المتصل بالعقيدة في أساسه . وقد فرضت هذه الرؤية التربوية التعليمية للتاريخ نفسها على المؤرخين المسلمين ، وقد أوردوا في مقدمات كتبهم ما يشي بأنهم عملوا في إطارها كذلك فإن سطور كتبهم حفلت بالشواهد والأدلة عليها .

ولما كانت الخلفية الثقافية للمؤرخين المسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآني فقد كانَ طبيعيا أن ينبع فهمهم للجدوى الأخلاقية / التعليمية للتاريخ من هذه الخلفية . وقد جسد ابن خلدون هذه الرؤية بقوله : «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين . . .»[٥٠] ويؤكد شمس الدين السخاوي[٥١] هذا المعنى في كتابه الذي ألفه دفاعاً عن التاريخ .

وعلى أية حال ، فإن المؤرخين المسلمين ظلوا متأثرين بالرؤية القرآنية لدور التاريخ في خدمة الجانب الأخلاقي التعليمي في المجتمع المسلم ، بل إن منهم من قسّم (فوائد التاريخ) إلى قسم دنيوي وقسم أخروي ، بيد أن هذا التقسيم لم يخرج عن نطاق العظة والعبرة والمعنى الأخلاقي والمغزى التربوي ، مما يجعل الحياة ناجحة في الدنيا ، ويضمن المصير في الآخرة .[٥٢]

هذا هو تأثير الجانب العقيدي على فكرة التاريخ في تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وهو تصور ركز على مسئولية الإنسان في الفعل التاريخي من ناحية . كما ترك بصماته الواضحة على التصور الايجابي في مناهج البحث التاريخي من ناحية أخرى . لقد أصبح التاريخ ، بأحداثه وأشخاصه من شئون البشر ، واختفى تدخل الآلهة في مجرى العملية التاريخية لصالح القبائل والشعوب ، كما تخلص التاريخ من شباك الأسطورة إلى حد كبير . وكانت النتيجة الطبيعية أن التزمت الرواية التاريخية بإطار الزمان وحدود المكان ، كما بحث المؤرخون عن الحقيقة وفاضلوا بين رواية وأخرى . ومنذ البداية تأثرت مناهج البحث التاريخي بمناهج علم الحديث في إسناد الرواية التاريخية ، ثم نقدها على أساس التاريخ الشخصي للرواية .

ومن ناحية أخرى ، فرضت التطورات التاريخية التي لحقت بدار الإسلام استخدامات جديدة لعلم التاريخ في خدمة الحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان تأثير الجانب العقيدي قد اتضح في صياغة فكرة التاريخ ، فإن تأثير هذه التطورات التاريخية يمكن رصده من خلال أنماط الكتابة التاريخية التي عرفها تراث الثقافة العربيع فلإسلامية . ومن

---

(٥٠) مقدمة ابن خلدون (طبعة كتاب التحرير ، القاهرة ١٩٦٦ م) ، ص ١٤ .

(٥١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ (تحقيق فرانز روزنتال وترجمة أحمد صالح العلي ، بغداد ١٩٦٣ م) ، ص ٣٦ - ص ٣٨ .

(٥٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر ، بيروت) ج ١ ، ص ٦ - ص ٩ . ويرى ابن الأثير أن القصص وردت في القرآن الكريم لهذه الحكمة .

الطبيعه أن ينعكس ذلك أيضا على مناهج الدراسات التاريخية بحيث تبلورت في نهاية الأمر في ذلك المستوى الراقي لمنهج البحث التاريخي الذي أوضحه «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة .

بيد أننا يجب أن ندرك أن تطور أنماط الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي كان يسير في خط مواز للتطور الذي ألمّ بدار الإسلام خلال مراحل نموها الحضاري . ومثلما كان لفكرة التاريخ في القرآن الكريم أثرها في صياغة الفكر التاريخي على الصعيد النظري ، كان للرغبة في تفسير آيات القرآن الكريم أثرها على الأشكال الأولية من أنماط الكتابة التاريخية . لقد كان أول تطور في الدراسات التاريخية تلبية لضرورة ثقافية / اجتماعية ملحة في حياة المجتمع المسلم هي تفسير القرآن الكريم . وفي رأينا أن التفسير يعد ضرباً من ضروب البحث التاريخي .

وهنا نجد الخطوات الأولى لمناهج البحث التاريخي تتعثر بين الرغبة في معرفة الحقائق والنقص الحاد في المعارف والمعلومات التي توصل إلى معرفة الحقيقة . وربما كان هذا هو السبب في أن رجلين مثل «كعب الأحبار» (ت ٥٣٤) «ووهب بن منبه» (ت ١١٠هـ؟) قد استكملا هذا النقص بروايات خيالية من التراث العبراني والمسيحي . وقد ظلت رواياتهما مصدراً مشتركاً لكتب التفسير طوال عصور الثقافة العربية الإسلامية . (٥٣)

واللافت للنظر أن مناهج الجرح والتعديل في الحديث كانت تستهدف الحقيقة من خلال ضوابط نقدية صارمة . وقد كانت هذه المناهج من أهم روافد مناهج البحث عند المسلمين فقد كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) شخصية تاريخية عاش في فترة تاريخية معلومة بحدود الزمان والمكان ، ومارس أفعالا تاريخية تركت أثرها في تاريخ العالم ، كما كانت أحاديثه موجهة إلى الناس ، وتناقلها بالرواية عدة رواة يحتمل فيهم الصدق كما يحتمل الكذب . ومن ثم بدأ علم الحديث يستخدم منهجه النقدي في البحث عن الحقيقة التاريخية . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية . لقد نبذت فكرة الركون إلى دور القوى الغيبية في صنع تاريخ البشر ، وتم التأكيد على مسئولية الإنسان عن صنع تاريخه وبناء حضارته بيد أن هذا لا يعني من ناحية أخرى ، انعدام العنصر الغيبي والأسطوري في الكتابة التاريخية ، فالواقع أن تطور المناهج الجديدة في الدراسات التاريخية قد دفع بالكتابة التاريخية إلى الأمام ، ولكن الأساليب القديمة كانت ما تزال موجودة . ومن المهم أن نلاحظ أن هذه سمة من سمات تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (وفي غيرها من العلوم) ، إذ أن تطور مناهج البحث يدخل في الخط العام لتطور العلم نفسه ، ولكنه لا يقضي على الأساليب والنماذج والمناهج القديمة التي تظل موجودة ، جنباً إلى جنب ، مع المناهج الجديدة فترة من الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان للاهتمام بالأحاديث النبوية أثره في ظهور نمط آخر من أنماط الكتابة التاريخية هو «السيرة والمغازي» التي كانت استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية في المجتمع المسلم الذي أراد أفراده الوقوف على

---

(٥٣) حسين نصار ، نشأة الكتابة التاريخية في الأدب العربي (ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م) ص١٧٥ - ص١٧٧ .

تفاصيل حياة الرسول (ص) وأفعاله التاريخية . وتنقلنا «المغازي» للمرة الأولى إلى الكتابة التاريخية بالمفهوم الحديث لأنها كانت تبحث في سيرة الرسول (ص) وغزواته وسراياه ، وتجمع في الوقت نفسه أخبار الأحداث التاريخية الأولى التي واكبت قيام الأمة الإسلامية مثل الهجرة إلى الحبشة والمدينة ، ورسائل النبي (ص) إلى الحكام المعاصرين ، وهذه كلها أخبار «تاريخية» اتخذت هذا النمط استجابة لحاجة المسلمين إلى معرفة أخبار الفترة التاريخية التي وضعت فيها اللبنة الأولى في حضارتهم ، والتي شهدت انتشار الإسلام أيضا .

وكان لابد من تغيير في منهج البحث والرواية لكي يناسب هذا التطور الجدي في ميدان الكتابة التاريخية ، وبذلك خطت الكتابة التاريخية خطوة أبعد من منهج علم الحديث في ضبط الرواية .

والواقع أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية قبل الإسلام ، إذ أنهم احتفظوا بالأيام والأنساب ، وقصص عرب الجنوب ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية / الاجتماعية التي وجدت بعد الإسلام . ويمكن القول إن فكرة التاريخ قبل الإسلام قد اتخذت مفهوما مغايرا بسبب التطورات التي جدت على مناهج البحث وبنية العلم التاريخي نفسه بعد ظهور الإسلام [٥٤] وقد زاد نشاط علماء الأنساب في عهد «بني أمية» بسبب إنشاء الدواوين ، وبسبب مصالح العصبيات من العرب المتنافسين [٥٥] ، كذلك ينبغي أن نلاحظ أن العرب ، بعد الإسلام ، ظلوا يحتفظون بالتنظيم القبلي أساساً للتنظيم الاجتماعي على الرغم من خضوعهم لسلطة عامة ، وقد أدت هذه الظروف إلى إزدهار علم الأنساب بعد الإسلام . [٥٦] بيد أن الهدف من هذا النمط من المعرفة التاريخية لم يظل كما كان في الجاهلية ، وهو ما أدى إلى تغير جوهري في منهج النسابين الذين اهتموا برسم شجرات النسب ، بصورة جافة ، تخدم غاية أساسية هي تأكيد الأنساب .

على أية حال ، فإن موضوعات التاريخ في تلك المرحلة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية كانت تعالج أحداثا دنيوية بحتة ، فسيرة النبي (عليه الصلاة والسلام) ومغازيه ليست سوى أحداث تاريخية جرت على أرض معروفة بحدودها الجغرافية في فترة تاريخية محدودة بحدود الزمان . وإذا كانت موضوعات «التاريخ» قد اختلطت بغيرها من الموضوعات ، مثل الفقه والحديث ، فالثابت أن جهود المحدثين والفقهاء كانت موجهة لحل مشكلات دنيوية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . بل إن فكرة التاريخ في القرآن الكريم كانت تدور حول هدف دنيوي عملي هو تربية المسلمين وتعليمهم من خلال دروس التاريخ وما تحمله من عظة وعبرة .

---

(٥٤) حسين نصار ، المرجع السابق ، ص٢٢٢ - ص٢٢٤ ، محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص٢٤٧ .

(٥٥) جب ، علم التاريخ ، ص٥٠ .

(٥٦) ازدهر علم الأنساب بعد الإسلام ولمعت أسماء كثيرين من النسابة في العصر الأموى الذي شهد تميز العرب على غيرهم من المسلمين : انظر : ابن قتيبة ، المعارف ، ص٥٣٤ - ص٥٣٦ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ص٢٥٣ .

والنتيجة الطبيعية لهذه البداية «التاريخية» لعلم «التاريخ» في تراث الثقافة العربية الإسلامية أن تتأثر مناهج البحث بموضوع الدراسة التاريخية وهدفها ولأن الدراسات التاريخية عند المسلمين بدأت من أرضية إنسانية وضعية ترى أن الإنسان هو صانع التاريخ ، والمسئول عن قيام الحضارة أو سقوطها ، فإن مناهج البحث صارت هي الأخرى تستهدف الحقيقة وتبحث عن العلاقة السببية في الحوادث التاريخية . وإذا كانت فكرة العناية الإلهية بشئون البشر موجودة في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، بشكل عام فالواضح في تراث الكتابة التاريخية أن العناية الإلهية لا تؤازر المسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، ولكنها تؤازرهم إذا كان «فعلهم التاريخي» في الدنيا قويماً متوافقاً مع أوامر الله ، وإذا تنكبوا سواء السبيل حاق بهم البوار والخسران . ويعني هذا ، في التحليل الأخير ، أن الإنسان مسئول عن فعاله في الدنيا . ولقد كانت هذه النظرة ذات تأثير عميق على رؤية التاريخ باعتباره تجربة إنسانية ، مما أثر بدوره مع مناهج البحث التاريخي التي اهتمت بالأسباب الوضعية المفسرة للظاهرة التاريخية .

ومن ناحية أخرى ، كانت للتطورات التي شهدتها الفترة الباكرة من تاريخ المسلمين ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً تأثيراتها الفكرية والاجتماعية بعيدة المدى . إذ استمرت حركة الفتوح الإسلامية في عنفوانها حوالي قرن من الزمان ، ونتج عنها أن دخلت تحت راية الإسلام شعوب عريقة ذات أصول حضارية بعيدة . وبطبيعة الحال أدت هذه التطورات إلى نشوء الحاجة إلى أنماط جديدة للكتابة التاريخية . وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى تطور مناهج البحث وفق الأنماط العديدة التي أفرزها تطور علم التاريخ في الثقافة العربية الإسلامية .

فقد أوجدت حركة الفتوح الإسلامية نمطاً من الكتابة التاريخية يهتم بفتوح البلدان بقصد التعرف على ظروف فتح كل بلد ، وكان هناك عدد من الاخباريين في كل بلد تخصصوا في جمع أخبار هذا البلد ، والروايات المتعلقة بظروف فتحه ، وتدوينها . وكان منهج أولئك الإخباريين بسيطاً يقوم على أساس الروايات المختلفة حول الحادثة التاريخية الواحدة دون محاولة للتحقيق أو التدقيق . ولأن عدداً من هذه الروايات كانت محلاً للتداول الشفهي حتى القرن الهجري الثالث على الأقل ، فإن كتب الفتوح تحمل مشكلات كثيرة حول التواريخ والأحداث والأشخاص المشاركين فيها تحير الباحثين حتى اليوم . وكان العيب المنهجي الناجم عن جمع الروايات دون تحقيقها سمة مشتركة بين كثير من هذه الروايات التاريخية حول فتوح البلدان .

كذلك أدى دخول الشعوب ذات الحضارات القديمة في الدين الإسلامي إلى تطور آخر في علم التاريخ ومناهج البحث فيه ، إذ نشأت الحاجة إلى معرفة تواريخ هذه الشعوب قبل الإسلام مما أدى إلى بروز مجال جديد للكتابة التاريخية . وكانت تلك هي المرحلة التي مهدت لظهور التواريخ المحلية . ويمكن أن نشير إلى عدد ممن تخصصوا في هذه الأخبار التاريخية التي تتناول الفترة السابقة على الإسلام ، مثل «محمد بن السائب الكلبي» و «عوانة بن الحكم» (ت ١٤٧هـ) و «أبو مخنف الأزدي» (ت ١٥٧هـ) . و «سيف بن عمر» (ت ١٧٠هـ) وغيرهم . بيد أن أهم

هؤلاء جميعا هو «محمد بن عمر الواقدي» (ت ٢٠٧هـ) الذي كانت كتبه عنوانا على تقدم واضح في مناهج البحث التاريخي .[٥٧]

ومع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كان في متناول المؤرخين المسلمين كم هائل من المادة التاريخية التي خلفها لهم كتاب السيرة النبوية والمغازي ، ومؤلفو كتب الطبقات وكتب الفتوحات . كذلك ساعدت الظروف التاريخية على ازدهار المعرفة التاريخية ، وتعدد أنماط الكتابة ، فضلا عن تطور مناهج البحث . ففي سنة (١٧٨هـ) تم في بغداد تأسيس أول مصنع للورق الذي حل بالتدريج محل الرق والبردى وغيرهما من مواد الكتابة التاريخية المعروفة آنذاك . ومن ناحية أخرى كانت دواوين الدولة تحفل بالوثائق والسجلات التي بدأت تدخل ضمن نسيج المادة التاريخية[٥٨] ، فضلا عن أن بعض الخلفاء الأوائل كانوا يرون في التاريخ نوعاً من الثقافة السياسية فقد كان «معاوية بن أبي سفيان» يخصص شطراً من الليل للاستماع إلى قصص التاريخ التي تتناول أخبار الملوك والحروب والمكائد السياسية . ومن نتاج هذه المجالس ظهرت الروايات التاريخية المنسوبة إلى «عبيد بن شرية» .[٥٩]

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتمهد الطريق أمام التطور الهام الذي لحق بعلم التاريخ عند المسلمين منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً . وجاء ظهور الأنماط المختلفة من الكتابة التاريخية ظهوراً طبيعياً . ويمثل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مرحلة تطور هامة وحاسمة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية . وظهرت المدارس الفكرية المختلفة في شتى أنحاء دار الإسلام . وتمثل الازدهار العلمي والفكري في مظهرين رئيسيين : السفر والرحلة في طلب العلم بين مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وتعدد المؤلفات التي كتبت في شتى فروع العلم والمعرفة . كذلك فإن السلام الذي تحقق في ظل وحدة دار الإسلام خلق جواً من الاستقرار انعكس على الروح الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية . وكان لا بد أن ينال علم التاريخ نصيبه من هذا الازدهار .

فقد أدى ذلك بالضرورة الى تراكم هائل ، على المستوى النوعي والكمي ، في مجال الكتابة التاريخية التي شهدت مرحلة انتقال منهجية هامة ، نقلت كتابة التاريخ من مجرد التجميع والتأليف والوصف إلى مرحلة جديدة قوامها منهج صارم يقوم على أساس ضبط الرواية وتحقيقها . فقد شهد القرن الثالث الهجري مولد كثير من الحوليات والمؤلفات التاريخية ، فضلا عن ذلك الكم الهائل من المعلومات التي كان الإخباريون ما يزالون يتداولونها بالرواية الشفوية . ولمعت أسماء عدد من أعلام التدوين التاريخي ، منهم «أبو قتيبة الدينوري» (ت ٢٧٦هـ) ، و «ابن جرير

(٥٧) العبادي ، (علم التاريخ عند العرب) ، ص ٥١ وما بعدها . وقد ألف الواقدي كتابا في التاريخ العام حاول فيه أن يتتبع تاريخ البشرية منذ البداية حتى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد ، ولكن الكتاب مفقود سوى الأجزاء التي نقلها (ابن سعد) منه كتاب (الطبقات الكبرى) .

(٥٨) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٩٨ - ص ٩٩ .

(٥٩) يقال إن (عبيد بن شرية) قد روى أخبار ملوك العرب من لخم وغسان ، وقد روى أيامهم ، ووفد على معاوية ليروي له هذه الأخبار . أنظر : عبيد بن شرية ، أخبار اليمن وأشعارها ، ص ٣٢٣ - ص ٥٠٤ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج ١ ، ص ٢٥٠ .

الطبري» (ت ٣١٠هـ) . ويعتبر كتاب الطبري «تاريخ الرسل والملوك» تجسيداً للنزعة التاريخية العامة التي خلقتها وحدة العالم الإسلامي ، إذ يتناول هذا الكتاب التاريخ العام منذ الخليقة حتى نهاية سنة ٣٠٢ هجرية ، ويخصص مساحة كبيرة للسيرة النبوية ، إلى جانب حوادث صدر الإسلام ، ثم يرتب الأحداث التاريخية سنة وراء الأخرى .

ويعد «الطبري» رمزاً لختام مرحلة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ التدوين التاريخي في التراث العربي الإسلامي . ففي هذا الكتاب قام الطبري بصياغة تركيبية لكل الأنماط السابقة في مجال التدوين التاريخي العربي ، مثل بداية الخليقة وأيام العرب ، والمغازي ، والسيرة النبوية ، والفتوح ، ثم النمط الحولي الذي ينسب إليه . أما من ناحية المنهج ، فقد اعتمد على منهج الإسناد إلى جانب الوثائق التي بدأ يدخلها في نسيج الرواية التاريخية على نحو لم يكن مألوفا قبل الطبري .

وفي كتاب «تاريخ الرسل والملوك» أرسى الطبري قواعد منهج جديد في البحث والدراسة التاريخية كان يمثل نقلة نوعية في تاريخ الكتابة العربية لم تتكرر بعد ذلك سوى في كتابات عبدالرحمن بن خلدون . ولم يكن ما جاء به الطبري «ابتكاراً» خالصا . وإنما كان صياغة موحدة لكل التطورات والأنماط والمناهج التي حاولها مؤرخون قبله . وجاءت كتابات الطبري حصاداً ناجحاً لكل محاولات من سبقوه . ويرى البعض أن سبب أهمية كتابه يكمن في أنه كان مثالا للصرامة والدقة المنهجية ، إذ طبق الطبري في هذا الكتاب منهج الإسناد تطبيقا صارماً في مجال التاريخ . ولكي يحدث ذلك لابد له أن يصوغ كتابه على أساس الخبر من ناحية ، وعلى أساس من الجدارة الأخلاقية لمن نقل الخبر من ناحية أخرى . وقد كان من الضروري أن يرتب الطبري كتابه ترتيباً زمنياً على مر السنين [٦٠] ، فقد اتبع طريقة الحوليات ، وقسم حوادث كتابه وفقاً لتسلسل زمني يبدأ من سنة الهجرة . وقد نهج نهجاً تتابعياً بحيث يروي حوادث كل سنة على حدة متبعاً منهج الإسناد والعنعنة . [٦١]

بيد أن الطبري لم يقتصر على منهج الإسناد الذي طبقه على روايات كتابه بصرامة فحسب ، وإنما نجد في طيات كتابه الضخم ما يشير إلى هذه النقلة النوعية التي أشرنا إليها في منهج البحث التاريخي . إذ تبرز أهمية الوثائق والسجلات الحكومية باعتبارها دليلا يدعم القصة التاريخية وهو تطور اهتم بالدليل الوثائقي في الدراسة التاريخية ما يزال يحظى بالاحترام البالغ بين المؤرخين حتى اليوم . ويعني هذا أن المؤرخين المسلمين قد تقدموا خطوة أبعد في تطور منهجهم للبحث في التاريخ . فإلى جانب المشاهدة عن طريق الرحلة أو معاصرة الأحداث ، والسماع من شهود العيان ، والنقل عن الرواة جاءت الوثائق والسجلات مصدراً جديداً للمؤرخ لإقامة الدليل والبرهان . وكان هذا التطور في مناهج البحث موازياً لتطور في علم التاريخ نفسه . إذ لم يعد معيار صحة الخبر التاريخي هو نفس المعيار

---

(٦٠) علي أو مليل ، الخطاب التاريخي ـ دراسة لمنهجية ابن خلدون (مطبوعات دار الإنماء العربي ـ بيروت) ، ص٣٣ ـ ٣٤ .

(٦١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (طبعة دار المعارف بالقاهرة) ، ج ٣ ، ص١٢ وما بعدها . على سبيل المثال .

الأخلاقي الذي استخدمه منهج التعديل والجرح ، وإنما صار موضوعياً يعتمد على توفر الشواهد المادية التي تؤكد صحة الخبر . وتكمن أهمية كتاب الطبري في أن صفحاته جمعت بين المناهج السائدة والمنهج الجديد في وقت واحد وبشكل تركيبي نادر في المؤلفات التاريخية .

وقد صار كتاب الطبري هذا نموذجا لكتب التاريخ الإسلامي العام في عصور الثقافة العربية الإسلامية ، كما كان مصدرا اعتمد عليه من جاءوا بعده لمعرفة تاريخ القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة العربية الإسلامية .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن التقدم الذي أحرزه علم التاريخ ومناهج البحث في تلك الفترة لم يكن راجعا إلى كثرة عدد المؤرخين ، أو نمو المادة التاريخية وتراكمها ، أو تطور منهج البحث التاريخي فحسب ، وإنما كان راجعا بالضرورة إلى تعدد اتجاهات التأليف التاريخي وأنماطه التي كان كل منها استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية فرضتها الظروف التاريخية للعالم الإسلامي .

وقد شهد القرن الثالث الهجري ، أيضاً ، بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي ، وازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس ، فضلا عن بلدان المشرق الإسلامي . وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة . وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية التي تتحدث عن تواريخ البلدان ، ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية الإسلامية . فقد جدت حاجة ثقافية / اجتماعية جديدة هي منافسة المراكز الثقافية في شتى أنحاء (دار الإسلام) ، إذ كان المسلمون قد صاروا ، منذ القرن الثالث الهجري ، أغلبية في البلاد المفتوحة ، وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه . ومنذ ذلك الحين ظهرت المؤلفات التاريخية التي تهتم بجمع كل ما يتعلق بإحدى مدن (دار الإسلام) ولم يقتصر الأمر على المدن المقدسة ، مثل مكة والمدينة والقدس ، وإنما اتجه المؤرخون إلى المدن الإسلامية عامة . فظهر تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن النديم ، وتاريخ إربل لابن المستوفى . كما ظهرت خطط الفسطاط والقاهرة لابن عبدالحكم[٦٢] ، والقضاعي ، وابن زولاق والأوحدي ، وابن دقماق ، والمقريزي ، والسيوطي وغيرهم .[٦٣]

وقد تطور هذا النمط الجديد من أنماط الكتابة التاريخية ، أي الخطط التي تجمع بين التاريخ والطبوغرافيا والسكان والجغرافيا . وتحتوي كتب الخطط عادة على قدر معلومات عن تطور المدن وتخطيطها وأحيائها وعناصر السكان والمرافق ذات الوظيفة البلدية ، أو الاجتماعية ، أو الدينية عبر العصور . وترد في ثنايا تلك المؤلفات

---

(٦٢) جاء هذا الجزء ضمن كتاب عبدالرحمن بن عبدالحكم ، فتوح مصر وأخبارها (نشره تشارلز توري) لندن سنة ١٩٣٠ .
(٦٣) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص١٠٠ - ص١٠١ .

معلومات كثيرة هامة عن شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . وفي مصر كان «عبدالرحمن بن عبد الحكم» هو رائد هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية .

ويعتبر هذا النمط الذي وصل قمة تطوره على يد المؤرخ تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ) ، تطوراً نوعياً هاماً في ميدان الكتابة التاريخية ، سواء على مستوى المعرفة التاريخية أو على مستوى تطور مناهج البحث التاريخي . فقد تخلى كتاب الخطط عن النمط الحولي في رواية الخبر التاريخي ، واختاروا المعالجة التي تتناول كل موضوع على حدة داخل الإطار العام للكتاب . كما أن المؤرخين الذين اهتموا بهذا النمط من التأليف التاريخي تخلو تماماً عن أية أسباب غيبية وبحثوا عن السببية في نطاقها الإنساني «التاريخي» ، وقد تجسد ذلك تماما في خطط المقريزي .[٦٤]

وفي تقديرنا أنه من الصعب أن نتتبع جذور نشأة كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية . بيد أننا نستطيع من خلال النظر في هذا التراث أن نكتشف مدى التنوع والثراء المذهل في المؤلفات التاريخية ، ومدى استجابة هذه الأنماط من الكتابات التاريخية للحاجات الثقافية / الاجتماعية التى فرضتها التطورات . وقد أحصى «شمس الدين السخاوي»[٦٥] أنماط الكتابة ، وقصد بهذا الإحصاء أن يكمل الإحصاء الذي وضعه الذهبي من قبل . كما أن السيوطي كانت له محاولة في هذا السبيل أيضا .[٦٦]

وقد أحصى لنا السخاوي موضوعات التأليف في ميدان التاريخ فيما يلي :

١ ـ تاريخ الرسول والأنبياء .

٢ ـ تاريخ الصحابة .

٣ ـ تاريخ الأشراف ، أي، آل أبي طالب وآل علي .

٤ ـ تاريخ القرشيين .

٥ ـ تاريخ الموالي .

٦ ـ تاريخ الرواة المعتمدين أو المصنفين .

٧ ـ تاريخ رجال علم الحديث .

---

(٦٤) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (طبعة بولاق ١٢٧٠ هجرية) .

(٦٥) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ ، ص٢١٤ ـ ص٢٣٨ .

(٦٦) السيوطى ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، ج ١ ، ص١٥٨ ـ ص١٥٩ ، ص٢٥٤ ـ ص٢٥٦ .

٨ ـ تاريخ المعاجم والشيخة .

٩ ـ تاريخ المسمين باسم خاص مثل «عطاء الطبراني» أو «عبدالمؤمن الدمياطي» .

١٠ ـ تاريخ المعمرين والشبان .

١١ ـ تراجم الأفراد .

١٢ ـ التواريخ المحلية .

١٣ ـ تصانيف البلدان .

١٤ ـ مطلق التاريخ ، وهو ما وصفه بأنه «مطلق التاريخ غير مقيد بوصف ولا جنس ، أو نحو ذلك» ، وهو على أقسام :

أ ـ التاريخ على الحوادث .

ب ـ الحوادث والوفيات

جـ ـ كتب عن تواريخ الوفيات

د ـ كتب التراجم

هـ ـ كتب تواريخ منوعة .

وعلى الرغم من التداخل الواضح بين عدد من هذه الموضوعات ، وعلى الرغم من غياب أنماط أخرى من المؤلفات التاريخية من (إحصائية) السخاوي ، فالواضح أن الدراسات التاريخية العربية قد غطت كافة مجالات النشاط الإنساني ، فقد كتب المؤرخون في السيرة النبوية والمغازي ، وفي الطبقات والتراجم ، والتواريخ المحلية ، والخطط ، وتواريخ المدن ، كما كتبوا الرسائل ذات الموضوع التاريخي الواحد ، فضلا عن فلسفة التاريخ . ولم يحدث هذا بين عشية وضحاها بطبيعة الحال ، وإنما كان محصلة تطور طويل المدى . كما أن مناهج البحث كانت تتطور باستمرار لحل مشكلات كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية . وقد كانت المناهج في تطورها لخدمة الجديد في مجال الدراسات التاريخية تبقى على طرق البحث التي تناسب القديم أيضا ، ولهذا يبدو تراث التدوين التاريخي في الثقافة العربية الإسلامية وكأنه معرض لتطور علم التاريخ ومناهجه .

والعصر الذي تمثلت فيه كل أنماط التدوين التاريخي العربي هو عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) الذي كان بمثابة المعرض الحي لتاريخ كتابة التاريخ في إطار الحضارة العربية الإسلامية . والواقع أن مصر والشام قد شهدت في ذلك العصر نشاطاثقافيا واسع النطاق . لقد كان عصر السلاطين المماليك آخر عصور الحضارة العربية الإسلامية ، وكان التوهج الثقافي والعلمي فيه بمثابة خط الدفاع الأخير عن الثقافة العربية الإسلامية . فقد أدت الظروف التاريخية التي أحاطت بالعالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ظهور دولة سلاطين المماليك في مصر والشام لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان .[٦٧] وفي ظل الأمن والحماية التي وفرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر على نحو خاص مقصدا لعدد هائل من العلماء والمفكرين المسلمين من شرق العالم الإسلامي ومغربه ، إذ أن الكوارث السياسية والعسكرية التي حاقت بدار الإسلام في المشرق والمغرب جعلت العلماء والمفكرين والفنانين يهاجرون إلى القاهرة .

لقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي ، وقضت هذه الجحافل الظالمة على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، ومن ناحية أخرى ، كانت المساحة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية تتراجع أمام زحف الكاثوليك الأسبان والأوربيين للقضاء على الأندلس . وإزاء مذابح الكاثوليك تزايدت أعداد المهاجرين إلى مصر والقاهرة من أبناء الأندلس ، كما أن الظروف السياسية المتقلبة دفعت عدداً من أبناء المغرب الإسلامي إلى أحضان القاهرة ، ومن أشهرهم «عبدالرحمن ابن خلدون» الذي لم يكن حالة فريدة بين المهاجرين المغاربة . وكان الزمان ما يزال ينتظر بعضاً من أهم إنجازات الفكر والثقافة العربية في عصر سلاطين المماليك .

ولم يكن علم التاريخ بمنأى عن هذه التطورات والأحداث بطبيعة الحال . فقد وصلت الكتابة التاريخية في ذلك العصر إلى قمتها في ظل الظروف الثقافية العربية الإسلامية ، سواء من حيث التراكم والنمو المعرفي في التراث التاريخي نفسه ، أو من حيث تطور مناهج البحث في الدراسة التاريخية التي خرجت من حيز «الخبر» و «الرواية» المجردة إلى طور جديد يهتم بمناقشة الأسباب في سياقها الوضعي . وزادت أهمية علم التاريخ باعتباره علما ذا وظيفة ثقافية / اجتماعية . وتبلورت فكرة التاريخ بشكل واضح حتى وجدنا من مؤرخي ذلك العصر من يكتبون في فلسفة التاريخ ، والأسس النظرية التي يقوم عليها التدوين التاريخي ، ومنهج البحث التاريخي ، مثل «ولي الدين عبدالرحمن

---

(٦٧) برز المماليك قوة عسكرية أثناء المواجهة بين مصر وقوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ، وقد انتهت الحملة بتدمير الجيش الصليبي وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع وبرزت قوة فرسان المماليك البحرية وقادتهم من أمثال أقطاي وبيبرس وقلاون وغيرهم . وبعد ذلك بعشر سنوات قضى المغول على الخلافة العباسية وهزمهم الجيش المصرى بقيادة المماليك (٦٥٨ هـ) في معركة عين جالوت الشهيرة . وأعاد السلطان الظاهر بيبرس أحياء الخلافة العباسية في القاهرة لإضفاء الشرعية على الحكم في الدولة الناشئة ـ أنظر التفاصيل في : أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (دار النهضة العربية) بيروت ١٩٨٦ م) ، ص ١٠١ ـ ٢٤٠ .

بن خلدون» (ت ٨٠٩ هجرية) ، كما ظهر من علماء ذلك العصر من كتب في التاريخ مثل «شمس الدين السخاوي» و «جلال الدين السيوطي» .

وقد شهد هذا العصر النقلة النوعية الكبيرة الثانية في تطور مناهج البحث التاريخي ، وهو الاتجاه الجديد الذي بلورته نظرياً ، كتابات ابن خلدون ، كما جسدته عملياً كتابات المؤرخين الذين تتلمذوا عليه وأشهرهم «تقي الدين المقريزي» (ت ٨٤٥هـ) وتكمن أهمية ابن خلدون وكتاباته في آرائه التي طرحها في مقدمته الشهيرة عن علم التاريخ ، إذ أن هذه المقدمة تضمنت آراء ونظريات هامة تمثل حصاد التراث التاريخي على مر عصور الثقافة العربية الإسلامية . ولسنا بصدد تكرار ما هو معروف ومشهور من آراء ابن خلدون [٦٨] ، ولكننا نقصد أن نوضح أن تطور مناهج البحث التاريخي وصل إلى مرحلة جعلت من الضروري مناقشة ونقد مناهج البحث التي قامت عليها أنماط الكتابة التاريخية المختلفة حتى ذلك الحين . وفي تصورنا أن أهم تطور منهجي بلوره ابن خلدون في مجال الدراسات التاريخية هو البحث عن العلاقة السببية الوضعية في وقائع التاريخ نفسها أو في «أحوال العمران» على حد تعبيره . [٦٩] فقد بلور اتجاها جديداً في منهج البحث التاريخي يرفض الحكم على صحة الخبر بمعيار أخلاقي يعتمد على عدالة رواة الخبر (كما هو الحال في منهج الجرح والتعديل في الحديث النبوي) وإنما يجعل وقائع التاريخ واتساقها المنطقي ، ومطابقتها لقواعد الاستقراء والاستنباط ، معياراً على صحة الخبر التاريخي .

ولم يكن هذا اتجاهاً جديداً «اخترعه» ابن خلدون ، ولكن المؤرخين المسلمين كانوا قد بدأوا في استخدامه بصورة أو بأخرى منذ وقت مبكر . ولكن أهمية ابن خلدون تتمثل في قدرته على بلورة هذا التطور المنهجي في إطار نظري متكامل . فقد كان المؤرخون قد تجاوزوا منهج الإسناد الذي يعتمد على أخلاقيات الرواة منذ فترة طويلة قبل ابن خلدون ، بل إن «ابن جرير الطبري» نفسه قد استخدم الوثائق والسجلات إلى جانب الإسناد في كتابه الشهير . وعلى مستوى الواقع كان علم التاريخ قد أصبح ممارسة علمية مستقلة عن العلوم الدينية ومناهجها ، ولا سيما علم الحديث .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن ما كتبه ابن خلدون إيذانا بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في مجال الدراسات التاريخية ، ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا . فقد استمرت الأنماط والمناهج القديمة تعربد إلى جانب المناهج الجديدة التي

---

(٦٨) راجع مقدمة ابن خلدون ، أنظر أيضا : علي أومليل ، الخطاب التاريخي ، ص١٢٩ ـ ص ١٧٠ حيث يقدم مناقشة تفصيلية ، من وجهة نظر حديثة ، لآراء ابن خلدون .

(٦٩) مقدمة ابن خلدون ، ص٣٧ ، حيث يقول « وإنما كان التعديل والجرح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة ، بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ، ومقدما عليه . . .) .

تبلورت في كتابات مؤرخ كبير هو تقي الدين المقريزي [٧٠] الذي أبدى اهتماماً واسعاً بجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وثمّة نمط آخر من الكتابة التاريخية يمثله كتاب السخاوي «الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» وهو كتاب تبريري مكرس للدفاع عن علم التاريخ وجدوى الدراسة التاريخية ، كما يتناول تاريخ التاريخ ويقدم محاولة إحصائية لفروع الدراسة التاريخية على النحو الذي بيناه في الصفحات السابقة .

ولم يكن «ابن خلدون» و «السخاوي» فقط مهتمين بهذه النواحي المنهجية والنظرية في الدراسات التاريخية ، وإنما شاركهما في ذلك عدد كبير من المؤرخين الذين ضمّنوا آراءهم في مقدمات كتبهم أو في طيات صفحاتها ، لكن «ابن خلدون» ، و «السخاوي» يتميزان بأنهما خصصا كتابين لهذا الموضوع وحده .

لقد كانت كتابات مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين تجسيدا لمدى التطور الذي أحرزته الكتابة التاريخية ، ومناهج البحث التاريخي ، في التراث العربي الإسلامي . وقد أفرزت تلك الفترة عددا من المؤرخين الأفذاذ ، في مصر والشام ، تجسدت في كتاباتهم فكرة التاريخ ، وعكست أيضا مدى التطور الذي وصل إليه منهج البحث التاريخي .

وفي كتابات كل من بيبرس الدوادار الناصري (٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م) وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) ، وابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) ، وشمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٩م) ، والقلقشندى (٨٢١هـ/١٤١٨م) ، وابن حجر (٨٥٢هـ/١٤٤٩م) والمقريزي (٨٤٥هـ/١٤٤٢م) ، وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ/١٤٦٩ م) وابن إياس (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) .. وغيرهم نجد تراثا متنوعا ومثيرا في أنماط الكتابة التاريخية ، كما نلحظ تفاوت مناهج الدراسة التي تدل على أن المناهج القديمة كانت ما تزال تعربد الى جانب المناهج الجديدة[٧١] ومن البديهي أن هذا التراث المتنوع من الكتابات التاريخية الذي حفظه لنا عصر سلاطين المماليك قد عكس تطور العلم التاريخي من حيث المستوى المعرفي ومناهج البحث والدراسة على حد سواء .

وتكشف دراسة هذا التراث عن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه كانت علاقة جدلية ، فبقدر مساهمة المناهج في بناء العلم بقدر ما كان التطور المعرفي يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه .

---

(٧٠) الواقع أن فكرة التاريخ لدى المقريزي ، ومنهجه في الكتابة التاريخية ، وتحليله الناقد لكافة الظواهر التاريخية ، فضلا عن استيعابه الكامل للأفكار التي طرحها ابن خلدون وقدرته على تطبيقها على نحو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يحققه في كتاب (العبر) كل هذا يجعل من المقريزى علما من أعلام الفكر التاريخي . أنظر على سبيل المثال كتابه اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠ م) .

(٧١) أنظر تحليل مؤلفات أولئك المؤرخين ومناهجهم .

وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، فمنذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) اكتسبت الرواية التاريخية طابع السرد والاجترار ، وتسجيل الشهادات التاريخية ، أو إعادة ما كتبه المؤرخون السابقون بصورة اجترارية . وكان ذلك في حقيقة الأمر انعكاسا لتدهور عام ألمَّ بالحضارة العربية الإسلامية عامة .

●●●

أما التراث التاريخي لدى الغرب الأوربي في معناه الواسع ، فقد ولدت بداياته في الإلياذة والأوديسية المنسوبتين إلى هوميروس . فعلى الرغم من الطابع الخيالي العام في هاتين الملحمتين ، فإن من الممكن لدارسي الحضارة استخدام الإلياذة والأوديسة لتصوير حقبة من حياة الإغريق القدامى دون الوقوع في خطأ فادح . وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد كشفوا عن تاريخية حرب طروادة التي أنشدها هوميروس بالشعر والقصص فإن اختلافات كثيرة ما تزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخي والأثري الحديث .(٧٢) ومن يبحث في هاتين الملحمتين عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيال يجد تاريخا كثيرا ، إذ أن هذه البدايات الأولى لعلم التاريخ عند الإغريق كانت مكبلة بأغلال الأسطورة والخيال . ومن ناحية أخرى ، تكشف هاتان الملحمتان عن أن الآلهة تمارس نوعا من الرقابة على العالم ، وأن نطاق القدرة الإنسانية ينتهي عند حدود معينة ، إذ كانت آلهة الإغريق تتدخل في مسلك الناس الواقعي .(٧٣) وقد أثر ذلك بطبيعة الحال على رؤية الإغريق للتاريخ حتى ظهور كتاب هيرودت .

ولم تبدأ الكتابة التاريخية بمعناها التقليدي قبل توفر شروط معينة في الحياة الثقافية الاجتماعية في الحضارة الإغريقية القديمة ، وهو الأمر الذي لم يحدث قبل القرن السادس قبل الميلاد . وتجلى ذلك واضحا في الكتابات النثرية الراقية ، ونقد الأساطير التي تتعلق ببداية الوجود اليوناني القديم ، ثم تحول الاهتمام إلى الأصول الاجتماعية والمؤسسات التي تنتظم حركة المجتمع ونشاطه . وبمنتصف القرن السادس قبل الميلاد بدأت الرواية التاريخية تظهر في مدينة ملطية Miletus على ساحل أيونيا Ionia(آسيا الصغرى) ففي هذا القرن قدّم كادموس الملطي Cadmus of Miletus نموذج الكتابة النثرية عوضا عن الشعر ، ويعد « كادموس » هذا واحدا من أوائل كتاب النثر الاغريق logoggraphoi (٧٤) وفي الفترة نفسها ظهرت الفلسفة التأملية التي جلبت معها أصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ومن ناحية أخرى ، فإن حركة الاستعمار الاغريقي ، والنشاط التجاري مع الشرق ـ فضلا عن السفر الى بلاد الشرق ـ كلها كانت من العوامل القوية التي ساهمت في تحضر إغريق آسيا الصغرى . وبحر إيجه على السواء . وقد

قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص١١٥ ـ ص٢٦٢ .

(٧٢) لطفي عبدالوهاب ، (عالم هوميروس) ، مجلة عالم الفكر (المجلد الثاني عشر ، اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨١م) ، ص١٣ ـ ص١٥ .

(٧٣) ويلجري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ـ من كونفوشيوس إلى توينبي ، ترجمة ذوقان قرقوط ، (بيروت ١٩٧٣) ، ص٧٨ ـ ص ٧٩ . ومن المهم هنا أن نشير إلى أننا استخدمنا ترجمة أخرى لهذا الكتاب (ترجمة عبدالعزيز جاويد) أشرنا إليها في الصفحات الأولى من هذه الدراسة . وسف تكون إشاراتنا التالية هذه الترجمة .

(٧٤) Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 26.

أدى هذا بدوره إلى تطوير الفكر الإغريقي ومولد الروح النقدية التي تمثل أساس الفلسفة الإغريقية والأدب ، إلى جانب الكتابة التاريخية أيضا . وهذا الاتصال الثقافي استفز حب الاستطلاع ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن هيكاتيوس Hecataeus (ولد سنة ٥٥٠ ق.م) ، أول المؤرخين الإغريق ، قد سافر كثيرا إلى مصر .[٧٥] كما أن استيلاء الفرس على آسيا الصغرى ، أوجد المزيد من فرص الاتصال الثقافي .

وهكذا يمكن اعتبار نشوء الكتابة التاريخية الإغريقية جزءا من الحركة الفكرية الكبرى المعروفة بظهور الكتابات النثرية logographoi وظهور التيارات الفلسفية النقدية بين إغريق أيونيا (آسيا الصغرى) .

على أن الكتابات التاريخية الإغريقية في تلك الفترة لم تخل من التأثير الأسطوري والديني الذي يطبع المرحلة الأولى في تاريخ الكتابة التاريخية لدى كل أمة . ذلك أن هسيود Hesiod كتب التاريخ كما كتب عن الآلهة الاغريقية وحاول أن يجد لها نسبا .

ثم أخذت الاتجاهات الثقافية تتصاعد في مجال الكتابة النثرية . وما بين شجرات النسب التي حاول هيسود أن يثبت بها « أنساب » الآلهة ، وكتاب « التواريخ » الذي كتبه هردوت تمت بسرعة عدة إنجازات في مجال الكتابة التاريخية ، إذ أن خارون لامبساكوس Charonrof Lampsacus وديونيسيوس الملطي ، ألفا في تاريخ الفرس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أن سكيلاكس كارياندا Scylox of Caryanda كتب أول سيرة تاريخية وفي أخريات القرن الخامس قبل الميلاد ألف أنطيوخوس السيراكيوزي Antiochus of Syracuse أول كتاب تاريخ عن الشعوب اليونانية . ويعتبر هيلانكوس ليسبوس Hellanicus Lesbos من أهم المؤرخين القدامى الذين مهدوا لظهور هيرودوت . إذ أنه لم يتعرض لتاريخ بلاد فارس وبلاد اليونان من وجهة نظر اجتماعية واسعة فحسب ولكنه كان أيضا أول مؤرخ إغريقي يدرك أهمية نظام زمني للتتابع التاريخي .[٧٦]

كان أول مؤلف تاريخي شامل كتبه واحد من الاغريق هو كتاب هيرودوت Herodotus of Halicarnasus (٤٨٤ ـ ٤٢٥ قزم تقريبا) . وقد تناول فيه العلاقات الإغريقية ـ الآسيوية من سنة ٥٦٠ ق.م. حتى هزيمة الغزاة الفرس في بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق.م وكانت هذه النقلة في ميدان التأليف التاريخي عند الإغريق ناجمة عن الحروب الفارسية التي أيقظت في عقول الإغريق الاهتمام بحضارات الشعوب الشرقية . وفي هذا السياق ظهرت (تواريخ) هيرودوت ، وهي عبارة عن تسعة كتب في مجلد واحد . وقد نزلت كتب هيرودوت التسعة بالتاريخ إلى أرض البشر ، بعد أن كان التاريخ يبحث في حكومات الآلهة وأنصاف الآلهة .

وتتجلى أهمية هيرودوت الحقيقية في أنه أثبت أن للمعرفة التاريخية مكانة هامة على الرغم من الاتجاهات الثابتة التي لا يدركها التغيير هي وحدها الجديرة بالمعرفة . ومعنى ذلك أن المعرفة التاريخية فاشلة لأنها تهدف إلى معرفة

---

(٧٥) Ibid, P. 27.

(٧٦) Ibid, PP, 27 – 28.

الظواهر التي يدركها التغيير[٧٧] . وقد فرق أرسطو في كتابه « فن الشعر » بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى والتاريخ الذي يصور الأحداث الواقعة ، وأعلى من شأن الشعر على حساب التاريخ .[٧٨]

لقد استخدم هيرودوت كلمة « إيستوريا » اليونانية عنوانا لكتبه التسعة ، وهي كلمة تعني البحث والاستفسار من أجل الفهم ، مما جعل المعنى يتركز على خاصتين أساسيتين من خواص الفكر اليوناني القديم ، هما : المشاهدة والاستفسار . وبهذا نزل هيرودوت بالتاريخ من عالم الآلهة إلى علم إنساني يهتم بالبشر ونشاطهم على الأرض . ولهذا السبب يعتبر إمام الدراسات التاريخية في التراث الأوربي عامة . وكانت كتبه التسعة علامة على النقلة النوعية الهامة في علم التاريخ من جهة ، ومنهج البحث التاريخي من جهة أخرى . ولأن كتاب هيرودوت كان يقوم على موضوع أساسي هو الحروب الفارسية التي كانت تعني بالنسبة له صداما بين حضارتين ، فإنه اهتم بأن يحيط القارىء علما بكل ما يتعلق بهاتين الحضارتين . ولأن هذا العمل قد تم من منظور تاريخي / اجتماعي ، فإنه قدم لنا فيضا من المعلومات الممتعة والمفيدة عن شعوب شرق المتوسط ، وآسيا في القرنين السادس والخامس ق.م.[٧٩]

بيد أن انحياز هيرودوت للديمقراطية الأثينية جعل الجزء الذي كتبه عن الفرس يفتقر الى الدقة ، بحيث اختلطت فيه العناصر التاريخية بغيرها . كما أن الجزء الذي خصصه عن مصر يحفل بالكثير مما يدخل في باب الأسطورة والخرافة [٨٠] بيد أن شهرة هيرودوت باعتباره أول من وضع أصول علم التاريخ في تراث الغرب الأوروبي ستظل باقية ، لأن اهتمامه بالمعطيات الجغرافية ، ومختلف أشكال التنظيم الاجتماعي ، وعادات وتقاليد الشعوب ، أكسب أعماله تلك الأهمية .[٨١]

وثاني المؤرخين الإغريق الكبار ، من حيث أهميته في تاريخ التاريخ ، هو ثوكيديدس Thucydides (٤٥٦ - ٣٩٦ ق.م تقريبا) الذي كتب تاريخ الحرب البلوبونيزية بين أثينا واسبراطة . وقد تناول الأحداث التاريخية بمنهج يختلف كثيرا عن منهج هيرودوت ، إذ أنه تخلى عن رواية القصص المسلية . . وأخذ يروي الأحداث التاريخية على النحو الذي يراه ، كما استبعد الأساطير والخرافات التي تضمنتها كتابات هيرودوت[٨٢] فقد نزع هذا المؤرخ عن الكتابات التاريخية اليونانية غطاء الشعر الملحمي والغيبيات الذي كان يحجبها ، وربط الأحداث التاريخية في علاقة سببية وضعية وسياق إنساني .

---

(٧٧) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ٧٢ - ص ٧٧ ، هردوت يتحدث عن مصر ، ترجم الاحاديث عن اليونانية صقر خفاجة وقدم لها وشرحها أحمد بدوي (دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص ١٥ ،

Finley, M.I., The Portable Greek Historians (New York. 14 th ed., 1972), PP. 1 – 9, Passim.

(٧٨) أرسطو طاليس ، فن الشعر - مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ، ترجمة عن اليونانية عبدالرحمن بدوي (النهضة المصرية ١٩٥٣م) ، ص ٢٦ - ص ٢٧ .

(٧٩) Barnes, A History of Historical Writing, PP. 28 – 29.

(٨٠) أنظر : أحمد بدوي ، هردوت يتحدث عن مصر .

(٨١) ويدجري ، المذاهب الكبرى ؛ ص ٨٢ .

(٨٢) Barnes, OP. Cit., P. 30 .

وأهم أعمال ثوكيديديس كتابه « الحروب البلوبونيزية » (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م) الذي يغطي مجالا يضيق كثيرا عن مجال كتاب هيرودوت . وتتمثل مساهمة ثوكيديديس في تاريخ الكتابة التاريخية في أنه أرسى أسس النقد التاريخي ، وطور منهجا في البحث التاريخي على أساس أن قيمة الدراسة التاريخية لا تكمن في متعة التسلية التي يوفرها السرد القصصي ، وإنما تتمثل في دقة الأسلوب . ويرى البعض أن ثوكيديديس يستحق أن يتبوأ مكانه باعتباره مؤسس علم التاريخ بمعناه النقدي والعلمي[٨٣] فقد أصر على نقد مصادره كما أدخل الوثائق ضمن النسيج الفعلي لروايته . ومن ناحية أخرى أوضح أن إرادة البشر عامل في صنع التاريخ .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتابات ثوكيديدس لم تخل من بعض الأخطاء الفادحة فهو لم يستوعب مفهوم الزمن والتتابع الزمني للأحداث التاريخية ، كما أنه لم يستطع أن يرى الأحداث في سياقها التاريخي الفعلي ، وانما قدم لنا صورا تبدو جامدة مثل الصور الفوتوغرافية .

وآخر المؤرخين الإغريق الكبار هو بوليبيوس (١٩٨ ـ ١١٧ ق.م) . ومن حيث انتاجه في مجال التأليف التاريخي كان متفوقا على ثوكيديديس ، ولكنه كان ندا له في تقرير الحقيقة التاريخية . وكتابه « التاريخ » مؤلف طموح في أربعين جزءا يتناول توسع الإمبراطورية الرومانية وتطور مؤسساتها حتى سنة ١٤٦ ق.م ولأنه كان يونانيا قضى معظم حياته في روما ، فقد تناول تاريخ الإغريق والرومان بروح محايدة .

وتتمثل مساهمة بوليبيوس في تقدم علم التاريخ في أنه سار خطوة أبعد من ثوكيديديس في مجال تطوير منهج البحث التاريخي . ففي الكراسة الثانية عشرة من كتابه نجد أول مقالة كبيرة عن مناهج البحث في علم التاريخ . وربما يكون من المفيد أن نقتبس بعض أفكاره ، إذ يقول « علم التاريخ ذو أبعاد ثلاثة : أولا ، التعامل مع الوثائق المكتوبة وترتيب المادة التي يتم الحصول عليها من هذا السبيل . ثانيا ، الطبوغرافيا ، أي مظاهر المدن والأماكن ووصف الأنهار والموانىء ، وعموما ، الملامح المميزة للبحار والبلاد ، ومسافاتها . ثالثا ، الشئون السياسية ثم يتحدث عن المنهج الذي ينبغي استخدامه حتى تصبح الدراسة التاريخية دراسة مثمرة .[٨٤]

وهكذا أعطى بوليبيوس لتسلسل الأحداث التاريخية قيمة نفعية ، وأبرز أن البشر ، بسلوكهم وأخلاقهم ، أصحاب دور متفوق في صنع التاريخ . وقد أوضح ، أيضا ، أن سيطرة الرومان على العالم تعود إلى أسباب إنسانية بحتة هي « ترتيبهم لأنفسهم عن طريق غارات واسعة ومجازفات خطرة »[٨٥]

---

(٨٣) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٨٤ ؛ Barnes. A Hist., PP. 30 – 31 .

(٨٤) Barnes, A Hist., PP. 33 –34

(٨٥) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩١ - ص ٩٣ .

أما مساهمة الرومان في مجال الفكر التاريخي فلم تكن ذات بال ، ومثلما كان الحال في مختلف جوانب الثقافة والفكر ، كان الإغريق أساتذة الرومان أيضا في مجال الفكر التاريخي . والدليل الواضح على أن تراث الفكر التاريخي الروماني كان فرخا من أفراخ الفكر التاريخي الإغريقي هو أن معظم الكتابات التاريخية الرومانية ، حتى القرن الثاني ق.م ، كتبت باللغة اليونانية .

وفي ظل الامبراطورية الرومانية كانت المعرفة التاريخية تخدم أغراضا عملية بحتة ، إذ كانت الحوليات الرومانية Annals عبارة عن سجلات للأحداث في تتابع زمني ، وتضم أسماء الموظفين والجوائز التي منحت في المسابقات الرياضية المحلية ، والاتفاقيات التي عقدت ، أو الحروب التي تم خوضها . وكان كتّاب تلك الحوليات يدونونها لكي تكون مرجعا لاستقاء المعلومات عند الضرورة .[٨٦] لقد كان الرومان يهتمون بالإنجازات العلمية أكثر من التأملات العقلية ، ولذلك اهتموا بهذه الحوليات .[٨٧]

وكانت حوليات فابيوس بكتور Fabios Pictor (ولد سنة ٢٥٤ ق.م) من أوائل هذه الحوليات الرومانية . بيد أن أول مؤرخ روماني كبير ، بمقاييس عصره ، كان القائد الروماني الشهير يوليوس قيصر (١٠٠ ـ ٤٤ ق.م) الذي تميزت كتاباته بالدقة والوضوح ، كما أن أسلوبه يتسم بالقوة والمباشرة . وكان كتاباه عن « الحرب الأهلية » و « حرب بلاد الغال » من أفضل كتب المذكرات العسكرية في العالم القديم .

أما سالست[٨٨] Gaius Sallustuis Crispus (٨٦ ـ ٣٤ ق.م تقريبا) فيمكن اعتباره التلميذ الروماني لثوكيديديس . ومؤلفه الأساسي عن تاريخ روما (٧٨ ـ ٦٧ ق.م) ضاع ولم يصلنا . ولكن رسالته Monograph عن « مؤامرة كاتيلينا » ورسالته عن « الحرب اليوجورتية » تكشفان عن قدرة في تحليل الشخصيات والقوى السياسية . بيد أنه أهمل العنصر الزمني كما أهمل الجغرافيا بشكل أثر سلبيا على مؤلفاته . وقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق ، وكان له تأثير طاغ على مؤرخي العصور الوسطى .

ويأتي ليفيوس[٨٩] Titus livius (٥٩ ق.م ـ ١٧ م) باعتباره واحدا من أهم المؤرخين الرومان ، بل إن بعض الباحثين يصفونه بأنه مؤرخ روما الوطني ، وبأنه واحد من أعظم رواة القصص في كل العصور . ويتناول مؤلفه ، الذي يعتبر ملحمة نثرية ضخمة ، تطور الدولة الرومانية العالمية . وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الإغريق قدوة له . وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب تمجيد روما وأن يبث في الشباب روح الولاء لروما والتفاني من أجل رفعتها . ويشوبه عدم الدقة في استخدام المصادر ، فقد وجد أمامه عددا من الأساطير فضمنها روايته التاريخية ، وعادت الآلهة

---

(٨٦) بيريل سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (ط. ثانية دار المعارف) ، ص ٢١ .

(٨٧) ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٠ ـ ص ٩١ .

(٨٨) سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٥ ـ ص ٢٦ Barnes, A Hist., PP. 36 – 37

(٨٩) كولينجوود ، فكرة التاريخ ، ص ٨٥ ـ ص ٩١ ، سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٤ ـ ص ٢٥ ، ويدجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٨ ـ ص ٩٩ ، Barnes, OP.Cit., P37

مرة أخرى تطل من روايته وتتدخل في شئون البشر اليومية . وقد اعتمد ليفيوس على كتابات المؤرخين السابقين وعلى السجلات التي حفظت تاريخ روما الباكر ، وكان يعتقد أن نجاحه يعتمد على ما أوتي من صفات الاديب . ولكن الجديد في كتابته أنه سرد تاريخ روما منذ نشأتها ، وكان في ذلك معبرا عن الرومان الذين اعتقدوا أن تاريخهم فقط هو الجدير بالتدوين لثقتهم في تفوقهم على الشعوب الأخرى .

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو تاكيتوس Publius Conelius Tacitus (٥٥ ـ ١٢٠ م تقريبا)[٩٠] الذي كان واحدا من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني Senato وكان من أنصار الجمهورية ، فتميزت كتاباته ضد الإمبراطورية . أهم مؤلفاته « الحوليات » التي تتناول الفترة ما بين موت أغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية ، « والتواريخ » الذي يبدأ بأزمة سنة ٦٩ م ويغطي فترة حكم الأباطرة من أسرة فلافيوس . وبالاضافة الى مؤلفاته (التاريخية) الخالصة ، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل المؤلفات في الانثروبولوجيا الوصفية في تاريخ الثقافة الغربية ، فهو المصدر الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان الاجتماعية في تلك الفترة الباكرة من تاريخهم . ويمكن تقييمه في مكانة وسطى بين بوليبيوس وليفيوس .

ومن خلال متابعة التراث التاريخي للرومان نكتشف أن مؤرخيهم افتقروا إلى الأصالة من ناحية ، وكانوا باستمرار تحت وطأة التراث الإغريقي من ناحية أخرى[٩١] لقد كان المؤرخون الرومان تلامذة حقا على تراث التدوين التاريخي الإغريقي ، بيد أن الموضوع المفضل بالنسبة لهم جميعا كان تاريخ روما ، من حيث أصولها وتوسعها ، ومن حيث سير المشاهير فيها من القادة السياسيين والعسكريين . ولم يلق المؤرخون الرومان بالا إلى تواريخ الشعوب الأخرى .

أما وظيفة التاريخ الثقافية/الاجتماعية ، فكانت تنحصر في إعداد المرء للحياة السياسية والعسكرية . وقد أثر هذا بالضرورة على مناهج الدراسة التاريخية بشكل سلبي ، فقد كان التاريخ نوعا من التأليف الأدبي ويستخدم للقراءة أو السماع . وكان التاريخ في النظام التعليمي الروماني يعد فرعا من فروع البلاغة التي تؤهل الطالب في المدارس العليا للخطابة في المجالس العامة ، أو في ساحات القضاء ومن ثم فإنه يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية باعتبارها أفضل الوسائل لجذب انتباه السامعين .[٩٢]

---

(٩٠) أنظر المقدمة التي كتبها (ماتنجلي H. Mattingly) للترجمة الانجليزية للكتابة Germania, Agricola :
Tacitus, The Agriaola and the Germania, Transl. and edited by H. Mattingly (Penguin Classics,1970).
أنظر أيضا مقدمة كينيث ولسلي في مقدمة الترجمة الانجليزية لكتابة التواريخ :
Tacitus, The Histories, transl and edited by Kennetk Wellesley, (Penguin Classics 1974), Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 38.

(٩١) سمالى ، المؤرخون في العصور الوسطى ص ٢١ **Barnes, op. Cit., PP. 37 – 40,** ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص ٩٩ ـ ص ١٠١ .

(٩٢) سمالى ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢٢ ـ ص ٢٥ ، **Arthur Marwick, The Nature of History, (Macmillan, London 1973), P, 26.**

وقد أثر هذا ، بالضرورة ، على منهج الكتابة التاريخية وأسلوبها ، إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التي تعيَّنَ على المؤرخ أن يتبعها على حساب الحقيقة التاريخية . فقد كان على المؤرخ أن يجعل شخصيات مؤلفه تنطق بخطب أو كلام من تأليفه . كما كان تغيير التواريخ الواردة في النصوص الأصلية أمرا واردا ، فضلا عن أن نسخ المراسيم والمعاهدات كانت غير مستحبة لأنها تكسر النسق البلاغي للقصة التاريخية .

وفي الفترة التي اصطلح على تسميتها « العصور الوسطى الباكرة » ، وهي الفترة التي أعقبت العصر الكلاسيكي ، انحصرت كتابة التاريخ بشكل يكاد يكون تاما في الحوليات التي افتقرت إلى عنصر التحليل ، بل وخلت من السرد التاريخي . وعلى الرغم من أن مؤرخي العصور الوسطى غالبا ما يظهرون إحساسا بالمفهوم التاريخي أعمق مما يصفه بهم مؤرخو الكتابة التاريخية ، فإنهم خلطوا بين أفعال الانسان وأفعال الرب والقديسين . في مؤلفاتهم بشكل مثير [٩٣]

لقد أخذ المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس ، وكانت تلك قيودا شديدة كبلت البحث التاريخي والكتابة التاريخية طوال العصور الوسطى ، ولأنهم لم يتمكنوا من تطوير مناهجهم الخاصة ، فقد أخذوا أشكال وأنماط التدوين التاريخي من الرومان . ولم يكن هناك أي تأليف حقيقي في مجال التاريخ ، وإنما كان ما يحدث نوعا من الجمع وصبّها في قوالب معدة سلفا . ولم يكن مؤرخو العصور الوسطى جاهلين بالحقيقة ولكنهم كانوا يكتبون ما ينبغي عليهم كتابته حتى يوافق النموذج السائد ، سواء من حيث المحتوى المسيحي ، أو من حيث الشكل والنمط الروماني .

لقد كان المؤرخ في العصور الوسطى يجد نفسه أمام تراثين مختلفين في مجال كتابة التاريخ ، فهاهي النماذج والأنماط وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية ، وها هو النظام المسيحي لتقسيم الزمن التاريخي ، وتصوره لحركة التاريخ التي تحكمها العناصر الغيبية وفكرة التاريخ الغائبة في التراث اليهودي/المسيحي من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان القدامى قد ضمّنوا كتاباتهم عناصر غيبية باعتبارها تدخلا من الآلهة الرومانية في شئون البشر ، فإن العناصر الإلهية والغيبية في إطار فكرة التاريخ المسيحية لم تدخل في بناء الرواية التاريخية فحسب ، وإنما كانت تتحكم في سياق الرواية التاريخية أيضا . ذلك أن العناصر الغيبية في المفهوم المسيحي راسخة ومحددة ، فالرب هو خالق العالم و « كاتب » تاريخه أيضا ، ولا بد لأية كتابة تاريخية أن توائم نفسها مع هذا المفهوم الذي تصور أن التاريخ يجري في قالب محدد سلفا ولا دخل للإنسان في صناعته .

---

(٩٣) Ibid., PP. 26 – 27.

وقد تكفل أوغسطين Aurlius Augustinus (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م)[٩٤]، المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، بالترويج لفكرة التاريخ الكاثوليكية ، والتقسيم الزمني المسيحي لتاريخ العالم .[٩٥] لقد قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة قياسا على عمر الانسان بمراحله الست من الطفولة الى الموت ، وقياسا على الأيام الستة التي خلق الله العالم فيها من ناحية أخرى . ولسنا هنا بصدد مناقشة أفكار أوغسطين التي يمكن بحثها في إطار تاريخ فلسفة التاريخ ، بيد أننا نود أن نشير الى أن سيادة مفهوم العصور الستة على الكتابة التاريخية في أوربا العصور الوسطى جعل مؤرخي العصور الوسطى يرزحون تحت وطأة صورة قاتمة للتاريخ الانساني الذي صورته المسيحية على أنه مأساة مستمرة تنتهي بالخلاص . وكان لا بد لأولئك المؤرخين أن يضعوا مؤلفاتهم داخل إطار هذا التصور .

وإذا دققنا النظر في إنجازات مؤرخي العصور الوسطى ، لوجدنا أنهم وجهوا طاقاتهم صوب كتابة ما يمكن أن نسميه « التاريخ المعاصر » ، أي الحوادث الجارية وهم شهودها . إذ أن كتابة تاريخ الماضي كانت بالنسبة لهم مجرد النسخ والجمع . أما الدراسة النقدية للماضي ، فكانت تتطلب من مناهج البحث ما كانوا يفتقرون إليه بسبب طبيعة الفكر السائد في مجال الكتابة التاريخية آنذاك . ففكرة التاريخ المسيحية تقوم على أساس أن الناس في التاريخ يخضعون لسلطة أعلى منهم ، وحركتهم في التاريخ مجرد تنفيذ للإرادة الإلهية[٩٦]

ومن ناحية أخرى كان أهم المؤرخين في العصور الوسطى من رجال الكنيسة الذين تولوا الزمام في الحياة الفكرية عموما ، وكان الرهبان منهم على وجه الخصوص هم الذين كتبوا المؤلفات التاريخية .[٩٧] لقد كانت القرون الأولى من العصور الوسطى فترة ذبول وتدهور في مجال الكتابة التاريخية وفهم الحركة التاريخية ، لذلك فإن من كتبوا التاريخ في تلك الفترة ضمنوا كتاباتهم عناصر غيبية لعبت الدور الحقيقي في توجيه أحداث التاريخ ، كما شابت مؤلفاتهم عناصر ثقافية فجة نتيجة لدخول العناصر الجرمانية في التركيبة السكانية لأوربا .

---

(٩٤) E. K. Rand, Founders of the Middle Ages, (Dover, New York 1957), 241 – 284, Cantor, N, F., The Medieval World, 2nd ed. (Macmillan, London 1968), PP. 37 – 45,

علي الغمراوي ، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط ، ط . ثانية (القاهرة ١٩٨٧ م) ، ص ٦٠ ـ ص ٦٢ ، بيريل سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص٣٨ ـ ص ٤٠ ، ويلجري ، المذاهب الكبرى ، ص١٤٦ ـ ص١٥٣ .

(٩٥) قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة أقسام مثل الأيام التي خلق الله العالم فيها وجعل يوما سابعا يماثل يوم السبت الذي خصصه الرب للراحة . هذه الأقسام التي وضعها أوغسطين هي :

١ ـ من آدم إلى الطوفان .

٢ ـ من الطوفان إلى ابراهيم .

٣ ـ من إبراهيم الى داود .

٤ ـ من داود إلى الأسر البابلي .

٥ ـ من الأسر البابلي إلى تجسد المسيح .

٦ ـ من تجسد المسيح إلى عصر أوغسطين . وقد تصور أوغسطين أن القسم الأخير فترة وسيطة بعدها ينتهي العالم ، ثم يجيء اليوم السابع الذي يذهب فيه البشر إلى السماء .

(٩٦) سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص٣٢ ، ويلجري ، المذاهب الكبرى ، ص ٥٤ ـ ص ١٥٥ .

(٩٧) Barnes, A Hist. of Historical Writing., P. 55.

وقد عرفت العصور الوسطى عدة أنماط من الكتابة التاريخية . فقد وجدت المدونات التاريخية Chronicles لتقوم بدور السجلات ، كما كان عامل الفخر بالماضي حافزا على ظهور تواريخ خاصة ببعض الأسر الإقطاعية ، أو بعض الأديرة ، أو المدن . بيد أن هذا النمط لم يتضمن سوى قدر ضئيل من البحث في شئون الماضي . لأن الدعاية كانت من ضمن العوامل التي حكمت التدوين التاريخي في العصور الوسطى ، فقد تجلت في أشد صورها فظاظة وخشونة في السِّير الملكية ، إذ كانت أية سيرة ملكية عبارة عن مؤلف دعائي بكل معنى الكلمة[٩٨] .

وقد شابت إنجازات مؤرخي العصور الوسطى إلى حد كبير عيوب تتمثل في قلة وسائل البحث وغياب الوعي ، والإيمان الأعمى بروايات شهود العيان . كما أن كتاباتهم ضمت عناصر غيبية اعتقدوا أنها من عوامل صنع التاريخ وجعلوها من وسائط السببية في الظاهرة التاريخية . وعلى الرغم من هذا ، فإنه من العدل أن نشير إلى أن تخلف منهج البحث التاريخي في العصور الوسطى كان ناتجا عن ظروف المجتمع الأوربي نفسه في ذلك الحين ، إذ أن انهيار الحضارة الرومانية ، ثم الغزوات الجرمانية ، قد أنتج العنف والفوضى . وتدهور التعليم بحيث فقد أصالته وحماسته ، أو انتهى تماما في بعض المناطق . كما أن التعصب المسيحي الكاثوليكي تسبب في ضياع الكثير من كنوز التراث الكلاسيكي . ومن جهة أخرى ازدادت صعوبة السفر وخطورته ، فضلا عن ارتفاع تكاليفه بشكل أثر على مجال الفكر وتسبب في ضيق الأفق ،[٩٩] ولذلك انحصر التعليم في الأديرة بشكل يكاد يكون مطلقا وكان الرهبان يتولون كتابة التاريخ ، وقد أثرت انحيازاتهم الدينية وأفكارهم الغيبية على الكتابة التاريخية . وحقيقة أن الأديرة قد أنتجت معظم مؤلفات التراث التاريخي وهي التي صبغت المؤلفات التاريخية الأوربية في العصور الوسطى بهذه الصبغة الغيبية .[١٠٠]

لقد كان مؤرخو العصور الوسطى يكتبون وفي ذهنهم أن يمجدوا الرب . كما أن المناهج التي استخدموها كانت بالضرورة متأثرة بدرجة تعليمهم وعلاقاتهم والمكتبات المتاحة لديهم . كذلك كان كثير منهم يكتبون لإرضاء الأمير أو الأسقف أو الملك الذي يعيشون في كنفه وتحت حمايته ، ويعولون على جمهور صغير العدد من معارف حاميهم أو من معارفهم وأصدقائهم . وكانت هذه الظروف من أهم عوائق انطلاق مناهج البحث التاريخي نحو العلمية والعقلانية ، بالإضافة إلى أن ظروف الحياة الفكرية والعلمية عموما كانت تعوق مثل هذا الانطلاق ، إذ لم تكن ثمة علوم طبيعية متقدمة تدحض أخبار المعجزات من ناحية ، ولم تكن هناك علوم اجتماعية تقوم بنقد عادات وتقاليد المجتمع .[١٠١]

---

(٩٨) أنظر على سبيل المثال السيرة التي كتبها اينهارد Einhard (ت ٨٤٠ م) لشارلمان **Einhard and Notker the Stammer, Two Lives of Charlemagne, (Transl. By lewis thrope, Penguin 1974).**

أنظر بالتفصيل عن : **Royal Biographies**

سيالى ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٦٧ - ص ٨١ . ومن المهم أن نشير إلى أن هذا النمط من التأليف التاريخي قد انتشر فيا بين سنة ٨٠٠ إلى ١١٥٠ م بشكل كبير .

(٩٩) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية - دراسة عن الحملة الأولى ، (الطبعة الثانية - الكويت ١٩٨٨ م) ص ٩٤ - ص ١٠٠ .

(١٠٠) **Barnes, Op. Cit. PP. 56 – 57**

(١٠١) سيالى ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ١٣ - ٢٠ **Barnes, Op. Cit. PP. 97 – 98**

لقد كان منهج البحث لدى مؤرخ العصور الوسطى بسيطا بقدر بساطة مهمته في تدوين تاريخ الفترة التي عاصرها . وقد تعلم من ايسيدور الأشبيلي[١٠٢] أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعني مجرد النسخ من مصادر سابقة . كما أن أوروسيوس[١٠٣] وضع نموذجا قياسيا للتاريخ العالمي رتبه حسب تقسيم أوغسطين للزمن . أما الرسالة ذات الموضوع الواحد ، والسير ، والمراثي فكانت ضمن أنماط التأليف التاريخي التي تأثرت بنماذج قديمة موروثة عن العصور الكلاسيكية .

من ناحية أخرى ، كان اعتماد مؤرخي العصور الوسطى على مصادرهم كبيرا جدا ، ولذلك كانت شخصيات العصور القديمة وشخصيات المقدس تطل علينا من بين سطور المؤلفات التاريخية في العصور الوسطى . أما أصحاب النزعة التأملية من مؤرخي تلك العصور ، فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الديرية أو مدارس الكاتدرائيات ، أو الجامعات حديثة النشأة . وظلت الدراسة التاريخية رهينة هذه الظروف والأطر الجامدة في أوربا العصور الوسطى فترة طويلة .

وفي وسط هذا الجو يقف أوتو أسقف فريزيا Otto of Freising (ت ١١٥٨ م) وحيدا باعتباره مؤرخا له أفكاره عن علم التاريخ ، وهي أفكار أتيح له أن يختبرها في ضوء خبرته العملية . وأهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية وتغلب عليهما النزعة الفلسفية ، أولهما كتاب (المدينتين) الذي كتبه سنة ١١٤٦ م ، وهو عبارة عن مسح مفرط في التشائم لتاريخ العالم تحت تأثير فكر أوغسطين . وفي هذا الكتاب أوضح أوتو الفريزي أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد ألا يكون شيئا غير سجل للجرائم الكريهة . أما كتابه الثاني ، فهو (أعمال فردريك بربروسا) ، وقد عكف على كتابته حتى موته وأكمله سكرتيره رايفين . وهذا الكتاب أكثر تفاؤلا ويؤمن بالسجايا الأخلاقية للدولة .[١٠٤]

. ويمكن للمرء أن يتنقل متنشيا بين صفحات المدونات التاريخية والحوليات التي دونها مؤرخو العصور الوسطى ، باعتبارها مصادر للمادة التاريخية . بيد أنه في الوقت نفسه سوف يفتقد أي وعي أو إدراك عند أولئك المؤرخين بوظيفة التاريخ في خدمة الحاجات الثقافية/الاجتماعية .

وبنهاية القرن الثالث عشر حدثت تطورات جديدة في مجال الكتابة التاريخية[١٠٥] فقد شهد القرن الرابع عشر بداية ظهور المؤلفات التاريخية المكتوبة في اللغات المحلية . وفي هذا القرن أيضا صار المؤرخ العلماني ـ سواء كان

---

(١٠٢) اسمة اللاتيني **Isidorus Hispalensis** (٥٧٠ ـ ٦٣٦ م) . ويعد من أهم المساهمين في التراث الفكرى الغربي من القرن الرابع حتى القرن الثامن . وكان لإيسيدور تأثير كبير على التعليم في أوربا العصور الوسطى الباكرة وعلى الحياة الثقافية بوجه عام . وقد وضع عدة مؤلفات في التاريخ أهمها المدونات **Chronica** التي عرض فيها لتاريخ العالم منذ البداية حتى عصره . أنظر :

Cantor, N.F., The Medievol History – the life and Death of a Civilization, 2nd. ed., (New York 1969), PP. 68 - 9.

علي الغمراوي ، مدخل إلى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١١ ـ ص ١١٢

(١٠٣) عن كتابات أوروسيوس وتأثيرها على مناهج البحث التاريخي في العصور الوسطى انظر : سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٤٨ ـ ص ٥٠ .

(١٠٤) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبده قاسم (دار المعارف ١٩٨٣ م) ج ٢ ، ص ٥٣٧ ـ ص ٥٤٠ .

(١٠٥) سمالي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٧٩ ـ ص ١٨٧ .

جنديا أو موظفا مدنيا ـ في المقدمة نتيجة لعدة تطورات على الصعيد السياسي والفكري والاقتصادي والاجتماعي في أوربا آنذاك . ولدينا أمثلة على ذلك « حياة القديس لويس » التي كتبها جوانفيل Joinville [١٠٦] عن حياة الملك لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة ضد مصر والمنطقة العربية ، والمدونة التاريخية التي كتبها القائد القطالوني (رومان مونتانز Roman Montanz) ومدونة Scalachronicon الأنجلو ـ نورمانية ، ومدونة فروسار Froissartعن الحروب الأنجلو/فرنسية ، ومدونات فيلاني عن فلورنسا . . وغيرها .

ومن ناحية أخرى كان « للحروب الصليبية » أثرها على التدوين التاريخي في أوربا العصور الوسطى .[١٠٧] إذ كان المؤرخون الأوربيون ، حتى عصر الحروب الصليبية ، أسرى الأطر القديمة التي ورثوها عن الرومان ، والمفاهيم الغيبية التي ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وكانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا في الحضارة الغربية الكاثوليكية . وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة ، وما تحفل به من إثارة تحررت كتابة التاريخ في أوربا من الاعتياد على تقليد النماذج القديمة . ولأن العصور القديمة لم تشهد حركة تشبه الحركة الصليبية ، كان عليه أن يبحث عن منهج يناسب القصة الجديدة . وهكذا صارت الكتابة أقل نمطية وأكثر تلقائية ، واتسعت مساحة الفعل الانساني في الرواية التاريخية على الرغم من أن الرب والقديسين كانوا ما يزالون يمارسون أدوارهم الحاسمة في الرواية . كذلك اكتسب مؤرخو الحركة الصليبية خبرات جديدة ، سواء على المستوى المعرفي أو على مستوى المنهج . لأنهم كانوا في حال تُمكنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل .

لقد أنتجت « الحروب الصليبية » كتّابا علمانيين ، كما تطور الأدب العلماني بفضلها . وكان النمط الجديد من التدوين التاريخي الذي أوجدته الحروب الصليبية مناقضا للتدوين التاريخي الكنسي من عدة وجوه ، وفي الوقت نفسه ، كان هذا النمط من التدوين التاريخي يبدأ بتناول الحقائق ويبحث عن الأسباب الوضعية ، بيد أن الوسائط الغيبية في تفسير الحدث التاريخي كانت ما تزال موجودة . وإذا كان الوجود الصليبي في المنطقة العربية قد انتهى بالهزيمة ، فقد كانت لهذه الهزيمة انتصاراتها في ميدان التدوين التاريخي . لقد أخذ مؤرخو الحروب الصليبية ، الذين كتبوا عن الفشل والهزيمة ، يبحثون عن الأسباب . ولم يعد التدهور الأخلاقي والعقاب الإلهي كافيا لتفسير ذلك فقد أخذوا جميعا يفتشون في الأحداث التاريخية نفسها عن السبب البشري والعوامل الإنسانية الكامنة وراء ما يسجلونه من أحداث .[١٠٨]

بيد أن التدوين التاريخي في أواخر العصور الوسطى اعترته تطورات هامة نتيجة لتغير موقف الناس من الماضي . فمن يدرس تراث التدوين التاريخي في العصور الوسطى يجد نفسه وقد اعتاد الحياة في عالم فكري شخصياته كلها تتميز بالاستمرارية من الماضي السحيق حتى الحاضر . ففي صفحات كتب مؤرخي العصور الوسطى يستطيع

---

(١٠٦) انظر نص هذه السيرة الملكية في الترجمة الانجليزية، Joinville and Villedhardouin; Chronicles, of the Crusades, (Penguin Classics, 1973).

(١٠٧) قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية ـ نصوص ووثائق (القاهرة ١٩٨٥ م) ، ص ٢٥ ـ ص ٣٧ .

(١٠٨) سمالى ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٢٧ ـ ص ١٥٨ .

المرء أن يحاور آدم وحواء ، أو يوليوس قيصر ، أو شارلمان ، كما لو كانوا من جيرانه . وهو ما يعني أن الماضي كان موجودا ومستمرا في الحاضر بشكل مثير . وكان ذلك راجعا إلى عدم إدراك صيرورة الزمن من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان راجعا إلى تخلف مناهج البحث التاريخي التي كانت تحاول قولبة الأحداث التاريخية داخل القالب الذي وضعه أوغسطين ، أو الأنماط الكلاسيكية . فقد كان مؤرخ العصور الوسطى يتصور أن الماضي شبيه بالحاضر .

ولكن القرن الرابع عشر شهد انكسار هذه الاستمرارية ، ولم تعد المسألة مسألة انحدار من عصر أفضل الى عصر أسوأ . وفي الكتابات التاريخية ، العلمانية والكنيسة على حد سواء ، كان التناقض بين الماضي والحاضر يبدو كثيرا بحيث يحول دون الاعتقاد باستمرارية الماضي . وكان المؤرخون « الإنسانيون » في القرن الرابع عشر وما بعده هم أصحاب الفضل في هذا الاتجاه .

لقد كان الماضي موجودا بالفعل في كتابات مؤرخي العصور الوسطى ، ولم يكن للمؤرخين الانسانيين فضل اكتشاف الماضي من جديد ، ولكنهم نقلوا علم التاريخ نقلة نوعية هامة عندما حاولوا اتخاذ منظور يعالجون به تاريخ هذا الماضي . ويبدو منظور الإنسانيين للتاريخ خاطئا اليوم ، إذ كانت أحكامهم على الماضي مشوشة ، ولكن مساهمتهم في تطور الدراسة التاريخية ومناهجها كانت كبيرة بالقدر الذي يجعلنا نقرر أن التدوين التاريخي بدأ في القرن الرابع عشر .

ومن المهم أن نشير إلى أن البحث الحديث أثبت أن الفترة التي اصطلح على تسميتها « عصر النهضة » Renaissance قد خرجت تدريجيا من تراث العصور الوسطى ، إذ أنها في حقيقتها كانت حركة إحياء للاهتمام بالثقافة القديمة . وفي معناها العريض يبدو أن تسمية هذه الحركة ، في جانبها الأدبي ، بالإنسانية Humanism يبدو أكثر إقناعا .

ومعنى هذا أن الحركة لم تكن مجرّد (إحياء) للآداب الكلاسيكية ، ولكنها كانت أيضا حركة تعيد الاعتبار لاهتمامات الانسان ومصالحه ورؤيته العلمانية على النحو الذي كان سائدا في الثقافة الكلاسيكية . لقد كانت في أصلها رد فعل عاطفي شاعري في مواجهة الموقف المتزمت الضيق لرجال الكنيسة اللاهوتيين ، ولكنها لم تؤسس أية ثورة في اللاهوت أو الفلسفة الاجتماعية ، وكان الإنسانيون مرحلة وسطى بين (المدرسيين) الذين عرفتهم العصور الوسطى ، والفلاسفة الاجتماعيين والنقاد المحدثين .[١٠٩]

وكان لهذه الرؤية الجديدة تأثيرها البطيء والجزئي على مناهج الدراسة التاريخية . ويكشف تراث التدوين التاريخي في القرن الرابع عشر عن أن ثمة تغير في مناهج البحث وفي المنظور قد بدأ يفرض نفسه ، بيد أن المناهج والأفكار القديمة كانت ما تزال سائدة . فقد استمرت هذه الأفكار القديمة في الوجود أكثر من ألف سنة ، وهي حقبة طويلة في تاريخ الفكر لا يمكن أن تنمحي آثارها ببساطة .

---

(١٠٩) سمال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٨٩ ، Barnes, A Hist., P. 99

وقد كانت هناك فروق كبيرة ونوعية في طبيعة ونوعية إنتاج مؤرخي تلك الفترة ، بيد أنه كانت هناك خصائص أساسية في الكتابة التاريخية . فقد كانت النزعة الإنسانية في مجال كتابة التاريخ تعني في المحل الأول البحث عن النصوص الأصلية الكلاسيكية ، ثم المقارنة والنقد وضبط النصوص المكتشفة . وقد نشأ عن التناول النقدي للنصوص الكلاسيكية إحساس أولي بقيمة الدراسة النقدية للوثائق التاريخية(١١٠) وكانت تلك خطوة هامة في سبيل نقل مناهج البحث في الدراسات التاريخية إلى آفاق أخرى غير الإيمان المطلق بالمصادر على نحو ما كان سائدا في العصور الوسطى .

لقد تحول الإنسانيون مرة أخرى صوب نموذج المؤرخين الكلاسيكيين . وتمثلت أهم إنجازاتهم في المنهج العقلي العلماني الذي عالج مسائل كانت تعد من قبل جزءا من الأسرار الإلهية ، كما أنهم نجحوا في تطوير شكل من أشكال الدراسة النقدية للتاريخ . وعلى أية حال ، فإن فكرة الهوامش التي تحوي الشروح والتعليقات كانت إنجازا لمؤرخي أوربا في العصور الوسطى(١١١) وأغلب الظن أنهم تعلموها من المسلمين . وقد استخدم فالا Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) هذا المنهج لكشف زيف (هبة قنسطنطين) الشهيرة والتي أقامت عليها الكنيسة مزاعمها طوال العصور الوسطى في نزاعها ضد الدولة .

لقد كانت ظروف التطورات التي مرت بها أوربا آنذاك من أهم عوامل تطور الدراسات التاريخية . وذلك أن حركة الكشوف الجغرافية خلقت طلبا على المعلومات الجغرافية والتاريخية أيضا ، كما أن اختراع الطباعة أعطى دفعة قوية لوسائل الاتصال المكتوبة وقد شهدت أوربا ثورة علمية وفكرية أخذت تتصاعد حتى تبلورت في رجل مثل اسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) فقد أدرك المفكرون والعلماء حقيقة التغير واهتموا بها ، وكان لعلم التاريخ شأنه في هذا المجال أيضا(١١٢) وقد أدت التطورات التي لا يتسع المقام لذكرها الى أن أصبح التاريخ لدى الانسانيين (تاريخيا) ، بمعنى أن تركيز الإنسانيين على ثقافة فترة مضت منذ زمن بعيد قد كسر إطار « التاريخ المعاصر » الذي كان مؤرخو العصور الوسطى يحصرون أنفسهم في نطاقه ، كما تخلوا عن تقليد النماذج الكلاسيكية في شكلها ، وإن أخذوا عنها اهتمامها بالإنسان . ومن الواضح أن الإنسانيين أدخلوا على الكتابة التاريخية مزيدا من التحسينات الأدبية والفكرية ، ولكن تقدمهم في مجال مناهج البحث كان أبطأ وأقل كفاءة . فالواقع أنهم كثيرا ما انتهكوا الحقائق التاريخية لكي تتوافق مع مقتضيات البلاغة وسياق الأسلوب الأدبي .

ويمكن ملاحظة الانتقال في الأنماط والمناهج في كتابات المؤرخين الإنسانيين متجسدة في كتابات البرتينوس موساتوس Albertinus Musatus (١٢٦١ - ١٣٣٠ م) ، فقد كتب بلغة لاتينية كلاسيكية ممتازة عن الحوادث التاريخية وزعماء إيطاليا عند مطلع القرن الرابع عشر . ويعتبر (فرانشيسكو بترارك) بمثابة الأب الحقيقي للمذهب

---

(١١٠) Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 99.

(١١١) Arth Marwick, the Nature of History, PP. 28 - 29.

ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص ١٧٩ - ص ١٨٠ .

(١١٢) Arthur Marwick, Op. Cit. P. 28.

الإنساني في أيطاليا ، والكتابة التاريخية الإنسانية أيضا . إذ كان يمسك بأعنة اللغة اللاتينية الكلاسيكية ، وتركز اهتمامه بالتاريخ في مجال الفكر والثقافة . وقد ألف كتابا عن تاريخ روما تناول فيه تراجم حوالي واحد وثلاثين بطلا تقليديا من أبطال التاريخ الروماني ، من رومولوس إلى يوليوس قيصر . وبينما تشكك بترارك كثيرا في أساطير العصور الوسطى ، فإن تشككب في الأساطير الواردة)ضمن الكتابات الكلاسيكية كان أقل حدة ـ وقد شابت منهج (بترارك) في كتابة التاريخ عيوب كثيرة ، ربما كان أبرزها ناتجا عن إيمانه بأن العصور الوسطى كانت (عصور الظلام) التي أعقبت الفترة الرومانية ، كما أنه فسر تاريخ الثقافة الرومانية في ضوء معطيات عصره هو[١١٣] .

أما « نيكولو مكيافيللي » (١٤٦٥ ـ ١٥٢٧ م) فهو أول من كتب التاريخ باللغة الإيطالية ، ويعزى اليه فضل تطبيق منهج جديد في مجال الدراسة التاريخية . إذ أن مناقشاته في مجال علم التاريخ قد قامت على أساس الدليل ، وليس بناء على تميز لرؤية أو نظرية مسبقة . وبغض النظر عن كتاب « الأمير » الذي اشتهر به ، فقد نشر سلسلة من المقالات (سنة ١٥١٦ م) عن المؤرخ الكلاسيكي ليفيوس ، كما كتب عن تاريخ فلورنسا (سنة ١٥٢٢ م) . ويعتبر كتابه الأمير (١٥٢٣ م) كتابا في الفلسفة السياسية وفي التاريخ أيضا ، لأن التاريخ لم يكن علما مستقلا في الغرب الأوربي حتى القرن التاسع عشر . وقد كان هذا الكتاب تقديما واقعيا للتاريخ والسياسة والدبلوماسية في إيطاليا في القرن السادس عشر[١١٤] .

ويمكننا أن نجد في كتابات مكيافيللي تحديا واضحا للأفكار التي حكمت مناهج كتابة التاريخ في العصور الوسطى ، لا سيما في مسألة العلاقة بين الدولة والكنيسة . ومن ناحية أخرى اتفق مكيافيللي مع الإنسانيين في اهتمامه بالدولة السياسية ، ورأيه بعدم مسئولية الساسة أمام رجال الكنيسة ، ولكنه اختلف مع سائر الإنسانيين في عدم اهتمامه بالفرد الذي كان محور الحركة الإنسانية بشكل عام .

والحقيقة أننا لا نستطيع في هذه الدراسة أن نقوم بحصر عام للمؤرخين « الإنسانيين » في أوروبا عامة وفي ايطاليا على وجه الخصوص[١١٥] ، بيد أننا نلاحظ أن الحركة الإنسانية بشكل عام كانت محدودة بحقيقة مؤداها أن هذه الحركة كانت رد فعل للتصور الكاثوليكي للتاريخ ورؤية مؤرخي العصور الوسطى لحركة التاريخ باعتبارها مجرد حركة لتحقيق الخلاص الإنساني . ولذلك كان اتجاه الحركة الإنسانية اتجاها نحو الماضي ، وقدموا قليلا من التطوير في مناهج البحث التاريخي بسبب هذا الموقف الذي كان يشدهم الى الماضي الكلاسيكي الذي رأوه مجيدا وجديرا بالإحياء .

وقد شهدت أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر مشروعات علمية كبرى تمخضت عن تكوين مجموعات ثمينة من الوثائق . وكان توفر هذه المادة « التاريخية » الخام من أهم عوامل بزوغ المناهج النقدية في الدراسات التاريخية .

(١١٣) Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 101 - 102.

(١١٤) Arthur Marwick, The Nature of History. P. 28.

ويلجري ، المذاهب الكبرى ، ص ١٨٠ ـ ١٨٩ .

(١١٥) انظر Barnes, A Hist. of Historical Writing. PP. 101 - 120.

وفي عصر التنوير ، الذي بدأ مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ المؤرخون الفرنسيون يشنون الهجوم الأخير على القاعدة اللاهوتية التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، والتي اكتسبت دفعة إحيائية إبان الصراع بين أنصار الإصلاح الديني وخصومهم ،[١١٦] وقد جسد هذا الاتجاه عدد منهم جاك بوسيه (١٦٢٧ - ١٧٠٤ م) ، ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٧٨ م) .

ومن بين هؤلاء جميعا لا يمكن أن يعزى فضل النقلة النوعية في مناهج البحث التاريخي إلّا لفولتير[١١٧] ، الذي يميل الكثير من المؤرخين إلى اعتباره مؤسس علم التاريخ بمفهومه الحالي في الغرب . وكان أول مؤلف ينشره فولتير هو « تاريخ شارل الثاني عشر Histoire de Charles X11» ملك السويد ونشره سنة ١٧٣١ م . ويعد قطعة ممتازة في التأليف الأدبي . أما أهم مؤلفاته من حيث تطورها المنهجي فهو كتابه « عصر لويس الرابع عشر » الذي يصفه البعض بأنه أول مؤلف تاريخي حديث . ففي هذا الكتاب تخلى فولتير تماما عن النظام الحولى ، وعن نظام التتابع الزمنى للأحداث ، ونظم كتابه على أساس من ترتيب الموضوعات . ومن ناحية أخرى ، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتناول فيها كتابٌ تاريخي حضارة أوربية تناولاً شاملاً .

كما أن مقالته عن عادات الأمم وروحها (١٧٥٦ م) يعتبر عادة أول مؤلف في التاريخ العالمي بالمعنى الحقيقي للمصطلح . وكانت هذه أول مرة يتم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية والحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوربية . وقد وجد فولتير كثيرا ممن ساروا على منهجه من المؤرخين في سائر أنحاء الغرب الأوربي . وقد نبه فولتير وتلاميذه إلى أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، تدخل في صميم عمل المؤرخ شأن أخبار البابوات والملوك .

لقد تقدم مؤرخو القرن الثامن عشر كثيرا صوب التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي بيد أن ثلاثة عيوب أساسية كانت تشوب مناهج البحث في ذلك القرن ، أولها : عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنساني بحيث خلت مؤلفاتهم تماما من أي إحساس بهذا . وثانيها : أنه على الرغم من أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل ، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليلها كانت ضئيلة إلى حد بعيد . بمعنى أن مؤرخي تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة ، لكنهم نادرا ما كانوا يعكفون على تحليلها . وثالثها : أنه حتى في القرن الثامن عشر لم يكن التاريخ مادة دراسية مستقلة في مدارس وجامعات أوربا ، ولم يكن يدرس مستقلا سوى في قصور الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسي .[١١٨]

---

(١١٦) عن تأثير حركة الإصلاح الديني على الكتابة التاريخية انظر :
Barnes, A Hist, of Historical Writing, PP. 121 - 135.

(١١٧) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون (دار المعارف ١٩٨٤ م) ، ص٦٧ - ص٦٨ ،
Arthur Marwick, The Nature of History, P. 30; Barnes, Op. Cit. PP. 152 - 156.

(١١٨) Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 33 - FF.

وكان الهجوم على نقاط الضعف الثلاث في الدراسة التاريخية هو الذي فتح الطريق أمام ظهور التاريخ بمعناه الحديث في أوربا ، أي التاريخ بوصفه دراسة أكاديمية . فبعد الهبّات الثورية الكبرى في القرن الثامن عشر لم يعد من الممكن تصديق القول بأن طبيعة الإنسان لا تتغير ، كما لم يعد أحد يؤمن بثبات المؤسسات الاجتماعية أو جمودها . وكانت مساهمات ليوبولد فون رانكه [119] Leopold Von Ranke (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) في مجال مناهج البحث التاريخي من الصرامة بحيث استوجبت أن يعتمد المؤرخ على المصادر المعاصرة في إعادة تصوير الماضي « كما حدث بالضبط » .

ولكن هذا الموقف الذي اتبعه (رانكه) وتلاميذه كان جزءا من النزعة الرومانسية التي تملكت الأوربيين آنذاك ، وقد أدى إلى إحساس المؤرخين بالفشل حين عجزوا عن تحقيق هذه التوصية . بيد أن هذا الموقف ، من ناحية أخرى ، أحدث تطورا هاما في مناهج البحث بسبب الاصرار على دقة الوثائق . وبدأت الدراسات النقدية للمصادر والوثائق التاريخية تفرض نفسها ضمن مناهج البحث التاريخي . والكثير ممن كتبوا في تاريخ الكتابة التاريخية يعتبرون رانكه ومدرسته مسئولين عن صرامة مناهج البحث في دراسة التاريخ تحقيقا لقول (رانكه) بأن « الصرامة في تقديم الحقائق التاريخية هي القانون الأسمى في كتابة التاريخ » . [120]

ولكل مؤرخي تلك الفترة نقاط الضعف التي تشوبهم بطبيعة الحال ، إذ أن (رانكه) قد ألزم نفسه وتلاميذه . بمجرى ضيق للغاية في دراسة التاريخ من خلال الدبلوماسية وأحوال الساسة والسياسة في مواجهة المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الحضارة ، ثم وقعوا فريسة للصياغات الرومانسية والمبالغة بسبب عدم دقة مناهجهم . ولكن النتاج الأخير لمدرسة « فون رانكه » تتجسد في الحقيقة القائلة بأنه أوجد الدراسة التاريخية بمعناها الحديث [121] ، ولكنها ـ في النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ كانت ما تزال بحاجة إلى التهذيب والتطوير حتى تصل الدراسة التاريخية في الغرب إلى ما وصلت إليه الآن .

وعلى الرغم من تأثير أعمال مدرسة « رانكه » ، وعلى الرغم من حلقات الدراسة والنقاش (السمنار) التي كان « رانكه » يعقدها لتلاميذه في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فإن هذا القرن انصرم دون أن تتحول دراسة التاريخ إلى نظام أكاديمي في أوربا الغربية ، أو في أمريكا الشمالية .

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض المظاهر والدلائل على تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية تمثلت في ظهور عدد من الكتب تتناول طرق البحث في التاريخ ، مثل كتاب « لانجلوا وسينوبوس Charles Seignobos, C.V.

---

(١١٩) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص ٧٤ ـ ص ٨٢ ، ويلجرى ، المذاهب الكبرى ص ٣٠٤ ـ ص ٣٠٦ .
Arthur Marwick, Op. Cit., P. 34; Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 245 - 248.

(١٢٠) Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 36 - 37.

(١٢١) Idid., PP. 38 - 40.

Langloi (١٨٥٤ ـ ١٩٤٢ م) الذي يعده البعض من أفضل ما كتب في طرق البحث التاريخي [١٢٢] والذي ظهر تحت عنوان « مقدمة لدراسة التاريخ » . وأهم ما أكد عليه هذا الكتاب هو ضرورة وجود منهج واع لدراسة التاريخ . وقد تأثر بها كثير من المؤرخين بشكل تبلور في ذلك التطور المثير الذي لحق بمناهج البحث في الدراسات التاريخية في القرن العشرين . [١٢٣]

لقد شهد القرن التاسع عشر ما يمكن أن نسميه ثورة في الدراسات التاريخية ، وقد كانت هذه الثورة هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات التاريخية الحديثة . وأصبح التاريخ علما يهاجم المجهول من أجل الكشف عن غوامضه . وبينما كانت جذور العلم التاريخي في القرن العشرين تضرب بجذورها في عمق تربة مناهج البحث التاريخية التي تم إرساؤها في القرن التاسع عشر ، فإن القرن العشرين شهد أيضا عددا من ردود الفعل تجاه الصياغات الضيقة التي حبس فيها « رانكه » واتباعه التاريخ . وظهرت فروع متعددة جديدة من الدراسات التاريخية ، ولكن كلا من فروع الدراسات التاريخية الجديدة لم يكن « جديدا » تماما كما يحب المتحمسون له أن يعتقدوا ، إذ أن الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر كانت قد طورت بالفعل عددا من الاتجاهات الجديدة في مجال التاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الثقافي ، وتاريخ النظم والمؤسسات الدستورية . وكانت هذه الاتجاهات الجديدة نتاج البيئة الفكرية التي حكمتها ظروف نشوب الحرب العالمية الأولى من جهة ، ونتيجة لعدم اليقين الذي هز مسلمات القرن التاسع عشر نتيجة شيوع النظرية النسبية . [١٢٤]

وليس بوسعنا أن نتابع الاتجاهات الجديدة في فروع الدراسات التاريخية في القرن العشرين في هذه الدراسة ، لأن هذا الموضوع يستحق في تقديرنا أن تخصص له دراسة مستقلة . بيد أننا سنحاول أن نشير إلى أهم الخطوط العريضة لهذا التطور الحاسم في مجال الدراسات التاريخية سواء من حيث التراكم المعرفي ، أو من حيث التطور النوعي المذهل في مناهج البحث في الدراسات التاريخية . [١٢٥]

لقد تسببت الظروف التي حكمت أوربا بعد الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في تحول كثير من المؤرخين إلى تغطية كافة أنشطة الإنسان في الكون باعتبارها مجالات لعمل المؤرخ ، سواء كان ذلك في مجال الفكر ، أو الاقتصاد ، أو الاجتماع أو السياسة ، فضلا عن التاريخ العلمي والتكنولوجي . وقد ساعدهم على ذلك تقدم علوم أخرى تهتم بالدراسات الإنسانية ، مثل علم النفس والعلوم الاجتماعية ، كما حفزهم تقدم التصنيع الحديث ، ونمو الحياة الحضرية ، وتطور المدن فضلا عن تزايد النزعة العلمانية . وظهرت فروع للدراسة التاريخية في كل مجال ، فظهر « التاريخ الفكري » و « تاريخ العلوم » و « تاريخ التكنولوجيا » ، مثلما رسخت أقدام «التاريخ الاقتصادي» و «التاريخ الاجتماعي» و «التاريخ السياسي الدستوري» ، فضلا عن « التاريخ العالمي » و « تاريخ الحضارة

---

(١٢٢) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص١٥٣ ـ ص١٥٦ .

(١٢٣) Arthur Marwick, the Nature of History, PP. 50 - 54.

(١٢٤) Idid, P. 56 -

(١٢٥) Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 291 - 309; Arthur Maruick, The Nature of History, PP. 56 - 71.

والثقافة » . كذلك ظهرت جمعيات متخصصة في فروع الدراسات التاريخية المختلفة . ومن البديهي أن كل فرع قد طور مناهج البحث الخاصة به ، وظهرت أسماء عديدة لمتخصصين لامعين في كل فرع من فروع الدراسات التاريخية .

● ● ●

هذه بشكل عام الخطوط العريضة لتطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية في رحلة طويلة عبر الزمان ، منذ أن بدأ التاريخ يحبو في حجْر الأسطورة حتى صار علْما له مناهجه وفروعه المختلفة وتخصص له الكراسي في الجامعات ، كما تقام له مراكز البحث والأقسام العلمية .

والأمر الذي يلفت الانتباه أن علم التاريخ كان يتطور استجابة لتطور المجتمع نفسه من ناحية ، كما أن تطور مناهج البحث في التاريخ لم يكن يتم بمعزل عن تطور العلم التاريخي نفسه . وثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث التاريخي والتطور المعرفي للعلم نفسه . ومن ناحية أخرى ، كانت المناهج القديمة تظل موجودة إلى جانب المناهج الحديثة في بعض الأحيان طالما كانت تخدم نمطا من أنماط الكتابة التاريخية التي تلبي حاجة ثقافية / اجتماعية . وقد تجلى هذا كله واضحا من خلال متابعتنا للخطوط العامة لتطور الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي ، وفي تراث الغرب الأوربي أيضا .

❊ ❊ ❊

بيوت البرمجيات وأهميتها الاستراتيجية للتنمية في البلدان النامية

عبدالاله الديوه جي*

١ - تمهيد

١ - ما هي البرمجة ؟

اعتمدت المجتمعات البدائية في قديم الزمان على مهارة حرفييها مثل الحداد والنجار والخياط والنسّاج وغيرهم . ويمتلك الحرفي مهارة لا يمتلكها أقرانه من أفراد المجتمع اكتسبها عادة بعد عناء طويل ويدخل لا يكاد يسد رمقه عندما تتلمذ على أستاذه لسنوات طويلة . ويتتلمذ الحرفي عادة بالتقليد والتدريب العملي واكتساب الخبرة والتجربة والخطأ ايضا . ولا يفهم الحرفي ما يكفي من النظريات حول عمله في الهندسة والرياضيات ولا حتى الحساب . ويعمل الحرفي عادة لوحده او ضمن مجموعة صغيرة في إطار زمني محدد وبكلفة متواضعة ثابتة وتكون النتائج مرضية لزبونه عادة .

ويقول هور [1] ان المبرمج يمتلك هذه الايام العديد من صفات الحرفي من قديم الزمان ، فهو يتعلم حرفته من خلال دورات مكثفة قصيرة ضمن مجموعات صغيرة من المبرمجين ويطور مهارته من خلال خبرته بدلا من قراءة الكتب والدوريات العلمية . وهو يدرك القليل من النظريات الرياضية التي تحكم مهنته ، ولا يفضل عادة ان يشرح عمله أو يوثقه الا أنه يستطيع بشكل او بآخر اكمال المهمة المناطة به ضمن الوقت والكلفة المحددتين ارضاء لزبونه .

وفي المجتمعات البدائية في قديم الزمان ايضا اعتمد الناس على نوع آخر من المتخصصين هم السحرة والمشعوذون . وتوجد اختلافات عديدة بين هؤلاء والحرفيين ، اذ يعتمد السحرة والمشعوذون على كتب السحر والشعوذة والمصادر التي لايستطيع غيرهم فهمها

* وزارة الصناعة - ص . ب ٥١٦٠ - بغداد - الجمهورية العراقية

(١) Hoare ,C . A .R Programming : Sorcery or Science ? IEEE Software, Vol. 1 Number 2, April 1984.

او حل ألغازها وعندما يحصل خطأ في تطبيق ما يطلبه هؤلاء من زبائنهم قد ينقلب الامر ويصبح لعنة ضد صاحب الامر وقد يحتاج ذلك الى اعادة الشعائر والتعليمات من البداية واذا لم تنجح العملية ثانية يقع اللوم على الزبون . وفي جميع الحالات فزمرة الشعوذة معصومة من الخطأ . ويمتلك المبرمجون بعضا من صفات هؤلاء ايضا فلدينا تسميات عديدة مثل اخصائي الكومبيوتر ومحلل الأنظمة والمبرمج واخصائي المعلوماتية الا ان المصطلح المناسب لكل هؤلاء هو « المبرمج » ، فجميع الاختصاصات التي تقع في مستويات مختلفة من التعقيد ما هي الا درجات متفاوتة من التجريد للحلول المطلوبة في تطبيق الكومبيوتر في بيئة ما .

البرمجة اذن في الماضي القريب ، ولا زالت حتى الآن بعض الشيء ، مجموعة من المهارات التي يتتلمذ عليها المبرمج دون التعمق الكافي في الاسس العلمية المبنية عليها اساليب حل المسائل ليصبح في احيان عديدة اشبه بالحرفي الذي يقوم بعمله بالمهارة التي اكتسبها بعيدا عن النظريات وهو في احيان أخرى اشبه بالساحر او المشعوذ في اعتماده على أساليب مثالية قد لا تقارب الواقع الذي يحاول معالجته ويتكلم في كثير من الاحيان بلغة لا يفهمها غيره فاذا فشل يوجه لومه الى المستفيد لعدم اتباعه التعاليم الدقيقة التي تتطلبها التكنولوجيا ، واذا نجح فذلك نتيجة حسن تصميمه .

٢ـ١ هندسة البرمجيات

مع تطور التكنولوجيا عبر العصور ظهرت مهنة « المهندس » وهي نوع جديد نسبيا من المهن . فالمهندس يمر عبر تكوينه بمراحل مشابهة لمراحل اعداد الكهنة حيث يدرس الاسس والنظريات العلمية . ثم يتتلمذ بعد ذلك على اساليب تطبيق المهنة مثل الحرفي ويمر في خلال هاتين المرحلتين بالعديد من المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات . وفي مرحلة التلمذة والتطبيق يحتاج للعودة بين الحين والآخر الى تعلم اساليب واسس جديدة تعزز قدراته في الاستجابة الى ما يطلب منه من فعاليات مهنية . وقد تطورت مهنة البرمجة خلال السنوات القليلة الماضية الى مهنة هندسية لا تختلف في طبيعة عملها عن الفروع الهندسية الأخرى .

ففي الولايات المتحدة الامريكية ، على سبيل المثال ، اعتمدت مفردات واضحة للتعليم الجامعي في هندسة البرمجيات في العديد من الجامعات من قبل اهم جمعيتين مهنيتين هما (ACM) و (IEEE) * تؤهلان الخريجين للانطلاق في حقل البرمجة بدرجة مقبولة من الثقة اسوة بالفروع الهندسية الأخرى واعتمدت في مجال العمل اسس علمية اوضح لمواصفات البرمجيات واسلوب تنفيذها بالشكل المقارب لتنفيذ المشاريع الهندسية ، وكذلك الحال بالنسبة للمملكة المتحدة التي تمثل جمعيتان هما (BCS) و (IEE) ** مهنة البرمجة بشكل او بآخر . كما اعطي مؤخرا لقب (Chartered Engineer) لاعضاء جمعية الكومبيوتر البريطانية (BCS) وذلك تأكيدا لطبيعة العمل البرمجي الهندسية .

* ACM. Association for Computing Machinery
IEEE. The Institute of Electrical and Electronics Engineers

** BCS. The British Computer Society
IEE. The Institution of Electrical Engineers

يمر المشروع البرمجي ، الكبير نسبيا ، بمرحلتين رئيستين .

الاولى : مرحلة المواصفات .
والثانية : مرحلة التنفيذ .

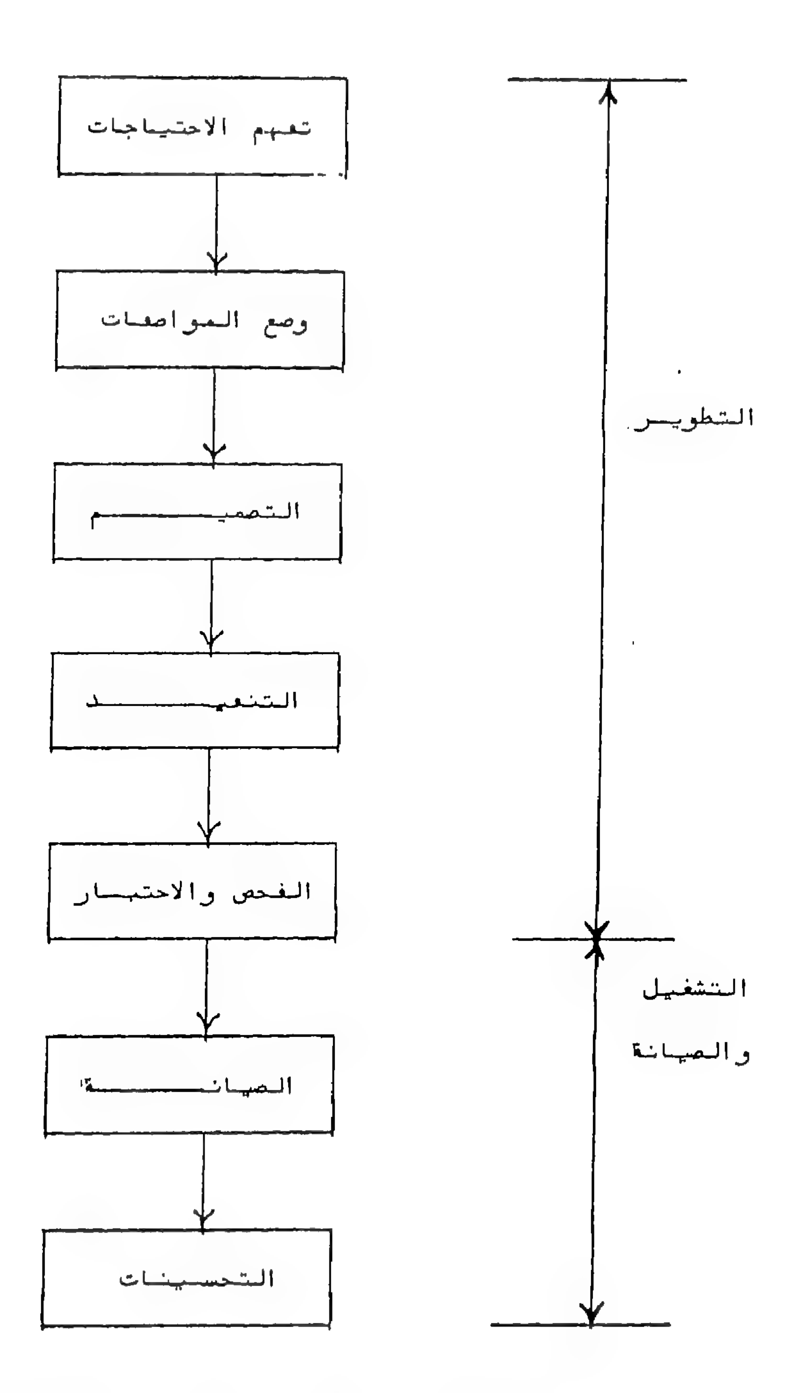
ففي مرحلة المواصفات يقوم رئيس المجموعة البرمجية ، وليكن رئيس المبرمجين ، بوضع المخططات والتصاميم الاولية السريعة لهيكل النظام (المنتوج) الذي يفي بمتطلبات المستفيد (الزبون) وهو بذلك اشبه بالمهندس المعماري الذي يرسم المخططات لشكل المبنى الذي سيصممه . ويقوم رئيس المبرمجين ، وبشكل تدريجي وبالتشاور المستمر مع المستفيد ، بوضع التفاصيل التي يجب ان تدخل في اجزاء هيكل النظام ليصل في النهاية الى تحديد الشكل النهائي للنظام المطلوب .

وللمستفيد حق التساؤل والتدقيق في مراحل التصميم المختلفه لغاية الوصول الى التصميم النهائي الذي يجب ان يصادق عليه قبل الشروع بالتنفيذ . ولا يكتفي المستفيد عادة بقراءة المواصفات الموضوعة باسلوب معقد وتفصيلي بالشكل الذي تعود المبرمج ان يضع به مواصفات برامجه . فعلى غرار التصميم المعماري يريد الزبون ان يرى النماذج الاولية والرسومات التي تقرب اليه التصميم بالشكل الذي يفهمه الفرد غير المتخصص . وهذا ما كان ينقص مهنة البرمجة الى حد كبير لحين ظهور وسائل بناء النماذج الريادية واللغات المتطورة لتصميم النظام .

اما مرحلة التنفيذ فتعتمد على التصميم المصادق عليه والمفحوصة اجزاؤه بشكل مترابط وبدقة رياضية واضحة . وهذه الأجزاء قد تكون جاهزة الصنع او مصممة خصيصا لخصوصيات النظام تعتمد على اسس منصوص عليها في ادبيات المهنة . وعلى رئيس المجموعة ان يقدر حجم العمل البرمجي المطلوب من ناحيتي الجهد والكلفة وقابليات الموارد المطلوبة من منظومة الكومبيوتر (جداول الكميات) والتوقيتات المتوقعة . بعد كل ذلك يبدأ العمل التنفيذي الذي قد تتولاه مجموعات صغيرة او كبيرة من المبرمجين ، او قد يعطى على شكل مقاولات ثانوية لجهات مختلفة حسب التخصص على غرار العمل الهندسي للمقاولات والتنفيذ . وعلى رئيس المجموعة (المعماري) والمستفيد ان يصادقا على مراحل اكمال العمل اولا بأول ضمن اطار المعايير المتبعة عادة في شهادات استلام العمل الهندسي .

ان هاتين المرحلتين (التصميم والتنفيذ) مرحلتان تطويريتان تعقبهما مرحلة تشغيل النظام ومن ثم صيانته وتحسينه حسب الحاجة . فصيانة النظام البرمجي لا تختلف كثيرا عن صيانة الأجهزة والمعدات والمباني فهي مطلوبة لسببين ، الاول عند اكتشاف الاخطاء التصميمية في وقت لاحق من الاستلام ، والثاني عند حدوث تغييرات في مدخلات النظام من البيانات بناء على متطلبات المستفيد او جهات تشريعية خارجية فارضة .

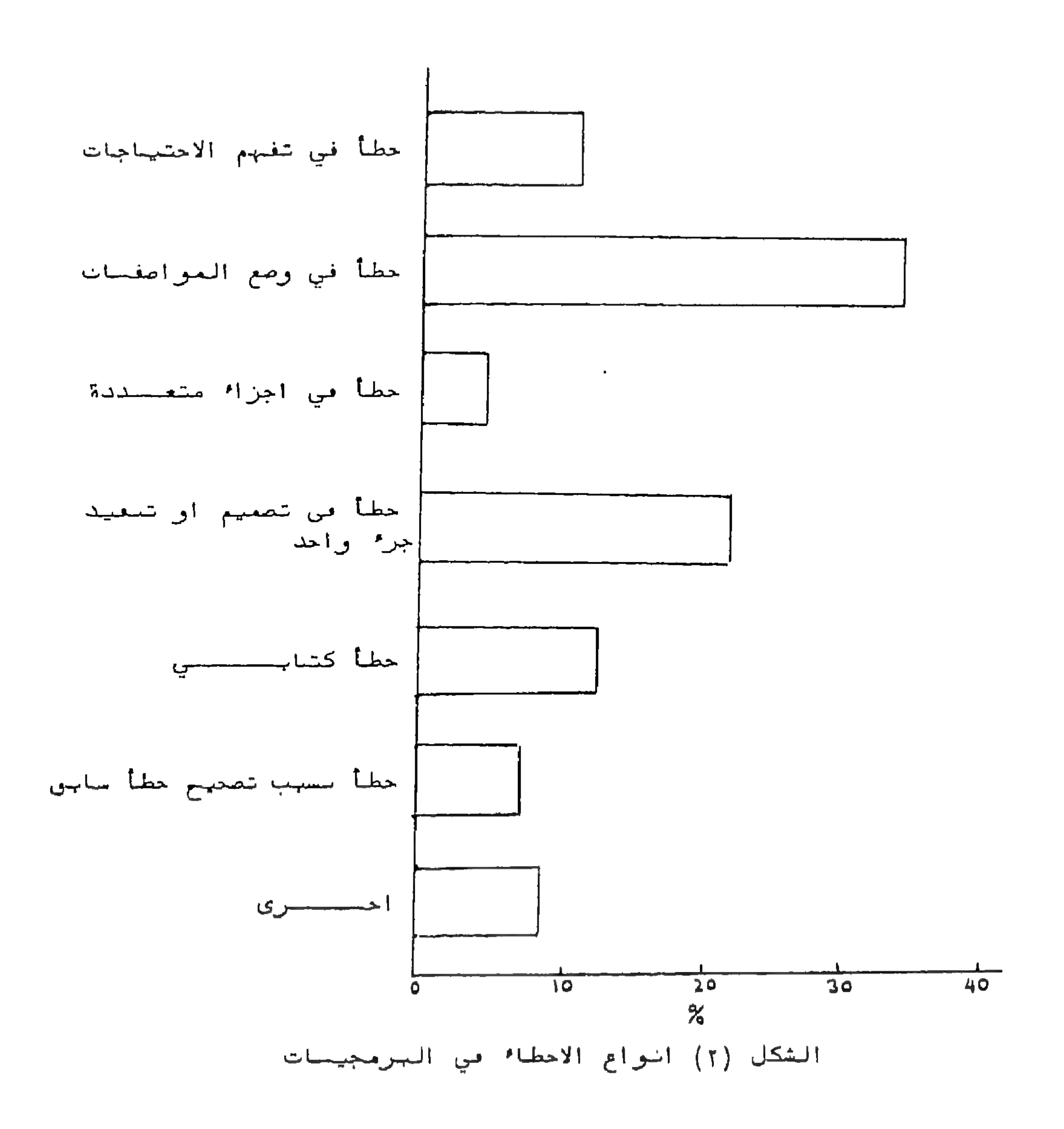
والنظام البرمجي الكبير لا يمكن اختباره اختبارا كاملا بالوسائل البرمجية المتاحة حاليا فهو بذلك اعقد من النظم الهندسية التقليدية الأخرى كالمباني والمعدات . وهو يمتاز بالمقابل في ان اجزاءه لاتستهلك بنفس الطرق المعروفة التي تستهلك فيها الاجزاء الميكانيكية او الانشائية للمنتجات الهندسية الأخرى ويطلق على مجمل المراحل هذه الدورة الحياتية للبرمجيات والذي يبين الشكل (١) النموذج التقليدي لها .



الشكل (١) الدورة الحياتية التقليدية للبرمجيات

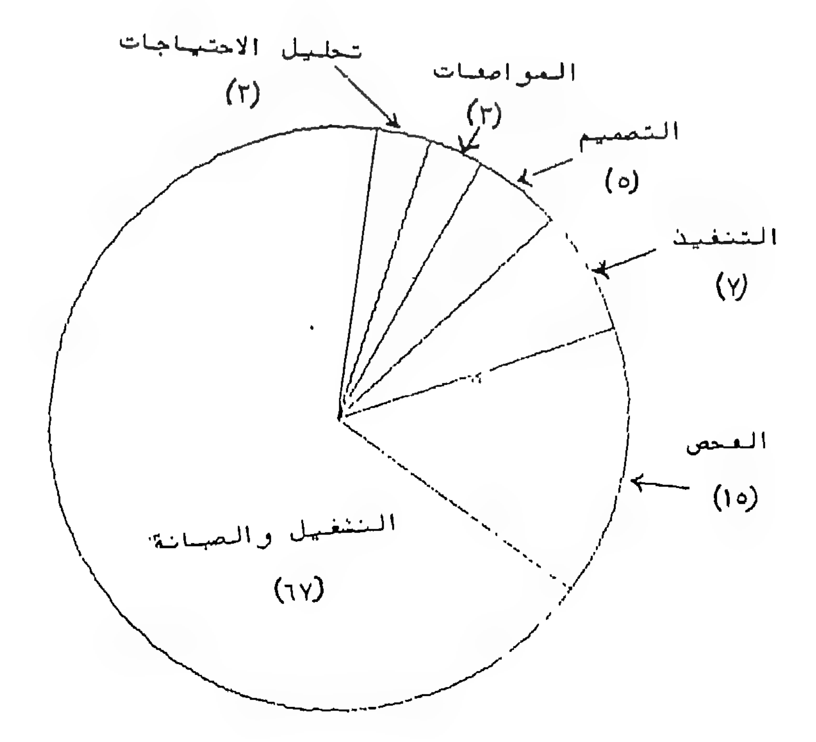
وفي دراسة قام بها راما مورثي وآخرون [٢] يتبين ان مصادر الاخطاء في الدورة الحياتية للبرمجيات يمكن تقسيمها كما في الشكل (٢) حيث يتبين ان الأخطاء الناتجة في مرحلة المواصفات تحظى بأكبر النسب تليها مرحلة تنفيذ البرامج على مستوى الاجزاء الاساسية المختلفة للنظام البرمجي .

اما بالنسبة لتوزيع الكلف على الدورة الحياتية فيبين الشكل (٣) هذه النسب . ومن الواضح ان نسبتي التشغيل والصيانة تحظيان بالحصة الكبرى من مجمل كلفة النظام التجريبي .



الشكل (٢) انواع الاخطاء في البرمجيات

(٢) Ramamoorthy, C.V. et al, Software Engineering, **IEEE Computer, Vol. 17, Number 10, October 1984.**



الشكل (٣) كلف مراحل البرمجيات بالاسلوب التقليدي

وقد ظهرت خلال السنوات القليلة الماضية اسس وتسهيلات برمجية غيّرت من فلسفة مراحل الدورة الحياتية للبرمجيات وركزت بالدرجة الاساسية على مفهوم النموذج الريادي (prototype) للنظام البرمجي مما قرّب العمل البرمجي الى حد كبير من العمل الهندسي .

والشكل (٤) يبين المقارنة ما بين المراحل التقليدية للدورة الحياتية للبرمجيات والمراحل التي تعتمد النموذج الريادي . واهم ما يلاحظ في اسلوب النموذج الريادي المرحلة المبكرة لاكتشاف الاخطاء التي تبدأ بعد اكمال المصمم للنموذج بينما تؤجل هذه المرحلة لحين قيام المستفيد باجراء فحوصات القبول في مرحلة متأخرة من المشروع .

والمؤمل ان تركز الابحاث والدراسات على مرحلة الصيانة حيث تدل الاحصائيات الحالية ان اكثر من ٦٠٪ من كلفة الدورة الحياتية للبرمجيات تعزى الى الصيانة وعلى خلاف ما هو متعارف عليه في مفهوم الصيانة للأجهزة والمعدات فان الصيانة البرمجية تتضمن عادة نسبة لا بأس بها من التحويرات والتطويرات والمتبقي هو لتصليحات البرامج والنظام . يبين الشكل (٥) هذه النسب وتفاصيل بعضها لتوضيح الصورة .

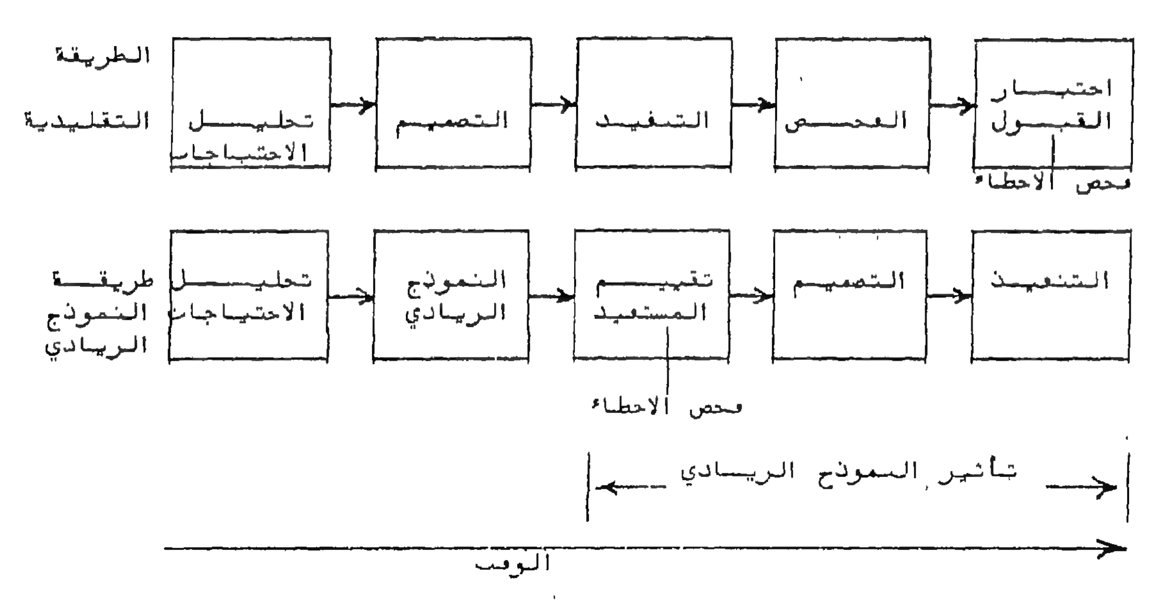
١ـ ٣ حال واقع تكنولوجيا البرمجيات

بعد هذا التمهيد السريع للبرمجة وهندسة البرمجيات للوقوف على هذه المهنة التي لا تعتبر معروفة بتفاصيلها الدقيقة للعديد من المهندسين وحتى العاملين في حقل الكومبيوتر ، ما هو إذن حال الواقع لهذه التكنولوجيا في الدول المتقدمة ؟ وهل يمكننا الاستفادة من تجارب هذه الدول لاقامة حالة مشابهة او حالة خاصة بنا ؟ وهل ستعاني هذه الصناعة ما عانته الصناعة التقليدية في الدول النامية ؟

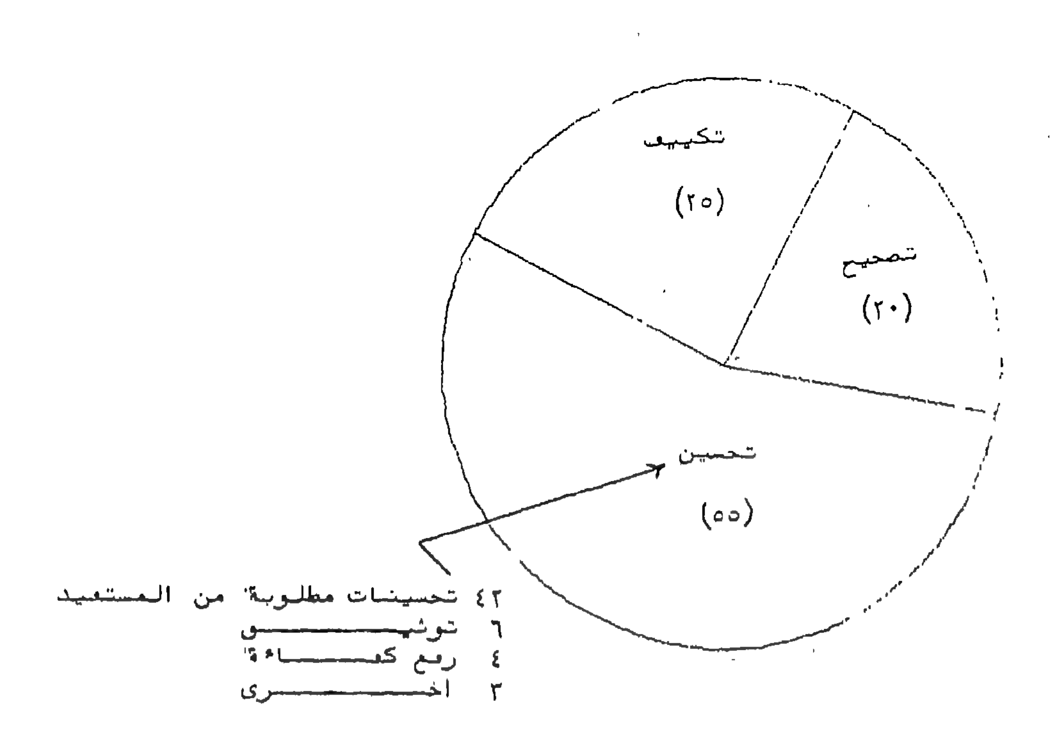
يمكن تقسيم الوحدات الانتاجية في الدول المتقدمة الى مجموعات أساسية ثلاث :ـ

المجموعة الاولى : الشركات المصنعة للأجهزة وهي تلك الشركات التي تصنع الكومبيوترات بكافة احجامها وتركز هذه المجموعة من الشركات بالدرجة الاولى على البرمجيات الاساسية لمنظوماتها كأنظمة التشغيل واللغات البرمجية وقواعد البيانات وبرمجيات الاتصالات . وتقوم بعض هذه الشركات وبالأخص الكبيرة منها بتطوير برمجيات بعض التطبيقات القياسية .

المجموعة الثانية : بيوت البرمجيات التقليدية التي نمت في الستينيات مع نمو استخدام الكومبيوترات الضخمة والمتوسطة واستطاعت من خلال توفير بعض البرمجيات التطبيقية ابتداء ومن ثم بعض البرمجيات الاساسية كبرمجيات قواعد البيانات ، تكوين جسور كفية ما بين الشركات المصنعة للأجهزة وما بين المستفيدين . ونجحت هذه الشركات خلال الستينات والسبعينات من خلال التعامل مع المستفيد في حالتين رئيستين : الحالة الاولى عندما يكون النظام البرمجي الذي يرغب المستفيد في تنفيذه معقدا لا يمتلك المستفيد الخبرة الكافية لتنفيذه تنفيذا مباشرا ، والحالة الثانية عندما يكون المستفيد مستخدما واسعا للكومبيوتر لا يمكنه تنفيذ خططه الطموحة في البرمجيات بموارده البشرية الذاتية فيضطر الى احالة بعض الاجزاء البرمجية كمقاولات الى بيوت البرمجة .



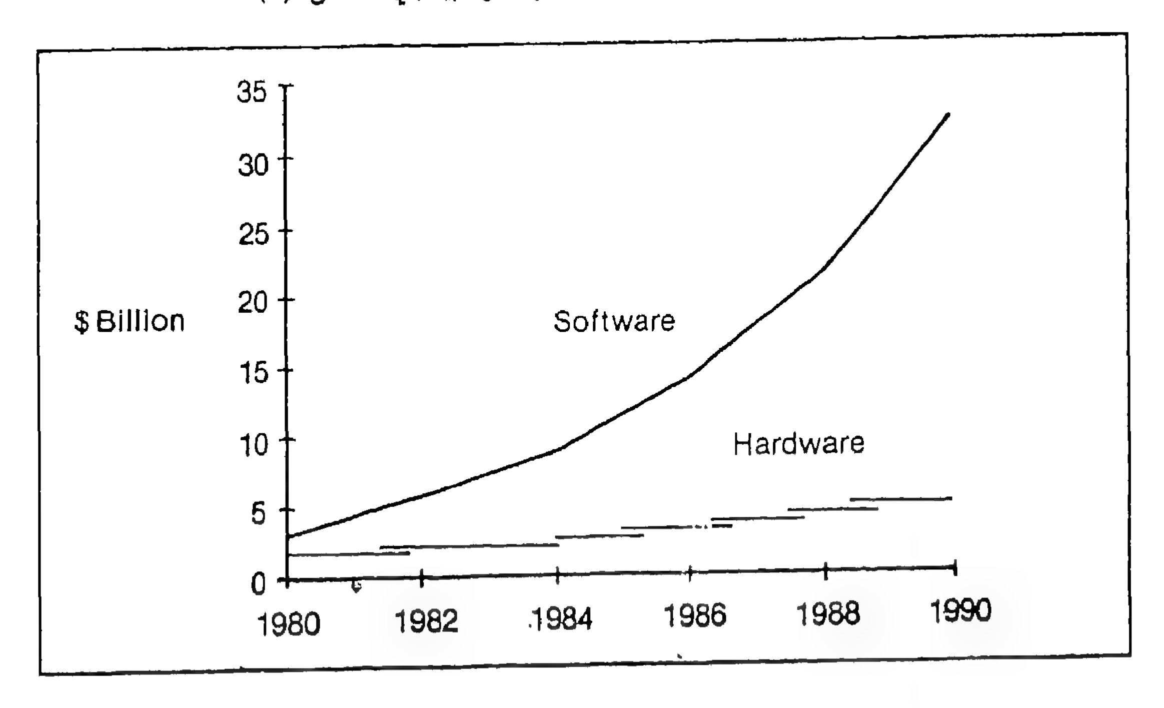
شكل (٤) مقارنة اسلوبي تطوير البرمجيات



الشكل (٥) نسب الكلف باسلوب النموذج

المجموعة الثالثة : وهي الشركات الصغيرة التي نمت مع نمو وانتشار المايكروكومبيوتر واصبحت نشاطا اساسيا لا يستهان به في العديد من الدول الصناعية وبالأخص الولايات المتحدة الامريكية . وتتخصص مثل هذه الشركات بانواع البرمجيات الاساسية والتطبيقية المستخدمة على المايكروكومبيوتر كأنظمة التشغيل واللغات وما يطلق عليه التطبيقات الشاملة (generic applications) مثل معالجة الكلمات ومعالجة الجداول والرسوم البيانية وقواعد البيانات . ويطلق على هذا الجزء من سوق البرمجيات بالسوق الأفقي لانه يتعامل مع مقطع واسع من الانشطة المختلفة ويقدم خدمة قياسية مطلوبة لكافة هذه الأنشطة .. وهناك شركات برمجيات اخرى متخصصة ببعض التطبيقات المتخصصة لانشطة محددة مطلوبة في سوق البرمجيات ولانها لاتهم مقطعا واسعا ومتنوعا من المستعملين لذا يطلق على هذا السوق بالسوق العمودي .

لقد تطورت الكومبيوتر باستخداماتها وأجهزتها المختلفة وزادت قابليات الالكترونيات ومعوليتها وصغر حجمها ورخص ثمنها الا ان كلف البرمجيات لا زالت عالية حيث بينت احدى الدراسات [٣] ان كلفة البرمجيات الى كلفة مشاريع انظمة الكومبيوتر بلغت عام ١٩٨٤ بحدود ٧٠٪ في الولايات المتحدة وان من المتوقع ان تكون هذه النسبة بحدود ٨٥٪ عام ١٩٩٠ كما هو مبين في الشكل (٦) .



الشكل (٦) من المتوقع ان ترتفع كلف البرمجيات مقارنة بالمعدات من ٧٠٪ الى ٨٥٪ خلال العقد ١٩٨٠ — ١٩٩٠

(٣) Barbacci, M.R. et al, The Software Engineering Institute: Bridging Practice and Potential, IEEE Software, Vol, 2 number 6, November 1985

والجدير بالذكر ان الشركات الكبيرة للبرمجيات (المجموعة الثانية) تمر الآن في مرحلة اعادة النظر في طبيعة اعمالها لتتناسب مع الثورة التكنولوجية التي احدثتها المايكروكومبيوتر وبدأ عدد هذه الشركات بالنقصان بينما حدثت زيادة كبيرة في عدد الشركات الصغيرة والمتوسطة (المجموعة الثالثة) بسبب انتشار المايكروكومبيوتر .

وهذه الشركات الصغيرة يمكن تقسيمها الى ثلاثة انواع اساسية :ـ

النوع الاول : شركات البرمجيات البحته كأنظمة التشغيل ولغات البرمجة ومعظمها شركات امريكية قلما نجد شركات مشابهة لها خارج الولايات المتحدة الامريكية .

النوع الثاني : شركات البرمجيات التطبيقية الشاملة التي تستهدف السوق الافقي للبرمجيات وتعنى ببرمجيات معالجة النصوص وقواعد البيانات ومعالجة الجداول والرسوم البيانية ومعظمها ايضا امريكية الجنسية .

النوع الثالث : شركات البرمجيات التطبيقية المتخصصة التي تستهدف الاسواق العمودية للبرمجيات من خلال تصميم وتسويق برمجيات لتطبيقات عملية في الهندسة والتصاميم والتطبيقات الادارية والصناعية كادارة الصيانة والانتاج والرسم الهندسي والتحليلات الاقتصادية والاحصائية وتطبيقات التوثيق وغيرها . وعلى عكس النوعين الاول والثاني فان اعدادا من هذه الشركات متواجدة في دول متقدمة اضافة الى الولايات المتحدة الامريكية وقد برزت بعضها في دول اوروبا الغربية وبعض الدول الاكثر تقدما من بين الدول النامية .

٢ـ البرمجة والبرمجيات في الوطن العربي

٢-١ خلفية

لم يصاحب دخول الكومبيوتر في بعض البلدان العربية مع بداية الستينيات اية مفاجآت او انجازات مدهشة . حاله في ذلك حال العديد من الوسائل التقنية التي دخلت مجتمعات نامية مشابهة [٤] . والحاجة لادخال الكومبيوتر في معظم البلدان العربية آت في كثير من الحالات نتيجة معاناة واخفاقات في التنظيمات الادارية واساليب العمل اكثر مما هو بسبب التطور الطبيعي والاقتصادي للحاجة والتفاعل مع الطلب .

وكانت دول المغرب العربي ، وبالاخص الجزائر وليبيا ، من الدول التي دخلتها الكومبيوتر من خلال شركات البترول الاجنبية العاملة فيها . وكذلك بعض دول المشرق العربي مثل العراق والمملكة العربية السعودية والكويت . وفيما عدا ذلك فقد كانت البنوك الاجنبية والمحلية وبالاخص في لبنان من اولى القطاعات التي اعتمدت الكومبيوتر في اعمالها .

اما الدول العربية الأخرى مثل مصر وبعد ذلك العراق فقد كان للقطاع الحكومي دوره الواسع في ادخال الكومبيوتر بسبب تضخم العمليات المركزية التي تقوم بها الادارات كالاحصاءات والفواتير والعمليات المالية عموما . وتبع ذلك حاجة بعض الجامعات والكليات العلمية الى الكومبيوتر ، فكانت الجامعة الامريكية في بيروت من اولى الجامعات التي انشأت مركزا للكومبيوتر وكذلك جامعة القاهرة وكلية الهندسة في جامعة بغداد وكلية البترول والمعادن في المملكة العربية السعودية .

(٤) الدبوه جي ، عبد الاله ، مفاهيم حول تقنية المعلومات ، دراسة موسعة سيتم نشرها في مجلة عالم الفكر الكويتية خلال سنة ١٩٨٩ .

وكانت الدول تقارن في الستينيات باعداد الكومبيوترات المنصوبة فيها كمعيار لتقدمها في هذا المجال وكانت الدول العربية التي في المقدمة من ناحية العدد والاستخدام الجزائر والمملكة العربية السعودية والعراق تتبعها بعد ذلك مصر باتجاه مختلف بعض الشيء .

اما الآن وبعد انتشار المايكروكومبيوتر وأحجام مختلفة من الأجهزة والوسائل فلا يمكن اعتماد المؤشر العددي كوسيلة لقياس انتشار تكنولوجيا الكومبيوتر او تقييم استخداماته .

لقد تخلف عن ركب الثورة الصناعية معظم الدول النامية ومنها الدول العربية وتخلفت هذه الدول ايضا عن الثورة الاولى للكومبيوتر التي مر بها العالم المتقدم في الستينيات والسبعينيات.. ومع تصاعد الثورة الثانية للكومبيوتر (ثورة المايكروكومبيوتر) قد يكون لدى بعض هذه الدول فرصة حقيقية للحاق اذا ما تفاعلت مع الثورة الجديدة بشكل مختلف وفي الوقت المناسب .

لقد حققت بعض الدول العربية نجاحات جزئية عندما اتاحت للاخصائيين والافراد عموما التعامل مع وسائل المايكروكومبيوتر بحرية تامة ووفرت لهم المستلزمات الضرورية لتطوير هذه الوسائل وتكييفها للحاجات المحلية . فظهرت ابداعات جديرة بالتشجيع في بعض البلدان العربية كالاردن والكويت والبحرين في مجال تعريب المايكروكومبيوتر . وعلى مستوى الكومبيوترات الاكبر حجما حققت بعض الدول العربية كتونس والمغرب ومصر والعراق انجازات متواضعة في مجال التطبيقات العامة .

وتندرج غالبية التطبيقات السائدة في الوطن العربي ضمن احد الانواع الآتية :-

أ- التطبيقات الحسابية والادارية .

ب - التطبيقات الاحصائية .

ج - التطبيقات التجميعية والرقابية .

د - التطبيقات العلمية والتعليمية .

٢-٢ التعليم

يرتبط الكومبيوتر بالتعليم من جانبين : الجانب الاول وهو الواضح هو تعليم الكومبيوتر ومكوناته وبرمجته في المدارس بمختلف مستوياتها . والجانب الثاني استخدام الكومبيوتر كوسيلة للتعليم والتعلم في كافة الموضوعات وعلى جميع المستويات ويهمنا في هذه الدراسة الجانب الاول فقد جرت محاولات متواضعة لتجربة تعليم الكومبيوتر والبرمجة في المراحل الاعدادية والثانوية في بعض البلدان العربية الا ان مثل هذه التجارب لم تحقق التواصل المنشود لتقييمها . ولم يستطع الكادر التعليمي التقليدي التأقلم على تدريس الموضوع الجديد فاصبحت مثل هذه التجارب رهينة توفر بعض الاختصاصين من خارج الكادر التعليمي وهو امر غير مقبول في تجارب الدول المتقدمة .

ليس من الصعوبة في الوقت الحاضر تخيل لغات برمجية تربوية لتعليم حل المسائل للطلاب بمختلف الاعمار فهناك تجارب عالمية حققت النجاح يمكن الاستفادة منها وتطويرها لتلائم الطالب العربي . وبالرغم من ان لغات البرمجة في الحياة العملية لايشترط بها ان تكون باللغة العربية الا ان لغات البرمجة التعليمية وخاصة بالمراحل التعليمية الاولى ، يجب ان تكون باللغة العربية . ولا يتوقع من طلاب المدارس ممن هم دون سن الرابعة عشرة ، مثلا ، ان يتعلموا حل المسائل بلغة اجنبية فوجود لغات على نمط لغة لوغو وبيسك وبرولوك باللغة العربية للاغراض التعليمية امر ضروري لترسيخ مفاهيم وتراكيب تقنية المعلومات لدى

الطلاب . ويأتي دور المقررات والكتب المنهجية في مثل هذه الحالات ليكون العون الرئيس للتدريسي في استنباط الامثلة . ويسبق ذلك برامج تدريبية للتدريسيين متزامنة مع البدء بالمقررات الجديدة . فبدون ذلك ستكون الهوة واسعة ما بين التدريسي والكومبيوتر من جهة وما بين الطالب والكومبيوتر من جهة ثانية . وخلافا للمقررات التعليمية الاخرى التي يمكن تدريسها دون اجهزة مختبرية لا يمكن تدريس موضوع الكومبيوتر دون الاعتماد على جهاز مايكروكومبيوتر شخصي على الاقل ، وعلى شبكة مترابطة الكومبيوترات مختلفة الاحجام في الحالات المثالية .

٢ـ٣ المهنة والاختصاصات العاملة في البرمجيات

صاحب دخول الكومبيوتر في البلدان العربية في الستينيات ولحد الآن ظواهر خاصة بالمنطقة العربية الى حد كبير قد لا يوجد لها مشابه في البلدان الاخرى .

اكثر الذين اتجهوا للعمل في مجال الكومبيوتر من الشباب العربي كانوا ولا زالوا الى حد كبير ، من الاختصاصات الهندسية والعلمية بالرغم من ان النسبة الكبرى من التطبيقات السائدة في المنطقة كانت ولا زالت ، تطبيقات ادارية وتجارية . ويعود هذا الاستقطاب الى ان خريجي الاختصاصات الهندسية والعلمية العربية هم اكثر الخريجين ممارسة لامرين مهمين هما من مستلزمات العمل على الكومبيوتر ، الاول : اتقانهم اللغة الانكليزية مقارنة بغيرهم من الخريجين . والثاني : تطبعهم على المنطق الرياضي التحليلي في تعاملهم مع الموضوعات التي درسوها في الجامعات .

فالمراقب لحقل العمل في الكومبيوتر في معظم البلدان العربية في الستينات والسبعينات على وجه الخصوص يرى العديد من المهندسين وخريجي فروع الفيزياء والرياضيات يعملون كمبرمجين لانظمة حسابية وادارية والذي حظي منهم بفرص افضل اتجه نحو برمجيات المنظومة واستطاع ان يدخل في تفاصيل برامج التشغيل واللغات البرمجية الا ان عدد هؤلاء قليل . وقد اختلف هذا الاتجاه نسبيا في الثمانينات بعد ظهور المايكروكومبيوتر الا انه لم يتغير كليا . فالذي حصل ان عددا من الجامعات العربية اصبحت تخرج اعدادا محدودة من اقسام علم الكومبيوتر الذي بدأ ينتشر بشكل ملحوظ في بعض البلدان العربية الا انه لا زال غائبا في البلدان العربية الاخرى .

نتج جراء هذا الواقع امران :ـ

الاول : الهدر الواضح في التخصصات التي يمتلكها خريجو الدراسات الهندسية والعلمية في اختصاصات ذات علاقة غير مباشرة بالكومبيوتر اذ لا تتاح لهم ممارسة ما تعلموه في الجامعات بعد التخرج .

الثاني : بعد هذه التخصصات عن الخلفية الاكاديمية المطلوبة لتصميم التطبيقات الادارية والتجارية وحتى الهندسية مما ادى الى فقدان المستفيدين الثقة في التعامل مع الكومبيوتر لصعوبة التفاهم مع المبرمجين ومحللي الانظمة .

وقد دفع جميع الاطراف ثمنا باهظا لهذه الحالة ، فالادارات العليا لم تحقق الاهداف التي من اجلها ادخلت الكومبيوتر في مؤسساتها ، او على الاقل لم تحققها في فترات زمنية معقولة او اقتصادية . وعانت الادارات المستفيدة من فشل الانظمة المبتكرة او على الاقل مقاومة منتسبي هذه الادارات للأنظمة الجديدة .

من الامور التي يشكو منها حقل تقنية المعلومات في البلدان العربية ضعف الاحصائيات والارقام التي يمكن مقارنتها ما بين بلد عربي وآخر من ناحية وما بينها وبين بلدان وكتل العالم الأخرى . ويرجع سبب ذلك الى غياب الجهة العربية المسؤولة بشكل واضح ومباشر عن هذا الحقل المهم . وقد حاولنا الحصول على بعض المعلومات التقريبية عن بعض البلدان العربية وهي لا تشكل عينة وافية يمكن الاستنتاج على اساسها . فالجدول (١) يبين تراوح النسب المئوية المكونة لاختصاصات الكومبيوتر في عدد من البلدان العربية .

وقد لا تكون هذه التراوحات مختلفة عن النسب العالمية في البدان الاخرى ومن الصعوبة بمكان معرفة نوعية وكفاءة هذه المستويات الا ان تعثر التطبيقات في البلدان العربية قد يقودنا الى الاستنتاج بان النوعية ليست بالمستوى المقبول .

اما اعداد العاملين الاجمالية التقريبية لبعض البلدان العربية فمبينة في الجدول (٢) الذي يبين ايضا نسبة هؤلاء العاملين لكل مليون نسمة وكذلك نسبة المواطنين لغيرهم لبعض دول الخليج العربي (المملكة العربية السعودية والكويت) .

ويمكن الاستنتاج من الارقام المبينة في الجدول (٢) وبكثير من التقريب واذا ما صح اعتبار هذه الدول عينة مقبولة لباقي الدول العربية ، ان مجمل العاملين في البلدان العربية في مجال الكومبيوتر هو بحدود (٢٢٠٠٠) اذا ما اعتبرنا ان عدد سكان البلدان العربية هو (١٣٠) مليون نسمة .

لقد وسّع ظهور المايكروكومبيوتر رقعة مهن الكومبيوتر في البلدان العربية ، وساعد ذلك ايضا فتح عدد من الجامعات العربية تخصصات ذات علاقة بالكومبيوتر ضمن اقسامها او تكوين اقسام جديدة لعلم الكومبيوتر فيها .

من خصوصيات حقل الكومبيوتر ارتباطه الوثيق بامرين اساسيين ، الاول : هو ان تعليم الشباب علوم الكومبيوتر لا يمكن ان يتم بشكل متكامل وفعّال دون الاعتماد على اللغة الام في تدريس المفردات بكافة جوانبها التحليلية والتركيبية ولا يعني ذلك بالضرورة استخدام لغات عربية للبرمجة فذلك امر ثانوي ، انما ضرورة توفر المراجع والادلة والكتب المنهجية باللغة العربية لتعليم الشباب تراكيب الكومبيوتر والمعلومات والخوارزميات اللازمة لحل المسائل .

والامر الثاني : إيجاد الحلول الصحيحة وتصميم النظم التطبيقية الودودة لكسب ثقة المستفيدين من الكومبيوتر في مرافق المجتمع المختلفة للتفاعل بصورة افضل مع نظم المعلومات والعاملين على تصميمها وبرمجتها وتقليص الحلقات الوسيطة ما بين المستفيد والكومبيوتر .

ولا يوجد في معظم البلدان العربية فيما عدا بعضا منها جمعيات او نقابات مهنية تحتضن العاملين في الكومبيوتر ولا توجد اللقاءات المهنية التي يتشاور فيها الاختصاصيون بعضهم مع الآخر . كما ان الشركات الاجنبية لا تحاول في معظم الحالات تكوين رابطات لمستعملي أجهزتها في معظم البلدان العربية .

٢ـ٤ الوحدات الأنتاجية للبرمجيات

لم تتكون في الاقطار العربية وحدات واضحة للبرمجيات ، بل بقي العمل البرمجي تابعا بشكل او

	النسبة المئوية
مدراء	٣ ـ ٩
محللو انظمة	٧ ـ ٩
مبرمجون	١٦ ـ ٢٩
مشغلون	١٤ ـ ١٨
مهندسون	٣ ـ ١٠
مدخلو بيانات	٣٣ ـ ٥٠

جدول (١) تراوح نسب اختصاصات الكومبيوتر في بعض البلدان العربية

البلد	العاملون في الكومبيوتر (١٩٨٥)	نسبة المواطنين لغيرهم	عدد السكان (مليون)	عموم العاملين لكل مليون نسمة	العاملون المواطنون لكل مليون
السعودية	٢٠٠٠	٣١٪	٩	٢٢٢	٦٩
الكويت	١١٠٠	١٩٪	١,٨	٦١١	١١٦
العراق	٢٠٠٠	١٠٠٪	١٥	١٣٣	١٣٣
الاردن	١٥٠٠	٩٥٪	٣,٥	٤٢٩	٤٢٠
سوريا	٥٠	١٠٠٪	٩	٦	٦
	٦٦٥٠		٣٨,٣		

جدول (٢) نسب العاملين في الكومبيوتر لبعض الدول العربية

بآخر الى الأجهزة اما من خلال المراكز التقليدية للكومبيوتر او من خلال فروع او وكالات بعض الشركات الاجنبية المعروفة . وهناك بعض الحالات المحدودة لشركات حاولت ان تنشأ وتتطور مع منتصف السبعينات في اقطار عربية مثل لبنان وبعض دول الخليج العربي الا انها تركت تخصصها البرمجي بعد ظهور المايكروكومبيوتر واتجهت نحو تسويق الأجهزة والبرمجيات الجاهزة وحاول بعض منها تبني بعض المحاولات التطويرية للتعريب او معالجة الكلمات ونجحت الى حد ما في سد جزء من حاجة السوق لمثل هذه الوسائل . الا انه لم تظهر بيوت او شركات للبرمجيات متوسطة الحجم او كبيرة للقيام بمشاريع برمجية ضخمة الحجم نسبيا فيما عدا حالات محدودة جدا .

كما قامت بعض المؤسسات الحكومية في بعض الاقطار العربية بتقديم خدمات برمجية لبعض المستفيدين وأتاحت لهم استخدام أجهزتها لقاء اجور . الا ان مثل هذا العمل لم يأخذ الطابع المهني الكفي وبقيت العديد من هذه الخدمات مفتقرة الى الاساليب الصحيحة والمستوى المهني المقبول .

ومن المفيد جدا قيام جهة اقليمية بمسح الوحدات الانتاجية للبرمجيات بمختلف احجامها على مستوى الاقطار العربية للوقوف على مثل هذه القابليات ومدى نشاطها الحالي والوسائل الفاعلة التي على الحكومات اتباعها لتنشيط هذه الصناعة التي يمكن ان تأخذ اشكالا واحجاما متباينة تتراوح ما بين الوحدات الصغيرة التي لا يتعدى عدد العاملين فيها الخمسة افراد الى وحدات متوسطة او كبيرة يبلغ اعداد العاملين فيها بضع عشرات او مئات .

٢-٥ محددات النمو

يمثل الشد ما بين العرض والطلب اهم العوامل التي تؤدي الى نمو اي صناعة من الصناعات في بلدان العالم الا ان بعض الحكومات في العديد من الدول المتقدمة تحاول خلق البيئة المناسبة لترويج صناعة معينة دون اخرى . ففي بداية الثمانينات على سبيل المثال قامت كل من الحكومة الالمانية الاتحادية والحكومة البريطانية باتخاذ اجراءات استثنائية لترويج الكومبيوتر في التصاميم الهندسية (computer aided engineering) لقناعتها بأهمية هذه التكنولوجية لدعم التصاميم الهندسية عموما ومن ناحية اخرى لأهمية امتلاك الشركات القابلية التنافسية في هذا المجال مقارنة بالشركات اليابانية والامريكية . وذهبت الحكومة الالمانية في دعم ادخال الوسائل البرمجية للتصميم الهندسي للشركات المتوسطة والصغيرة الى تقديم معونات مالية تقارب ٤٠٪ من قيمة استثمار هذه الشركات في شراء الأجهزة والبرمجيات .

ومن ناحية الانشطة المهنية فقد احتضنت العديد من الجمعيات والمنظمات المهنية نشاط البرمجيات بالرغم من ضعف الصلة في بعض الاحيان واصبحت البرمجيات بعد فترة قصيرة جزءا لا يتجزأ من نشاط هذه الجمعيات .

اما التشريعات وسلوكية المهنة والحفاظ على الملكية الفكرية وبراءات الاختراع والعقود القياسية وحماية المستفيد فقد وفرتها الحكومات بالتعاون مع المؤسسات المهنية والشركات العاملة في هذا المجال .

اما في البلدان العربية فلا زال الترويج الرسمي لهذه التكنولوجيا محدود جدا وقد سعت بعض الدول العربية لاعفاء ادخال أجهزة الكومبيوتر من الرسوم الكمركية

على سبيل المثال الا انها لم تعف القطع الالكترونية من هذه الرسوم مما جعل شراء الأجهزة والالواح المجمعة من الخارج ارخص من تجميعها في الداخل ، ولا يعتقد ان ذلك كان متعمداً ، بل لأن مفهوم الصناعة الالكترونية وترابطها العضوي مع البرمجيات لازال غير واضح لدى العديد من المسؤولين في الدول النامية . وتعريف الصناعة التقليدية لازال السائد في مؤسسات هذه الدول .

ولا توجد لحد الآن تشريعات واضحة ومقاييس للعمل البرمجي وسبب ذلك يرجع الى ضعف الخبرة لدى ادارات الدول النامية ولغياب المنظمات المهنية التي تعنى بالبرمجة .

والسبب الاهم من هذا وذاك غياب التطبيقات المعقدة والمتشعبة التي ترفع من مستوى العمل البرمجي في مرافق المجتمعات النامية وعدم وضوح الدور الذي يمكن ان تلعبه الكومبيوتر وبرمجياته في هذا المجال .

٢ـ٦ تجربة البرمجيات في القطاع الصناعي العراقي (٥)

لعل من المفيد استعراض تجربة عملية لانشاء مركز لنظم البرمجيات في القطاع الصناعي لدولة عربية هي العراق ذلك لما لهذه التجربة من مؤشرات جديرة بالاهتمام ضمن سياق الموضوع . وتجربة البرمجيات في القطاع الصناعي العراقي مثال واضح لما يمكن لصناعة البرمجيات النمطية ان تحقق من عوائد تكنولوجية واقتصادية . ويرجع تاريخ المشروع لعام ١٩٧٤ حيث قامت لجنة متخصصة في وزارة الصناعة العراقية بدراسة واقع التطبيقات التي يمكن كمبترتها على مستوى الوحدات الانتاجية وتوصلت الى تحديد عدد من هذه التطبيقات التي تشترك فيها كافة الوحدات الصناعية وبالتالي يمكن النظر لها كتطبيقات نمطية يمكن ان تستخدم من قبل جميع هذه الوحدات .

وعلى ضوء ذلك اعتمدت الوزارة فكرة شراء عدد من الميني كومبيوترات (HP3000) تم نصبها في عشرين منشأة صناعية عراقية وتخصيص منظومة اضافية لاغراض تطوير البرمجيات بشكل مركزي وتم نصب وتشغيل جميع هذه المنظومات خلال العامين ٧٦ و ٧٧ وقام فريق العمل المسؤول عن التطبيقات بتصميم وبرمجة عدد من التطبيقات النمطية لخدمة هذه المنشآت . وعلى اثر النجاح الذي تحقق خلال المرحلة الاولى من المشروع (٧٦ـ٧٨) اضيفت اعداد اخرى من نفس النوع من الكومبيوترات الى منشآت صناعية اخرى . ويبلغ عدد المنشآت المغطاة بالبرمجيات النمطية الآن اكثر من ٣٥ منشأة صناعية موزعة ما بين وزارتي الصناعة والصناعات الثقيلة . يتم خدمتها من النواحي البرمجية والتشغيلية من خلال مركز لتطوير الأنظمة مرتبط بوزارة الصناعة يقدم الخدمات جميعها على اسس اقتصادية . فهو مركز ربحي (profit centre) يموّل نفسه بنفسه من خلال العوائد السنوية التي يحققها في مجال تطوير الأنظمة وتقديم خدمات ما بعد النصب الى الجهات المستفيدة . ويقوم المركز الآن بنشر استخدام البرمجيات الخاصة بالمايكروكومبيوتر في المنشآت الصناعية المختلفة ويبلغ عدد التطبيقات

(٥) الديوه جي ، عبد الاله ، تجربة القطاع الصناعي في نقل تقنية المعلومات في العراق ، مجلة التعاون الصناعي ـ منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ـ العدد ٢١ ـ يوليو ١٩٨٥ ـ قطر

الجاهزة التي يسوّقها على كافة المستويات اكثر من ١٥ حزمة برمجية جاهزة . وينظم ما يقارب من ٣٠ دورة عملية متخصصة سنويا يشارك فيها اكثر من ٦٠٠ منتسب من منتسبي القطاع الصناعي . اما الخدمات البرمجية والفنية فيتم الاستجابة لها من خلال الاتصال الهاتفي او الزيارات المباشرة اضافة الى استخدام المطراف عن بعد لحل مشاكل المنظومات البعيدة توفيرا لوقت الاختصاصيين العاملين على النظم .

يبلغ عدد العاملين في المركز بحدود ٤٥ منتسبا وفر هؤلاء للمنشآت التي يخدمونها هذا العدد من الاختصاصيين مضروبا في عدد المنشآت الذين يصعب توفيرهم في ٣٥ منشأة صناعية موزعة في كافة محافظات العراق .

٣- البرمجيات والمستقبل

٣-١ الاعتماد على الذات

لا توجد تكنولوجية تعتمد على البيئة الثقافية والاجتماعية قدر تكنولوجيا المعلومات عموماوالبرمجيات على وجه الخصوص ، ذلك لأن البرمجيات تعبر عن اساليب عمل مرتبطة بكيفية قيام وحدة ديناميكية باعمالها باسلوب متسلسل . وبسبب هذا الترابط اصيب معظم المحاولات لاستيراد البرمجيات التطبيقية الجاهزة للاساليب الادارية والحسابية وحتى الصناعية الى الدول النامية بالفشل . ونجاح بعض المحاولات المحدودة لاستيراد مثل هذه البرمجيات كانت على حساب التخلي عن امور وتقاليد ذاتية اولها اللغة الام للمجتمع .

من هذه الملاحظة يمكن القول ان البرمجيات عموما والبرمجيات التطبيقية على وجه الخصوص يجب ان تولد وتترعرع ذاتيا ضمن المجتمعات المتجانسة حضاريا . والوطن العربي رقعة جغرافية غير صغيرة لها خصوصياتها اللغوية والحضارية التي تبرر قيام مثل هذه الوحدات التي تعنى بالبرمجيات .

من العثرات الاساسية التي تعوق انتشار تكنولوجيا الكومبيوتر في البلدان العربية غياب الترابط المصيري ما بين هذه التقنية والحاجة الاجتماعية واقتصادية . فمهما قيل ويقال عن اهمية هذه التكنولوجيا فالحركة الذاتية لها ضمن المجتمع لا يمكن ان تنطلق دونما اكتشاف الحاجة الاقتصادية والاجتماعية للانطلاق . فلا يكفي ان نشجع هذه التكنولوجيالكونها ظاهرة حضارية سبقتنا فيها امم اخرى . ولا يكفي ايضا للحكومات ان تخصص المبالغ الضخمة في ميزانياتها لشراء الأجهزة والمعدات دون ان تنتبه الى البنى الارتكازية المطلوبة لتنمية هذه التكنولوجيا . ففي اكثر دول العالم الثالث تعتبر مراكز الكومبيوتر معارض لاطلاع الزوار ولاقناعهم بايمان الادارات العليا بالتطور التكنولوجي . وفي كثير من مؤسسات العالم الثالث تدخل مراكز الكومبيوتر في دوامة العمل اليومي فتصبح جزءا من الجهاز البيروقراطي للمؤسسة وتضيع الاهداف وتصبح اليوميات والتوسعات وتهيئة المواقع والندوات والدورات والتخصيصات والتوظيف هي الاهداف بدلا من كونها الوسائل .

لقد حاولت في الآونة الاخيرة الرجوع الى العديد من الدراسات التي اعدتها بعض المنظمات العربية والاقليمية المهتمة بالصناعة فلم ار بين اي منها اشارة الى اهمية البرمجيات كصناعة استراتيجية . من

خصائص هذه الصناعة الجديدة انها لا تحتاج الى موارد مادية كبيرة انما تعتمد على النتاج الفكري والتطبيقي للافراد والمجموعات فصناعة البرمجيات ستكون الصناعة الفاصلة لاستغلال الالكترونيات في كافة القطاعات العسكرية والامنية والمدنية وستكون الدول الرائدة في التنمية خلال العقود القليلة القادمة هي الدول التي يمكنها تطوير قدراتها الذاتية في مجال البرمجيات . فلم تعد القطع الالكترونية الناتج النهائي الاستراتيجي للبلدان المتقدمة بل ما يخزن فيها من برمجيات تفصل ما بين استخدام وآخر بالرغم من تعاملها مع نفس القطعة الالكترونية . وحتى تعترف الحكومات العربية باهمية صناعة البرمجيات وتفهم محتواها وترعى العاملين فيها ستبقى تكنولوجيا المعلومات متعثرة .

معوق آخر هو التعليم المدرسي والجامعي . ففي العديد من البلدان العربية لا زالت المدارس والجامعات تعتمد اسلوب الحفظ وزيادة كمية المعلومات التي معيارها الوحيد قابلية الطالب على تذكر ما قرأه في الكتاب المقرر لغرض الامتحان ولم تطور المدارس والجامعات القابليات الذاتية للطلاب على التحليل والاستنتاج واساليب وضع الحلول الدقيقة العامة (الخوارزميات) لمجموعة المسائل الخاضعة لقواعد مشتركة . وللأسف فان من اهم الاسس التي تعتمد عليها تكنولوجيا المعلومات هي القابليات التحليلية والتركيبية .

في دراسة اعدت عام ١٩٨٤ من قبل برنامج الامم المتحدة للتنمية / المكتب الاقليمي للدول العربية عن واقع حال تكنولوجيا المعلومات في بعض الدول العربية تم تشخيص محاور اساسية تكمن فيها مشاكل ومعوقات تنمية التكنولوجيا في هذه الدول منها :-

ـ في مجال سياسات تكنولوجيا المعلومات ـ وبالرغم من الاهتمام الظاهري لكافة الحكومات باهمية هذه التكنولوجيا الا ان التنسيق الاقليمي وتبادل الخبرات والتقييس في المنطقة العربية ضعيف جدا .

ـ في مجال ادارة التكنولوجيا والتبعات الاجتماعية والاقتصادية ـ بينت الدراسة ضعف التخطيط وغياب المعايير الاقتصادية والاجتماعية في اختيار التطبيقات . وبالمقابل غياب الوعي الاجتماعي والاقتصادي لمستقبلي هذه التكنولجيا وتقييمها . فالعديد من التطبيقات الضرورية للمجتمعات النامية في مجالات الهندسة والطب والزراعة ورفع مستوى الفرد تكاد تكون مفقودة بينما يتم التركيز على التطبيقات الادارية والخدمية والتوثيقية .

ـ في مجال التعليم والقوى العاملة ـ لا يكفي تدريب وتعليم الاعداد المحدودة من العاملين في مجالات الكومبيوتر دون تطوير القابلية لدى هؤلاء على تدريب الآخرين ، وانتقدت الدراسة كذلك مستوى التعليم الجامعي في مجال الكومبيوتر والنقص الواضح في الكوادر التعليمية المؤهلة لتدريس موضوعاته المختلفة . كما اشارت الدراسة الى هجرة العديد من المتخصصين في هذه المجتمعات الى مجتمعات توفر لهم وسائل ممارسة المهنة والدخل المناسب معا .

كما اشارت الدراسة الى غياب التفاعل الافقي ما بين العاملين وذلك بسبب غياب الجمعيات المهنية التي تحتضنهم وترعى تطويرهم .

ـ في مجال اللغة ـ اهتمت الدراسة بامرين اساسيين الاول مستوى اتقان الخريجين للغة الاجنبية ومدى قابليتهم على متابعة اختصاصهم بلغة اجنبية والثاني اهمية توفير الاجهزة والوسائل التي يمكنها التعامل باللغة العربية .

٣ـ٢ الترابط ما بين البرمجيات والحقول التكنولوجية الأخرى

يتحدث العديد من المهتمين بالكومبيوتر عن ان تكنولوجيا المعلومات مستلزم بنيوي اساسي (infrastructural) للعديد من الوسائل التكنولوجية الأخرى ذلك لأن من الصعب التطرق الى اية تكنولوجية في اي حقل من حقول المعرفة مالم يكن للكومبيوتر دور فيه بشكل او بآخر ولا اعتقد ان ذلك يختلف عليه احد . الا ان تطور الالكترونيات وزيادة معوليتها وسرعها والتوسع في تقييسها جعلت من الجزء المادي لتكنولوجيا المعلومات الجزء الاسهل نسبيا من الجزء البرمجي . فاذا قلنا ان تكنولوجيا المعلومات مستلزم بنيوي للتكنولوجيات الاخرى يمكننا القول في نفس الوقت ان البرمجيات بمعناها الواسع (الدقيق والعالي) هي مستلزم بنيوي لتكنولوجيا المعلومات . وسيصبح من السهولة الحصول على المعدات المادية باشكالها المختلفة على هيئة قطع الكترونية او وحدات الا ان الفصل ما بين الاستغلال وعدمه لهذه المعدات والقطع سيتحدد في البرمجيات المحملة وهل استوعبها مستخدمها ام لا . ما الذي سيحصل عندما يتعطل البرنامج عن العمل ؟ هل يمكن استبدال البرنامج العاطل بنفس السهولة التي يمكننا بها استبدال القطعة الالكترونية ؟ وهل يمكننا الانتظار دائما للحصول على المعرفة لتصليح البرنامج العاطل من عبر الحدود ؟ كل هذه الاعتبارات تؤشر الى اهمية البرمجيات وضرورة رعايتها من قبل الحكومات لكي يتحقق نوع من الاستقلال او الكفاية التكنولوجية في هذا الحقل الاستراتيجي الهام .

٤ـ الاستنتاجات

قد يكون من المفيد استنتاج بعض الاتجاهات التكنولوجية التي على المعنين تشجيعها في الوطن العربي لكي تروج صناعة البرمجيات في البلدان العربية .

(١) البرمجيات صناعة لاتحاج الى استثمارات مادية عالية بل تعتمد بالدرجة الاولى على النتاج الفكري البشري لذا فان مايقارب ٨٠٪ من استثمارات بيوت البرمجيات هي عبارة عن رواتب واجور ، اما المعدات المستوردة لمثل هذه الصناعة فكلفها متواضعة نسبيا .

(٢) ضرورة الاسراع في ادخال تعليم تكنولوجيا المعلومات في المراحل الدراسية المبكرة وتشجيع المؤسسات التي تنتج البرمجيات التعليمية للطالب العربي لتوفير المعدات والبرمجيات اللازمة وتشجيع التأليف لهذا المستوى من التعليم .

(٣) ضرورة تحرك الجمعيات والنقابات المهنية الهندسية لوضع الاسس اللازمة لتحديد مؤهلات المهندسين العاملين في البرمجيات والاعتراف بهم أعضاء عاملين ضمن هذه المنظمات .

(٤) ضرورة قيام المنظمات الاقليمية الصناعية بمسح واقع التكنولوجيا في البلدان العربية وتخصيص الموارد

اللازمة لوضع الاتجاهات التكنولوجية اللازمة على مستوى الوطن العربي .

(٥) ضرورة تشجيع الحكومات من خلال مؤسساتها الصناعية اقامة المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة لصناعة البرمجيات وحث مثل هذه الشركات الصغيرة على التعاون التكنولوجي الوثيق مع الشركات المماثلة في البلدان المتقدمة وكذلك التعاون ما بينها لوضع الاسس والقواعد الصحيحة للعمل المهني السليم .

(٦) توضيح خطورة اسلوب المشاريع الجاهزة للبرمجيات التي تعطى للشركات الاجنبية كاملة دون وجود الردفاء المحليين الذين يضمنون ديمومة صيانة مثل هذه النظم بعد تركيبها .

(٧) العمل على وضع العقود القياسية للمشاريع البرمجية وقواعد سلوك مناسبة يهتدى بها عند التعاقد .

* * *

مطالعات

معركة حطين : خلفياتها ودلالاتها

جوزيف نسيم يوسف
استاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

تعتبر معركة حطين من أكبر المعارك في تاريخ الحروب الصليبية إن لم تكن أكبرها على الاطلاق . ولم تكن هذه المعركة وليدة يوم السبت الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ (٤ يوليو ١١٨٧م) ، انما كانت نهاية طبيعية وحتمية لظروف وعوامل عديدة سبقتها بعشرات من السنين . ثم إن النتائج التي ترتبت عليها تحكمت ، الى حد بعيد ، في مصير الحركة الصليبية نفسها بصفة عامة ومصير الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة على وجه الخصوص . ويتناول هذا البحث الخلفيات والاعتبارات التي أدت الى المعركة ، والآثار التي ترتبت عليها ، دون الدخول في تفاصيل المعركة نفسها الا بالقدر الذي يخدم هذه الدراسة .

للتعرف على الظروف التي هيأت الجو لمعركة حطين ، وتحديد مكان تلك المعركة في الصراع الصليبي الاسلامي بعامة ، وجهاد صلاح الدين ضد الصليبيين بخاصة يحسن تناول بعض الأفكار الهامة بالدراسة المركزة .

في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م القى البابا الروماني اربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م) من مدينة كليرمون بجنوب فرنسا ، خطبته الملتهبة التي كانت ايذانا ببداية الحروب الصليبية[1] . وكانت صيحة المستمعين جملة صغيرة في عدد كلماتها خطيرة في مدلولها هي « هذه هي ارادة الله » ، فكانت أبلغ تعبير عن حقيقة هذه الحروب ودوافعها البعيدة المدى ، وان كانت قد

---

(١) أنظر نص الخطبة في المصادر التالية التي عاصر أصحابها مؤتمر كليرمون والحرب الصليبية الأولى :

Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. R.H.C.-H. Occ., III (Paris, 1866) 323-4; Robert le Koine, Historia Iherosolimitana, ed. R.H.C.-H. Occ., III, 727-30; Baudri de Bourgueil, Historia Jerosolimitana, ed. R.H.C.-H. Occ., IV (Paris, 1879), 12-5; Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, ed. R.H.C.-H. Occ., IV, 137-40.

اتخذت من الدين ستارا لها ، في وقت هيمنت الكنيسة اللاتينية على مقدرات الافراد وعلى حياتهم الخاصة والعامة . وقد اصطلح المؤرخون الغربيون القدامى على تعريف تلك الحروب بأنها « حروب جامعة » قام بها أهل الغرب المسيحي ضد العالم العربي الاسلامي ، وبخاصة في منطقة الشرق الأدنى ، بقصد تحرير بيت المقدس وتخليص قبر المسيح [٢] . وليس هذا بمستغرب في عالم كان يرتكز على الناحية الدينية التي اعتبرت الأساس الأول للحياة والفكر في المجتمع الغربي الوسيط . واستمر هذا التعريف متواترا في مؤلفات المؤرخين الغربيين حتى العقود الأولى من القرن العشرين [٣] . ولكن أحدث البحوث التاريخية المحايدة أثبتت ، مثلما أثبت الواقع والتاريخ ، أن الحروب الصليبية هي حروب قام بها أهل الغرب الأوروبي ضد العالم العربي الاسلامي ، تحت رداء الدين استجابة لنداء البابوية وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء بالقوة المسلحة على بيت المقدس في قلب فلسطين ، وتأسيس « مملكة » لهم بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة ، وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، لتكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان العربية المجاورة [٤] . واعتبارا من أواسط القرن العشرين بدأت هذه النظرة المحايدة تظهر في مؤلفات عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين ، وعلى رأسهم رينيه جروسيه ، وليس هالفن ، وجورج تريفيليان ، وبرنارد لويس[٥] .

ولم تكن هذه الحركة التي تركت آثارها لقرون عديدة تالية فجائية ، أو نتاج عامل بالذات دون عوامل أخرى . لقد كانت حصيلة قرون عديدةسبقتها ، وعوامل متعددة متفاوتة التأثير أدت اليها . ولايكاد يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية أو أحد فصولها من الاشارة الى ذلك جملة أو تفصيلا وهناك مدارس عديدة تختلف في أسلوب تناولها لهذه الحركة ودوافع قيامها فثمة فريق تناول دوافعها من مختلف الزوايا ، من سياسة واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وعسكرية وغيرها . بينما نظر اليها فريق آخر نظرة موضوعية شاملة من أعلى ، مع ربط مختلف الظروف والأحداث بعضها ببعض وصولا للحقيقة . وثمة فريق ثالث قسم أسباب قيامها الى جوهرية غير مباشرة ترجع الى مئات السنين قبل اندلاعها ، وثانوية مباشرة أدت الى إشعال شرارتها الأولى التي لم تنطفىء الا بعد ثلاثة قرون من بدايتها . وحرص هذا الفريق على تحليل كل عامل على حدة ، مع ربط كل العوامل آخر الأمر في وحدة واحدة متداخلة في بعضها ، متفاعلة فيما بينها ، عبر فترات من الزمن ممتدة متباعدة . وصاحب هذا البحث ينتمي الى المدرسة الأخيرة [٦] . وفي ضوء هذا المفهوم كان منهجه في تناوله لمعركة حطين : خلفياتها ودلالاتها .

واذا أمعنا النظر في الحركة الصليبية سوف نجد أنها تمثل دورا هاما من أدوار الصراع بين العالمين الأوروبي

(٢) "…. Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum". Cf. Robert le Moine, op. cit., ed. R.H C.-H. Occ., III, 723.

(٣) Riant, P., "Inventaire critique des lettres historiques des Croisades," A.O.L., I (Paris, 1881), 2.

(٤) أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط . خامسة (الاسكندرية ١٩٨٧) ، ص ٧٢ وما يليها .

(٥) Grousset, R., The Sum of History, tr. by A.&H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181, 182; Halphen, L., L'Essor de l'Europe (XIe-XIIIe siecles) (Paris, 1941), 4ff., 46ff., 63ff.; Trevelyan, G.M., A Shortened History of England (Aylesbury, 1960), 141; Lewis, B., The Arabs in History (London, 1958), 150.

(٦) أنظر جوزيف نسيم يوسف : الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٨٦) ، ص ١٥١ — ١٩٠

المسيحي والعربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك الصراع الذي امتد من القرن السابع حتى القرن السادس عشر الميلادي . وهي تمثل ، في ذات الوقت ، مرحلة رئيسية من مراحل الصراع الممتد بين شقي العالم منذ القدم وحتى اليوم . فهي ، اذن ، حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة من الكفاح السياسي والحضاري عبر العصور ، منذ حروب طروادة وحروب الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين وحتى صراعات اليوم [٧] . وعلى هذا الأساس يمكن ، أيضا ، تفهم الظروف التي هيأت الجو لمعركة حطين واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس .

على أيةَ حال ، منذ القى اربان الثاني خطبته في كليرمون ، والاستعدادات كانت قائمة على قدم وساق للحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) ، التي انتهت . كما هو معروف - بتأسيس امارة الرها في أعالي الفرات (أوائل ١٠٩٨ م) وامارة انطاكية بأعالي الشام (يونيو ١٠٩٨ م) ، ومملكة المقدس في قلب فلسطين (يوليو ١٠٩٩ م) [٨] . وهكذا أسس الفرنج مملكتهم ، في مدينة القدس التي كانت في حوزة المسلمين منذ عام ٦٣٧م وحتى ذلك التاريخ ، أي أكثر من اربعة قرون ونصف . وجعلوا على رأسها أحد زعمائهم وهو جودفري الذي قسمها الى امارات اقطاعية وزعها بين أقرانه بعد أن وجدوا في ضعف المسلمين وانقسامهم فرصة ذهبية لتحقيق أحلامهم[٩] .

ويرتبط هذا بفكرتين هامتين تتصلان بموضوع البحث : أولاهما تتعلق بأسباب تلك الهزيمة التي مني بها المسلمون في الشرق الأدنى على أيدي الصليبيين والنتائج المترتبة عليها ، وثانيتهما ارتباط ذلك بتوازن القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين آنذاك . أما عن الأولى ، فلاشك أن السبب الرئيسي في نجاح أهل الغرب في الاستيلاء على بيت المقدس لايرجع الى صفات خاصة تميزوا بها دون غيرهم ، كالجرأة أو الشجاعة ، وانما يرجع أولا وقبل أي شيء الى انقسام الشرق الأدنى الاسلامي على نفسه سياسيا ومذهبيا[١٠] . وقد أوضح ذلك المؤرخ شارل أوهان عندما قال انه لو كان الحكام المسلمون قد اتفقوا وقتذاك لألحقوا بالفرنج الهزيمة ، ولكنهم بدلا من الاتحاد لمواجهة العدو المشترك ، لم يبذلوا أي جهد لوقف تقدمه في المشرق الاسلامي [١١] .

---

(٧) Cr. Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1962), 23-8; Grousset, op. cit., 7-12; Arnold, T. & Guilaume, A. (eds.), The Legacy of Islam (London, 1952), 40-1.

(٨) Matthieu d'Edesse, Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 37-43; Michel le Syrien, Extraits de a chronique de Michel le Syrien, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I, 328; Foucher de Chartres, op. cit., R.H.C.-H. Occ., III, 496-7⁄8; Hagenmeyer, H. (ed.), Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hirosolymitanorum (Reidelberg, 1890), 261ff., 353ff.; Raimond d' agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, ed. R.H.C.-H. Occ., III, 253-7, 291ff.; Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R.H.C.-H. Occ., IV, 470ff.

أنظر أيضا ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ، ص ١٣٦ وما بعدها .

(٩) Cf. Baldwin M.W., The Mediaeval Church (New York, 1960), 103.

(١٠) Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, vol. I: The First Hundred Years, ed. by M.W. Baldwin (Philadelphia, 1958), 96-7; Mahmud, S.F., The Story of Islam (Karachi, 1959), 83, 133, 134.

أنظر أيضا المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ ١ (القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٢٨٧—٢٩١ .

(١١) Oman, C.W.C., A History of the Art of War in the Middle Ages, I (London, 1924), 233.

وليس من العسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماما أنه بوسع المسلمين في الشرق الأدنى ، اذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم ، أن يدفعوا الخطر الصليبي عن المدينة المقدسة . ثم ان المسلمين أنفسهم كانوا يدركون ، هم أيضا ، أن ما أحرزه الفرنج من نجاح سريع انما كان بسبب ضعفهم وانقسامهم . وهذا يرتبط بدوره بفكرة توازن القوى في الصراع بين الفريقين في هذه المرحلة المبكرة من الحروب الصليبية ، وما يرتبط بها من مفاهيم . لقد كان مركز الثقل آنذاك يميل بقوة الى جانب الغرب الذي كان قد أفاق من غفوته بعد قرون طويلة من الفوضى والظلام . هذا بينما كان الشرق الأدنى الاسلامي منقسما على نفسه حسبما أسلفنا . لهذا أخذ الغرب بسياسة المبادأة وقام بدور الهجوم ، الأمر الذي هيأ له فرصة احراز انتصارات خاطفة أثناء الحملة الصليبية الأولى ، انتهت باستيلائه على مدينة بيت المقدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي . وقد التزم المسلمون وقتها بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام . واستمر هذا الوضع حتى بعد نهاية الحملة الأولى بسنوات . والدليل على ذلك أن الفاطميين حاولوا مرارا ، ودون جدوى ، استعادة المدينة [١٢] . وهذا يعني أنه مع رجحان الكفة الغربية في بداية الحركة الصليبية ، لم يكن من السهل على المسلمين توجيه أي ضربة مؤثرة ، أو حتى استرجاع ما فقد منهم .

لم ينس المسلمون ، اذن ، أن ما لحقهم من خسارة وما أحرزه أولئك الدخلاء من مكاسب في بداية حركتهم ، إنما كان في الدرجة الأولى بسبب تمزقهم وضعفهم . وكانوا يدركون جيدا أنهم كلما اتحدوا كان ذلك بشيرا بحركة افاقة تعقبها حملات مضادة على الغزاة . ففي اتحادهم قوة ، وفي قوتهم قضاء على الفرنج وتحرير لبيت المقدس . بينما في انقسامهم ضعف ، وفي ضعفهم خذلان لهم وتمكين لنفوذ اعدائهم في المنطقة . وبمضي السنين أحس المسلمون أن وجود « مملكة » الصليبيين في قلب فلسطين أصبح يشكل خطرا جسيما يجب عليهم المبادرة بالقضاء عليه قبل أن يسرى في بقية أجزاء العالم الاسلامي . وأدركوا أن كل يوم يمر دون توحيد جبهتهم فيه خسارة محققة وتأخير لعملية الجهاد الاكبر . ومع تفاقم الخطر الصليبي ، ظهرت في الأفق بوادر صحوة اسلامية اعتبارا من بدايات القرن الثاني عشر الميلادي ، اذ عمل المسلمون على لم شملهم لمقاومة الفرنج ، وكان ذلك على هيئة وثبات عربية محلية لم تكن قد نضجت بعد في حركة واحدة . ولذلك لم يكن بوسعها تحقيق النصر النهائي على خصومهم وقتذاك [١٣] . ولكن هذا أوجد مايعرف بحالة التوازن بين الفريقين المتصارعين : المسلمون أصحاب الديار والفرنج الدخلاء ، لم يتمكن أي منهما في هذا الدور الثاني من الكفاح من احراز نصر حاسم على خصمه ، وهو الدور الذي تناوله بشيء من الاسهاب والتحليل كل

---

(١٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥م) ، ص ١٤٩ . أنظر أيضا المرجع التالى ؛ Runciman, op. cit., II, 166.

(١٣) Albert d'Aix, op. cit., R.H.C.-H. Occ., IV, 670; Matthieu d'Edesse, op. cit., R.H.C.-Doc. Arm., I, 19-24, 96-7; cf. Ibn al-Athir (d. A.H. 630/A.D. 1234), Tarikh al-Dawla al-Atabikiya Meluk al-Mausil, ed. R.H.C.-H. Or., II, 2e. partie (Paris, 1876), 33.

من رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان في مؤلفيهما عن الحروب الصليبية [١٤] .

لم يكن أمام المسلمين في مرحلة التوازن هذه سوى سبيلين لاثالث لهما : اما أن يسدوا على حكام بيت المقدس اللاتين الطريق الساحلي شرقي البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالأمر المستطاع وقتذاك بسبب القلاع والموانىء التي كان الفرنج يتحصنون بها على طول الساحل . ثم ان احراز النصر النهائي عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج ، بسبب ما قد يحدث من ثغرات داخل الجبهة الاسلامية نفسها قبل استكمال توحيدها قد يستغلها العدو . أما الحل الثاني الذي فرض نفسه ، فهو أن يبادر المسلمون في مصر والشام بتكوين جبهح قوية متحدة من أقصىالشمال الى أقصى الجنوب ، بحيث يمكنها الاطباق على « مملكة » اللاتين في القدس ، وبذلك يصبح من السهل استرداد المدينة وتحرير مقدساتها ، واخراج الفرنج من باقي المعاقل التي يتحصنون بها في بلاد الشام . وسوف يتضح ، فيما بعد ، المغزى المستفاد من عرض هذه القضايا .

هذا ، واذا عدنا الى مدينة بيت المقدس منذ الاحتلال الصليبي لها وحتى معركة حطين ، بينما الأحداث تجري بسرعة فوق الساحة الاسلامية في الشرق الأدنى ، فسنجد أن حكامها اللاتين كانوا يبذلون قصارى جهدهم لتشجيع الغربيين على المجيء اليها والاستيطان فيها ، حتى تزداد أعدادهم ويقوي بذلك مجتمعهم . لقد كانت الحماسة تملأ أولئك القوم عندما قاموا بحركتهم . ولكن ما ان استقروا في الاراضي المقدسة ، واستمتعوا بشمسها الدافئة وأرضها الخصبة ، حتى بدأت الحماسة تخبو تدريجيا الى أن تقلصت وزالت في نهاية الأمر . لقد استهوتهم الحياة الجديدة التي أخذوا يحيونها ، وذابوا تدريجيا بين أهالي البلاد الأصليين . وتكشف المصادر اللاتينية ، وكتب الرحالة المسلمين القدامى ، عن ذلك التطور الذي طرأ على الصليبيين فقد اختلطوا بالشرقيين ، وأخذوا من طباعهم وعاداتهم بنصيب ، وتزوج الكثيرون منهم وأنجبوا الأولاد ، وأعدوا أنفسهم للاقامة الدائمة في بيت المقدس وتوابعها من بارونيات وكونتيات واقطاعيات ، ولم يعودوا يفكرون في العودة الى أوطانهم[١٥] وهكذا تأقلم أولئك الفرنج الذين تمشرقوا ، والذين أصبحت الأراضي المقدسة بالنسبة لهم موطنهم الأول بعد أن نسوا أوطانهم الأصلية . وبدأوا ينبذون فكرة الحرب المقدسة وصارت لهم مصالح تحتم عليهم العيش في دعة وهدوء . وكان طبيعيا الا ينظر الافرنج المتمشرقون الى الافرنج الجدد بعين الرضا والارتياح ، فقد اعتبروهم منافسين ومصدر ازعاج لهم ، بسبب اختلاف المصالح وتضارب المشارب والأهواء [١٦] . وكان هذا الخلاف الذي اتسعت هوته مع الأيام ، من بين العوامل التي ساعدت على انهيار الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة ، والتي مهدت ـ بالتالي ـ لمعركة حطين وما

(١٤) Grousset, R., Histoire des Croisades, II (Paris, 1935), 24ff., 310ff., 609ff.; Runciman, op. cit., II, 291ff.

(١٥) ابن منقذ (ت٥٨٤ هـ/١١٨٨) : كتاب الاعتبار (ليدن ١٨٨٤) ، ص ١٩٩ . وأيضا :
Lewis, The Arabs in History, 150-2; Runciman, op. cit., 291; Grousset, Sum of History, 177.

(١٦) "Pullani dicuntur, qui de patre Syriano et matre Francigena generantur." Cf. Joinville, J. de, Memoirs of Louis IX, King of France, tr. by Johnes of Hafod (London 1848), 466 n. 1; Ambroise, The Crusade of Richard Lion-heart, tr. from the old French by M.J. Hubert (New York, 1941), 16; Rey, E., Les colonies franques de Syrie au XIIme et XIIIme siecles (Paris, 1883), 60-1.

حققه صلاح الدين فيها من انتصار ساحق على الصليبيين .

ولمزيد من الايضاح نقول ان التجربة الصليبية كانت تتلخص في قدوم الحملات الغربية لتحقيق أهدافها التوسعية تحت قناع الدين . وبعد انتهاء كل حملة يعود غالبية المغامرين الصليبيين الى ديارهم بالغرب ، بينما تبقى في الشرق أقلية منهم . وحتى هذه الأقلية اما أن تذوب تلقائيا بين الأغلبية العربية وبذلك تنمحي شخصيتها وينتهي كيانها ، واما أن تنزح الى أوطانها بعد قليل . ويرجع ذلك الى أسباب عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية داخل أوروبا نفسها تشد أولئك المغامرين اليها . فضلا عن اضطراب الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل الأرض العربية المحتلة ، الى جانب المقاومة الاسلامية الشديدة المتزايدة التي كانت تسبب لأولئك الغرباء قلقا بالغا . وأخيرا ادرك الفرنج أن المسلمين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنهم اذا اتحدوا دفاعا عن وجودهم ومقدساتهم ، فسيطبقون عليهم ويقضون على البقية الباقية منهم . وكانت فترة التوازن في الصراع بين الطرفين قد فرضت نفسها على مسرح الأحداث . ولهذا السبب لم تكن نداءات الهجرة ، مثل نداء فوشيه دي شارتر ، أحد مؤرخي الحملة الصليبية الأولى من اللاتين ، تلقى استجابة كافية في الغرب . يضاف الى ماتقدم ، أنه كان من عادة الصليبيين الاستقرار في المدن الساحلية ، وترك المواطنين العرب في القرى يحرثون الأرض ويفلحونها . والنتيجة أن العرب كانوا دائما أغلبية في ديارهم ، بينما الفرنج أقلية ليس هناك رابطة تربطهم بالأرض التي يحتلونها وكان هذا ، من بين العوامل التي أسهمت في تقويض « دولة » اللاتين في القدس ، ومن الخلفيات التي لايمكن اغفالها عندما نتحدث عن انتصار حطين [17] . وسيتضح أيضا ، بعد قليل ، المغزى المستفاد من ذلك .

ان الحديث عن ضآلة الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة أثناء الاحتلال الصليبي ، يقودنا بالتالي الى الكلام عن عناصر السكان في المنطقة آنذاك . لم تزودنا مصادر العصر ووثائقه ـ من عربية وأجنبية ـ باحصائيات أو بيانات عددية دقيقة عنها . وكل ما هنالك نتف مبعثرة هنا وهناك يمكن أن نستشف منها بعض البيانات التقريبية غير المحددة . واضح أن عدد الفرنج الذين أقاموا في المملكة ، أثناء حكم اللاتين لها كان ضئيلا . فلم يكن عدد البارونات والفرسان وذويهم ، في أي وقت من الأوقات ، يزيد على ألفين . أما الأطفال الفرنج فقد كان عددهم في تناقص مستمر بسبب موت الكثيرين منهم . واذا أضفنا الى هؤلاء ، الفرسان التابعين للجماعات الرهبانية العسكرية وبقية رجال الدين التابعين للكنيسة اللاتينية في القدس ، فقد كان عددهم ينحصر بين الفين وثلاثة آلاف ولايدخل في هذا التعداد الافرنج المتشرقون [18] . والخلاصة أن الافرنج الذين كانوا من دم لاتيني خالص ، كانوا قلة في بيت المقدس وتوابعها . يؤكد ذلك مؤرخ لاتيني متأخر يدعى همبرت أوف رومانز : اذ قال في كتاب له باللاتينية بعنوان « الدعوة الى حرب صليبية جديدة » : « وعندما نقوم بغزو بلادهم (يقصد الشرق الادنى الاسلامي) ، لاتوجد تحت أيدينا قوة دائمة ثابتة يمكن عن طريقها بسط نفوذنا على

---

(١٧) أنظر جوزيف نسيم يوسف : « العدوان الصليبي والرأي العام الغربي » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (الاسكندرية ١٩٦٨) ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(١٨) Runciman, op. cit., II, 291-2.

أولئك الذين يفلحون الأرض ويعيشون فيها ، طالما أن رجالنا لايريدون البقاء في تلك الجهات » [١٩] .

أما غالبية الأهالي في الأراضي المقدسة وقتذاك فكانوا من المواطنين العرب من مختلف الفئات والطوائف والأجناس . وظلت كثير من المناطق التي احتلها الفرنج اسلامية الصبغة والطابع والسكان . كذلك كان الفلاحون في الجليل الاعلى وعلى امتداد الطريق من بانياس الى عكا من المسلمين . وكانت توجد قبائل من العرب البدو على امتداد الحدود الجنوبية « للمملكة » وفيها وراء نهر الأردن ، وأما اليهود فقد قل عددهم قلة محسوسة ابان تلك الفترة من الزمن ، خشية من أعمال القتل والمذابح التي تعرضوا لها على أيدي اللاتين أثناء الحركة الصليبية [٢٠] . يؤكد هذا ما ذكره الرحالة بنيامين التطيلي عندما زار الأراضي المقدسة حوالي عام ١١٧٠م ، أي قبل معركة حطين بثماني سنوات ، من أنه لم يجد سوى جالية صغيرة العدد من اليهود في كافة الأراضي الخاضعة للفرنج يعيش منهم في بيت المقدس حوالي المائتين [٢١] . ولايمكن ونحن نتحدث عن خلفيات المعركة أن نغض النظر عن هذه الأوضاع التي ساهمت بشكل غير مباشر في تحقيق هذا النصر الكبير .

وفي الفترة الممتدة من ١٠٩٩ حتى ١١٨٧م ، أي منذ استيلاء الفرنج على القدس وحتى معركة حطين واسترداد صلاح الدين لها ، حكم المدينة المقدسة تسعة حكام قصتهم معروفة تماما في مراجع الحركة الصليبية . ويهمنا هنا استعراض الظواهر الهامة لتاريخ حكمهم ، لدلالتها في الكشف عن خلفيات المعركة وممهداتها ، بالاضافة الى ماسبق ذكره . وهذه الظواهر هي :

الظاهرة الأولى : ضعف الامكانات البشرية

كان أكثر مايحتاج اليه الملك الصليبي هو الحصول على الامدادات البشرية من الغرب . ذلك أن عدد المحاربين في « المملكة » لم يكن كثيرا في أي وقت من الأوقات [٢٢] . اذ لم يتعد في أحسن الأحوال بضع مئات من الفرسان وعدة آلاف من المشاة حسبما أسلفنا . ونتيجة لذلك توالت استغاثات وخطابات المسئولين في بيت المقدس الى أهل الغرب والى البابوية في روما دون أثر ملموس [٢٣] . حقيقة كانت تصل بين وقت وآخر جماعات مسلحة قليلة العدد من الحجاج الذين كانوا يحضرون لزيارة كنيسة القيامة وتمضية بضعة اسابيع أو أشهر في محاربة المسلمين . ولكنهم كانوا في معظم الأحيان يسرعون بالعودة الى ديارهم بعد أداء الحج فلم يجد معظمهم بغيته المنشودة في الأراضي المقدسة في وقت بدأت فيه أوروبا تنشغل تدريجيا ، وبمرور الزمن ، عن افرنج الشرق . ولنا ان نتصور ماذا يمكن أن يؤدي هؤلاء ، خصوصا بعد اعتدال ميزان القوى

---

(١٩) Throop, P., Criticism of the Crusades: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda (Amsterdam, 1940), 169.

(٢٠) Benjamin of Tudela, R., Itinerary of Benjamin of Tudela (1165-1173), tr. into Arabic from the Hebrew original by Ezra H. Haddad, 1st. ed. (Baghdad, 1945), 99; Runciman, op. cit., II, 294-5; Margolis, M.L. & Marx, A., A History of the Jewish People (Philadelphia, 1962), 359-64; Brooke, Z.N., A History of Europe from 911 to 1198 (London, 1938), 238.

(٢١) Benjamin of Tudela, op. cit., 87, 89, 90, 92, 93, 94, 95, 96, 104, 106, 108, 110.

(٢٢) Runciman, op. cit., II, 324; cf. Baldwin, op. cit., 103.

(٢٣) Runciman, op. cit., II, 89-90.

في الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين اعتبارا من عماد الدين زنكي ، وفي عز أيام صلاح الدين على وجه الخصوص .

الظاهرة الثانية : ضآلة الموارد المالية

لم تكن قلة الموارد البشرية هي المشكلة الوحيدة التي واجهتها بيت المقدس في ظل حكم اللاتين لها فقد كانت المشكلة الأخرى التي لاتقل عنها خطرا هي احتياج الحكام اللاتين الدائم للمال ، للصرف منه على المقاتلين الذين كانوا يغرونهم بالبقاء ، وكذلك لادارة شئون دولتهم [٢٤] . وكانت الحاجة للمال مشكلة شبه دائمة . وقد قام بعض الحكام الصليبيين بعمليات حربية ضد المسلمين المجاورين لهم بهدف الحصول على الغنائم ، أو الاستحواذ على الأسرى ثم بيعهم كعبيد . وكانوا ، أحيانا ، يطلقون حرية أسراهم مقابل الحصول على فديات باهظة [٢٥] . وفي بعض الأحيان كانت تعقد زيجات سياسية بهدف التغلب على هذه الضائقة المالية المستعصية التي ألقت بظلها على الكيان اللاتيني في الأرض المقدسة ، وأفقدته حرية الحركة ، في وقت بدأت فيه اليقظة الاسلامية داعية الى تكتيل الصفوف وتوحيد القوى في المنطقة لمواجهة الخطر الصليبي ودفعه .

الظاهرة الثالثة : الصراع بين رجال السلك الكهنوتي والعلمانيين ، وما يعنيه .

من أخطر الأمور التي واجهت « المملكة » تلك الصراعات الظاهرة في معظم الأحيان والمستترة في بعض الأحايين بين رجال الدنيا والدين على أي الطرفين تكون له اليد العليا في البلاد . وقد برزت هذه المشكلة بوضوح قبل استيلاء الفرنج على بيت المقدس ، وأدت الى قيام خلافات حادة بين الاكليركيين والعلمانيين من رجال الحملة الصليبية الأولى ، فيمن يكون له الأولوية في الحكم . واستمر هذا الصراع وزادت حدته بين الفريقين طوال الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة ، وقد اتخذ أشكالا وصورا شتى متعددة [٢٦] . كل هذا كان ينخر كالسوس في « دولة » الغزاة ، ويمهد الطريق في بطء وهدوء أمام انتصار حطين .

الظاهرة الرابعة : الزيجات السياسية

كان الحكم الصليبي في الأراضي المقدسة مزيجا عجيبا من المشاكل والمتناقضات . ومن بينها ما يمكن تسميته بالزواج السياسي ، وبكلمة أوضح ، زواج المصلحة ، اما بهدف التغلب على مشكلة ما تواجه الملك اللاتيني ، أو التحالف مع قوى أخرى مسيحية ، سواء أكانت أرمينية أو بيزنطية ضد المسلمين ، أو التغلب على ضائقة مالية . والهدف أولا وأخيرا العمل على تثبيت كيانهم المتداعي أمام القوى الاسلامية المحيطة بهم [٢٧] . وكانت هذه الزيجات تنتهي ، في كثير من الأحيان ، بالفشل دون أن تحقق الهدف المرجو منها . وهي ان دلت على شيء ، فانما تدل على تخلخل البنيان اللاتيني داخل « المملكة » بحيث لم يكن بوسعه الصمود أمام الهزات والأزمات العنيفة التي كان يتعرض لها بين وقت آخر . وكانت ضربة حطين هي المعول الذي قضى عليه .

---

(٢٤) Runciman, op. cit., II, 324, 400.

(٢٥) Runciman, op. cit., II, 72, 81-2.

(٢٦) Grousset, Histoire des Croisades, I (Paris, 1934), 201-7; Runciman, op. cit., I, 315ff., II, 72, 82-3, 177.

(٢٧) Runciman, op. cit., II, 36m 102-5, 177f., 292, 309, 349-50.

الظاهرة الخامسة : الفرنج القدامى المتمشرقون والفرنج الجدد المتحمسون .

كنا قد ذكرنا أن الصليبيين الأول الذين بقوا في الشرق واستطابوا الحياة فيه ، أصبحت لهم مصالح تربطهم به ، وأصبحوا يعيشون حياة هادئة مستقرة . ولذلك لم يكونوا على استعداد لتقبل مغامرين جدد من الغرب يفسدون عليهم حياتهم . وقد بدأت العلاقات السيئة والمصالح المتعارضة بين الفريقين تظهر بوضوح اعتبارا من الحملة الصليبية الثانية (١١٤٥ ـ ١١٤٨م) وحتى وقعة حطين واسترداد بيت المقدس ، اذ اعتبر الفرنج الذين استقروا في الشرق أن موطنهم هناك وليس في الغرب ، ونظروا الى الصليبيين الجدد كعناصر منافسة ودخيلة تسبب لهم المتاعب [٢٨] وترتب على ذلك أن وجد شعور بالعداء والكراهية لهؤلاء الفرنج الجدد ، الأمر الذي زاد من متاعب الملك اللاتيني في بيت المقدس ، وأضاف مشكلة أخرى الى المشاكل القائمة المتفاقمة والمتراكمة . وزاد بالتالي من سوء أوضاع الوجود الصليبي أمام اليقظة الاسلامية في القرن الثاني عشر الميلادى .

الظاهرة السادسة : الجماعات الرهبانية العسكرية ، والجاليات البحرية الايطالية .

من المشاكل العويصة التي سبب المضايقات لحكام بيت المقدس اللاتين ، وهيأت في نفس الوقت الجو للمعركة ، الجماعات الرهبانية العسكرية وبخاصة الاستبارية والداوية والتيوتون ، وكذلك الجاليات البحرية الايطالية وبخاصة البنادقة والجنوية والبيازنة .

كانت الجاليات الرهبانية العسكرية في الفترة المبكرة من تاريخ « مملكة » بيت المقدس اللاتينية ، مصدر قوة لها ، للمهام التي أوكلت اليها ، والقلاع التي كانت تتحصن بها في مناطق استراتيجية هامة . وكانت تمثل القوة العسكرية الرئيسية في « المملكة » . ولكن بمضى الوقت انغمس رجالها في المسائل الدنيوية ، وأصبحوا رجال دين ودنيا . وسعوا الى الربح والاثراء عن طريق التجارة والمكوس التي كانوا يفرضونها على القوافل المارة بمناطق نفوذهم . ويبلغ من وفرة ثروة هذه الجماعات أنها غدت في سنة ١١٨٧م التي أحرز فيها صلاح الدين نصره الساحق على الفرنج ، من أكبر ملاك الأراضى في الشرق الأدنى ، بسبب الهبات والعطايا من الأرض التي كان يمنحهم اياها ملوك بيت المقدس وغيرهم من الحكام الصليبيين . وأصبحت النزاعات الدائمة بينها ، والتنافس على الربح والمغانم ، شيئا عاديا مألوفا ، الأمر الذي قلل مع الزمن من قوتها العسكرية في مواجهة القوى الاسلامية في المنطقة ، تلك القوى التي بدأت في توحيد جبهتها لدرء الخطر الصليبي [٢٩] .

أما الجاليات البحرية الايطالية ، وان كانت قد ساعدت بأساطيلها على نقل الجند والعتاد من الغرب الأوروبي الى المشرق الاسلامي ، الا أن مشاكلها المتزايدة انعكست على « المملكة » اللاتينية بشكل ملموس ، في وقت كانت فيه « المملكة » غارقة حتى أذنيها في مشاكل أخرى عديدة . لقد كانت حرفة هذه الجاليات التجارة وما تدره عليها من أرباح ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم على حساب بني جنسها من اللاتين . ويكفي أن نعرف أن شعار

---

(٢٨) Conrad's Letter, ed. R.H.G.F., XV 534-5.

(٢٩) Lacroix, P., Vie militaire et religieuse au moyen age et a l'epoque de la renaissance (Paris, 1873), 198-9; idem, La chevalerie et les croisades (Paris, 1887), 226; Grousset, op. cit., II, 510; Runciman, op. cit., II, 156-8, 312-4.

البنادقة الذي اشتهروا بب كان « نحن أولا بنادقة وبعد ذلك مسيحيون » ، أما الجنوية فكان شعارهم « نحن جنوية أولا وأخيرا » ، بمعنى أن مصالحهم الخاصة كانت تأتي في المرتبة الأولى لذلك كانت المضار الناجمة عن تواجدهم في الاراضي المقدسة أثناء الاحتلال الصليبي لها أكثر من المزايا [٣٠] .

وبنظرة فاحصة يمكن القول ان مصالح هؤلاء الايطاليين كانت تتعارض مع مصالح السلطات الفرنجية في « المملكة » ، وكان آخر ما يرغبون فيه هو مواصلة القتال ضد المسلمين ، الأمر الذي كان يعود بالضرر عليهم وعلى تجارتهم . ويجب ألا ننسى أن هذه الامتيازات التي تمتعوا بها في « المملكة » أدت ـ بدورها ـ الى تفتيت وتشتيت مواردها المالية وقواها البشرية ، في وقت كانت أحوج ما تكون فيه الى مورد ثابت من المال وجيش قائم منظم . بل ان التنافس بين الجاليات البحرية الايطالية بعضها البعض داخل بيت المقدس وتوابعها ، في سبيل الحصول على أكبر قدر من المغانم ، أدى الى قيام الصراعات العنيفة بينها ، الأمر الذي زاد الطين بلة [٣١] ، وأضاف عاملا جوهريا لايمكن اغفاله ، الى العوامل سالفة الذكر التي أدت الى نصر حطين وعجلت به .

الظاهرة السابعة : مشاكل الامارات الفرنجية في الشام .

على الرغم من البعد الجغرافي للامارات الصليبية التي تكونت في أخريات القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر ـ على الرغم من بعدها الجغرافي عن بيت المقدس ، الا أنها أضافت الى مشاكلها المتراكمة مشاكل أخرى عديدة . لقد انشغل حكام هذه الامارات في القتال ضد بعضهم ، ضد جيرانهم من مسلمين وبيزنطيين ، وحسب الظروف والأحوال . وكثيرا ما استعانوا بحلفاء من المسلمين في صراعاتهم تلك [٣٢] وان دل هذا على شيء ، فانما يدل كيف انعكست مشاكل تلك الامارات على « المملكة » اللاتينية في القدس ، فزادت من أعبائها ، وأضعفت من قوتها ، حتى أنها لم تقو على الصمود امام صلاح الدين عندما وجه ضربته اليها في حطين .

الظاهرة الثامنة والأخيرة : سياسة الحكام الصليبيين حيال العرب الخاضعين لهم

لقد أبدى أولئك الحكام توددا ظاهريا حيال العرب الخاضعين لهم من مسلمين ومسيحيين شرقيين في مسعاهم المستميت للابقاء على وجودهم المهتز ، فسمحوا لهم بتشييد عدد من المساجد والكنائس الشرقية ، وأذنوا للمسلمين بالقسم على القرآن في المحاكم ، وأباحوا زواج المصاهرة بين الفرنج والعرب . وفي سعيهم للتقرب من الأهالي منحوا حرية التجارة في القدس للناس من كافة الطبقات . وسمحوا للتجار المسلمين في المناطق المجاورة بالقدوم بمتاجرهم الى بيت المقدس والموانىءالساحلية التابعة

---

(٣٠) Runciman, op. cit., II, 73, 88, 92, 167-71, 294, 314-5; Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen age, I (Leipzig, 1885), 343-4; Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, tr. from the French by I.E. Clegg (London, 1961), 30-3.

أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٧ ـ ٩٠ .

(٣١) Runciman, op. cit., II, 315.

(٣٢) Runciman, op. cit., II, 187-90.

لهم ، وأمروا بحسن معاملتهم [٣٣] وأشار الرحالة ابن جبير الى ذلك أثناء زيارته لبلاد الشام [٣٤] .

لقد اضطر حكام بيت المقدس اللاتين الى اصطناع هذه السياسة حتى يضمنوا تصريف منتجاتهم من ناحية ، ولايجاد حالة من الازدهار والرخاء في « المملكة » تعين على بقائهم وزيادة مواردهم وايراداتهم من ناحية أخرى ، وحتى لايظلوا أقلية منعزلة عن الغالبية العربية من الأهالي من ناحية ثالثة [٣٥] . والخلاصة أنهم سعوا الى كسب الأهالي الى جانبهم ، واعتمدوا عليهم اعتمادا يكاد يكون كليا في الزراعة والصناعة والتجارة ، وفي البناء والتشييد والزخرفة . ولم يكن أمامهم الا أن ينهجوا هذا السبيل ، ولاغرو ، فقد كان العرب وقتها يتفوقون حضاريا على الغرب اللاتيني الذي أخذ ينهل من علومهم ومعارفهم في شتى مناحي الحياة [٣٦] .

وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن الفرنج بعد أن اسقط في أيديهم ، بدأوا في اصطناع سياسة المداهنة حيال العرب الخاضعين لهم والمسلمين المجاورين ، علهم يحققون ما اخفقوا في تحقيقه عن طريق الحرب والقتال . كما يكشف ، بشكل غير مباشر ، عن احساسهم بأن وجودهم في المنطقة لايرتكز على أسس صلبة متينة . ولاشك أن احساسهم الدائم بالقلق وعدم الاستقرار والخوف مما يخبئه لهم المستقبل نتيجة لهذه الأوضاع ، كان عاملا نفسيا له أثره غير المباشر ، الى جانب الاعتبارات الأخرى ، في تمهيد الطريق لنصر حطين .

لعلنا نستبين مما سبق أن المشاكل كانت تلاحق حكام بيت المقدس اللاتين منذ اليوم الأول . وهي مشاكل معقدة ، متداخلة في بعضها ، تراكمت وتفاقمت بمرور الزمن بحيث لم يكن من السهل تخطيها ، أو التغلب عليها ، أو ايجاد حلول حاسمة لها . لقد كانت القدس وتوابعها وقتها مسرحا عجيبا للدسائس والمغامرات والمناورات والفوضى التي لا أول لها ولاآخر . زيادة على ذلك ، وجود أطفال قصر يتولون الحكم تحت وصاية أشخاص أصحاب مطامع في الحكم ، أو وجود حكام مرضى لايقوون على ممارسة مهام الحكم والقيام بمسؤولياته . وكان هذا أمرا متوقعا . لقد بدا مجتمعهم الاقطاعي الذي أقاموه في الشرق الأدنى متداعيا منهارا لايقوى على الوقوف على قدميه ، ولاتتوافر فيه مقومات الدول والحكومات الشرعية بالمعنى المفهوم . لقد ولد هذا المجتمع ضعيفا هزيلا . فلم توجد فيه سمات الأمم والحكومات ، كالآداب والعرف والتقاليد والجيش القومي الدائم المسلح المدرب ، والأسطول الثابت المزود بأطقم من البحارة ، أو الثروة العامة ورؤوس الأموال النامية ، بل ضم أشتاتا من الخلق من مختلف الأجناس واللغات ، ومن مختلف الفئات والطوائف والطبقات الوافدة من الغرب في أرض غير أرضها وملك غير

---

(٣٣) Runciman, op. cit., II, 100-1, 156, 318.

(٣٤) ابن جبير (ت٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٧٦ - ٢٧٧ و ٢٨٨ و ٢٩٠ - ٢٩٣ . راجع أيضا زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥) ، ص ٨٢ - ٨٣ و ٩٨ . وكذلك :
Grousset, Sum of History, 178; G.C., Medieval Panorama (New York, 1955), 322.

(٣٥) Runciman, op. cit., II, 101, 445.

(٣٦) Runciman, op. cit., II, 318 & n. 1, 459-60, 466.
وكذلك ابن منقذ : كتاب الاعتبار ، نشر فليب حتى (برنستون ١٩٣٠) ، ص ١٣٢ - ١٣٤ و ١٣٧ - ١٣٨ .

ملكها . ولذلك ظل عرضة للتقلبات والهزات والأزمات العنيفة ، ونهبا للكوارث والمحن والويلات التي كانت تحل به بين الحين والحين . وكانت عوامل الضعف هذه تسري في شرايينه الى ان قوضته من داخله في نهاية الأمر .

وفي نفس هذا الوقت الذي أصيب فيه الشرق اللاتيني بحالة من الشلل والجمود ، بدأ الغرب الأوروبي ينشغل عنه بسبب انغماسه في مشاكله المحلية والخاصة ، وعلى رأسها الصراع العلماني بين البابوية والامبراطورية على الأمورالدنيوية ، الأمر الذي اصاب المسيحية الغربية بضرر بالغ . هذا ، فضلا عن العيوب التي تفشت في الجهاز الكنسي البابوي ، وجعلت المفكرين ينادون باصلاحه . ولذلك لم تجد طلبات الاستغاثة التي طلبها ملوك بيت المقدس وافرنج الشام الاستجابة الكافية . وحتى الحجاج اللاتين الذين كانوا يزورون القدس قل عددهم قلة محسوسة . وفترت الحماسة الدينية للحركة الصليبية فتورا شديدا . وبدلا من أن يندفع الناس في حروب دينية ضد المسلمين ، أصبحوا يتشككون في جدواها وفائدتها ، بعد أن ذهبت الآلاف المؤلفة من زهرة شباب الغرب بين أسير وقتيل وجريح . وتناول الكتاب والمؤرخون اللاتين المعاصرون للحركة الصليبية ، تلك الحركة بالنقد والسخرية . وكشفوا في كتبهم ومؤلفاتهم عن وجود رأى عام غربي ضد الفكرة الصليبية ، ووجود تيار معارض لها في الغرب ومنذ البداية [٣٧] .

وخلاصة القول اننا اذا تجاهلنا كل هذه الاعتبارات والعناصر التي أسلفنا اليها ، فليس هناك من سبيل الى تفسير أصول معركة حطين .

واذا انتقلنا الى القوى الاسلامية في الشرق الأدنى نقول انه كان يقابل هذا التدهور التدريجي في الكيان اللاتيني في بيت المقدس وتوابعها ، وانشغال الغرب بمشاكله عنها ، تزايد احساس الشعوب الاسلامية في المنطقة أن وجود هذا الكيان أصبح ـ على الرغم من اهتزازه ـ يشكل خطرا عليها يجب المبادرة بالقضاء عليه قبل أن يسري في بقية أجزاء المشرق الاسلامي . وكانت النتيجة الصحوة الاسلامية التي نضجت واكتملت في عهود عماد الدين زنكي ونور محود وصلاح الدين الأيوبي في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي . وكان هذا يعني بداية رجحان الكفة الاسلامية في الصراع ضد الصليبيين .

ولما كانت عجلة التاريخ في حركتها لاتعود الى الوراء ، كذلك كان الوضع بالنسبة للصراع السياسي والعسكري القائم في الأراضي المقدسة . كانت « دولة » اللاتين في بيت المقدس تزداد ضعفا وانقساما ، بينما كان المسلمون يكتلون أنفسهم لدفع الخطر الصليبي . فقد تمكن عماد الدين (١١٢٦ ـ ١١٤٦م) من الاستيلاء على حلب (١١٢٨م) ، وحماه (١١٢٩م) ، والرها (١١٤٤م) [٣٨] . فكانت أول مدينة يستولى عليهاالفرنج ، وأول مدينة يستردها منهم المسلمون . وتم ذلك أثناء حكم الملك الصليبي فولك أوف انجو . ثم جاء بعده ابنه نور الدين (١١٤٦ ـ ١١٧٤م) الذي استولى على دمشق

---

(٣٧) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي والرأي العام الغربي ، ص ٣١ ـ ٥٢ . وكذلك المرجع التالي :
Throop op. cit., II, 2ff.

(٣٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٤ م) : تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، جـ ٢ ق ٢ ، ص ١١٨ ـ ١٢٥ . راجع أيضا :
Gregoire le Pretre, Chronique, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 157.

(١١٥٤م) ، ونجح في بناء دولة قوية متحدة ذات حدود متصلة تواجه « دولة الفرنج في القدس وباقي ممتلكاتهم في الشام ، الأمر الذي أزعج الفرنج وهدد وجودهم في المنطقة [٣٩] . وحدث هذا في عهد الملك اللاتيني عموري الأول .

وبينما كان كل منهما نور الدين وعموري يتحفز للآخر ، تحول مجال الصراع والتنافس بينهما لتصبح مصر الفاطمية مسرحه وميدانه ، اذ طرأ على الحركة الصليبية آنذاك تطور هام مظهره محاولة كل منهما الاستيلاء على مصر وضمها الى أملاكه في الشام . وقد شجعهم على ذلك ما انتهت اليه حال الدولة الفاطمية في مصر من الضعف والانحلال [٤٠] . وكان كل منهما يعلم جيدا أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه في الظفر بمصر التي أصبحت العامل الحاسم في الصراع بينهما [٤١] . وكان من نتيجة ذلك أن توالت عليها حملات كل منهما فيما بين عامي ١١٦٣ و ١١٦٨م ، تلك الحملات التي انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه الذي دخل القاهرة منتصرا في يناير ١١٦٩م [٤٢] وهكذا أخفق الملك اللاتيني في محاولة ضم مصر الى « أملاكه » بالشام [٤٣] .

ومنذ ذلك الحين أصبحت « دولة » اللاتين في بيت المقدس محاصرة من الشمال والجنوب بقوات المسلمين ، وباتت معرضة للضياع . ولم يكن أمام الفرنج ، هذه المرة ، سوى البحر . وحتى من هذه الناحية أصبح مركزهم مهددا بالخطر ، لأن الأسطول الاسلامي القوي في البحر المتوسط كان واقفا لهم بالمرصاد . وقد انتابهم الخوف حتى لقد قال أحد كتابهم ، وهو وليم الصوري الذي عاصر هذه الحقبة وشاهد أحداثها ، إن هذا التغيير الجوهري الذي طرأ على القوى الاسلامية قد وقع على رؤوس الغربيين وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مصيبة كبيرة لمصالح مستعمراتهم في فلسطين [٤٤] .

---

(٣٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٣ و ٣٣٩ - ٣٤٢ . أنظر أيضا :
Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. R.H.C.-H. Occ., 2e. partie (Paris, 1844), 895-7.

(٤٠) ابن الأثير : كتاب الكامل في التاريخ ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، ج ١ (باريس ١٨٧٢ م) ، ص ٥٥٠ ، ابو الفدا (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م) : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ (استانة ١٢٨٦) ، ص ٤٠ - ٤٢ ، ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥(القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٢٨ - ٣٢٩ و ٣٤٥ - ٣٤٦ و ٣٦٣ . و أيضا :
Guillaume de Tyr, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 2e. partie, 833.

(٤١) ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) : سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مصر ١٣١٧هـ) ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، ج ١ ، ص ٥٣٥ و ٥٤٧ . وأيضا ؛
Stevenson, W.B., The Crusaders in the East (Cambrihge, 1907), .87,

B)24(tdlh djugr fhgjkhts fdk ıg lk ul,vx h,,g ,k,v hg¾dk lpl,¾ ugx lgı lwv ,plbjll q¾lh ⅞ Xk¾v hfk a¾h¾ ; hgk,h¾v hgsg½hkdn ⅞ w 82 ’ 53 ⅞ hfk hbedv ; jhvdo hg¾,gn h,jhfıdn ⅞ w 312 ’ 912 , 632 ’ 142 , 642 ’ 352 ; ,hgıhlg td hgjhvdo ⅞ w 235 ’ 145 , 645 ’ 155 , 355 ’ 855 — ,Xdqh :
Michel le Syrien, op. cit., R.H.C.-Doc. Arm., I, 353-9; Guillaume de Tye, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 890-1, 934, 945-6. Cf. also Schlumberger, G., Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jersualem en Egypte, au XIIe. siecle (Paris, 1906), 46-8, 63-98, 172-229.

(٤٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٣ - ٣٤ و ٣٨ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ٥٦٦ - ٥٧٦ و ٥٩٩ و ٦١١ - ٦١٤ . أنظر أيضا ؛
Casanova, P., "Les derniers Fatimides," ed. Memoires de la Mission Archeologique Francais du Caire, VI, 3e. fasc. (Paris, 1893), 422-32; Schlumberger, op. cit., 262-91.

(٤٤) Guillaume de Tyr, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 2e. partie, 895-7.

كان هذا يعني تأكد رجحان الكفة الاسلامية في الصراع بين المسلمين والصليبيين ، بحيث أصبح مركز الثقل يميل بقوة الى جانبهم . هذا ، بينما كانت مدينة بيت المقدس وتوابعها تزداد ضعفا وهزالا يوما بعد يوم ، والغرب الاوروبي في شغل شاغل عنها بسبب ما استجد على المسرح هناك من متغيرات . وكان صلاح الدين الذي خلف أسد الدين شيركوه قد أعلن نهاية الدولة الفاطمية في مصر وبداية الدولة الأيوبية التي قامت على أساس الجهاد ضد الصليبيين ، وليكون هو أول ملوكها .

وهكذا أصبح كل شيء معدا ، وباتت الظروف مهيأة لتوجيه الضربة القاصمة الى الصليبيين و « مملكتهم » في الأراضي المقدسة ، بعد أن قضت حركة اليقظة الاسلامية على كل أمل لهم في التوسع ، بل وفي مجرد البقاء . وتم هذا أيام صلاح الدين فبعد أن اطمأن الى سلامة الجبهة الاسلامية في الشرق الأدنى ، قام بجهاده المعروف ضد الصليبيين . وقد مر هذا الجهاد بثلاث مراحل تقع معركة حطين في المرحلة الثالثة والأخيرة منه ، المرحلة الأولى (١١٧١ - ١١٧٩م) كانت مرحلة اعداد ومناورات . وقد بدأت منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الملك على مصر ، عندما حاصر قلعة الشوبك (١١٧١م) الواقعة في طريق القوافل بين الشام ومصر ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها لدفاع الفرنج عنها . وفي اكتوبر ١١٧٧م التقى أمام الرملة بأحد زعماء الفرنج وهو أرناط صاحب الكرك ، ولكنه انهزم أمام حصن بيت جبرين . وفي خريف ١١٧٩م انتصرت جيوشه على الصليبيين في موقعة مرج عيون ، وان لم تخرج الفرنج من معقلهم في بيت المقدس ومن الجيوب الصليبية الأخرى في الشام .

وبمرج عيون تنتهي المرحلة الأولى لتبدأ المرحلة الثانية من جهاد صلاح الدين (١١٨٢ - ١١٨٧م) ، وكانت قد أثارته محاولات أرناط تخريب مكة والمدينة ، وأوغرت صدور المسلمين ضد الفرنج ، فقام بحملات منظمة ضدهم ، وهاجمهم في معاقلهم مثل عين جالوت والكرك فيما بين عامي ١١٨٣ و ١١٨٦م ، بحيث لم يترك لهم سبيلا للراحة . وتنتهي هذه المرحلة بمحاولة غير ناجحة لصلاح الدين في حصار الكرك في أوائل ١١٨٧م بقصد الاستيلاء عليها .

تأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة والأخيرة من جهاده ، وهي الحرب الهجومية . ففي ٢ يوليو ١١٨٧ م استولى صلاح الدين على طبرية ، ثم التقى بجيوش الفرنج مجتمعة في حطين بعد ذلك بيومين ، وهناك وقعت أكبر معركة في تاريخ الحركة الصليبية لحقت بالفرنج فيها هزيمة ساحقة . وتبعت ذلك سلسلة من الانتصارات أحرزها صلاح الدين ، حيث أخذت معاقلهم تسقط في قبضته الواحد بعد الآخر ، الى أن وصلت جيوشه أمام بيت المقدس التي استسلمت حاميتها ، ودخلها صلاح الدين منتصرا يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧ م)[٤٥] . وجدير بالتنويه هنا أن صلاح الدين لم ينتقم من سكانها الفرنج ، بل عاملهم معاملة إنسانية كريمة سجلها كتابهم ومؤرخوهم[٤٦] ، وذلك بعكس ما فعله الفرنج عندما اقتحموا المسجد الأقصى وقبة الصخرة بعد استيلائهم على القدس في

(٤٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٠ - ٧٣ و ١٤٣ - ١٦٥ و ٢٠١ - ٢٢٧ و ٢٣٥ - ٢٣٧ ، الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) : الفتح القسي في الفتح القدسي (القاهرة ١٣٢١ هـ) ، ١٧ - ٢٥ و ٣٦ - ٤٥ و ١٤٠ - ٢٦٠ و ٣١٤ - ٣١٧ ؛ ابن الأثير ؛ الكامل في التاريخ ، ص ٦١٤ - ٧٤٤ . أنظر أيضا :
Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle, ed. R.H.C.-Doc.-Arm., I (Paris, 1869), 439.

(٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣١ - ٣٣ و ١٥٨ - ١٥٩ . راجع كذلك :

الحملة الصليبية الأولى(٤٧) . وتم تطهير المسجد الأقصى من كل آثار احتلال الصليبيين له . وأعد المسجد الأقصى وقبة الصخرة لتأدية الشعائر الاسلامية بهما من جديد(٤٨) ولكن العيش لم يدم طويلا لصلاح الدين ليواصل جهاده وفتوحاته ضد الفرنج في الشام ، اذ مات في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ/٢١ فبراير ١١٩٣ م وله من العمر اذ ذاك ٥٥ عاما .

لقد اعتبرت معركة حطين واستعادة صلاح الدين لمدينة بيت المقدس من الفرنج ، حدثا هاما في تاريخ الحركة اهصليبية بصفة عامة ، وفي التاريخ الاسلامي على وجه الخصوص ، أفاض في الحديث عنه المؤرخون المسلمون مثل ابن شداد وعماد الدين الاصفهاني وابن الأثير والمقريزي ، كما تكلم عنه بمرارة المؤرخون اللاتين مثل جاك دي فيتري ووليم الصورى . ومنذ ذلك الحين انكمشت امارات الفرنج في رقعة ضيقة بالساحل الشامي وتمكن خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ومن جاء بعدهم من سلاطين دولة المماليك الاولى من إخراجهم منها في أخريات القرن الثالث عشر الميلادي ، بعد قرنين من الصراع الدامي المرير .

ويتساءل المؤرخ ستيفن رانسيمان في ختام الجزء الثاني من كتابه عن الحروب الصليبية : « هل تعزى انتصارات صلاح الدين ضد الصليبيين إلى رد الفعل الحتمي عند المسلمين على تحدي الفرنج ؟ أم ترجع الى ما اشتهر به كبار الزعماء المسلمين الذين سبقوه من سياسة بعيدة النظر ؟ أم ترجع الى ما وقع بين الفرنج أنفسهم من منازعات وحماقات ؟ أم ترجع الى شخصية صلاح الدين القوية وعزيمته التي لا تلين ؟ »(٤٩) . وردا على هذه التساؤلات نقول انه لا خلاف أن انتصارات صلاح الدين التي توجها بنصر حطين واسترداد بيت المقدس ترجع ، أولا وقبل أي شيء آخر ، الى وحدة الشرق الأدنى الاسلامي من مصر جنوبا حتى الشام والعراق في أقصى الشمال في مجابهة الخطر الصليبي ، الأمر الذي أخل بتوازن القوى بين طرفي الصراع . فبعد أن كانت كفة الصليبيين هي الراجحة في بداية الحركة الصليبية في أخريات القرن الحادي عشر ، حدث التوازن في الصراع بينهما في أواسط القرن الثاني عشر ، الذي أعقبته الصحوة فالوحدة الاسلامية الشاملة في أخريات ذلك القرن . وهنا أصبح الجو مهيأ أمام صلاح الدين لتوجيه ضربته في حطين وما تلاها من تحرير المدينة المقدسة . ومع ذلك ، لا خلاف أيضا ان الخلفيات السابقة للمعركة التي تحدثنا عنها ، قد أسهمت ، بشكل أو بآخر ، وبطريق مباشر أو غير مباشر ، في التمهيد للنصر الاسلامي والتعجيل به . وفي اعتقادي أننا اذا لم نضع هذه الخلفيات مجتمعة في الحسبان ، يصبح الحديث عن ممهدات المعركة وظروف وعوامل اندلاعها أمرا مبتورا .

وأخيرا ، لعلنا نستخلص مما سبق عدة حقائق لها مغزاها ودلالاتها ، هي :

أولا ـ الصراع بين صلاح الدين والصليبيين الذي انتهى بانتصار حطين ، هو حلقة في تلك السلسلة

(٤٧) Runciman, op. cit., II, 466.

Runciman, op. cit., II, 316.

انظر أيضا عارف باشا العارف : تاريخ القدس (القاهرة ١٩٥١) ، ص ٧١ - ٧٢ و ٧٤

(٤٨) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم و اللاتين ، ص ١١١ - ١١٨ والحواش ؛ والعدوان الصليبي على مصر ، ط . ثالثة (الاسكندرية ١٩٨٤) ، ص ١١٦ - ١٢١ .

(٤٩) Runciman, op. cit., II, 473.

الطويلة من الصراع بين العالمين العربي الاسلامي والأوروبي المسيحي ، الذي امتد قرابة ألف عام منذ ظهور الاسلام في العقود الأولى من القرن السابع وحتى بدايات القرن السادس عشر الميلادي . وهو ، في ذات الوقت ، مرحلة من مراحل الكفاح المرير بين شقي العالم منذ القدم وحتى اليوم .

ثانيا ـ أفضل تعريف للصراع بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى منذ عام ١٠٩٩ وحتى عام ١١٨٧ م ، أي منذ استيلاء الفرنج على بيت المقدس وحتى معركة حطين واستعادة صلاح الدين للمدينة المقدسة ، أنه صراع سياسي وحضاري بين قوتين عظميين وحضارتين مختلفتين ، كل منهما تحاول أن تفرض نفسها على الأخرى . وكان مركز الثقل في الصراع بين الطرفين يتغير هبوطا وصعودا وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال لدى كل منهما . ففي الوقت الذي ترجح فيه كفة الصليبيين لا يكون ميزان القوى في صالح المسلمين . وبالعكس ، عندما ترجح كفة المسلمين كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور في الجانب الصليبي . ومن هنا عندما يشعر الغرب أنه الأقوى كان يقوم بهجماته على العالم العربي الاسلامي ، ويحرز عادة انتصارات سريعة وخاطفة ، مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية الأولى .

وعندما يستجمع المسلمون قواهم ويوحدون جبهتهم ، كانوا يقومون بهجمات مضادة تنتهي عادة بالحاق الهزيمة بالفرنج ، مثلما حدث في معركة حطين . وباختصار ، أمسك المسلمون في عصور القوة بزمام المبادأة وتوجيه الضربة الأولى ، بينما التزموا بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام في عصور الضعف . والعكس صحيح بالنسبة للطرف الآخر .

ولكن عندما يعتدل ميزان القوى في الصراع بين الفريقين ، كان هذا يعني نوعا من الهدنة المؤقتة أو فترة من التربص والانتظار وجس النبض مع الاستعداد والترقب لحين موافاة الفرصة المواتية للانقضاض ، مثلما حدث أثناء بواكير الصحوة الاسلامية في الشرق الأدنى . والنجاح يكون آخر الأمر لمن تهيىء له الظروف رجحان كفته مثلما حدث في نصر حطين .

ثالثا ـ هذه الفكرة ترتبط بسابقتها ، وهي أن المسلمين تعلموا درسا من صراعهم ضد الصليبيين . لقد أدركوا أن تكتلهم في جبهة واحدة قوية متحدة ، كان أمرا لا مندوحة عنه للدفاع عن أنفسهم ضد الفرنج ودفع خطرهم . وهذا يعني أنه لكي يحرز المسلمون نصرا نهائيا وحاسما على أعدائهم ينتهي بتحرير المدينة المقدسة من قبضتهم ، يجب ـ أولا وقبل أي شيء ـ أن يوحدوا جبهتهم الداخلية . وهذا ما أقدم عليه صلاح الدين قبل المعركة .

رابعا ـ حقيقة أخرى نستخلصها من معركة حطين هي أنه ضمانا لاحراز نصر اسلامي محقق ، يجب أن تسبق عملية الكفاح المسلح عملية توحيد الجبهة الاسلامية . وهذا ما فعله صلاح الدين فهو لم يبدأ بجهاده ضد الصليبيين الا بعد أن اطمأن الى سلامة الجبهة الداخلية وتماسكها . وفي بعض الأحيان كانت عملية توحيد الجبهة تسير جنبا الى جنب مع الكفاح المسلح ، وفي أحايين أخرى كان الجهاد المسلح يسبق توحيد الجبهة ، وذلك عندما كان المسلمون يجدون أنفسهم مرغمين أو مكرهين على ذلك[٥٠] .

خامسا ـ كانت أهداف الحركة الصليبية منذ بدايتها ـ ونعني بذلك التوسع والاستيطان تحت رداء الدين ـ

(٥٠) Cf. Stevenson, op. cit., 723-4.

دافعا وحافزا لاثارة الحماسة الاسلامية التي بدأت في شكل وثبات وتجمعات هنا وهناك ، أعقبتها الصحوة والافاقة ، التي تبلورت آخر الأمر في توحيد الجبهة الاسلامية في المنطقة ضد الدخلاء ، الى أن انتهى الامر بالحاق هزيمة شديدة بهم في حطين واسترداد البيت المقدس .

سادسا ـ لأن الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة كان يشكل ومنذ البداية « دولة » ليس لها مقومات الدول ، كانت مسرحا للفوضى والاضطراب والمشاكل ، ونهبا للمحن والكوارث ، فقد ظل وجودا مهتزا ضعيفا مفككا تعصف به الرياح من كل جانب : رياح التمزق والتفسخ من داخله ، ورياح اليقظة والصحوة الاسلامية من خارجه . ولهذا كان مصيره الى زوال ، وجاءت ضربة حطين لتؤدي هذا الدور . وكان سقوط بقية المعاقل اللاتينية في الشام مسألة وقت لا أكثر ولا أقل .

سابعا ـ جدير بالتنويه ، أيضا ، أنه منذ بداية الحركة الصليبية وحتى نهايتها مرورا بمعركة حطين ، لم يتسن للصليبيين اطلاقا غزو العواصم والمدن الاسلامية الداخلية ، مثل القاهرة ودمشق وحلب وحماه وبغداد ، حتى أثناء رجحان كفتهم في الصراع ضد المسلمين ، ورغم محاولاتهم المتكررة لتحقيق ذلك . لقد كانوا يؤثرون البقاء في المدن الساحلية أو القريبة من الساحل ، وعدم المخاطرة بالتوغل في الداخل ، لأنهم كانوا يعلمون جيدا أنهم سوف يجدون أنفسهم وسط محيط من البشر المتحفزين للانقضاض عليهم وتنغيص حياتهم بحيث تصبح جحيما لا يطاق . وحدث هذا بالفعل بعد استكمال توحيد الجبهة الاسلامية .

ثامنا وأخيرا ـ تكشف تفاصيل هذا البحث عن حقيقة هامة لها دلالتها ، وهي أن بيت المقدس ـ بأصولها وجذورها العربية الاسلامية الموغلة في التاريخ ـ ظلت مدينة عربية الصبغة والطابع منذ الفتح العربي لها ، وحتى تحريرها أيام صلاح الدين . وحتى وهي في ظل الاحتلال الصليبي لها الذي لم يزد على قرن من الزمان ، كانت العناصر العربية تشكل الأكثرية الغالبة فيها . فلا عجب أن تكون ضربة حطين هي بداية النهاية بالنسبة للوجود الصليبي في الشرق الأدنى الاسلامي .

* * *

المختصرات

A.O.L. Les Archives de l'Orient Latin.
R.H.C.-Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades — Documents Armeniens.
R.H.C.-H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Occidentaux.
R.H.C.-H. Or. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Orientaux.
R.H.G.F. Recueil des Historiens des Gaules et de la France.

* * *

صدر حديثا

تأملات حول التاريخ والمؤرخين [١]

تأليف : تيودور س . هيمرو
عرض وتحليل : مصطفى العبادي

كتبت هذه التأملات ليقرأها المهتمون بالتاريخ بصفة عامة ، ولكنها تهم كل من يمارسون او يعانون الكتابة التاريخية بصفة خاصة . فهى ثمرة تجربة وخبرة طويلة فى دراسة التاريخ وتدريسه تزيد على ثلاثين عاما . فالمؤلف تيودور هيمرو حصل على الدكتوراه من جامعة ييل عام ١٩٥١ وقام بالتدريس فى جامعة ويسكونسن ـ ماديسون منذ ١٩٥٨ ، وأصبح من أعلام الحركة التاريخية المعاصرة بالولايات المتحدة الامريكية ، فقد اكتسب شهرة ومكانة مرموقة فى دراسة تاريخ وسط أوربا فى القرن التاسع عشر . ومن أهم أعماله فى هذا المجال كتب ثلاثة[٢] ، هى :

« إصلاح وثورة ورجعية : دراسة فى الاقتصاد والسياسة فى المانيا ١٨١٥ ـ ١٨٧١ » ، والثانى بعنوان « الأسس الاجتماعية لتوحيد المانيا ١٨٥٨ ـ ١٨٧١ » ، والثالث « ميلاد أوربا جديدة ، دراسة فى الدولة والمجتمع فى القرن التاسع عشر » . وواضح انه مؤرخ حرفي ملتزم فى استاذيته بالجامعة بمبدأ التخصص الدقيق ، فأهم اعماله الكبيرة تتركز وتكاد تنحصر فى اوربا فى القرن التاسع عشر ، مع اهتمام خاص بالأسس الاجتماعية والاقتصادية للتاريخ السياسى . وليس فى اختياره هذا المجال أى غرابة ، فالاهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى دراسة التاريخ يرجع الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كرد فعل لما حدث فى الحياة الفكرية والسياسية فى أوربا تحت تأثير الفكر الماركسي . واذا كانت ردود الفعل قد

(١) Theodore S. Hamerow:
Reflections on History and Historians (The University of Wisconsin Press 1987).

(٢) — Theodore S. Hamerow:
— **Restoration, Revolution, Reaction: Economic and Politics in Germany in 1815-1871.** (Princeton University Press. 1958)
— **The Social Foundations of German Unification, 1858-1871** (Princeton University Press. 1969, 1972)
— **The Birth of a New Europe: State and Society in the Nineteenth Century** (University of North Carolina Press, 1983)

تباينت وتعارضت أحيانا فى بعض المجالات الاخرى بين اتباع المدارس الفكرية المختلفة ، فان كثيرين من دارسي التاريخ على اختلاف انتماءاتهم سلموا بأهمية وضرورة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى دراسة التاريخ ، وانها تمثل فى كثير من الاحيان الحقائق الاساسية وراء الظواهر والمتغيرات السياسية أو العسكرية . ولكن مناهج تطبيق وممارسة هذه الدراسات لم تستقر على أسس ثابته قوية الا فى فترة مابين الحربين العالميتين ، حين قفز بها روستفتزف(٣) قفزة العملاق فى دراسته الرائدة عن « التاريخ الاجتماعي والاقتصادى للامبراطورية الرومانية » (عام ١٩٢٦) ، والذى اعتبر حينئذ أهم دارسة شاملة للجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى واحدة من أهم مراحل التاريخ وهى الامبراطورية الرومانية . وقد اعقبها روستفتزف بدراسة ثانية أرقى منهجا ، موضوعها التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعصر الهللينستى (عام ١٩٤٥) . وقد شارك عشرات من مؤرخى النصف الاول من القرن العشرين فى إلقاء الاضواء على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى عصور ومناطق أخرى من الدراسات التاريخية . ولكنها جميعا توقفت أو كادت خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم تكد الحرب تضع اوزارها فى ١٩٤٥ حتى وجدنا جيلا جديدا من شباب المؤرخين يتقدمون الى صف الصدارة ويتحملون مسئولية توجيه الحركة التاريخية . وتميز هذا الجيل بصفتين واضحتين هما خيبة الامل وروح الثورة . اما خيبة الامل فكان مبعثها أن هذا الجيل نشأ تحت تأثير محنتين قاسيتين زلزلتا كثيرا من أفكارهم ومعتقداتهم ، وهما محنة الازمة الاقتصادية الكبرى فى بداية الثلاثينيات ومحنة الحرب العالمية الثانية فى نهاية الثلاثينيات . وكان من أهم آثار هاتين المحنتين وظروفهما المعقدة تراجع الليبرالية وانزواؤها بعد أن سادت أوربا سياسة واقتصادا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . أما روح الثورة ـ وهى مترتبة على الصفة السابقة ـ فقد تمثلت فى إخضاع التجربة التاريخية السابقة ليس للمراجعة فحسب ولكن لأقسى درجات النقد . وكانت النتيجة هامة جدا ، وهى أن جيل المؤرخين الجدد لم يقتنع بما حققه جيل النصف الاول من القرن العشرين من إنجازات . ورأوا أن مناهجم ـ رغم ما اتسمت به من دقة علمية ـ أضعف من أن تصل بهم الى معرفة الحقائق التاريخية .

هذه هى الخلفية التاريخية التى عاصرها وكتب فى إطارها مؤلفنا تيودور هيمرو . والطريف فى كتابه الأخير ، الذى نعرض له هنا ، وهو « تأملات حول التاريخ والمؤرخين » (١٩٨٧) ، انه محاولة جديدة يتقدم بها مؤرخ ممارس ويتخذ فيها موقفا نقديا من المنهج الذى مارسه ومن المدرسة التى عمل فى إطارها . ومما يزيد هذه المحاولة طرافة أن هيمرو يمثل بهذا العمل نموذجا غير شائع بين المارسين للكتابة التاريخية على مستوى التخصص الدقيق . فليس من المألوف أن يهتم المؤرخون المتخصصون بمناقشة الأسس النظرية للمعرفة التاريخية ، بل إن كثيرين منهم يعزفون عنها عن عمد فى شيء من الترفع ، اعتقادا منهم أن دراسة إبستيمولوجيا التاريخ أي طبيعة المعرفة التاريخية وقيمتها هى من مباحث الفلسفة أكثر من كونها من مباحث التاريخ . ولذلك لم يتجه الى دراسة الأسس النظرية للمعرفة التاريخية سوى فيلسوف مؤرخ أو مؤرخ فيلسوف . أما المؤرخ الحِرَفى المتخصص فقد

---

(٣) M.I. Rostovtzeff:— **The Social and Economic History of the Roman Empire** (Oxford 1926)
— **The Social and Economic History of the Hellenistic World.** (Oxford 1945).

مضى فى سعيه الى معرفة حقائق أحداث الماضى ، يستخرجها من ثنايا ماتخلف عن الماضى من معلومات ، بعد أن يخضعها لمنهجه التجريبى القاسي من التحقيق والنقد والتفسير . من أجل هذا السبب كان لمحاولة هيمرو أهمية خاصة ، لانه ينتمى الى مثال غير شائع بين أساتذة التاريخ ؛ فاذا كان قد اتخذ مثل غيره من التاريخ مهنة ، وأمضى فى دراسته وتدريسه أكثر من ثلاثين عاما ، فقد اختار - على غير المألوف - وهو فى قمة تجربته الاكاديمية أن يجلس جلسة هادئة ويلقي نظرة ناقدة الى الأصول النظرية التى قامت عليها تجربته العلمية وتجربة الجيل الذى عايشه وعاصره .

ولعل أهمية كتاب هيمرو عن التاريخ والمؤرخين ترجع الى أنه إضافة جديدة الى معركة علمية نشبت بين المشتغلين بالتاريخ فى النصف الثانى من القرن العشرين . وهى التى عرفت بأزمة التاريخ .

أما سبب هذه الأزمة فهو اختلاف المؤرخين حول أمور أساسية فى مهنتهم وهى مفهوم التاريخ وأهدافه ومناهجه . ولاينبغى أن يتبادر الى الذهن ان هذه الأزمة أو تلك المعركة هى الأولى من نوعها فى دراسة التاريخ . فالفكر التاريخى له معاركه ايضا . ففى العصور القديمة عند اليونان ثار هيرودوت[٤] - أبو التاريخ - على منهج سابقيه من الاخباريين ، وله الفضل فى أنه أطلق على دراسة التاريخ كلمة « Historia » بمعنى بحث ، ومن بعده ارتبطت بكتابة التاريخ . ثم ثار على هيرودوت تلميذه ثوكوديدس[٥] ، وأخضع المادة التاريخية لمنهج قاسٍ من النقد العقلى أكثر مما فعل هيرودوت . وفى العصور الوسطى غلب التفكير الدينى على كتابة التاريخ فى الشرق والغرب على السواء ، ولكن هناك بين المؤرخين المسلمين عدد تمثلت فيهم درجة راقية من الموضوعية والنظرة النقدية للمادة التاريخية . ويكفى أن نذكر مقدمة ابن خلدون الذى استطاع فى القرن الرابع عشر ان يقدم آراء فى الفكر التاريخى والاجتماعى لم يسبق اليها[٦] . ثم كانت النهضة الأوربية ، والتى تمثلت فى الثورة على الفكر الدينى الذى ساد طيلة العصور الوسطى : وقد بلغت هذه الثورة ذروتها فى القرن الثامن عشر فيما يعرف بعصر الاستنارة (Enlightenment) والذى يمثله أحسن تمثيل أعظم مؤرخيه ادوارد جيبون[٧] ، الذى مارس مبادىء « الاستنارة » من حيث استخدام العقل المجرد فى دراسة موضوع « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » . وكذلك فعل المفكر الفرنسى المشهور مونتسكيو فى دراسة حول « عظمة واضمحلال الرومان »[٨] . وما من شك أن هذه الأعمال الرائدة فى القرن الثامن عشر تمثل الأصول التى نمت وانطلقت منها كتابة التاريخ الحديثة فى أوربا . وفى القرن التاسع عشر بعد ذلك ، وفى إطار الانجازات الرائعة التى حققتها مجموعة من العلوم ، نشطت حركة علمية جادة فى التاريخ ، تقاوم بعض التيارات الفلسفية والفكرية التى حاولت ان تقترح نظريات لتفسير التاريخ ، مثل محاولة هيجل ، فتصدى لها رائد الحركة العلمية

---

(٤)
— Herodotus, The Persian Wars (C. 484-425 B.C.)

(٥)
— Thucydides, The Peloponnesian War (C. 471-401 B.C.)

(٦) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م).

(٧)
— Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (1737-1794).

(٨)
Montesquieu (1689-1755): Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur decadnce (1734)

التاريخية وهو المؤرخ الالمانى ليو بولد فون رانكة ، الذى رفع شعار : أن هدف المؤرخ هو أن يعرف « حقيقة ما حدث فعلا فى الماضى . » وكان لهذه العبارة ـ على بساطتها ـ جاذبية ورواج بين من نظروا للتاريخ نظرة علمية . وفى النصف الاول من القرن العشرين كانت النظرة العلمية للتاريخ قد تأكدت وازدادت عمقا وشمولا بفضل اتساع آفاق المعرفة التاريخية لتتناول الحضارة بمظاهرها المتعددة وبصفة خاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية . وفى الوقت نفسه ارتقى منهج البحث التاريخى وأرسيت قواعده على أسس علمية تقوم على النقد والتحليل للمصادر .

وهكذا كان قد استقر التاريخ موضوعا ومنهجا فى النصف الاول من القرن العشرين ، واكتسب مكانة مرموقة بين العلوم والدراسات الاكاديمية . كما انضاف الى هذه المكانة الاكاديمية مكانة اجتماعية ، نشأت عن اعتقاد راسخ بأن التاريخ ضروري لفهم حركة المجتمع واتجاهه . وما من شك أن الاهمية التى حظي بها التاريخ فى منهج التعليم العام كانت تعكس ذلك الاعتقاد بأن التاريخ مفتاح صحيح لفهم الماضي ورؤية المستقبل . وهنا تدخلت أيضا إحدى المدارس الفلسفية التى تبحث فى طبيعة المعرفة التاريخية وقيمتها ، والتى تسمى اصطلاحا ابستيمولوجيا episte-mology وعلى كره من المؤرخين الذين ينفرون بطبعهم من التفكير النظرى ، أخضعت هذه المدرسة المعرفة التاريخية لمباحثها ، وحددت ان قيمة التاريخ تكمن فى أنه إذا أمكننا أن نعرف من أين جئنا ، لأمكننا أن نعرف أين نحن ذاهبون . وصاغ هذه الفكرة أحد أعلام هذه المدرسة وهو جورج سانتيانا ، فى كتابه « حياة العقل » على هذا النحو : « ان أولئك الذين لايمكنهم تذكر الماضى ، مقضي عليهم بتكراره »[٩] (بمعنى تكرار أخطائه ومآسيه) .

هذا هو الموقف وهذه هى المكانة التى كانت قد حظيت بها دراسة التاريخ حين اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، ولم تكد هذه الحرب تضع أوزارها عام ١٩٤٥ حتى كان الموقف قد تبدل تبدلا بعيدا ، وواجهت المعرفة التاريخية ظروفا مختلفة كل الاختلاف ، لم يتوقعها أحد من المؤرخين أو يحسب حسابها . ويمكن أن نجمل عناصر الموقف الجديد فى نقاط ثلاث :

النقطة الاولى تتمثل فى التأثير الذى أحدثته التطورات السياسية المذهلة والمتلاحقة على الشاشة العالمية وماصاحبها من تطورات علمية مذهلة أيضا عرفت بثورة المعلومات على بعض العقول الحساسة من المشتغلين بالتاريخ ، فمنهم من لم يتمكن من استيعاب ما هو حادث ، وشعر شعورا مريرا بعجز المعرفة التاريخية عن أن تفسر كل ما هو حادث تفسيرا مقنعا . وكانت النتيجة هي الشعور باليأس .

النقطة الثانية هى تعرض دور المعرفة التاريخية كدليل للمستقبل لتحدٍّ قوي من جانب مجموعة من العلوم الحديثة ، بدت وكأنها أقدر على تقديم حلول لمشاكل العصر أصح مما قدّم التاريخ . بدت العلوم الحديثة ـ وهى الاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس ـ أكثر دقة وعلمية وثقة مما أظهره التاريخ . فهذه العلوم تصدت لمعضلات العصر التى تقضّ مضاجع الحكام وتقدمت بحلول محددة لمشاكل التضخم والبطالة ، أو الصراعات السياسية والاجتماعية ، أو الفقر والجريمة ، أو السلوك

(٩) — George Santayana, The Life of Reason, 5 vols. (1905-6).

والأخلاق ، أو هموم الأفراد والقلق العام . وبالمقارنة بدا التاريخ أكثر غموضا وأقل دقة وغير قادر على أن يوحي بالثقة المطلقة التي أصبح المجتمع يتوقعها من البحث العلمي . ويعكس هذا الارتقاء الذى حققته العلوم الاجتماعية فى سلّم المكانة الاجتماعية والأكاديمية على حساب التاريخ تصوّرا عاما له دلالته - سواء أصبح أو لم يصبح - وهو أن الماضى لم يعد يصلح دليلا للمستقبل . فالتغيرات التى حدثت فى العالم عقب الحرب العالمية الثانية بدت هائلة لدرجة جعلتنا نعتقد أن دروس التاريخ - حتى إذا أمكننا أن نتيقن ما هى - غير قادرة على أن تعدّنا لمواجهتها . واحتل علماء الاجتماع كرسى العرافة فى المجتمع بدلا من المؤرخين . ولكن من يدرى ، فربما لاتدوم حظوتهم بقدر مادامت للمؤرخين . فهناك ادراك متزايد أن الأبحاث العلمية لايمكنها أن تقدم ضمانات أكيدة لحل المشاكل الاجتماعية ، وأن المجتمع مضطر أن يعتمد الى حد كبير على محض الصدفة فى التجارب والحكمة الفطرية فى الانسان ، وكذلك الحظ الاعمى آخر الامر . (راجع هيمو ص ١٤) .

النقطة الثالثة هى ثورة جيل المؤرخين الجدد التى أشرنا اليها ، وكان لهم موقف مزدوج ، يتمثل فى رفض روح اليأس التى أصابت المؤرخين التقليديين أو الذين ركنوا الى بعض مذاهب فلسفة التاريخ ، وفى قبول تحدى العلوم الاجتماعية . وقد نشأ هذا الموقف المزدوج من إدراك رواد هذه الحركة أن التجربة التاريخية الماضية شديدة التعقيد والعمق والتداخل بحيث لايجدى فى فهمها منهج التقليديين ولامحاولات النظريين من فلاسفة التاريخ ، ولابد من نظرة اجتماعية شاملة جديدة ، توجه للماضى الاسئلة التى توجهها العلوم الاجتماعية للحاضر ، وتستخدم للاجابة عليها مناهج العلوم الاجتماعية بعد استيعابها وتطبيقها حسب قواعد منهج البحث التاريخي . وقد تبلور هذا الاتجاه الجديد فيما عرف بحركة التاريخ الجديد .

هذه هى العناصر الثلاثة الاساسية التى نشأعنها ماعرف بأزمة التاريخ منذ منتصف القرن العشرين ، وانقسمت بشأنها مواقف المؤرخين انقساما حادا ، وتعددت - على المألوف - كتاباتهم حول أهداف المعرفة التاريخية ومناهج بحثها . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال الكتابات التالية :

- Geoffey Barraclough: History in a Changing World (1955)
- Hans Meyerhoff: History and Philosophy (1959)
- E.H. Carr: What is History? (1961)
- J.H. Plumb: The Historian's Dilemma (1964).
- Historical Studies Today, Daedalus Vol. 100 No. 1 (1971) the Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences.
- B.B. Wolman (ed): The Psychoanalytic Interpretation of History (1971).
- E. Le Roy Ladurie: Le Territoire de L'Historien (1973).

ومع نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات كانت المعركة قد هدأت بعض الشىء وساد اعتقاد أن الازمة قد انحسمت لصالح دعاة التاريخ الجديد ، حتى دفع ثيودور بكتابة الاخير (١٩٨٧) ، وكأنه لم يقنع بكل ما حدث ، فحرك شكوكا كان قد تجاوزها أطراف المعركة فى بعض مراحلها السابقة . ولسنا هنا بصدد تناول جميع مراحل الأزمة أو تفصيلات الحوار الذى احتدم بين المؤرخين التقليدين ودعاة التاريخ الجديد على مدى

اربعين سنة مضت . ولكن يمكننا أن نجمل أهم المواقف والآراء التى تمثل وجهة نظر كل جانب .

ونبدأ بوجهة نظر المتشائمين الذين وقعوا تحت تأثير الصدمة ، وذهبوا الى أن أزمة التاريخ ناتجة عن عوامل عميقة وكامنة بحيث لايجدى معها كل محاولات الترميم والاصلاح ، سواء فى المنهج أو المضمون . وفى عام ١٩٥٥ نجد مؤرخا مرموقا مثل جفرى بارا كلاف (جامعة اكسفورد) يكتب تحت تأثير الاحساس بالأزمة فى الكتابة التاريخية فيقول « إننا مهاجمون بإحساس من عدم الثقة ، بسبب شعورنا أننا نقف على عتبة عصر جديد لاتزودنا فيه تجاربنا السابقة بدليل أمين لسلوك دروبه . إن إحدى نتائج هذا الموقف الجديد هو أن التاريخ ذاته يفقد - إن لم يكن قد فقد - سلطانه الذى سبق أن مارسه على أرقى العقول باعتباره السبيل لفهم الحياة المعاصرة[١٠] . » ويزداد الموقف اليائس عددا وخطورة بانضمام واحد من رواد المشتغلين بفلسفة التاريخ فى الغرب وهو هانس مايرهوف حين تصدى لتحليل الموقف كما بدا له عام ١٩٥٩ حيث قال « لقد شهد عصرنا ذروة التعقيدات التى بدأت تتكون فى القرن التاسع عشر . . . . وأن العالم قد بلغ درجة من التعقيد بحيث لايجدى فى فهمها عملية التحليل التاريخى . فبالنسبة لمعظم الناس يبدو تتابع الأحداث فى التاريخ المعاصر شديـد السرعة والتنـاقض والغموض ، وأن القوى التى تحركها شديدة الخفاء وغير منطقية ولا يمكن التحكم فيها ، لدرجة أنهم يشعرون بالضياع فى هذا العالم من تاريخ ليس من صنعهم ، وأن البدائل المتاحة أمامهم هى إما ان يعتزلوا التفكير فى التاريخ ويتركوه للمؤرخين ، أو أن يفروا - كما فعل كثير من المؤرخين - من أعباء التاريخ الى عقيدة وراء التاريخ ، تتمثل فى الفن أو الاساطير أو الدين أو اللامبالاة[١١] . » وتستمر موجة التشاؤم قوية عنيدة ويلحق بها المؤرخ البريطانى ج . هـ . بلومب (جامعة كمبردج) ، الذى يعلن فى اصرار أن الأسباب التقليدية التى كانت تقدم لتبرير دراسة الماضى قد بليت بدرجة بعيدة . ففى مقال بعنوان « حيرة المؤرخ » عام ١٩٦٤ يقرر : « . . . . أن ليس للتاريخ معنى أو فاعلية أو رجاء . لقد اندثرت فكرة الرقىّ المطلق بين المشتغلين بالتاريخ ، . . . وأن ٩٠٪ منهم يرون أن العمل الذى يمارسونه لا معنى له على الاطلاق » . ثم يضيف ، « هنا يكمن التناقض المأسوى ، فبينما شهد هذا القرن أورع الفتوح لأقصى آفاق المعرفة التاريخية ، نجد تناقصا مستمرا فى أعداد المؤرخين الذين يؤمنون أن صنعتهم ذات قيمة اجتماعية ، فلا دخل لها فى تنسيق الجهد الانسانى أو الفكر الانسانى » .[١٢]

وجدير بنا أن نلاحظ أن إشارة بلومب الى « اندثار فكرة الرقىّ المطلق بين المشتغلين بالتاريخ » ، هى رد فعل سريع لموقف أقل تشاؤما وأكثر اعتدالا من وقفة مؤرخ آخر قبله بثلاث سنوات وهو إ . هـ . كار عام ١٩٦١ وأعلن فى تحدٍّ : « إننى مازلت غير مقتنع بأن الرقى فى التاريخ قد توقف . . . وأذهب الى أن امكانية

---

(١٠) — Geoffrey Barraclough, **History in a Changing World,** (Oxford 1955) 1.

(١١) — Hans Meyerhoff, "History and Philosophy" (in) **The Philosophy of History in Our Times,** ed, by Hans Meyerhoff (Garden City, N.Y. 1959) 22-23.

(١٢) — J.H. Plumb, "The Historian's Dilemma", (in) **Crisis in the Humanities,** ed. J.H. Plumb (Baltimore, 1964) 25-26.

الرقيّ أو التقدم غير محددة .»[١٣] وهو ترديد لموقف متفائل سبق أن أكده برتراند راسل (١٩٥٦) فى قوله : «نحن ندرك من التاريخ أن احوال الانسانية لاتحدها نهاية ، فلا وجود لكمال ثابت على حالة واحدة ، ولا لحكمة لايمكن الارتقاء بها» .[١٤]

هذا الانقسام فى الرأى الذى شهدته الخمسينات من هذا القرن كان انقساما أكاديميا أثارته أسئلة قديمة حول نظرية الرقيّ (Progress) التي تضرب بجذورها الى القرن الثامن عشر ، او حول القيمة العملية للمعرفة التاريخية التى نادى بها الايستيمولوجيون منذ مطلع القرن العشرين . هذه الاسئلة أثارها رجال من جيل ماقبل الحرب ، وقد عاشوا ليوجهوا المتغيرات الجديدة بعد الحرب ، فمنهم من تشاءم ومنهم من تفاءل على نحو مارأينا . فى غضونْ هذه الحيرة وهذا الخلاف بين الفلاسفة والمؤرخين بدأ يظهر رد فعل فئة المتمردين من شباب المؤرخين ، الذين لم يشغلوا أنفسهم بغوامض اليأس والأمل ، وأعلنوا دعوة قوية الى كتابة التاريخ الجديد . ذلك أنهم رفضوا الخوض فى الجدل الفلسفى حول المعرفة التاريخية . فاذا كان الفلاسفة يشغلون أنفسهم بحقيقة المعرفة ، فان المؤرخ يجب أن يشغل بمعرفة الحقيقة وبعد أن عكفوا على تقويم التجربة التاريخية السابقة حتى منتصف القرن العشرين ، خرجوا بنتيجة حاسمة ، وهى أن الأزمة لم تنشأ بسبب قصور فى طبيعة المعرفة التاريخية ، ولكن بسبب قصور فى تصوّر المؤرخين السابقين ومناهجهم . ومن أجل الوصول الى معرفة تاريخية أرقى لابد من احداث تغيير فى طبيعة الدراسة التاريخية ، ولابد من استحداث مناهج جديدة . فإذا كان المؤرخون حتى منتصف القرن العشرين قد حققوا درجة عالية من النظرة الشمولية الى التاريخ ، وقلبوا النظر فى جوانبه المتعددة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والحضارية بإجمالها ، وذلك بمنهج علم التاريخ ، فإن مدرسة التاريخ الجديد تدعو الى نظرة أكثر كشفا بتطبيق مناهج العلوم الاجتماعية ذاتها . أى أنهم رفضوا فكرة التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ الحضارى التقليدية ، ودعوا الى دراسة السياسية التاريخية والاقتصاد التاريخى والاجتماع التاريخى وعلم النفس التاريخى . وكانت النتيجة أن شهد البحث التاريخى أكبر ثورة عرفها منذ بدايته قبل أكثر من خمسة وعشرين قرنا مضت . وتحول المؤرخون بسرعة متزايدة من طريقة «الموضوعات» وأسلوب «الوصف» فى «عرض» الأحداث والأحوال السياسية والدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، الى «معالجة المشاكل» التى كانت وقفا على العلماء الاجتماعيين من قبل . وأخذ المؤرخون يستحدثون تفريعات وتخصصات جزئية فى دراساتهم لم تكن مألوفة من قبل ، مثل الاحصاء التاريخى والديموغرافية التاريخية ، والانثروبولوجيا التاريخية ، وعلم النفس التاريخى . واتجهوا اكثر فأكثر الى موضوعات التحليل الاحصائي لأنماط التصويت الانتخابي والخلفيات الاجتماعية ، أو التغير فى نسب المواليد والزواج والوفيات ، أو بنية المجتمع وتكوين الاسرة ، أو العديد من جزئيات الحياة اليومية لجماهير الناس الذين أهمل ذكرهم عادة التاريخ التقليدى (ص ١٤ ـ ١٥) . هكذا كان ميلاد «تاريخ جديد» أوجز تعريفه مؤخرا لورانس ستون بهذه العبارة : «ومما يجعل التاريخ الجديد هاما أنه يفحص فى الماضى ذات

---

(١٣) — E.H. Carr, **What is History?** (Macmillan, 1961; Penguin 1964) 119.

(١٤) — Bertrand Russell, **Portraits from Memory** (London, 1956). 17ff.

المشاكل والقضايا التى تفحصها علوم الديموغرافية والاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس فى الوقت الحاضر . »[١٥]

وتعددت مراكز حركة التاريخ فى أوروبا وأمريكا وتعددت منابرها وكان من أهم مراكزها وأكثرها نشاطا وتميزا مجموعة من المؤرخين الفرنسيين اتخذوا من دورية « الحوليات » (Les Annales) منبرا لها ، وفى انجلترا أصبحت دورية « الماضى والحاضر » (Past and Present) منبر كُتَّابهم باللغة الانجليزية ، وفى أمريكا أفسحت دورية ديدالوس Daedalus مجالا لهم على صفحاتها ، وخصصت لها نشرة مستقلة فى عام ١٩٧١ بعنوان « الدراسات التاريخية اليوم » . ويكفى أن نتابع أعمال رواد هذه الحركة التاريخية الجديدة فى هذه الدوريات أو غيرها من منشورات لندرك مقدار ما أحدثته فى دراسة التاريخ من تنوع وتجديد وإثراء لانعرف له مثيلا من قبل . وكانت نتائج أعمال دعاة التاريخ الجديد باهرة حقا ، بعثت فى التاريخ حيوية وأصالة ـ فى المضمون والمنهج ـ كادت تبلى تحت رتابة الكتابة التقليدية التى تعلقت ببعض الأفكار الكلية التى تحدرت من القرن التاسع عشر . وليس أدل على مدى ما أحدثته أعمال دعاة التاريخ الجديد من تأثير فى دوائر المؤرخين ، من أنها استمالت الى جانبهم بعض من أصابهم اليأس تحت أول إحساس بالأزمة وذلك كما حدث للمؤرخ بار اكلاف الذى اعتقد فى سنة ١٩٥٥ « ان المؤرخين مهاجمون بإحساس من عدم الثقة » . . . كما سبق أن ذكرنا ، ولكن بعد مرور أكثر من عشرين عاما ، استطاع بارا كلاف بعقله المرن المتفتح أن يتجاوز هذا الاحساس باليأس وعدم الثقة ، فيغير موقفه ويستعيد ثقة مطلقة فى دراسة التاريخ ويكتسب نظرة جديدة تماما فيكتب فى سنة ١٩٧٨ : « التاريخ وحده قادر على أن يمدنا بالبصيرة اللازمة لفهم حقيقة تطور الظواهر والنظم الاجتماعية عبر الزمن . ولكن ينبغى أن يكون تاريخا تسوده روح علمية ويحتويه توجه اجتماعى . إن التطورات الاخيرة قد جعلت مثل هذا التاريخ فى متناول أيدينا ، بقى على الجيل الجديد أن يمسك به وأن يحسن استخدامه »[١٦]

وما ينبغى أن نظن أن موقف بارا كلاف وتحوّله فى حماس لحركة التاريخ الجديد يمثل اتجاها عاما بين المؤرخين ، فقد استمر الموقف الرافض المتشائم يقاوم التحوّل والتجديد فى إصرار عنيد . ففى عام ١٩٧٧ طالعنا دافيد دونالد من جامعة هارفارد بمقال يحمل عنوانه معنى الاستفزاز والتحدى وهو « تاريخنا بلا أهمية » ، ويؤكد فيه عدم فائدة التاريخ للحاضر والمستقبل ، ويعلن : « أن التاريخ يظهر مقدار ضعفنا ، وأننا لانتعلم من أخطاء الماضى ، وما أقل تأثيرنا فيما ينزل بنا رن احداث ، وما أشد عجزنا فى قبضة قوى طبيعية أساسية ، هى التى تشكل الوجود الانسانى . »[١٧]

هذا التحدى السافر الذى أعلنه دونالد لم يمر دون رد فورى من دعاة التاريخ الجديد ، على لسان بلانش كوك ، فى تهكم يتحول الى حدة سياسية أحيانا : « ربما أحدثت فينا فرضية دونالد للتاريخ أثرا بالغا لو لم تصدر عن موقف خاطىء متصلب . لأن التاريخ كما كان

(١٥) — Lawrence Stone, "**The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History,**" **Past and Present, 85 (1979) 15.**

(١٦) — Geoffrey Barraclough, "History" (in) **Main Trends of Research in the Social and Human Sciences, Part 2, vol. I,** ed. Jacques Havet, (The Hague, Paris, New York, 1978) 443.

(١٧) — David H. Donald, "Our Irrelevant history," reprinted in **American Historical Association Newsletter, (1977), 4-6.**

يُدرّس فى الماضى ، ذلك التاريخ الذى اقرّ دونالد بعدم أهميته ، كثيرا ما أهمل الفقراء والمستضعفين والمظلومين . حقا كثير من الدروس التى قدمها المؤرخون التقليديون ليست بلا أهمية فحسب ، ولكنها خطيرة لأنها ليست ولم تكن صحيحة . الناس فقط هم القادرون على التقدم ، وليست غوامض الأمل . الناس قادرون على التحكم فى مصيرهم . . . . . إننا نعيش عصر ثورة ، والثورة مرحلة وليست مجرد حادثة وإن كنا نتطلع الى أن نعلّم التاريخ ، فعلينا أن نتجنب إغراء تقديس الماضى أو تمجيده . »[١٨]

بعد أن اشتدت حدة الحوار على هذا النحو ، هدأت المعركة بعض الشىء وانصرف كل فريق الى عمله ، الى أن كتب مؤخرا ثيودور هيمرو كتابه « تأملات حول التاريخ والمؤرخين » (١٩٨٧) وعقد الفصل الاول لأزمة التاريخ . والكتاب فى رمته يغلب عليه طابع المحافظة ، ورغم انه حاول ان يصطنع أسلوب الحل الوسط ، إلا أن مناقشته للقضايا التى يعرض لها والأحكام التى ينتهى اليها تكشف عن معارضة مستمرة لمدرسة التاريخ الجديد ؛ كما يتضح لنا فى ثنايا هذا الفصل الأول أنه من بين المؤرخين المتأثرين بشىء من فلسفة التاريخ ، على نحو مارأينا فى موقف مايرهوف فى مرحلة مبكرة من الأزمة (١٩٥٩) ، حين اعتقد بانقطاع الصلة بين التجربة التاريخية وما هو حادث فى النصف الثانى من القرن العشرين . وبعد أكثر من ربع قرن نجد هيمرو يدعونا الى نوع من العزلة الاكاديمية ويقول (ص ١٢) : « إن المؤرخين مضطرون أن يقنعوا بفكرة أن أهمية التاريخ تكمن فى ذاته ، وأنها تتمثل فى الاهتمام بالماضى الذى يشعر به الانسان شعورا فطريا ، وأنه جزء من إنسانيته ، وليس لعلاقته أو لما يسلطه من ضوء على مشاكل المجتمع أو العصر . فالتاريخ بهذا المعنى لاعلاقة له بالواقع الراهن . » وبعد مناقشة لبعض الآراء ومقارنة بين ما حدث فى التاريخ وما حدث فى بعض الدراسات الانسانية الأخرى ، يكرر ما سبق أن أعلنه بلومب وآخرون ، فيؤكد « إنه من الصعب أن نتجنب الاستنتاج بأن مهنة التاريخ تمر حقيقة بأزمة لا مثيل لها من قبل » (ص ٢٧) . ثم يعود فى نهاية الفصل الى تفصيل ما أجمل فى عبارته السابقة فيقول : ان التفكير الهادىء يدلنا أن التاريخ بمعنى دراسته ينبع من حاجات واهتمامات أساسية تمتد جذورها فى صميم التجربة الانسانية الجماعية . . . . فحب المعرفة التاريخية كامن فينا ، لأن لنا جميعا اهتماما غريزيا بالعلاقة بين الماضى والحاضر . . . . . فإذا ما سلمنا بأن الطبيعة الفطرية الغريزية هى منشأ اهتمامنا بما حدث فى الماضى ، فان ذلك يعيننا على أن نعالج السؤال المقلق الذى يُهاجَم به المؤرخون دائما ، وهو « ما فائدة التاريخ ؟ » ويرد هيمرو بقوله : « ليس للتاريخ فائدة . إنه ببساطة موجود . وهو موجود لأن حياة الجماعة لاتستمر بدونه . فإننا نحس حاجة ملحة لنعرف من أين جئنا من أجل أن نعرف أين نحن . إننا نشعر بحاجة لأن نتخطى حدود سنوات حياتنا القصيرة على الأرض ، لنرى وجودنا جزءا من الوجود العام للأمة أو الجماعة أو الحضارة أو الانسانية جمعاء . . »(ص ٣٣)

ثم يستدرك هيمرو القول ، فيضيف بأن التاريخ قد يلقى ضوءا ضئيلا على ظلام المستقبل : « فالدراسة التاريخية - إن هى مورست بذكاء وبوركت بشىء من الحظ - يمكن أن تهدى خطواتنا الى المستقبل ، وربما زادت بعضا حكمة او فضلا ، ولكن يبدو أنها لاتحدث

(١٨) — Blanche W, Cook, in A.H.A. Newsletter (1977) 6.

أثرا فى مسلك معظم الناس . » وهنا ينتهى هيمرو الى الاستشهاد بما كتبه هيرودوت منذ نحو خمسة وعشرين قرنا « بأن هدف التاريخ هو ألا يمحو الزمن ما قدم الانسان من أعمال ، وألا تفقد مكانتها ماقام به الاغريق والشعوب الأخرى من إنجازات عظيمة رائعه . » ويعقّب هيمرو بقوله : « مايزال هذا هو واجبنا الأول . باستطاعتنا أن نستمر فى صراعاتنا مع ألغاز المستقبل ، دون أن ننسى أن احتمال الخطأ فى حكمنا كبير ، وباستطاعتنا أن نسعى الى أن نسيطر على الطبيعة البشرية فينا ، متذكرين دائما مالقوى الشر من سلطان . ولكن الاكثر أهمية ، دعنا نكون شهداء على ما حدث فى الماضى ، حتى لايمحو الزمن أعمال الرجال والنساء السابقين ، وحتى يعلم الجميع ماقمنا به وقام به غيرنا من جلائل الأعمال . »(ص٣٣)

هذه الاقتباسات المختلفة من أقوال هيمرو توضح ضعف موقفه بين الجانبين المتعارضين ، فهو من ناحية يحاول أن يجمع بين النقائض ، فى حين يكرر مواقف سابقة ذات إيحاء من فلسفة التاريخ . فالتردد بين عدم الفائدة المحدودة للتاريخ يكشف عن التناقض ، وبعد أن نادى بغريزية المعرفة التاريخية ، يستعيد الفكرة التربوية للتاريخ كما صاغها سانتيانا ويحولها الى قضية ديكارتية : « اذا عرفت من أين جئت ، عرفت أين أنا . » وهو قول يتعارض مع ادعائه بعدم وجود علاقة بين التاريخ والواقع الراهن (ص ١٢) . وبعد هذا التفكير النظرى المتناقض ، ينتهى فجأة الى نوع من التفكير الانسانى والواقعى اشتهر به أبو التاريخ هيرودوت . ومرة ثانية أوقع هيمرو نفسه فى التناقض حين تشبه بموقف هيرودوت من التاريخ ، وشتان بين الموقفين ، فتفكير هيرودوت التاريخى يقوم على أسس تختلف عما أعلنه هيمرو . فعلى سبيل المثال هناك مبدآن أساسيان يقوم عليهما تصور هيرودوت للتاريخ ، وهما ترابط الحركة التاريخية فى العالم كما عرفه ، وأثر التجربة الماضية على أحداث الحاضر . وعلى أساس هذين المبدأين راح هيرودوت يدرس أحداث الحرب بين الفرس واليونان ، والتى يمكن أن تعتبر أول حرب عالمية فى التاريخ . فلايكفى أن يقتبس هيمرو عبارة من افتتاحية هيرودوت المشهورة دون أن يُلم ويناقش أبعادها التطبيقية كما أرادها هيرودوت .

●●●

بعد هذا الفصل الأول الذى قدّم فيه المؤلف موقفه من بعض الجوانب النظرية فى دراسة التاريخ ، وما أصابها من أزمة واختلاف فى الرأى ، ينتقل الى موضوع له طرافته ، وهو التاريخ من حيث هو مهنة . فيفرد هيمرو لهذا الموضوع ثلاثة من مجموع فصول كتابه الستة ، هى الفصل الثانى بعنوان « تحول المعرفة التاريخية الى مهنة (The Professionalization of Historical Learning) والفصل الثالث بعنوان « مَنْ آل اليه عمل المؤرخ (Becoming a Historian) والفصل الرابع دراسة التاريخ وسيلة للحياة (History as a Way of Life) ويحاول المؤلف فى هذه الفصول الثلاثة أن يدرس الجانب الاجتماعى للمشتغلين بالتاريخ وظروفهم المتغيرة وأثر ذلك على الدراسة التاريخية . وقد قام بتجميع مادة إحصائية مبعثرة وأفاد من بعض الدراسات الاجتماعية التى أجريت على الجامعات الامريكية بصفة خاصة . وسوف نركز فيما يلى على النقاط ذات الاهتمام العام التى قد نجد لها تطبيقات مماثلة فى العالم العربى ، أو نقارن بين مايذكر المؤلف وما حدث فى التجربة العربية .

أما بالنسبة لتحول المعرفة التاريخية الى مهنة ما ، فهي ظاهرة بدأت في القرن التاسع عشر مع انتشار التعليم وتعميمه تدريجيا بعد ذلك في القرن العشرين ، وأصبح التاريخ واحدا من العلوم الأساسية في التعليم العام . وكان من الطبيعي أن استجابت الجامعات والمعاهد العليا لضرورة الموقف ، وأصبح التعليم الجامعي يُعدّ المتعلمين لمهنة تدريس التاريخ في المدارس والجامعات على السواء . وهكذا نشأت للتاريخ مهنة ، بمعنى تعلمه بهدف العمل به والارتزاق منه ، شأنه في ذلك شأن أي مهنة أخرى مثل القانون أو الطب أو الهندسة . . . ولم تكن مهنية التاريخ ظاهرة متفردة ، ولكنها تعكس تطورا عاما شمل الدراسات الانسانية . ونظرا لأن التعليم الجامعي يقوم على البحث العلمي الذي يرتبط عادة بالتخصص ، وجدنا تعليم التاريخ في الجامعات يقوم أيضا على التخصص . ويلاحظ المؤلف أن من مظاهر وجود مهنة لدراسة التاريخ أن تكونت الجمعيات التاريخية التي اقترنت عادة بإصدار دورية علمية تتعهد بنشر أرقى الأبحاث التاريخية . وأسبق الدوريات التاريخية ظهرت في المانيا (١٨٥٩) ثم فرنسا (١٨٧٦) وايطاليا (١٨٨٤) وبريطانيا (١٨٨٦) وأمريكا (١٨٩٥)[١٩] .

وهكذا كان من نتائج مهنية التاريخ وصدور الدوريات العلمية أن اصطبغ العمل التاريخي بالتخصص الدقيق بنسبة متزايدة . ولم تمر بدايات التخصص الدقيق دون قلق ومعاناة ، وخاصة من جانب التقليديين والهواة من المؤرخين غير الأكاديميين ، الذين أفزعتهم النظرة الجديدة والطبقة الجديدة من أولئك المؤرخين الحرفيين . ومن مظاهر الخوف والفزع أحيانا أن يلجأ الشخص الى السخرية من خصومه أو منافسيه . ويورد لنا هيمرو مثالا طريفا لما فعله تيودور روزفلت الذي كان رئيسا للولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين ، وكان مثل جلادستون من قبله ونستون تشرشل من بعده ، سياسيا محترفا ومؤرخا هاويا ، وله عدة كتب في موضوعات من التاريخ الحديث الأوربي والامريكي . وكان يرى أن كتابة التاريخ عمل خلاق ، بمعنى أنه عمل فني يعتمد على الموهبة مثل غيره من الفنون الأدبية . وقد هاله غلبة المنهج العلمي الجديد على شباب المؤرخين الأكاديميين ، فهاجمهم هجوما لاذعا في أحد رسائله عام ١٩٠٤ . وبدأ بأن انتقد مبدأ الحيدة والموضوعية العلمية ، بدعوى أنه أنتج كتابة تاريخية جافة لا طعم لها ولا لون ولا حياة ، ثم سخر من شباب المؤرخين الأكاديميين بهذه العبارة : « كان من الممكن أن يكون لهؤلاء العاملين المخلصين المجدين المدققين من صغار المتحذلقين بعض الفائدة في مجالهم الصغير ، لو أنهم عرفوا حدود قدراتهم ، ولكنهم - بسبب غرورهم - أصبحوا شديدي الضرر . انهم يعتقدون اعتقادا راسخا أنه لو أن منهم عددا كافيا ، ولو أنهم قاموا بمجرد تجميع قدر كافٍ من الحقائق في كل مجال ومن كل نوع ، فلن تكون هناك حاجة الى كبار الكتاب وكبار المفكرين . » ويستمر في سخريته باقتراح الوظيفة اللائقة بهم على هذا النحو : « فكل واحد منهم يصلح أن يكون عامل يومية لا بأس به ، قادرا على جر عربته المحملة بأحجار البناء وأهلا لما يتقاضاه من أجر ، فطالما أنهم يرون أنفسهم كما هم ، فإنهم جديرون بكل احترام ، ولكن عندما يتخيلون أنهم بعنائهم قد جعلوا

---

(١٩) — Historische Zeitschrift (1859); Revue Historiaue (1876); Rivista Storica Italiana (1884); English Historical Review (1886); American Historical Review.

عمل المهندس غير ضروري ، فإنهم يصبحون عناصر عبث وعوامل هدم . »[٢٠]

رغم أن مؤلفنا يستشهد بهذه العبارة وغيرها (ص ٥٤ - ٥٩) ويصفها « بالحدة » ، فانه لا يناقشها ولا يحاول بيان أبعادها الأكاديمية والاجتماعية . فموقف روزفلت وأمثاله في حقيقة الأمر شديد الدلالة على أمرين هامين : الاول هو مقدار الأثر الذي أحدثه الاتجاه العلمي الجديد في دوائر دارسي التاريخ في مطلع القرن العشرين ، مما أفزع التقليديين والهواة ، والثاني هو النظرة الطبقية المتعالية التي تنم عنها الصورة الساخرة التي رسمها روزفلت للأكاديميين الذين يرتزقون من دراسة التاريخ وتدريسه بالجامعات . فطبقة روزفلت من الهواة لم يكونوا يتعيشون من كتابة التاريخ . وكان من الطبيعي أن نجد رد فعل سريع لها ، ليزيل أثر البلبلة التي يمكن أن تحدثها مثل هذه الآراء المحافظة . ففي سبتمبر ١٩٠٤ وقف وودرو ويلسون مفسراً ومنبهاً معا لأهمية ودور المؤرخين الأكاديميين ، وأنهم السبيل الى دفع الحركة التاريخية طالما يضعون نصب أعينهم قاعدة أساسية وهي « أن الجزئية التاريخية تظل غير صحيحة اذا عزلت وفصلت عن سائر الأجزاء ، فهي دائما جزء من كلّ شديد التنوع والتعقيد ، ويجب أن توضع في موضعها الصحيح من النسق العام للأحداث ، حتى تتضح طبيعتها ومعناها الحق . ومع ذلك فيجب أن تتم دراستها وفهمها منفردة . . وبعبارة أخرى ، الكل والجزء هما سدى ولحمة نسيج واحد . »[٢١]

بهذه العبارة المتزنة المتفائلة وضع ويلسون يده على عنصر من عناصر الأزمة منذ بداية التاريخ العلمي في مطلع القرن العشرين ، وهو العلاقة بين الجزء والكل في الدراسة التاريخية . وهي فكرة غير جديدة ، وتمتد أصولها العلمية الى أعظم مؤرخي القرن التاسع عشر ليوبولد فون رانكه ، وهو أول من دعا بجدية علمية الى ضرورة دراسة تاريخ العالم لأن التجربة التاريخية تثبت أن الأحداث والتغيرات الاقليمية أو القومية كثيرا ما تكون شديدة الصلة أو التأثر بأحداث أو تغيرات عالمية الأبعاد . ولم يكن غريبا في النصف الاول من القرن العشرين أن اندفعت الحركة التاريخية في الاتجاهين معا ، اتجاه العالمية واتجاه التخصص . ومع ازدياد ظاهرة التخصص وتعرضها للنقد في النصف الأول من القرن العشرين ، برز تيار يحاول أن يحفظ التوازن بين النظرة المتخصصة والنظرة الشمولية . وتقدم عدد من المؤرخين المحترفين والهواة ، حاولوا أن يفيدوا من ثمار الازدهار التاريخي في القرن التاسع عشر ومن ثمار الأكاديميين في النصف الأول من القرن العشرين في بناء نسق تاريخي أو حضاري عالمي ، فيما يتمثل في أعمال هـ . ج . ولز وويل ديورانت وأرنولد توينبي وغيرهم . ورغم أهمية هذه الأعمال وفائدتها ، فانها لم تقنع الأكاديميين المتخصصين ، الذين أعرضوا عن هذا الأسلوب ، ومضوا في طريق التخصص الدقيق غير عابئين بسخرية الشموليين أو نقد المؤرخين الفلاسفة الذين شغلوا أنفسهم بالنظريات والايديولوجيات ، أكثر مما شغلوا أنفسهم بالحياة وواقع التجربة الانسانية . وقد أعانهم وثبت أقدامهم في مسيرتهم ما كانت تحققه العلوم الطبيعية من انتصارات تكاد تخطف الأبصار . ويقوم موقف الأكاديميين المتخصصين المتفائل على فرض أن التاريخ علم تراكمي مثل الطبيعة والكيمياء ، حيث الاضافات

(٢٠) — The Letters of Theodore Roosevelt, ed. Elting E. Morrison (Cambridge, Mass. 1951-4) III 707-8.

(٢١) — The Papers of Woodrow Wilson, ed. Arthur S. Link, (Princeton, N.J. 1966-) IV 472-3.

الصغيرة في العديد من مجالات التخصص تؤدي تدريجيا الى تفسيرات شاملة . وهكذا يكون تجميع أكبر كمّ من المعلومات الصحيحة له ما يبرره كشرط أساسي للتقدم العام للعلم . وعلى ذلك فالأبحاث المتخصصة والمادة المستمدة من دور المحفوظات والوثائق تكون وحدات أحجار البناء التي يستطيع عالم مدرب التدريب اللائق أن يقيم صرحا من المعرفة التاريخية أكثر كمالا وأثبت أساسا . وهكذا أيضا تنتهي المقابلة بين الفن والعلم في مجال الكتابة التاريخية (ص ٤٨) .

ولكن التجربة العملية في النصف الثاني من القرن العشرين أثبتت أن التطبيق والممارسة قد لا تحقق النظرية أو الفرض كما تمثل في العقل . فالذي حدث هو استغلاق كثير من المتخصصين في أبحاثهم بدرجة متزايدة من التحديد والتعمق ، فازدادت التخصصات التاريخية انقساما وتنوعا ، وأصبحت الخبرة التخصصية هي مطمح العلماء . وقد استتبع ذلك زيادة الاعتماد على المصطلحات العلمية والاسلوب العلمي في الاثبات أو مناقشة المشاكل العلمية بدلا من الاهتمام بحسن عرض المادة التاريخية ودقة تنسيقها . وهكذا غلب على الدراسات التاريخية المعاصرة التركيز المضني أحيانا مع ضيق المجال ثم الاحاطة المطلقة بكل جزئيات المعلومات المتعلقة بنقطة البحث ، وأصبحت قراءتها في كثير من الأحيان مستحيلة على غير المتخصص . وهذه سلبية يأخذها الخصوم على الكتابة التاريخية المعاصرة (ص ٤٨ ـ ٥٠) . ولكن إيجابيات التخصص الأكاديمي كانت باهرة في قيمتها ونتاجها بالنسبة للتاريخ كما كانت للعلوم الأخرى . فلا بد أن نسلم بأن الحركة التاريخية المعاصرة في مستوياتها الراقية تتميز أكثر من أي تجربة سابقة في دقة التحليل النقدي للمصادر وحدة البصيرة في تقدير قيمتها ، مع تجرد في النظر وحيدة التفكير . فلم يحدث قبل الآن أن خضع البحث التاريخي لمبدأي الدقة المطلقة والصدق المطلق كما هو حادث اليوم .

ورغم هذه الانجازات العظيمة التي حققها التخصص الأكاديمي ، فإنه لم يخط الخطوة الحاسمة نحو إقامة البناء الكامل الجديد ، واستمر العمل في تراكم أحجار البناء . ويبدو أن مؤرخي الجيل الحالي قد نزعوا عنهم ذلك الأمل ، فإن خط سير البحث العلمي يكاد يوقن أنه أقرب الى الوهم . فهم يقفون مشفقين من شدّة تعقد الماضي ومن التنوع المذهل لما مرّ بالتجربة البشرية على الارض ، لذلك أصيبوا بنوع من اليأس من إمكان أن يصوغوا نسقا منظما من تلك الفوضى . وما من شك أن هذا الموقف السلبي قد اعتبر نقطة ضعف في الحركة التاريخية المعاصرة ومن بين عناصر الأزمة ، في حين أن علماء المؤرخين لا يترددون في أن يتشبهوا بعلماء الطبيعة والفلك والكيمياء ، وأقنعوا أنفسهم بضرورة الاعتراف بمبدأ التجزئة العلمية لعالمهم (٥١ ـ ٥٣) .

الفصلان الثالث والرابع يتناولان بعض الجوانب الاجتماعية في شخصية المؤرخ والتزاماته ، ويتضح ذلك من عنوانيهما . « من آل اليه عمل المؤرخ » (Becoming a Historian) و « دراسة التاريخ وسيلة للحياة » History as a Way of Life ولعل الفصل الثالث هو من فصول الكتاب الرئيسية التي تعكس نظرة هيمرو لحركة التاريخ الجديد . فهو يتناول ظاهرة التغير الاجتماعي لفئة المشتغلين بالتاريخ ، ويلاحظ التغير الواضح في الطبقة التي كان ينتمي اليها المؤرخون حتى نهاية القرن التاسع عشر وطبقة الكثرة الغالبة من مؤرخي القرن العشرين . وإن ما يذكره عن المؤرخين السابقين في الغرب من أمثال هيرودوت وبروكوبيوس

وجيبون ورانكة وحتى توينبي ، يصدق أيضا على مؤرخي الاسلام مثل البلاذري والطبري وابن الاثير وابن خلدون والمقريزي ، فجميعهم بصفة عامة ينتمون الى مجتمع النخبة أو كانوا يعملون في ديوان الحاكم . وعلى النقيض من ذلك نجد جيل المؤرخين الجدد ينتمون الى الطبقة المتوسطة الأميل الى الفقر بصفة عامة . وبعبارة أخرى تغيرت القاعدة الاجتماعية لدراسة التاريخ . ويحرص هيمرو على تأكيد هذه الظاهرة وأبعادها ، فهو يستشهد باحصاءات اجتماعية مستمدة من الجامعات الامريكية ، ويستنتج أن عمل المؤرخ أصبح يحقق دخلا ومكانة اجتماعية لصاحبه الجديد ، على خلاف الوضع في الماضي حين لم يهدف قدامى المؤرخين الى شيء من هذا . ثم هو يستدرك بأن هذا التغير لا يعني أن جيل المؤرخين الجدد أقل تفانيا في العلم ، ولكنه يعود فيؤكد اعتقاده بأن ما جذبهم الى التعليم الجامعي كسبيل للعمل ليس العائد الفكرى ولكن العائد الاجتماعي (من ٧٦ ـ ٨٦) .

ثم تتضح النظرة المحافظة لمؤلفنا حين ينتقل من هذا التحليل لتغير الوسط الاجتماعي الى تغير النظرة للتاريخ . فمع تغير النظرة للدراسات الانسانية عامة ، تغير وضع التاريخ أيضا ، واحتل في رأيه مكانة هامشية فيما بين العلوم الاجتماعية والانسانية . ويستنتج من ذلك وكأن التاريخ قد فقد وعيه الطبيعي ، لأنه ليس علما تطبيقيا مثل سائر العلوم الاجتماعية . فالتاريخ عاجز عن أن ينفعنا أو يجعلنا أكثر حكمة ، وكل ما يستطيعه التاريخ هو أن يكون شاهدا على الماضي (١٠٣) . وأخيرا ينتهي الى رفض الاتجاه الجديد بقوله « ان المشكلة تكمن في أن المؤرخين ليسوا علماء اجتماعيين ، وليس في ذلك غرابة ، فلأمد بعيد كانت جذوره ثابتة في الانسانيات ، ولعله ما زال كذلك » . (١٠٦) .

ورغم طرافة المعلومات والملاحظات التي يوردها هيمرو ، فان نظرته في ريب أو سخرية أحيانا الى حقيقة التحول في مفهوم دراسة التاريخ وتفسيره في ظل تغير القاعدة الاجتماعية للمشتغلين بالتاريخ ، يعكس موقفا محافظا متصلبا . فهو يقرن بين اعتبار التاريخ دراسة إنسانية وبين طبقة قدامى المؤرخين ، ويجعل المفهوم الاجتماعي للتاريخ مقترنا بتغير هذه الطبقة في جيل المؤرخين الجدد . وفي الواقع إن هذه النظرة تهمل ما أصاب الدراسات الانسانية بما في ذلك الفنون الرفيعة من تحول ثوري شامل فالتاريخ لا ينفرد بالمفهوم الاجتماعي الجديد ، وانما هو جزء من حركة متكاملة تتمثل في الانسانيات عامة . وخطأ ثانٍ ينزلق اليه هيمرو حيث يتهم المؤرخين الجدد بأنهم ليسوا علماء اجتماعيين ، ولا يوجد بين رواد التاريخ الجديد من يدعي أنه يهدف أو يقصد الى تكوين علماء اجتماعيين ، فهدفهم ومقصدهم ـ كما سيتضح فيما بعد ـ هو إخضاع المعرفة التاريخية لمنهج من التحليل جديد لتعطي صورة أصح وأقرب الى الواقع من الصورة التي قدمتها كتابة التاريخ في الماضي .

أما الفصل الرابع الذي يتناول عمل أستاذ التاريخ في الجامعة ، فلا يتوقف عنده كثيرا لتركيزه على نمط العمل والحياة في الجامعات الامريكية بصفة خاصة . ولعل النقطة الرئيسية ذات الاهتمام العام في هذا الفصل تعدد التزامات الاستاذ ـ وليس المؤرخ وحده في الواقع ـ بين التدريس والأعباء الادارية والبحث العلمي . ويلاحظ المؤلف ـ وهو على حق ـ أنه بسبب مشقة البحث العلمي وحاجته الى درجة عالية من التفرغ والجهد والتركيز ، يقصر كثيرون جهودهم على

القيام بواجباتهم التعليمية ، أو الانصراف الى الاعمال الادارية التي تحقق لهم سلطة ومكانة مرموقة في هيكل الحياة الجامعية .

● ● ●

نصل بعد ذلك الى الفصلين الأخيرين من الكتاب وهما الفصل الخامس بعنوان « التاريخ الجديد والقديم » ، والفصل السادس بعنوان « ما فائدة التاريخ » . أولهما أكثر أهمية من غير شك ، وفيه يبدأ المؤلف بإشارة سريعة لكتابة التاريخ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومن الطريف أن هيمرو في هذا العرض السريع لا يحرص على التعريف أو إظهار التحول الذي حدث في هذين القرنين في كتابة التاريخ ، بقدر ما يحرص على إظهار أن بعض أفكار مدرسة التاريخ الجديد ، ليست جديدة حقا وقد سبق أن أثارها كتاب منذ القرن الثامن عشر . ويستشهد بالمؤرخ الالماني جاترر (Gatterer) الذي دعا في عام ١٧٦٧ الى نظرة جديدة للتاريخ قائلا : « فماذا يتبقى لكاتب التاريخ السياسي ، اذا لم يذكر شيئا عن الأحوال الدينية أو الموقف العام أو الظروف الطبيعية أو محاصيل البلاد ، أو لم يقدم تقديره لامكانيات الشعوب ومهاراتها الصناعية والتجارية ، وأخيرا اذا لم يذكر شيئا عن فنونهم وعلومهم ؟ »[٢٢] وقد كان جديرا بمؤلفنا أن يشير الى أن هذه الانطلاقة في التفكير التاريخي تردد أصداء الكتابة التاريخية الثائرة في كل من فرنسا وانجلترا في القرن الثامن عشر ، التي كان من روادها وأعلامها منتسكيو وادوارد جيبون . وقد عبر عن هذه الحقيقة كاتب الماني آخر بعد ذلك بجيل واحد وهو شلوتزر في عام ١٨٠٤ بقوله : « لم يعد التاريخ مجرد سير الملوك ، وترتيب زمني محكم لتعاقب الدول والحروب والمعارك ، ووصف الثورات والاحلاف . هكذا كان أسلوب معظم المؤلفين في الأيام الخوالي في العصور الوسطى ، ونحن الألمان كنا لا نزال نكتب بهذا الاسلوب اللعين منذ نصف قرن مضى ، قبل أن يوقظنا الانجليز والفرنسيون بنماذج أرقى من كتاباتهم . »[٢٣]

أما القرن التاسع عشر فيجمله المؤلف في أن أعلامه من أمثال رانكة وماكولي وميشليه ومومسن كانوا على علم كامل بتعقد وتعدد جوانب التجربة الانسانية الجماعية ، ولكنهم بصفة عامة أقاموا دراساتهم على أساس التركيز على أصحاب السلطان أو أهل الحل والربط كما نقول ، ومع ذلك فبين الحين والآخر ، ومن وراء الملامح التي يرسمونها لطبقة النخبة وأولى الأمر قد تبدو الجماهير العريضة في خطوط معتمة : أعمالهم وآمالهم ومشاعرهم وثوراتهم . فقد كان من الواضح الجليّ لمعظم المؤرخين أن شارل الخامس ملك اسبانيا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا أعمق أثرا في مجرى التاريخ من القرويين الاسبان أو الحرفيين الفرنسيين الذين عاشوا تحت حكم كل منهما . وهذه هي نقطة الخلاف الرئيسية بين التاريخ الجديد بعد ١٩٤٥ والتاريخ القديم . وقبل أن يمضي هيمرو في تحليل المواقف ، يتوقف ليكرر رأيه بأن التاريخ الجديد يعكس تفسير الوضع الاجتماعي والنظرة السياسية للباحث الجديد . فالباحث الجديد يرى أن القرويين الاسبان في القرن السادس عشر والحرفيين الفرنسيين

---

(٢٢) — Johann Christoph Gatterer, "Von Historischen Plan und der Darauf sich grundenden Zusammen-fungen der Erzahlungen", Allgemeine Historische Bibliothek von Mitgliedern des Koniglischen Instituts der Historischen Wissenschaften 3u Gottingen, I (1767) 24-25.

(٢٣) — August Ludwig Von Schlotzer, Theorie der Statistik, Neebst ideen uber das stadium der Politik uberhaupt (Gottingen, 1804), 92.

في القرن السابع عشر في حقيقة الأمر أكثر دلالة على العصر من شارل الخامس أو لويس الرابع عشر وبعبارة أخرى أصبحت الأضواء تسلط على أهل الريف وجمهور المدن بدلا من الملوك والقواد . ويمثل هذه النظرة الجديدة واحد من رواد مدرسة الحوليات (Annales) في فرنسا وهو لادوري في كتابه المشهور « ساحة المؤرخ »[٢٤] وفي بريطانيا يصف هوبز بوم النظرة الاجتماعية للتاريخ بهذه العبارة : « لقد تجنب البحث التاريخي في الماضي مثل هذه الموضوعات باعتبارها لا تمثل النظام الحاكم ، ولا تمت الى دوائر السلطة والسيادة ، والآن يتجه اليها البحث التاريخي لهذا السبب ذاته . فهذه الموضوعات أصبحت وسيلتنا للكشف عن مساوىء الماضي وأخطائه ، ووسيلتنا أيضا لامكانية تجنبها في المستقبل ، وكذلك أصبحت وسيلتنا لاستعادة البناء الاجتماعي . »[٢٥]

واذا كان بعض الباحثين الجدد قد اهتموا بمظاهر التغير في المجتمع ، فهناك باحثون آخرون اتجهوا الى دراسة مظاهر عدم التغير في المجتمع . بمعنى أنهم أخذوا ينظرون الى التقاليد والعادات والميول الشعبية والمواقف العقلية التي لا تتغير مع الزمن الا ببطء شديد ، وهي التي تمنح المجتمع الاستقرار والاستمرار . ونشط في هذا المجال مؤرخون فرنسيون على وجه الخصوص ، دعوا العلماء الى الغوص تحت سطح الأحداث وظاهرها ، للعثور على طبقة سفلى من الحقائق الثابتة تحت مد الأحداث وجذرها العابر . وأكدوا أهمية « الامد الطويل » (La Longue duree) وهو ما يتمثل في حقب لا تقاس بالسنين أو عشراتها ، ولكن بمئاتها وآلافها ، حيث يلتقي ويتداخل الماضي والحاضر والمستقبل . وهم يميزون تمييزا حادا بين البنية (Structure) والحادثة أو الموقف (Conjuncture) أي بين تلك المقوّمات في المجتمع التي تستمر تقاوم التغيير ، والحادثات العفوية التي قد تبدو خطيرة ساعة وقوعها ، ولكنها سوف تتضح فيما بعد مجرد تموجات على صفحة المحيط الفسيح . وهم يتحدثون أيضا عن « العقلية » في التاريخ (Le Mentalite) وهي مجموع المشاعر والمواقف المشتركة في الجماعة ، التي تفسر ردود فعل الجماهير للتجربة المشتركة . ولذلك حذروا من الانشغال « بالحادثة » أو « بالمواقف » أو ما يقع صدفة مما يحوّل اهتمام الباحث عن القوى الكامنة تحت السطح ، التي تحدد مصير الانسان « ان تاريخا يتناول هذه القوى جدير وحده بأن يسمى تاريخا » ، كما يقول أحد روادها جاك لوجوف . (Jacques Le Goff)[٢٦]

وقبل أن نعرض لموقف هيمرو من هذه المفاهيم التي تمارسها مدرسة التاريخ الجديد ، يجدر بنا أن نستكمل الصورة بذكر أهم ما تتميز به الاتجاهات التاريخية المستحدثة من مناهج وأساليب البحث . وقد يتضح من الاصطلاحات التي سبق الاشارة اليها أنها مستمدة من العلوم الاجتماعية ، الانثروبولوجيا أو الديموغرافية أو الاقتصاد وعلم النفس . ولعل أهم ما تتميز به حركة التاريخ الجديد في واقع الأمر هو مناهجها وأساليبها التطبيقية . فليست العبرة في الدراسات العلمية بالأفكار ولكن بالتطبيق والممارسة ، واذا صح هذا القول على العلوم الطبيعية ، فقد أمكن تحقيقه في

(٢٤) — E. Le Roy Ladurie, Le Territoire de L'Historien (Paris, 1973), English Translation: The Territory of the Historian (Chicago, 1979), 223.

(٢٥) — E.J. Hobsbawm, **"From Social History to the History of Society"**, Doedalus 100 (1971) 33.

(٢٦) — Jacaues Le Goff, **"Is Politics Still the Backbone of History"**, Deodalus, 100 (1971) 4.

دراسة التاريخ بفضل حركة التاريخ الجديد . فالأفكار الاجتماعية والاقتصادية وكذلك النفسية قديمة ومعروفة في كثير من الكتابات التاريخية من قبل ، ولكن الجديد هو ممارستها وتطبيقها بمنهجية علمية صارمة ، ارتقت بها أحيانا الى مستوى الدقة الرياضية . من أجل تحقيق ذلك استخدم المؤرخون الجدد مناهج مستمدة من العلوم الاجتماعية ، مثل المنهج الكمي أو الاحصاء ، والتحليل الاجتماعي ، ومنهج التحليل النفسي . والهدف من تطوير المنهج التاريخي على هذا النحو هو الحصول على معلومات أكثر دقة وأكثر علمية ، وأول خطوة في هذا الاتجاه كانت زيادة الاعتماد على المنهج الكمي (quantification) الذي يقوم على الأرقام والاحصاءات قدر المستطاع . وقد سبق أن دعا الى استخدام الاحصاء مؤرخ الماني في مطلع القرن التاسع عشر ، شلوتزر ، ودعا « المؤرخ أن يكون احصائيا ، . . فالتاريخ هو الكل والاحصاء جزء منه[٢٧] » ومن قبله ابن خرداذبه من كتاب القرن الثالث الهجري في الاسلام (القرن التاسع ميلادي) استخدم الاحصاء بايراد قوائم الخراج .[٢٨] وغير هؤلاء كثير ، ولكن الجديد في النصف الثاني من القرن العشرين هو أن المؤرخ أصبح أكثر استخداما للأرقام ، وأهم من هذا أنه أصبح أكثر قدرة على نقدها وتحليلها في ضوء كم ضخم منها استطاع استخلاصه من وثائقه ومصادره . ومع تقدم هذا الأسلوب وتعقده أصبح استخدام الكمبيوتر لازمة لهذا المؤرخ الاحصائي الجديد ، كما أشار دافيد هيرلهي في دراسة عن المؤرخ في الثمانينيات .[٢٩]

أما منهج التحليل الاجتماعي ، وهو من أكثر الأساليب الحديثة انتشاراً في التاريخ ، فسوف أكتفي هنا بمثال واحد لم يذكره هيمرو ، وهو كتاب للمؤرخ الفرنسي لادوري ، أصبح الآن يتخذ نموذجا لتطبيق منهج دراسة الديموغرافية في التاريخ . والكتاب دراسة لقرية في جنوب فرنسا تسمى مونتايو (Montaillon) في الفترة ١٢٩٤ ـ ١٣٢٤ حين حامت الشبهات حول انتماء سكانها لهرطقة جماعة دينية عرفوا بالأطهار (L' Heresie cathare) بسبب انحرافهم عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية الرسمي . فتكفل الرئيس الديني للاقليم باجراءات محكمة التفتيش ، ونظرا لدقته المتناهية في اثبات جميع أقوال أهل القرية ، فقد تخلفت عن هذه المحاكمات ثلاثة مجلدات ضخمة باللغة اللاتينية ، تم نشرها حديثا ١٩٦٥ .[٣٠] ثم توفر لادوري على دراستها ديموغرافيا . وهو يقدم لهذه الدراسة الممتعة ، شارحا فكره ومنهجه بهذه الكلمات : « ان كل من يريد أن يتعرف على الفلاح في العصور الماضية أو الموغلة في القدم ، يمكنه التعرف عليه في بعض المؤلفات التاريخية الكبرى . . . أقصد أعمال جوبير ، وبواترينو ، وفوركان ، وفوسييه ، ودوبي ، وبلوك . . . ولكن أمرا واحدا قد لا يجده فيها أحيانا ، وهو النظرة المباشرة ، الشاهد المباشر بغير وسيط ، الذي يقدمه الفلاح على نفسه . . . من أجل هذا كانت المحاكمات ضد « هرطقة الأطهار ، هامة حقا لموضوعات الحياة المادية والاجتماعية والعائلية وثقافة أهل الريف . فنحن نجد في هذه المجموعة من النصوص جرعة من التفصيلات بالغة الدقة من

---

(٢٧) — A,L.V. Schlozer, Theorie der Statistik (1804) 92-3

(٢٨) — كتاب المسالك والممالك ، تأليف عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبة ابوالقاسم (ليدن ١٨٨٩).

(٢٩) — David Hirlehy "Quantification in the 1980's: Numerical and Formal Analysis in European History," **Journal of Interdisciplinary History**, 12 (1981-2) 135.

(٣٠) — Jacques Fournier, Le Registre de L'Inquisition de Jacques Fournier, eveque de Pamiers (1318-1325) manuscript Latin no. 4030 de La Bibliotheque Vaticane, Edite par Jean Duvernoy, 3 vols, (Toulouse 1965).

الحياة ، نبحث عنها أحيانا بغير طائل في اللوائح والسجلات المدنية . »[٣١] الجدير بالملاحظة في عبارة لادوري هذه أن جميع المؤرخين الذين ذكرهم هم من المهتمين بالتاريخ الاجتماعي والريفي لفرنسا في العصور الوسطى والحديثة ،[٣٢] ومعظمهم من كبار الأساتذة المعاصرين ، ومع ذلك فهو حريص على أن يميز بين طريقتهم في الكتابة وبين منهجه الذي يتمسك فيه « بالنظرة المباشرة ، بالشاهد المباشر دزن الوسيط » فما من شك أن حجر الزاوية في المنهج المعاصر هو موقف الباحث من الوثيقة ، وطريقة تعامله معها . ولعل عبارة « الشاهد المباشر » ومدلولها ـ على بساطتها أيضا ـ تمثل أهم اضافة الى المنهج التاريخي منذ أن رفع رانكة منذ قرن ونصف شعار أن هدف المؤرخ هو أن يعرف « حقيقة ما حدث فعلا » ، ومن ثم كان ينادي بتجاوز كتابات المؤرخين الى قراءة الوثائق المعاصرة . وليس غريبا أن تضاعف اهتمام المؤرخين الجدد بالوثائق ، وأصبحت وسيلتهم الأولى للكشف عن معرفة وتفسير الماضي في ظل أساليبهم العلمية المستحدثة . ويتحدث المؤرخ الانجليزي ستيوارت هيوز عن هذا الموقف من الوثيقة في حماس واضح حين يقول « لا يتوقف عمل المؤرخ عند مجرد التيقن والتثبت من محتوى الوثائق ، على العكس إن عمله يبدأ عندئذ . فمشكلات التفسير المثيرة حقا ـ وربما جميعها ـ ما تزال أمامنا في المستقبل ، فكثيرون منا ، ممن هم أقل حنكة ودربة لا يكادون يستبينون مجرد وجودها . »[٣٣]

الى جانب منهج الاقتصاد والاجتماع التاريخي ، ظهـرت مجمـوعـة من المؤرخـين النفسيـين (Psychohistorians) الذين يدعون أن مناهج علم النفس والطب النفسي يمكن تطبيقها على المعلومات التاريخية للوصول الى فهم أعمق لسلوك الأفراد والجماعات . ونظرا لأن هذه المناهج تعتمد على ادراك جوانب الحياة الشخصية والسلوكية الخاصة بالنسبة للمرضى المصابين باضطراب نفسي او عقلي ، أخذ المؤرخون النفسيون في البحث عن المعلومات أو أدلة في السلوك الشخصي للحياة الخاصة للاجيال الماضية ، وهي أدلة ومعلومات لم يحفل بها المؤرخون التقليديون من قبل لأنها شديدة التناقض أو الغموض بحيث لم تثبت امام مناهج ومقاييس النقد التاريخي . وقد كانت بدايات التاريخ النفسي على أسس من العلم في النصف الاول من القرن العشرين ، ولكنها لم تحدث أثرا ملحوظا في الدراسات التاريخية الجادة .[٣٤] ومع اصرار عدد من العلماء النفسيين في النصف الثاني من القرن العشرين على أخضاع المعرفة التاريخية للدراسة النفسية ، حدث تقارب محدود بينهما في مجالين رئيسيين الاول هو دراسة المواقف والعقائد الجماعية والتي يجملها مصطلح « العقلية » (Mentalite)مما يهتم به أيضا أصحاب النظرة الانثروبولوجية للتاريخ . ومن أمثلة دراساتهم « تغير الموقف من الموت في المجتمع الغربي

---

(٣١) — E. Le Roy Ladurie, Montaillou, Village Occitant de 1294a 1324 (Gallimard 1982) 9-11A.

(٣٢) — P. Gourbert, Beauvais et le Beauvasisis, de 1600a 1730 (Paris 1960); A. Poitrineau, La Vie rurale en basse Auvergne au XVIIIe siecle (Paris 1965); G. Fourquin, Historie economique de l'Occident Medieval (Paris 1969), Le Paysan d'Occident au Moyen Age (Paris 1972); Seigneurie et feodalite au Moyen Age (Paris 1970); R. Fossier, La Terre et les Hommes en Picardie Jusque' a la fin du XIIIe siecle (Paris-Louvain 1968); Histoire sociale de l'Occident medieval (Paris 1970); G. Duby, Hommes et Structure du Moyen Age (Paris-La Haye 1973); M. Bloch, La Societe Feodale (Paris 1939-1940); Caracteres Originaux de L'histoire rurale francaise (Paris 1952).

(٣٣) H.S. Hughes, **History as Art and as Science** (1964) 3-4, 20.

(٣٤) Cf. Hamerow, pp 188-198.

منذ العصور الوسطى . »[٣٥] أما المجال الثاني فهو دراسة سير الأعلام، ومن أهم الأعمال في هذا المجال دراسة اركسون لشخصية مارتن لوثر المصلح الديني الالماني المشهور في القرن السادس عشر .[٣٦] ورغم هذه الجهود وأمثالها ، ورغم جاذبية النظريات التي يتقدم بها التحليليون النفسيون ، لازال التحليل النفسي أضعف الدراسات التاريخية الجديدة . ولعل تخلف التاريخ النفسي راجع إلى مطعنين خطيرين يتعلقان بطبيعته . الأول هو ان العنصر الرئيسي الذي يقوم عليه منهج التحليل النفسي غير متوفر للمؤرخ النفسي . فالمريض غير موجود ليجيب عن أسئلته .[٣٧] والمطعن الثاني يعتمد على نظريات التحليل والطب النفسي ويتم تطبيقها تاريخيا بأسلوب الفرض والنتيجة في حين أن المنهج التاريخي في أبسط عناصره يقوم على الدليل والتفسير المباشر ، فهو منهج ينفر بالضرورة من أسلوب النظرية والفرض . لعل هذين المأخذين هما سبب استمرار ضعف التاريخ النفسي وعدم قدرته على أن يصبح أكثر قبولا أو اقناعا لدى سائر المؤرخين .

لعل من المناسب بعد عرضنا لأهم مواقف ومناهج حركة التاريخ الجديد ، ان نعرض أيضا لموقف هيمور منها . ولقد تجنبنا ذلك بالنسبة للنقاط المختلفة حرصا منا على وضوح الصورة وكمالها ، والسبب في ذلك هو الاسلوب الذي اتبعه مؤلفنا ، فهو لا يتصدى صراحة لمناقشة الموضوعات ونقد المنهج أو النتائج التي انتهت اليها دراسات المؤرخين الجدد . ولكنه يجنح الى التشكيك وترديد مآخذ عامة . القراءة الكاملة للكتاب تكشف انه ينتمي الى تيار المؤرخين الرافضين للتاريخ الجديد . فهو من المؤمنين بأن دراسة التاريخ لازالت في معترك أزمة لانجاة منها ، واذا ماكتب أحد المؤرخين الجدد أن الوصول الى المعرفة الكاملة للتجربة الانسانية الماضية أمر غير ممكن ، اعتبر ذلك بمثابة إعلان بفشل الحركة (١٧١ ـ ١٧٢) وقد سبق أن ذكرنا أنه يغمز المؤرخين الجدد من حيث انتماؤهم الطبقي وان هذا الانتماء الطبقي يؤثر في نظرتهم السياسية ويتدخل في نظرتهم التاريخية (١٦٢ ـ ١٦٤) ، بمعنى انه يشكك صراحة في موضوعيتهم العلمية . ثم هو غير راض عن الطريقة التي أصبح التاريخ يكتب بها ، من حيث صعوبة الجمع بين الاسلوب الادبي واسلوب البحث العلمي الجاف[٣٨] . وتحتد الفاظه أحيانا فيصف أسلوب بعض المؤرخين الجدد ولغتهم بأنها نوع من التصنع او الاحتيال المهني ، وانها غير مفهومة . ويتحول من مهاجمة اللغة الى مهاجمة المنهج بقوله « هناك اختلاف أساسي بين التاريخ الذي يؤكد على الفردية وعدم التكرار ، وبين العلم الذي يسعى وراء الانتظام والتكرار . وهو يشبه « عالم الاجتماع المؤرخ » بأمين متحف للفن القديم الذي يحاول أن يعيد تشكيل لوحه من الفيسفاء الرومانية من حفنة من جزئياتها المبعثرة . فالنتيجة قد تكون جديرة بالثناء ، ولكنها لن تزيد على كونها ترميما من فعل الخيال(١٨٧) . وينتهي الى الاقلال من شأن حركة التاريخ الجديد وأنها تبدو الأن في رمتها أقل أصالة وأقل جدة مما بدت أول الأمر (١٩٧) ، واكثر من ذلك « ان التمييز بين التاريخ

(٣٥) — W.L. Langer, "Forward", in **The Psychoanalytic Interpretation of History**, ed. B.B. Wolman (N.Y. — London 1971) viii f.; cf.
Ladurie, "The New History of Death:" **The Territory of the Historian**, p. 273-284.

(٣٦) — E.H. Erikson, Young Man Luther: **A study in Psychoanalysis and History** (N.Y. 1958)

(٣٧) — Oscar Handlin, **Truth in History** (Cambridge, Mass. London 1979) 273-4

(٣٨) — E.H. Carr, **What is History?** **43.**

الجديد والقديم يبدو مصطنعا الى حد بعيد (٢٠٣) وفي الفصل الاخير من كتابه عن « فائدة التاريخ » يردد ما سبق أن ذكره في الفصل الاول ، وهو يؤكد رفضه للأسس التي قامت عليها حركة التاريخ الجديد من الموقف العقلي والتوجه الاجتماعي لدراسة التاريخ . وفائدة التاريخ عنده تكمن في أنه « يرضي رغبة عميقة في الانسان لمعرفة جذورنا » ، وأن الهدف من دراسته سوف يظل ما قاله هيرودوت قديما وهو حتى لا يمحّي بفعل الزمن ذكرى الاعمال الجليلة التي قام بها الانسان (٢٤٣) وهي نظرة اكاديمية صرفة للتاريخ ، وتكشف عن ظاهرة لها طرافتها ، وهي أن الفكر التاريخي اليوناني القديم ، ممثلا في هيرودوت ، لازال قادرا على ان يحرك فكر مؤرخ معاصر على مشارف العقد الاخير من القرن العشرين .

بعد هذه المآخذ والانتقادات يسلم هيمرو لحركة التاريخ الجديد بانجاز ايجابي واحد ، وهو العمل على تعميق دراسة التاريخ واتساع آفاقه (١٩٩) . وهي حقيقة لا سبيل لإنكارها أو الجدال بشأنها . ولكنها جزء من حقيقة تخفي حقائق أخرى . ولعل من المناسب هنا أن نقدم تقويما موجزا عن أهمية الدور الذي قامت به حركة التاريخ الجديد ، « حتى لا يمحي فضل الاعمال الجليلة التي قام بها دعاتها » ـ اذا جاز لنا أن نستعير الفاظ هيرودوت أيضا . لعل من الانصاف أن نقرر أن أهم ايجابياتها تتلخص في نقطتين ، هما :

أولا : أنها مكنت التاريخ من مسايرة ثورة المعرفة المعاصرة والافادة من مناهجها ووسائلها .

ثانيا : انها جعلت التاريخ ضرورة علمية لفهم الحاضر . وهكذا تجاوز التاريخ الازمة التي ألمت به في منتصف القرن العشرين ، حين شعر مؤرخون تقليديون بالعجز عن ايجاد صلة بين عملهم والتطورات الهائلة التي طلع بها النصف الثاني من القرن العشرين . فعند الصدمة الاولى للعقول الجساسة شعر بعضهم بانعدام الصلة بين التجربة الماضية للانسان وبين ما هو مقدم عليه . فامكانات العصر الجديد العلمية والتكنولوجية فاقت أطغى تطلعات أرقى العقول لمجموع الاجيال السابقة .

ولكن رواد التاريخ الجديد لم يضعفوا ولم ييأسوا ، وأدركوا ان مظهر انقطاع الصلة بين الماضي والحاضر لا يرجع الى قصور في طبيعة الدراسة التاريخية ، ولكنه يكمن في قصور المنهج التاريخي المستخدم حينئذ ، فكان لابد من تغيير المنهج ، وهذا هو حجر الزاوية في أهمية دور حركة التاريخ الجديد . فمنذ القرن التاسع عشر والاصوات المتتالية تردد الدعوة الى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للأمة او المجتمع . ولكن مناهجهم بقيت يغلب عليها الطابع الوصفي أو التصويرى لما يحدث في المجتمع مع حرص متصل على الدقة العلمية . وهذا هو ماثار ضده أصحاب التاريخ الجديد ، أقصد اسلوب العرض الوصفى او التصويرى مهما بلغ من الدقة العلمية والموضوعية الفكرية . فبتطويع مناهج علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد لاسباب دراسة المعرفة التاريخية ، أمكن تطوير منهج البحث التاريخي لمعالجة « قضايا » و « مشاكل » التاريخ بوسائل العلم الحديث ، وليس مجرد الوقوف عند تناول أو عرض الموضوعات بدقة علمية .

هذا التحول في منهج البحث التاريخي أفاد الدراسة التاريخية الجادة ، وبعث فيها حيوية كادت تختنق عند مفترق الأزمة ، وجعلها قادرة علميا على الاسهام في فهم الحاضر . فاذا كان عالم الاجتماع أو الاقتصاد هو أقدر الناس على دراسة وتحليل مشكلة قائمة مثل البطالة أو الكساد أو الانحرافات الاجتماعية ومعرفة مظاهرها وتقديم الرأي بشأنها ، فقد يصبح للمؤرخ

دور آخر يكاد يتفرد به ويفرضه على المجتمع ، وهو أن الظاهرة الاجتماعية أو الاقتصادية الحالية ، اذا مابقيت معزولة عن جذورها ، منبتة الصلة بأصولها ، تبقى نصف مفهومة على أحسن الاحوال ولعل هذا هو مكمن الضعف في بعض الدراسات الاجتماعية والاقتصادية للقضايا الكبرى . وقد أدرك كثيرون أن الظواهر الآنية هي نتاج ماض يختلف طولا وقصرا حسب اختلاف الأحوال ، وان التحول وراء الظاهرة يرجع الى عوامل خفية تكمن في بناء النظم القائمة أو بنية المجتمع ، وتضرب بجذورها في الماضي . وعدم معرفة هذا العوامل الصميمة هو سبب عدم فهم بعض الظواهر الحادثة الآن فهما كاملا . ومن ثم كان إصرار أصحاب التاريخ الجديد على دراسة الحركة الممتدة في التاريخ (Process) دون التركيز على الحوادث events أو Conjontures في الاصطلاح الفرنسي) ، وهو أمر كاد ييأس منه بعض المؤرخين التقليديين ، ولازال هيمرو يعاني من هذا اليأس .

هذا الموقف الجديد بمنهجه الجديد ، كان لابد من اثباته وتأكيد جدواه بالممارسة التاريخية ، وهذا هو ما حدث في الاربعين عاما الماضية ، حين اندفع مئات من شباب المؤرخين في تطبيق النظرة الجديدة على دراسة الماضي في كل عصوره . وكانت جهود العلماء السابقين طيلة مائة وخمسين عاما مضت في تجميع وتحقيق ونشر ملايين الوثائق والكتابات والمخطوطات من كل موقع على سطح الارض ، من امكانات وسائل المعرفة الجديدة ، مادة غنية وربما كافية أحيانا ، مكنت هؤلاء المؤرخين من دراسة مشاكل المجتمعات السابقة وقضايا اقتصادها وماليتها ، أو مظاهر الاستمرار والتغير في كل مرحلة وكان اهم نتائج هذه الحركة أن تغيرت صورة الماضي عما كانت عليه منذ خمسين سنة فقط . ولعل أهم مظهر لهذا التغيير ، ليس الجانب الاقتصادى أو الاجتماعي كما قد يتبادر الى ذهن البعض ، ولكن الاهتمام كل الاهتمام بالجزئيات . فلم تعد هناك في المنهج الجديد جزئية او واقعة محلية تقل قيمة عن الاجراءات والاحداث الكبرى . وهكذا اختفت من التاريخ ظاهرة « المعالم » الكبرى التي تزخر بها كتب التاريخ التقليدية . كما اختفت من التاريخ الجديد أو كادت ظاهرة « تمجيد الماضي أو تقديسه » ، وأصبح الماضي كله يوضع موضع التشريح المعملي لمعرفة عناصره ومقوماته ومكوناته ودوافعه والقوى التي تحركه أو تعوق حركته والنتائج التي تمخض عنها . وطبق هذا المنهج على جميع العصور دون تمييز لعصر على آخر ، الا بقدر ما يقدم من مادة تاريخية أوفر تعين الباحث على جلاء غوامضه ومعرفة حقائقه . وهكذا تغير مدى الرؤية التاريخية واختلفت الصورة كل الاختلاف . وما أشبهها بمن ينظر الى القبة السماوية بالعين المجردة ثم ينظر اليها بمنظار إلكتروني ، وشتان بين الرؤيتين . فما من شك أننا الآن نرى الماضي بدرجة أكثر وضوحا من أى عصر مضى .

لعل هذه هي أهم نتائج التاريخ الجديد الايجابية ، أما نتائجه السلبية فيؤخذ عليه سلبيتان يتكرر ترديدهما . الاولى امعانه في التخصص والاسلوب العلمي ، ففقد كثيرا من الجاذبية الأدبية التى كانت للتاريخ من قبل . ولذلك فقدت الدراسات الجديدة كثيرا من جمهور القراء التقليدين ، لان المؤرخين بنسبة متزايدة أصبحوا يكتبون للمتخصصين ، شأنهم في ذلك شأن كثير من زملائهم في العلوم الأخرى . أما السلبية الثانية فهي اختفاء فكرة التاريخ العام ، فرغم أهميتها وجاذبيتها أصبحت في ظل المنهج الجديد بعيدة المنال ، وربما بدت في نظر معظم المؤرخين مستحيلة . ومع ذلك فهناك من يشك أن هاتين النتيجتين تدخلان في عداد السلبيات ، وأنهما مظهر من مظاهر الإرتقاء

العلمي الذي حققته الدراسات التاريخية في النصف الثاني من القرن العشرين .

• • •

اخيرا ننتهي الى كلمة لابد منها عن دراسة التاريخ في العالم العربي ، أو أين نحن من مدرسة التاريخ الجديد المعاصرة . ولابد أن نقرر منذ البداية أن البون شاسع والمواقف مختلفة كل الاختلاف . فدون أن أتطرق الى جزئيات أو مفردات الكتابات التاريخية العربية المعاصرة ، يمكن تقسيم المشتغلين بالتاريخ العرب الى فريقين رئيسيين : الفريق الاول وهم الكثرة الغالبة ، الذين لايزالون يشعرون بالارتباط العاطفي بالماضي ، سواء أكان هذا الاتباط العاطفي دينيا أم سياسيا أم اجتماعيا أم حتى أخلاقيا ، ولذلك تتأثر كتابتهم أو تصورهم للماضي الذي يدرسونه بهذه العاطفة . وعدد منهم من غير شك على أكبر قدر من العلم والإحاطة ، ولكنه عند الكتابة يستخدم علمه ومادته لاظهار محاسن ذلك الماضي أو مساوئه ، فهم اما مدافع أو مهاجم مهما بلغ من المهارة والذكاء . ومنهجهم عادة في ارقى درجاتهم الاستشهاد النصّي بالمصادر ، ويظنون أنهم بذلك قد ارضوا قواعد المنهج العلمي . اما الفريق الثاني ، وهم الاقل عددا وانضج عاطفة وأقوى منهجا ، فهم يمارسون عادة منهج التحليل النقدي للمصادر ، وهم لذلك يحققون منزلة أرقى من الموضوعية الفكرية . وما من شك أن ازدياد الاهتمام بتجميع الوثائق العربية ودراستها ونشرها يزيد هذا الفريق قوة ويدعم منهجه العلمي . ورغم اهتمام عدد من أعضاء هذا الفريق بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، الا أن أسلوبهم في التناول لازال يغلب عليه طابع عرض ووصف هذه الجوانب في المجتمع ، ولازال بعيدا عن أسلوب معالجة المشاكل والقضايا بمنهج الدليل المباشر بغير وسيط ، حسب تعبير لادوري . كما أن المنهج الكمي والتوجه الاجتماعي من حيث الموقف العقلي لايزالان غير متوفرين في كثير من دراساتنا التاريخية .

واخيرا أذكر ظاهرتين تعوقان نمو دراسة التاريخ في العالم العربي على أسس علمية سليمة . الأولى هي اهمال تعلم اللغات التخصصية التي كتبت بها الكتابات التاريخية الأصلية فى العصور المختلفة . فهذا العجز اللغوى يشل عقل الباحث ويحجب عنه المعرفة التاريخية كلية . وأضرب على ذلك مثلا ما حدث عند العثور مؤخرا على آلاف اللوحات الكتابية فى موقع إبلة بشمال سوريا وترجع الى ما قبل عام ٢٠٠٠ ق.م ، فلم يوجد عربي واحد يستطيع أن يتصدى لقراءتها ، وتركنا قراءتها وتفسيرها للأجانب . ومن الغريب أن هناك من المتعلمين المسئولين من يهون من أمر اللغات التاريخية بدعوى التعصب للتراث فقط . وكلنا يعرف أنه اذا دخل التعصب من الباب خرج العلم من الشباك ، وعلينا أن نختار إما أن نذهب مع التعصب او نحيا بالعلم .

والظاهرة الثانية هي أن عددا من المؤرخين ينجذبون الى بعض المبادىء والنظريات ، فتتأثر كتاباتهم بهذه المبادىء أو تلك النظريات . وقد تكون كتاباتهم أحيانا مثيرة وممتعة عقليا أيضا ، ولكنها ليست تاريخا لان موضوع التاريخ هو الحياة ذاتها ، ولابد للمؤرخ الحقيقي ان يتعامل مع الحياة والواقع الحى مباشرة ، فالاسلوب العلمي المباشر هو أقصر الطرق واصحها للمعرفة الصحيحة والرؤية السليمة التي يلزم أن نجتهد جميعا في تحقيقها . وان لم نبادر الى هذه الغاية ـ رغم مشقة الوصول ـ فسوف تصدق علينا سلبا عبارة أحد المؤرخين المعاصرين وهي « ليس هناك مؤشر اكثر دلالة على شخصية المجتمع من نعيه التاريخ الذي يكتبه او يعجز عن كتابته .»

الفوضى
صناعة علم جديد

تأليف : جامز جليسك
عرض وتحليل : محمد عامر

يتكون الكتاب من استهلال وأحد عشر بابا تقع في نحو عشرين وثلاثمائة من القطع المتوسط . والكتاب مذيل بهوامش في نحو عشرين صفحة ، وكشاف تفصيلي في عشر صفحات . ومؤلف الكتاب محرر بجريدة نيويورك تايمز منذ عام ١٩٧٨ .

والمقصود بـ « الفوضى » هنا « الجانب غير المنتظم للطبيعة » ، على حد تعبير المؤلف . أي الظواهر التي لا تثبت على حال ، كما أنها لا تتغير بطريقة دورية ، بحيث تعود إلى ما كانت عليه كل فترة زمنية محددة . والعلم الجديد الذي يعدنا به المؤلف هو العلم الذي يدرس هذه الظواهر .

ولما كان الكتاب مكتوباً بطريقة تجعل من الممكن أن يعرض بابا بابا ، فان العرض التالي سيأتي على هذا النحو ، لأنه - فيما أرى - يفضل العرض المجمل بأنه يتيح للقارىء فرصة أن يقرر بالنسبة الى كل باب على حدة اذا ما كان من المفيد له أن يقرأه أم لا .

وقد أرجأت التعليقات الى ما بعد انتهاء العرض حتى تكون الصورة قد اكتملت في ذهن القارىء . ولا يوجد لهذا الا استثناء واحد . اذ رأيت من المناسب أن أورد من طيات عرض الباب الرابع تعليقا على بعض ما جاء فيه .

•••

استهلال :

حيثما تبدأ « الفوضى » يتوقف العلم الكلاسيكي . فرغم وفرة الفزيائيين الذين يبحثون في قوانين الطبيعة ، فقد ظللنا الى عهد قريب نعاني جهلاً فادحاً فيما يتعلق بعدم انتظام الطقس ، واضطراب البحر ، وتقلبات الحياة البرية ، وذبذبات القلب والمخ . لقد شكل

الجانب غير المنتظم للطبيعة لغزاً ، أو حتى كابوساً للعلم .

لكن في السبعينات شرعت قلة من العلماء من مختلف التخصصات في أوربا وأمريكا في السعي لأن تجد طريقاً وسط عدم الانتظام . وكانوا جميعاً يبحثون عن علاقات بين مختلف أنواع عدم الانتظام ، فوجد الفسيولوجيون انتظاماً مدهشاً في الفوضى المتطورة في القلب البشري . واستكشف علماء البيئة صعود وهبوط أعداد حشرة العثة الغجرية . وحاول الاقتصاديون أن يحللوا من جديد بيانات سوق المال . وقد قامت النظرة النابعة من هذا مباشرة الى العالم الطبيعي : أشكال السحب ، مسارات البرق ، التفافات الأوعية الدموية الدقيقة ، وتجمعات النجوم في المجرات .

وبعد عقد من الزمن ، صارت « اسما مختصراً لحركة سريعة النمو تتغلغل في المؤسسة العلمية . وازداد الاهتمام بالفوضى في الجامعات وبين العسكريين ولدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وفي لوس ألموس حيث صنعت أول قنبلة ذرية ، أنشىء مركز للدراسات غير الخطية لتنسيق العمل في الفوضى والمشكلات المتعلقة بها . ويرى بعض الفزيائيين أن الفوضى هي علم العمليات لا الحالات ، الصيرورة لا الكينونة .

والفوضى تربط التخصصات المختلفة بعضها بالبعض الآخر ، وتنظر الى المشكلات في كلياتها دون ارجاعها الى مركباتها . ويرى البعض أن الفوضى هي الثورة الثالثة في علم الفيزياء ، بعد النسبية وميكانيكا الكم . واذا كانت النسبية قد استبعدت خيال الزمان والمكان المطلقين ، واستبعدت ميكانيكا الكم حلم عمليات القياس المحكومة فان الفوضى قد استبعدت وهم التنبوء المحدد . غير أن الفوضى ، دونا عن الثورتين السابقتين عليها ، تتعامل مع الظواهر التي نلمسها مباشرة في حياتنا اليومية .

لا يمكن الا لعلم من نوع جديد أن يبدأ عبور الفجوة الكبيرة بين معرفة ما يفعله شيء واحد ـ مثلاً جزيء من الماء ـ وما تفعله ملايين من الشيء نفسه .

تقليدياً ، عندما يرى الفيزيائيون نتائج معقدة ، فانهم يبحثون عن أسباب معقدة . أما دراسة الفوضى الحديثة فقد بدأت في الستينات بملاحظة أنه يمكن لبعض المعادلات الرياضية البسيطة أن تشكل نموذجاً لبعض الظواهر العنيفة مثل مساقط المياه . فالتغير الطفيف في المدخلات قد ينتج عنه تغير ضخم في المخرجات . وهنا ما يعرف باسم تأثير الفراشة ، فحركة جناحي الفراشة اليوم في بكين قد تتطور الى عاصفة في نيويورك في الشهر التالي .

(١) تأثير الفراشة :

يتبنى العلماء الذين يسيرون على نهج « نيوتن » المقولة التالية : إذا كان لدينا معلومات تقريبية عن الشروط الابتدائية للمنظومة ، وفهماً للقوانين الطبيعة ، فإننا نستطيع أن نحسب سلوك المنظومة على وجه التقريب . وتقع هذه المقولة في القلب الفلسفي للعلم .

كلاسيكياً كانت هذه المقولة مبررة ، في الفلك وعلوم الفضاء مثلاً ، وتعتمد التنبؤات الاقتصادية والطقسية على نفس الفرض ، لكن نجاحها أقل وضوحاً .

وفي أوائل الستينات صمم « ادوارد لورنز Edward Lorenz» نموذجاً لدراسة سلوك الطقس من خلال الكمبيوتر . وأعطى الكمبيوتر الأرقام المعبرة عن الشروط الأولية مرتين . الأولى مقربة الى ستة أرقام

عشرية ، والثانية مقربة الى ثلاثة أرقام فقط . وكان يتوقع أن تأتي النتائج متقاربة . لكنه للغرابة لم يجدها كذلك . نحن إذن أمام ظاهرة غير تقليدية ، حيث يمكن أن تؤدي الأخطاء الصغيرة الى نتائج خطيرة . ومن هنا قرر «لورنز» أن التنبوء طويل المدى بالطقس محكوم عليه بالفشل .

ومن المعروف في الميكانيكا الكلاسيكية ، أن المجموعة الديناميكية قد يكون لها بعض نقاط عدم الاستقرار . والمقصود بهذه النقاط تلك التي يمكن أن يؤدي تغير ضئيل فيها الى نتائج كبيرة .

فمثلاً الكرة على قمة الجبل تكون في وضع عدم استقرار . وازاحة صغيرة في أي اتجاه كافية لأن تجعل الكرة تسقط أسفل الجبل . لكن الجديد في المنظومات التي توصف بالفوضى أن جميع النقاط هي نقاط عدم استقرار .

وبالرغم من أن استخدام الكمبيوتر قد حسّن كثيراً من مقدرتنا على التنبوء بالطقس ، فان هذا ينطبق فقط على الفترات القصيرة نسبياً : يومين أو ثلاثة أيام ، وبعد هذا فلن يكون الأمر الا تخميناً لا أكثر . والسبب في هذا هو ما يسمى بتأثير الفراشة : أي أن تسفر تغيرات صغيرة عن نتائج كبيرة . والمصطلح الفني الذي يستخدم هنا هو : حساسية التوقف على الشروط الابتدائية . وهذا ليس مفهوماً جديداً كلية ، كما يمكن أن نتبين من المقطوعة الشعبية التالية :

لنقص مسمار	فقدت الحدوة
ولغياب الحدوة	فقد الحصان
وبفقدان الحصان	فقد الفارس
وبفقدان الفارس	خسرت المعركة
وبخسارة المعركة	سقطت المملكة !

وعدم القدرة على التنبوء مرتبط بعدم دورية الظاهرة . وهذه وتلك مرتبطتان بعدم امكان وصف المنظومة الديناميكية عن طريق معادلات خطية . فتلك المنظومات التي توصف وصفاً خطياً تصير دورية ، أو تصل الى حالة انتظام . وحتى اذا ما أدخلت عليها بعض الاضطرابات ، فانها تميل الى أن تتناقص حتى تعود المنظومة الى حالتها من الدورية أو الانتظام .

(٢) ثورة :

تولدت عن ثورة جاليليو على أرسطو نظرة مختلفة الى حركة الأجسام . وفي اطار هذه النظرة رأى جاليليو انتظاماً في حركة البندول . فالبندول الذي له طول معين يتذبذب نفس العدد من الذبذبات خلال نفس الفترة الزمنية ، بغض النظر عن سعة الذبذبة . لكن هذا الانتظام غير موجود في الواقع . انه مجرد تقريب . فتغير زاوية الحركة يولد قدراً ضئيلاً من عدم الخطية في المعادلات . وفي حال الذبذبات الصغيرة ، فإن الخطأ لا يكاد يذكر ، لكنه موجود ، ويمكن قياسه حتى بالوسائل البدائية التي كانت متاحة في عصر جاليليو .

وقد احتاج الأمر الى ثورة أخرى ، ثورة الفوضى ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، حتى ننظر الى حركة البندول آخذين عدم الخطية في الاعتبار . وفي اطار النظرة الجديدة درست الفوضى منظومات مختلفة :

فديناميكا البندول اتسعت لتشمل تكنولوجيا حديثة مثل الليزر . وقد لوحظ أن بعض المنظومات الكيميائية تبدي سلوكاً يشبه سلوك البندول ، شأنها في هذا شأن ضربات القلب . والاتساع آخذ في التزايد ليشمل الطب العضوي والنفسي ، والتنبوء الاقتصادي ، ومن الجائز أيضاً تطور المجتمعات .

وقد وضع « ستيفن سمال Stephen Smale» من جامعة بيركلي نموذجاً توبولجياً للمنظومات الديناميكية التي تتسم بالفوضى . وقد التفت مجموعة من الشباب الرياضيين للعمل في هذا المجال حول « سمال » . ثم استطاع هذا النشاط أن يجذب انظار الفزيائيين . لقد استطاع « سمال » أن يحول فرعاً من فروع الرياضيات المجردة الى عالم الواقع .

ولقد لاقت الفوضى والنظرة المنبثقة عنها نجاحاً عظيماً في تفسير ظاهرة فلكية رصدها العلماء من أكثر من ثلاثة قرون ، ألا وهي ظاهرة البقعة الحمراء الكبيرة التي تظهر على كوكب المشتري . وفي البداية لم تكن هذه الظاهرة من الوضوح بما يستدعي أن يبحث لها عن تفسير . ومع زيادة مقدرات الرصد في القرن الماضي ازداد وضوح الظاهرة ، وبدأت التفسيرات . فمن قائل إنها حمم بركانية ، الى قائل إنها قمر جديد يوشك أن يولد ، الى قائل إنها جسم صلب يسبح في فضاء المشتري ، الى قائل إنها قمة عمود غازي .

وفي عام ١٩٧٨ أرسلت سفينة الفضاء « فويجر » صوراً أكثر وضوحاً ، فبدت البقعة كما لو كانت عاصفة ضخمة . لكن كان من الصعب قبول هذا التفسير لأن العواصف على الأرض لا تستقر لمثل هذه الفترة الطويلة من الزمن . ثم جاء رياضي شاب يدعى « ماركوس Marcus» فوضع في الكمبيوتر نموذجاً فوضوياً صاغه من خلال ديناميكا الموائع . وبأخذ صور على فيلم سينمائي لما ظهر على شاشة الكمبيوتر ، ثم عرض الصور بسرعة على شاشة سينما ، ظهرت دوامات تدور وتتحد في شكل بيضاوي يشبه تماماً بقعة المشتري في شكلها وحركتها . وهكذا فمن الفوضى يمكن أن تنبثق ظاهرة مستقرة .

(٣) تقلبات الحيـاة :

رغم تعقد الواقع البيولوجي ، فإن نماذجه الرياضية بسيطة للغاية . ولذا فهي ليست أكثر من كاريكاتور للواقع . لكنه كاريكاتور مفيد على كل حال . فهو يعطي علماء البيئة ـ مثلاً ـ فكرة عن تطور الأوبئة وتجمعات الحيوانات أو الحشرات التي يدرسونها .

وكأحد أنواع التبسيط ، فإنه يمكن لعلماء البيئة أن يتعاملوا مع معادلات الفروق التي تنظر الى الزمن نظرة منفصلة ، بدلاً من المعادلات التفاضلية التي تنظر الى الزمن نظرة متصلة . أي أن بإمكانهم أن ينظروا الى الزمن من خلال الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، . . . ، بدلاً من الأعداد الحقيقية التي تأخذ في الاعتبار أيضاً الكسور والجذور وغير ذلك . والذي يبرر هذا التبسيط أن كثيراً من الحشرات ـ مثلاً ـ تتوالد في موسم معين ، ولذا فلا يوجد تداخل بين الأجيال . وبالتالي فيمكننا الحديث عن الجيل الأول ، فالثاني . . . وهكذا . وفي هذه الحال علينا أن نبحث عن دالة تربط عدد أفراد الحشرة هذا العام بعددها في العام الذي يليه . وهذه معادلة فروق . ويظهر في معادلة الفروق معامل (أو معاملات) ثابت ، أي أنه لا يتغير من عام الى عام . فما تأثير هذا المعامل على عدد أفراد الحشرة المتوقع ؟ . في حدود معينة ، كلما تزيد قيمة المعامل ، يزيد العدد عند الاستقرار . لكن الأمور ليست دائماً هكذا . فبزيادات أكثر ، يمكن أن نصل الى الفوضى . وحتى في هذه الحال كان العلماء يقولون إن العدد يتذبذب حول توازن مفترض . ولم يخطر ببالهم أنه قد لا يكون هناك توازن على الإطلاق . نعم إن النموذج الرياضي مبسط . لكنه مبسط بحثاً عن الانتظام ، فلماذا يزعج العلماء أنفسهم برؤية الفوضى ؟ والفزيائيون أيضا تدربوا على ألا يروا الفوضى . وبالرغم من أنهم يمضون

فترة طويلة من دراستهم في صياغة وحلول المعادلات التفاضلية ، فانهم يغفلون حقيقة أساسية : أن أغلب المعادلات التفاضلية ليس لها حلول تحليلية . وتلك التي لها حلول هي تلك التي لا تصف الفوضى . إن عدم الانتظام موجود في الطبيعة ، لكن الفزيائيين يريدون اكتشاف الانتظام . ولذا فإنهم يتجنبون الصياغات الرياضية التي تفضي الى الفوضى . أما اذا أجبروا على التعامل مع عدم الانتظام ، فانهم يعالجونه كما لو كان ظاهرة ثانوية : شوشرة ، أو ضوضاء ، أو شيئاً من هذا القبيل .

لنعد الآن الى دراسة معادلة الفروق التي تصف تغير عدد أفراد حشرة أو حيوان ما من عام الى عام . وهذه المعادلة هي :

$$س_{ن+1} = ر\ س_{ن}\ (1 - س_{ن})$$

حيث س ن هي نسبة العدد في السنة النونية الى أكبر عدد ممكن (أي أن س ن تقع بين صفر وواحد). أما ر فهو معامل لا يتغير بتغير السنين .

وكما هو واضح فهذه ليست معادلة خطية . وقد حلل العالم الاسترالي « روبرت ماي Robert May» الذي أتى الى البيولوجيا من الرياضيات سلوك هذه المعادلة ، فوجد أنه اذا كانت « ر » صغيرة فان س ن تثبت بعد فترة من الزمن . وبزيادة ر تكف س ن عن الثبات ، لكنها تتذبذب بين قيمتين ، ثم بين أربع قيم ، فثماني فست عشرة ، . . . وهكذا حتى تبدأ الفوضى حيث لا توجد دورات منتظمة . ومع استمرار زيادة « ر » لا يلبث الانتظام أن يعود من جديد ، لكن هذه المرة بدورة ثلاثية ثم تصير الذبذبة بين ست قيم ، فاثنتي عشرة ، فأربع وعشرين . . . ثم الى الفوضى من جديد . . . . وهكذا فمن الممكن العثور على انتظام داخل الفوضى .

ومن مؤتمر في برلين الشرقية تقابل « ماي » مع بعض العلماء السوفييت ، واكتشف أن دراسة الفوضى ليست أمراً جديداً لديهم . بل أن هناك تقاليد بحثية راسخة في موضوع الفوضى بين الرياضيين والفزيائيين السوفيت ترجع الى أبحاث الرياضي السوفيتي « كالماجورف "Kolmogorov" في الخمسينيات . زيادة على ذلك فإن في الاتحاد السوفيتي تفاعلاً بين الرياضيين والفزيائيين أقوى من ذلك الموجود في الغرب . لكن للأسف فان بعض ما يصل اليه السوفيت يعاد من الغرب نتيجة سوء الاتصالات .

وقد حلت النظرة الفوضوية مشكلة نظرية كانت تقسم علماء البيئة الى فريقين . فريق يرى أن اعداد أفراد كل نوع من أنواع الكائنات الحية ، مستقرة أساساً وبالتالي فهي محكومة بآليات محددة . وفريق يرى أن هذه الأعداد تتذبذب بصورة غير منتظمة وبالتالي فهي خاضعة لعوامل بيئية لا يمكن التنبوء بها . ثم جاءت النظرة الفوضوية التي بينت أن نموذجاً رياضياً بسيطاً ومحدداً يمكن أن يصلح للتعبير عن الرؤيتين معاً .

وعلى ضوء النظرة الفوضوية أعيدت قراءة الاحصاءات الخاصة بالأوبئة ، فأمكن فهمها بصورة أفضل .

(٤) هندسة الطبيعة :

كان الاقتصاديون يعتقدون أنه لا علاقة بين تغيرات الأسعار على المدى القصير وتغيراتها على المدى الطويل . فالتغيرات التي تجري خلال يوم هي مجرد تشويشات ، لا يمكن التنبوء بها ، وليست جديرة بالاهتمام . أما التغيرات التي تجري على مدى الشهور والسنين والعقود فهي محكومة بقوى اقتصادية كالركود ، أو سياسية

كزيادة أخطار الحروب . ونظرياً ، هذا يعطي فرصة لفهم الأمور .

الى أن جاء « بينويت ماندلبروت Benoit Mandelbrot» وحلل على الكمبيوتر التقلبات في أسعار القطن المسجلة منذ أوائل القرن . فوجد أن تقلبات الأسعار لا تتوقف على المدى ، قصيراً كان أو طويلاً . فمنحنى تقلبات الأسعار اليومية تشابه مع منحنى تقلبات الأسعار الشهرية . واستمرت درجة التغيرات ثابتة على مدى فترة ستين عاما شهدت حربين عالميتين كما شهدت الكساد الكبير .

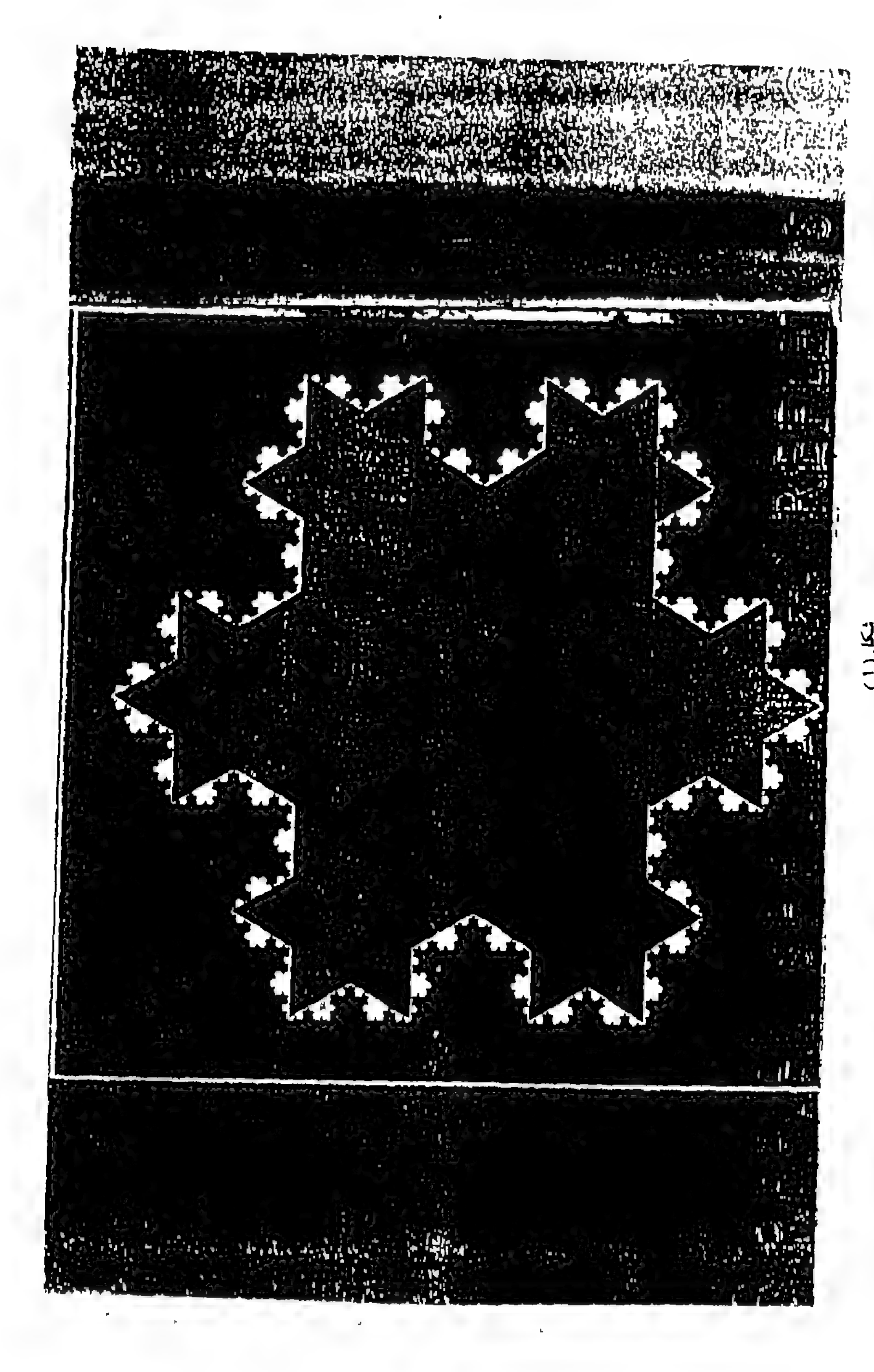
وقد وجد « ماندلبروت » صورة مشابهة فيما يتعلق بالضوضاء التي تعتري نقل الرسائل تليفونياً . فقد كان المهندسون يعتقدون أن هناك فترات بلا ضوضاء ، وأخرى مليئة بالضوضاء . لكن عندما حلل « ماندلبروت » الأمر ، وجد أن تلك المليئة بالضوضاء تنقسم بدورها الى فترات خالية وأخرى ليست كذلك . وعندما حلل تلك الأخيرة تحليلاً أدق وجد أنها تسلك نفس السلوك . وهكذا .

ثم يقول المؤلف إن « ماندلبروت » لاحظ أننا عندما نقيس أطوال شواطيء البلاد نختار نقطاً متتالية على هذه الشواطيء ثم نقيس أطوال الخطوط المستقيمة الواقعة بين كل نقطتين متتاليتين ، ومجموع هذه الأطوال هو ما نسميه طول الشاطيء . كما لاحظ أننا إذا ما قسنا طول الشاطيء مرة أخرى باختيار نقاط أكثر قرباً الى بعضها البعض فإننا نحصل على نتيجة أكبر من تلك التي حصلنا عليها من قبل ، وهكذا . ويقول المؤلف إن الحس الرياضي يتوقع أن تتقارب هذه النتائج الى عدد هو الطول الحقيقي للشاطيء . ويضيف إن هذا صحيح إذا ما كان الشاطيء شكلاً اقليمياً مثل قوس من دائرة .

لكن « ماندلبروت » ـ على حد قول المؤلف ـ وجد أن هذه النتائج تتزايد بلا نهاية ، أو على الأقل تتزايد حتى نصل بتقسيمنا للشاطيء الى مستوى الذرات . يقول المؤلف هذا كما لو كان شيئاً جديداً بالرغم من أن الموضوع قديم ، ومنذ القرن الماضي والرياضيون يعرفون أن هناك منحنيات تتقارب بالنسبة لها هذه النتائج الى عدد يسمى طول المنحنى ، وتسمى هذه المنحنيات بالمنحنيات المقومة ، وهناك منحنيات أخرى تتزايد بالنسبة لها هذه النتائج بدون حد ، وتسمى بالمنحنيات غير المقومة ، أو ذات الأطوال اللانهائية . هذا طبعاً عن المنحنيات الرياضية . أما عن المنحنيات التي توجد في الطبيعة (كالشطآن وغيرها) فنحن في حاجة الى شيء من التجريد كي نصفها وصفاً رياضياً . ولهذا التجريد مشكلاته المعروفة قبل أن يولد « ماندلبروت » ومؤلف الكتاب معا .

وقد استعان « ماندلبروت » بالكمبيوتر للتعمق في دراسة المنحنيات التكرارية المعروفة منذ بداية القرن . وكمثال على منحنى تكراري يمكن أن نبدأ بمنحنى بسيط مثل مثلث متساوي الأضلاع . ثم نقسم كل ضلع الى ثلاثة أقسام متساوية ، ونرسم على القسم الأوسط من كل من الأضلاع الثلاثة مثلثاً متساوي الأضلاع ، ثم نكرر هذه العملية على جميع الأضلاع الخارجية التي نصل اليها ، وهكذا . يرسم هنا شكل (١) المرفق .

وتتميز هذه المنحنيات بان سلوك الجزء يشبه سلوك الكل (أي أن صورتها تحت المجهر تشبه صورتها بالعين المجردة) . وهي في هذا تشبه ما توصل اليه « ماندلبروت » في تحليله لتقلبات أسعار القطن وللضوضاء المصاحبة للرسائل التليفونية . ويقول المؤلف إن « ماندلبروت » قد أعطى لهذه المنحنيات



شكل (١)
المراحل الست الأولى لتكوين منحنى تكراري

أبعاداً كسرية ، لكنه لم يوضح كيف . ولذا فإن هذه المنحنيات تسمى أيضاً منحنيات كسرية .

المهم أن « ماندلبروت » أقام على أفكار كهذه نوعاً من الهندسة أسماه الهندسة الكسرية للطبيعة . وقد وجدت هذه الهندسة تطبيقات في الأحوال التي نريد أن نأخذ فيها التفصيلات في الاعتبار . فالكرة الأرضية ليست في الحقيقة كرة ، بل إن هناك جبالاً وودياناً ، ولوح الزجاج ليس في الحقيقة مستوياً ، لانك اذا ما نظرت إليه بالمجهر فستجد مرتفعات ومنخفضات ، . . . كما وجدت هذه النظرة الكسرية تطبيقات في مجالات أخرى . مثلاً في البيولوجيا حيث تشبه تفرعات الأوعية الدموية الصغيرة تفرعات الأوعية الدموية الكبيرة ، وحيث وجد أن توزيع ذبذبات دقات القلب يتبع قوانين كسرية شأنها في هذا شأن ذبذبات أسعار القطن المشار اليها آنفاً . إضافة الى هذا يمكن القول إن المنظومات التي يصاغ سلوكها عن طريق معادلات غير خطية (والسابق الحديث عنها) هي منظومات يشبه سلوك الكبير منها سلوك الصغير ، أو يشبه سلوك الكل سلوك الجزء ، ومن هنا فيمكن فهمها والتعامل معها من خلال الهندسة أو النظرة الكسرية .

(٥) جواذب غريبة :

انشغل العلماء طويلاً بظاهرة الاضطرابات في حركة المواقع (أي السوائل والغازات) ، وظهور دوامات صغيرة وكبيرة متداخلة ، واختلاط تيارات المائع بعضها ببعض بحيث يصبح تمييز بعضها عن بعض متعذراً . ما الذي يجعل المائع ينتقل من حركة سلسة تميل فيها الاضطرابات الصغيرة الى أن تضعف حتى تختفي ، الى حركة مضطربة يزداد فيها الخلل الى حد الكارثة ؟ هذا السؤال شكلّ مشكلة هامة وغامضة في العلم . وقد وضع الفزيائي السوفيتي « لانداو Landau » نظرية للاجابة على هذا السؤال مفادها أن هذا الانتقال يجري نتيجة لتراكم متزايد لموجات ذات ايقاعات متعارضة في المائع المتحرك .

وتغير الحالة ظاهرة معروفة في الطبيعة . وفي السبعينات كانت الأبحاث قد بينت أن تغير الحالة من الصلابة الى السيولة ، ومن السيولة الى الغازية ، ومن الاتصال الى الاتصال الفائق ، ومن عدم المغنطة الى المنطقة ، كلها ذات جوانب رياضية واحدة . فهل تشبه ظاهرة الانتقال من السلاسة الى الاضطراب ظواهر تغير الحالة ؟

لقد صمم « سويني Swinney » « وجولوب Gollub » تجربة لدراسة الانتقال من السلاسة الى الاضطراب من حركة السوائل . وكانوا يتوقعون ظهور ايقاعات « لانداو » المتعارضة . وبالفعل ظهرت بعض الايقاعات . وبينما كانوا يترقبون المزيد حدث ما لم يكن متوقعاً ، قفز السائل مرة واحدة الى حالة مختلطة ليس بها أية دورات مميزة على الاطلاق . لقد فشلت التجربة في تأكيد النظرية ، أو بالأحرى لقد اتضح أن النظرية لا تصف الواقع . وهذا جعل الباحثين يرون أن « لانداو » على خطأ ، ويتوقعون أن يكون « رويل Ruelle » على صواب . فعلام يقوم تفسير « رويل » لظاهرة الاضطراب ؟ إنه يقوم على ما يسمى بالجوانب الغريبة . فما هي الجوانب ؟

لنبدأ بما يسميه الفزيائيون فراغ الحالة*. وهو فراغ اقليدي ذو عدد من الأبعاد تكفي لوصف المنظومة الديناميكية من حيث الموضع والسرعة . فمثلاً اذا كانت

(*) الأدق أن نقول كمية الحركة (أو الزخم) وهي حاصل ضرب الكتلة في السرعة .

المنظومة عبارة عن نقطة مادية تتحرك في خط مستقيم ، يكون فراغ الحالة فراغاً ذا بعدين ، أحدهما يمثل الموضع ، والآخر السرعة . وتعطينا كل نقطة في هذا الفراغ معلومات كاملة عن موضع النقطة وسرعتها معاً . وتمثل حركة المنظومة بمنحى من هذا الفراغ . فمثلاً اذا كانت النقطة المادية تتحرك بسرعة منتظمة ، فان حركتها تمثل في فراغ الحالة بخط مستقيم مواز للمحور الذي يمثل الموضع ، اما اذا كانت تتحرك بسرعة متزايدة ، فان حركتها تمثل بمحنى صاعد .

والجانب هو منحنى في فراغ الحالة يمثل حالة مستقرة ، بحيث اذا بدأت المنظومة الحركة من وضع تمثله نقطة واقعة عليه ، فإن النقاط التي تمثل حركة المنظومة مستقبلاً ، تظل واقعة عليه . وحتى اذا بدأت المنظومة الحركة من نقطة خارجة لكنها واقعة من « منطقة جذبه » فإن الحركة تتطور الى وضع يجعلها توصف بنقطة واقعة عليه ، ثم تستمر النقاط التي تصف الحركة واقعة عليه . فمثلاً اذا كانت المنظومة الديناميكية عبارة عن جسم يتحرك في لحظة ما على مستوى خشن تحت تأثير قوة الاحتكاك فقط ، فإن فراغ الحالة هنا سيكون ذا أربعة أبعاد ، اثنين لتحديد موضع مركز كتلة الجسم ، واثنين لتحديد سرعة هذا المركز ، أما الجاذب هنا فسيكون نقطة واقعة في مستوى الموضع ، لأن المنظومة ستستقر في حالة سكون .

وتفسير « رويل » لظاهرة الاضطراب ، أن حركة المائع تقع في منطقة جذب جاذب غريب في فراغ الحالة ، وبعد فترة من الحركة تقع النقطة التي تصف الحالة على هذا الجانب ، وهنا يبدأ الاضطراب ، وتظل النقطة الممثلة للحركة على الجانب ، وبالتالي يستمر الاضطراب . وفراغ الحالة في تصور « رويل » ذو عدد قليل نسبياً من الأبعاد ، أما الجاذب الغريب فهو منحنى محصور في نطاق صغير لكنه ليس دورياً ، ولا يقطع نفسه أبداً . ولكي يمثل المنحنى حركة تسمح بظهور كل الايقاعات (التي توجد في الاضطراب) فان طوله يجب أن يكون لا نهائياً ، رغم أنه محصور في نطاق محدود . إنه منحنى من منحنيات هندسة « ماندلبروت » الكسرية السابق الحديث عنها في الباب السابق .

(٦) العالميـــة :

اكتشف فيجنباوم Feigenbaum ثابتاً مشتركاً بين المنظومات غير الخطية . فقد اكتشف أن المنحنيات التكرارية المناظرة لهذه المنظومات تتصاغر بمعدل ثابت هو (مقلوب) ٤,٦٦٩ (أو بحساب أدق ٤,٦٦٩٢٠١٦٠٩٠) .

أمثال هذا الثابت تسمى أحياناً ثوابت عالمية .

لقد كان هذا الاكتشاف باعثاً على سعادة غامرة ، لكنه في ذات الوقت سبب صدمة قوية .

(٧) مُجرى التجـــارب :

أجرى « ليبخابر Libchaber» تجربة على الهيليوم السائل لدراسة التذبذب في حركة الموائع . وصمم لهذا الغرض صندوقاً صغيراً ليضع فيه سائل الهيليوم عند درجة ٤ فوق الصفر المطلق (أي ٢٦٩ تحت الصفر المئوي) . ويرفع درجة الحرارة عند قاعدة الصندوق رفعاً ضئيلاً (جزء من ألف من الدرجة المئوية) تتحرك تيارات الحمل الى أعلى والى أسفل . وتدرس حركة السائل عن طريق رصد درجة الحرارة عند قمة الصندوق . وقد وجد « ليبخابر » أن درجة الحرارة عند القمة تتذبذب ذبذبات معينة . وبزيادة درجة الحرارة عند القاع يتضاعف عدد الذبذبات . لكن الذبذبات الاضافية لا يكون لها نفس سعة الذبذبات القديمة بل

تكون سعتها أقل . وهكذا يتضاعف التفرع كما هو مبين بالرسم . وهكذا تتفق مشاهدات « ليبخابر » مع ما توقعته النظرية .

(٨) صــور الفوضــى :

حتى إذا كان سلوك المنظومة الديناميكية غير فوضوي ، فإنها قد لا تكون بعيدة جداً عن الفوضى . فمثلاً إذا كانت المنظومة الديناميكية عبارة عن بندول ذي رأس ممغنطة ، وكان هناك مغنطيسان مثبتان تحت البندول بحيث أن البندول عندما يسكن تكون رأسه عند أحد هذين المغنطيسين ، فان سلوك المنظومة لن يكون فوضوياً ، إذ أنها بعد فترة ستسكن هنا أو هناك .

ما علاقة هذا بالفوضى ؟ في فراغ الحالة لهذه المنظومة يوجد جاذبان ، كل منهما عبارة عن نقطة ، الأولى تناظر المغنطيس الأول ، والثانية تناظر الثاني . ونقاط هذا الفراغ تنقسم الى فئتين بحيث اذا كانت حالة المنظومة عند بداية الحركة ممثلة باحدى نقاط الفئة الأولى ، فان المنظومة ستستقر عند الجانب الأول . وبالمثل بالنسبة الى الفئة الثانية . ما هو خط الحدود الذي يفصل بين هاتين الفئتين ؟ إنه قد يكون منحنى كسرياً فوضوياً معقداً .

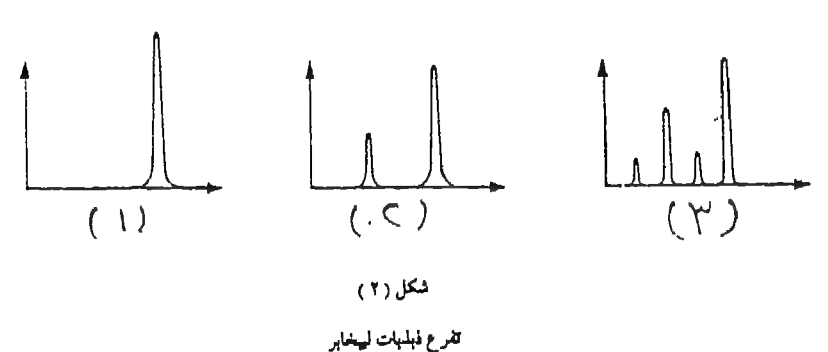
أيضاً يمكن الوصول الى فئات فوضوية بطرق رياضية بسيطة نسبياً وهذا ما فعله « ماندلبروت » اذ أنه قسم مستوى الاعداد المركبة الى فئتين . بحيث تقع النقطة حـ في احداهما اذا كانت المتتابعة التي حدها الأول ع ١ = حـ وحدها رقم ن + ١ يرتبط بحدها رقم ن بالعلاقة ع ن + ١ = ع ٢ ن + حـ ، اذا كانت هذه المتتابعة تتباعد الى اللانهاية ، والا فالنقطة جـ تقع في الفئة الثانية .

تسمى الفئة الثانية فئة « ماندلبروت » . هذه الفئة ليست تكرارية تماماً كالمنحنيات التي سبق الحديث عنها في الباب الرابع . لكنها تكرر نفسها على وجه التقريب ، وان لم يكن بالضبط .

(٩) مجمع المنظومات الديناميكية :

في أواخر السبعينات كون بعض طلبة الدراسات العليا بجامعة « سنتاكروز » بكاليفورنيا مجموعة أسماها المؤلف « مجمع المنظومات الديناميكية » لدراسة السلوك الفوضوي لهذه المنظومات .

وكان من بين الأسئلة التي سألوها هل يمكن قياس عدم امكان التنبوء ؟ وقد وجدوا إجابة على ذلك في المفهوم المعروف باسم « أس ليابونوف » نسبة الى الرياضي الروسي « ليابونوف Lyapunov » . وهذا الأس يقدم مقياساً للخواص التوبولوجية التي تناظر مفاهيماً مثل عدم امكان التنبوء . فأسس « ليابونوف » لمنظومة ما تقيس الآثار المتعارضة لتمدد وتقلص وطى



شكل (٢)

تفرع ذبذبات ليبخابر

الجواذب في فراغ الحالة . وبالتالي فهي تعطي صورة لخواص المنظومة التي تؤدي الى الاستقرار أو عدم الاستقرار . فمثلاً تبين أنه لكل جاذب غريب ، يكون واحد أو أكثر من أسس ليابونوف موجبا .

ومن بين ما توصلت اليه هذه المجموعة أن المنظومة الديناميكية قد تجمع بين السلوك المنضبط في اتجاه ، والسلوك غير المنضبط في اتجاه آخر .

وقد ربطت المجموعة بين نظرية الفوضى ونظرية المعلومات . فعندما تكون المنظومة في حالة فوضى ، ولا يمكن التنبوء بحركة جزيئاتها ، فان كل جزيء يقدم معلومة جديدة . فكما أن الطاقة تنتقل أثناء اضطراب المائع من المستوى الكبير إلى المستوى الصغير بتحولها من طاقة حركة الى طاقة حرارية من خلال سلاسل الدوامات ، فان المعلومات تنتقل بالعكس ، من المستوى الصغير الى المستوى الكبير . أو هذا على الأقل هو تصور المجموعة . والقنوات التي تنتقل خلالها المعلومات من أسفل الى أعلى هي الجوانب الغريبة ، فهي تكبّر حالة العشوائية الابتدائية ، كما يكبّر أثر الفراشة ، عدم التحديدات الصغيرة الى أشكال طقسية كبيرة .

(١٠) الايقاعات الداخلية :

غزت المفاهيم والنظريات الفوضوية مجالات البيولوجيا والطب . وانطلاقاً من هذه المفاهيم أنشيء نموذج رياضي لحركة عيون مرضي الشيزوفرينيا أسفر عن عدم انتظام لا يختلف عن ذلك المسجل في البيانات الطبية . ومع قدوم الثمانينات أدخلت الفوضى نوعاً جديداً من الفسيولوجيا قائماً على فكرة أن الأساليب الرياضية تستطيع أن تساعد العلماء على فهم السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفصيلات الداخلية . وهذا تطور هام ، لأن عمل نموذج على الكمبيوتر لمنظومة معقدة كقلب الانسان هو أمر مستحيل عملياً ، اذا ما أريد لهذا النموذج أن يأخذ كل التفصيلات الدقيقة في الاعتبار .

وعلى سبيل المثال فالتذبذب البطيني الذي يسبب سنوياً مئات الآلاف من الوفيات المفاجئة في الولايات المتحدة الأمريكية هو خلل في منظومة القلب ككل ، دون ان يبدو أن هناك خللاً في اجرائها . وبالمثل ، فالاضطرابات العقلية هي اضطرابات في منظومة معقدة . ومن هنا فان خبراء الفوضى يرون ضرورة النظرة الكلية الجديدة . وباجراء التجارب على قلوب الكلاب وجد أن النشاط الكهربي للقلب يشبه من أوجه كثيرة المنظومات الأخرى التي تطور سلوكاً فوضوياً .

وفي اطار هذه النظرية الكلية جرت دراسة للايقاعات اليومية ، وهي نوع من الساعات البيولوجية ، أو الظواهر البيولوجية التي تتكرر كل أربع وعشرين ساعة . ومن بين هذه الايقاعات دورة نشاط البعوض التي تتكرر في الطبيعة كل أربع وعشرين ساعة . اما في المعمل فقد وجد أن هذه الدورة قد تتقدم أو تتأخر تبعاً للمنبهات الخارجية . وقد تبين أن الدورة الداخلية ، أي التي تجري عند ثبوت المنبهات الخارجية ، تتكرر كل ثلاث وعشرين (لا أربع وعشرين) ساعة .

وبالمثل وجد أن دورة حرارة الانسان الداخلية تتكرر كل خمس وعشرين (لا أربع وعشرين) ساعة . أما الناس الذين يعزلون عن العالم الخارجي ويعيشون في ظل ثبوت الضوء ودرجة الحرارة وما الى ذلك ، فان دورة النوم ـ اليقظة لديهم تختل تماماً بعد بضعة أسابيع .

(١١) الفوضى وما بعدها :

غيرت الفوضى مجموعة من المنطلقات الضمنية التي كانت سائدة بين العلماء ، مثل « المنظومات البسيطة تسلك سلوكاً بسيطاً » ، « السلوك المعقد يتطلب أسباباً معقدة » ، « تتصرف المنظومات المختلفة بطرق مختلفة » ، وأخذ مزيد من العلماء يرون أن الفوضى قدمت طريقاً جديدة للنظر لأي البيانات القديمة . وأكثر فأكثر أخذوا يشعرون أن تجزىء العلم يعيق تقدمه . وبالنسبة إليهم كانت الفوضى هي نهاية البرنامج الاختزالي في العلم .

غير أنه لا يوجد اتفاق على مصطلح « الفوضى » فهناك من يرى أنه مصطلح غير مناسب لأنه يستلزم العشوائية ، بينما الظاهرة التي نعالجها هي أنه توجد في الطبيعة عمليات بسيطة يمكن أن تنشيء صروحاً معقدة ، دون عشوائية . وهناك عدة مقترحات لأوصاف بديلة : « الديناميكا محررة من قيود النظام والتنبوء » ، « السلوك الذي يضخم عدم التأكد ، لكنه ليس تماماً غير قابل للتنبوء » ، « السلوك غير المنتظم ، وغير القابل للتنبوء للمنظومات الديناميكية المحددة غير الخطية » . . .

ويرى بعض العلماء الذين يبحثون في المنظومات البيولوجية أن مصطلح « الفوضى » أضيق من اللازم . فالفوضى تستلزم أن تكون المنظومة بسيطة ، قليلة الأبعاد . هذا في نظرهم مجرد حالة خاصة ، إذ أنهم مهتمون بالمنظومات المعقدة كثيرة الأبعاد ، وهم مقتنعون بأن مثل هذه المنظومات موجودة في الطبيعة .

●●●

لعل أشد ما جذب انتباهي في هذا الكتاب هو المبالغة . فالموضوع ، ببساطة ، أننا نعيش في واقع معقد ، وفي محاولتنا لفهمه نقوم بنشاطين متفاعلين : المراقبة والتنظير . وفي التنظير تواجهنا مشكلة لا أظن أنها ستجد حلاً كاملاً ونهائياً أبداً . فمن جهة يحسن بالنظرية أن تكون معقدة حتى تكون أقرب الى الواقع . ومن جهة أخرى يحسن بالنظرية أن تكون بسيطة حتى يمكننا أن نتعامل معها وبها بطريقة مثمرة .

وأحد أهم العوامل التي قد تضطرنا الى تبسيط غير مرغوب فيه ، هو الأدوات الرياضية المتاحة ، أو التي يمكن تطويرها في عصر ما . ورغم أن المعادلات غير الخطية معروفة وموضوعة تحت تصرف العلماء منذ زمن ليس بالقصير ، فقد كان من المرغوب فيه دائماً تجنبها . وهذا يرجع الى صعوبة حلها ، أو عدم امكان حلها بالطرق التحليلية المضبوطة ، واللجوء في حلها الى الطرق التقريبية والعددية .

والتطور الهام الذي جرى في العقود القليلة الأخيرة هو أن مقدرتنا على تنفيذ الطرق العددية قد تقدم تقدماً هائلاً ، ولا يزال يتقدم ، نتيجة لاختراع وتطور الكمبيوتر . وبالتالي فقد صار لدينا الآن وسائل أقوى للتعامل مع الظواهر المعقدة التي كان يصعب علينا أن نقترب منها من قبل .

نحن إذن لسنا أمام علم جديد يسمى « الفوضى » ، بل نحن أمام وسائل جديدة تمكننا من أن نفهم بطريقة أفضل ـ في إطار مختلف العلوم ـ الظواهر التي هي من التعقيد بالقدر الذي جعلنا نصفها بالفوضى ، بل وأن نجد الانضباط في هذه الظواهر . وليس من المستبعد أن تغير هذه الوسائل الجديدة نظرياتنا العلمية في هذا الفرع أو ذاك . وأيضاً ليس من المستبعد أن تغير نظرتنا العلمية

العامة ، وأن تؤثر على فلسفة العلوم . لكن الأمر لا يزال في حالة سيولة ، ومن الصعب التنبوء بما سيسفر عنه . وشاهدي على هذا ، الاختلاف حتى على مصطلح « الفوضى » كما جاء في الباب الحادي عشر .

لننتقل الآن الى بعض النقاط التفصيلية :

أ ـ جاء في الاستهلال أن ميكانيكا الكم قد استبعدت حلم عمليات القياس المحكومة . والواقع أن ما قالته ميكانيكا الكم هو أن هناك بعض التغييرات التي تصف المنظومة الديناميكية (كالموضع وكمية الحركة مثلاً) لا يمكن أن تحدد تماماً معاً . اذ أن حاصل ضرب مقادير عدم التحدد في كل منها أكبر من أو يساوي مقداراً معيناً . لكن اذا ما أردنا أن نقيس الموضع (دون كمية الحركة) ، أو الموضع وبعض متغيرات أخرى (غير كمية الحركة) كالطاقة مثلاً ، فإن هذا يمكن أن يجري بعملية محكومة .

ب ـ جاء في الباب الأول أن العلماء الذين يسيرون على نهج « نيوتن » يتبنون مقولة « تقع في القلب الفلسفي للعلم » ، مفادها أنه إذا كانت لدينا معلومات تقريبية عن الشروط الابتدائية للمنظومة ، وفهما للقوانين الطبيعية ، فاننا نستطيع أن نحسب سلوك المنظومة على وجه التقريب .

وأرى أن هذه المقولة لا غنى عنها بالنسبة للمنظومات التي نأمل أن نتعامل معها من خلال العلم . ذلك لأنه من المستبعد أن تكون لدينا معلومات كاملة ودقيقة تماماً عن الشروط الابتدائية . والتجربة التي أجراها لورنز على الكمبيوتر لم ينتقل فيها من معلومات تقريبية الى معلومات مضبوطة تماماً ، لكنه انتقل من تقريب الى تقريب أدق .

ويمكن القول ـ نظرياً على الأقل ـ إنه اذا كان لدينا نموذج رياضي للمنظومة ، فانه يمكن تحديد درجة التقريب التي تسري بدءاً منها المقولة المذكورة . أما فيما عدا هذا من الأحوال فالأمر متروك للتجربة .

جـ ـ جاء في الباب الثالث أن دراسة « الفوضى » في الاتحاد السوفيتي تعود الى الخمسينيات . وهذا يبين أن الأمر ليس بالجدة التي توحي بها بقية أجزاء الكتاب .

د ـ جاء في الباب العاشر أن « الفوضى » قد أدخلت نوعاً جديداً من الفسيولوجيا قائماً على فكرة أن الأساليب الرياضية تستطيع أن تساعد العلماء على فهم السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفصيلات الداخلية . ويقول المؤلف إن هذا تطور هام . وقد يكون هذا تطوراً هاماً بالفعل . لكنه ليس جديداً تماماً . فتاريخ البيولوجيا في مجمله هو تاريخ محاولة فهم السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفصيلات الداخلية . وكما هو معروف فاكتشاف الخلية والكائنات الدقيقة هو أمر حديث نسبياً .

هـ ـ جاء في الباب الحادي عشر أن من بين المنطلقات الضمنية التي كانت سائدة بين العلماء والتي غيرتها الفوضى ، أن المنظومات المختلفة تتصرف بطرق مختلفة . والحقيقة أن البشر منذ أن عرفوا أن إضافة حصان الى حصان ينتج حصانين ، وأيضاً أن إضافة بقرة الى بقرة ينتج بقرتين ، واستخلصوا من هذا وأمثاله أن ١ + ١ = ٢ ، وهم يعرفون ـ ضمناً على الأقل ـ أن المنظومات المختلفة قد لا تتصرف بطرق مختلفة .

و ـ جاء أيضاً في الباب الحادي عشر أن مزيداً من العلماء يرون أن الفوضى هي نهاية البرنامج الاختزالي في العلم . وهذا يثير لديّ بعض العجب . فهذا البرنامج

يعني محاولة ارجاع خواص المنظومات المركبة الى خواص المركبات والعلاقات بين المركبات . ومنذ أوائل القرن الماضي وهذا البرنامج يلعب دوراً محورياً في تطور العلم ، وفي تعميق فهمنا للمنظومات المركبة ولمركباتها معاً . وهو مرتبط ارتباطاً أساسياً بالنظرية الذرية القديمة والحديثة ونظريات الجسيمات الأولية والميكانيكا الاحصائية ، وبصفة عامة بالفزياء الحديثة ، كما أنه مرتبط بالكيمياء الحديثة والبيولوجيا الحديثة . . . . ومع تطور الكمبيوتر فإن مقدرتنا على تطوير هذا البرنامج تزداد ، وبالتالي فالمتوقع أن تزداد - لا تنتهي أو حتى تنقص - أهمية الدور الذي يلعبه في تطور العلم .

وهذا لا يعني أن ليس هناك مكان لدراسة السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفصيلات الداخلية . بل الحاصل أن هذا النوع من الدراسة يسير جنباً الى جنب مع البرنامج الاختزالي ، وكل منهما يتفاعل إيجابياً مع الآخر .

بعد هذا النقاش لبعض النقاط التفصيلية ، أود - انصافاً للكتاب - أن أسوق ملاحظة عامة . فالكتاب محاولة جادة لرصد وفهم بعض جوانب التطور العلمي أثناء حدوثه . وفلسفة العلم المعاصرة لا تهتم فقط بالعلم كما يجب أن يكون ، بل تهتم أيضاً بالعلم كما هو ، وكما تطور ويتطور بالفعل . غير أن أكثر الدراسات منصب على التطورات التي جرت ، أي على تاريخ العلم . ولذا فان هذا الكتاب الذي يدرس ما يجري بين ظهرانينا هذه الأيام يضع مادة قيمة بين أيدي فلاسفة العلم .

إضافة الى هذا فالكتاب يلقي ضوءاً على الجوانب السياسية والاجتماعية والتمويلية المتعلقة بالعلم . ويبين أن الجديد في العلم يلقى - حتى في عصر التقدم المذهل للعلم - الصعوبات ، ليس فقط من الجهات التي تضع السياسات وتوزع الأموال ، وإنما أيضاً من أهل التخصص أنفسهم . ولذا فان على أصحاب الجديد - حتى في العلم - أن يصبروا ويثابروا ويضحوا .

* * *

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) التنمية الإدارية
(ب) بين العلوم الطبيعية والإنسانية
(ج) الطاقة النووية
(د) اللسانيات

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد العشرون
يوليو - اغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن
التنمية الادارية

ولة الإمارات	٧ دراهم	سوريا	٥ ليرات
لسعودية	٦ ريالات	القاهرة	٤٠ قرشا
قطر	٤ ريالات	السودان	٣٠٠ مليما
لبحرين	٥٠٠ فلس	ليبيا	٥٠ قرشا
ليمن الشمالية	٥٫٥ ريال	مسقط	٥٠٠ بيسة
ليمن الجنوبية	٤٠٠ فلس	الجزائر	٦ دنانير
لعراق	٤٠٠ فلس	تونس	٦٠٠ مليم
لبنان	٥٠ ليرة	المغرب	٧ دراهم
الأردن	٣٠٠ فلسا		

الإشتراكات :

البلاد العربية ٥ دنانير

البلاد الاجنبية ٦ دنانير

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع إسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص . ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت



جلد العشرون - العدد الثاني - يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٨٩

التنمية الإدارية



"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ... ,١٢ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: محمد يوسف الرومي

مستشارة التحرير: دكتورة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٩م

المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص.ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

التنمية الإدارية

•••

شخصيات وآراء

•••

مطالعات

•••

من الشرق والغرب

•••

صدر حديثا

المحرر الضيف لمحور العدد

الدكتورة موضى عبد العزيز الحمود

المحـــرر الضيف لـعــدد « التـنـمـيــة الادارية » هي الدكتورة موضى عبـد العزيـز الحمـود الأستـاذ المســاعـد بكليـة التجـارة والاقتصـاد والعلوم السيـاسيــة . بجـامعـة الكويت . وكانت تشغل منصب عميدة كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ..

التلازم بين التنمية الادارية وادارة التنمية

موضي عبدالعزيز الحمود
كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة الكويت

التمهيد

مع بدايات هذا القرن دخل الانسان العربي طور التنمية الحقيقية لجوانب حياته المختلفة ، من اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية خاصة مع تحرر أوطانه من عبء الاستعمار في معظم أشكاله وألوانه. وبدأت القيادات الوطنية التي فرغت، أو كادت، من مهام التحرير في هذه الدول ، تتجه الى عملية التنمية في مجتمعاتها وهي تنشد الرخاء والنماء والتطور لشعوبها ، تتلمس مشاكل مواطنيها وتعمل على تحقيق احتياجاتهم المادية والأساسية ، ساعية في الوقت نفسه الى التأثير على فكر المواطن وسلوكه لاتمام عملية التنمية والدفع باستمرارها ، ذلك لأن التنمية وان كانت تهدف الى خير الانسان فهي في الوقت ذاته ترتكز على جهده. وبعبارة أخرى فالانسان هو وسيلة التنمية وغايتها في آن واحد[1] .

وتسابقت الدول العربية الى رفع شعار التنمية تحدوها الرغبة في اللحاق بركب التقدم والتطور المتسارع في العالم خاصة وان امكانات هذا الوطن الشاسع ومعطياته الحضارية والتاريخية تمدها بالطاقات الضرورية للدفع بعملية التنمية الى آفاق مستقبلية أرحب . وقد استهدفت هذه الدول بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوته تحقيق التنمية لمجتمعاتها

(١) خليل النقيب وآخرون . الادارة التنموية للوطن العربي ، معهد الانماء العربي ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ .

ضمن اطارها التنموى الشامل وبأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والادارية . ولكن لاعتبارات عديدة توجهت معظم الأقطار العربية بصورة أساسية الى الجوانب الاقتصادية في التنمية وانحازت الجهود الرسمية في معظمها الى تلك الجوانب الاقتصادية ، وتراجع الاهتمام بالجوانب الأخرى في أبعادها الثقافية والسياسية والادارية ، مما عاق جهود التنمية لفترة طويلة عن بلوغ أهدافها وأثر بصورة مباشرة على بناء وتكوين الانسان القادر على العطاء والمتفاعل مع قضايا التنمية في مجتمعه . وبدأنا نشهد مظاهر التخلف لمعظم أقطارنا عن ركب التقدم والتطور في حين تسارعت الأمم الأخرى في هذا المضمار الحيوى والهام لحياة شعوبها .

ان التنمية بمفهومها الشامل هي عملية مجتمعية متشابكة ومتكاملة في اطار نسيج بالغ التعقيد تتفاعل فيه عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإدارية ، والتنمية بهذا المعنى لاتمثل فقط الناتج النهائي لمجموع المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية بل هي تزيد عن ذلك لأنها محصلة تفاعلات مستمرة بين هذه العوامل[٢] ، وهي لذلك عملية حضارية شاملة لمختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الانسان وكرامته ، وهي بناء للانسان وتحرير له ، وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته على العمل البناء ، كما انها اكتشاف وتعبئة لموارد المجتمع مع الاستخدام الأمثل لهذه الموارد من أجل بناء الطاقة والقدرة الذاتية على العطاء المستمر[٣] .

وباختصار فإن التنمية بهذا المفهوم تعني تفاعل الجوانب المختلفة في المجتمع من قدرات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وادارية لخلق مواطن واع ومفكر ومحرك للتنمية ومحقق لها .

إننا نلاحظ على الجانب الآخر ، وبعد سنوات طويلة من التحرر والعمل في ظل شعار التنمية أن المواطن العربي في أجزاء كثيرة من هذا الوطن لازال يفتقر الى الخدمات الأساسية والمقومات الضرورية لحياته ولايزال يعيش في ظروف معيشية بالغة الصعوبة ، تحيط به ظروف مادية قاسية وأوضاع ثقافية وفكرية متخلفة وواقع سياسي متسلط ، ولم تستطع إدارة التنمية أن تحقق الكثير من أهدافه المنشودة في التقدم والنمو .

---

(٢) محمد صادق . التنمية في الأقطار المنتجة للنفط في الجزيرة العربية من عائدات النفط وادارة التنمية ، دراسة مقدمة لندوة التنمية ، البحرين ٢٤ ـ ٢٦ ديسمبر ١٩٨٠ ، ص ١٣ .

(٣) محمد العمادى . آفاق التنمية في الثمانينات ، حلقة نقاشية في المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، يناير ١٩٨١ ، ص ١٩٥ .

إدارة التنمية

مانعنيه بادارة التنمية هنا ، هو تلك الادارة (أفرادا وأنشطة) المنوط بها تخطيط وتنفيذ برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذلك لأن التنمية باعتبارها عملية مجتمعية موجهة لن تتحقق دون وجود ادارة تقوم عليها تتعدد وتتدرج في مستوياتها من الادارة السياسية على رأس الدولة الى الادارة العامة في الوزارات والدواوين الى ادارة المشروعات والمؤسسات العامة والخاصة(٤) .

وتتميز ادارة التنمية بأنها تملك القدرة على بلورة تطلعات المجتمع وصياغتها في خطط وبرامج ، كما تملك القدرة على تنفيذها بكفاءة وفعالية حيث تتوفر لها الامكانات والقدرات والنظرة الثاقبة التي تعينها على التفاعل مع أفراد المجتمع وتحريكه وتطوير رأسماله البشرى والمادى بما يحقق التطور للمجتمع في كافة قطاعاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية(٥) . . ورغم هذه الأهمية المتزايدة لادارة التنمية الا اننا نجدها لم تعط الاهتمام الكافي في الوطن العربي حتى أصبحت ادارة التنمية في أجزاء كثيرة من هذا الوطن تواجه كثيرا من المشاكل المتعلقة بعدم وضوح الرؤ ية وعدم تحديد الأهداف كما ضعفت أساليب المحاسبة وتقويم الأداء ، وأصاب الترهل والتضخم أجهزتها وكوادرها وتنامت فيها البيروقراطية بمظاهرها السالبة وغابت عنها الموضوعية في التقييم لكوادرها أو نواتجها وغاب الابداع الادارى لدى قياداتها ، وقد أدت هذه المشكلات في ادارة التنمية الى تخلف التنمية بصورة عامة وتخلفت الدول العربية عن بلوغ الأهداف التي حددتها في بداية فترة انطلاقها وتحررها . . وبدأت هذه الدول تشكو من التراجع والتدهور في كثير من مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية .

لقد ادرك كثير من هذه الدول ـ ولكن متأخرا ـ أهمية الالتفات الى ادارة التنمية ومحاولة إصلاحها علها تنهض ولو قليلا بمسئولياتها وتلحق بالمجتمعات الأخرى في العالم المتقدم والنامي على السواء ، وأدركت هذه الدول دور الادارة الهام والحيوى في تقدم كثير من المجتمعات ليست آخرها المجتمعات الحديثة النمو التي أدهشت العالم بتطورها السريع ومنها على سبيل التحديد بعض دول شرق آسيا ككوريا وتايوان وسنغافورة ومن قبلها وبأمد طويل اليابان وكندا والولايات المتحدة وأوروبا واستراليا .

---

(٤) لمزيد من التفصيل راجع علي خليفه الكوارى . نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٦٤ .

(٥) أسامه عبد الرحمن ، البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ٢٧ .

التنمية الادارية

مع تزايد التحديات الحضارية وتعاظمها ، كان لزاما على الدول العربية ان تنهض لمواجهتها سواء التحديات الداخلية التي تواجهها هذه الدول كرفع مستوى المعيشة وتحقيق الخدمات وضمان الحقوق الأساسية لمواطنيها وغيرها ، أو التحديات الخارجية التي تتمثل في التقدم الهائل لدول العالم الصناعي من حولها . . كل ذلك جعل التوجه الى « تنمية الادارة » عملية حتمية ومصيرية ولا تقل أهمية عن ضرورة التوجه الى اصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية في هذه المجتمعات . والتنمية الادارية في هذا المفهوم تعني بناء وتحديث الهياكل الادارية وتطوير النظم والاجراءات وقدرات ومهارات القائمين على ادارة التنمية وعناصرها البشرية في مختلف مواقع العمل ، ولعل القصور في جوانب الادارة على وجه الخصوص كان أحد الأسباب المباشرة في اتساع الفجوة الحضارية بين مجتمعاتنا العربية ومجتمعات العالم المتقدم ، ومن هنا فإنه يتعين النظر جديا الى الاصلاح والتطوير الادارى كمرحلة ضرورية وعاجلة لادارة التنمية في معظم أقطار الوطن العربي . ولعل أهم ما يتطلبه الأمر هنا هو العمل على تطبيق المفاهيم العلمية المتطورة وتوظيفها لرفع كفاءة الادارة والدفع بمهنيتها .

ان إدارة التنمية مطالبة اليوم بتوظيف مجموعة من الدعائم الادارية كتوظيف المعلومات وتحديد الأهداف واستحداث الأساليب والوسائل المعاصرة لتسهيل العمل واستخدام المعلومات لاتخاذ القرارات الادارية الصائبة وتحديث السلوك الانساني والقدرة على مقابلة التغيير والاستعداد له وذلك كله يعتمد اعتمادا أساسيا على قياديي التنمية في شتى المواقع والمؤسسات العامة والخاصة . وقد أصبح من المتعين على هذه القيادات ان تكون قادرة على بلورة السياسات وتحديد الأهداف والابتكار والمبادأة مع القدرة على التطوير والتغيير واتخاذ القرارات الموضوعية وكذلك المتابعة والتقييم الذاتي لأعمالها .

ان دور قياديي التنمية في الدفع بالتنمية والقدرة على تحقيق أهدافها ، لايمكن إغفاله أو التقليل منه ولا نبالغ اذا قلنا إن تأخر التنمية في تحقيق طموحات الشعوب يمكن إرجاعها الى عدم العناية باختيار العناصر القيادية القادرة على تطوير أجهزة ادارة التنمية ، مما أوقع جهود التنمية ذاتها في مشاكل عديدة لم تنهض منها حتى الآن .

ولعل ابرازنا لأهمية التنمية الادارية في مجموعها يقتضي الاهتمام والعناية بمختلف المداخل المتكاملة لعملية التنمية الادارية ، ذلك لأن جهود التنمية والتطوير الادارى لن يكتب لها النجاح مالم تنتظم في خطة متكاملة وطويلة الأجل تقوم على المداخل والعناصر الأساسية التالية :

أولا : الاهتمام باختيار القيادات الادارية ذات التأهيل والخبرة والكفاءة التي تؤهلها للأداء والانجاز الاداري الفعال . ان القدرات الادارية والمهارات القيادية هي متطلبات أساسية في هذه القيادات .

ثانيا : التدريب والتنمية المستمرة للقيادات الادارية في مختلف المستويات والمواقع الادارية لاحاطتها بالنظريات والاتجاهات الحديثة المتطورة في مجالات الادارة المختلفة ، وتوسيع مجالات اداراكها باضافة اهتمامات جديدة اليهم ، وتطوير أنماط التفكير والسلوك الاداري .

ثالثا : توفير المناخ الصالح للعمل الاداري بشكل يسهم في تنمية المديرين ويدفعهم الى العمل المنتج . ويمتد هذا المناخ ليشمل طبيعة التنظيم الذى يعمل به المدير وبيئة العمل التي يعيش فيها ، وهذه بدورها تشمل الجوانب الأساسية التالية :

- تطوير الهياكل التنظيمية .
- تبسيط إجراءات وأنظمة العمل وأساليبه .
- توصيف مختلف الوظائف بصفة عامة ، والوظائف الادارية والقيادية بصفة خاصة .
- توفير نظم موضوعية لتقييم الأداء .
- توفير نظم الحوافز الكفيلة بتطوير الأداء والانجاز .

رابعا : إيجاد جهاز يشرف على شئون التطوير الاداري في الدولة بحيث يمارس دوره الأساسي في مجال تخطيط أبعاد التنمية الادارية على المستوى القومي والاشراف على تنفيذها بما يضمن تكامل مختلف عناصر التنمية الادارية وعدم تركها لاعتبارات الصدفة أو الجهود الفردية أو التنفيذ العفوي السريع غير المبني على أساس من التخطيط والدراسة لاطار عملية التنمية الادارية الشاملة . وقد يلحق هذا الجهاز بجهاز الخدمة المدنية في الدولة أو يكون جهازا مستقلا تشترك في قيادته وادارته عناصر وطنية إدارية ذات خبرة وقدرة ادارية مشهود لها وقادرة في الوقت نفسه على التخطيط والمتابعة لجهود التنمية الادارية على المستوى القومي .

ان كثيرا من الأقطار العربية ترفع الآن شعار الاصلاح الاداري وذلك لرغبتها في تحريك الجهود الادارية واحداث الديناميكية المطلوبة في قطاعات الادارة المختلفة وأجهزتها حتى تستطيع هذه الأجهزة تحقيق معدلات انتاجية أعلى وتحقيق كفاءة أكبر في إدارة الموارد الوطنية المتاحة وهذا ماتهدف له نظم الادارة بصورة عامة .

وتتفاوت بطبيعة الحال الادارة في المنظمات الخاصة عنها في الأجهزة الحكومية لكونها أكثر ارتباطا بقوى السوق وأهداف الربحية مما يجعلها أكثر استجابة للتغير والتطور ومما يجعل هذه الادارات تتفوق ولو ظاهريا في أجزاء كثيرة من الوطن العربي عن الادارة العامة على الرغم من انها لا تواكب بصورة مطلقة التقدم الهائل في أنظمة الادارة عالميا .

ويبقى للادارة في الأجهزة الحكومية واقعها المرتبط بالتشريعات والقوانين الجامدة والاعتبارات السياسية الحاكمة والمؤثرة في اختيار القادة وسير العمل ، وفرصتها المحدودة في التنمية والتطوير مما يجعلها في كثير من الأحيان أكثر تخلفا وأكثر حاجة للاصلاح والتطوير .

ولعل المطلع على واقع حال الادارة العربية والادارة العامة على وجه الخصوص يدرك ان هذه الادارة أغرقت نفسها بتفاصيل الأمور وتمسكت بالنصوص والاجراءات الحرفية واحتمت خلف تلك التشريعات غير المتطورة وأصبحت أقل حساسية للتطور وأقل اهتماما باستشراف المستقبل والتخطيط والاستعداد له وأقل تقبلا للتغيير . وقد برزت بالطبع بعض الادارات الناجحة والمتميزة على امتداد هذا الوطن وفي بعض أجزائه ولكنها ظلت كالواحات المعزولة في الواقع الاداري العربي المتخلف .

وحتى نحقق شعار المرحلة المطروح نحو إصلاح إداري حقيقي لابد من اتصاف هذه الجهود الاصلاحية بالواقعية وتلمس الأسباب الحقيقية للنهوض بالادارة وكذلك ضرورة تخطيط هذه الجهود بصورة متكاملة ومتواصلة ومستمرة على مستوى الدولة الواحدة في البداية[٦] . . مع ضرورة تشجيع التواصل وتبادل الخبرات والتجارب بين الدول لتنسيق جهود الاصلاح على المستوى العربي مستقبلا .

---

(٦) أنظر على سبيل المثال : موضي عبد العزيز الحمود ، مداخل أساسية للاصلاح الاداري في دولة الكويت . مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ديسمبر ١٩٨٧ .

لقد أدركت كثير من الدول العربية أهمية التنمية الادارية لادارة التنمية بعناصرها البشرية وطرقها وأساليبها مما جعلها، وبدرجات متفاوتة، تتجه الى بذل الجهود للدفع بعملية التنمية الادارية وخاصة للكوادر الادارية في مواقعها المختلفة . واختلفت وتفاوتت هذه الجهود وتمثلت في أفضل صورها بالمؤسسات المختلفة التي أنشئت لهذا الغرض ومن أجله ، وتعددت مؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي لتشمل المعاهد والجامعات ومؤسسات التدريب والاستشارة وذلك بهدف مقابلة احتياجات التطوير للكوادر البشرية والهياكل التنظيمية ولاجراءات وأساليب العمل في مواقع العمل المختلفة ، وقد تباينت هذه الجهود وهذه المؤسسات بتباين الامكانات ودرجة اليقين في أهمية هذه المؤسسات ودورها ، ومن الملاحظ ان معظم هذه المؤسسات قد اعتمدت على مقاييس كمية في إحداث التنمية الادارية ارتكزت أساسا على عدد الدورات واللقاءات التدريبية لقياديي التنمية أو عناصرها البشرية الأخرى في مواقع العمل المختلفة الا انها لم تستطع ان تحقق تلك النقلة النوعية المطلوبة في تفكير هؤلاء القادة أو العاملين أو سلوكهم أو الدفع بتحديث الهياكل والأساليب بالصورة المرجوة ، وظلت المقاييس والمعايير الكمية للمخرجات التدريبية لهذه المؤسسات هي الممكنة والمتبعة مما قلل من فعاليتها بصورة عامة ، لقد كانت دون ماعقد عليها من آمال وذلك للقصور في التصور المؤسسي لهذه الأجهزة وعدم القدرة على الاستفادة الحقيقية من التجارب والنماذج الناجحة عالميا والقصور كذلك في استخدام الأساليب الحديثة للتطوير أو للنقص في إمكاناتها وظل تأثير هذه المؤسسات محدودا رغم انتشار معظم أشكالها في دول الوطن العربي(٧) ، الأمر الذى يتطلب مضاعفة الجهد والامكانات ان أردنا النهوض بالادارة في مواقعها وقطاعاتها المختلفة وان أردنا تحقيق التنمية بأهدافها النوعية المنشودة ، وان أردنا لأوطاننا ان يكتب لها دور بين شعوب العالم ودوله الأخرى ولا أقول المتقدمة ، فالفجوة لازالت كبيرة والطموحات لازالت بعيدة ولكن تطوير الادارة كفيل ـ ان كان التوجه مخلصا ـ ان يدفع بجهود التنمية الى الاتجاه الصحيح .

وختاما لقد كانت هذه الأفكار والخواطر هي النسيج الذى دارت حوله مجموعة الدراسات القيمة التي تضمنها هذا العدد وقد حرصنا على ان يرتاد كل منها جانبا أو محورا من المحاور الأساسية التي وقفنا

(٧) حسن ابشر الطيب . مؤسسات التنمية الادارية العربية ، أوضاعها الراهنة وآفاق المستقبل ، المنظمة العربية للعلوم الادارية ، عمان ١٩٨٤ .

عندها في هذه المقدمة وان تبدو هذه المحاور في اطارها المتكامل الذى يقدم للقارىء مساحة متكاملة من المعرفة في مجال التنمية الادارية وموضوعها ، تاركين لكل باحث وكاتب فرص التناول التفصيلي والتحليلي لواحد من الأبعاد الأساسية لهذا الموضوع واثقين ان هذا العدد في النهاية سيكون مساهمة طيبة للقارىء وللفكر الادارى ولفكر التنمية بصفة عامة .

د . موضي عبد العزيز الحمود

مهنية الإدارة

علي السلمي
استاذ الإدارة بجامعة القاهرة
نائب رئيس جامعة القاهرة

١ - مقدمة

تمثل الادارة الحديثة ركنا اساسيا من اركان النظام الانتاجي والاقتصادي في اي مجتمع كما تلعب الادارة الحديثة دورا حيويا في توجيه مؤسسات الخدمات على اختلاف مجالاتها وتخصصاتها . ولقد تعاظمت الاهمية التي توليها المجتمعات المعاصرة للادارة حيث تبينت التأثير البالغ الذي تحدثه في دفع وتكريس معدلات النمو الاقتصادي والاجتماعي حال تقدمها وارتفاع كفاءتها ، كما اتضحت آثارها السالبه على حركة المجتمع الانتاجية والخدمية في حالات فشلها وتدني مستوى كفاءتها وفعاليتها .

وانطلاقا من الاهتمام المتصاعد بالدور الرائد للادارة الحديثة في قيادة أنشطة وجهود التنمية القومية على مختلف الاصعدة في المجتمع المعاصر ، فقد توجهت الجهود نحو تأكيد الذاتية المتميزة للادارة باعتبارها إحدى مؤسسات المجتمع ، وتوفير المقومات العلمية والعملية التي تسمح لها بمباشرة تأثيراتها الايجابية وحمايتها من التدخلات والمؤثرات السالبة .

ومن ثم نلحظ في المرحلة الحالية من تطور الادارة بعض الاتجاهات الرئيسية التي تعبر عما وصلت اليه على الصعيدين الفكري (العلمي) والتطبيقي :

اولا : اتجاه نحو مزيد من التعقد والتشابك في المحتوى العلمي لعمل الادارة ، حيث تتأثر بعديد من المتغيرات البيئية نتيجة للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . كذلك نجد ان التركيب الذاتي للتنظيمات الادارية يتجه هو الآخر الى التشابك والتعقد نتيجة لظهور وظائف جديدة ومهام متطورة واساليب عمل وإمكانات متقدمة تستخدم في الادارة العلمية والتكنولوجيا الاكثر تعقيدا .

ثانيا : يواكب الاتجاه السابق اتجاه آخر نحو مزيد من العلمانية والعقلانية في الادارة بحيث تميل الى الانحسار تلك الممارسات الادارية غير المؤسسة على الدراسة العلمية والتأهيل الاكاديمي المناسب .

ويلاحظ ان بدايات هذا الاعتماد على العلم في الادارة الحديثة يتبلور الآن في معظم المنظمات في شكل اعتماد متزايد على تدفقات اكثر انتظاما للمعلومات ، واستخدام اكثر لاساليب التحليل والبحث عن البدائل التي تعتمد على التقدير الكمي للمتغيرات ذات العلاقة . وبذلك فانه مع تزايد هذا الاتجاه نحو العلم ومناهج التفكير العلمية ، تتزايد درجة العقلانية والرشد الموضوعي في اتخاذ القرارات الادارية .

ثالثا : وثمة اتجاه آخر يفرض نفسه حاليا وهو آخذ في النمو مستقبلا ، ذلك هو الاتجاه نحو مزيد من المرونه في العمل الاداري والتنوع بالابتعاد عن الانماط والقوالب التنظيمية والادارة الجامدة . ذلك ان الادارة تتعامل الآن مع مجتمعات تتميز اساسا بمعدلات سريعة ومتصاعدة من التغير ، وتتفاعل مع مؤثرات متجددة ، وتواجه تقنيات مستحدثة ومتطورة ، كل هذا يفرض على الادارة ان تتشكل بما يتفق مع معطيات الموقف ، ومن ثم فإن ما كان يسمى بمبادىء التنظيم والادارة ، او ما كان يعتبر في حكم المسلمات الشائعة في التطبيق الاداري لم يعد لها مكان الآن . ان الحلول النمطية واساليب العمل الاداري المتماثلة سوف تفقد قيمتها ولن يكون الاعتماد عليها ممكنا للتعامل مع مشكلات الادارة في المستقبل القريب .

من محصلة كل ما سبق ، نجد ان العاملين في حقل الادارة (المديرين) مضطرون الآن وفي المستقبل ـ بدرجات اعلى ـ الى بذل جهود متميزة للتعامل مع كل موقف على حدة ومن ثم فهم مطالبون بإعمال التفكير الخلاق ، والقدرة على الابتكار والتجديد . وبالتالي فإن صنع المدير وإعداده أصبح ـ وسيزداد في المستقبل ـ مهمة اساسية ترتكز الى قاعدة علميه متزايدة في الحجم والتعقد . ان نوعية رجل الادارة (المدير) نفسه آخذة في التغير ، فالإدارة المعاصرة لم تعد تتقبل بسهولة ان يحترف الادارة من لا تتوافر فيه المقومات المهنية والعلمية اللازمة . كذلك فان ادارة المستقبل بكل ما فيها من تعقد وتنوع وعلمانية وموضوعية لن تتوافق مع منطق ان في العمل الاداري متسعا لكل من لا مهنة له كما هو الشائع حاليا في مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص .

ان الادارة تتحول الى مهنة لها كل المقومات التي تتمتع بها مهن اخرى كالطب والمحاماه والهندسة والمحاسبة ، الامر الذي يعني انه في المستقبل القريب سيتطلب امتهان الادارة ضرورة :

ـ اشتراط خلفية علمية محددة .

ـ وجود هيئة مهنية معنية تشرف على وضع وتنفيذ قواعد الترخيص بمزاولة مهنة الادارة ومراقبة تصرفات المديرين والتزامهم باخلاقيات المهنة وقواعد السلوك المعتمدة فيها .

وفي ضوء هذه المقدمة عن طبيعة الادارة المعاصرة واتجاهاتها المستقبلية التي بدأت بواكيرها في الظهور والوضوح في مجتمعاتنا العربية ، نحاول في هذه الدراسة ان نلقي الاضواء على خصائص الادارة ودورها المؤثر في توجيه المنظمات العامه والخاصة واساليب تطويرها في توازن بين الواقع المجتمعي المعاصر والمعطيات المهنية للادارة .

٢ ـ الاساس الفكري للادارة المعاصرة :

ان ما نعنيه بالادارة في أيامنا هذه يختلف جذريا عما كان يفهم منذ ثلاثين او اربعين سنة . فقد تطورت « الادارة » من مجموعة من المبادىء والقواعد المستمدة من خبرات رجال الاعمال والمديرين الاوائل وتجاربهم وحصيلة معارفهم الذاتية فاصبحت الآن مجموعة متكامله من المنطلقات العلمية التي تمثل مزاجا متوافقا من علوم اجتماعية وطبيعية مختلفة صهرتها التجارب العلمية والدراسات الاكاديمية وطوعتها في شكل نظريات وتقنينات اكثر تقدما وتطورا تعالج امورا بالغة التعقيد والتشابك في حياة المنظمات الحديثة .

ان اساسا فكريا واضحا يتوفر الآن ليرشد « المدير » في التعامل مع قضايا رئيسية مثل :

* تحديد الاهداف والتخطيط الاستراتيجي للمنظمة .
* برمجة الانشطة وتكوين المخططات التشغيلية للمنظمة .
* بناء التنظيم وتنسيق تشابكات الوظائف وهيكل العلاقات الوظيفية في المنظمة .
* صنع واتخاذ القرارات الادارية .(١)
* قيادة المنظمة وتوجيه عناصرها البشرية والمادية نحو تحقيق الاهداف ، وصيانة مسارات التنفيذ في الحدود المقبولة تنظيميا .
* بناء شبكات الاتصال وقواعد المعلومات المساعدة للادارة .
* تنسيق علاقات التعامل مع البيئة واستباق الاحداث والتنبؤ بالمتغيرات لضمان أهداف المنظمة واستفادتها من المتغيرات البيئية .

ويتبلور البناء الفكري المعبر عن ماهية الادارة المعاصرة وخصائصها المتميزة في مجموعة المفاهيم التالية :

---

(١) صنع القرار يقصد به عملية تهيئة المعلومات وصياغة البدائل لعلاج مشكلة Decision Making بينما يشير اتخاذ القرار Decision Taking الى اختيار البدائل الأرجح أو الأمثل .

٢/١ إن الادارة هي عمل مقصود وموجه لتحقيق أهداف معينة ، فهي وسيلة ترجمة الاهداف المرغوبة الى انجازات واقعية من خلال تنسيق استخدام الموارد المتاحا في ظروف العمل المحيطة . ومن ثم فإن « الهادفية » هي صفة لصيقة بالعمل الاداري تمثل الغاية منه من ناحية ، كما تعتبر معيار الحكم على كفاءته من ناحية أخرى .

٢/٢ ان وسيلة الادارة الاساسية في تحقيق اهدافها هي « الانسان » كما ان الغاية الاساسية من عمل الادارة هي رفاهة « الانسان » . فالانسان وسيلة الادارة وغايتها في آن واحد . وبهذا المعنى فان الادارة انما تعمل في الاساس من اجل ازاحة المعوقات التي تعترض المسيرة الانسانية في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتحاول إرساء اسس اوضح وفرص افضل للانتقال بالحياة الانسانية الى مستويات اعلى وارفع .

كذلك فان الادارة تستخدم الطاقات الانسانية المبدعة ، وتعمل على خلق المناخ المناسب لانطلاق إبداعات البشر وتفجير طاقاتهم الخلاقة في سبيل مزيد من الانتاج والعطاء والتجديد والابتكار في مختلف نواحي الحياة .

٣/٢ تلتزم الادارة المعاصرة ـ وفي الحقيقة فانه لا مناص لها عن ذلك ـ بالمنهج العلمي والمنطق الرشيد في معالجة المشكلات والوصول الى القرارات ويتبلور هذا الالتزام في الاستخدام المتزايد لنظم المعلومات المتكاملة ، وأساليب التحليل الاقتصادي والاداري المعتمدة على القياس الكمي للمتغيرات ، والتوسع في تطبيقات الحاسبات الآلية ونظمها المتطورة .

٤/٢ تتعايش الادارة المعاصرة وتتفاعل مع المجتمع بشكل يحقق التكامل بينهما باعتبارها نظاما فرعيا ينبثق من النظام المجتمعي الاكبر . ومفاد هذه الحقيقة ان الادارة المعاصرة لا تستطيع ان تتغافل عن مجريات الامور في المجتمع ولا ان تنعزل عن مشكلاته واهدافه .

بل الأساس في وجودها هو اهميتها لمعالجة مشكلات المجتمع والمعاونة في تحقيق أهدافه مع الأخذ في الاعتبار ما هو متاح له من إمكانات وموارد .

كذلك مفاد هذه الحقيقة ان مآل ما تصل اليه الادارة من نتائج هو المجتمع ، ومن ثم فان قبول المجتمع لمخرجات النظام الاداري هو شرط استمراره .

ومن ثم فان التصور الحقيقي لمهام الادارة المعاصرة هو في كونها وسيلة لتحقيق أهداف المجتمع باستخدام ما فيه من موارد وامكانات من خلال جهد منظم ومخطط ومنسق .

وتتركز هذه الحقيقة في الآتي :

* ان استمرارية الادارة تتوقف على مدى ارتباطها وتفاعلها مع البيئة المحيطة وذلك حيث تستوعب الادارة ما يتاح في البيئة من قيم ومعتقدات ومعلومات وامكانات وفرص مختلفة من جانب والتأثير في البيئة بافراز مخرجات مادية ومعنوية تسهم في اعادة تشكيل الحياة في المجتمع من جانب آخر .

* ان غاية وجود الادارة هي العمل على تحقيق أهداف عامة يريدها المجتمع ، وبالتالي فإن تحديد اهداف الادارة إنما ينبني على التحليل الصحيح لاحتياجات المجتمع والتنبؤ بمشكلاته .

٥/٢ إن الادارة في سعيها لتحقيق اهداف المجتمع ـ انما تعمل في ذات الوقت على تحقيق اهدافها الذاتية . ومن ثم هي تحاول استثمار الفرص المتاحة لها واستغلالها ايجابيا ، كما تحاول تجنب القيود والمعوقات التي تفرضها الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السائدة . وتبدو كفاءة الادارة المعاصرة وفعاليتها في مدى القدرة على تحريك المواقف وتعديلها لصالحها اي للمساعدة على تحقيق أهدافها . ومن اجل ذلك تتأكد اهمية بناء استراتيجية ادارية تعمل على زيادة سيطرة الادارة على الموارد المتاحة وفرص استثمارها من جانب ، وتخفيض اثر القيود والضغوط المفروضة عليها في عناصر المجتمع المختلفة او تحييدها من جانب آخر .

٦/٢ تتميز الادارة المعاصرة بالقدرة على الحركة السريعة والتكيف مع الاوضاع المتغيرة . ان سمة العصر هي التغير المستمر والتطور المتنامي في مختلف مجالات الحياة . ومن ثم فان الادارة لا تستطيع الركون الى اساليب جامدة او سياسات ثابتة او نظم عمل نمطية . ولذلك نجد الادارة المعاصرة تتحلل من مفاهيم البيروقراطية التقليدية وتكتسب انماط التنظيم المرن المتداخل الذي يتناسب مع طبيعة العمليات الانتاجية والمستويات التكنولوجية المستخدمة .

هذه الطبيعة الجديدة للادارة المعاصرة انما تؤكد الحقيقة الواضحة ان الادارة اصبحت في المقام الاول اداة للتغيير تستهدف تحقيق التحولات الاجتماعية والاقتصادية المرغوبة .

٧/٢ ولكي تصل الادارة المعاصرة الى أهدافها وتتمكن من مواجهة التغيرات والتوافق مع معطيات البيئة ، فانها تعتمد على وسائل او اساليب لتحريك المواقف وإحداث التغير الموصل الى أهدافها . ومن اهم هذه الاساليب :

- البحث والدراسة واعمال التطوير
- التحليل الاقتصادية والاحصائي والسلوكي
- تصميم النظم
- التخطيط وتكوين البرامج
- المتابعة والتقييم المتكامل

٣ ـ المنطق الاساسي في عمل الادارة

يرتكز عمل الادارة المعاصرة على منطق أساسي يقوم على العناصر الحاكمة الآتية :

* التكامل
* الشمول
* المستقبلية
* الانتاجية
* الفعالية

وتمثل العناصر السابقة أسساً تستهدي بها الادارة المعاصرة في تخطيط أعمالها ومباشرة وظائفها الهادفة الى تحقيق نتائج محددة ، وإذا افتقدت الادارة الارشاد المستمر من بعض هذه العناصر او كلها ، فانها تضل السبيل الى الاهداف ، وتصبح عبئا على المنظمة ، ومن ثم على المجتمع كله .

١/٣ التكامل في عمل الادارة

يشير مفهوم التكامل الى الترابط والتزاوج والتناغم والتأثير المتبادل بين عناصر ومكونات العمل الاداري . فالادارة مفهوم متكامل ، ومجموعة من الوظائف المتكاملة ، واساليب متكاملة تهدف في النهاية الى تحقيق نتائج متكاملة .

ويتم التكامل في العمل الاداري على مستويات مختلفة يمكن ان نرصد منها ما يلي على الاقل :

* التكامل بين الادارة والمناخ المحيط بها (البيئة التي توجد وتعمل فيها) .
* التكامل بين الموارد والامكانيات المتاحة للادارة وبين الانيطة التي تباشر بها الادارة استخدام واستثمار وتوظيف هذه الموارد والامكانيات .
* التكامل بين الموارد والامكانات المتاحة للادارة ومنتجات (نتائج ومخرجات) العمل الاداري .
* التكامل بين أنشطة الادارة ونتائج العمل الاداري .
* التكامل بين مخرجات العمل الاداري وانشطته ومعطيات البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية .

كما يمكن ان نتصور حالات التكامل فيما بين الموارد والامكانيات الادارية بعضها البعض ، وفيما بين الانشطة الادارية بعضها البعض ، وكذا فيما بين مخرجات ونتائج عمل الادارة بعضها البعض .

وثمة مجال هام للتكامل فيما بين الاساليب والتقنيات الادارية من جانب وفيما بينها وبين الموارد والامكانات والانشطة الادارية من جانب آخر وهكذا .

ومعنى التكامل عند اي مستوى من المستويات السابق الاشارة اليها هو ان الطاقات الكامنة والقدرات الذاتية لاي من عناصر العمل الاداري انما تساعد وتقوي من تأثير العناصر الاخرى وصولا الى الاهداف المحددة . فالافراد بما لهم من خبرات وتجارب ومهارات يتكاملون مع ما هو متاح للادارة من موارد وامكانيات مادية ويباشرون اساليب للعمل والاداء تتناسب مع انواع الاهداف التي تسعى لها الادارة . وهكذا فلو انخفض مستوى كفاءة الافراد فان اساليب اخرى وامكانيات مادية مختلفة ينبغي استخدامها لكي تصل الادارة الى ذات مستوى الانجاز المستهدف . وبنفس المنطق فإن استخدام الحاسبات الآلية يبرز تطبيق اساليب اكثر تطورا في التخطيط ونظم المعلومات المتقدمة عما يكون عليه الحال حين الاعتماد على العمل اليدوي بديلا عن الحاسبات . كذلك نجد ان صور التكامل تمتد لتشمل التوازن والتناسق بين هيكل التنظيم وطرق اتخاذ القرارات من حيث المركزية او اللامركزية والتكامل بين السياسات الادارية بعضها البعض ، وبينها وبين الاهداف والخطط والبرامج الادارية .

ان التكامل سمة الادارة العصرية واثره واضح في تعظيم العائد في مجمل ما تقوم به الادارة من اعمال وما تستخدمه من موارد . وافتقاد التكامل ينعكس سلبا على عائد العمل الاداري وكفاءته .

٢/٣ الشمول

تتصف الادارة المعاصرة بالشمول بمعنى ان مجال اهتمامها ونطاق سريانها يتعدى حدود المنظمة الواحدة ويتسع ليشمل عناصر المجتمع جميعا . فلم تعد مفاهيم واساليب الادارة المعاصرة قاصرة على منظمات الاعمال او وحدات الانتاج الخاصة ، بل هي تسري كذلك في منظمات الاعمال ووحدات الانتاج العامة (الحكومية) وكذا في مؤسسات وتنظيمات الدولة القائمة على تقويم الخدمات العامة ومباشرة الوظائف السيادية .

ان الادارة المعاصرة في حقيقة امرها هي عمل مخطط يهدف الى تحقيق نتائج معينة باستخدام موارد وامكانيات في ظل ظروف محددة . ومن ثم فهي شائعة التطبيق في كل الحالات التي تتوفر فيها تلك الأوصاف والشروط بغض النظر عن نمط الملكية او صاحب الحق في الفوائد الناتجة من عمل الادارة .

كذلك فان شمولية الادارة تعني انها لا تقتصر على مستويات تنظيمية معينة او مجالات نشاط محددة ، بل على العكس ، فان العمل الاداري يتسع ليشمل كافة المستويات التنظيمية ومختلف المجالات حتى في ميادين السياسة والخدمات الاجتماعية ، والانشطة النقابية والرياضية واعمال الحرب والشئون العسكرية . فالى عهد قريب كانت مثل تلك الاعمال تصنف على انها اعمال فنية متخصصة ، فالعلوم السياسية مثلا كانت هي المصدر الذي يستمد منه السياسيون مبادىء العمل السياسي ، كما كان علم الاجتماع هو اساس توجيه العمل الاجتماعي والعلوم العسكرية والاستراتيجية هي اساس اعمال الحرب . ولم تكن الادارة تذكر من قريب او بعيد في تلك المجالات إلا فيما يخص اعمالاً روتينية تتعلق بالامور المالية وشئون الافراد . ولكن صفة الشمول المقررة في الادارة المعاصرة تجعلها تمتد لتغطي كافة تلك المجالات وغيرها ، ومن ثم توجد الادارة السياسية ، والادارة الاقتصادية ، وادارة الحرب ، وكلها تعني ذات المعنى الا وهو الجهد المخطط والمنظم للوصول الى اهداف محددة من خلال التوظيف العلمي السليم للموارد والامكانيات المتاحة .

٣/٣ المستقبلية

تتجه الادارة المعاصرة باعمالها وقراراتها الى المستقبل تستشرف آفاقه وتحاول تصور أبعاده ومن ثم تعمل على صياغة قراراتها وتكييف اوضاعها بما يسمح لها باستثمار ما سيأتي به المستقبل من فرص واحتمالات ايجابية ، وتجنب ما يتوقع حدوثه من مشكلات او معوقات .

ان قرارات الادارة لا تسري على الماضي فذلك الماضي قد تشكل فعلا وأحدث آثاره ومضى بمجرد انقضاء الفترة الزمنية وحلول غيرها محلها . وبالتالي فان الادارة اذ تخطط وتنظم وتوظف الامكانات والموارد وتوجه الجهود والطاقات انما تستهدف نتائج لم تحدث بعد آملة تحققها في مستقبل لا تستطيع الا التكهن به دون تحديد ، والا التنبؤ به دون محاولة لرجم الغيب الذي لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى .

ويمكن القول عموما ان الادارة تحاول تشكيل المستقبل ـ في حدود القدرة البشرية المحدودة ـ من خلال دراسة الواقع وتحليله واستنتاج أهم المؤثرات المتحكمة في مساره من جانب ، وعن طريق استقراء الماضي وتحليله وتمعن الدروس المستفادة من حركة التاريخ والمجتمع من جانب آخر . وبذلك فنحن نرى الادارة المعاصرة قد احتوت بداخلها على عناصر وقوى عاملة على التغير والتطور واعادة صياغة الواقع بحيث يتشكل مستقبل يتفق مع الاهداف التي ترمى اليها . فالادارة اذن ليست مجرد مستجيب سلبي للمتغيرات والمؤثرات المحيطة ، ولكنها في ذاتها اداة تغير .

واعتماد الادارة في الاساس هو على المعلومات المتدفقة والمنظمة التي تسمح باستجلاء الماضي والحاضر ومن ثم التنبؤ باحتمالات المستقبل . ويجب ان نؤكد ان استشراف المستقبل ومحاولة تطويعه لاهداف الادارة او التكيف معه

بحسب الاحوال هو التحدي الحقيقي للادارة المعاصرة ، ومن اجل مواجهته يصار إلى ابتكار وتطوير نماذج تحاول محاكاة الواقع ويتم اختبار سلوكها تحت فروض مختلفة في محاولة لتصور أوضاعها المستقبلية .

٣/ ٤ الانتاجية

ان المحك الاساسي لعمل الادارة ان يتحقق عنه إضافة حقيقية (مادية أو معنوية) لم تكن موجودة من قبل . فالانتاجية معناها ان يتحقق عن استثمار وتوظيف الموارد المتاحة قيمة مضافة Added Value بحيث تكون قيمة الناتج من عمل الادارة أعلى من مجموع قيم المدخلات او الموارد التي استخدمت في هذا العمل . ولعل هذه الانتاجية هي ما يضفي على الادارة اهميتها الحقيقة ، فهي تخلق قيمة مضافة تعود بفوائد وعوائد على المشاركين في العمل مباشرة وغير مباشرة .

ولعل من اهم سمات الادارة المعاصرة انها تدفع عمليات التجديد والابتكار والتطوير مما يؤدي الى انجازات متعاظمة في مستوى الانتاجية وارتفاعات غير مسبوقة في القيمة المضافة الناشئة عنها .

٣/ ٥ الفعالية

ان القيمة الحقيقية للادارة المعاصرة هي قدرتها على تحقيق أهداف وإنجازات يصعب الحصول عليها بدون نشاط وجهد المتخصصين . وليس القصد مجرد الوصول الى أهداف او انجازات ما ، ولكن الاساس هو في تحقيق مستوى من الكفاءة يمثل افضل استثمار للموارد والطاقات المتاحة ، ويجعل الناتج او العائد بقيمة حقيقية اعلى من كل ما بذل في سبيل الوصول اليه . وذلك ما نقصد به الفعالية الادارية او قدرة الادارة على اداء الاعمال الصحيحة والتوصل الى تحقيق النتائج المطلوبة في حدود التكلفة المناسبة . وفعالية الادارة هي خاصية كلية وشاملة تصف وتلخص الابعاد المميزة للتنظيم الاداري ، كما انها خاصية مستمرة على مدى الزمن ومن ثم لها صفة تراكمية وقدرة اشعاعية تؤثر بدورها على تلك الابعاد المميزة للتنظيم . ولا شك ان فعالية الادارة المعاصرة تعبر عن تفاعل السمات الآتية للادارة :

* التكامل بين أقسام وأجزاء التنظيم الاداري .
* الوضوح والتحديد في نظام اتخاذ القرارات وموضوعية المعايير المستخدمة في الوصول الى قرار .
* الاستقلال وحرية الحركة التي يتمتع بها التنظيم الاداري في مواجهة المناخ المحيط ومصادر السلطة الممنوحة له .

وتتبدى مظاهر الفعالية الادارية في الآتي :

* حسن اداء واستثمار الوقت .

* ضبط التكلفة وترشيد الانفاق .

* انتظام وضبط تتابع العمليات في توقيتها الصحيح .

* دقة الاداء وارتفاع مستوى الجودة في الأعمال .

* التركيز على النتائج وعدم الانسياق وراء ضبط الاجراءات بديلا عن النتائج .

* التركيز على استثمار عناصر القوة في الموقف المحيط بالادارة .

المدير الفعال

ان فعالية الادارة هي بلا شك ناتج فعالية المدير . والمدير الفعال هو الذي يستطيع تحديد الاهداف المرغوبة ذات القيمة ويتمكن من تحقيقها باستخدام المتاح من الموارد والامكانات استخداما أمثل .

وتتبدى مقومات المدير الفعال في الآتي :

* المعرفة السليمة والمتجددة باساسيات علوم الادارة وأساليبها المستحدثة .

* القدرة الادارية أي الدقة في تصور المواقف وتحديد المشكلات واستخدام الاساليب الادارية المناسبة في مواقعها السليمة وتوقيتاتها المناسبة .

* القدرة القيادية أي امكانية التأثير في سلوك الآخرين وتوجيهه ناحية التحقيق الامثل للاهداف المحددة .

* الاحاطة بمجال النشاط موضع الاختصاص والقدرة على فهم أساسياته وابعاده الفنية .

نمط العمل الاداري الفعال

لكي نتصور الادارة المعاصرة في حقيقتها ، فانه من المفيد تمثل كيف يباشر المدير الفعال عمله وكيف يؤدي واجبات وظيفته الادارية .

يبدأ المدير الفعال عمله بدراسة الموقف المحيط به ومحاولة تبين أبعاده المختلفة . إن وصف أو تقدير الموقف هو المهمة الأولى للمدير الفعال .

* بناء على المعلومات الناتجة عن دراسات الموقف ، يستطيع المدير الفعال استنتاج العوامل الأساسية المؤثرة في الموقف وتأثيراتها على عمل الادارة سلبا وإيجابا . إن تحليل الموقف يساعد المدير الفعال على تبين العوامل المساعدة

للادارة التي يمكنه السيطرة عليها وتوجيهها (الموارد أو الامكانيات) ، وتلك العوامل المعوقة للعمل الاداري والتي لا يستطيع السيطرة عليها أو التحكم في سلوكها (القيود) .

* ويرتبط بتحليل الموقف أن يمتد اهتمام المدير إلى محاولة التنبؤ بالأوضاع المستقبلة للموقف واحتمالات التغير فيه ، ومدى تناسب التغييرات المحتملة مع أهداف المدير . من ذلك يستطيع المدير إعداد سياساته وخططه لتحقق التغيير المرغوب في ابعاد الموقف اعتمادا على الموارد وأخذا في الاعتبار القيود المفروضة .

* ثم يحاول المدير بعد ذلك إحداث التغيير المحدد من خلال اتخاذ القرارات الهادفة إلى تحريك الموارد والامكانيات باستخدام الأساليب والطرق المساعدة . .

* ويستمر المدير الفعال في متابعة مدى تنفيذ القرارات وما يترتب عليها من نتائج مع متابعة ما يحدث في الموقف من متغيرات تستلزم تعديل خطط وبرامج وقرارات الادارة .

* ويهتم المدير الفعال بمتابعة مجريات الأمور في البيئة المحيطة ويستوعب المؤشرات الدالة على اتجاهات التغيير ليأخذها في الاعتبار ويعدل من قراراته وسياساته بما يتناسب وتلك المتغيرات .

وفي كل ما سبق ، فإن المدير الفعال إنما يعتمد منهجا موضوعيا يرتكز إلى منطق الادارة المعاصرة الذي هو منطق الإعداد والتدبر ، ثم القياس والتقييم اعتمادا على تصورات شاملة ومحيطة بأبعاد الموقف السائدة والمحتملة ، مع توفر القدرة على المناورة واحلال بدائل محل أخرى استجابة لمتطلبات المواقف المتغيرة واستهدافا لتحقيق النتائج المرجوة في جميع الأحوال .

فالمدير الفعال إنما يتبع منهجا حركيا في الإدارة لا يقتصر فيه على متابعة الأحداث ومواكبتها فحسب ، بل يحاول التنبؤ بالأوضاع المستقبلية ويسبق الأحداث والمشكلات ويعد لها عدة تسهم في تخفيف آثارها السالبة أو تأكيد الاستفادة من آثارها الايجابية بحسب الأحوال .

ومن ثم فإن نمط العمل الإداري الفعال انما يتميز بالآتي :

* نمط يعمل على تكييف وتشكيل المواقف لخدمة أهداف الإدارة .
* نمط يعمل على تحريك المواقف واستثارة المتغيرات بما يحقق أهداف الادارة .
* نمط يعتمد منطق مهاجمة المشكلات وإيجاد مخارج منها قبل حدوثها .
* نمط لا يقنع بما هو كائن أو ممكن ، بل يحاول الوصول إلى ما يجب أن يكون .

٤ ـ الدعائم الأساسية للإدارة المعاصرة

لقد انتهينا فيما سبق الى تأكيد أهمية الإدارة المعاصرة في تحريك واستثمار الطاقات والموارد المتاحة للمجتمع بحيث ينتج عن ذلك انجازات مادية ومعنوية تشبع احتياجات المجتمع وتحقق مستوى الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية المنشودة .

ورأينا أن وصول الإدارة المعاصرة إلى هذه الانجازات هو أمر بالغ الصعوبة يتطلب جهودا منظمة تعتمد على الفكر الواضح ، والتحليل السليم والاحاطة الشاملة بالمتغيرات ذات التأثير في احتمالات الوصول إلى النتائج المستهدفة .

وتنجح الإدارة المعاصرة في التغلب على المشكلات وتحقيق مستويات الانتاجية والفعالية الأعلى حين توفق في توظيف مجموعة من الدعائم الادارية التي تسهم مجتمعة في انجاح الادارة وتوصيلها الى أهدافها . ولكل من تلك الدعائم أهميته الذاتية واسهامه المباشر وغير المباشر فيما تصل إليه الإدارة من نتائج ، ولكن الأثر الأكبر ينتج من محصلة تفاعل تلك الدعائم وتكاملها معا . وفيما يلي تحليل موجز لأهم تلك الدعائم :

٤ / ١ المعلومات

نحن نعيش الآن عصر المعلومات ويتمتع المجتمع الانساني بثمار ثورة المعلومات والاتصالات . ولا شك أن الادارة المعاصرة كانت من أهم المستفيدين من تلك الثورة الجديدة التي أتيحت للمجتمع الإنساني والمتمثلة في كم هائل متدفق ومتجدد من المعلومات التي تصف وتعرف وتشرح وتوضح وتفسر الأوضاع والظروف الذاتية للمنظمات وما يحيطها من أوضاع وظروف محلية وعالمية . وتحتل المعلومات ركنا هاما في البناء الاداري المعاصر إذ هي أداة الربط الأساسية بين أجزاء التنظيم وهي الوسيلة الرئيسية للادارة في التنسيق والتخطيط والمتابعة . ونحن نرى المعلومات وقد توقف عليها نشاط الإدارة المعاصرة كله ، حيث نعتقد أن حركة الادارة وتوجهاتها جميعا ما هي إلا استجابات منظمة للمعلومات المتدفقة عليها من المناخ المحيط من ناحية ، والنابعة من أنشطتها الذاتية من ناحية أخرى .

وتتعدد مصادر المعلومات الواردة إلى الادارة المعاصرة على النحو الآتي :

* معلومات صادرة عن نظم ادارية ومنظمات أخرى محلية وعالمية ، وهي تمثل الأفعال والقرارات وأنماط النشاط والحركة التي تمارسها تلك المنظمات والتي ترتبط بها الادارة المعنية بعلاقات مباشرة أو غير مباشرة .

* معلومات صادرة عن الأفراد والجماعات الذين تعايشهم ادارة المنظمة في أي مجتمع والذين تتفاعل معهم بالتعامل أو التبادل المباشر وغير المباشر .

* معلومات صادرة عن نظم عليا في المجتمع لها سلطة التشريع والتصريح أو التقييد (مثل الحكومة وغيرها من النظم السيادية أو الاشرافية بصفة عامة) .

* معلومات صادرة عن النظم المادية والطبيعية المحيطة بالادارة .

والى جانب تلك المصادر الخارجية ، فان الادارة ذاتها تنتج اشكالا متنوعة من المعلومات بحكم نشاطها الذاتي وأوضاعها الداخلية . إن حركة أجزاء النظام الاداري وتفاعلاتها معا تستهلك (أو تستخدم) الموارد والطاقات المتاحة له ، ومن ثم تصدر عن تلك الحركة مؤشرات (معلومات) توجه الادارة إلى ضرورة تدبير طاقات جديده . كذلك فان حركة أجزاء الادارة اذ تنتهي إلى ناتج معين ، فانه يصاحب ذلك الناتج مؤشرات تنبه الادارة إلى ضرورة العمل من أجل التعبير عنه أو التصرف فيه .

وثمة حقيقة رئيسية عن الادارة المعاصرة هي أن المعلومات تتواجد بطبيعة الأمور في عمل الادارة وحولها . وهي غالبا تتواجد في صور مبدئية (أو بدائية) ولكنها تحتاج إلى أن يكشف عنها وتعاد صياغتها حتى تتاح لها فرص إحداث التأثيرات المنطقية المتعلقة بما تحويه من دلالات . ومن هنا فان التفكير الاداري المعاصر يوجه عناية خاصة إلى تصميم وتشغيل نظم متخصصة في الكشف عن المعلومات واستقبالها ووضعها في الاطار السليم الذي يتيح لها التفاعل بطلاقة وحرية مع عناصر الادارة جميعا (٢) . وبذلك فإن الاجزاء التنظيمية المعنية بتشغيل نظم المعلومات تحتل في التفكير الاداري المعاصر أهمية كبرى باعتبارها مراكز لضبط نبض التنظيم وحماية التدفق المنتظم والمستمر لمصدر حيويته في احساسه بما حوله وبنتائج اعماله . ويلاحظ أن المعلومات تتناول بالوصف والتحليل ليس فقط الأحداث والأوضاع الماضية أو التاريخية ، بل تعنى أيضا بوصف وتحليل الأحداث والأوضاع المعاصرة أو الجارية ، كما تمتد إلى التنبؤ بالأحداث والظروف المستقبلية .

ان التعامل المستمر مع المعلومات والتفاعل بها ومعها هي سمة واضحة للادارة المعاصرة .

---

(٢) يقصد بذلك أنشطة بناء وتشغيل نظم المعلومات الادارية **Management Information Systems** والتي تختص بالكشف عن المعلومات وتجميعها وتحليلها واعدادها للاستخدام طبقا لاحتياجات مراكز العمل المختلفة بالتنظيم الاداري وفي التوقيتات المناسبة كما تعمل على تداول المعلومات وحفظها وتجديدها **Up-dating** واسترجاعها **Retrieval** حين الحاجة .

٤ / ٢ الاهداف :

الاهداف هي تلك الانجازات أوالنتائج التي تعمل الادارة على تحقيقها باستخدام الموارد والطاقات المتاحة والمحتملة في اطار القيود والمحددات الذاتية والمناخية التي تصاحب العمل الاداري . واذا استخدمنا منطق النظم ـ اي الادارة باعتبارها نظاما مفتوحا ـ فان الاهداف هي مخرجات outputs النظام الاداري .

ويوجه الفكر الاداري المعاصر اهتماما واضحا لمفهوم الاهداف لما له من تأثير على فعاليات الادارة بشكل عام . ويهمنا في هذا المجال استعراض بعض الافكار العلمية والمحاورات الفلسفية عن الاهداف في الادارة :

ـ تستمد الادارة أهدافها من استقراء اوضاع ومتطلبات البيئة المتاحة من ناحية ، واستكشاف امكاناتها وطاقاتها الذاتية من ناحية اخرى . انما يتحدد النجاح بالدرجة الاولى في ضوء القدرة على حسن اختيار الاهداف ذاتها .

ـ ان اختيار الاهداف يتطلب المواءمة والتوفيق بين ما تحتاج اليه البيئة أوما قد تتمكن من استيعابه ، وبين ما تقرره الادارة او ما هو متاح لها من قدرات وما يحتمل ان يتوفر لها من امكانيات .

ـ ان الادارة لا تسعى بتحقيق الاهداف المختارة الى مجرد الاستجابة الآلية لمتطلبات المجتمع ، بل هي ايضا قد تحاول التأثير في هذا المجتمع وتغييره من خلال الاهداف التي تحققها .

ـ تنعكس الاهداف المختارة على اختيار وتصميم العمليات والانشطة المختلفة في التنظيم الاداري ، كما تنعكس على اختيار واستقبال المدخلات (الموارد) المستخدمة فيه . من ناحية اخرى ، فان ما يتحقق من اهداف يكون له تأثير مباشر على حجم ونوع الموارد الذي يستطيع النظام الاداري الحصول عليها من البيئة المحيطة . ومن ثم فان استنتاجا هاما قد تكرس في الفكر الاداري المعاصر هو ان استمرار بقاء الادارة واطّراد فعاليتها لا يتوقف على احجام وانواع الموارد المتاحة لها ، بقدر ما يتوقف على نجاحها في اختيار الاهداف وتحقيقها .

ومن الحقائق الواضحة في الفكر الاداري المعاصر ان الادارة تعاني في كثير من الاحيان من مشكلة تناقض الاهداف Goal Conflict وتنشأ هذه التناقضات من اسباب مختلفة اهمها التباين بين ما يريده المجتمع من جانب ، وما يستطيعه التنظيم الاداري من جانب آخر ، كما تنشأ تناقضات الاهداف من تباين المصالح والدوافع لعناصر التنظيم المتعددة واختلافها عما يسعى اليه التنظيم الاكبر من جانب اخر . ولقد كانت مشكلة تناقض الاهداف تثير فزعا شديدا في التفكير الاداري التقليدي حيث كان يعتبرها مصدرا للتحلل والانشقاق التنظيمي وبالتالي خطورة يجب العمل على تجنبها .

ولكن الفكر الاداري المعاصر يرى في تناقض الاهداف ـ بل في التناقض بصورة عامة ـ ظاهرة صحية يجب العمل على ابرازها وتوفير المناخ المناسب لتطويرها الى اسلوب تنافس ايجابي . ان تناقض الاهداف يفسره مفهوم النظم على انه حالة اختلال في توازن النظام اما داخليا او خارجيا ، وحيث تتصف النظم بالقدرة على الاحساس بالاختلال من ناحية ، ومحاولة استعادة التوازن من ناحية اخرى ، فاننا نرى ان تناقض الاهداف يحرك الادارة (كما قد يحرك المجتمع) ويثيرها بحثا عن الطرق والاساليب المؤدية الى استعادة التوازن الذي يكون عادة عند مستوى افضل واعلى من الانجاز والاداء .

وثمة سؤال جوهري يتعلق بالمدى الذي يذهب اليه التنظيم الاداري في محاولته تحقيق اهدافه . فقد كان الفكر الاداري التقليدي يرى ان يتحقق الحد الاقصى للهدف Maximize وذلك على اساس تجاهل امرين : الاول هو تناقض اهداف التنظيم المتعددة (او احتمال تناقضها) ، والثاني هو الضغوط والقيود البيئية على التنظيم التي تحد من قدرته على الانجاز . ولكن الفكر الاداري المعاصر يتجه اتجاها مغايرا يتناسب مع مفهومه عن الادارة باعتبارها نظاما مفتوحا . ان المدى المقترح لتحقيق الاهداف وهو ما يسمى « حد الاشباع Satisfaction » هو كذلك الحد الكافي من الانجاز الذي ينتقل بالتنظيم خطوات ايجابية الى الامام في مجال تحقيق هدف معين وذلك دون ان يعوقه او يدفعه الى التضحية بتحقيق حد مماثل في وقت آخر [٣] .

ونتيجة لفكرة حد الاشباع في تحقيق الاهداف ، فان الفكر الاداري المعاصر يتبنى فكرة أخرى هي « فجوة الأهداف Goal Discrepancy » وهي عبارة عن الفارق بين حجم (كمية ، مستوى) الهدف المختار وبين حد الاشباع الذي تحقق من هذا الهدف . ان اهمية هذه الفكرة تنبع من كونها تضع الادارة في اطار علمي سليم يستمد مقوماته من مفهوم النظم . وفي ضوء تحليل النظم ، فان فجوة الأهداف المختارة قد تكون سالبة حين تقل الاهداف المحققة عن الاهداف المختارة سواء من حيث كمية الانجاز او مستوى الاداء . وهذا القصور في الانجاز يمثل في تصورنا دافعا للادارة الى تكثيف الجهود واعادة تصميم اساليب العمل ومحاولة الارتفاع بمستوى الانجاز الى الحد المستهدف . من ناحية اخرى فقد تكون فجوة الاهداف ناشئة عن زيادة الاهداف عما كان مستهدفا . وتلك الزيادة تمثل فائضا يستخدمه التنظيم الاداري في تعويض تخلفات سابقة أو الاعداد لمواجهة صعاب وعقبات متوقعة مستقبلا .

٤ / ٣ الوسائل

تعتبر الوسائل او الاساليب أحد الابعاد الحيوية في تكوين عمل الادارة حيث هي المعبر الذي تستخدمه في تحريك المواقف لاحداث التغيير المتوافق مع اهدافها المختارة .

فالادارة تحاول ان تنتقل من الموقف السائد الذي تمارس فيه ، نشاطها الى الموقف المستهدف الذي يصف النتائج

---

(٣) Cyert, R.M., and March, J.A. **Behavioral Theory of the Firm** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, Inc., 1962.

والانجازات التي قامت من اجلها . لتحقيق هذا الانتقال لابد للادارة من الالتجاء الى وسائل واساليب محددة الفعالية من جهة ، ومتناسبة مع طبائع المواقف ومتطلباتها من جهة ثانية .

ويتبنى الفكر الاداري المعاصر عددا من الوسائل والاساليب التي يراها ضرورة محتمة لامكان تحقيق الاهداف المختارة . وتلك الوسائل والاساليب هي :

- البحث والدراسة وتكوين المعلومات .
- التحليل والكشف عن العلاقات والبدائل .
- تصميم النظم .
- التخطيط وتكوين البرامج .
- المتابعة والتقييم المتكامل .

فالادارة المعاصرة تعتمد البحث والدراسة وسيلة هامة للتعرف على معطيات المناخ المحيط والاوضاع السائدة فيه ، ومن ثم تكشف عما به من فرص متاحة وما يفرضه من قيود ومعوقات . كذلك من خلال البحث والدراسة تكشف الادارة عن طاقاتها الذاتية والامكانيات الكامنة في عناصرها المادية والبشرية . والناتج الحقيقي من البحوث والدراسات ينبغي ان يكون تدفقا مستمرا ومنتظما من المعلومات التي تصف الادارة والمحيط الذي توجد فيه ، كما تكشف عن الاحداث والوقائع ذات العلاقة بقدرتها على تحقيق اهدافها المختارة . وفي ضوء هذا التصور تصبح أنشطة البحوث وجمع الحقائق ركنا اساسيا في فعاليات الادارة المعاصرة . . وحين تتجمع المعلومات ونتائج البحوث لدى الادارة ، فان جهدا منظما ، متطورا يجب ان يوجه الى تحليلها واستنتاج ما تحويه من علاقات وبدائل . وعلى سبيل التحديد فان الادارة تهتم بوسيلة التحليل من اجل الكشف عن الحقائق وخصائص المتغيرات التي تتعامل بها او معها . فاذا استطاعت الادارة الفصل بين المتغيرات التابعة أو التي تحت سيطرتها من جانب ، وبين المتغيرات المستقلة أو المؤثرة فيها من جانب آخر ، فانها تكون في موقف أفضل من حيث القدرة على ادراك العلاقات بين تلك المجموعات من المتغيرات واتجاهات تأثيرها على حركة الادارة واحتمالات وصولها الى اهدافها المختارة .

ان ما تسعى اليه الادارة المعاصرة هو التوصل الى مجموعة من الطرق والاتجاهات البديلة التي تعمل بمقتضاها على تجميع وتوجيه طاقاتها ومواردها بحيث يتحقق عن ذلك أنسب درجة من الانجاز في إطار المعطيات والمحددات التي تتعامل في ظلها . والفكر الاداري المعاصر ، في ادراكه لاهمية توليد البدائل ، انما يضع شروطا لما يمكن قبوله منها ، اهمها ان يكون البديل ممكنا او في نطاق قدرات الادارة وطاقاتها ، وان يكون مؤديا الى تحقيق الاهداف المختارة او بعضها .

ويمكن تصنيف البدائل المتاحة للادارة الى صنفين أساسيين هما بدائل المستوى الاعلى Higher Level Alternatives ونقصد بها الاستراتيجيات الكبرى التي تعتمدها الادارة في تحريك مواردها باتجاه الاهداف المختارة ، وبدائل المستوى الادنى ونشير بها الى التكتيك الذي تلجأ اليه الادارة تنفيذا لاستراتيجية معينة .

ويصفة عامة فان الادارة حين تبحث عن البدائل فانها تأخذ في الاعتبار دائما مبدأ التضحية او نفقة الفرصة الضائعة Opportunity Cost الذي تحسب على اساسه التكلفة النسبية للبديل الذي تم اختياره بالقياس الى البدائل التي ضحت بها الادارة حين لم تقرر اختيارها .

ان اختيار البدائل ليس الا وسيلة نحو تحقيق الاهداف المختارة . ولكي يتم هذا التحقيق لابد من استخدام وسيلة أخرى مساعدة هي مجموعات النظم والاجراءات Systems and Procedures التي يتم من خلالها تحويل البدائل الى انشطة تفصيلية تترابط في علاقات منطقية وتتناسب في مرونتها او ثباتها النسبي مع طبيعة كل بديل . وتعتبر عملية تصميم النظم Systems Design واحدة من أحدث وأهم الاساليب الادارية التي زاد اعتماد الادارة المعاصرة عليها لضمان الانجاز السليم عند الحد الادنى من الجهد والوقت والتكلفة . وقد اكتشف الفكر الاداري المعاصر فعالية عمليات التنميط Standardization والروتينية Routinization باستخدام مستحدثات التكنلوجيا المعاصرة وأهمها الحاسبات الالكترونية خاصة في تنفيذ البدائل المتكررة أو المستقرة Routine . لذلك فان الادارة المعاصرة تصر على قيام كيان تنظيمي متخصص في دراسة وتحليل النظم System Analysis.ان البدائل والنظم تزداد فعاليتها عندما يتم تنسيقها في اطار متكامل يضم عناصرها في تكوين متناسق من الخطط والبرامج . ويعتبر التخطيط الاداري الشامل [٤] Com-prehensive Management Planning وسيلة هامة لاحداث التجميع والتنسيق نحو الغايات المستهدفة . ويميل الفكر الاداري المعاصر الى تصور العملية التخطيطية الشاملة في اطار مفهوم النظم حيث تتولد لدى الادارة معلومات واحداث مختلفة تمثل المدخلات في نظام التخطيط . ومن ثم تتم جهود تخطيطية تترجم تلك المعلومات والاحداث الى هيكل متناسق من الخطط والبرامج كما يتضح من الشكل التالي رقم (١) .

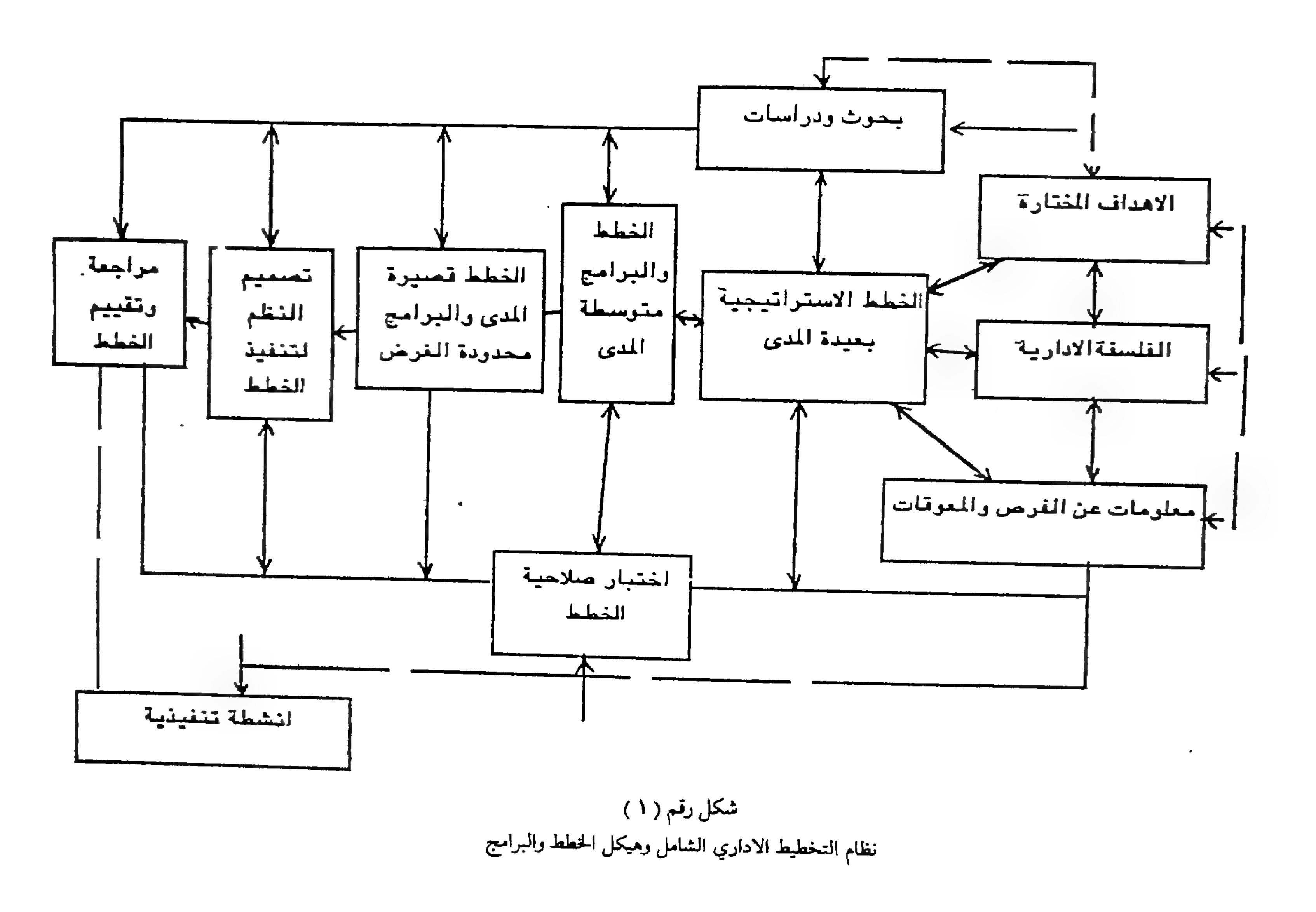
وتكتمل الوسائل الادارية باستخدام المتابعة والتقييم الشامل للاداء والانجازات . ويرى الفكر الاداري المعاصر ان تقييم الاداء هو استقرار دلالات ومؤشرات المعلومات الناتجة عن حركة التنفيذ لكي يتم الحكم على مدى الكفاءة في تحقيق الاهداف المختارة والكشف عن مجالات التخلف او الانحراف في التنفيذ والعمل على تصحيحها وتقويم مسار الانشطة بالتنظيم .

ان التقييم في تصورنا هو وسيلة حركية مستمرة تصاحب تدفق الأنشطة الادارية في توافق زمني يسمح للادارة باكتشاف احتمال انحراف الأداء عن مستوياته المستهدفة ، ومن ثم يمكنها من تصحيح وتطوير أساليب العمل لتأمين الوصول إلى الأهداف المختارة .

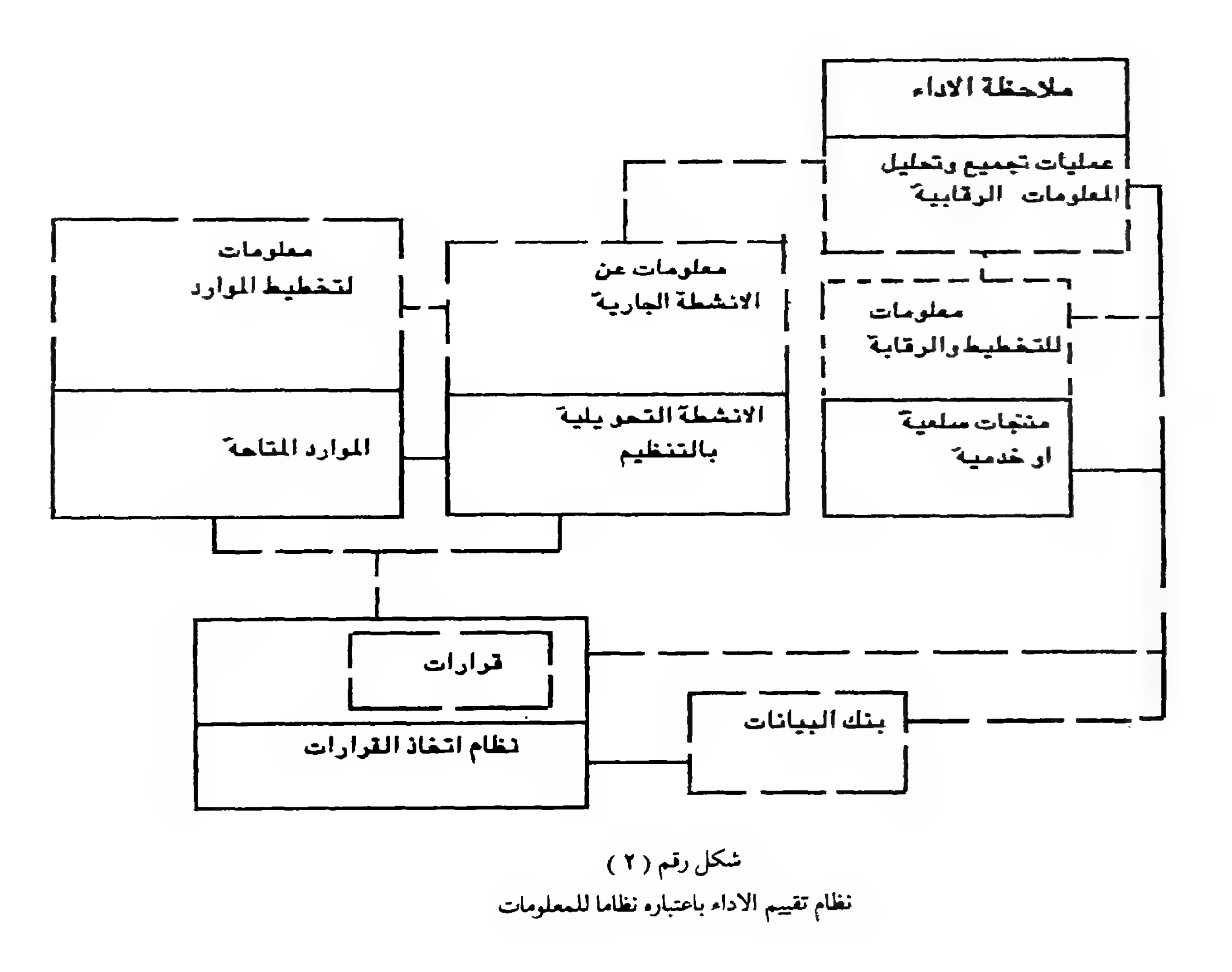
ويميل الفكر الاداري المعاصر إلى اعتبار وسيلة التقييم الشامل عنصرا مترابطا مع نظام المعلومات المتكامل في التنظيم كما يتضح من الشكل التالي رقم (٢) .

---

(٤) Steiner, G.A. Top Management planning N.Y.: The Macmillan Co., 1969



شكل رقم (١)
نظام التخطيط الاداري الشامل وهيكل الخطط والبرامج



شكل رقم (٢)
نظام تقييم الاداء باعتباره نظاما للمعلومات

٤/ ٤ القرار

تتبلور المعلومات الواردة للادارة عن المتغيرات التى تتعامل معها في مجموعة من البدائل ، وبالتالى يبدأ التحدى الأساسى للادارة وهو اتخاذ قرار لكى يتم اختيار بديل (أو بدائل) لترجمته الى فعل وسلوك من أجل تحقيق الانجاز المستهدف وفقا لعدد من القواعد والمعايير .

وتتفاوت عملية اتخاذ القرارات في صعوبتها تبعا لتعدد البدائل المطروحة للاختيار وبحسب تداخل العوامل والمتغيرات المتفاعلة في الموقف وبناء على ذلك سنجد حالات كثيرة تصل فيها الادارة الى قرار ومن ثم تتم الاستجابة في وقت قصير نسبيا قد يبدو احيانا وكأنه رد فعل تلقائي أو آلي للمثير الخارجي . تلك هى القرارات الروتينية التى اعتمدتها الادارة واختبرت نتائجها ووجدتها في صالحها ومن ثم تميل الى تكرارها كلما تهيأت الظروف . وهناك حالات أخرى يطول فيها الوقت الذى تستغرقه الادارة في الوصول الى قرار حيث تكون المشكلة موضوع البحث جديدة في نوعها لم تألفها الادارة بعد ، أو حيث ترتفع درجة تعقيدها .

ان اتخاذ القرارات في الفكر الادارى المعاصر هو عملية عقلانية بالدرجة الأولى تخضع لقيود ومتطلبات تفرضها البيئة المحيطة من جانب ، وتنبع من طبيعة عمل الادارة وأوضاعها من جانب آخر . واتخاذ القرار بهذا المعنى هو نشاط مستمر يعتمد على كل المعلومات المتاحة عن الفرص والمعوقات في المناخ المحيط ، ثم استنادا الى معايير للاختيار يحددها النظام لنفسه ، تبدأ عملية البحث عن السبل المختلفة (البدائل) التى يتمكن من خلالها النظام ان يفيد من الفرص المتاحة أو يتجنب المعوقات القائمة أو المحتملة . وحين تكتشف الادارة البدائل الممكنة فإنها تخضعها لعملية مقارنة بحثا عن ذلك البديل الذى يحقق لها هدفها بأعلى كفاءة ممكنة (في اطار حد الاشباع) .

ان القرار كما تبين لنا من التحليل السابق هو اختيار لطريق أو سبيل معين تتخذه الادارة للوصول الى هدف مرغوب ، فهو بهذا المعنى اذن انحياز الى جانب نمط سلوكى محدد دون غيره . والأصل في القرار انه وسيلة الى تحقيق الأهداف والمنافع التى تسعى اليها الادارة أو تجنب الأضرار التى تتوقعها .

ان اتخاذ القرارات يتمثل في عملية مستمرة متدفقة وهى ، وان لم تكن واضحة وظاهرة ، الا انها توجد طالما كانت الادارة في موقف يحتم عليها الاختيار .

٤/ ٥ السلوك الانساني

يحتل السلوك الانسانى مكانا بارزا في الفكر الادارى المعاصر باعتباره احد الدعائم التى تستند اليها الادارة ومن ثم المحدد لكفاءتها وفعاليتها . ولقد كان التفسير السليم لأثر السلوك الانسانى في الادارة موضوعا للجدل والخلاف في

تاريخ الفكر الاداري ولكن الفكر الاداري المعاصر بتأثير من العلوم السلوكية النامية ، قد تبنى موقفا واضحا في هذه القضية يتناسب مع نظرته للادارة باعتبارها نظاما مفتوحا ، ففي هذه الحالة يعتبر السلوك الانساني أحد المدخلات الرئيسية في نظام الادارة ، ومن ثم فهو عامل هام في تحريك الأنشطة والاستجابات الادارية وتحديد ناتج عمل الادارة .

ومن زاوية أخرى فإن رؤ ية الفكر الاداري المعاصر للانسان في الادارة هي رؤ ية شاملة ومتكاملة تتجاوز الفرد الى الجماعة ، وتضع الجماعات في إطارها الاجتماعي والحضاري العام . فالسلوك الانساني بالنسبة للادارة هو هدف ووسيلة في ذات الوقت .

فمن حيث هو هدف نجد الادارة تعمل على تغيير سلوك العاملين والمتعاملين معها حتى تحقق أهدافها المختارة . كذلك فإن وسيلة الادارة الأساسية في أحداث هذا التغيير هو السلوك الانساني ذاته لفئة من الأفراد يتولون قيادة التغيير Change Agents .

ان الانسان الفرد في النظام الاداري هو شاغل لدور معين Role وبالتالي فهو مطالب بالالتزام بأنماط سلوكية محددة تتوافق مع أبعاد الدور الاداري الذي يشغله . ان سلوك الفرد يتحدد استجابة لعديد من المؤثرات الواردة إليه من داخل وخارج التنظيم الاداري . وكما أن الانسان يسترشد في اختياراته بالمعايير السلوكية التي تفرضها الادارة ، فإنه يتأثر بنتائج خبراته وتجاربه ورؤ يته الخاصة بالموقف التنظيمي الذي يوجد فيه وما تسنح له فيه من فرص وما يفرض عليه فيه من قيود .

والادارة المعاصرة تدرك احتمال ان تنشأ تناقضات بين أنماط السلوك العادية أو المفضلة للأفراد من ناحية وبين النمط السلوكي الذي يتوافق مع أهدافها من ناحية أخرى ، وهذا ما يخلق بالنسبة لها مشكلة سلوكية تعمل على حلها .

وتعتمد الادارة المعاصرة مجموعة مفاهيم متكاملة عن السلوك الانساني واثره في عملها يمكن تركيزها فيما يلي :

- حيث أن الادارة عملية مستمرة لتحقيق أهداف محددة باستخدام الجهد البشري وبالاستعانة بالموارد المادية المتاحة فإنها تدرك ان دور العنصر البشري في العمل الاداري يزيد في أهميته بكثير على غيره من الموارد المادية .

- تتبلور وظيفة الادارة المعاصرة في التركيز على دور القيادة الادارية في تهيئة المناخ المساعد على حفز الأفراد للعمل من أجل تحقيق الأهداف العامة للتنظيم وأهدافهم الشخصية وان الوظيفة الرئيسية للمدير ليست فقط تجميع الموارد المادية اللازمة لتحقيق الأهداف ، بل أيضا خلق المناخ الفكري الملائم .

- ان إلمام المدير بعلوم السلوك الانساني ضرورة لا تقل أهمية عن إحاطته بالجوانب الفنية لعمله .

ـ يلعب السلوك الانسانى دورا مؤثرا في كافة مراحل العملية الادارية حيث يتم العمل الادارى كله من خلال تفاعل المديرين مع مساعديهم والعاملين معهم من الأفراد .

ـ ان السلوك الانسانى محصلة للتفاعل بين صفات الفرد وخصائصه من ناحية ، وبين صفات الموقف وطبيعة الظروف المحيطة بالانسان من ناحية أخرى ، كما تتفاعل القدرة على العمل مع الرغبة فيه لتحدد مستوى مساهمة الفرد في تحقيق أهداف الادارة .

وبذلك يمكن تحقيق نتائج ادارية أفضل من خلال محاولات التأثير على أى من المتغيرات الآتية :

* التأثير في صفات الفرد وخصائصه من حيث القدرات والمهارات التى يمتلكها وذلك بالتعليم والتدريب .

* التأثير في رغبات الفرد ودوافعه للعمل من خلال تطبيق نظم للحوافز المادية والمعنوية تحفزه الى بذل مزيد من الجهد في الاداء .

* تحسين العوامل الفنية المتاحة للعمل ، وتعديل الظروف المحيطة بالانسان في عمله .

ومن المعلوم ان السلوك الانسانى يتخذ أوضاعا ثلاثة محتملة هى التعاون أو التناقض مع أهداف الادارة أو الوقوف على الحياد . ويعتبر السلوك الحيادي أخطر أنواع السلوك نظرا لعدم وضوح اتجاهه بالنسبة لأهداف الادارة ، ويستخدم تعبير المشكلة السلوكية للدلالة على وجود تباين بين نمط السلوك الذى تفضله الادارة وبين السلوك الفعلى الذى يصدر عن الانسان . ويكون علاج المشكلة السلوكية بتجاهلها أو محاولة فرض السلوك المرغوب بالقوة ، ولكن الحل الأمثل هو التوفيق بين أهداف الفرد وأهداف الادارة وبالتالى بين السلوك الفعلى والسلوك المستهدف .

٤/٦ القيادة الادارية :

القيادة الادارية هى العمل باستمرار للتأثير في الأفراد واقناعهم بقبول العمل من أجل تحقيق أهداف المنشأة وفقا للأسلوب الذى يحدده القائد . والقائد الادارى الناجح يستطيع عادة اذابة الخلافات وحل التناقض بين أهداف الأفراد وأهداف المنشأة ، وذلك بما يتمتع به من مهارات وقدرة على التأثير والتوجيه . وهناك أنماط قيادية (أو توجهات للقيادة الادارية) لكل منها مزاياها ومساوئها ، أو مناسبات استخدامها أو تجنبها . هذه الأنماط هى :

* الموازنة بين مطالب وضرورات الانتاج والعمل من ناحية ، ومطالب الانسان ورغباته وميوله من ناحية أخرى .

* الاهتمام بالجانب الانسانى للعمل وترك مطالب وضرورات الانتاج باعتبار انها ستراعى تلقائيا .

* الاهتمام بالعمل والتركيز على ضرورة الوفاء بمتطلباته وضروراته ، وهذا هو الأصل والأساس فالقيادة الادارية هى في الأساس عملية انسانية ، هى علاقة بين البشر .

مهارة القيادة :

المدير . . . قائد Leader المدير . . . . مصدر للتأثير Influential هذه الأوصاف تصف حقيقة الدور الذى يلعبه رجل الادارة في المنشأة الحديثة ، وهى كذلك تصف مهاراته الأساسية . فالقيادة الادارية هى التأثير الفعال في الآخرين ليعملوا حسب مايريد القائد .

ولكى نتفهم مهارة القيادة الادارية دعنا نتأمل بعض المواقف التى يجد المدير نفسه فيها :

* المدير العام المشغول الذى يعاونه عدد قليل من المساعدين كل منهم يأتى إليه بالمشاكل والمعضلات طالبا البحث عن حل لها .

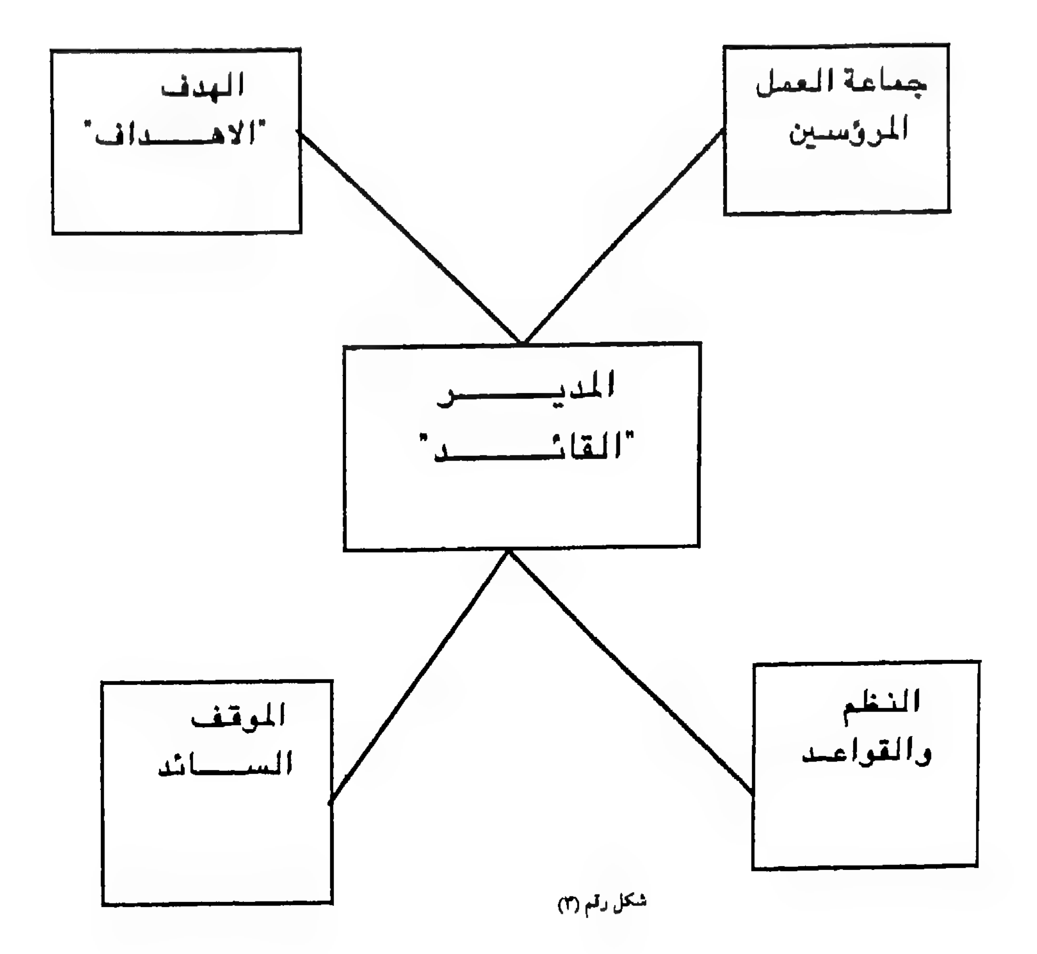
* مدير الادارة الذى يرأس مجموعة من الموظفين المتخصصين الذين خدم كل منهم في المؤسسة لمدة أطول من مدير الادارة ذاته .

* صاحب المؤسسة التى أقامها على كتفيه ويدير كل صغيرة وكبيرة فيها ويرأس مباشرة سبعين أو أكثر من الموظفين العاملين بالمؤسسة .

* المدير المسؤل الذى يحب التغيير والابتكار ويتحمس للأفكار الجديدة ويجعل العاملين تحت رئاسته يلهثون لملاحقته في أعماله وتصرفاته .

* المدير العام الذى لا يستطيع اتخاذ قرار الا في ظل الأزمة ويسعى الى كسب تعاون مرؤوسيه للخروج من تلك الأزمات .

وفي جميع المواقف السابقة يمكن أن نتبين عناصر القيادة الادارية التى يعبر عنها الشكل الآتى رقم (٣)- :


الهدف
"الاهـــــداف"
جماعة العمل
المرؤسـين
المديـــــــر
"القائــــــــد"
الموقف
الســـــائد
النظم
والقواعـد

شكل رقم (٣)

ـ القائد : LEADER

من أهم عناصر القيادة القائد ذاته ، خبراته السابقة ، أهـدافه ، طمـوحاتـه ، تكوينـه الشخصى ، تأهيله العلمى ، قدراته ومؤهلاته ، أساليبه في العمل واتجاهاته بالنسبة للآخرين .

ـ جماعة العمل : THE WORK GROUP

ان المرؤوسين هم عنصر هام في عملية القيادة اذ ان تركيب الجماعة ، وتكوين أفرادها الشخصى وخبراتهم وتحيزاتهم ودوافعهم تتفاعل مع بعضها من ناحية ، كما تتفاعل مع شخصية القائد من ناحية أخرى .

ـ الموقف : THE SITUATION

يتعامل القائد مع مرؤوسيه في ظل مواقف محددة تتسم بظروف وتسودها.مشكلات أو معوقات ، كما تتوفر فيها فرص تفرض نفسها على طبيعة العلاقات بين القائد والتابعين .

ـ النظم والقواعد : SYSTEMS & REGULATIONS

لا يتعامل المدير مع المرؤوسين في فراغ ولا تسرى عليهم أو بينهم شريعة الغاب ، ولكن هناك نظم وقواعد موضوعية مصدرها الادارة ذاتها أو الدولة ، وفي ضوء هذه النظم والقواعد وعلى هداها تتحـدد العلاقـات ويحدث التأثير .

ان القيادة هى مجموعة من السلوك المتبادل بين القائد ومرؤوسية هدفها التأثير على العـاملين لتحقيق أهداف الادارة . ولكن ماهى وسائل التأثير المتاحة للقائد الادارى ؟

يستطيع المدير ان يؤثر في مرؤوسيه (بمعنى ان يدفعهم الى العمل والاداء بالأسلوب والمستوى الذى يرغبه هو) باستخدام أى من وسائل التأثير الآتية : (بعضها أو كلها بحسب الموقف) :

* استخدام السلطة الرسمية التى يخولها له منصبه (كل مدير له سلطات رسمية منصوص عليها في بطاقة وصف الوظيفة أو محددة في عقد التوظيف

* التأثير في المرؤوسين باستخدام وسيلة للحوافز المالية سواء ايجابا (منح مكافآت مالية) أو سلبا (الحرمان من المكافأة أو العلاوة مثلا) .

* التأثير في المرؤوسين بما يتمتع به المدير ذاته من خبرة ومهارة وكفاءة (الكل يدرك انه رجل يعلم ويفهم ما يفعله الآخرون) .

* التأثير في المرؤوسين باستخدام سلاح العواطف (الحب والكراهية) .

* التأثير على المرؤوسين بقوة القهر والاجبار . أى استخدام النفوذ الشخصى للمدير لإجبار الأفراد على السلوك بالطريقة التى يرضاها القائد حتى ولو بدون رضاهم .

أنماط القيادة :

من الواضح ان المديرين (القادة) يختلفون في أساليبهم القيادية . وقد اتفق كثير من الدارسين لهذا الموضوع انه يمكن التمييز بين ثلاثة أساليب (انماط) قيادية :

ـ النمط المتحفظ : CONSERVATIVE

* يعتقد القائد انه الرئيس وبصفته هذه فهو الذى يتخذ القرارات .

* يعتقد انه المسئول الأساسى عن العمل .

* يضع تفاصيل العمل ، ويوزع المهام تفصيليا على المرؤوسين .

* يلاحظ الأداء تفصيليا ويباشر بنفسه متابعة تقدم تفاصيل العمل التنفيذية .

* يستخدم التعليمات والأوامر الكتابية الرسمية كوسيلة أساسية في الاتصال بالمرؤوسين .

* يستخدم أساليب الجزاء والثواب المادى كوسيلة لحفز العاملين على الاداء .

* يميل القائد المتحفظ الى الاعتقاد بانه لولا تدخله الشخصى فسوف يعمد الأفراد الى التهاون والتكاسل وانه لابد من الرقابة الحازمة للعمل .

- النمط المتحرر LIBERAL

* يعتقد القائد المتحرر ان واجبه الأساسى هو خلق مناخ العمل الذى يساعد الأفراد على أداء واجباتهم من خلال مبادراتهم الذاتية واعتمادا على جهودهم الخلاقة .

* يعتقد ان دوره يتلخص في التفاصيل التنفيذية ويميل بالتالى الى تفويض السلطات للعاملين .

* يعتقد ان الحوافز المرتبطة بتنمية الفرد (التدريب ، الترقية ، تحمل مسئوليات عمل جديد) اجدى من التهديد بالعقاب .

ومن ثم فإن القائد المتحرر يباشر عمله كالآتى :

* يشرك المرؤ وسين في اتخاذ القرارات .

* يوفر للعاملين معلومات كاملة عن العمل وظروفه الجيد منها والسيء .

* يراقب الحالة المعنوية للمرؤ وسين ويحاول دائما تحسينها .

* يشاور ويدرب ويعمل على تنمية مرؤ وسيه .

* يحاور ويحادث مرؤ وسيه .

- النمط المرن SITUATIONAL

وهنا نجد القائد لا يتمسك بنمط قيادى ثابت ، وانما يغير أساليبه القيادية ووسائله في التأثير على المرؤ وسين بحسب الموقف والظروف السائدة . وقد أوضحت الدراسات والتجارب في الادارة المعاصرة ان لكل من الأنماط السابقة مزاياه وعيوبه ، وان أفضلها النمط المرن الذى يتناسب ويتلاءم مع المواقف المختلفة ولا يتجمد عند اسلوب ثابت .

ولقد اتضحت بعض أساسيات القيادة الادارية الناجحة الفعالة نوردها فيما يلى :

* القيادة الناجحة تصل الى إحداث التأثير المطلوب من خلال فهم الناس والظروف المحيطة بهم .

* ليست هناك سمة محددة تميز القائد الادارى الناجح أهم من قدرته على ادراك وفهم طبائع البشر والتكيف مع الظروف المحيطة .

* لابد للقائد الادارى الناجح من سلطة أو قوة يعتمدها في التأثير على الأفراد ومصادر السلطة أو القوة متعددة ، أهمها اقناع الأفراد بقدراته ورغبتهم في الاستجابة له .

* يستطيع القائد الاداري دائما ان ينقل محل تركيزه واهتمامه من الفرد الى العمل وبالعكس . ولكن القائد الناجح هو الذي يتمتع بالقدرة على تنويع اسلوبه القيادي واختيار الأسلوب الأنسب لكل موقف .

* من المفيد للقائد الاداري ان يركز على العمل حين تكون الظروف غير مواتية ، وعلى العكس فإن التركيز على العلاقات مع الأفراد يصبح النمط القيادي الأفضل حين تكون الظروف مواتية .

٤/٧ مواجهة التغيير

* التغيير أمر محتم إذ لا شيء يمكن ان يثبت على حال واحد بصفة دائمة ، ومن ثم فإن الادارة تحوطها باستمرار عوامل التغيير الذي يفرض على الادارة ان تتحرك لتواجه الأوضاع الجديدة وتعيد ترتيب الأمور بحيث :

- تستفيد من عوامل التغيير الايجابي .

- تتجنب (أو تقلل) من عوامل التغيير السلبي .

ويشمل التغيير كل شيء في مناخ العمل ـ تقريبا ـ فالأوضاع الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية ، ظروف السوق والمنافسة ، الوسائل والأساليب الفنية في الإنتاج ، رغبات الناس وقدراتهم . . . كلها تخضع للتغيير ، وبالتالي تؤثر على أداء المنشآت .

والتغيير ـ مهما بدا بسيطا ـ يتمثل في أحد أمرين :

- فرصة جديدة للادارة .

- قيد جديد على حركة الادارة .

وقد أوضحت دراسات الادارة المعاصرة ان على الادارة الواعية ان تتحسب للتغيير ، وتعد لاستثمار الفرص الجديدة ، وتتجنب آثار القيود مع الأخذ في الاعتبار الحقائق الآتية :

* التغيير CHANGE هو تحول في وضع معين عما كان عليه من قبل ، وقد يكون التحول في الشكل ، أو النوعية ، أو الحالة .

* والتغيير ظاهرة مزدوجة ، فقد يحدث التغيير بسبب عوامل خارجية ، كما يحدث بسبب عوامل ذاتية . وتختلف الأساليب المتاحة للادارة في مواجهة التغيير ومنها :

* الأسلوب التقليدى والذى يتمثل في محاولة سد الثغرات أو ترميم الاضرار التى يسببها التغيير مثال : تواجه المنشأة بظهور منافس جديد وانخفاض مبيعاتها فتحاول تصحيح الموقف بإجراء تخفيض في أسعارها . فالأسلوب التقليدى دفاعي في طبيعته ، ويتخذ شكل رد الفعل أى ان الإدارة تنتظر حتى يحدث التغيير ثم تحاول بعد ذلك البحث عن وسيلة للتعامل مع الأوضاع الجديدة .

وحين اعتماد الأسلوب التقليدى تكتفى الادارة بمحاولة التخفيف من الآثار السالبة الناشئة عن التغيير ، ولكنها تفشل في الاستفادة من الفرص الجديدة التى يتيحها التغيير .

* أما الأسلوب الأفضل في مواجهة التغيير فيكون عن طريق توقع التغيير (التنبؤ) والاعداد المسبق للتعامل مع الظروف الجديدة ، ومن ثم يمكن تحقيق نتائج أفضل . فالأسلوب الحديث هجومى في طبيعته ، وفيه تبادر الادارة بإتخاذ اجراءات وقائية (لمنع التغيير المتوقع أو تجنبه) أو مبادرات من جانبها (للاستفادة من التغيير حين يحدث) .

ان استخدام الأسلوب الحديث في مواجهة التغيير يتطلب مقومات أساسية في تنظيم المنشآة وادارتها أهمها :

* نظام جيد لجمع البيانات الداخلية والخارجية ذات الصلة بمجالات عمل المنشأة .

* نظام جيد لتحليل مؤشرات الأداء للمنشأة ورصد المؤشرات العامة الدالة على احتمالات التغيير .

* نظام جيد لاتخاذ القرارات بسرعة وحسم في مواجهة التغيير المنتظر .

ومن محصلة خبرات وتجارب الادارة المعاصرة يمكن تركيز النصائح التالية للمدير في كيفية التعامل مع المتغيرات :

- كن سباقا ، للتعرف والمبادرة ، Be pro-active,not re-active ولا تركن الى مجرد الاستجابة للتغيير بعد حدوثه .

- كن مستعدا للطوارىء ، اعتبر الطوارىء أمرا طبيعيا محتمل الحدوث ، وليس كارثة غير عادية .

- أدخل التغيير المستهدف على جرعات متوالية ، لا تستخدم أسلوب الصدمة في فرض تغييرات شاملة دفعة واحدة .

- اجعل مساعديك ومعاونيك على بينة من احتمالات التغيير ، دعهم يتوقعون التغيير ويساهمون في احداثه بالصورة التى تحقق أهداف المنشأة .

- الخوف من التغيير سمة انسانية ينبغى قبولها والتعامل معها .

٥ ـ مقومات النجاح الادارى

ان الادارة المعاصرة بمفاهيمها المتطورة وأساليبها المتقدمة لا تتبدى آثارها في الواقع الا من خلال أداء متميز لرجال الادارة ، ومن ثم فإن نجاح الادارة في تحقيق أهدافها يتوقف الى حد بعيد على ممارسات المديرين أنفسهم . ولو أردنا تلخيص كل ماسبق في هذه الدراسة من زاوية المقومات الواجب توافرها كى ينجح المدير في عمله ، ومن ثم تنهض الادارة عموما فانه يمكن حصر تلك المقومات في الآتى :

* عدم الاقدام على أى عمل الا في ضوء خطة مدروسة دراسة جيدة .

المديرون لا يبدأون عملا من فراغ ، ولكنهم يحددون أهدافا واضحة ، ويفكرون في أنسب الطرق والأساليب المساعدة على تحقيق الأهداف .

* ضرورة تدبير الموارد اللازمة للعمل وتنظيم استخدامها وفقا لقواعد محددة .

يحتاج العمل ـ أى عمل ـ الى استخدام طاقات وموارد ، أهمها المورد البشرى . لذلك فالمدير يحدد احتياجات العمل من هذه الموارد ويوفرها وينظم استخدامها . وعلى سبيل التخصيص يحظى المورد البشرى ـ الأيدى العاملة ـ بأهمية خاصة من المديرين ويعتبر التنظيم الذى يحدد علاقات العاملين ويرتب اختصاصاتهم ومسئولياتهم من أهم عناصر النجاح للمديرين .

* احترام المساعدين والاستفادة من طاقاتهم الخلاقة .

المديرون هم في الحقيقة خبراء في العلاقات الانسانية يعرفون كيف السبيل الى اقناع الأفراد ، وتحفيزهم للعمل والعطاء ، انهم لا يتعاملون مع العاملين على انهم آلات تؤدى أعمالا روتينية وفقا لتعليمات الادارة ، بل بالعكس فهم ينظرون الى العامل على انه إنسان خلاق له طاقات وقدرات يمكن ان تسهم في انجاح المنشأة لذلك يجب استثمارها وتوجيهها بشكل ايجابى منتج .

* المتابعة وعدم ترك الأمور للمصادفات

المديرون لايضعون الخطط ثم ينسونها ، أوكما يقال (يضعونها في الادراج) ، بل هم يراقبون التنفيذ ويتابعون الانجازات ، وبشكل مستمر ومنظم يقيسون ما تحقق من نتائج ويقارنونها بالأهداف الواردة في الخطط .

الرقابة والمتابعة اذن هى من واجبات المدير حتى يستطيع - أولا بأول - ان يكشف أى قصور في الأداء أو انحراف في التنفيذ ، ويعمل على تحليل اسبابه والبحث عن سبيل علاجه حتى يضمن - في النهاية - ان يحقق الأهداف التى حددها لنفسه .

فالمديرون اذن يقيمون صلة مستمرة مع العمليات ولا ينعزلون عن مجرى الأحداث في منشآتهم .

* مواجهة المشاكل واتخاذ القرارات :

الادارة كما عرفها الكثيرون هى « حل المشاكل » وعليه فان يكون للمدير أسلوب في « حل المشاكل » معناه انه يزيد من قدراته على تحقيق الأهداف والوصول الى أفضل النتائج .

وحل المشاكل لا يأتى عفوا أو عشوائيا ، ولكنه يحتاج الى منطق في تحديد المشكلة ووصفها بدقة ، واساليب لتحليل المشكلة الى مكوناتها وأجزائها المتشابكة ، وقدرة على تمييز المشكلة الحقيقية من المشكلات الفرعية ومهارة البحث عن البدائل وأخيرا معيار اختيار البديل الأفضل .

* حسن استخدام الوقت

الوقت من أثمن الموارد التى يستخدمها المدير وما ينفق من وقت لا يمكن استرجاعه . والمدير المتميز يدرك ان للوقت نفقة أو تكلفة ، وبالتالى يحاول استثماره الى أقصى حد ممكن ولذلك فهو يبحث دائما عن أساليب العمل التى توفر الوقت TIME SAVER فهم يحققون إنتاجية أعلى في وقت أقل .

* تخطيط المستقبل الوظيفى والتنمية الذاتية

يستند الفرد عادة الى من يأخذ بيده في مسار التقدم الوظيفى ولكن المتميز يرسم لنفسه خط المستقبل ويعمل جاهدا بعلمه وخبرته واجتهاده لكى يصل الى المستوى الوظيفى الذى يتمناه لنفسه ، لذلك نجد المدير المتميز :

- يعلم نفسه بشكل متصل .

- ينمى قدراته ومهاراته بالاطلاع الذاتى .

- يستفيد ويتعلم من خبرات الآخرين .

- يواظب على الاطلاع والتثقيف بكل جديد .

مراجع الدراسه

(١) د . على السلمى ، **الادارة العامة** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ .

(٢) د . علي السلمى ، **الادارة المعاصرة** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

(٣) د . علي السلمى ، **السلوك التنظيمى** ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(4) Archer, M., **Call Yourself A Manager**, Mercury Business Book, 1987

(5) Handy, C.B., **Understanding Organizations**, The Penguin Business Library, Harmondsworth Middlessex, England, Third Edition, 1987

(6) Leigh, A., **20 Ways to Manage Better**, Institute of Personnel Management,IPM House, Canys Road, Wimbledon, London, SW19 4UW

(7) Lock, D., and Farrow, N. (eds.), **The Complete Manager**, Wildwood House Ltd., Gower House, Croft Road, Aldershot, Hants GU11 3HR, 1983.

إداريو التنمية

مدخل لدراسة دور اداريي التنمية واهمية تأهيلهم لتحقيق اهداف التنمية المنشودة على صعيد الوطن العربي

أسامة عبدالرحمن

مقدمة :

أصبح مفهوم التنمية متفقا عليه الى حد كبير بصرف النظر عن الوزن الذي يعطى لكل بعد من أبعاد التنمية فهي لم تعد قاصرة على التنمية الاقتصادية كما كان المفهوم سائدا بل انها تشمل التنمية بكافة أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والادارية والثقافية . وكل هذه الابعاد متلاحمة ومتداخلة ومتأثرة ومؤثرة ومحاولات التنمية فى أقطار الوطن العربي وفي دول العالم الثالث عموما لم تكن ناجحة . والاسباب وراء ذلك متعددة فمفهوم التنمية الفعلية الشاملة ليس مستوعبا ولا مدركة أبعاده ولم تنطلق تلك المحاولات من مفهوم التنمية الصحيح ولم تكن هناك أيدلوجية تنموية أو منهج تنموى واستراتيجية مدروسة لتطبيق تلك الايدلوجية أو ذلك المنهج ولم يكن هناك اهتمام بالتنمية الاجتماعية والادارية والسياسية والثقافية ناهيك عن أنه كان هناك قصور في استيعاب مفهوم التنمية الاقتصادية الذي يتجاوز الاطار الاقتصادي البحت في نسيج متشابك ومتسق مع أبعاد التنمية الاخرى .

ومفهوم ادارة التنمية كذلك ليس مستوعبا ولا مدركة أبعاده فهو ليس مجرد زيادة القدرات الادارية أو رفع مستوى الاداء ولكنه يبدأ من أول نقطة في التنمية الفعلية الشاملة ابتداءا بالتخطيط ووضع الاستراتيجية المدروسة وتحديد الاهداف مرورا بحشد الطاقات والامكانات البشرية والمادية المتاحة واستثمارها الاستثمار الامثل . ويأتي في سياق ذلك زيادة القدرات الادارية والارتقاء بمستوى الاداء والتعبئة المجتمعية من خلال مشاركة فاعلة وكذلك تقييم الاداء ومدى تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة بكافة أبعادها .

ولهذا فان الدراسة لابد وأن تنطلق من إحدى فرضيتين :

الفرضية الاولى : انه في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث عموما يهيمن القرار السياسي من منطلق فردى في أكثر الاحيان هيمنة كبيرة . وفي ظل هذا الوضع فان ادارة التنمية ان كانت تتمثل في أولئك الذين يتسنمون الوظائف القيادية الادارية وكذلك الوظائف الاستراتيجية والحاكمة في الاجهزة الحكومية والمؤسسات العامة فانه يتعذر عليها الى حد كبير حتى المساهمة الملموسة في وضع الايدلوجية التنموية أو المنهج التنموى لان تبني ذلك يعتمد على القرار السياسي . واذا لم يكن المنظور السياسي مستوعبا أو مدركا لاهمية الايدلوجية التنموية أو المنهج التنموى فقد ينقض أو يرفض تلك الايدولوجية وذلك المنهج مع أن نجاحهما يعتمد الى حد كبير ليس على مجرد تبنيهما ولكن على الارادة الجادة المساندة والملتزمة . واذا كانت محاولات التنمية الادارية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث متعثرة وفاشلة عموما فان من الاسباب عدم استيعاب مفهوم التنمية الادارية وادراك أبعاده من قبل المنظور السياسي . وبالطبع فأن عدم وجود الارادة الجادة المساندة والملتزمة أسباب رئيسية وراء تلك العثرات أو ذلك الفشل وهذه الفرضية تمثل الواقع .

الفرضية الثانية : ان القرار السياسي ليس مهيمنا وذلك في حكم الامنية لما ينبغي أن يكون عليه الوضع حتى يتسنى لاداريي التنمية أن يضطلعوا بالدور المرجو منهم ابتداء بالتخطيط ووضع المنهج والاستراتيجية وتطبيقهما من خلال الاستثمار الامثل للموارد المتاحة . بل انه في ظل هذه الفرضية يفترض أن تكون السلطة السياسية مستوعبة لمفهوم التنمية استيعابا واعيا ولديها ارادة جادة ملتزمة ومساندة مستمرة .

ولقد اعتمدت الدراسة على عدد يسير من المراجع وان بدا انها اعتمدت بصورة أكبر على محصلة مؤتمر « تطوير القوى البشرية العربية في مواجهة تحديات العصر » الذي عقد في القاهرة من ١ ـ ٣ مارس ١٩٨٨ وشارك فيه عدد كبير من المهتمين بادارة التنمية والتنمية الادارية .

مفهوم التنمية :

أصبح من المتفق عليه أن التنمية عملية حضارية تمثل نقلة نوعية على الصعيد المجتمعي كله . وهذه العملية الحضارية ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وادارية واجتماعية وثقافية وهي تمثل نقلة نوعية لانها تتجاوز الشكل الى المضمون ويعني ذلك تغييرا جذريا نوعيا يحقق الكيان القوى المعتمد على ذاته اقتصاديا وسياسيا واداريا واجتماعيا وثقافيا . ويذكر جاسم السعدون [1] ان مفهوم التنمية في معظم انحاء الوطن العربي قد اقتصر على استيراد اللفظ من جملة مستورداته المتنامية من الخارج أما المضمون فقد ظل في حكم الامنية التي يتغنى بها بعض المختصين بصرف النظر عن الفلسفة الاقتصادية المعلنة لهذا القطر العربي أو ذاك ثم يستعرض من بين تعريفات التنمية انها عملية مجتمعية واعية وموجهة لايجاد تحولات هيكلية تؤدي الى تكوين قاعدة واطلاق طاقة منتظمة في متوسط انتاجية الفرد وقدرات المجتمع ضمن اطار من العلاقات الاجتماعية يؤكد الارتباط بين المكافأة والجهد ويعمق متطلبات المشاركة مستهدفا

(١) جاسم السعدون ، دور القطاع الخاص في التنمية . ورقة مقدمة الى ندوة تحويل المؤسسات العامة الى القطاع الخاص ، الدار البيضاء ٦ ـ ٨ ديسمبر ١٩٨٨ ص٣ .

توفير الاحتياجات الاساسية موفرا لضمانات الامن الفردى والاجتماعي والقطرى[٢] . ويضيف مقولة ليوسف صايغ ؛ بأن التنمية العربية لكي تندفع بقوة وثبات لابد لها من الاعتماد على قواعد اقتصادية سليمة تتطلبها عملية النمو المتصل ولكنها بالاضافة الى ذلك تحتاج الى ركائز ثلاث هي زوايا المثلث الحرج وزوايا ذلك المثلث الحرج هي :

- الحرية والتعبير الديمقراطي عن الإرادة العامة .
- العدالة الاجتماعية والاقتصادية
- الوحدة بين الاقطار العربية وان كانت مرحلية تبدأ بالتعاون مرورا بالتكامل والاندماج ثم الوحدة[٣] .

وهناك عدد من المفاهيم قد يلتقي أو يتداخل أو يستوى مع مفهوم التنمية ومن هذه المفاهيم التقدم والتطور والتحديث . وقد درج الوضع في بعض الاقطار العربية على إيثار مصطلح الانماء على مصطلح التنمية على اعتبار أن الانماء يعبر عن الاتجاه القصدي في التنمية بينما ينسحب مصطلح التنمية على العملية ذاتها . وبالطبع فان المسألة ليست ايثار مصطلح على آخر وانما هي مسألة المضمون الجوهري الذي يستهدف الرقي الحضاري في كافة الابعاد ويجد طريقه للتطبيق من منطلق إرادة جادة وإدارة كفية . ويرى البعض أن التنمية أو الانماء لا يعبران بالضرورة عن الواقع المقصود في الدول النامية حيث الحاجة الى التغيير الجذري في أوضاع متخلفة بينما التنمية في الدول المتقدمة هي تنمية لاوضاع لاتعد متخلفة[٤] . ومن المعروف أن التنمية في الدول النامية عموما يفترض أن تتلمس نقطة البداية الصحيحة لانطلاقه تكسر أطر التخلف المتعددة وهي تواجه العديد من العقبات والتحديات بينما التنمية في الدول المتقدمة تكاد تتم بصورة تلقائية بعد أن حققت تلك الدول الانطلاقة منذ أمد طويل نسبيا وتجاوزت في مسار التنمية آفاقا بعيدة مما زاد الفجوة كثيرا بينها وبين الدول النامية .

ولهذا فان التنمية بالنسبة للدول النامية في حد ذاتها تمثل تحديا مصيريا في عالم تسير فيه الدول المتقدمة حثيثا وبسرعة على مسار التنمية الى آفاق أبعد مرسخة بذلك هيمنتها على الانتاج والتكنولوجيا بصورة خاصة بينما الدول النامية مستهلكة أكثر بكثير مما هي منتجة وبعيدة عن امتلاك ناصية التكنولوجيا وهي تمثل التحدي المستقبلي الكبير بين تحديات التنمية . ومع ازدياد الفجوة بين الدول المتقدمة والنامية تزداد هيمنة الاولى ويزداد انكشاف وتبعية الثانية .

إدارة التنمية :

رغم تعدد تعريفات ادارة التنمية فانها تعني ادارة وإرادة التغيير والتطوير والتحديث للارتقاء بمستوى الاداء والانتاجية والاستثمار الأمثل للطاقات البشرية والامكانات المادية في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة .

---

(٢) نفس المرجع ، ص٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص٣ .

(٤) جمال البنا «التنمية ومشتقاتها» مجلة العمل العربية ، نوفمبر ١٩٧٥ ، ص ١٧٧ .

وبالطبع فان ادارة التنمية تعني الاجهزة الحكومية والمؤسسات العامة والشركات العامة وكذلك القطاع الخاص ذات العلاقة بتخطيط وتنفيذ برامج التنمية كما تعني نشاط هذه الاجهزة والمؤسسات والشركات وكذلك الافراد الذين يتسنمون وظائف القيادة الادارية أو الوظائف الاستراتيجية والحاكمة فيها . ومن المعروف في دول العالم الثالث اجمالا وكذلك على صعيد أقطار الوطن العربي أن الاجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات العامة تتولى مهام ادارة التنمية بصرف النظر عن المنهج السياسي والاقتصادي نظرا لان القطاع الخاص في بعضها غير فعال وفي بعضها الاخر طفيلي وفي كلا الحالين فليس له دور رئيسي في عملية التنمية . ورغم أن الاجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات العامة تتولى مهام ادارة التنمية فهي ليست مؤهلة لأداء هذه المهام بحكم طبيعة البيروقراطية في الاجهزة الحكوميةوأوزارها وأوضارها وبحكم حداثة المؤسسات والشركات العامة أو امتداد أوزار البيروقراطية وأوضارها اليها أو مد المظلة الرقابية عليها والقاسم المشترك بينها جميعا قد يتمثل في عدم انتقاء القيادات الادارية .

وادارة التنمية هي كافة المراحل التي تبدأ من وضع السياسات التي تتصل بتحقيق أهداف التنمية وتحريك وتنظيم واستخدام كافة الموارد المتاحة استخداما أمثل لتحقيق تلك الاهداف والسياسات(٥) . ويعني ذلك أن ادارة التنمية ليست قاصرة على البعد الاداري من بين أبعاد التنمية وتتجاوز كثيرا مفهوم التنمية الادارية وادارة التنمية كمنهج تقوم على ايدلوجية لوضع أولويات التنمية والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية(٦) . ولهذا فان ادارة التنمية لا تبدأ من فراغ كما أنها تتداخل مع كافة أبعاد التنمية من اقتصادية واجتماعية وسياسية وادارية وثقافية بل انها قد تكون شاملة لكل المراحل بدءا بالتخطيط ووضع الاستراتيجيات وتحديد الاهداف ثم الاستخدام الامثل لكل الموارد المتاحة في سبيل تحقيق تلك الاهداف . ويتجاوز هذا المفهوم لادارة التنمية مفهوم التنمية الادارية لانها تعني كافة الانشطة المتعلقة باعداد وتنفيذ وتقويم السياسات والبرامج التي تهدف لاحداث تغييرات اقتصادية واجتماعية (وغيرهما) بينما تعني التنمية الادارية تطويرا في التنظيمات والاساليب والوسائل وزيادة القدرات الادارية(٧) .

ورغم أن تحقيق أهداف التنمية موكل الى الادارة الحكومية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث إجمالا بحكم طبيعة الدور الذي تؤديه نظرا لعدم توفر القطاع الخاص القادر على أداء الدور الأكبر من منطلق قدرته وتوجهه وكفاءة أدائه فان الادارة الحكومية هي التي تتولى هذا الدور الاكبر بصرف النظر عن المنهج السياسي أو الايدلوجية الاقتصادية . وطبيعة الادارة الحكومية وتوجهها يختلفان وقد يتناقضان مع طبيعة التنمية الفعلية الشاملة وتوجهها ذلك أن الادارة الحكومية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث تعتورها الكثير من الاوزار والاوضار وتكاد تكون عاجزة عن أداء مهامها التقليدية بكفاءة ناهيك عن أداء المهام الجديدة التي تقتضيها عملية التنمية الفعلية الشاملة . والادارة الحكومية تكاد تكون كذلك بعيدة كل البعد عن استيعاب مفهوم التنمية الفعلية الشاملة وكذلك عن ادراك

(٥) B. Schaffer, The Administrative Factor, London, Cass (n.d.) p.241.

(٦) فضل الله علي فضل الله : ادارة التنمية ، الامارات العربية المتحدة . صوت الخليج ١٩١ ، ص٤ .

(٧) محمد صادق : التنمية في الاقطار المنتجة للنفط في الجزيرة العربية بين عائدات النفط وادارة التنمية . ورقة مقدمة الى ندوة التنمية في البحرين ٢٤ - ٢٦ ديسمبر ١٩٨٠ ص١٣ .

مقتضيات الدور المفترض أن تؤديه . بل ان الادارة الحكومية بطبيعتها قد تكون مناهضة ومناقضة لاحداث التغيير والمساهمة الفاعلة فيه تخطيطا وتطبيقا ذلك أنها تستمرىء الابقاء على الوضع على ما هو عليه وترسيخ مفاهيمها وتقاليدها البيروقراطية وكذلك نمط السلوك البيروقراطي .

ومن المعروف أن الادارة الحكومية في هذه الاقطار وغيرها من دول العالم الثالث هي ادارة كانت لها مهام تقليدية محددة خلال الهيمنة الاستعمارية المباشرة ، وقد ترك المستعمر هذه الاقطار والدول تحت وطأة التخلف ليس في الادارة الحكومية فحسب ولكن تركها تحت وطأة التخلف بكافة أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والادارية والسياسية والثقافية . وما كان من المنتظر أن يترك المستعمر هذه الاقطار والدول منطلقة في مسار التنمية الفعلية أو قادرة على الانطلاق في ذلك المسار اعتمادا على قدراتها الذاتية وكفاءة أدائها وحسن استخدام مواردها المتاحة لتحقيق أهداف التنمية الفعلية . كما انه ما كان من المنتظر أن يترك الاستعمار هذه الاقطار والدول بادارة حكومية مستوعبة لمفهوم التنمية ومدركة أبعاده وقادرة على أداء الدور المرجو منها في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية . وبالاضافة الى ذلك فانه ما كان من المنتظر أن يترك الاستعمار خلفه في هذه الاقطار والدول قطاعا خاصا ذا توجه إنتاجي تتمثل فيه كفاءة الاداء والقدرة على أداء دور رئيسي في عملية التنمية الفعلية .

ولهذا كانت التحديات التي تواجه هذه الاقطار والدول كبيرة وعظيمة ومتعددة تتمحور حول التنمية الفعلية الشاملة بكافة أبعادها . وكان من المفروض أن تبدأ هذه الاقطار والدول بداية جادة ملتزمة تخرج بها من ردهات التخلف بكافة أبعاده من منطلق ايدلوجية تنموية واستراتيجية محددة وأهداف واضحة وأولويات مدروسة وتعتمد على ادارة التنمية نهجا وأسلوبا ووسيلة من خلال التغيير الجذرى على كافة الاصعدة وفي جميع القطاعات وتأهيل اداريي التنمية الذين يساهمون تخطيطا وتطبيقا فى احداث ذلك التغيير الجذري سعيا وراء تحقيق أهداف التنمية في اطار الايدلوجية التنموية واستراتيجياتها .

مواصفات اداريي التنمية :

ان اداريى التنمية الذين يتسنمون الوظائف القيادية الادارية وكذلك الوظائف الحاكمة والاستراتيجية يجب أن تتوفر فيهم مواصفات معينة منها القدرة على استيعاب مفهوم التنمية الفعلية الشاملة وادراك ابعاد التنمية وتحدياتها وعقباتها من منطلق اقتناع ذاتي وتوجه ذهني راسخ تلتحم معهما ارادة جادة وقدرة على التطبيق والاداء الكفي وتقييم الاداء . ولذلك يفترض باديء ذي بدء أن يكون هناك حسن انتقاء لهؤلاء الافراد على أساس توفر الاستعداد والقدرة لديهم بالنسبة للبرامج التعليمية والتدريبية الخاصة التي تحول ذلك الاستعداد الى ارادة وتحول القدرة من منطلق التوجه الذهني والادارة الى منطلق الاستثمار الامثل لتلك القدرة في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة . وبالطبع فان من أهم المواصفات التي يجب أن تتوفر لدى اداريى التنمية القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف . ومعروف في ظل الاطر السياسية السائدة أنه رغم توفر القدرة لدى اداريى التنمية قد لا يكون القرار قرار

اداريي التنمية ولكنه قرار السلطة السياسية التي قد توافق أو قد تناقض وربما تناهض السياسات والاهداف التي يبلورها إداريو التنمية . كما أنه من بين المواصفات القدرة على الحركة والابتكار والمبادأة وذلك شرط أساسي لكسر الاطر الروتينية والتغلب على المعطيات المناهضة لمسيرة التنمية ولكن الحركة والمبادأة والابتكار تحتاج الى مناخ ملائم لاتيسره الاطر الروتينية وقد تناقضه أو تناهضه السلطة السياسة . وعلى إداريي التنمية أن يتوفر لديهم مع القدرة على الحركة والمبادأة والابتكار القدرة على كسر الاطر الروتينية وتجاوز سدود المناخ غير الملائم لاحداث التغيير المطلوب في كافة الابعاد وكل القطاعات بحيث يكون تغيير المناخ جزءا من إحداث التغيير المطلوب .

كما أنه يجب أن يتوفر لدى إداريي التنمية القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة في وضع تتلاحق فيه المتغيرات والمستجدات على الساحة وذلك عنصر أساسي في أي استراتيجية لاحداث التغيير المطلوب . وبالطبع فان اداريي التنمية يجب أن تتوفر لديهم القدرة على احداث التغيير وان كان ذلك بالامر العسير ذلك أنه لن يكون هناك مجال لاستثمار الادراك الواعي والاقتناع الذاتي والإرادة الجادة وكذلك الحركة والابتكار والمبادأة والقدرة على مواجهة المواقف المتغيرة دون ارادة وقدرة جادة في ذات الوقت على احداث التغيير المطلوب . كما أنه يجب أن يكون لدى اداريي التنمية القدرة على التطوير الاداري وذلك يأتي في سياق احداث التغيير في كافة الابعاد وكل القطاعات بما فيها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والادارية والثقافية . ومعروف ان اداريي التنمية يجب أن تتوفر لديهم القدرة على اتخاذ القرارات الموضوعية من خلال نظم المعلومات المتطورة وكذلك من خلال تقييم المعطيات والمتغيرات والمستجدات على الساحة وأن يكون لديهم القدرة على تطبيق كل ذلك بكفاءة وفعالية تأخذ في الحسبان الاستخدام الأمثل لكل الموارد المتاحة ويجب أن يتبع ذلك تقييم ذاتي لمحصلة التوجه الذهني والاقتناع الذاتي والارادة الجادة والاستخدام الامثل لكل الموارد المتاحة في سبيل تحقيق الأهداف المرجوة من التنمية الفعلية الشاملة .

ان من أهم خصائص ادارة التنمية ما يلي :[٨]

- القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف .
- القدرة على الحركة والابتكار والمبادأة .
- القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة .
- القدرة على احداث التغيير .
- القدرة على التطوير الاداري .

---

(٨) أسامة عبد الرحمن : البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٢ ، ص٢٧ .

ـ القدرة على اتخاذ القرارات العلمية والموضوعية .

ـ القدرة على التنفيذ بكفاءة وفعالية .

ـ القدرة على المتابعة والتقييم الذاتي .

وتتمثل توجهات ادارة التنمية فيما يلى :

ـ بناء القدرة الاقتصادية (وغيرها) الذاتية .

ـ تحقيق الرقي الحضاري .

ـ توفير الرفاه للاجيال القادمة .

أما مقومات ادارة التنمية فهي :

ـ ارادة تنمويه .

ـ أهداف وسياسات محددة .

ـ قيادة سياسية واعية .

ـ قيادة ادارية ذات كفاءة .

ـ قوى بشرية مؤهلة ومدربة .

ـ دعم سياسي فعال .

ـ تفاعل مجتمعي حقيقي .

ـ قاعدة اقتصادية انتاجية .

ويتبين من ذلك أن ادارة التنمية تشمل خصائصها وتوجهاتها ومقوماتها كافة أبعاد التنمية. ولا تمثل التنمية الادارية أو التطوير الاداري الا بعدا واحدا من أبعاد ادارة التنمية فهي المسؤولة عن التنمية الفعلية تخطيطا وتطبيقا

بكل مقتضيات ذلك التخطيط والتطبيق ومتطلباته وأهدافه . ولهذا فان ادارة التنمية هي التي تملك القدرة على بلورة تطلعات المجتمع من خطط وبرامج كما تملك القدرة على تنفيذها بكفاءة وفعالية وتتوفر لديها الارادة التنموية والتصميم والمثابرة على مواجهة التحديات والارتقاء الى مستوى التعامل الكفي مع المتغيرات والمستجدات وكذلك المعطيات والقدرة على تحريك المجتمع من منطلق مشاركته الفاعلة وتطوير رأسماله البشري والمادي واستثماره الاستثمار الامثل الذي يحقق المستوى الحضاري المتطور ذاتيا في كل القطاعات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والادارية والثقافية .(٩)

(١) استيعاب التنمية وتحدياتها :

من المفترض بادىء ذي بدء أن يكون لدى اداريي التنمية استيعاب كامل وواضح للتنمية الفعلية الشاملة وكذلك تحدياتها . وبالطبع فان ذلك الاستيعاب يعني التوجه الذهني نحو أبعاد التنمية وتحدياتها ذلك التوجه المرتكز على اقتناع ذاتي محصلته ارادة جادة حتى يمكن لاداريي التنمية أن يؤدوا الدور المنتظر منهم . ومثل ذلك التوجه الذهني يمكن أن تساهم فيه برامج تعليمية وتدريبية خاصة ولكن يجب أن يكون هناك الاستعداد والقدرة للانصهار في ذلك التوجه الذهني باعتبار التنمية الفعلية الشاملة هي الشغل الشاغل وهي التحدي المصيري في ذات الوقت . ولا يقف الامر عند الاستعداد والقدرة على الانصهار في ذلك التوجه الذهني ولكن يجب أن تكون محصلته ارادة جادة ملتزمة وقادرة في نفس الوقت على الارتقاء الكفي الى مستوى التعامل مع ذلك التحدي المصيري .

(٢) القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف :

يفترض أن يكون من بين أهم مواصفات اداري التنمية القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف ذلك أن هذه السياسات تمثل المنهج الذي تنهجه التنمية في كافة المنطلقات ، كما أن تلك الاهداف هى الأهداف التي يجب أن تحشد لها الطاقات والامكانات المتاحة وهي تمثل أهداف التنمية الفعلية الشاملة . وبالطبع فان بلورة السياسات وتحديد الاهداف يعتمد على استثمار القدرة والرصيد المعرفي الواعي من منطلق الاستيعاب الشامل والمتكامل لمرامي التنمية وغاياتها وعقباتها وتحدياتها . والقدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف يجب أن يكون هناك رصيد منها ذاتي أصلا يضيف اليه الرصيد المعرفي الواعي من خلال البرامج الخاصة بتأهيل اداريي التنمية .

(٣) القدرة على الحركة والمبادأة والابتكار :

ومن القدرات الاساسية التي يجب أن تتوفر في اداريي التنمية القدرة على المبادأة والابتكار حتى يمكن كسر الاطر التقليدية في كافة القطاعات والارتقاء الى مستوى التعامل الكفي مع المستجدات واحداث التغيير والتطوير على

(٩) نفس المرجع ص٢٨ ـ ٢٩ .

كافة الاصعدة . والقدرة على المبادأة والابتكار يجب أن تكون متوفرة مواصفاتها منذ البداية في الذين ينتظمون في البرامج التعليمية والتدريبية الخاصة بتأهيل اداريي التنمية ويكون لتلك البرامج دور في صقل تلك القدرة . وبالطبع فانه يفترض توفر المناخ الملائم للمبادأة والابتكار وان كان من المفروض أن يكون لدى اداريي التنمية القدرة على إحداث التغيير حتى في المناخ إن كان غير ملائم في اطار استراتيجية مدروسة تأخذ المعطيات والمستجدات في الحسبان وتنفذ من خلال القدرة على المبادأة والابتكار من خلال أي منفذ لاحداث التغيير بما في ذلك تغيير المناخ .

(٤) القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة :

ان الادارة على صعيد الوطن العربي اجمالا وكذلك دول العالم الثالث ينبغي أن تؤدي دورها المرجو وان كانت الظروف الذاتية والمحيطة صعبة ومليئة بالمتناقضات والمستجدات . والقدرة على مواجهة المواقف المتغيرة تبدأ أولا بالظروف الذاتية للادارة ارتقاء بقدرتها واداثها حتى تكون بعد ذلك قادرة على مواجهة المستجدات المتلاحقة . ولعل المتناقضات والمستجدات المتلاحقة على صعيد الوطن العربي كبيرة ويجب على اداريي التنمية أن تكون لديهم القدرة للتعامل بمعدل سريع وكفي مع هذه المستجدات المتلاحقة .

(٥) القدرة على احداث التغيير :

يجب ان تتوفر لاداريي التنمية القدرة على إحداث التغيير ذلك أنها جوهر عملية التنمية في كل بعد من أبعادها فالتنمية تغيير الى وضع حضاري متطور والى وضع حضاري أكثر تطورا في سباق مع الزمن وهو تغيير لا يتوقف عند وضع معين . والتغيير يجب أن يكون تغييرا جذريا وليس مجرد تغيير شكلي أو سطحي ذلك أن التنمية نقلة حضارية في نسق متلاحق من نقلة الى أخرى ومثل تلك النقلة الحضارية لا يمكن أن تكون دون تغيير جذري في كافة الابعاد وجميع القطاعات . ولهذا فان القدرة على احداث التغيير قد تكون أكثر القدرات أهمية لان استيعاب مفهوم التنمية بكافة أبعاده وكذلك التحديات التي تواجهها التنمية والاقتناع الذاتي والتوجه الذهني التنموي وان كانت محصلته ارادة جادة لا يحقق الاهداف المرجوة ما لم تكن هناك القدرة على تحويل الارادة الجادة الى ادارة جادة قادرة على احداث التغيير من منطلق استيعابها الواعي واقتناعها الذاتي وتوجهها الذهني التنموي .

(٦) القدرة على التطوير الاداري :

يفترض أن يكون لدى اداريي التنمية القدرة على التطوير الاداري ارتقاء بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة من خلال احداث التغيير الجذري في هياكلها وطرائقها وتوجهها وأنماط السلوك الاداري السائدة ، لأن كل ذلك يمثل القاعدة التي تجعل اداريي التنمية أكثر قدرة على احداث التغيير المطلوب في كافة الأصعدة وجميع القطاعات من خلال دورهم الريادي في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة .

(٧) القدرة على اتخاذ القرارات الموضوعية :

تتقدم الاعتبارات غير الموضوعية في كثير من الأحيان على الاعتبارات الموضوعية في عملية اتخاذ القرار في ظل ظروف وقيم مجتمعية ضاغطة ومحيط يتدخل القرار السياسي فيه الى حد كبير . ولذلك فان دور اداريي التنمية صعب ولكن من منطلق قدرتهم الذاتية وما يضيفه الرصيد المعرفي الواعي لديها يفترض أن يكون بامكانهم اتخاذ القرارات الموضوعية دون تأثير للظروف والقيم المجتمعية الضاغطة كما أن عليهم أن يلتزموا باتخاذ القرارات الموضوعية من منطلق التأثير على وجهة القرار السياسي وان كانت هذه المهمة شائكة .

(٨) القدرة على التنفيذ بكفاءة وفعالية :

ان بلورة السياسات وتحديد الأهداف يعتبران المنهج الذي يجب أن يجد طريقه للتطبيق . وبالطبع فان اداريي التنمية يفترض أن تكون لديهم القدرة من خلال دورهم في بلورة السياسات وتحديد الأهداف في ترجمة ذلك تطبيقا من خلال حشد كل الطاقات والامكانات المتاحة والارتقاء بأدائها لتحقيق الأهداف المحددة بأقل التكاليف وبمستوى مرتفع من كفاءة الأداء . ومعروف أن ذلك يقتضي من اداريي التنمية استقطاب الطاقات البشرية نحو الاستيعاب الواعي للتنمية وأبعادها وتحدياتها والارتقاء بأدائها . ومن نافلة القول التأكيد على أن اداريي التنمية يجب أن تكون لديهم القدرة القيادية .

(٩) القدرة على المتابعة والتقييم الذاتي :

يجب أن يكون لدى اداريي التنمية القدرة على تقييم الأداء تنظيميا ووظيفيا ولا يوجد غالبا في الأجهزة والمؤسسات العامة على صعيد الوطن العربي تقييم للأداء مع ماله من أهمية قصوى للتعرف على مستوى الاداء ومحصلته ومدى تحقيق الأهداف المحددة ومدى حسن الاستفادة من الموارد المتاحة بكفاءة وفعالية . والمتابعة والتقييم الذاتي مكملان لمسيرة التنمية ونهجها ابتداء من بلورة السياسات وتحديد الأهداف مرورا بالتطبيق الكفي والفعال وتقييم محصلة ذلك التطبيق ومستواه .

تأهيل اداريي التنمية :

ان عدد الجامعات على صعيد الوطن العربي اجمالا كبير نسبيا فقد زاد عددها على السبعين في منتصف الثمانينات . وفي كل هذه الجامعات أو معظمها كليات للادارة أو العلوم الادارية أو التجارة بتخصصات في الادارة وتخرج منها رصيد كمي كبير نسبيا ولكن هذا الرصيد الكمي من خلال الأطر التقليدية التلقينية لم يكن له دور يذكر

أو ليس بالدور المرجو للارتقاء بمستوى الأداء الاداري . ولا يحتاج ذلك الى تدليل فالاداء الاداري ، على صعيد الوطن العربي اجمالا متدن ومازال التخلف الاداري ، وهو واحد من أبعاد التخلف سمة غالبة . وينطبق ذلك الى حد كبير على معاهد الادارة في معظم أرجاء الوطن العربي التي تتوجه بمخرجاتها رغم تعاظمها الى برامج تقليدية غالبا ولذلك فلم يكن لهم دور ملموس في احداث التغيير المطلوب حتى في البنية الادارية أو السلوك الاداري أو المناخ الاداري . ويشير نبيل شعث الى أن مجتمع الادارة العربية يتوقع أن يزداد بنحو نصف مليون مدير عام ٢٠٠٠ فضلا عن نحو ٢٥,٠٠٠ مدير من المستوى الاشرافي الأول ومدى عجز المعاهد والجامعات المتخصصة عن توفير الجانب الرئيسي منهم وفقا لنوعية واعداد الخريجين المتوقعة[١٠] .

واذا كانت الجامعات ، وربما عبر عقود طويلة ، لم تأخذ بزمام المبادرة في إحداث التغيير النوعي المطلوب في برامجها ومناهجها وطرائقها وتوجهها وأهدافها إذ ظلت مخرجاتها رصيدا كميا متعاظما وعاجزا في ذات الوقت عن أداء الدور المرجو منه بل هو غير مستوعب لذلك الدور وغير مهيأ أو مؤهل له لكي يحدث التغيير المطلوب ابتداء بالبنية الادارية وهياكلها وطرائقها وأنماط السلوك الاداري السائدة في محاولة الارتقاء بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة التي يلتحقون بالوظيفة العامة فيها ، اذا كان الأمر كذلك فان تأهيل اداريي التنمية يفترض أن يتم من خلال بضعة معاهد على صعيد الوطن العربي يكون هناك منذ البداية استراتيجية مدروسة لانشائها وهياكلها وطرائقها ونوعية برامجها ومناهجها وكذلك توجهها وأهدافها وحسن انتقاء لادارتها والمسؤولين عن تطبيق مناهجها وبرامجها وكذلك حسن انتقاء للذين يلتحقون بها .

والوطن العربي يحتاج الى مائة ألف تقريبا من اداريي التنمية وليس ذلك بالعدد الكبير مقارنة بالرصيد الكمي المتعاظم من خريجي الجامعات ومعاهد الادارة . ويمكن أن تكون هناك ضمن معاهد موزعة جغرافيا على صعيد الوطن العربي ويكون هناك تنسيق مستمر بين هذه المعاهد وملاحقة مستمرة مواكبة للتطور المتلاحق في الرصيد المعرفي وفي الطرائق المثلى لبلورة السياسات وتحديد الأهداف واتخاذ القرارات الموضوعية في ضوء نظم المعلومات المتطورة وكذلك متابعة مستمرة للمتغيرات والمستجدات على الساحة وكيفية الارتقاء الكفي للتعامل مع تلك المتغيرات والمستجدات . ومن نافلة القول التأكيد على أنه يجب أن تكون هناك متابعة مستمرة للبرامج والمناهج وتحديثها وتطويرها باستمرار .

ان قطراً عربيا كمصر من بين أسبق الأقطار العربية الى التخطيط والتعليم وغيرهما ما زالت بعد عقود طويلة وكأنها لم تمارس التخطيط ومازالت محصلة التعليم كمًا كبيرا دون مردود ملموس . ولا تختلف باقي الأقطار العربية عن مصر رغم أن بعضها ليس لديه خطط للتنمية حتى في الوقت الراهن لحداثة عهده بهذا المفهوم وعهده بالتعليم حديث نسبيا . وعود على بدء فان مصر رفعت شعار التخطيط منذ عقود ولكن سجل الخطط فيها ، كما هو الحال في دول

(١٠) عادل قاسم : مؤتمر تطوير القوى البشرية العربية في مواجهة تحديات العصر ، المستقبل العربي ، يناير ١٩٧٩ ص١٦١ .

العالم الثالث اجمالا ، حافل بالفشل أكثر مما هو حافل بالنجاح . بل ان مصر التي رفعت شعار التخطيط منذ عقود آلت الى وضع أكثر تعقيدا وأكثر انكشافا وتبعية وازدادت وطأة الديون الخارجية عليها وهي في مثل هذا الوضع لا تملك الارادة ولا الادارة القادرتين على التعامل الكفي مع تحدياته .

وليس ثمة شك في أنه لم يكن بمقدور الرصيد المتعاظم من خريجي الادارة من خلال القنوات التقليدية التلقينية أن يؤدي دور اداريي التنمية بدءا بالتخطيط وبلورة الاستراتيجيات الهادفة الى احداث التغيير المطلوب للارتقاء بالاداء في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة وكذلك حسن استثمار الموارد المتاحة الى أقصى حد ممكن . ويتعاظم ذلك الرصيد من خريجي الادارة ولا يكاد يكون له دور ملموس في احداث تغيير يذكر إذا ظلت البرامج في الجامعات ومعاهد التدريب في أسر الأطر التقليدية ولم تكسر تلك الأطر في محاولة جادة للانطلاق الى تغيير جذري في تلك البرامج من منطلق ما تقتضيه عملية التنمية الفعلية ودور تلك البرامج في تأهيل اداريي التنمية المنتظر منهم أن يؤدوا دورا رياديا في احداث التغيير المطلوب على كافة الأصعدة وكل المجالات . وبالطبع فان مثل ذلك التغيير يفترض ألا ينطلق من فراغ وانما من استراتيجية مدروسة وقدرة على وضع تلك الاستراتيجية وتطبيقها .

ان التعليم في اليابان على سبيل المثال ساهم في خلق وتشكيل طبقة متوسطة ومتعلمة اضطلعت بعملية التحديث وتفاعلت معها ودفعت بها الى آفاق بعيدة . ويعترف اليابانيون بأهمية الثورة التعليمية والتربوية كركيزة أساسية في عملية التحديث[١١] . ومعروف أن اليابان تمكنت من خلال برامجها التعليمية من تكوين كوادر اداريي التنمية الذين ساهموا في الارتقاء بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة وشركات القطاع الخاص في نسق لابعاد التنمية المتعددة اقتصاديا واجتماعيا واداريا وتكنولوجيا . وبالطبع فان ما جعل مهمة اداريي التنمية أقل صعوبة انتشار التعليم على نطاق واسع بحيث كوّن وعيا مجتمعيا ، وكذلك التقارب والتعاون في المرحلة التأسيسية الأولى بصفة خاصة بين المسؤولين عن التنمية والسلطة السياسية . واذا كان دور اداريي التنمية على صعيد الوطن العربي أكثر صعوبة فانه من المنتظر منهم في اطار استراتيجية متبلورة احداث التغيير في قطاع التعليم وغيره من القطاعات واستدراج السلطة السياسية لتبني ارادة التغيير ومساندة ادارة التغيير وهذه قضية القضايا بالنسبة للتنمية الفعلية الشاملة على صعيد الوطن العربي .

ان تأهيل اداريي التنمية يجب أن يكون تأهيلا نوعيا يتجاوز مخرجات الأطر التقليدية من خلال برامج ومناهج وطرائق ووسائل منتقاة ومتطورة . ولقد سبق الاشارة الى أن مخرجات الأطر التقليدية المتمثلة في الرصيد الكمي الكبير نسبيا من خريجي كليات وبرامج الادارة في الجامعات وكذلك معاهد الادارة تكاد تقف عند كونها رصيدا كميا متعاظما غير قادر على أداء الدور المرجو من اداريي التنمية في احداث التغيير الجذري المطلوب ابتداء بالأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة التي يفترض أنها تضطلع بالدور الكبير في عملية التنمية ويمتد دورها على كافة الأصعدة

---

(١١) جاسم عبدالغني : العرب وتجربة التحديث اليابانية ، المستقبل العربي ، يناير ١٩٨٩ ، ص٣٤ .

وفي كل القطاعات . ان هذا الرصيد الكمي المتعاظم يلتحق بالوظيفة العامة التي تكاد تكون مطمحه وهو غير مهيأ ولا مؤهل لأداء الدور المرجو ولذلك فان البيروقراطية تستوعبه بأنماطها السائدة المناهضة والمناقضة لعملية التنمية الفعلية وهو قابل لهذا الاستيعاب . وتأهيل اداريي التنمية يكون من خلال برامج تعليمية وتدريبية . وبالطبع فمن المفروض أن يكون هناك حسن اختيار للذين ينتظمون في هذه البرامج وكذلك حسن اختيار لادارتها والمسؤولين عن تطبيقها اذ يجب أن تتوفر لأولئك استعدادات معينة يضيف اليها الرصيد المعرفي النوعي ويصقلها . ويجب أن يكون لدى هؤلاء الرصيد المعرفي النوعي تعليما وتدريبا وتكون لديهم القدرة على إيصال ذلك الرصيد من خلال وسائل وطرائق منتقاة ومتطورة .

ان عدد خريجي الجامعات العربية يزداد مع استمرار الانفصام بين التخصصات والمقررات وبين متطلبات التنمية[١٢] .والجامعات العربية تكاد تكون أطرا بيروقراطية لا يختلف النمط السائد فيها عن النمط السائدة في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة . وبعد مرور عقود طويلة نسبيا بالنسبة لكثير من هذه الجامعات فانها لم تشهد تغييرا ملموسا يكسر أطرها التقليدية كما يكسر أطرها التعليمية التلقينية بحيث تكون محصلة مخرجاتها رصيدا نوعيا لا كميا من خلال برامج نوعية وكذلك من خلال طرائق ووسائل متطورة ومناخ ملائم يتيح الفرصة لاكتساب المعرفة موضوعيا وكذلك لاكتساب الوعي المعرفي والانطلاق منه الى الابداع والابتكار الذي يضيف الى ذلك الوعي المعرفي المتواصل من خلال استثماره والاضافة المتلاحقة له في مواصلة معرفية لا تقف حتى عند هذه النقطة مع أهميتها القصوى ولكنها تتجاوزها الى امكانية استثمار ذلك الوعي المعرفي المتواصل تطبيقا لاحداث التغيير الجذري المطلوب .

والبرامج الخاصة بتأهيل اداريي التنمية يفترض أن تركز على كل إبعاد التنمية انطلاقا من الواقع ومعطياته ومستجداته والتحديات التي تواجهها التنمية وكيفية الارتقاء الى مستوى التعامل الكفي مع كل التحديات وكذلك كيفية التغلب على العقبات والصعاب وكيفية احداث التغيير المطلوب على كافة الأصعدة وكل القطاعات . ويجب أن يكون إعداد هذه البرامج مدروسا بحيث تكون مقرراتها متسقة ومتكاملة وذات نهج تطبيقي يدعمه رصيد معرفي نوعي يرسخ الوعي المعرفي المتواصل كما يرسخ الاهتمام الجاد باستثمار ذلك الوعي المعرفي المتواصل ممارسة وتطبيقا من منطلق عملي محوره إحداث التغيير المطلوب وفق ما تقتضيه التنمية الفعلية الشاملة .

ان تأهيل اداريي التنمية يمكن أن يتم كما سبقت الاشارة اليه من خلال انشاء بضعة معاهد يكون التخطيط لانشائها وبرامجها وطريقة ادارتها وتوجهها وأهدافها تخطيطا نوعيا . وهذه المعاهد تختلف اختلافا كبيرا عن نمط معاهد الادارة ومدارسها على صعيد الوطن العربي اذ لا جدوى من وراء معاهد ادارة التنمية ان كانت لا تختلف عن معاهد ومدارس الادارة القائمة حاليا . ومعاهد ادارة التنمية يجب أن يكون انشاؤها منذ البداية خارج اطار النمط التقليدي وأن يكون هناك حسن اختيار للقائمين على ادارتها وكذلك حسن اعداد للبرامج بالاضافة الى الانتقاء النوعي

(١٢) عادل قاسم ، مرجع سابق ، ص١٦١ .

للمسؤولين عن تطبيق البرامج وكذلك الذين ينتظمون في هذه البرامج . وفي كلّ الاحوال فان هذه المعاهد يجب أن تكون بعيدة كلّ البعد عن المداخلات البيروقراطية وأن تتمتع باستقلالية تامة . وهذه كلها شروط أساسية لنجاح هذه المعاهد في تأهيل اداريي التنمية تأهيلا نوعيا جيدا .

ان هذه المعاهد يجب أن تكون منذ البداية خارج إطار النمط التقليدي ، وأن تتمتع باستقلالية تامة تمكنها من حرية الحركة والمرونة والمبادأة والابتكار في مناخ ملائم بعيدا عن القنوات التقليدية التلقينية ، ويجب ان تكون قضية التنمية الفعلية الشاملة هي القاسم المشترك بينها ابتداء من النمط المتطور تخطيطا وادارة وإعدادا للبرامج وتطبيقا لها . ويجب أن يكون الاستيعاب الواعي لهذه القضية محور اهتمام المسؤولين عن الادارة والمسؤولين عن تطبيق البرامج ، بالاضافة الى الذين ينتظمون في هذه البرامج وهم المحصلة المرجوة من وراء كل ذلك حتى يكون في الامكان تكوين رصيد نوعي من المستوعبين بقضية التنمية الفعلية الشاملة استيعابا واعيا مدركين كل الادراك أبعادها وتحدياتها وأهدافها ،وكذلك مالكين لناصية الوسائل الادارية الكفيلة بالتعامل الكفى مع تلك الابعاد والعقبات والتحديات والاهداف وقادرين على احداث التغيير المطلوب في الاجهزة والمؤسسات والشركات التي يتسنمون فيها الوظائف القيادية وكذلك الوظائف الاستراتيجية والحاكمة بحيث يستطيعون كسر الاطر التقليدية البيروقراطية والارتقاء بمستوى الاداء والكفاءة والانتاجية والعطاء والاستفادة القصوى من الطاقات البشرية والامكانات وكذلك التعامل الكفي مع المناخ الداخلي في هذه الاجهزة والمؤسسات والشركات والمناخ الخارجي المحيط بها أيضا . وليس معنى التعامل الكفي مع المناخ الداخلي والخارجي هو قبول أوزاره وأوضاره ، ولكن احداث التغيير المطلوب ادارة وارادة وأداء يمكن بها إزالة تلك الأوزار والاوضار والانطلاق بهذه الاجهزة والمؤسسات والشركات انطلاقة جادة في المسار التنموي الفعلي .

والقدرة على احداث التغيير تقتضي امتلاك القدرة على المبادأة والابتكار والابداع وكذلك القدرة على وضع استراتيجية التغيير وتطبيقها ومتابعة التطبيق وتحقيق الاهداف المرجوة من التغيير . وهذه القدرات لا غنى عنها وهي من أهم مواصفات إداريي التنمية ولذلك فان حسن انتقاء من ينتظمون في البرامج شرط أساسي من بين شروط عدة ويجب أن يراعي حسنُ الانتقاء توفر مثل هذه المواصفات منذ البداية .

الدور المحوري لاداريي التنمية : احداث التغيير :

ليس إحداث التغيير المطلوب عملية يسيرة وليس مستحيلا في ذات الوقت ولكنه عملية صعبة في كل الاحوال . ومن المعروف أن البيروقراطية تناهض التغيير بطبيعتها وان رفعت بين وقت وآخر شعار الإصلاح الاداري وهي ليست جادة في تطبيقه . ولو أحصينا هيئات ومجالس ولجان الاصلاح الاداري على صعيد الوطن العربي لوجدناها متعددة وبعضها مضى عليه زمن طويل نسبيا ومع ذلك فان محصلة دعاوى الاصلاح الاداري كان أكثرها

زبدا ذهب جفاء وكانت كلها قاصرة عن تحقيق الاصلاح الاداري الفعلي اذ أن مثل هذا الاصلاح يقضي التغيير الجذري في هياكل وإدارة وطرائق وتوجهات وأهداف الاجهزة الحكومية والمؤسسات العامة ، كما يقتضي تغييرا جذريا في المفاهيم والقيم وأنماط السلوك البيروقراطي السائدة وتأهيلا نوعيا وتدريبا نوعيا كذلك الافراد على كافة المستويات .

ان محاولات الاصلاح الاداري على صعيد الوطن العربي وقفت تقريبا عند حد تبسيط الاجراءات في بعض الاجهزة الحكومية أو اعادة تنظيمها هيكليا أو تغيير محدود في اللوائح والأنظمة واقتباس يكاد يقف عند حدود الشكلية لبعض المفاهيم الادارية المطبقة في بعض الدول المتقدمة . ولذلك ظلت الاجهزة الحكومية وحتى المؤسسات العامة في أسر الاطر البيروقراطية التقليدية بكل أوزارها وأوضارها . وبالطبع فما كان هناك ارتقاء في مستوى الاداء والانتاجية وما كان هناك تغيير جذري في ادارة وطرائق وهياكل وتوجهات وأهداف الاجهزة الحكومية والمؤسسات العامة في نسق ينسجم مع طبيعة الدور الكبير الموكل لهذه الاجهزة والمؤسسات في ادارة التنمية .[١٣]

ويرى مدير معهد الادارة العامة في الاردن أن المدير العربي ضعيف ومستهدف في مواجهة التحديات وان الادارة في كثير من الاحيان تابع وليست دافعا لاحداث التغيير . ويشير محمد الغربلي الى أن المدير العربي يتحمل جل أوزار الوضع الراهن فالحديث عن تحديات مستقبلية هو نوع من الهروب أمام التحديات الآنية فضلا عما يعطيه من انطباع وكأن المدير العربي أنجز ما هو أمامه من تحديات وأتم متطلبات التنمية قطريا وعربيا في حين أن العكس هو الصحيح اذ أنه اساء أو لم يحقق الصورة المناسبة لاستغلال الموارد . لقد أهدرت الثروة النفطية واستخدمت عوائدها في تنمية بلاد أخرى بأوربا وأمريكا وغابت خطط التنمية ، وبخاصة في الاقطار الغنية ، وعومل التدريب معاملة الترف فهو ضروري عندما تتاح الاموال وهو على العكس من ذلك أن شحت الاموال[١٤] . ومن الانصاف الاشارة الى أن عثرات التنمية تعود أصلا وباديء ذي بدء الى عدم وجود الارادة السياسية الجادة من منطلق واضح وتبنٍّ ملتزم لاستراتيجيات مدروسة ذات أهداف محددة ، ذلك أن القرار السياسي هو المهيمن على الساحة . والمؤسسات التعليمية من صنع السلطة السياسية وتخضع لهيمنتها المباشرة . وفي ظل عدم وجود الارادة الجادة والتبني الملتزم لمقتضيات التنمية وركائزها وأهدافها فان مخرجات تلك المؤسسات التعليمية ليست مهيأة ولا مؤهلة لاداء الدور المرجو من اداريي التنمية في احداث التغيير المطلوب في اطار بلورة استراتيجية هادفة تتسق في تكامل أبعاد التنمية الفعلية الشاملة .

ويشير مدير عام معهد الادارة العامة في الاردن في سياق استطراده أن الادارة تابع وليست دافعا لاحداث التغيير في ظل هيمنة القرار السياسي الى أنه «اذا كانت السياسة في النظم المتطورة هي القيام على الجماعة بما يصلحها

---

(١٣) عادل قاسم ، مرجع سابق ، ص١٦٧ .
(١٤) عادل قاسم ، نفس المرجع ، ص١٦٩ .

وذلك ضمن مجموعة من النظم والعقائد والمرتكزات فانها ـ على صعيد الوطن العربي ـ أفراد ومصالح وجماعات خالية المحتوى ويهيمن فيها التسييس الشخصي على الذهنى . [١٥] وانه نتيجة لذلك وفي ضوء المؤثرات البيئية والخارجية كان الناتج قيادات تم استقطابها دون إعداد منظم أو تقييم مقنن لا تفتأ تدور حتى تصبح جزءا من العجلة وتكرس جهودها في الدفاع عن مصالحها الشخصية» [١٦] .

ويرى نبيل شعث أن رجال الادارة يمكنهم أن «يلعبوا دورهم بذكاء لاستدراج السياسيين لتحقيق الكفاءة والانتاجية والعدالة وسائر الاهداف الاخرى بما يتطلبه هذا الاستدراج من اتباع أساليب مبتكرة غير تقليدية» [١٧]. ويتفق كثيرون مع ماذهب اليه مدير عام معهد الادارة في الاردن مؤكدين دور العامل السياسي أو أن السلطة السياسية يجب أن يقتصر دورها على القيادة لا السيطرة التى تتدخل في كل صغيرة وكبيرة [١٨].

ان مهمة اداريى التنمية في ظل الواقع الذي يهيمن فيه القرار تكاد تكون مستحيلة طالما ان القرار السياسي هو المهيمن وليس لديه التصور الواضح وطالما ليس هناك الاستيعاب الواعي لمفهوم التنمية الفعلية الشاملة والادراك الواضح لابعادها وتحدياتها وتبني المنهج التنموي من منطلق ارادة جادة ومساندة ملتزمة . وبالطبع فان تأهيل اداريى التنمية ربما يتعذر لان القرار السياسي يتدخل في كثير من الاحيان حتى في انشاء الجمعيات الاهلية والمهنية كالادارة . ومثل ذلك يجعل الحديث عن تأهيل اداريى التنمية ودور اداريي التنمية تنظيرا بينما الطريق العملي لتطبيق ذلك طريق مسدود . وينطبق ذلك على التنمية اجمالا اذ تبقى الامنية مطروحة تنظيرا بينما التطبيق العملى لمقتضيات التنمية ومرتكزاتها يبدو طريقا مسدودا أيضا .

ولهذا فان هذه الدراسة في الوقت الذي تستعرض فيه الواقع تتطلع الى الامنية والا لما كان هناك جدوى من التطرق لاداريى التنمية وكيفية تأهيلهم والدور المرجو منهم ، كما أنه ليس هناك جدوى من أية دراسة للتنمية لو كان استعراض الواقع بهيمنة القرار السياسي عليه وعدم وجود الاستيعاب الواعي للتنمية والادراك الواضح لابعادها والارادة الجادة والمساندة الملتزمة يفضي ذلك كله بالنسبة للتطبيق العملي الى طريق مسدود ، فلعل وعسى أن تخف هيمنة القرار السياسي أو أن يفرض تحول مجتمعي أو ضغوط مجتمعية ذلك في بلورة لارادتها اعتمادا على منطق الحركة التاريخية وان استغرق ذلك أمدا .

---

(١٥) عادل قلسم ، نفس المرجع ، ص١٧٠ .

(١٦) عادل قلسم ، نفس المرجع ، ص١٧٠ .

(١٧) عادل قلسم ، مرجع سابق ، ص١٧١ .

(١٨) عادل قلسم ، نفس المرجع ، ص١٨١ .

خاتمة :

ان تأهيل اداريي التنمية على صعيد الوطن العربي ليس بالامر العسير متى ماتوفرت الارادة السياسية الجادة والمساندة الملتزمة أو على الاقل متى ما أتاحت السلطة السياسية الفرصة لتحرك القيادات الادارية المستوعبة للتنمية استيعابا واعيا والمدركة كل الادراك لابعادها وعقباتها وتحدياتها في ايكال المهمة الى نخبة من ذوي الرصيد المعرفي الواعي في مجالات التنمية لبلورة فكرة تأهيل اداريي التنمية . ويوجد في الوطن العربي رصيد غير ضئيل من أولئك القادرين على صياغة استراتيجية تأهيل اداريي التنمية واعداد مناهجها وبرامجها والقدرة على الادارة الكفية ، وعلى تطبيق تلك المناهج والبرامج تطبيقا كفيا أيضا . وليس ثمة شك أن هيمنة القرار السياسي قد تكون عائقا الا أنه يفترض أن يكون في امكان بعض القيادات الادارية الواعية من منطلق اقتناعها بأهمية اداريي التنمية وكذلك أهمية دور اداريي التنمية اقناع السلطة باعتبار أن هذه الخطوة الرائدة لها مردودها الكبير على مسار التنمية وأهدافها وان التنمية في الوقت الذي تمثل فيه رقيا حضاريا متواصلا فانها تمثل تحديا فيه ارادة على ساحة التاريخ ليس للكيان الضعيف اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو اداريا أو ثقافيا . ولذلك فان التخلف بكل أبعاده وبأي منها ليس في صالح الانظمة السياسية كما أنه ليس في صالح الامن القطري والقومي . .

والوطن العربي يقع في إطار أطماع استعمارية صهيونية يخطط لها تخطيطا مدروسا في وقت تتناهب فيه هذا الوطن العربي التجزئة والانقسام وتكاد تكون التنمية شعارا مفرغا من المحتوى اذ أنه في ظل هذا الشعار يزداد الانكشاف وتزداد التبعية وتتهدد الامن القطري والامن القومي الاطماع وليس هناك كيان قوي اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا واداريا وثقافيا وتكنولوجيا وعسكريا بمعنى أنه ليست هناك تنمية فعلية شاملة . ولهذا فان القرار السياسي يجب أن يستوعب كل ذلك لان الواقع الراهن ليس في صالحه ولا في صالح المصلحة القطرية والقومية .

وتأهيل اداريي التنميية اختصار للوقت والجهد من خلال ريادة ادارية لديها القدرة على بلورة السياسات والاستراتيجيات في إطار نهج تنموي يجد طريقه للتطبيق من خلال الاستفادة المثلى من الموارد المتاحة والارتقاء بالاداء وصولا للاهداف المرجوة للتنمية الفعلية الشاملة وهي تمثل مدخلا ميسورا يجعل في الامكان احداث التغيير الذي تقتضيه التنمية الفعلية الشاملة في كافة أبعادها وعلى جميع الاصعدة .

***

المراجع :

١) ابراهيم سعد الدين (وآخرون) التنمية العربية : مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧

٢) أحمد فؤاد شريف : أساليب تنمية المستويات العليا من موارد القوة العاملة . القاهرة ، المعهد القومي للادارة العليا ، ١٩٦٣ .

٣) أسامة عبدالرحمن : البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ .

٤) أمين عز الدين : السياسات التدريبية في الدول العربية التي تعاني قصورا في القوى العاملة ، مجلة العمل العربية ، العدد ٩ يوليو ١٩٧٩ .

٥) جاسم السعدون : دور القطاع الخاص في التنمية ، ورقة مقدمة الى ندوة تحويل المؤسسات العامة الى القطاع الخاص ، الدار البيضاء ٦ ـ ٨ ديسمبر ١٩٨٨

٦) جاسم عبدالغني : العرب وتجربة التحديث اليابانية ، المستقبل العربي يناير ١٩٨٩

٧) جليل العريض : حول الجامعات في البلاد العربية ، ورقة غير منشورة .

٨) جمال البنا : «التنمية ومشتقاتها» مجلة العمل العربية ، نوفمبر ١٩٧٥ .

٩) دارم البصام : العلاقة بين التعليم والتنمية في البلدان العربية في الثمانينات ـ ورقة مقدمة الى المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، الحلقة النقاشية ٣ ، ١٩٧٩ / ١٩٨٠ .

١٠) سامي خصاونة : التخطيط التربوي والتنمية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت ابريل ١٩٧٩ .

١١) عادل حسين (وآخرون) «نحو فهم أفضل للتنمية باعتبارها عملية حضارية» التنمية العربية الواقع والمستقبل . مركز دراسات الوحدة العربية . نوفمبر ١٩٨٤ .

١٢) عادل قاسم . مؤتمر تطوير القوى البشرية في مواجهة تحديات العصر ، المستقبل العربي ، يناير ١٩٨٩ .

١٣) عامر الكبيسي ، واقع الادارة العامة في الوطن العربي وأثره على نظم التربية والتعليم فيها ، المجلة العربية للادارة العدد ٣ اكتوبر ١٩٨٠ .

١٤) عبد العزيز الجلال : تربية اليسر وتخلف التنمية . عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٥ .

١٥) عبدالله عبد الدائم . التربية وتنمية الموارد البشرية ، ورقة مقدمة الى ندوة تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي ، الكويت ٢٨ ـ ٢٩ نوفمبر ١٩٨٧ .

١٦) علي الكواري : نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة . مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٥ .

١٧) فضل الله علي فضل الله : ادارة التنمية ، الامارات العربية المتحدة . صوت الخليج ١٩٨١ .

١٨) محمد صادق : التنمية في الأقطار المنتجة للنفط في الجزيرة العربية بين عائدات النفط وادارة التنمية . ورقة مقدمة الى ندوة التنمية . البحرين ٢٤ ـ ٢٦ ديسمبر ١٩٨٠

١٩) محمود عبدالفضيل : نظرات وهواجس مستقبلية . المستقبل العربي . نوفمبر ١٩٨٨ .

٢٠) نادر فرجاني (وآخرون) التنمية المستقلة في الوطن العربي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧ .

٢١) يوسف صايغ : استراتيجية التنمية في العالم العربي . دراسات عربية . العدد ٧ مايو ١٩٨٠ .

***

مخرجات عمليات الاصلاح أقل بما لا يقاس بحجم الجهود والمدخلات التي بذلت في هذا المجال . وقد استمر القصور الاداري عقبة أساسية تعيق نجاح جهود التنمية . وينتشر القول بين المتخصصين أو حتى بين العامة بأن « مشكلتنا هي مشكلة ادارة » .

ويزداد الاحساس بالقصور الاداري نتيجة لادراك عظم التحديات التي يواجهها المجتمع العربي في هذه المرحلة الحاسمة من حياته ، ومقدار الهدر للامكانات الذي تحقق خلال السنوات الخمس عشرة الماضية التي أعقبت استرداد العرب للسيطرة على نفطهم وقدرتهم على تحديد إنتاجه واسعاره بالمشاركة مع دول الأوبك الأخرى .

لقد أتيح للعرب إذ ذاك فرصة نادرة لأحداث دفعة حقيقية لمجتمعاتهم في طريق التقدم والاستقلال والخلاص من التبعية ، وتوفرت لهم امكانية تمويل التنمية المنشودة دون صعوبات كبيرة . ولكن قدرا هاما من هذه الأموال وجد طريقه الى بنوك وخزائن الدول المتقدمة أو مول طفـرة استهلاكيـة غير مسبـوقة ، دون أن تحـدث تنمية قـابلة للاستمـرار والاستقرار . ورغم عظم حجم الاستثمارات التي تمت في الدول العربية خلال فترة الفورة الاقتصادية التي أعقبت ارتفاع أسعار النفط في السبعينيات فإن تأثير هذه الاستثمارات على تحقيق التنمية ظل محدودا نتيجة لانخفاض الكفاءة . ولهذا فقد أدى انهيار أسعار النفط بدءا من عام ١٩٨٢ الى كساد في أسواق الخليج العربي والى تحول معدلات نمو الناتج القومي الى معدلات سلبية . وانعكس ذلك على بقية الاقتصاديات العربية التي تأثرت بهبوط مستوى التدفقات المالية اليها بعد ان كانت قد اعتمدت على استمرار هذه التدفقات بلا انقطاع ، فانتهى بها الأمر الى عجز كبير في مواردها وزيادة كبيرة في مديونيتها ، وتردي معدلات النمو بها ، وانتشار الكساد في أسواقها والبطالة بين قواها العاملة في نفس الوقت الذي ترتفع فيه معدلات التضخم ارتفاعا كبيرا ومتصاعدا . وقد عانت الأقطار العربية فضلا عن ذلك من النزاعات العربية والفتن الداخلية والحروب . والسودان ولبنان والعراق أمثلة بارزة على مقدار الهدر والدمار والخراب الذي أحدثته الفتن والحروب .

وتواجه المؤسسات العربية حاليا ، كما ستواجه في المستقبل تحديات ضخمة نتيجة لأن المجتمعات العربية هي جزء من نظام دولي يتصف بتسارع معدلات التقدم فيه ويزداد توجهه نحو العالمية ، ويتميز بدرجة عالية من الحركة والتغير وتسارع ظهور سلع وعمليات جديدة وأشكال تنظيمية مستحدثة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية التي تتسع آفاقها باستمرار . ان المؤسسات العربية تعمل وتحتك وتتنافى وتتعاون مع مؤسسات خارجية يتسارع تطورها وتسعى في ضوء حدة التنافس في الأسواق العالمية الى تحقيق الامتياز . ولا يقتصر هذا التفاعل والاحتكاك على المؤسسات العربية التي تتعامل في الأسواق الدولية بل انه يطول حتى المؤسسات المحلية البحتة لأن الاطار المحلي نفسه هو مجال لأنشطة مختلفة تقوم بها المؤسسات الدولية كما ان الأقطار العربية في مجموعها هي جزء من نسيج العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية الذي يتصف بتزايد الاعتماد المتبادل بين أجزائه .

ان المؤسسات العربية مطالبة بمسايرة التقدم العالمي فالمجتمعات التي لا تستطيع التقدم تتخلف ، ولا تتمكن حتى من المحافظة على وضعها النسبي المتدني .

إن التغلب على نواحى القصور الادارى التى برزت في الماضى وإحداث قفزة حقيقية في القدرات الادارية يبقى لذلك أحد المداخل الرئيسية لتحقيق تقدم مستمر وسريع في قدرة المجتمع على تعبئة موارده وحسن تخصيصها وإدارتها لتحقيق أهداف الشعوب العربية في الاستقلال والخلاص من التبعية وإشباع الحاجات المادية والروحية المتنامية للشعوب العربية وتحقيق أمن الأمة العربية ، وهو ما يطرح قضية التنمية الادارية باعتبارها قضية مركزية تتعلق بالمستقبل العربي ويتعلق بها هذا المستقبل .

وتسعى هذه الورقة الى إلقاء نظرة مستقبلية على متطلبات تحقيق تنمية ادارية فعالة في الوطن العربي وهو ما يتطلب في البداية تحديدا لمفهوم التنمية الادارية والتعرف على العقبات والمشاكل التى عاقت جهود التنمية الادارية والاصلاح الادارى في الوطن العربي حتى الآن .

التنمية الادارية في الدول الرأسمالية المتقدمة والدول النامية

نشأت الحاجة الى التنمية الادارية في البلاد الرأسمالية المتقدمة عندما تطور حجم وحدات الأعمال ونشأت المشروعات الكبرى التى تضم أعدادا ضخمة من العاملين ، وتسيطر على رؤوس أموال ضخمة ، وتنتج للبيع في أسواق وطنية أو دولية تتسع بصفة مستمرة . وتعقدت طبيعة الأسواق وعلاقات وحدات الأعمال بعضها بالبعض الآخر ، وبالدولة ، والنقابات العمالية وغيرها من مؤسسات المجتمع بحيث أصبح يستحيل الاعتماد على المدير الفرد أو مجموعة من المديرين الأفراد من أصحاب رؤوس الأموال لادارة مشروعات الأعمال الكبرى في ميادين الصناعة أو المؤسسات المالية أو التجارية ، أو مؤسسات النقل أو غيرها بكفاءة . وبات من الضرورى بالنسبة للشركات الكبيرة التى تم تكوينها في العديد من الحالات بواسطة « قادة أفراد » والتى استمرت لفترة في إطار الملكية الفردية أو العائلية وتحت إدارة ملاكها ، ثم تحولت الى شركات أموال قادرة على الاستمرار والبقاء بما يتجاوز بقاء عناصرها القيادية ، ان تسعى لتوفير قيادات إدارية بديلة قادرة على الحلول محل الادارة العليا القائمة لضمان تسيير وحدات الأعمال الكبرى بنجاح .

لقد برزت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ مابعد الحرب العالمية الأولى ، ثم في الدول الرأسمالية الكبرى بعد ذلك (وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية) ظاهرة انفصال الملكية عن الادارة ، والاعتماد على فئة من المديرين المحترفين الذين يتولون إدارة المشروعات الكبرى .

وقد تزامن وصاحب هذا الانفصال بين الملكية والادارة ، وبروز الحاجة الى توفير قيادات بديلة حدوث تقدم سريع في علوم الادارة . وقد نشأت تلك العلوم وتمت المراحل الأولى لتطورها في الولايات المتحدة الأمريكية أيضا . وجاء هذا النمو عن طريق رافدين أساسيين : الرواد الأول للادارة العلمية الذين كانوا يمارسون عملهم الرقابي والاداري في منشآت الأعمال نفسها ، والاكاديميين الذين اهتموا بدراسة منشآت الأعمال ، هياكلها ، وعلاقاتها وسلوك مديريها وهكذا .

لقد برزت اللبنات الأولى للعلوم الادارية نتيجة لجهود الرواد الأول للادارة العلمية الذين كان أغلبهم يتولون مناصب إشرافية في وحدات الأعمال الكبيرة والضخمة . . . . والذين سعوا لتحسين تنظيم العمل ، وتحديد الطريقة المثلى للاداء ، وتحديد الوقت النمطي للعمل وربط الأجر بالانتاج وغير ذلك . لقد كانت هذه الجهود هي استجابة لما ترتب على نشوء منشآت الأعمال الضخمة وزيادة قوة الحركة النقابية واشتداد الصراع بين العمال الرأسماليين من استحالة الاعتماد على زيادة الاستغلال المباشر للعاملين من أجل زيادة الأرباح ، مما استوجب السعي لزيادة انتاجية العمل بما يسمح بزيادة الأجور والأرباح في نفس الوقت . وقد شرحت تلك الجهود ووضحت بواسطة ممارسيها مكونة الأدبيات الأولى حول الادارة العلمية .

واهتم الاكاديميون من مختلف فروع العلوم الاجتماعية في نفس الوقت ، بتطبيق أدواتهم البحثية في دراسة وحدات الأعمال الكبرى التي تطورت لتصبح من أهم الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المعاصر ، وقد اتسعت هذه الدراسات على مر الزمن لتشمل نواحي متعددة وكثيرة تضمنت الهياكل التنظيمية لتلك المؤسسات والمستويات الادارية المختلفة والعلاقة بين تلك المستويات ووسائل قيادة الأفراد ، وطرق اتخاذ القرارات وغير ذلك كما تضمنت فضلا عن ذلك العلاقات بين مؤسسات الأعمال والعلاقات مع العاملين والممولين والمستهلكين ، ووسائل وحدات الأعمال في تخطيط الانتاج والتسويق والتمويل وإجراء المفاوضات وتحفيز العمال . وغير ذلك من نواحي النشاط المختلفة التي تقوم بها تلك المؤسسات . وحاول الاكاديميون استخلاص أسس ومشتملات العمليات الادارية وخطواتها ، وآلياتها وشروط تحقيق الكفاية والكفاءة وغير ذلك مما أصبح يكوّن حجما ضخما من الأدبيات المتعلقة بالادارة وجوانبها المختلفة وعلومها المتخصصة والمتنامية باستمرار .

وقد مكن توفر هذه القاعدة المعرفية المتنامية ، وتطور وسائل تدريب الكبار من تحقيق تعاون فعال بين الادارات في الشركات الكبرى وبين العناصر الاكاديمية في بعض الجامعات لتطوير برامج تستهدف المساعدة في تكوين وتطوير المهارات الضرورية لتوفير الكوادر اللازمة لشغل الوظائف الادارية بوحدات الأعمال . كما طورت خطط وبرامج داخل وحدات الأعمال لاختيار العناصر التي يجرى صقل قدراتها . وتستند تلك الخطط والبرامج الى جهود منظمة لدراسة قدرات الأفراد وقياس ادائهم وتقدير مدى كفاءتهم وفاعليتهم . ويتم اكساب العناصر المناسبة المعارف الجديدة والمهارات اللازمة لتحسين وتطوير عملهم وتهيئتهم للانتقال الى مستويات إدارية أعلى .

ان التنمية الادارية تشمل كل هذه الأنشطة لاختيار وتهيئة العناصر الادارية وإكسابها المهارات والقدرات والاتجاهات التي تؤهلها لاداء عملها بطريقة أفضل . وهي تشمل فضلا عن ذلك تطوير الهياكل التنظيمية في مؤسسات الأعمال نفسها لتصبح أكثر كفاءة وقدرة على تحقيق الاستمرار والنجاح والتطور المستمر في عالم يتصف بالتغيير السريع والمنافسة الحادة . ان دور الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي وبيوت الخبرة والاستشارات هو دور مساعد في هذا المجال . ويأتي الطلب على خدمات هذه المعاهد من مؤسسات الأعمال ، على ضوء مدى التطور في الخدمات التي تؤديها ووفائها باحتياجات مؤسسات الأعمال التدريبية والتعليمية والبحثية والاستشارية .

وقد نما النشاط التعليمي والتدريبي والاستشاري والبحثي المتعلق بالادارة في الدول الرأسمالية المتقدمة نموا فلكيا في الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية . لقد كانت البداية في تطوير هذا النشاط في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أدت الحرب العالمية الثانية الى تبوُّء مؤسسات الأعمال الأمريكية مركزا قياديا في العالم الرأسمالى . وأدى التحدى الأميركى لمنشآت الأعمال الأوربية واليابانية الى اهتمام المشروعات الكبرى في هذه البلاد بقضية التنمية الادارية بها . وسارت في نفس الاتجاه الأميركى فطورت برامج لتطوير وتنمية القيادات الادارية عن طريق جهود مشتركة لوحدات الأعمال الكبرى والجامعات والمعاهد ومؤسسات البحوث والاستشارات . وكما هو الحال في الولايات المتحدة فإن التنمية الادارية في هذه البلاد من مسئولية وَحدات الأعمال التى تستعين بخدمات المؤسسات العلمية والبحثية والاستشارية .

وقد تطورت خطط ومناهج التنمية الادارية والتكنيك المستخدم لتحقيقها في البلاد الرأسمالية المتقدمة بصفة مستمرة نتيجة للتطورات المتلاحقة التى طرأت على مؤسسات الأعمال نفسها ، وتغيير طبيعة نشاطها والظروف التى تعمل في اطارها وطبيعة المشاكل التى تواجهها من ناحية ونتيجة لتطور العلوم الادارية من ناحية أخرى . وقد تركز الاهتمام في البداية على اكساب المهارات الخاصة بوضع الهياكل التنظيمية السليمة وتقسيم العمل تقسيما وظيفيا ، وانشاء إدارات قائمة على تناسق الوظائف والاختصاصات وتحديد الفواصل بين السلطات ، وتحديد المسئوليات لكل مستوى وظيفى ، وتنظيم مراحل واجراءات العمل ، وتأكيد وحدة القيادة واتباع الأسلوب المناسب لرفع التقارير والتنسيق بين الأقسام ، وتطبيق مبادىء التدرج الهرمى والالتزام بالأوامر المكتوبة ، فضلا عن المهارات المتعلقة بالتخطيط والتنظيم واختيار العناصر المناسبة ، وتحفيزها على العمل وايجاد نظام مناسب للرقابة وغيرذلك مما هو ضرورى لتكوين بيروقراطية صالحة ذات كفاءة في تنظيم هرمي على أساس نموذج ماكس فيبر الشهير .

وقد أدت التطورات في المجتمعات الرأسمالية خلال فترة الكساد الكبير في الثلاثينيات ثم في فترة الحرب العالمية الثانية فضلا عن التقدم السريع في العلوم السلوكية الى ادراك الادارة بأن العاملين في المشروعات يتأثرون بالجماعات البشرية الذين هم جزء منهم قدر تأثرهم بقرارات الادارة وتوجيهاتها ، وان السلطة لا تتبع دائما خطوط المسؤلية الرسمية وان السلطة الحقيقية هى رهن بقبول التوجيهات والأوامر لابحق اصدارها . وقد أدى ذلك الى الاهتمام باكساب المديرين معارف تتعلق بالجماعات ، والتنظيمات غير الرسمية ، والحوافز الاجتماعية ، والسلطة المكتسبة وأهمية القيادة الديموقراطية وغير ذلك ، والسعى لاكسابهم قدرة أكبر على القيادة عن طريق إحداث تغيير في الاتجاهات والقيم وإكسابهم قيما واتجاهات جديدة في التنظيم والاشراف عن طريق فرق العمل وغير ذلك .

وقد أدت زيادة حجم مؤسسات الأعمال وتعقد تنظيمها وتطور الدراسات الخاصة بالنظم وتزايد دور المعلومات ، خاصة بعد انتشار الوسائل الكمية واستخدام النماذج الرياضية وطرق بحوث العمليات وما إليها ، الى النظر الى المشروعات باعتبارها أنظمة جزئية في نظام كلي هو الاقتصاد الوطني أو الدولي ، وباعتبارها تتكون من أنظمة جزئية متعددة توجد بينها علاقات متشابكة تتصف بدرجة عالية وأشكال مختلفة من الاعتماد المتبادل .

وقد تطلبت التنمية الادارية في هذه الظروف تطوير وتوفير عدد كاف من محللي النظم والسعي لتوفير المهارات اللازمة للاستفادة من نظم المعلومات المتقدمة للسيطرة على إدارة منظمات الأعمال الكبيرة والمعقدة ، مما دفع الى تطوير برامج تدريب وتطوير القيادات الادارية العليا ليصبح للمديرين المهارة والقدرة على تحليل وإدارة الأنظمة الكلية .

ويبدو ان مرحلة جديدة هي على وشك النشوء نتيجة لاتجاه وحدات الأعمال الى العالمية واتجاهها في الوقت نفسه الى قدر كبير من اللامركزية تحت ضغط المنافسة الشديدة بين الوحدات ، مما يدفع بالادارة الى الاهتمام بتوفير عناصر قادرة على المبادرة والفعل والسعي لتغيير البيئة المحيطة بدلا من مجرد التأثر السلبي بها ، والقدرة على الالمام باستراتيجية المؤسسة والمبادرة في اطارها وتحفيز العاملين على المبادرة والفعل(٣)

ان اشتداد المنافسة بين المشروعات الرأسمالية الكبرى على النطاق العالمي أدى الى قفزة كبيرة في التعليم الاداري وجهود التنمية الادارية خلال العقد الأخير . ويكفي ان نشير هنا الى أن أكثر من ربع طلاب الجامعات والمعاهد العليا في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٥ (نحو ٢٥٠,٠٠٠ طالب) كانوا يدرسون ادارة أعمال . وان نحو ٧٥٠٠٠ من الحاصلين على الماجستير في ادارة الأعمال قد انضموا الى قوة العمل في الولايات المتحدة في العام نفسه . وقد كان ما أنفقته الشركات الأمريكية على التعليم والتدريب في عام ١٩٨٥ ما بين ٤٠ و ٦٠ مليار دولار سنويا طبقا لتقدير معهد كارنيجي وهو ما يقارب كل الانفاق على التعليم الجامعي والدراسات العليا في الولايات المتحدة في العام نفسه ، وهو مايبرز مدى ضخامة جهود التنمية الادارية والتكنولوجية التي تضطلع بها مؤسسات الأعمال .

ويلاحظ أن أهم التطورات في طرق وأساليب الادارة في الدول الرأسمالية المتقدمة يتم بصفة أساسية داخل المؤسسات الادارية نفسها ، وبخاصة مؤسسات الأعمال . ان مثل هذا التطور يكون نتيجة لمحاولة مواجهة مشاكل محددة وحل مسائل جديدة يطرحها التطور العلمي والتقني والتطور في الأسواق وفي البيئة المحيطة وغير ذلك . وإذا كانت مؤسسات الأعمال تستعين في تطوير الادارة وأساليبها بعلماء الادارة سواء من داخل المؤسسة أو من خارجها ، فإن أي تطورات تحدث في كل الأحوال مرتبطة بشكل وثيق بالممارسة الفعلية وتستجيب لمتطلبات معينة تطرحها الحياة نفسها .

وتسعى العلوم الادارية لملاحقة ماهو حادث بالفعل واستنباط الدروس من النجاح والفشل في مختلف المجالات . كما تسعى أيضا الى نقل الخبرة ودروس التجارب الواقعية الى الغير عن طريق وسائل التعليم والتدريب المختلفة التي تكون هي أيضا موضع تطوير وتحسين مستمر على ضوء الخبرة ونتائج البحوث والدراسات .

---

(٣) للتعرف على التطورات المتلاحقة في مضمون برامج التطوير الاداري انظر :

The Journal of Management Development, Vol. 6, Number 1, 1987. "Management Development: The fourth blue Print" By David Limerick and bert Cunnington pp. 54 - 67.

The Journal of Management Development Vol. 7 No. 2 1988 (s) "Corporate Management Development and Education: The State of Art" By robert M. Fulmer oo. 57 - 68.

ويلاحظ أيضا أن التطورات في وسائل الادارة وأساليبها في أى مجال من المجالات يكون له تأثيره وصداه في المجالات الادارية الأخرى . ان استخدام أساليب بحوث العمليات بواسطة القوات المسلحة للمساعدة على ترشيد بعض القرارات خلال الحرب العالمية الثانية قد فتح الطريق لانتشار استخدام هذا الأسلوب وأساليب رياضية مماثلة لترشيد القرارات الادارية في مؤسسات الأعمال وعلى الأخص في المؤسسات الكبرى . وقد استعانت الدولة والمؤسسات الادارية العامة المختلفة بالعديد من الأساليب الجديدة الخاصة بالتخطيط وصنع القرار والرقابة ، وتحديد التكاليف ، والتنظيم ووضع نظام سليم للمعلومات وغيرها من الأساليب التى طورت أصلا في ميدان الأعمال .

ومع ان جهود تنمية الادارة تشمل الآن في الدول المتقدمة كافة مجالات العمل الادارى بما فيها المؤسسات الادارية العامة ومؤسسات الأعمال وغيرها ، فإن تطوير وتنمية الادارة يبقى في كل الأحوال مسئولية المؤسسات الادارية نفسها سواء عامة أو خاصة ، على خلاف مايتم في أغلب الدول النامية كما سنشير فيما يلى .

ان مايميز الدول النامية ، بصفة عامة ، هو أنها قد تعرضت خلال عهود طويلة للسيطرة الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة ، وألحقت بالسوق الرأسمالى الدولى من موضع تابع . وقد ترتب على ذلك العديد من الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى لاتدعو الحاجة لعرضها في هذا المجال . ونكتفى فقط بالاشارة الى ان كل الدول النامية قد تعرضت لنوع من الانقطاع في مسارها التاريخى والتطور التلقائى لمؤسساتها . لقد حلت الادارة الاستعمارية محل الادارة الوطنية حلولا كاملا في بعض الأحيان ، أو سيطرت الادارة الاستعمارية على الادارة الوطنية واعادت تشكيلها بما يوافق أهدافها ووسائلها ومفاهيمها . وازيحت العديد من المنشآت الاقتصادية الوطنية أو حجمت وسيطرت الشركات التابعة للدول المهيمنه على أهم نواحى النشاط الاقتصادى وعلى الأخص في ميادين التجارة الخارجية والتمويل والصناعات الاستخراجية وغيرها من الأنشطة التى أخضعت اقتصاد المستعمرات وأشباه المستعمرات للدول الاستعمارية ووضعته في خدمتها . وتم خلال فترة السيطرة الاستعمارية نمو مشوه في أغلب الدول النامية أدى الى اختلال التوازن الاقتصادى القطاعى الداخلى وتفكك الروابط بين مختلف قطاعات الاقتصاد الوطنى ، كما أدى الى ثنائية في الاقتصادات الوطنية تتمثل في وجود قطاعات اقتصادية حديثة في بعض المجالات تخضع للسيطرة الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة الى جانب استمرار قطاعات تقليدية تزداد تخلفا نتيجة لما تتعرض له من تقلص مستمر في أسواقها وانحسار في مجالات نشاطها ، حيث أصبحت القطاعات التقليدية تركز على إنتاج سلع الاستهلاك الشعبى التى تحتاجها الجماهير والتى زادها الاستغلال الرأسمالى وتشوه النشاط الاقتصادى فقرا .

لقد واجهت أغلب الدول النامية مجموعة من المهام الصعبة والمعقدة إثر حصولها على استقلالها السياسى . يأتى في مقدمتها إنشاء وبناء جهاز دولة حديث أو استعادة السيطرة الوطنية على جهاز الدولة الذى كانت قد انشأته الادارات الاستعمارية ، « ووطنته » واعادة تنظيمه للقيام بالخدمات الجديدة التى طرحها السعى لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية متسارعة تخرج البلاد من حالة الفقر وترفع مستوى معيشة السكان . وتعيد هيكلة الاقتصاد الوطنى وبناء قاعدة اقتصادية حديثة قادرة على مواصلة النمو الذاتى في المستقبل . كما تشمل تلك المهام السعي الواعي لاحداث تنمية

اقتصادية واجتماعية تخرج البلاد النامية من الدائرة الجهنمية للتخلف في ظروف تتصف باستمرار السيطرة الاقتصادية للدول الرأسمالية الكبرى على النظام الاقتصادى العالمى وتحديدها لشروط عمله وآلياته ، واستمرار معاناة الدول النامية من نقص وتخلف المؤسسات والتنظيمات القادرة على تعبئة الموارد المحلية وحسن تخصيصها لتحقيق الأهداف المرجوة ، وغياب المنظمين القادرين على الابتكار والتجديد وتحمل المخاطر .

ورغم التباينات بين البلاد النامية ، في مستوى التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، أو في أنظمة الحكم التى تتبعها ، واستراتيجيات التنمية التى تتبناها فإن التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتضمن في كل الأحوال انشاء وتطوير مؤسسات حديثة كبيرة للقيام بالخدمات الضرورية أو تحقيق الانتاج المطلوب . ان التنمية تتطلب ان تلعب الدولة دورا أساسيا متزايدا في توجيه الحياة الاقتصادية وفي انشاء وتطوير الهياكل الارتكازية الضرورية ، وفي تطوير القوى البشرية وتعليمها واعدادها ، وفي تعبئة المدخرات الوطنية وتوجيهها للاستثمار وفي توفير الظروف الملائمة للاستثمار وغير ذلك .

وتتضمن التنمية أيضا تعديل هيكل الاقتصاد الوطنى في اتجاه أحداث توازن أفضل وترابط بين فروع الاقتصاد المختلفة وانهاء ثنائية الاقتصاد ، وبذل جهود لزيادة الانتاج والانتاجية . ويتطلب ذلك في العديد من الحالات انشاء وتطوير فروع جديدة للنشاط الاقتصادى واستخدام أساليب إنتاج أكثر تقدما وتطورا ، والاهتمام بإنشاء وتطوير قطاع صناعى حديث وغير ذلك . وسواء أتم الجزء الأكبر من هذا النشاط بواسطة القطاع العام أو الخاص ، وسواء أبقى الاستثمار الاجنبى يلعب دورا أساسيا في الاقتصاد الوطنى ، أم حاولت الدولة الوطنية ان تستعيد السيطرة على الموارد والنشاط الاقتصادى فيها ، فإن التنمية تتضمن في كل الأحوال إنشاء وتوسيع العديد من المؤسسات الحديثة للخدمات والانتاج التى تتطلب حجما ضخما من الكوادر المحلية لتسييرها وإدارتها (حتى وان استمرت الاستعانة الواسعة بالخبرة الاجنبية) . ان ذلك يعنى ضرورة السعى لتوفير أعداد متزايدة من القيادات الادارية ، واكسابها المهارات والقدرات اللازمة للمساهمة الفعالة وقيادة عمليات انشاء جهاز دولة وطنى عصرى ، يضطلع بدور هام في مجال توفير الخدمات الضرورية للسكان وتسيير الاقتصاد الوطنى ، ويوفر الآلية اللازمة للتنمية ويحتفظ بها ويطورها باستمرار في ضوء التغيرات الكمية والتحولات النوعية التى تترتب على عملية التنمية ذاتها أو التى تكون نتيجة للتغير في الظروف المحيطة . هذا الى جانب توفير القيادات اللازمة لتسيير المؤسسات العامة والخاصة العاملة في مجال الانتاج والخدمات والمجتمع بصفة عامة وتحقيق نجاحها في عالم يشتد فيه التنافس والاتجاه نحو العالمية . ولا يتم ذلك دون جهود مكثفة ومنظمة لاختيار العناصر الصالحة التى تملك القدرة على اكتساب الخبرة والمهارات الضرورية وتدريب هذه القيادات والمحافظة عليها وتحقيق اصلاحات ادارية جذرية في الجهاز الادارى القائم لرفع كفاءته وتوفير فعاليته .

ولا تمتلك الدول النامية بحكم تخلفها ، وبحكم ماحدث من انقطاع في نمو مؤسساتها الوطنية ، وسيطرا وهيمنة العناصر الأجنبية على أهم الأنشطة الحديثة ، ماتستند اليه من تجارب خاصة أو قاعدة معرفية محلية تؤهلها لاعداد وتوفير القيادات الادارية اللازمة . وهى تضطر لذلك الى الاعتماد على نقل الخبرة ونقل المعرفة ونقل التجارب في مجال الادارة كما تنقل المعرفة والتقنية في مختلف الميادين الأخرى .

وهي تنقل المعرفة ، او تسعى لنقلها خلال العديد من الوسائل التي تشمل جهودا تعليمية وتدريبية تتم بواسطة مؤسسات وطنية او خارجية ، الى جانب الحصول على الخدمات الاستشارية إما من مؤسسات دولية أو من افراد أو بيوت خبرة أجنبية كما تكتسب الخبرة ايضا عن طريق العمل في المؤسسات الاجنبية الحديثة او فروعها في الدول النامية ، او عن طريق التعليم والتدريب في الخارج سواء في مؤسسات اكاديمية او في شركات ومؤسسات دولية مشابهة في الخارج .

وتستند جهود التطوير الاداري ، في الدول النامية في الاغلب ، الى الاعتقاد بأن الادارة قد أصبحت علما له قواعده ، وأدواته ووسائله التي تنطبق ويمكن استخدامها في كل الظروف والاحوال . وان اتباع مبادىء الادارة العلمية كفيل بتحقيق النجاح في قيادة كل أنواع المؤسسات الادارية . وان وسائل التدريب الاداري وتطوير القدرات الادارية التي استخدمت بنجاح في الدول الصناعية المتقدمة يمكن ايضا ان تساعد في نقل الخبرة والمعرفة واكتساب المهارات والقدرات في البلاد النامية رغم ما قد يكون هناك من فروق في الظروف الاقتصادية والاجتماعية وخلافات في الثقافة والتقاليد والعادات بين الدول المتقدمة والدول النامية .

لقد اتجهت الجامعات والمعاهد (من خلال التدريب الاداري) الى الاغتراف من الحصيلة العلمية التي تجمعت عن الادارة وطرقها ووسائلها وشروط نجاحها . . الخ في البلاد الصناعية المتقدمة ، وبخاصة في الولايات المتحدة الامريكية واوروبا الغربية ، ومالت الى استخدام نفس اساليب التدريب الاداري التي طورتها هذه البلاد لتنمية مديريها .

وبالنظر لان علوم الادارة واساليب التدريب والتطوير كانت موضع تغيير مستمر في العالم المتقدم (بحكم التطورات الموضوعية في عمل وحجم المؤسسات وتغير ظروف السوق والبيئة ونمو المعرفة العلمية كما أسلفنا) فان الدول النامية تجد نفسها مضطرة الى ملاحقة التطورات في الدول المتقدمة وتطوير برامجها للتنمية الادارية لتتمشى مع التطورات في علوم الادارة والنظريات التي سادت في العالم المتقدم بين مرحلة واخرى . وكانت اتجاهات الاصلاح الاداري والبرامج التدريبية والتعليمية تؤكد في كل فترة وتتبع النظريات والمقاربات الاكثر شيوعا في الفكر الاداري في الدول المتقدمة .

ويمكن للمتابع لجهود التطوير الاداري في الدول النامية ان يلاحظ تغيير مضمون برامج التدريب الاداري واتباعها لنفس الاتجاهات التي سادت في الدول المتقدمة ، والتي اشرنا اليها فيما سبق . لقد انتقلت برامج التدريب الاداري في الدول النامية ايضا من الاهتمام والتركيز على المدخل التنظيمي ، الى المدخل السلوكي ، الى مدخل اصدار القرارات والنماذج الرياضية والتحليل الكمي ، واخيرا الى التأكيد على التخطيط الاستراتيجي والنظرة الكلية الاستشرافيه والسعي للعالمية .

واذا كانت التطورات في طرق وأساليب الإدارة في الدول المتقدمة تتم ، كما سبقت الاشارة ، في المؤسسات

الادارية الاكثر تقدما في ارتباط وثيق بالممارسة الفعلية واستجابة لمتطلبات معينة تطرحها الحياة ، وتتطور العلوم الادارية بالتالي عن طريق ملاحقتها لما هو حادث بالفعل وبحثه ودراسته لاستخلاص دروس النجاح والفشل في ظروف معينة وأوضاع محددة فان جهود التطوير الاداري والتنمية الادارية في الدول النامية تستند الى النقل ومحاولة اللحاق بكل ما هو مستحدث على اساس افتراض قابل للشك بان مشاكل الادارة في الدول النامية هي نفسها مشاكل الادارة في الدول الاكثر تقدما وان ما هو صالح لحل مشاكل الادارة في الدول المتقدمة هو صالح ايضا في الدول النامية ، وان التنمية والتطوير الاداري يتطلبان دائما تبني واستخدام الاحدث والاكثر تطورا .

ويتم الجهد الاكبر لاحداث التنمية والتطوير الاداري بوساطة مؤسسات حكومية واكاديمية تسعى بصفة اساسية لاصلاح الجهاز الاداري للدولة وتطوير القطاع العام .

التنمية الادارية في الوطن العربي : الانجازات ونواحي القصور :

باستثناء السعودية واليمن الشمالي كانت كل الدول العربية قد أخضعت للهيمنة الاستعمارية . وقد حصلت كل الدول العربية على استقلالها السياسي في الفترة التي امتدت بين انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية السبعينيات . واتجهت الحكومات الوطنية في البلاد حديثة الاستقلال ، وفي السعودية التي بزغ فيها عصر النفط ، ثم في اليمن عقب ثورتها ، نحو بناء جهاز الدولة . ورغم الاختلافات بين البلاد العربية واختلاف نظمها الادارية التي ورثتها من عهود السيطرة الاستعمارية او التي كانت تطبق في المجتمعات التقليدية ، فقد سعت الدول العربية بعد الاستقلال الى ثلاثة امور في آن واحد : محاولة موطنة الوظائف الحكومية او تعريبها ثم موطنتها في حالة الدول النفطية ، ومحاولات وضع تنظيمات ادق للخدمة المدنية ، ومحاولة وضع نظم مالية موحدة ومنظمة للخدمة العامة[٤] .

ورغم الاتجاه للاعتماد بدرجة اكبر على المواطنين لشغل الوظائف العامة وتشييد الجهاز الحكومي فقد لعبت الخبرة الاجنبية دورا رئيسيا في اعادة تنظيم وتطوير الجهاز الاداري . ففي مصر تم الاستعانة بالخبير الانجليزي سنكر وأسفرت دراسته عن صدور القانون الخاص بنظام موظفي الدولة في عام ١٩٥١ . ثم أنشىء معهد الادارة العامة بمعاونة خبراء الامم المتحدة سنة ١٩٥٤ وأنشىء معهد الادارة العليا بعد التأميمات الكبرى في عام ١٩٦١ بمعاونة مؤسسة فورد وتم استقدام الخبيرين الامريكيين جوليك وبولوك للمعاونة في إعادة الادارة الحكومية في عام ١٩٦٤ .

وفي المملكة العربية السعودية استند تطوير الجهاز الاداري الى دراسات قام بها البنك الدولي في سنة ١٩٦٠ ومؤسسة فورد سنة ١٩٦٩ بالاضافة الى استشارات قدمتها بيوت خبرة امريكية متعددة . وقد استعانت العراق بخبراء

---

(٤) الدكتور نزيه الأيوبي ، انماط وتوجهات الادارة العامة في الوطن العربي ، الفصل الأول في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي تحرير الدكتور ناصر محمد الصائغ سابق ذكره ص ٤٢ ـ ٥٩

أجانب لاصدار قانون الخدمة المدنية في عام ١٩٥٦ وصدرت القوانين المتعلقة بانشاء ديوان الموظفين في الاردن استنادا الى تقارير خبراء الأمم المتحدة .

وتزايدت الاستعانة بالخبرة الامريكية في عمليات تنظيم وتطوير الادارة في عدد من الدول العربية في السبعينيات ، وبخاصة في السعودية ودول الخليج الاخرى ودول المشرق الاخرى ، وذلك نتيجة للانبهار بالخبرة الامريكية من جانب ولان برامج الامم المتحدة للمعاونة الفنية تعتمد اعتمادا كبيرا على الخبراء الامريكيين في مجال الادارة . كما ان الولايات المتحدة الامريكية قدمت منذ اواخر الخمسينيات عددا كبيرا من المنح لمواطني البلاد العربية في مجال العلوم الادارية والدراسات المتصلة بها .

ورغم ان الدول العربية قد تعرضت لتأثيرات ادارية مختلفة في مرحلة الاستعمار ، ورغم الاستعانة الواسعة بالخبرة الامريكية لاحداث اصلاح اداري ، الا ان الارتباط الشديد بين الادارة في الدول العربية وبين القيادات الحاكمة واهتمامها بخدمة الحاكم او النخبة الحاكمة اكثر منها بخدمة الشعب قد ادى الى اتجاه الادارة العربية الى درجة عالية من المركزية والتأثر بدرجة أكبر بالنموذج المركزي التوحيدي الفرنسي للادارة العامة مع ما يصاحب هذا النموذج من تركيز على الجانب القانوني المكتوب والميل الى كثرة اصدار القوانين واللوائح وما يستتبعه ذلك من اهمية دور اجهزة الرقابة الادارية اللاحقة التي تهتم بالكشف عن الاخطاء والمعاقبة على التجاوزات . وقد ادى ذلك الى تبني نموذج مركزي بيروقراطي يقوم على تنميط التنظيم والاجراءات ومباشرة العملية الادارية باسلوب اوامري موحد بغض النظر عن تعدد وتنوع المهام المطلوب انجازها والجماهير المطلوب خدمتها .

وقد لعب القطاع العام دورا هاما في التنمية في الوطن العربي ، إما للاضطلاع بالمشروعات الكبرى التي يتراخى القطاع الخاص عن القيام بها ، او لان بعض الدول قد تبنت نوعا من التوجهات الاشتراكية او اعتمدت على شكل من اشكال رأسمالية الدولة . وتبنت أغلب الدول العربية لذلك فكرة المشروعات العامة ، وان اختلفت اوضاع المشروعات العامة القانونية والتنظيمية والمالية بين بلد وآخر . لقد مالت بعض الدول مثل مصر الى تنميط التنظيمات والاجراءات ونظم العاملين في المشروعات العامة وانشأت مستوى تنظيميا وسيطاً بين الوزارات والشركات العامة اتخذ اسم المؤسسات العامة او الهيئات العامة مما اخضع المشروعات العامة لقواعد قريبة من القواعد المعمول بها في المصالح الحكومية . وقد مالت دول اخرى الى اعطاء المشروعات العامة درجة عالية من الاستقلال جعلتها أقرب الى المشروعات الخاصة .

وبغض النظر عن مدى استقلال القطاع العام او خضوعه للسيطرة الحكومية ، فانه ليس مختلفا عن المصالح الحكومية التقليدية . مما يؤدي الى القول بوجود نوعين من « الادارة العامة » في اغلب الدول العربية[٥] .

---

(٥) نزيه الأيوبي ، المصدر السابق ص ٥٤ .

وقد اهتمت اغلب الدول العربية بانشاء اجهزة للخدمة المدنية او الوظيفية العامة على اختلاف مسمياتها وتبعيتها . وقد تولت هذه الاجهزة فيها تولته مهمة التنمية الادارية التي تخضع لاشراف مركزي في بعض الحالات (كما في حالة مصر) او التي تتعدد أجهزتها في حالات اخرى (لبنان وتونس والسعودية والكويت كمثال) .

وقد قامت أجهزة الخدمة المدنية في البلاد العربية بأنشطة متنوعة واعتمدت على أساليب مختلفة لتحقيق الاصلاح الاداري وتحقيق التنمية الادارية . وقد شملت هذه الأساليب تقنين وترشيد النظم خلال إصدار التشريعات المنشئة او المعدلة او المصلحة لنظم العاملين من حيث الاختبار والتعيين والرواتب والترقية والتقاعد والتأمينات ، وإجراء اصلاحات تنظيمية تتضمن بناء المنظمات وتطويرها ، وتحديد المسئوليات والعلاقات الرأسية والأفقية بين الاجهزة ، وتحديد التدرج الوظيفي والسلطوي للمؤسسات ، ووصف الاختصاصات ، وتوصيف الوظائف وتنميطها وربط المكافآت بالعمل ، والسعي لزيادة كفاءة المنظمات وتحسين انتاجيتها عن طريق الاخذ بنظم ميزانيات الاداء او اتباع برامج الادارة بالاهداف والمحاسبة على أساس النتائج وتطوير نظم تقييم الاداء ، والتوسع في تدريب المديرين والقيادات عن طريق برامج تدريبية او إنشاء معاهد للتدريب ، وتنمية القيادات وتقديم الخدمات الاستشارية لتطوير التنظيم وتحسين الاداء .

ورغم نواح متعددة للقصور سنشير اليها فيها بعد الا ان جهود التطوير الاداري والتنمية الادارية قد مكنت البلاد العربية من تحقيق قدر هام من النجاح في التغلب على التحديات الضخمة التي واجهتها في المرحلة التالية لنيل استقلالها السياسي وخلال معاركها من أجل تثبيت الاستقلال ونفض او الحد من الهيمنة الاستعمارية على مقدراتها .

لقد أمكن إحداث قدر هام من تطوير التشريعات وأحكامها ، وضبطت ونظمت قوانين وترتيبات شئون العاملين وأمكن تحقيق قدر أكبر من المساواة فيها بينهم . وتم ايضا الارتقاء بمستوى الميزانيات في المنظمات الادارية على مستوى الدولة وتطوير أساليبها الفنية ومفاهيمها ، فضلا عن توفير أعداد متزايدة من القادة الاداريين الذين زودوا بقدر هام من المعرفة والخبرة عن طريق التدريب الاداري ، الذي اتسع اتساعا كبيرا ، واكتسبوا الخبرة خلال العمل والممارسة .

ومن المفيد أن نذكر أن الدول العربية قد استطاعت أن تدير مؤسسات اقتصادية ومؤسسات أعمال كبرى تم تعريبها او تأميمها دون ان يحدث نقص ذو بال في مستوى الاداء الاداري ، بل حدث تحسن في مستوى الأداء في بعض الأحيان . ويكفي أن نشير هنا إلى النجاح في إدارة مؤسسات كبرى مثل قناة السويس ، وشركات النفط الكبرى والبنوك ، وشركات التامين ، وشركات التصدير والاستيراد وشركات المقاولات والانشاءات والشركات الصناعية الكبرى فضلا عن إدارة الخدمات الحكومية ومنشآت الأعمال التي اتسعت اتساعا هائلا بعد الاستقلال .

صحيح ان بعض المؤسسات العربية اضطرت للاستعانة بالخبرة الادارية الاجنبية ، من أجل بناء هياكلها التنظيمية ، او تقديم الخبرة والمشورة لها او حتى لادارتها بشكل مباشر ، الا ان ذلك لا ينفي أنه تم تكوين ادارة عربية

وتطويرها من خلال ممارستها لنشاطها الاداري وعن طريق التدريب والتعليم واكتساب المعرفة ، ولا ان هذه القيادات قد مارست دورا هاما في تسيير المؤسسات التي تقودها بنجاح . وقد تم اكتساب تلك الخبرات التي لم تكن البلاد العربية تملكها من قبل من خلال جهود مكثفة للتنمية الادارية من جانب وعن طريق الممارسة الفعلية والتجربة والخطأ من الجانب الآخر .

ان الانجازات التي تحققت يجب ألا تحجب حقيقة هامة وهي استمرار تعثر التنمية في الوطن العربية نتيجة للعديد من نواحي القصور في ادارة التنمية العربية ، والفشل في تعبئة الموارد العربية وتوجيهها للتنمية وعدم القدرة على تعبئة واطلاق القدرات البشرية المتاحة والاستفادة منها الاستفادة الكاملة وقصور المجتمع العربي عن تكييف البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتحقيق التنمية المنشودة . ان تعثر التنمية يعود ، ضمن أسباب أخرى ، الى نواحي القصور الاداري التي تتبدى فيما يلي :

(١) استمرار الطابع المركزي الشديد للادارة العربية سواء في الجهاز الاداري للدولة او في القطاع العام او الخاص وذلك رغم التعريف باهمية النهج اللامركزي للادارة في المؤسسات الكبيرة وضرورة إفساح المجال لقدر من التفويض بالسلطة لتجنب تعطيل الطاقات والكفاءات ولسرعة اصدار القرارات ، ولتنمية صف ثان من المديرين القادرين على أخذ المبادرة .

إن توفر هذه المعرفة لا يمنع القيادات الادارية في الجهاز الاداري والقطاع العام من التشبث بالسلطة والاحتفاظ بمركزية القرارات ، حتى وإن أدى ذلك الى انشغال القيادات الادارية العربية بالروتين اليومي مع ما يترتب على ذلك من عدم قدرة على متابعة التوجهات الاستراتيجية للمؤسسات واعطاء الجهد الكافي لتطويرها . ان مثل هذا التشبث يعكس بدرجة أو بأخرى الفلسفة الادارية السائدة ، التي تضع الادارة العامة في خدمة الحاكم او الفئة الحاكمة والتي تعطي أهمية أقل للفئات التي تقدم اليها الخدمة . كما يعكس النظر الى الوظائف الادارية العليا باعتبارها أداة لتحقيق القوة والسلطان والمركز الاجتماعي . كما أنه يعكس سيادة الملكية الفردية والعائلية في القطاع الخاص ـ حتى في حالة شركات الاموال والشركات المساهمة التي هي في الاغلب شركات عائلية تتخذ الاطار القانوني لشركات المساهمة ـ حيث يتم الربط الوثيق بين حق الملكية وحق الادارة . وتتركز كل القرارات الادارية في يد المالكين أو ممثليهم ولا يسمح بالتفويض بالسلطات الا في أضيق الحدود .

(٢) تزايد التضخم الاداري والوظيفي في الأجهزة الادارية للدولة والقطاع العام : أدى التزايد المستمر في الوظائف التي تقوم بها الدولة في الوطن العربي وتحمل الاجهزة التنفيذية لمهام ومستويات تنموية متزايدة الى إنشاء مزيد من الأجهزة الادارية او إضافة اختصاصات جديدة لاجهزة إدارية قائمة بالفعل . ولم يكن نمو المؤسسات الادارية في كل الاحوال استجابة لحاجات موضوعية فالعديد من الاجهزة الادارية تميل الى النمو والتشعب وتسعى باستمرار الى اضافة

اعمال واختصاصات لها تراها ضرورية اما للوفاء باهدافها او لتحقيق قدر من السيطرة الداخلية على الامور والحد من الاعتماد على مؤسسات ادارية اخرى . ويؤدي مثل هذا الاتجاه الى بناء امبراطوريات إدارية يغيب التنسيق الفعال فيما بينها . ان مثل هذا التضخم في المؤسسات الادارية إضافة الى ظاهرة المركزية التي سبقت الاشارة اليها يقود الى قصور العديد من الاجهزة عن تحقيق اهدافها الاساسية وانشغالها بالمعاملات الروتينية ، وهو ما يؤدي بين حين وآخر الى عمليات اعادة تنظيم يتم فيها تفكيك وإعادة تركيب بعض المنظمات ويعاد فيها توزيع الاختصاصات . . . الخ . وبدلا من ان تساعد مثل هذه العمليات على إبعاد المؤسسات غير الضرورية فانها كثيرا ما تؤدي الى تداخل وترهل إداري وعدم وضوح خطوط السلطة والاتصال وغموض في الصلاحيات والمسئوليات وزيادة تعقيد العمل الاداري .

ان هذا التضخم المستمر في الجهاز الاداري وتعقده يرجع ايضا الى نوعية الفلسفة الادارية السائدة وعلاقة الجهاز الاداري بالنخبة الحاكمة وبمجموع الشعب الذي يفترض ان الجهاز الاداري يسعى لخدمته . ان ميل اجهزة الادارة في الدول العربية لان تنظر الى نفسها كاجهزة سلطة تسعى لخدمة الحاكم بدلا من ان تكون اجهزة خدمة للمصالح الشعبية يجعلها قليلة الحساسية للتكلفة والعائد خاصة وانه يندر ان تخضع لاي محاسبة اقتصادية بواسطة سلطة شعبية .

وقد ارتبط بالتضخم الاداري تضخم وظيفي كبير لأن الحكومة والقطاع العام قد اعتبرا وكالات استخدام في العديد من الدول العربية التي تحملت مسئولية اجتماعية عن توظيف مواطنيها ، وبخاصة المتعلمين منهم ، ولم يؤد النشاط التنموي الى خلق فرص حقيقية كافية للتوظف في القطاعات الانتاجية .

(٣) تنامي ديكتاتورية البيروقراطية وأمراضها وانتشار الفساد الاداري : لقد أدى النمو المتسارع لدور أجهزة الدولة والقطاع العام في عملية التنمية والتطوير مع ضعف أجهزة الرقابة عن طريق مجالس منتخبة او أي شكل من أشكال التمثيل الشعبي الاخرى ، وغياب وجود حقيقي للرأي العام ممثلا في منظمات مستقلة للمجتمع المدني ، الى تحول البيروقراطية العامة الى مركز قوة حقيقي في المجتمع واكتسابها لحصانة ومناعة ضد المساءلة والحساب ، رغم وجود وتعدد الاجهزة الرقابية الادارية .

وقد ترتب على ذلك ، وعلى ظاهرة التكدس الاداري والوظيفي التي سبقت الاشارة اليها ، امتصاص الاجهزة البيروقراطية العامة لجزء هام من موارد المجتمع ومخصصات التنمية ، وبروز العديد من الظواهر المرضية للبروقراطية في الوقت نفسه . ويأتي في مقدمة هذه الظواهر انخفاض انتاجية وكفاءة العمل الاداري العام ، وارتفاع تكاليف الخدمات ، وشيوع ظواهر الاهمال والتسيب والتراخي في ممارسات العمل ، الى جانب الافراط في الرسمية والشكلية ونمو ممارسات الفساد الاداري بصوره المختلفة بما في ذلك الرشوة والاختلاس واستغلال المال العام والوظيفة العامة وشيوع ظاهرة المحسوبية والمحاباة .

ان مثل هذه الظواهر تشيع في كل البلاد العربية ، ولو بدرجات متفاوتة ، فهي تنتشر في البلاد التي ينخفض فيها

متوسط الدخل نتيجة لندرة الموارد التي تخصص للدولة مقارنة بالاهداف الطموحة التي تسعى الدولة لتحقيقها . وهو ما يؤدي الى اشعال المنافسة بين افراد الجمهور للحصول على الخدمة الحكومية ، ويعطي القيادات الادارية التي تملك السلطة قوة تمكنها في غياب المساءلة الديموقراطية من أن تصبح ، دون غيرها ، هي القادرة على المنح والمنع ، مما يهيء الجو لظواهر الفساد والمحاباة واستغلال النفوذ . ويزيد انتشار الفساد بصفة خاصة حينما يشتد التمايز الاجتماعي في الدولة ويزداد الاتجاه الى سيادة الاتجاه الاستهلاكي مع ضعف مرتبات ومهايا من يملكون سلطة القرار . وتنتشر هذه الظواهر نفسها حتى في البلاد العربية التي يتمتع اهلها بمستويات دخل مرتفعة بالنظر الى الدور الاساسي الذي تلعبه الحكومة في توزيع « الريوع » ، وفي تخصيص الاعمال والعطاءات وغيرها .

(٤) غياب مقاييس موضوعية لكفاءة الادارة والاعتماد على الولاء او صلات الرحم في اختيار القيادات الادارية العليا ، اذ تعمل أغلب المؤسسات الادارية العربية العامة او الخاصة في ظروف تحميها من أي منافسة حقيقية ، وتمنع وجود أي ضغوط فعالة تمكن من فرز القيادات الادارية على أساس من الكفاءة والفعالية .

ان العديد من مؤسسات الاعمال العامة او الخاصة تتمكن في الظروف العربية من توسيع نشاطها وزيادة رقم اعمالها وتحقيق أرباح طائلة نتيجة لقوة علاقتها واتصالاتها ونفوذها في أجهزة الحكم بغض النظر عن مدى كفاءتها الادارية والانتاجية ، والدولة هي العميل الأساسي والأكبر في أغلب الدول العربية . وتستطيع العديد من المؤسسات في حالات كثيرة استغلال أشكال الفساد الاداري المختلفة لتوسيع نشاطها وزيادة أرباحها . وبغض النظر عن استغلال الفساد الاداري فان المؤسسات الوطنية تحظى في العديد من الحالات بحق التعامل مع الدولة دون منافسة خارجية ، وهي تتمكن من تحديد الاسعار وتوزيع رقم الاعمال فيما بينها عن طريق الاتفاق بما يمكنها جميعا من تحقيق قدر هام من الارباح . وتتمتع منشآت الاعمال الوطنية فضلا عن ذلك بدرجة عالية من الحماية في السوق الوطني الـذي يغلق لصالحها في بعض الحالات . وتحظى بعض المشروعات باحتكار يكاد يكون مطلقا في بعض الانشطة نتيجة لمحدودية حجم السوق مقارنا بالحجم الأمثل للوحدات الانتاجية ولغلق السوق في مواجهة اي منافسة خارجية .

وتميل الحكومات العربية ايضا الى تقديم دعم لمؤسسات الاعمال في حال تحملها للخسائر بما يمنع إفلاسها او تصفيتها . ويتم ذلك بصفة خاصة بالنسبة للمؤسسات الكبيرة التي تعمل في مختلف مجالات النشاط ، بما في ذلك المصارف وبيوت التمويل وشركات التأمين والشركات الصناعية وشركات المقاولات والشركات العقارية وغيرها ، وهو ما يؤدي الى استمرار بقاء وحياة مؤسسات ذات كفاية متدنية .

ان المشروعات العامة تتعرض فضلا عن ذلك لقدر هام من تدخل الاجهزة الحكومية في نشاطها ، بما في ذلك تحديد لوائح العاملين وشروط العمل والفصل والاجور والعلاوات ، فضلا عن تحديد أسعار العديد من المدخلات والمخرجات وفرض تشكيلة معينة للمنتجات . ان ذلك كله ، فضلا عن التدخل المباشر في شئون الادارة اليومية الذي

كثيرا ما يحدث بواسطة الهيئات المشرفة على تلك المشروعات ، يعني عدم إمكان الاعتماد على نتائج الاعمال في هذه المشروعات كمقياس صحيح لمدى كفاءة او عدم كفاءة الادارة فيها .

ويمكن القول بصفة عامة إن الظروف التي تعمل فيها منشآت الاعمال الخاصة أو العامة لا تساعد على فرز القيادات الادارية ، وقياس أدائها قياسا موضوعيا صحيحا ، ومن ثم يصعب الاعتماد على عامل الكفاءة والفعالية كاساس في ترشيح العناصر المؤهلة لقيادة المنشآت الادارية .

والواقع ان اختيار قيادات المشروعات يتم في الاغلب على أسس لا تمت للكفاءة الادارية بصلة . ان ادارة المشروعات الخاصة ، التي لم يزل أغلبها يتخذ الطابع العائلي في أرجاء الوطن العربي ، تبقى في أيدي الأبناء او الأصهار او الأقرباء بغض النظر عن قدراتهم وكفاءتهم . اما بالنسبة للمشروعات العامة فان العامل الاهم في اختيار قياداتها لم يزل هو الولاء والصلات الخاصة بمتخذي القرار . وقد تكون تلك الصلات او الولاء مبنية على القرابة او المعرفة والزمالة او الانتماء القبلي او الجهوي في بعض الحالات ، كما يكون مبنيا على الولاء الحزبي والسياسي في أحوال أخرى .

(٥) غياب اي ابداع عربي إداري ، والنظر الى الادارة باعتبارها عملية فنية بحته لها قواعدها العلمية وأسسها الموحدة بغض النظر عن الزمان والمكان ونوع المجتمع والثقافة والقيم السائدة فيه .

وتبرز مثل هذه النظرة في مجال التعليم والتدريب الاداري ، وخلال محاولات الاصلاح والتطوير الاداري المختلفة التي تتم في البلاد العربية . ان المؤسسات العلمية العربية التي تقوم بتدريس علوم الادارة تعتمد على النقل عن أدبيات الادارة الغربية ـ وخاصة الامريكية ـ دون اي محاولات جادة للتأصيل او لتطوير فكر إداري عربي مستقل . وينطبق الشيء نفسه على جهود التدريب الاداري خلال مختلف برامج التدريب التي نقلت عن برامج التدريب الخارجية وطبقت نفس وسائلها وطرقها ، وسارت على خطاها دونما تحليل للاحتياجات التدريبية الحقيقية للمنظمات والافراد في الوطن العربي ودونما توفيق بين هذه الاحتياجات ومحتوى ما يقدم من برامج ، ولا قياس لآثار هذه البرامج على مؤشرات الاداء والفعالية . وقد سادت النظرة نفسها في جل محاولات التطوير والاصلاح الاداري . ان اغلب المؤسسات العالمية والاقليمية والقطرية قد انطلقت من افتراض أن ما هو صالح لمواجهة المشاكل الادارية في الدول الاكثر تقدما صالح كذلك لمواجهة المشاكل الادارية في دول العالم النامي بما فيها الدول العربية ، وأن الاصلاح يتم بتبني النماذج والقواعد ووسائل الادارة الحديثة التي ثبت نجاحها في مؤسسات يشهد لها بالكفاءة والامتياز في الدول الأكثر تقدما . ومن ثم فقد ندرت الدراسات الهادفة للتعرف على مدى تأثر النظم الادارية بالثقافة والقيم السائدة والبيئة المحيطة ، ودراسة الواقع المحلي واستنباط الوسائل اكثر صلاحية لمواجهة المشاكل الادارية التي تواجهها المؤسسات في وطننا العربي او تطويع الوسائل والأساليب لتكون اكثر اتفاقا مع الظروف المحلية .

وقد ترتب على ذلك محدودية نتائج محاولات الاصلاح والتطوير الاداري رغم الجهود والموارد الضخمة التي وجهت لهذه الغاية ورغم التكاثر السريع لمنظمات التنمية الادارية العربية .

واذا كان الابداع العلمي والاداري نادرا في منظمات التنمية الادارية ومؤسسات التعليم الاداري العربي فمن الطبيعي ومن باب أولى ان يختنق الاتجاه الابداعي في مؤسسات الاعمال والمنظمات الادارية العربية . وتبين بعض الدراسات التي أجريت على المنظمات الادارية في الوطن العربي ان البيئات التنظيمية لتلك المنظمات تتسم بالتسلط والقهر والمركزية وتخنق أي اتجاه إبداعي(٦) .

خامسا : المشاكل الادارية الرئيسة هي مشاكل مجتمعية

ان محدودية نتائج التطوير الاداري في الوطن العربي ، وعدم النجاح في التغلب على نواحي القصور الاساسية التي سبقت الاشارة اليها ، لا يعود الى قصور في استراتيجيات الاصلاح الاداري فحسب ، بل ولأن المحاولات المذكورة لا ترتبط بمجهودات أكبر لاحداث تطور اجتماعي أشمل وأعمق يؤدي الى إحداث تغييرات في نفس الاتجاه على مستوى القيم والبنى والمؤسسات والعلاقات التي تتشابك مع بعضها لتكوّن النسق الاجتماعي السائد .

ان عمليات التطوير والتنمية الادارية تركز على اكساب معارف إدارية جديدة أو إكساب بعض المهارات او تعديل في الاتجاهات لدى المديرين ، كما تسعى لادخال تعديلات على الهياكل التنظيمية والاجراءات واللوائح وغير ذلك دون ان تتطرق الى ما هو أبعد من ذلك من العوامل ذات التأثير الحاسم على السلوك الاداري .

وتبين العديد من التجارب في الوطن العربي ، كما في غيره من الدول النامية والمتقدمة ايضا ، ان المعرفة وحدها ليست هي الفيصل دائما في تحديد السلوك . ان العديد من المؤسسات التي نال القائمون عليها قسطا كبيرا من المعرفة الادارية ـ بما فيها منظمات التنمية الادارية نفسها ـ تبقى رغم ذلك تشكو من عدم كفاءة الادارة وعدم فعاليتها .

ان السلوك ، بما في ذلك السلوك الاداري ، تحكمه الى حد كبير القيم الاجتماعية السائدة . والقيم ، طبقا لتعريفات علماء الاجتماع « هي المعتقدات حول الامور والغايات وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس التي توجه مشاعرهم وتفكيرهم ومواقفهم وتصرفهم واختياراتهم وعلاقاتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين وأنفسهم والمكان والزمان وتسوغ مواقعهم وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم »(٧) .

وتشكل القيم المقاييس التي توجه السلوك البشري والتي يستند اليها في اصدار الاحكام والمقارنة والتقويم والتبرير والاختيار بين البدائل في المناهج والوسائل والغايات . وتستمد القيم الاجتماعية بشكل مباشر او غير مباشر من أنماط المعيشة والوضع الطبقي والعائلي والدين والنظام العام السائد . وتعتبر العائلة من أهم مصادر القيم في المجتمع

---

(٦) دكتور سر الختم محجوب علي ، الابداع الاداري والتطوير التنظيمي ، الفصل الثاني من الباب الرابع لكتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي تحرير د . ناصر محمد الصائغ .

(٧) الدكتور حليم بركات : المجتمع العربي المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٤ ص ٣٢٤ .

العربي . وتتحكم القيم التي تحكم العلاقات ضمن العائلة الى حد بعيد في العلاقات ضمن المؤسسات الاخرى والمجتمع ككل لان الانسان يرث طبقته ودينه من خلال عائلته وتتأثر رؤيته السياسية والتربوية بتنشئته العائلية .

وتتكامل نظم القيم لدى البعض ويدعم بعضها بعضا خلال أساليب التنشئة الاجتماعية ، وطرق العقاب والاثابة ، والضغوط التي تمارسها الجماعات والمؤسسات ، والاحترام الذي يرتبط بالمراكز الاجتماعية والوضع الاجتماعي وغير ذلك . وقد يصل التكامل في نظم القيم لدى البعض درجة تتوحد فيها القيم العائلية والدينية والسياسية والتربوية .

الا أن المجتمع يموج في الوقت نفسه باتجاهات قيمية متعارضة ، فقد تتواجد اتجاهات قيمية تعارض الاتجاهات السائدة بحكم الاختلاف في نمط الحياة او الوضع الطبقي او الاثني أو المصالح الاقتصادية . كما يتأثر العديد من الافراد بثقافات اخرى وافدة خاصة عند وقوع المجتمع تحت هيمنة خارجية ، او عند اتصال المجتمع بالمجتمعات الاخرى في وضع يتصف بالتبعية والاحساس بالنقص أو الدونية .

وكثيرا ما يقع الفرد الواحد تحت تأثير تيارات واتجاهات قيمية متعارضة في مجتمعنا العربي المعاصر الذي تتآلف في إطاره العديد من التناقضات والذي يتصف بالتنوع وأنه يعيش في مرحلة انتقال يتعرض فيها لتأثير العديد من الثقافات الوافدة .

وتتصارع في المجتمع العربي الحاضر ، ولدى كل واحد منا بدرجة أو بأخرى ، تيارات واتجاهات قيمية متعددة متكاملة ومتشابكة ومتقاطعة في آن واحد . ونشير بوجه خاص الى استمرار وحدة الصراع بين قيم القدرية وقيم الارادة الحرة ، وبين قيم السلفية والقيم المستقبلية وبين قيم الابداع وقيم الاتباع ، وبين قيم القلب وقيم العقل ، وبين قيم الشكل وقيم المضمون ، وبين القيم الجمعية والقيم الفردية وبين القيم العار وقيم الذنب ، وبين قيم الانغلاق وقيم الانفتاح ، وبين القيم العمودية والقيم الافقية ، وبين قيم الطاعة وقيم التمرد وبين قيم الاحسان وقيم العدالة .

ويشير الدكتور حليم بركات في دراسة عن المجتمع العربي المعاصر الى أن القيم التقليدية لا تزال هي الغالبة في الثقافة العربية . فالثقافة السائدة ترتكز على القيم القدرية والسلفية والعمودية وعلى قيم الاتباع والشكل والانغلاق والعار والاحسان ولكن غلبة الثقافة التقليدية لا تحدد هوية العرب الثقافية المعاصرة ، اذ انه الى جانب الثقافة التقليدية تنشأ في الوطن العربي ثقافة مضادة تقوم على القيم المستقبلية والاختيارية والابداعية والانفتاحية والافقية وقيم العدالة والشعور بالذنب والنقد الذاتي والمواجهة وتوازن بين قيم العقل والقلب والمضمون والشكل والجمعية والفردية والأصالة والحداثة . ان الصراع بين تلك الاتجاهات المتناقضة هو ما يحدد هوية العرب الثقافية الخاصة في هذه المرحلة الانتقالية .

إن أقصى ما يحتمل أن تؤدى إليه جهود التطوير الاداري الحسنة الإعداد والتنفيذ هو نقل بعض المعارف ودعم بعض الاتجاهات والقيم في مواجهة اتجاهات وقيم مضادة . وتسعى مثل هذه البرامج الى دعم النظرة المستقبلية على حساب النظرة السلفية ، وتبرز أهمية الابداع بدلا من الاتباع ، وتناصر قيم الانفتاح في مواجهة قيم الانغلاق ، وتعلي قيم العدالة والقيم الجمعية وقيم الفعل .

ولكن هذا الجهد التنويري والتطويري لا يجري في فراغ او على أرض ممهدة فالقيم التي تطرح حتى وإن قبلت شكليا فان تأثيرها على السلوك الفعلي يحده ما هو راسخ من قيم ومعتقدات وضغوط تمارسها المؤسسات المجتمعية المختلفة والمتعددة على متخذي القرار .

وفضلا عن ذلك فان الجهود التنويرية والتطويرية لا تقف وحدها في الساحة فالى جانبها تنتشر دعوات ويتم صراع في ميادين مختلفة من أجل الحفاظ على القيم التقليدية والانغلاق على النفس ورفض الوافد وغير ذلك ، وهي أمور لا بد وأن يكون لها تأثيرها على السلوك الفعلي للافراد في مجالات النشاط والعمل المختلفة . فالفرد ، حتى وإن تعايشت داخله اتجاهات قيمية متضادة ، فان سلوكه الفعلي في كل المجالات يكون حصيلة لتصارع تلك الاتجاهات وأولويتها وقوتها لديه .

ورغم ما قد يكون لجهود التطوير الاداري والتنمية الادارية من مردود في هذه المؤسسة او المنظمة الادارية او تلك ، فان اهم نواحي القصور الادارية التي سبقت الاشارة اليها تستعصي على التغيير عن طريق الجهود الجزئية . ان تغييرا في السلوك بشأن هذه العقبات يرتبط في النهاية بحدوث تغييرات أساسية في القيم على نطاق المجتمع في مجموعه . وفيما يلي عرض سريع لبعض المتطلبات الرئيسية لتحقيق إصلاح إداري جذري والعوائق المجتمعية التي تقف عقبة أمام تحقيق ذلك :

(أ) اختيار العناصر الادارية ، وبخاصة القيادية منها ، على أساس من الكفاءة دون غيرها ، واستبعاد أي تمييز ديني أو طائفي أو قبلي أو جغرافي على أساس من الجنس او اللون . إن مثل هذا التوجه له أهميته القصوى في تحسين وتطوير الاداء في اي منظمة إدارية وفي إيجاد الظروف الملائمة لتعبئة كل القوى البشرية في المنظمة الادارية في اتجاه تحقيق اهدافها . ولكن وضع هذه القاعدة الذهبية موضع التطبيق في منظمة تعيش في مجتمع تسوده الصراعات الطائفية او القبلية او الدينية وتوجد فيه درجة عالية من عدم المساواة أمر صعب للغاية ، خاصة وان حدة الصراعات من هذا النوع قد تشتد بشكل خاص في داخل المنظمات الادارية على المزايا المحدودة التي يمكن ان يتمتع بها البعض ويحرم منها البعض الأخر . وتزيد حدة هذا الصراع بشكل خاص كلما كانت الديموقراطية الداخلية في المنظمة الادارية محدودة وعندما تكون القدرة على التظلم والحصول على الحق شبه مغلقه .

ان أي نظام للاختبار مهما كان موضوعيا يتم بواسطة أفراد هم أنفسهم جزء من هذا الصراع بين الجماعات البشرية التي تتعايش في إطار المنظمة الادارية وسيكون متأثرا بنفس القيم السائدة في المجتمع ككل . ان إعمال عامل الكفاءة وحده في الاختيار في المنظمات الادارية يتطلب أن تكون علاقات المساواة الحقيقية وتكافؤ الفرص للجميع سائدة في المجتمع نفسه .

(ب) اكساب الادارة طابعا ديموقراطيا ليمكن تعبئة كل الجهود البشرية لتحقيق أهداف المنظمة وإطلاق طاقات الافراد وإمكاناتهم . ان ذلك يعني بالنسبة للمشروعات العامة والخاصة القبول بمبدأ تحقيق أوسع مشاركة ممكنة في الادارة ، والاستعداد للقبول بالتمثيل المستقل للعاملين ، وتوفير أساليب مناسبة للتفاوض المشترك وايجاد سبل للتظلم من أي قرارات يظن أنها جائرة ، ووجود إمكانية حقيقية لرفع الظلم في حالة وقوعه . كما يشمل ذلك في حالة الادارات الحكومية خضوع الادارة العامة لارادة ورقابة الرأي العام عن طريق أجهزة التشريع والرقابة البرلمانية والقبول بحرية الصحافة والنقد وغير ذلك من وسائل توجيه أجهزة الادارة الحكومية لخدمة الصالح العام .

ان تحولا في المنظمات الادارية في هذه الاتجاهات رغم اهميته لن يصبح ميسورا ما لم تكن الديموقراطية قد اصبحت اسلوب حياة في المجتمع ، وما لم يكن الاسلوب الديموقراطي هو السائد في التعامل في الأسرة وفي المنظمات الاجتماعية المختلفة وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ان جهود التطوير الاداري مهما كانت شاملة غير قادرة على احداث اي تغيير يذكر في هذا الاتجاه اذا كان المجتمع الذي تتعايش المنظمة في داخله تسوده ايدلوجيات تؤكد عدم المساواة ولا تتيح تكافؤا في الفرص وتهدر كرامة الانسان .

(ج) عدم تركيز المسئولية والاستعداد للتفويض بالسلطة . ويرتبط هذا الامر ايضا بمدى انتشار وسيادة مبادىء الديموقراطية او غيابها في المجتمع . كما يرتبط من ناحية اخرى بمدى التقارب الثقافي والقيمي بين أعضاء المجتمع .

ان سيادة « السلطة الابوية » في المجتمع تفرز في المنظمات الادارية ادارات تجمع في أيديها كل السلطات ويكون لها وحدها القول الفصل في كل الامور ، وتكون غير راغبة في التخلي عن تلك السلطة او تفويضها لاي شخص آخر .

من ناحية أخرى فان التمايز الثقافي الواسع داخل المجتمع واقتصار التعليم المتقدم على فئات مميزة محدودة ووجود انقسام اجتماعي واضح يؤدي الى تضارب في القيم والعادات بين أفراد المجتمع الواحد يجعل الادارات المسئولة اقل ميلا للتفويض بسلطاتها .

(د) سيادة روح المبادرة والابداع وعدم الاكتفاء بالاتجاه للاقتداء بالغير ، الذي يتبدى بصفة خاصة في الاقتصار على نقل التكنولوجيا المعاصرة دون تعديلات لجعلها أكثر اتفاقا مع ظروف البيئة ، والاعتماد الكامل على الغير في التطوير والتجديد سواء في المعدات او العمليات او المواد الاولية او المنتجات وفي ميدان الادارة ايضا .

ان كل برامج التطوير الاداري تبرز كيف أصبح الابداع ، والتركيز على البحث والتطوير والتجديد المستمر سمة أساسية من سمات المؤسسات العالمية الناجحة ، ولكن إدراك هذه الحقيقة وحده لا يؤدي الى خلق روح المبادرة والابداع في المؤسسات العربية . ان ذلك يرتبط بمجمل القيم السائدة في المجتمع ومدى تشجيعه على الابتكار والخروج عن المألوف ومدى تأكيده على ضرورة اتباع سلوك تقليدي وعدم الخروج عن الأعراف او الطرق المتبعة . كما يرتبط ايضا بالنظام التعليمي السائد ومدى تشجيعه لملكات الحفظ والترديد او البحث والابتكار لدى الشباب الذين سيكونون في الغد هم القوى البشرية المنتجة ، وقيادات المؤسسات وعناصرها الادارية والعلمية .

(هـ) علاج الفساد الاداري في الادارة الحكومية والذي هو أحد المعوقات الأساسية للتطور الاداري سواء في المنظمات الحكومية او في منظمات الاعمال العامة او الخاصة . وتنتشر هذه الظاهرة في العديد من البلاد النامية بما فيها الاقطار العربية . ورغم ان الفساد قد يوجد بقدر او بآخر في كافة النظم البيروقراطية فانه ينتشر في بعض الدول العربية بدرجه تجعله هو السلوك العادي للعاملين في الجهاز الاداري للدولة .

ويعود انتشار هذه الظاهرة لعدد من الاسباب التي قد يكون بعضها اقتصاديا او اجتماعيا او سياسيا . فالفروق الاقتصادية والاجتماعية الضخمة وتمتع القلة بنمط استهلاكي مرتفع لا يستطيع أغلب العاملين في الجهاز الاداري للدولة الوصول اليه خلال عملهم ومرتباتهم قد يساعد على انتشار الفساد . كما يشجع عليه الاحساس بعدم عدالة الأجور ووجود فروق وامتيازات لا مبرر لها يتمتع بها العاملون في المستويات الادارية الاعلى . ويدفع اليه أيضا السلطة الكبيرة التي تملكها عناصر الجهاز الاداري في الإذن أو المنع أو تسهيل أداء الاعمال . ويساعد على انتشاره جهل المواطنين بحقوقهم وعدم قدرتهم على الدفاع عنها وعدم خضوع الادارة الحكومية لمساءلة حقيقية من السلطة التشريعية وصعوبة الرقابة القضائية . كما يدفع اليه انتفاء روح الخدمة العامة بين العاملين في الجهاز الحكومي وتدهور المستوى الاخلاقي والقيمي في المجتمع بصفة عامة والذي هو نتيجة لبعض هذه الأسباب ولغيرها .

واذا كان من الممكن معالجة بعض الاسباب السابقة في إطار نوع من الاصلاح الاداري الشامل الا انه يتعذر معالجة العديد من الاسباب الاخرى الا في إطار جهد إصلاحي أكبر .

(و) معالجة ظاهرة التكدس الوظيفي في الادارات الحكومية وفي شركات القطاع العام والتي هي من أكثر الظواهر انتشارا في العديد من الدول العربية حتى تلك المحدودة السكان .

ان وجود هذه الظاهرة هو تعبير عن عدم كفاءة الأداء كما أنها سبب من أسباب انخفاض الكفاية في الوقت نفسه .

ولا يعود التكدس الوظيفي في الغالب لاسباب فنية ، بل انه في العديد من الحالات نتيجة لاوضاع اقتصادية واجتماعية معينة ، ولنوعية السياسة العامة التي تتخذها الحكومة لمواجهة تزايد العرض من قوى العمل ومحدودية الطلب

الحقيقي عليها . ان الادارة الحكومية تلعب في العديد من المجتمعات العربية دور وكالة تشغيل العاطلين وبخاصة بين الفئات المتعلمه . ان البديل لقيام الحكومة بهذا الدور في كثير من الاحيان هو زيادة معدلات البطالة السافرة .

ان الاختلال بين العرض والطلب على العمالة قد يكون نتيجة للعديد من العوامل ، وعلى رأسها زيادة معدلات نمو السكان ومعدلات نمو المتعلمين والخلل في النظام التعليمي وعدم ارتباطه باحتياجات السوق من العمالة . كما يرتبط ايضا بضعف النشاط الانتاجي داخل المجتمع لسبب او آخر وانخفاض معدلات نمو الاستثمارات ، ونوعية التكنولوجيا المستخدمة وغير ذلك .

ان معالجة مثل هذا التكدس الوظيفي تستحيل في العادة عن طريق تلك الاصلاحات الادارية التي تركز على دراسة عبء العمل ووصف الوظائف وتحليلها ودراسة وتحديد معدلات الاداء بهدف الحد من الاعداد الزائدة عن الحاجة لاداء الوظائف المطلوبة . إن إصلاحات من هذا النوع كثيرا ما تصطدم لا بعدم إمكانية تصفية الزيادة غير المطلوبة لأسباب اجتماعية فحسب بل و بضرورة استيعاب أعداد جديدة كبيرة ممن ينضمون الى سوق العمل في اطار الادارة الحكومية كوسيلة للحد من أخطار البطالة بين المتعلمين . إن مشكلة التكدس الوظيفي لا تعالج الا في اطار اقتصادي واجتماعي أشمل يتضمن مواجهة كل الأسباب العميقة التي تكمن وراء الظاهرة .

سادسا : التحديات المستقبلية للادارة العربية

يدخل المجتمع العربي الحقبة الاخيرة من القرن العشرين من موضع يتصف بالضعف وزيادة حدة تشوه الهياكل الاقتصادية والانكشاف الاقتصادي على العالم الخارجي وبروز أزمة مجتمعية حادة يمكن الاشارة الى أهم سماتها فيما يلي :

(أ) لم يزل المجتمع العربي يعيش مرحلة انتقالية طالت لفترة جاوزت القرن بعد فترة طويلة من الركود زادت على خمسة قرون . وقد طالت فترة الانتقال تلك نتيجة للتدخل الاجنبي والسيطرة الخارجية من جهة ولاشتداد واستمرار الصراع بين اتجاهات مختلفة في الوطن العربي حول سبل النهضة من جانب آخر . فبينما يدعو البعض الى محاكاة من سبقونا وتفوقوا علينا والاخذ بالاسباب التي أدت الى تقدمهم وتبنى ثقافاتهم ونبذ التقاليد والعادات والقيم السلفية الغيبية التي اعتبرت أسبابا للتدهور والركود والتخلف ، تشدد اتجاهات اخرى على أهمية رفض الجديد والوافد والانكفاء على النفس والتمسك بالتقاليد ورفض الانفتاح على الثقافات الاخرى والتحذير من الغزو الثقافي . بينما يدعو آخرون الى تبني موقف انتقائي ـ وصل احيانا الى التلفيقية ـ يأخذ باساليب ومناهج الحضارة الغربية في ميادين العلوم الطبيعية والبحث ، وطرق الانتاج المادي ويرفض تبني القيم والعادات والاسس الثقافية والفلسفية التي استندت اليها تلك الحضارة او التي كانت إحدى نتائج تطورها .

لقد سارت حركة النهضة العربية لذلك في خط شديد التعرج ومليء بالانحناءات دون تراكم في اتجاه الصعود او

الحل . وأدى التدخل الاجنبي اضافة الى الأخطاء الداخلية ونواحي القصور والضعف الى هـزائم عسكريـة كانت تصحب دائما بتعديلات أساسية في التوجهات نتيجة لصعود بعض الاتجاهات وخفوت اتجاهات أخرى مضادة . لقد صفيت المحاولات الاولى للنهضة عن طريق التدخل الاستعماري المباشر وتكفلت نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨ بانهاء محاولات الاصلاح الليبرالي والتحديث على النمط الغربي في عدد هام من الدول العربية . وأدت هزيمة ١٩٦٧ الى التصفية التدريجية لمحاولات الاصلاح « الاشتراكي العربي » وإقامة الدولة العربية الموحدة ، اذ كانت الهزائم العسكرية في كل الاحوال تعبيرا عن جوانب الضعف الاساسية التي تعاني منها الانظمة القائمة ومؤشرا على عدم قدرتها على إنجاز نهضة شاملة تحقق أمن الوطن ورفاهية المواطن والوفاء باحتياجاته المادية والمعنوية المتنامية ، كما كانت دافعا الى العودة مرة بعد أخرى الى اشتداد الصراع بين الاتجاهات والتوجهات المختلفة حول الماهية والهوية وأفضل الطرق للخروج من الازمة وتحقيق النهضة .

(ب) بالرغم من محاولات التحديث والتنمية والكفاح في سبيل التحرر السياسي والاقتصادي بقي المجتمع العربي متخلفا تتسع الفجوة الحضارية بينه وبين المجتمعات المتقدمة التي تستمر في ممارسة هيمنتها عليه واستغلالها له وتدخلها في شؤونه الداخلية بأساليب وآليات مختلفة ومتجددة . وتستمر لذلك وتتعمق أوضاع التبعية العربية للخارج في مختلف المجالات بما في ذلك المجالات الثقافية والاقتصادية والتكنلوجية والسياسية والعسكرية وأنماط وأساليب المعيشة .

وتتسع في إطار الهيمنة وتعمق التبعية الفجوة في مستويات الدخل بين الاقطار العربية ، وبين الطبقات الميسورة والكادحة داخل كل قطر ، ويتزايد التفتت العربي وتشتد الصراعات بين الاقطار العربية وداخلها سواء بين الطوائف او الجماعات الاثنية او بين الطبقات الاجتماعية .

ويؤدي استمرار نموذج النمو التابع واستمرار اللحاق بالعالم الاكثر تقدما من وضع أدنى الى انتشار ردود أفعال عكسية تتخذ شكل الرفض والدعوة للانكفاء على النفس والحنين الى ماضٍ ذهبي .

(جـ) بالرغم من ظهور ووجود بعض التنظيمات الاجتماعية الحديثة (الثانوية) في المجتمعات العربية كالنقابات والجمعيات والأحزاب السياسية وغيرها . . . فقد استمرت العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي علاقات أوليـة شخصانية وثيقة لا رسمية تلعب فيها الجماعات الوسيطة المبنية على القرابة او التجاور الجغرافي دورا مرموقا (القبيلة ، العائلة ، الفئة ، القرية ، الحي ، او المجتمع المحلي) وتتم الصلة بين المؤسسة العامة التي تمثل المجتمع (الدولة) والأفراد خلال هذه الجماعات وتتأثر حتى التنظيمات الاجتماعية الحديثة نفسها بالعلاقات الاجتماعية التقليدية التي تستمر في نفوذها رغم ما قد يكون قد ألم بهذا النفوذ من ضعف نتيجة لتوسع المدن والهجرة والتعليم وازدياد دور الدولة وتوسع نشاطها .

(د) تستمر سيادة ايديولوجية عائلية هرمية على أساس من الجنس والعمر ، تعمم دور رب الاسرة الى ميادين

العمل والتربية والسياسة . وتؤكد تلك الايدلوجية أن الأب والمدير والمعلم والقائد السياسي أو الرئيس أو الأمير هو الذي يعرف ويعي مصالح أسرته أو عماله أو تلاميذه أو تابعيه أو رعاياه ، وأنه الاقدر على التقييم والحكم ، وانه دون غيره صاحب الحق في إصدار القرار الأخير وتحديد ما يجب وما لا يجب عندما تثور الخلافات .

أما أعضاء الأسرة أو العاملون أو الطلاب أو الرعايا فان أهم واجباتهم هي إطاعة واحترام رب الأسرة الصغيرة أوالكبيرة ، والامتناع عن الخروج على القواعد والأوامر والنواهي ، وتكون أشد مخالفاتهم التي تستوجب الادانة أو العقاب هي الجهر بالعصيان أو التمرد على الأوامر او القواعد والنظام .

ومع أن هذه الايديولوجية السائدة لا تتعارض مع قدر من الاستئناس بالرأي وطلب المشورة فانها ترفض مشاركة حقيقية في القرارات تنبعث من قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات . وتبقى القرارات النهائية ، في آخر المطاف وبغض النظر عن الشكل ، في يد الأب أو المدير أو الرئيس أو الزعيم او الحاكم .

(هـ) مكنت الايديولوجية العائلية الهرمية السائدة من نشوء واستقرار أنظمة حكم تؤله الزعماء الأفراد ، وتتغنى بحكمتهم الواسعة وقدراتهم الفائقة ، وتفانيهم في الدفاع عن صالح أممهم . وتم التوحيد بين أمن الزعيم أو الرئيس الفرد وبين أمن الوطن . وقبل بشكل عام إسكات المعارضين أو المخالفين في الرأي الذين ينظر اليهم باعتبارهم عناصر عدم استقرار . وامكن لتلك الزعامات أن تحظى بنفوذ شعبي واسع طالما كانت تحقق ما يبدو أنه انجازات لصالح شعوبها . على أن عجز تلك الزعامات والانظمة عن تحقيق الاهداف التي بشروا بها سرعان ما ظهر وانقلبت الانظمة القائمة على الأبوية الى أنظمة سلطوية شديدة البطش والعنف تعتدي على حقوق الشعوب وتنكل بها وتفرض عليها الاستكانة وصرف اهتمامها لمجرد استمرار المعيشة والوجود ، او لتوفير المقتنيات من السلع والاشياء مما فرض على الانسان العربي الاغتراب داخل وطنه .

(و) لقد أنتج ذلك كله حالة من التفكك والخلخلة والتجزئة السياسية والاجتماعية في الوطن العربي قادت الى اشتداد النزاعات لا بين الاقطار العربية وحسب ، بل وفي داخل العديد من الأقطار وحتى داخل الطوائف والفئات في القطر الواحد مما أصبح يهدد وجود المجتمع أو الدولة في أكثر من قطر عربي .

وترتب على التفكك وتبعية الوطن العربي واغتراب الانسان العربي فيه زيادة حدة المتناقضات ونشوء حالة من الفوضى في القيم عندما فقدت بعض القيم قدرتها على ضبط السلوك دون ان تحل محلها قيم جديدة ، الأمر الذي وسع من انتشار روح الكسب الفردي والانتهازية ، والانحرافات الاجتماعية والنزعة الاستهلاكية المظهرية المقترنة بابراز المكانة ، وأدى من ناحية اخرى إلى شيوع الالتجاء الى الانسحاب والهرب ، أو الخضوع والانسجام والتلاؤم ، أو اللجوء الى حالات من التمرد الفردي المنعزل .

ان المنظمات الادارية العربية هى جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع العربي ولكنها تعمل وتحتك وتتنافس وتتعاون وتواجه تحدى مؤسسات خارجية تعمل في إطار سوق دولي يزداد توجهه نحو العالمية وتتعاظم فيه سيطرة وهيمنة الشركات متعددة الجنسيات ويتميز بدرجة عالية من الحركية والتغيير وتسارع ظهور سلع وعمليات جديدة وأشكال تنظيمية مستحدثة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية التى تتسع آفاقها باستمرار .

ان هذا التفاعل والاحتكاك مع العالم الخارجى لا يقتصر على المؤسسات العربية التى تعمل في الأسواق الدولية ، بل يتعداها الى المؤسسات والمنظمات المحلية البحته ذلك لأن الشركات متعددة الجنسيات تقتحم السوق الداخلي وتجعله مجالا لأنشطة مختلفة لها . كما ان الدول العربية كلاً على حدة وفي مجموعها هى جزء من نسيج من العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية يتصف بتزايد الاعتماد المتبادل بين أجزائه وتوسع التكتلات الاقتصادية الدولية ، وزيادة حدة المنافسة من أجل تحقيق التمييز . ان مثل هذا الاعتماد المتبادل لا يقوم على أساس المساواة في كل الأحوال ، بل تنتشر في إطاره علاقات هيمنة من جانب الدول المتقدمة وتبعية من جانب دول العالم الثالث بما فيها الدول العربية . وفي مثل هذا الاطار فإن حركة المؤسسات والمنظمات العربية تبقى أقرب الى رد الفعل من الفعل . وهى تتأثر بالتطورات المتسارعة في التكنولوجيا وفي نظم الانتاج والادارة والاتصالات وفي طبيعة الأسواق وغيرها من العوامل دون أن تكون مصدرا فاعلا في هذه التطورات .

سابعا : مستقبل التنمية الادارية في الوطن العربي : بعض قضايا رئيسة

يصعب في هذه المرحلة من مراحل تطور الوطن العربى الاقبال على نوع من الاستشراف للتطورات المحتملة في مجال التنمية الادارية العربية . ان النسق الادارى العربى سيظل مرتبطا ارتباطا شديدا بالنسق الاجتماعى الأشمل . وكما سبق أن أشرنا فإن المجتمع العربي يمر حاليا بمرحلة انتقال ممتده تحتدم بالصراعات والتوجهات المتعارضة التى يصعب معها التنبوء باحتمالات التطور المقبلة . في ضوء ذلك نكتفى بالاشارة الى بعض القضايا الرئيسة التى تتعلق بالمستقبل والتى تنبثق عن استعراضنا السابق لنواحى القصور ومشاكل التطوير والتنمية الادارية في الوطن العربى .

أ ـ يتضح من استعراضنا السابق ان تحقيق نهضة إدارية عربية هو رهن بتحولات مجتمعية أشمل تخرج المجتمع العربى من أزمته وتكون عملية التنمية الادارية فيه جزءاً لا يتجزأ من جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بحيث تساير محاولات التطوير والتنمية الادارية على مستوى المؤسسات والدولة تغييرات أعمق في القيم والبنى والمؤسسات المجتمعية والثقافة السائدة .

ان ذلك لايعنى إهمال نشاط التنمية والتطوير الادارى الى حين اتمام التغيرات الاجتماعية المستهدفة ، ولكنه يعنى فقط أهمية إدراك الترابط بين النسق الاجتماعى الكلي والنسق الاداري وأهمية قيام القيادات الادارية بدور فعال في تحديد

السياسات العامة والسعي لاجراء التغييرات الضرورية وتوفير الحد الأدنى من الشروط الضرورية لنجاح عملهم على رأس مؤسساتهم ومنظماتهم الادارية .

ان التأكيد على هذه النظرة ينطلق من إدراك أن القيادات الادارية العليا في المؤسسات الخاصة والعامة والحكومة هي جزء من العناصر القيادية في أي مجتمع . وهي تلعب بحكم موقعها ومكانتها دورا هاما في تحديد سياسات التنمية والتطوير على نطاق المجتمع في مجموعه - وبخاصة في المجتمعات المستقرة - كما أنها تلعب الدور الرئيس في مجال تنفيذ تلك السياسات والتوجهات .

ان القيادات الادارية في المجتمعات المستقرة - أي المجتمعات التي ليست عرضة لتغيرات ثورية أو حادة في الاطر الاجتماعية والسياسية نتيجة لتولي قوى اجتماعية جديدة لمقاليد السلطة أو استبدال النخبة الحاكمة بنخبة جديدة سواء عن طريق العنف أو بالطريق السلمي - تلعب دورا هاما في تحديد توجهات التنمية الاقتصادية الاجتماعية خلال الأدوار التي يلعبها القادة الاداريون كأفراد ضمن بيروقراطية الدولة المسئولة عن دراسة المشكلات واقتراح السياسات وطرح البدائل ، أو ضمن مؤسساتهم ومشروعاتهم العامة التي تشارك بشكل أو آخر في تقديم الاقتراحات حول المشروعات والخطط التنموية على مستوى المشروع أو مستوى القطاع ، أو باعتبارهم عناصر قيادية في مجال الأعمال الخاصة يؤخذ رأيهم ويستشارون أو يشاركون في أعمال اللجان المختصة بوضع الخطط واختيار السياسات وتؤخذ ردود أفعالهم المختلفة في الحسبان عند الاختيار بين البدائل المختلفة وإصدار أي قرارات بشأن السياسات . من ناحية أخرى يلعب القادة الاداريون ورجال الأعمال دورا هاما في التأثير على السياسات العامة للدولة خلال منظماتهم المختلفة وجماعات الضغط التي تمثلهم وخلال وجودهم ونشاطهم في المنظمات السياسية الحاكمة . أما دورهم الرئيس في مجال التنفيذ فلا يحتاج الى شرح أو توضيح .

ومع ان القيادات الادارية لا تنفرد بأمر تقرير السياسات الكلية - التي هي في النهاية حصيلة ضغوط قوى اجتماعية وصراع قوى ومصالح حتى وأن كانت القرارات تتخذ بواسطة قيادة فردية متسلطة - فان دورهم ولاشك يكون له تأثيره الهام الذي يصعب في كل الأحوال تجاهله . وتزداد قوة تأثيرهم في إحداث الاصلاحات اللازمة اذا كانوا على إدراك صحيح بحركة المجتمع وتفاعلاته وعلاقات القوى والمؤسسات المختلفة فيه ، وإذا كانوا على وعي بماهية الشروط التي يجب توفرها للنجاح وتجاوز العقبات وطبيعة التغيرات المؤسسية والقيمية التي يجب السعي لتحقيقها ، وإن كانوا مقدرين تقديرا صحيحا لأهمية دورهم وحساسيته ومستعدين لايضاح وجهة نظرهم والدفاع عنها والترويج لها .

ان البيئة الخارجية التي تعمل في إطارها المؤسسات والمنظمات الإدارية العربية يجب ألا ينظر اليها من قبل القيادات الادارية كمعطيات تأخذها الادارة في الحسبان دون أي قدرة لها في التأثير عليها . ان البيئة الخارجية في المجتمع الذي تعمل فيه المؤسسات العربية هي واحدة من المتغيرات الكثيرة التي يكون لها تأثيرها على الادارة والتي يكون للادارة تأثيرها عليها ودور فعال في تغييرها .

ان التغييرات الثورية في المجتمعات غير المستقرة تحدث في العادة من خارج نطاق القيادات الادارية بواسطة قوى سياسية منظمة لا تضم من هؤلاء الا بعض عناصر فردية هى في حكم الاستثناء لا القاعدة . وتشمل مثل هذه التغييرات في العادة طرح مفاهيم جديدة والدعوة لقيم واتجاهات تعارض الاتجاهات السائدة ، وتنطوى على تغييرات واسعة في القيادات الادارية للمنظمات والمؤسسات المختلفة للمجتمع .

على ان نجاح القوى الثورية الجديدة في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة لن يكون ممكنا الا عث خلال مؤسسات ومنظمات تكون مسئولة عن وضع أهداف المغيير الثورى موضع التنفيذ .

وبغض النظر عما إذا كانت قيادة تلك المؤسسات ستبقى في يد ادارة سابقة قبلت وتبنت أهداف التغيير الثورى أو كانت في أيدى عناصر جديدة تم اختيارها من بين من قادوا ذلك التغيير أو تحالفوا مع عناصره فإن النجاح في إحداث نقلة للامام في المجتمع سيتوقف ضمن أشياء أخرى على مدى كفاية القيادات في إدارة المؤسسة التى هى مسئولة عنها ، ومدى التناسق والتناغم بين النسق الاجتماعى الجديد والنسق الادارى الذى يعمل في ظله ، ومدى توفر الشروط الضرورية لاطلاق طاقات العمل الخلاق على كل مستويات العمل الادارى .

ب - تبرز النتائج المحدودة لمحاولات إعادة التنظيم والاصلاح الادارى التى اعتمدت على النقل شبه الكامل لأنظمة إدارية أجنبية ونقل التكنيك الادارى السائد في البلاد الصناعية المتطورة وزرعه أو فرضه في مجتمعات أخرى تختلف في المثل والقيم والعادات والمؤسسات ، أهمية الابداع الادارى كبديل عن الاتباع في مجال التطوير والتنمية الادارية .

وينطلق التوجه الابداعى من الدراسة المعمقة والمكثفة للواقع القائم بهدف التعرف على أسباب الخلل ومعوقات النجاح وتبني الحلول التى تعالج تلك الأسباب وتحد من تأثير تلك المعوقات والتى تمنع النظام الادارى القائم من العمل بيسر وسهولة وكفاءة لأجل تحقيق أهداف المؤسسة دون استهداف صورة مثلى معينة محددة على أساس نظرى مسبق ، أو اتباع نموذج سبق نجاحه في هذا المجتمع أو ذاك . وهو يعنى أيضا أن تكون نقطة البدء في تنمية وتطوير الادارة في الوطن العربي هي التوجه الى البنية المحلية لانتقاء عناصرها الايجابية الموجودة بالفعل وتعزيزها ، وللتعرف على العناصر السلبية والسعي للحد من تأثيرها دون إهمال المتابعة المستمرة لعلوم الادارة الحديثة وتطوراتها ودراسة النماذج المقارنة للادارة في الدول المختلفة لا بهدف النقل والتقليد وانما بهدف تطوير نظم إدارية عربية تستند الى المزج الابداعى بين عناصر مستقاة من الخارج مع عناصر إيجابية محلية وهو مايتطلب إلماما بالتجارب الانسانية المعاصرة بهدف انتقاء مايفيد التجربة العربية ويغذيها مع تكييفه لكى يتوافق مع مقوماتها ومكوناتها(٨) .

---

(٨) دكتور حسن بشير الطيب ، الاصلاح الادارى في الوطن العربى بين الأصالة والمعاصرة الفصل الثانى من الباب الثالث من كتاب الادارة العامة والاصلاح الادارى في الوطن العربى تحرير د . ناصر محمد الصائغ .

إن اتباع هذا المنهج يتطلب ارتباطا وثيقا بين الممارسة والبحوث والدراسات الاكاديمية ، وانطلاق محاولات الإبداع والتطوير من داخل المنظمات العربية الادارية بالاستعانة بالخبرة الاكاديمية ، وذلك من أجل البناء التدريجي لأنظمة عربية إدارية ذات كفاءة وفعالية تستند الى فلسفة واضحة للادارة العربية . ان ذلك هو السبيل الوحيد الذى يسمح بتراكم معارف وخبرة إدارة عربية خاصة يمكن ان يعتمد عليها في تنمية القادة الاداريين العرب وتطوير قدراتهم ومهاراتهم .

ان تطويرا اداريا فعالا من هذا النوع يتطلب ان تقترب جهود التنمية أكثر فأكثر من ميادين الممارسة والنشاط وان ترتبط ارتباطا مباشرا بخطط العمل ، وان تمارس بالتالى في المؤسسات الادارية نفسها ، دون استبعاد لأنشطة تدريبية خارجية عندما تكون هناك حاجة لذلك(٩) .

جـ ـ ان التطوير والتنمية الادارية على المستوى المجتمعي يرتبط ارتباطا وثيقا بتنمية الادارة ـ وبخاصة الادارة العليا ـ على مستوى المؤسسات والمنظمات الادارية وعلى رأسها مؤسسات الأعمال العامة والخاصة .

وتتطلب عملية التنمية الادارية على المستوى المؤسسى إحداث تعديلات أساسية وتطوير الأداء في عدد من النواحي في الوقت نفسه .

ان أحد العناصر الرئيسه التى يجب ان يتجه اليها الاهتمام هو أن يتم اختيار القيادات الادارية في المؤسسات على أساس الكفاءة والقدرة على المبادرة والتطور واكتساب مهارات جديدة ، والقدرة على قيادة الأفراد وتوجيه الجهود لتحسين الاداء وتحقيق أهداف المؤسسة . ويتطلب ذلك توفير جو عام في المؤسسة وفي المجتمع يسمح بفرز العناصر الادارية على أساس قدراتها الفعلية وإمكاناتها ، وهو مايعنى توفير قدر من حرية الحركة وامكانات اتخاذ القرارات المستقلة وتحمل المخاطر التى ترتبط بهذه القرارات . كما يتطلب توفير قدر من المنافسة بين الوحدات تسمح باختبار قدرات قياداتها مع ما يعنيه ذلك من استبعاد ، أو على الأقل الحد من ، الاتجاه المبالغ فيه لحماية المؤسسات الوطنية ضد المنافسة الخارجية ومساعدتها على تجاوز العثرات التى قد تواجهها عن طريق مختلف أشكال الدعم الحكومي .

إن اختيار القيادات الادارية على أساس الصلاحية يتطلب التوجه الى الفصل بين الادارة والملكية في القطاع الخاص ، وهو مايتطلب تطوير شركات الأموال والحد من السيطرة العائلية في إطارها .

(٩) Charles Margerison: Trends in Management Development. The Need for Some Hard Based Rules. **The Journal of Management Development, Volume 7 No. 6 1988** p. 361.

ان اختيار القيادات يتم من داخل المؤسسات الادارية أو خارجها . ودون اغلاق لامكانية الاستعانة بعناصر ذات كفاءة من خارج المؤسسة فالأصلح أن تتاح الفرص للعناصر الداخلية في المؤسسة لترتقي الى المناصب الإدارية العليا فيها . ويتطلب حسن الاختيار من الداخل المتابعة المستمرة للعناصر الادارية في المؤسسة والتعرف على قدراتها وفتح الطريق لتقدم العناصر الصالحة منها وإكسابها المزيد من الخبرة والتجربة والمهارات سواء عن طريق التدريب الداخلي في أثناء العمل أو عن طريق التدريب واكتساب خبرات إضافية عن طريق برامج يتم اختيارها بعناية .

ويعني اختيار القيادات على أساس الصلاحية الاستناد الى الأداء في تقييم العناصر الادارية في المؤسسة أو المنظمة وهو مايتطلب بالضرورة تحديدا واضحا لماهية الأداء المطلوب وإيجاد مقاييس موضوعية لقياس ذلك الأداء . ان الاداء المطلوب قد يختلف من عمل لآخر ولكنه يشمل بالنسبة للقيادات الادارية في كل الأحوال مدى القدرة على التصرف والمبادرة في المواقف الصعبة ، وعلى تعبئة كل الجهود والعناصر لتحقيق أهداف المؤسسة ومدى الوعي بالعلاقة بين التكاليف والمنافع ومدى الحرص على اختيار البدائل الأكثر تعظيما للنفع أو الحد من التكاليف والخسائر . . الخ .

إن الأداء المطلوب وكيفية وطرق قياسه يجب أن يكون معلوما للقيادات الادارية ليكون موجها لسلوكها الفعلي . كما أنه لابد وأن يصبح هو الأساس الذى تستند اليه مكافأة تلك القيادات أو عقابها بما في ذلك فتح الطريق للترقي وتولى مسئوليات أعلى أو الحرمان من ذلك .

ولاتعمل العناصر الادارية منفصلة أو في فراغ ، بل هى تمارس عملها في ترابط مع باقى أجزاء المؤسسة أو المنظمة التى تعمل في إطارها . ولا يتوقف أداء أى قيادات إدارية على جهودها الخاصة وحسب ، بل وعلى مدى التنسيق والترابط والعمل المشترك مع العديد من إدارات المؤسسة أو المنظمة الأخرى . ان اختيار الشكل التنظيمى والعلاقات التنظيمية الملائمة لتحقيق مثل هذا التعاون والترابط الذى يسمح بتعبئة كل الجهود لتحقيق الأهداف المشتركة هى شروط أساسية لتحسين الأداء على مستوى المنظمة في مجموعها ، ولتوفير القدرة على قياس أداء القيادات الادارية في مختلف أجزاء المنظمة أو المؤسسة .

وتستهدف العلاقات التنظيمية أن توفر أكثر الظروف ملاءمة لتحسين وتطوير الاداء ومن الضرورى الا تصبح قيدا على إمكانات التقدم . ومن ثم فإنها تخضع أو يجب ان تخضع للتغير لتلائم التطورات المتلاحقة والسريعة في المنظمة ونشاطها أو في أحوال السوق أو البيئة التى تعمل فيها أو في التكنولوجيا المستخدمة أو في أدوات ووسائل الاتصال أو غير ذلك .

ويتوقف تطوير الاداء كذلك على مدى توفر المعلومات الضرورية في الوقت المناسب لمتخذى القرارات ، ومن ثم فإن تطوير نظم المعلومات وتحديد تيار البيانات الذى ينتقل من إدارة لأخرى داخل المنظمة أو المؤسسة أو من خارج

المؤسسة الى داخلها ومعالجة هذه البيانات وتحليلها وعرضها بطرق مناسبة لمتخذي القرارات هي من الشروط الضرورية لتطوير وتحسين الأداء على مستوى المؤسسة وفي كل قسم من أقسامها الإدارية . إن نظم المعلومات هى أيضا المصدر الأساسى لامكان الحكم على أداء القيادات الادارية المختلفة في المنظمات الكبيرة . ومن ثم فإن تطوير نظم ملائمة للمعلومات شرط أساسي لتحسين الأداء وللرقابة الفعالة والموضوعية عليه .

ويعتبر توفير قدر من حرية الحركة وامكانات اتخاذ قرارات مستقلة شروطاً ضرورية للنجاح وبصفة خاصة في المؤسسات التى تواجه منافسة شديدة في الأسواق الدولية والتى تتجه الى التصدير لأسواق متسعة تتسم بقدر هام من الاختلاف ، وتعرضها لتغيرات متلاحقة وسريعة . وتفرض عالمية الأسواق واشتداد المنافسة بين الشركات متعددة الجنسيات وحاجة الدول العربية للتصدير في المستقبل ضرورة توفير مثل هذه القدرة على سرعة الحركة ومواجهة المواقف الصعبة بواسطة قياداتها الادارية المختلفة . ان السماح بمثل هذه الحرية في الحركة مع الحفاظ على وحدة المؤسسة أو المنظمة الادارية وتحسين الترابط بين أجزائها يتطلب أن تطور المؤسسات والمنظمات الإدارية العربية فلسفة موحدة للمؤسسة أو المنظمة ونوعا من الثقافة العامة المعلومة لعناصرها الادارية المختلفة والتى تؤكد على تبنيها كل القيادات الادارية للمؤسسة أو المنظمة .

ولابد ان ترتبط المهارات المطلوب اكتسابها والاتجاهات والقيم التى يتم السعي لتغييرها أو تأكيدها أو اكتسابها ارتباطا وثيقا بعمل المؤسسة أو المنظمة الادارية وفلسفتها وثقافتها العامة وتوجهاتها لتكون أداة في التطوير والتنمية الادارية التى تحقق نجاح المؤسسة أو المنظمة وتفوقها . وتستفيد المؤسسة أو المنظمة في تحديد ما تسعى لتطويره من مهارات وقدرات من التطور والتقدم في علوم الادارة والتقدم في الممارسات الادارية لدى الغير مع الافادة من خبرات الاستشاريين والعناصر الأكاديمية الذين يقتصر دورهم على المساعدة في نقل الخبرات والتدريب على المهارات التى يرى الاستفادة منها .

ان التدريب ، وإن لعب دورا هاما في تنمية قدرات المديرين ، لايعدو أن يكون عنصرا واحدا من العناصر المتعددة التى لابد أن تضمها عملية التنمية الادارية التى أشرنا الى بعض جوانبها المهمة فيما سبق .

* * *

مؤسسات التنمية الإدارية في الوطن العربي وواقع تجربة المملكة العربية السعودية

محمد الطويل

مدير عام معهد الادارة العامة
المملكة العربية السعودية

١ ـ مقدمة ـ أهمية مؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي :

ان تطوير الأجهزة الادارية في أية دولة وتنمية قدرات العاملين فيها أمر تقتضيه ظروف التنمية الشاملة التي تسعى معظم الدول لتحقيقها.

ويزداد الأمر الحاحا في الدول النامية ومنها الدول العربية التي تعاني في الغالب عجزا إداريا كبيرا يجعل عملية التنمية عملية صعبة ومعقدة تترنح ذات اليمين وذات الشمال لهزال أجهزتها الادارية وعجزها عن تحمل الاعباء التي فرض عليها أن تؤديها دون أن تهيأ لتحملها.

ومن هنا نجد أن تحقيق أهداف التنمية الشاملة يعتمد الى حد كبير على كفاءة الادارة في التخطيط والتنفيذ والمتابعة. ودور الادارة في التنمية كما أصبح معلوما اليوم هو دور مؤثر ومتأثر ومتعدد الجوانب. ويقتضي ذلك بالضرورة العمل على تأصيل اتجاهات التطوير وإحداث التنمية الادارة عن طريق احداث أو تقوية مؤسسات التنمية الادارية لكي تنفخ في الأجهزة الادارية روحا جديدة تساعدها على تحمل المسئوليات الجسيمة والأعباء المتعددة التي تفرضها ظروف التنمية.

وبالتالي فان عملية التنمية الادارية لم تعد من قبيل الترف الذي تسعى اليه الدول التي تهتم بانشاء مؤسسات التنمية الادارية، بل ان الأمر أصبح ضرورة حتمية من ضرورات العمل اليومي، لمواجهة أعراض الضعف المستشرية داخل الأجهزة الحكومية التي تزداد بمرور الأيام، مما أقعدها عن تحقيق دورها المطلوب بالكفاءة والفاعلية المنتظرة والمرجوة، وقادها الى عجز اداري يتطلب الجهود المشتركة على كافة مستويات الدولة لعلاجه. ولعل ذلك ما عناه زميلنا الدكتور/ أسامة عبدالرحمن عندما قال :

«لعل معالجة العجز الاداري يحتاج الى مدخل أوسع لا يأخذ متطلبات الحاضر في الاعتبار فحسب، ولكنه يأخذ متطلبات المستقبل أيضا. ولا تعتبر مسئولية معالجة هذا العجز قاصرة على هيئات الاصلاح الاداري ومعاهد الادارة وأجهزة التنظيم والأساليب، ولكنها مسئولية تشترك فيها جميع الأجهزة والمؤسسات الحكومية وعلى كافة المستويات ويجب أن تتجاوز الاطار المعروف للتنمية الادارية».[1]

إن متطلبات التنمية الشاملة من التشعب والكثرة بحيث تتطلب أجهزة ادارية فعالة لتحمل أعبائها المتمثلة في العديد من المتطلبات التي يمكن ايجازها في التالي[2] :

- الفعالية في إعداد الخطط وتنفيذها.
- الفعالية في توفير المصادر المالية وحسن ادارتها فنيا وسلوكيا.
- تحقيق فاعلية القوى العاملة اعدادا وتأهيلا وتوظيفا وسلوكا.
- القابلية للتطوير التنظيمي وكسر حدة مقاومة التغيير لمجابهة متطلبات التنمية.
- تطوير الأنظمة والأساليب والتقنية الحديثة وجعلها أداة لخدمة أهداف التنمية.
- الانفتاح على حصيلة المعرفة والفكر والبحث العلمي واستخدام المفيد منها لخدمة أغراض التنمية.

ومن هنا نشأت أهمية ايجاد أجهزة ومؤسسات للتنمية الادارية تتولى هذا الجانب الهام من جوانب التنمية ضمن منظومة متكاملة من الأجهزة يختص بعضها بالتنظيم ويعنى بعض منها بالقوى العاملة ويعالج بعضها الآخر موضوع الاجراءات والبحوث والاستشارات والتقنية الادارية. وهي جميعا «تمثل أداة ووسيلة ناجحة للتغيير الهادف، ويمكن لها متى ما تحقق تكوينها في اطار مؤسسي متكامل، موفور الحظ من القدرات المؤهلة والامكانات المالية والفنية الواجبة، أن تقوم بدور رأس الرمح في اعداد وتنفيذ خطط الاصلاح والتنمية والتطوير الاداري».[3]

ومن هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة الى التعرف على دور المؤسسات المعنية بالتنمية الادارية في الوطن العربي في احداث التطور المنشود في الادارة، والدفع بالتنمية الادارية الى مستوى أفضل من واقع دراسة تجربة المملكة العربية السعودية في هذا المجال، مع الاشارة ـ عندما يقتضي الأمر كذلك ـ الى تجارب بعض الدول العربية الأخرى.

وفي استعراضنا لتجربة المملكة سنركز المقارنة على تجربة اللجنة العليا للاصلاح الاداري، وتجربة معهد الادارة العامة، باعتبارهما يختصان بموضوع التنظيم بشكل أساسي. أما الأجهزة الأخرى فسنستعرضها لغرض التعريف بدورها فقط كأجهزة مساعدة في عملية التنمية الادارية، وهي:

(١) د. أسامة عبدالرحمن، «أهمية الادارة للتنمية في دول الجزيرة العربية المنتجة للنفط»، بحث مقدم الى ندوة دراسات التنمية، البحرين، ١٩٨٠، ص (٦).

(٢) لمزيد من التفاصيل ارجع الى :

محمد عبدالرحمن الطويل، «دور الادارة العامة في التنمية الاقتصادية»، بحوث ندوة أهمية الادارة العامة للتنمية، معهد الادارة العامة ـ الرياض، ١٩٧٨م، ص. ص. ١٥ ـ ٤٥.

(٣) د. حسن أبشر الطيب، مؤسسات التنمية الادارية، أوضاعها الراهنة وآفاق المستقبل، المنظمة العربية للعلوم الادارية ـ عمان، ١٩٨٤م، ص ٩٧.

أ ـ مجلس الخدمة المدنية.
ب ـ الديوان العام للخدمة المدنية.
ج ـ مجلس القوى العاملة.
د ـ لجنة تدريب وابتعاث موظفي الخدمة المدنية.
هـ ـ الادارة المركزية للتنظيم والادارة.
و ـ كليات الادارة بالجامعات السعودية.

٢ ـ واقع مؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي وتجربة المملكة العربية السعودية في هذا المجال:

كما أسلفنا تتطلب عملية التنمية الادارية وجود منظومة متناسقة من الأجهزة والمؤسسات تعمل بتنسيق متكامل لتحقيق أهداف التنمية الادارية، تتمثل في التالي:

١ ـ أجهزة مركزية تعني بالاصلاح والتطوير الاداري إما على شكل لجان عليا أو على شكل وزارات متخصصة في هذا المجال، هدفها العناية بأمور تطوير الهياكل التنظيمية وإجراءات العمل وأساليبه.

٢ ـ أجهزة مركزية على شكل مجالس أو وزارات متخصصة تعني بشئون التخطيط للقوى العاملة هدفها تحديد القوى العاملة التي تحتاجها الدولة بقطاعيها الحكومي والاهلي على المدى القصير والطويل، والتنسيق مع كافة المؤسسات التعليمية والتدريبية والادارية لتوفيرها بالنوعية والعدد المطلوب.

٣ ـ أجهزة مركزية تعنى بشئون الخدمة المدنية على شكل لجان ومجالس ووزارات وادارات مركزية، تهدف الى العناية بالقوى العاملة بالدولة من حيث وجود الأنظمة الحديثة والمتطورة التي تضمن زيادة الانتاجية وتوفر الانضباط الوظيفي والسلوكي والولاء الوظيفي وارتفاع معدلات الأداء للعاملين بالدولة.

٤ ـ أجهزة مركزية على شكل مدارس ومعاهد وكليات للادارة العامة متخصصة، تعنى بشئون تدريب الأفراد العاملين أو الذين سيعملون بالدولة وتقديم الاستشارات الفنية لأجهزة الدولة والقيام بالبحوث لتشخيص المشكلات الادارية وأسلوب القضاء عليها.

هذه المتطلبات تحدد الى حد كبير مدى اهتمام الدولة بعملية التنمية الادارية من عدمه. ولذلك فان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو مدى توفر مثل هذه الأجهزة والمؤسسات في أرجاء الوطن العربي ومدى فاعليتها في تحقيق التنمية الادارية المنشودة.

ولأغراض هذه الدراسة فاننا سنستعرض تلك الأجهزة من واقع تجربة المملكة العربية السعودية مع الاشارة الى تجارب بعض الدول العربية.

واختيار تجربة المملكة ليس أمرا اختياريا بالنسبة للكاتب، بل تم بناء على طلب المشرفين على هذه المجلة. ولعل ذلك عائد الى تكامل أجهزة التنمية الادارية في المملكة مقارنة بما عليه الوضع في بقية الدول العربية، وهي

حقيقة يدركها الكثير من الباحثين العرب في مجال التنمية الادارية، ووردت الاشادة بها في الكثير من كتاباتهم. وفي ذلك يقول الدكتور/ نزيه الأيوبي:

«من مظاهر القصور السائد في كثير من الدول العربية عدم التنسيق ومحدودية التكامل بين أنشطة مؤسسات التنمية الادارية من ناحية، وأنشطة أجهزة التنمية الادارية من ناحية أخرى. مما يؤدي الى كثير من مظاهر التكرار والازدواج. فضلا عن اهدار كثير من فرص التعاون والاستفادة المتبادلة. والسبيل الى تجنب هذا المزلق ـ كما سنرى فيما بعد ـ هو توحيد المنظمات المسئولة عن التنمية الادارية في اطار مؤسسي واحد، ولا نقول بالضرورة توحيدها في منظمة واحدة، وانما في اطار مؤسسي واحد. وهو أمر اقتربت منه الى حد ما التجربة السعودية، مما أضفى على جهود التنمية الادارية فيها حيوية لا تتمتع بها كثير من الدول العربية الأخرى»[٤].

ويؤيد في ذلك د. حسن أبشر الطيب اذ يقول:

«إن صورة العلاقات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في الوطن العربي، وان لم تكن مشرقة تماما فهي أيضا ليست بقاتمة كليا. هناك بعض التجارب لعدد محدود من هذه المؤسسات تستحق التأمل والنظر والاهتداء بها في بناء وتنمية العلاقات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية. إن من أبرز هذه التجارب الرائدة تجربة المملكة العربية السعودية .... إن هذا النموذج من العلاقات والقنوات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية جدير بالدراسة والتأمل والافادة منه في بقية الدول العربية».[٥]

ويؤمّن على رأييهما الدكتور/ ناصف عبدالخالق فيقول:

«تقدم المملكة العربية السعودية نموذجا متكاملا لنمط التنمية وادارة التنمية التي تجاوزت حدود الادارة العامة التقليدية لمجموعة الخدمات الأساسية المعروفة في الدولة الى الادارة الديناميكية المتطورة، التي تلاحق الأوضاع والمتطلبات المتزايدة، وليس هذا فحسب ـ بل تعمل على تطوير وتحريك هذه الاوضاع من أجل دفع عملية التنمية في مجالاتها ومستوياتها المختلفة. إنها باختصار ادارة تقود وتمهد للتنمية، وتوفر لها ظروف عملها، وتذلل من أمامها ما يعوق جهودها أو يعترضها من تحديات».[٦]

---

(٤) د. نزيه الأيوبي، «أجهزة التنمية الادارية ومؤسساتها في الأقطار العربية: وضعها ودورها في ادارة التنمية»، المجلة العربية للادارة، المجلد التاسع، العدد الرابع، عمان، خريف ١٩٨٥م، ص. ص ١٨ ـ ٢٠.

(٥) د. حسن الطيب، مؤسسات التنمية الادارية، مرجع سابق، ص ٣٧ و٤٠.

(٦) د. ناصف عبدالخالق، دراسة تقويمية لمؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في المملكة العربية السعودية، مقدمة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة الكويت، ١٩٨٨م، ص٣٠.

وشهادة الآخرين عن تجربة المملكة العربية السعودية لا تعني بالتأكيد خلو هذه التجربة من بعض السلبيات، وحاجتها الى مزيد من التطوير والتنسيق. وفي ذلك يقول الدكتور/ غازي القصيبي :

« وأتصور، وتصوري قابل للطعن والتجريح لأنه من قبيل مادح نفسه يقرئك السلام. ان كائننا الاداري تمكن خلال السنوات القليلة الماضية من تحقيق منجزات كثيرة للانسان السعودي. ولعل أوضح دليل على ذلك أنه تمكن في وقت قصير من انفاق عشرات البلايين من الريالات في مشاريع تتصل على نحو أو آخر بالتنمية وذلك ليس بالانجاز السهل كما قد يتبادر الى ذهن أحد ممن يقفون متفرجين على شواطىء البيروقراطية مكتفين بتوجيه كلمات الاستحسان أو كلمات الاستهجان الى السابحين في المحيط. غير أن هذه الحقيقة اذا سلمنا بأنها حقيقة لا يجب أن تدفعنا معشر الكائنات الادارية الى أن نهب فيعانق بعضنا البعض في موجة عامة من موجات الرضا عن النفس وتهنئة الذات. ذلك أن هناك حقيقة أخرى لا يجادل فيها أحد وهي أن الكائن الاداري السعودي لا يزال يحتاج الى جهاد طويل وطويل لكي يواجه التحديات التاريخية التي ألقى بها قدر التنمية على أكتاف هذا الجيل». [٧]

بعد هذا الاستعراض القصير لمسببات اختيار تجربة المملكة العربية السعودية ننتقل الى استعراض هذه التجربة.

١/٢ مجلس الخدمة المدنية :

أنشيء مجلس الخدمة المدنية بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٨) لعام ١٣٩٧هـ (١٩٧٨م) ، المعدل بالمرسوم رقم (م/٥٣) بتاريخ ١٤٠٢/١١/١٦هـ (١٩٨٣) (٨). ويتولى مجلس الخدمة المدنية بالتعاون مع الجهات المختصة « تخطيط وتنظيم شئون الخدمة المدنية في جميع الوزارات والمصالح الحكومية والأجهزة ذات الشخصية المعنوية العامة والاشراف عليها بما يؤمن تطوير مستوى الخدمة المدنية ورفع الكفاية الانتاجية »[٩]. ويختص مجلس الخدمة المدنية بما يلي :[١٠]

- إصدار اللوائح المتعلقة بشئون الخدمة المدنية وابداء الرأي في المعاملات التي ترفع من الوزارات والمصالح الحكومية ذات العلاقة بالعاملين في الخدمة المدنية.

(٧) د. غازي عبدالرحمن القصيبي، الكلمة الافتتاحية لندوة أهمية الادارة للتنمية، بحوث ندوة «أهمية الادارة للتنمية»، معهد الادارة العامة - الرياض، ١٩٧٨م، ص. ١٢.

(٨) عدل المرسوم الملكي رقم (م/٥٣) ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م تشكيل مجلس الخدمة المدنية بحيث يرأسه خادم الحرمين رئيس مجلس الوزراء وينوب عنه في رئاسته نائب رئيس مجلس الوزراء ويضم في عضويته أربعة من الوزراء وثلاثة من ذوي الاختصاص.

(٩) المادة (١) من نظام مجلس الخدمة المدنية الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٨) ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م.

(١٠) المادة (٩) من نظام مجلس الخدمة المدنية.

- التعاون مع الجهات المختصة في المجالات التالية :

- رسم السياسات العامة للخدمة المدنية ووضع الخطط والبرامج اللازمة لتنفيذها.
- تنمية القوى العاملة في الجهاز الحكومي ورفع كفايتها الانتاجية عن طريق التدريب والاعداد.
- تطوير التشكيلات والنظم الادارية القائمة في الأجهزة الحكومية وتحسين إجراءات وأساليب العمل فيها.
- إحكام الرقابة الادارية على جميع ما يؤدّى ضمن شئون الخدمة المدنية من أعمال واجراءات من قبل الأجهزة العاملة في الدولة بما فيها الأجهزة ذات الشخصية المعنوية العامة والتأكد من تمشيها مع الأنظمة واللوائح .
- تصنيف الوظائف.
- دراسة معدلات الأجور والرواتب واقتراح تعديلها، وتحديد وتنظيم صرف المكافآت والبدلات للعاملين في الدولة.

ويعاون مجلس الخدمة المدنية لجنة إدارية تحضيرية حُدِّدت صلاحيتها في دراسة وتقديم التوصيات حول الموضوعات التي يحيلها اليها أمين عام مجلس الخدمة المدنية بناء على توصية مجلس الخدمة المدنية أو رئيس الديوان العام للخدمة المدنية، وتتكون من مدير عام معهد الادارة العامة، ونائب رئيس الديوان العام للخدمة المدنية للشئون التنفيذية وأمين عام مجلس الخدمة المدنية ومدير عام الادارة المركزية للتنظيم والادارة.

كما أن لمجلس الخدمة المدنية أمانة عامة يرأسها أمين عام المجلس وهو بدرجة وكيل وزارة، تعمل تحت اشراف وزير الدولة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية. وقد وفر مجلس الخدمة المدنية القيادة الجماعية للخدمة المدنية، وأصبح الجهاز المخطط والمنسق مع أجهزة التنمية الادارية الأخرى لتطوير الخدمة المدنية وعلاج مشكلاتها العامة، وأزاح بما له من صلاحيات وبحكم تشكيله كثيرا من الأعباء عن مجلس الوزراء مما كان يرفع اليه في الماضي قبل قيامه.

٢/٢ الديوان العام للخدمة المدنية :

مر الديوان العام للخدمة المدنية في تطوره بعدد من مراحل النمو في الفترة من ١٣٦٣هـ (١٩٤٣م) وحتى عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٨م) عندما صدر نظام جديد للخدمة المدنية [١١] عدل مسماه من ديوان الموظفين العام الى الديوان العام للخدمة المدنية، وعرف الديوان بأنه [١٢] : « هيئة مستقلة تتولى الاشراف على شئون الخدمة المدنية في الوزارات والمصالح الحكومية والأجهزة ذوات الشخصية المعنوية العامة ويرتبط بمجلس الخدمة المدنية ».

كما حددت المادة (١٠) من نظام الخدمة المدنية اختصاصات الديوان فيما يلي :

- مراقبة تنفيذ أنظمة الخدمة المدنية واللوائح والقرارات المتعلقة بها.

---

(١١) نظام الخدمة المدنية الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٩) وتاريخ ١٣٩٧/٧/١٠هـ (١٩٧٨م).

(١٢) المادة (٣) من نظام الخدمة المدنية.

ـ اجراء الدراسات والبحوث المتعلقة بالخدمة المدنية وخاصة في مجال تصنيف الوظائف، الأجور، البدلات، المكافآت، والتعويضات.

ـ اقتراح الأنظمة واللوائح المتعلقة بشئون الخدمة المدنية وتقديمها الى مجلس الخدمة المدنية.

ـ وضع القواعد والاجراءات الخاصة باختيار أفضل المتقدمين لشغل الوظائف الشاغرة.

ـ تصنيف الوظائف واقتراح الرواتب والأجور والبدلات والتعويضات والمكافآت وكذلك دراسة الوظائف المطلوب احداثها للتأكد من مطابقتها لقواعد التصنيف.

ـ وضع القواعد والاجراءات الخاصة بحفظ سجلات الموظفين بما يكفل تكامل المعلومات المطلوبة عن كل موظف.

ـ التعاون مع ادارات شئون الموظفين وتوجيهها الى أفضل الطرق لتنفيذ الأنظمة واللوائح والقرارات المتعلقة بشئون الموظفين وضبط السجلات الخاصة بالتعيينات والترقيات والنقل وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون الخدمة المدنية.

ـ فحص تظلمات الموظفين المحالة اليه من الجهات المختصة وابداء الرأي فيها.

ـ أية اختصاصات أخرى تسندها اليه الأنظمة واللوائح وقرارات مجلس الخدمة المدنية.

وقد قام الديوان العام للخدمة المدنية بالعديد من الانجازات التي تمثلت في :(١٣)

ـ فتح فروع رئيسية له في مناطق المملكة لتخفف من سلبيات مركزية التوظيف.

ـ فتح مكاتب الخدمة النسائية بالمناطق المختلفة بالمملكة.

ـ فتح مكاتب توظيف خارج المملكة لتوظيف غير السعوديين.

ـ القيام بالدراسات المتخصصة التي ساعدت في صدور قرارات مجلس الخدمة المدنية حول اللوائح التنظيمية الهامة، مثل لائحة تقويم الأداء الوظيفي ولائحة التدريب، ولائحة توظيف غير السعوديين.

ـ إعداد قواعد التصنيف وتنفيذ قرارات مجلس الخدمة المدنية.

---

(١٣) لمزيد من التفصيل حول انجازات الديوان انظر :

ـ خالد عبدالكريم الحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٣ ـ ٢٥ .

ـ عبدالمنعم الركابي، « الأجهزة المركزية للخدمة المدنية ودورها في الاصلاح الاداري : تجربة المملكة العربية السعودية»، الديوان العام للخدمة المدنية، ١٤٠٤هـ، ص ١٠٦.

ـ التقارير السنوية للديوان العام للخدمة المدنية.

كما أن هذا النظام الجديد بني على نظام الجدارة في الخدمة المدنية وهو أحدث الاتجاهات الحديثة في مجال الخدمة المدنية، وأهم أسسه ما يلي:

١ ـ مركزية التوظيف : مما يعني وجود مقاييس موحدة على صعيد الخدمة في اختبار وتوزيع الأفراد على الأجهزة الحكومية المختلفة عن طريق الاعلان والمسابقة التي يجريها الديوان العام للخدمة المدنية.

٢ ـ تصنيف الوظائف : حيث قسمت الوظائف الى مجموعات مهنية مختلفة مع تحديد مسئوليات وواجبات كل وظيفة، والمؤهلات المطلوبة لها، بحيث يمكن تطبيق مبدأ الموظف للوظيفة وليس العكس.

٣ ـ فترة التجربة : حيث يكون الموظف تحت التجربة لمدة عام يمكن خلالها إنهاء خدمته كجزء مكمل يحقق سلامة وفاعلية طرق الاختيار.

٤ ـ الترقية والنقل : حيث أصبحا يخضعان لنفس الأسس والمقاييس التي تستخدم في التعيين وبوجه خاص جواز الترقية عن طريق المسابقة.

٥ ـ التدريب : حيث نص النظام على أنه جزء من واجبات الوظيفة وألزم أجهزة الدولة باتاحة المجال للموظف لمزيد من التدريب لزيادة قدرة الموظف على أداء عمله.

ومع أن هذا النظام يعتبر من النظم المتطورة في مجال الخدمة، فان ديوان الخدمة المدنية لا يزال مترددا في تطبيق بعض بنوده واستكمال إصدار لوائحه التي كان النظام يهدف منها الى التفويض التدريجي للأجهزة الحكومية في ممارسة بعض مهام الديوان كالمسابقات للمراتب من الخامسة فما دون، وتفويض الوزراء في التعيين من المراتب العاشرة حتى الثالثة عشرة.

وما لم يخفف الديوان من مركزيته وتفويض الأجهزة الحكومية بعض الصلاحيات التي تسهل أعمالها، فان روح النظام وعصريته ستفقد قيمتها وتصبح نصوصا جامدة تكبل أيدي المسئولين بدلا من أن تساعدهم على تطوير القوى العاملة في أجهزتهم.

٣/٢ مجلس القوى العاملة :

عانت المملكة العربية السعودية ولا زالت تعاني نقصا كبيرا في القوى العاملة، وخاصة في المجالات التخصصية والفنية والحرفية، مما أدى الى الاعتماد بشكل كبير على العمالة الوافدة من عربية وأجنبية. ولقد شكلت العديد من اللجان الوزارية المؤقتة لدراسة أوضاع القوى العاملة. وانتهت هذه المحاولات بصدور المرسوم الملكي رقم (م/٣١) بتاريخ ١٤٠٠/٨/١٠هـ (١٩٨٠م) الى إنشاء مجلس القوى العاملة والموافقة على نظامه.

تشكيل المجلس :

يرتبط المجلس برئيس مجلس الوزراء، وتشكيله في الوقت الحاضر وفقا لمايلي :[١٤]

النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران	رئيس
وزير الداخليـــة	نائبا للرئيس
نائب وزير الداخليـــة	عضوا
وزير الخارجيـــة	عضوا
رئيس الاستخبارات العامة	عضوا
وزير التعليم العالي	عضوا
وزير العمل والشئون الاجتماعية	عضوا
وزير التخطيـــط	عضوا
وزير الصناعة والكهرباء	عضوا
وزير المعـــارف	عضوا
وزير المالية والاقتصاد الوطني	عضوا
نائب رئيس الحرس الوطني	عضوا
وزير الدولة رئيس ديوان الخدمة المدنية	عضوا
محافظ المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني	عضوا

وللمجلس لجنة تحضيرية مهمتها القيام بدراسة الموضوعات التي ستعرض على المجلس وتقديم توصيات بشأنها الى المجلس وتتكون من :[١٥]

- وزير العمل والشئون الاجتماعية.
- وزير التخطيط.
- وزير المعارف.
- وزير الدولة رئيس ديوان الخدمة المدنية وأمين مجلس القوى العاملة.

الأمانة العامة :

للمجلس أمين عام بدرجة وكيل وزارة، وكان مرتبطا في البداية بوزير التخطيط ولكنه ربط في عام ١٤٠٢هـ برئيس المجلس، وأصبح للأمانة ميزانيتها المستقلة[١٦].

---

(١٤) قرار مجلس الوزراء رقم ١٢٢ وتاريخ ١٤٠٠/٧/١٢هـ، ورقم ٣١ في ١٤٠١/٢/٢٩هـ.

(١٥) محضر اجتماعات المجلس رقم (٦) في عام ١٤٠٢هـ، ورقم (٢٠) في عام ١٤٠٥هـ.

(١٦) المرسوم الملكي رقم (م/٤٤) في ١٤٠٢/٧/٤هـ.

مهام المجلس :

تشمل مهام مجلس القوى العاملة التالي :[١٧]

١ - دراسة الاحتياجات القائمة للقوى العاملة بمختلف فئاتها من السعوديين والأجانب وفق متطلبات وخطط برامج التنمية، ووضع السياسات العامة التي يجب على جميع أجهزة الدولة التمشي بموجبها في تنفيذ مسئولياتها في هذا القطاع.

٢ - اقتراح التنسيق بين البرامج الحكومية المختلفة لتنمية طاقات المملكة البشرية، وذلك بالتأكد من كون البرامج التعليمية والتدريبية المتصلة بهذا الحقل متمشية ومتطلبات تطوير القوى العاملة وقدراتها على تنمية المهارات اللازمة لاحتياجات المملكة مستقبلا.

٣ - رسم السياسات لتوزيع القوى العاملة السعودية وغير السعودية في المملكة بما يكفل الاستفادة القصوى منها واتخاذ الخطوات التي تكفل التقليل من استقدام الأيدي العاملة غير السعودية.

٤ - وضع السياسات لتنويع مهارات القوى العاملة السعودية ورفع مستواها.

٥ - رسم السياسات في مجال زيادة مساهمة السعوديين في مجموع القوى العاملة لزيادة عدد السعوديين من جميع الأعمار ممن يشاركون بفعالية في مجهودات التنمية.

٦ - رسم السياسات الكفيلة باعطاء العمالة الحوافز المادية والمعنوية التي تشجع على العمل.

أعمال المجلس :

قام المجلس منذ انشائه بالعديد من الدراسات المتعلقة باختصاصاته[١٨]. ولكن الذي يعاب على مجلس القوى العاملة هو انصرافه عن مهامه الأساسية والتي يأتي في مقدمتها اعداد خطة وطنية للقوى العاملة تكون أساسا لدراسات أخرى.

اذ أن المتتبع لقراراته يرى بوضوح أنها تعالج جزئيات من مشاكل القوى العاملة تتداخل أحيانا مع جهود مركزية أخرى وذلك على حساب الاهتمام بمهامه الرئيسية.

٢/٤ لجنة تدريب وابتعاث موظفي الخدمة المدنية :

أنشئت لجنة التدريب المركزية بالديوان العام للخدمة المدنية برئاسة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية

(١٧) المرسوم الملكي رقم (م/٣١) لعام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

(١٨) لمزيد من التفاصيل انظر :
الأمانة العامة لمجلس القوى العاملة، التقرير السنوي لمجلس القوى العاملة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

وعضوية مدير عام معهد الادارة العامة، ونائب محافظ المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، ووكيل وزارة التخطيط، ووكيل وزارة التعليم العالي، ووكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني للتنظيم والميزانية ثم تم دمجها في لجنة ابتعاث الموظفين بناء على توصية اللجنة العليا للاصلاح الاداري بقرارها رقم (١٨٣) وتاريخ ١٤/٩/١٤٠٨هـ، وضم لعضويتها وكيل وزارة المعارف والأمين العام لمجلس القوى العاملة. وأسندت لها بموجب لائحة التدريب المهام التالية: [١٩]

- رسم السياسة العامة لتدريب وابتعاث الموظفين.
- الشنسيق بين المراكز التدريبية للموظفين ومتابعة نشاطها، واعطاء المشورة لها، ودراسة مدى استفادة الأجهزة الحكومية منها.
- قبول أو رفض طلبات الابتعاث للدراسة أو التدريب في الخارج مهما كانت مدة التدريب.
- تحديد مدة التدريب والابتعاث للموظف المبتعث في الخارج.
- الموافقة على قبول منح الابتعاث والتدريب.

وتعاون لجنة الابتعاث والتدريب ادارة التدريب بالديوان العام للخدمة المدنية كسكرتارية متخصصة لها.

وقد أدت لجنة التدريب دورا هاما في التنسيق بين الأجهزة الحكومية في مجال التدريب، كما وضعت اللجنة عددا من القواعد التي تسترشد بها الأجهزة الحكومية في اعداد خطتها التدريبية.. ومن أبرز هذه القواعد: [٢٠]

- على الجهات الحكومية التأكد من عدم قيام معاهد ومراكز التدريب بتنفيذ برامج تدريب مماثلة للبرامج التي ترغب في تنفيذها بنفسها.

- يراعى في برامج التدريب المقترح الابتعاث لها في الخارج ألا تكون بنفس المستوى والتخصص الموجود في معاهد ومراكز التدريب في الداخل.

- يجب ألا يقل عدد المتدربين سنويا من كل جهاز عن ٥٪ من عدد العاملين به كما نصت لائحة التدريب.
- مطالبة الجهات الحكومية بتقديم خطط سنوية للتدريب.

وأدت اللجنة دورا هاما في مجال تنظيم الابتعاث للتدريب بالخارج وفي مجال تنظيم التدريب بالداخل[٢١].

كما أنها تعد الآن قواعد عمل جديدة بالنسبة لابتعاث الموظفين للدراسة وقد بلغ عدد من ابتعث للتدريب في الخارج خلال عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) (٥٤٦) موظفا، كما بلغ عدد المبتعثين للدراسة خلال نفس الفترة (٤٤٦) موظفا. [٢٢]

---

(١٩) د. محمد بن عبدالرحمن الطويل، «دور أجهزة التنمية الادارية في تحقيق التنمية الادارية»، مرجع سابق، ص. (٢٦).

(٢٠) خالد عبدالكريم الحمد، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢١) لمزيد من التفصيل حول انجازات لجنة التدريب، انظر «انجازات التدريب في مجال الخدمة المدنية»، سلسلة الاصدارات الاعلامية للديوان العام للخدمة المدنية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص (٨).

(٢٢) التقرير السنوي لديوان الخدمة المدنية ١٤٠٧/١٤٠٨هـ، ص ٨٩ و١٣٤.

ولكن نقطة الضعف الأساسية التي لم تستطع اللجنة معالجتها حتى الآن هي القيام بمهمتها الرئيسية وهي وضع سياسة وخطط علمية للتدريب والابتعاث، ويعود ذلك بشكل أساسي الى ضعف ادارة التدريب في الديوان من ناحية العدد والكفاءات اذ أنها الجهة المفروض منها أن تعد الخطط السنوية والخمسية للاحتياجات التدريبية لموظفي الخدمة المدنية. كما أن عليها أن تعد خطة لاحتياجات الأجهزة الحكومية من القوى العاملة.

٥/٢ الادارة المركزية للتنظيم والادارة :

أنشئت الادارة المركزية للتنظيم والادارة كادارة عامة في وزارة المالية والاقتصاد الوطني بموجب المرسوم رقم (١٩) لعام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، الا أنها لم تبدأ في ممارسة أعمالها الا في عام ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، وبموجب قرار وزير المالية والاقتصاد الوطني رقم ١/١٨/١٤٤٧ الصادر بتاريخ ١٣٨٦/٢/٢هـ . وقد أوكلت لها المهام التالية :

ـ دراسة وتحليل أساليب العمل في أجهزة الدولة بقصد تطويرها وزيادة فعاليتها لتمكينها من القيام بخدمات أفضل.

ـ العمل على تحليل وتبسيط العمليات المكتبية في الادارات الحكومية المختلفة واستعمال الأجهزة والمعدات الحديثة وتوحيد النماذج المستعملة.

ـ التعاون مع خبراء مؤسسة فورد الذين يعملون في برنامج الاصلاح الاداري فيما يتعلق بتنظيم البرنامج وتنفيذه.

ـ تقديم المشورة في جميع ما يرتبط بالأجهزة الادارية المختلفة من أعمال في مجالات التنظيم والتوظيف والأساليب الادارية.

وفي مرحلة لاحقة تحددت مهام ومسئوليات الادارة المركزية للتنظيم والادارة بموجب قرار وزير المالية والاقتصاد الوطني رقم ١٨/١٦٢٩ في ١٣٨٧/٨/٢٤هـ (١٩٦٧م) على النحو التالي :

ـ تطوير الأساليب التنظيمية في الأجهزة الحكومية المختلفة في جميع المستويات ووضع معدلات الأداء المناسبة ونشرها للاسترشاد بها في تنظيم هذه الأجهزة وتحديد حاجتها من القوى العاملة.

ـ مراجعة مشروعات إنشاء الأجهزة الجديدة قبل ادراجها في الميزانية ومراجعة اعادة تنظيم أو تعديل اختصاصات الأجهزة القائمة قبل اعتمادها من السلطة المختصة.

ـ إعداد وإبداء الرأي في مشروعات الأنظمة واللوائح المتعلقة بالنواحي التنظيمية والادارية ومراجعة جميع الأنظمة القائمة بغرض العمل على تطويرها وتنسيقها عندما يطلب اليها ذلك.

ـ التعاون مع معهد الادارة العامة في تنسيق وعقد دورات تدريبية خاصة لموظفي التنظيم والادارة العاملين في الوزارات والأجهزة الحكومية ، واختيار المراجع العلمية التي تتعلق بطبيعة عمل التنظيم والادارة والتوجيه باطلاع موظفي الوحدات عليها .

ـ المساعدة في تأسيس وتنظيم وحدات التنظيم والادارة بالأجهزة الحكومية المختلفة والتنسيق بين أعمالها واعداد دليل يوضح اختصاصها وأهدافها ومدها بالمساعدات اللازمة لزيادة مقدرتها وكفايتها ومتابعة أعمالها وتحليليها واستخلاص النتائج وتعميم المفيد منها .

ـ الاشتراك مع الادارة العامة للميزانية بوزارة المالية والاقتصاد الوطني في تحليل طلبات إحداث الوظائف الجديدة في الوزارات وأجهزةالدولة الأخرى .

ـ نشر دليل سنوي عن التنظيم والادارة لأجهزة الحكومة .

ولقد تحولت جهود الادارة في الوقت الحاضر الى التركيز على مناقشة الوظائف التي يتم احداثها في الميزانية وذلك لعدة أسباب ، يأتي في مقدمتها :

ـ قيام معهد الادارة العامة واللجنة العليا للاصلاح الاداري بنفس المهام التي يمكن أن تقوم بها .

ـ عدم وجود ادارات فعالة للتنظيم والادارة في الأجهزة الحكومية .

محدودية الخبراء العاملين بها .

ـ الجهد الكبير الذي تبذله في مناقشة الباب الأول من ميزانية الدولة .

٦/٢ كليات الادارة بالجامعات السعودية :

اهتمت المملكة بالتعليم العالي ، وتمثل ذلك الاهتمام في التوسع في اتاحة فرص التعليم العالي . فمن جامعة واحدة ارتفع عدد الجامعات في المملكة العربية السعودية الى سبع جامعات في وقتنا الحاضر ، وبالتالي ارتفع عدد الطلاب في الجامعات وتضاعفت أعدادهم ، حيث بلغ (٧٨,٨٧٥) طالبا وطالبة في عام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ .[٢٣]

وقد ارتفع عدد الكليات بالجامعات من (٥٣) كلية عام ١٤٠٠/١٤٠١هـ الى (٧١) كلية عام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ (١٩٨٦/١٩٨٧م) . كما يوجد الآن بالمملكة (١١) كلية جامعية و (١٤) كلية متوسطة للبنات تتبع الرئاسة العامة لتعليم البنات .

(٢٣) الكتاب الاحصائي السنوي العدد الثالث والعشرون، مصلحة الاحصاءات العامة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨هـ .

ومعظم هذه الجامعات (جامعة الملك سعود ، وجامعة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الملك فيصل وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن وجامعة الامام محمد بن سعود) تقوم بتدريس الادارة في كلياتها ، وتمنح درجة البكالوريوس في الادارة العامة وادارة الأعمال والادارة الصناعية ـ فيما عدا جامعة أم القرى والجامعة الاسلامية فهما جامعتان متخصصتان في تدريس العلوم الدينية والقيام بالأبحاث المتعلقة بعلوم الدين وعلوم اللغة العربية .

والجدول التالي يوضح تقديرات الملتحقين في مجال الادارة خلال العام ١٤٠٧/١٤٠٦هـ .

جدول رقم (١)
تقديرات الملتحقين في عام ١٤٠٧/١٤٠٦هـ
بالجامعات السعودية في مجال الادارة*

الجامعة	طلبة	طالبات	المجموع
جامعة الملك سعود (الرياض) كلية العلوم الادارية	٢٨٧١	١٠٢٩	٣٩٠٠
جامعة الملك عبدالعزيز (جده) كلية الاقتصاد والادارة	٣٨٧٤	١٤٤٩	٥٣٢٣
جامعة الملك فيصل كلية العلوم الادارية	٣٨٣	-	٣٨٣
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن كلية الادارة الصناعية	٤٣٢	-	٤٣٢
المجموع	٧٥٦٠	٢٤٧٨	١٠٠٣٨

* المصدر : الكتاب الاحصائي السنوي / العدد الثالث والعشرون ـ مصلحة الاحصاءات العامة ، ص . ص . ٧٦ ـ ٨٤ .

ولاشك أن كليات الادارة قد وفرت أعداداً كبيرة من الجامعيين الذين سدوا فراغا كبيرا في الأجهزة الحكومية والأهلية . وان كان ما يعاب عليها ما ذكره أحد قيادييها ، وهو الدكتور / أسامه عبدالرحمن :

« ان الجامعات في دول المنطقة لا تكاد تخرج عن كونها نمطا منقولا في تنظيمه وبرامجه ، ولذلك فهي تعيش في عزلة عن المجتمع ومشاكله وطموحاته . وربما كان من المؤشرات الدالة على صدق هذا الاستنتاج أن خريجي الجامعات لا يكادون يستفيدون الا بالنزر اليسير مما استوعبوه في الجامعات ، ويشعرون منذ اليوم الأول الذي يضعون فيه أقدامهم في الأجهزة والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية بالفجوة الكبيرة بين الجامعات وبين تلك الأجهزة والمؤسسات ».[٢٤]

ثم يستطرد فيقول :

« ودور الجامعات في تكوين الطليعة الادارية دور رئيسي رغم أن الجامعات لم تضطلع بعد بما يقتضيه هذا الدور ».[٢٥]

ويؤيده في هذا الرأي قيادي آخر هو الدكتور / حمود البدر حيث يقول :

« ان تخطيط التعليم العالي يتم في مؤسسات تملك أفضل الوسائل العلمية وأكثرها تطورا لدفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فهي الأقدر بحكم تركيبتها العلمية على أن تكون أكثر التصاقا بالمشاريع الصناعية والزراعية التنموية الرائدة في المملكة . وهذا الالتحام المفروض لم يتم حتى الآن بالدرجة المطلوبة ، ولم تتخذ حتى الآن خطوات علمية لترجمة دور الجامعات في رفد هذه المشاريع بالخبرات العلمية والتطبيقات العملية للبحوث وبالكوادر البشرية . ونقصد ترجمة هذا الدور في خطط تعد وتنفذ ويتابع تنفيذها باستمرار ».[٢٦]

٧/٢ اللجنة العليا للاصلاح الاداري :

قامت المملكة العربية السعودية منذ أواخر الخمسينيات بمحاولات جادة لدراسة الوسائل التي تؤدي الى تطوير وتحديث أجهزتها الادارية ، وذلك بانشاء العديد من المؤسسات التي تعنى بالتنمية الادارية[٢٧].

---

(٢٤) د. أسامة عبدالرحمن، البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية، بيروت، يوليو ١٩٨٣م، ص (١٧٩).

(٢٥) المصدر السابق، ص (١٨٣).

(٢٦) د. حمود البدر، « دور الجامعة في التخطيط لبرامجها الجامعية »، بحث مقدم لندوة برامج الجامعات ومدى تلبيتها لاحتياجات الدولة من القوى العاملة، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٩٨٨م، ص (٣١٤).

(٢٧) لمزيد من التفاصيل لرجع الى :

د. محمد عبدالرحمن الطويل دور أجهزة التنمية الادارية في تحقيق التنمية الادارية، حالة دراسية عن أجهزة الادارية في المملكة العربية السعودية، معهد الادارة العامة ـ الرياض، ١٩٨٠م.

وقد أدت الدراسات العديدة التي تمت عن الوضع الاداري في المملكة من جانب مؤسسة فورد الأمريكية الى انشاء اللجنة العليا للاصلاح الاداري بموجب قرار مجلس الوزراء رقم (٥٢٠) في ١٣٨٣/٧/٥هـ (١٩٦٣م) ، وذلك بهدف الاشراف على عملية الاصلاح الاداري في المملكة والاسراع في عملية تنظيم الأجهزة الحكومية وتطوير الادارة .

تشكيل اللجنة :

تتألف اللجنة في الوقت الحاضر من :

- خادم الحرمين الشريفين الملك رئيس مجلس الوزراء	رئيسا
- النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران	نائبا للرئيس
- وزير المالية والاقتصاد الوطني	عضوا
وزير التخطيط	عضوا
- وزير الدولة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية	عضوا
- اثنين من وزراء الدولة	أعضاء

ويشارك في اجتماعاتها رئيس اللجنة الادارية التحضيرية مدير عام معهد الادارة العامة ، ويتولى أمانتها أمين عام لها يرتبط برئيس اللجنة التحضيرية .

مهام واختصاصات اللجنة :

نصت الفقرة الرابعة من قرار مجلس الوزراء المنشيء للجنة على ما يلي :

« تختص هذه اللجنة باتخاذ جميع الاجراءات التي تحقق الاصلاح الاداري وتكون قراراتها واجبة التنفيذ في حدود ما يقضي به هذا القرار» .

كما نصت الفقرة الخامسة من القرار نفسه على أن « يفوض مجلس الوزراء هذه اللجنة ممارسة اختصاصاته المنصوص عليها في الفقرة الثانية من المادة (٢٥) من نظام مجلس الوزراء الصادر بالمرسوم الملكي رقم (٣٨) لعام ١٩٥٨م فيما يتعلق باحداث وترتيب المصالح العامة . فاذا كان الاحداث والترتيب يمس مجموعة من قطاعات الدولة وأجهزتها ، فيكون قرارها نافذا بمقتضى اصداره ، الا اذا قدرت اللجنة ضرورة عرض الأمر على مجلس الوزراء لاحاطته بالقرار قبل اصداره ، أو أخذ رأي أعضاء مجلس الوزراء مقدما في موضوع ترى فيه أهمية خاصة .

أما اذا كان الاحداث والترتيب يمس وزارة أو مصلحة حكومية معينة بذاتها ، فيجب على اللجنة أخذ رأي الوزير أو رئيس المصلحة المعنية ، ثم تصدر قراراتها بما تراه محققا للمصلحة العامة . وقرارات اللجنة التي تقتضي

تعديل الأنظمة يجب أن تتخذ طريقها النظامي الواجب . وللجنة أن تصدر قرارات وتعليمات تعدل أو تلغي القرارات والتعليمات السابقة أو تنشيء أحكاما ادارية جديدة ».

ووفقا للائحة عمل اجراءات اللجنة الصادرة بقرار اللجنة العليا للاصلاح الاداري رقم (١) وتاريخ ١٣٨٣/٨/٨هـ فان مهامها قد تحددت في التالي :[٢٨]

١ ـ وضع واقرار الخطة العامة لتنظيم الادارة الحكومية واصدار القرارات والتعليمات اللازمة لتنفيذ الخطة العامة .

٢ ـ دراسة واقرار نتائج التقارير والتوصيات المقدمة من قبل اللجنة الادارية التحضيرية .

٣ ـ أخذ رأي مجلس الوزراء في القرارات التي ترى اللجنة ضرورة عرضها على المجلس لأخذ الرأي فيها أو لاحاطة المجلس علما بها فقط .

٤ ـ ابلاغ الوزارات والمصالح الحكومية بالقرارات والتعليمات الواجبة التنفيذ .

٥ ـ دعوة المسئولين في أي وزارة أو مصلحة حكومية للاستئناس برأيهم فيما هو معروض على اللجنة من توصيات وتقارير .

٦ ـ دراسة واقرار الخطة العامة لمراقبة وتتبع تنفيذ القرارات التي تصدرها اللجنة وتبليغها للادارات الحكومية .

٧ ـ اتخاذ جميع الاجراءات التي تحقق بصفة مباشرة أو غير مباشرة اصلاح الجهاز الاداري الحكومي ، أو التي من شأنها تسهيل تحقيق هذا الاصلاح .

الجهاز التنفيذي للجنة :

يتولى الأعمال التنفيذية الفنية للجنة ، معهد الادارة العامة من خلال أمين عام يرتبط بمدير عام المعهد رئيس اللجنة التحضيرية للاصلاح الإداري . وهذه اللجنة التحضيرية تضم بجانب رئيسها ، نائب رئيس الديوان العام للخدمة المدنية ، ووكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني لشئون التنظيم وبلميزانية ، وحددت مهامها بموجب قرار اللجنة العليا للاصلاح الاداري رقم (١) بالتالي :

١ ـ مناقشة ودراسة التقارير والموضوعات كافة وابداء الملاحظات عليها واعداد التوصيات اللازمة بشأنها تمهيدا لعرضها على اللجنة العليا للاصلاح الاداري .

٢ ـ دعوة المسئولين في الوزارات والمصالح الحكومية وذلك للاستئناس بآرائهم في بعض الموضوعات المطروحة على اللجنة العليا للاصلاح الاداري اذا رأت أن هناك حاجة لذلك . كما أن لها أن تدعو من تراه من الموظفين أو غيرهم بصفتهم الشخصية للاستئناس بآرائهم أيضا .

---

(٢٨) الأمانة العامة للجنة العليا للاصلاح الاداري، اللجنة العليا للاصلاح الاداري : مهامها، تنظيمها وانجازاتها، معهد الادارة العامة ـ الرياض، ١٤٠٥هـ .

٣ ـ الاتصال بالوزارات والمصالح الحكومية للحصول على المعلومات والبيانات اللازمة .

٤ ـ رفع أية توصيات أو مقترحات أو خطط الى اللجنة العليا للاصلاح الاداري ترى من شأنها تسهيل مهمة تنفيذ برامج الاصلاح الاداري لجهاز الدولة بوجه عام .

وأمين اللجنة العليا المتفرغ لأعمال اللجنة بمرتبة وكيل وزارة مساعد ويرتبط بمدير عام المعهد ، يساعده حوالي ٢٠ خبيرا سعوديا متفرغا من أعضاء هيئة التدريس بمعهد الادارة العامة . ويستعين عند الحاجة بكافة خبراء المعهد . ومقر الأمانة في معهد الادارة العامة . وقد حدد القرار رقم (١) للاصلاح الاداري مهام الأمانة بالتالي :

١ ـ القيام بأعمال السكرتارية الخاصة للجنتين العليا والادارية التحضيرية بما في ذلك اعداد محاضر الجلسات ، وتسجيل الملاحظات والآراء ، وتنظيم وحفظ الملفات والأوراق وأعمال السكرتارية الخاصة كافة .

٢ ـ تحضير الوثائق والبيانات والمعلومات التي تستلزمها أعمال اللجنتين .

٣ ـ الاتصال بالمسئولين في الوزارات والمصالح وغيرهم ممن تود اللجنتان دعوتهم وإحاطتهم بالغرض من الاجتماع .

٤ ـ إعداد التقارير والدراسات التي تعرض على اللجنتين (العليا والتحضيرية) ، ويدخل في ذلك القيام بزيارات ميدانية للوزارات والمصالح الحكومية ذات العلاقة بالدراسات لأغراض جمع المزيد من المعلومات واستطلاع آراء ذوي الاختصاص بالموضوع .

٥ ـ إعداد قرارات اللجنة العليا للاصلاح الاداري .

خصائص اللجنة العليا للاصلاح الاداري :

من استقراء التركيب التنظيمي والمهام المسندة الى اللجنة العليا للاصلاح الاداري يتبين لنا أنها تتميز بمزايا وخصائص فريدة ساعدت على استمراريتها واعطائها موقعا مميزا ساعدها على أن تلعب دورا مؤثرا في مجال التنمية الادارية للأسباب الآتية :

ـ أسندت رئاستها لأعلى سلطة في الدولة ، وضمت في عضويتها العديد من الوزراء المؤثرين في مجال قراراتها ، مما أعطى لقراراتها سندا سياسيا قويا .

ـ خولت لها صلاحية مجلس الوزراء الذي يمثل السلطة التشريعية والتنفيذية في المملكة فيما يختص بمهامها . وبذلك أصبح لقراراتها قوة التنفيذ المباشر دون خوف من أن تؤثر قوى أخرى في توجيه قراراتها وجهة مغايرة .

ـ أوجدت الأداة الخبيرة الفنية التي تضمن دراسة كافة الموضوعات المعروضة على اللجنة العليا أو المبادأة باقتراح أساليب وأسس جديدة للتنمية الادارية عن طريق دراسات واقعية ومترابطة من خلال إشراك الجهات المعنية بالتنمية الادارية في المملكة في اللجنة التحضيرية ، وهي : معهد الادارة العامة المسئول عن التدريب والاستشارات الادارية

والبحوث والتوثيق الاداري ، وديوان الخدمة المدنية المعني بشئون التوظيف وتطوير أنظمته واجراءاته ، ووزارة المالية والاقتصاد الوطني المسئولة عن تبسيط اجراءات العمل في الأجهزة الحكومية واعتهاد الوظائف . هذا التشكيل ساعد على المشاركة في صنع قرارات اللجنة العليا من قبل الجهات المعنية بالتنمية الادارية وتضافرها لنجاح تطبيق تلك القرارات .

ـ ربطت أمانتها بمعهد الادارة العامة مما أتاح لها الفرصة للاستفادة من قاعدة كبيرة من الخبراء الذين يزيد عددهم على الخمسمائة خبير في مختلف مجالات عمل اللجنة ، مما أتاح مجالا واسعا لأن تكون القرارات الصادرة عنها مبنية على خبرة علمية وعملية من منطلق واقعي يتلاءم والاحتياجات البيئية للادارة في المملكة .

هذه المميزات أعطت التجربة السعودية في مجال الاصلاح الاداري نموذجا مميزا عن باقي التجارب العربية وصفه أحد المختصين في هذا الموضوع بقوله :

« هناك بعض الاستثناءات القليلة الجديرة بالتأمل والدراسة والاهتداء بها على أنها نماذج لتأصيل منهج مؤسسي في الاصلاح الاداري ، ومن أهم هذه النماذج تجربة المملكة العربية السعودية حيث أنشئت اللجنة العليا للاصلاح الاداري في عام ١٩٦٣م . وكان معهد الادارة العامة القاعدة الفكرية لها . وتأكد هذا الموقف بانشاء اللجنة الادارية التحضيرية للاصلاح الاداري برئاسة مدير معهد الادارة العامة ، فصار المعهد بشقيه الرسمي والعضوي جزءا لا يتجزأ من برنامج الاصلاح الاداري . لم يكن فقط مقرا للاجتماعات الرسمية لكلا اللجنتين العليا والتحضيرية ، ولكنه كان ولم يزل بمثابة خلية التفاعل الفكري للكثير من معطيات وفعاليات التطوير الاداري في المملكة ».[٢٩]

وبالرغم من هذه الجوانب الايجابية في تجربة الاصلاح الاداري بالمملكة فان هناك جوانب سلبية تعتريها ويمكن تلخيصها في التالي :

ـ ترك الخيار للأجهزة الحكومية لطلب وضع هياكل تنظيمية متطورة لها بدلا من أن يكون الاصلاح وفقا لخطة شاملة من منظور متكامل للأجهزة الحكومية يحدد مهامها ويمنع الازدواجية في أعمالها ، آخذا في الاعتبار الجانب التنظيمي والأنظمة واللوائح والقوى البشرية مما يجعل عملية التطوير الاداري عملية مبتورة وجزئية .

ـ مقاومة التغيير وهو مبدأ معروف على المستوى العالمي ، فالقيادات الادارية في الأجهزة الحكومية تسعى لمقاومة التغيير الاداري ، وقد ظهر ذلك واضحا في محاولات اللجنة حاليا لتبسيط الاجراءات في الأجهزة الحكومية ذات العلاقة بالجمهور ، مما يؤدي الى بطء العملية واهدار الكثير من الوقت في الاقناع .

(٢٩) د. حسن أبشر الطيب، الاصلاح الاداري في الوطن العربي بين الأصالة والمعاصرة، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الادارية، ١٩٨٦م، ص (٨١٩).

٨/٢ تجارب بعض الدول العربية في مجال الاصلاح الاداري :

ولو استعرضنا بعض التجارب العربية فيما يتعلق بمؤسسات الاصلاح الاداري فاننا سنجد تفاوتا كبيرا في وضعها التنظيمي ومدى فعاليتها .

ففي دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، نجد أن دولة الكويت هي الدولة الوحيدة بجانب المملكة التي أنشأت لجنة عليا لتحديث وتطوير الجهاز الاداري بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٤م برئاسة رئيس مجلس الوزراء وعضوية ثلاثة من الوزراء واثنين من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الكويت ، واثنين من القطاع الخاص ، وعهد لها بدراسة السياسات والخطط والوسائل اللازمة لتطوير نظم الجهاز الاداري في الدولة . وشكل لها ثلاث لجان تحضيرية ، وأوكل لديوان الموظفين أمانة سر هذه اللجان وكذلك اللجنة العليا التي تعرض توصياتها على مجلس الخدمة المدنية أو مجلس الوزراء وفقا لاختصاص كل منها في الموضوعات المعروضة لاتخاذ الاجراءات المناسبة بشأنها .[٣٠]

ولا يزال الحكم على فاعلية هذه اللجنة سابقا لأوانه ، اذ أن الحكم عليها يتوقف على مدى قدرتها على تخليص الادارة الكويتية من كم هائل من التراكمات والمشكلات الادارية التي أنشئت اللجنة لمواجهتها والتي وصفها أحد الملتصقين بها بأن :

« الاصلاح الاداري بطبيعته عملية أو عمليات متكاملة ، يساند بعضها بعضا . والمتأمل في هذه الجهود السابقة يلاحظ بوضوح الطابع الجزئي لمعالجتها ، الأمر الذي جعل كثيرا مما ذهبت اليه هذه الجهود لا يحقق أهدافه ، فسياسة التدريب لم تتكامل مع قانون الخدمة المدنية ، ونظام تقييم أداء العاملين لا يساعد على تحديد الاحتياجات التدريبية ، وأساليب العمل لا تساندها الأوضاع التنظيمية القائمة . وهكذا كانت الجهود جزئية وموضعية تفتقر الى استراتيجية تحكمها أو اطار عام يربط بينها ».[٣١]

أما في بقية دول الخليج الأخرى فلا توجد لجنة أو جهاز مركزي مختص بالاصلاح الاداري ، وانما أسندت هذه المهمة في البحرين الى قسم التطوير الاداري والتنفيذي التابع لادارة التطوير والتدريب بديوان الموظفين . وفي دولة عمان أسندت الى ادارة التنظيم وتبسيط الاجراءات بديوان شئون الموظفين . أما في قطر فقد عهد بها الى قسم التنظيم والبحوث المرتبط بادارة التنمية الادارية بادارة شئون الموظفين المرتبطة بوزير المالية والبترول .[٣٢]

وفي الأردن ، لخص الوضع تقرير رسمي مقدم من معهد الادارة في الأردن على النحو التالي : « غياب سياسة

---

(٣٠) المرسوم الأميري تاريخ ١٤/١٠/١٩٨٤م.

(٣١) د. ناصف عبدالخالق جاد، تجارب الاصلاح الاداري في دول مجلس التعاون الخليجي: دراسة تحليلية مقارنة، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الادارية ـ عمان، ١٩٨٦، ص (٨٧٦).

(٣٢) لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع الى :

د. محمد بن عبدالرحمن الطويل، تحليلات التنمية الادارية في الدول العربية الأعضاء بمجلس التعاون الخليجي، معهد الادارة العامة ـ الرياض، ١٩٨٥م.

واضحة المعالم للتنمية الادارية ومحدودية جهود التطوير والاصلاح الاداري وضعفها وتشتتها وعدم استمراريتها واعتمادها عدم التفرغ وعدم التخصص ».[٣٣]

ولقد أنشأت الأردن في عام ١٩٨٤م لجنة ملكية لتطوير الادارة برئاسة رئيس الوزراء وعضوية سبعة من الوزراء وخمسة آخرين ، لوضع التوصيات المناسبة لتطوير الادارة في المملكة الأردنية[٣٤]. ولعل ذلك يساعد في المستقبل على ايجاد سياسة واضحة ومستمرة فيما يتعلق بالاصلاح الاداري في الأردن ، وايجاد الأجهزة المتخصصة للعناية به .

أما في سوريا ، فقد أوضح اثنان من المحتكين بأمور التنمية والاصلاح الاداري بها وضعها على النحو التالي :

« من الصعب القول بوجود ادارة مركزية للتنظيم والأساليب في القطر العربي السوري من الناحية العملية . ولا نجازف اذا قلنا بعدم وجود حتى لجان دائمة للاصلاح والتطوير الاداري على أي مستوى من مستويات الهيكل التنظيمي الاداري للدولة ».[٣٥]

وفي لبنان ليس هناك جهاز مركزي معني بالاصلاح الاداري . وبالتالي « فعلى الرغم من حداثة الحركات الاصلاحية التي طرأت على الادارة اللبنانية ، فقد حققت تقدما لا يمكن انكاره ، وان كان هذا التقدم ليس على مستوى تطلعات وآمال اللبنانيين في ارساء ادارة متطورة وحديثة ».[٣٦]

أما في الجمهورية العراقية ، فقد أسندت عملية الاصلاح الإداري الى المركز القومي للاستشارات والتطوير الاداري الذي يرتبط بمجلس التخطيط الأعلى . وقد أنشيء بموجب القانون رقم ١٨٦ لسنة ١٩٧٠م ، وقد أصبح هذا المركز منذ صدور قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٣٣٣ وتاريخ ١٩٧٢ مسئولا عن وضع خطة لتطوير جهاز الدولة الاداري والاشراف على تنفيذها ، بالاضافة الى مسئولياته في التدريب والاستشارات الادارية والبحوث . وللمركز مجلس ادارة يرأسه مدير المركز ، وهو موظف بدرجة خاصة . ويضم ممثلين عن ست وزارات وأعضاء آخرين . وقد أنشئت أقسام للتنظيم والأساليب حولت فيما بعد الى أقسام للتطوير الاداري في كافة الأجهزة الحكومية بلغ عددها ١١٧ قسما في عام ١٩٨٨م ، كان المركز يقوم بالاشراف الفني عليها . وقد أسندت الى المركز في المراحل الأولى عملية اعداد الخطط والاشراف على تنفيذها[٣٧]. ولكن الأهداف والاستراتيجيات والسياسة العامة لخطة التنمية الادارية لعام ١٩٨٦ - ١٩٩٠ قللت من دور المركز وأصبح مسئولا عن وضع الأسس

---

(٣٣) معهد الادارة العامة في الاردن ، الادارة العامة في المملكة الأردنية الهاشمية تقرير مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م ص (٢٥٠).

(٣٤) المصدر السابق، ص (٢٥٤).

(٣٥) دلال بركات مسعود والدكتور/ محمد صالح علي، الادارة العامة في الجمهورية العربية السورية، بحث مقدم للمؤتمر العلمي للمعهد الدولي للعلوم الادارية - عمان - الأردن، ١٩٨٦م، ص (٤٧٠).

(٣٦) مجلس الخدمة المدنية، الادارة العامة في الجمهورية اللبنانية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان - الأردن، ١٩٨٦م، ص (٦٢٦).

(٣٧) د. عاصم الأعرجي، نظريات التطوير والتنمية الادارية، جامعة بغداد، ١٩٨٨م، ص. ص. (١٥٥ - ١٩٢).

والضوابط والارشادات ، واصدار الأدلة اللازمة لاعداد الخطط الفرعية في التنمية الادارية ، وجمع الخطط وتحليل البرامج الواردة بها ، ونشر المعلومات والاحصائيات المتعلقة بها ، وجمع المعلومات عن تنفيذ الخطط واصدار معلومات تحليلية واحصائية عنها .

أما وضع الخطط واعتمادها فتقوم بها الأجهزة الحكومية من خلال هيئة مركزية للتطوير الاداري في كل جهاز يرأسها وكيل الوزارة ، وتضم في عضويتها رؤساء أقسام التطوير الاداري وممثل عن الجامعات العراقية(٣٨). ولا شك في أن تجربة العراق في بداياتها تعتبر من التجارب الجيدة في مجال الاصلاح الاداري ، أما التطورات الأخيرة فمن الصعب تقييمها في الوقت الحاضر وان كانت في كلتا الحالتين تفتقر الى مجلس أو لجنة عليا تكون مسئولة عن الاشراف على وضع الخطط وتنفيذ عمليات الاصلاح الاداري .

وفي الجمهورية العربية اليمنية ، أنشيء في عام ١٩٨١م مجلس أعلى للخدمة المدنية والاصلاح الاداري . كما أنشئت وزارة للخدمة المدنية والاصلاح الاداري في نفس الوقت . ويتكون المجلس الأعلى من رئيس مجلس الوزراء رئيسا ومن ستة من الوزراء ومدير جامعة صنعاء أعضاء . وهناك وكيل وزارة لقطاع التنظيم والادارة في وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري . وقد قام هذا القطاع باعداد ونشر دليل تنظيمي للدولة عام ١٩٨٥م ، واعادة تنظيم بعض الوزارات ، ودراسة اجراءات العمل وأساليبه في بعض الوزارات ، واعداد تنظيم نمطي لكل من الادارة العامة للشئون المالية والادارية وادارة تخطيط المتابعة.(٣٩)

ولا شك في أن هذا يعكس اهتماما جيدا بموضوع التنمية الادارية ويعطي مؤشرا على الاتجاه الجاد للتطوير الاداري ، سيزيد عندما تتوفر كوادر يمنية عالية التأهيل في هذا المجال .

أما في السودان ، فقد أنشئت وزارة للخدمة المدنية والاصلاح الادارى وأفردت ادارة خاصة بموضوع الاصلاح الادار . وفي عام ١٩٧١ م تم انشاء العديد من وحدات التنظيم والأساليب في الأجهزة الحكومية حتى بلغت ١٧ وحدة في عام ١٩٧٤ م ، ولكن عدم الاستقرار السياسي أضعف دورها ، ثم ألغيت عام ١٩٨١ م ، وأعيدت الى الوجود عام ١٩٨٧ م . ولقد وصف وضعها تقرير رسمي بقوله :

«انها تفتقر لأبسط مقومات التنظيم داخليا ، حيث فقدت أغلب كوادرها المدربة ، وهي الآن بلا قيادة وبلا امكانيات وبلا أقسام محددة ، وما لم ينتبه المسئولون عن أمرها إلى ضرورة دعمها وتنشيطها وتحسين ظروف العمل بها ، فستظل اسما بلا مسمى ، ذلك لأن فاقد الشيء لايعطيه .»(٤٠)

(٣٨) د. عاصم الأعرجي، المرجع السابق، ص. ص. (١٩٠ - ١٩٣).

(٣٩) وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري، الادارة العامة في الجمهورية العربية اليمنية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان ـ الأردن، ١٩٨٦م، ص. ص. (٧٥٥ - ٧٥٩).

(٤٠) أكاديمية السودان للعلوم الادارية، الادارة في جمهورية السودان، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان ـ الأردن، ١٩٨٦، ص (٤٢٨) .

ومع ذلك فان لدى السودان كنزا من المختصين في مجال التنظيم والادارة يمكنهم ـ متى توفرت الظروف الملائمة ـ من إيجاد برنامج ناجح للتطوير الاداري .

وفي الجمهورية الجزائرية ، أنشئت وزارة للاصلاح الاداري عام ١٩٦٤ . وكانت مكلفة بتحضير الدراسات المتعلقة بسير الادارة وباقتراح العناصر الضرورية للاصلاح[٤١] ، ولكنها ألغيت ونقلت اختصاصاتها لوزارة الداخلية حتى عام ١٩٨٢ م حيث أنشئت كتابة الدولة المكلفة بالوظيفة العمومية والاصلاح الاداري والمرتبطة برئيس الوزراء . ثم تحولت في عام ١٩٨٤ م الى محافظة للاصلاح والتجديد الاداريين بديوان رئاسة مجلس الوزراء . وتقوم بشكل أساسي بدراسة واقتراح كل مامن شأنه أن يحسن تنظيم المصالح العامة وتسييرها ، وذلك وفقا لمتطلبات التنمية وتطوير الادارة وتقريبها من المواطن .

أما في المملكة المغربية ، فقد كان هناك وزارة للوظيفة العمومية والاصلاح الاداري عام ١٩٦١ م ، ومرت بعدة تغييرات الى أن أصبحت وزارة منتدبة لدى الوزير الأول المكلفة بالشئون الادارية في عام ١٩٨٥ م . ويرتبط بها مديرية الاصلاح الاداري المسئولة بشكل أساسي عن إعداد الأدلة التنظيمية الأجهزة الحكومية والقيام بالأبحاث والدراسات الرامية لتحسين الادارة ودراسة احتياجات الدولة من الموظفين .[٤٢]

ولكن مشكلة دول المغرب العربي هي الافتقار لمتخصصين في مجال الادارة العامة والاعتماد بشكل أساسي على المتخصصين في القانون الاداري ، مما يؤدى الى توجيه الاصلاح الاداري الى وجهة تعنى بالشئون النظامية أكثر من عنايتها بالشئون التنظيمية وتحديث الاجراءات وادخال الميكنة الادارية الحديثة واستخدام الأساليب العلمية في التخطيط والمتابعة .

أما في جمهورية اليمن الديمقراطية والصومال وموريتانيا وليبيا ، فلا يوجد لجان أو أجهزة للاصلاح الاداري .

الخلاصة :

يعكس الاستعراض السابق الحقائق عن وضع مؤسسات الاصلاح الاداري في الوطن العربي :

ـ عدم توفر أجهزة تعنى بالاصلاح أو التنمية الادارية في عدد كبير من الدول العربية مما يدل على عدم اهتمامها وادراكها لأهمية تلك الأجهزة .

ـ التذبذب في إحداث وإلغاء أجهزة الاصلاح الاداري في الكثير من الدول العربية مما يعكس أن عملية الاصلاح في بعضها هي عملية شعار مرحلة سياسية تختفي معه أجهزة الاصلاح الاداري بتغير النظام السياسي أو الحكومة ، وليست نتيجة لاستراتيجية وطنية طويلة الأمد .

---

(٤١) المدرسة الوطنية للادارة، الادارة العامة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان ـ الأردن ، ١٩٨٦م ، ص (٣٥٥) .

(٤٢) وزارة الشئون الادارية، الادارة العامة في المملكة المغربية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان ـ الأردن ، ١٩٨٦م ، ص . ص . ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

ـ لاتتوفر لكثير من تجارب الدول العربية الأداة الفنية التي تساعد في عملية صنع القرارات المتعلقة بأنشطتها .

ـ عدم تكامل وارتباط جهاز الاصلاح الاداري مع أجهزة التنمية الادارية الأخرى في الدولة ، وبالتالي فان كل جهاز يعمل في فلك منفرد يدور حوله دون الارتباط العضوي في عملية تنمية متكاملة مع الأجهزة الأخرى .

ـ يغلب الطابع الاداري الفني الجزئي في عمليات الاصلاح الاداري في الوطن العربي وذلك بتولي أجهزة الاصلاح الاداري اصدار قرارات بتجميل الوضع الاداري وترقيع ثقوب الأجهزة الادارية دون القيام بخطة شاملة للاصلاح الاداري تشمل الجوانب الأساسية للعملية ، وهي الاستراتيجية السياسية والربط بعملية خطة التنمية الشاملة قصيرة وطويلة الأمد ، وتوجيه عملية الاصلاح لعناصرها الأساسية : التنظيم ، الانسان ، السلوك والأهداف المرجوة من عملية الاصلاح .

ـ محاولة تقليد الأنظمة والتنظيمات في الدول المتقدمة التي لاتتلاءم والبيئة الادارية بمعطياتها المختلفة .

٢ / ٩ معهد الادارة العامة :

نشأة المعهد :

أنشيء معهد الادارة العامة نتيجة لدراسات قام بها فريق من ادارة المساعدات الفنية للأمم المتحدة لدراسة الأوضاع الادارية في المملكة العربية السعودية(٤٣) .

وقد صدر مرسوم انشاء المعهد برقم (٩٣) وتاريخ ١٣٨٠/٢/٢٤ هـ (١١أبريل ١٩٦١ م) ، على أن يكون هيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية . ويرتبط تنظيميا بوزير المالية والاقتصاد الوطني ، ويديره مجلس ادارة مكون على النحو التالي :

وزير المالية والاقتصاد الوطني	رئيسا
مدير معهد الادارة العامة	عضوا
وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني	عضوا
وكيل وزارة المعارف	عضوا
وكيل جامعة الملك سعود	عضوا
نائب رئيس الديوان العام للخدمة المدنية	عضوا

---

(٤٣) للمزيد من المعلومات عن نشأة المعهد ارجع الى :

1. Mohammed A. AL-Tawail, **The Institute of Public Administration in Saudi Arabia, A Case Study In Institution Buildings**, University Microfilm, U.S.A., 1974.

2. Dr. Mohammed A. AL-Tawail, **Process and Instrument of Administrative Development In Saudi Arabia**, University of Pittsburgh, 1970.

د. محمد بن عبدالرحمن الطويل، الادارة العامة في المملكة العربية السعودية، معهد الادارة العامة ـ الرياض ، ١٩٨٦م .

والمجلس هو السلطة العليا للمعهد يقوم بتحديد ووضع السياسات العامة للمعهد ، والموافقة على خططه السنوية والخمسية ، واصدار اللوائح ونظم العمل الداخلية وخطط ابتعاث موظفيه ، وتعيين كبار موظفيه ، وإقرار مشروع ميزانيته وحسابه الختامي ، وتعيين مراقبي حسابات خارجيين للمعهد .

الفروع :

يوجد للمعهد ثلاثة فروع ترتبط بمدير المعهد مباشرة ، هي : فرع المنطقة الغربية في جدة ، وفرع المنطقة الشرقية في الدمام ، وفرع للتدريب النسائي في الرياض . وتقوم بنفس المهام التي يقوم بها المركز الرئيسي .

مهام المعهد :

أنشىء المعهد لتحقيق الأهداف التالية :

- رفع كفاءة موظفي الدولة وإعدادهم علميا وعمليا لتحمل مسئولياتهم وممارسة صلاحياتهم على نحو يكفل الارتفاع بمستوى الادارة ويدعم قواعد تنمية الاقتصاد الوطني .
- المساهمة في التنظيم الاداري للادارة الحكومية .
- اعطاء المشورة في المشكلات الادارية التي تعرضها عليه الوزارات .
- القيام بالبحوث المتعلقة بشئون الادارة .
- جمع الوثائق الادارية للمملكة .
- توثيق الروابط الثقافية في مجال الادارة العامة .

الهيكل التنظيمي للمعهد :

يدير المعهد مدير ويتولى إدارة كافة الأمور التنفيذية للمعهد الذى سينقسم إلى القطاعات الرئيسية التالية : قطاع التدريب ، قطاع البحوث ، وقطاع الاستشارات .

إمكانات المعهد :

تتوفر في المعهد إمكانات بشرية وفنية ومالية ساعدته على التوسع والتطور خلال مسيرته الطويلة التي تقترب من ثلاثين عاما ليصبح مركزا متكاملا وأداة فعالة في عملية التطوير الادارى . وهو يعتبر من أكبر معاهد الادارة على مستوى العالم أجمع من حيث تكامله في وظائفه ومن حيث التدريب والبحوث والاستشارات ، ومن حيث حجم التدريب الذى يقدمه وتنوعه ، وحجم القوى البشرية المتوفرة له . كما يتميز بأنه يسير بخط صاعد منذ إنشائه حتى الآن . ويمكن استعراض إمكاناته في التالي :

- القوى البشرية :

تبلغ القوى البشرية العاملة في المعهد في العام التدريبي ١٤٠٩/١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/١٩٩٠ م (٩٦٣) منسوبا ومنسوبة من السعوديين وغيرهم .

ويتوزع أعضاء هيئة التدريس حسب مؤهلاتهم كالتالي :

المؤهل	الدكتوراه		الماجستير		البكالوريوس		المجموع	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
	٦٢	١١,٥٥٪	٢٨٩	٥٣,٨٢٪	١٨٦	٣٤,٦٣٪	٥٣٧	١٠٠٪

كما توافر للمعهد إمكانات فنية ومالية على هيئة ميزانية مستقله للصرف على انشطته التدريبية الأمر الذى يسّر مهمته إلى حد كبير .

انجازات المعهد

ساعدت الامكانات المتوفره للمعهد على استعداد المعده وقدرته على القيام باعبائه حيث انعكس ذلك على انجازاته في المجالات التالية :ـ

أ ـ في مجال التدريب :

المعهد هو جهة التدريب المركزية في المملكة في مجال التدريب الاداري ، وقد نصت لائحة تدريب موظفي الدولة في مادتها (٧/٣٤) على : «أنه لايجوز إنشاء مراكز تدريب للموظفين الا بعد موافقة لجنة التدريب ، كما لايجوز قيام أى أجهزة حكومية بتنظيم دورات لمنسوبيها اذا كانت هذه الدورات متوفرة في أجهزة التدريب المركزية في الداخل» .

ويقوم المعهد بالتدريب الاعدادى أي تدريب من سيلحقون بوظائف في أجهزة الدولة أو القطاع الأهلي ، وذلك في برامج لحملة الثانوية العامة ولحملة الشاهدات الجامعية ، ومدة كل برنامج سنتان ، وهي :

ـ برامج حملة الشهادة الجامعية ، وتشمل :

برنامج الأنظمة ، برنامج الدراسات البنكية ، برنامج الرقابة المالية ، برنامج مدربي الأعمال المكتبية ، وهناك ثلاثة برامج قدمت اعتبارا من بداية عام ١٤١٠ هـ وهي : الادارة الفندقية ، ادارة التسويق ، دراسات التأمين .

ـ برامج حملة الثانوية العامة ، وتشمل :

برنامج الحاسب الآلي ، برنامج مشغلي الحاسب الآلي ، برنامج دراسات المكتبات ، برنامج ادارة المواد ، برنامج الدراسات الإحصائية ، برنامج ادارة المستشفيات ، برنامج شئون الموظفين الاعدادى ، برنامج السكرتارية المتقدم ، برنامج الدراسات البنكية المتوسط ، برنامج الدراسات المالية ، برنامج النسخ الثانوى بلغتين ، برنامج النسخ الثانوى بلغة ، برنامج دراسات التأمين ، برنامج الخدمات الفندقية ، برنامج المبيعات ، برنامج المحاسبة التجارية ، برنامج دراسات مكاتب السفر والسياحة ،

كما يقوم المعهد بالتدريب أثناء الخدمة للموظفين العاملين في الأجهزة الحكومية من خلال أربع مجموعات من البرامج هي :

ـ برامج الادارة العليا : وهي موجهة لوكلاء الوزارات وشاغلي وظائف «مدير عام» . وتقدم على شكل ندوات وحلقات تطبيقية في موضوعات مختلفة ، وتتراوح مدتها بين ثلاثة وخمسة أيام .

ـ برامج الادارة التنفيذية والمتوسطة : وهي موجهة للموظفين من المرتبة الأولى الى المرتبة العاشرة ، وتضم ١٧ مجموعة من البرامج كل مجموعة تتكون من عدد من البرامج ، وهذه المجموعات هي : الادارة العامة ، المحاسبة والشئون المالية ، شئون الموظفين ، الأعمال المكتبية ، المشتريات والمستودعات ، الميزانية ، الادارة الهندسية والمشروعات ، الحاسب الآلي ، المكتبات ، العلاقات العامة ، التدريب والتعليم ، الإحصاء ، القانون ، الآلات الناسخة والمايكروفيلم ، الاعلام ، الادارة الصحية ، والتخطيط .

ـ البرامج الخاصة : وهي برامج تصمم خصيصا لمقابلة احتياجات تدريبية تنفرد بهاجهة حكومية عن غيرها من الأجهزة مثل : الجمارك ، والعمل ، والعدل ، والزكاة والدخل .

ـ برامج اللغة الانجليزية : وهي مخصصة لتعليم اللغة لمن يراد ابتعاثهم للدراسة في الخارج للتدريب أو الدراسة ، أو لمن يتطلب عمله الالمام باللغة الانجليزية .

ويوضح الجدول التالي المجموع الكلي للمتدربين حتى نهاية العام ١٤٠٧/١٤٠٨ : *

جدول رقم (٢)

المجموع الكلي للمتدربين في نهاية العام ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ

مجال التدريب	العدد	النسبة المئوية
برامج الادارة العليا	٦٥٣٧	٪٧,٧٩
البرامج الاعدادية	٥٩١٥	٪٧,٠٥
البرامج التدريبية	٥٠٤٩٤	٪٦٠,٢٤
البرامج الخاصة	٥٢٩٣	٪٦,٣١
برامج اللغة الانجليزية	١٥٥٧٤	٪١٨,٥٨
المجموع	٨٣٨١٣	٪١٠٠

ولا يقتصر التدريب في المعهد على موظفي الحكومة السعودية فقط ، ولكن يلتحق به مجموعة من موظفي الحكومات العربية الأخرى عن طريق منح من حكومة المملكة لهذه الدولة . وتتحمل المملكة بالنسبة لهم كافة

(*) بلغ عدد الملتحقين ببرامج المعهد المختلفة في عام ١٤٠٨/١٤٠٩هـ (١٢,٩٧٧) متدربا .

مصاريف التدريب والاقامة والسفر . وقد بلغ عدد الذين أنهوا تدريبهم في المعهد من هذه الفئة (١٩٢٧) موظفا حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٨/١٤٠٩ هـ (١٩٨٨/١٩٨٩ م) .

ب ـ في مجال الاستشارات :

يتكون نشاط المعهد في هذا المجال من نشاطه عن طريق الأمانة العامة للاصلاح الادارى ، وعن طريق الادارة العامة للاستشارات ، وهي الادارة التي تقوم بتقديم الاستشارات للأجهزة الحكومية في مختلف المجالات الادارية ، أو الحكومية والمنظمات العربية والاسلامية ، وذلك بتشكيل فرق متفرغة لاعداد الدراسات المطلوبة ومناقشتها مع المسئولين في الجهات المتسفيدة ، ثم إعداد التقارير النهائية وتقديمها للجهة المستفيدة . ومساعدة تلك الجهات في تطبيق تلك الاستشارات .

وقد بلغ عدد الاستشارات التي قدمها المعهد حتى نهاية العام ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ (٨١٢) استشارة . وطبيعة هذه الاستشارات تختلف ، فمن اعداد هيكل تنظيمي متكامل للأجهزة الحكومية الى دراسات تنظيمية جزئية في مجالات الادارة المختلفة كتنظيم الملفات والمكتبات ومراكز الحاسب الآلي .

ولم يعد المعهد بيت استشارة للحكومة السعودية فقط ، بل انه يقدم خدماته لعدد من الدول والمنظمات العربية والاسلامية . وقد بلغ عدد الاستشارات التي قدمها لتلك الجهات (٤٢) استشارة حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ ، كان من أبرزها اعداد هيكل تنظيمي لكل من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ومجلس التعاون لدول الخليج العربية .

جـ ـ قطاع البحوث :

يقوم المعهد بنشاط واضح في مجال البحوث وذلك من خلال إدارتين عامتين ، احداهما للبحوث ، والأخرى للطباعة والنشر . وتركزت نشاطات المعهد في مجال التأليف والبحوث والترجمات على الموضوعات التي تشملها مجموعاته التدريبية المختلفة . وقد بلغت حصيلة المعهد منها حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ (١٨٥) مطبوعا .

كما أن المعهد يصدر دورية كل ثلاثة أشهر هي «الادارة العامة» وهي مجلة محكمة تعنى بموضوعات الادارة العامة .

بعد هذا الاستعراض لانجازات المعهد وتجاربه الطويلة نأتي الى نواحي الضعف التي تؤثر بشكل أو بآخر على الاستفادة من نتائج المعهد خاصة في مجال التدريب أو الاستشارات أو البحوث .

ففي مجال التدريب :

يعاني المعهد مشكلتين أساسيتين ، احداهما تتعلق بالعملية التدريبية نفسها داخل المعهد ، والأخرى تتعلق بمدى الاستفادة من التدريب الذى تلقاه الدارسون في المعهد .

ففيما يتعلق بالعملية التدريبية نفسها فانه يمكن تحديد المشكلات في التالي :

- الوقت الطويل الذى يأخذه إعداد المدرب ، فالتدريب كما هو معروف عملية تتطلب ممن يمارسها ، بالاضافة الى المؤهل العلمي ، الخبرة العملية من جهة وخبرة في أسلوب التدريب نفسه . ولأن المعهد كان يعتمد في السابق ـ وبدرجة أقل الآن ـ على غير السعوديين من أساتذة الجامعات ومن يأتون للعمل لفترات محدودة ، فقد كان يعاني من غلبة الجانب النظرى في برامجه ، الأمر الذى دفعه الى معالجة الموضوع وفقا لما يلي :

- إحداث إدارة لتصميم وتطوير البرامج بدأت منذ أربع سنوات في اعداد حزم تدريبية نمطية ليستخدمها المدرب ، وتشمل رؤوس الموضوعات والمادة التدريبية ومساعدات التدريب التي يجب استخدامها .

- تكثيف برنامج الابتعاث لتوفير كوادر محلية يمكن استمرارها في المعهد مدة طويلة تضمن ايجاد المدرب الناجح . اذ أن تجربة المعهد مع غير السعوديين هي عودتهم الى بلدانهم بعد أن يمر وقت طويل في إعدادهم كمدربين ، وبعد أن يتفهموا طرق وإجراءات العمل وأنظمته في الأجهزة الحكومية ، أى أنه يترك العمل وبعد أن يصبح مدربا جيدا يمكن الاستفادة منه .

- إنتاج أفلام محلية تعالج مشكلات محلية ، ليكون التدريب من واقع ما يجرى في الأجهزة الحكومية ، برغم تكلفة ذلك .

- تكثيف برامج تدريب المدربين ، اذ أن الخريج الحديث من السعوديين أو المدرب من غير السعوديين ينقصه الالمام بوسائل التدريب الحديثة واستعمالاتها .

- توجيه الخريج الجديد من السعوديين المتدربين في المعهد للعمل في الأجهزة الحكومية ذات الصلة بتخصصه ليكون ملما ببيئة العمل ونظمها وأنظمتها ومشكلاتها .

- إشراك المدربين في الاستشارات والبحوث الميدانية ليكتسبوا خبرة عملية من واقع الجهاز الادارى في الدولة ، وفي الدول والمنظمات العربية والاسلامية ليكون ذلك مساعدا لهم في عملية التدريب .

- أما فيما يتعلق بالاستفادة من المتدرب بعد تدريبه في المعهد ، فان المشكلات تكمن في التالي :

- تقوم بعض الجهات بترشيح بعض موظفيها في برامج لاتتلاءم والعمل الفعلي الذى يمارسه ، وبالتالي فانه يتلقى التدريب وفقا لمسمى وظيفته المعين عليها لا الوظيفة التي يمارسها . وهي مشكلة ناتجة من أن نظام الخدمة المدنية يوجب أن يعمل الموظف في تخصص وظيفته ، ولكن كثيرا من الجهات لايتقيد بذلك ، وبرغم أن المعهد يضع في استمارات الترشيح حيزا لوصف عمل الوظيفة التي يمارسها الموظف فعلا ، فان جهة التدريب تحاول أن تضع وصفا مماثلا لمسمى وظيفته ، لأن التدريب قد وضعت له نقاط تساعد على الترقية في الوظائف . وبالتالي فان المتدرب يضيع وقته ووقت المعهد في التدرب على أشياء لايمارسها فعلا .

- ضعف ادارات التدريب في الأجهزة الحكومية ولذلك فهي غير قادرة على تحديد الأشخاص الذين يحتاجون فعلا للتدريب لتحسين مستواهم ، وبالتالي فان توزيع استمارات الترشيح للبرامج يتم عشوائيا ويبنى بشكل كبير على مدى رغبة الموظف في التدريب ، الأمر الذى يهتم به من هو حريص على التدريب ، وقد لايكون بحاجة الى اليه . وقد حاول المعهد حل هذه المشكلة باحداث ادارات للتطوير الادارى في الجهات التي يقوم بتنظيمها لتتولى عملية تحديد الاحتياجات التدريبية لموظفي الجهاز ومتابعة آثار التدريب . ولأن تصميم تلك الادارات سيأخذ وقتا ، فقد أعدت دراسة معروضة الآن على اللجنة العليا للاصلاح الادارى لاحداث ادارات في كافة الأجهزة الحكومية تعنى بالتطوير الادارى .

- يركز التدريب في المعهد على استعمال أساليب وطرق العمل الحديثة وخاصة في مجال الأعمال المكتبية وسير الأوراق وتداولها ولكن المشكلة أن بعض الأجهزة ، وخاصة ذات العلاقة بالجمهور ـ لاتزال تسير وفقا لاجراءات معقدة وبالية . ورغم أن أى تطوير لهذه الأجهزة لايمكن أن يكون فعالا بدون رغبة المسئولين عن هذه الأجهزة في تطويرها ، فان تدريب موظفي هذه الأجهزة لن يكون ذا فاعلية دون تطبيق ماتدربوا عليه في المعهد ، الأمر الذى دعا المعهد الى اتخاذ عدة خطوات منها :

- البدء باعداد إجراءات وطرق عمل نمطية أنجز منها حتى الآن مايتعلق بالبلديات والمحاكم والأحوال المدنية ، وسترفع للجنة العليا للاصلاح الادارى لاعتمادها .

- تصميم برامج خاصة لتلك الجهات لتطبيق اجراءات العمل فيما يتعلق بالادارة المكتبية .

- التركيز على تدريب مديرى الادارات القطاعية في حلقات تطبيقية قصيرة لاكتمال حلقة التدريب لكافة المستويات لتسهيل أو محاولة كسر حدة مقاومة التغيير ، وهي ظاهرة معروفة في مجال التطوير الادارى

وفي مجال الاستشارات :

مع أن المعهد قد وصل الى مرحلة متميزة في مجال الاستشارات بحيث أصبح نشاطه في هذا المجال يمتد لخارج المملكة ، فان هناك بعض العقبات التي تواجه الدراسات الاستشارية يمكن تلخيصها في التالي :

- صعوبة الحصول على المعلومات التفصيلية اللازمة لتحليل الجوانب التنظيمية المختلفة ، اما بسبب سوء نظم المعلومات المتوفرة في الجهاز ، أو بسبب محاولة اخفاء الجوانب السلبية التي تؤثر على عمل الجهاز من قبل العاملين في الجهاز الأمر الذى يضطر معه القائمون على الاستشارة الى استخدام العديد من الوسائل للحصول على المعلومات كالمقابلات الشخصية والاستبيانات والتقارير السابقة وغيرها .

- عدم وجود ادارات للتطوير الاداري في كثير من الأجهزة واذا وجدت فانها تكون غير مزودة بكفاءات متخصصة في التنظيم والادارة ، مما يلقي العبء على الفريق الاستشاري ويصبح دور الفريق المناظر من الجهاز الحكومي مجرد ضابط علاقات عامة .

- يمارس المعهد أسلوب تقديم تقرير مبدئي للجهاز الذى يطلب الاستشارة لمعرفة الانطباع نحوه ومحاولة التوفيق بين متطلبات الجهاز ومتطلبات الأصول الفنية للتنظيم . وفي تلك المرحلة تبدأ عملية مقاومة التغيير ممن يشعرون بأن وضعهم التنظيمي في الجهاز قد يطاله التغيير . وعملية الاقناع عملية تأخذ كثيرا من الوقت خاصة عندما يترك المسئول الأول عن الجهاز القرار لأشخاص سيمس التنظيم مصالحهم .

- الكائن الاداري في الغالب حبيس تقاليده وعاداته سواء في المنزل أو المجتمع أو العمل . وبالتالي فان التنظيم الحديث يؤدى الى تقديم أساليب عمل وتقنيات جديدة ، قد يشعر بالخوف من عدم قدرته على تطبيقها وبالتالي فانه يقاوم التنظيم بدافع الخوف من المجهول .

ولقد حاول المعهد علاج هذه المشكلات عن طريق تبني انشاء وحدات للتطوير الاداري في كافة الأجهزة الحكومية ، وتقديم برامج تدريبية في مجال التطوير الاداري ، والزامية تطبيق الاستشارات عن طريق اللجنة العليا للاصلاح الاداري .

وفي مجال البحوث :

تواجه البحوث في المعهد مشكلتين رئيسيتين ، هما :

- تعثر البحوث الميدانية بسبب عدم توفر نظم للمعلومات في كثير من الجهات الحكومية من ناحية ، وبسبب الخوف من نقاط الضعف التي تكشف عنها البحوث الميدانية .

- الضحالة في كثير مما يكتب مما يؤدى الى رفض الكثير من الكتب والبحوث والمقالات . وعلى سبيل المثال فمجلة المعهد ترفض في الغالب تسعة من كل عشرة مقالات ، وتطلب تعديلا في كثير من المقالات المقبولة للنشر .

وقد اضطر المعهد إزاء ذلك الى أن يغلب النوعية على الكمية في مجال البحوث ، واللجوء الى أسلوب ترجمة الكتب الجيدة في مجال اختصاصاته من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية ، ثم الى إعطاء حوافز مادية مغرية للمؤلفين تشمل مكافأة عمل المؤلف من ١٥ ـ ٥٠ ألف ريال ، وطبع الكتاب على حساب المعهد ، وإعطاء المؤلف ١٠٠ نسخة مجانية على سبيل الاهداء .

٢/١٠ معاهد الادارة في الوطن العربي :

نأتي الآن الى استعراض الوضع بالنسبة لمدارس ومعاهد ومراكز الادارة في الوطن العربي .

ففي الكويت لايوجد معهد للادارة العامة وانما يتولى ديوان الموظفين تقديم بعض البرامج بنفسه أو بالتعاون مع مؤسسات داخل الكويت أو خارجها .

وفي البحرين لايوجد أيضا معهد للادارة ، وانما يقوم قسم التدريب بادارة التطوير والتدريب بتقديم بعض البرامج التدريبية ويستعين بجهات أخرى في الداخل والخارج لتدريب موظفي الحكومة .

وفي قطر يوجد معهد للادارة العامة أنشىء في مدينة الدوحة بالمرسوم (١٥) لسنة ١٩٦٤ م[٤٤] ، ويرتبط بوزارة التربية والتعليم ، ويقدم دبلوما مدته عامان في مجال الادارة العامة ويستوعب حوالي عشرين متدربا في العام . وهو يحمل اسم المعهد بدون محتوى . كما تقوم ادارة شئون الموظفين بوزارة المالية والبترول بتقديم بعض الدورات التدريبية بالاستعانة ببعض المنظمات العربية .

أما في دولة الامارات العربية المتحدة ، فقد قام معهد الادارة العامة في المملكة العربية السعودية بدراسة لانشاء معهد للتنمية الادارية واعداد تنظيمه ونظامه الأساسي ، وقد تم انشاؤه بموجب القانون الاتحادى رقم (٢) وتاريخ ١٩٨١ م ، وهو هيئة مستقلة تتمتع بالشخصية المعنوية ، ويشرف على ادارته مجلس ادارة يرأسه وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء ويضم في عضويته عددا من وكلاء الوزارات ومدير عام المعهد .[٤٥]

وقد حددت مهامه ليقوم بالتدريب والاستشارات والبحوث ، وقد قدم عددا لابأس به من البرامج والندوات والاستشارات وان كان بحاجة الى استكمال تجهيزاته الأساسية ودعمه بعدد أكبر من أعضاء هيئة التدريب .

وفي عمان بدأ معهد الادارة العامة في عام ١٩٧٨ ثم صدر المرسوم (١٨) لعام ١٩٨٠ م بانشائه رسميا[٤٦] . وهو هيئة مستقلة تتمتع بالشخصية الاعتبارية ، ويتبع وزير شئون الديوان السلطاني رئيس مجلس الخدمة المدنية وهو رئيس مجلس الادارة الذ يتكون من وزيرين ووكيل وزارة المالية ومدير عام ديوان شئون الموظفين ومدير المعهد أعضاء . وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات ، وهو من المعاهد النشطة نسبيا ويتوقع أن يكون له أثر فعال عند اكتمال بناء كوادره الفنية في مجال التنمية الادارية في عمان .

أما في جمهورية اليمن الديمقراطية ، فقد أنشىء معهد للعلوم الادارية بموجب قرار مجلس الوزراء رقم (٣١) لسنة ١٩٨٠ م ، وباشر نشاطاته ابتداء من سنة ١٩٨٢ م . وهو مرتبط بوزارة العمل والخدمة المدنية . وبرغم أن نظامه ينص على أن يقوم بتقديم التدريب والبحوث والدراسات ، فانه يزاول تقديم برامج محدودة للموظفين التنفيذيين لعدم وجود كوادر فنية في المعهد ولمحدودية امكانياته المادية .

وفي الجمهورية العربية اليمنية أنشىء المعهد القومي للادارة العامة الذى كان اسمه في البداية معهد الادارة العامة والسكرتاريه (في عام ١٩٦٢ م) ، وهو مؤسسة عامة مستقلة ماليا واداريا وذو شخصية اعتبارية . وكان مرتبطا

---

(٤٤) تقرير دولة قطر المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦.

(٤٥) تقرير دولة الامارات العربية المتحدة المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

(٤٦) تقرير سلطنة عمان المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

في عام ١٩٦٢ م بمجلس الوزراء ، وفي عام ١٩٧٠ م ارتبط بالهيئة العامة للخدمة المدنية ، ثم أعيد ربطه بمجلس الوزراء في عام ١٩٧٤ م . وفي عام ١٩٨١ م أعيد ارتباطه بوزير الخدمة المدنية والاصلاح الاداري الذي هو رئيس مجلس ادارة المعهد حاليا وأعضاء المجلس وزيران ونائب وزير المالية ومدير جامعة صنعاء وعميد المعهد .[٤٧]

وللمعهد فرعان ، أحدهما في تعز والآخر في الحديدة ، ومهمة المعهد هي القيام بالتدريب والاستشارات والبحوث . ويقدم برامج متعددة اعدادية وتدريبية وبعض الاستشارات ، *ان كان يحتاج الى الكثير من الكوادر الفنية والامكانات المادية .

أما في العراق فان المركز القومي للاستشارات والتطوير الاداري قد أنشيء بالمرسوم (١٨٦) لعام ١٩٧٠ م . وقد سبق الحديث عن تركيبه التنظيمي في صفحات سابقة ، وهو معني بالتدريب والبحوث والاستشارات والتطوير الاداري . وكان في بداية نشأته «يعتبر الجهة المركزية للتدريب والتطوير الاداري في القطر . فقد تولى منذ البداية الدور المركزي وتحمل العبء الكبير في تدريب وتطوير الكوادر الادارية ، غير أنه جابه صعوبات عديدة في تلبية الاحتياجات التدريبية لأجهزة الدولة ، الأمر الذي دفعه الى اتباع سياسة حث مؤسسات الدولة المختلفة على القيام بنشاط تدريبي خاص وقيامه بدعم هذا النشاط[٤٨] . «وقد صدر بالفعل قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١٦٢٧ بتاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٨ م الذي نص في الفقرة الثانية منه على أن «تتولى أقسام التطوير الاداري ممارسة مهام التدريب الاداري للمستويات الادارية المختلفة وفي المواضيع الادارية والتخصصية .

ولا شك في أن هذه القرارات ستؤثر على فاعليات المركز الذي كان يعتبر من المراكز المتميزة في العالم العربي . ولعل لظروف الحرب العراقية الايرانية تأثيرا في ذلك مما قد يعيد المركز مرة أخرى لدوره الايجابي في عملية التنمية الادارية .

أما في الجمهورية العربية السورية فحال التدريب في مجال الادارة العامة هو حال التنظيم في الادارة العامة ، اذ لايوجد حتى الآن معهد للادارة العامة ، ولكن التقرير السوري المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية يشير الى أنه : «تجرى دراسة إحداث وزارة متخصصة للقوى العاملة تتولى إعداد خطة القوى العاملة ، هذا الى جانب إخراج معهد التنمية الادارية (الذي صدر مرسوم انشائه) الى حيز التنفيذ . إضافة الى دراسة امكانية إحداث هيئة عامة للتنمية الادارية» .[٤٩]

وفي الجمهورية اللبنانية أنشيء المعهد الوطني للادارة والانماء ضمن مجلس الخدمة المدنية عام ١٩٥٩ م ، وهو يعمل بأسلوب المدرسة الوطنية في فرنسا ، بمعنى أنه يقوم بتقديم دورات اعدادية هي : المرحلة العليا لحملة الشهادة الجامعية الذين يدخلون وفقا لمسابقة وظيفية ، ومدة الدراسة سنتان . والمرحلة الوسطى ومدتها سنة لحملة الثانوية العامة الذين يدخلون وفقا لمسابقة أيضا . الى جانب القيام بالبحوث في مجالات يغلب عليها طابع القانون الاداري . كما يقوم بتقديم بعض الندوات والحلقات التدريبية .[٥٠]

---

(٤٧) تقرير الجمهورية العربية اليمنية المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، مصدر سابق، ص. (٣٦٨).

(٤٨) التقرير العراقي للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، مرجع سابق، ص (٥٠٢).

(٤٩) التقرير السوري، مصدر سابق، ص (٤٩٤).

(٥٠) التقرير اللبناني، مصدر سابق، ص (٦٤٣).

وفي المملكة الأردنية الهاشمية أنشيء معهد الادارة العامة بموجب القانون رقم (٢) لسنة ١٩٦٨ م ، وتم تعديل نظامه عام ١٩٨٥ م . وهو مؤسسة عامة مستقلة ماليا واداريا وذات شخصية اعتبارية ، ويرتبط برئيس ديوان الموظفين الذى هو رئيس مجلس ادارة المعهد . ويضم بجانبه وكيل الديوان وثلاثة من المديرين العامين لوزارات التعليم والتخطيط والمالية وممثلا عن جامعة اليرموك والجامعة الأردنية ، وممثلين عن اتحاد الغرف الصناعية والتجارية ، وممثلا عن اتحاد نقابات العمال ، ومدير المعهد ، وللمعهد فرع في اربد بجامعة اليرموك ، ويضم مديرية للأبحاث والاستشارات وأخرى للتدريب وهو يقوم بالتدريب والاستشارات للقطاعين الحكومي والخاص . وهو من المعاهد النشطة وان كانت مشكلته تتلخص في شح امكانياته المادية والبشرية . وقد قام بتدريب (٨٧٩١) متدربا في برامجه منذ إنشائه حتى عام ١٩٨٥ م من القطاعين الخاص والعام . كما قام باعداد (٤٥) بحثا في نفس الفترة . وقدم عددا من الاستشارات .[٥١]

وفي جمهورية الصومال أنشيء معهد التنمية الادارية عام ١٩٦٥ م ، وهو مؤسسة عامة مستقلة ماديا واداريا وذو شخصية اعتبارية يرتبط بوزير العمل والشئون الاجتماعية باعتباره رئيس مجلس الادارة . وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات . وبرغم أنه يتلقى دعما من البرنامج الانمائي للأمم المتحدة التي ساهمت في انشائه فان جهوده تعتمد على الخبرات التي تعيرها الأمم المتحدة له ، مع وجود عدد محدود من العناصر الوطنية العاملة في المعهد .[٥٢]

وفي جمهورية السودان أنشيء معهد الادارة العامة عام ١٩٦٠ م وتحول بعد ذلك الى أكاديمية السودان للعلوم الادارية في عام ١٩٧٨ م ، وهو هيئة عامة مستقلة ماديا واداريا وذات شخصية اعتبارية ، وهي ترتبط بوزير الخدمة العامة والاصلاح الادارى .

والأكاديمية هي الجهة المركزية للتدريب في مجالات الادارة العامة وتقديم الاستشارات والبحوث ، وتقوم بتقديم العديد من البرامج والإستشارات . وهي من المعاهد الادارية النشطة ، وان كانت تسير صعودا وهبوطا وفقا للأوضاع السياسية في السودان . والكثير من عناصرها الفنية والقيادية تعمل في عدد من الجامعات ومعاهد الادارة في منطقة الخليج . ولاشك في أنه متى ما توفرت الامكانات المالية ، فانها تستطيع أن تلعب دورا ايجابيا أكثر مما تقوم به حاليا في مجال التنمية الادارية .

وفي الجماهيرية الليبية أنشيء معهد الادارة العامة عام ١٩٥٢ م لتدريب الموظفين التنفيذيين . وفي سنة ١٩٦٤ م أنشيء معهد آخر باسم (معهد الادارة العامة) لتدريب جميع موظفي الدولة تحت اشراف الأمم المتحدة . وفي سنة ١٩٦٨ تم دمج المعهدين تحت اسم (المعهد القومي للادارة) كهيئة مستقلة ماليا واداريا وذات شخصية اعتبارية . .ويرتبط المعهد بأمين الخدمة العامة ، وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات ، ولديه امكانات جيدة تساعده على القيام بدور أكبر في مجال التنمية الادارية .

---

(٥١) معهد الادارة العامة في الأردن - التقرير السنوي - ١٩٨٥م.

(٥٢) محمد الأمين البياتوني، التعريف بمؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي، المجلة العربية للادارة، المجلد العاشر، العدد الثالث، ١٩٨٦م، المنظمة العربية للعلوم الادارية، ص (٣٣٢).

وفي تونس أنشئت المدرسة الوطنية للادارة عام ١٩٤٩ م على غرار المدرسة الوطنية في فرنسا . وفي سنة ١٩٥٦ م سميت بالمدرسة القومية للادارة ، وهي مؤسسة عامة تتمتع باستقلال مالي وذات شخصية اعتبارية ، وترتبط بوزير الوظيفة العمومية والاصلاح الاداري[٥٣] . وهي تقدم على النمط الفرنسي مرحلتين تدريبيتين اعداديتين هما :[٥٤]

- الرحلة العليا : وتقدم لحملة الشهادات الجامعية بعد اجتياز مناظرة قبول ، ومدة الدراسة بها ٢٧ شهرا :
- المرحلة الوسطى : وتقدم لحملة الثانوية العامة بعد اجتياز مناظرة قبول ، ومدة الدراسة بها ٤ سنوات .

كما تقوم المدرسة بالبحوث في مجالات معظمها في القانون الاداري . وتعتمد الى حد كبير على أساتذة متعاونين للتدريس . ويبلغ عدد طلبة المدرسة عام ١٩٨٦ م (٢٦٩) دارسا .

وفي الجمهورية الجزائرية أنشئت المدرسة الوطنية للادارة في عام ١٩٦٤ على غرار المدرسة الوطنية للادارة في فرنسا ، وهي مؤسسة عامة مستقلة ماليا واداريا وذات شخصية اعتبارية . وترتبط تنظيميا بالوزير الأول ، ولها مجلس ادارة ، وفرعان أنشئا عام ١٩٨٢ م في كل من وهران وقسطنطينه . وتقدم برنامج المرحلة المتوسطة لحملة الثانوية العامة وفقا لمناظرة قبول في برنامج مدته أربع سنوات ، وقد تخرج منها (١٥٠٠) دارس حتى نهاية ١٩٨٥ م[٥٥] . كما تقوم المدرسة باجراء البحوث الادارية التي يغلب عليها طابع القانون الاداري .

وفي المملكة المغربية أنشئت المدرسة المغربية للادارة عام ١٩٤٨ م ، وأصبحت المدرسة الوطنية للوظيفة العمومية عام ١٩٧٢ م على نسق المدرسة الوطنية للادارة في فرنسا . وهي مؤسسة عامة مستقلة ماليا واداريا وذات شخصية اعتبارية . وترتبط بكاتب الدولة المسئول عن الشئون الادارية ولها مجلس ادارة يشرف عليها . وتقدم المدرسة التدريب الاعدادى لنمط مشابه لنمط المدرسة القومية للادارة في تونس الذى وصفناه منذ قليل . كما تقوم ببحوث يغلب عليها جانب القانون الادارى .

أما في جمهورية موريتانيا الاسلامية ، فقد أنشىء مركز التكوين الادارى السريع عام ١٩٦٦ م ، الذى تحول في عام ١٩٦٨ م الى المدرسة الوطنية للادارة على غرار المدرسة الوطنية للادارة في فرنسا . وهى مؤسسة عامة لها استقلال مالى وذات شخصية اعتبارية ، وترتبط بوزير التربية والتعليم بعد أن كانت ترتبط في السابق بوزير الوظيفة العمومية .[٥٦]

وهي تقدم مرحلتين اعداديتين هما : المرحلة العليا والمرحلة الوسطى على شاكلة مدارس الادارة في المغرب العربي .

---

(٥٣) المدرسة القومية للادارة بتونس ، ثلاثون سنة في خدمة الادارة التونسية، المدرسة القومية للادارة، تونس، ١٩٨٦، ص (٧).

(٥٤) المصدر السابق، ص . ص . ٧ - ٨ .

(٥٥) التقرير الرسمي للحكومة الجزائرية للمؤتمر العشرين للعلوم الادارية، مرجع سابق، ص. (٣٥٠)، ومحمد البهالولي، مرجع سابق، ص. (٢٣١).

(٥٦) التقرير الموريتاني للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، مصدر سابق، ص. (٧٢٧)، ومحمد البهالولي، مصدر سابق، ص . (٣٢٧) .

ان الحديث عن معاهد ومراكز ومدارس الادارة العربية لايمكن أن يكتمل دون الحديث عن المنظمة العربية للعلوم الادارية ودورها في التنمية الادارية في الوطن العربي . هذه المنظمة التي أنشأتها الدول العربية لتكون بيتها ومحور ارتكازها في تعاونها في مجالات التنمية الادارية العربية .

لقد كان حلم المهتمين بالادارة العربية من أكاديميين وتنفيذيين أن توجد هذه المنظمة التي أوصوا بانشائها في مؤتمرين عقد أحدهما في دمشق عام ١٩٥٧ م ، والآخر في الرباط عام ١٩٦٠ م . وقد أقر مجلس الجامعة العربية المشروع الخاص باتفاقية المنظة عام ١٩٦١ م . وعقدت جمعيتها العمومية اجتماعها الأول في اليوم الأول من يناير ١٩٦٩ م .[٥٧]

ولقد سعت المنظمة منذ انشائها الى تحقيق أهدافها ، التي طرأ عليها تعديل جذرى في عام ١٩٨٢ م وأصبحت كالتالي :[٥٨]

- وضع استراتيجية قومية للتنمية الادارية في الوطن العربي ، بما ينسجم واستراتيجات التنمية القومية والوطنية الشاملة ، ويسهم في توحيد العمل العربي ، وذلك بالتنسيق والتعاون مع الأجهزة المختصة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، والمنظمات العربية المتخصصة ومؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في الدول العربية .

- ودعم مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية العربية في الوطن العربي والمساهمة في تطويرها ، ورفع مستوى أداء العاملين بها .

- تنمية القوى العاملة في الأجهزة الادارية العربية ، وبخاصة المستويات القيادية العليا .

- تبادل الخبرات والتجارب بين الأجهزة الادارية في الوطن العربي وبشكل خاص أجهزة التنيمة الادارية والمؤسسات العلمية المعنية بتطوير العلوم الادارية .

- توحيد وتطوير التشريعات والنظم والأساليب الادارية في الوطن العربي .

- تطوير المفاهيم الادارية العربية وتعميم المعرفة الادارية الحديثة ، وتعريف العالم بالفكر الادارى العربي .

- التعاون مع المنظمات الاقليمية والدولية المعنية بشئون التنمية الادارية .

---

(٥٧) المنظمة العربية للعلوم الادارية، المنظمة العربية للعلوم الادارية والادارة العامة العربية ، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان ـ الأردن ، ١٩٨٦م، ص (٢٠٠) .

(٥٨) المادة (٢) من اتفاقية المنظمة العربية للعلوم الادارية .

وللمنظمة كغيرها من المنظمات العربية مجلس ادارة وجمعية عمومية وجهاز تنفيذى يرأسه المدير العام ، وأربع ادارات : التدريب ، والبحوث والدراسات ، والاستشارات ، والتوثيق والمعلومات .

لقد حققت المنظمة الكثير من الانجازات منذ نشأتها ، سواء في مجال التدريب أو البحوث أو الاستشارات أو التوثيق ، وان كانت لم تسر على نمط واحد ، ففي المرحلة الأولى وحتى العام ١٩٨٠ م كانت تركز على برامج تدريبية عامة وأبحاث ينقصها الكثير من التركيز ، ثم بدأت في عام ١٩٨٠ م تتجه الى التركيز على مهامها الأساسية بشكل أكثر ، وخاصة توجيه برامجها للعاملين في مؤسسات التنمية الادارية ليكونوا قادرين على تأدية مهامهم في دولهم ، وتقديم برامج خاصة للدول التي لايوجد بها معاهد للادارة أو برامج تدريبية في مدارسها ، مع تركيز الاستشارات على المؤسسات المركزية في الدولة ، وليس على الحالات الفردية ، وتحسين متسوى بحوثها لتخدم مؤسسات التنمية العربية ، واستمرت في هذا المجال بخط متصاعد ومؤثر على المستويين العربي والعالمي من خلال مشاركاتها النشطة في المؤتمرات العالمية .

الا أن نظرة الدول العربية للمنظمات المتخصصة وامتناع الكثير من الدول عن تسديد حصصها في ميزانية المنظمة كغيرها من المنظمات العربية أوقف هذا المد الى الحد الذى أصبحت معه خلال الأعوام الثلاثة الماضية غير قادرة على ممارسة نشاطها . واقتصر نشاطها على عدد محدود من الحلقات التطبيقية التي لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة .

والى أن يقيض الله للعرب وعيا بأهمية بقاء مؤسساتهم القومية ، وايمانا بأهمية دورها في تفاعل القيادات العربية في مختلف التخصصات فان أثر هذه المنظمة سيبقى ذكرى لمرحلة مضيئة في تاريخ التعاون العربي في مجال الادارة العربية .

١١/٢ الخلاصة :

في استعراضنا السابق يتضح لنا وضع معاهد ومدارس ومراكز الادارة العربية على النحو التالي :

- قليلة هي تلك المؤسسات التي هُيِّئت لها الامكانات اللازمة لتأدية مهامها ، ولذلك فانه ليس من العدل أن ينحى الكتاب العرب في مجال الادارة العامة باللائمة على هذه المؤسسات التي لم توفر لها مقومات النجاح .

- تتسم المؤسسات الموجودة في المشرق العربي بشموليتها من حيث النظام الأساسي للمكونات الناجحة لأداء تلك المؤسسات لدورها في مجالات التدريب والبحوث والاستشارات والتوثيق .

- تتسم المؤسسات الموجودة في المغرب العربي ولبنان باتباعها للنموذج الفرنسي الذى يقتصر على الاعداد التدريبي والبحوث ، ويهمل العنصر الأهم وهو تدريب القائمين على رأس العمل ، وتقديم الاستشارات . كما أن برامجه لاتشمل الحقول الادارية المختلفة ، وانما يغلب عليها جانب القانون الادارى .

- فيما عداد ثلاث دول عربية هي : الكويت والبحرين وسوريا ، فانه يوجد مدارس ومعاهد للادارة بدرجات متفاوتة من حيث الفاعلية ، والشمولية ، والامكانات المادية والبشرية .

- يغلب طابع المؤسسة العامة المستقلة على معظم المؤسسات العربية وهي نقطة هامة هدفها اعطاء هذه المؤسسات القدرة على المرونة والحركة في تأدية مهامها . وأسندت مجالس ادارتها في معظم الحالات الى وزراء ، وأشرك في مجالس اداراتها العديد من الجهات التي تهتم بأعمالها ، ولكن ذلك لاقيمة له بالطبع اذا لم يعزز بامكانات مادية وبشرية ودعم سياسي ينفخ الروح في تلك المؤسسات .

- قليلة هي المعاهد والمدارس التي هيء لها دور مؤسسي في مجال التنمية الادارية المتكاملة ، ويكاد يقتصر الأمر على تجربتي معهد الادارة العامة في المملكة العربية السعودية ، والمركز القومي للاستشارات والتطوير الادراى في العراق . وهما الجهتان اللتان تعنيان بالتدريب والاستشارات وعمليات الاصلاح الادارى في هاتين الدولتين ، مما أعطاهما مركزا مميزا له تأثيره في عمليات التنيمة الادارية .

- يعكس وضع تلك المؤسسات أن الاهتمام بالتنمية الادارية في الوطن العربي لايزال في معظم حالاته قاصرا ، وأن الكثير من الدول العربية لم تدرك بعد الأهمية الاستراتيجية لدور مؤسسات التنمية الادارية العربية في اعداد وتنفيذ خطط التنمية الشاءلةك، وذلك يعكس بالتالي الدرجة التي وصلت اليها في مجال التنمية الادارية .

- تبرز تجربة المملكة العربية السعودية في مجال مؤسسات التنمية الادارية نموذجا رائدا لما يجب أن يكون عليه الوضع في الدول العربية الأخرى .

* * *

المراجع

الكتب العربية :

١ ـ د . أسامة عبدالرحمن ، أهمية الادارة للتنمية في دول الجزيرة العربية المنتجة للنفط ، بحث مقدم الى ندوة دراسات التنمية ، البحرين ، ١٩٨٠م .

٢ ـ د. أسامة عبدالرحمن، البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية، مكتب دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.

٣ ـ أكاديمية السودان للعلوم الادارية، الادارة في جمهورية السودان، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

٤ ـ الأمانة العامة لمجلس القوى العاملة، التقرير السنوي لمجلس القوى العاملة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ .

٥ ـ الأمانة العامة للجنة العليا للاصلاح الاداري، اللجنة العليا للاصلاح الاداري : مهامها، تنظيمها، انجازاتها، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٤٠٥هـ .

٦ ـ الديوان العام للخدمة المدنية، انجازات التدريب في مجال الخدمة المدنية، سلسلة الاصدارات العلمية للديوان العام للخدمة المدنية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٧ ـ الديوان العام للخدمة المدنية، التقرير السنوي، الرياض، ١٤٠٧هـ / ١٤٠٨هـ .

٨ ـ د. حسن أبشر الطيب، الاصلاح الاداري في الوطن العربي بين الأصالة والمعاصرة، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الادارية، ١٩٨٦م.

٩ ـ د . حمود البدر، « دور الجامعة في التخطيط لبرامجها الجامعية » بحث مقدم لندوة برامج الجامعات ومدى تلبيتها لحاجة الدولة من القوى العاملة، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٤٠٨هـ .

١٠ ـ د. حسن أبشر الطيب، مؤسسات التنمية الادارية، أوضاعها الراهنة وآفاق المستقبل، المنظمة العربية للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٤م.

١١ ـ خالد عبدالكريم الحمد، تقرير عن التنمية الادارية في المملكة العربية السعودية، الديوان العام للخدمة المدنية، الرياض، ١٩٨٤م .

١٢ ـ دلال بركات مسعود ود. محمد صالح علي، الادارة العامة في الجمهورية العربية السورية، بحث مقدم للمؤتمر العلمي للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

١٣ ـ د. عاصم الأعرجي، نظريات التطوير والتنمية الادارية، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٨م .

١٤ ـ عبدالمنعم الركابي، الخدمة المدنية في المملكة العربية السعودية، الديوان العام للخدمة المدنية، الرياض، ١٤٠٤هـ .

١٥ ـ عبدالمنعم الركابي، الأجهزة المركزية للخدمة المدنية ودورها في الاصلاح الاداري : تجربة المملكة العربية السعودية، الديوان العام للخدمة المدنية، الرياض، ١٤٠٤هـ .

١٦ ـ د. غازي عبدالرحمن القصيبي، الكلمة الافتتاحية، بحوث ندوة أهمية الادارة للتنمية، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٩٧٨م .

١٧ ـ د. ناصف عبدالخالق جاد، تجارب الاصلاح الاداري في دول مجلس التعاون الخليجي دراسة تحليلية مقارنة، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م .

١٨ ـ د. ناصف عبدالخالق، دراسات تقويمية لمؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في المملكة العربية السعودية، كلية التجارة والاقتصاد، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٨م .

١٩ ـ نظام مجلس الخدمة المدنية، صادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٩) لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م.

٢٠ ـ نظام مجلس الخدمة المدنية، صادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٨) لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م.

٢١ ـ مجلس الخدمة المدنية، الادارة العامة في الجمهورية اللبنانية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

٢٢ ـ مجلس القوى العاملة، محاضر اجتماعات المجلس رقم (٦) لعام ١٤٠٢هـ ، ورقم (٢٠) لعام ١٤٠٥هـ .

٢٣ ـ د. محمد عبدالرحمن الطويل، دور أجهزة التنمية الادارية في تحقيق التنمية الادارية : حالة دراسية عن أجهزة التنمية الادارية في المملكة العربية السعودية ، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٩٨٠م.

٢٤ ـ د. محمد عبدالرحمن الطويل، تحديات التنمية الادارية في الدول العربية الأعضاء بمجلس التعاون الخليجي، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٢٥ ـ د. محمد عبدالرحمن الطويل، دور الادارة العامة في التنمية الاقتصادية، من بحوث ندوة أهمية الادارة العامة للتنمية، معهد الادارة العامة، الرياض، ١٩٧٨م.

٢٦ ـ د. محمد عبدالرحمن الطويل، الادارة العامة في المملكة العربية السعودية، معهد الادارة العامة ـ الرياض ، ١٩٨٦م.

٢٧ ـ المرسوم الملكي رقم (م/٤٤) في ١٤٠٢/٧/٤هـ .

٢٨ ـ المرسوم الملكي رقم (م/٣١) لعام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

٢٩ ـ المرسوم الأميري في ١٩٨٤/١٠/١٤م ، الكويت، ١٩٨٤م.

٣٠ ـ المدرسة القومية للادارة، ثلاثون سنة في خدمة الادارة التونسية، تونس، ١٩٨٦م .

٣١ ـ المدرسة الوطنية للادارة، الادارة العامة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

٣٢ ـ معهد الادارة العامة، التقرير السنوي، عمان، ١٩٨٥م.

٣٣ ـ معهد الادارة العامة، الادارة العامة في المملكة الأردنية الهاشمية، تقرير مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

٣٤ ـ مصلحة الاحصاءات العامة، الكتاب الاحصائي السنوي، العدد الثالث والعشرون، الرياض، ١٤٠٧/١٤٠٦هـ .

٣٥ ـ وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري، الادارة العامة في الجمهورية العربية اليمنية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

٣٦ ـ وزارة الشئون الادارية، الادارة العامة في المملكة المغربية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م .

٣٧ ـ المنظمة العربية للعلوم الادارية، المنظمة العربية للعلوم الادارية والادارة العامة العربية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية، عمان، ١٩٨٦م.

المجلات العربية :

٣٨ ـ محمد الأمين البيانوني ، التعريف بمؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي ، المجلة العربية للادارة، المجلد العاشر، العدد الثالث، عمان، ١٩٦م.

٣٩ ـ د. نزيه الأيوبي، أجهزة التنمية الادارية ومؤسساتها في الأقطار العربية ودورها في ادارة التنمية، المجلة العربية للادارة، المجلد التاسع، العدد الرابع، عمان، ١٩٨٥م.

الكتب الأجنبية :

1. Dr. Mohammed A. AL-Tawail, **The Institute of Public Administration in Saudi Arabia, A Case Study In Institution Buildings,** University Microfilm, U.S.A., 1974.

2. Dr. Mohammed A. AL-Tawail, **Process and Instrument of Administrative Development In Saudi Arabia,** University of Pittsburgh, 1970.

بول تيليش فيلسوف على الحدود

يمنى طريف الخولي

أولا: مدخل الى عالم بول تيليش

أ- الالتقاء بين الوجودية والدين:

بول يوهانس أوسكار تيليش Paul. J. O. Tillich (١٨٨٦ - ١٩٦٥) قسيس بروتستانتى ومنظر لاهوتى، وفيلسوف دينى، من أعظم وأبرز فلاسفة المسيحية في القرن العشرين. آمن بأن الوحي ليس فقط إجابة عن تساؤلات نظرية، ولكنه كذلك حلول لمشكلات عملية. فكان أقدر من عبر عن علاقة العقيدة الدينية بالحياة الحضارية للانسان المعاصر وبموقفه الوجودى، وبصورة جعلته من طليعة المعنيين بالاشكالية الحضارية المعاصرة، سواء لاهوتيين أو علمانيين، فهو على الحدود بينهم.

تدور أعماله حول تأكيد قدرة اللاهوت الفذة والفريدة على تقديم الاجابات المرضية والمشبعة لتساؤلات الوجود الانسانى الملحة، وبالتالى على تقديم العلاج الناجح للأدواء المزمنة التى تعانى منها الحضارة الغربية في القرن العشرين. هذا شريطة الثورة على الميراث التقليدي، وتحديث اللاهوت وإعادة صياغته. وقد فعل تيليش هذا، ولكن على أسس وجودية.

ان اللاهوت والوجودية يلتقيان في فكر بول تيليش، ليمثلا نقطة انطلاق الى غد أفضل وحضارة أفضل.. الى وجود جديد، لانسان جديد. لذلك كان بحثنا هذا من أجل الوقوف على الوجودية اللاهوتية والدينية كما تحققت مع باول تيليش، في واحدة من أقوى وأخصب صورها.

والواقع أن ثمت أكثر من دافع وراء هذا البحث، وأكثر من هدف يُزمع تحقيقه. فعلى الرغم من وجود

كثرة من الفلاسفة والمفكرين الذين يندرجون بصورة أو بأخرى، تحت مصطلح «الوجودية Existentialism» المراوغ، فان القلة هى التي تعترف بالهوية الوجودية صراحة، ربما لأن هذه القلة هي التى تدرك صراحة المعنى الدقيق لهذا المصطلح الواسع الانتشار والكثير الالتباس. وعلى أية حال، فان تيليش من الوجوديين الذين يؤكدون وجوديتهم بمنتهى الاصرار والامعان ـ قولا وتطبيقا.

فهل يرجع ذلك لأنه قسيس بروتستانتى؟

لقد كان البروتستانتى الدانمركى العظيم سرن كيركجور Sren Kierkegaard (١٨١٣ـ ١٨٥٥) أكثر البروتستانتيين بروتستانتية، أو «بروتستانتى البروتستانتية» [١] هو الأب الشرعي للفلسفة الوجودية ـ ومع هذا جرى العرف على تقفي أثره وتتبع مسارات ونمو الفلسفة الوجودية بعده، في معاقل الفكر العلماني ـ في الفلسفة وبعض التيارات والاعمال الأدبية.

لكننا نلاحظ أن اللاهوت البروتستانتى في القرنين التاسع عشر والعشرين تأثر بشدة بالفلسفة الوجودية واستقطبها، وعرف كيف يستغل مقولاتها في اقامة دعاويه.

وعلى الفور يبرز في هذا الصدد اللاهوتي الوجودي رودلف بولتمان R. Bultmann (١٨٨٤ ـ ١٩٧٦). الذي رأى أن العهد الجديد في جوهره رسالة وجودية بأعمق ما في الكلمة من معنى، لكن الكوزمولوجيات البدائية المعاصره له ـ ذات الأصل الغنوصي ـ قد ألحقت به الأساطير وشوهته، بحيث نجده لا يصلح البتة موضوعا للإيمان الحقيقي للإنسان في القرن العشرين ـ في أوج عصر العلم. من هنا كان بولتمان ناقدا تاريخيا قاسيا للعهد الجديد، بغية إعادة صياغته على أسسه الحقيقية ـ الوجودية ـ التى تجعله أجدر وأقدر على البقاء في الحضارة المعاصرة أى ان بولتمان كان يهدف إلى إعادة بناء المسيحية على أسس وجودية، تنتهى الى قرار إنساني باختيار الوجود الأصيل ورفض الوجود الزائف. وهذه رسالة يعجز عنها العقل المنطقي. وكانت وسيلة بولتمان لتحقيقها هي المفاهيم الوجودية ومصطلحات مارتن هيدجر M. Heidegger (١٨٨٩ ـ ١٧٧٦) بالذات. وثمة على وجه الخصوص مفهومان قدمهما هيدجر بالالمانية ـ لغته ولغة بولتمان ـ وليس لهما مقابل دقيق بالانجليزية اكتسبا أهمية خاصة بالنسبة لهيدجر، وقد جعلهما بولتمان هكذا بالنسبة للاهوت الوجودى.

هذان المفهومان هما أولا Fragestellung، أي طريقة طرح التساؤل، التى تعالج التساؤلات اللاهوتية بوصفها قبل كل شيء تساؤلات عن وجود الانسان في علاقته مع الرب، وتفسر الكتابات المقدسة بوصفها عبارات معنية أساسا بوجود الانسان، وثانيا مفهوم Begriffichkeit أى نسق من المفاهيم الأساسية المشتقة من فلسفة الوجود [٢].

وبرفقة بولتمان يقف فردريش جوجارتن F. Gogarten (١٨٨٧ ـ ١٩٦٧) الذى آمن بأن إمام البروتستانتية مارتن لوثر قد حطم تأثير الميتافيزيقا على اللاهوت، ووجه تفكير الكنيسة إلى ما نسميه الآن

---

(١) Walter Kaufmann, Existentialism From Destoevsky to Sartre, Merdian Book, New York, 1975.P.11.

(٢) John Macquarrie, An Existentialist Theology: AComparison of Heidegger And Bultmann, penguim Books, london, 1980.P.13.

«بالقنوات الوجودية». بيد أن استبصارات لوثر ضاعت في فترة أصوليات البروتستانتية التقليدية التي تلته، ونحن الآن في حاجة إلى إعادة توكيدها. وأفضل طريقة لفهمها، ليس عن طريق اللاهوتيين، بل عن طريق فلاسفة علمانيين أمثال مارتن هيدجر.[٣] والايمان في نظر جوجارتن ينشأ على أساس التفسير الوجودى للتاريخ المقدس، الذى يجعلنا نراه فضا لمغاليق وجودنا نحن التاريخى، في ظل الثقة بكلمة الرب. وهذا شيء لا نتعلمه فقط من الوجودية الحديثة، بل وأيضا من الفهم السليم لتعاليم لوثر. أما فريتس بورى Fritz Buri (١٩٠٧ - ؟) فقد صدق بمجامع نفسه على دعوى بولتمان بالتفسير الوجودي للعهد الجديد وتجريده من الأساطير، ولدرجة جعلته بولتمانيا أكثر من بولتمان نفسه، فقد سار في طريقه الى أبعد مما سار. وأعمق صورة لتطبيق الوجودية على المشاكل اللاهوتية وأكثرها جذرية إنما نجدها في مشروع بورى «للاهوت الوجود»[٤].

وبولتمان ومدرسته يقفون ضمن فيالق الثورة على اللاهوت الليبرالى أو اللاهوت المتحرر. واللاهوت الليبرالى بدوره حركة بروتستانتية انتشرت في القرن التاسع عشر، وذاعت وشاعت حتى سادت الأجواء مع مطلع هذا القرن وهي تفسر اللاهوت على ضوء الخبرة الانسانية وبالتالى المتغيرات الحضارية. واستمرت في ذيوعها حتى عام ١٩١٤، أي قيام الحرب العالمية الأولى. فحتى هذا التاريخ كان اللاهوت الليبرالى - ومجمل الفكر الدينى - يسير أكثر في اتجاه النزعة المتفائلة - خصوصا بعد ما تلقحت بروائح من الجدل الهيجلى والتطور الداروني. ولكن نواتج الحرب وما خلفته من كوارث جعلت أساسيات الحركة في حاجة الى بعث وإعادة صياغة. وهذه هي المهمة التى تكفل بها تيليش، وأتمها بنجاح ملموس. واللاهوت الليبرالى - قبل عام ١٩١٤ وبعده - يستند الى خطوط وجودية واضحة، بل انه يستمد أولى أصولياته من القديس أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠) أول المبشرين بارهاصات الوجودية.

وكان الاتجاه البروتستانتى المعارض له يستند ايضا الى الوجودية، فكارل كانت K. Barth (١٨٨٦ - ١٩٦٨) هو أشد اللاهوتيين البروتستانتيين نفورا من اللاهوت الليبرالى ورفضا له وتبرؤا منه. قادة الثورة عليه وقدم لاهوتا مناقضا يبدأ من الله كما تجلى في المسيح لا من الخبرة الإنسانية والحضارة ويفسر اللاهوت بصلب ذاته. وبارت هو الآخر وجودي صميم. توضح أعماله، وأهمها (رسالة الى أهل روما) وأضخمها (دوجماطيقيات الكنيسة)، مدى اقتفائه لخطى كيركجور وانتهاجه لأسلوبه في الكتابة. «وكان لوجودية كيركجور تأثير عظيم على لاهوت بارت الخجص، وربما أيضا على اللغة التى عبر بها. وهو على أية حال قد اعتقد فيما بعد أن طريق الوجودية سوف يؤدى لا محالة لنقطة بدء القرن التاسع عشر الى الانسان الدينى (أى الى نقطة بدء اللاهوت الليبرالى) فكانت الوجودية معه فقط لتعطينا وصفا أعمق وأثقب لهذه النظرة الدينية في أفضل صورها، بيد أنها لا تمنحنا الأساس العقلي للاهوت. يريد أن يتحدث عن الرب بمصطلحات عقلانية ومتعقلة، كما كان يطمح بارت في نهاية الأمر. ومع كل هذا كان كيركجور معبرا هاما عبر عليه بارت الى العالم الجديد للاهوته المطور، وربما لم

(٣) John Macquarrie, 20 th Century Religious Thought: The Frontiers of Philosophy And Theology, SCM press Ltd, London, 1971.P.364.

(٤) Lbid, P.365.

يفلح تماما في زعزعة تأثيره»[٥] وسوف نتعرض فيها بعد بالتفصيل للاهوت الليبرالى، والصورة التى اتخذها عند تيليش تحت اسم «اللاهوت الحضارى»، وأيضا لموقف بارت المعارض .

وما ينبغى أن نصوب عليه الأنظار الآن، هو كيف أن كبار أئمة اللاهوت البروتستانتى الممثلين لأهم اتجاهاته المعاصرة، بولتمان وبارت وتيليش ينطلقون من الأرضية الوجودية على الرغم من اختلاف مشاربهم البروتستانتية بل وتناقضهم بصدد قضية مبدئية هي أيكون تفسير اللاهوت من صلب ذاته أم من قلب التجربة الانسانية؟ وهذا ينطبق أيضا على رجالات الصف الثاني لفلسفة اللاهوت البروتستانتى المعاصر أمثال أوجدن S. N. Ogden ووليم كامللاه W. Kamalah من أتباع بولتمان. واميل برنرE. Brunner (١٨٨٩ ـ ١٩٦٦) أعظم الممثلين لما أسماه كارل بارت بلاهوت الكلمة ، وإن كان قد افترق مع أستاذه في بعض النقاط ، ويزامله في اتباع اللاهوتى أوسكار كلمان O. Cullman (١٩٠٢ ـ ؟) . أما أخلص تلاميذ تيليش فهو الأسقف روبنسون J. A. Robinson . الذي يوضح كتابه«مخلص للرب» «Honest To God» كيف أنه أجاد استيعاب فلسفة أستاذه وتمثلها ، وأضاف إليها وطورها حتى وصل إلى درجة أثارت عاصفة شديدة بين اللاهوتيين ، حين صدوره عام ١٩٦٣ . ولا يفوتنا ذكر أعلام لهم أهميتهم في اللاهوت الفلسفى البروتستانتى، ولهم أيضا استقلالهم، مثل فلاهم، وادولا وهم أتباع . وأهمهم ديتريش بونهوفر D. Bonhoeffer (١٩٠٦ ـ ١٩٤٥) الذى ينافس تيليش في إيمانه بالقيمة العملية والفعالية الحية للاهوت وايضا ضرورة تحديثه. ويذكرنا كل سطر من سطور العمل الذي توج حياته القصيرة «ثمن التبعية» «The Cost of Discipleship» بروح كيركجور. وثمة ايضا راينهولد نيبور R. Niebur (١٨٧٢ ـ ١٩٧١) الرافض للاهوت الليبرالى، بحيث يعتبره البعض تابعا لبارت[٦]. أبدى اهتماما فائقا بالمسائل الاجتماعية والسياسية وعني بنقد الليبرالية الديمقراطية للحضارة الأوربية، مؤكدا أهمية الدين الاخلاقية. وأهم أعماله في هذا «انسان اخلاقي ومجتمع لا أخلاقي» «Moral Man And Immoral Society» سنة ١٩٣٢ ، و «أبناء النور وأبناء الظلام» سنة ١٩٤٤ . «The Children of Light And The Children of Darkness» وقد احتذى هو الآخر حذو كيركجور في اعتبار الانسان معلقا بين التناهي والحرية، ولا مندوحة له عن تقبل كليهما كي يحيا بصحة روحية. وهذا التعليق للإنسان يتبدى من خلال القلق الذي هو ظرف مبدئي تنشأ عنه كل خطيئة.[٧]

كل هؤلاء اللاهوتيين البروتستانتيين، وسواهم ممن لا يتسع المجال لحصرهم، وجوديون صرحاء، ولكن طبعا بدرجات متفاوتة فى مدى تمثلهم وتمثيلهم للفلسفة الوجودية. ولئن كان لاهوت بولتمان ومدرسته أكثر وأخلص وجودية من لاهوت تيليش، فإن تيليش هو أقدر من أستطاع في آن واحد أن يجعل الوجودية تنساب في شرايين البروتستانتية، والبروتستانتية تنساب في شرايين الوجودية، والحياة تنساب في كليهما.

ان اللاهوت الفلسفي هو البحث في التضمنات الفلسفية للعقيدة الدينية، وليس يصعب إدراك الخاصية الوجودية للتضمنات الاساسية المميزة

---

(٥) William Nicolas, Systematic and Philosophical Theology. pelican Book, London 1969.P.82.

(٦) H.D.lewis, Philosophy of Religion, Hodder & Soughton London 1975.P.326.

(٧) W.Nicolas, Op. cit, P.294.

للبروتستانتية، فلا يدهشنا كل هذا الالتقاء بين اللاهوت البروتستانتى والفلسفة الوجودية، فهو مسألة تتبدى لكل من يمعن النظر في منطلقات ومضمون دعوة لوثر: أما عن الزاوية التاريخية لهذا الالتقاء، فقد أشار إليها تيليش نفسه، حين فرق بين ثلاثة وجوه للوجودية: الوجودية بوصفها وجهة نظر- وبوصفها احتجاجا (Protest)- وبوصفها تعبيرا.

ونجد وجهة النظر الوجودية ماثلة في معظم الأعمال اللاهوتية او في جانب يعتد به من الأعمال الفلسفية والفنية والأدبية، ولكنها وجهة نظر لا تدرك في بعض الأحيان بوصفها كذلك. أما الوجودية بوصفها احتجاجا فقد ظهرت كحركة واعية بذاتها منذ الميلاد الرسمي للوجودية مع كيركجو، لتصبح بوصفها تعبيرا خاصة سمة الفلسفة والفن والأدب، في مرحلة الحربين العالميتين. [٨] وإذا كان ديكارت - كما هو معروف - قد شق الطريق المناوىء للوجودية، فإن تيليش يؤكد أن البروتستانتية برفضها للإنقالات الميتافيزيقية والانطولوجية على العقيدة الدينية، كانت هي التي تحمل لواء وجهة النظر الوجودية. لكن البروتستانتية تراجعت عبر تاريخها عن الكثير من الأراضي الوجودية. وبخاصة تحت ضغط المجتمع الصناعي الذي تنامى في القرن التاسع عشر والذى يتطلب لحسن إدارته لنفسه وللعالم فلسفة ضد الوجودية ولاهوتا ضد الوجودية. وتحت تأثير الحركات الاجتماعية والتيارات السيكولوجية في القرن العشرين أصبحت البروتستانتية أكثر انفتاحا على المشاكل الوجودية للموقف المعاصر[٩] فكان ما أشرنا إليه من التقاء حميم بين اللاهوت البروتستانتى والفلسفة الوجودية.

وبعد كل هذا، يظل التوقف عند مثال تطبيقي لهذا الالتقاء، هو فلسفة تيليش، ليس فقط وقوفا عند شريحة معبرة عن قطاع هام من الفكر اللاهوتى أو الغربى المعاصر، بل هو مسألة أعمق. إنه وقوف على طبائع وخصائص مميزة لفلسفة ذات عناصر أساسية.

●●●

لئن كانت الطبيعة الخاصة للبروتستانتية تلقي بها تو في قلب الفلسفة الوجودية، فإن العكس ليس صحيحا، أي أن الطبيعة الخاصة للفلسفة الوجودية لن تلقى بها في قلب البروتستانتية فقط، بل هي كفيلة بجعلها تتوغل في أعطاف أي فكر لاهوتى رام وشائج فلسفية حية. واذا كان المنشور البابوى الكاثوليكى لعام ١٩٥٠ قد استبعد الوجودية بوصفها واحدة من الفلسفات المعارضة غير المرغوب فيها، فإننا نرى هذا عناداً في البروتستانتية وليس في الوجودية. وثمة فلاسفة وجوديون وكاثوليك، من الطراز الأول في وجوديتهم وفي كاثوليكيتهم، من أمثال جبريل مارسيل G. Marcel.

إن الوجودية هي الأساس الفلسفي للنظر في الموقف الإنساني المتعين بمسؤوليته الفردية الرهيبة حيث لا ينفع المنطق الجامد ولا يشفع المنهج العقلاني الصارم. لذلك «يصعب أن يناقش أى لاهوتى متفلسف دعاويه بغير الاستعارة من القاموس الوجودي والالتجاء إلى المفاهيم والمصطلحات الوجودية من قبيل «الهم» و «القلق» و «التناهى» و «الاثم» و «الاغتراب» والوجود الأصيل و

(٨) Paul Tillich, The Courage to Be, Yale University Press, New York, 1960. P126

(٩) Ibid, Pp. 132: 134.

الشرعي والوجود الزائف . . . الخ»[10] واذ كان ماكينتري صاحب هذه الملاحظة يقول في التعقيب عليها «إن الوجودية في حقيقة الأمر مبدأ لاهوتي محايد، لأنها تبرر الولاء للاعتقاد بأن الشخص قد اختاره، وهذا تبرير ينطبق ايضا على العقائد الإلحادية ،[11] فإننا قياسا على تعقيب ماكينتري نقول إن الفلسفة الوجودية هي فقط الكفيلة بإعطاء الإيمان الديني تعميقا وتفسيراً وتبريراً، لابد وأن تسلم بها جميع الأطراف، حتى وإن كانوا ملحدين. فالرأي عندي ـ وهو رأي سيعطينا تيليش المثال الحي والشاهد الأصدق عليه ـ أنه لا توجد وسيلة أكيدة لتفجير الحياة في اللاهوت وتعميق معايشة التجربة الدينية أنجح وأفضل من الفلسفة الوجودية أو حتى تياريها خصوصا اذا ما أخذنا في الاعتبار ان الدين أولا وقبل كل شيء عقيدة، ثم يأتي تطبيق الشريعة كنتيجة ومحصلة للإيمان بالعقيدة، أو بالتعبير الوجودي لقرار إختيار العقيدة تحقيقا للوجود الشرعي (او الأصيل في ترجمات أخرى نراها الأصوب).

●●●

وإذا تركنا الآن رحاب اللاهوت الفلسفي، ودلفنا بتوغل أكثر إلى رحاب الفلسفة ذاتها، أي الفلسفة اللاهوتية أو المستعينة باللاهوت أو حتى مجرد الفلسفة المؤمنة، أي إذا تركنا تيليش اللاهوتي، فسنجد أن تيليش الفيلسوف واحد من أربعة فلاسفة ممثلين لتيار هام من تيارات الفكر الغربي المعاصر هو تيار الفلسفة اللاهوتية، التي ترتكز على اللاهوت ويستمد منه حلولاً للمشاكل التي تتصدى لها. وجملتهم باحثون عن الانطلاقة أو الثورة الروحية للانسان، بغية رأب الصدع العميق في بنيان الواقع الجاف. منهم من عرف كيف يحطم الحدود التقليدية المستهلكة للملة اللاهوتية، من أجل تطويرها وتوسيعها وإثرائها، فتكون أقدر على إنقاذ «الوجود الشخصي». وكانوا بهذا يعطوننا أمثلة نموذجية على الفلسفة الوجودية وأسلوب ارتكازها على الدين واللاهوت واستعانتها به. هؤلاء الأربعة هم مارتن بوبر M. Buber (١٨٧٨ ـ ١٩٦٥) ممثل الفلسفة اليهودية وذو التأثير الكبير على تيليش، وجاك ماريتان J. Maritain (١٨٨٢ ـ ١٩٧٥م) ممثل الفلسفة الكاثوليكية، ونيقولا بيرديائيف N. Berdyaev (١٨٧٤ ـ ١٩٤٨) ممثل الفلسفة الارثوذكسية ـ ويأتي تيليش ليمثل الفلسفة البروتستانتية. لقد انتقينا هؤلاء الأربعة فقط ليمثلوا التيارات اللاهوتية الاربعة في الفكر الغربي المعاصر. لكن من ورائهم يقف جمع غفير لفلاسفة تكفلوا بمثل هذه المهمة. ولعل أسبانيا تتقدم بأكفأ فيلسوفين في هذا الصدد هما ميجل دي أونامونو M.de Unamuno (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) واورتيجاي جاسيت Ortegay Gasset (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥). ويمثل انجلترا جون مكموري G. Macmurry وثمة ايضا كارل هايم K. Heim (١٨٧٤ ـ ١٩٥٩) وسرجيوس بوبلجاكوف S. Bulgakov (١٨٧٠ ـ ١٩٤٤) . . . . . ويوضح المؤرخ جون ماكوري أن هؤلاء الفلاسفة ـ خصوصا بيردياثيف وأونا مونو اللذين يعتبرهما أعظم ممثلين للوجودية ـ حين اثبتوا أن الدين أساسا فعالية شخصية إنما يمهدون لمتطور بعدهم في صورة اللاهوت الوجودي[12] الذي رأيناه مع تيليش وبولتمان وزملائهما

(١٠) (١١) Alasdair Macintyre, Existentialism, Artin: Encyclopedia of Philosophy, P. Edwards (ed in Chief) Mac millan, New York, 1972. Vol. 3, P.151.

(١٢) J. Macquarrie, 20 th Century Religious Thought, P.209.

اللاهوتيين، حين اكتملت فلسفة الوجود الشخصي بفلسفة الانطولوجيا.

وبالتوغل أكثر في رحاب الفلسفة، نلقى في النهاية الوجودية المؤمنة فحسب. وعلى رأسها الفيلسوفان الشهيران صاحبا البصمات في بلورة وتطوير مفهوم الوجودية، وهما الفرنسي جبريل مارسيل، والألماني كارل ياسبرز K. Jaspers (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩) الذي فلسف للاهوت الليبرالى البروتستانتى، ومع هذا كان له تأثير كبير على جورجاتن بقوله إن اللطف والوحي ليسا في فعل معين. وثمة كثيرون أقل شهرة، أهمهم الروسي ليون شستوف Leon Shestov (١٨٦٦ ـ ١٩٣٨) الذي جعل عنوان أهم كتب كيرجور (أما . . . أو) «Either.. Or» اساسا او هيكلا لفلسفته. وقد انشق (مستوف) بوجوديته المؤمنه عن الثورة البلشفية فانضم ـ مع بيروياثيف ـ إلى سرب الطيور المهاجرة التي غادرت روسيا طوعا أو كرها .

●●●

وإذا ما درسنا شيئا من اللاهوت الفلسفي ثم من الفلسفة اللاهوتية، فاننا ننتهى إلى أن العلاقة تبادلية بين اللاهوت والفلسفة الوجودية. فكما استعان اللاهوت البروتستانتي بالفلسفة الوجودية ليكون أقوى وأكثر حياة فإن الفلسفة الوجودية أيضا قد تستعين باللاهوت لتكون أقوى واكثر حياة بل، ولتكون اكثر وجودية، فكما قال الرائد كيركجور (الوجودية الحقة هي المسيحية، أو هي بتعبير أدق صيرورة الإنسان مسيحيا) [١٣]

إن صلب التفكير الوجودي يقوم على المقابلة بين (الوجود ـ لذاته) أي الإنسان وبين (الوجود ـ في ذاته) أي الشيء . ولا نخرج من هذه المقابلة إلا بوجود ـ من أجل ـ ذاته ومن أجله كل وجود آخر، أي الألوهية. وحين يحقق الإنسان مبدئيات الموقف الوجودي أي حين يصوب تفكيره تجاه المتشخصة الوحيدة المحاطة بالقلق والاغتراب والتناهي والعدم والمثقلة بعبء الحرية، فالأرجح أن يلتجيء فوراً إلى الموجود المتعالى ـ الله، أو كما يقول بير يائيف: (كلما أحكم عالم الذات اغلاق الباب على نفسه، فإنه يكتشف فجأة وجوداً متعاليا.)

ليس هذا مقصوراً على الألوهية فحسب، بل وعلى الدين بمعناه الحرفي، والمقصود الأديان السماوية ـ فحديثنا لا ينطبق على الكونفوشية أو البوذية مثلا ـ الدين السماوي له قدرة يصعب منافستها على تضخيم مسئولية الوجود الفردي إلى الحد الذي يجعله حقيقاً بالنظرة الوجودية. ولنخطُ خطوة أبعد ونقول ليس التجربة الدينية في عموميتها، بل وأكثر من هذا التجربة الصوفية هي التي تحمل أقصى تحقق للفلسفة الوجودية، والمتصوفة الذين هم أكثر عباد الله عبودية ـ أو عبودة حسب المصطلح الإسلامي الدال على الدرجة القصوى ـ هم ايضا أكثر الوجوديين وجودية. فالوجودية فلسفة للذات لا الموضوع ، والإنسان لا الطبيعة، والتجربة الحية لا العقل النظري، ولن نجد ذاتية تنبذ كل موضوعية، وإنسانية تزدري الطبيعة المادية، وتجربة ذوقية وجدانية تضرب عرض الحائط بمقولات العقل والعقلانية، مثلما نجدها مع المتصوفة. وهل يجادل أحد في أن الميستروإكهارت Eckhart

(١٣) ريجيس جوليفيه ، المذاهب الوجودية : من كير كجور إلى جان بول سارتر ، ترجمة فؤاد كامل ، مراجعة د . محمد عبدالهادي أبو ريدة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة د . ت ، ص ٢٠

(١٢٦٠ ـ ١٣٢٧) (طليعة عظام المتصوفة [١٤]) هو مفكر وجودي من الطراز الأول، وان يعقوب بوهمه J. Boehme (١٥٧٥ ـ ١٦٢٤) أعظم المتصوفة، هو حامل لواء الوجودية في فترة ما قبل الديكارتية [١٥]؟

ومحصلة كل هذا ما نلمسه من أن الغالبية العظمى من الفلاسفة الوجوديين كانوا ذوي علاقة متينة مع الدين. والوجوديون الملاحدة الممثلون لمعالم على طريق الوجودية قلة (نيتشه وهيد جروسارتر وربما كامي) وإن كانت لهم فعلا أهمية كيفية تفوق كل كم، فليست تتعلق أهميتهم الكبيرة بمقولة الالحاد في حد ذاتها، ولا هي اكسبت فلسفاتهم شيئا مما لها من قوة فائقة.

أما من الناحية الأخرى التي قدمنا بها الحديث، أي ناحية اللاهوت، فإن تيليش يعتقد أنه (قد تلقى هبة عظيمة من الفلسفة الوجودية [١٦]، حتى أنه ـ أي تيليش ـ يؤلف مرجعا اكاديميا ضخما يحيط بتاريخ الفكر المسيحي منذ أصوله اليهودية والأغريقية وصولا إلى الفلسفة الوجودية أو انتهاء بها، مؤكدا أن الانجيل يحمل عناصر مبكرة للتفكير الوجودي [١٧]. يقول تيليش إن المسيح أتى ليجلب دهرا جديدا New eon، وأن (الوجودية قامت بتحليل الدهر القديم، أي مأزق الإنسان وعالمه في وضع الغربة. والوجودية بإنجازها لهذا إنما هي حليف طبيعي للمسيحية. وذات مرة قال إيمانويل كانط إن الرياضيات هي الحظ السعيد للعقل الإنساني. وبنفس الطريقة يمكن أن يقول المرء إن الوجودية هي الحظ السعيد للاهوت المسيحي) [١٨]

●●●

وبعد هذا الحديث حول وجودية اللاهوت، ولاهوتية الوجودية، أي العلاقة التبادلية الوثيقة بين الوجودية والدين بقي أن نلاحظ أن الوجودية اللاهوتية أو حتى المؤمنة ـ وهي الأصل كما نشأت مع كيركجور ـ توارت في الظل وقنعت بالوقوف من وراء الوجودية الملحدة التي انشقت عنها، والتي حظيت بنصيب الأسد، ان لم نقل استأثرت بما لحق الوجودية من شهرة طبقت الخافقين حين حطمت جدران الأروقة الاكاديمية وانسابت في تيار الحياة اليومية، كما لم تفعل فلسفة أخرى، لا من قبل ولا من بعد، باستثناء الماركسية طبعا.

ذلك أن الوجودية ظلت كائنة في مستويات البحث العميق والثقافة الرفيعة، يعبر عنها فلاسفة راموا أن يكونوا إنسانيين بمعنى ما، وتلقي بظلالها على أعمال أدباء وشعراء عظام أمثال دستويفسكي وهولدرلين واليوت، ثم جيمس جويس وكافكا وبيكيت وغيرهم . . . حتى كانت الأربعينيات من هذا القرن، التي شهد جيلها في أوربا أهوال حربين عالميتين. رأى هؤلاء أن الدول والحكومات تتخذ قرارات من المفروض أنها عقلانية مدروسة لكنها تؤدي إلى الخراب

---

(١٤) Elmer OBrien Varieties of Mystic Experience, Mentor Omga New York. 1965 P. 123

(١٥) Paul Tillich, Theology of Culture, ed. Ly R.C Kimball, Oxford university Press, 1959. P.76.
وفي تفصيل تأثير بوهمه على الفلسفة الألمانية والأوربية : الفصل الثالث من كتابنا . الحرية الإنسانية والعلم : مشكلة فلسفية .

(١٦) P. Tillich, Op. Cit, 126.

(١٧) P. Tillich, AHistory of Christian Thought, From Its Judaic And Hellenistic Orig ns To Existentialism, ed. by: C.E.Braaten, Simon, fchuster, New York 1967. P.540

(١٨) P. Tillich, Systematic Theology, Vol II, The University of Chicago Press, 1957. P.27

والدمار والفزع واليتم والترمل والثكل . ساد هذا الجيل القلق والمعاناه والرفض لكل ماهو موضوعي جمعي عقلاني ، وآمن بأنه لا أمل إلا في الخلاص الفردي . فكان المرتع الخصيب للوجودية التي تفجرت في بلدان القارة الأوربية ، وأصبحت زاد الثقافة بل الحياة اليومية . على أن وطأة أثقال الحرب أشاعت التشاؤم والسوداوية وفقدان المعنى والأمل والثقة في كل كيان إنساني ، مما جعل الأجواء مهيأة أكثر للسير في مقولة الفردانية حتى الوصول إلى أن الانسان مهجور في هذا الكون ـ أى انكار وجود إله يلوذ برحمته الواسعة وقدرته الشاملة . وكتيار فرعي للوجودية التي رأيناها أصلا وأساسا مؤمنة ـ انبثقت الوجودية الملحدة التي يعد فردريك نيتشه F.Nietysche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) رائدها ، وهيدجر أعظم منظريها ، وهو في الواقع أعظم منظري الوجودية على إطلاقها . اما الوجوديون الملاحدة في فرنسا بزعامة قطب الوجودية الأشهر جان بول سارتر J.P.Sartre (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) ـ ورفيقاه سيمون بوفوار والبيركامي ـ فقد تميزوا بموهبة أدبية دافقة فصاغوا وجوديتهم العبثية التشاؤمية في قوالب فنية جذابة ، مقالات ومسرحيات وروايات وقصص رائعة اكسبتهم ـ دون سائر الوجوديين ـ شهرة واسعة وجمهوراً غفيرا من القراء الذين ما كان أحد منهم ليقرأ حرفا واحدا من البحوث الفلسفية المتخصصة . لقد كانت كتاباتهم انجيل جيل الأربعينيات والخمسينيات والستينيات .

ووصل هذا المد إلى المكتبة العربية في الستينيات ، وامتلأت بأعمال جمة تعرض للفلسفة الوجودية ، بحثا ودراسة ونقدا وترجمة ومقارنة وتأصيلا وأحيانا إضافة . ولكن الذيوع كان كذلك من نصيب الوجودية الملحدة ، سارتر ثم نيتشه ثم هيدجر . ولئن كانت قد ظهرت بعد ذلك بعض الدراسات القيمة والترجمات الرصينة لأثار الوجودية المؤمنة ، وعروض شاملة للوجودية فان الوجودية الملحدة خصوصا عند سارتر بالنسبة للمثقفين وعند هيدجر بالنسبة للمتخصصين هي التي تقفز إلى الأذهان كلما ورد المصطلح في الأوساط العربية . وقد تذكر أو لا تذكر الوجودية المؤمنة ناهيك عن الوجودية اللاهوتية والدينية .

ويلغ هذا القصور الفلسفي حدا جعل مصطلح الوجودية يرتبط عندنا في أذهان أنصاف المثقفين بالإلحاد .

والواقع أن هذا الخلل لايعود فقط إلى القدرات الفلسفية للوجوديين الملاحدة ومواهبهم الأدبية أو إلى ظروف حضارية لهم موئسة ، ساعدت على رواج أعمالهم ، بقدر مايعود إلى غموض أو التباس شديد يلحق بمفهوم الوجودية ، لا في أوساط المثقفين أو حتى المتخصصين فحسب ، بل وفي أوساط الفلاسفة كذلك . والفلاسفة الوجوديون أنفسهم الذين ينطبق عليهم هذا الاسم جمع غفير من الفلاسفة ، «ليس يجمعهم شيء ، بقدر بغضهم وتقاذفهم لبعضهم ، وتبرؤ بعضهم من هويته الوجودية»[١٩] ، حتى شك سارتر نفسه في أن لقب الوجودية قد أصبح خاليا من المعنى . وهيدجر وياسبرز ومارسيل الذين لابد وأن يشملهم أي نقاش للوجودية ، رفضوا جميعا هذا اللقب حتى انتهى روجر شن R.Shinn ، إلى أن الوجودي الذي يحترم نفسه لابد وأن يرفض أن يطلق عليه لقب وجودي ، وهو يقصد أن الوجودي الحقيقي يرفض التقولب في قالب معين بحيث يصبح فردا في فئة

(١٩) W.Kauf. mann, Existentialion From Destoevsky to Sartre, P,11

تعرف بالوجوديين[٢٠] ويبدو أن هذا هو السبيل الوحيد الذي تراءى لروجر شن كي يخرج من متاهات الوجودية .

ونرى لزاما علينا قبل الدخول في عالم تيليش أن نبذل قصارى الجهد لتحديد مفهوم الوجودية تحديدا دقيقا ، منذ نشأته مع كيركجور في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحتى تبلور تماما في الربع الثاني من القرن العشرين ، بفضل الوجوديين الملاحدة . وسوف نراعي أن يكون هذا التحديد شموليا وموضوعيا ، بصرف النظر عن قضية إيمان الوجودية أو إلحادها حتى لايحمل شبهة المصادرة على المطلوب . وسوف نلاحظ كيف سيتجه المنحى الموضوعي من تلقاء ذاته في اتجاه الوجودية الدينية وبالتالي في اتجاه عالم تيليش .

ب ـ ماهي الفلسفة الوجودية :

لعل أحد مصادر اللبس الذي لحق بهذا المصطلح أن الوجودية ذاتها تتسم بقدر من الهلامية فهي ليست البتة مذهبا فلسفيا دقيقا ، منهاجا وتطبيقا . ولاهي مدرسة يمكن صياغة تعاليمها في قضايا محددة ، بل إن فعل المخاض الذي أنجب الوجودية ، والذي سيظل دافعا إياها بمعالمه هو ذاته النفور من المذهب والمذهبية . وعلى وجه التحديد يمكن اعتبار الميلاد الرسمي للفلسفة الوجودية بمثابة رد فعل رافض لمذهب الماهية Essence ، كما وصل إلى ذروته مع هيجل F.G.Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) . قامت الفلسفة الوجودية لتناهضها وتقول إن تلك الماهية الثابتة موضوع الخبرة المعرفية العقلانية ليست هي الحقيقة في تعينها واكتمالها . الحقيقة هي بالأحرى الوجود الذي نمر به في الخبرة الفورية الحية . وسوف نرى أن التمييز بين الوجود والماهية من أسس الفلسفة الوجودية .

وكدأب البحث الفلسفي ، بذلت محاولات عديدة لتعقب جذور الوجودية في أعماق التاريخ حتى وصلت مين دي بيران Main De Biran (١٦٦٦ ـ ١٧٢٤)[٢١] وبليز بسكال B.Pescal (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) والقديس أوغسطين ، بل وحتى سقراط العظيم[٢٢] . ولكن المعتمد أن فلسفة كيركجورأول صورة ناضجة مكتملة لها ، وفي عصر كيركجور كان الافتتان بالعقل ـ الذي بدأه أبو الفلسفة الحديثة ديكارت ووصل إلى ذروته مع هيجل ـ قد بلغ مداه . فضلا عن أن العلم قد أحرز الذروة الشاهقة بنظرية نيوتن ، التي هي نسق شامل للعلم بالطبيعة ، تجاهد بقية أفرع العلوم البيولوجية والانسانية للدخول في أعطافها . يوازي هذا نجاح الفلسفة العقلانية ـ خصوصا الألمانية ـ في بناء أنساق شامخة ، تحاول استيعاب الوجود بأسره في قلب فئة من التصورات . فأشرق القرن التاسع عشر في أحضان مايعرف (بعصر التنوير) ـ عصر الإيمان بقدرة العقل على فض مغاليق هذا الوجود . وكرد فعل متوقع تمخض عصر التنوير عن الحركة الرومانتيكية ، من حيث تمخض عن فلسفة كيركجور الوجودية ، التي كانت نقطة بدايتها رفض العقلانية التنويرية حيث سيادة المذاهب النسقية سواء العلمية أو الفلسفية . فهي في كلتا الحالتين باردة جافة مقطوعة الصلة بالتجربة الحية المعاشة ، وتنظر إلى أية حقيقة واقعة ـ

---

(٢٠) د . إمام عبدالفتاح إمام ، سرن كيركجور : رائد الوجودية ، الجزء الأول ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٦

(٢١) انظر في فلسفة (من دي) بيران وآثارها التي امتدت حتى شكلت حركة سادت الفلسفة الفرنسية تعرف باسم فلسفة الحرية كتابنا المذكور (الحرية الإنسانية والعلم) والكتاب يمثل نقطة الالتقاء بيننا وبين الوجودية ، اذا يحاول الوصول لنفس مقولاتها ولكن على اساس العقلانية بل وبالنظرية إلى العالم من منظور العلم نفسه .

(٢٢) J. Macgurrie, An Existentialist Theology, op cit, P. 15-16.

حتى الإنسان كموضوع كشيء غريب عنها ، وتسحق فردانيته بما فيها من موضوعية وعمومية وتجريد .

ولقد ظل المركز الذي دار حوله الوجوديون منذ البداية وحتى النهاية يرفض كل مايمس فردانية الفرد . (فهم يجعلون محور النظر الفلسفي السؤال : ماذا أكون)[٢٣] من أجل ابراز قيمة الفرد (وتحليل الوجود البشري من حيث أخص مافيه من فردية وعينية)[٢٤] ، ومن حيث هو جزئي عارض لايندرج تحت أية بنية نسقية عقلية ، ليصلوا إلى الوجود كما يتجلى في مواقف التفرد الإنساني ـ مواجهة الموت مثلا وهو أقصاها . بهذا يصبح العالم متأصلا في صميم الفرد ، لامفارقا عنه في مذهب عقلي مصمت لايعترف به ولا بفردانيته .

الوجودية اذن فلسفة للوضع الإنساني ، وعلينا أن نميز بين اتجاهين لهذه الفلسفة الأول هو الماهوى الذي ينظر إلى الإنسان في حدود طبيعته الماهوية داخل الكون ككل . والاتجاه الآخر هو الوجودي الذي ينظر إلى الإنسان في معضلته في الزمان والمكان ويرى الصراع بين ماهو موجود فيها ، وماهو معطى في الماهية[٢٥] ، كإمكانية تنتظر التحقيق .

والفيلسوف الألماني المنتمي للكانتية الجديدة هاينيمان F.Heinemann هو الذي قدم مصطلح (الوجودية Existentialism) فقط عام ١٩٢٩ .[٢٦] وكان مصطلحا شديد الدلالة وصائبا جدا . فهو مشتق من الجذر EX-sistere الذي يعني في أصوله اللاتينية (الانبثاق to Emerge ، والوجودية فعلا فلسفة الانبثاقة في هذا العالم ، وليست فلسفة الكينونة Being فيه . فمع الكينونة لاتوجد امكانية غير متحققة ، الكينونة تحقق خالص ـ أما الوجود ـ الذي هو مقابل للماهية ـ فامكاناته مفتوحة دائماً ، تنتظر الاختيار والقرار لكي تتحقق . وهذه الامكانات هي ماتصوب عليه الفلسفة الوجودية أنظارها . وليس اسمها (الوجودية) فقط ، بل وكل مصطلحاتها نحتت في اللغة الألمانية ، فالوجودية نبتة ألمانية نشأت أصلا من توتر موقف العقلية الألمانية في بدايات القرن التاسع عشر . وكما أوضحنا ، كانت فلسفة كير كجور وهو دانمركي رد فعل لفلسفة الماهية مع هيجل الألماني[٢٧] .

الوجودية إذن مجرد اتجاه عام لتحليل الوضع الإنساني ، بل والاتجاه ظل مضمرا . ولم يخرج من الصحائف ويتبدَّ إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، في ألمانيا ثم في فرنسا . ولم يكتسب حتى اسما إلا عام ١٩٢٩ . لاغرو إذن أن يضم الاتجاه الوجودي فلاسفة شتى تختلف مشاريهم أيما اختلاف وقد تتناقض ، ليس فقط في قضايا الفلسفة العامة ، بل وفي صميم القضايا التي تشكل صلب الاتجاه الوجودي . ولن نجد مقولة واحدة اتفقوا عليها ، أو يمكن أن تنطبق عليهم جميعا بلا استثناء ، فلا نتوقع قائمة محددة بتعاليم الوجودية ، ولا سبيل إلى وضع تعريف جامع مانع لها . وبدلا من هذا ، سنحاول تحديد الاتجاه الوجودي عن طريق

---

(٢٣) Gabriel Marcel, Mystery of Being (trans) by G.S Fraser, Vol. I,Imdiana, P.84.

(٢٤) ريجيس جوليفيه ، المذاهب الوجودية ، ترجمة فؤاد كامل ، ص ٥ .

(٢٥) P. Tilliche, History of Christian Thought From Its Origins To Existentialism, oP. cit, P 539–40

(٢٦) M. Rosenthal & P.Yudin (ed), ADictionary of Philosophy, progress, Moscow, 1967 P.153.

(٢٧) P. Tillich, Theology of Culture, PP 76: 81.

نقطة البداية والمسار والهدف ، وأبرز المعالم وأهم الخصائص[٢٨] .

● ● ●

الواقعة الوحيدة الجلية هي (أننا موجودون) ومنها بدأت الوجودية . وكان «ينبغي أن نبدأ من علاقتنا الأولية بما هو في ذاته : أي بوجودنا ـ في ـ العالم»[٢٩] على أن أميز منيميز الوجودية هو أنها لاتبدأ من الوجود كمقوله عامة ـ كماهية ، بل كواقعة عينية متشخصه في فرد محدد . فالموجود البشري يمتاز عن سائر الموجودات بأن كل فرد ملقى في موقف وجودي معين خاص به ، لاأحد يمكن أن يحل محله أو يشاركه فيه . إنه فرد فريد ، لايجوز اعتباره عينه في فئة . هكذا تبدأ الوجودية من الأنا . . الأنت . . الهو . . من الذات . فيغدو الوجود ذاتيا ، لايمكن أن نجرده ونعرفه من الخارج كمعطى موضوعي ، أو أن نرده إلى قوالب تصورية . فهو لايرد إلى سواه . إنه يتصف بالذاتية العميقة من حيث يتصف بالسر الذي يجعله يتأبى على كل محاولة لجعله موضوعاً .

وهذه الذاتية أو الفردانية لاتقلل من شأن العالم ، ولامن شأن الآخرين . «فإذا كانت مشكلة وجود العالم قد أرقت الفلاسفة الذي وضعوا الذات في جانب ، والعالم في جانب آخر ثم حاولوا الجمع بينهما ، فإنها لاتشغل الوجودي البتة ، لأن نظرته تقوم على وحدة الذات والموضوع»[٣٠] امتلاك الإنسان لجسد ، والجسد كأداة للإنسان ، يجعله يشارك في العالم ، كظاهرة طبيعية وهو في الوقت نفسه فائق للطبيعة المادية ، لذا يرى الوجودي الإنسان كوحدة بدنية نفسية ، فلا يبدأ من الذات الميتافيزيقية بل من (الوجود ـ العيني ـ في العالم) ، حيث الذات البشرية والعالم حقيقتان أصيلتان متساويتان لاذات بغير عالم ، ولا عالم بغير ذات . وهذا يفضي إلى (الوجود ـ مع ـ الآخرين) الذي هو سمة أساسية من سمات الموجود البشري . «وجود الإنسان في جسد يتبعه فعل الشعور ، وفعل الشعور لايمكن تفسيره إلا من خلال المشاركة مع الآخرين»[٣١] هكذا نخلص إلى أن الوجودية تبدأ من وحدة (الوجود ـ مع ـ الآخرين ـ في ـ العالم) التي يجسدها الوجود اللاعقلاني المحسوس ، التجربة الحية الخفاقة في الصدور ، لا المتجردة في العقول . هذه هي نقطة البداية والتي يلخصها ببراعة مصطلح هيدجر Dasein (الموجود ـ هناك الكائن الملقى به في العالم مع الآخرين) ، وهذه هي نقطة البداية .

أما نقطة النهاية ، أو الهدف الرئيسي عند الفلسفة الوجودية ، فهو الوصول إلى الوجود الأصيل (الشرعي) والحيلولة دون السقوط أو الوقوع في الوجود الزائف . الوجود أصيل بقدر مايشكل الفرد نفسه ، وزائف بقدر ماتشكله مؤثرات خارجية فيفقد ذاته . من هنا كان اهتمام الوجوديين بالحرية ، ونقدهم للمجتمع وأعرافه ، ودعوتهم الفرد للخروج على كتلة الجماهير ، ورفض القيم الجاهزة وسائر العموميات . . . وذلك ليحمل وحدة مسؤولية ذاته ، فيكونها ، ويحقق وجوده الأصيل . وهذا لن يتأتى إلا

(٢٨) انظر في هذا بصورة موجزه ومبسطة ، مقالنا : الوجودية ، مجلة القاهرة ، العدد ١٥ ، ١٤ مايو ١٩٨٥ .

(٢٩) جان بول سارتر ، الوجود والعدم : بحث في الانطولوجيا الظاهراتية ، ترجمة د . عبدالرحمن بدوي ، دار الآداب ، بيروت ، سنه ١٩٦٦ ص ٥٠٤

(٣٠) جون ماكوري ، الوجودية ، ترجمة د إمام عبدالفتاح إمام ، مراجعة د . فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ . ص ١١٦ ، ومابعدها ، ومواضع أخرى .

(٣١) G. Marcel, Mystery Of Being, Vol I, Op. Cit, P 104.

حين يصل إلى «الفعل المشتمل على الحرية والفكر والقرار» .

هاهنا نضع الأصبع على العمود الفقري في الاتجاه الوجودي حرية الإنسان «إنهم لايحللون الوجود الإنساني إلا من حيث أنه اساسا فعل حرية ، تتكون بأن تؤكد نفسها ، وليس لها منشأة أو أساس آخر سوى هذا التوكيد للذات»[٣٢] فعلى خلاف نهج الفلاسفة في القول بحرية الإنسان ، لايحاول الوجوديون وضع أية براهين تثبتها أو دحض أدلة تنفيها ، فهذا نقض للوجودية التي تعني المطابقة بين كون الإنسان موجودا كونه حرا . فكما يقول سارتر «الحرية ليست وجودا ما ، إنها وجود الإنسان» ويستأنف موضحا : «إنني محكوم على أن أكون حراً . وهذا يعني أنه لايمكن أن يوجد لحريتي حدود أخرى غير ذاتها ، أو إذا شئنا فنحن لسنا أحرارا في الكف عن أن نكون أحراراً»[٣٣] ولو كانت كل وقائع حياة إنسان ماتشهد بأنه ليس حراً ، كأن يخضع لمشيئة غير مشيئته ، أو حتى للعقل الجمعي في قرار ما ، لقال الوجوديون إنه بفعل من أفعال الحرية اختار التنازل عن الحرية ، وبالتالي عن الوجود الأصيل وقنع بالوجود الزائف ، اختار أن يكون مشتتا ممزقا بلا إرادة ـ باصطلاح سارتر : سيء النية . وسوء النية يعني أن الموجود الانساني «لايمكن أن يتخذ مواقف سلبية بازاء نفسه»[٣٤] وتقول رفيقه عمره سيمون دي بوفوار : «إن الانسان لايستطيع أبدا أن يتنازل عن حريته وحين يزعم أنه يتخلى عنها ، فإنه لايفعل شيئا إلا أن يحجبها عن نفسه ، وهو يحجبها بحرية . إن العبد الذي يطيع يختار أن يطيع . واختياره لابد أن يتجدد في كل لحظة . إن الإنسان يخلص لأنه يريد ذلك بكل إرادته ، وهو يريد ذلك لأنه يأمل بهذه الطريقة أن يستعيد كينونته»[٣٥]

وبالطبع لاشيء مطلق . فثمه ما أسماه الوجوديون (بالمواقف الحدية) التي تمثل حدا لحرية الإنسان فلا يستطيع أن يفلت منها ، كالموت والقلق ، وايضا الجنس واللون والطبقة . . . . فضلا عن قسوة المواقف الحدية الشاذة ، كالعاهات وحالات المعوقين والأمراض المزمنة . على أنها ـ جميعا وغيرها ـ تمثل حدود الموقف الذي تمارس الحرية داخله ، ولا تنفيها لأن حرية الفرد غير قابلة للنفي ، طالما لاشيء ينفي كونه موجودا .

إن الوجودية أصلا فلسفة الموقف ، لأن الموقف هو الحياة والحياة هي الوجود في موقف والموقف هو ما يجعل الإنسان (الوجود ـ لذاته) لايشابه بحال الشيء (الوجود ـ في ذاته)[٣٦] . فكان المسرح الوجودي مثلا مسرح موقف لامسرح دراما أحداث . . .

ونأتي للاخلاق الوجودية ، فنجدها أخلاق موقف مشدود إلى المستقبل ، لاقانون مستكن في الماضي ، لذلك قيل إن (الاتجاه الأخلاقي للوجودية يحدد النظر إلى التاريخ على ضوء المستقبل)[٣٧] ويتصور البعض أن

---

(٣٢) ريجيلي جوليفيه ، المذاهب الوجودية ، ترجمة فؤاد كامل ، ص ٢٠

(٣٣) جان بول سارتر ، الوجود والعدم ، ترجمة د . عبدالرحمن بدوي ، ص ٧٠٣

(٣٤) المرجع نفسه ، ص ١١١ .

(٣٥) سيمون دي بوفوار ، مغامرة الإنسان ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الآداب ، بيروت ، سنة ١٩٦٣ ، ص ٧٢ .

(٣٦) Gabriel Marcel, Mystery Of Being. P.125.ff

(٣٧) paul Tillich, Theology of Culture, P. 101.

الحرية الوجودية ستجعلها فلسفة انحلال وإباحية ، في حين أنها تحمل الإنسان أقسى مسؤولية خلقية لاعن ذاته فحسب بل عن الإنسانية جمعاء ، على أساس أن اختيار قيمة معينة تأكيد لها ودعوى للآخرين كي يختاروها . إنها اختيار للذات وللإنسانية جمعاء ، إلتزام وإلزام[٣٨] فتتلخص أخلاقيات الوجودية في «تصرف بحيث يصبح فعلك أنموذجا للتصرف في كل موقف مماثل ، في أي زمان ومكان» وكأننا وصلنا بالطريق المعكوس إلى أقسى صورة عرفتها الفلسفة للأخلاق المتشددة ، أي مبدأ الواجب المطلق عند ايمانويل كانط . ولئن كان الوجوديون ، حتى بعض المؤمنين منهم يحتقرون الأخلاق المتعارف عليها ، لأن اتباعها الأعمى انقياد للآخرين وطمس للفرد ، فانه ليس في مقدور الإنسان أن يقف عند حد رفض القيم الجاهزة ، إنما هو مقضي عليه أن يؤسس قيما يلتزم بها ويلزم بها الآخرين على الرغم من أنها في أصلها ذاتية . هكذا يصبح الإنسان الأخلاقي مشرعا ومنفذا ، فهو الخالق الوحيد لمعنى القيم في العالم . إنهم يبحثون عن مستوى أعمق للضمير ، فيسلمون بحرية الانسان ويرفعون عنه كل وصاية أو إلزام مسبق ، حتى لايلتزم إلا بما يختار ويقرر هو الالتزام به . وبهذا تكون الأخلاق ذاتية نابعة من أعماق الفاعل متأصلة فيه ، لاخارجية مفروضة عليه ربما بصورية فارغة . وتكون المسئولية عن الفعل من حيث كانت الحرية في الإقدام عليه . فالحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة كما تقضي مبدئيات التفكير ، وكما يسلم كل دستور أو قانون ، فلا يعد الفاعل مسؤلا عن أية جريمة - مهما كانت بشعة - أرغم على ارتكابها بصورة أو بأخرى . وطبعا لايوجد - ولن يوجد - فيلسوف وجودي أو غير وجودي ، مؤمن أو ملحد ، يقول إن كل شيء مباح . والمفروض أن المسؤلية الملازمة للحرية تقوم بعملية الضبط الأخلاقي المنشودة دائما ، في كل موقف ، فردي أو جمعي .

وتلك المكانة الفائقة للحرية من ناحية ، وللموقف من الناحية الأخرى ، جعلت الوجوديين شديدي العناية - على وجه الخصوص - بالمواقف التي تتجلى فيها معالم الحرية ، كالتصميم والتعهد والالتزام والولاء ، وعلى رأسها موقف الاختيار واتخاذ القرار - الطريق إلى الوجود الأصيل من هنا كان (القرار) أحد محاور الفلسفة الوجودية . وكلنا نعلم صعوبته ، وقد نحاول إرجاءه أو تجنبه ، خصوصا حين تكون القرارات خطيرة يترتب عليها مواقف ذات دوام ، كقرارات المهنة والزواج والصداقة . على أن القرار في كل حال يتضمن وثبة وتجاوزاً للموقف المباشر ، بحيث نكون قد ألزمنا أنفسنا بظروف لم تتعين وتتحقق بعد . فمن طبيعة الانسان ان يلتزم وأن يراهن على المستقبل ، لذلك لابد وأن يتخذ قرارات ، وعنها تنبثق الذات[٣٩] .

الذات ليست معطاة جاهزة منذ البداية وإنما المعطى هو حقل من الامكانات غير المتعينة يختار الإنسان عن طريق القرار بعضا منها لتعيين وتشكل الذات . وعلى الرغم من ان القرار شاق ومؤلم ، فإن النزعة الوجودية - على وجه الدقة - هي رفض كل مايحول دون اتخاذ القرار حول الوجود الخاص ، كالعرف والتقاليد والروتين . انهم يحاربون كل مايعمل على تشكيل حياة الأفراد في قوالب نمطية تجعلهم يسيرون كالدهماء وراء

(٣٨) جان بول سارتر ، الوجودية فلسفة إنسانية ، دار بيروت سنة ١٩٥٩ . ص ١٨ ومابعدها .

(٣٩) جون ماكوري ، الوجودية ، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام ، ص ٢٦٣ ومابعدها .

قرارات اتخذت بالفعل ، فيفقد الإنسان ذاته ، ويقع في براثن الوجود الزائف .

وآية كل هذه يبلوره بين الوجود والماهية . ورغم أن هيدجر قال إن ماهية الإنسان كامنة في وجوده ، فإنه يمكن اعتبار القول بأسبقية الوجود على الماهية من المعالم البارزة للوجودية . ذلك أن أى جماد أو نبات أو حيوان ، ماهيته سابقة أو متآنية مع وجوده . المنضدة مثلا قبل وبعد أن تصنع ، وفي أية مرحلة من مراحل وجودها مجرد منضدة . الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يسبق وجوده ماهيته ، (إنه لا يأتي إلى الوجود كموضوع في مكان وزمان ، بل كنشاط مستمر للحرية)[٤٠] فهو يوجد قبل أن نستطيع تعريفه بأية فكرة ، (والمقصود بذلك أن الأنسان يوجد قبل كل شيء ، وأنه يلقى ذاته ، ويبرز إلى العالم ، ثم يعرف بعد ذلك)[٤١] قطعيا لايمكن تحديد ماهية الوليد وقيمه وأهدافه ومثله والتزاماته . . . أو على الإجمال علاقته بالعالم : (علاقتنا بالعالم ليست مقررة من قبل نحن الذين نقررها)[٤٢] ألم نتفق على أن الذات معطاة كحقل من الممكنات . الإنسان مشروع وجود ، فهو يقرر بنفسه ما الذي سيكونه ، وفي النهاية لايكون إلا بحسب ماينتوي ويختار ، ذاته ليست إلا مجموع قراراته وأفعاله ، هذه هي حياته نفسها ، وبالتالي لامجال لتعليق الفشل على ظروف خارجة عن ارادته . إذن فالإنسان ـ لاعوامل البيئة والوراثة ـ هو الذي يصنع ذاته ، و(أن يوجد الإنسان هو أن يختار بنفسه)[٤٣] ، في عملية مستمرة لاتنتهي أبدا ، اللهم إلا بالموت .

الإنسان وجود في الحاضر ، فضلا عن مسئوليته في مواجهة مستقبل مفتوح مليء بالممكنات لتظل الأنا ـ الماهية هي مقبل أفعالها ، انها اختيار يجب ابتكاره مجددا ودائما . لهذا كان الإنسان مسؤولا عن ماهيته فهو الذي يشكلها وهي مسؤولية سوف تتعدى ذاتيته إلى الإنسانية جمعاء . لايمكن الفرار منها لأن الإنسان حر . ولما كانت المسؤولية الوجودية رهيبة إلى هذا الحد ، حتى أنها تجعل فعل الاختيار والقرار مؤلما ، فلابد أن يلازمها قلق . من هنا كان الشعور بالقلق أساسيا في الوجودية .

ولكي يتحمل الإنسان هذه المسؤولية تماما ، فان الوجودية تضعه أمام كينونته ، أى أمام كونه موجودا ، وفي هذا استفادت كثيرا من الفينومينولوجيا (مذهب الظاهريات) ، مذهب ادموندهوسرل E.Hussrel (١٨٩١ ـ ١٩٢٨) الذي رام أن تصبح الفلسفة علما دقيقا ، فدعاها لأن تقتصر على الوصف التفصيلي للظاهرة كما تعطي للوعي ، شريطة أن يتخلص الذهن من الافتراضات والانحيازات المسبقة . وضع هوسرل منهاجا دقيقا ومعقدا لهذا ، يتلخص في ثلاث خطوات : «تقويس» الظاهرة ، أى وضعها بين قوسين ليكون أمامنا كل الظاهرة ولاشيء سواها و«التجريد» و«التطبيق» . وقد أقام هوسرل بناءه على فكرة مجدية حقا للوجودية أولا وهي (القصيدة) «البنية الجوهرية لكل وعي»[٤٤] والتي تعني أن الوعي وعي بشيء مايقصده ، فهي فكرة تربط ربطا وثيقا بين الذات والموضوع ، لما بينهما من (إحالة) متبادلة . هكذا نجد

---

(٤٠) د . حبيب الشاروني ، فلسفة جان بول سارتر ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، الجزء الثاني ، سبتمبر ٨١ ، ص ٤٠٣ .

(٤١) جان بول سارتر ، الوجودية فلسفة إنسانية ، ترجمة حنا دميان ، ص ١٦

(٤٢) سيمون دي بوفوار ، مغامرة الإنسان ، ترجمة جورج طرابيشي ، ص ١٧

(٤٣) جان بول سارتر ، الوجود والعدم ، ترجمة د . عبدالرحمن بدوي ، ص ٧٠٤

(٤٤) جان بول سارتر ، التخيل ، ترجمة د . نظمي لوقا ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٢ ص ١٠٦

القصيدة والإحالة يحققان وحدة الذات والموضوع التي حرصت الوجودية على البدء منها . بيد أن الفينومينولوجيا ، إحدى ذرى العقلانية ، والوجوديون الذين أخذوا بها أو منها ـ وأهمهم هيدجروسارتر وميرلوبونتى ـ قد أولوها تأويلا شديدا لتلائم أغراضهم ، حتى أن هوسرل قد انتقد استخدام تلميذه وهيدجر لأفكاره .

تقول سيمون دي بوفوار : «من المغالطة اعتبار الوجودية مذهبا يائسا . فهي أبعد ما تكون عن ذلك ، إنها لاتحكم على الإنسان ببؤس لاعلاج له» . «إن الإنسان هو سيد مصيره الوحيد المستقل ، إذا شاء فقط أن يكون كذلك . هذا ماتؤكده الوجودية . وإن هذا هو التفاؤل» . «وإذا كانت الوجودية تقلق ، فليس ذلك لأنها تؤئس الإنسان ، بل لأنها تتطلب توتراً مستمراً»[٤٥] والوجودية فعلا ـ حتى وإن كانت الحادية تشاؤمية ـ فإنها ليست البتة مؤئسة . وهي ايضا ليست بالضرورة تشاؤمية . والأمل كبير في الوجودية الدينية والمؤمنة ، وخصوصا مع جبرييل مارسيل الذي وضع كتابه (الإنسان الجوال) وجعل له ـ كعادته ـ عنوانا فرعيا ، هو (ميتافيزيقا الأمل) ، وكأنه بهذا يواصل مسار أرنتست بلوخ E.Bloch (١٨٨٥ ـ ١٩٧٧) الذي جعل (مبدأ الأمل) عنوان أهم أعماله ، محوراً لفلسفته اليوتوبية التي تجمع عناصر وجودية وماركسية وصوفية وعلمية وانثربولوجية . . . وهذا لايمنع أن الروح العامة للوجودية هي بلاشك ، رؤية سوداوية للحياة ، وإحساس بمأساويتها وكآبتها وثقلها ، وبالمعاناه الأليمه . فالوجودية في حد ذاتها وفي أية صورة من صورها ، فلسفة أزمة ، فلسفة الموقف المتأزم للإنسان دون سائر الموجودات . ليس هذا من صعوبة القرار ومسؤولية الحرية والقلق فحسب ، بل ومن مفاهيم أخرى كثيرة دارت حولها ، مثل التناهي والموت والاغتراب والهم والأثم والخطيئة الأولى في المسيحية . . . وغيرها . كلها مواقف جدية ، وأقساها التناهي ، وهو خاصية أساسية للموجود البشري . فهو محدود من ناحية بلحظة الميلاد ، والأفظع من الناحية الأخرى بلحظة الموت . حتى عرف هيدجر الإنسان (او الآنية Dasein) بأنه (وجود ـ للموت) ، من حيث أن الموت هو نهاية الحياة وقانونها المحتوم . الكائنات الحية الأخرى تنتهي أما الإنسان فهو وحده الذي يموت ، لأنه هو وحده الذي يهتم بأعلى امكانات وجوده وأخصبها ، وهي امكانية استحالته وانتهائه وموته»[٤٦] فإذا كانت الذات حقلا من الممكنات فان الموت هو أصلب هذه الممكنات ، لأنه الممكن الوحيد اليقيني ، وهو في الوقت نفسه نهاية كل الممكنات التي تجعلها جميعا غير ممكنة . لذلك كان الموت عند الوجوديين الملاحدة ـ خصوصا البيركامي ـ برهانا نهائيا على عبثية الكون والناس . وهذه العبثية لاتنفي ، بل لعلها تؤكد إعزاز الوجوديين الحميم لتجربة الحياة . وكامي نفسه يقول «إن جزعي من الموت ينال من غيرتي الشديدة على الحياة» و «وإذا كنت أرفض رفضا باتاً وعود العالم الآخر ، فالسبب في ذلك أنني لا أرغب في التخلي عن خصوبة اللحظة الماثلة ومافيها من ثراء . كما أنني لا أوثر الاعتقاد بأن الموت يؤدي إلى حياة أخرى . فالموت بالنسبة لي باب موصد»[٤٧] ، إن الموت هاهنا يعبر عن اليقين الحسي والشك الروحي . اما مع

(٤٥) سيمون دي بوفوار ، الوجودية وحكمة الشعوب ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الآداب بيروت ، سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ .

(٤٦) مارتن هيدجر ، نداء الحقيقة ، ترجمة وتقديم ودراسة) د . عبدالغفار مكاوي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ ص٣٢ ـ ٣٣ ، ٨٤ .

(٤٧) جون كروكشانك ، ألبير كامي وأدب التمرد ، ترجمة جلال العشري ، دار الوطن العربي ، بيروت ، ب . د . ص . ١٢٥٠ .

الوجوديين اللاهوتيين والمؤمنين ، فقد اكتسب الموت دورا ودلالة مختلفة . ولكنه في كل حال يزيد من حدة الهم الذي يأتي من التناقض بين كون الإنسان محدودا كواقعة ، وكونه مشدودا للمستقبل ، فهو مهموم بتحقيق امكاناته ، في بحثه الدائم عن الوجود الأصيل المحفوف بالموت .

● ● ●

لا مندوحة عن الاعتراف بأن الوجودية نزعة أرستقراطية تبغي الرقي بالإنسان فهي دائمة الترفع والتميز عن الحشد وكتلة الجماهير . ولاشك أنها اتتنا باستبصارات عميقة ونافذة عن الموجود البشري ، كانت صائبة لحد أنه قد نما علم النفس الوجودي والعلاج النفسي الوجودي كمقابل للاتجاهات السيكولوجية التعميمية ـ خصوصا السلوكية الآلية ـ بصورة تجافي الواقع . «وأحرز العلاج النفسي الوجودي نجاحا ملحوظا في علاج الأمراض اللفظية وأمراض التخاطب وخصوصا التي لاتعود إلى أسباب عضوية»[٤٨] وقد بدأ هذا الاتجاه السيكولوجي بما يسمى بالتحليل النفسي الوجودي . ويعد لودفيج بنسفانجر L.Binswanger رائده ، وكان يصف عوالم مرضاه بالاعتماد على تصورات انطولوجيا هيدجر للوجود الإنسان .

وستظل الوجودية دائما حائزة لنوط شرف في صونها لفردية الإنسان وحريته ضد أخطار قد تحيله إلى مجرد رأس في القطيع ـ بتعبير نيتشه ، أبرزها الآن نظام الدولة الشمولية ذات السلطة الجامعة ، ووسائل الإعلام الذائعة ، والضغوط التي يمارسها مجتمع الجماهير ، أو العقل الجمعي .

ولكن لكل شيء حدودا . فأي خطر يتهدد المجتمع لو أن الوجودية أخذت مأخذا حقيقيا وأصبح كل فرد يتصرف كما لو كان عالما مستقلا ؟ ببساطة لن يظل مجتمعا ، بل زحاما متنافرا . سيرد الوجوديون بأن كل وجود بشري محفوف بالمخاطر ، وكما أن هناك إمكانية خطر الفوضى بل وانعدام الأخلاق ، فثمة ايضا امكانية التقدم الأخلاقي الجذري . ربما . ولكن حتى لو افترضنا مستوى الوعي اللائق وإخلاص النية وإصابة جادة الصواب من كل فرد وهو يبدع قيمه ، فلا مندوحة عن عموميات يلتزم بها الجميع لكي تستقيم حياتهم معا . ثم لماذا يتصورون أن كل التجاء لعموميات وتجريدات جاهزة فيه مساس بالفرد ؟ الواقع أنه من وجوه كثيرة فيه إذكاء ، وسبيل إلى تجربة وجودية أفضل . أليس الوجوديون أشد من سواهم ادراكا لتناهي الموجود البشري ومحدوديته ، حياته إذن قصيرة وإمكاناته قاصرة ، لاتستوعب تقصي كل الابعاد في كل موقف وصولا إلى القرار السليم . فلماذا لايستفيد من المبادىء العمومية التي أسفرت عنها تجارب أخرى طويلة عريضة ؟ سيرد الوجوديون على الفور بأن حرية القرار أهم من سلامته . . لذا يؤخذ عليهم إعلاء التحمس للاختيار المتفرد فوق الإنصات لصوت الحكمة الرصين . إنهم ينشدون تحقيق ماأسموه بالوجود الأصيل بأي شكل كان وبأي ثمن كان ، في مغامرة أو مقامرة ليس من الصواب دائما الإقدام عليها بسهولة .

● ● ●

وبنظرة عميقة نلاحظ أن هذه المآخذ الشهيرة على الوجودية تتداح كما تتداح دوائر بلجة ماء ألقي فيه بالحجر ، فقط لو كانت لاهوتية أو حتى مؤمنة ، أى

---

(٤٨) Victor. E. Frak, Psycherapy And Existentialism, Penguin, London, 1970

حين يختار القرار الإيمان بالدين والألوهية لقهر العدم والتناهي والاثم .. ولتحقيق الوجود الأصيل ، بكل مايتضمنه هذا القرار من التزام وتعهد وولاء . وبهذا نعود إلى حيث بدأنا ، إلى الوجودية الدينية كمدخل لعالم تيليش .

وقبل الدخول إلى هذا العالم ، ينبغي أن نكون على حذر من أكذوبة تصنيفية تجعلنا ننظم الفلاسفة في صفوف أشبه بالجزر المنعزلة . ولعلها أشبه بطوابير الألعاب الرياضية ، كل صف أو طابور يحمل بطاقة معينة ، هذا مثالي .. وذاك تجريبي ... والآخر وجودي .. الخ هذا الأسلوب الاجرائي التبسيطي لو أخذناه كقاعدة جامعة مانعة ، كان ضلالة ضالة ومضللة وأبعد ماتكون عن الواقع الفلسفي الحي المتدفق المتلاقح بفعالية ، وأحيانا بعنف ، يرفض ويقبل ويطور ويصوب وينفد ويتراجع ويتقدم ..... ولايوجد فيلسوف ذو أهمية يستطيع فلسفي واحد تحديد فلسفته من رأسها حتى أخمص قدميها . وانتماء الفيلسوف لاتجاه معين أو حتى لمدرسة معينة لايعني أن كل ماسواها حرام عليه ، ولايعني أنه لزام عليه أن يطبق تعاليمها حرفيا ، فلا تفوته منها صغيرة ولا كبيرة . إن هذا ينطبق على المنتمين لأشد الاتجاهات الفلسفية إحكاما ورصانة منطقية ودقة في الأسس المنهجية ، فما بالنا بالاتجاه الذي هو على النقيض من الأحكام والرصانة والمنطقية - أي الوجودية ؟

لقد حددنا بدقة - قصارى ما استطعنا - ماهية الاتجاه الوجودي بكل أبعاده وآفاقه ، كي نكون على بينة من الحدود . ولكن ليس يعني هذا أن فلسفة الفيلسوف لا بد وأن تكون ، أو حتى يمكن أن تكون صورة طبق الأصل من هذا ، لكي يكون وجوديا .

كلا بالطبع . يكفي الاشتراك في المنطلقات المبدئية ، أو الدوران حول المحاور الأساسية .

يكفي أيضا اقتفاء خطى أعظم الرواد كيركجور أو هيدجر أو سارتر . إن الوجودية ككل تيار فلسفي رئيسي ، تنضوي تحت لوائها وتسم بميسمها مدارس فلسفية كثيرة - قام بعضها ليستقل عنها فكانت صورة معدلة أو مصغرة لها - كالشخصانية (مارتيان ، بيردياثيف) فلسفة الحياة (اوناموتو) ، فلسفة القوة والحياة أيضا (نيتشه) ، فلسفة الوجود الشخصي (جاسبت وبوبلجاكوف) ... والملامح الوجودية الواضحة تجعلهم وجوديين شاءوا أم أبوا . كل الفلاسفة الوجوديين - من ذكرناهم ومن لم نذكرهم - هم وجوديون فقط بدرجات متفاوتة ، طبعا ، أي لن يتحقق المفهوم الكامل الذي رأيناه مع أي منهم ، وإن كانت أعلى درجة تسجل لكيركجور وهيدجر وسارتر . وهيدجر هو أقدر من استطاع أن يفلسف الوجودية ، وهو أعمق روادها فكرا وأبعدهم تأثيرا . ومع هذا يرفض أن يسمي نفسه فيلسوفا وجوديا ويفضل لقب فيلسوف وجود !! .

الخلاصة أن الوجودية ، كأي اتجاه فلسفي خصيب وثري ، ليست كفيلة بتحديد فلسفة الفيلسوف ولا يوجد فيلسوف فلسفته بمفردها كفيلة بتحديدها .

اذن ليست الوجودية مصطلحا مرادفا لفلسفة تيليش المتعددة الأبعاد والمترامية الحدود . يقول تيليش موضحا موقفه - وهو قول يصلح قاعدة عامة لمناهج البحث الفلسفي : « كثيرا ما يوجه إلى السؤال : هل أنا لاهوتي وجودي ؟ وإجابتي دائما مقتضبة ، فأقول :

إنني النصف والنصف وهذا يعني أن الوجودية والماهوية بالنسبة لي ينتميان لبعضهما . ومن المستحيل أن يكون المرء ماهويا خالصا إذا كان في الموقف الانساني بصفته الشخصية ، وليس يجلس على عرش الله ، كما نفهم ضمنا من هيجل وهو ينشيء تاريخ العالم الآتي لنهايته تبعا لمبدأ في فلسفته . تلك هي الغطرسة الميتافيزيقية للماهوية الخالصة . ومن الناحية الأخرى الوجودية الخالصة مستحيلة . فكي يصف الإنسان الوجود لا بد أن يستخدم اللغة ، واللغة تتعامل مع الكليات . وباستعمال الكليات تكون اللغة بصميم طبيعتها ماهوية ، ولا يمكنها التخلص من هذا[٤٩] » .

ليست الماهوية فحسب ، إنه على الحدود بين الوجودية وسائر المقاطعات المحيطة بها . وهو دائما وأبدا على الحدود ، لا يتقوقع في قلب المقاطعة فتستغرقه ويستغرقها ، لا المقاطعة الوجودية ولا حتى المقاطعة اللاهوتية .

لكننا وجدنا الوجودية اللاهوتية والدينية المنظور الأشمل والمدخل المثالي لعالمه ، والذي يمكننا من الاحاطة به والتجول في سائر أرجائه . انه نظرا لعمق وجودية فلسفة تيليش وأصالتها من ناحية ، واتساق تفكيره وتشابك أطرافه وتلاقي عناصره من الناحية الأخرى ، فلن يجدينا كثيرا وضع الأصبع على دعاويه الوجودية . وبدلا من هذا الأسلوب المبتسر ، سنعرض لشخصية الفيلسوف ككل ، ومقومات فلسفته بعامة ، وسيكون هذا العرض المتكامل بدوره أكمل اسلوب لاستشراف نزعته الوجودية .

ثانيا : مصادر فكر تيليش .. النماء .. والثمرة

١ - حياته : وتطوره الفكري

تيليش ألماني ، ولد في العشرين من أغسطس عام ١٨٨٦ في قرية إشتار تسيدل Starzeddel بمقاطعة براندنبورج Brandenburg في بروسيا وهي الآن بألمانيا الشرقية[٥٠] . أبوه منها ، ولكن أمه من مقاطعة رينلاند وهي الآن (بألمانيا الغربية) ولعل هذا أول توتر له على قلب الحدود التي سوف تقسم ألمانيا بعد الحرب الثانية الى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية تحمل الأولى ميلاً ما للتأمل ، مرتبط بكآبة ووعي حاد بالواجب والخطيئة الشخصية ، ولا يزال بها احترام كبير للسلطة والتقاليد الإقطاعية . أما ألمانيا الغربية فتميزها الفتنة بالحياة ، وحب التعين والحركية والعقلانية والديمقراطية وهي سمات متصارعة أثرت على سياق حياته الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من أن أمه ماتت مبكرا ، وبالتالى كان تأثير أبيه هو المهيمن ، فإن أطر ميراثه من بيئته لم تعرف الترابط والإنسجام أبدا ، بل التوتر على الحدود دائما ، مما يفسر لنا رؤيته للتاريخ بأنه اختيار لخط يتجه صوب هدف ، بدلا من فكرة الكلاسيكية التي تراه دائرة مغلقة . فمضمون التاريخ في نظرة تشكله فكرة الصراع بين مبدأين متعارضين . والحقيقة ديناميكية ، نجدها في قلب الصراع أو القدر[٥١] أو على الحدود بين المبدأين المتصارعين .

وقد قضى سنوات صباه في شونفليس ، حيث كان أبوه - وهو لاهوتي محافظ وقسيس بروتستانتي كبير من رعاة الابرشية اللوثرية - يعمل في منصب ديني رفيع

(٤٩) P. Tillich, AHistory of Christian Thought: From its Judiac And Hellanistic Origins to Existentialism, P.541.

(٥٠) aul Tillich, My Search For Absolutes, Simon And schuster, New York, 1967. P.23-24

(٥١) Paul Tillich, On The Boundary, Charles Scribner,s Sons New York, 1966. P.14-15

كأسقف ومدير لكنيسة الأقليم . وشونفليس مدينة صغيرة وهادئة شرق الألب ، أنشئت في العصور الوسطى ومازالت محتفظة بشيء من طابعها ، ومحاطة بمراع خصيبة وغابات كثيفة ، مما ترك في الصبي انطباعا عميقا بالطبيعة واحساسا رومانتيكيا بعبق التاريخ . فضلا عن الارتباط بالكنيسة بوصفها حاملة المعنى المقدس في قلب الحياة الإنسانية ، « إنها المكان الذي ينبغي أن نعيش فيه الخبرة بالسر المقدس ، نعيشها برهبة وخشوع علوي »(٥٢) .

ومع هذا كان ينازعه دائما اشتياق لزيارة المدينة الكبيرة ، برلين . وكان الخط الحديدي الذي ينقله إليها هو في حد ذاته نصف أسطورة . وهذه الفتنة التي حملتها المدينة وقته خطر الرفض الرومانتيكي للحضارة التقانية ، وعلمته أن يقدر أهمية المدينة من أجل تطور الجانب النقدي للحياة العقلية والفنية . لقد ظل حتى آخر لحظة في حياته يشعر بالارتباط الأقوى بالريف والطبيعة عموما . وهذا الارتباط تنامى في ذهنه أكثر عبر رحلاته وسفرياته البحرية في عرض البحار ، وهو يرى أن مشهد البحر الصاخب المترامي الآفاق الذي يفتت دوما على الشاطىء الجامد قد ألهمه بالكثير من رموزه وأفكاره ، ومعظمها تخلق إما تحت الأشجار وأما في عرض البحار(٥٣) ومع هذا فان الريف لم يستأثر به ، وظل على الحدود بينه وبين المدينة ، أو بين الطبيعة والمدينة .

وهو على أية حال قد خرج من أعطاف حياة شونفليس الهادئة الوادعة المشبعة بزخم الدين ، حين التحق بالمدرسة الثانوية في كونجسبرج Konigsberg - موطن كانط - وتلقى تعليما علمانيا ، فواجه لأول مرة المثل الكلاسيكية لليبرالية الأوربية ، مثل حرية التفكير الخاضع فقط لمعايير العقل . وعلى الرغم من رفضه لليبرالية الاقتصادية ، فإنه يؤكد دائما ليبراليته في التفكير . لقد تلقى هذه المثل - التي عايشها أكثر في برلين حين انتقل والده للعمل هناك عام ١٩٠٠ - بحماس شديد ، لكنه لم يخل إطلاقاً من ولائه للدين وتحمسه الأعمق لحيثيات اللاهوت . فقيمة تيليش تتجلى في وقوفه على الحدود بينهما - حسب تعبيره الأثير - وجمعهما معاً ، بحيث جعلهما القطبين المتعامدين والمشكلين لهيكل تفكيره ، القطب الديني اللاهوتي الذي استقطبه في طفولته وصباه (شونفليس) والقطب الفلسفي الناسوتي الذي استقطبه في مراهقته ويفاعته (كونجسبرج وبرلين) . على أن الأول بالطبع هو الأساس والجذر والجذع . إن تيليش ينشغل بالدين وبصره شاخص إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والحرية ، والقضايا الثقافية ، أو مشاكل الحضارة المعاصرة ، ومن قبل ومن بعد بالمعضلة الوجودية للإنسان الفرد .

ويخبرنا تيليش أن (الخيال) الذي تأجج في خاطره بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة ولازمه طوال حياته ، هو الذي حال بينه وبين الوقوع في براثن « المدرسية » - بالمعنى الحرفي للكلمة . وكان الخيال وأعظم تعبيراته - أي الإبداع الفني ، له دائما تأثير كبير على أفكاره الفلسفية واللاهوتية . لقد تذوق الموسيقي منذ طفولته ، وكان أبوه يؤلفها ، ويؤكد أن الموسيقي الكنائسية شيء أكثر من ضروري لتتحقق التجربة الدينية . ولكن عشقه للفنون اتجه توا للأدب ، فله

(٥٢) Paul Tillich, The New Being Charles Scribner,s Sons, New York, 1955. P.99
(٥٣) P. Tillich, On The Boundary, P 16:18

سحر خاص وهو أكثر الفنون تضمنا للفلسفة » ويرى تيليش أن تعاطفه الغريزي مع الفلسفة الوجودية يعود من ناحية ما إلى فهم وجودي لأعمال شكسبير التي ترجمها شليجل إلى الألمانية ، خصوصا (هاملت) »[٥٤] . ولم يجد تيليش أبعادا وجودية في أعمال جوته ، لذلك لم تجذبه كثيرا . ويعد ريلكه أكثر الشعراء الألمان تأثيرا عليه ، لواقعيته المستقاه من التحليل النفسي ولثرائه الصوفي والشحنة الشاعرية المشبعة بمضمون ميتافيزيقي . على أن زوجة تيليش هي التي قادته حقيقةً إلى عالم الشعر . ولم يكن الأب يبدي اهتماما بالفنون البصرية ، فلم يلتفت إليها في طفولته وصباه ، لكن الخراب والقبح الذي خلفته الحرب العالمية الأولى جعلا فن التصوير يجتذبه . وتطور الأمر إلى دراسة منهجية لتاريخه ومعايشة عميقة لاتجاهاته الحديثة . وأثرت فيه فنون العمارة والموازيكو والفسيفساء والمعمار الكنسي .

وقد تلقى تيليش تعليمه العالي في اللاهوت والفلسفة بجامعات ماربورج ودرسدن وفرانكفوت ووجد في فلسفة شلنج F. W. Schelling (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) للطبيعة بغيته التي تتجاوب مع عشقه لها وتمنحه الاطار النظري لتفسيرها بأنها المظهر الدينامي لروح الخالق والهادف إلى إدراك الحرية المتعالية على الثنائية التناقضية القائمة بين الحرية الإنسانية والحتمية الكونية[٥٥] . والواقع أن شلنج هو الوثن الفلسفي لتيليش ، فهو يبالغ كثيرا في تقدير قيمته وتأثيره على الفكر الأوربي . وكان قد حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من برسلاو Breslau عام ١٩١١ برسالة موضوعها : (التصوف والوعي بالذنب في تطور شلنج الفلسفي Mystic und Schuldbewusstseinin in Schellings and Philosophischer Entwicklung) وبعد هذا بعام ـ ١٩١٢ ـ حصل من جامعة هال Hall على الدكتوراه وإجازة في اللاهوت فعين في نفس العام قسيسا في الكنيسة اللوثرية الانجيليكية . وعمل طوال الحرب العالمية الأولى كقسيس وواعظ في الجيب ، في قلب الجبهة[٥٦] .

وكانت الحرب هي التجربة العميقة ، التي حددت معالم تفكيره واتجاهه . فقد تركت في نفسه آثارا أليمة بما خلفته من دمار وخراب ، خصوصا في وطنه ألمانيا . وقدمت له دليلا على افلاس الحضارة الغربية* وأنها في انتظار نهاية حقبة من تاريخها . هذا لأن إيمانها بالعقل فقط جعلها حضارة علمانية معتمدة فقط على نفسها فكانت كل نواتجها التي جسدتها الحرب تشهد عليها بالخواء والتناهي والعجز عن إشباع ذاتها ، وأنها تعيش في قرنها العشرين نهاية هذه الحقبة . فبدت له الفرصة متاحة لاعادة بنائها على أساس جديد ، وهو الأساس الديني أو الثيولوجي ، لتغدو حضارة ثيونومية أي معتمدة على الدين Theonomous هذا هو المثل الأعلى المنشود الذي يحدد المهمة الايجابية للاهوت في القرن العشرين . على أن الخروج من مرحلة الاعتماد على النفس ـ والاستقلال ، لا يعني العود فوراً إلى النقيض

---

(٥٤) Ibid, P. 26–27

(٥٥) في تفصيل هذا التناقض ، وتأثيره على الفلسفة الحديثة مقدمة كتابنا : العلم والاغتراب والحرية : مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ١٩٨٧ ، ص ٧ : ٢٣

(٥٦) P.T, My Search For Absolutes,. P.33.

(*) رغم أن علماء النفس والاجتماع والانثربولوجيا يعتمدون (الثقافة) ترجمة لهذا المصطلح ، فإن (الثقافة) مازالت ترتبط في الفلسفة بأبعاد ترانسندنتالية ، لذلك فضلنا حضارة لتدل على المعنى المقصود . اما Civilization فهي مدنية وهي فعلا مشتقه من Civil اي مدينة .

المباشر ، التبعية والاعتماد على الآخر Heteronomy . وقد كان تاريخ النهضة في أوربا وبدء حضارتها الحديثة ، تاريخاً لصراع دام وبطولي للخروج منها . وتيليش بلا شك يرفض أي تبعية ، سواء دينية أو علمانية . إن ما ينشده وقوف يقظ واع على الحدود بينهما ، ومركب جدلي من تبعية العصر الوسيط واستقلالية العصر الحديث . إن التساؤل بشأنهما تساؤل بشأن المعيار النهائي للوجود الإنساني . فلا بد طبعا من الاستقلال والاعتماد على النفس ، لكن بصورة هترونومية إلى حد ما ، أي معضدة ومستفيدة ومشبعة بالبعد الثيولوجي ، أي صورة ثيونومية . (بالثيونومي يتم قهر وتجاوز التناقض بين الأوتونومي والهترونومي)(٥٧) . وقد مثلت فكرة الثيونومي محكا نهائيا يوجه فلسفة تيليش ويحدد تقييمه للفلسفات الأخرى . والفلسفة التي يعجب بها ويستفيد منها ، يعتبرها ثيونومية ، حتى ولو كانت إلحادية كفلسفات نيتيشه وهيدجر !! .

ولم يبدأ تيليش عمله الأكاديمي إلا بعد انتهاء الحرب ، وفي جامعة برلين ، حيث حاضر فيها بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٤ في تطور لاهوت الحضارة ، معنيا بعلاقة الدين بالسياسة والفن والأدب والفلسفة وعلم نفس الأعماق والاجتماع ، وكانت محاضراته هذه باكورة مشروعه الثيونومي وجعل الدين مركزاً تتصل به كل مجالات الحضارة .(٥٨) وحاضر أيضا في جامعتي درسدن ولايبسج . وفي عام ١٩٢٥ انتقل لتدريس اللاهوت في جامعة ماربورج ، حيث زامل هيدجر وبولتمان . وبدأ في عمله الضخم « اللاهوت النسقي » ولم يظهر الجزء الأول منه إلا عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٢٩ قبل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة فرانكفورت ، وهي من أكثر جامعات ألمانيا حداثة وليبرالية ، وليس بها كلية للاهوت ، فحاول أن يتخذ من هذا فرصة لكي ينجز للفلسفة إنجازه للاهوت .

شارك بحماس أثناء تدريسه الجامعي في مناقشات نظامية كانت تدور من أجل فهم جديد للموقف الإنساني ، فكتب ونشر فيما بين عامي ١٩١٩ و١٩٣٣ أكثر من مائة مقالة ودراسة حول هذا ، مؤكدا أن الفهم الجديد للموقف الإنساني ، لا مندوحة له عن أن يكون دينيا ثيولوجيا ، لتغدو الحضارة ثيونومية . إنها المنطلق لمجمل فكر تيليش . وإذا كان المعتمد أكاديميا أن هذا المنطلق هو (اللاهوت الحضاري) فإننا نرى المصطلحين اسمان لمسمى واحد هو علاقة تبادلية حميمة بين اللاهوت والوحي المنزل وبين الحضارة الإنسانية . لو نظرنا إلى هذه العلاقة من ناحية اللاهوت لكان المشروع هو « اللاهوت الحضاري » ، ولو نظرنا من ناحية الحضارة لكان المشروع هو « الحضارة الثيونومية » . وفي استيفائه لها ، لم يهتم فقط بالمجالات الفعلية للحضارة كالفن والفلسفة والسياسة . . . الخ ، بل اهتم أيضا بالابعاد المعيارية ـ أي الاخلاق . فوضع تقابلا بين أخلاق الحضارة العلمانية فقط ، أي الاوتونومية ، وبين أخلاق الحضارة الثيونومية ، مؤداه أن الأولى مشروطة وهي أخلاقيات السلطة والقانون والعدالة ، أما الثانية فغير مشروطة وهي أخلاقيات المغامرة واللطف الألهي والحب(٥٩) .

---

(٥٧) Pual Tillich, Systematic Theology, Vol. I, University of Chicago Press, 1951. P.147.
(٥٨) Paul Tillich, My Search For Absolutes, P. 41-44
(٥٩) P.Tillich, Theology of Culture, P.P 127. 145.

وقد أردف هذا بمناقشة (التربية) في ضوء هذا الهدف ـ الحضارة الثيونومية .

● ● ●

ومن الناحية الأخرى للحدود ، نجد أن تيليش ينتمي للبرجوازية الرفيعة ، وقد أتاحت له مهنة والده ـ بوصفه الراعي الديني الكبير ـ أن يقيم علاقات شخصية وثيقة مع البرجوازية الرفيعة جدا ـ بقايا الارستقراطية . ومع هذا نلقاه يتعاطف بشدة وإيجابية مع اليسار ، مهتديا في هذا بأقوال المسيح ضد الظلم الاجتماعي وضد الأغنياء . وانضم عام ١٩١٨ للحركة الاشتراكية ، وكان مناصرا للحزب الاشتراكي الديمقراطي . وتيليش شديد الاعجاب بماركس ، ينسب إليه آيات من التفلسف بدءاً من العملية الصارمة ، وانتهاءً بالعنصر النبوئي وطابع الرسالة في فلسفته ، ومروراً « بالوجودية » السياسية !! مدعيا ـ مثلا ـ أن مفهوم الصدق عنده هو نفسه عند كيركجور ، الصدق بالنسبة للوجود الإنساني ، وما يخص موقف حياتنا ويقهر الاغتراب[٦٠] ولكن لم يكن أبدا ماركسياً أو شيوعياً .

وفي عام ١٩٢٠ تحددت هويته تماماً بالاشتراكية الدينية Religious Socialism وكان دائما من أبرز وأنشط أعضائها ، وذلك على أساس ما تقدم من خطوط عامة في فكره . فالمجتمع المعاصر فقد تكامله وخسر جوهر وجوده ، وجعله طغيان الماديات في خواء ، وفي مسيس الحاجة إلى نوع من الخلاص . وهذا الخلاص يستلزم من ناحية قيم العدالة الاجتماعية والتقارب الطبقي وعدالة توزيع الثروة في المجتمع ـ أي الاشتراكية ـ ويستلزم من الناحية الأخرى ـ أو الجهة الأخرى للحدود ـ الدين ذا التجربة الروحية والأبعاد الوجودية العميقة . لذلك لا يتم المنشود إلا بواسطة إحلال الاشتراكية الدينية محل الثقافة البرجوازية . إنها تستهدف إصلاح المجتمع بحيث يصبح الدين روحه ، فيمكن أن تصبح الحضارة ثيومونية . يقول تيليش : (الاشتراكية الدينية ينبغي أن تفهم بوصفها حركة صوب الثيونومي الجديد . فهي أكثر من مجرد نسق اقتصادي حديث . إنها فهم شامل للوجود ، صورة للثيونومي المطلوب والمتوقع الآن)[٦١] إنها تبدو الحل الذي يفرض نفسه . فتيليش يرفض فكرة اليوتوبيا ، ويرى أن مملكة الله لا تتحقق أبدا في المكان والزمان فطالما يوجد إنسان على ظهر الأرض سيوجد دائما الخير والشر والصواب والخطأ ، مملكة الله أو مدينة الله فكرة متعالية تراتسندنتالية يمكن فقط أن تمثل معيارا للحكم على المجتمعات . أما الاشتراكية الدينية فهي البديل الواقعي والسليم .

وقد كانت حركة الاشتراكية الدينية منتشرة في أوربا ، وقوية في ألمانيا وكانت تصدر جريدة « أوراق من أجل اشتراكية دينية » Blatter Fur Religiosen Socializmus » فانضم إليها الشاب المتحمس باول تيليش ، وشارك بمقالات في هذه الجريدة ، ولكنه بدأ يستشعر روح الوهن والشيخوخة والدوجماطيقية فيها ، فانفصل مع جمع من زملائه الشباب في حركة تروم أن تبث في اللاهوت الصارم للاشتراكية الدينية الألمانية حياة وعزما أنضر وقدرة على مواجهة متغيرات الفكر والواقع ، وأصدر مع زملائه مجلة « أوراق جديدة

---

(٦٠) P. Tillich, A History of Christian Thought, p. 484-485.
(٦١) P. Tillich, On The Boundary, P.81.

للاشتراكية Neue Blatter Fur Socializmus » تهدف إلى إعادة قولبتها على أساس منظور ديني وفلسفي حديث . وهو شخصيا لم ينشغل بغير المسائل النظرية ، ولكن المجلة بتأثير زملائه تصدت للمشاكل العملية والواقع السياسي الجاري[٦٢] .

وفي هذه الدعوى نجد الدين يساند الاشتراكية ، بقدر ما نجد الاشتراكية تسانده . وتذهب هذه الدعوى إلى أن الرب ذو علاقة ، لا بالفرد وحياته الداخلية فحسب ، أو بالكنيسة بوصفها كيانا اجتماعيا فقط وانما الرب ذو علاقة بالكون بما في ذلك الطبيعة والتاريخ والشخصية . ومن هنا يؤكد تيليش أن الكنيسة سوف تفشل في أداء مهمتها إن صاغت رسالتها بصورة مطلقة وبغير أن تضع الصراع الطبقي في اعتبارها ، وأن الاشتراكية الدينية هي فقط التي تستطيع أن تحمل رسالة الكنيسة إلى كتل البروليتاريا التي لم تعد تدخلها اللهم إلا للتعميد والزواج والجنازات . لذلك فالاشتراكية الدينية ، وليست الرسالة الداخلية ، هي الشكل الضروري للنشاط المسيحي بين الطبقات العاملة . على هذا المحور انصبت جهود تيليش لجلو الصدأ عن المبادىء البروتستانتية الأصلية وإعادة صياغتها لتواصل قدرتها على الاستمرار وعلى أداء دورها . ولم تكن مهمته سهلة ، لأن البروتستانتية اللوثرية كانت من الأصول المكينة التي ارتكزت عليها نشأة الليبرالية والرأسمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فضلا عن أن الاشتراكيين يخشون من تأثير الكنيسة على تثبيط الهمم النازعة إلى تحقيق الحكومة الاشتراكية . والكنيسة بدورها تخشى على رموزها المقدسة من مد الفكر الاشتراكي ، فتقف في وجهه وتبدو مضادة أكثر للنزعة الإنسانية . وتجاهر طبقة الصفوة باعجابها بالكنيسة لوقوفها في وجه الوثنية القومية ، فيقوى موقف الكنيسة النائي عن مطالب الطبقة العاملة وهي الكثرة الغالبة . ولنا أن نتذكر القول المأثور عن الاشتراكيين والشيوعيين الملاحدة من أن الله اختار الوقوف في صف الأغنياء وعلى الفقراء البحث عن إله آخر . وعلى هذا تبدو جهود تيليش مسألة ملحة ، وهي تتبلور في مقاله « المبدأ البروتستانتي والموقف البروليتاري »[٦٣] حيث يعالج هذه الاشكالية معالجة هامة بالنسبة للاهوت وللاشتراكية وللفلسفة الوجودية على السواء .

والتقابل معروف بين الاشتراكية بنزعتها الشمولية التي تجعل الفرد يضيع في غمار الطبقة ، وبين الوجودية بنزعتها الفردية ، ولكن تيليش فيلسوف على الحدود ، فيقول « علينا ألا نخلط لغز اللامساواة ، مع واقعة أن كل فرد منا ذات فريدة لا تقارن . كوننا ذواتا ينتمي بالقطع لكرامتنا كبشر ، هذه الكينونة منحت لنا ، ولا بد أن نعملها ونكثفها ، ولا نجعلها تغرق في المستنقع الآسن الذي يهددنا كثيرا هذه الأيام . لا بد وأن يزود المرء عن كل فردانية ، وعن تفرد كل ذات إنسانية ، ولكن لا ينبغي أن ينخدع باعتقاده أن هذا هو حل لغز اللامساواة . ولسوء الحظ ثمت الرجعيون الذين يروجون لهذا الخلط كي يبرروا الظلم الاجتماعي »[٦٤] . وتمثل الاشتراكية الخلاص الوحيد من الظلم الاجتماعي ، الخلاص المتكامل المتوازن ، لأنها دينية ـ صوب الثيونومي . آمن تيليش بأنه بعد

(٦٢) Ibid, P.42.
(٦٣) P. Tillich, The Protestant Era, University of Chicago Press, trans. by. J.L Adams, 1948. Pp. 161: 181
(٦٤) P. Tillich, The Eternal Now, Charles Scribner's Sons, New York 1963. P.41–42

الوحي السماوي لا يوجد ما هو أسمى وأعظم من الاشتراكية الدينية وكان على يقين دائما من أن اللحظة التاريخية لتحقيقها قد أتت . ولم يفقد أبداً إيمانه بها على الرغم من أنها لم تتحقق ولم تأت لحظتها التاريخية . بل أتت النازية إلى مقاعد الحكم في ألمانيا .(٦٥)

وإيمان تيليش بالحرية جعله يجاهر بنقد قاس وعنيف لهتلر ، وبعدائه للنازية ، فأبعد عن العمل في الجامعات ليكون أول أكاديمي غير يهودي تستبعده النازية من العمل في الجامعة . وفي صيف عام ١٩٣٣ تصادف ان كان بألمانيا راينهولدنيبور الألماني المهاجر إلى أمريكا ، الذي قام بترجمة بعض أعمال تيليش المبكرة من الألمانية إلى الانجليزية . وهو يتفق معه في الاشتراكية الدينية ويختلف في اللاهوت الحضاري . التقى نيبور بتيليش وأتاح له فرصة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ففعل . « وسفره لأمريكا وثق علاقته بحركة علم نفس الأعماق Depth – Psychology التي اهتم بها من منطلق اهتمامه بالعلاقة بين الدين والتحليل والعلاج النفسي »(٦٦) والملاحظ أن تيليش كان سعيداً جداً بالتحليل النفسي مع فرويد وخلفائه وانه اهتم اهتماما بالغا به وعول عليه تعويلاً كبيراً ، وبغير أدنى إشارة إلى الاتجاهات السيكولوجية العلمية حقيقة . لكن يمكن القول بصفة عامة ان ثقافة تيليش العلمية ضحلة جدا ، فهو غير ملم بالتطورات العلمية ، لا في الرياضيات ولا العلوم الطبيعية ولا الإنسانية وان مكان الدين والعلم مجالان لا يلتقيان الآن في أي فكر فلسفي وهما منفصلان تماما ، منهجيا وموضوعا وغاية ، فلايدينه هذا كثيرا . المهم أن تيليش على الرغم من ميوله اليسارية ، تلقى دعوة للعمل كأستاذ للاهوت وفلسفة الدين في المعهد اللاهوتي الاتحادي بنيويورك ، وظل بهذا المعهد حتى عام ١٩٥٥ . ثم تقلد الأستاذية بجامعة هارفارد العريقة (من ١٩٥٥ حتى ١٩٦٢) ، ثم جامعة شيكاغو منذ عام ١٩٦٢ وحتى وفاته في الثاني والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٥ ، عن تسعة وسبعين عاما . وقد ظل محتفظا بنشاطه وقدرته على العمل والانجاز ، وتأثيره على الأوساط الثقافية حتى آخر لحظة في حياته . . والمحصلة رصيد ضخم من الأعمال اللاهوتية/ الفلسفية .

ب ـ تحديث اللاهوت : ـ

يمكن اعتبار فكر تيليش بأسره نتيجة لازمة عن مقدمتين ، الأولى أنه « لا يمكننا البتة الدخول في نظرة كُتّاب الانجيل الذين يقع بيننا وبينهم قرابة ألفي عام من الفكر »(٦٧) أما المقدمة الثانية فقد وقفنا عليها ، وخلاصتها أن اللاهوت يقدم العلاج الناجح لأمراض الحضارة المعاصرة وترديياتها وعجزها عن اشباع الإنسان . فاذا كانت التناقضات الآتية من كون الانسان موجودا متناهيا تطرح على العقل أسئلة ، يقوم الوحي بالإجابة عنها بحيث يمثل خلاص الإنسان من تناهي عقله ، فان العقائد المسيحية ليست مجرد إجابة عن تساؤلات نظرية ، بل هي حلول مثلى للمشاكل العملية ، أي أن الدين من أجل الحضارة : وهكذا تقوم فلسفته على تبرير المسيحية وإثباتها بمقولات

(٦٥) W.Nicolas, Systematic And Philosophical Theology, P.247.

(٦٦) P.Tillich, My Search For Absolutes, P.49.

(*) ولابد وان أزجي شكري لأستاذي الجليل الدكتور حسن حنفي . فبفضل مكتبة سيادته استطعت التوصل إلى ماعز علي الحصول عليه من كتب تيليش ، حتى اكتملت لي كل أعماله ، فاستطعت إخراج هذا البحث الذي يحاول أن يحيط بفلسفته .

(٦٧) John Macqurrie, An Existentialist Theology, op cit. cit, P.14

الحضارة ، ومن منطلق احتياجاتها ومن منظور مشاكلها . إنه يقف على الحدود بين العقيدة المسيحية وبين الحضارة العلمانية المعاصرة ، معلنا أن هدفه إقامة الجسور بينها ، كي تصب التقاليد المسيحية الروحية الخصبية الدافئة في قلب الحضارة المعاصرة ، لتصبح مقدسة ، وعساها أن تزدهر بعد أن شابها اصفرار .

وقد لاحظ تيليش أن قوة الإتجاه العلماني تكمن في ممارسته المستمرة للنقد الذاتي ، وبالتالي قدرته الداخلية على التصحيح والتصويب الدائم ، فرام أن تكتسب بعضا من هذه القدرة . ومن هنا دأب على تصويب النقد لأخطاء الكنيسة ، ولا يفوته أن يقول : « انه على الرغم من أنني أوجه النقد كثيرا لمبادىء الكنيسة وممارساتها ، فإنها ظلت دائما موطني »[٦٨] لقد نشأ في أعطافها وهو ، بلا شك ، يهيم بها عشقا بالقلب وبالعقل والنفس وبالروح ، ومع هذا عرف كيف حقف على الحدود بينها ووبين المجتمع بعلمانيته . وهو يعترف « بأن المسيحية استغلت انجازات العلمانية حيثما وجدتها ، سواء في مصر أو اليونان أو روما لكي[٦٩] تبني نفسها . فلايني أبدا عن محاولاته لاستدراج العلمانيين إلى داخل الكنيسة ، كي يكون العالم العلماني أفضل وأخصب ـ ثيونوميا[٧٠] ، ولكن يسلم بتقسيم الأراضي بين العلمانية والكنيسة . فيعترف للعلمانية بانجازاتها العظيمة وإضافاتها الفذة في العلم والتقنية والمناهج والمذاهب الفلسفية ، والفن والسياسة والفكر الاجتماعي . . . الخ ولكنه بالمثل يطالب العلمانيين باحترام الرموز الدينية والاعتراف بقدرات اللاهوت الوجودية والنفسية الفائقة ، التي تتمكن من تحقيق أبعاد حضارية أصبحت ملحة في عصرنا هذا ، وبات واضحا استحالة تحقيقها بغير الالتجاء لآفاق الابداعية . . آفاق الألوهية والايمان الديني .

هكذا يفلسف تيليش للاهوت ، وعيونه مفتوحة على الواقع المعاصر ، على الإنسان والحضارة والبناء الثقافي بصميم المشاكل المميزة للقرن العشرين ، مما أدى إلى راديكالية ـ تجديد جذري في مفاهيمه اللاهوتية والميتافيزيقية . . فكان حقا معاصرا وليس كدأب اللاهوتيين مجرد مواصل لميراث السابقين .

والحق ان تحديث اللاهوت ـ وخصوصا مفهوم الألوهية ـ بلغ مع تيليش مبلغا من الجرأة قد لا تورثه إلا النزعة الوجودية ، ولكنها على أية حال جرأة محسوبة وبعناية بالغة تذكرنا دائما بقسيس محترف ، ورجل دين متعمق لا يستمد الجرأة إلا من رغبة عارمة في أن يفجر الحياة في اللاهوت ، ويفجر اللاهوت في الحياة . واذا كان يبرر جرأته ويحسب حدودها على أسس وجودية ، فإنها تبريرات وحسابات تلقي بنا في قلب مستقبل أفضل للاهوت ، بأن يغدو لاهوتا حضاريا ، وبالتالي أقدر على البقاء ، وللحضارة بأن تغدو حضارة لاهوتية ، ثيونومية وبالتالي أقدر على الاستمرار .

أما عن الأسس الوجودية لتحديث اللاهوت فتتلخص فيما وهبه الله للإنسان من قوة النسيان وقوة التذكر ، انهما ملكتا التعامل مع الماضي . النسيان من أجل تجاوز ما ينبغي تجاوزه ، والتذكر من أجل الاحتفاظ بما ينبغي الاحتفاظ به . ولنتعلم من حكمة

(٦٨) P.Tillich, On The Boundary, P.58.

(٦٩) P.Tillich, Christianity,And The Encounter of the World Religious, Columbia University Press, New York, 1964. P.47.

(٧٠) P.Tillich, The Protestant Era, P.55 FF

الله وبديع صنعه وننظر في نمو النبات والحيوان ، لنرى المراحل السابقة التي يمر بها تنتهي ويتم تجاوزها ، لكي تفسح الطريق للمستقبل الآتي ، فالحياة ناضرة متجددة دوما من حيث هي حياة . ولكن طبعا ليس الماضي بأسره يروح في الماضي ، بل يبقى منه دائما شيء ما في الحاضر يمثل أساس قوة النماء في اتجاه المستقبل . تلك سمة عامة للحياة تنطبق على الإنسان مثلما تنطبق على كل كائن حي آخر ، لكن الإنسان فقط هو الذي يدرك هذا ، ويدرك أنه يملك قوة النسيان وقوة التذكر[٧١] . وتعلو النبرة الوجودية ، حتى نجد تيليش يعلي من قيمة النسيان الذي يحرر الإنسان من ماضيه فيجعله مشدودا أكثر نحو المستقبل والموقف الآتي ، مصدقا على أن قوة شخصيته الفرد تعتمد على كم الأشياء التي يستطيع إلقاءها في الماضي ، بحيث تفقد تأثيرها على الحاضر . ما حدث قد حدث ولا يمكن تغييره ، لكن الدين يمنحنا القوة على تغيير معناه وقيمته حين يفتح أمامنا طريق التوبة الكفيل بإبراء أمراض يعجز الطب النفسي عن إبرائها . التوبة الحقيقية القوية ليست الوقوع في براثن الندم والجزع على ما ارتكبنا من أخطاء ، بل هي الانفصال التام عن الخطأ ، وإلقاؤه بمجمل عناصره في غياهب النسيان . والتوبة يوازيها أصل من اصول الدين هو (الغفران) ، « الذي يعني الموافقة الإلهية على إلقاء القديم في قلب الماضي ، لأن ثمة جديداً آت . الغفران اذن مقدمة شرطية وضرورية لتحقيق الوجود الجديد ، هدف الديانة المسيحية الأخير»[٧٢] وكل ما يصدق على الفرد يصدق على الأمة .

إن النسيان قوة مجدية لأقصى الحدود ، ولا خوف منه البتة ، لأنه لا شيء أبديٌ سرمدي أو إلهي مقدس يمكن أن ينسى . فلا ينسى إلا ما هو خاو ووقتي زائل . باختصار لا ينسى الا ما هو خليق بالنسيان . يقول تيليش إن الحياة لا يمكن أن تستمر بغير إلقاء الماضي في قلب الماضي ، وتحرير الحاضر من عبئه . وبغير هذه القوة يمكن أن تغدو الحياة بغير مستقبل ، سوف يستعبدها الماضي . ويستشهد بأنه كانت هناك أمم عاجزة عن أن تلقي بأي شيء من ميراثها في قلب الماضي ، وبهذا حرمت نفسها من النماء طالما أن ثقل ماضيها يسحق حاضرها ويوردها موارد الإنطفاء والانقراض . وفي بعض الأحيان قد نسأل عما إذا كان هذا هو حال المسيحية ، والأديان الأخرى . أليست ترتبط كثيرا بماضيها ولا تترك منه إلا ما ندر؟ يجيب تيليش بأن نسيان الماضي فعلا أصعب بالنسبة للدين . لكن الله ليس فقط البداية التي أتينا منها . انه سبحانه ، وهبنا النهاية التي سنؤوب إليها . إنه الأول والآخر ، المبدىء والمعيد ، خالق الماضي القديم ، وأيضا المحدث الجديد . وهبنا الوجود الحاضر الذي يرتكز على الماضي ولكنه مشدود للمستقبل . ووهب الإنسان نعمة النسيان ، والكنيسة التي تتنكر لهذه النعمة ، تقع في مهاوي الإغراء التي وقعت فيها الكنائس السابقة ، أي تجعل من نفسها إلها سرمدياً . إن الإنسان لا ينسي اسمه وهويته ، كذلك الكنيسة ليس مطلوبا منها أن تنسى أسسها . ولكنها إذا كانت عاجزة عن أن تخلف وراءها الكثير مما تم بناؤه على هذه الأسس ، فسوف تفقد مستقبلها .[٧٣]

---

(٧١) P.Tillich, The Eternal Now, P. 27-28.

(٧٢) P.Tillich, The Shaking of the Foundations, Charles Scribner's Sons, New York, 1966. P.184.

(٧٣) P.Tillich, The Eternal Now, P. 28-29.

ومن حديث تيليش هذا ، نلاحظ أنه ينطبق على كل الأديان بقدر ما ينطبق على المسيحية ، فضلا عن البروتستانتية ، ويغدو واضحا أن غايته من كل تحديث هي ضمان المستقبل الآتي للكنيسة وللدين ، ومن الجهة الأخرى لفلسفته أو للحدود ، ضمان المستقبل الآتي للحضارة ، وإن تيليش مشدود صوب المستقبل مبرأ من خطر التدله بالماضي والوقوع في براثنه ، وهو خطر كان رجال الدين واللاهوت في طليعة ضحاياه . وأحسب أن اللاهوت الليبرالي الحضاري البروتستانتي هو الذي كفل له هذه الحماية وجعله على وعي بالعلاقة التي ينبغي أن تكون بين الدين وبين المتغيرات الحضارية . يقول تيليش إن مشكلته اللاهوتية الأساسية تأتت من تطبيق العلاقة بالمطلق المتضمن للألوهية ، على نسبية الديانة الإنسانية ، لأن الدوجماطيقية الدينية نشأت حين ارتدى الدين التاريخي عباءة الصحة غير المشروطة للمقدس ، كما يحدث حينما يطالب كتاب أو شخص أو جماعة أو مؤسسة أو مبدأ . . بالسلطة المطلقة وباخضاع كل واقع آخر لأنه لا يمكن أن يوجد مطلب آخر بجوار المطلب غير المشروط للمقدس . ولكن كون جذور هذا المطلب في الواقع التاريخي ، يجعل هذا هو أصل كل تبعية (هترونومي Heteronomy) [٧٤] أي كل انقياد خاطىء ومرفوض أدت إليه الكاثوليكية ، وقامت البروتستانتية أصلا لترفضه .

والحق أن تيليش ليس فريدا في هذا الصدد . إنه يندرج مع بولتمان ونيبور وبونهوفر وسواهم من اللاهوتيين البروتستانتيين المعاصرين في زمرة واحدة ، على الرغم من الخلافات الشديدة بينهم . انها زمرة الباحثين عن مفهوم جديد للألوهية والوحي والعقيدة . وبصفة أكثر عمومية ، يلاحظ جون ماكوري في مسحه للفكر الديني الغربي للقرن العشرين ، أنه على الرغم من التعدد الضخم في تياراته وتضاربها وأحيانا تناقضها ، فإن سمته المميزة هي الرغبة في التحديث والتغيير والانقلاب أو على الأقل الافتراق عن القديم ، نظرا لأنه قرن تغير فيه كل شيء تقريبا ، ولا مندوحة عن الاعتراف بأن تغيرات الفكر الديني كانت بدورها جذرية حقا .[٧٥] ومع هذا فإن أحدا لم يبذل مثل ما بذله تيليش من أجل تحديث اللاهوت والتعبير عن العقيدة المسيحية تعبيرا جديدا مصوغاً وفقا لتقاليد ومصطلحات الفكر الغربي الحديث ، بحيث يحافظ على جوهر الديانة المسيحية الفريد ،[٧٦] وفي الوقت نفسه يجعلها معقولة وملائمة تماما لإنسان هذا العصر ولأزمته الراهنة .

إن تيليش لاهوتي أولا وفيلسوف ثانيا . وكان فيلسوفا دينيا يتفلسف من الداخل أي من قلب التجربة الدينية ، أكثر منه فيلسوفا للدين ينظر إليه من الخارج . « ومنذ البداية وعلم التعليل اللاهوتي للمسيح Christology مركز تفكير تيليش » وإذا كان هو نفسه يقول إنه دائما على الحدود بين اللاهوت والفلسفة ، ومنذ أن كان في المرحلة الثانوية وهو يحلم بأن يكون فيلسوفا ، فإننا نرى أن رغبته في تحديث اللاهوت ، ولاشيء سواها ، هي التي دفعته إلى الإيغال في رحاب الفلسفة .

(٧٤) P.Tillich, On The Boundary, P.40.
(٧٥) J.Macqurrie, 20 th Century Religious Thought, P.19.
(٧٦) W.Nicolas, Systematic And Philosophical Theology, P.233. (79) Ibid, P.240

وقد أعلن صراحة أن مهمته الأساسية هي توضيح العقيدة المسيحية توضيحا منهجيا نسقيا بواسطة التحليل الفلسفي ، وإخضاع المفاهيم اللاهوتية للمنظور الفلسفي . فلما فعل هذا في كتابه التخصصي « اللاهوت النسقي » ثار في وجهه اللاهوتيون المحترفون بحجة شائعة ومستهلكة مؤداها أن اللاهوت أبسط وأصفى وأنقى من الفلسفة التي يريدها أن توضحه . ولكن أين هو اللاهوتي العميق ذو الفكر الجديد بالاعتبار اللافت للانتباه ، والذي لم يستفد من الفلسفة ؟!

وتيليش نفسه يؤكد أن المحاولات الشائعة للتخلص من الفلسفة ورفضها جملة وتفصيلا ، سواء من قبل الطب أو من قبل اللاهوت ـ وكلاهما إبراء وشفاء ـ كلها محاولات يبدو جليا أنها غير ناجحة سواء أدركت هذا أم لم تدرك [٧٨] ويقول : « ثمة ضلال عميق في الاتهام الموجه ضد استخدام البحوث التاريخية والفكر الفلسفي في اللاهوت . إن المرء في الحياة اليومية ينعت بالضلال حين يقذف ويشهر بأولئك الذين يستفيد من خدماتهم . ولا ينبغي أن نرتكب مثل هذا الضلال في أعمالنا اللاهوتية . ولا بد من القول : لنستخدم القليل (من الفكر الفلسفي) ولكن لانستخدم الكثير ، وهذا لكي نهرب من الخطر المتضمن فيه » [٧٩] ويستشهد بقول القديس بولس إن كل العالم ملك لنا لتجربتنا الدينية ، لأنه ملك لله « ولكننا نخاف أن نقبل ماهو ممنوح لنا إننا في عزل ـ ذاتي قهري بإزاء عالمنا ، ونحاول الهروب من الحياة بدلا من أن نتحكم فيها .

ولسنا نتصرف كما لو كان العالم كله ملكا لنا . الكنيسة ذاتها ليست أقل في هذا والسبب أننا نحن وكنائسنا لانعرف كما عرف بولس معنى : أن نكون للمسيح ولأننا للمسيح فنحن نكون لله » [٨٠]

والحق أن وهج الحيوية الذي استطاع تيليش تفجيره في التجربة الدينية وتحديثها ، عن طريق الاستعانة بالفكر الفلسفي على العموم والوجودي على الخصوص ، لهو أعظم مصداق على قوله هذا ، أو على موقفه اللاهوتي / الفلسفي ، والذي يصر على أنه تعبير عن اللاهوت بما هو لاهوت ، حيث يستحيل أن يتجرد من الفلسفة .

ثالثا : فلسفة تيليش : اللاهوت والوجودية

١ ـ اللاهوت والفلسفة :

يقول تيليش : « وقفت بحذر على الحدود بين اللاهوت والفلسفة ، ومعنياً بالايضيع أحدهما في الآخر » و « بوصفي لاهوتيا حاولت أن أبقى فيلسوفا ، والعكس بالعكس . ربما كان أيسر أن أهجر الحدود بينهما ، واختار أحدهما أو الآخر . داخليا ، كان ذلك هو المستحيل بالنسبة لي . ولحسن الحظ كانت الظروف الخارجية مواتية لميولي الداخلية » [٨١] فقط أتيحت له ـ كما رأينا ـ الفرصة النظامية لدراسة وتدريس اللاهوت والفلسفة معا ، وأن يصول ويجول في كليهما والمحصلة انه بز اللاهوتيين بتملكه لناصية الفلسفة ، وبزّ الفلاسفة بتملكه لناصية اللاهوت .

---

(٧٨) P.Tillich, The Courage To Be, P.72.

(٧٩) P.Tillich, The New Being, P.111.

(٨٠) Ibid, P.113.

(٨١) P.Tillich, On The Boundary, P.52-58.

وثمرة هذا نلمسها منذ البداية في عمله المبكر (بالألمانية) (نسق العلوم تبعا لموضوعاتها ومناهجها) ١٩٢٣. لقد كان الهدف النهائي من هذا العمل هو تقديم الإجابة عن التساؤلات الآتية: كيف يمكن للاهوت أن يكون علما بمعنى (علم Wissenschaft) وكيف تتصل أنساقه العديدة بالعلوم الأخرى؟ ماهو الشيء المميز بشأن منهجه؟ وقد أجاب بأن صنف كل الأنساق المنهجية بوصفها علوما للتفكير، وللوجود، وللحضارة، وتمسك بأن أساس نسق العلوم ككل هو فلسفة المعنى. وعرف الميتافيزيقيا بأنها محاولة التعبير عن غير المشروط أو المطلق في حدود الرموز العقلية وعرف اللاهوت بأنه الميتافيزيقا الثيونومية. وبهذه الطريقة حاول أن يكسب للاهوت مكانا في قلب كلية المعرفة الإنسانية. ونجاح هذا التحليل يفترض مقدما أن الخاصة الثيونومية للمعرفة ذاتها لابد من الاعتراف بها، أي ان جذور التفكير كائنة في المطلق بوصفه أساس ولُجّة المعنى. ويغدو موضوع اللاهوت افتراضات مسبقة لكل معرفة (والمعرفة هنا بالمعنى الفلسفي، أما المعرفة بمعنى العلوم الرياضية والتجريبية فلا ترد على بال تيليش). وهكذا نجد أن اللاهوت والفلسفة، أو الدين والمعرفة، يتضمن كل منها الأخر. وبالوقوف على الحدود بينها، نتبين أن تلك هي العلاقة الحقيقة بينها. [٨٢]

●●●

وكل نبضة من نبضات فكر تيليش تؤكد أن اللاهوت والفلسفة متآزران. إنهما يقفان في مربع واحد وجبهة ثقافية حضارية واحدة، ومسلحان بسلاح مشترك أو أداة واحدة.

المربع الواحد يعني أن الموضوع واحد هو الحقيقة Realily والوجود Being على أن الفلسفة هي التناول المعرفي للحقيقة، حيث تكون موضوعا مفارقاً للذات. أما اللاهوت فيثير نفس المشاكل التي تثيرها الفلسفة بشأن الحقيقة، لكن بأسلوب يجعلنا نعايش هذه المشاكل بوصفها متضمنه فينا ونابعة منا، لا منفصلة عنا مفارقة لنا كما تطرحها الفلسفة. الفلسفة تبحث في بنية الوجود أما اللاهوت فمعنيٌ بمعنى الوجود بالنسبة للإنسان واهتمامه القصي. وعلى الرغم من هذا القدح المعلّ للاهوت ـ خصوصا من الزاوية الوجودية، فإن المبحثين متداخلان. الفيلسوف يهتم بمعنى الوجود، واللاهوتي يبدأ ببنية الوجود [٨٣].

اللاهوت والفلسفة ايضا رفيقا سلاح، أو أن أداتهما واحدة هي العقل الانطولوجي. ذلك أن تيليش يحلل العقل في حدود نمطين متقابلين له، هما العقل الأنطولوجي الذي نستخدمه في التحليلات الميتافيزيقية، والعقل التقني الذي نستخدمه في حل المشاكل العملية. [٨٤] وفي عصرنا الذي يتسم بالاستقلال يحتل العقل التقني قصب السبق، فأصبح الاهتمام فقط بالوسائل المؤدية إلى الأهداف الجزئية، وأهمل العقل الأنطولوجي. أهملت بنية العقل التي تمكننا من استكناه الحقيقة ومن تشكيلها ولأن العقل

---

(٨٢) Ibid, P.55-56

(*) المصطلحات المبكرة المأخوذة من أعمال تيليش قبل عام ١٩٢٣ سوف نضعها في صور الألمانية أما بعد هذا ـ أي بعد هجرته لأمريكا، فسنضعها بالانجليزية، وايضا المصطلحات الرئيسية المترجمة.

(٨٣) P.Tillich, Systematic Theology, Vol. IP.22

(٨٤) Ibid, P.72.

الانطولوجي هو مصدر القيمة والمعنى ، فقد ضاعا من إنسان هذا العصر .

ويغدو الدين الوسيلة الفعالة لرأب هذا الصدع ، فهو الذي سيعرض علينا مباشرة وبحيوية جوهر العقل الأنطولوجي ، ويعيده إلينا عودة حميمة معاشة ، لأن جوهر العقل الانطولوجي يتحد مع مضمون الوحي المنزل . وما هو انطولوجي ، وما هو لاهوتي يتطابقان في نقطة واحدة ، إذ يعالج كلاهما الوجود كما هو وتيليش يتحدث عنها بمصطلحات واحدة .

وعلى هذا النحو نجد أن حال الحضارة المعاصرة ، وتطوراتها ، أو بالأحرى ترديتها ، وجعلها في حاجة ملحة للدين ـ للوحي المسيحي كأساس ثقافي لها ، أي لأن تصبح دينية مقدسة . هذه هي الاطروحة الرئيسية لتيليش . وكما نرى أيا كانت زاوية تفكيره ، فإنها تحيلنا إليها .

●●●

ويبقى أثر الفلسفة المثالية الألمانية العتيدة على فكر تيليش فقد ترعرع في أجوائها وتشبع بها ، وامتلأ حماسا لها ، وعانى من كارثة الحرب العالمية الأولى حين كرثت فلسفته المثالية الأثيرة ، فلسفة شلنج . ثم أن المثالية الألمانية كانت دائما فلسفة الانشطار على العقل والعلم والعالم من أجل الحرية الإنسانية التي هي ضرورية لفكر تيليش ، اللاهوتي والفلسفي على السواء . لذلك كان تفكير تيليش الذي يصطبغ بالصبغة الوجودية ، هو ايضا تفكير مثالي . فقيل إن المثالية والوجودية تتنازعان عقليته ، أو أنه يقف على الحدود بينهما . فحين يفكر في الله يفكر تفكيرا مثاليا وحين يفكر في الإنسان يفكر تفكيرا وجوديا ـ وليس يوجد موضوع من موضوعات تفكيره إلا ويندرج بصورة أو بأخرى تحت لواء العلاقة بين الله والإنسان .

وتيليش نفسه يؤكد أنه فيلسوف مثالي « على أن نفهم المثالية بمعنى دخول الوجود والفكر في ذات الهوية ، وكمبدأ للحقيقة » (٨٥) ، أي أن الابستمولوجيا (فلسفة المعرفة) ترد إلى الانطولوجيا (فلسفة الوجود) فهي مجرد فرع منها وكل تقرير ابستمولوجي هو ضمناً انطولوجي . إن مفهوم الفلسفة عنده دائما يدور حول الانطولوجيا .

لذلك فنحن نرى أن تيليش فيلسوف مثالي بمعنى أنه فيلسوف انطولوجي ، وليس بالمعنى الحرفي لمصطلح المثالية الذي يفيد أسبقية الفكر على الوجود . وهو فيلسوف انطولوجي بكل ما في الكلمة من معنى . الانطولوجيا هي إطار تفكيره وطريقته التي يمكن من خلالها العثور على المعنى الجذري لكافة المبادىء حتى رأى أن فلسفة الأخلاق ـ مثلا ـ « وهي علم الوجود الأخلاقي للإنسان ، الذي يسعى للوصول إلى جذور الالتزام الأخلاقي ومعيار صحته ومنابع مضامينه وقوى تحقيقه . وتعتمد الإجابة عن هذه الأسئلة بصورة مباشرة على مبدأ الوجود » (٨٦) ، أي على فلسفة الانطولوجيا . كان لابد وأن يبقى انطولوجيا من حيث هو لاهوتي .

---

(٨٥) P.Tillich, On The Boundary, P.82.

(٨٦) بول تيليش ، الحب والقوة والعدالة ، ترجمة كامل يوسف حسين ، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، سنة ١٩٨١ . ص٩٢

لقد لاحظنا من حديثه عن الرفقة المشتركة بين اللاهوت والفلسفة أن الانطولوجيا هي حلقة الربط بينهما . بل نرى أن الانطولوجيا عند تيليش هي حلقة الربط بين اللاهوت والعقل على الاجمال . انه بطبيعة الحال ـ كلاهوتي وكوجودي ـ لا عقلاني إلى حد ما ، يرى أبعاداً تند عن سلطان العقل ونطاقة . وهو لم يعتقد ابداً بصحة البراهين الميتافيزيقية أو المنطقية على العقائد الدينية المعينة ، خصوصا على وجود الرب ، وأكد أن جوهر الانجيل لا يمكن استنباطه من المبادىء الفلسفية ، بل كان شديد العناية بالدلالة العميقة جدا للعقائد اللاعقلانية في الديانة المسيحية ، وأهمها ميلاد المسيح . . الرب الذي هو طفل رضيع . . ثم مُدان مصلوب . وعلى الرغم من هذا فإنه كما يقف على الحدود بين المثالية والوجودية ، يقف على الحدود بين العقلانية واللاعقلانية . لم يفعل ما فعله كير كجور الذي أكد أن الايمان جملة وتفصيلا هو الخروج من دائرة المعقول الخانقة المميتة ، هو عينه اللامعقول (أو مايسميه الأغريق الجنون الإلهي) [٨٧] لم ينكر تيليش كل وأية علاقة بين الدين والمباحث العقلية ، ولم يخرج التجربة الدينية بأسرها من عالم المعقول ، أو جعلها حراما على العقل ، وليس صحيحا في نظره « أن العقيدة الدينية هي الإيمان بأشياء بغير دليل » [٨٨] . . وهذا بسبب التطابق الذي ذكرناه بين ما هو لاهوتي وماهو انطولوجي ، والذي يجعل المباحث الانطولوجيه تستطيع أن تؤيد الدين ، فقط إذا ما بدأت من مصادره ، أو أكدت على محصلة مؤداها أن الرب هو الوجود ذاته ، وبهذا « يصبح الوحي هو العقل متوغلا في النسيج العقلاني كما أن كلمة الرب هي الكلمة متوغلة في كافة الكلمات » [٨٩] الحقائق الدينية لا تقتصر على حياة الفرد ومشاعره واتجاهاته وسلوكه ، بل تتضمن إشارة إلى الواقع الخارجي المستقل عنه ، اشارة يمكن التحقق منها تحققا عقليا وفلسفيا . لهذا تمثل الانطولوجيا تأييدا للدين ، ولهذا ايضا كانت إطار تفكير تيليش .

إن الانطولوجيا هي التي تميز تيليش عن الوجوديين اللاهوتيين والدينيين الذين جعلناهم فيما سبق رفاقا له أمثال مارتن بوبر وبيرديائيف وأونامونو وجاسيت . . الخ فقد انصبت عنايتهم على الوجود الشخصي فحسب . ووجودية تيليش بذلك الأساس الأنطولوجي أعمق من وجوديتهم وأقرب إلى اللاهوتيين الوجوديين خصوصا بولتمان ومدرسته جوجارتن وبوري . .

ولما كان تيليش فيلسوفا وجودياً فان الأنطولوجيا ليس لها عنده الدلالة القديمة من حيث أنها بحث ميتافيزيقي مطلق في مجردات ثبوتية ساكنة ، كالجوهر والماهية . . الأنطولوجيا عنده من أجل تحقيق (المهمة التي لا تنتهي ، والمتحصلة في ايضاح الوجود باعتباره كذلك ، أو باعتباره ذلك الذي يشارك فيه كل ماهو كائن » [٩٠] . وقد ظلتْ دائما انطولوجيا إنسانية ، إن صح التعبير .

فتيليش فيلسوف وجودي ، لذلك كان لابد وأن تكون نقطة بدئه للنظرية الانطولوجية هي الموقف الإنساني . وأكد أن تحليل الوجود الإنساني هو الطريق

(٨٧) سرن كيركجور ، خوف ورعدة ، ترجمة فؤاد كامل ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ . من مقدمة بقلم وولتر لاوري ، ص ٦ ،

(٨٨) P.Tillich, The New Being, P.126

(٨٩) بول تيليش ، الحب والقوة والعدالة ، ص ٥٧ ، من الترجمة العربية .

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٦١

الوحيد لفهم البنية الانطولوجية للحقيقة ، أما بقية الكائنات أو الأشياء فنفهمها عن طريق المماثلة Analogy بالإنسان ـ ذات الإنسان وذات كل نفس حية ، ويمتد منهج المماثلة إلى كل فرد حتى في المملكة غير العضوية وأساسه أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي تتحد فيه كل مستويات الوجود . فليس الإنسان محض موضوع فائق بين الموضوعات ، بل إنه الوجود الذي يطرح السؤال الانطولوجي ، والذي يمكن أن نجد الإجابة الأنطولوجية في وعيه بذاته ، لأنه يمر بخبرة فورية ومباشرة ببنية الوجود وعناصره ، خبرة تعني التداخل بين النفس والعالم ، والاعتماد المتبادل بينهما . إنهما القطبان المشكلان لبنية الوجود وبالتالي لبنية الانطولوجيا . [٩١] ويعنيان أن وجود الإنسان يرتد إلى مبدأي التفرد والمشاركة مع الآخرين .

إنها عين نقطة البدء التي حددناها للفلسفة الوجودية والتي يلخصها مصطلح هيدجر البارع Dasein(الوجود هناك) في العالم بمعية الآخرين وتتوغل وجودية الانطولوجيا التيليشية حتى تصبح العناصر الأنطولوجية هي ذاتها عناصر أو مقولات الموقف الإنساني ، أي الفردية والمشاركة ـ الديناميكية والصورة ـ الحرية والمصير . [٩٢] فالذات ذات فقط لأنها في عالم كون له بنية ، تنتمي اليه ، ولكن أيضا تنفصل عنه . إن انطولوجيا تيليش أو فلسفته بعامة ، أو بصفة اكثر عمومية العلاقة التي أرتآها بين اللاهوت والفلسفة ، قد أفضت بنا ـ وكان لابد وأن تفضى ـ إلى قلب نزعته الوجودية .

ب ـ الوجودية الدينية :ـ

يقول تيليش : « حين قدمت الفلسفة الوجودية إلى ألمانيا ، استطعت أن أصل إلى فهم جديد للعلاقة بين اللاهوت والفلسفة » [٩٣] هذه العبارة توضح بجلاء كيف أصبحت الوجودية حجر الزاوية والعمود الفقري لفكر تيليش الذي أصبح من أقدر المعبرين عن الوجودية المؤمنه والدينية ، كأنه يواصل مسارها الشرعي ، كما بدأت مع سرن كير كجور ـ أقوى المؤثرين عليه ، والذي يشترك معه في العناية بالمغزي الديني للموقف الإنساني ، وفي تأكيد أن التساؤلات الدينية لايمكن إثارتها بصورة ملائمة الا من حيث هى متأصلة بالموقف الإنساني ـ أي العناية بدينية الوجودية التى كرس لها كتابه « الشجاعة من أجل الوجود » ، وتأكيد وجودية الدين التى كرّس لها الجزء الثانى من كتابه « اللاهوت النسقى » . على أن تيليش ارتبط أكثر من رائده كير كجور بتاريخ ونصوص ومؤسسات المسيحية ، فهو على خلافه لاهوتي محترف رسميا وهو بلا شك ، من أكثر الوجوديين إطلاقا وتأثيرا وانتشارا في العالم المتحدث بالانجليزية ، والذي لم يكن أرضا خصبه للوجودية التي تفجرت فقط في قلب القارة الأوربية ، وخصوصا غربها .

وهو يحدد لنا ثلاثة فلاسفة ، أحبهم وعايش فكرهم بعمق ، فمثلوا أساسا انطلق منه تحمسه الشديد للوجودية ، وهم شلنج وكير كجور ونيتشه . وهو لم يقرأ نيتشه إلا بعد أن بلغ سن الثلاثين ، ومع هذا كان ذا تأثير ضخم عليه ، وكثيرا ما يستشهد بأقواله ويجعلها

(٩١) P.Tillich, Systematic Theology, Vol, I,P.168.

(٩٢) Ibid, pp. 174:186.

(٩٣) P.Tillich, On The Boundary, P.56.

محوراً للنقاش . وجد تيليش في نيتشه وجوديا عظيما ومن أهم الوجوديين ، « إذ يكشف عن شجاعة أن ينعم التظر لهاوية العدم ، في تفرده الكامل الذي تقبل رسالة موت الله »[٩٤] « وتحمس بشدة لفلسفة الحياة » معه ، حيث الحياة في هذا المصطلح هي العملية التي بها قوة الوجود تحقق ذاتها . ورآها ضرورية لمرحلة ما بعد الحرب . فكرد فعل للجوع والموت في سنواتها ساد بعدها التفكير التواق لتأكيد الوجود ، والذي جعل تأكيد نيتشه للحياة شديد الجاذبية . يقول تيليش : « لما كان هذا التأكيد النيتشوي للحياة يعود من ناحية ما إلى جذور في فلسفة شلنج ، فقد كنت على استعداد لتقبله »[٩٥]

وشلنج كما ذكرنا هو الوثن الفلسفي لتيليش ، وإذا كان المعتمد أنه رائد المثالية الذاتية فإن تيليش يصر على أن شلنج الرائد الحقيقي للوجودية ، والذي سار في ركابه كير كجور . وذلك لانه أول من قاد الهجوم الوجودي على (فلسفة الماهية) لصديقه هيجل والتي هي قمة الفلسفة التي تلغي الاتجاه الوجودي ، وسماها (فلسفة سلبيه) لأنها تتجرد من الوجود الحقيقى ، وجعل (الفلسفة الإيجابية)هي فلسفة الفرد الذي يمر بالخبرة ويفكر ويقرر من داخل موقفه التاريخي . ليس ذلك فحسب بل كان شلنج ايضا هو أول من أهاب بمصطلح الوجود ليناقض فلسفه الماهية . وكان هذا في سلسلة محاضرات عن فلسفة الأسطورة ، القاها شلنج خلال شتاء ١٨٤١ ـ ١٨٤٢ في جامعة برلين ، وأمام مستمعين مميزين : كيركجور وانجلز وباكونين . فانفجر المصطلح في الأجواء الالمانية خلال العقد الخامس من القرن الماضي حتى احتوته الكانتية[٩٦] ، وصاغت منه عام ١٩٢٩ المصطلح الدال على هذا الاتجاه الفلسفي ، كما ذكرنا .

والحق أن تيليش لا يغالي كثيرا في تقدير قيمة شلنج ، فقد كتب كير كجور في يومياته بتاريخ ٢٢ فبراير سنه ١٨٤٢ يقول : « أنا سعيد سعادة لا توصف لسماعي محاضرة شلنج الثانية حتى أنني تنهدت طويلا بما فيه الكفاية ، وتنهدت الأفكار بداخلي »[٩٧] ولا يغيب عن بال تيليش الفوارق بين الأصول والارهاصات التاريخية الواسعة النطاق ، وبين الريادة الموحية وبين النشأة وبين النضج . فقد قام في كتابه (الشجاعة من أجل الوجود) بمسح تاريخي سريع ـ كعادته في كتب أخرى ـ استخرج فيه عناصر وجودية من فلسفة كل فيلسوف تقريبا من الفلاسفة العظام ، حتى أبعدهم عن الوجودية . بدءاً من افلاطون وأفلوطين ، وطبعا أوغسطين ، ومن معظم الاتجاهات الكبرى في فلسفة الوسيطة حتى الاتجاهين الواقعي والإسمي ، ثم كوميديا دانتي ومدرسة فلورنسا ، حتى كانط نفسه بل وهيجل !! وصولا إلى شلنج وشوبنهاور ور وماكس شتيرنر وكارل ماركس وطبعانيتشه ، وانتهاء بالبرجماتية « وجيمس » ، « ودلتاي » ، « وبيرجسون » « وصمويل الكسندر » و « ماكس » « فيبر » وغيرهم وطبعا الأدباء العظام أمثال « بودلير » و « رامبو » في الشعر ، « وفلوبير » « ودستويفسكي » في « الرواية » ، و « إبسن » « شتريندبيرج » في المسرح وهو في هذا يسلم قطعا بأنهم ليسوا وجوديين بالمعنى الدقيق للمصطلح ، فقد اثاروا الاعتراضات فقط ضد تشيؤ

---

(٩٤) P.Tillich, The Courage To Be, P.30

(٩٥) P.Tillich. On The Boundary, P.53.

(٩٦) P.Tillich, Theology. Theology Of Culture. P. 77–78.

(٩٧) نقلا عن : د . إمام عبدالفتاح ، سرن كيركجور ، مرجع مذكور ، ص ٢٧ .

الإنسان وتموضعه . وفي النهاية يؤكد أن الفلسفة التي ظهرت في القرن العشرين شيء آخر ، إنها أسطع وأقوى وأخطر معنى للوجودية ، وهي وحدها التي تنشغل بمشكلة المعنى حين تتحدث عن التناهي والذنب ، وهي حين قدمت إلى المانيا ـ منبت وموطن الوجودية ـ مثلت له فهما جديدا للعلاقة بين اللاهوت والفلسفة .

من ثم أحس تيليش بروح الفلسفات الثلاث : شلنج ، كيركجور ، نيتشه ، وقد انصهرت واندمجت معا في فلسفة هيدجر . اذا كان تيليش يجاهر بولائه لشلنج ، فإن أسلوب ومضمون فلسفته بل وطبيعة مصطلحاته تؤكد أن هيدجر في الواقع أعظم المؤثرين عليه ، ونحسب أن هيدجر هكذا بالنسبة لكل وجودي ذي اعتبار ، خصوصا إذا كان لاهوتيا . وتيليش على أية حال يرى أن كتاب هيدجر (الوجود والزمان Sein Und Zeit) أهم ما أخرجه الفكر الألماني في القرن العشرين ، بعد كتاب إدموند هو سرل (دراسات منطقية Logische Unters uc Hungen) الذي أسس به الاتجاه الفينومينولوجى . وقد استفاد تيليش كثيرا من الفينومينولوجيا التي توثقت العلاقة بينها وبين الوجودية ، ويؤكد تيليش هذه العلاقة الوثيقة بينها وبين اللاهوت قوله (لابد أن يطبق اللاهوت التناول الفينومنيولوجي على كل مفاهيمه الأساسية) [٩٨] ، لأنه مقدمة تمهيدية ضرورية لمناقشة صحتها وفعاليتها .

●●●

وينطلق تيليش ، كأي فيلسوف وجودي ، من واقعة أن الإنسان وحيد في هذا الكون ، وهو فرد فريد لايمكن أن يشاركه في موقفه الوجودي أو يحل محله موجود آخر فيستهل كتابه (الآن الآزلي) بالفقرة التالية : « لقد كان هناك بمفرده ، وكذلك نحن . إن الإنسان بمفرده لأنه إنسان او بمعنى ما نلقى كل مخلوق بمفرده . وبانفراد مهيب يرحل كل نجم عبر ظلام الفضاء اللامتناهي . وتنمو كل شجيرة وفقا لقانونها هي الخاص محققة إمكاناتها الفريدة . وتحيا الحيوانات تقاتل ، تموت من أجل ذاتها ، وهي بمفردها . بعضها جماعيا ، بيد أنها جميعا بمفردها ! وأن تحيا يعني أن توجد في جسد ـ جسد منفصل عن كل الأجساد الأخرى . وأن تكون منفصلة يعني أن تكون بمفردها . يصدق هذا على كل مخلوق ، ويصدق على الإنسان أكثر مما يصدق على أي مخلوق آخر . إنه ليس فقط بمفرده ، لكن يعلم أنه بمفرده . ولكونه على وعي بماهو عليه فإنه يثير التساؤل عن وحدته ، يسأل لماذا هو بمفرده ، وكيف يستطيع الانتصار على كونه بمفرده ، فهو لا يستطيع تحمل هذه الوحدة ، ولا هو يستطيع الفرار منها . إن قدره أن يكون بمفرده ، وأن يكون على وعي بهذا . ولاحتى الرب يستطيع أن يرفع عنه هذا القدر »[٩٩]

يقول تيليش هذا وهو يناقش مأزق الإنسان ، وفي فصل بعنوان « الانفراد والتفرد » يوضح براعة اللغة ، حيث أن المصطلح الأول (الانفراد Loneliness) يشير إلى الجانب المأساوي من الوحدة الذي يبلغ ذروته في موقفي الذنب والموت . فلا أحد يشارك في رفع وزرهما . اما المصطلح الآخر (التفرد Solitude) فيشير إلى الجانب النبيل الجليل الجميل للوحدة المحتومة على الإنسان ، ويوضح لماذا لايستطيع الله أن يخلصه منها . وذلك أن عظمة الإنسان في أنه يتفرد :

---

(٩٨) P.Tillich, Systematic Theology. Vol, P.118.

(٩٩) P.Tillich, the Eternal Now, P.15-16

يتمركز داخل ذاته وينفصل عن عالمه ، فيكون قادرا على أن يعلو عليه وينظر إليه ويعرفه ويحبه . وفي التفرد يتحقق أسمى أشكال وتعيينات الوجود الإنساني أي الابداع ، وايضا تنمو وتترعرع أعظم قوة قادرة على مقاومة الوحدة الانفراد ، أي الحب وايضا التواصل الجنسي ، وإن كانت قوة محدودة بامكانات رفض الحب أو موت وفقدان المحبوب . (الإنسان وحيد) إذن سلاح ذوحدين وهو أولا وأخيرا قدر الإنسان المحتوم ـ فقط الإنسان . ويؤكد تيليش أن الذي يستطيع أن يكون وحيدا بمفرده ، هو فقط الذي يمكنه الزعم بأنه إنسان . ذلك هو مجد الإنسان ، والحمل الذي ينوء به .

سبق أن ذكرنا أن ويلات الحرب جعلت الأجواء مهيأة للوجودية كي تستأنف طريق نيتشه ، وتسير في مقولة الفردانية إلى منتهاها ، الى الهجر ، الالحاد ، الإنسان وحيد تماما ، مهجور في هذا الكون ، لا إله يقيم معه شيئا من التواصل . تلك هي الوجودية الملحدة التي شاعت وذاعت . والجرح الذي قامت لتداويه جعلته يفغر فاهه بشراسة أكثر . ولكن حين التعرف على سيرة تيليش وجدنا أن ويلات الحرب هي نفسها التي جعلته يؤكد الاحتياج لحضارة ثيونومية ، للألوهية ، ولوجودية دينية كي يلتئم الجرح . ونحن نتساءل : أي الطريقين الوجوديين ـ طريق الإلحاد وطريق الإيمان ـ أكثر تحقيقا لمضمون التجربة الوجودية ؟ نحسب أنه الطريق الثاني .

بداية ، يوضح تيليش إن الوجودية التي قويت وتألقت في القرن العشرين هي : تعبير عن قلق الخواء واللامعنى ومحاولة قهره بشجاعة تحتويه داخلها . وبهذه الشجاعة حدث الإنفصال في مفترق الطرق بين الوجودية الدينية والملحدة ـ ولاشك أن قلق اللامعنى ليس فقط معلولا مباشرا للحرب العالمية ، بل يعود ايضا إلى رفض الألوهية في القرن التاسع عشر . والذي بلوره نيتشه بقوله (الله مات) ، فمات معه نسق القيم والمعاني التي يحيا عليها الإنسان . هذا أمر محسوس بوصفه خسارة وفقدانا ، وبوصفه تحررا وانطلاقا . فإما أن يؤدي إلى شجاعة العدمية ، وإما إلى شجاعة تحتوي العدم داخلها . ويحمل نيتشه قمة التعبير عن الشجاعة العدمية المؤسسة المحطمة للذات ، انها شجاعة اليأس Courage of Despair ، وأعمق تعبير فلسفي عنها في كتاب هيدجر (الوجود والزمان) . هي بلا شك شجاعة جسورة ، تفصح عن قدرة على مواجهة العالم كما هو ولكنها تدفع ثمنا باهظا هو فقدان المعنى والخواء ـ فقدان كل شيء . فاليأس هو الموقف الحدي القصي والذي لايمكن أن يتجاوزه المرء . صميم معنى كلمة اليأس : لاأمل ، لا طريق يبدو إلى المستقبل [(١٠٠)] هكذا أفضت الوجودية الملحدة إلى شجاعة اليأس . أما الوجودية الدينية فقد أفضت مع تيليش إلى شجاعة الكينونه وتأكيد الذات Self – Aff irmation . فكيف ذلك ؟

يتضح ذلك في كتاب تيليش الذي يحمل هذا الأسم : شجاعة الكينونة The Courage To Be وهو مكرس لتحليل جدلي وتوصيف فينولوجي للشجاعة كمقولة بنائية للظرف الإنساني . وتبعا لما رأيناه في فلسفته الانطولوجية ، ستكون الشجاعة واقعا أخلاقيا ، وتضرب بجذور قصية في بنية الوجود ذاته ، أي أنها ايضا مفهوم انطولوجي والشجاعة كواقع أخلاقي تشير إلى فعل عيني وإلى قرار يعبر عن مضمون

(١٠٠) P.Tillich, The Courage To Be, Op. Cit, P.136 Ff.

قيمي . اما بوصفها مضمونا انطولوجيا ، فإنها تشير إلى تأكيد الذات للفرد تأكيدا جوهريا وكليا في حضور التهديد بالعدم . ويذهب تيليش إلى أن هذين المفهومين للشجاعة يجب أن يتحدا إذا أردنا تفسيرا ملائما للظاهرة . [١٠١] ثم أعطى تيليش تخطيطا يتتبع مفهوم الشجاعة طوال تاريخ الفكر الغربي منذ أفلاطون حتى الوجودية في القرن العشرين ، معتبرا مبدأ المسيحية في الغفران من أمجد صور شجاعة الكينونه . ومفهوم الشجاعة لا يمكن فهمه وادراك قيمته إلا في علاقته بالقلق . ما هو القلق Anxiety ؟ إنه ذلك المفهوم الشهير في الفلسفة الوجودية والمقترن بها يعرفه تيليش بأن الخوف له موضوع محدد كالفشل أو الموت أو رفض الحب أما القلق فهو خوف من مجهول . وثمة مجهولات كثيرة ، لكن لا نواجهها بقلق . إن مجهولا من نوع معين هو الذي تقابله بقلق ، مجهولا بصميم طبيعته لايمكن أن يعرف ، لأنه عدم[١٠٢] Nonbeing. القلق خوف غير محدد الموضوع ، خوف من مجهول هو العدم الذي ينفي كل موضوع ، هو الوعي الوجودي بتهديد العدم ، بالتناهي المتأصل في الإنسان . والشجاعة هي التصميم على مواجهة هذا القلق بطريقة تحتوي العدم تماما وتتضمنه داخل الوجود . وهي بهذا تمثل الفارق بين القلق الوجودي والقلق العصابي الذي يتفادى العدم بواسطة تفادي الوجود أو تقليل نطاقه فالشخصية العصابية تبحث عن تأكيد لما تبقي من ذاتها المنقوصة ، فتؤكد شيئا ما أقل جوهرية ، تأكيدا سلبيا موهوما .

ويميز تيليش بين ثلاثة أنماط للقلق : ١) القلق الأونطيقيOntic ، قلق المصير والموت ٢) القلق الأخلاقي ، قلق الذنب والإدانة ٣) القلق الروحي ، قلق الخواء واللامعنى . في القلق الاونطيقي نجد المصير يهدد التأكيد ـ الذاتي لوجود الفرد تهديدا نسبيا ، أما الموت فيهدده تهديدا مطلقا . وينشأ قلق المصير من الوعي بالعرضية التي لايمكن استئصال شأفتها ، والتي تتخلل أعمق أعماق وجود المرء ويقف الموت من وراء المصير بوصفه التهديد المطلق لتأكيد ـ الذات الأونطيقي . ويفضح الموت العدمية الكلية للوجود . غالبا ما يحاول الإنسان تحويل هذا القلق إلى خوف ، قد ينجح إلى حد ما ، لكنه يدرك أن التهديد لايمكن أبدا تجسيده في موضوع معين . إنه ينشأ عن الموقف الإنساني بما هو كذلك . فيحيرنا السؤال : هل ثمة شجاعة كينونه ، شجاعة تأكيد الذات ، على الرغم من التهديد الأونطيقي لتأكيد الذات الذي يحيق بالإنسان ؟

ويهددنا العدم على مستوى آخر ، حين ينشأ عنه قلق أخلاقي . يحمل قلق الذنب تهديدا نسبيا وقلق الإدانة تهديدا مطلقا ، تبحث النفس عن تأكيد ذاتها أخلاقيا ، عن طريق تحقيق إمكاناتها لكن العدم يعبر عن نفسه في كل فعل أخلاقي . بأن يعجز الإنسان عن التحقيق الكامل لكل ممكناته فيظل مغتربا عن ذاته الجوهرية . ويتخلل الالتباس الأخلاقي في كل أفعاله . والوعي بهذا الالتباس ذنب والذنب قد يؤدي

(١٠١) F.Macgill & I.P Megrean (ed), Masterpieces of World Philosophy, Harper Raw, New York. 1961. P.1146

(١٠٢) P.Tillich, Op. Cit, P.37.

(*) أونطيقي **Ontic** تعني التواجد الحقيقي الفعلي ، وهي مشتقة من اللفظ الأغريقي **Ont** أي الوجود ككل أو الوجود بما هو موجود والمأخوذ منها (الانطولوجيا . فلسفة الوجود) . لكن أونطيقي أكثر تعينا من **Ont** وايضا من الكينونة **Being** أو **To Be** وأقل تعينا من انبثاقة الوجود **Existence** إنها مشكلة تواجه كل من يتعرض لفلسفة أونطولوجية كفلسفة تيليش . فأكثر من مصطلح لايقابلها في العربية إلا أصل لغوي واحد هو الوجود وحتى الكينونة التي تقابل **Being** لاتغني كثيرا ، فحين تتحدث عن الألوهية عند تيليش **Being-itself** نجد أن (الوجود ـ ذاته) أكثر دلالة وتعبيرا لأنها أكثر فعالية وحيوية من (الكينونة ـ ذاتها) والواقع أننا نضع الكينونة كترجمة لمصطلحات الألوهية التي يرد فيها**Being** إلا حين كنا نخشى اختلاطها بانبثاقة الوجود الإنساني في الفلسفة الوجودية .

بالذات إلى الرفض الكامل لذاتها ، إلى التهديد المطلق الذي تحمله الإدانة ويثار السؤال : هل ثمة شجاعة كينونة ، على الرغم من التهديد الأخلاقي لتأكيد الذات ؟

وأخيرا ، قلق الخواء واللامعنى ، التهديد الروحي لتأكيد الذات . الخواء تهديد نسبي ، واللامعنى تهديد مطلق . ينشأ الخواء عن موقف تفشل فيه الذات في أن تجد إشباعا من خلال المشاركة في مضمونات حياتها الحضارية والثقافية ، فتفقد معتقدات الانسان واتجاهاته وأنشطته معناها ، وتتحول إلى موضوعات للامبالاة . « نحاول في كل شيء ، ولانجد إشباعاً من أي شيء ، فتضمحل القوة الخلاقة المبدعة ، وتهدد الذات بالملل والسأم . ويصل الخواء إلى ذروته في قلق اللامعنى ، يشعر الإنسان أنه لم يعد يستطيع أن يمضي قدما ، لا في تأكيد مضمونات حضارته ولا في تأكيد قناعاته الشخصية . هكذا تصبح الحقيقية ذاتها موضوعا للتساؤل ، ويهدد الحياة الروحية شك كلي . ويثار السؤال : هل ثمة شجاعة كينونة تؤكد ذاتها على الرغم من تهديد العدم ؟ والعدم هنا هو الشك الذي يهدد تأكيد الذات الروحي »[١٠٣]

(الأنماط الثلاثة للقلق) من أخصب وأمتع أفكار تيليش ، وتوضح مدى اتساق وتشابك أطر فلسفته المترامية الحدود ، فتوضح مدى عمق وتغلغل وجوديته . إنها أساس فلسفته للوجود الإنساني الفردي وأيضا أساس فلسفته الحضارية . فهذه الأنماط الثلاثة حاضرة في كل شخص وفي كل الأزمنة الحضارية بيد أن واحدا منها هو الذي يسود ويصبغ العصر والشخص بصبغته ويطوي النمطين الآخرين تحت لوائه . وكما أشرنا ، في هذا العصر يسود القلق الروحي ، قلق الخواء واللامعنى . ولا سبيل البتة إلى محو القلق الوجودي ، بأشكاله الثلاثة . فهو متأصل في صميم الموقف الإنساني بتناهيه وليس يستطيع مواجهته واحتواءه الاهؤلاء الذين يملكون شجاعة تأكيد ـ الذات على الرغم من تهديد القلق بوصفه وعيا وجوديا بالعدم ذي الاشكال الثلاثة .

وطالما أن النفس والعالم هما القطبان المشكلان لبنية الموقف الوجودي الفردي وايضا لبنية الانطولوجيا ـ كما أوضحنا ـ فإن شجاعة الكينونة لابد وأن تتضمن كليهما ، فتتضمن شجاعة ان يكون المرء ذاته ويحقق وجوده الأصيل (النفس) ، وتتضمن شجاعة المشاركة والتواجد بمعية الآخرين (العالم) وباستفاضة يناقش تيليش محاولات الحضارة المعاصرة ، التي هي علمانية أو تونومية ، لمواجهة قلق الخواء واللامعنى الذي يهددها ، وينتهي إلى انها جميعها فاشلة ، تعجز عن تحقيق شجاعة تتضمن الفردانية المشاركة معا . الرأسمالية تنجح تماما في تحقيق شجاعة أن يكون المرء ذاته ولكنه يفقد شجاعة المشاركة . والاشتراكية تحقق شجاعة المشاركة ، وتعجز عن تحقيق شجاعة أن يكون المرء ذاته . وبالمثل كل الاتجاهات الأخرى كالرومانتيكية والفاشية والنازية ..... الخ لا سبيل إلى شجاعة الكينونة الحقيقية ، التي تتضمن الذاتية والمشاركة ـ النفس والعالم ، إلا بشجاعة تضرب بجذورها في الألوهية الوجود ـ ذاته ، الذي يعلو على النفس / العالم فيحتويهما ويتجاوزهما . باختصار شجاعة الكينونه شجاعة دينية . والإيمان بالعناية الالهية يقهر القلق الاونطيقي ، والإيمان بالغفران يقهر القلق

(١٠٣) ..., Op Cit, P.1148-1149

الأخلاقي ، والإيمان بالرب ذاته ـ بالوجود ذاته يقهر القلق الروحي .

هكذا نجد حيثيات الفلسفة الوجودية تصب توا في قلب الإيمان الديني ، فيعطينا تيليش أقوى تفسير ديني للوجودية .

●●●

وإذا انتقلنا إلى الوجه الآخر للعملة ، التفسير الوجودي للدين ،فسنجد أن تيليش يكرس الجزء الثاني من « اللاهوت النسقي » وعنوانه الفرعي « الوجود والمسيح » لاعطاء كل العقائد المسيحية الأساسية دلالة وجودية ، بحيث نجده يصب الديانة المسيحية بأسرها في قلب الفلسفة الوجودية فالسقوط ، سقوط آدم في الخطيئة وخروجه من الجنة إلى الارض يعني الانتقال من الماهية إلى الوجود (١٠٤) تحطيم الذات الوجودي هو مبدأ الشر في العالم ، والاغتراب الذي هو مسألة دنيوية بحته حتى لو ارتبط بالذنب ، يعمل تيليش على إبراز التماثل والتشابه بينها وبين فكرة الخطيئة في اللاهوت المسيحي . باختصار الحقيقة الدينية بأسرها حقيقة وجودية ، لا تنفصل عن الممارسة ـ أو الفعل كما يقول انجيل يوحنا ـ فهي رهان بصميم وجود المرء . هذا التفسير الوجودي للدين يتبعه أن تغدو وظيفة الدين وجودية ، هي قهر القلق والخوف اللذين هما ميراث البشر أجمعين كما اكتشف كير كجور .

وبهذا التفسير الوجودي للدين ينقذ العقائد المسيحية التي مستها التغيرات الحديثة ، واهمها الإيمان بعناية إلهية تحرك التاريخ نحو الأفضل ليحقق في النهاية مدينة الله على الارض . وهي عقيدة ميزت المسيحية منذ اوغسطين ، لكنها تحطمت تدريجيا مع الحرب العالمية الأولى ، ومع العام الخامس منها كان الإيمان بها قد تلاشى تماما ، وشبيه بهذا ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ويأتي التفسير الوجودي للدين ليعيد إليها الحياة . يوضح تيليش أولا أن الصورة القديمة للعناية الإلهية ليست نتيجة للعقيدة المسيحية ، بل للتفكير المتفائل(١٠٥) فهي لا تعني ان الله يسير العالم بلا مآس أو مشاكل وكأنه اله بالغ الكمال ، بل تعني فقط قدرة على التحقيق قائمة دوما ويستحيل نفيها ، فيكون الإيمان الحقيقي بالعناية الإلهية هو شجاعة تقبل الحيلة بصدر مفتوح ونفس مطمئنه على الرغم من كل شيء(١٠٦) إن الشك في المعتقدات الدينية قائم دائما ، والإيمان هو الشجاعة التي تقهره لا بأن تزيحه ، بل بأن تحتويه داخلها .

حين تدعو المسيحية إلى الوجود والدهر الجديد تكون هي الطريق لتحقيق الوجود الأصيل والحيلولة دون الوجود الزائف . ضغوط العقل الجمعي المؤدية للوجود الزائف لا ينفذ منها الثوريون التقدميون أكثر من الرجعيين المحافظين ـ فإن اختلفت الجماعتان ، فإن العضو في أي منهما مقولب بقوالب جماعته ، ولا ينفذ منها المثقفون أكثر من البسطاء ، فالمثقفون خاضعون للقيم والمعايير الثقافية السائدة . . . الخ ولا الكنيسة نفسها تنفذ منها . لكن أصول العقيدة المسيحية تنفذ منها وترسم الطريق إلى الوجود الأصيل . فالمسيح نفسه وقف في وجه أسرته وروابطه العائلية وأعلن أن

---

(١٠٤) P.Tillich, Systematic Theology, Vol 2, Existence And Christ, The University of Chicago Press, 1957. P.29:39

(١٠٥) P.Tillich, The New Being P. 52-53.

P.Tillich, Shaking Of The Foundations, P.100

من يعجز عن هذا لا يصلح ان يكون مسيحيا حقيقيا . ويخرج تيليش من هذا إلى أن ما فعلته الكنيسة طوال التاريخ من تكريس للنظم والروابط يناقض الوجودية ، هو (فهم خاطيء بل مضاد للرسالة المسيحية الحقيقية)(١٠٧) .

أما عن صلب الوجودية المتمثل في حرية الاختيار والقرار ، والذي تعارضه المؤسسات الدينية فان تيليش يقول : (منذ زمن بعيد نسيت الكنيسة كلمة الإنجيل بأن المسيح هو الحق ، وادعت أن تعاليمها عنه هي الحق . هذه التعاليم مهما كانت ضرورية وخيرة ، فقدثبت أنها ليست ذات الحق الذي يحررنا وسرعان ما أصبحت أدوات القهر والإخضاع للسلطات . لقد أصبحت وسائل لمنع البحث المخلص عن الحق ، وتصل لشطر أرواح البشر بين الولاء للكنيسة وبين الإخلاص للحق . وبهذا قدموا أسلحة فتاكة للهجوم على الكنيسة وتعاليمها باسم الحق . وليس كل شخص يشعر بهذا الصراع . فثمة كتل من الجماهير تشعر بالسكينة في كنف التعاليم والقوانين . إنهم آمنون ، لكنه أمان من لم يجد تحرره الروحي ولم يجد نفسه الحقه . ذلك هو مجد البروتستانتيين وايضا خطورتهم . إنهم يتحملون مغبة السؤال عن الحق بأنفسهم . وهم بهذا يتلقون حرية ومسؤولية القرارات الشخصية ، والحق في الاختيار بين الوسائل المؤدية للرب الذي هو الحق المجرد)(١٠٨) .

ويالللأسف ! بعد نجاح تيليش الشديد في التفسير الوجودي للدين ، والذي مكننا من أن نعزف عن العقائد الخاصة بالمسيحية كالتثليث وصلب المسيح . . الخ ، نراه يقع في المطب المتربص باللاهوتيين وهو التعصب وتيليش حريص دائما وناجح على تفاديه ، لكنه بعد كل هذا يأتي ليؤكد أن التفسير الوجودي للدين (مجد البروتستانتية فقط) . لا شك أنها في مناهضتها للكاثوليكية كانت أكثر وجودية ولكننا كنا ننتظر من لاهوتي ينساب في دمائه رحيق الفلسفة ذات الشمولية والعمومية ، وحريص على الحوار والتلاقي بين الديانات كما سنرى ـ كنا ننتظر منه أن يحرز خطوة أبعد ويرى التفسير الوجودي للدين من حيث هو دين .

● ● ●

إن هذا المثلب لا ينفي أن تيليش ـ كما رأينا ـ أقدر وأبرع من عبر عن التجادل والتواؤم والتلاحم العميق بين النزعة الدينية والنزعة الوجودية . وهذا يتبلور فيما اسماه بالاهتمام القصي أو (الانشغال المطلق) الذي لا بد وأن يطالعنا في كل أعمال تيليش تقريبا . إنه محور من محاور فلسفته الدينية ، وأساس تعريف كل مفاهيمها ، ويمكن تناولها بأسرها من خلاله . والاهتمام القصي Ultimate Concern ـ كما فهمناه ـ هو ببساطة التفسير الوجودي للإيمان . ولعل الإيمان هو الذي دفع تيليش أصلا لمغامرة تحديث اللاهوت ، فقد لاحظ أن الإيمان (فقد معناه الحقيقي واتسع حتى أصبح يدل على الاعتقاد في أشياء لا يمكن الاعتقاد بها) ـ و (أنه في حاجة إلى إعادة التأويل أكثر من أي مصطلح ديني آخر) (١٠٩)

ومثلما قال القديس أوغسطين إن الإنسان خلق

---

(١٠٧) P.Tillich, Op. Cit, 105; 109

(١٠٨) Ibid, P, 70–71

(١٠٩) P.Tillich, The Courage To Be, P.172– P.9

بحيث يوجهه حب فائق ، يقول تيليش إن الانسان خلق بحيث يوجهه اهتمام قصي [١١٠] ما معنى الاهتمام بشيء ؟ معناه أننا منشغلون به ، ونشارك فيه بمجامع النفس ، بل وأكثر من هذا ، يعني الطريقة التي تشارك بها ـ أي بقلق . وبراعة اللغة تطابق بين الاهتمام والقلق في هذا اللفظ (وايضا في العربية : الشخص « المهموم » مشتقه من نفس مصدر الاهتمام ، تعني الشخص القلق) ـ وهذا الاهتمام القلق قد يكون بالعمل وادائه والنجاح أو الفشل فيه ، أو بالآخرين . . . بالاصدقاء وحبهم وتشاركهم الروحي معنا والخوف من أن نفقدهم أو نضرهم والخوف مما قد يكون مخبوءا في نفوسهم من غيرة وحسد أو حتى كراهية . . الاهتمام القلق قد يكون بأنفسنا بمسئولية التطور تجاه القوة والنضج والحكمة ، ثمة ايضا التوق للسعادة واتخاذ القرارات السديدة ، وثمة طبعا الاهتمام القلق بالحياة اليومية والخبز والكساء والمسكن . . . . . مثل هذه الاهتمامات ليست حقيرة أو تافهة ، بل ضرورية لكي تستمر الحياة والحضارة لكن . . ألا يوجد فوقها اهتمام أعلى منها جميعا ؟

وبالتأكيد يوجد فوقها (الاهتمام القصي) الذي يمثل هدفا أخيرا لاهدف بعده للحياة . . للتجربة الوجودية ، ولابد لها من مثل هذا الهدف ، لكي يكون لها معنى . ولنلاحظ أن ما اسماه تيليش بالقلق الروحي ، قلق الخواء واللامعنى ، ينجم عن فقدان اهتمام قصي ، فقدان معنى يمنح المعنى لكل المعاني ، فقدان إجابة ـ مهما كانت رمزية وغير مباشرة ـ للسؤال عن معنى الوجود . وتيليش يؤكد أن كل شخص لا يسأل عن معنى وجوده هو شخص غير ناضج حتى ولو كان عالما مبدعا أو سياسيا عظيما .

الاهتمام القصي إما أن يكون دينيا ، أو دنيويا بواحد من شواغل الدنيا السامية أو بها جميعا : الاشياء المادية والأموال أو المركز الاجتماعي ، أو مصالح الطبقة ، أو الأمة ، أو الحركة السياسية أو المثل العليا من الأشخاص العظام سواء دينيين أو علمانيين ، والأشكال الحضارية والثقافية كالفن والفكر والعلم . . . . الخ [١١١] كلها مواضيع تستحق الاهتمام القلق ، بل إن بعضها ـ خصوصا العلم والمال والطبقة ـ كانت في مراحل تاريخية متفاوته بمثابة آلهة . إنها أشياءهامة ، لكن لا تكفي ، ولا تصلح لأن تكون الاهتمام القصي الحقيقي ، لأنها متناهية وقتية متغيرة وتشكل عبئا ينوء بثقله وعينا لانه يعجز عن أن يعدل بينها [١١٢] لابد من البحث عن أهتمام أعمق منها جميعا ، ابعد وأبقى وأقدر على إشباع كل الاحتياجات الروحية ، اهتمام قصي حقيقة ، بمطلق لا متناه غير مشروط ، واهتمام من هذا النمط لابد وأن يقود إلى المستوى الفائق للوجود ، إلى الوجود ذاته ـ أي إلى الألوهية . معنى هذا أن الإيمان الديني هو الاهتمام القصي الأمثل لكل إنسان . وكل اهتمام قصي عدا الإيمان زيف ووهم إذ يقود إلى موضوعات دنيوية ـ أي زائلة ، فكيف تكون قصية ؟ !!

إن ديناميات الإيمان الديني هي عينها ديناميات الاهتمام القصي . والإيمان بوصفه اهتماما قصيا هو فعل للشخصية ككل Total Personlity ، يحدث في مركز حياة الشخص ، ويتضمن كل عناصرها ، فيشارك في

---

(١١٠) W.P Alston, Paul Tillich, Art in Encyclopedia For Philosophy, Vol, 8, P.125
(١١١) P.Tillich, Dynamics Of Faith, Harper & Row New York, 1957. P1:3
(١١٢) P.Tillich, the New Being, P 157.

كل ديناميات الحياة الشخصية »[113] محققا شجاعة الكينونة بقطبيها : الفردانية والمشاركة ، (لأن مصطلح الاهتمام القصي ، يوحد بين الجانبين الذاتي والموضوعي لفعل الايمان ، ذاتي من حيث هو مركزي للشخصية ، وموضوعي من حيث ان فعل الايمان يتجه الى القصي ذاته [114] يحدد الموقف الوجودي للفرد ، فما هو الايمان بالدين ؟ هو اكتشاف ان كل شيء في حياة الفرد له مغزاه وقيمته ، على قدر مايتصل بالوجود الفائق المتعالي ـ بالرب .

وحين يعرف الايمان بانه الاهتمام القصي ، فسوف يكتسب ديناميكية تجعله ابعد مايكون عن الثبوتية ، المقترنة بالدين التقليدي . (وقد يبدو ان المفهوم الديناميكي للايمان لايتيح مجالا للثقة التوكيدية المريحة التي نجدها في مواثيق الاديان الكبرى ، بما فيها المسيحية . لكن ليس هذا هو الحال . المفهوم الديناميكي للايمان نتيجة لتحليل المفاهيم لكلا الجانبين الذاتي الموضوعي للايمان . انه بالتأكيد وصف لحالة متحققة دائما للعقل ، وتحليل للبنية . وهذا ليس وصفا لحالة الاشياء[115] الراكدة المستسلمة . والذي يدخل منطقة الايمان يدخل الحرم المقدس للحياة . فحيثما يكون إيمان ، يكون هناك وعي بالمقدس ، يهب شجاعة الكينونة وتأكيد ـ الذات ، على الرغم من العدم باشكاله الثلاثة .

لهذا يتمسك تيليش بالاهتمام القصي كتعريف للايمان ، وايضا رفضا للتشويهات التي تلحق الايمان من جراء التفسيرات العقلانية والعاطفية او تفسيرات اصحاب مذهب الارادة الحرة Voluntarism ليس الايمان فحسب ، فالدين نفسه هو ايضا ـ وفقط ـ الاهتمام القصي ، واي اعتبار آخر تشيؤ للدين بل هراء ، ولعله تجديف . الرب ايضا هو الاهتمام القصي والا . . فسوف ننظر اليه على انه موضوع سام ، طرف آخر من المفيد الدخول في علاقة معه ، شأن أطراف أخرى عديدة . . . . المقصود من العقيدة الدينية ان نكون معنيين ومنشغلين بها ، مهتمين ومهمومين بها ، بصورة قصوى غير مشروطة ، انها تحتوينا داخلها ، ونحن نحتويها داخلنا .

غير ان تيليش يحدد الاهتمام القصي بانه الايمان ، ويعرف الايمان بانه الاهتمام القصي ، في دوران منطقي واضح . والدوران مغالطة يندر بل يستحيل ان ينفذ منها اللاهوتي . ثم ترامى شأن الاهتمام القصي وانفلت من بين يدي تيليش ، بحيث لانجد حدودا نقف عليها او حتى نتخطاها ، فعل الايمان هو الاهتمام القصي . . والدين هو الاهتمام القصي . . والرب هو الاهتمام القصي ، اي أصبح مفهوم الاهتمام القصي يعني كل شيء في التجربة الدينية ، وبالتالي لايعني اي شيء .

ولا يكتفي تيليش بهذا ، بل يمضي قدما في تعريفاته حتى يعرف المؤمن ، وايضا الملحد على أساس الاهتمام القصي . فالملحد (من ليس له اهتمام قصي ، وبالتالي ليس لحياته عمق ، إنها ضحلة)[116] وهو غير ناضج لأنه لايسأل عن معنى الوجود ـ الذي هو الإيمان بالألوهية . أما الشخص المؤمن فهو من له اهتمام قصي ، ولكن هذا التعريف الأخير ينطبق على المؤمن ،

(١١٣) P.Tillich, Dynamics Of Faith, P. 4
(١١٤) Ibid, P.10
(١١٥) Ibid, P.21
(١١٦) P.Tillich, Shaking Of The Foundations, P.63.

وايضا على الملحد ذى الاهتمام القصى غير الألوهية ، واذا كان ساميا بدرجة كافية ، كالابداع العلمى أو الفني أو الانجاز السياسي فليس من الضروري أن يعاني قلق الخواء واللامعنى . اذن فتعريفات تيليش ليس لها معنى ، مالم نصادر معه على المطلوب ، أي على أن الاهتمام القصى هو فقط الايمان الديني ، وهي مصادرة لاتلزم إلا من اختار منذ البداية أن يكون دينيا !

وقع تيليش في مغالطتي الدوران المنطقى والمصادرة على المطلوب ، ولن يستطيع الانكار . ومع هذا نحسبه لن يعدم ردا . فقد دافع عن هذا التفسير الوجودي للدين بأن المقابلة التقليدية بين الدين والإلحاد خاسرة . فهي كالآتي : هل الدين وحي منزل للإنسان ؟ أم من خلق الإنسان ؟ اللاهوتيون أصحاب البديل الأول حينما يحاولون البرهنة عليه ، إنما يتخذون الخطوة الأولى للإلحاد ، وهى إنكار أو تفنيد تلك البراهين . والمخرج من هذه الأشكالية هو أن الدين أولا وقبل كل شيء شعور وبهذا ينأى عن كل اعتراضات عقلانية أو عملية أو تاريخية . . . لكن كلمة شعور لاتكفي ، فلنتقدم خطوة تتفادى سلبية الشعور ، لنجد الدين في النهاية ، (اهتمام قصي) ، يفصح عن نفسه في كل الوظائف الخلاقة للروح الإنسانية [١١٧] وهو يعترف بأن الأطر التقليدية للدين سوف تتأثر كثيرا . لكنه يتساءل : هل مواجهتنا للمطلق المقدس خبرة محدودة فيما نسميه عادة بالدين ؟ ويقول : إجابتي هي بالقطع لا . فثمة شيء ما مقدس فى كل شخص حتى في الملحدين . ذلك أن ثمة طريقتين للمرور بالخبرة بالمقدس . وهذا يؤدي إلى التمييز بين معنيين للدين . فثمة معنى واسع حيث يظهر المقدس ونخبره كبعد للعمق ذاته ، بعد للحقيقة القصية في المجالات المختلفة لمواجهة الإنسان مع الحقيقة في الالزام الأخلاقي . . العدالة الاجتماعية . . التعبير الجمالي . . الابداع الفكرى أو العلمي . المقدس حاضرا وكموضوع للاهتمام القصي في كل هذه البنيات العلمانية ، لكن خفي خافت باهت . أما فى المعنى الضيق للدين ـ المعنى الحرفي ـ فإن الخبرة بالمقدس مباشرة وصريحة وجلية ، وذلك هو الاختلاف الوحيد[١١٨] بين معنيي الدين .

هكذا نلاحظ أن « الاهتمام القصى » أو التفسير الوجودي للدين قد أدى بتيليش إلى تحديث راد يكالي جلدري ربما كان خطيرا واتهم بأنه يوهن العقيدة الدينية ، ولكنه يجعل الدين متوشجا فى صميم بنية هذا العصر . ويخبرنا تيليش بأنه استوحى الأصول الأولى لهذه الفكرة في ماربورج بألمانيا حين كان يتمشي مع زميله ورفيقه اللاهوتى رودلف أوتو R.Otto (١٨٦٩ ـ ١٩٣٧) الضليع بالأديان الأسيوية وصاحب الكتاب الشهير (فكرة المقدس) The Idea of Holy وسأله تيليش : ما معنى المقدس ؟ فأجاب : هو الغامض ، هو المطلق ذاته ، اساس كل المطلقيات[١١٩] فكانت الالوهية Deity ، قمة المقولات اللاهوتية ـ او قمة المقولات على إطلاقها ـ هى منطلق هذا التحديث وهي في الواقع مناط تحديث تيليش الثوري الجريء ، خصوصا في ارتباطها بالرمزية الدينية ، لذا لابد ان نفرد لها حديثا .

---

(١١٧) P.Tillich, Theology Of Culture, P.5Ff.
(١١٨) P.Tillich, My Search For Absolutes, P.130
(١١٩) Ibid, P.130

جـ ـ الالوهية والرمزية الدينية :

يتلخص مفهوم الالوهية عند تيليش في الرفض التام ـ على أسس وجودية ـ للاله التقليدي المشخص والبحث عن رب يعلو على الرب God–Above–God

بداية ، يستغل تيليش (المعنى الواسع للدين) ليستدرج كل الاطراف . وعلى اساسه يؤكد للملحدين ان الالحاد الحقيقي مستحيل ، لان الالوهية اقرب الى الانسان من حبل الوتين ، انها الآفاق اللامتناهية المحيطة بعالمنا ، ولايوجد مكان نفر منها اليه . ولن نستطيع ان ننكر الالوهية إنكارا مطلقا ، فقط نستبدل بها آلهة زائفة . مثلا : الله قاطن في السماء ، لكن الغريب حقا ـ بل المستحيل ان نحاول العروج اليهاكي نفر منه . وهذا ما يفعله المثاليون اللادينيون ، حين يحاولون الصعود الى سماء الكمال والصدق والعدالة ، كي يبرروا الاستغناء عن الالوهية ، كي يفروا منها ، ولكن الى حيث لا اين ، الى يوتوبيا . وشبيه بهذا ما فعلته الحضارة التقانية المعاصرة في تقدمها العلمي المطرد . كلاهما يحاول الفرار من الله بان يتقدم الى الأمام أكثر ، ويقتحم آفاقا اكثر . لكن يد الله فوق ايديهم . الألوهية كما اخبرتنا المزامير ، وكما ادرك مارتن لوثر بقوة ، هي الحضور الدائم الأبدي يتغلغل في كل موجود ، ليكون أكثر حضورا[١٢٠] .

ان الفرار الزائف ليس خطأ الفارين فحسب ، بل يعود ايضا الى الفكرة التقليدية عن رب خلق الكون من العدم ثم يقتصر دوره على مراقبة البشر لعقاب الخاطئين واثابة المحسنين ، ومن يطيعون اوامره ، وكأنه طاغية ، او شرطي كوني Cosmic Policeman مهمته الضبط الاخلاقي وهو في الآن نفسه يحنو علينا حنو الاب على أبنائه القصّر ويكفل لنا الخلود والمتع الدائمة والسعادة النهائية . يقول تيليش : (ليست هذه صورة حقيقية للرب ، بل بالاحرى صورة للانسان حين يحاول ان يصنع ربا في خياله ، من اجل راحته . انه نتاج خيال الانسان وتفكيره التواق . ومن حق كل ملحد مخلص لحيثيات العقل ان ينكره . فليس هذا إلها البتة ، وليس ذاتا حقيقية)[١٢١] . والخطأ يعود الى اللاهوت التقليدي ، فقد تسربل في أحابيل المفهوم الملوكي للتوحيد Monarchic–Monotheism وجعل الله مجرد شخص سماوي تام الكمال . [١٢٢]

هذه الصورة المشخصة الساذجة مصدر عراقيل امام انطلاقة الفكر الديني ، واذا امكن للدينيين ان يثبتوه ، فانه يمكن للملاحدة ان ينفوه ، كما سبق ان اوضح كانط . وأحس القديس برنار انه يكرهه من نفس المنطلق الذي تتدفق منه ينابيع الحب للرب الحقيقي . وثار ضده الوجوديون ، لانه يجرد الانسان من ذاتيته وفردانيته وحريته ، أعلن نيتشه موته . فيقول تيليش : (ان فردريك نيتشه ، هذا الملحد الشهير وألد أعداء الدين والمسيحية ، قد عرف عن قوى فكرة الالوهية ، أكثر مما يعرفه غالبية المسيحيين المؤمنين) . [١٢٣]

يؤكد تيليش ان اله العهد القديم فعلاً مات ، او ان هذا المفهوم للالوهية لابد وان ينتهي وراح يبحث عن مفهوم جديد لرب يعلو على الرب . ولعله بهذا يباعد بعض الشيء بينه وبين كلاسيكيات المسيحية

---

(١٢٠) P.Tillich, The Shaking Of The Foundations , P.44

(١٢١) Ibid, P.42

(١٢٢) P.Tillich, Systematic Theology, Vol. I, P.271.

(١٢٣) Op. Cit. P42.

التقليدية ، ويقترب من الطريق الذي شقه المتصوف الوجودي اكهارت . وتيليش يجاهر باعجاب به ، ويحلو له الاستشهاد باقواله . وقد بحث اكهارت عن ربوبية Godnessمفارقة للرب ، للثالوث المسيحي ، لكنه تحدث بعد هذا عن صيرورة او عملية Process الحقيقة ، التي تنبثق من الربوبية الى الكلمة غير المنطوقة (الاب) ، الى الكلمة المنطوقة (الابن) ، الى الحب (الروح القدس) - ان الثالوث : الاب والابن والروح القدس ، او الكلمة غير المنطوقة والكلمة المنطوقة والحب ، يحتويه الله - ومن الحب (الروح القدس) ، الى الخلق المثالي ، الى الخلق الظاهري . . وعلى المتصوف ان يتحد بالحقيقة عبر نفس المراحل ، ولكن بالعكس ، اي يبدأ من الخلق الظاهري .[١٢٤]

اما تيليش فهو اكثر تجريدا ومعقولية ، وذلك من منطلق رفض ان تكون الالوهية موضوعا ، يقبل الاثبات او النفي ، ومفارقا لعالم الذوات ، الرب متعال على عالم الموضوعات ، وبالمثل على عالم الذوات يتجاوزهما ، ويعلو على الثنائية القائمة بينهما ، وبين النفس/العالم . انه لامتناه ، وهذه خاصية لا يشاركه فيه اي موجود آخر ، لذلك فهو مستوى فائق للوجود ، يعلو على الوجود . انه الوجود ذاته ، قوة الوجود التي تقاوم العدم ، عمقه واساسه ، وبالتالي اساس وجودنا . ومنه - من الرب - نستمد شجاعة تأكيد - الذات على الرغم من العدم الذي يهددنا بصوره الثلاث .

وبهذا لايكون الرب كينونة ثابتة ، ماهية استاتيكية ، انه روح حية . فيؤكد تيليش ان يسوع المسيح ليس إلها اصبح انسانا ، بل إنسانية جوهرية ، تجيب على التساؤل الوجودي المطروح ، فتقهر قوة الاغتراب ، قوة الموت والادانة واللامعنى ، وتفتح امام الانسان طريق المشاركة في الوجود الجديد . ومشاركة الانسان حقيقية ، بيد انها جزئية . هكذا تتكاتف المثالية مع الوجودية ، لتحديد الالوهية . والمهم ان ثمة طريقين للتفكير في الالوهية : طريقا لقهر الاغتراب ، وطريقا للقاء غريب . وقد اختار تيليش الطريق الاول .[١٢٥]

● ● ●

ولكن تيليش اطلق لنفسه العنان وهو يفلسف الالوهية . وكيفها تكييفا كي يكون الايمان بها قهرا للعدم الروحي الذي يهدد عصرنا بقلق الخواء واللامعنى ، فكان المرمى لمعظم سهام النقد التي وجهت له . ثار عليه اللاهوتيون والفلاسفة على السواء .

اللاهوتيون التقليديون قالوا ان مفهوم الرب ينبغي أن يملك فى صلب ذاته كل حيثياته ، وتيليش جعله غير مستقل ، بل معتمدا على وجود الوجود ، ووجود الانسان .[١٢٦] وهو فعلا ينكر اية حجة على وجود الرب ولايثبت دليلا الا وعى الانسان بتناهيه ، الذي يعني وعيا بلا متناه . . . برب ، ويدفع الى شجاعة تأكيد الذات التي تقهر التناهي والعدم لتؤكد قوة الوجود ، الوجود - ذاته الرب . فرأى البعض في هذا ان تيليش واتباعه واهمهم الاسقف روبنسون ، انما يواصلون اتجاه اقوى منظرى الالحاد لودفيج فوير بـاخ L.Feuerbach (١٨٠٤ - ١٨٧٢) القائل ان الرب يعثر عليه الانسان داخل ذاته ، في أعماق تأكيده

(١٢٤) E.O, Brien. Varieties Of Mystic Experience, P. 124-125

(١٢٥) P. Tillich, My Search For Absolutes, P.10.

(١٢٦) H.D.Lewis, Philosoby Of Religions, Cit, P.128

لذاته[١٢٧] وانتهى الى ان الانسان هو الذي خلق الرب او مفهوم الرب ، وليس العكس !!

ويسخر كارل بارت من رفض الالوهية التقليدية ، قائلا إن تيليش لايزال يكافح ضد (المفتش الاكبر) لديستويفسكى . واعترف تيليش بهذا ، بل وأكد انه عنصر حاسم في تفكيره . ويرر موقفه بانه يحارب فلول الهترنومي ، نشداناً للثيونومي .

اما الفلاسفة فقد ازعجهم الالتباس الشديد في المفهوم ، والمصطلحات الدالة عليه . ففضلا عن الاهتمام القصي والالوهية والرب ، ثمة الوجود ذاته واساس الوجود وبعد الوجود وعمق الوجود ، وكلها مردودة الى قوة الوجود ، التى هي قوة ان يكون . ويأتي جارنيت A.C.Garnett وهو لايندرج رسميا مع فلاسفة التحليل المنطقي ولكنه يهتم جدا بمنطق اللغة الدينية ، وأثبت بتحليلات مسهبة ان تيليش لو كان ملما بابسط مبادىء التحليل المنطقي واللغوي لأدرك ان حججه تستند الى فشل في فهم منطق فعل الكينونة To Be[١٢٨] . والحق اننا لم نلمس من تيليش اي المام ولا اهتمام بمسألة المنطق وقواعده .

● ● ●

ولعل المهرب الوحيد لتيليش من هذه الانتقادات هو تأكيده ان اللغة العادية تعجز عن ان تقول اي شيء عن الرب حتى كلمة « مطلق » لاتكفيه ، فكل مانقول منتزع من مادة واقعنا المتناهي ، فكيف يعبر عن اللامتناهي ، اللهم الا بصورة مجازية او رمزية ؟ ! ان اللغة الرمزية هي فقط القادرة على التعبير عن القصي[١٢٩] ، والعبارة غير الرمزية الوحيدة التي يمكن ان تقال عن الرب هى كل عبارة يمكن ان تقال عنه عبارة رمزية ،[١٣٠] فكان تيليش من ابرز المعبرين عن التفسير المجازي الرمزي للغة الدينية ، اي النظرية القائلة ان كل العبارات الدينية ومضمونات الكتب المقدسة ليست البتة تقريرات عن وقائع ، بل هي مجازات ، رموز في رموز ، امكانية فك طلاسمها مفتوحة ومتجددة دائما . وقد تمادى تيليش في هذا حتى وجه اليه نقد بانه يعجز عن اعطاء اي وظيفة واضحة او محددة للغة الدينية[١٣١] .

ولكن ليست اللغة فحسب . فتقريبا كل شيء ديني عند تيليش هو رمزي ، حتى حدد المهمة الرسمية للاهوت بانها توضيح وظيفة الرموز .

والرب الذي يظهر في كل فعل من افعال الايمان ، هو الرمز الاساسي لاهتمامنا القصي ، رمز الرموز المطلق الشامل الحاوي لكل الرموز . وكل العقائد الدينية ينبغي ان تفهم على انها محض رموز له . وتيليش - بتعضيد من البروتستانتية - يرفض اعتبار اي شخص او شيء او مؤسسة - مقدسا . لاشيء مقدس سوى المطلق الابدى اللامتناهي غير المشروط - الرب . الرموز الدينية الاخرى كالصليب قدسية لانها تشارك في قدسيته ، لكن المشاركة ليست الدخول في ذات الهوية . لذلك فهي ليست قدسية تحمل قيمتها ومغزاها في حد ذاتها ، بل فقط من حيث هي رموز للحقيقة لقصية - للرب . لذلك يفرق تيليش بين

---

(١٢٧) P.Edwards, Atheism, Art in; Encydepedia For Philosophy, Vol. 1,P.180.

(١٢٨) J.Macqurrie, 20 th Century Religious Thought, Op, Cit, P.314

(١٢٩) P.Tillich, Dynamics Of Faith, P.41.

(١٣٠) P.Tillich, Systematic Theology, Vol. 2., P.93.

(١٣١) W.P Alston, Religious Language, Art in: Encyclopedia Of Philosophy, V S.7.P.173.

مستويين للرموز الدينية : المستوى المتعالي الفائق لواقعنا ورمزه الاساسي الرب ، والمستوى الكامن اي الذي يواجهنا داخل واقعنا التجريبي كتجسد المسيح والعائلة المقدسة والام العذراء . . وبقية الرموز . ولكن الرب ليس مجرد رمز ، انه الوجود ذاته ، اساس الوجود ، لذلك امكن لاشياء تواجهنا في الزمان والمكان ، مأخوذة من خبرة الواقع المتناهية ، كحادثة من التاريخ الديني او معجزة ، ان تكون رموزا له . . للمقدس . ونحن ندركها وندرك قيمتها ومغزاها من خلال التواصل بين الله والانسان من خلال الوحي . وانها تصبح قدسية ، لكن تظل دنيوية تاريخية لافائقة للطبيعة ، لتذكرنا باننا مشدودون الى الاشياء الدنيوية المرئية ، تماما كما نتحدث عن العمق والعميق كخصائص روحية ، في حين انهما مستمدان من الابعاد المكانية .

والرموز الدينية لاتظهر منفصلة ، بل مترابطة في كل واحد . ولايعوزها ان تكون صادقة ، يكفى انها ذات فعالية وجودية ، اي تحتوي على قوة المرموز اليه فتستثير الوعي بقوة الوجود .

اي رمز ـ ديني او غير ديني ـ يفتح لنا مستوى من الحقيقة كان مخبوءا ، والحديث غير الرمزي لايناسبه . وكل رمز له وظيفة معينة لايمكن ان يؤديها غيره ، فلا يمكن ان يحل رمز محل آخر . وهذا هو مايميز الرموز عن العلامات . والرمز الديني هو فقط لاسواه الذي

يفتح لنا المستوى الاقصى للحقيقة ، البعد اللانهائي ـ اي الالوهية . لذلك فهو جوهري جدا في التجربة الدينية الفردية . العقل حين يخوض غمارها بعمق ، يحتويه ماوراء العقل ، ويحتوي هو اياه . فلايمكنه ان يتعامل مع موضوعه مباشرة او في صورة مفهوم محدد ـ فقط من خلال الرمز .

والرمز لايخلق ولايكتسب وظيفته باية نية متعمدة . فعن اي رحم تتخلق دلالته ؟ يقال عن رحم اللاوعي الجمعي . لكن تيليش يقول عن رحم العلاقة المتغيرة ـ تبعا للظروف الحضارية بالقصى ، بالرب .

هكذا نلاحظ ان الرمز الديني يحمل التقاطع ـ او يقف على الحدود بين الموقف الفردي والموقف الجمعي . وحِرْص تيليش الدائم على هذا من أبرز النقاط التي تسجل له ، او للوجودية الدينية عموما . لانه غالبا ما يفلت من أيدي الوجوديين الملاحدة ، او انهم يفشلون في تحقيقه حتى ولو حرصوا واهتموا بمقولة المعية والتشارك .

وأبلغ آيات نجاح تيليش في هذا ، إنما هي انطلاقة تفسيره الديني للتجربة الوجودية الفردية ليغدو من الجهة الاخرى للحدود أساسا مكينا للبناء الحضاري المروم ـ الثيونومي . ولكن لكي يقوم اللاهوت نفسه بهذه المهمة ، فلابد وان يغدو ـ بدوره ـ لاهوتا حضاريا .

د ـ اللاهوت الحضاري :

يمثل تيليش مع كارل بارت الطرفين القصيين اللذين يحصران بينهما متغيرات اللاهوت البروتستانتي المعاصر . بارت يواصل تيار لوثر وكالفن مباشرة ـ (فيقيم لاهوته على أساس مطلقيه الرب ، اي انه ليس موضوعا لمعرفتنا او لافعالنا ، فلا ينبغي ان يطمح عقل الانسان المتناهي لاستكناه سره . الانسان على الارض والرب في السماء[١٣٢] مفارق له ، لقد تعالى علوا كبيرا .

(١٣٢) P.Tillich, A History Of Christian Thought, P.537-538.

المسيحية ليست لها اية اسس عقلانية ، ولاينبغي ان يكون ـ الوحي يحمل في ذاته كل حيثياته ، فيرفض بارت اي دفاع عن الوحي وأي اثبات أو تبرير له بأسانيد انسانية حضارية . اللاهوت لاهوت الكنيسة فقط ، فليدخلها من يريد الحقيقة ويمارس الطقوس الدينية التي لن يفهمها الا المؤمنون . بهذا فقط تدخل الروح المقدسة في النفس الانسانية . هذه هي الصورة التي حددها بارت لاعادة صياغة واحياء المسيحية ، والتي ينبغي ان تتكفل بها البروتستانتية . لذلك يمثل أعنف مهاجمي اللاهوتيات لليبرالية التي تفسر الوحي تبعا لصالح الانسان وحضارته . انها تلك الحركة البروتستانتية التي تفجرت في القرن التاسع عشر . بل ومنذ ايام كانط أصبحت الحضارة هي معيار صدق العقيدة ، وباتت مهمة اللاهوتيين الليبراليين (الاحرار) هي الدفاع عن العقيدة بمصطلحات الحضارة ، وفي حدودها . وتلك سخرية ، نتيجتها مسيحية الحاضر الواهنة وتقلص نفوذها . وعلى هذا يؤكد بارت ان اللاهوت ينبغي ان يقف في مواجهة الحضارة العلمانية ولا يتعامل معها إطلاقا .[١٣٣]

ويمثل تيليش الرفض التام لهذا التقابل بين اللاهوت والحضارة ، ويؤكد ان فلسفته للدين معنية اولا بالعلاقة بينهما ، والتي ينبغي تحديدها على أساس كليهما . الدين لايمكنه ان يهجر المطلق ـ الالوهية ، ولن يسمح لنفسه ان يصبح مجرد منطقة محدودة داخل الحضارة ، او ان يتخذ موقعا بجانبها . وهذا ما حاولته الحضارة الليبرالية ليصبح الدين نافلة ستندثر يوما ما ، لان بنية الحضارة مكتملة بدونه . ان الحضارة بدورها قد ترى انها لن تستسلم للدين بغير ان تتخلى عن استقلالها ـ عن الاوتونومية تماما ، وربما عن نفسها ، وهي لايمكنها ان تتخلى عن الحق والعدل والحرية والعقل باسم المطلق الديني . والحقيقة ان الدين هو الجوهر غير المشروط للحضارة ، والحضارة هي الصورة المشروطة للدين[١٣٤] .

ان تيليش يستأنف الطريق الذي شقه تلميذه شلنج ، إمام اللاهوت الليبرالي فردريش شلايلاماخر F.Schleirmacher (١٧٦٨ ـ ١٨٣٤) والذي اعتبره ابا للاهوت البروتستانتي الحديث والمعاصر بامره . فاذا اخذنا في الاعتبار انه قام ليختلف عن اللاهوت الارثوذكسي والكاثوليكي ، فلابد وان يكون تركيبا من الله والانسان . وقد قام شلايرماخر ـ على حد تعبير تيليش ـ بهذا (التركيب العظيم) . وهو ، وان لم ينكر فلسفة التنوير ، لكنه بتركيبه ، انتصر عليها في قلب المجال اللاهوتي . فقد كان الدين في عصر التنوير فقط لتحقيق الامر الاخلاقي . اما في المجال المعرفي فالفصل تام بين الرب والانسان وعالمه ، بحيث يتساوى الايمان والالحاد . وجاء شلايرماخر ليرفض هذا الفصل . لم يقل بوحدة الوجود الصوفية ، لكنه تمسك بمبدأ هوية الله في العالم . والمصطلح الذي استعمله للخبرة بهذه الهوية هو الشعور . الدين ليس معرفة نظرية ، ولا مجرد فعل أخلاقي ، انه أساسا شعور بالاعتماد المطلق على غير المشروط ـ على الرب . والشعور ليس البته عاطفة شخصية ، انه حدس بالكلي غير المحدود ، وبضغوطه على عمق أساس الوجود . هكذا قدم شلايرماخر للمثقفين التنويريين الذين ينكرون الدين ، فلسفة تخلق فيها جديدا للدين ، يقوم على ان كل لاهوت لابد أن يجيب بطريقة أو بأخرى

(١٣٣) F.Macgill I.Mc Greem (ed) Master pieces Of World Philosophy P.1139–1140.
(١٣٤) P. Tillich, On The Boundary, P. 69–71.

على السؤال الذي يطرحه العقل الانساني في كل مرحلة حضارية[١٣٥] . وقدم ايضا الطريق الذي يسير فيه تيليش ، كما هو واضح .

وتيليش بوقوفه على الحدود بين الدين والحضارة ، بين الموقف الفردي والجمعي ، يؤكد كما اكد القديس اوغسطين ان المجتمعات تشكلت على اساس ولائها القصي لموضوع ما للحب المشترك يؤكد ان الاهتمام القصي ، لايشكل تجربة الفرد فحسب ، بل وايضا المجتمع ، فيحد القيمة والمصير لكل امة او جيل ويتغلغل في كل منتجات الحضارة خصوصا الفن ، ويعطيها طابعها الفريد ، لذلك لابد وان يحلل اللاهوتيون هذه المنتجات لكي يضعوا الاصبع على العقيدة في كل موقف حضاري . وفهم الموقف الحضاري بدوره يستلزم قبلا معطيات قيمية وتوجهات وجودية . انه اذن دائرة مغلقة تبدأ من العقيدة الدينية وتنتهي اليها .

يتوغل تيليش في اللاهوت الحضاري ، مستندا الى التمييز بين الدين كعقيدة تمثل تجربة وجودية عميقة وتصلح أساسا للبناء الحضاري ، وبين الدين بممارسته الصورية وطقوسه الشكلية التي اعلن انها غير ذات اهمية أطلاقا . او بتعبيره اللاذع « الختان او عدم الختان ، ليس هو المشكلة » ولن يمثل حجة للمسيحية ـ في مواجهة الاديان الكبرى الاخرى او العلمانية والمثالية الاخلاقية ـ ان طقوسها ابسط او شعائرها افضل ، خصوصا وان العلمانية والمثالية وما اليها سوف تتباهى بانها متحررة اصلا من الطقوس وايضا الخزعبلات ، تجد المسيحية في بساطتها التي تلخصها كلمتا القديس بولس (الوجود الجديد) صورة جديدة لحضارة الانسان[١٣٦] . ولم يعتبر تيليش الوعظ مهمة احترافية وكان قليل بل عديم الاهتمام بالدعوة المستهلكة الى الوصايا العشر . وبالاطلاع على مواعظه نلقاه لايلجأ البتة الى الوعد والوعيد بالجنة والنار فهذه الاساليب لم تعد تجدي كمدخل للتجربة الدينية في عصرنا هذا . المدخل الحقيقي الفعال هو التجربة الوجودية ، بل ولم يعتن بالمشاكل التقليدية للاهوت المسيحي . وفي كتابه (الموقف الديني ، سنة ١٩٢٩) أعلن انه لا يدافع عن اي مضمون محدد للوحي ، كالتجسيد والعشاء الرباني . . بل يدافع عن العقيدة المسيحية في تفسيرها الصحيح كعلاقة ابدية بين الله والانسان ، متضمنة دوما في أوجه الحضارة .

وليس الدين سرا ملغزا لا شأن للعقل به كما راى بارت ، ولا هو في حاجة الى الميتافيزيقيات المجردة التي امعنت الكاثوليكية في إثقال كاهله بها « وليس ثمة لغة قدسية هبطت من سماوات علوية ، ووضعت بين غلافي كتاب . اللغة الدينية لغة عادية ، تتغير تبعا للقوى التي تعبر عنها »[١٣٧] فيمكن ان يفهم الدين جدا ، ولكن في إطار التاريخ والحضارة الانسانية . تماما كما أنها يمكن ان يفهما من زاوية دينية .

• • •

وعلى هذا الاساس قام (اللاهوت النسقي) لتيليش ، ليؤكد أن ثمة عدة وجوه للانجيل ، كل وجه يلائم عصراً من العصور . ومصادر اللاهوت النسقي ثلاثة : الانجيل وهو طبعا المصدر الاساسي ، والتقليد ، وتاريخ الدين والحضارة . ولكن ما هو

---

(١٣٥) P.Tillich, AHistory of Christian Thought, P. 387 Ff.

(١٣٦) P. Tillich, The New Being, P. 16–17

(١٣٧) P.Tillich, Theology of Culture. P. 48.

معيار Norm الالتجاء الى هذه المصادر ، والاخذ منها ؟ المعيار هو التساؤل الوجودي الذي تطرحه طبيعة الحضارة في مرحلتها التاريخية المعينة .(١٣٨) فقد ساد في نهاية الحضارة القديمة القلق الاونطيقي ، وفي نهاية العصور الوسطى ساد القلق الاخلاقي ، اما في العصر الحديث فيسود القلق الروحي . وسيادة نمط يحدد المعيار اللاهوتي لاينفي ان النمطين الآخرين حاضران ومؤثران كما سبق ان اوضحنا .(١٣٩)

شهدت نهاية العصور القديمة صراع الامبراطوريات : غزو الاسكندر للشرق ، الحروب بين اتباعه وقادته ، غزو روما للشرق والغرب ، تحولها لامبراطورية على يد قيصر ، طغيان الاباطرة ، انهيار المدينة المستقلة ، والدولة القومية ..... وتلاشى البقية الباقية من البني الارستقراطية - الديمقراطية للمجتمع . ساد الفرد شعور بان مصيره في يد قوة سياسية او طبيعية هائجة لايرتكن اليها ، سيطر القلق الاونطيقي ، وصار التساؤل الملح عن المصير والموت . فكانت الكنيسة القديمة مشغولة بالموت وصاغت لاهوتا يجعل الا نجيل يهب الانسان الخلود ، ولاسيما من خلال المشاركة في ماهية المسيح .

لقد كان التأثير الحاسم للرسالات السماوية في العصور الوسطى هو تفاقم واتخاذ رمز القلق الاخلاقي ، هو غضب الرب وبطشه وعقابه الرهيب . فكانت مظاهر الحياة الدينية التي طبعت العصر كالحج والاستغفار والولاء للايقونات .. من اجل نوال الرحمة الالهية ومغفرة الذنوب . فكانت الكنيسة مشغولة بالاجابة عن تساؤل الذنب والادانة ، بالخطيئة وبالاله الغفور الرحيم ، وصاغت لاهوتا يجعل الانجيل يهب الانسان الخلاص وطريق التوبة والغفران . وتفاقم الامر حتى انتهى بصياغة صكوك الغفران !!

ثم ظهر العصر الحديث بسقوط الحكم الاستبدادي ، ونمو الليبرالية والديمقراطية ، ثم نشأة الحضارة التقانية . ان ماحدث انتصار للانسان على القوى الهائجة السياسية والطبيعية معا ، فتراجع قلق الموت . ولما كان الانتصار للانسان لاعليه فقد أكسبه ثقة بنفسه وببلوغه سن الرشد ، فتراجع ايضا القلق الاخلاقي ، وصار العدم الروحي هو المسيطر . والسؤال الوجودى لعصرنا ، والذي يشكل معيارنا لصياغة اللاهوت من مصادره الثلاثة انما هو عن تأكيد - الذات على الرغم من الخواء واللامعنى . والاجابة التي نخرج بها من الانجيل هي انه يعطينا الامان ويدرأ عنا العدم الروحي الذى يهددنا حين يمنحنا فرصة المشاركة في القوة اللامتناهية للوجود - ذاته ، الرب ، عن طريق الايمان به . هذه هي اجابة الانجيل عن سؤالنا المعاصر . (وهي لاتلغي إجابتي المرحلتين السابقتين ، ولا تحل محلهما) .(١٤٠)

وبسهولة يمكن ملاحظة كيف ان روح التثليث المسيحي قد شعّبت هذه النظرة ، سواء بوعي او بدون وعي من صاحبها . فاللاهوت ثلاثي المصادر ، يتصدى لثلاثة أسئلة ، ليعطي ثلاث إجابات ملائمة لثلاث مراحل حضارية ، عانت أنماطا ثلاثة من القلق ... لكن تيليش أسير المشروع الثقافي الغربي ، أطر الحضارة الغربية هي القضبان الحديدية التي يصب فيها فكره ، اللاهوتي والفلسفي على السواء !

● ● ●

(١٣٨) P.Tillich, Systematic Theology, Vol. 1,P.34 Ff.
(١٣٩) P.Tillich, The Courage To Be, P.57.
(١٤٠) W.Nicolas, Systematic And Philosophical Theology, Op. Cit. P.236.

فهل يشفع له ان تعامله المرن مع اللاهوت مكنه من العناية بالحوار بين الديانات المختلفة على أساس أنها جميعا تملك عنصرا مشتركا يتمثل في أن الالوهية هي الاهتمام القصى ، وكأنه يواصل حلم او مشروع ابن عربي ، بوحدة الاديان ؟ ربما كان يدفعه من أعماقه شعور محض بان الحرب العالمية حدثت بسبب من نماء وتعاظم النزعة القومية ، مما جعله يحلم دائما بمجتمع يضم البشر أجمعين .

يقول تيليش «حوار، لا مواجهة فلا ينبغى ان تنافس الاديان الكبرى بعضها، بل عليها ان تلتقي معا من اجل مواجهة التحدي الحقيقي وهو أشباه الديانات المعاصرة من قبل النزعة الانسانية الليبرالية والنزعة القومية والشيوعية والفاشية والنازية والعلمية المتطرفة. . الخ» وتيليش يقول عنها أشباه Quasi ديانات وليس ديانات زائفة Pseudo لانها تحمل تماثلا مع الدين من حيث قوة استحواذ الاهتمام القصي ، على الشخص ، ولحد قد يدفعه لتكريس الحياة، وربما بذلها. إن الدين لن ينتهي أبدا، والهجوم الحقيقي عليه من هؤلاء. فلتتحد الاديان معا من أجل السؤال المطروح عن مستقبل الدين في مواجهة انتصار العلمانية الاوتونومية، الذي عم وساد في معظم أنحاء العالم الآن.

يقول تيليش صراحة: (إننا نسيء الى يسوع حين نقر بأنه مؤسس ديانة جديدة او آت بشيء آخر انقى واصفى) [١٤١] لم يكن يبحث الا عن الوجود الجديد. والمسيحية بغير أن تفقد أسسها التاريخية يمكنها استيعاب الكثير من العناصر في الجهود الفلسفية القديمة للتوفيق بين الديانات المختلفة فالمسيحية نفسها لم تحدد موقفها حيال الاديان الاخرى، ولا ألغتها جميعا. أنبياء اليهود اعتبروا الهة الديانة الوثنية مجرد قوى أدنى من (يهودا) خصوصا فيما يتعلق بالتنبؤ بالمستقبل وتحديده والاستجابة الى الصلوات ونشر العدالة. الآلهة الاخرى حقائق منافسة، ويهوه له القوة العليا. ثم كان يسوع ليؤكد مطلقيه الرب، وانه الوجود الفريد الذي لا يقارن ولا ينافس. ومع المسيحية المبكرة كان الحكم على الاديان الاخرى تحدده فكرة اللوجوس اليوناني (العقل / الكلمة) الذي هو كائن في معظم الاديان الاخرى [١٤٢]

كل هذه الحقائق المعروفة جيدا، والتي تعنى العالمية المذهلة للمسيحية، ينبغي ان نأخذها الآن في الاعتبار ونحن ننظر في المواجهة بين المسيحية والأديان الاخرى لندرك أن المسيحية لم تنظر لذاتها ابدا بوصفها الديانة التى تستبعد تماما أو تنكر إنكارا مطلقا أية ديانة أخرى ، انها لم تفقد تبصُّرها وتفعل هذا الا بعد النجاح المذهل السريع للاسلام، وانتزاعه لدول من المسيحية، أهمها مصر. انه محصلة لاول مواجهة للمسيحية مع ديانة جديدة للعالم والحملات الصليبية أقوى تعبير عن هذه الخاصية غير العقلانية والاستحواذية التي اكتسبتها المسيحية تحت تأثير نجاح الاسلام، وهي في الوقت نفسه أقوى دليل على ان المسيحية كانت تحارب حكما سياسيا قويا واستبصارا دينيا عميقا [١٤٣].

ان مشكلة المسيحية في مواجهة من يرفضونها ويتمسكون بديانات اخرى ليست حق الرفض، بل

---

(١٤١) P.Tillich, The Shaking Of The Foundation, P.99

(١٤٢) P.Tillich, Christianity, And The Encounter of The World-Religions, P.31.Ff.

(١٤٣) Ibid, P.38.

طبيعته. فاذا كان رفضا شاملا فهو خطأ لانه لا يجعل أرضية مشتركة تكفل قبولا او رفضا. اما اذا كان رفضا لاجزاء وقبولا لاجزاء، فهذا موقف أكثر تسامحا، لكنه أسلوب تجزيئي لا يناسب الحكم على الدين، ولا حتى على الفلسفة. اما أسلوب الرفض الثالث فهو مركب جدلي من الرفض والقبول. وهذا هو الموقف الذي ينبغي التمسك به، لانه يمكن ان يخلق أرضية مشتركة بين الديانات المختلفة (١٤٤)

●●●

ويبقى أخيرا المحك وآية الانضباط، يبقى المنهج. والواقع أن تيليش أضفى النسقية على لاهوته، فغذّى اللاهوت المسيحي عموما وأثراه، حين قدم منهجه الفريد، منهج التضايف Method of Correlation الذي يحمل سمة تيليش المميزة، فيحلو له أحيانا أن يسمى لاهوته (لاهوت التضايف).

ومنهج التضايف ـ بحكم طبيعة المنهج ـ الاطار لكل ما سبق. إنه تبرير وتعميق اللاهوت بأن نضايفه إلى الموقفين الفردي والحضاري. وقد كانت وظيفة الكنيسة دائما هي الاجابة عن التساؤلات المتضمنة في كل وجود إنساني. فلابد وأن يستغل اللاهوت المادة الضخمة والعميقة للتحليل الوجودي في كافة المجالات الحضارية، وهو لا يستطيع أن يقبلها ببساطة. فكيف إذن؟ الكيفية أو المنهج هو (ان يأخذ بيمناه تحليلات الموقف الوجودي وبيسراه رسالة الوحي المسيحي، ويضايف الاسئلة المتضمنة في الأولى على الإجابات المتضمنة في الثانية) (١٤٥) أي يواجه التحليل الوجودي بالرموز التي عبرت بها المسيحية عن الاهتمام القصى. وهذا هو المنهج الملائم لكل من رسالة يسوع والمأزق الانساني كما تكشف في الحضارة المعاصرة. والبروتستانتية بما تنطوي عليه من نزعة نقدية ورفض التبعية المطلقة للسلطات الدينية أمر جيد لكن لابد لها من البعد البنائي من الوجود في قلب التوتر، على الحدود بين البنائي والتصويبي (١٤٦) وحين تجعل من العقيدة إجابات عن أسئلة الوجود الانساني في مرحلته التاريخية المعينة، فسوف يتحقق البعدان التصويبي والبنائي، وسوف يتعين على اللاهوت أن يتواجد في توترات حقائق الوحي مع الموقف الوجودي والحضاري للإنسان.

والإجابة اللاهوتية ليست مشتقة من التساؤل الوجودي، لأن الفلسفة الوجودية لا تعطي ابدا أية إجابة بل تحدد شكلها فقط. والسؤال لا يحدد الإجابة بأكثر مما تحدد الإجابة السؤال. الإثنان متضايفان التضايف أساس فلسفي عام، حتى إن الوحي هو التضايف بين العقل وبين أساس الوجود ـ الألوهية.

من الواضح أن التضايف هو منهج الربط بين اللاهوت والحضارة، على الأسس الوجودية. وبنظرة أعمق نلاحظ أنه منهج الربط بين المقاطعات الشاسعة، التي أراد تيليش أن يقف على الحدود بينها. فهل تراه استطاع؟

ـ أعماله:

على الرغم من أن تيليش يميل، كدأب الألمان، إلى نحت مصطلحات جديدة، مما يضفي على كتاباته صعوبة ما بالنسبة للقارىء العادى، فإنها تتميز

(١٤٤) Ibid, P.29-30.

(١٤٥) P.Tillich, Systematic Theology, Vol. 1., P.8

(١٤٦) P.Tillich, The protestant Era, P.208.

بسلاسة أخاذة وعذوبة آسرة وصدق حميم متوهج ومنتصر في آن واحد، يجذب مجامع قلب القارىء. لذا حازت أعماله الكثيرة على شهرة عريضة وانتشرت انتشارا واسعا، حتى بين أوساط غير المعنيين لا بالمسائل الدينية ولا بالمسائل الفلسفية، وكان لها تأثيرها الكبير على الفكر والثقافة في العالم المتحدث بالانجليزية، اكثر من تأثيرها على العالم الألماني. لقد كتب المقالات والكتب في المرحلة الأولى من حياته حتى عام ١٩٣٣ بالألمانية. ولما هاجر إلى الولايات المتحدة كتب بالانجليزية كما أن معظم أعماله الهامة ترجمت إلى الإنجليزية، وسوف نشير إلى ذلك تفصيلا فيما يلي:

أولا: الكتب (★) : ـ

١ـ Das System der Wissenschaften nach gegenstanden und Methoden: Ein Entwurf, 1923—

«نسق العلوم تبعا لموضوعاتها ومناهجها: مشروع أو تخطيط عام لتطوير مفهوم واضح للعلاقة المنطقية بين اللاهوت والفلسفة، (العلوم) هنا مقصود بها علوم اللاهوت والفلسفة.»

٢ ـ «التحقيق الديني».

Religio se Verwirk Lichung, Berlin, 1929.

هذا الكتاب أول أعماله اللاهوتية الضخمة وهو أصلا مجموعة مقالات. وتحقيق البروتستانتية بالذات هو ما أوحى له بهذا العنوان. والحق أن الكتاب لاهوتي، لكن يتطرق ايضا للمسائل السياسية. وفيه استعمل لأول مرة التعبير «على الحدود»، إذ كتب يقول: على الحدود أفضل موقع لاكتساب المعرفة وسرعان ما أدرك أن هذا التعبير خير ما يدل على موقفه جملة وتفصيلا، إنه رمز لحياة تيليش وفلسفته وآرائه . . . الخ، ككل وكاجزاء.

٣ ـ القرار الاشتراكي

Die Sozialistische Entscheidng, Potsdam, 1933

في هذا الكتاب يوضح تيليش لماذا تقبل المذهب الاشتراكي بصورته الفلسفية. فهو يحوي فيها جديدا عن طريق المقارنة بأقوال المسيح، وتبيان العنصر النبوئي والتضمنات الدينية للفلسفة الماركسية، وهذا ما تكرر كثيرا في أعمال تيليش بعد ذلك.

٤ ـ (الموقف الديني)

The Religious Situation, New York, 1932.

أشهر أعمال تيليش، وأكثرها تعبيرا عن فلسفته ككل وإجمالا لخطوطها العامة وهو أصلا مجموعة مقالات والكتاب صدر في ألمانيا عام ١٩٢٨، ثم ترجمه راينهولد نيبورا ليصدر في نيويورك قبل هجرة تيليش إليها.

٥ـ (تأويل التاريخ)

The Interpretation Of History, 1936.

وهو أيضا صدر في ألمانيا. ثم قام رازيتسكي N. A. Razetiski وتالمي E. A. Talmey بترجمته ليصدر في نيويورك وهو يقدم التفسير الوجودي للتاريخ من زاوية الاشتراكية الدينية الألمانية.

٦ ـ (يوميات ترحالي) خواطر عامة، لاهوتية وفلسفية

My Diary Travel, 1936

٧ ـ (الحقبة البروتستانتية). The Protestant Era, 1948

مجموعة مقالات. وبعد صدورها بالالمانية بعشرين عاما، اختارها وجمعها وترجمها إلى الانجليزية جيمس لوثر آدمز J. L. Adams لتدور حول تحديد الخطأ في الحضارة المسيحية وهل البروتستانتية تحتاج إلى بعث

واعادة صياغة، أم أن الحقبة البروتستانتية ستنتهي إلى غير رجعة.

٨ ـ (زعزعة الأسس)

The Shaking of The Foundation, 1948.

وهو أصلا مجموعة مواعظ. لذا يأتي بلغة بسيطة يفهمها الجميع، بعيدة عن المصطلحات الفنية والتعبيرات المركبة والصياغات النسقية المعقدة، ليوضح التضمنات العمليةالوجودية للاهوت. ويستغل ـ خصوصا في الفصل الأول الذي يحمل نفس العنوان ـ الظروف المأساوية التي خلفتها الحرب، ليطور ويخرج الصياغة النهائية للتساؤلات الوجودية والحضارية الملحة.

٩ ـ (الوجود الجديد)

The New Being, 1955

مجموعة مواعظ كذلك، بلغة مبسطة. يقدم الاجابة عن التساؤلات التي صاغها في (زعزعة الأسس)، بحيث يمكن اعتباره جزءاً ثانيا له

١٠ ـ (الأخلاقيات وما وراءها) طبعا الاخلاق الثيونومية.

Morality And Beyond

١١ ـ (اللاهوت النسقي).

Systematic Theology

أضخم أعماله ـ وأهمها على وجه الإطلاق. فهو معالجة فلسفية دقيقة لمسائل اللاهوت والاعتقاد. يقع في ثلاثة اجزاء. الجزء الأول بالذات له أهمية خاصة، لأن تيليش يطرح فيه تخطيط النسق ككل» ويحدد مقولاته الأساسية، ويطور منهجه ـ منهج التضايف. الأجزاء الثلاثة كالآتي:

ج١ العقل والوحي، الكينونة والرب.

Vol.I: Reason And Revelation, Being And God, 1951—

ج٢ الوجود والمسيح

Vol.II: Existence And The Christ, 1957.

ج٣ الحياة والروح، التاريخ ومملكة الرب.

Vol.IYI: Life And The Spirit, History And The Kingdom Of God, 1963

١٢ ـ (الآن الأزلي)

The Enternal Now, 1952.

تحليل عميق للموقف الديني، يقتحم أعمق أغوار معضلة الإنسان المعاصر، لكي يمنحه في النهاية الحضور الدائم للأبدية الألوهية، كحل ناجح للمعضلة.

١٣ ـ (شجاعة الكينونة)

The Courage To Be, 1952.

هو أصلا مجموعة محاضرات (حيفور) يحمل تحليلا وجوديا عميقا للموقف الروحي للإنسان المعاصر، يثبت مدى احتياجه للدين. وهو أهم أعمال تيليش بالنسبة للمعنيين بالفلسفة، وخصوصا الوجودية إنه على وجه التحديد حجر الزاوية ونقطة الالتقاء التيليشية بين الفلسفة الوجودية والإيمان بالدين.

١٤ ـ «الحب والقوة والعدالة»

Love, Power, Justice, 1955

ـ هذه المفاهيم الثلاثة يعتبرها تيليش جذرية أساسية لا يمكن تفاديها في كل منعطف من منعطفات اللاهوت والفلسفة على السواء. الكتاب يحدد فلسفة الانطولوجيا لتيليش. وله ترجمة عربية مذكورة.

١٥ ـ Biblical Religion And The Search For Ultimate Reality, 1955

ـ (الدين الإنجيلي والبحث عن الحقيقة القصية) يحدد من الإنجيل الدعاوي المطروحة فيه، ذات الصلة الوثيقة بمبحث الانطولوجيا.

١٦ ـ (ديناميكيات الإيمان)

Dynamics Of Faith, 1957

كتاب صغير الحجم كبير المضمون يجيب عن تساؤلات حول: ما هو الايمان، صدق الإيمان ما الذي لا يكونه الايمان: أي ما الذي يفسده ويشوهه، رموز الإيمان، أنماط الإيمان، صدق الإيمان ، حياة الإيمان

١٧ ـ (لاهوت الحضارة)

Theology Of Culture, 1959.

مجموعة مقالات، تدور حول فحوى وجوهر فكر تيليش ـ أي الصلة الوثيقة بين الوحي والدين وبين أوجه الحضارة ـ اختارها وأعدها للنشر في صورة كتاب ر. س. كمبل R. C Kimball

١٨ ـ «المسيحية ومواجهة ديانات العالم» Christianity And The Encounter of The World Religions 1964.

ـ حصيلة دعوة تلقاها لإلقاء محاضرات في اليابان، حول هذا الموضوع، والمحاضرات أو الكتاب في حقيقة الأمر درس عميق في اصول وحيثيات وفلسفة التسامح الديني. إنه الإنجاز الذي أنجزه تيليش وحضارتنا المعاصرة فعلا في أمس الحاجة إليه، وإن كان تيليش شخصيا لم يلتفت لهذا، وكأن تحديد نقطة الالتقاء التي ينبغي أن تجتمع فيها كل الأديان في العالم أمر يسير.

وبعد وفاته عام ١٩٦٥م، نشرت له الكتب الآتية :

١٩ ـ (على الحدود)

On The Boundary, 1966.

السيرة العقلية الذاتية لتيليش، يوضح فيها تطوره العقلي، فكان لابد وأن يكون عنوانه هذا التعبير الأثير لتيليش.

٢٠ ـ (بحثي عن المطلقيات)

My Search For Absolutes, 1967.

الجزء الأول منه سيرة ذاتية لحياته. وبقية اجزائه مناقشة لقضية المطلق والنسبي في مجالات الحقيقة والأخلاق والدين. والكتاب مزود برسوم سيريالية وكاريكارتورية بريشة سول شتاينبرج Saul Steinberg، ومقدمة توضح أوجه التلاقي بين فكر تيليش وفن شتاينبرج، خصوصا في تصورهما للمطلق أو بحثهما عنه، يلفت نظرنا رسم ص ٥٩ الذي يصور الواقع كواقع سيزيف كما يوحي حجر متدحرج، وفي مقابله المطلق في صورة نصف دائرة لانهائية، تحوي بداخلها الهرم المصري الخالد وبجواره النخلة المصرية الرشيقة. إنه يترسب في وجدان كل مكان من العالم المتحضر: مصر بحضارتها الفرعونية العظيمة رمزا رامزا لبداية وغاية المطلق الذي استطاع الإنسان أن يصل إليه. وقد تكرر رمز الهرم والنخلة في رسوم أخرى.

٢١ ـ «تاريخ الفكر المسيحي ، منذ أصوله اليهودية واليونانية وحتى الوجودية» A History of Christian Thought: From Its Judiac And Hellenstic Origins To Existentialism, 1967.

ـ مرجع ضخم وممتاز للباحثين. فهو كتاب مدرسي أو أكاديمي بالمعنى الحرفي للكلمة، حتى أنه مزود بأسئلة وإجاباتها النموذجية. يقدم مسحا شاملا لتاريخ الفكر الأوربي من الزاوية اللاهوتية. وهو أصلا محاضرات لتيليش أعدها للنشر في كتاب س. إ. براتن C. E. Braaten

●●●

ثانيا: المقالات:

يقول تيليش إن متطلبات الواقع تجعل عمله أساسا في صورة مقالات. وبعض كتبه ـ كما أشرنا ـ تجميع لمقالات. إنها كثيرة تفوق الحصر. لكن المقالات الآتية لها أهمية خاصة:

١ ـ Logos und Mythos der Technic, Logos (Tubingen,) XVI, No, 3 (November, 1927).

ـ (لوجوس التقنية وأسطورتها).

اللوجوس يرمز إلي الجوانب العقلانية أو الخاضعة للعقل في الحضارة التقانية، أما الأسطورة فترمز إلى ما يفوق أو ينقض العقل فيها.

٢ ـ Die Technisch Stadt als Symbol, Dresdner Neueste, Nachrichten, No. 115, 17 May, 1928.

ـ (المدينة التقانية بوصفها رمزا)

هاتان المقالتان الألمانيتان ـ أي المبكرتان ـ توضحان كيف أعطى المدينة حق قدرها ـ فوقف على الحدود بينها وبين الطبيعة، ولم يفتنه حب الأخيرة أو يعم أبصاره عن منجزات الحضارة الحديثة التي تبلورها المدينة.

وبالنسبة للاشتراكية الدينية:

٣ ـ Masse Und Geist: studen zur Philosophie der Masse, Volk und Giest, No. 1.

Berlin/ Frankfurt a. M; Verlag der Arbeitsge-mein — Schaft, 1922.

ـ (الكتلة والروح: دراسة في فلسفة الكتلة، وهي المقالة الأولى من كتاب «الشعب والروح»، الصادر عن دار نشر العمل الجماعي.

يوضح تيليش في هذه المقالة نظرية (الكتلة الديناميكية) أي ذات القوة المؤثرة، التي استوحاها من أجواء البحر. المهم أن نلاحظ التورية التي يحملها مصطلح (الكتلة بالالمانية die Masse وبالانجليزية mass) فهي تعني الكتلة بمعنى فيزيائي أي قطعة المادة، أو بتعبير أدق مقدار ما يحتويه الجسم من مادة، ويعني أيضا الجماهير وهذا هو المعنى المقصود. وعلى وجه التحديد كمقابل للصفوة أو الإنتليجنتسيا Intelligentsia فالمقال مناقشة فلسفية للعلاقة بين الشخصية الفردانية وكتلة الجماهير، من النواحي السياسية، وايضا الوجودية.

٤ ـ Grundlinien des religiosen Socializmus: Ein Systematischer Entwurf, Blatter fur religiosen Socializmus, Berlin, IV. No.8110 — 1923.

ـ (مبادىء الاشتراكية الدينية: مشروع نسقي)

وكما هو مذكور منشورة في مجلة «اوراق من أجل اشتراكية دينية» التي كانت تصدرها حركة الاشتراكية الدينية القديمة، في ألمانيا. والمقال يحمل تخطيطا عاما لتصور تيليش للاشتراكية الدينية.

٥ ـ Das Problem der Macht: Versuch ener Philosophisch en Grundlegung, Neue Blatter fur den Socializmuse, Potsdam. Alfred Protte, 1933.

ـ (مشكلة القوة: محاولة تأسيس فلسفي)، وهي في مجلة (أوراق جديدة للاشتراكية) التي أصدرها تيليش مع زملائه الشباب. وهو في هذا المقال لا يتخذ الموقف الاشتراكي العادي المناهض للبرجوازية بل يحاول أن يقف على الحدود بينها وبين البروليتاريا، فاساء فهمه كثير من الاشتراكيين، حتى من هم من أخلص أصدقائه.

أما بالنسبة للاهوت، فالمقالات الألمانية الهامة هي:

٦ـ Rechtfertigung Und Zweifel, Vortrage die theologischen konferenz zu Giessen, 39 Flage. Gissen: Alfred Topelmann, 1924.

(التبرير والشك)

يقارن فيها بين الشك والخطيئة، كلاهما متأصل في الطبيعة الإنسانية. وكما أن غفران الخطيئة متأصل في المسيحية، فلابد وأن يكون الأمر كذلك بالنسبة للشك.

٧ـ Religionspilosophie, Lehrbuch der Philosophie, ed. Max Dessior, Vol 2: Die Philosophie in ihren Einzelgebieten. Berlin, Ullstein, 1925.

ـ (فلسفة الدين)، فصل من كتاب فلسفي ضخم، وضع بهدف التدريس.

٨ـ Die Ideer der Offenborung, Zeitschrift fur theologie und kirche (tubingen, N.F, VIII, No. 6. (1927).

ـ (فكرة الوحي)

يقول فيها إن المسألة متناقضة ظاهريا، لكنها تماما مثل فكرة غفران الخطيئة.

٩ـ Protestantismus aks Kritik und Gestaltung. Darmstadt: OttoReichl, 1929.

ـ (البروتستانتية بوصفها نقدا وبناء)

المقال فصل من كتاب اشترك فيه مع آخرين، لبحث امكانية تحقيق البروتستانتية.

١٠ـ Kirche Und humanistische Gesellschaft, Neuverk (Kassel), XIII, No. 1. (April — May 1931).

ـ (الكنيسة والمجتمع الإنساني).

يناقش العلاقة بينها، ويميز بين الكنيسة المعلن عنها، والكنيسة في باطنها. وكان هدفه أن يجذب حركة المسيحية الإنسانية المنشقة عن الكنيسة أو الكائنة خارجها.

ويمكن ملاحظة أنه في المرحلة الأولى من حياته ـ في وطنه ألمانيا ـ كان اكثر اهتماما بالاشتراكية وبعد أن هاجر إلى أمريكا أصبح أكثر اهتماما بالوجودية. لكنه دائما اشتراكي ووجودي معا، ومن قبل ومن بعد لاهوتي بروتستانتي. أو لم نره (ص٤) يبرر تراجع البروتستانتية عن الاراضي الوجودية بضغط وتأثير الليبرالية الرأسمالية، التي هي على وجه الدقة الحضارة الأوتونومية؟

ولأهمية الرمز في فلسفة تيليش اللاهوتية، فإن أهم مقالاته التي كتبها بالانجليزية، هما المقالتان:

١١ـ The Religious Symbol, in Journal of Liberal Religion, Vol. 2. No. I. Summer 1940., pp. 13 : 33.

١٢ـ Theology and Symbolism, in F. E Johnson (ed), Religious Symbolism, New York, 1955.

ـ اللاهوت والرمزية (مساهمة تيليش في هذا الكتاب: الرمزية الدينية)

هذا بخلاف العديد الجم من المقالات الصحفية السريعة في المجلات والجرائد اليومية، والمحاضرات في المجامع العلمية. على أن هذا الكم الهائل من الأعمال لا يوازيه نفس الكم في مضمون فلسفة تيليش. فبعض كتبه تلخيص أو تبسيط للبعض الآخر، أو بالكثير دخول من زاوية أخرى، ولك أن تتوقع نفس المضمون تقريبا في الغالبية العظمى من هذه الأعمال، حتى أن (اللاهوت النسقي) يغني عن ثلاثة أرباعها. لا يجعلك تمله فقد ظل محتفظا باتقاده حتى آخر لحظة في حياته.

Supplementary Bibliography
Works On Tillich

– Adams, I. L, paul Tillich's philosohy Of Culture, Science And Religion, Harper Row, New York, 1965.
– Kegley,c W. Bretall, R. W, The Theology Of Paul Tillich, New York 1952.
– Kelsey. D.H, The Fabric Of Paul Tillich's Theology. 1964.
– Lyons, I.R, (ed), The Intellectual Legacy Of paul Tillich, Detroit, 1969
– Rheim, C., paul Tillich: Philosophy And Theology, 1967.
– R.W.L, Religious Symbols And God: Aphilosophical Study Of Tillich's Theology, 1968.
– S.Charlemann, Reflection And Doubt in The Thought of Paul Tillich, 1969.
– Unhjem, A, Dynamics of Doubt: A preface To Tillich, 1966.
– Wilhelm Marion, Paul Tillich: His Life And Theology, 1976.

مطالعات

طه حسين وقضية الترجمة

يوسف بكار
أستاذ النقد الأدبي بجامعة اليرموك
أربد ـ الأردن

ـ ١ ـ

قضية الترجمة «باقية» من «باقيات» طه حسين، وركيزة من ركائز دعواته الفكرية والعقلية والثقافية، ومجال من مجالاته الخصبة الكثيرة. لم يتصد لها، الى الآن فيما أعلم، أحد تصديا جزئياً كافياً أو كلياً يرصد أبعادها ويكشف لبابها، ولم تثر فيما خلا هبات جدل سريعة حول بعض دواعيها وأولويات ما يترجم، معارك أو خصومات شديدة ممتدة.

واذا ما استثنينا ما يلوح في مبحث «الإنتاج العقلي» في «مستقبل الثقافة في مصر» (ص ٤٥٩ ـ ٤٦٣)، وفي رد طه حسين على الزوبعة التي هبت على مشروع ترجمة «الآثار الشكسبيرية» وغيرها[1] في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في كتابه «نقد واصلاح» (ص ١٨٠ ـ ١٩٦)، وفي ما نشب بينه وبين عباس العقاد من جدل غير حاد حول سبب من أسباب الترجمة رده العقاد، من ملاحظة الوقائع التي صاحبت الحرب العظمى والحروب القريبة التي تقدمتها فقط، الى «المنافسة الحربية ورغبة الاستطلاع» دون ان يجعل المنافسة اصل المعرفة في كل الأحوال. فتصدى له طه حسين من واقع «الصلة الحقيقية الأولى لكل ترجمة» الكامنة في «الطبيعة الانسانية التي تجعل الانسان حيوانا اجتماعيا كما يقول ارسطاليس في السياسة، وحيوانا مفكرا كما يقول ارسطاليس في المنطق»[2]، اذا ما استثنينا هذا، فإن جهده النظري في الترجمة متناثر مبعثر في أرجاء كثيرة من آثاره: مؤلفات، وترجمات ومقالات ومقدمات ترجمات عدد من اصدقائه وزملائه وتلامذته، وأحاديث. ولا مندوحة لمن يتصدى له من

---

(١) راجع، مثلاً: محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من داخلها ١٦٧ ـ ١٩٦. المكتب الاسلامي ـ بيروت. ط ٥: ١٩٧٨.

(٢) التفاصيل في: ساعات بين الكتب ٦٤٠ ـ ٦٥٤. المكتبة العصرية ـ صيدا، بيروت ١٩٧٩.

ان يجوس، بصبر وتؤدة وعمق، خلال هذه الآثار لرصده والاحاطة به.

لا يتكيء طه حسين، في الترجمة، على قراءاته وتأثراته ومسارب ثقافته حسب، انما يمتح من نفسه وخلاصات أفاويق تجاريبه وخبرات ما أسند إليه من مسؤوليات علمية واشراف مباشر ومشاركة في غير هيئة من الهيئات واللجان التي كانت الترجمة مشروعا من مشروعاتها.

أليس هو القائل[3] : «الاخذ من الكتب من غير تعليم ولا تثقيف جدير أن يجعلك صورة او نسخة من الكتاب الذي إخذت منه، تقلد في علمك دون ان تستطيع ان تكون لنفسك رأيا يصدر عن اجتهادك وحسن علمك بما تقول ولا تقول»؟

ـ ٢ ـ

لِمَ الترجمة وما دواعيها؟ للترجمة، عنده، دواع كثيرة ما كان يمل ان يجهر بها ويتحدث عنها او عن بعضها ماواتت الفرصة. وهي، على تعددها في الظاهر، تصدر عن «دائرة التراث الانساني» او «الوحدة العقلية للجنس البشري» او تلتقي فيها بآخرة دون اغفال لما بين الثقافات من وجوه اختلاف وما لكل ثقافة من ملامح خاصة. فالعقل البشري «انما هو عقل واحد، تختلف عليه الظروف المتباينة فتؤثر فيه آثاراً متباينة متضادة ولكن جوهره واحد ليس فيه تفاوت ولا اختلاف[4]». ولا يحول هذا دون ان يظل «الذوق الغربي مخالف من وجوه كثيرة للذوقنا الحديث على تغيره وتطوره»[5].

لا مشاحة في أن طه حسين بنى نظرته الشمولية هذه، في المقام الأول، على قانونين معروفين متعارضين عند صاحبه ابن خلدون: «قانون التشابه» و «قانون التباين[6]». «فالمجتمعات البشرية كلها تتشابه من بعض الوجوه. . . والسبب الجوهري في المشابهات الاجتماعية هو الوحدة العقلية للجنس البشري». غير أنه، وفقا للقانون الآخر «ليست كل المجتمعات متماثلة بصفة مطلقة، بل توجد بينها فروق يجب ان يلاحظها المؤرخ». وقانون التباين «قانون تجريبي محض. . ينسبه ابن خلدون الى اسباب جغرافية وطبيعية واقتصادية وسياسية. وبالرغم من توحيد الارواح واتفاق الاصل يتأثر المجتمع البشري بمؤثرات تبعث اليه الخلاف والتباين».

لقد أحس طه حسين لهذا ولأن «العرب الأولين. . اقبلوا في شره رائع على آثار الامم المتحضرة فنقلوها الى لغتهم، ومزجوها بتراثهم، وغذوا بها عقولهم وقلوبهم، وكونوا منها حضارتهم[7]» بتقصيرنا، في أوائل هذا القرن في الحياة العقلية «ومظهر هذا التقصير اهمالنا الشنيع للترجمة والنقل عن اللغات الاوروبية الحية. فما أكثر الآثار العلمية والفنية والادبية التي تنعم بها الانسانية الراقية، وما اشد جهلنا لهذه الاثار وغفلتنا عنها! وما أقل حظنا من الاستمتاع بلذاتها النقية الممتازة»[8].

---

(٣) كلمات ١٠٨ . دار العلم للملايين ـ بيروت . ط ٣ : ١٩٧٩ .
(٤) مستقبل الثقافة في مصر ٣٨ ـ ٣٩ . المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين . (المجلّد ٩) . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت . ط١ : ١٩٧٣ .
(٥) حافظ وشوقي ٤٩ . منشورات الخانجي وحمدان ـ القاهرة ، بيروت (د.ت) .
(٦) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ٤٦ ـ ٥٢ . ترجمة محمد عبدالله عنان . المجموعة الكاملة (المجلد ٨) . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت . ط٢ : ١٩٧٥ .
(٧ و٨) مستقبل الثقافة في مصر، ٤٥٩ .

وتحمس بسبب تكوينه الثقافي والعقلي الجديد، وايمانه الخاص بالفكرة المصرية في اطار حضارة البحر المتوسط «الذي ظل عليه الى رحيله عن الدنيا، فيما يبدو من آخر حديث له:

«لماذا يخيفكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا، ام انكم صدقتم انه بحر الروم، انه بحرنا كما هو بحرهم، وهو ليس عازلا مائيا بين الامم بقدر ما هو وسيلة اتصال.

ليس لدي جديد في هذه النقطة. فرنسا وايطاليا واليونان يخصوننا كما نحن نخصهم. قرابتنا لهم قرابة حضارية، فمن المستغرب ان يضمنا معهم شاطيء واحد ولا نتأثر بهم او نؤثر فيهم. والطبيعي ان نتبادل واياهم التأثير والتأثر، لا بمنطق الدائن والمدين ولا بمنطق التاجر والزبائن، وانما بمنطق الجوار. . وليس المهم ان نأخذ منهم بقدر عطائنا لهم. فقد لا يكون بحوزتنا الان ما نعطيه، ولكن المهم هو احتكاك العقل والضمير والروح. لا تملك اليونان في وقتنا الحاضر ما تعطيه لنا او لغيرنا. . . ولكن اليونان القديمة اعطتنا، واقول لك انها لا زالت قادرة على العطاء. بغير سوفوكل ويوربيدس وسخيلوس وارسطو وافلاطون وهيردوت لا نستطيع ان نقيم دعائم نهضتنا الحضارية. هكذا فعل الفرنسيون والايطاليون في فجر نهضتهم. . ولكننا جميعا ـ مصريين وعربا ـ نحتاج الى التفاعل الحضاري مع اوروبا. . وما اقوله بوضوح هو ان شعوب البحر المتوسط مؤهلة اكثر من غيرها لهذا التفاعل»[٩].

تحمس لنتاج اللغات الاوروبية القديمة والحية، فمال بقوة الى ما سيكون للثقافة الهيلينية القديمة والفنسية الحديثة من تأثير:

«واني أعتقد بمنتهى اليقين ان تأثير اوروبا، وفي مقدمتها فرنسا، سيعيد الى الذهن المصري كل قوته وخصبه الماضيين[١٠]».

لكنه كان يدرك أن دائرة التراث الانساني لا تكتمل بهذه الابعاد وبما ينضاف اليها من ابعاد اخرى محدودة، فضاق باستئثار الثقافتين الفرنسية والبريطانية في الأغلب، لعوامل السياسة، بعقولنا وثقافتنا في القرن الماضي بحيث كاد الوطن العربي لا «يظهر على الثقافة الغربية مهما تختلف فروعها ومواطنها، الا من طريق هاتين اللغتين» وطالب بالغاء هذا» الاحتكار «وفتح الابواب والنوافذ على مصاريعها للثقافات الاجنبية الحديثة دون استثناء، وتدريب اللغات الكبرى للحضارة الانسانية في المدارس لتتاح لنا ان نعرف الحياة العالمية الحديثة معرفة مباشرة من اصولها خالصة من كل شائبة مبرأة من كل غرض. وكان، من البديهي، ان تشمل مطالبته شيئا من العناية بالحياة الامريكية واستقصاء اصولها والتعرف على الوان ادبها وثقافتها التي تشكلت بفعل اختلاط الناس الذين هرعوا اليها من كل الشعوب في الشرق والغرب «يصورون الوان الحياة الانسانية كلها على اختلاف هذه الالوان وتباينها وتفاوتها في القوة والضعف»[١١].

ولكي لا تضيق بين يديه دائرة التراث الانساني،

---

(٩) هكذا تكلم طه حسين لآخر مرة: حوار بقلم غالي شكري. مجلة الثقافة العربية الليبية. السنة الأولى ـ العدد التاسع تموز ١٩٧٤، ص ٤٥.

(١٠) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ١٦٦.

(١١) راجع مقدمته على كتاب «دراسات في الأدب الأمريكي» في كتب ومؤلفون ١٠٧ ـ ١٢٠. دار العلم للملايين ـ بيروت ط ١: ١٩٨٠.

وليظل لنا ثمة عاصم من الفناء في الاجنبي لم ينس قط او يغفل عن اهمية تراثنا وتراث غيرنا من امم الشرق الأخرى فيها :

«نحب لأدبنا القديم ان يظل قواما للثقافة، وغذاء للعقول، لأنه أساس الثقافة العربية، فهو اذن مقدم لشخصيتنا، محقق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي، معين لنا على ان نعرف أنفسنا. . ولكننا نحب ان يظل أدبنا القديم أساسا من أسس الثقافة الحديثة، لأنه صالح ليكون أساسا من أسس الثقافة الحديثة. . والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت الى عقولنا خيرا خالصا يخطئون، فقد حملت الى عقولنا شراً غير قليل، لم يأت منها هي، وانما اتى من اننا لم نفهمها على وجهها، ولم نتعمق اسرارها ودقائقها، وانما اخذنا منها بالظواهر، وقنعنا منها بالهين اليسير، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا[12]».

وظل شديد الايمان بان ادبنا حي. والادب الحي «لا يستطيع العزلة، وانما هو مضطر الى ان يتصل بالآداب الاخرى. وسبيله الى ذلك النقل والترجمة والتلخيص والتعريف بالادباء من الاجانب». والادب الحي «لا ينبغي ان يتهالك على الاداب الاجنبية، ينقل منها ويترجم عنها، وذلك احرى ان يفنيه ويفقده هذه الحياة القوية التي تأتيه من شخصيته الخالدة واصوله القديمة. فليس له بد من ان يوازن بين قوته التي تأتيه من نفسه وهذه القوة الطارئة التي تأتيه من غيره[13]».

وتدل مقدماته التي كتبها لترجمات بعض تلاميذه عن «تراث فارس» وتعريفه بما نهض به، كذلك، بعض اصدقائه وزملائه والثناء عليه، على صدق ما كان يدعو اليه من وجوب العناية بالصلة بين الادب العربي والاداب الشرقية، بل باستئناف هذه الصلة[14]. لنتلمس هذه الآداب عند اهلها لا «عند الانجليز والفرنسيين والالمان الذين سبقونا ـ مع الاسف ـ الى العلم بهذا الادب وتذوقه. ويكفي اننا عرفنا اول ما عرفنا ـ عمر الخيام في هذا العصر الحديث عن طريق التراجم الانجليزية، وعن طريق ما كتب عنه الانجليز[15]»، ولنسلك «الطريق التي سلكها العرب في عصورهم القديمة وسلكها المصريون في تاريخهم الحديث[16]» والطريق التي مازلنا نسلكها، فان سلوكها «سيزيد ادبنا العربي قوة الى قوة ويمنحه حياة الى حياة. وسيمنح لغتنا العربية حظا من المرونة فيمكنها من ان تؤدي معاني واغراضا لم تتعود ان تؤديها من قبل[17]».

ولقد رحب في هذا المضمار باحياء صديقه وزميله عبدالوهاب عزام ترجمة البُنداري القديمة للشاهنامة بتحقيقها واكمال نقصها، وعدها «ثروة جديدة قديمة الى ادبنا العربي الفني[18]». ورحب بترجمة تلميذه ابراهيم الشواربي «أغاني شيراز ـ غزليات حافظ الشيرازي» لأنها «ستزيد من ثروة الادب العربي ولانها ستثير في

---

(١٢) حديث الاربعاء ١ : ١٣٠ دار المعارف بمصر ج ١٣ (؟).

(١٣) لحظات ١ : ١١٨ المجموعة الكاملة (المجلد ١١) دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدارس ـ بيروت ـ ط ٢ : ١٩٨٣.

(١٤) مقدمته على «أغاني شيراز ـ غزليات حافظ الشيرازي» ترجمة ابراهيم الشواربي، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٤، ص ٢.

(١٥) مقدمته على كتاب «حافظ الشيرازي شاعر الغناء والغزل في ايران» لابراهيم الشواربي. مطبعة المعارف ـ القاهرة ١٩٤٤.

(١٦، ١٧) لحظات ١ : ١١٨.

(١٨) مقدمته على «أغاني شيراز» السابق.

نفوس كثير منهم (القراء) الوانا من التفكير المنتج وفنونا من الشعور الخصب، ولعلها تفتح لبعض التشبيب ابوابا في الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل»[١٩].

كما رحب بترجمة تلميذه يحيى الخشاب (بالاشتراك مع صادق نشأت) كتاب «تاريخ البيهقي»[٢٠].

وما هذا كله الا لأنه ظل يؤمن، مثلما يؤمن اكثرنا اليوم، بأنه «انقضى الوقت الذي كان الناس يؤمنون فيه بان الادب العربي غني بنفسه لا يحتاج الى ان تمده الاداب الاخرى بما فيها من قوة وروعة وجمال»[٢١].

وجماع القول انه دعا من اجل هذا كله الى ان «تترجم الثقافات الاجنبية ـ مهما يكن مصدرها ـ الى اللغة العربية، وشجعت على هذه الترجمة وشاركت في شيء منها.. ولم افهم قط ان نعنى بالاداب والثقافات الاوروبية وان نترك ادابا وثقافات اخرى تزدهر في اقطار الارض ولا يبلغنا منها الا الصدى»[٢٢]. وردد، وما اكثر ما ردد «وليس كل الناس قادرا على ان يقرأ الاداب الاجنبية في لغاتها التي كتبت فيها او مترجما الى لغات اجنبية اخرى.

وكثرة الشعوب، كما تقتضيه طبيعة الاشياء، ليست مكلفة ان تعرف اللغات الاجنبية وحسبها ان تتقن لغتها الخاصة.

وعلى المثقفين الممتازين من ابنائها ان يقدموا اليها في لغاتها ما لا تستطيع ان تصل الى العلم به..

وانما حرصت دائما على ان تُنقل الاداب الاجنبية الى اللغة العربية، مهما تكن لغتها، ليقرأها المثقفون الذين لم يتح لهم ان يقرأوها في اصولها الأولى. على ذلك جرت الامم المتحضرة كلها، وليست الامة العربية الا واحدة من هذه الامم، فليس لها بد اذن من ان تسلك الى العلم سبيل غيرها من الامم، والامة العربية من اقدم الامم التي اقامت امورها الثقافية على الترجمة، فهي قد نقلت آثار اليونان والرومان والفرس والهند الى لغتها منذ اكثر من عشرة قرون، وهي قد اتاحت بذلك للغتها ان تكون لغة عالمية وقتا طويلا، وأتاحت لأدبها أن يكون أدباً انسانياً خالداً لا ينتفع به منشئوه وحدهم، وانما يشاركهم في الانتفاع به غيرهم من الشعوب. وهي بهذا كله قد شاركت في تكوين التراث الانساني الخالد فحفظت تراث الامم القديمة ونقلت مشاعله الى الامم الحديثة في القرون الوسطى، فأنارت للحضارة الانسانية سبيلها الشاقة وجلت عن بعضها ما كان يكتنفها من الظلمات، وليس لها الان بد من ان تسلك نفس السبيل التي سلكتها من قبل، ومن ان تنهض بنفس العبء الذي نهضت به اثناء القرون الوسطى»[٢٣].

وأحسب، في ضوء ماسلف، ان شهادة الفرنسي روجر ارنلدز Roger Arnaldez التالية تجيء في مكانها الصحيح:

---

(١٩) مقدمة «أغاني شيراز».

(٢٠) راجع مقاله: كنز جديد ـ تاريخ البيهقي (ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت) مجلة الاخاء. السنة ٢٦ العدد ٧٤، نيسان ١٩٦٦.

(٢١) مقدمة «أغاني شيراز».

(٢٢) كتب ومؤلفون ١١٢.

(٢٣) كتب ومؤلفون ١١٢ ـ ١١٣.

«واذا كان طه حسين يعترف بأهمية الثقافة الغربية ويحب أن يرتوي بها نفسا وذهنا، فهو على العكس لم يستسلم لاغراءاتها، بل لم يتخل عن اصله ولم يتردد في نقد هذه الثقافة الذي كان احيانا شديدا للغاية . . لقد احب طه حسين هذين النمطين من الثقافة (الشرقية والغربية) حبا مضاعفا ومتساويا مما جعله يتغلب على ما نسميه في أيامنا هذه «العقد» . .»[24].

ويعضد هذا ان دعوة طه حسين الى الترجمة لم تكن «مصرية» ضيقة، بل كانت وخاصة في «مشروعات الروائع» كترجمة آثار «شكسبير» او «راسين» او «جوتة»، قومية شاملة : «وأنا حين أفكر في هذه الأشياء لا افكر في مصر وحدها، وانما افكر في البلاد العربية كلها، وافكر في كل الذين يتخذون العربية وسيلة الى الثقافة والى الثقافة العليا خاصة . . فليس بأس، اذن، من ان نبدأ بما ينفع اضخم عدد من العرب، وان ننتظر قليلا بما ينفع الخاصة .»[25] وكان يحرص على تنمية العلاقات الفكرية المجدية بين ثقافتنا والثقافات الاجنبية تنمية تشمل الوطن العربي كافة[26].

وكان مبعث تفكيره في هذا النمط الواسع العام من الثقافة والترجمة فيه ان «حظنا من الثقافة الواسعة العميقة قليل جدا مما ينبغي لنا في هذا العصر الحديث، وفي هذا القرن الذي كثرت فيه انواع المواصلات بيننا وبين العالم الخارجي[27]»، واننا «لا نقرأ الكتب في لغاتها المختلفة لأن الذين يحسنون اللغات الاجنبية على كثرتها واختلافها قليلون[28]»، وان عقولنا كانت محتكرة للغة اجنبية واحدة هي الفرنسية فترة، والانجليزية فترة اخرى «وكان الذين يحسنون هذه اللغة او تلك قليلين جداً اقل مما ينبغي لشعب ان يعيش في القرن العشرين ويطمح الى ما نطمح اليه من الرقي»[29].

ولقد ظل «الشعب» وتثقيفه محوراً هاماً من محاور قضية الترجمة عنده، لأن «الشعب كله لا يمكن أن يكون ملزما أن يحسن اللغات الأجنبية، ولكن من الواضح أيضاً أن من الحق على كل شعب أن تكون بين أبنائه طوائف تحسن اللغات الكبرى على أقل تقدير لتحقق الصلة بين شعبها وبين الحياة العقلية في العالم الخارجي[30]»، ولأن الشعب في هذه العصور يسأم «ما ألف قراءته من كتب، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية، والوقوف عليه من آثار الفن، ويود لو استطاع أن يجد من الطريف المستحدث ما يشفي علته وينقع غلته، ويخرجه من هذه البيئة التي طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة. وقد كان يحسب نفسه كل شيء فإذا هو يشعر بأن على الارض شعوبا أخرى. . وأن هذه الشعوب قد اتخذت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع ومن مناهج البحث والتفكير مالم يألفه ولم يهتد إليه. . فكل من نقل إليه كتابا من كتب العلم أو لخص له فصلا من فصول الفلسفة أو ترجم له من الآثار الفنية والأدبية ما يُعْرب عن شعور هذه الشعوب وعواطفها، وعن ضروب احساسها

(٢٤) ذكرى طه حسين ١٤٧ ـ ١٤٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٧.

(٢٥) نقد واصلاح ٩٥ و١٨٦. دار العلم للملايين ـ بيروت، ط ٨ : ١٩٨٠ .

(٢٦) لقاء مع طه حسين. أجرته عايدة مطرجي ادريس. الآداب. السنة ٥ ـ العدد ٢ . شباط ١٩٥٧ ، ص ٩ .

(٢٧، ٢٨) كلمات ٤٣ .

(٢٩) كلمات ٤٢ .

(٣٠) المصدر نفسه ٤٤ و ٧١ كذلك.

للاشياء وتأثرها بها، فقد صادف منه مكان الحاجة وأشرف من البغية على ما يريد[٣١]».

ومن هنا انطلقت مطالبته المترجم بأن «يلاحظ استعداد الشعب وحاجته، وألا ينقل إلا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله ويقوّم من عوجه ويعينه على التطور والانتقال[٣٢]». ومن هنا أجاز لنفسه أن «يلخص» تلخيصاً، لا ترجمة، طائفة من القصص التمثيلية التي نقلها الفرنسيون عن اللغات الأجنبية كالروسية والالمانية والانجليزية، وفي النفس «شيء كثير من السخط والألم» لأنه كان يجب «أن تقوم الترجمة مقام التلخيص الذي «يذهب بجمال الترجمة الى حد أبعد، فلا يبقىٰ للقارىء العربي المسكين من هذه الآثار الأدبية الرائعة الا صور ضئيلة شاحبة لا تكاد تغني شيئاً». وكان عزاؤه أنه ينوع «بعض التنويع، ولنعرض على القراء صوراً مختلفة من الأدب التمثيلي الغربي، يمثل أمزجة الأمم الأوروبية الكبرى على اختلافها وتباينها[٣٣]».

- ٣ -

٣ - ١ :

وماذا نترجم إذن؟ لم يكن طه حسين لِيُعنىٰ بغير الموضوعات الثقافية والفكرية المفيدة والمناسبة من تراث الأمم المختلفة قديماً وحديثاً ولم يكن في نيته، فيما يبدو، أن يخوض في ما يُترجم وما لا يترجم لولا «الزوبعة» التي هبّت عليه من عزمه على إخراج آثار شكسبير مترجمة.

لقد ظل يُعنىٰ ويدعو الى الترجمة والثقافة، لأنها «مزاج يجب أن يأتلف من عناصر مختلفة، وأن تعتدل هذه العناصر فلا يطغىٰ بعضها على بعض[٣٤]» على الرغم من هبات النكير والإنكار التي رأى أصحابها «أن ترجمة الأدب إضاعة للوقت والجهد والمال، وأن الخير كل الخير، انما هو في ترجمة العلم، لأن الناس فيما زعموا محتاجون الى العلم أكثر من حاجتهم الى الأدب[٣٥]». وظل يدعو، كما في التعليم، الى ان تصير «الثقافة» للناس كالماء والهواء كذلك، وليس من سبيل اليها، بعد التعليم، غير التأليف والترجمة والتلخيص في الموضوعات الأدبية والفنية. لكنه لم يتنكر لترجمة أي ضرب من ضروب العلم والمعرفة التي نظمها في سلكين : عام وخاص، فوضع في العام كل عناصر المعرفة والثقافة العامة، وفي الخاص عناصر العلم البحت والمعارف العقلية المتخصصة. وجعل لكل عنصر ميدانه وآفاقه وموجبات ترجمته ومترجميه. وقد جرّب هو انماطاً شتىٰ ورحّب بأعمال أصدقائه التي أظهروها في مختلف الأنماط، فكتب عنها وعرّف بها ونقدها، كالذي بقي منه عن «آلام فرتر» لجوته وترجمة أحمد حسن الزيات، وعن «علم الأخلاق» لأرسطاطاليس وترجمة أحمد لطفي السيد وعن «فاوست» و «هرمن ودروتيه لجوته وترجمة محمد عوض محمد.

---

(٣١) كتب ومؤلفون ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣٢) المصدر نفسه ١٩٤ .

(٣٣) من أدب التمثيل الغربي ٢٨ - ٣٠ . دار العلم للملايين - بيروت. ط ٦ : ١٩٧٩.

(٣٤) نقد واصلاح ١٩٠ .

(٣٥) كلمات ٦٩ .

ولا يُفهم من هذا أنه كان يصد أو يدعو الى الصدّ عن ترجمة الآثار العلمية والعقلية التي لا شك في «حق» ترجمتها على المتخصصين والعلماء والدولة بمؤسساتها ومراكزها العلمية المتخصصة:

- «فأما الذين يحبون ترجمة العلوم، فمن حقهم أن يطلبوا ذلك الى العلماء والى الحكومة[36]».

- «وأنا مؤمن أشد الإيمان وأقواه بأن ترجمة أصول الفلسفة الإنسانية ضرورة من ضرورات الحياة الراقية[37]».

- «ليطمئن الذين يريدون ترجمة الفلسفة، فسنترجم الفلسفة الى اللغة العربية... وسيترجم قديمها وحديثها مهما اختلفت مذاهبها وأوطانها، لأن طبيعة الحياة الحديثة تقتضي هذه الترجمة وتفرضها فرضاً[38]».

- ويدعم هذا، عملياً، استبشاره بترجمة عبدالعزيز فهمي «مدونة جوستنيان» الذي كان قيصراً من قياصرة الروم في القرن السادس الميلادي، أما كتابه فلاتيني ففيه خلاصة الفقه الروماني كله. ولترجمته خطرها العظيم، لأنها أول كتاب في المشرق يُنقل من اللاتينية ـ تقريبا ـ الى العربية. وهو ينبىء عن تقارب وتشابه واتحاد ـ أحياناً ـ بين الفقه الروماني وكثير من فقهنا الإسلامي[39].

لكنه كان يضع في حسبانه دائماً وأن الناس جميعاً لا يستطيعون أن يقرأوا العلم ولا أن يصبحوا بحكم هذه القراءة علماء. وأن العلماء يحسنون اللغات الأجنبية ويقرأون فيها علمهم، وهم ليسوا في حاجة الى أن يُترجم لهم. وأقول مثل هذا بالقياس الى الفلسفة. فليس كل الناس يستطيع أن يسيغ فلسفة ديكارت وكانت وأوجست كونت وأمثالهم من أعلام الفلسفة في العصور القديمة والحديثة، وانما يسيغها وينتفع بها الذين يفرغون لها من الأساتذة والطلاب وأصحاب الثقافة العليا، وكل هؤلاء يحسنون لغة أجنبية...

ولا أعرف أحداً يستطيع أن يجادل في أن قراء الأدب والمنتفعين به والحريصين عليه أكثر جداً من قراء العلم والفلسفة... فليس بأس اذن من أن نبدأ بما ينفع أضخم ما يمكننا من أن نترجم للخاصة والكثرة معاً[40]».

٣ ـ ٢ :

وأضاف في هذا السياق مسألة تفسير عزوف العرب القدماء عن ترجمة الآداب اليونانية واللاتينية بربطها بالوثنية التي لا تلائم الاسلام، وميلهم، لذلك، الى الفلسفة وترجمتها حتى غدت مقولة شائعة سائغة. فرأى أن العرب الأولين «لم يؤثروا الفلسفة على الأدب حين ترجموا ما ترجموا من آثار الأولين، وانما ترجموا ما عرفوا وما أتيح لهم أن يترجموا، ولو أنهم عرفوا الآداب اليونانية واللاتينية كما كان ينبغي أن تعرف لما قصّروا في ترجمتها... وأنا مطمئن الى أن العرب لو عرفوا الشعر التمثيلي جدّه وهزله لترجموه ولحاولوا أن يصنعوا مثله،

---

(٣٦) نقد وإصلاح ١٩١.

(٣٧) المصدر نفسه ١٩٢.

(٣٨) المصدر نفسه ١٩٤.

(٣٩) مقالات : عرض ونقد ٣٢٦ ـ ٣٣٣. المجموعة الكاملة (المجلد ١٦). دار الكتاب اللبناني، بيروت. ط ١ : ١٩٨١.

(٤٠) نقد وإصلاح ١٩٤ ـ ١٩٥.

وحاولوا كذلك أن ينشئوا التمثيل ويجعلوه فناً عربياً أصيلاً كما ترجموا الفلسفة ثم جعلوها فلسفة عربية أصيلة[41]».

ولما عرض لمقالة الزاعمين بأن تلك الآداب لا الفلسفة هي التي كانت لا تلائم الدين رد بعجب وتعجب وسخط «كأن كل ما ترجموا كان يلائم الاسلام ويطابقه ولا يخالفه قليلاً أو كثيراً! لا أعرف مقالة أشد امعاناً في الحمق والسخف من هذه المقالة. فقد ترجم العرب من فلسفة الفلاسفة ما يخالف الإسلام أشد الخلاف، لم يمنعهم ذلك من ترجمته والرد عليه[42]».

وأنهى النقاش في المسألة على نحو من جدل قدامة ابن جعفر أو منطق من تأثر بهم من اليونان «وهبهم تعمدوا هذا الاعراض، فمن الذي يستطيع أن يلزمنا أن نخطىء كما أخطأوا ونقصر كما قصروا، إن كانوا قد تورطوا في خطأ أو تقصير[43]»؟! وإخال أنه لم يعد سراً أن قسطاً وفيراً من اهتمام طه حسين بأدب التمثيل اليوناني وأدب التمثيل الغربي وقصصه التمثيلية ترجمة وتلخيصاً وتعريفاً كان تعويضياً استدراكياً تعليمياً توجيهياً ينسحب عليه مبدآ «الاختيار» و «الاصطفاء» معاً. يقول في مقدمة «قصص تمثيلية» (ص٧) : «ولقد كتبتها وجمعتها لا أريد من ذلك الا أمرين اثنين : الأول ان أظهر قراء هذه اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب الغربي. الثاني أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر في نفوس الأدباء الذين يعنون بالتمثيل العربي خاصة، يحملهم على أن يُعنوا بهذا الفن الناشىء في أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً».

ويقول بين يدي قصة «قانون الرجل» لبول هرفيو:

«والحق أني لا أجد سبيلاً أو لا أكاد أجد سبيلاً الى مفارقة هذا الكاتب لأن صحبته لذيذة وإعجابي به شديد، لأني لا أعرف تمثيلاً أخصب من تمثيله ولأنني لا أعرف قصصاً أغنى من قصصه، ولأني أجد في صحبته لذة العقل ولذة الشعور معاً، ولأني أجد في صحبته هذه اللذة التي يجدها من يسمع لفيلسوف وفني في وقت واحد. فهذا الكاتب الذي أوثره قد جمع بين الفلسفة والفن فأرضى العقل وأرضى الشعور[44]».

٣ - ٣ :

وكان يأخذ على حركة الترجمة، في هذا الجانب، الفوضى والمضي على غير نظام «فتهمل أشياء قد تكون من الخير ألا تهمل، وتعجّل الى أشياء قد لا تكون الحاجة اليها شديدة[45]».

وأوحى لي هذا المأخذ بمبدأين هامين، عند طه حسين، في الترجمة، رأيت أن ادعو الأول «مبدأ الاختيار»، والآخر «مبدأ الاصطفاء». وقد يتداخلان لعمومية «الاختيار» وخصوصية «الاصطفاء».

ويحسب في الاختيار ما يلائم استعداد الناس ورغباتهم، فخليق «بالناقل ان يلاحظ استعداد الشعب

(٤١، ٤٢) نقد واصلاح ١٩٢ - ١٩٣.

(٤٣) المصدر نفسه ١٩٤.

(٤٤) قصص تمثيلية ٦١. دار العلم للملايين - بيروت. ط ٢ : ١٩٨٥.

(٤٥) لقاء مع طه حسين (مجلة الآداب، ص ٩. مصدر سابق) وألوان ١٩. دار المعارف بمصر. ط ٦ (د.ت).

وحاجته، وألا ينقل الا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه، ويكون من النفع والفائدة بحيث يُصْلح من حاله ويقوِّم من عوجه ويعينه على التطور والانتقال[٤٦]». وينعكس هذا في ترجمة أحمد حسن الزيات «الآم فرتر». فالكتاب «على ما له من شهرة تلزم كل ناشيء ان يقرأه ويتفهمه يمثل حياة الآداب الاوروبية في عصر هو أشد العصور شبهاً بهذا العصر الذي نسلكه. فقد كانت اوروبا حين كتب «جوت» آلام فرتر تعبر عن عصر انتقال كعصرنا الذي نعبره[٤٧]».

أما مبدأ «الاصطفاء» فمن أظهر أمثلته ما انبجس عن تصدي طه حسين لناقديه حول ترجمة آثار شكسبير كاملة. فقد ارتفعت بعض العقائر «لِمَ نُترجم كل ما ترك شكسبير من الآثار؟ ولا نختار منها أجودها وأرقاها وأعظمها إمتاعاً وأدناها الى عقولنا وأذواقنا؟ ونترك ما دون ذلك لننفق الجهد والمال في ترجمة آثار فريق غير شكسبير من أعلام الثقافة والأدب والفلسفة؟[٤٨]».

قد تكون هذه الأسئلة / الاعتراض منطقية ومقبولة في الترجمات الانفرادية من حيث الذوق والإمكانات المادية وغير المادية. أما في مشروعات «الروائع» كالتي تعهدها طه حسين وأشرف عليها فإن للأمر وجهاً آخر قد يفهم فيه «الاصطفاء» أنه ـ وهو كذلك ـ «حكم»، بنحو ما، على المبدع و«اعتداء» على أذواق المتلقين والقرّاء، وهما محور رد الرجل ودفاعه:

«وترجمة بعض هذه الآثار دون بعضها الآخر نقص لا يليق بالقادرين على التمام. وما أحب أن أستبيح لنفسي ولا لطائفة من أمثالي القضاء بأن بعض آثار هذا الكاتب أو ذاك أجدر بالعناية من بعضها الآخر. ففي ذلك شيء من الجراءة لا أستحبه، وفي ذلك شيء من الاعتداء على الكتاب والشعر لا أسيغه، وفي ذلك آخر الأمر اعتداء على أذواق القراء.

فالاختيار قطعة من الذوق، وهو بعض العقل بالقياس الى الذين يختارون. وما أحب ولا استبيح أن أجعل ذوقي وعقلي مقياساً لأذواق الناس وعقولهم، ولا أن أفرض عليهم ما يؤثره ذوقي وعقلي من الاختيار، وأنا أستطيع أن أختار لنفسي إن شئت، ولكني أرى من الغرور أن أفرض اختياري على غيري[٤٩]».

ومع أن ظاهرة ترجمة «الآثار» أو «الأعمال» الكاملة لمبدع ما هي، في الأغلب بدعة فنية غربية، فهي، انطلاقاً مما ذهب اليه طه حسين واستكمالاً له، ضرورة واجبة، للإحاطة بالكيان الفني والكيان العقلي كاملاً عند هذا المبدع أو ذاك، ولمعرفة تطور مراحله الإبداعية معرفة لا يقدمها «النموذج الأعلى» المصطفى الذي يقود ـ في أحيان كثيرة ـ الى أنه يمثّل «مستوى» صاحبه في مراحله كافة. فالمبدع عرضة للمدّ والجزر والارتفاع والانخفاض وتذبذب المستوى الفني وغير الفني. وما أحسن ما تشبه به الظاهرة بتقديم مدينة ما «من خلال منظرها السياحي الجميل فقط دون أن ننتبه الى الأكواخ الأخرى الخلفية[٥٠]».

---

(٤٦) كتب ومؤلفون ١٩٤.

(٤٧) المصدر نفسه ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٤٨) نقد وإصلاح ١٨٢، وكلمات ٦٩.

(٤٩) نقد وإصلاح ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥٠) خليفة التليسي: لقاء معه في مجلة الحوادث ـ ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨، ص ٥٤ ـ ٥٥.

٣ - ٤ :

ومن مستلزمات «ما يترجم» وأساسياته ما يلوح عند طه حسين من ايمانه بالتمهيد والتعريف بالموضوع الذي تُراد ترجمته أو الشخصية المنوي ترجمة آثارها. فقبل أن يترجم «نظام الأثينيين» لأرسطو طاليس (١٩٢١) مهد له بكتابه هو «الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدينة» (١٩١٩).

ورغب الى العقاد في أن يعرّف الناس بشكسبير قبل أن تظهر ترجمة أعماله[٥١]، فكتب العقاد «التعريف بشكسبير» (١٩٥٨).

ومنها ما نبه عليه في كلامه على غير جهد من جهود غيره في الترجمة، وما ثناؤه على جهد حسن عثمان مترجم «الكوميديا الالهية» عن الإيطالية[٥٢]، من حيث التعريف بصاحبها وتصوير حياته تصويراً دقيقاً في مقدمة «الجحيم»، ومن حيث الدرس التحليلي الممتع الذي قدّمه بين يدي «الأعراف» ودراسته الكتاب دراسة دقيقة بليغة «بحيث يستطيع الذين يكتفون من القراءة بأيسرها أن يستغنوا بقراءة هاتين المقدمتين عن قراءة الكتابين نفسيهما»، ما ثناؤه إلّا دعوة ضمنية للمترجمين ليُعْنوا في مقدمات ترجماتهم بالتعريف الدقيق بأصحابها ودراسة محتوياتها بدقة وروعة وتفصيل لا يعوزه الجمال الأدبي.

ومنها ما طالب به المترجم، في الترجمات التي تكثر فيها الأسماء والاصطلاحات بوجوب إعداد «ثَبَتٍ» بها جميعاً وتفسير ما يحتاج منها الى شرح وتفسير، كالذي اقترحه على عبدالعزيز فهمي بأن يضيف الى الطبعة الثانية من «مدونة جوستنيان» ثبتاً بما فيه من الاصطلاحات والأسماء، مع ما قد تحتاج اليه هذه الأسماء والمصطلحات من شرح وتفسير. «ذلك أحرى أن تتم الفائدة ويعم النفع[٥٣]». ولهذا امتدح محمد عوض محمد في ترجمة «فاوست» إذ شرح بعض النصوص الغامضة، وفسّر بعض الأسماء الغريبة، ورد بعض المعاني الى مصادرها الأولى[٥٤].

وأصر على إعادة النصوص العربية القديمة - أو أية نصوص من لغة أخرى في حالات مماثلة - الى أصولها الأولى وليس ترجمتها في ما يكتب عن التراث العربي بلغة أجنبية ويترجم الى العربية. ويتجلى هذا في امتداحه ترجمة انور لوقا كتاب «تقاليد الفروسية عند العرب» الذي ألفه بطرس غالي بالفرنسية (باريس ١٩١٩) وصدرت ترجمته بالقاهرة (دار المعارف ١٩٦٠):

«وإني لأحمد للمترجم عنايته بحسن النقل. ولم أكن أخاف عليه شيئاً كما كنت أخاف أن يتورط في ترجمة النصوص العربية كما ترجمها المؤلف مضطراً الى ذلك، ولكن الأستاذ أنور لوقا كان عند حسن الظن به والرأي فيه، فأتى بالنصوص في لفظها العربي القديم[٥٥]».

---

(٥١) كلمات ٧٠.

(٥٢) خواطر ١٢١ - ١٢٤. دار العلم للملايين - بيروت. ط ٢ : ١٩٧٧.

(٥٣) مقالات : عرض ونقد (المجموعة الكاملة ١٦ : ٣٣٣).

(٥٤) كتب ومؤلفون ٢٠٩.

(٥٥) المصدر نفسه ١٠٦.

ـ ٤ ـ

ولننتقل الى ركائز تحقق الترجمة ونجاحها الحقيقي، وأعمدتها الفنية التي تكاد تتركز في هذين السؤالين وما يتصل بهما من أسباب : من المترجم وما الشروط الواجب توافرها فيه ؟ وما الترجمة وكيف نترجم ؟ إن كتابات طه حسين المبثوثة في كثير من آثاره هي التي أملت السؤالين ، وهي التي تجيب ، مجتمعة متكاملة بعد أن كانت شَعَاعاً ، عنهما إجابة قد تشكل مع ما تقدم «مشروع» نظرية طاهوية في الترجمة أو تجلو ، في الأقل ، وجوه «قضية الترجمة» عنده .

٤ ـ ١ :

المترجم ليس ناقلاً يترجم «كلاماً» الى «كلام» . ولو كان هذا هو المطلوب حسب لأغنت عنه آلات وأدوات كثيرة أو أيّ «مكتب» من مكاتب الترجمة .

المترجم «مبدع» بنحو خاص «ليس هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة ، ولكنه صلة بين الرجلين ، لاحظّ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثاني ، وانما هو خادم مخلص مؤثِرُ أمين يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ، ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة الى عقول الناس وقلوبهم ، ويتيح لهم بسط سلطانهم الخيِّر على مختلف البيئات والأجيال[٥٦] .

وتستدعي منزلة المترجم العظيمة ، بالقوة ، منزلة أن منزلة المترجم التى وضعه فيها طه حسين بين «المستهلكين» و «المنتجين» توشك أن تجعل منه «مبدعاً» ، وهو كذلك عند من يعدّ الترجمة «إبداعاً[٥٧]» . لأن الترجمة الناجحة هي اكتشاف تعبيرك لدى الآخرين ، ولأنك «اكتشفت ابداعك الشخصي في ابداع الآخر فترجمته وهذا هو شرط النجاح في الترجمة والا تكون الترجمة عملية آلية ، عملية اصطناعية أو حرفية . الشرط الأساس هو أن تكتشف أبداعك في النص الذي تريد أن تترجمه[٥٨]» ، وهذا هو معنى أن المترجم «يرى نفسه» ولا «يدخل شيئاً من نفسه» في الترجمة[٥٩] .

وقد تكون مقاربة المترجم للمبدع عند طه حسين سبباً من أسباب عدم ممانعته لظاهرة «تعدد» ترجمة الأثر الواحد في اللغة الواحدة . فالترجمات كالإبداعات «تتفاوت فيما بينها دقة وتقصيراً ، وجودة ورداءة ، وفيها ما يرتقي لفظه وأسلوبه وأداؤه ، وفيها ما يضطرب لفظه ويفسد أسلوبه ويسمج أداؤه[٦٠]» .

منزلة المترجم ليست يسيرة ، بل «عظيمة جليلة الخطر ، وحسبك أنها هي التي تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب ، فتزيل ما بينهم من الفروق ، وتدني بعضهم من بعض ، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذي يقوم على رقيّ العقل والخلق والشعور وحب الخير[٦١]» .

---

(٥٦) كتب ومؤلفون ٢١٧ .

(٥٧) النظر ، مثلاً : ك . سوريتيان : الأخوة كارامازوف . في فن الترجمة ٢٥ . ترجمة خيلة شرارة . وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد ١٩٧٩ .

(٥٨) خليفة التليسي : لقاء معه . المصدر السابق .

(٥٩) ك . سوريتيان : المصدر السابق ٢٧ .

(٦٠) نقد وإصلاح ١٨٥ .

(٦١) كتب ومؤلفون ٢١٧ .

عظيمة للترجمة الأدبية والفنية بخاصة . ولا سبيل الى تحقيق هاتين المنزلتين الا بتوافر موجبات وجودهما في الترجمة والمترجم وتشابكهما ، كذلك ، لأن الفصل بينهما أمر غير يسير . فالترجمة الجيدة الناجحة المتوخاة تنم ، ببساطة ، عن عظم منزلة صاحبها ، ولا مناص للمترجم العظيم ، اذا ما أراد أن يضمن لترجمته المنزلة العظيمة ، من أن يتسلح بما يجابه به «صعوبة الترجمة» .

فالمترجم «ليس خرياً أن يحسن اللغة العربية التي ينقل اليها واللغة الأجنبية التي ينقل عنها فحسب ، بل هو خليق أن يحسن الفن الذي ينقله إحساناً تاماً ، وأن يكون من إجادته بحيث يستطيع النقد والمناقشة اذا كان موضوعه علمياً أو فلسفياً ، فإذا كان فنياً أدبياً فالصعوبة أثقل عبئاً وأشق احتمالاً ، لأن الناقل ملزم حينئذٍ أن يكون من القدرة والكفاية بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول فيشعر بقلبه ويحس بحسه ، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف ويصفها بهذا اللسان الذي وصفها . فإن الترجمة في الأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية ، فكيف بها في لغة أخرى ؟ - إن الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كلاهما صعب عسير :

الأول أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف ، وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواس المؤلف وملكاته إن صح هذا التعبير . والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشد الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها[٦٢] » .

هذه الفقرة محملة بأهم ما يشترط في المترجم والترجمة . فليس بكافٍ أن يتقن المترجم لغتي «المصدر» و «الهدف» ، وانما يجب معرفة «الموضوع» أو «الفن» المترجم في الموضوعات الفنية والأدبية ، و «التخصص» في الموضوعات العلمية والفلسفية . وهذا هو لباب ما أوجبه الجاحظ منذ القرن الثالث الهجري على الترجمان من «أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية[٦٣]» ، وهو مازال أصلاً هاماً من أصول الترجمة عند جمهور الغربيين :

«ولكن معرفة اللغة بوجه عام شيء وامتلاك معرفة خاصة بموضوع معين شيء .... يجب أن يملك المترجم ، بالإضافة الى معرفته بلغتين أو أكثر تشترك في عملية الترجمة ، اطلاعاً شاملاً بمادة الموضوع المعنية[٦٤]» . ويظل أبعد مرمى وأقوى غاية من شرط[٦٥] أتين دوليه «Etienne Dolet» (١٥٠٩ - ١٥٤٦) واضع أول نظرية للترجمة : «لابد أن يكون المترجم على معرفة رفيعة باللغة التي يترجم منها ، وأن يمتلك بنفس الشكل معرفة رفيعة باللغة التي يترجم اليها[٦٦]» .

---

(٦٢) المصدر نفسه ١٩٤ - ١٩٥ ، و ٢٠٤ كذلك ، وألوان ٢٢ .

(٦٣) الحيوان ١ : ٧٦ . تحقيق عبدالسلام هارون . منشورات محمد الداية - بيروت ط ٣ : ١٩٦٩ .

(٦٤) ثمة تجاوب واضح بين عصارة ما يراه طه حسين ومبادىء «دولية» الأساسية الخمسة في الترجمة : فهم مضامين العمل المترجم ومقاصده ، والمعرفة باللغتين ، وتجنب الترجمة الحرفية ، واستخدام صيغ الكلام في استعمالاتها الشائعة ، وتوليد التأثير الكلي والشامل . (يوجين نيدا : نحو علم للترجمة ٤٥ - ٤٦ . ترجمة ماجد النجار . وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٦) .

(٦٥) يوجين نيدا : المصدر نفسه ٢٩٤ .

(٦٦) المصدر نفسه ٤٥ .

واذا ماأجاد المترجم اللغتين وأتقن معرفة موضوع الترجمة ، فهو صائر ، بالقوة ، الى ماأصر عليه طه حسين من شعور المترجم بما شعر به المؤلف وهو ما يعبر عنه جمهور منظري الترجمة حديثاً بـ «التقمص» أو «تمثل روح النص» ، ولا بد أن يبدع ، حينئذٍ وبالقوة كذلك ، ترجمة دقيقة غير حرفية أو «اتصالية ضمنية Covert » [٦٧] وهي المثلى عند طه حسين ، لأنها تغرس في القارىء إحساس من يقرأ كتاباً مؤلفاً لا ترجمة [٦٨] .

وهو ما نادى به «بروجازكا Prochazka» من أن «الترجمة يجب أن تخلق لدى القارىء نفس الانطباع الذي يحققه انطباع النص الأصلي على قرائه [٦٩]» . ومن المدهش أن «ليونارد فورستر Leorand Forester يعرّف الترجمة الجيدة بأنها هي التي «تفي بنفس الغرض في اللغة الجديدة مثلما فعل الغرض الأصيل في اللغة التي كتب فيها [٧٠]» .

ومن نماذج هذا الضرب ، عند طه حسين ، ترجمة محمد عوض محمد لأثري جوته : «فاوست» و «هرمن ودروتيه» عن الألمانية . فقد استطاع في الأول «أن يلبس نفس جوته ، ويحس كما يحس ، ويرى الأشياء كما كان يراها ، لا في أطوار الترجمة وحدها ، بل في حياته العادية المتصلة [٧١]» ، وتمكن في الآخر «أن ينقل إلينا نقلاً صحيحاً ما قصد إليه جوته في قصته هذه من السذاجة العذبة الخصبة» . وهذا دليل واضح على قدرة لغتنا العربية على أن تسع الفنون الأدبية لجوته وغير جوته [٧٢]» .

٤ - ٢ :

وقبل أن تغرينا «الدقة» و «الترجمة الاتصالية» بمتابعة آراء طه حسين فيهما وموقفه منهما ، ويتبيَّن نظرته الى «الترجمة الحرفية» وما يتصل بها جميعاً من ملحقات وذيول تجدر الإشارة إلى أنه ، كغيره ممن عُنوا بالترجمة والتنظير لها قديماً وحديثاً ، كان يؤمن جداً بأن الترجمة ، عموماً ، تذهب بجمال الأصل ، وأن التلخيص يذهب بجمال الترجمة الى حد أبعد [٧٣] . وهذا هو الذي سماه القدماء «المعنى البلاغي» ويسميه المحدثون «أدبية النص» . وهو ، دون شك ، جوهر مقالة الجاحظ «ان الترجمان لا يؤدي أبداً ماقال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقها ، ويؤدي الأمانة فيها .... [٧٤]» ، ومغزى المثل الإيطالي «الترجمة خيانة» أو «المترجم خائن» الذي حلا لأحد معاصرينا أن يحوره ويطوره الى «الترجمة خيانة جميلة» ، ولولاها لما تعرفنا على الثقافات العالمية [٧٥] .

---

(٦٧) هي الترجمة التي يحاول المترجم ان يعطي فيها لقرّاء لغة «الهدف» التأثير نفسه ، تقريباً ، الذي يعطيه الأصل لقراء اللغة المصدر . (بيتر نيومارك . اتجاهات في الترجمة ٦٥ وغيرها . ترجمة محمود اسماعيل صيني . دار المريخ ـ الرياض ١٩٨٧)

(٦٨) كتب ومؤلفون ٢٠٨ .

(٦٩) يوجين نيدا : المصدر السابق ٣١٧ .

(٧٠) المصدر نفسه ٣١٣ .

(٧١) كتب ومؤلفون ٢٠٤ .

(٧٢) المصدر نفسه ٢٢٥ .

(٧٣) من أدب التمثيل الغربي ٢٩ .

(٧٤) الحيوان ١ : ٧٥ - ٧٦ .

(٧٥) خليفة التليسي : المصدر السابق ٥٤ - ٥٥ .

وأكاد أزعم أن طه حسين اطمأن الى هذه الحقيقة القديمة الحديثة وطالب ، ليتجنب «الحرج الذي يأتي من الدين والفن جميعاً»[٧٦] ، بإحياء فكرة ترجمة «معاني القرآن» الى اللغات الأجنبية وفي ذهنه ، فيما أرجح ، أن ترجمة «معاني القرآن» لا تعني «قرآناً» . وقد همَّ هو نفسه بهذا ، لأنه كان من أهدافه الكبار .

«فأنا لا أريد أن أنقل الى اللغات الأجنبية ما في بيان القرآن الكريم من روعة وإعجاز ، وإنما أريد أن أعطي الأجانب من القرآن الكريم صورة صادقة تؤدي إليهم معانيه وان لم تؤد روعة النظم وجمال اللفظ وبراعة الأسلوب ......

وانما أريد أن ينهض المسلمون بهذا الواجب الذي نهض به كثير من غير المسلمين ، يخلص أكثرهم وينحرف قليل منهم عن الإخلاص ، ويتورط أولئك وهؤلاء في الخطأ الذي لا ينفع أحداً والذي يسوء الإسلام ويسوء المسلمين عن عمد وعن غير عمد . والاسلام دين يتجه الى الناس كافة لا الى العرب منهم خاصة . وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن نفرض على الناس أن يقرأوا القرآن في نصه العربي ، إذا أرادوا أن يعرفوه ، لأن هذا تكليف بالمحال كما يقول الأزهريون[٧٧]» .

٤ - ٣ :

لقد كان ينشد الترجمة «دقيقة كاملة[٧٨]» ، فما المقصود بـ «الترجمة الكاملة» ؟ وما معنى «الترجمة الدقيقة» ؟

«الترجمة الكاملة» أن لا يترك المترجم أو يهمل من العمل المترجم شيئاً كما فعل حافظ ابراهيم حين أهمل الصفحة الأولى من «البؤساء» إهمالا تاماً دون أن يشير إليها بحرف[٧٩] . لكن طه حسين فعل مثل هذا ، بل أكثر من هذا ببعض «روح التربية» لغوستاف لوبون ، فلم يترجم كاملاً ولم يلتزم بالأصل حتى قال هو «إني ترجمت هذا الكتاب ولم أترجمه» متذكراً جواب أرسطاطاليس للإسكندر «ألغزتها ولم ألغزها» (أي ألغزت كتبي على العامة ولم ألغزها على الخاصة ، لما كتب الأخير الى الأول ، وقد أهداه كتبه «لقد ألغزت كتبك !» .

لماذا لجأ الى ما قد يصبح بعضه أو أكثره أو كلّه «سنة» للآخرين أو «ذريعة» ؟ لقد أجاب[٨٠] :

«ترجمته ، لأن رأياً من الآراء التي وردت فيه لن تفوت القارىء . ولم أترجمه ، لأني لم أتكلف النقل الحرفي . ولم أعدل عن النقل الحرفي كسلاً أو مللاً . وإنما عدلت عنه ، إيثاراً لما يؤثره المؤلف من القصد والإيجاز . فالمؤلف مطنب شديد الإطناب ، يكرّر نفسه كثيراً شأن المؤمن المقتنع برأيه . وهو كثير النقل مسرف في الاستشهاد يثبت الرأي الواحد بعشرات من القطع ينقلها عن الكتاب والعلماء المختلفين . ولو أني ذهبت في الترجمة مذهبه في الكتاب لأضفت الى هذا

---

(٧٦) نقد وإصلاح ٢٠٦ .
(٧٧) المصدر نفسه ٢١٧ - ٢١٨ .
(٧٨) خواطر ١٢١ ، وكتب ومؤلفون ٢٠٨ .
(٧٩) حافظ وشوقي ٨٦ .
(٨٠) كتب ومؤلفون ٢٢٨ .

السفر مقداراً عظيماً من الصحف يمكن الاستغناء عنه ويثقل المضي في قراءته . ولا سيما والكتاب لم يوضع لنقد التعليم في الشرق وانما وضع لنقد التعليم في فرنسا» .

ومهما يكن أمر هذه المعاذير ، فهي ، في دولة الترجمة ، «تصرف» ، بل «تصرف كبير» ، وليته سمّاها «ترجمة بتصرف» . فالحذف في الترجمة محظور مهما تكن أسبابه . والمعروف الواجب الاتباع ان يُتَرْجم أي كتاب كاملاً ، وللمترجم الحق في أن يعلق ويبدي كل ما يعنّ له من ملاحظات على مالا يسوغ من آراء المؤلف الذي من حقه ألا يُعبث بكتابه . وليت طه حسين «لم يترجم الكتاب» بتعبيره هو ومعناه ، واستعاض عن الترجمة بعرضه والتعريف به أو تلخيصه كالذي فعله في أعمال كثيرة من القديم والحديث ما دام الكتاب «لم يوضع لنقد التعليم في الشرق وانما وضع لنقد التعليم في فرنسا» ومادام « علىَ من يريد أن ينفع بهذا الكتاب وينتفع أن يستخلص منه الآراء التي تمس العيوب المشتركة بين التعليم الفرنسي دون أن يمسخ الكتاب أو يفسده . ولم أفعلَ غير هذا» .

بيد أن ترجمة عادل زعيتر الكاملة للكتاب[٨١] ومقدمته عليه تشي ، بصوتٍ عالٍ ، بأمور وثيقة ببعض ثوابت مفاهيم طه حسين التي آمن بها وسعى من أجلها وناضل في سبيلها فغنم وغرم ، وأهمها إيمانه ومطالبته بإدخال اللاتينية واليونانية في مناهج التعليم، في حين كان أحد أهداف صاحب «روح التربية» الرئيسة من نقده مناهج التعليم في مراحل التعليم الفرنسي كلها يرمي الى التقليل من أهمية هاتين اللغتين بخاصة والتشكيك في نفعهما لأنهما من اللغات الميتة التي ليس فيها «فضيلة تهذيبية خاصة ، بل أعتقد بالعكس أن اللغات الحية أفضل من اللغات الميتة لأنها حية» . وكان يرى أن تعليمهما «ينطوي على اضاعة للوقت» .

وخلاصة مارآه عادل زعيتر في ترجمة طه حسين «أنه حذف نحو الثلثين من ذلك الكتاب العلمي الاجتماعي ، وأنه حذف من الكتاب فصولاً بأسرها ، وأنه سرد أقوالاً على أنها للمؤلف مع أن المؤلف عزاها في كتابه الى غيره ، وأنه لم يشر الى مواطن الحذف إلا قليلاً ، وأنه لم يُعْنَ بلغة الترجمة فيزيل العجمة منها جهد الاستطاعة ....» .

أما غوستاف لوبون نفسه ، فقال بعد أن رأى الكتاب وتُرجمت له مقدمة طه حسين :

- «يظهر أن المترجم المصري راغب في جعل الترجمة جزأين أو أن خطكم اختزالي !» .

- «فالذي أرى أن المترجم المصري أزال حيوية الكتاب» .

٤ - ٤

أما «الترجمة الدقيقة» ، فالتي تكون «صورة صحيحة للأصل» من غير أن تكون «حرفية» أو «فوتوغرافية» ، وهيهات أن يستقيم هذا لكثير من المترجمين .

ترجمة حافظ ابراهيم للبؤساء ، مثلاً ، لم تكن «دقيقة[٨٢]» ، وترجمة «علم الأخلاق[٨٣]» «توشك أن

(٨١) طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٩ . ص٣ - ٢٧
(٨٢) حافظ وشوقي ٨٧ - ٨٨ .
(٨٣) حديث الأربعاء ٣ : ٥٦ - ٥٧ .

تكون حرفية» باعثها حرص المترجم على الأمانة المبالغ فيها حتى جنحت به الى «النقل الفوتوغرافي» .

ومهما يكن مما يلاحظ على الكتاب «فلا تأخذ به المترجم العربي بل خذ به المترجم الفرنسي . أما المترجم العربي فزعيم لك بأن ترجمته عن الفرنسية صحيحة لا تقبل نقداً ولا طعناً ، وأنا أيضاً زعيم بصحة هذه الترجمة عن الفرنسية ، وأكاد أثق بأن الترجمة عن اليونانية دقيقة أيضا وإن كان بعض الذين يدرسون فلسفة أرسطاطاليس لا يطمئنون الاطمئنان كله الى «برتلمي سانت هيلار» (المترجم الفرنسي) . . . . . ومهما يكن من شيء ، فإن هذه الترجمة العربية الجديدة . . . . . . أصح وأدق من أكثر التراجم العربية القديمة التي نقلت أيام العباسيين لا عن اليونانية مباشرة ، بل عن السريانية التي اشتملت على أغلاط فألوان من المسخ والتحريف» .

وينضوي تحت لواء الدقة ما يدعوه طه حسين «عدم الدقة غير المقصودة» وهو ما اصطلح على تسميته «التصرف» العادي المعهود لا «التصرف الكبير» أو «الترجمة غير الكاملة» كما مضى .

يرى طه حسين أن لغة «المصدر» هي التي تلجيء المترجم إلجاء إلى هذا الضرب من عدم الدقة ، ولهذا استحقت عنده نعت «غير المقصودة» . ومن أمثلتها ما اعترض محمد عوض محمد في «فاوست» ونبّه عليه طه حسين «وحسبي أن أرجع في كثير من الأحيان الى الأصل الألماني مع مترجمين غير الأستاذ عوض ، فإذا ترجمة صاحبي دقيقة دقة لا غبار عليها إلّا في مواضع قليلة أعلن اليّ هو أنه تصرف فيها بعض الشيء ، ولاحظت أن غيره من المترجمين الأوربيين تصرف فيها أيضاً لأنها لا تستطيع أن تؤدي في غير الألمانية»[84] .

ومنها ما اتفق لطه حسين نفسه ، وللسبب ذاته ، في ترجمة «العنوانات» بخاصة . فعنوان قصة «الطائر الحديث» للكاتب الفرنسي «رستار برنار» ليس «ترجمة صادقة ولا دقيقة للعنوان الفرنسي ، وإنما هي ترجمة مقارنة أو قل هي إشارة الى معنى العنوان الفرنسي ، لأن نقله الى لغتنا ليس باليسير»[85] .

وعنوان «هدوء السر» هو ترجمة «La Paix chez Soila وإن رأى أنه «قد يُغْضب المجمع اللغوي لهذا العنوان الذي يصوّر لغة العامة أكثر مما يصور لغة الفصحاء ، ولكني مع ذلك أوثره لأني أجد فيه الترجمة الصادقة للعنوان الفرنسي . . . . كما أجد فيه تصويراً صحيحاً دقيقاً للقصة نفسها»[86] .

ومثلها عنوان «سجين» الذي ليس «مطابقاً ولا مقارناً للعنوان الفرنسي الذي وضع لهذه القصة ، فلو أني أردت الترجمة الحرفية لجعلت عنوانها «كان هناك سجين» . ولكني آثرت هذا العنوان اليسير لأن العنوان الفرنسي يدل على معنى خاص يأتي من وضع الفعل بغير فاعله . وليس الى ترجمة هذا المعنى الخاص من سبيل»[87] . وعنوان قصة «أرض الجحيم» لفرنسوا دي كوريل «لا يترجم ترجمة صحيحة عنوان القصة . . . . . . وانما يؤدي شيئاً من معنى هذا

(٨٤) كتب ومؤلفون ٢٠٨ .
(٨٥) من أدب التمثيل الغربي ٤٥ .
(٨٦) المصدر نفسه ١٣١ .
(٨٧) المصدر نفسه ١٠٢ .

العنوان دون أن يؤديه كله، بل دون أن يؤدي منه الشيء الكثير.

والترجمة الحرفية لهذا العنوان هي «أرض لا إنسانية» أي أرض لا يعيش فيها الناس، وإنما يعيش فيها أشخاص لهم طباع وميول وعواطف وأهواء لم يعرفها الناس، ومع ذلك فهذه الأرض التي تقع فيها القصة أرض إنسانية حقاً، ويعيش فيها ناس مثلي ومثلك [88]، كما أن عنوان «البطولة» لهنري برنستين لايترجم عنوانها الصحيح. فعنوانها «السمو» يقصد به الكاتب الى سمو النفس الإنسانية ومجاوزتها طور الإنسان فيما ألف من حياته أيام السلم الى مالم يألف من المعجزات في التضحية وتقديم الأشخاص أنفسهم وأهواءهم وعواطفهم وحياتهم قرباناً للوطن المقدس حين يغير عليه العدو ويتعرض لغزو الفاتحين [89]». ان ما ذهب اليه طه حسين وَجُوبَة عملياً في الأمثلة المذكورة هو أحد المنطلقات الحقيقية في الترجمة الإبداعية التي يجب أن تتجنب النقل التحريري بين اللغتين وتركز على ايجاد المصطلحات المتطابقة والبحث عن «المعادل الوظيفي» الكامل بقدر الإمكان [90].

ويندرج في الإطار نفسه ما أجازه طه حسين نظرياً وطبّقه عملياً، مراعاةً لطبيعة لغتي المصدر والهدف ومعايير البنى والتراكيب الأساسية فيهما ولاعتبارات حضارية جاري فيها المترجمين الأوروبيين، من جديد التورط في ترجمة بعض «الألفاظ الأجنبية» و«تعريبها» إذا لم يكن ثمة مسوغ ما. ولا بأس، بعد، في تفسيرها تفسيراً موجزاً. لقد فوجىء بهذا وهو يترجم «نظام الأثينيين»، فأبقى على «البوليماركوس» كما هي، وقال «معنى الكلمة الحرفي: رئيس الحرس [91]»، وعلى «الأزكون» وفسرها بأنها «رئيس الحكومة في أثينا [92]» وعلى «الكولاكرتيا» وشرحها «وهم الذين كانوا يتولون الإنفاق على الموائد العامة [93]». ثم خرج بهذه القاعدة [94]:

في هذا الكتاب، بحكم الضرورة، ألفاظ يونانية كثيرة ليس من سبيل الى ترجمتها، لأنها تدل على معانٍ لم يعرفها المحدثون من الإفرنج والعرب. لذلك احتفظ بها المترجمون الأوربيون واحتفظت بها أنا أيضاً في الترجمة العربية، مفسراً كل لفظ منها تفسيراً موجزاً، ولم أشأ أن أغيّر صورتها اليونانية بما يسمونه «التعريب» إلّا في لفظين اثنين».

ومما أجازه نظرياً وعملياً، أيضاً، الإبقاء على «الأسماء» دون تغيير إذا ما رأى المترجم ما يبيحه، كالذي فعله في ترجمة «أوديب»: آثرت في هذا الكتاب ايراد الأسماء اليونانية كما ينطقها ويرسمها الفرنسيون [95].

٤ ـ ٥:

وأما «الحرفية». فكان يأباها أشدّ الإباء وأن الذوق العربي يأباها. واعترافه هذا حلقة في سلسلة حلقات

(88) قصص تمثيلية ٩٩.

(89) المصدر نفسه ١٩٩.

(90) س. فلورين: الطرق التحريرية. في: فن الترجمة، ص٥٥. مصدر سابق (ترجمة حياة شرارة).

(91، 92) نظام الأثينيين ٣٢٥. المجموعة الكاملة (المجلد ٨). دار الكتاب اللبناني بيروت. ط٢: ١٩٧٥.

(93) المصدر نفسه ٣٢٥.

(94) المصدر نفسه ٣٢٢.

(95) أوديب ٤٧٨. المجموعة الكاملة (المجلد ١٥). دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدارس ـ بيروت ١٩٨٣.

اعتراف بحالية منشؤها أن الحرفية والالتصاق بها يقتل «الروح[٩٦]» .

لكن طه حسين ، مع هذا ، تكلف الحرفية في ترجمة ديوان «أنت وأنا» للشاعر الفرنسي «بول جيرالدي» . لماذا ؟ لأنه «ليس الديوان هزلاً وليس من ضروب العبث ، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التي تقرؤها فتسيغها ثم تعيد قراءتها حتى تستظهرها استظهاراً .

وقد كنت أستطيع أن أتحدث إليك فيه جاداً ، وأن أترجم لك منه ترجمة عربية صحيحة لا تخلو من متانة وإن كان هذا عسيراً ، ولكني ، مع ذلك ، تعمدت أن أتحدث إليك فيه مازحاً وأن أتكلف الترجمة الحرفية . . . . . لأني أردت من هذا الخلط بين الجد والمزح أن أتعرف هذا الشاعر من جهة ، وتعرف كيف يفكر القوم وكيف يتحدثون من جهة أخرى ، وتشعر بأن الترجمة الحرفية في الأدب قد تكون نافعة وقد تكون قيمة ـ ولكنها مفسدة للجمال الأدبي في كثير من الأحيان . . . . . أن أترجم ، اذن ، ترجمة حرفية خالصة ، وأتكلف الأسلوب الفرنسي في اللغة العربية ، وأعرف أن هذا الأسلوب قد يغضب كثيراً من الناس فأسارع بأن أعلن أنه يغضبني أيضاً . وأعرف أنه قد يعجب كثيراً من الناس فأسارع وأعلن أنه يعجبني أيضاً . فهو يغضبني حين أريد الجد ويعجبني حين أريد الضحك[٩٧]» .

٤ - ٦

ولما كانت أكثر مسائل هذا المحور توصل الى لغة الترجمة بعامة ، فماذا يرى فيها طه حسين ؟

مذهبه فيها أن تكون سهلة يسيرة واضحة وباللغة التي يتكلمها الناس ويفهمونها خالية من الغريب و «الجمل المتفخمة» ، وأن يكون الكلام فيها عذباً منسجماً لا يصرف عن المعنى ولا يلهي عن الموضوع إلاّ أن يكون الأصل نفسه غامضاً فينبه المترجم عليه ، أو أن يكون صعباً ، كما هي الحال في «علم الأخلاق» الذي جاءت «ترجمته العربية كالأصل اليوناني لا تخلو من صعوبة ، ولا يستطيع القارىء أن يمضي فيها مضيّاً سهلاً ، وإنما هو محتاج إلى شيء من الأناة والتدبر ليفهم[٩٨]» .

وعاب أن يعمد المترجمون ، إذا ما ثقلت عليهم الترجمة ليخففوا عنهم ثقلها ، الى تكلف الألفاظ الغريبة والتماسها في المعجمات مألوفة للآذان أم غير مألوفة والى الجري وراء الجمل الفخمة ليخفوا ضعفهم في الفهم أو قدرتهم على الأداء[٩٩] . وربما تأتت له هذه القاعدة ، في الأخص ، من نقده ترجمة «البؤساء» لحافظ ابراهيم الذي جانب فيها «روح العصر» لغة وأسلوبا وذوقاً ، فاضطر مكرهاً أن يقول[١٠٠]»

«ماذا تقول في كتاب لاتكاد تمضي في قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب في غير هذا العصر . كتب أيام

---

(٩٦) يوجين نيدا : المصدر السابق ٣١٣ .
(٩٧) لحظات ١ : ١٥٧ - ١٥٨ .
(٩٨) حديث الأربعاء ٣ : ٥٦ .
(٩٩) كتب ومؤلفون ٢٠٩ .
(١٠٠) حافظ وشوقي ٨٤ - ٨٥ .

كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بَعْدُ أسمال البداوة ، ولم ترتدِ حلل الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون . . . . هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعانيَ حضارية . عواطف ومعانيَ نشأت في خواطر كتّاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر !» .

وانتهى مازحا متهكماً جاداً :

«فقد كنت أظنني أعرف العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتاباً ولا سيما من هذه الكتب المعاصرة ،دون أن أحتاج الى بحث كثير في القاموس ، فلما قرىء عليّ البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه . وأقسم لولا هذا الشرح الذي تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت في قراءة الكتاب الا مع شيء غير قليل من المشقة والعناء . ولكني لا أدري : أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة في وقت واحد :

مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن الالمام بها والانتفاع واستظهر . . . .

ونقيصة لأنها تكلف ، ولأنها عقبة تحول بين القاريء وبين الفهم ، ولأنها لا تلائم روح العصر ، ولأنها لا تعين على ما قصد اليه من نشر آراء فيكتور هوجو واذاعة عواطفه بين شعبنا . . . الذي لا يعرف لغة رؤبة والعجاج منه الا نفر يُحْصَوْن . . . . أحمد لحافظ هذه اللغة العربية الجزلة ، لأنها تدل على عناء وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد غير نافع وهذا العناء غير مفيد . . . . » .

ان مراعاة «روح العصر» في اللغة والأسلوب والمصطلح والذوق سمة عامة في الترجمة وقاعدة من قواعدها الهامة . وهي عسير وشاقة وامتحان صعب لمنزلة المترجم وحذقه ومعرفته الفن الذي يترجمه ، ولقد بلوته وحيداً في ترجمة كتاب «سياست نامه» لنظام الملك الطوسي (من القرن الخامس الهجري) من الفارسية الى العربية ، ومع صديقي الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفي في ترجمة كتاب «قصتي مع الشعر» لنزار قباني ، وكتاب «مختارات من الشعر العربي الحديث» لمصطفى بدوي من العربية الى الفارسية [١٠١]

وعلى أية حال ، فالترجمة بالنثر تظل ، وإنها لكذلك ، «أيسر وأدق» [١٠٢] ، كما تظل الترجمة بالشعر «أشق وأعسر [١٠٣]» ومرد هذا غير «أدبية النصوص» و «بلاغتها» الخاصة في لغاتها ، تباين الأذواق فالذوق الغربي ، مثلا «يخالف من وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغيره وتطوره . . . . ومن هنا كانت ـ في الشعر الأجنبي خاصة والأدب الأجنبي عامة ـ صور قد يعسر جداً نقلها الى اللغة العربية ، حتى إذا نقلت لم تسغها ولم تطمئن اليها نفوسنا وآذاننا ، ومع ذلك فهي تعجبنا وترضينا كل الرضا حين نراها في لغاتها الأجنبية الخاصة [١٠٤]» .

ـ٥ـ

وآخر المطاف مع قضية الترجمة عند طه حسين ما يسميه هو ، وغيره كذلك ، «الترجمة عن ترجمة» . هذا الضرب «لايمكن الرضى به أو الاطمئنان اليه» ،

(١٠١) راجع : كتابي ، قضايا في النقد والشعر ٩٧ ـ ٩٨ ، دار الأندلس ـ بيروت ١٩٨٤ ، وترجمتي العربية لكتاب «سياست نامة» ، ص١١ . دار الثقافة ـ الدوحة . ط٢ : ١٩٨٧

(١٠٢) كتب ومؤلفون ٢٠٩ .

(١٠٣ و ١٠٤) حافظ وشوقي ٤٩ .

وهو في أية حال ، نقص أو قصور لابد من أن يعدل عنه الى الترجمة «عن اللغة التي كتب فيها الأديب أو العالم أو الفيلسوف [١٠٥]» ، ومن أجل هذا ظل يلح على الدعوة الى تعليم اللغات الأوربية الكبرى كلها في المدارس والجامعات ، ويرحب بتعليم اللغات الشرقية [١٠٦] ، لأنه كفيل بألا «ننقل آثار الكتاب الألمانيين مثلاً أو الروسيين عن الترجمة الفرنسية أو الانجليزية لهؤلاء الكتاب وعاصم لنا عن اللجوء الى مالجأ اليه قدماؤنا «حين نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية ، وحين نقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية [١٠٧]» ، فوقع «كثير من الخلط والاضطراب في النقل . ومن هنا صُرف بعض المذاهب الفلسفية اليونانية عن موضعه ، وأضيف بعضها الى غير أصحابه ، وظهر شيء من الاضطراب في تاريخ الفلسفة الاسلامية وفي الصلة بينها وبين الفلسفة اليونانية [١٠٨]» .

بيد أنه يظل ثمة وجه للمسألة عنده ، وهو أنه لا ضير ـ حين اللزوم ـ في «الترجمة عن ترجمة» أو «النقل بالواسطة» «بالقياس الى بعض اللغات التي لم ينتشر درسها في الشرق العربي [١٠٩]» مادمنا لا نجد من يحسنها أو يعرفها وفيها أعمال نرى ترجمتها لازبة وضرورة ثقافية أو فكرية ، فشيء ـ دائماً ـ خير من لاشيء .

ويظل ثمة استثناءات فيها بعض مصادرة على رأية . فقد ترجم هو نفسه قصتي «أوديب» و «ثيسيوس» لسوفوكليس عن «اندريه جيد» الفرنسي [١١٠] ، وليس عن اليونانية دون أن يذكر سبباً أو يبين علة ، اللهم الا ماقد يكون من حبه الكاتب وإعجابه به . وأظهر رضاه بترجمة صديقه أحمد حسن الزيات «آلام فرتر» واطمئنانه اليها مع ملاحظة أن الزيات لم ينقل الكتاب عن «لغته الأولى ، وانما نقله عن الفرنسية» . وربما عزّز موقفه أن الرجل «قد استطاع ، مع هذا كله ، أن يخرج لنا منه صورة صحيحة رائعة ، عرفنا مقدار ما عانى في سبيل ذلك من مشقة وما كابد من صعوبة [١١١]» .

واغتبط حين أخرج أستاذه لطفي السيد كتاب «السياسة» لأرسطاطاليس مترجماً عن الفرنسية ، لكنه لم يُخْفِ رأيه بل أعلنه وبرر صنيع أستاذه بالمقايسة الصائبة : «وأحمد لطفي باشا يعلم ـ ولا يخفي ـ أن أقْوَمَ الترجمة ما نقل عن الأصل مباشرة .

ولكنه يعلم أن العرب قد نقلت لهم آثار اليونان من طريق السريانية لقلة الذين كانوا يحسنون اليونانية ، وأن الذين يحسنون اليونانية حين بدأ بترجمة أرسطاطاليس كانوا لا يوجدون الا في الوهم والأمل .

فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن ينتظر بترجمة أرسطاطاليس حتى يوجد الشباب الذين يحسنون اليونانية ويحاولون الترجمة منها مباشرة . وهو يرى أن شيئا خير من لا شيء ، وأن ما وسع المسلمين في العصر

(١٠٥) نقد واصلاح ١٨٥ .
(١٠٦) كلمات ٤٣ .
(١٠٧) نقد واصلاح ١٨٥ ـ ١٨٦ ، وكلمات ٤٣ .
(١٠٨) ألوان ٢١ .
(١٠٩) ألوان ٢٢ .
(١١٠) هما في : المجموعة الكاملة (المجلد ١٥) .
(١١١) كتب ومؤلفون ٢٠١ .

العباسي ، والأوربيين في القرون الوسطى ، يمكن أن يسع الشرقيين المحدثين في هذه الأيام»[١١٢] . غير أن حيطته المبررة ، كذلك ، نحو ترجمة لطفي السيد «علم الأخلاق» لأرسطاطاليس عن الفرنسية ، أيضا ، كانت أشد ، ومؤاخذته كانت أقوى . فقد «نقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليوناني ولكن الأستاذ نفسه يجيب في التصدير بأنه كان يود ذلك أيضا ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل وبذل ما استطاع أن يبذل من الجهد لتحري الصواب في ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد غير ترجمة»[١١٣] .

وفرح لما ترجم عبدالعزيز فهمي «مدونة جوستنيان» عن الفرنسية مستعينا كثيرا بالأصل اللاتيني ، وهو ما سوغ له اعتقاده بأن المترجم «لم يؤمن للترجمة الفرنسية أو للتراجم الفرنسية التي اعتمد عليها اعتمادا مطلقا وإنما نقد واستقصى وراقب الترجمة واستقصى النصوص وقابل بين التراجم المختلفة ورجح بعضها على بعض ، ولولا ذلك لما استعار مني المعجم اللاتيني وكتاب النحو اللاتيني . فالذين يقرأون هذا الكتاب يجب أن يطمئنوا إلى أنهم لايقرأون ترجمة ثانية عن ترجمة أولى، وإنما يقرأون كتابا ترجم عن أصله اللاتيني ، وكانت تراجمه الفرنسية هاديا للاستاذ ودليلا»[١١٤] .

وقد يشفع لطه حسين ، فضلا عن احتياطه في الرضى بترجمة الزيات واطمئنانه اليها وتبريره لترجمتي لطفي السيد وترجمة عبدالعزيز فهمي ، أن رأيه في «الترجمة عن ترجمة» أتى في مرحلة متأخرة عن المراحل التي صدرت فيها ترجمة الزيات (١٩٢٣) ، وترجمتا لطفي السيد ، وترجمة عبدالعزيز فهمي ، وترجمتاه هو (١٩٤٧) .

***

---

(١١٢) مقالات : عرض ونقد ٣٣٨ .
(١١٣) حديث الأربعاء ٣ : ٥٦ .
(١١٤) مقالات : عرض ونقد ٣٣٩ .

عوامل نهضة الشعر الديني في العصر الحديث

حلمي محمد القاعود

كلية الآداب ـ جامعة طنطا ـ مصر

توطئة :

ارتبطت نهضة الشعر الديني في القرن الأخير بنهضة الشعر عامة ، فقد انبعثت الأمة بفعل عوامل عديدة لتواجه ماضيها وحاضرها مواجهة فعالة ومؤثرة جعلت الحياة الفكرية والأدبية ـ ومن داخلها الشعر ـ تحفل بالكثير من التجارب والتيارات والرؤى ، بَحْثا عن هوية الأمة ومستقبلها ، وكان الشعر باعتباره فن العربية الأوّل ، خير معبر عن صوت الأمة وحركتها ، وخير مسجّل لمسيرتها أيضا ، باعتباره في جانب من جوانبه سجلا للأحداث ، ومعلقا عليها من وجهة نظر الشعراء ، التى قد تتفاوت بتفاوت رؤاهم وقدراتهم .

لقد وصل الشعر في القرن الثالث عشر الهجرى الى حالة من الجمود والخواء ، ربما لم يكن لها مثيل من قبل ، فكانت أغراضه متواضعة ، تعبّر عن بعض المطارحات والمساجلات بين الشعراء ، وكان مستواه الفنى رديئا ، حافلا بالتقليد ، والصور الجافة والألفاظ البراقة ، والبديعيات المتكلفة والمفتعلة ، وكان الشعر في وضعه هذا ، في تشابه حقيقى مع ما وصل اليه المجتمع من ركود وخمود . وإن كان هذا القرن قد شهد في أواخره بداية النهضة الاجتماعية والفكرية والأدبية ، التى كانت ثمرة جهود أسرة محمد علي بإنشاء المدارس وإرسال البعوث الى الخارج وإقامة بعض الصناعات ، والوصول الى عصر الصحافة ، وترجمة بعض المواد الفكرية والأدبية الى اللغة العربية ، وغير ذلك من عوامل هيأت ومهدت لاختلاجة الحياة الحقيقية داخل المجتمع ، والحركة الثقافية بعامة[1] .

ومع دخول الانجليز الى مصر ، واحتلالها ، وما واكب ذلك أو سبقه من ثورة الضباط بقيادة عرابي ،

(١) لعل كتاب « في الأدب الحديث » بجزئيه ، من أفضل الكتب التي تناولت تلك الفترة بالتحليل والتقويم . وانظر على سبيل المثال تقريظه لبعض الشعراء في الجزء الأول ـ ط ٨ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣ م ص ٣١ ، ٣٢ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٨٨ .

الذى هُزم في معركة التل الكبير أمام الجيش الانجليزى ، فقد تحركت مصر والعرب تبع لها ، لمواجهة الهزيمة المريرة التى انتهت بالاحتلال . لقد تحركت الدول الأوربية القوية على مدى القرن الرابع عشر الهجرى لتفترس الدول العربية واحدة بعد أخرى ، بالاحتلال المباشر أو غير المباشر وصاحب ذلك ثورات ومعاهدات واتفاقيات ، وخروج عن الارتباط بدولة الخلافة في تركيا ، وسعت مصر والعرب الى بناء حياة جديدة تتناسب مع أمانيهم ، وتعيدهم الى المجد ، أو تعيد المجد إليهم ، ولكن الغزوة اليهودية الصهيونية بمساعدة القوى الكبرى ، والتى توجت بانتصار اليهود وانتزاعهم لفلسطين ، والسيطرة على القدس ، واحتلال أراضٍ عربية أخرى ، وفرض وجودهم السياسى والعسكرى على العرب ، قد أحْدثَ في الواقع العربى الإسلامى ردٌّ فعل عنيفا يعبر عن الاحساس بالهزيمة والتشوق الى الثأر ، والبحث عن أساليب عمليّة وثقافية للبناء الحضارى ، ومواجهة الانهيار الذى جرف الأمة ، وأرهقها بالمزيد من العناء والقهر والمذلة ! .

كان على فن العربية الأول أن يعبر عن الرؤ ى المتباينة في مواجهة كل القضايا التى فرضت نفسها على الساحة طوال القرن الرابع عشر الهجرى ، بالسلب أو الإيجاب ، وكان للجانب الدينى في المسألة حجمه الكبير ، وأثره الفعال ، إذ إن الدين الإسلامى يمثل في واقع الأمة الإسلامية بعامة ، والعرب خاصة ، حياتها ومستقبلها ، هويتها وشخصيتها ، حضارتها ومدنيتها ، تاريخها ومجدها حصنها وسلاحها ، فلسفتها وحلمها ، وقد ظل الدين في الوجدان الشعبى والقومى يمثل ذلك الرباط الوثيق الذى يربط أبناء الأمة الى الجهاد والمقاومة والدفاع عن الحضارة والذات ، وكان على الشعراء أن يعبروا عن هذا الوجدان تعبيرا قويا وفعالا ، وإذا كان الارتباط بالدين وثيقا الى هذا الحد ، فان الارتباط بالنبى الذى جاء بهذا الدين لابد أن يكون أشد وثوقا وأقوى آصرة ، ومن هنا كان لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكانه البارز على خارطة الشعر الدينى ، حيث يحتل مساحة كبيرة منها ، إن لم تكن المساحة الأكبر . .

يمكننا إذا أن نقول : إن ازدهار الشعر الدينى سواء ما يتكلم منه عن قضايا دينية عامة ، أو يتناول شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكلاهما مرتبط بالآخر ـ يرجع الى عوامل أو دوافع عديدة يمكن ان نوجزها فيما يلى :

١ ـ عوامل فنية .

٢ ـ رؤ ية الحاضر من خلال الماضى .

٣ ـ التأثر بالغرب .

٤ ـ التجربة الذاتية .

وسنعالج فيما يلى ، وبإيجاز غير مخل ، كل عامل من هذه العوامل على حدة ، لنرى في النهاية كيف ساعدت هذه العوامل أو أدت إلى نهضة الشعر الدينى .

١ ـ العوامل الفنية :

لا ريب أن الشعر العربى المعاصر قد شهد نقلة كبيرة في أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى) من واقع شعرى باهت الملامح ، قليل العطاء ، إلى واقع شعرى تفجر فيه نبض الحياة وإشراق الديباجة ، وشرف الغرض ، وسموّ التعبير على رائد النهضة الحديثة « محمود سامى البارودى » ، ثم بلغ ذروة عالية من الازدهار في عهد شوقى وحافظ وغيرهما . .

لقد كان الدافع إلى هذه النهضة الفنية في الشعر هو عامل التقليد البحت وينصرف الى تقليد تلك النماذج الرائعة التى طالعها الشعراء في شعر الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى والعصر العباسى . فكانت هنالك نماذج لامرىء القيس وكعب وحسان والفرزدق وجرير والأخطل وابن الرومى وأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى فراس وأبى العلاء وغيرهم .. ولعل « البارودى » كان يهدف من تقديم « مختاراته » إلى تقديم نماذج شعرية قوية في أعصر مختلفة ليحتذيها الشعراء المحدثون وينسجون على منوالها ، من أجل الارتقاء بالشعر العربى والوصول به إلى غايات أفضل حظا من واقعه الموروث عن العصور السابقة مباشرة ، والتى انحدر فيها الشعر ـ إلا قليلا ـ إلى دركات من الانحطاط لم يعرف لها مثيلا في تاريخه الطويل .

ومن هنا يمكن القول إن البارودى ، وشوقى إلى حد ما ـ كانا في تقليدهما واحتذائهما للأقدمين يمثلان ذلك الشوق العارم إلى نهضة الشعر بصفة عامة ، وأن ما فعلا ـ خاصة ، البارودى باعتباره الرائد ـ كان يمثل ذلك الدم الجديد الذى فجر في تراثنا الشعرى وشعرنا الحديث أيضا طاقات روحية وفكرية ولا يمكن انكارها ، ولا الغض من قيمتها ، وأحسب أن الدكتور عز الدين اسماعيل كان قاسيا في حكمه على هذا الدور الذى قام به البارودى ومدرسته تجاه تراثنا الشعرى الساطع حيث نفى أن يكون للبارودى أو مدرسته أى أثر في تفجير الطاقات الروحية أو الفكرية في التراث الشعرى العربى ، ورأى أن مدرسة البارودى « قد أعادت النبض لهذا التراث في نفوس الناس فقط » وبنى على ذلك نتيجة تقول بأن ارتباط مدرسة البارودى بالتراث « كان ارتباطاً سطحيا أو شكليا ، لأنها لم تنبه الضمائر إلى هذا التراث من أى منظور تفسيرى ، ولم تلفتهم اليه من حيث هو حصيلة مواقف إنسانية لها أبعادها الروحية والفكرية خلف العبارة وخلف الفن ، وإنما هى قد اقتصرت مهمتها على استيحاء هذا التراث ، واعادته ـ بكل شخصاته الفنية ـ الى قارىء العصر . . . »[٢] .

إن قراءة شعر البارودى ومدرسته تدلنا بلا أدنى ريب على أن هذا الشعر قد حمل هموم عصره وأنه لم يتوقف عن مجرد الإحياء ، وان كان الإحياء في حد ذاته طاقة لا يستهان بها ، وانصرف الى التعبير عن واقعه من خلال التراث « عبارة وفنا » ولنا في تلك القصائد الطويلة ، والتى بلغ بعضها عند البارودى ما يقرب من أربعمائة بيت ، ما يؤكد قسوة حكم الدكتور عز الدين اسماعيل على مدرسة البارودى ، فقد حملت هذه القصائد أمانى الأمة وأمانى الشاعر في واقع جديد ومتميز ، له هويته الخاصة في مواجهة تيار الانهيار الكاسح الذى استهدف الشخصية القومية والخصائص الذاتية للأمة .

إن الدكتور عز الدين يرى أن القصيدة الطويلة هى « الكشف الحقيقى في ميدان الشعر العربى الحديث بعامة ، والإضافة الجديدة الجديرة بمزيد من الاهتمام في وقتنا الحاضر » ثم يرى أن ذلك كان طموحا في التجربة الشعرية الجديدة كانت له مقدمات ضد المدرسة الرومانتيكية وشعراء المهجر[٣] وهذا القول يحتاج الى مراجعة ، فللبارودى قصيدته الشهيرة « كشف الغمّة في مدح سيد الأمة » وتقع في حوالى خمسين وأربعمائة بيت ، وربما كانت أطول قصيدة في شعرنا الحديث ، وهنالك قصائد طويلة أخرى للبارودى وغيره من غير

(٢) د . عز الدين اسماعيل ـ الشعر العربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) السابق ، ص ٢٦٧ .

المدرسة الرومانتيكية وشعراء المهجر ، تتميز بقدرات تعبيرية وفنية متفوقة ويكفى أن نذكر مطولات شوقي وحافظ ومحرم والزهاوى والنبهانى والطرابلسى وغيرهم ومن ثم ، فان مقاييس الدكتور عز الدين نفسها تؤيد قسوته في الحكم على مدرسة البارودى وعلاقتها بالتراث الشعرى العربى ، ومدى قدرتها على تفجير طاقات روحية أو فكرية من خلاله .

واذا كان البارودى يجد مثلا في نظرته التاريخية لمصر ، وهى نظرة حزينة متشائمة أن بلده كانت دائما غنيمة للغريب ، وأن أهلها كانوا دائما ضحايا لهذا الغريب ، فإنه لا يلبث أن يستلهم روح التراث المناضلة التى لا تعترف بالاستكانة والخضوع . يقول في إحدى قصائده معبرا عن حزنه وتشاؤمه :

وما مصر عمر الدهر إلا غنيمة
لمن حل مغناها ونهبٌ مقسمُ
تداولها الملاك من كل أمة
ونال بها حظاً فصيحٌ وأعجمُ
فما أهلها إلا عبيد لمن سطا
ولا ريعها الا لمن شاء مغنمُ[٤]

هذه النظرة بالرغم من تشاؤمها ، وامتلائها بالمبالغة أو الاحباط الذى كان يفرضه واقع الاحتلال الانجليزى لمصر ، وانصراف الكثيرين أو خذلانهم للثورة العرابية بعد استتباب الأمر للمحتلّ ، ولا تجعل البارودى يستسلم أو يرضى بالهوان ، ولكنه يستوعب التراث وحكمته الخالدة ، أو طاقاته الرائعة في تفجير المقاومة والكفاح وهو ما يعبّر عنه « البارودى » بقوله :

فكيف يَرضى الفتى بالذلّ يحملهُ
والذلُّ تأنفه العبدانُ والخدمُ
ولا تخف وِرْدَ موتٍ أنت واردُهُ
من أخطأته الرزايا غالَهُ الهرمُ[٥]

وهكذا نجد أن شعر البارودى ومدرسته لم يكن مجرد إعادة النبض الى التراث في نفوس الناس ، بل كان أكبر من ذلك ، وإن لم يحقق كل ما يأمله الناقد المعاصر المُزَوَّد بثقافة غزيرة تجمع بين الموروث والمعاصر في بيئته وخارجها .

نعود الى القول بأن نهضة الشعر العربى الحديث على يد البارودى ومن بعده ، شملت أحد جوانبه أو معالمه الأساسية وهو « الشعر الديني » ، فقد استطاع هذا الشعر أن يحقق تقدما تعبيريا وفنيا واضحا ، وأن تكون نهضته في بعض الأحيان عاملا له أكثر من دلالة معنوية وفنية .

إن الشعر الدينى أقرب الى الوجدان الشعبى من أى شعر آخر ، لأنه يمثل ذلك الملاذ الذى يجد فيه الإنسان غايته من اتصال بالخالق الأعظم ، والعقيدة المتصلة بروحه ونفسه ، وحامل الرسالة « صلى الله عليه وسلم » وما يحظى به من مكانة في القلوب والأفئدة . وكانت المحن التى تمر بها الأمة الاسلامية في الوطن العربى وخارجه حافزاً قويا على اللجوء الى ساحة الدّين باعتباره قارب النجاة الذى يطمح الى ركوبه الذين أطاح بهم اليَمُّ الهائج ، ويحاول أن يغرقهم في جوفه العميق ، ولهذا كان الدّين محرِّضا على استمرار الحياة ، والأمل في المستقبل ومواجهة عوامل اليأس والقنوط والهزيمة .

(٤) ديوان البارودي تحقيق محمد شفيق معروف ، ط للمعارف ١٩٧٢ ـ: ٣/٥٦٢ .
(٥) ديوان البارودي : ٥٤٠ ، ٣ .

وقد وجد الشعراء ـ باعتبارهم ألسنة الأمة ـ الفرصة مؤاتية للتعبير في المناسبات المختلفة خاصة ما تعلق منها بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم مثل ـ : مولده ، الحج ، العيد ، رمضان ، غزوة بدر ، العام الهجرى . . . عن الهموم والأشجان والآمال والأحلام التى تستشعرها الأمة على المستوى الفردى أو المستوى الجماعى . .

وكان للشعراء دور هام ازاء التعبير من خلال الشعر الدينى ، فقد وجدوا تراثا هائلا وحياً ونابضا بذاته ، فحاولوا تقليده ، والإبداع على غراره ، واحتذائه في اللفظة والصورة والبناء والتركيب والوزن . . . وحاول بعضهم أن يتفوق على النماذج المقلّدة ـ بفتح اللاّم المشدّدة ـ ليصل الى الغاية المرجوة في التعبير عن فكرته أو رؤ يته الشعرية .

ويمكننا أن نرصد أهم محاولات التقليد في ثلاثة أنواع أو ثلاثة أنماط من التقليد : أولها تقليد القدماء ، وثانيها تقليد المحدثين للمحدثين ، وثالثها تقليد المحدثين لنماذج في الشرق أو الغرب من غير الشعراء العرب ، وسنكتفى ببعض النماذج ، حرصا على الإيجاز .

ففى مجال تقليد القدماء نجد أن البوصيرى وكعب بن زهير والامام البرعى وابن الفارض والكميت وحسان يحظون على الترتيب ـ بالتقليد لدى الشعراء المحدثين ، وبالطبع فإن البوصيرى وقصيدته « البردة » ثم « الهمزية » يحظى بأكبر نصيب في هذا المجال .

وقد لقيت « البردة » حفاوة عظيمة في عصرنا الحديث ، وما سبقه من عصور ، ويشير الأستاذ « محمد سيد كيلانى » الى أن الشعراء أقبلوا على البردة « فمنهم من يصدرها ومنهم من يعجزها ومنهم من يخمسها ومنهم من يسبعها ، ومنهم من يتسعها ومنهم من يعشرها ، ومنهم من ينهج نهجها وينسج على منوالها »(٦) . فضلا عن الشروح والتعليقات التى وضعت حولها . وفي دار الكتب المصرية مجموعتان كبيرتان الأولى تحت عنوان تخاميس البردة المسماة بالكواكب الدرّية في مدح خير البرّية وهى تسع وستون تخميسا لم يعلم جامعها ، والثانية عنوانها : الشهب المضيئة في تخميس الكواكب الدرية ، وهى ثلاثون تخميسا لم يعلم جامعها ، ولا تخلو مكتبة في أوربا من شروح للبردة وتخاميس لها(٧) .

وقد عارض البردة « كثيرون ، من أبرزهم في العصر الحديث : البارودى في قصيدته « كشف الغمّة في مدح سيد الأمة » وشوقى في قصيدته « نهج البردة » ومحمد عبد المطلب في « ظل البردة » وابراهيم داود عبد القادر قطانى « نهج البردة » ود . حسن ابراهيم « محمد رسول الله » ومحمد خليل الخطيب « بشرى العاشقين ببلوغ سيد المرسلين » وعلى أحمد باكثير « كشف ما جرى في مدح سيد الورى » وهاشم الرفاعى « نهج البردة » .

وقد شطر البردة كثيرون منهم « عبد العزيز باشا محمد » و « محمد بك نرغلى » « والشيخ أحمد بن شرقاوى الخلفى » كذلك فقد خمسها كثيرون من بينهم « عبد الرحيم السيوطى المالكى » الجرجاوى (توفى بعد عام ١٣٢٠هـ) ، و« عبد اللطيف الصيرفى » .

وهذا التقليد الذى اعتمد على المعارضة والتشطير والتخميس . . . صاحبه انتشار ملحوظ للبردة نفسها ، وإدمان لقراءتها ، خاصة في بعض البيئات المتدينة ، فضلا عن الطرق الصوفية ، ويمكننا أن ندرك ان قراءتها أو تلاوتها باستمرار كانت من العوامل الحافزة

---

(٦) ، (٧) محمد سيد كيلانى ـ مجلة الرسالة المجلّد ١٨ ـ السنة ١٩٥٠ ـ ص ٩٢٣ . وانظر مقدمته لديوان البوصيري : ص ٢٩ ، ٣٠

على تشطيرها أو تخميسها . يقول « عبد العزيز محمد بك » في مقدمته لتشطير البردة :

« ولما كنت من المعجبين بها المستلذين لتلاوتها آنست من نفسي ميلا لتشطيرها على مابي من قصور همة ، وقلة استعداد ، وصادفت فراغا من عملي في صيف هذا العام فرأيت خير ما أشغله به محاولة المضي مع ذلك الميل . . . . الخ »[٨] .

ومن نماذج تشطيره للبردة قوله في التوسل :

(خدمته بمديح أستقيل به)
كسب الخطايا بقلب غير ذى لَوَمِ
قد كان حظّى من الدنيا وزينتها
(ذُنوب عُمْرٍ مضى في الشعر والخدَمِ)
(إذْ قلّدانى ما تُخشَى عَوَاقِبُه)
من التكذّب والتفريط في الحُرَمِ
فارتعانى في هوي وفي لعبي
(كأننى بهما هَدْىٌ من النَّعَمِ) . .[٩]

ويقول « عبد اللطيف الصيرفى » عن تخميسه للبردة :

« الحمد لله الذى خمس أوقات الصلاة لأهل دينه القويم ، ورفع عنهم الإصر إجابة لسؤل من أوجب عليه الصلاة والتسليم . حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه السارين على منهجه ومنواله ـ . وبعد ، فقد عنّ للمتمس لطف مولاه الواضح الخفى . الفقير محمد عبد اللطيف بن المرحوم السيد محمد أفندى الصيرفى . أن يشرف الذهن والقلم بتخميس على قصيدة البردة التى هى أشهر من نار على علم . عسى يكون له حظ من القبول لدى ممدوحها . وطريق للوصول الى أبواب فتوحها . وقد أخرجت هذه الفكرة من التصور للوجود بإلهام واجب الوجود . فجاء تخميسا لا بأس به في بابه يغتفر خطأه بجانب صوابه على أنه أوضح كثيرا مما لمحّ عنه المؤلف بالإشارات وربما شرح ما انبهم له من غريب العبارات وقد سميته أريج الوردة في تخميس البردة لأنه تأرج بمدح من تنتعش الأشباح والأرواح نفحات طيِّبه وطيبه . . . . الخ »[١٠]

وهذا نموذج من تخميسه ، يقول فيه :

هذا محمد من لدنا بجانبه
ونال كل به أقصى مطالبه
فوالذى صانه من سوم عائبه
ما سامنى الدهر يوما واستجرت به
إلا ونلت جوارًا منه لم يُضَمِ
كلا ولارام قلبى نيل مقصده
من حسن عيش يهيئنى بأرغده
أورمت فضل جميل من معوّده
ولا التمست غنى الدارين من يده
الا استلمتُ النّدَى من خير مُسْتَلِمِ[١١] .

ويلاحظ أن الشاعر في هذا الديوان يعترف صراحة بأنه يقلد ، ونطالع عبارات يصدر بها قصائده ومقطوعاته نحو : « قلت من نوع التوليد . . » و« قلت في المعنى أيضا » ، « وقلت مشطرا » ، « وقلت مشطرا بناء على طلب الإخوان . . » . .[١٢] .

---

(٨) عبد العزيز محمد بك ـ تشطير البردة للامام البوصيري ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م ـ ص ٦ .

(٩) السابق : ص ٥٢ ، وما بين القوسين شعر البوصيري .

(١٠) ديوان الصيرفي ـ نشر ابنه السيد عبد العزيز الصيرفي ـ مطبعة الملاجيء بالعباسية القاهرة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٨ م ـ ص ٢٧ .

(١١) ديوان الصيرفي : ص ٤١ .

(١٢) السابق : ص ١٣٨ ، ١٣٩ مثلا .

ومن هنا نستطيع أن نعلل تقليد « البارودى » و « شوقى » « وعبد المطلب » وغيرهم « بالعوامل الفنية أو الرغبة في التقليد البحت ، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون هناك رغبة في بعث الماضى أو عرض هموم الأمة بجوار ذلك الهدف الفنى الخالص ، كما سنرى عند باكثير » مثلا .

وقصيدة « البارودى » في تقليد « البردة » تعد من أقوى القصائد التي نظمت في هذا المجال ، فضلا عن كونها أطولها جميعا (تعادل تقريبا ثلاثة أضعاف البردة) ، وقد عالج فيها الشاعر بعض القضايا بتوسع واستفاضة خاصة ما يتعلق منها بالحروب وانتصارات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتوسل به . والتشفع ، ويبدو لى أن الالحاح على هذه الجوانب كان يلمس وترا حساسا لدى « البارودى » حيث هزمته الأحداث ، وجرعته مرارتها وحيدا في منفاه وبعد عودته . يقول البارودى واصفا حاله :

تكاد دَتْنِي خطوبٌ لو رَمَيْتَ بها
مناكبَ الأرض لم تثبُتْ على قَدَمِ
في بلدةٍ مثل جَوْفِ العيْرِ لستُ أرى
فيها سوى أُمَمٍ تحْنُو على صَنَمَ
لا استقرُ بِهَا إلا على قلقٍ
ولا ألذُ بها إلا على ألَمَ
إذا تلفتُ حَوْلى لم أجدْ أثراً
الا خَيَالى ولم أسمع سوى كَلِمى
فمن يردُّ على نفسى لُبَانَتَها
أو من يجيرُ فُؤادِى من يَدِ السَّقَمِ ؟
ليْتَ القَطَاجِينَ سارت غُدْوَةً حملت
عنّى رسائل أشْوَاقِى الى إضَمِ

لا تدركُ العينُ منها حين تَلْمَحُهَا
إلا مثالاً كَلَمْحِ البرقِ في الظُّلَمِ
كَأنّها حرفُ برقيةٍ نَبَضَت
بالسِّلك فانتشرت في السهلِ والعَلَمِ
لا شىء يسبقُهَا إلا اذا اعتقلتْ
بَنَانتى في مديح المصطفى قلمى
(محمدٌ) خاتم الرسل الذى خضعتْ
له البريةُ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ . .[١٣] .

واذا كان البارودى قد التزم البوصيرى ، مع توسع واستفاضة ، فإن شوقى عالج « البردة » بروح شعرية عالية وأداء متفوق، مع إشارة قوية وواضحة الى ما تعانيه الأمة في حاضرها ، وفي « نهج بردته » تظهر شخصية شوقى منذ مطلعها ، حتى نهايتها ، وإن بدا متأثرا في بعض صورها بشعراء آخرين ، على نحو ما يقول شوقى في البردة :

يا جاهلين على الهادِى وَدَعْوته
هل تجهلون مكانَ الصَّادِقِ العَلَمِ ؟
لقَّبْتُمُوهُ أمين القَوْمِ في صغر
وما الأمينُ على قوم بمتّهم
فاق البدور وفاق الأنبياء فكم
بالخَلْقِ والخُلْقِ من حُسْنٍ ومن عظِمِ
جاء النبيُّونَ بالآياتِ فانصرمتْ
وجئتنا بحكيم غير منصرمِ
آياتُهُ كلّمَا طالَ المدى جُدَدٌ
يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتْقِ والقِدَمِ
يكادُ في لفظةٍ منه مُشَرّفةٍ
يوصيك بالحقّ والتقوى وبالرّحمِ

(١٣) المدائح النبوية جـ٢ ـ تقديم د . سعد ظلام ـ ط١ ـ دار الشعب القاهرة ـ ١٩٧٨ . ص ٤٥ .

يـا أفصَح الناطقـين الضَّـادَ قـاطبـةً
حَـديثُـكَ الشَّهْـدُ عنـد الـذَّائِقِ الْفَهِمِ
حلَّيْتَ من عَـطَلٍ جيـدَ البـيـانِ بِـهِ
في كـل مُـنْـتَـثِرٍ في حُـسْنٍ مـنـتـظم
بـكـلِّ قـولٍ كـريـمٍ أنـت قـائـلُهُ
تحيي القـلوب وتُحيي ميِّتَ الهِمَـمِ . .(١٤)

أما الشيخ محمد عبد المطلب فقد كان وفيا للتقليد البحث في « ظل بردته » انطلاقا من مفهومه للأصالة والوفاء للماضى ، حيث تضمنت القصيدة ألفاظ وصور القدماء ، فضلا عن وفائه لنظام البردة كما وضعه البوصيرى وإن حاول أن يثبت أنه يعيش في القرن الرابع عشر الهجرى . يقول الشيخ في المطلع :

أغـرى بك الشـوقُ بعد الشيبِ والهـرمِ
سـارٍ طـوى البيـدَ من نجـدٍ الى الحَـرَمِ
يـاسـارى الـطيـفِ يجتـابُ الـظلام الى
جفـن مـع الـنجـم لم يهـدأ ولم ينـمِ
يغـريـه بـالـدمـع حـادٍ بـات مـرتجـزاً
يحـد و المـطيّ لأجـراع بـذى سَـلَمِ
اذا خـفـا الـبـرق أذكـى في جـوانبـه
نـارا تؤجِّجُهـا الـذكـرى بـلا ضـرَمِ
يـابـرق مـالـك لا تحكي جَـوَى كَبِـدِي
إذا تـألَّـقـتَ لـيـلاً في نـديِّـمِ
ويـاصبـا روِّحي رُوحـى فـقـد ذهبـتْ
بهـا النَّـوى بعـد عـهـد البـانِ والعَلَمِ
يـاسـاكنى البـان طـال البـينُ في غـيَرٍ
أربتْ على الصبر فـاستعصى على الهمم(١٥)

وعندما يتوقف « عبد المطلب » أمام شخصية محمد (ص) ليصفه بأوصاف عظيمة ورائعة ، فإنه يُذكّرنا بما فعله « أبو تمام » مع المعتصم . يقول عبد المطلب عن النبى (ص) :

لاحتْ مَخَـايِلُهُ تُـنْبـيـك أنَّ لـه
قـدْرا تفرد في السَّـادَاتِ بـالعِـظَمِ
المجـدُ محتِـدُهُ واليُـمْـنُ مـولِـدُهُ
والحمـدُ مَوْرِدُه ، معنى اسمـه العَلَمِ
يَـرْمى النجـومَ بعَـيْنٍ في تـقلُّبِـهـا
معنىً يفـوتُ مـدى الأفـلاكِ والنجَمِ
يـا أحمدَ الـرُّسلِ مـا هذا الجـلالُ به
جمـالُ هـذا المحيَّـا بـاهـرُ الشِّيَمِ
مـاهـان بـاليتْمِ لكن زادَهُ خَـطَراً
وقد يهونُ بَنُو السادات باليتْم .(١٦) .

وهناك من الشعراء من تجاوز المعارضة الشعرية للبردة الى اقتباس أهم ملامحها خاصة في صياغة المطالع ، وأسلوب التوسل والشفاعة والصلاة والتسليم على النبى ، دون أن يلتزم بتقليدها تقليدا كاملا كما رأينا البارودى وشوقى وعبد المطلب . فعائشة التيمورية مثلا في قصيدة لها تبلغ الستين بيتا تقريبا ، تقتبس الصياغة « البوصيرية » وتركز فقط على شخصية محمد (ص) ، وتتكلم عن محبته وتتوسل به . تقول في مطلع قصيدتها .

أعن وميضٍ سـرى في حنْـدِسِ الـظُّلم
أم نـسـمـة هـاجـت الأشـواقَ من إضَـمِ
لجـددت لى عـهـداً بـالـغـرام مَـضَى
وشـاقـنى نـحْـوَ أحـبـابى بـذى سَـلَمِ

---

(١٤) الشوقيات ـ الجزء الأول ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ بدون تاريخ ص ١٩٧ .

(١٥) ديوان عبد المطلب ـ شرح وتصحيح إبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ـ ط ١ مطبعة الاعتماد ـ القاهرة (بدون تاريخ) ـ ص ٢٥٧ .

(١٦) ـ ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٩ .

دعـا فـؤادي مـن بـعـد الـسـلوِّ الى
مـاكـنـت أعـهَـدُهُ في قلبي من الـقِـدَمِ
وهـاجَـني لحـبـيـب عِـشْـقُ مَـنْـظَرِهِ ..
يمحـو ويثبتُ مـا يهـواه من عَـدَمي
رام الـوشـاةُ سُـلُوِّي عـن محـبَّـتِـهِ
ولم أوفِّ لـهـم عـذلاً ولم أرمِ

حتى تصل إلى قولها :

إني رَدَدْتُ عِـنـانِي عـن غـوايـتـه
وقـلـت : يـا نفس خـلِّي بـاعـثَ النَّـدَمِ
ولـذت بـالمصـطفى ربِّ الـشَّفَـاعَـةِ إذْ
يـدعـو المُـنـادِي فتحْيَـا الـنـاسُ مِنْ رَجَمِ
طـه الـذى قـد كـسى اشـراقُ بـطلعتـهِ
وجْـهَ الـوجـودِ سناء الـرشْـدِ والكَـرَمِ
طـه الـذى كـلَّلت أنـوارُ سـنَّـتِـهِ
تـيـجـانَ أمـتِّـهِ فـضـلاً عـلى الأمَـمِ
نِـعْم الحـبيـب الـذى منَّ الـرقـيـبُ بـهِ
وهو القريبُ لـراجى المجدِ والنِّعمِ ..(١٧)

ولم يتوقف الشعراء عند البُردة وحدها كما سبقت الاشارة بل تجاوزوها الى قصائد أخرى كان من أبرزها « الهمزية » أو « أم القرى في مدح سيد الورى » كما سماها البوصيرى ولعل تقليد « شوقى » لهذه القصيدة أفضل ما قام به الشعراء المعاصرون في هذا المجال وقد اكتسبت هـذه القصيدة شهـرة كبيرة حين غنتها « أم كلثوم » وأذيعت في الأمصار العربية والإسلامية . يقول شوقى في مطلعها :

وُلِـدَ الهُـدَى فـالـكـائـنـاتُ ضـيـاءُ
وفَـمُ الـزمـان تَـبَـسُّـمٌ وثـنـاء
الـروح والملأ المـلائـكُ حـولَـهُ
لـلدِّيـن والـدُّنْـيـا بـه بـشـراء
والعـرشُ يـزهـو والحظيرةُ تـزدَهِى
والمنتهى « والسدرةُ » العصماء
وحـديقةُ الفرقان ضاحكةُ الرُّبَا
بـالـتُّـرجـمـانِ شـذيـةٌ غـنَّـاءُ
والـوحْيُ يقْـطُرُ سلسـلاً من سلسلٍ
واللوح والقلم البديع رُوَاءُ ..(١٨)

كذلك ، فقد ازدادت هذه القصيدة شهرة حينما حاولت بعض الدول العربية أن تطبق ما أسمته « بالاشتراكية » العربية وراحت تبحث عن جذور للاشتراكية في الإسلام ، وكان بعض أبيات القصيدة مشجعا على ذلك ، أو هكذا رأى القوم أن هذه الأبيات تعضِّد وجهة نظرهم وتقويها . تقول الأبيات :

الاشـتـراكـيـون أنـتَ إمَـامُـهُـم
لـولا دَعَـاوَى الـقـوم والـغُـلَوَاءُ
داويـتَ مـتّـئِـدا وداوَوْا طـفـرة
وأخـفُّ من بعض الـدواء الـداءُ
الحـربُ في حقّ لـديـكَ شـريعـةٌ
ومن الـسُّمـوم الـنـاقِـعَـاتِ دَوَاءُ
والـبـرُّ عـنـدك ذمَّـةٌ وفـريـضـةٌ
لا مِـنَّـةٌ مـمـنُـونَـةٌ وجِـبَـاءُ
جـاءتْ فـوحَّـدَتِ الـزكـاةُ سَبِيلَهُ
حتى التقى الـكـرمـاءُ والبُـخَـلاءُ
أنصفْتَ أهـل الفقـر من أهل الغنى
مـا اختار إلا دينـك الفُقَـرَاءُ ..(١٩)

---

(١٧) حلية الطراز : ديوان عائشة التيمورية ـ لجنة نشر المؤلفات التيمورية ـ مطبعة دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ص ٢٦٩ .

(١٨) الشوقيات جـ ١ ص ٣٤ .

(١٩) السابق جـ ١ ـ ص ٣٨ ، ٣٩ .

وبالطبع فان هذه المحاولة جاءت متكلفة ومتعسفة لأسباب تخرج بنا عن مسار البحث ، ولكنها بطريقة أو أخرى كانت عاملا من عوامل ذيوع القصيدة وانتشارها الى جانب غناء أم كلثوم لمعظم أبياتها .

ومهما يكن من شيء فقد كان تقليد القدماء خاصة البوصيرى عاملا من العوامل التى ساعدت على انضاج الشعر الدينى ونهضته خاصة ما تعلق منه بالنبى (ص) ، مع تفاوت واضح في مستوى التقليد ، وإن كان شوقى قد أحرز « القدح المعلى » في هذا الميدان ، موضوعا وفنا .

أما النوع الثانى من أنواع التقليد ، فيتمثل في تلك القصائد التى كان الشعراء يتنافسون للتفوق على بعضهم بعضا من خلال نظمها وإلقائها . ومن أبرز الأمثلة على ذلك مارأيناه لدى الشعراء الكبار شوقى وحافظ وعبد المطلب وعبد الحليم المصرى . فقد ركز « شوقى » على القصائد التى تتحدث عن النبى (ص) وتتناوله ، وقد رأينا فيما سبق مدى شهرة قصائده التى قلد فيها « البوصيرى » مثل « البردة والهمزية » ، وقد أراد حافظ بفعل عوامل أخرى بجانب التقليد[٢٠] أن يشارك « شوقى » ولكن في مجال دينى أخر فركز على شخصية « عمر بن الخطاب » ـ رضى الله عنه ـ وقدم لنا قصيدته الشهيرة « العمرية » وهى قصيدة طويلة تقرب من الثلاثمائة بيت ، حملها « حافظ » سيرة الخليفة الثانى ـ رضي الله عنه ـ ممتزجة بهموم عصره ووطنه ، وركز على قضايا معينة تعانى منها البلاد آنئذ . يقول عمر عن الشورى مثلا :

يارافعا راية الشُّورى وحارسَهَا
جزاك ربُّك خيرا عن محبِّيهَا
لم يلهك النزع عن تأييدِ دَوْلتِهَا
وللمنيَّة آلامٌ .. تُعانِيهَا

●● ●●

الى أن يقول :

وما استبدّ برأيٍ في حكومته
إن الحكومة تُغرى مُستبدّيَا
رأىُ الجماعِة لا تشقى البلادُ بِهِ
رغم الخلافِ ورأىُ الفردِ يُشْقِيها .[٢١] .

وقد تابع « حافظا » في هذا النهج الشاعر « محمد عبدالمطلب » حين كتب قصيدته « العلوية » التي يتحدث فيها عن الخليفة الرابع « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، ويشيد بصفاته ومناقبه ، وأغلب الظن أن محمد عبدالمطلب لم ينظم هذه القصيدة إلا تحديا لعمرية حافظ ابراهيم »[٢٢] فقد ألقاها عبدالمطلب « في يوم الجمعة ٢٤ صفر الخير سنة ١٣٣٨هـ ـ ٧ نوفمبر سنة ١٩١٩ في حفلة أقيمت برئاسة صاحب السعادة اسماعيل صبري باشا »[٢٣] والفارق بين القاء العمرية والعلوية على هذا الأساس يكون حوالي العام تقريبا ، إذ عرفنا أن « حافظا » ألقى قصيدته في مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز في ٨ فبراير عام ١٩١٨م[٢٤].

(٢٠) لنا دراسة مطولة حول هذه القصيدة نشرتها مجلة « الدعوة » السعودية متفرقة اعتبارا من العدد ٩٤٨ ومضان ١٤٠٤ هـ ـ يونيو ١٩٨٤ م ـ وفيها إشارة لظروف نظمها وإلقائها ، وأعيد نشرها مجتمعة في مجلة « الشعر » بالقاهرة ـ العدد ٤٦ / ١٩٧٦ ـ

(٢١) ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٠ ص ٩١ .

(٢٢) في الأدب الحديث جـ ٢ ـ ص ٤١٨ .

(٢٣) انظر مقدمة القصيدة العلوية ـ ديوان عبد المطلب ـ ص ٢٣٠ .

(٢٤) انظر ديوان حافظ ـ جـ ١ ٨ ٧٧ .

و « العلوية » لا تتوقف عند تقليد العمرية « في كونها تتناول شخصية صحابي جليل ، بل إنها تمضي إلى أكثر من ذلك ، حين حاول ناظمها أن يكون عصريا ، وأن يستجيب لدعوات بالتجديد التي كانت تقودها مدرسة الديوان آنئذ بزعامة العقاد . فبدلا من أن يجعل المطلع مرتبطا بذلك التقليد الشعري المنتمي الى البيئة البدوية أو المطلع الجاهلي القديم بمعنى أدق ، فقد حاول أن يستبدل الطائرة بالجمل أو الناقة ، وأن يستبدل العناصر الجديدة المخترعة بالعناصر القديمة الموروثة .

يقول عبدالمطلب في مطلع العلوية :

أرى ابن الأرض أصغـرُها مقـامـا
فهـل جعـل النجـوم بهـا مـرامـا
زهـاه رونـق الخضـراء لمـا
تـلـفـت في مجـرّتهـا وشـامـا
فـشدّ عـلى كـواكـبـهـا مُـغـيـراً
وحلّق في جـوانـبـهـا وحـامـا
عـلى بـنـت الهـواء كـأنَّ طـيـفـاً
يـشـق الجـو يـقـطـعـه لمـامـا
إذا مـا هـزّمـتْ في الجـو جَـلْـنا
جِـبـالَ الـنَّـجـم تـنـهـدُّ انهدامـا
وإن زَجَـرَ الـريـاحَ جـرت رُخـاء
وولّـت حيث يـأمـرهـا الـزمـامـا
يسفُّ عـلى الـثـرى طـوراً وطـوراً
تـراه عـلى الـذُّرى شقَّ الغـمـامـا
أجـدُّك مـا الـنـيـاق ومـا سـراهـا
تخوض بهـا المـهـامـة والأكـامـا
ومـا قُـطُـر الـبـخـار اذا اسـتـقـلـت
بهـا النيـران تضـطـرم اضـطـرامـا
فـهـبْ لي ذات أجـنـحـة لـعـلّي
الـقـىَ عـلى الـسُّـحـب الإمـامـا
امـام بنى الهـدى وهـو ابنُ تسـع
وأولُ مـسـلـمٍ صـلّ وصـامـا(٢٤م)

فهو ـ أي عبدالمطلب ـ في هذا المطلع ، لا يتبع نهج القدماء في ذكر الناقة ـ ووسيلتهم في الانتقال ـ ولكنه يذكر الطائرة وسيلة المعاصرين ، فيتحدث عن غزو الإنسان لأفق السماء ، ويكنّى عن الطائرة بـ « بنت » الهواء ، ويشبهها وهي تشق الفضاء بالطيف ، ويصف ما تحدثه من أثر وصوت يشبه الرعد ، وتقترب من الأرض طورا ، ومن السماء طورا آخر ، ويقارن بين الطائرة وكل من النياق يخوض بها الصحراء والقطارات يدفعها البخار فيرى الفارق الشاسع ، ومن ثم يطلب طائرة يكنى عنها بـ « ذات أجنحة » لعله يلقى على السحاب « الإمام علي بن أبي طالب » موضوع القصيدة المطلولة .

وقد أثارت هذه المحاولة اهتمام النقاد والدارسين ، ولعل ما قاله العقاد في هذه المجال عبر خير تعبير عن مفهومه للتجديد والمعاصرة حين لقي « عبدالمطلب » بعد أن ألقى الأخير علويته : « إنني أعجب بقوة الأسر في العبارة ولكني أراك الآن في صميم التقليد وأنت تحسب نجوت منه بطيارة ! » ثم يبين العقاد أن وصف أداة المواصلات « لا يعني التجديد ولكن التجديد يعني وصف جزء من الحياة وجزء من الشعور وجزء من الانسان لأن الشرط الأول في الشعر الحديث أن يصف الانسان ما يحس ويعي لا أن يصف الأشياء مجاراة ، للأقدمين ، عكسا أو طردا في أنواع المجاراة » ثم يقول العقاد « ولم يكن عبدالمطلب ـ رحمه الله ـ بالوحيد في

(٢٤ م) ديوان عبد المطلب : ص ٢٣٠ .

خطته هذا ولا في تيهه عن الفارق الصحيح بين شعر التقليد وشعر الصدق والحرية . . . »[٢٥].

ومهما يكن من أمر « العلوية » فقد كانت عنصرا من العناصر التي أثارت في الواقع الشعري روح الجدل والحوار حول ما نعرفه الآن بالأصالة والمعاصرة ، وإن كانت غايتها الأساسية هي التقليد ، سواء تقليد « عمرية » حافظ ، أو محاولة تجاوز الموروث الى المعاصر والمكتسب من خلال بناء القصيدة ويكفيه في كل الأحوال شرف المحاولة .

وعلى نفس الدرب تقريبا سار الشاعر « عبدالحليم المصري » : وإن كان قد حقق نوعاً من التفوق الفني في تقليده لم يحرزه « محمد عبدالمطلب » في « علويته » . فقد نسج عبدالحليم قصيدته المشهورة « البكرية » والتي يتناول فيها سيرة الخليفة الأول « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ـ ويتحدث عن صفاته ومآثره وخدماته للإسلام والمسلمين . يقول مثلا عن جيش أسامة وإصرار أبي بكر على إنقاذ هذا الجيش بعد انتقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرفيق الأعلى ، فيخاطب أبا بكر قائلا :

نهضت بأمر الناس والدين لم يزل
رضيعاً بأطراف الجزيرة حابيا
فلولاك عُلّت الأمر بعد محمد
لهدُّوا من الإسلام ما كان بانيا
وأوشك جيش الشام يطوي لواءهُ
ويصرف عما كان لله .. ناويا

وقال رجال للخليفة لذْبه
إلى السِّلم ، وارفاً بالرجال الحواشيا
فقال وأيمُ الله لو أنَّ أذؤبا
تخطفن لحمي أو حسون دمائيا
لما كنت عن رأي النبي بعادلٍ
ولو أنني وحدي خرجت مغازيا[٢٦]

وقد أثارت هذه القصيدة حين نظمها وأنشأها نوعا من الغيرة لدى حافظ « جعله يشكو الى « شوقي » عند عودته من الخارج ، ويتعجل نشر قصيدة كان نظمها لينشدها في استقباله ، ويتحدث في بعض أجزائها عن أولئك « المنافسين » الذين يزعجون دولة الشعر وكان يشير بذلك الى « عبالحليم المصري » و « بكريّته » التي لقيت حفاوة كبيرة غطّت على عمريته[٢٧]، وهذا يعطينا دليلا على أن المنافسة الشعرية القائمة على التقليد كانت سبباً من أسباب ازدهار الشعر الديني بصفة عامة .

<u>النوع الثالث من التقليد</u> ، يتجاوز تقليد القدماء والمحدثين من الشعراء العرب الى تقليد الشعراء الأجانب في الشرق أو الغرب . وقد لا يكون التقليد هنا ذا قيمة فنية عالية أو ذا أثر واضح في الواقع الشعري الديني ولكنه يكتسب أهمية في محاولة استشراف العالم الشعري الخارجي ، ونقل بعض ملامحه الى شعرنا الحديث ، لتحاول الأجيال اللاحقة تدعيم الملامح المشرقة والمثمرة بصورة ما .

ويمكننا أن نرى بعض الشعراء قد اتجهوا لتقليد نماذج شعرية في الآداب الشرقية الفارسية والأدبية ، وهي

(٢٥) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٣٠

(٢٦) عباس محمود العقاد ـ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ـ كتاب الهلال ع٢٥٢ ـ القاهرة ١٣٩١ ـ ١٩٧٢ ـ ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢٧) البكرية ـ مطبعة مدرسة بني سويف الصناعية ـ بني سويف ١٩١٩ ـ ص ٢٢ ـ

قريبة الى أدبنا العربي من بعض الوجوه الفنية . وتختلف أسباب هذا التقليد باختلاف أصحابه ، ولكن السبب الأساسي فيما أرى هو الاهتمام بتلك الآداب الشرقية ومعايشة بيئتها . ولعل أوضح النماذج على ذلك ما نظمه المرحوم الدكتور « عبدالوهاب عزام » في ديوانه « المثاني » ، والذي نظمه على هيئة رباعيات فارسية متأثراً في ذلك بما اطلع عليه لمشاهير شعراء الفرس . وقد أشار الى تلك المسألة باستفاضة في مقدمته للمثاني ، وحاول أن يعطي القارىء العربي صورة للمثاني أو الرباعيات عند العرب وعند الفرس ، وقد وضع عدداً من النقاط نفهم منها :

١ ـ أن الرباعيات لم تشع في العربية حتى زمن الباخرزي « فلم يسمع بها حتى أنشدوا له بعضها .

٢ ـ وأن الرباعيات العربية على وزن الفارسية .

٣ ـ وأن التقفية في رباعيات العرب تنتظم الشطور الأربعة ، مع أن الفارسية تلتزم فيها التقفية بين أشطر ثلاثة ، والشطر الباقي وهو الثالث منها ، يجوز اطلاقه وتقفيته .

٤ ـ وأن ناظمي الرباعيات العربية استعملوا القافية المردوفة أحيانا ، وهي التي تكرر فيها كلمة بعينها ، وتراعي التقفية قبلها . . . »[٢٨].

ومن النماذج التي نظمها « عزام » ما نظمه بمناسبة حفل المولد النبوي في دار أحد الكبراء في كراجي (كراتشي) (١٢ ربيع الأول ١٣٧١هـ) ، « والقوالون يغنون بمدح الرسول ويصفقون ويطلبون » :

قد سمعنا من القصيد ثناء
وعلى الدف والطبول غناء
كل هذا على سناك غبار
حجبوا بالضجيج ذاك الضياء

• • •

غلب الوجد مادحيك فصاحوا
وتعالى زفيرهم والأنين
ونظرنا إلى سناك جيارى
يعلن الصمت وجدنا في سكون

• • •

ليس بالصعب أن تكبرّ والأصنـ
ـنام صرعى وللأذان دويّ
إنما الصعبُ أن تكبرّ والأصنـ
ـنام تُرْعى وأمرها مأتيّ[٢٩]

وقد قام عزام بترجمة « محمد إقبال » الى العربية ، مما كان له أثر واضح في شعره ، ولا ريب أن هنالك تأثيرا ـ وان كان محدودا ـ على شعراء آخرين ، خاصة اولئك الذين اتصلوا بالفارسية والأردية بسبب ، كما نرى عند المرحوم ، « الصاوي شعلان » ، مثلا .

بيد أن نمط « المثاني » أو الرباعيات ، كان له حضور لدى عدد كبير من الشعراء العرب ، بل إن هنالك دواوين نظم معظم شعرها ، على هذا النمط ، ان لم يلتزم بعضها التقفية في الأشطر الثلاثة واكتفى بالشطر الثاني والرابع ، كأنهما نهايتا بيتين . يقول الشاعر « عباس شير » في بعض ثنائياته كما سماها :

---

(٢٨) خمسة من شعراء الوطنية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ صفحات ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠ .

(٢٩) عبد الوهاب عزام ـ المثاني ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ ـ ص ٢٣ .

العرب لولا الدين ما سجّلتْ
تاريخ تحضير وتمدين
لا تستعيدُ العرْبُ تاريخَها
إلا إذا عادتْ إلى الدّين(٣٠)

أو يقول :

بالعلم والدين أرجو يابنيّ لكم
فوز الحياتين في أسمى الميادين
أضفْتُ ألقابكم للدين من شغفي
بالدين كي تحرصُوا مثلي على الدّين(٣١)

إذا كان هذا التقليد المنتمي إلى الآداب الشرقية يركز على بناء المقطوعات سواء سميت مثاني أو رباعيات أو ثنائيات ، فإن التقليد المنتمي إلى الغرب ، أخذ ينهج نهجا آخر ألا وهو نظم الأعمال الشعرية الطويلة التي ركزت عادة على السيرة النبوية الشريفة والحديثة عن أمجاد الإسلام وحضارته . ولعل معرفة الشعراء العرب لبعض الأعمال الشعرية التراثية في الغرب قد بدأ منذ أخذ شوقي ومحرم وغيرهما ينظمان المطولات التي تتجاوز المئات بل الألوف من الأبيات ، وتعنى بعرض التاريخ الاسلامي من خلال سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومسيرة أصحابه رضوان الله عليهم . ولا يعنينا هنا مدى توفيق المقلّدين فنيا أو عدم توفيقهم فليس هذا موضعه ، ولكن المحاولة ذاتها نبهت الأذهان الى تلك العوامل أو المجالات التي يمكنها أن تفجر طاقات الشعراء العرب وتدفعهم دفعا الى تنمية قدراتهم الشعرية ، فضلا عن إمكاناتهم الثقافية فيما أسموه بالإلياذة أو الملحمة أو المسرحية .

فإذا رأينا مثلا « أحمد محرم » ينظم مطولته التي سميت أو أطلق عليها « الإلياذة الإسلامية » ، نعلم أن لفظة « الإلياذة » لم تكن مألوفة لدى السابقين على محرم وشعراء عصره ، وإنما كان وجودها عندنا استجابة لدواعي التقليد والتمني أن يكون لنا مثل ما لليونان والرومان والفرس من « إلياذة وإنياذة وشاهنامة » كما عبر عن ذلك الاستاذ « محب الدين الخطيب » - رحمه الله - في مقدمته لإلياذة محرم . لقد اقترح على محرم أن ينشىء الإلياذة ، وقال له : « لعل الله سبحانه قد ادخر لك هذه المهمة واختارك لها ، لأنك أقرب شعرائنا إلى إخلاص القول والعمل ، وأكثر توخيا لمرضاته . فاستجاب - رحمه الله - لهذه الدعوة وجاشت نفسه بهذه الفوائد الغرّ من ديوان (مجد الإسلام) ، فأخذت أنشر أوائلها على الناس من صحيفة الفتح ، ثم نشرت منها قطعا في مجلة الأزهر لما كنت أشرف على تحريرها(٣٢) .

لقد بذل محرم جهده في تسجيل أمجاد العروبة ومفاخر الإسلام قدر استطاعته ، ففتح بذلك المجال أمام شعراء آخرين ليواصلوا الطريق في محاولة لفتح آفاق جديدة للشعر الديني من خلال التقليد ، وإن كانت محاولة شوقي في ديوانه « دول العرب وعظماء الإسلام » أسبق في هذا الميدان ، وإن لم يكن الهدف الوحيد منها التقليد البحت .

ومما قاله « محرم » في إلياذته هذه الأبيات التي نشرت أولا ضمن قصيدة بعنوان « املأ الأرض يامحمد نوراً » ، ثم نشرت ثانيا في الإلياذة تحت عنوان « مطلع النور الأول من أفق الدعوة الإسلامية ، ولعل العنوان الثاني يسق مع طريقة ترتيب الإلياذة . يقول محرم :

(٣٠) السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٣١) عباس شبّر - جواهر وصور - دار الكتاب اللبناني - بيروت (بدون تاريخ) ص ١٨٤ .
(٣٢) السابق ، ص ١٨٩ .

املأ الأرضَ يـا (محـمـد) نـوراً

واغمـر النـاس حكمـة والـدهـورا

حـجـبـتـك الـغـيـوب سـراً تجـلّى

يكشـفُ الحُـجْب كـلـهـا والسُّـتـورا

عـبَّ سيـلُ الـفـسـادِ في كـلِّ وادٍ

فـتـدفَّق عـلـيـه حـتى يـغُـورا

جئت تـرمي عُـبـابـه بـعـبـابٍ

راح يـطوي سُيُـولـه والـبُـحُـورا

يـنـقـذُ الـعـالمَ الـغـريـقَ ويحـمـي

أمـم الأرضِ أن تـذُوق الـثُّـبـورا

زاخـراً يـشـمـلُ الـبـسـيـطـةَ مـدًّا

ويعُـمُّ السَّبْعَ الطباقَ هديرا[٣٣]،[٣٤]

ويمكن أن نضيف إلى هذه المحاولات التقليدية ، مـا قام بـه الدكتـور « عبده بـدوي » في إنشاء قصيدٍ سمفوني ، وفي اعتقادي أن الشعر العربي لم يواجه هذه المحاولة من قبل ، وإن كانت الفكرة موجودة في الشعر الأوربي منـذ زمان ، والقصيـد السمفوني يعتمـد على الأداء المميز للشعر من خلال مصاحبة الموسيقى وفقـاً لترتيب فني خاص . ويعـد كتـاب « محمـد ـ قصيـد سمفوني » للدكتور عبده بدوي الأول من نوعه في هذا المجال ، ونورد هنا مقطعا من مقاطعه لتتضح لنا طبيعة المحاولة الشعرية التقليدية أو بعض ملامحها على الأقل ، ففي الحركة الثانية من القصيد ، يصور الشاعر « مكة » عند الغزو الحبشي الذي قاده « أبرهة » ليهدم الكعبة ، وعدم قدرة أهلها على الدفاع عنها ، هنا يقول المقطع :

الراوي : « البيتُ له رب يحميه ! »

صوت : فإذا الجيش الغازي يرتد

وإذا الدنيا ترنو في داخلها

تتأمل بعد الجـزْر المَدْ

وإذا نور طفل . يغفو . يمتد

ينمو . يَتَكَوَّرُ في أحشاء الغد

كورال : وإذا « بمحمد »

يتلألأ في هذا الكون المُجْهَدْ

يمشي ـ ويكفيه الدنيـا ـ

لبحار السـعد

صوت : محمد . محمد . محمد . .[٣٥]

وهكذا نرى أن التقليـد البحت من خلال نمـاذجه المتعددة ، كان عنصرا فعالا من عنـاصر نهضـة الشعر الديني في عصرنا الحديث بصفة عامة ، وتناول شخصية محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ تنـاولا يتسم بـالتنـوع والغزارة على وجه الخصوص .

٢ ـ رؤيـة الحاضـر من خـلال المـاضي أو العـودة إلى التاريخ

لا ريب أن الظروف الحضارية المختلفة التي تمر بها العرب في القرن الرابع عشر الهجري كانت عامـة من العوامل الأساسية التي انعكست على الشعراء وأثـرت فيهم ، ودعتهم إلى العـودة الى التـاريـخ ، أو رؤيـة الحاضر من خلال الماضي . والتاريخ أو الماضي الذي نقصده هنا ، هو الماضي بمعنـاه الظافـر ، وليس ذلك الماضي الذي ينسحب على فترات الجمـود والخمود في حياة الأمة ، حتى إن كانت العودة الى الماضي الجامد أو

(٣٣) أحمد محرم ـ ديوان مجد الإسلام أو الالياذة الإسلامية ـ مكتبة دار للعروبة القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م ـ المقدمة ص ٩ ـ ولا يمكن أن نفصل في هذا المجال تأثير ترجمة الإلياذة لهوميروس التي قام « البستاني » المتوفى ١٩٢٥ م ، في حضّ الشعراء على تقليدها (انظر في الأدب الحديث جـ ٢ ـ ص ١٨٥) .

(٣٤) مجلة نور الإسلام ـ المجلد السادس ـ ربيع الأول ١٣٥٤ هـ ـ ص ٣٠ ، وقد وردت القصيدة في الإلياذة على صفحات ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٣٥) عبده بدوي ـ محمد قصيد سيمفوني ـ دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع ـ طرابلس ـ ليبيا ـ ١٩٦٩ ـ ص ٢٤ ، ٢٥ .

الجامد ، فإنما تكون الغاية الأساسية هي العبرة التي تقود الى الظفر والانتصار الحضاري على الهزيمة القائمة والمحنة المقيمة .

لقد أذل الإستعمار الغربي العرب المسلمين إذلالاً لم يسبق له مثيل منذ الحروب الصليبية في كافة المجالات ، وأمام هذا الإذلال ، كان عليهم أن يستنفروا قواهم الكامنة لمواجهته واخراجه من بلادهم وبلورة شخصيتهم الإسلامية من جديد . وقد نجحوا الى حد كبير في معظم الأقطار العربية وحققوا جانباً هاماً من جوانب الاستقلال السياسي والرسمي ولكنهم للأسف الشديد لم يتمكنوا من تحقيق الهوية المستقلة فكريا وثقافيا . لقد ارتبطوا بصورة ما بالغرب المستعمر ، على الأقل في الجانب الثقافي أو الفكري ونشأ صراع مازال مستمراً فيما أرى بين تيارات عديدة ، تدور حول محور واحد : من نحن ؟ إلى من ننتمي ؟ كيف نصوغ أيديولوجية نواجه بها المستقبل ؟

ويمكننا القول بأن هنالك تياران قويان متميزان يحفران بعمق في عقول المسلمين منذ بداية هذا القرن ، وهما تيار الأصالة الذي يتحرك من مفهوم الاسلام الصافي ، وتيار التبعية للغرب ، باعتباره رمز الحضارة المتقدمة والمتفوقة وقد تصادم التياران ومازالا ، وإن كان التيار الأول قد حقق في نهايات القرن الرابع عشر الهجري نوعاً من التقدم والانتصار خاصة بعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ (اكتوبر ١٩٧٣م) حيث برزت ضرورة الانتماء للجذور الاسلامية والانطلاق منها في تكوين شخصية الأمة وبناء حضارتها الجديدة .

لقد حاول الغرب ـ ومازال ـ أن يضعف الشعور بالإنتماء الى الجذور الإسلامية أو بناء هوية ذات ملامح إسلامية متميزة ، وساعده على ذلك تأثيره في نظم التعليم ، وزرع التصور الغربي في الرءوس ، وتكوين طلائع وفية ومخلصة لفكره ومفهومه .

ونحن لا نستطيع الإفاضة في هذا الموضوع لأنه قد يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولكن الذي نريد أن نوضحه هنا ، أن ظروف الصراع حول الهوية الإسلامية ، سواء كان عسكرياً أو سياسياً أو فكرياً ، قد وجد صداه في الحياة الاجتماعية والشعر معا ، من خلال التوجه إلى الماضي وإضاءته كي يسير الصراع في طريقه الصحيح ، مزوداً بالأمل واليقين في تحقيق غايات الأمة .

ووجدت دعوات الإصلاح صداها الواضح ، في إثارة الحنين الى الإسلام الصافي القوي وأمجاده العظيمة لانتشال الأمة من وهدة التخبط والانحدار والهزيمة ، ولعل أبرز تلك الدعوات : الوهابية والسنوسية والأخوان المسلمين ، فضلا عن وجود أشخاص بذواتهم قاموا بأدوار كبيرة في هذا المجال أمثال : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والأمير عبدالقادر الجزائري والبشير الإبراهيمي ومحمد رشيد رضا وعلّال الفاسي وعز الدين القسام وسيد قطب . . . وغيرهم .

وواكب تلك الدعوات وهؤلاء الأشخاص ، إنشاء جمعيات دينية ، وإقامة احتفالات إسلامية بالمواسم والأعياد ، وإصدار صحف ودوريات ، تبرز صورة الإسلام المثلى وتاريخه المضيء ، وتصحّح المفاهيم الخاطئة[٣٦] .

كذلك فقد كان هنالك من الكتّاب والأدباء من تعرضوا لمقولات الغرب حول الإسلام ، وانتقاصه

---

(٣٦) في الأدب الحديث جـ ٢ ـ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٥ .

للدين ، وسنعرض لها ضمن العوامل التي تتحدث عن تأثر النهضة الدينية بالغرب إن شاء الله .

بيد أنه يمكن الآن أن نتوقف قليلا أمام بعض النماذج التي عبرت عن صدى العودة الى التاريخ أو دعت اليها صراحة من خلال الصحف والدوريات الإسلامية ، وسوف نرى بعدها الى أي مدى كانت تلك العودة الى التاريخ تمثل هاجساً يحرك عواطف الأدباء والشعراء جميعا .

ومن الملاحظ أن الكتاب والشعراء جميعا جعلوا ـ فيما بينهم ـ الماضي أو التاريخ الذي يدعون إلى العودة اليه ـ يبدأ من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونقطة البداية هذه يسبقها عالم الظلم والظلام والضياع والقهر ، ويلحقها خاصة في عهد البعثة والخلافة الراشدة الصورة الرائعة للنور والعدل والحق والإحساس بالحياة .

وبالطبع فقد كانت شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي الصورة النموذج والمثال الذي يحتذى ويقتدى ، يستوي في ذلك الحاكم والمواطن الفرد ، فمحمد (ﷺ) صورة الحاكم العادل ، والزعيم المحبوب والقائد الواعي ، والبطل الذي يقل نظيره بل لا يوجد نظيره ، ومحمد (ﷺ) صورة الفرد العادي ، المؤمن ، التقي ، النقي المتقشف ، الورع ، الزاهد العامل ، العابد . . . لذا فقد كان الإلحاح على شخصيته أمراً طبيعياً في وقت اشتد فيه الفساد على مستوى الراعي والرعية . يقول الأستاذ « علي الطنطاوي » وهو يصور محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« إن العظماء كثيرون ، ولكن العظيم عظيم في ناحية ، صغير في سائر النواحي ، فهو عظيم في العلم أو في الحرب أو في الأدب ، أو في السياسة ، أما محمد فعظيم في كل شيء .

وآثار العظماء في البشر واضحة جلية ، ولكن لم يصل أحد أجل ولا أجمل مما عمل محمد . نفخ في هذه البادية القاحلة ، وهذه الأمة المتفرقة الجاهلة ، فأخرج منها أمة ، قوية عالمة عاملة . . حملت مشكاة النور في وقت عم فيه الظلام ، وبنورها اهتدى ، ويهتدي كل إنسان ، في كل مكان الى آخر الزمان ، ولولا محمد ما كانت أوربة ، ولا الأميركتان ! »[٣٧].

وذهب كتاب آخرون الى استدعاء شخصية النبي الكريم (ﷺ) لتكون عوناً على مواجهة الواقع الرهيب الذي يعيشه العرب والمسلمون ، ففي مجلة الرسالة مثلا ، نقرأ مقالة « لأستاذ جليل » ينادي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستنجد به ، وفي ثنايا مقاله يستحضر أمثلة من التاريخ ، وصراع المسلمين مع الرومان ، ثم يصل في ختام مقاله الى هذا النداء الأسوان الحزين :

« يا محمد ! يا محمد !

لقد ضامنا في هذا الزمان الأفرنجي والتركي حتى ذاك الذي ضربت عليه الذلة جيهلاً بك يامنية جيهل ـ وكان ضعفنا ولؤمنا وتعادينا وصدعاتنا وغضبك علينا ، غضبك على الخَلْف الخالف من أجل ذلك ـ أقوى معين للضائمين !

فإن لم تمنَّ على المنتمين الى عربية (قرآنك) العربي بشيء من عطف ورضا ، علك ياسيدي أبا القاسم ، أتباعك ، خدّام (كتابك) خدّام (لسانك) خدامك ـ في العالمين .

(٣٧) الرسالة ـ المجلد الأول ـ ١٩٣٤ م ـ ص ١٠٤٦ .

ياسيد الوجود يارسول الله ! يا أبا بكر الصديق ! يا عمر الفاروق ، ياذا النورين ! يا أبا الحسنين ! إن الدهر قد جار على قوم عرب ! »[٣٨] .

ولم يقتصر تناول الكتاب على شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل تعدى ذلك الى قضايا تتعلق بموقف الإسلام من القضايا التي ظهرت في هذا القرن مثل قضية القوميات أو الإسلام والقومية ، فنراهم يحاولون أن يستخرجوا من التاريخ ما يؤيد مواقفهم سواء من القومية أو معها ، وهناك من حاول أن يتناول المسألة بوعي وموضوعية ، فيرى أنه لا تعارض بين الاثنين ، وينظر الى بعيد حيث أصابع المبشرين وغيرها من الأصابع الأجنبية الخبيثة التي تقوي الخلاف بين القومية والاسلام ، وتحوله الى نزاع مستحكم « سيقضي في النتيجة على كلتا الفكرتين القومية والإسلام »[٣٩] ، وهكذا يتواصل الحوار حول التاريخ أو الماضي باعتباره منطلق الحركة الى المستقبل ووصل الأمر ببعض الكتّاب الى الاعلان الصريح بأن واقع الأمة يحتم التعامل مع « محمد » فقط ، وأنه هو الطريق الوحيد الباقي الذي لا مفر من السير فيه بعد التخبط والانحدار والهزيمة والضياع . يقول الأستاذ « عبدالمنعم خلاف » في مقالة بعنوان « ضع يدك في يد محمد » :

« ضع يدك في يد محمد وسر معه في الطريق الذي شقه له باريء الطبيعة بين السبل المتفرقة الى الحقيقة والعدالة والسلامة الاجتماعية ، وقوة الاعتزاز بالقيوم على السموات والأرض ، وشدة الحرص على اتباع أسلوبه في حفظ الفطرة سليمة من زيغ الحس وخداع الهوى وأفن الرأي وألاعيب الذكاء . . تسلم لك نفسك أولا ، والانسانية ثانيا ، والطبيعة كلها ثالثا .

فلم يبق لك بد أن تغفر الى هذا الرجل وتستعينه في جهاد ما يجتاح الأرض الآن من الشر والتقدير السيء للنفس الانسانية والحياة والاجتماع . . . »[٤٠] .

ويمكننا الآن أن نبلور صدى العودة الى التاريخ ، أو رؤية الحاضر من خلال الماضي في الشعر ، من خلال الوجوه التالية :

أولا : التعريف بأمجاد الإسلام وعظمته وانتصاراته ، وتقديمه للمسلمين عامة ، والنشء خاصة كي يكون نبراساً يهدي في مسيرة الحياة ومواجهة صعابها . وقد اهتم الشعراء خاصة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري بالعودة الى التاريخ ، ونظمه في قصائد أو مطولات تركز عادة على السيرة النبوية الشريفة وتبرز أحداثها . وقد تفاوت تناول الشعراء للتاريخ بين إشارات محدودة في ثنايا قصائدهم للمقارنة بين الواقع والتاريخ ، وبين قصائد ومطولات خصصت بأكملها لسرد التاريخ وإظهاره أو تجليته باستفاضة .

من ذلك مثلا ما ورد في قصيدة من وحي المولد النبوي الشريف « لأحمد محرم » ، حيث ينتهز فرصة المولد ليخاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقوم في الناس من جديد فيمشون على نور الكتاب وتتجدد أيام « بدر » الظافرة :

قُمْ يا « محمدُ » ما لحقِّك ناصر
حتى تقومَ ، وما لدينك منجدُ

(٣٨) الرسالة ـ السنة السابعة ـ ١٩٣٩ ـ ص ١٨١٩ .

(٣٩) انظر مقالة « بين دين محمد وعمه » ـ للأستاذ علي حيدر الركابي ـ الرسالة ـ السنة الثامنة ـ ١٩٤٠ ـ ص ١٦٨ .

(٤٠) الرسالة ـ السنة الثامنة ـ ١٩٤٠ ـ ص ٤١٦ .

قمْ في جنودك غازياً ، وافتح بهم
دنيا الجحود لأمةٍ لا تجحدُ
تمشي على نور (الكتاب) فتهتدي
وتقيمُ آدابَ الحياة فتسعَدُ
جدِّدْ لنا (أيام بدرٍ) إنها
أيامُنا اللاتي نحبُّ ونحمدُ
حفظتْ على الإسلام يانع غرْسِه
والجاهلية بالقواضب تحصدُ
غرس نما ، فالأرض من بركاته
تعطي الحياة كريمة وتزودّ[٤١]

ولعل أبرز الأعمال الشعرية المطولة التي نظمت في مجال التعريف بأمجاد الإسلام وعظمته وانتصاراته ما كتبه « أحمد شوقي » خاصة في ديوانه أو مطولته « دول العرب وعظماء الإسلام » ، فقد كتبها وهو في فترة النفي بالأندلس ، ولعله أراد أن يعزّي نفسه في منفاه بعودته الى الماضي أو التاريخ المضيء . يقول الأستاذ محمود خاطر في مقدمته لهذا العمل الشعري :

« هذه درّة في تاج الأدب ، وغرّة في جبين القريض . نظم أمير الشعر عقدها . وصاغ معناها ولفظها . وهو يعاني ألم النفي . ويتجرع غصص النوى إبان الحرب الكبرى . بين ربوع الأندلس . التي عمّر الاسلام فيها ثم درس . ونما وترعرع وأزهر . ثم ذوى وأقفر[٤٢] .

والديوان أو المطولة أو المنظومة تبدأ بمقدمة نستشعر فيها رنّة الأسى ، والاحساس العميق بالزوال والتغيّر ، والتسليم المطلق لصاحب الملك « منزل الذكر بخير الألسن » :

الحمد لله القديم الباقي
ذي العرش والسبع العلا الطباق
الملك المنفرد الجبار
الدائم الجلال والاكبار
وارث كل مالك وما ملك
ومهلك الحيِّ ومحيي من هلك
منزل الذكر بخير الألسُنِ
مشتملا على البيان الأحسنِ
أوحى الى رسوله كما أوحى
من كل غرّاء تضيء اللوحا
وقصَّ أبناء القرون في السُّوَرْ
مواثل الحسنِ كأمثال الصُّوَرْ[٤٣]

ثم يصلي ويسلم على أجل رسل السلام ، ويبين فضله على الأمة ، ويشير الى خلفائه الراشدين أئمة الهدى ، الفاتحين بالحق ، المنقذين من قيود الرق ، ثم يتحدث عن أثر الحرب الكبرى والنفي ، ويوضح كيفية نظم الأرجوزة ، ويعلن أنه يوجهها للناشئة . ويبدأ المنظومة بدءاً فعلياً بحديث عن لغة العرب وبيان فضلها وقيمتها :

فاجرِ على محاسنِ اللسانِ
تُجَلُّ في مواطن الإحسانِ
وامشِ بآداب الكتاب تَهْتدِ
وقِفْ بأبواب الحديث واجْتدِ
هُمَاهُمَا القالب فيه يفرغُ
ومعدن الحسن الذي لا يفرغُ[٤٤]

ثم يتحدث شوقي عن التاريخ وطبيعته ونشأته

(٤١) الثقافة ـ السنة الخامسة ـ ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ـ ص ٢٥٨ .
(٤٢) أحمد شوقي بك ـ دول العرب وعظماء الاسلام ـ مطبعة مصر ـ ١٩٣٣ ـ المقدمة .
(٤٣) السابق : ص ٥ .
(٤٤) نفسه : ص ١١ .

وأهميته ورأيه في المؤرخين ، وينتقل الى الحديث عن الوطن ويتوقف عند البيت الحرام ، فيصفه ويذكر تاريخه وموقعه ، ويشير الى أبناء أسماعيل ومكانة مكة وهاشم وقس بن ساعدة وتأثيره على النبي صلى الله عليه وسلم ـ ثم يذكر سيرة الرسول (ﷺ) ومولده ونشأته وبعثته والوحي وموقف أصحابه وأعوانه ، والهجرة والغزوات وانتصار الإسلام ، ولا ينسى شوقي أن يذكّر من حين الى حين بهدفه التعليمي من الأرجوزة أو المنظومة ، وكأنه يعالج قضايا اجتماعية معاصرة ، فنراه مثلا يتحدث عن الرزق وطرق أبوابه ، ويرى أن هذا كان شيمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك الرسل الكرام السابقين عليهم أفضل الصلاة والسلام :

كان رسول الله في شبابه
لا يدعُ الرزق وطرق بابه
أي رسولٍ أو نبيٍ قبلهُ
لم يطلب الرزق ويبلغ سُبْله(٤٥)

ويواصل شوقي سرد التاريخ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ فيتحدث عن الخلفاء الراشدين والصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ودولة بني أمية وصقر قريش (عبدالرحمن الداخل) وعبدالله بن الزبير وآل العباسي ودولة الفاطميين . وفي ثنايا حديثه لا ينسى أن يلحّ على العبرة ، والتأكيد على بقاء الباقي وحده سبحانه وتعالى ، ولعله كان يهدف من وراء ذلك إلى إقناع نفسه وغيره بأنّ « بقاء الحال من المحال » ، وأن الوضع الذي يعيشه هو في « المنفى » لن يستمر إلى الأبد فيحقق بذلك غايتين . الأولى توضيح العبرة من التاريخ أمام الجيل الجديد وهو يواجه الحياة الصاخبة الطاحنة القاهرة . الثانية تعزية نفسه المقهورة في منفاها وغربتها وتسليتها حتى تتحقق العودة إلى الوطن . ولعل في ختام أبيات الأرجوزة الخاصة بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ ما يوضح هذا التصور :

نال الرسول الضرُّ من عداه
وبلغ الأذى به مَدَاهُ
ومات من آوى وربّى واصطنع
وذاد عن خير النبيين ومَنَعْ
حتى أظل العرب والإسلامْ
وشمل الجزيرة السلامْ
وبلغ الصمَّ بلاغُ الداعِي
وأسمعتهم حجة الوداعِ
هناك حان أجل الطبيب
وحكم المحب في الحبيبْ
سبحان من له البقاء دون حدْ
وليس فوق غيره أحد(٤٦).

وتعتبر هذه المنظومة من أشهر النماذج التي اتكأت على التاريخ ، واعتمدت عليه في جلاء صورة الاسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري ،

ولا يمكن بالطبع أن نهمل الإشارة الى أعمال كبرى أسهمت في هذا المجال ، وإن كانت قد حملت إلى جانب التعريف بالدين واستدعاء التاريخ غايات أخرى فنية أو فكرية ، كما رأينا في إلياذة محرم وكما نرى في ملحمة « عين جالوت » و « الملحمة المحمدية » لكامل أمين ، « وأمير الأنبياء » لعامر محمد بحيري ، ومن إشراقات

(٤٥) دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٢٣ .
(٤٦) السابق : ص ٢٧ ، ٣٢ .

السيرة الزكية لعزيز أباظة « وميلاد النبي » لمحمد محمود زيتون . . وغيرهم[٤٧] .

ثانيا : الدفاع عن الإسلام من خلال بعض رموزه التاريخية القائمة مثل الخلافة ، وقد شهد الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري المراحل الأخيرة لنظام الخلافة الاسلامية حتى سقط الخليفة العثماني الذي كان منصبه يرمز ، الى وحدة المسلمين على مدى التاريخ . وقامت في دولة الخلافة - تركيا - دولة علمانية ، تربط أسبابها بالغرب ، وتفصل الدين عن الدولة ، وتغير اللغة الرسمية من العربية الى التركية ، وتغير طريقة الكتابة ، فتستبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني ، بل يصبح « الأذان » أيضاً بالتركية ، وتخلع تركيا « الطربوش » وترتدي « القبعة » رمز المدنية الأوربية في ذلك الحين ، وتصبح الخلافة وما تمثله سطوراً في تاريخ مبتوت الصلة بالواقع الجديد الذي صنعه « أتاتورك » وجماعة « الاتحاد الترقي » !

كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون الى الخليفة العثماني نظرة تاريخية بإعتباره مركز الدائرة الإسلامية وحامي حمى الإسلام ، لدرجة أن الإنجليز حين أرادوا أن يصرفوا التأييد الشعبي عن الزعيم « أحمد عرابي » دبّروا كي يستصدروا فتوى من الخليفة العثماني يصف فيها « عرابيا » بالمروق والتمرد . وقد وقف بعض الشعراء من « عرابي » موقفا معاديا بسبب هذه الفتوى ، من ذلك ما قاله « أحمد الكاشف » في الثورة العرابية :

فلا نستطيعُ سوى عبدالحميد ولا
نرضى أميراً سوى عباسك الثاني

ولأحمد شوقي قصيدة مشهورة تنطلق من هذا الموقف المؤيد للخليفة ، يهجو فيها « أحمد عرابي » ويسخر منه ، ويبكّته . ويقول فيها مخاطبا « عرابي » بعد عودته من المنفى ببيته الشهير :

صغار في الذهاب وفي الإياب
أهذا كلُّ أمرك ياعُرابي ؟

بيد أن الشعراء وقفوا أمام الخلافة بصفة عامة وقفة إجلال وتقدير باعتبارها الحلم الجميل الذي حقق وسيحقق للأمة الاسلامية عزتها ونصرتها ، وتغلبها على الأعداء والتخلف ولكن الدول الأوربية كانت تعمل ليل نهار على تقويض الخلافة ، وإذكاء نيران القومية والطائفية والعنصرية في أرجاء العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص - وقد نجحت أخيراً في تقسيم الدول العربية والإسلامية فيما بينها باعتبارها تركة الرجل المريض - بل الميت ، بعد وصول الاتحاديين إلى الحكم في أنقرة .

وقد شهدت الفترة الأخيرة من الخلافة مواقف حارة ودافقة بالعاطفة المشبوبة من جانب الشعراء العرب تجاه الخلافة والخليفة باعتبارهما فكرة تاريخية يتوحد من خلالها المسلمون ، ويعبرون عن هويتهم المتبلورة والموحدة في الساحة العالمية أمام القوى الأخرى ، وكانت المواسم والأعياد الإسلامية مناسبات طيبة للتعبير عن مشاعرهم تجاه الوحدة الاسلامية والخليفة باعتباره الرمز ومركز الدائرة . .وكانت هنالك أجزاء بكاملها في معظم دواوين تلك الفترة خصّصها أصحابها الشعراء لمدح الخليفة ، وفي ديوان « الكاشف » مثلا ، قسم بأكمله عنوانه « الحميديّات » يمدح فيه الخليفة العثماني

(٤٧) ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضاً تلك القصائد التي اهتمت بسيرة النبي ﷺ مثل القصائد التي احتذت البردة ، وكذلك القصائد التي نظمت لتناول سيرة الصحابة رضوان الله عليهم مثل العمرية والبكرية والعلوية وقصائد الرافعي حول بعض خلفاء بني العباس . . وان كان ذلك لا يخرجها عن هدفها الأصلي وهو التقليد

السلطان عبدالحميد ، وكان يخصّص في مناسبة عيد جلوسه أو توليه الخلافة ، قصيدة ينشدها كل عام ، يتحدث فيها عن صفاته وخدماته للدين والمسلمين ، ودفاعه عن ديار الإسلام ، يقول في إحداها :

لـدينك والـدنيا قيـامك مفـرداً
تردّ العدى وهي العديد المجهرُ
فكم هـاجموا طـامعين فـأخفقوا
ومـا الريحُ في الطود المكين تؤثرُ
وكم فكـر في الشرّ يـرمـوننا بـه
وفي غـير مـا أشقـاهم لم يفكّـرُوا
أيُـغْـلبُ مـن كـان الهـلالُ لـواءهُ
يحيط بـه جند الفضـاء المسخّـرُ ؟
فمنـه ضيـاء لـلعيـون ومـنجـلٌ
غـدا حـاصـداً روح الـذي يتجبّـرُ
أيـغْلَبُ مـن أجنـادُه تمـلأ الـفَضَـا
يسدّد مـرمـاهـا القضـاء المقـدّرُ
لهـا سكن في سلمهـا فهي أجْبـلٌ
ومضـطربٌ في حَربْهـا فهي أبْحُـرُ
إذا حـاسَنَتْ فهي النسيم لـطافـة
وان خـاشنت مستعديـا فهي صرصر(٤٨)

وقد حفلت دواوين كبار الشعراء خاصة في النصف الأول الذي رافق سقوط الخلافة بقصائد تفيض لوعة وحسرة على ما أصاب الخليفة والخلافة وتستدعي عناصر التاريخ الساطعة لبناء خلافة قوية ظافرة ، ولعل « شوقي وحافظ » أبرز الشعراء في هذا المجال ، « ولشوقي » قصيدة بعنوان « خلافة الإسلام » ، يرثي فيها الخلافة وينبه الدول الإسلامية إلى إسداء النصح إلى « أتاتورك » الذي اشتطّ في تصرفاته بإلغاء الخلافة وتحويل تركيا عن الإسلام وكان المسلمون قد أملوا فيه خيرا بعد انتصاراته على اليونان ولكنه خيب ظنّهم ، يقول شوقي في مطلع قصيدته الباكية :

عـادت أغـاني العرس رجع نـواحِ
ونـعـيـت بـين مـعالم الأفـراحِ
كفّنت في ليـل الـزفـافِ بثـوبـهِ
ودفـنـت عنـد تبلّج الإصـبـاحِ
شيعت من هلعٍ بعبـرة منـاحـك
في كـل نـاحية وسكـرة صـاحِ
ضجّتْ عليـك مـآذنٌ ، ومنـابـرٌ
وبكت عليـك ممـالـكٌ ، ونـواحِ
الهنـدُ والهـةٌ ، ومصـرُ حـزينـةٌ
تـبكي عليك بمدمع سحّاحِ
والشـام تسأله ، والعراق ، وفـارس
أمحَـا مِنَ الأرض الخلافـة مـاحِ ؟
وأتت لـك الجُمَعُ الجلائِلُ مـأتمًا
فقعدْن فيـه مَقَـاعِدَ الأنـواحِ (٤٩)

ويستمر « شوقي » على هذه النغمة المتفجعة على مصير الخلافة وما أصاب المسلمين ويعلن عن موقفه المؤيد لبني عثمان ، الذي لا يتغير ، ويلح على القادة الجدد أن يعوا أهمية الوحدة الإسلامية والمحافظة على انتصاراتهم التي حققوها للإسلام في اليونان ، فهذه الانتصارات ليست للترك وحدهم ، بل هي للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي التي حركت مشاعر الشعراء في كل مكان للإشادة بها وتخليدها . ولعل موقف الشاعر « محمد عبدالمطلب » في هذا المجال يعطينا

(٤٨) ديوان الكاظمي جـ ١ ـ مطبعة الترقي ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م ص ١٢ ، ١٣ .
(٤٩) ديوان شوقي جـ ١ : ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

دلالة عميقة ، على أن التفاف الشعراء كان حول الفكرة الاسلامية التاريخية للخلافة أساساً ولم يكن حول الأتراك لأنهم أتراك كما يتهم بذلك شوقي لانتمائه اليهم بصلة الدم - فالفكرة الاسلامية التاريخية تنبض في كل القلوب ما كان منها تركياً أو غير تركي ، ولعل ذكر شوقي للهند الوالهة ومصر الحزينة والشام والعراق وفارس المتسائلة ، يحمل بعض هذا المعنى . بيد أن « عبدالمطلب » وقد كان يشيد بالخلافة وانتصارات جيوش الخلافة ، وقف موقفاً صريحاً عندما انحرف الاتحاديون وتصرفوا على أساس غير إسلامي تجاه الخلافة والدين . كان عبدالمطلب قد بدأ ينظم قصيدة في انتصار الترك على اليونان في « سقاريا » وبعد نظم أبيات منها لم يكملها . وهذه الأبيات هي :

هـذا مقامـك شاعـر الإسلام
فقف القـريض على أجـل مقام

عـادت صـوارمنـا إلى أغـمـادهـا
من بعـد مـا ظفـرت بخيـر مـرام

هـذا الحنيف يسير تحت ظـلالها
فـخـم الجـلالـة سامـي الأعـلام

ضحـك الهـلال لهـا الغـداة وربمـا
أجـرى مـدامعـه شئـون غمـام

قف بـالهلال على السنام من العلا
فـمكـانـه منهـا بكـل سـنـام

وقـف الأسـنـة والصـوارم تحـتـه
ظـمأى وكـل مـقـذف مرزام

ويعقب عبدالمطلب بعد هذه الأبيات مباشرة بقوله : « وكان السبب في وقوفي جامد القريحة فجأة إذ فاجأتنا أخبار انحراف أولئك النفر - يقصد الاتحاديين(٥٠) .

وواضح أن عبدالمطلب الذي وصف نفسه « شاعر الاسلام » في البيت الأول ، يرفض أن ينساق في تأييد قـوم انحرفـوا عن منهج الإسـلام والفكـرة التـاريخيـة للخـلافة الى منهـج القـوميـة المتعصّبـة أو العنصـريـة الضيقة .

وقد ظلت فكرة الخلافة موضع تناول بين الشعراء ، وبعد سقوطها ظهر - بوضوح - عدد من الشعراء الذين شمتوا في سقوط الخليفة وانتهاء الخلافة كفكرة تاريخية يلتف حولها المسلمون ومعظمهم كانوا في بلاد الشام ، ولعل ذلك يرجع الى نمو الفكرة القومية هنالك بقوة ، وتغذيتها من جانب نفر من غير المسلمين ، وضيق أهل الشام بظلم بعض الولاة الأتراك ومعاملتهم القاسية . وقد عبر « إيليا أبو ماضي » عن شماتته دون مواربه في أكثر من قصيدة عند سقوط السلطان عبدالحميد . ففي قصيدته « فتنة ١٣ ابريل » يتحدث عما جرى من عزل للخليفة ويصفه بأقذع الصفات وهي أخف من بعضها الأخر في قصائده الأخرى يخاطبه قائلا :

شلَّ مـنـك التـاجُ مـهـتـفـاً
مـن يُعـادِ الـشـعـب يُنْـتَـقَـمِ

بِتَّ لا جيشٌ ولا عـلـمٌ
يـا صـريـع الجـيش والـعـلـمِ

وفـشـى مـا كـنـت تـضـمـرهُ
فـعـرفـنـا نـاقـضَ الـقَـسَـمِ

(٥٠) ديوان عبد المطلب : ص ٢٥٣ .

كنت مَسْلُوبَ الكرى جَلِدًا
ولقد أعطيتَهُ فَنَمِ[٥١]

ومهما يكن من شيء ، فإن قضية « الخلافة » باعتبارها فكرة تاريخية إسلامية كانت عاملا أساسيا من عوامل نهضة الشعر الديني في القرن الرابع عشر الهجري ، وبخاصة في النصف الأول منه الذي شهد أفول هذه الخلافة والتي كانت دائماً في عرف الشعراء رمزاً ساطعاً من رموز الاسلام ينبغي الدفاع عنه وحمايته ، حتى أولئك الذين وقفوا من الخلافة أو الخليفة موقفاً عدائياً فإنهم كانوا على اتفاق أن قيم الحق والعدل والأمن ينبغي أن تتحقق من خلال مفهوم إسلامي ، وإن لم يكن عن طريق الخلافة أو الخليفة .

ثالثا : تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة حول الدين أو بعض الأحداث التاريخية الإسلامية ، وقد رافق هذه القصائد أو رافقت هي ، مقالات وكتبا ألفها مدافعون عن الدين لتصحيح الصور المشوهة التي رسمها ونشرها المعادون للدين ، أو بعض المستشرقين ، خاصة ما يتعلق منها بحياة النبي صلى الله عليه وسلم . وتصحيح المفاهيم الخاطئة بالشعر لم يكن ضربا من العبث أو الرياضة الذهنية ، بل كان إحساساً داخلياً عميقاً لدى الشعراء المسلمين في العالم العربي بضرورة الدفاع عن الدين وعن النبي (ﷺ) من أجل البعث الديني أو البعث الحضاري الإسلامي ، إذ تصبح المفاهيم الخاطئة عقبة في طريق النهضة وبناء الحضارة .

ويمكن أن نجد نماذج عديدة لهذا التصحيح نكتفي منها بنموذجين ، يتحدث أحدهما عن موقف الإسلام من العلم ، والثاني يصحح الفِرْية التي افتراها أهل الإفك حول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم . وفي النموذج الأول يتحدث الشاعر « أحمد زكي أبو شادي » في قصيدة بعنوان « النبي محمد وروح العلم » عن المقولة الشائعة بأن الإسلام دين الأوهام والجهل والجمود ويرى أن الاسلام قد هدم الأوهام قديما وحرر عقول الناس من الضلال ، ودعاها الى التفكر والتدبر . يقول أبو شادي :

هدَمْت أوهام القديم محرّراً
أيُقالُ دينُك ملْؤهُ الأوهامُ ؟
وشرعت للعقل الحكيم سياسة
ضمنتْ بقاء جلالها الأيّام
بنيت على النفع الأتمّ وكلُّ ما
للعلم فالعلمُ الصحيحُ قِوَامُ
عقلٌ كعقلك لن يبيح جهالةً
أبداً ، فكم سطعت له أحكامُ[٥٢]

وبعد أبيات يعود الشاعر الى التاريخ ، ويذكر بدء الدعوة التي رافق انتصارها تكسير الأصنام وهدمها باعتبارها رمزا للجهل والتخلف والجمود والتعصب والتقهقر :

(٥١) ديوان « إيليا أبو ماضي » ـ المجلد الكامل ـ دار العودة ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ٦٦٤ ـ وقد كان حافظ ابراهيم موفقا حين تناول السلطان عبد الحميد بعد خلعه وصوّر موقف الناس منه من خلال مبالغة فيها طعم المرارة القاتلة :

كنتُ أبكي بالأمس منك فما لي / بتُّ أبكي عليك (عبد الحميد) ؟
فرحَ المسلمونَ قبل النصارى / فيك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمة.. أن يشمتَ الورَى في طريد !

(انظر ديوان حافظ جـ ٢ ـ ص ٤٣) .

(٥٢) أحمد أبو شادي ـ الشفق الباكي ـ المطبعة السلفية بمصر ـ ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م ـ ص ١٤٢ .

يـاهـادم الأصـنـام ديـنـك قـدرهُ
أن لا تمت لـوحيـه «الأصـنـامُ»
بـين الـذين تعـصبـوا وتـقهـقـروا
وحَجَاك يا علم الشعوب خصامُ!
هم يحسبـون الـدهـر ليس بسائـرٍ
ودليـلُ شـرعـكِ للزمـانِ إمـامُ
آيـاتـه بـنـت الـفـخـار ولم تـزلِ
تسـع الـذي تـرضى بـه الأفهـامُ
من أنكـر العلم الصحيح فـدينـهُ
وهْـمٌ، ولـيس لمثـله إسْـلام![٥٣]

وقد تكون هذه المسألة «الاسلام والعلم» غير مثيرة في أيامنا باعتبار أن من يدخلون الآن المجالات العلمية المختلفة ويبدعون فيها كثيـرون، ولكننا إذا عـدنا الى أوائل القرن الرابع عشر الهجري وجدنا الأمر مختلفاً. فقد روّج الاستعمار وأشياعه مقولات خاطئة عن وقوف الإسلام ضد العلم والمدنية والتحضر. ولعل كتاب «مصر الحديثة» للورد كرومر ـ المندوب السـامي على مصر أيام الاحتلال، والذي يحمل بضراوة على الإسلام والمسلمين، ويزيّف وقائع التاريخ الإسـلامي، أبرز الأمثلة عـلى الكتب التي تـزيّف الحقيقـة وتتجنّى عـلى الإسلام بالتعصّب والحقد والهوى[٥٣].

النموذج الثاني يتناول حديث الإفك الذي تناقله نفر من الناس حول السيـدة عائشـة رضي الله عنها حيث اتهمت ظلما في شرفها، ونـزل القرآن الكـريم يبرىء ساحتها ويتوعدُ الذين جاءوا بالافك. قال تعالى: «إنَّ الذين جاءوا بالإفْك عُصْبَةٌ منكم لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لكُمْ، بَـلْ هُوَ خَـيْرٌ لكم، لكل امْـرِىءٍ منهم ما اكْتَسَبَ من الاثم، والذي تولّى كِبْرهُ منهم لهُ عذابٌ عَظِيم. لولا إذْ سَمِعْتُمُـوه ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمنـاتُ بِأنْفُسِهِمْ خَيْـراً، وَقَالُوا هَذا إفْكٌ مُبِين»[٥٤].

يأتي الشاعر المعاصر ليعيد صياغة الحدث شعرا، فيقطع الطريق على ما قـد يتردد في بعض الصـدور أو تنطلق به أدوات التشكيك في دين الإسلام ونبيّه وآله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويصور لنا السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد أخذت تبكي وحيدة بعد أن تركها الركب وتعرضت للافتـراء، ويدور في داخلهـا صراع رهيب يتوازى مع صراع الوحشة في الخلاء تحت جنح الليل، ويأتي جبريل ليجلي الغيم، وينزل بالوحي فيصفو الأفق ويتلألأ ضياء الكون على صوت الحق، ويقول الشاعر د. محمد رجب البيومي في ختام قصيدته التي استقاها من نبع القرآن:

أي حـسـنـاء حـصـان خـصَّـهـا
ربُّها الأعـلى بـإكْـليـل الـثّـنـاء
أشـرقـت في سـورة الـنُّـور فـما
مـثـلـها في أوْجِـهَـا ذات بـهـاء
إن تـكنْ مـريـمُ نـالتْ فـخـرهـا
فـهـيـا في دولـة الحسنى كـفـاء

---

(٥٣) السابق: ص ١٤٣، ١٤٤.

ـ من القصائد الجيدة في الرد على «كرومر» قصيدة لأحمد محرم بعنوان «كرومر والإسلام وسراة مصر» ويخاطبه قائلا:

زعـمـت الـديـن والـقـرآن جـاءا ... بـما يُـخْـفـي حـيـاة الـمـسـلـمـيـنـا
زعـمـت (مُـحَـمَّـداً) لم يـؤت رُشْـداً ... ولم يـسـلك سـبـيل الـمـصـلـحـيـنـا
فـلـيـتـك كـنـتـه لـتـشـقّ شـأوهـا ... بـيـلـغـا مـكـان الـسـابـقـيـنـا.

(انظر ديوان محرم جـ ٢ ـ مطبعة الفتوح الجديدة بدمنهور ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ـ ص ١٦)

(٥٤) سورة النور: ١١، ١٢.

أصبحت أسوة غيد بعدها
صرنْ نَهْباً لا دُعاء الشُّعَسَاء
فرفعن الأمر لله كما
رفعت والله عَوْنُ الضعفاء
ليت من يرمي بإفك غادةً
يدركُ العقبى فيُثْنيه الحَيَاء[٥٥]

وواضح أن الشاعر الى جوار الغاية الدفاعية عن عائشة والواقعة التاريخية ، يهدف إلى غاية تعليمية لدفع الاتهامات التي يتسرع بها البعض في قذف البريئات ، فضلا عن الدفاع عن قيم الإسلام النبيلة في السلوك الاجتماعي .

رابعا : العودة الى التاريخ للتعبير به رمزياً عن الواقع ، وقد ركزت حركة الشعر الحديث على هذه الناحية تركيزاً واضحا ، ولم تترك علماً اسلامياً بارزاً أو حادثة إسلامية ذات تأثير إلا واستخدمتها في الإطار الرمزي للتعبير عن الحاضر الراهن أو المستقبل المأمول ، ويمكن القول ان ازدهار الاستخدام الرمزي كان مصاحباً لحركة التجديد الشعري في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري تقريبا ، ولم يقتصر الأمر لدى الشعراء على استخدام التاريخ الإسلامي بل تعداه إلى التاريخ الانساني بعامة ، بما فيه من أسطورة أو خرافة أو تراث شعبي ، ويمكن لمن يطالع الشعر الحر أن يجد رموزاً لمحمد (ص) وأبي بكر وعمر وعلي وأبي ذرّ وبلال ومعاوية وصلاح الدين وهارون الرشيد والمعتصم والمتنبي والحلاج والغزالي والمعري والخيام وأبي فراس الحمداني وامرىء القيس وطرفة بن العبد وديك الجن وصقر قريش وقرطبة ومدريد وغرناطة وطليلة وارم ذات العماد ودمشق والقدس ، فالإضافة إلى المسيح ويهوذا وسقراط وأفلاطون وأبي الهول والاسكندر المقدوني وهاملت ودون كيشوت وسيزيف واسبرطة وغيرها من الملامح التاريخية والتراثية[٥٦].

وسوف نكتفي هنا أيضا بنموذجين من تاريخنا الاسلامي أو يرتبطان بتاريخنا الاسلامي استطاع الشاعر المعاصر أن يستخلص منهما دلالة معاصرة لرؤيته للحدث الذي يعالجه . في قصيدة « حكاية لأطفالنا» للشاعرة « فدوى طوقان » عن السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، تصورّ الشاعرة انتقال العرب من مرحلة اليأس والهزيمة إلى مرحلة الأمل والانتصار ، فتتحدث عن الأعوام الستة بين الهزيمة الساحقة التي لحقت بالعرب والمسلمين بعد ١٩٦٧ وظلت تغلّف حياة الناس بالسّواد والذل ، حتى جاء عام ١٩٧٣ فتراه الشاعرة يشبه عام الفيل الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكان بداية لمشرق النور وحاملا للنبوءة وقاضيا على الخرافة :

« وجاء عامُ الفيل
مُمتطياً مسافه
تقطعها الفصولُ بين الموْتِ والحياه
تفجّر الصوت العظيم بالرعودِ والبُرُوق
حاملا النبوءة
مجتثًا الخرافهْ . . . »

لقد نظمت الشاعرة دلالة الحدث التاريخي « عام الفيل » الذي ارتبط بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وهزيمة أبرهة القائد الحبشي الذي أراد هدم الكعبة ،

---

(٥٥) مجلة التضامن الإسلامي ـ مكة المكرمة ـ السنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) ـ ص ١٧ وما بعدها وقد جمعها في ديوانه « من نبع القرآن » ـ دار الأصالة للنشر ـ الرياض ـ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

(٥٦) تناول كتاب « استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر » للدكتور علي عشري زايد ، الرمز التاريخية بتفصيل وعمق خاصة في السفر الثاني .

فكأن العدو يمثل هذا القائد الذي لا قبل لأحد به ، وكأنّ عبور القناة يمثل ولادة الأمل الذي حمل النبوءة وقضى على الخرافة :

وانطلق المجندلُ المسحوق ، نظرةً على الطريق
ونظرة على السماء الرحبة المضيئة
وغطّ في القناة
مغتسلا متمّماً وضوءه
وقامت الصلاة ! »[٥٧] .

ولعل اللمسات الدينية التي أضفتها الشاعرة في عباراتها وإشاراتها الى الاغتسال والوضوء وإقامة الصلاة تعني التطهر من عوامل الخوف والتردد والهزيمة الداخلية ، والتفرغ للجهاد وهو الهدف العظيم باعتباره العبادة التي تقرب الى الله وتدخل الجنة مباشرة . وهذا في النهاية يعبر عن نجاح الشاعرة في استعمال الرمز بطريقة فعالة ومؤثرة .

النموذج الثاني من الشاعر « سميح القاسم » في قصيدته « ثورة مغني الربابة » حيث يرى نفسه صوت التاريخ الذي يذكّر العرب بأمجادهم وانتصاراتهم « ويدعوهم الى تخطي العقبات والتغلب على الهزائم ، وان كان الاحساس المتشائم يغلّف قصيدته . وفي المقطع التالي نراه يتحدث عن أمجاد الرسول (ص) والصحابة ، وعقبة بن نافع وطارق بن زياد ، ويخاطب أمته قائلا :

« يا أمتي !
عَدَّدْتُ أجيالاً على هذي الرَّبابة
كرّرت أمْجَادَ الرَّسُول ، وكل أمجادِ الصحابه
كرَّرْتُ عقبة ـ ألف مرة !
كررت طارق ـ ألف مرة !
ووضعتُ من عندي الكثير ،
كذبْت في أسفٍ وحَسْرَه . . »[٥٨] .

وبعد أن يستعرض الشاعر واقع الأمة من خلال المقارنة بين الواقع والتاريخ ، يهيب بها أن تتحرك نحو الواقع الجديد ، غير الكلام والخطابة ، يضيف أمجاداً جديدة الى الأمجاد القديمة التي صنعها السابقون :

« ياأمّتي . . قومي امنحي هذي الرَّبابة
غيْرَ البراعةِ في الخطابه
لحناً جديداً . .
وامنحي الأجيال . . أمجاداً جديدة ! »[٥٩] .

وهكذا يستدعي الشاعر التاريخ ليرى به الحاضر ، أو يرى الحاضر من خلال الماضي مستخدماً الرمز التاريخي الذي يبلور رؤية الشاعر ، ويعمّقها في وجدان التلقي ، ويضفي عليها ملامح الارتباط الوثيق بالماضي ، باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل حلقات في سلسلة واحدة .

لقد لعب التاريخ دوراً كبيراً في إثراء التجربة الشعرية الدينية المعاصرة ، وأضفى على التجربة الشعرية بصفة عامة نوعاً من الموضوعية في التعبير ، خاصة في الجانب الدرامي ، الذي اعتمد الإلياذة أو الملحمة أو الأرجوزة أو المسرحية ، وهو ما ألحّ عليه « اليوت » في مطلع القرن العشرين الميلادي في مقالته الشهيرة « الاتباعية

---

(٥٧) ديوان فدوى طوقان ـ المجلد الكامل ـ ص ٥٥٨ .
(٥٨) ديوان سميح القاسم ـ الأعمال الكاملة ـ دار العودة بيروت ـ ١٩٧٣ ـ ص ٢١٦ .
(٥٩) السابق : ص ٢١٨ .

والموهبة الفردية » حيث يرى أنه ليس لشاعر أو فنان في أي نوع من الفنون قيمته الكاملة بنفسه ، وإنما تترتب قيمته على أساس علاقته بالسلف من الشعراء والفنانين » وأن « الحاضر ينبغي أن يغيّر الماضي بمقدار ما يوجه الماضي الحاضر »[٦٠].

٣ ـ التأثر بالغرب

كان تأثير الغرب ـ ومازال في أدبنا العربي الحديث بصفة عامة ، والشعر بصفة خاصة ، واضحاً وقويًا ، وتتفاوت درجة التأثير في البلدان العربية بتفاوت مستوى الوعي السياسي والثقافي والحضاري ـ وقد كان لهذا التأثير بروزه الملحوظ في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، والذي توافقت بدايته مع الاحتلال الانجليزي لمصر ، عاصمة العالم الإسلامي العلمية والفكرية ، وساعد على بروز هذا التأثير مجموعة من الظروف والأوضاع المختلفة هيأت في مجموعها عملية الاتصال المباشر أو غير المباشر بأوربة .

ويمكن أن نبلور عملية الاتصال المباشر من خلال حركات الاستشراق واتجاه الغربيين إلى دراسة الشرق وتراثه ، وهي حركات بلغت مداها وقمة ازدهارها في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي (أوائل القرن الرابع عشر الهجري) ، بالإضافة إلى حركة البعوث التي نظمتها البلدان العربية والاسلامية إلى أوربة ليطلع أبناؤها على علوم الغرب وآدابه ، وينهلوا من معين ثقافته وحضارته التي فرضت نفسها على العالم ، وصار الناس يلهثون وراءها لملاحقتها وتقليدها .

أما عملية الاتصال غير المباشرة فيمكن حصرها في عملية الترجمة ، أو الاطلاع على ما يقدمه الغرب من خلال الإلمام بلغاته وفلسفاته ، حيث أنشئت في مصر أول مدرسة للترجمة في عهد رفاعة الطهطاوي (مدرسة الألسن) ، وفي بلاد الشام كان للإرساليات المسيحية التبشيرية مدارسها التي تنشر اللغة الفرنسية ـ خاصة ـ وتعلمها للعرب هنالك .

ومن خلال عملية الاتصال المباشرة وغير المباشرة يمكن أن نرى أثراً واضحاً للنهضة الدينية في مجالات مختلفة ، من بينها الشعر الديني الذي يهتم بقضية الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم بالدرجة الأولى ويمكننا أن نلمح من خلال المتابعة لعملية الاتصال بالغرب ، والتأثر به جانبين هامين في عملية إثراء النهضة الدينية في شتى مجالاتها ، أحدهما : دفاعي والآخر بنائي ، وكلاهما متصل بالآخر بطريقة وأخرى .

أما الجانب الدفاعي فيتمثل في تلك الحركة النشطة التي استفزّت أقلام وأفكار كبار المفكرين والدعاة الاسلاميين لمواجهة الغرب بمستشرقيه وكتابه من غير المستشرقين ، دفاعاً عن الاسلام كعقيدة وفكرة وحضارة ، وعن نبي الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ كرسول ونبي صادق النبوة .

لقد كان الاسلام مع نبيه صلى الله عليه وسلم في وجدان الغرب ، ومنذ الحروب الصليبية يمثل ذلك الخطر الداهم ، والعدو الدائم الذي تنبغي مقاومته ، وتحطيمه في عقر داره ، ولعل الموجات الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، كانت تعبيرا من أجد الوجوه عن ذلك الشوق العارم الى القضاء على الإسلام

(٦٠) د . لطيفة الزيات ـ مقالات في النقد الأدبي ـ مكتبة الأنجلو بدون تاريخ ص ٥ ، وانظر : د. محمود الربيعي ـ في نقد الشعر ـ ط ٤ ـ دار المعارف ـ ١٩٧٧ ص ١٥٣ واستدعاء الشخصيات التراثية : ص ٣٣ ، ٣٤ .

وفكرته فما فعلته فرنسا في الجزائر من « فرنسة » و « تغريب » ، وما فعله « كرومر » و « دنلوب » في مصر ـ خاصة في مجال التعليم ـ يعدُّ أوضح الأمثلة على هذا الهدف الاستعماري الشرير الذي يبغي تحويل وجهة المسلمين في بلاد الإسلام الى وجهة أخرى وعالم آخر .

وإذا نظرنا الى بعض الكتابات أو النصوص الأدبية التي تحدثت عن الاسلام والرسول (ﷺ) والمسلمين ، فسوف نجدها تفيض كراهية وتعصّباً ضد الاسلام والرسول (ﷺ) والمسلمين . ولعل أقدم النصوص التي حملت مشاعر الكراهية والتعصب ، تلك الأنشودة الشهيرة الذائعة في التراث الأدبي الأوربي منذ العصور الوسطى والمعروفة « بأنشودة رولان » وهي ملحمة غنائية تتغنّى بالبطولات الخارقة لرولاند وعمه الامبراطور شارلمان امبراطور فرنسا في موقعة « رونسيفو » عام ٧٧٨م بين جيش شارلمان ومجموعة من المسلمين . وقد حولت هذه الأنشودة موقعة رونسيفو الى حملة صليبية في القرن الثامن ، قبل أن تعرف الحملات الصليبية العسكرية بوقت طويل ، جعلت من شارلمان أبا للمسيحية ، ومن المسلمين كفارا ملاحدة يعبدون محمدا ويعبدون كذلك « أبوللو » ولا يحبون الله ! وقد كتبت الأنشودة في القرن الحادي عشر في مناخ نفسي تعبر عنه الحملات الصليبية الأولى التي قامت في ذلك الحين واستهدفت القدس والشام ومصر(٦١).

وإذا كانت « أنشودة رولان » ذات طابع شعبي ظلت تتناقلها الألسن شفاهة حتى دوّنت في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولم يعرف من قائلها أو واضعها ، فإن الكتابات التي دونت عن النبي صلى الله عليه وسلم واعتمدت على بعض الأصول التاريخية ، كانت خليطا عجيبا من الحقائق والخيال ، فسرت فيه الحقائق بشكل مغرض « متوقع النتائج ، ويوجه الخيال فيه إلى جمهور يبدو لنا اليوم مفرط السذاجة »(٦٢). وقد استهدفت هذه الكتابات المغرضة التشكيك في أهلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنبوة ، وشدّدت على وثنيته قبل ادعائه النبوة ومعاناته للصرع وأنه ادعى أن جبريل يزوره في أثناء النوبات ليخفي مرضه ، ورووا قصص زيجاته باسهاب واستنتجوا منها أنه كان عبداً لحواسّه (مما يتناقض مع روحانية المسيح) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوة وأنه كان دجّالاً لأنه لم يقم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلما فعل أنبياء التوراة(٦٣).

وقد عبرت الكتابات الأدبية الأوربية بصفة عامة عن تلك النزعة التي ظهرت في الكتابات ذات الأصول التاريخية فصورة محمد والمسلمين في الكوميديا الإلهية لدانتي مثلا لا تقل بشاعة وانحرافاً عن الصورة التاريخية في التصوّر الصليبي وفضلا عن ذلك ، فإن المسلمين يطلق عليهم اسم « سراسين » أي وثنيين ! بل إن كلمة Moumet الإنجليزية والتي تعني صنما أودمية تعود بجذورها إلى الحقبة الصليبية ، والكلمة مستمدّة من اسم النبي « محمد » ، وبصفة عامة ، فقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظلّ يتردد معها اتجاه واضح العداء للإسلام والمسلمين(٦٤).

---

(٦١) اعتمدت في هذه الفقرة على دراسة مخطوطة لم تنشر بعد وتضم ترجمة لمعظم أجزاء « أنشودة رولان » للدكتور أحمد درويش .

(٦٢) محمد عصفور ـ صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر ـ بحث في مجلة « عالم الفكر » ـ المجلد الثامن العدد الرابع ـ الكويت ١٩٧٨ م ـ ص ٩٦٣ .

(٦٣) السابق : نفس الصفحة .

(٦٤) صورة الاسلام في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر ـ عالم الفكر ـ ص ٩٧٦ .

ويلاحظ أن التركيز على شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مقصودا ، فقد كان من همّ الجدل المسيحي أن يفنّد الإسلام عن طريق تشويه سمعة محمد (ص) على الطريقة التي دعاها المناطقة Grey umen-tum and hominem والتي كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم[٦٥] . وهناك سيرتان للنبي (ص) تطبقان هذا المنهج . الأولى كتبها « لا نسيلون أديسون » بعنوان « حالة المذهب المحمدي الأولى ، أو وصف للدعوى الباطلة ولحياة مؤلفها » ، ونشرت أولا دون أن « تنسب لمؤلفها عام ١٦٧٨م ، ثم نشرت ثانيا مع نسبتها إلى المؤلف عام ١٦٧٩م تحت عنوان « حياة محمد وموته » . أما السيرة الثانية فعنوانها « الطبيعة الصحيحة للدعوى الباطلة كما تظهر على أوضحها في حياة محمد » ونشرت عام ١٦٩٧م ، وكتبها همفرى بريد . وفي السيرتين تظهر الروح العدائية المتعصبة التي تتهم محمدا بالدجل والهرطقة[٦٦] .

لقد ظلت هذه الروح العدائية المتعصبة مترسبة في الوجدان الأوربي حتى يومنا هذا ، وان كانت حدّتها قد خفتت الى حد ما بظهور الكتابات المنصفة والواعية ، والتي سنشير اليها بعد قليل ان شاء الله ، وفي مطالع القرن الرابع عشر الهجري . كان الصدام مع الاستعمار الأوربي باعثا على الدفاع ومحاولة وقف الهجوم الضاري على الاسلام ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد تضافرت الهجمات الشرسة المغلفة بالتعصب والكراهية على الدين الاسلامي ومحمد (ص) ، من خلال بعض الكتابات في الغرب ومن خلال تفسيرات وتحليلات بعض المستشرقين لمسيرة الاسلام وحركة الفكر الاسلامي ، والوقوف أمام بعض حوادث التاريخ الاسلامي وقفة فيها الكثير من التحامل والنتائج المسبقة . ولا يتسع المجال هنا لرصد هذه الهجمات وشرح أبعادها ، ولكننا نشير هنا الى أن عددا من كبار الكتاب والمفكرين المسلمين قد تصدوا للدفاع عن الدين دفاعا مجيدا من خلال مقالات وكتب شرحت طبيعة التصور الاسلامي الصحيح ، وموقفه ازاء بعض القضايا التي أثارها الغربيون وأنصارهم في بلاد المسلمين . لقد حفلت « العروة الوثقى » طليعة المجلات الاسلامية ، بالمقالات التي كتبها جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده معبّرة عن روح الدين ، وعن علاقة الغرب بالاسلام ، وتصدت للدفاع عن الاسلام والمسلمين ، فتصدى له واستبسل في بيان إمكانات الاسلام الرائعة ، وعطائه العظيم ، وكذلك ما فعله « قاسم أمين » في مواجهة الدوق « داركور » الذي تحامل على الاسلام والعقيدة الاسلامية ، فدحض مزاعمه ، وفند دعاواه ، وكلما مضى الزمان بالقرن الرابع عشر الهجري ، وجدنا من علماء الاسلام ومفكريه ، من يواجه الحملات الغربية المعتمدة على الأكاذيب والأضاليل ، بالفكر الواعي ، والعلم الصحيح ، ولعل ما كتبه العقاد في كتبه « ما يقال عن الاسلام » و « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » و « التفكير فريضة اسلامية وغيرها ، أشهر من أن يعرف به في مجال رد الشبهات والمفتريات التي أذاعها الغربيون وأتباعهم من أبناء المسلمين !

وسوف نتوقف عند بعض الأمثلة التي شهدت مواجهة بين الغرب وعلماء الاسلام ، ونرى موقف الشعر وتأثره بذلك تأثرا واضحا وقويا .

من ذلك ما كتبه المسيو « هانوتو » وزير خارجية فرنسا

(٦٥) السابق : ص ٩٧٧ .

(٦٦) السابق أيضا : ص ٩٧٧ ـ / ٩٧٨ .

في جريدة « الجورنال » الباريسية عن الاسلام والمسألة الاسلامية ، ونشر مترجما في جريدة « المؤيد » ، وكان مقال « هانوتو » يفيض بالحقد والضغينة والكراهية للإسلام والمسلمين ، ويصيح مذكرا بما فعله « بطرس الحافى » عند بدء أول حملة صليبية ، أن أدركوا أوروبه التى يتهددها خطر الاسلام ، ومن أطرف ما قاله « هانوتو » في هذا المجال من أجل التحريض : « ترى في قرانا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلّمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء ، هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، إنما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا » !![٦٧] .

لقد رد الأستاذ الإمام « محمد عبده » رحمه الله ـ ردا علميا ، طويلا ومفحما تناول كل ما أثاره « هانوتو » من قضايا كلية وجزئية ، ومزج في رده بين التاريخ والفقه والعقيدة والفلسفه والوعى بحركة الأحداث المعاصرة ومما قاله الأستاذ الأمام معبرا عن وعيه بحضارة الاسلام :

« ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين ، فطارت بها الى المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم في سبل مطاردة للعلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة »[٦٨] ويستمر الأستاذ الإمام في رده ويبين كيف اشتغل المسلمون بالعلوم الأدبية والعقلية ، ويتحدث عن الإسلام في أوائل القرن العشرين (أواسط القرن الرابع عشر الهجرى) ، ويتكلم عن الاسلام ومدنيةٌ أوربه ، ويواجه المسائل الحساسة بعمق وصراحة دون غموض أو مواربة ، يقول مثلا عن الاصلاح والمصلحية « للقائل أن يقول : كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين ، مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد في هذه الأيام ؟ كل يقول : دينى ملّتى ، إسلام مسلمون ، قرآن سنة مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الأخذ بأصول الدين الإسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا آذاناً صماً وأعينا عميا ، وصدًّا عما يدعو اليه هؤلاء ؟ .

ويمكننى أن أقول له : ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزَّبد لا تمكث في الأرض ، وانما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون خصوصا في أمر الدين ، والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيا في بلاد الهند وبين مسلمى روسيا ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر .[٦٩]

(٦٧ محمد عبده ـ الإسلام بين العلم والمدنية ـ كتاب الهلال ـ العدد ٣٨٥ ـ القاهرة ـ يناير ١٩٨٣ م ـ ص ٢٩ وما بعدها .

(٦٨) السابق : ص ٦٨ .

(٦٩) السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

هذا الرد على « هانوتو » الذي حمل رؤية إسلامية ناضجة وواعية ، كان له وقع عظيم على مشاعر وأفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهزّ الشعراء من الأعماق في مصر وخارجها ، فبدأت قرائحهم تفيض بالأفكار التي تضمنها ردّ الامام على « هانوتو » ، فضلا عن الإشادة بالامام ودوره العظيم في بيان عظمة الإسلام . وسأكتفي بذكر بعض النصوص التي سجّلت هذا الحدث الفريد والمتميز .

يقول الشاعر « أحمد الكاشف » في قصيدة بمناسبة رد « الرئيس المفتي الأستاذ الشيخ محمد عبده » على هانوتو وشيعته .

سلاماً حجة الإسلام فينا
ورضوانا رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحياً
يؤيد وحي ملهمك المبينا
فلم تترك لمتّهم مكانا
يرى فيه المزاعم والظنونا
فيا بطلٌ يخوضُ الحربَ فرداً
فيا يدعو بآخر مُسْتَعِينا
جهاداً في سبيل الله يفدي
بمهجته المَوَاطن أن تَهُونا
بابقى منكَ آثاراً وذكْراً
وقدْراً في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفاً
وكان كعابلك الدرع الحصينا
ملكت به معاقل صالحات
نبت عنها سيوف الفاتحينا

وماضر الضّلالُ الخلقَ حتى
نفعتهم وأوضحت اليقينا
فرفقا بالمكابر فقد كفاه
مجادلةً وأوشك أن يهونا
ودعه في تَأمُّلِهِ عساه
يجيئُك باعتراف المهتدينا
فلو سلكتْ ملوكُ الشرق يوماً
سلوكك بيننا ديناً ودينا
تمادى الحق متّبعا مصونا
وقام الملك ممتدا أمينا
وعاش التاج مؤتَلِقا رهيباً
ودام العرش معتزا متينا
ومثلك لو تحكّم مستبدا
فقد ملأ الضمائر والعُيُونا .[٧٠]

ويلاحظ أن الشاعر مع إشادته بالأستاذ الإمام وبراعته في الدفاع عن الدين ضد هانوتو وشيعته لم ينس أن يشيد بخلق الإمام ودينه وفكره ، وسلوكه ويرى فيه النموذج الصالح للحاكم المطلوب الذي يصلح الأمة ويقودها الى شاطىء النجاة والأمان ، ويشير صراحة في تعليقه على الحاكم المستبد الى قول أحد علماء العمران ، لا تصلح الأرض حتى يكون ملوكها حكماء ، وحكماؤ ها ملوكا ، ويثبت ذلك في هامش القصيده ، مما يعني ان الواقع الذي تعيشه الأمة في صراعها مع النفس ، ومع الغير (الغرب) وتأثرها بهذا الصراع ، يفرض نفسه ، ويدعوها الى البحث عن النجاة ليعيش « التاج مؤتلقا رهيبا » باعتباره رمزاً للسيادة والعزة والقوة من خلال الدين .

وقد عبّر عدد كبير من الشعراء في مصر عن هذا

(٧٠) ديوان الكاشف جـ ١ : ص ٣٧ ، ٣٨ .

الحدث ، وسجلوا تقديرهم للأستاذ الامام في وقفته الرائعة والسديدة ضد الهجمة الحاقدة من جانب « هانوتو »[٧١] وشارك شعراء آخرون في الوطن العربي في هذا المهرجان التكريمي للأستاذ الامام بجانب تناولهم بالطبع ـ للقضايا والمواقف التي فجرها الأستاذ الامام في رده ، وشرح علاقاتها بالإسلام ، الداعي الى الحضارة والعلم والمعرفة والتقدم ، ولعل قصيدة « أحمد زكي أبو شادي » والتي مرت بنا في العوامل الخاصة بالعودة الى التاريخ ، تعبّر عن ذلك بوضوح ، بيد أننا نورد هنا نموذجا لشاعر عراقي يسجل فيه إعجابه بالأستاذ الامام في دفاعه عن الإسلام ضد هانوتو . يقول الشاعر « عبد المحسن الكاظمي » في قصيدة بعنوان « لاشيء أفضل من يد لهدى البر تعمل » يمدح بها « محمد عبده » .

« هانوتو » يعرف كيف قمـ
ت بما افتراه تنكلُ
أفحمته ووقفت تحـ
ـكم بالدليل وتفصلُ
وهناك نصرانيّةٌ
جاءوا بها وتمحّلوا
فربأت بالإسلام أن
يعدو عليه الأجهلُ
أمحمد أنت الأخيـ
ـر لنا وأنت الأول
ولأنت حجتنا التي
طول المدى لا تبطل
ولأنت حياً منهل
ولأنت ميتا منهل
كالبدر من أي الجها
ت أتيته يتهلّل . .[٧٢] .

ولعل من المفيد قبل أن نترك هذا الجانب الدفاعي في عملية التأثر بالغرب ، أن نشير الى ما قام به الشاعر المفكر « محمد اقبال » باعتباره ملسيا غير عربي ، فقد تناول علاقة التأثر في أكثر من كتاب وأكثر من ديوان[٧٣] ولأنه كان من أنضج الذين تعرضوا لهذه القضية في العالم الاسلامي ، ولأن شهرته طبقت الآفاق ، فقد كان من الضروري أن نشير اليه ، ونذكر بالتحديد كتابه « تجديد الفكر الديني » الذي ترجم الى العربية ، وطبعت منه طبعات عديدة ، ولعل ما تضمنه هذا الكتاب من حوارات مع مختلف الرؤى والأفكار على الصعيدين

---

(٧١) يلاحظ أن حافظ ابراهيم كان من أوفر الشعراء حظاً وصلة بالأستاذ الإمام وقرباً منه ، ولعله كان أكثرهم تناولا للاستاذ الامام في قصائده ، وقد ذكر في بعضها موقفه مع « هانوتو » و « وأرنست رينان » كذلك القصيدة التي رثاه فيها ، ومنها .

تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغمزات
... ...
ووفقت بين الدين والعلم والحجا ... فأطلعت نورا من ثلاث جهات
وقفت « لهانوتو » و « رينان » وقفة ... أمدك فيها الروح بالنفحات
وخفت مقام الله في كل موقف ... فخافك أهل الشك والنزغات

« انظر ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ـ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٧٢) ديوان الكاظمي ـ المجموعة الأولى ـ الناشر حكمة الجادرجي ـ مطبعة ابن زيدون العراق « بدون تاريخ » ـ ص ٢٦٩ .

(٧٣) في شعر إقبال مواضع كثيرة عالج فيها العلاقة بين المسلمين والغرب ، منها حديثه عن الاتراك العثمانيين بعد أن أعجب بأتاتورك ، ثم نعج فيه . يقول اقبال : « صار العثمانيّ أميراً في بلده » :

قلبه مطلع ، عينه بصيرة
لا تظن أنه وجد الخلاص من قيد الإفرنج
فهو حتى الآن أسير في طلسمهم

الاسلامي والغربي ، جعلت من كتابه هذا موضع احترام وتقدير لدى المسلمين المثقفين - ومن بينهم الشعراء والكتاب بالطبع في كل مكان - ويكفي أن نذكر كيف عالج نظرة الأتراك مثلا الى عملية التجديد الديني ، وعلاقتهم بالغرب معالجة واعية وراقية من خلال شاعرهم المشهور « ضيا » والذى كانت له آراؤه بالنسبة للخلافة وعلاقة العلم بالدين ، والدين بالفلسفة ، ونظرته الى تحرير المرأة ، وتحمسه لمساواتها بالرجل ، واندفاعه الى إعلان رغبته في إحداث تغييرات جوهرية في أحكام الأحوال الشخصية في الإسلام ، وتعديل الطريقة التى تفهم بها هذه الأحكام وتطبق في هذا العصر ! يقول « ضيا » « عن المرأة » مثلا :

« هاهى المرأة ! أو أختى أو بنتى ، هى التى توقظ أنبل العواطف في أعماق وجودى !

هاهى حبيبتى ، هى شمسي ، هى قمرى ، هى نجمى . إنها هى التى تقدرنى على فهم شعر الحياة ! فكيف يمكن أن تعتبر شريعة الله المقدسة هؤلاء المخلوقات الجميلة كائنات حقيرة الشأن ؟ لابد أن يكون هناك خطأ في تفسير العلماء للقرآن .

إن الأسرة أساس الأمة والدولة ! ومادمنا لا ندرك حقيقة شأن المرأة ، فإن حياتنا القومية تظل ناقصة .

ان تنشئة الأسرة يجب أن تجرى على أساس العدالة . ولهذا لابد من مساواة المرأة بالرجل في ثلاثة أمور : في الطلاق والانفصال والميراث . ومادامت المرأة تعد نصف الرجل في الميراث وربعه في عدد الأزواج ، فلن ترقى الأسرة ، ولن ترقى البلاد . لقد فتحنا للقضاء محاكم وطنية تقضى في الحقوق الأخرى ، وتركنا الأسرة في أيدى مذاهب الفقهاء . ولا أدرى لماذا تخلينا عن نصرة المرأة ؟ أليست المرأة تعمل في سبيل البلاد ؟ أم يجب عليها أن تثور ، وتتخذ من إبرتها سلاحا فاتكا تنتزع به حقوقها من بين أيدينا ؟ »[٧٤] .

وواضح أن الشاعر التركى قد تأثر الى حد عظيم بتلك الحركات الأوروبية الداعية الى تحرير المرأة ، وساعده على ذلك مناخ التتريك والعلمانية الذى ساد تركيا في ظل حركة « الاتحاد والترقى » ، وأيضا ، فإن تركيا لم تكن وحدها التى ظهرت فيها مثل هذه الدعوة في العالم الاسلامى ، فقد كان هناك دعاة لهذه القضية (تحرير المرأة) في أماكن أخرى خاصة في مصر ، وأبرزهم « قاسم أمين » ، والذى كان لدعوته التى عرفت آنئذ باسم « السفور والحجاب » صدى عميقا في الشعر العربي بين مؤيد ومعارض[٧٥] .

سعداء من حكموا سحره

سعداء من لم يربطوا القلب بتياك الإفرنج

لا تكن يائسا واعرف ذلك

فالرجال كانوا قبلا وما زالوا وسيكونون كذلك

اعطوا الاتراك أملا جديدا ورهبة

ووضعوا أساسا آخر لعملهم

انهم كشفوا النقاب عن وجه القدر

لكن أين المسلم الذي يرى ؟!

(انظر ترجمة أرمغان حجاز للاستاذ سمير عبد الحميد ابراهيم - المكتبة العلمية - لاهور - باكستان - ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م - ٢٢٨ / ٢٢٩) .

(٧٤) محمد اقبال تجديد الفكر الديني « ترجمة عباس محمود » - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط ٢ - القاهرة - ١٩٦٨ م - ص ١٨٥ - ١٨٦ ، انظر الفصل السادس : مبدأ الحركة في بناء الاسلام في نفس الكتاب - ص ١٦٨ وما بعدها لترى نموذج المعالجة .

(٧٥) انظر مثلا قصيدة شوقي « بين الحجاب والسفور » في ديوانه جـ ١ . ص ١٧٦ ، قصيدته « كل الرجال » جـ ٢ : ص ١٦٦ .

وخلاصة الأمر أن التأثر بالغرب كان مسألة شاملة ، على مستوى العالم الاسلامي وعلى صعيد الفكر الديني ، وقد أفاد المسلمين والاسلام باستنفار القوى الفكرية والعقلية للدفاع عن الدين ، وجلاء القضايا المختلف عليها والمطروحة للنقاش ، وان لم يمنع ذلك من استنبات بعض القوى المؤيدة للغرب على طول الخط ، والتابعة له فكريا وثقافيا ، والمؤمنة بمنهجه السلوكي والحضاري ، سواء اتفق مع الدين أو تعارض معه . . وقد شهد الشعر ومازال أصداء لهذا التأثر بنوعيه السلبي والايجابي .

الجانب الثاني للتأثر بالغرب هو الجانب البنائي ، وقد شارك فيه المستشرقون وبعض الكتاب الأوربيين ، بالاضافة الى الكتاب المسلمين في العالم العربي والاسلامي .

وبالرغم من أن بعض المستشرقين قد قاموا - ومازالوا - بدور عدائي تعصبي يهدف الى تشويه الدين الاسلامي والانتقاص من قدر نبي الاسلام - صلى الله عليه وسلم - فان الاستشراق بصفة عامة قد ساعد من ناحية أخرى في اثراء النهضة الاسلامية والأدب الديني في القرن الرابع عشر الهجري . ويمكن أن نعتبر الدور الذي قام به المستشرقون في احياء التراث الاسلامي سواء ما يتعلق بالدراسات في القرآنية أو الحديث النبوي الشريف أو شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو الفقه الاسلامي أو التاريخ العربي أو الفلسفة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية أو علوم العرب أو الفنون الاسلامية أو اللغة العربية أو الأدب العربي . . دورا ذا قيمة رغم الأخطاء التي تشوب عملية الاحياء ، فقد نبهت الأذهان العربية والإسلامية الى دخول هذا المجال والمشاركة في احياء التراث ، وتصحيح الأخطاء التي يقع فيها المستشرقون وفقا لمفاهيم إسلامية أو تصور اسلامي صحيح[٧٦] .

كذلك فان دور الاستشراق في عملية جمع المخطوطات العربية والترجمة وانشاء المعاجم ودائرة المعارف الاسلامية ، كان دورا بناء أسهم في تنمية وعي المسلمين بأهمية الحضارة الاسلامية ودورها الرائد في القرون الأولى للإسلام ، وامكانية اعادة هذا الدور من جديد في المستقبل[٧٧] .

وقد عرف القرن الرابع عشر الهجري عددا من المستشرقين والكتاب الأوربيين المعتدلين الذين أنصفوا الإسلام والمسلمين ، ومازلنا حتى اليوم نرى بعضهم وهو يعلن في صراحة ووضوح قاطعين عن تقديره لدور الإسلام العظيم في صنع الحضارة الإنسانية ، وأصبح أمرا غير مستغرب أن نجد بعضهم يدخل في دين الإسلام ويصبح من أنشط الدعاة الى دين الله . ولعل من أبرز الأسماء في مجال إنصاف الاسلام ، ونبيه - صلى الله عليه وسلم - تلك المجموعة التي اشتهرت لدى الباحثين العرب والمسلمين مثل : سيرتوماس أرنولد ، صاحب « الدعوة الى الاسلام » ، وأميل درمنجم ، مؤلف « حياة محمد » ، وايتين دينيه وسليمان ابراهيم ، مؤلفا كتاب « محمد رسول الله » ، ور . ف . بودلي مؤلف « الرسول ، حياة محمد » ، وارلشنجتون أرفنج ، مؤلف حياة محمد » وتوماس كارلايل ، مؤلف

(٧٦) انظر عرضا مفصلا لهذه الجهود في كتاب :
د / أحمد سمايلوفتش - فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر - مطابع دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠ م - صفحات ٧٢ ، ١٨٦ .
(٧٧) لمعرفة المزيد من جهود المستشرقين راجع : د / محمود حمدي زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري - كتاب الأمة - العدد ٥ - قطر - ١٤٠٤ هـ - ص ٥٩ وما بعدها .
وفلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر - ص ١٥٦ وما بعدها .

كتاب « الأبطال » .... ولعل الحدث الذى شهده ختام القرن الرابع عشر الهجرى بإسلام « روجيه جارودى » الفيلسوف والكاتب الفرنسى الشهير ، يمثل مرحلة جديدة في مجال نظرة الغرب الى الإسلام والمسلمين ، وإن كانت هذه المرحلة بالطبع محدودة ولا تنفى أن النظرة القديمة مازالت تسيطر على مساحة كبيرة وعظمى من وجدان الجماهير الأوربية .

ان هؤلاء المستشرقين والكتاب المعتدلين ، سواء من ظل على مسيحيته أو دخل (الى عالم) الاسلام ، قد وضعوا بأبحاثهم وكتاباتهم أسسا جديدة وجيّدة للتعريف الصحيح بالاسلام ونبى الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن ظلت الصورة المشوهة للدين ولمحمد هى الأقوى لفترة طويلة أمام العين الأوربية .

ولعل السر في قدرة هؤلاء المستشرقين والكتاب المعتدلين على التغيير المحدود في النظرة الأوربية للإسلام ونبيه (ص) هو معرفتهم بأسلوب الخطاب الملائم للغرب ومهارتهم في ترتيب المعلومات التاريخية وعرضها عرضا جيدا ، فضلا عن انطلاق معظمهم في عرض المسألة من مفهوم محايد ، كما فعل « الكسيس كارلايل » حين تناول محمدا (ص) ، كبطل من أبطال التاريخ ، وأخذ يقيم تصوراته حوله من خلال أعماله وسلوكياته وأقواله ، ورغم الاختلاف بين التصور الإسلامى وحقائق التاريخ الإسلامى أيضا ، وبين ماذهب اليه كارلايل في بعض النقاط حول النبى صلى الله عليه وسلم فإنه يقرر منذ البداية خلافه مع النظرة التاريخية الأوربية الموروثة عن النبى (ص) ، ويقول في صراحة :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا .. »[٧٨] .

ويبدو أن « كارلايل » كان متأثرا بنظرة الشاعر الألمانى « جوته » ، حيث استشهد ببعض أقواله في ثنايا حديثه عن محمد (ص) ، و « جوته » يعد من أبرز عوامل « التأثر الغربى » بالاسلام والتأثير في المسلمين أيضا ، ولنذكر أولا أن ترجمة كتابات الغربيين في القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين لم تزدهر الا في القرن العشرين (الرابع عشر الهجرى) ، فتعرف القارىء المسلم على الكتابات الظالمة والكتابات المنصفة في آن واحد .

لقد تأثر « جوته » بالاسلام من خلال احتكاكه بالشرق ، ومحاولة البحث عن طريق للنجاة من حالة القلق والاحباط التى مر بها . بعد سقوط « نابليون » في موقعة « ووترلو » عام ١٨١٤م . وكان « جوته » معجبا بنابليون وعند سقوطه عانى من حالة نفسية عنيفة ، وبدأ الاتجاه للشرق يأخذ رغبة ملحة عبّر عنها في مسرحية « فاوست » لتتجه النظرة الصائبة نحو الشرق[٧٩] .

وكان الاتجاه نحو الشرق يمثل تعبيرا عمليا عن ظاهرة الاغتراب الروحى « التى يشعر بها الأدباء وتلك الحركة القوية التى انتشرت عند أصحاب النزعة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر الميلادى للهجرة الروحية الى الشرق » والتى شملت الكتاب والأدباء والفنانين من مصورين وموسيقيين ثم امتدت الى الفلاسفة ، وعلى

(٧٨) الأبطال ـ ترجمة السباعي ـ ص ٥٨ .
(٧٩) جوته ـ الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٤ م المقدمة : ص ٥ .

رأسهم ، « فريدريش اشليجل » الذى قال في البرنامج الخاص بالمدرسة الرومانتيكية « يجب علينا ان نبحث في الشرق عن اسمى المواد والصور الرومانتيكية » وهو يقصد بالشرق هنا بلاد الهند[٨٠] .

ويعد الديوان الشرقى للمؤلف الغربي ، الذى ألفه « جوته » من أشهر الأعمال الأدبية الأوربية التى ترجمت الى العربية ، ولقيت حفاوة كبيرة ، وتأثر به عدد كبير من أدبائنا العرب . وينقسم الديوان الى قسمين : الأول شعر والثانى نثر عبارة عن شروح وتعليقات لفهم الشعر . وينقسم القسم الأول الى : اثنى عشر كتابا هى : المغنى ، حافظ ، العشق ، التفكير ، الغضب ، الحكمة ، تيمور ، زليخا ، الساقى ، الأمثال ، اليارس ، الخلد وأروع ما في الكتاب الأول قصيدة « الهجرة » ويقصد بها هجرته الى الشرق ، وفيها يقول .

« الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تُثَلّ ، والممالك تتزعزع وتضطرب ،
فلتهاجر إذاً الى الشرق في طهره وصفائه . .
كى تستروح جو الهداة المرسلين !
هنالك حيث الحب والشرب والغناء
سيعيدك ينبوع الخِضْرِ شابا من جديد . . »[٨١] .

ولم يجد « جوته » في نفسه حرجا ، وهو الغربى المسيحى ، أن يعتبر نفسه مسلما يؤمن برسالة محمد (ص) ويدين الاسلام ، وبهذه الروح يتغنى في كتابه الأول من الديوان[٨٢] .

وفي كتاب « الخلد » يتوقف « جوته » عند النبى صلى الله عليه وسلم ـ ويتحدث عن الذين دخلوا الجنة من شهداء المسلمين الذين قتلوا في سبيل الله ، فيصور النبى (ص) بعد موقعة بدر وقد وقف تحت سماء صافية مرصعة بالنجوم يؤبّن الشهداء ، فيقول :

« ليبْكِ الكفّار موتاهم ، فقد ماتوا الى غير رجعة ، أما أنتم معشر المؤمنين فلا تبكوا إخواننا لأنهم صعدوا الى أعلى عليين في جنات النعيم ، ثم يصف كيف دخلوا الجنة وكيف ينعمون فيها . وهنا يفصل « جوته » القول في وصف الجنة وصفا دقيقا كالوصف الذى ورد في القرآن ، في سورتى « الرحمن » و« الواقعة » على وجه التخصيص[٨٣] .

و « لجوته » مسرحية بعنوان « محمد » كتبها بعد أن أطلع لأول مرة على ترجمة معانى القرآن للأستاذ « ماغزلين » فسحرته بلاغة سورة « ابراهيم » وأستهوته طفولة محمد (ص) ، فعكف عليها وخرج منها بهذه « الرواية التمثيلية » ـ كما سماها المترجم الأستاذ معروف الأرناءوط ـ وقد سببت له هذه المسرحية عداء شديدا من جانب خصومه الذين اتهموه بالكفر والالحاد والخروج على النصرانية ، وقد رد على ذلك برسالته التى عنوانها : « لماذا آمنت بمحمد » ، وذكر فيها أنه أحب محمدا (ص) كما أحب عيسى بن مريم عليه السلام وأنه يرى في الإسلام ديانة الخلق السامى الصحيح[٨٤] .

---

(٨٠) السابق : المقدمة ص ١ ، ٢ .
(٨١) الديوان الشرقي للمؤلف الغربي . ص ١٤ ، ٢٥ .
(٨٢) السابق : ص ١٨ ،
(٨٣) السابق أيضا : ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٨٤) الرسالة ـ السنة الأولى ـ المجلّد الأول العدد ١٤ ـ ص ٣٢ .

في الفصل الأول المشهد الثاني ـ يجري حوار بين محمد (ص) وحليمة السعدية مرضعته حول عزلته وعباد الله ، نجتزىء منه هذا المقطع .

« حليمة : أرأيت الله يابني ؟

محمد : وأنت ألا تبصرينه ؟ إنه غير بعيد عني ولا يبرح يتراءى لي عند الينبوع الدافق الهادر ، وتحت السرحة الغناء ، وفي الظل الرفيق البهي . . لقد توافى الي من عليائه فأحسست حرارة حبه وشق صدري وانتزع من قلبي حوباته حتى يتاح لي أن افهم معنى حبه !

حليمة : ولكنك تحلم ! اذن كيف يقدر لك أن تحيا ، وقد شق الله صدرك ؟

محمد : سأصلي صلاتي لله فلعله يضيء عقلك فلا يبدو لك حديثي غامضا مبهما .

حليمه : وأي إله هذا الذي تعبد ؟ أهو اللاّت أم هو هُبَل ؟

محمد : أي شعبي التعس ! إنك لتضل السبيل وتنزع الى الحجارة والأصلاد فتجعل منها إلها يُعبد ! ولكنني مازلت أحبك على شديد تعسك ، وهذا الحب الشديد العنيف هو الذي يحفزني الى مصارحتك بأن هذه الحجارة التي تصلّ لها لا تستطيع أن تستمع لك ، وليس في ميسورها أن تفتح لك ذراعيها .

حليمه : أين يسكن إلهك ؟

محمد : انه في كل مكان يا حليمة ! . . »[٨٥] .

وواضح أن « جوته » في هذه المسرحية يتميز بجرأة ملموسة ، حيث أجرى الحديث على لسان النبي (ص) قبل بعثته ، وأطلق لعنانه الخيال ، وجعله يتحدث بطريقة تفوق مستواه العقلي آنئذ ، ولكن قد يغفر له نبل هدفه الذي يتغيّا عرض الفكرة الاسلامية من خلال الحوار التمثيلي .

الى جانب هذه المؤثرات الغربية في الواقع الأدبي العربي ، وفي مجال الأدب الديني خاصة ، فقد قامت حركة أدبية بنائية ، تهدف الى كتابة السيرة النبوية بمنهج علمي ، تحقيقا وتأليفا ، متأثرة بالغرب فقد رأى الناس مثلا أكثر من تحقيق لسيرة ابن كثير وابن هشام ، مع شروح وتعليقات عملية ، مع نشر المدائح النبوية في العصور المختلفة بما فيها « المولد النبوي » الذي يعبر عن رؤية شعبية يمتزج فيها التصوف بالخرافة بحب آل البيت ، وأيضا رأينا أول مختصرات ومؤلفات للسيرة النبوية بلغة العصر . ولعل أول جهد في هذا المجال ما قام به « رفاعة الطهطاوي » في كتابه « نهاية الايجاز في سيرة سكان الحجاز » ، ويأتي بعدها أول مؤلف عصري ذي قيمة علمية ، وهو « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، ثم كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد ، وقد دخلت الكتابات الروائية والمسرحية وهي بضاعة غربية أصلا الى هذا المجال ، فكتب توفيق الحكيم كتابه « محمد » من خلال إطار مسرحي وكتب طه حسين « الوعد الحق » « وعلى هامش السيرة » وعبد الرحمن الشرقاوي « محمد رسول الحرية » وعبد الحميد جودة السحار « محمد رسول الله والذين معه » من خلال عرض روائي ، أو يتميز بالأداء القصصي . وبالاضافة الى ذلك فهناك من الكتب جعل

---

(٨٥) الرسالة المجلد الأول ـ العدد ١٤ ـ ص ٤٠ .

من همه تصحيح الأخبار التى وردت في كتب السيرة وتسربت الى المؤرخين ، كما فعل محمد لطفى جمعه في كتابه « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » وفي هذا الكتاب يصل المؤلف الى وصف النبى (ص) بأنه إشراق إلهى ويقول :

« فليس النبى إنسانا كغيره من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر الذى يلازمه المنطق ، والمنطق يصاحبه الشك ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ، ولكنه إنسان كوكبى يقرأ بمثل المنظار المقرب في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية الإلهية . لأن النبى إشراق إلهى على الانسانية يقومها في فلكها الخلقى ، ويجذبها الى الكمال في نظام هو صورة لقانون الجاذبية في الكواكب . ويجيء النبى (ص) فتجيء حقيقة الألوهية معه في مثل بلاغة الفن البيانى لتكون أقوى أثرا وأيسر فهما وأبدع تمثيلا .

وهـذا الرجـل الفرد إنما يخلقه الله ويكمله ويبعثه ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتى فتظهر بـه حقائق الكون العليا في صورة الإنسان العامل المنظور[٨٦] .

وهذه الرؤية تبدو أقرب الى نظرية النور المحمدى التى تجعـل وجـود محمـد (ص) سـابقـا عـلى وجـود المخلوقات وترى أن الكون قد خلق من أجله ، وهى نظرية يعتنقها الصوفية وبعض الفرق الإسلامية .

المهم ان الاهتمـام بسيرة النبى - صـلى الله عليـه وسلم - قد امتد على ساحة فكرية عريضة جعلت منه موضوعا حيويا وغنيا لا يتسرب اليه الملل ، ولا يسرب الضجـر الى النفـوس البـاحثـة أو المتلقيـة وقـد دارت دراسات شتى حول الكتب التى صدرت عنه - صلى الله عليه وسلم - في العصر نفسها مثلا : كتاب « محمد في الأدب المعاصر » الـذى كتبه فـاروق خورشيـد و أحمد كمال زكى وكتاب « محمد وهؤلاء » بقلم الشاعر أحمد عبـد المعطى حجـازى ، وتعـرّض للكتـابـة في مجـال السيرة ، وأشار الى ما يعنيه ذلـك حضاريـا . وقد رد مؤلفا الكتاب الأول على أصحاب المقولة التى تتهم أدبنا بالرجعية وفكرنا بالتخلف وتسمى حضارتنا ماشاء لها الهوى أن تسمى . . « ولكننا نعرف أنهم ما كـانوا الا لأننا كنا ، وأنهم مابنوا الا لأننا بنينا ، وأنهم ما يدعون هذا الذى يلوكونه الا ليبعدونا عن الطريق خوف انطلاق العملاق من جديد » ثم اننا « نعـرف أن أقوى مـا في حياتنا كلها دعوة الاسلام . . ونحن نعرف أن أروع ما في الاسلام أنه دعوة الأقوياء الى السلام » ونحن نعرف أن أجمـل مثال قـدمه الاسـلام هو شخصيـة صـاحب الرسالة محمد عليـه أزكى سلام[٨٧] ويتحـدث مؤلف الكتاب الثانى عمن يعتبـرون الكتابـة في الاسلاميـات « نوعا من الردة العقلية عن الفكـر العلمى الى الفكر الغيبى » ويـرد عليهم مخطّئـا اياهم بـأنهم يقفزون الى النتائج قفزا بغير احتياط أو تفكير ، وأنهم يظنون أن كل ظاهرة فكرية انما هى تعبير سلبى عن الواقع السياسى والاجتماعى ، وهذا الظن يفترض وجود « مجتمع ساكن خال من أى تناقض ، وفكـر تابـع يتأثـر ولايؤثر » . ويخلص الى القول : « إن ما كتبه المثقفون المصريون في سيرة محمد يضعهم في صف العقل والحرية لا في الصف المعادى للعقل والحرية »[٨٨] .

(٨٦) محمد لطفي جمعة « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء » - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة -١٩٤٨ م - ص ٥ / ٥ .
(٨٧) فاروق خورشيد وأحمد كمال زكي - محمد في الأدب المعاصر ط ١ - المكتب الفني للنشر - القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م ص ٤ .
(٨٨) أحمد عبد المعطي حجازي محمد وهؤلاء - الكتاب الذهبي - روز اليوسف بالقاهرة ١٩٧١ ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

وقد شارك عدد من الكتاب النصارى في العالم العربي في مجال السيرة النبوية ، منهم الدكتور نظمي لوقا ، نصري سلهب . .

ونعتقد أن هذه الكتابات البنائية حول الاسلام ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مابين مترجم ومحقق ومؤلف ، قد جعلت من الأدب الديني ، خاصة ما يتعلق بشخصية محمد (ص) ، أمرا واقعا وملموسا ، دفع الأدباء والشعراء الى البحث في جوانب هذه الشخصية ومعالجتها بألوان فنية متنوعة وقد رأينا في الشعر بالذات أكثر من عمل فني طويل يرصد الملامح المحمدية ويتناول خلالها تجربة ذاتية أو تجربة عامة وقد سبقت الاشارة الى اليانة محرم ، ومجد العرب وعظماء الاسلام لشوقي ومطولات حافظ وعبد المطلب وعبد الحليم البكري ، وفي هذه المناسبة يمكن أن نضيف ما كتبه كامل أمين وعامر بحيري ومحمد محمود زيتون وغيرهم . وقد عالجوا كتابة الملحمة المسرحية التي تدور حول شخصية النبي (ص) ، وسكبوا خلالها مشاعرهم وأحاسيسهم الخاصة والعامة ، ويمكن أن نأخذ نموذجا من مسرحية « ميلاد النبي » لمحمد محمود زيتون ، يعبر عن ملمح من الملامح في حياة الجاهليين ، يظهر ذلك التناقض الذي يحسونه داخل حياتهم بسبب تلك الازدواجية التي يعيشونها من خلال ايمانهم بوجود الله وايمانهم بالأصنام وسجودهم لها ، وهو ما تحدثت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى على لسانهم تعبيرا عن سبب عبادتهم للأصنام « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »[89] . ففي الفصل الرابع من المسرحية نرى هذا المشهد داخل الكعبة يضم أبا سفيان وهو يسجد للأصنام وأمية بن أبي الصلت الذي ينكر عليه ذلك :

أبوسفيان :

الى (اللات) والعزى) خفضنا رؤوسنا
.. وطفنا ببيت الله صبحا ومغربا
وهامت النفس التي طال شوقها
.. الى (هُبَل) والقلبُ مازال مُجْدِبَا

أميّة :

يا (أبا سفيان) لا تسجد له
.. وتَوَخَّ العقل في كلِّ الأمورْ
إنّه صَخْرٌ .. ولا يعنو له
.. غير قلب قُدَّ من ميْتِ الصُّخُورْ

أبو سفيان :

(أميّةُ) إن القلبَ مازال جامداً
.. على ما بنته أعصر ودهور

أمية : أمالَكَ من دينٍ سواه ؟

أبو سفيان : وكيف لى ؟

أمية : أترضى بدين ليس فيه شعور ؟

أبو سفيان : (أمية) دعنى من حجاك واعفنى فإني بالدّين الصحيح خبير .

أمية : لعمرك ما أصنام بيت نؤمه
بنافعة والحادثات كثير
ولكن (أبو سفيان) مازال عاقلاً .

أبو سفيان : بل القلب مني جامدٌ وكفورُ . . . الخ[90] .

ثم اننا نأخذ من هذا النص ـ ثانيا ـ فكرة تاريخية ـ بنائية ـ عن الفترة السابقة على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت الحياة العقدية في تلك الفترة ، وهو ما يعني أن جهود الشعراء العرب في الجانب « البنائي » للنهضة الدينية أدبيا وعَقَديًا كانت في مستوى المرحلة ، بل تفوقت عليها .

---

(٨٩) سورة الزمر آية ٣ .

(٩٠) محمد محمود زيتون ميلاد النبي ـ لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة مصر ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م ص ٦٩ ، ٧٠ .

إن هذا النص يعطينا أولا فكرة عن الصراع الذي تصنعه ازدواجية العبادة لله والأصنام ، بين أبي سفيان الذي يؤمن بهذه الازدواجية ولا يقبلُ بتحكيم العقل والمحاجة المنطقية وبين أمية بن أبي الصلت الذي يرفض هذه الازدواجية ويرفض عبادة الأصنام التي لا تنفع معتمدا على فطرته وبعض قراءاته في التراث القديم .

وعلى كل ، فإن الجانب الدفاعي والجانب البنائي في مجال نهضة الأدب الديني والشعر خاصة قد تضافرا بشكل ملحوظ ، لتصحيح مقولات عديدة حول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والدين الاسلامي ، ورموز هذا الدين (خاصة في مجال اللغة العربية)(٩١) ووضع الأسس الرائدة في مجال تعريب الألوان الأدبية القادمة من الغرب مثل المطولات والملاحم والمسرحيات وغيرها ، وإعطائها جنحية عربية وان لم تحقق الملامح الفنية الكاملة والمفترضة .

٤ ـ التجربة الذاتية :

تعد التجربة الذاتية من أهم روافد الشعر الديني في العصر الحديث ، فالشاعر يكون ـ عادة ـ أقرب الى التعبير الجيد حين تلتصق هذه التجربة بنفسه أو تنبع منها ، فيملك حينئذ قدرة تعبيرية أقوى من الشاعر الذي يتعامل مع التجربة الشعرية خارج ذاته . والدين أقرب الى النفس الانسانية بحكم الفطرة وغالباً ما يلجأ الانسان الى الله أو الدين حين يصيبه مكروه ، أو تلم به نازلة ، أو يساوره قلق ، والشاعر باعتباره واحدا من بني الانسان وأقدرهم على التعبير ، فإنه يسعى بصفة عامة الى المثال الذي تتحقق لديه السكينة واليقين والراحة النفسية ، فضلاً عن مطالبه الأخرى من الحياة .

وقد اتجه كثير من الشعراء العرب في القرن الرابع عشر الهجري الى التعبير عن همومهم الذاتية من خلال تصور إسلامي يرى في الخالق الأعظم الملجأ والملاذ الذي يحمي من الخوف ، ويقيل العثرات ، ويبعث الأمل لمواصلة الحياة الدنيا ، والاستعداد للآخرة .

وقد ساعد الشعراء على الاتجاه الى هذا اللون من التعبير ، عوامل عديدة منها طبيعة العصر الذي يعايشونه ، والظروف التي انعكست عليهم بفعل هذه الطبيعة ، والمواريث التي انتقلت اليهم عبر أجيال سابقة من تصورات ورؤى تحكم التعامل مع النفس والعالم الخارجي .

ان العصر الذي عايشه شعراؤ نا العرب كان أو مازال ـ يمثل مرحلة صراع ضار بين حضارتهم الاسلامية المهزومة ، وبين المدنية الغربية المنتصرة ، والتي تعبر عن انتصارها بصور متعددة ، مثل الاحتلال العسكري السافر ، أو السيادة الثقافية والعلمية والفكرية والتكنولوجية . . . وهذا الواقع الغريب لابد أن تكون له آثاره السلبية على كثير من الشعراء الذي يستشعرون الأخطار والأحزان قبل غيرهم من الناس ، وقد رأينا كثيرا منهم يعبرون في ثنايا قصائدهم عن معاني القهر والاستلاب والهزيمة ، وهذا التعبير يأتي عادة في صياغة ايجابية ، اذا ما كانت هنالك حالة مدٍّ نفسيّ يعيشها الشاعر فيدعو الى المقاومة والصمود والإصرار على تخطي العقبات ، ولكنه قد يأتي في حالة سلبية مغلفة بالأسى واليأس والحذر اذا كانت القدرة على المواجهة ضئيلة أو معدومة .

---

(٩١) يلاحظ أن الشعراء قد تباروا في الدفاع عن اللغة العربية وقيمتها التعبيرية خاصة بعد أن هوجمت هجوما عنيفا من رموز الاستعمار وأتباعه في مصر مثل السير وليم ، ولكوكس واللورد كرومر ودانلوب وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى وغيرهم ولحافظ ابراهيم قصيدته المشهورة التي نشرت عام ١٩٠٣ م ومطلعها .

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حَصَاتي ... وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي
رموني بعقم في الشَّباب وليتني ... عقمت فلم أجزعْ لقول عداتي
وَلدتُ ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاءً وأدتُ بناتي .. الخ

« ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٥٣ » .

في مثل تلك الظروف تكون العودة الى الذات أو التأمل الذاتي من خلال العزلة عن العالم الخارجي أمراً طبيعياً ، فيكثر شعر الزهد والمناجاة والتأمل في خلق الله والدعاء . قد لا يكون الشاعر مدركاً تماماً لواقع الهزيمة والاستلاب والقهر ، ولكنه يرى بالتأكيد ، أن التوجه الى الله فيه الفائدة كل الفائدة حتى ولو لم يكن هناك شيء يؤرقه أو يؤرق المجتمع من حوله . ومن ثم ، فإننا نرى كثيرا من الشعراء يتوقفون أمام « باب الله » الذي لا يرد سائلاً ومحتاجاً ، والسؤال هنا أو الاحتياج لا يتعلق بطلب شيء مادي ، ولكنه ينصرف الى طلب الخير والرحمة والمغفرة ، وكثيرا ما ارتبط السؤال أو الطلب « بالتوسل » بالحبيب المحبوب ـ صلى الله عليه وسل ، كما نرى مثلا في قول عائشة التيمورية :

إلهي سيّدي أنت الجليل
بباب رجائك العبد الذليل
ضعيف الحال منكسرٌ فقير
كثير الغيّ ناصرُه قليل
فأنت لذنبه ربٌّ غفور
كريم صفحه السامي الجزيل

•••

قصدت حماك تستر قبح عيبي
بسرّ المصطفى اني دخيل(٩٢)

ان الله سبحانه أقرب الى العبد من نفسه ، لذا تكون الشكوى اليه واللجوء الى بابه أمرا طبيعيا ولأن الشاعر يجد فيمن يسأله أو يشكو اليه صفة الخلود الذي لا يزول ، والثبات الذي لا ينمحي ، فانه أمام التغيرات الزمنية التي يعايشها ولا يجد فيها أملا حقيقيا يكون الأمل الحقيقي عند « باب الله » ، ولنقرأ هذه الأبيات لاسماعيل صبري باشا :

أنا يا الهي عند بابك واقفٌ
لا أبتغي عنه الزمان عدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمته
حاشا لجودك أن يكون قليلا
عَظُمَتْ آمالي وصغّرت الورى
من ذالها إن لم تكُ المأمولا
إني ليعجبني وقوفي سائلاً
إن كنت أنت السيّد المسئولا(٩٣)

وقد تتكاثر الهموم الخاصة على الشاعر ، كأن يرى قومه يتنكرون له ، والزمان يتجهّم في وجهه ويتحول من حال طيبة الى حال لا ترضيه ، فلا يجد ملاذاً إلا الله ، والتمسك بعروة الدين كي يتغلب على هذه الهموم التي لا تبرح مكانها . ولعل تجربة « البارودي » في هذا المجال أوضح التجارب ، فقد كان الرجل وزيرا وشاعرا مشهورا وصاحب مكانة مرموقة ، ثم قاد ثورة مع آخرين بزعامة أحمد عرابي ضد الخديو توفيق والإنجليز الغزاة . وفجأة تغيّر الوضع ليعيش الشاعر هزيمتين . هزيمة عامة من ملامحها : انكسار الوطنيين وسحق الثورة وتثبيت دعائم الاحتلال والحكم التابع للاحتلال ، وهزيمة خاصة تتمثل في فقدان مناصبه ومكانته ، ثم محاكمته وسجنه ونفيه بعيداً عن أهله وأصدقائه ووطنه ولذا نتقابل في ديوان البارودي مع قصائد أو مقطوعات تلهج بذكر الله والاستعانة به ، وتعبر عن الزهد وطلب العفو والغفران من خالق الناس . يقول « البارودي » مثلا :

إلام يهفو بحلمك الطربُ ؟
أبعد خمسين في الصبا أربُ ؟
هيهات ، ولّى الشباب واقتربت
ساعة وِرْدٍ دَنَا بها القربُ
فليس دون الحِمَام مبتعدٌ
وليس نحو الحياة مقتَرَبُ

•••

(٩٢) حلية الطراز ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٩٣) ديوان اسماعيل صبري باشا ـ إعداد : أحمد الزين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م ـ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

ثم يقول :

فتب الى الله قبل مندمةٍ
تكثر فيها الهموم والكُرَبُ
واعتمد على الخير ، فالموفَّقُ مَنْ
هذبهُ الاعتيادُ والدُّرَبُ(٩٤)

وربما كان الشاعر يعيش محنةً خاصة ، وهمًّا ذاتياً لا يعرفه أحد ، فلا يجد من يطلب نجدته إلا الله ، ويصبح الإفضاء إليه وحده بالسرّ ، « أمراً خاصاً » فيما بين الشاعر وبين ربّه ، باعتباره « عالِم الشكوى » ولو رجعنا الى « عائشة التيمورية » ، فسوف نراها تقول في احدى قصائدها « متوسّلة » بالحبيب الهادي ـ صلى الله عليه وسلم .

لعب الهوى بفؤاد صبٍّ نائي
وسقاه كأس لوعة وعناءِ
ما باله لزم الهوى حتى غدا
في الحبِّ لم يبرح عن البرحاء

●●●

ياعالم الشكوى وحرَّ توجعي
وإني عظيم القرح جُدْ بدوائي
بحبيبك الهادي سألتك دُلَّني
لعلاج أمراضي وجلْبِ شفائي
ثم الصلاة عليه ما هبَّ الصَّبَا
سَحَراً معطر سائر الأرجاء(٩٥)

ونحن هنا أمام شاعرة تشكو من أوجاع وآلام ، وتطلب من « عالم الشكوى » أن يجود بالدواء لأنها « عظيمة القرح » ، وأن يدلها على الدواء لتعالج الأمراض وتحقق الشفاء ، ولكننا لا نعرف أمراضها أو آلامها وأوجاعها ، وان كانت قد أشارت الى « القرح العظيم » ! ورغم ما يشير اليه « القرح العظيم » من هول ، فإن الشاعرة تحتفظ بطبيعته وكنهه وسره لنفسها .

ومن هذا القبيل ، ما عالجه « الرافعي » في بعض قصائده حين صرح بضيقه من الدنيا وقسوتها عليه ، وتكاثر الهموم من حوله ، دون أن نعرف ملامح هذه الهموم أو تلك القسوة أو ذلك الضيق . وله قصيدة مؤثرة في هذا المجال يتوسل فيها بصاحب الشفاعة العظمى ـ صلى الله عليه وسلم ، ختمها بتلك الأبيات .

رسول الله جئتك مستغيثا
وجودُك ضامنٌ أن لا أخيبا
متى تخضرُّ أيامي وتزهو
ويصبحُ عودُ آمالي رطيبا
فقد ضاقت بي الدُّنيا وهبَّتْ
فجائعها على قلبي هبُوبا
ومالي غير حبِّك من نصير
فَعَلَّ من العنايةِ لي نصيبا(٩٦)

وعلى العكس من ذلك نجد شاعراً مثل « بدر شاكر السياب » وقد دهمه المرض وأقعده طويلا ، وتغلب غريبا مريضا محتاجا ، فقد عبر عن كل ذلك بوضوح وصراحة وتفصيل ، كما نرى في قصيدته الطويلة « سفر أيوب » والتي ظهر فيها شعوره الديني واضحا ، وتسليمه لله مطلقا بعد مروره بمراحل فكرية متعددة كان فيها بعيدا عن الدين ، وعن الله . يقول في مطلع القصيدة :

لك الحمدُ مهما استطَالَ البلاء
ومهما استبدَّ الألم ،
لك الحمدُ إنَّ الرَّزَايَا عَطَاء
وان المصيباتِ بعضُ الكَرَم

---

(٩٤) ديوان البارودي جـ ١ ـ تحقيق الجارم ومعروف ـ دار المعارف بمصر ـ ١٣٩١ هـ ١٩٧١ : ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٩٥) حلية الطراز : ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٩٦) ديوان الرافعي جـ ١ (مصطفى صادق الرافعي) ـ ط ١ شرحه محمد كامل الرافعي ـ المطبعة العمومية بمصر ـ ١٣٢١ هـ ـ ص ١١٩ .

ألم تُعطِني أنتَ هذا الظلام
وأعطيتني أنت هذا السحرْ ؟(٩٧).

وفي الجزء الرابع من القصيدة نراه يتوجه الى الله بأن يحقق أمانيه ورغباته بعد أن أضناه الألم :

يارب أيوب قد أعيا به الدَّاء
في غرْبة دونما مالٍ ولا سكن ،
يدعوك في الدُّجَن
يدعوك في ظلموت الموت : أعياءُ
نَاءَ الفؤادُ بها ، فارحمهُ إنْ هتفَا
يا منجيا فلك نوح مزق السُّدَفَا
عنيِّ . أعدْني إلى داري ، إلى وطني !(٩٨).

وهناك من الشعراء من صرّح بمشكلته الخاصة ، أوهمّه الذي يعانيه ، دون أن يمثل في نظرنا أمرا ذا بال أو معبرا عن نوع من الهموم الطريفة ، ولكنه من وجهة نظر الشاعر يمثّل له أرقاً خاصة إذا كان يرى منافسين له أو حانقين عليه . ولعل من أطرف المشكلات أو الهموم التي طالعناها ، ما عبر عنه الشاعر « أحمد الصافي النجفي » حين أحس فيما يبدو بعدم التقدير لشعره وقلة الإشادة به ، ورغم تفوقه على كثير من أقرانه ، فقد صاغ مفارقة بين الكفر والشعر ، وصنع قصيدة تحمل عنوان هذه المفارقة « عالم الكفر وعالم الشعر » ، وقارن فيها بين دور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزو عالم الكفر بسلاح الحق ، ففتح الدنيا بعد أن هدم الأصنام ، وبين دوره ـ أي النجفي ـ كشاعر فتح الدنيا بشعره الذي يمثل شرْع الله وكتابه ، أو ينبع منهما ، والذي يتحدى القائلين به من خلال دواوينه التسعة أو آياته التسع كما صورها ، وأثبت هنا القصيدة بكاملها ، لنرى الى أيّ مدى استطاع الشاعر أن يمزج همّه « الطريف » بالرؤية الدينية :

محمّدُ جدّي قد غزا عالم الكفْرِ
وها أنا أغزو بعْدَه عالمَ الشِّعرِ
كلانا سلاحُ الحق كان سلاحهُ
فلا غرْو أن تخْفق لنا رايةُ النّصرِ
كلانا رأى دنياه ملأى زخارفاً
وزورا فأزرى الزور بالمنطق الحرِ
كلانا له الفتح المبينُ ، ففتحه
لدنياه ، ديني وفتحي لها شِعْرِي
كلانا رأى أصنام دينٍ ومنصب
فجاء على أصنام دنياه بالكسْرِ
لئن كان ربُّ القصر معبود شعرهم
فمعبودنا في شعرنا ، ربّةُ القصْرِ
زخارف أقوال ودنْيا ضَلاَلَةٍ
أليس لهذا الموت يارَبُّ من حشْرٍ ؟
محمد ذمّ الشعر قدما وأهلَهُ
ولو كنتُ لاستثنى بلا ريبةٍ شعْرِي
يمثل شعري شرعه ، وكتابه
كتابي ، وآياتي بأبياتي الغرّ
كلانا تحدى القائلين بقوله
ليقضي على بطل وأقضى على هذْرٍ
لشعري ووحي الأنبياء ملائك
اذا كان شيطانان للشعر والكفر
ولي تسع آيات ، دواوين تسعةٍ
حوَتْ شعريَ الدُّري في عصرنا الذرّي(٩٩)!

وهناك من التجارب الذاتية ما يحتاج الى وقفة طويلة لأنه يشكل ظاهرة ملحوظة لدى عديدين ، كما نرى مثلا عند « فدوى طوقان » ، والشاعر « صالح الشرنوبي » فقد مرّ كل منهما بتجربة حياتية ذات خصوصية وتميز ، والتجربة الذاتية هنا تعبر عن ذلك القلق أو التوتّر الذي يملأ أفق الشاعر ، ويغلّف حياته ، ويصبغ واقعه ، ومن خلال المعاناة يصل الشاعر بعد حين الى برّ السلامة

(٩٧) المجموعة الكاملة للسّياب : ٢٤٨ .
(٩٨) السابق : ٢٥٧ .
(٩٩) أحمد الصافي النجفي ـ اللفحات ط ٢ م ـ مؤسسة المعارف في بيروت ـ ١٩٦٥ ، ص ٩ وما بعدها .

واليقين ، ويرى في الخالق الأعظم الملاذ والملجأ والحقيقة المطلقة ، التي تملك أسرار الوجود ، وشفاء الموجودات روحيًا وماديًا أيضا .

في قصيدة طويلة عنوانها « طمأنينة السماء » تتناول « فدوى طوقان » ظروف الأسى والحزن التي عاشتها « وحيدةً » تعاني « جراح الزمن الغائرة » فتخرج من مخدعها الى الشرفة وتقلّب البصر في قلب الظلام ، فلا ترى « ومضة » ، ولا تستشعر الا « هزيز الريح » وأصداء القلب المحروم ، وتستفيض في الحديث عن « الوحشة » و« الأمس الغابر » و« حطام المنى » والغد المبهم والاغتراب والظمأ الكاسر ، وفي قلب هذا الجو المرعب الكئيب ، « ينشقُّ » صدر الليل عن كوكب مشعشع الوهج . . . :

كأن روح الله من فوقه
تمدُّه بنورها ، عن سخاءِ
فانخطفت في ذهلة ريحها
خلْفَ النهايات ، وراء الفضاءِ
هناك حيث النُّورُ لا ينتهي
هُناك ، حيث النور فوق الفَنَاءِ

هذا الذي حدث نتيجة التأمل الذاتي للشاعرة في داخلها وما حولها ينتهي بها إلى الطمأنينة والسكينة بعد أن عاشت في عالم « الوحدة » و« القلق » و« الأسى » و« الوحشة » ، وتختم قصيدتها بذلك الختام المعبر عن اليقين الذاتي :

هناك غشتها طمأنينةٌ
علويَّةٌ ، ما لمداها حُدُودْ
وصاح من أعماقها هاتفٌ
ينتظم الأرض صداه البعيدْ
يا أرض ، أهواؤك مهما طغت
وأقعدت خطوى بثقل القيودْ
يا أرضُ ، أحزانك مهما قَسَتْ
وطبقتْ حَوْلي مجالي الوجودْ
هيهات أن تلمس روحاً سَرَى
فيها من الله ضياءُ الخُلُودْ(١٠٠)

هذه الطمأنينة الألهية التي سرت في أعماق الشاعرة نراها كذلك لدى الشاعر « صالح الشرنوبي » ، وإن كانت هناك فوارق بين كل منهما ، على الأخص فيما يتعلق بأسلوب التعامل مع الحياة والأحياء ، فاذا كانت « فدوى » بحكم تكوينها الأنثوي ، تعيش واقعا محدودا ، يعتمد في تعامله على رد الفعل ، وانتظارا ما يأتي من خارج الذات وتأمله والحكم عليه ، فان « صالحا » عرك الحياة ، وامتزج بالمجتمع ، واصطلى بلهيب الصراع بين قيمة المضيئة المشرقة ، وبين واقع مليء بالزيف والظلام ، إذاً فهو يعمل على التأثير في هذا الواقع بانتقاده وطلب تغييره من خلال سخرية مريرة أو تساؤلات لها طعم العلقم ولون النصال الحادة من خلال استغاثته بالله ، يخاطب ربه في قصيدته « صلاة » قائلا :

يارب . . هذي الدَّارُ ملَّ نزيلها
فسلامها ألا يدوم سلامها ؟
الهين الميسور من أرزاقها
تنهال دون مناله آلامها
قلبي ؟ وما قلبي سوى أنشودةٍ
خلدتْ معانيها ومات كلامُها
روحي ؟ وهل روحي سوى أُنْشودةٍ
تغني على لهب الأسى أيامُها
شعري ؟ وأي قصيدة لم يَسْقِها
دَمعي . . ولم تَبكِ الورى أنْغامُها
يارب نفسي قد أطَلَّتْ سقامَها
ودولؤها في أن يحين حمامُها
أنا لا أذمُّ من الروايةِ بَدْءَهَا
لكن أقول متى يكون ختامها ؟(١٠١)

(١٠٠) الرسالة ـ السنة ١٧ ـ ١٩٤٩ ـ ص ١٠٩٦ ، وقد نشرت ضمن مجموعتها « وحدي مع الأيام » في المجموعة الكاملة ط ١ ـ دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م ـ ٥٣ .

(١٠١) صالح الشرنوبي ـ ديوانه تحقيق د . عبد الحي دياب ـ دار الكاتب العربي بالقاهرة ، بدون تاريخ ص ٣٧٥ .

ومع هذه النبرة الحزينة المتشائمة ، إلا أننا ندرك إيمان الشاعر بأن السلام والأمان والطمأنينة ليست عند الناس ، ولكنها عند الله حيث يكون جواره أحسن جوار . وفي تلك اللحظات التي يستقيم فيها مزاج الشاعر ، ويتعامل مع الواقع بهدوء وسكينة ، نراه يتحدث عن الذات الآلهية حديث المؤمن المدرك لما تملكه هذه الذات من فيوضات الرحمة والنعم :

وراء حدودِ الغيْب . . تهمي فيوضَهُ
على خافِقٍ في الصَّدرِ . . جدُّ جَهيدِ[١٠٢]

ويعبّر الشاعر رغم تمرده الذي قد يبدو أحياناً في بعض القصائد ـ عن حسن ظنه بالله لأنه رب الإحسان والتدبير ، وهو صاحب الفضل والتيسير ، وهو الأحق بالضراعة لأن إليه كل مصير ونفحات الله لا تنتهي . . مما يحتم على المسلم أن يستقبلها بقلبٍ طاهر :

أحْسِنْ الظنّ بالعليِّ الكبير
فهو ربُّ الإحسان والتدبير
واسأل الله فضلَه . . فهو ربُّ الـ
فَضْلِ . . واذكُرْ تيسيُره للعسير
وتضرعْ اليه في كل وقت
فإليه مَصيرُ كلُّ مَصير !
كلُّ حينٍ لربِّنا نفحاتٌ
فتعرَّضْ لها بقلب طهُور[١٠٣]

وينعطف الشاعر ، وهو في ذلك يعبر عن أشواق كامنة ، الى النفس أو الذات ليدعو المسلم الى التجرد من الهوى ، ورفض اليأس ، لأن اليأس أو القنوط من صفات الشيطان الرجيم :

لا تَدَعْ للهوى عليه سبيلا
فالهوى سيِّدُ الغوى الغرورِ
وامحق اليأس بالرجاء . . وسلّمْ
وَكِلِ الأمرَ للعليمِ الخبيرِ
إن شَرَّ النفوسِ نفسٌ يؤوسٌ
دائمٌ سخطهُ على المقدورِ
حالهُ في الحياةِ من حالِ إبليسَ
قنُوطٌ من الرحيم الغفور
إن معنى الإبليس من جعل اليأ
سَ من الله حظّهُ من الأمورِ[١٠٤]

وتتنامى تجربة « الشرنوبي » حين يصل الى الوقوف على « باب الله » كما رأينا من قبل عند عائشة التيمورية واسماعيل صبري باشا ، فنراه من خلال إحساس يشبه إحساس الصوفية ونداءاتهم يخاطب ربه بصيغة الجمع :

أنا بالبابِ واقفٌ . . فدعوني
أتطهّرْ بفيضكم . . وشُدُّوني
أنا بالبابِ واقفٌ . . وسأبقى
واقفا فاسْمَحوا . . ولا تحْرِمُوني . .
الخ[١٠٥]

وسوف نرى التجربة الذاتية تتعانق مع الموروث الصوفي باعتباره أقرب الى الوجدان الفردي ، فضلاً عن كونه يمنح الشاعر فرصة التعايش مع العالم الروحي السامي . والصوفية من جانب آخر تمثل نوعا من العبادة باعتبارها دعاءً وذكرا للخالق الأعظم ، سواء تم ذلك من خلال حلقات الذكر أو الإنشاد الشعري أو دقات الطبول أو المواكب الصوفية[١٠٦] وإذا كانت الصوفية قد تعرضت للهجوم من بعض علماء الدين ، خاصة حين غالى بعض الصوفية في مفاهيمها فإنها لم تعدم من يدافع عنها ، ومن يدافع عن اتباعها ، باعتبارهم يلزمون ، أنفسهم فوق الطاقة ، بما لا يلتزم به العاديون من الناس ، وهم

---

(١٠٢) السابق : ص ٤٧٠ .
(١٠٣) السابق أيضا : ص ٤٧١ .
(١٠٤) نفسه : ص ٤٧٢ .
(١٠٥) ديوان الشرنوبي : ص ٤٧٢ .
(١٠٦) السابق : ص ٤٧٤ .

يعيشون في صفاء ونقاء . يقول الشاعر « أحمد الشارف » في إحدى قصائده مدافعا عن الصوفية :

قَوْمٌ لديهم نُضْرة
تزينُ من لهم نظرْ
سادوا على كلِّ الوَرَى
واستسهلُوا صَعْبَ السَّفَرْ
أنوارُهُم مَهما بدتْ
تَزْهُو على نور القَمَرْ
ياليتي طُولي بهمْ
تستوجبي حسن الغرَرْ
ما أنستي الا بهمْ
يا عاذِلي كنْ في سقَرْ
ولو ملأت الكون لوماً
ماذاك عندي الا ذرْ
يا أهل تجريدٍ لقد
نلتم رضى الشيخ الأبَرْ
أستاذنا محمدٌ
الطاهِرُ الذي اشتهرْ
وما خفقت أعلامُهُ
إلا على أعْمَى البَصَرْ[١٠٧]

والشاعر هنا يهيم وجْداً ، ويدعو العذال ، ولا يعبأ باللوم ، ثم يبشر أهل الطريقة بنوال رضا الشيخ الأبر « محمد الطاهر » الذي ظهرت أعلامه واشتهرت . والشاعر « أحمد الشارف » رغم انحيازه الى الصوفية ، وأهل طريقته ، لا يدافع عن الصوفية المنحرفة أو الكاذبة ، بل يهاجمها ويرى أن « نور الشريعة » ـ فضلا عن نور الحقيقة ـ قد احتجب عن قلوبهم لأنهم تقاعسوا عن أداء الواجب وجعلوا من التصوّف حرفة للارتزاق ووقعوا في شَرَكِ المخادعة والتمويه والكذب ، وحين انكشف أمرهم في المدن ذهبوا الى البوادي والأماكن البعيدة ليضحكوا على البسطاء . يقول « الشارف » في قصيدة بعنوان « الصوفية الكاذبة » :

نور الشريعة عن قلوبهم احتجبْ
لا يَهْتدُون الى القيام بما وجبْ
جعلوا شعار ذوي التصوف حرفةً
يتكسَّبُون بها وبئس المكتسب
عمل لآخرةٍ قد طلبوا بهِ
دُنْيَا هو طلب المحبِ لمن أحبْ
لهجوا بألفاظ الحقيقة وانثنوا
يتمسوهون بها لمن لهم انتسبْ
من كيدهم نسجوا ثياب خديعةٍ
كي يجعَلُوا منها غطاء للكذبْ
لما تعذّر بالمدينة صيْدُهُم
نصبوا حبائلهم ببادية العربْ
إبليسُ آدم لا يزالُ ولم يَزَلْ
لبنيه يتبع أينما ذَهَبُوا ذَهَبْ[١٠٨]

وقد وجدت الصوفية في القرن الرابع عشر الهجري اهتماماً كبيراً لدى الشعراء لدرجة أن بعضهم قد أوقف معظم دواوينه أو أشعاره على الغزل الصوفي أو الانطلاق من المفاهيم الصوفية[١٠٩]، ولهذا لم يكن غريبا على رجلٍ مثل « زكي مبارك » أن يعلن وهو يتحدث عن خصائص ديوانه « ألحان الخلود » بأن الخصيصة الثالثة هي : « النزعة الصوفية » فأكثر القصائد في التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الإنساني ، وإنما كانت موحياتها من الجمال الربَّاني :

أحبُّك ياربِّ فهل أنت شافِعِي
الى سرحة في شطِّ دجلةٍ زهراءِ

---

(١٠٧) أحمد الشارف ـ دراسة وديوان بقلم علي مصطفى للمصراتي ط ١ ـ المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٢٦٤ .

(١٠٨) السابق : ص ٢٦٩ .

(١٠٩) انظر مثلا دواوين شعراء السودان المحدثين ، التي تموج بالتصوف وذلك يرجع إلى انتشار الطرق الصوفية في السّودان ، وانظر مثلا ديوان الرمزيّات للشاعر « الوطني الصوفي » المرحوم أبو الوفا محمود رمزي نظيم ـ كما وصف نفسه على غلاف الديوان ـ وكله يدور من خلال الأجواء والموضوعات الصوفية مع ميل إلى التشبيع كل البيت .

رأيت فنائي فيك حين رأيتها
تحاول إضلالي وتُنْشدُ إفْنَائي
ومن أنت يا ربي أجبني فإنني
رأيتك بين الحسن والزهر والماء(١١٠)

وإذا كان « زكي مبارك » قد وقف عند حدود التشبيب الصوفي ، فإننا نرى بعض الشعراء يتجاوزون ذلك الى عملية مزج الهمّ القومي أو الاجتماعي بالشوق الصوفي ، ولعل ذلك يظهر بوضوح لدى شاعر مقتدر مثل « عبدالله الطيب » الذي تكاد تكون معظم أشعاره رموزا صوفية وأشواقا روحية تشير الى الواقع السيء الذي يتقلبّ الشاعر على جمره ويهفو الى النجاة منه ، أو تغييره تماما ، ولنأخذ مثلا من بعض قصائده التي يعلن فيها عن هواه الصوفي واستخدامه المجاز للتعبير عن هذا الهوى . يقول في قصيدة بعنوان « طَبْلُ الصوفي » :

« صَبَرْنَا على حُلْوِ الحياةِ وُمرِّهَا
وفي النفس آمالٌ تريد مُرَادَا
كنَّيْنَا بأوصافِ النساءِ عن الهَوَى
مَخَافَتَهُ الا يُظَنْ سَدَادَا
ويدأنا دار الحفاظ جُدُودُنا
وكانوا يرون المكرمات تِلاَدَا
ولو أن من لين الكنانة غَضَةً
لدينا لقد طاب المُقامُ وجَادَا(١١١)

والشاعر يحمل قصائده الصوفية همومه من خلال جوّ صوفي ساطع ينبيء عن يقين قوي وثقة مطلقة في جنب الله ، لحل المشكلات والصعوبات التي تعترضه ، أو تعترض قومه . وهو يمثل الى حد كبير صوت الصوفية الايجابية ، بعكس آخرين يمثلون الصوفية في صورتها السلبية التي تنحصر في حدود الذات أو تلح على ملامح غير متفق عليها من أهل السنة . ففي قصيدة بعنوان « الخبالات » ، يشير الى رفض اليأس ، ويدعو الى الصبر وذكر الله القريب المجيب الدعاء ، من خلال ألفاظ الصوفية وطبول القادرية وضريح شيخه وحنينه الى الصحراء . يقول فيها :

وقدنّسِيَ القومُ السِّهام التي إذا
تراش لها رِزٌ مل الليل أرعن
وحيّاك عند البشر قومُك إنَّهم
لأكبادِهِمْ حقًّا عليك تحنُّنُ
فلا تأسَ واصبرْ واذكر الله إنَّهُ
قريبٌ مجيبٌ والدعاء يطمّنُ
وإن طبول القادرية لم تزلْ
إذا صَدَحتْ قلبي لها يتحزَّنُ
وزرت ضريح الأعشى الأغبشي بقفرةٍ
قواءٍ وقلبي للسباريت يركنُ(١١٢)

وفي بعض البلاد العربية يكون للطرق الصوفية تأثيرها الفعال في بناء الوجدان الشعبي بحيث تكون هناك رابطة قوية بين تلك الطرق ووجدان الناس ، وتقوم هذه الطرق باحتفالاتها الموسمية في الموالد والأعياد بتسيير مواكبها المعتمدة على الدفوف والطبول والأعلام والمنشدين ، وقد حَظيت هذه المواكب باهتمام الشعراء ، فرأينا من يصفها ويذكرها وقد رأينا بعض الملامح فيها اخترناه من نماذج للشاعر « عبدالله الطيب » ، وقد يوضح الصورة أكثر أن نورد هنا نموذجاً آخر يقف على وصف « موكب الصوفية » وهم يودّعون الحجاج الى بيت الله الحرام وزيارة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال وصف هذا الموكب نرى الشاعر يفصح عن أشواقه وتطلعاته نحو الأماكن المقدسة ، ويحمل وصفه معجم الصوفية ورؤاهم فيقابلنا « موكب الحب » و « الشعاع » و « خمرة الحقيقة » و « ذكر مبدع الأكوان » و « الدفوف » . . . الخ .

(١١٠) د . زكي مبارك ألحان الخلود ، ط ١ ، دار الكتاب العربية بمصر ، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م ـ المقدمة ص ٩ .

(١١١) عبدا الطيب ـ بانات رامة ط ١ ـ الدار السودانية ـ الخرطوم ـ ١٩٧٠ ـ ص ١٣١ .

(١١٢) السابق : ص ١٨٧ ، والأغبشي هو الدكتور « أحمد الطيب » رحمه الله ، والسباريت الصحاري .

يقول الشاعر « إبراهيم نجا » في قصيدة بعنوان : « من وحي الإيمان ـ موكب . . . » :

موكبٌ هزّ خاطري وجناني
وأثار الحنين في وجداني
وَدَعاني إلى البيان ، فهذا
ذوبُ قلبي سكبْته في بَياني
موكب الحبّ للذي خلق الحـ
ـبَّ ، وحلّ به بني الإنسانِ
موكبُ الحبّ للرسول الذي جا
ءَ لنا بالهُدى وبالفرقانِ
صاغهُ الله من سَنَاه شُعاعاً
باهر النور ، ساحر الألْوَانِ
لم تجدْ مثله القلوب ، ولم تنـ
ـظُرْ الى مثلِهِ العيونُ الرواني
وَبَرَاهُ من رقةٍ وصفاء
وسلام وَرَحْمَة وحَنانِ
فهفتْ نحوه القلوبُ سِراعاً
كطيور تجدُّ في الطيرانِ

● ● ●

وقلوبٌ مرغّاتٌ من الشو
ق ، سكارى بغير بنت الدّنان
شربت خمرة « الحقيقة واهتزّ
تْ على « ذكر » مبدع الأكوان
كل من ذاقها فقد عاش ما عاش
بَعيداً عن حُرْقَةِ الظمآن
ووجوه ، تكاد تنطق بشراً
حين نالت ما تشتهيه الأماني
والدفوف التي ترنُّ رنيناً
هو أشْجَى من رنين العيدان[113]

والشاعر « ابراهيم نجا » في هذه القصيدة التي يعبّر فيها عن أشواقه الخاصة نحو النبيّ ـ ﷺ ـ يصدر عن مزيج من التصوّر الايماني الصوفي ، مع وعي بأشواق ، الوجدان الشعبي خاصة في مصر ، حين تتهيأ تلك المواكب لتوديع الحجاج والمسافرين إلى الأرض المقدسة ، فلهذه المواكب طعم خاص ، يرتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر الناس نحو الأماكن المقدسة ، وهذه المشاعر عادة تكون متدفقة وفياضة ، ويكون هنالك إحساس عام بأن الرحلة الحجازية تحقق الصفاء والنقاء والطهارة للحجاج فضلا عما يصحبها من وقوع الفراق والرحيل . وهكذا يكون الموكب المودِّع ـ بكسر الدال ـ ممتلئاً بالمشاعر المتناقضة ، بين فرحة الرحيل للقاء الحبيب ـ ﷺ ـ والكعبة الزهراء وللإحساس بالولادة الجديدة ، وبين حزن الفراق والخوف على الراحل الكريم . . ومن ثَمَّ ، فإن الشاعر حاول أن يعبر عن ملامح هذا الموقف ببعض الخصائص التي ينفرد بها المصريون عند الرحلة الحجازية ، فبينما يفرحون بالمرحلة نجدهم يبكون شوقا إليها ، وإشفاقا منها أيضا ، وبينما تتصاعد « الزغاريد » ، والأهازيج ، تجهش الصدور وتسحّ العيون . . ولم يستطع الشاعر في الأبيات التالية أن يستوعب كل ملامح الموقف ، فعرضه من خلال تقديم بعض الملامح الصادرة عنه كردّ فعل للموكب ، وأسمعنا صوت الدفوف الشجي الهادىء الذي يملأ النفس بالخشوع فتبكي بدموع غير منظورة ، ويسمع الزغاريد والأغاني ، فينسجم معها بوجدانه وقلبه :

والدفوف التي ترنّ رنينا
هو أشجى من رنّة العيدانِ
هادىء الوقع في القلوبِ ، مثير
حين نصغي إليه بالأذان
يملأ النفس بالخشوع فَتَبكى
بدموع لم تُبْدِها العينان

---

(١١٣) الرسالة ـ السنة ١٨ ـ ١٩٥٠ ـ ص ٣٥ .

والـزغـاريـدُ وهـي تـأسـرُ قـلْبـي
والأغـاني ، ومـا أرقّ الأغـاني . .(١١٤)

ان التجـربـة الـذاتيـة للشـاعـر بمـا فيهـا التجـربـة الصوفية ، بل وتجربة التشيع لآل البيت وما تحمله من أبعاد ودلالات ، قد أسهمت بقدر كبير في اثراء الشعر الديني وساعدت على نهضته بجانب العوامل الأخرى ، وسوف نلاحظ أن التجربة الذاتية ، قد ارتبطت الى حد كبير بشخصية الرسول ﷺ ـ باعتباره الشفيع والمتوسل به عند الله سبحانه وتعالى .

خاتمة

بعد هذه الرحلة الخاطفة مع عوامل نهضة شعرنـا الـديني في العصـر الحـديث ، يتضـح لنـا أن الشعـر الإسلامي يمثّل محوراً هاما في مجال التعبير عن العاطفة الدينية بصفة خاصة ، وفي مجال نهضـة الشعـر العـربي الحديث بصفة عامة ، وإذا كنا قد آثرنا تيسيراً للبحث أن نحـدّد عوامـل أربعـة كـانت وراء النهضـة الشعـريـة الاسلامية في العصر الحديث ، فـإن ذلك لا يمنـع أن تكون هنالك عوامل أخرى غيرها ، ولا يمنع أيضا أن تتداخل هذه العوامل ، وتشكل منـطلقا ـ في المـاضي والحاضر والمستقبل ـ لإثراء التجربة الشعريّة العربيّة ، ومنحها المزيد من التمدّد على مساحاتٍ جديدة في الفنّ الشعريّ .

صحيح أن صوت هذه النهضة الشعرية في المجـال الإسلامي قد خفت إلى حد ما في العقود الأخيرة ، وحلّ محله أكثر من تصوّر ، وأكثر من اهتمام بحكم الظروف السياسية والاجتماعية التي تمـر بها الأمـة العربيّـة . . ولكن هذا لا يمنع أن يتجّه الشعراء العرب مرة أخرى إلى معين الإسلام الـثرّ ، واستلهامـه بجسارة وجـرأة من خلال تصور صحيح في البناء الشعري وتجديده .

لقد شهدت حركة الشعر طوال القرن الرابـع عشر الهجري مدّاً هائلاً في استلهام الإسلام والانطلاق منه للتعبـير عن هموم الأمـة وآمالهـا ، وتقـديم التجـارب الشعـريـة المتنـوّعة بصـورة حققت الكثير من التفـوّق والامتياز . . ولا شيء يعوق عودة هذا المدّ مرةً أخرى ، وبخاصة على أيدي الشعراء الموهـوبين الـذين يملكون طاقة شعرية عالية ومتوهجة .

وأعتقد أن بعض العوامل المؤثرة والدافعة للنهضـة الشعرية على أساس اسلامي ما زالت قائمة ، إن لم يكن كلها ، فالعوامل الفنية مثلا ما زالت تستدعي أن يجوّد الشعـراء الإسلاميـون من خـلال النمـاذج الشعـريـة الجديدة ، بعد أن تعددت التجارب الفنية وتنوعت ، وكذلك الحال بالنسبة لعوامل استدعاء التاريخ ، والتأثّر بالغرب والتجارب الذاتية . . فهذه كلها ما زالت قائمة في الوجدان العربي الإسلامي المعاصر بكل ما تحمله من آثار ومؤثرات .

ولا شك أن شعراءنا المجيدين والذين يملكون تصوّراً إسـلاميا نـاجحا ، يعـرفون طـريقهم جيّدا إلى منبـع الاسلام الذي يروي العطاش ، ويشبع الصادين .
هذا ، وبالله التوفيق ، ، ،

***

(١١٤) المصدر السابق .

صدر حديثا

دانتي: محبا للأساطير والحكمة

تأليف: باتريك بويد
عرض وتحليل: رشا الصباح

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨١م عن دار نشر جامعة كمبردج في بريطانيا في ٣٨٥ صفحة ، ويشتمل على مقدمه وثلاثة أجزاء تتناول على التوالى :

أولا ـ الانسان والكون ، حسب منظور دانتى الذي يعكس الى حد بعيد آراء العلماء والفلاسفة الغربيين في العصور الوسطى الموروثة عن معتقدات ونظريات المدرسة التقليدية للفلسفة الاغريقية ـ الرومانية ـ ويتناول بويد مفاهيم دانتى ومعاصريه حول طبيعة الانسان والكون من حيث :

أ ـ المعرفة والإيمان بالمعجزات .

ب ـ العناصر الأربعة (الهواء والماء والنار والتراب) .

جـ ـ العلوم المتعلقة بالظواهر والأحوال الجوية .

د ـ اليابسة والبحر .

هـ ـ الطبيعة والوجودية .

و ـ السماوات .

ز ـ الملائكة .

ثانيا ـ خلق الانسان :

أ ـ الله بوصفه الخالق الأزلي .

ب ـ عملية خلق الكائن البشري ، كما جاءت في الانشودة التاسعة والعشرين من كتاب الفردوس في الكوميديا الالهية .

جـ ـ التولد والطبيعة الكونية .

د ـ المواد والعناصر التي صنع منها الانسان .

---

* العنوان الأصلي للكتاب :

Dante, Philomythes and Philosopher: Man in the Cosmos, Cambridge University Press, Cambridge, U.K. 1981.

ثالثا ـ الملاحظات :

ويحتوي هذا الفصل على الهوامش والاختصارات والاقتباسات والمراجع . كما يتضمن قائمة ببليوغرافية ، يشير المؤلف من خلالها الى عدد من الكتب والدراسات الاضافية مقترحا على القارىء الاطلاع عليها . وينتهي هذا الفصل بقائمة تفصيلية لمحتوى الكتاب . . .

* يبدأ باتريك بويد ، أول مايبدأ ، بقوله ان ليس هنالك من جديد في ذلك الزعم القائل باستحالة دراسة شعر دانتي منفصلا عن دراسة فكره . فلقد نجح الناقد بنديتو كروتشه في إقناع جيل كامل من النقاد بأن كلا من الاطار الايديولوجي للكوميديا الالهية ومحتواها انما يعدان العقبة الكؤود في طريق التعبير الحر عن عبقرية دانتي . لكن محاولة كروتشه لاستبعاد أمور الشكل والمضمون والسياق من أي مناقشة للقصيدة باعتبارها شعرا ـ محاولة ارتدت الى عكس ما كان يرمي اليه ، ذلك ان هذه المحاولة لم تنجح الا في اقناع اللاحقة له من الدارسين بأهمية هذه الأمور واستحالة تناولها منفصلة عن بعضها الآخر . هذا ، فضلا عن انه في عام ١٩٨٤ ، لم يعد هنالك من يستخف بما اطلقه قراء الكوميديا الالهية على مؤلفها من صفات عدة نسوق منها مايلي :

« انه لفيلسوف من الطراز الأول ، مع انه كان رجلا من عامة الناس »(١)

« رجل له من الفكر ثاقبه ومن الذاكرة حاضرها ومن الدراسات ماهو أكثر دأبا واجتهادا »(٢)

« لاهوتي لا تخفى عليه من امور العقائد والمذاهب خافية »(٣)

« فيلسوف شاعر بحكم الصنعة »(٤)

ولقد تركزت دراسات بويد التي قام بها لأعمال دانتي ، في المقام الأول ، حول عبقريته كشاعر غنائي ، بمعنى انه تناول في أكبر قدر منها ، أشعار دانتي التي خلد فيها محبوبته « بياتريشي » وهي تلك الأشعار التي نظمها في وقت سابق على ظهور الكوميديا الالهية .

وعلى كل ، فالكتاب الذي بين أيدينا يعد نقطة تحول في النهج النقدي الذي سلكه باتريك بويد في تناوله لأعمال دانتي . ذلك ان الغرض الذي انتواه في هذه الدراسة يكمن في اصراره على ان دانتي كان في المقام الأول شاعر الحياة الفكرية ، وانه قد استثمر أكثر الملامح تميّزا في شعره الناضج من خلال تعمقه في دراسة الفلسفة . ومصداقا لهذه النظرية ، فان باتريك بويد ـ في مقدمته لهذا الكتاب ـ يبسط أمام قارئه مخططا أوليا حول فهمه الشخصي للعلاقة المتبادلة بين ماهو محض معرفة وبين ماهو شعر خالص في الكوميديا الالهية . ويتمثل هذا الفهم في تلك المقارنة المستفيضة التي يعقدها بين دانتي من ناحية وبين الشاعر الروماني لوكريشيوس(٥) من ناحية أخرى .

وقد يبدو اختيار بويد للشاعر لوكريشيوس طرفا في هذه المقارنة ، أمرا غاية في الغرابة بالنسبة للمختصين في

---

(١) Cf.G. Villani **Cronaca** IX p.136

(٢) Cf Boccaccio **Vita di Dante XX**

(٣) Cf Giovanni del Virgijio,First line of Dante's epitaph

(٤) Cf Marcilio Ficino, **Prohemio Sopra La Monarchia**... ed. P.A. Shaw, Studi Danteschi, 51 (1978) , P.327

ـ (٥) شاعر روماني تزاوجت عنده الفلسفة والشعر ، وقد أسفر هذا التزاوج عن قصيدته الفلسفية (في طبائع الأشياء) وكان متأثرا ايما تأثر بالفلسفة الابيقورية .

دراسة دانتي ، هذا ان لم يكن أمرا مستوجبا لدهشتهم ذلك لأن الشاعر الذى يرد ، عادة ، في الحسبان عند عقد أي مقارنة بين دانتي وأي شاعر آخر ـ انما هو الشاعر اللاتيني الأكبر فيرجيليوس ، صاحب الانياده . أما الشاعر لوكريشيوس فأمر مستبعد تماما . وآية ذلك ان نقاط التلاقي بين دانتي وفيرجيليوس الذى ينظر اليه دانتي على انه « نموذج الحكمة البشرية » ـ نقاط كثيرة كثيرة يعزّ على ان أضمنها دفتي هذا العرض الوجيز للكتاب الذى نحن بصدده . غير أن أبرز هذه النقاط يمكننا ان نجملها فيما يلي :

أ ـ لقد أوسع دانتي أعمال فيرجيليوس دراسة وبحثا ، وكانت أشعاره قريبة الى نفسه ، وكان يستظهر معظمها .

ب ـ هنالك بيت معروف في الكوميديا الالهية ، يمكننا ان نعتبره خير مثال على القول بأن دانتي قد اتخذ من هبوط اينياس الى العالم الآخر ـ كما ورد وضعه في الانيادة ـ اتخذه نموذجا له في رحلته الخيالية الى الجحيم في **الكوميديا الالهية** ، أو انه على الأقل قد تأثر بهذا الوصف وافاد منه الى أبعد الحدود[٦] .

جـ ـ لقد كان دانتي يكنّ لفيرجيليوس احتراما عميقا ، مبعثه احساس ما بأن هنالك قرابة روحية وشعرية تربطه بهذا الشاعر العظيم ، وهى قرابة يترجمها ما بين الشاعرين من تشابه وتلاق في كثير من النقاط والمواضيع ، وقد تجلى هذا الاحترام في إيثاره فيرجيليوس دون سائر الشعراء فاصطفاه له دليلا في رحلته الخيالية عبر عوالم الآخرة ، سواء في هبوطه الى أغوار الجحيم أو في صعوده الى قمة جبل الأعراف (المطهر) حيث التقى بحبيبة قلبه بياتريشى . لكن بياتريشى تضطلع بمهمة الدليل بدلا من فيرجيليوس ، فتأخذ بيد دانتي وتصعد به الى أعالى جنان الفردوس .

د ـ وهذا الاحترام العميق الذي يكنّه دانتي لفيرجيليوس ، وكذلك اعترافه بالفضل له في تكوينه الشعرى ، فضلا عما كان للشاعر اللاتيني العظيم من أثر عميق في حياته وأعماله ـ هذه الأمور مجتمعةً لا تظهر لنا جلية في أي موضع من أعمال دانتي بقدر ماتظهر في تلك الكلمات التي يزجي فيها التحية لأستاذه فيرجيليوس ، حين يلتقى به للمرة الأولى ، وهو مقبل على رحلته الخيالية ، بالكوميديا الالهية :

« أحقا ، اذن ، أنت ذلك ال « فيرجيليوس » ؟ هل أنت حقا ذيّاك الينبوع المنبجس عن نهر من ثرّ الكلمات ؟ يافخر جميع الشعراء وشعلتهم . . . هأنذا استهدى خطاك .

شفيعي وشفيعي في هذا ما أنفقته في سفرك من طول دراسة ، وما أضمره لشخصك من حب صاف شجعني ان أبحث فيه . . . . أنت أستاذي . . . وكاتبي الأثير . . . . يا من عنه وحده أخذت ذلك الأسلوب الذى نفحني جماله بأسباب الشرف » .

لكن باتريك بويد يذهب الى انه من الجائز الا يكون دانتي قد سمع بمجرد سمع ـ باسم لوكريشيوس في الوقت الذي كان فيه على معرفة وثيقة وصداقة حميمة مع أعمال فيرجيليوس . كما يذهب الى ان دانتي ، وهذا في حكم المؤكد ، لم يكن يعرف سوى أبيات معدودة من رائعة لوكريشيوس المسمّاة : « في طبائع الأشياء » **De Rerum Natura**

(٦) « ولكن لم أذهب هناك ؟ ومن ذا الذي يمنحنى هذا ؟ اني لست اينياس ولا بولس لا أنا ولا غيرى يعتقد اني بهذا جدير » . الكوميديا الالهية : الجحيم ، الانشودة الثانية (٣١) ترجمة حسن عثمان ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

ناهيك عن ان المصدر الوحيد لمعرفته بهذه الأبيات كان من خلال تلك الشواهد التي كان يرددها أثناء الدرس أحد أساتذة اللغة اللاتينية ايضاحا لقاعدة نحوية ما ، أو ربما يكون سمعها على لسان أحد آباء الكنيسة ، ذلك أن هذه القصيدة على أيام دانتي ، لم يكن موجودا منها سوى نسخ ثلاث تقبع مقبورة ببطون مكتبات الاديرة القائمة في شمال الألب .

أما والأمر هكذا ، فما هو السبب الذى حدا بباتريك بويد أن يجعل من لوكريشيوس نموذجا للمقارنة مع دانتي ؟ ذلك انه اذا كان هنالك من وجه شبه جوهري بين « في طبائع الأشياء » وبين الكوميديا الالهية ، فمن البدهى استحالة عزو هذا الأمر الى تأثر العمل الثاني بالعمل الأول تأثرا مباشرا ، طالما انه كان في حكم الاستحالة اطلاع دانتي على ما كتبه لوكريشيوس فضلا عن عدم سماعه به أصلا.. اذن . . . قد يكون وجه الشبه بينهما الذى حدا بباتريك بويد الى عقد هذه المقارنة كامنا في أمر له وجاهته . إن منطق الأشياء يقول بأنه ليس من المستغرب أبدا ان يتوصل رجلان في مثل عبقريتهما وتقارب مزاجهما الى نتيجة مماثلة لتجربة مماثلة عاشها كلاهما ، سواء أكانت تجربة شعرية أم حياتية أم سياسية أم فلسفية ، خاصة وان كلا منهما قد عايش ظروفا ثقافية متماثلة الى أبعد الحدود في كثير من جوانبها الرئيسية ، وان باعد الزمن بينهما .

•••

الواقع ان رائعة دانتي عمل روائي يتناول قصة لا يمكن النظر اليها الا على أنها مجرد إطار لجملة من الأقوال والآراء الفلسفية الطافية على السطح على أيام دانتي . وكان قوام هذه الآراء والأقوال ما قال به فلاسفة اليونان والرومان وفلاسفة المسلمين . . من هنا فإن تناول بويد لهذه القصيدة ، مع أهميته لسائر الدارسين ، أمر على درجة كبيرة من الأهمية للقارىء العربي . ففضلا عن إفساح المؤلف مجالا لابراز وجوه الشبه بين دانتي ونظيره الرومانى لوكريشيوس ، ملقبا كليهما « بالشاعرين المتفلسفين » ـ فانه لا يهمل في تناوله لأعمال دانتي البعد العربي أو الاسلامي ، أى آراء فلاسفة المسلمين ونظرياتهم التي تمثلها دانتي في قصيدته الروائية ، إن سلبا وإن إيجابا ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ففي ميدان علم الفلك أو علم الهيئة ، على سبيل المثال تعلم دانتي وهو في سن مبكرة نسبيا ـ أى وقت أن أخرج كتابه « الحياة الجديدة ـ » تعلم من العالم العربي الفرغاني[٧] حساب التقاويم السورية والعربية ، وبالتالي تعلم منه الكثير من الطرق المتعلقة بحساب السنين (انظر : الحياة الجديدة ٢٩/١) . كما أخذ عنه الجدول الفلكي لبطليموس ، وهو الجدول الذى يقول ان بالسماء ١٠٢٢ نجما يمكن رؤيتها بالعين المجردة اذا ما نظر اليها من خط عرض « مصر السفلي » . ولقد اعتبر دانتي هذا الجدول جامعا مانعا لعدد النجوم الموجودة في السماء الثامنة . وعن الفرغاني أيضا ، أخذ الأفكار المتعلقة بالمناطق السبع المأهولة على الأرض . (المسائل) (انظر : الخ ،) **Quaestios 5, 16,** فضلا عن المعلومة المتعلقة بالسماء الثامنة أو السماء النجمية المشكلة للفلك الخارجي والسماء التاسعة وهى المعلومة التي اقتفى فيها أثر الفرغاني وبطليموس وأسماها (المحرك الأول)

وهنالك جانب آخر في فلسفة دانتي نجده متأثرا فيه أبلغ التأثر باسهاب على الصفحات (١٩٥ ـ ١٩٧)

---

(٧) هو العالم العربي أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير ، فلكي عاش في القرن التاسع الميلادي ، ومن مؤلفاته : جوامع علم النجوم والحركات السماوية .

ولاشك ان فلاسفة المسلمين تأثروا في تناولهم لهذا المفهوم بفلاسفة الاغريق ، وخاصة أفلاطون وأفلوطين .

●●●

يرى أفلاطون ـ في أسطورته الطويلة التي دبّجها عن فعل الخلق ، والتي تشكل كامل مادة محاورته طيماوس ـ ان القانع الأعظم قد استعان في خلق الأشياء بالاجرام السماوية ، تلك الكائنات التي يتعامل معها على أنها كائنات إلهية . كما استعان بالمثل بالالهة الادنى منزلة منه ـ وفقا للميثولوجيا الاغريقية بالطبع. ويرى أفلاطون أن الأشياء المادية لا تعد لكونها صورا للنماذج الأصلية الكونية . ويتعين على القاريء لفهم هذه الأسطورة الاطلاع على هذه المحاورة (والاطلاع بالمثل على محاورة فايدروس التى تتناول قضية الابداع الفنى ونظرية المحاكاة) .

وقد اعترى هذه الاسطورة قدر كبير من التغيير والتحوير على يد فلاسفة الافلاطونية المحدثة ، وخاصة أفلوطين . فقد تصور هؤلاء فعل الخلق على أنه (فيض) أو « انبثاق » أو « انبجاس » عن الواحد . فها هو أفلوطين (المتوفى عام ٢٧٠م) يقول بثلاثة شخوص أو أقانيم للخلق هي : الواحد ، الروح (العقل)[٨] . . . النفس والواحد هو الذى يعلو ولا يعلى عليه ، اذ يعلو على الكون بأسره لأن الكون مترتب على وجوده . وعن الواحد يصدر الروح ، وعن الروح يصدر النفس ، والنفس هي المسئولة عن تكون الأجسام في العالم المنظور ، وهي ضمنا مسئولة عن مادة الكون بأسره .

وقد أثرى فلاسفة العرب هذه النظرية التوليفية ، أيما إثراء ، بل إنهم قد انقطعوا لشرح أطرافها واستجلاء غوامضها . كما أنهم أبرزوا وجوه الشبه القائمة بين تدرج الشخوص أو الأقانيم الأفلاطونية وبين نظرية « الجواهر المنفصلة » الأرسطية ، وهي الجواهر المحركة للأفلاك السماوية عند أرسطو . وما إن تحقق هذا التوحيد بين ما قال به أرسطو في صيغة جديدة ، حتى تسللت الى صلب هذه الصيغة شتى الأفكار الشعبية المتعلقة بالتنجيم وما يتصل بهذه الأفكار من اعتقاد جازم بتأثير النجوم والكواكب على مصائر البشر .

ونتيجة لهذا ، أمكن تعديل الكثير من الأفكار الخاصة بعلم التنجيم واعتبارها أفكارا لا خير من تداولها في نظر علماء الدين الاسلامي (وفي نظر علماء اللاهوت المسيحى في وقت لاحق) . كذلك لم تعد هنالك ضرورة لاعتبار الاجرام السماوية قوى طبيعية غاشمة ، تعمل مستقلة عن الانسان ، بل انها على هذا النحو قد أضحت أدوات تستخدمها الأقانيم في نشاطها الاتفاقي . وما « التأثيرات » النجمية على البشر في بساطة متناهية سوى جانب واحد من جوانب مهمتها الدائبة لبث الصور في المادة .

وفي بدايات القرن الحادي عشر الميلادي ، استطاع ابن سينا (المتوفي عام ١٠٣٧م) ان يمزج الأفكار الأرسطية بالأفكار الأفلاطونية ، وان يمزج الفلك بالتنجيم والاقانيم بالحركات ، وانتهى به الأمر الى النسق التالي : الله هو العلة الأولى المباشرة للاقنوم الأول ، والأقنوم الأول هو العلة المباشرة لروح المحرك الأول وجسده . ولروح الاقنوم الثانى وجسده ، والاقنوم الثاني هو العلة المباشرة لروح السماء النجمية وجسدها ولروح الاقنوم الثالث وجسده . وتستمر هذه العملية عبر الأفلاك النجمية واقانيمها الى ان نصل الى

(٨) انظر الجزء الأول من كتاب « تاريخ الفلسفة الغربية » تأليف برتراند رسل ، ترجمة د . زكي نجيب محمود ، مراجعة د . أحمد أمين ، ص ٤٢٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط . ٣ ، القاهرة ١٩٧٨ .

سماء القمر . والاقنوم التاسع هو الذي يكوّن روح الفلك القمري وجسده ، كما يكون « العقل الفعّال » المسئول بدوره عن بث الصور أو طبعها في الوجود الواقع فيما دون القمر . ويجدر بنا ان نذكر بأن « العقل الفعّال » يتفق في وصفه ، الى أكبر حد ، مع وصف دانتي لمفهوم الحظ « Fortuna » وهو تلك الكلمة التي قالها دانتي على لسان فيرجيليوس في الجحيم (٧) (الكوميديا الالهية) خاصة في الأبيات ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٨٦ ـ ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ .

وبالمثل يستعرض بويد في براعة نادرة فلسفة أرسطو المتعلقة بمفهوم الخلق والأفعال البشرية ، كما يفند نظرية ابن رشد في هذا الصدد ، وذلك على الصفحات ٢٧٦ ـ ٢٧٩ .

لقد ذهب أرسطو واتباعه الى ان ماليس بمادة أي ذلك العقل الخالد ذا الهيئة الالهية ـ أمر لا يمكن انتقاله بوسيلة مادية كالبذرة « Sperm » كما لا يمكن انتقاله عن طريق الروح الطبيعية الاثيرية التي غالبا ما تكون كامنة في البذرة وخلاصة القول ، كما يقول أرسطو إن : « العقل وحده يدخل من الخارج » .

أما الخطأ المستثنى « حاليا ، فكان من بنات أفكار فيلسوف القرن الثاني عشر الميلادي الذي نشأ في اسبانيا الاسلامية ، الا وهو ابن رشد . وابن رشد هو الفيلسوف الذى حظيت شروحه لجميع مؤلفات أرسطو تقريبا بمنزلة لا تطاولها منزلة أخرى ، حتى أضحى من قبيل العرف أن يشار إليه ببساطة في الغرب اللاتيني باسم « الشارح » . ومع ان المؤرخ ستانيوس ، قد أعاد اكتشاف المنزلة الفكرية لابن رشد وقدره حق قدره . إلا انه يرفض تفسيره لمقولة أرسطو الملغزة ، وهي المقولة المتعلقة « بالعقل الممكن » .

والواقع ان ابن رشد ـ وقد ضللته إشارة أرسطو الى أن العقل جهاز بلا جسد ومنفصل عن الجسد ـ قد تعامل مع العقل كما لو أنه « منفصل » تماما ، كما هو الحال بالنسبة لشخوص (اقانيم) الافلاطونية المحدثة أو « الجواهر المنفصلة » ولذا أكد أن هنالك فقط عقلا ممكنا واحدا يشترك فيه سائر البشر وان المعرفة لا تملك وانما تستأجر وان بوسع أي فرد ان يكون شريكا في ينبوع العقل ، لكن العقل ليس ، على أى نحو من الأنحاء ، جزءا جوهريا من نفسه أو ملكة من ملكاتها . ولذا ، فهو منفصل انفصالا تاما عن فرديته . وان كل كائن حي لا يعرف الا بفضل العقل الممكن وحده ، لكنه يوجد بفضل نوع محدد من الروح الحساسة .

ولابد لكل كائن حي أو جدته الروح الحساسة ان يتولد في كلّيتها . وكل ما يتولد مصيره الى الفناء والزوال . (ولذا ، يذهب ابن رشد الى بقاء الكليات وفناء الجزئيات) كما يذهب الى انه حين يكون العقل الكلي خالدا ابديا ، يكون الموت هو النهاية المحتومة لكل نفس فردية . والخلاصة ان ليس هنالك من خلود فردي أو شخصي .

نتتهي من قراءتنا لهذا الكتاب الى القول بأن الموضوعات التي اشتمل عليها ليست بأكثر أهمية من القضية التي انطلق منها المؤلف وسعى الى استجلائها . وعلى الرغم من تلك التفصيلات وعقد المقارنات والاستطرادات وإبرازه لجوانب بعينها ـ وهي أمور ربما تكون قد عنّت للمؤلف للمرة الأولى وهو ماض في كتابته ـ فمما لاشك فيه أن هنالك من سبقه الى وضع البذور في حقل الدراسات الدانتية ؛ ذلك ان كتابا من هذا النوع مبنى في أساسه على معلومات قد سبقه الى البحث فيها أعداد لا حصر لها من الدارسين والنقاد والشارحين بدءا من القرن الرابع عشر الميلادي وانتهاء بيومنا هذا . ولربما كان ظهور مثل هذا الكتاب أمرا له ما يبرره لو أن كاتبه قد توخى الوضوح والدقة في الأجزاء الخاصة بالتعليق على النصوص وشرحها ، ولو أنه أبرز لنا تحليلاته الأدبية على نحو أكثر إثارة وإقناعا .

دور الإسلام في السياسة الخارجية *

تأليف : عضيد داويشا
عرض وتحليل : اسماعيل صبري مقلد **

يكاد يجمع أساتذة العلاقات الدولية على أن التصدي لقياس حجم المؤثر الأيديولوجي وغيره من المؤثرات النفسية والعاطفية في قرارات السياسة الخارجية للدول ، والتوصل من ذلك إلى نتائج واقعية موثوق فيها ، يعد من أعقد الأمور اطلاقا . وأسباب ذلك التعقيد كثيرة وإن كان أغلبها ينبع من طبيعة عملية صنع السياسة الخارجية نفسها ، فهذه السياسة الأخيرة هي نتاج التفاعلات الحية والمتشابكة التي تحدث بين أوضاع الداخل والخارج في نطاق الأهداف والمصالح التي تسعى الدولة اليها من وراء علاقتها بالدول الأخرى ، فبقدر ما تتهيأ للدولة صاحبة هذه السياسة الخارجية من عناصر القوة وأسبابها ، ومن دقة الحساب والتقييم لكافة المعطيات والحقائق والأوضاع التي تتعامل معها ، وكذلك من حسن التنفيذ والاختيار لاستراتيجيات التنفيذ الملائمة ، تبرز في النهاية مقدرتها على إنجاز أهدافها المرسومة بالفاعلية المنشودة . . الخ . يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ، أن هذه السياسة الخارجية قد تتشكل أحيانا كمجرد رد فعل لمؤثرات أقليمية أو دولية معينة لا تستطيع الدولة التحكم فيها تماما ، ومن هنا ، فإن تأثير بعض العوامل اللامادية ، كالدين أو غيره على مسلك الدولة الخارجي ، قد ينخفض إلى الحد الذي قد ينفي الزعم بوجود مثل هذا التأثير من أساسه .

والكتاب الذي نحن بصدد تقديمه وتقييمه ، هو محاولة جادة بذلها عدد من الباحثين الأكاديميين المتخصصين للتغلب على هذا التحدي الذي تثيره صعوبة الرصد الواقعي الدقيق لتأثير العامل الديني على صنع السياسة الخارجية في عدد من البلدان الاسلامية

---

* Islam in Foreign Policy; edited by Adeed Dawisha; (Cambridge University Press, London 1986, 191pp)

** الأستاذ بقسم العلوم السياسية ـ جامعة الكويت .

الرئيسية وغيرها من الدول التي تعتنق الديانة الاسلامية نسبة لا بأس بها من مواطنيها .

كما أن محرر هذا الكتاب عن « الاسلام في السياسة الخارجية » هو الباحث العربي الأصل المتخصص في دراسات الشرق الأوسط عضيد داويشا الذي أنجز في السنوات الأخيرة من البحوث والمؤلفات القيمة ما يشهد له بطول باعه في هذا المضمار ، وقد صدر الكتاب بالتعاون بين المعهد الملكي البريطاني للشئون الدولية وجامعة كامبردج البريطانية الشهيرة في طبعته الأخيرة في عام ١٩٨٦م .

ركز داويشا في مقدمة هذه الدراسة على توضيح الفكرة المحورية التي تدور حولها مناقشات هذه النخبة الكبيرة من الباحثين ، كما انطلق من هذا التوضيح إلى طرح بعض المشكلات المنهاجية التي وقفت حجر عثرة في طريق إنجاز هذا البحث على النحو المأمول .

وفي البداية أشار داويشا إلى عدد من المتغيرات التي استجدت في الساحة الدولية منذ نهاية السبعينات ، والتي أبرزت أهمية المؤثر الاسلامي في العلاقات الدولية بشكل غير مسبوق ويجيء في مقدمة تلك المتغيرات : أحداث الثورة الاسلامية في ايران ، والتدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان ، واغتيال الرئيس المصري أنور السادات على يد مجموعة من الاسلاميين الأصوليين ، ثم اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية التي سلطت الأضواء الدولية مرة أخرى على دور الاسلام في تفجير هذا النزاع الاقليمي والابقاء عليه في ذروة السخونة والخطر طوال السنوات الماضية . . الخ . إن هذه الحقبة التاريخية التي يشير إليها الباحث هي بعينها الحقبة التي شهدت بروز ما أصبح معروفا بالصحوة الاسلامية التي تدعمت بلا شك بفعل التأثير المتعاظم للثورة الاسلامية في ايران على ما كان يجري في العديد من الدول والمجتمعات الاسلامية ، وهو تأثير بدأ يشحب ويخبو ويتلاشى فيما بعد لأسباب لا يتسع المقام لتفصيلها هنا .

ومن سياق التحليل المبدئي الذي أجراه الباحث عن علاقة المؤثر الاسلامي بالسياسة الخارجية ، خلص الى بضع ملاحظات هامة صاغها على النحو التالي :

أ ـ أن رصد تأثير الاسلام على السياسات الخارجية لمجموعة الدول التي ركز عليها البحث أو غيرها من الدول ، يتطلب توخي أقصى درجات الدقة والحرص من جانب الباحثين ، إذ أن الميل الى الاطلاق أو المبالغة قد يكون خادعا ومضللا الى أبعد الحدود .

ب ـ أن من الصعوبة بمكان الزعم بوجود عالم إسلامي موحد ومترابط السلوك والاتجاه ، ومن ثم فإن البحث في المدى الذي يؤثر به العامل الاسلامي في السياسة الخارجية يجب أن يقتصر على دراسة السياسة الخارجية لكل دولة إسلامية على حدة وذلك بدلا من تناول هذا التأثير من زاوية الدور الجماعي لدول العالم الاسلامي ككل ، الخ .

ويزيد داويشا المعنى السابق ايضاحا عندما يقول انه يصعب الزعم بوجود تفسير سياسي إسلامي واحد أو حتى متقارب لما ينشأ في محيط السياسة الدولية الراهنة من ظواهر أو وقائع ، فهذه التفسيرات تتباين بل وقد تتضارب كلية تبعا لما تؤثر به الخلفية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية لكل واحدة من هذه الدول والمجتمعات الاسلامية ، ومادام الأمر كذلك ، فانه يغدو من غير الواقعي تبني الافتراض بوجود مثل هذا التأثير « الواحد » للاسلام على السياسات الخارجية

للدول الاسلامية . ثم يستدرك فيذكر أنه وبالرغم من كل تلك التباينات والتعارضات ، فإنه يظل للعقيدة الاسلامية كقوة أيديولوجية تأثير رمزي على المسلمين في كل بقاع العالم . ولعل ما يقصده الباحث من وراء هذا التنويه الأخير هو أن للاسلام قوة روحية ومعنوية ضخمة على معتنقيه ولكن دون أن يعني ذلك بالضرورة أن لهذا الزخم الروحي والمعنوي انعكاسا ملموسا على عملية وضع السياسة الخارجية في الدول التي يمسها هذا التحليل .

ولا شك أن العديد من الطروحات والتوضيحات والتحفظات المبدئية التي أشار اليها داويشا في صدر هذه الدراسة يعد صحيحا ولا غبار عليه بحال ، ومن أمثله ذلك أن التوظيف السياسي والعقائدي للاسلام في دولة مثل ايران في ظل ثورتها الاسلامية الراهنة قد يقف على طرف نقيض منه في دولة أخرى مثل العراق أو السعودية أو حتى باكستان . ومن شأن هذا الاختلاف في النظرة والتصور أن يثير بالنسبة إلينا سؤالا مبدئيا غاية في الأهمية ألا وهو : أي تأثير هذا الذي يراد منا رصده وقياسه وتقييمه ، وبأي مفهوم ، وضمن أية سياقات سياسية واجتماعية وثقافية وبيئية ؟ ونتصور أن العثور على الرد المناسب على هذا التساؤل قد ينتهي بنا الى نتائج تختلف تماما في مضمونها عن تلك التي تراود أذهان الكثيرين ممن يميلون في أحكامهم الى اعتماد أسلوب المبالغة والتعميم . وعلى أي حال ، فقد يكون المفيد التريث في إصدار حكم أخير في القضية المطروحة للبحث ، الى أن نفرغ من مطالعة آراء بعض الباحثين الرئيسيين الذين ساهموا في كتابة هذه الدراسة العلمية .

فالدكتور روح الله رمضاني ، أستاذ علم الحكومات والسياسة الخارجية بجامعة فرجينيا الأمريكية ، يبدأ محاولته بالبحث في ما وصفه بتأثير إسلام الخميني على السياسة الخارجية لجمهورية ايران الاسلامية ، وضمن هذا الاطار المحدد ، يعرض لنا تلك القائمة الطويلة من الصراعات والمصادمات التي وقعت بين قادة بعض أجنحة هذه الثورة الاسلامية خاصة في مراحلها الأولى مما انتهى إما بتصفيتهم نهائيا أو نفيهم بعد أن جرت إزاحتهم من مواقع السلطة ليبدأ الخميني بعدها فرض هيمنته المطلقة على توجهات هذه الثورة والتحكم في مساراتها الداخلية والخارجية . ومن دلائل هذه السطوة الخمينية وصفها الولايات المتحدة بأنها الشيطان الأكبر وأن ايران لم تكن بحاجة إليها بقدر ما كانت حاجة الولايات المتحدة الى ايران ونفطها . وهذا التطرف في معاداة الولايات المتحدة عجل بسقوط الجناح المعقول في الثورة الاسلامية الايرانية الذي تزعمه في البداية مهدي بازرجان ثم أبو الحسن بني صدر ، وصعود نجم مجموعة المتطرفين (بهشتي/ رفسنجاني/ رجائي) وتبوئهم مقعد السلطة في طهران .

ولذا لم يكن مستغربا بحال عندما وقعت أزمة الرهائن الأمريكيين أن يطلع الخميني بالتصريح الذي أشار فيه الى أن الصراع الذي تدور رحاه لم يكن في حقيقته محصورا بين الولايات المتحدة وايران وإنما بين الاسلام وأعدائه ، كما رفض الدور الوسيط للأمم المتحدة في أضواء هذه الأزمة بدعوى أن هذه المنظمة العالمية لم تكن أكثر من أداة طيعة في يد السياسة الأمريكية .

ويحاول رمضاني أن يرسم لنا معالم المنظور السياسي الذي يطل منه آية الله الخميني على العالم فيشير في هذا الصدد الى أنه أولا يرفض النظام الدولي المعاصر الذي نواته الدول التي يعتبرها نتاج أفكار وعقائد وضعية ضعيفة وضيقة ، وهو ما لابد وأن يختلف على طول الخط

عن عالم تظلله رايات الاسلام وتباركه العناية الالهية ولا يصبح فيه مكان للحكومات التي تتحرك بتأثير الشيطان . ويترتب على هذا الرفض من جانب الخميني لمجتمع الدول المعاصرة، اطلاقه الدعوة نحو إقامة ما يمكن اعتباره عالمية إسلامية . وتكتمل هذه النظرة الخمينية الى العالم باعتقادها بضرورة وجود زعامة عالمية روحية تكرس جهدها من أجل تحقيق هذه الغاية النبيلة ، أي تحويل العالم في نهاية المطاف الى نظام إسلامي عالمي ، ولا يوجد في رأي أتباعه بطبيعة الحال من هو أجدر منه ، أي من الخميني للقيام بهذه الرسالة المقدسة ، ويأتي هدف تصدير الثورة الاسلامية الى البلدان والأقطار الأخرى ليشكل بعدا أساسيا ثانيا من أبعاد هذا المنظور الخميني . وفي هذا المضمار يعتقد أتباع الخميني أن هدف تصدير الثورة الاسلامية يمكن أن يتحقق باحدى وسيلتين أو بكلتيهما معا : القدوة والدعاية ، ولا يلمحون من قريب أو بعيد الى إمكانية استخدام أداة التخريب والعدوان المسلح كركيزة ثالثة لتنفيذ هذا المخطط الخارجي .

واتساقا مع هذه النظرة الخمينية الى العالم ، تأتي تصريحات كبار المسئولين الايرانيين لتبرز هذه التوجهات وتعكسها بجلاء تام . ومثال ذلك ما أعلنه وزير الخارجية علي أكبر ولايتي من أن الأولوية في علاقات ايران بالعالم الخارجي تذهب الى الدول الاسلامية فدول العالم الثالث ، فغيرها من الدول . وضمن الاطار نفسه يصرح الرئيس الايراني علي خامنئي : « لقد قسمنا دول العالم الى مجموعات جدة : مجموعة الدول الشقيقة ، ومجموعة الدول الصديقة ، ومجموعة الدول المحايدة ، ومجموعة الدول المعادية » .

ويحدد رمضاني مجموعة المبادىء التي أصبحت تتحكم في سياسة ايران الخارجية الحالية في الآتي :

(١) رفض التبعية سواء أكان مصدرها الشرق أم الغرب .

(٢) التأكيد المستمر على عداء الولايات المتحدة المتأصل للثورة الاسلامية في ايران ومن ثم اعتبارها الخصم الرئيس الذي لا تجوز مصالحته أو حتى مهادنته .

(٣) مواصلة الصراع ضد القوتين العظميين وكذلك ضد الصهيونية .

(٤) توثيق روابط ايران بالشعوب المقهورة وبخاصة الشعوب الاسلامية .

(٥) العمل باتجاه تحرير القدس ، ومناصبة الدول التي تناصر اسرائيل العداء ، الخ .

وتمثل هذه المبادىء كما يذكر الكاتب خروجا سافرا على مبادىء السياسة الخارجية الايرانية إبان عهد الشاه ، إذ انبنت هذه السياسة على :

(أ) التحالف مع الولايات المتحدة والغرب .

(ب) اعتبار الاتحاد السوفيتي الخطر الرئيسي الذي يهدد ايران .

ولو كان رمضاني قد توقف عند هذا الاستنتاج الأخير لأمكننا انتقاده بشدة على ما تحمله تلك العبارات من إطلاق وتعميم شديدين . بيد أنه رجع وتدارك الأمر عندما أشار إلى أن هناك صعوبة كبيرة تواجه الباحثين حول المدى الحقيقي الذي يؤثر به الاسلام في السياسة الخارجية التي تنتهجها جمهورية إيران الاسلامية . ومردُّ تلك الصعوبة في رأيه هو أن تحليل واقع تلك السياسة الخارجية يكشف عن الهوة العميقة التي تفصل بينه وبين ما تعكسه تصريحات قادة هذا النظام . ومن الأمثلة

العملية البارزة لذلك التناقض بين القول والفعل أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران وهي الأزمة التي أمكن تسويتها من منطلق سياسي واقتصادي كان أبعد ما يكون عن روح التزمت الديني الذي أوحت به أقوال القادة الايرانيين والأزمة في أوج حدتها . كذلك فإن الاتصالات التي تجري مع الولايات المتحدة في الخفاء وما تسفر عنه من اتفاقات يحرص الطرفان على كتمانها ، لا تتفق مطلقا مع وصف ايران الاسلامية المستمر لها بالشيطان الأكبر ، الخ . .

وفي الفصل الذي جاء تحت عنوان : (القيم الاسلامية والمصلحة الوطنية : السياسة الخارجية للمملكة العربية السعودية) يحاول جيمس بيسكاتوري الباحث بالمعهد الملكي للشئون الدولية بلندن تلمس إجابة ملائمة على التساؤل المركزي الذي تطرحه تلك الدراسة ألا وهو مدى ارتباط الاسلام بالسياسة الخارجية لتلك العينة من الدول التي وقع عليها الاختيار كنواة لهذا التحليل .

وينطلق الكاتب من فرضية مؤداها أن الاسلام يشكل سمة دائمة ومميزة للسياسة الخارجية للسعودية ، وأن ذلك يبدو واضحا منذ قيام المملكة ، أي ابتداء بحكم الملك عبدالعزيز آل سعود وانتهاء بالحقبة الراهنة . ويذكر بيسكاتوري العديد من الوقائع التي يحاول بها أن يبرهن على صحة تلك الفرضية .

بيد أنه وبرغم قوة هذا التوجه الاسلامي الذي يرتكز على أسس تاريخية عميقة وممتدة عبر الماضي ، فإن ذلك لم يحل دون تحلي السياسة الخارجية للمملكة بدرجة عالية من الواقعية السياسية في علاقاتها الدولية على الصعيدين الاقليمي والعالمي . ولعل من أبرز الأمثلة العملية التي تعكس تلك الواقعية بوضوح تام ، أنه عندما وقعت مصر على اتفاقات كامب دافيد التي مهدت لصلحها المنفرد مع اسرائيل وأثارت خطوتها موجة عنيفة من التذمر والاستياء على امتداد المنطقة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، فإن السعودية لم تتردد - برغم العلاقة السياسية الوثيقة التي كانت تشدها الى مصر آنذاك - في انتقاد تلك الاتفاقات ومعارضتها ، مما اقترب بموقفها من مواقف بعض الدول العربية الراديكالية وفي طليعتها سوريا وليبيا والعراق . . الخ .

كذلك فإن معارضة السعودية للكثير من السياسات والممارسات التي نفذتها جمهورية ايران الاسلامية استندت في الجوهر والصميم الى اعتبارات سياسية لا صلة لها بالمزاعم الدينية للنظام الحاكم في ايران ، أو بشعارات الصحوة الاسلامية التي رفع لواءها وحاول توظيفها سياسيا على طريقته .

من هذا وغيره يتضح أن دور المؤثر الاسلامي في قرارات السياسة الخارجية للسعودية لم يكن ساحقا في كل الأحوال ، وإنما هو دور داعم ومساند لها حيثما وأينما كان ذلك ممكنا ، وتبقى هذه السياسة بعد ذلك كله ، محكومة بعنصر المصلحة والضرورة شأنها في ذلك شأن غيرها من السياسات الخارجية لأي دولة من الدول .

في فصل آخر بعنوان عزلة ليبيا في مواجهة العالم وتحديات الاسلام يحاول سكارسيا أموريتي أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة روما التصدي لانجاز هذه المهمة الصعبة .

وبعد مقدمة موجزة يشير فيها الى التناقضات التي تحيط بفهم العالم الغربي لدور الاسلام في تقرير مسارات السياسة الخارجية الليبية ، يذكر أن هذا التأثير موجود

بصورة يصعب تجاهلها ، فتحت مظلة التضامن الاسلامي ما برحت ليبيا تدعو دون كلل للوحدة العربية الشاملة ، فضلا عن أن للاسلام موقعا متميزا في أيديولوجية القذافي المعروفة بالنظرية الثالثة ، فالقذافي يعتقد أن لليبيا تحت زعامته رسالة هامة يجب عليها تأديتها في هذا العالم العربي ، وهي رسالة تقوم في جوهرها على بعث الناصرية ولكن في رداء إسلامي أي مزاوجة القومية العربية بالتراث النابع من العقيدة الاسلامية . وبكلمة أخرى ، فإن ليبيا القذافي تسعى إلى تأكيد نفسها وتعزيز دورها كركيزة قوية في الدفاع عن الاسلام والقومية العربية في ذات الوقت .

كما يؤكد أموريتي أن الطموح السياسي للنظرية الدولية الثالثة يذهب في آفاقه الى مدى أبعد بكثير من حدود العالمين العربي والاسلامي ، إذ يتجاوزهما في محاولة منه للوصول الى المجتمع الانساني في أبعاده العالمية الشاملة ، وذلك باعتبار أن للاسلام جاذبية خاصة تسهل تحقيق مثل هذا الهدف السياسي البعيد .

ومرة أخرى فإن المنطق الذي يستخدمه الكاتب في مناقشاته وتحليلاته يواجهنا بالسؤال الهام التالي والذي نتصور أنه بقي عالقا في الجو دون حسم وهو : هل يأتي هذا الميل المكثف نحو توظيف الاسلام سياسيا على هذا المستوى الاقليمي والدولي الواسع من جانب ليبيا القذافي كتعبير عن قناعات أصيلة وراسخة وأيضا كتعبير عن ارتباط قوي بكل ما ترمز اليه هذه العقيدة الاسلامية من قيم ومعان ، أم أن هذا المؤثر يقوم هنا بدور الأداة وبالتالي يكون مجرد غطاء شكلي يستر هذه التحركات الخارجية ولا شيء أكثر من ذلك ؟ إن الاجابة الدقيقة عن هذا التساؤل تعني من منظورنا الشيء الكثير الذي يصعب إدراكه مع تعميم الأحكام أو تسطيحها .

وعن باكستان وتحت عنوان : « البحث عن هوية : الاسلام وسياسة باكستان الخارجية » تتحدث شيرين طاهر خلي أستاذة العلوم السياسية بجامعة تمبل الأمريكية عن دور الاسلام في السياسة الخارجية لدولة باكستان ، فتشير الى تطور هذا الدور ضد نشأة الدولة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتؤكد ما للاسلام من تأثير في جذور تكوين النخبة الحاكمة في تلك الدولة ، وتذكر أنه منذ عام ١٩٧٢ تأكد ارتباط باكستان بالعالم الاسلامي بصورة واضحة للغاية ، وهو ما كان يخدم مصلحتها الوطنية من عدة نواح : فالارتباط بالعالم الاسلامي كان ضمانا لاستمرار باكستان كدولة إسلامية مستقلة خاصة بعد هزيمتها أمام الهند في حرب ١٩٧١ وانسلاخ جزء من أراضيها في دولة بنجلاديش الجديدة ، كما أن هذا الارتباط كان يهيء فرصة كبيرة أمامها للافادة من الثراء الاقتصادي لبعض الدول الاسلامية النفطية .

ومن هذا تمضي الى مناقشة تأثير سقوط شاه ايران على سياسة باكستان الخارجية وتشير الى أن انتصار حكم ديني شيعي في ايران كان من الممكن أن يثير العديد من المتاعب أمام باكستان ، ومن هنا يمكن تفهم حرص باكستان على خطب ود حكومة الثورة الاسلامية من خلال التذكير المستمر بالروابط التاريخية الودية بين البلدين ، ومن هنا أيضا كان تضامنها مع ايران الثورة في الانسحاب من حلف السنتو في مارس ١٩٧٩م ولم يكن هجر عضوية هذا الحلف الغربي يعني الكثير بالنسبة لمصالح الباكستان ، إذ أن السنتو كان في عداد المحالفات الدولية الميتة بالفعل .

- غير أن هذه المرحلة الودية في العلاقات الباكستانية/ الايرانية ما لبثت أن تحللت وانتهت بتأثير الصيحة التي أطلقها حكام ايران ودعوا فيها الشعوب المجاورة ، بما

فيها الشعب الباكستاني ، لأن تزيح عن كاهلها النظم الدكتاتورية التي تحكمها ، وإحلال حكومات اسلامية محلها . وقد لقيت تلك الدعوات التحريضية بعض الصدى الذي عبر عن نفسه في المظاهرات الشعبية التي عمت أرجاء باكستان في أعقاب الاستيلاء على الحرم المكي في نهاية عام ١٩٧٩ ، وذلك عندما اتهمت ايران المخابرات المركزية الأمريكية بتدبيرها والوقوف وراءها ، وقد خلقت تلك القلاقل والاضطرابات موقفا سياسيا داخليا عصيبا لحكومة الرئيس ضياء الحق . وتذكر الباحثة أن تأثير الخميني على شيعة الباكستان يخلق احتمالا كبيرا بحدوث قلاقل مستقبلا .

وتختتم مناقشتها بالحديث عن دور باكستان بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان وما نتج عن هذا الاجراء من تخلخل أمني وضعها أمام خيارات جديدة لتداركه وتصحيحه .

وحول دور الاسلام في السياسة الخارجية المصرية يتحدث الدكتور علي الدين هلال أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة ، الذي بدأ بمقولة مفادها أن الاسلام كان على الدوام مقوما رئيسيا من مقومات السياسة الخارجية المصرية ، فقد استعمل كل من الرئيسين عبدالناصر والسادات الاسلام كأداة : إما للحصول على التأييد أو لوصم الخصوم السياسيين . ومع نمو التأثير الاسلامي في حقبة السبعينات ، توسع النظام الحاكم في مصر في توظيف الرموز الاسلامية للأغراض السياسية .

يقسم الباحث موقف عبدالناصر من الاسلام في نطاق ثلاث مراحل متميزة : مرحلة التركيز على الاسلام كأحد أركان السياسة الخارجية المصرية ، وذلك في الفترة بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ ، ومرحلة التحول باتجاه القومية العربية وعدم الانحياز بين ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ومرحلة مهادنة السعودية حول اليمن والمشاركة في أول مؤتمر قمة إسلامي بالرباط عام ١٩٦٩ ، وقد استغرقت هذه المرحلة الأخيرة الفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٠ . ويشير الى أن عبدالناصر لم يتورع عن استعمال الاسلام لدعم أهدافه السياسية ولهذا السبب نفسه فإنه لم يتردد في مساندة بعض الدول غير الاسلامية ضد دول إسلامية كما في حالة النزاع الهندي الباكستاني أو في نزاع اليونان وتركيا حول قبرص ، الخ .

أما السادات فإنه صعد هذه العملية ووصل بها الى آفاق غير مسبوقة ، ومن أمثلة ذلك : احياؤه حركة الاخوان المسلمين ، وتشجيع الجماعات الاسلامية لمقاومة الاتجاهات التي تمثلها القوى اليسارية ، وحرب اكتوبر ١٩٧٣ التي أسماها بحرب رمضان . كما جاء دستور ١٩٧١ متضمنا الاشارة الى أن مبادىء الشريعة الاسلامية هي مصدر رئيسي للتشريع ، وبحلول عام ١٩٨٠ أصبحت المصدر الأول ، الخ . ومن ناحية أخرى ، فقد جرى إطلاق وصف الرئيس المؤمن على السادات وتوسع في استعمال صلاة الجمعة للدعاية الشخصية ، كما استخدم الآيات القرآنية بكثرة في خطبه وأحاديثه لمضاعفة هذا التأثير الدعائي لشخصه .

ويقول هلال إن زيارة السادات للقدس في عام ١٩٧٧ جاءت ضمن الاطار نفسه .

وقد أصاب الباحث كبد الحقيقة عندما ذكر أنه رغم هذا الاستخدام السياسي المكثف للرموز الاسلامية ، فإنه لم يكن يبدو أن للاسلام تأثيرا فعالا على رسم سياسته الخارجية ، فقد انتقد بحدة الثورة الاسلامية في ايران ، ودعا الشاه المخلوع للاقامة في مصر ، ورفض

وصف هذه الثورة بالاسلامية ، كما ساند العراق في حربها ضد ايران ، فضلا عن أنه أقام علاقات وثيقة مع نظام ماركوس في الفلبين رغم معاداة هذا النظام للمسلمين الفلبينيين .

وفي عام ١٩٨١ هاجم السادات الاخوان المسلمين وغيرهم من المجموعات الاسلامية مما عجل باغتياله وانهيار نظامه .

وبالنسبة لنا تظل مقولة الدكتور علي الدين هلال التي انطلق منها صحيحة تماما ، وهي أن دور الاسلام في السياسة الخارجية المصرية خلال سنوات الثورة لم يكن أكثر من ورقة أو إن شئت فعل مجرد أداة تكنيكية جرى توظيفها وتحريكها في هذا الاتجاه أو ذاك طبقا لما أملته مصالح حكومات الثورة في الداخل والخارج .

نجيء بعد ذلك الى وليام زارتمان أستاذ الدراسات الأفريقية بجامعة جونز هوبكنز الذي حاول بدوره أن يعين لنا حدود هذا التأثير الاسلامي على السياسة الخارجية المغربية . ويبدأ بالقول ان من الصعوبة بمكان الزعم بوجود سياسة خارجية مغربية اسلامية وإن كانت هناك قوى سياسية في المغرب طالما دعت الى انتهاج سياسات تقوم على تحقيق مبدأ التضامن الاسلامي ، ومثال ذلك حزب الاستقلال تحت زعامة علال الفاسي .

ويشير الكاتب الى دور المغرب في منظمة المؤتمر ..ئاسة الملك الحسن الثاني لجنة تحرير .. الملك الحسن أدار هذه السياسة ..ارة شديدة يحسد عليها .

ويخص علاقة المغرب بحكومة الثورة الاسلامية في ايران ببضع ملاحظات منها عدم رضائه عن سياساتها وتوجهاتها منذ قيامها في عام ١٩٧٩ ، وهي لذلك لم تسع الى إقامة علاقات دبلوماسية معها ، كما لم تبذل جهدا يذكر لتحسين تلك العلاقات المتوترة . ويختلف ذلك كثيرا وبطبيعة الحال عن الوضع الذي كانت عليه العلاقات المغربية/ الايرانية إبان حكم الشاه .

ثم يتحدث عن علاقة المغرب الوثيقة بالسعودية ، وكذلك عن الحساسيات التي شابت العلاقات المغربية/ الليبية لفترة طويلة من الوقت .

وينتهي الى أن السبب وراء ضعف تأثير الاسلام على السياسة الخارجية للمغرب راجع الى عوامل عديدة منها أن المغرب يعد من أقل دول العالم الاسلامي تأثراً بحركة الصحوة الاسلامية ، كما أن الاسلام لا يمت بصلة وثيقة للمشكلات الكبرى التي تواجهها المغرب في علاقاتها الخارجية ، سواء ما تعلق منها بجوارها الاقليمي المباشر أو بالمحيط الدولي الواسع الذي تتعامل معه .

ثم ينتقل بنا عضيد داويشا الى مناقشة دور الاسلام في السياسة الخارجية للرئيس العراقي صدام حسين .

ويشير الباحث الى أنه في الفترة السابقة لحدوث الثورة الاسلامية في ايران كان دور الاسلام في السياسة الخارجية العراقية محدودا تماما ، فعلاقة ايران بدول المنطقة المجاورة لها تحكمت فيها المصالح الجيوستراتيجية وأيضا الاعتبارات الأيديولوجية النابعة من الأيديولوجية القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي أكثر مما أثرت فيها الحساسيات الاسلامية .

وقد استمر هذا الاتجاه على حاله تقريبا حتى بعد أن تسلم الرئيس صدام حسين مهام الرئاسة في يوليو ١٩٧٩ ، وذلك من حيث الميل للتأكيد على البعد العروبي في سياسات العراق الخارجية أكثر من البعد الاسلامي . ويتضح هذا التوجه جليا في الميثاق القومي العربي الذي طرحه الرئيس صدام في فبراير ١٩٨٠ ، إذ لم ترد فيه الاشارة الى الاسلام ، كما أنه لم يبذل محاولة أخرى من جانبه لاقتراح ميثاق مماثل لعلاقات الدول الاسلامية .

وفي خارج الدائرة العربية اتجهت القيادة العراقية نحو مجموعة دول عدم الانحياز التي وثق علاقاتها بها أكثر من حدث بالنسبة لمجموعة دول العالم الاسلامي . وبعد أن انفجر النزاع العراقي ـ الايراني ، اتجه الرئيس صدام بنظره الى منظمة المؤتمر الاسلامي للافادة من دورها وجهودها في إسناد موقف العراق في نزاعه ضد ايران .

كما يذكر لنا داويشا أن العراق انتهج سياسة خارجية علمانية لا تفرق في المعاملة بين قطر اسلامي وآخر غير اسلامي ، وكان في ذلك متفقا مع نفسه في تعامله مع الداخل حيث استطاع حزب البعث بوسائله وأجهزته وكذلك بسياساته الاجتماعية النشطة احتواء النزعات الاسلامية الراديكالية ، وإخماد الحركات الدينية المتطرفة كحزب الدعوى ، الخ . ومن هنا فان التوجه البعثي العراقي لا يعاني من مفارقات بين قول معلن وسياسة واقعة ، وإنما هو صريح في تعامله مع هذا الأمر الى أقصى حدود الصراحة .

على أن أهم مافي الجزء الأخير من هذه الدراسة هو ذلك الفصل الذي كتبته كارين داويشا وهيلين دانكوسيه عن تأثير الاسلام على السياسة الخارجية السوفيتية .

تقول الباحثتان أنه حتى وقوع حرب يونيو ١٩٦٧ في الشرق الأوسط كان اهتمام الاتحاد السوفيتي يتركز على تأييد السياسات التحررية المعادية للغرب في دول هذه المنطقة باعتبار أن ذلك سوف يتكفل باحباط محاولات الغرب نحو إقامة أحلاف وتكتلات عسكرية تابعة له هناك ، وفي الوقت نفسه فإنه لم يكن للاتحاد السوفيتي أي تعاطف مع الاسلام لأسباب عقائدية ليس من الصعب تفهمها وإدراك أسبابها .

غير أن السوفيت اتجهوا بعد حرب يونيو الى فتح قناة اتصالات جديدة وربما لأول مرة مع دول المنطقة العربية عن طريق ممثلين للشعوب الاسلامية التي تتركز في الأجزاء الآسيوية من الدول السوفيتية ، قاصدين من ذلك توظيف تلك الاتصالات لأغراض سياستهم الخارجية بطبيعة الحال .

ثم تبدأ مرحلة جديدة في تطور هذا التوجه السوفيتي إثر قيام الثورة الاسلامية في ايران ، وهي الثورة التي حاول الاتحاد السوفيتي التودد اليها والتقرب منها لنزعتها المعادية بشدة للسياسة الأمريكية ، مع العمل في الوقت نفسه على عزل تأثيرها على شعبه المسلم في الجمهوريات المحاذية لايران . غير أن السوفيت أوقعوا أنفسهم في حرج شديد بغزوهم العسكري لأفغانستان إذ أصبح عليهم أن يتعاملوا مع المشاعر الاسلامية المعادية لهم هناك والتي تفاقمت الى حد الانتفاضة المسلحة الشاملة ضد كل ما يرمز اليه هذا التواجد السوفيتي في بلادهم ولم يجد السوفيت مناصا من استخدام أقصى العنف لاخماد تلك الانتفاضة الاسلامية والقضاء عليها .

وهذا التوزع في السياسات السوفيتية بين تأييد الثورة الاسلامية في ايران ، ومناصبة القوى الاسلامية الثائرة

ضدهم في أفغانستان العداء يجعل السوفيت واقعين في اشكال معقد عليهم أن يجدوا مخرجا لأنفسهم منه .

وتخلص الباحثتان من عرضهما الى القول بأن المشكلة التي يواجهها السوفيت حاضرا وسوف يواجهونها مستقبلا هي كيف يمكن استخدام الاسلام كأداة فعالة في خدمة أهداف سياستهم الخارجية مع الابقاء في الوقت نفسه على تماسك مجتمعهم في وجه تعاظم المد الاسلامي ، الخ .

يبقى القول بأن هذه الدراسة تمثل إسهاما عمليا طيبا ومثمرا ، وهي تعد ، في رأينا من الدراسات الرائدة في موضوعها ، وإذا كان هناك الكثير من الطروحات الواردة في هذا العمل الجاد التي لا يسع الانسان إلا أن يخالف أصحابها الرأي ، إلا أن هناك كذلك وبالمقابل الكثير من الاستنتاجات والملاحظات الصائبة التي يستحق أصحابها التهنئة عليها . ان ما قام به هؤلاء الباحثون هو فيما نتصور خطوة أولى على طريق شاقة طويلة على غيرهم من الباحثين أن يقطعوها بالمزيد من الجهد والاجتهاد .

***

العَدَد التالي من المجلة

العـدد الثالث - المجلّد العشـرون

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

الالسنيـة

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) بين العلوم الطبيعية والإنسانية
(ب) الطاقة النووية
(ج) اللسانيات
(د) الإعـــــلام المعاصــــر

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لاتمثل فصل الخطاب أو جماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ماينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

: ولـة الإمارات	٧	دراهم	سوريا	٥	ليرات
لسعودية	٦	ريالات	القاهرة	٤٠	قرشا
قطر	٤	ريالات	السودان	٣٠٠	مليما
لبحرين	٥٠٠	فلس	ليبيا	٥٠	قرشا
اليمن الشمالية	٥٫٥	ريال	مسقط	٥٠٠	بيسة
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	الجزائر	٦	دنانير
العراق	٤٠٠	فلس	تونس	٦٠٠	مليم
لبنان	٥٠	ليرة	المغرب	٧	دراهم
الأردن	٣٠٠	فلسا			

الإشتراكات:

البلاد العربية ٥ دنانير

البلاد الاجنبية ٦ دنانير

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى:

وزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت